الموسوعة المفصلة

في الفرق والأديان والملل والمذاهب والحركات القديمة والمعاصرة

٣

لا إله إلا الله

محمد رجب

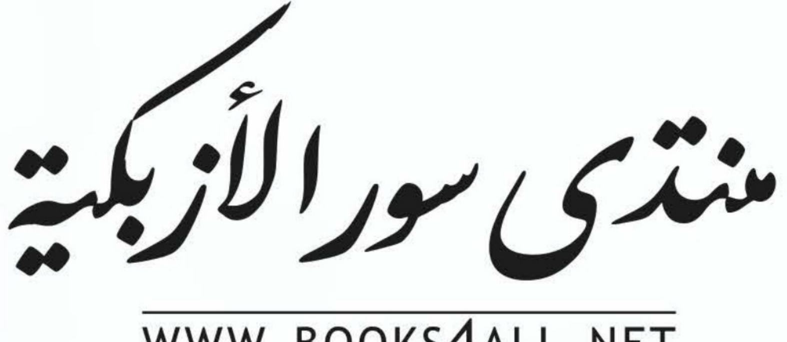
إعداد / مكتب التبيان

إشراف علمي

حسن عبد الحفيظ أبو الخير

دار ابن الجوزي

القاهرة



منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

الموسوعة المفصلة

في

الفرق والأديان والملل والمذاهب والحركات

القديمة والمعاصرة

إعداد

مكتب التبيان للدراسات العربية وتحقيق التراث

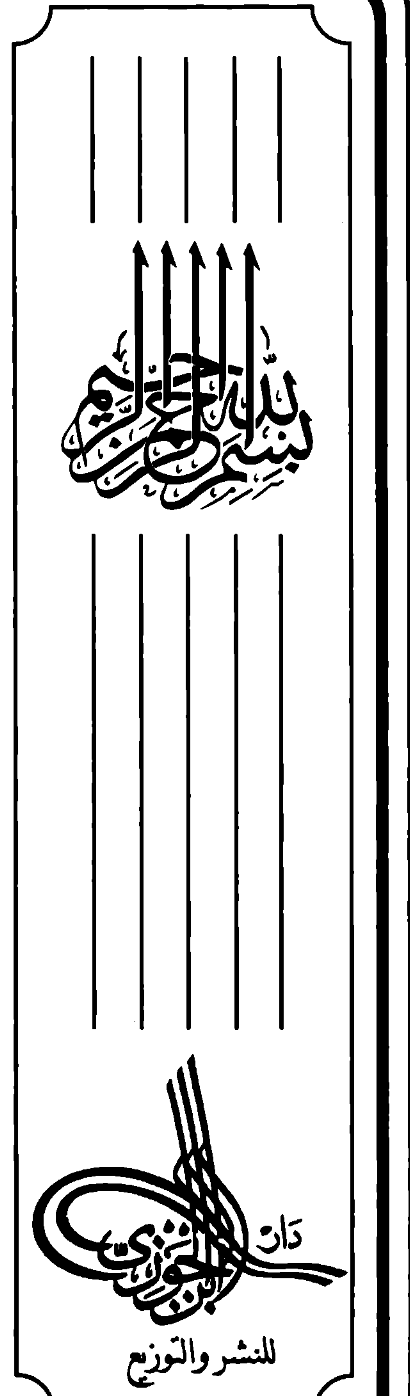
لصاحبه أبو عيسى محمد بن حسين المصري

إشراف علمي

حسن عبد الحفيظ عبد الرحمن أبو الخير

الجزء الثاني





الطبعة الأولى

٢٠١١

١٤٣٢ هـ / ٢٠١١م
رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٢٣٤٤٧

دار ابن الجوزي

جمهورية مصر العربية - القاهرة

٥ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر

ت: ٠٠٢٠٢٢٥٠٦١٩٠٣

تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٥٠٦١٦٢٠

E-mail: dar_ebnelgawzy@yahoo.com

الأديان والمناهب الفكرية
والأحزاب والحركات المعاصرة

القسم الأول: اليهود.
القسم الثاني: النصارى.
القسم الثالث: الملل.
القسم الرابع: المذاهب الفكرية المعاصرة.
القسم الخامس: الأحزاب والحركات المعاصرة.

القسم الأول

اليهود

الباب الأول: تاريخ وعقائد اليهود.

الباب الثاني: فرق اليهود.

الباب الثالث: كتاب اليهود المقدس.

الباب الرابع: التَّلمود.

الباب الخامس: الصهيونيَّة.

الباب السادس: الماسونيَّة.

الباب السابع: المخلِّص المنتظَر.

الباب الأول

تاريخ وعقائد اليهود

الفصل الأول: تاريخ اليهود.
الفصل الثاني: عقائد اليهود.
الفصل الثالث: أعياد اليهود.
الفصل الرابع: الجذور الفكريَّة والعقائدية لليهود.
الفصل الخامس: الصوفيَّة اليهوديَّة (القبَّالاه).

الفصل الأول
تاريخ اليهود

يذهب كثيرٌ من الناس إلى أن تاريخ اليهود متصل اتصالًا وثيقًا بتاريخ بني إسرائيل، ومن قبله إبراهيم، وهؤلاء هم اليهود والنصارى وباحثوهم، وطائفة من الباحثين المسلمين.

ويذهب آخرون إلى قطع الصلة بين تاريخ اليهود وتاريخ بني إسرائيل، ومن ثَمَّ تاريخ إبراهيم وبنيه، وهؤلاء طائفة من الباحثين النصارى والمسلمين.

وهذا الاضطراب له أسباب كثيرة:

منها: المصطلحات المستعملة (مثل: اليهود، العبرانيون، الإسرائيليون، ...)، والاختلاف في تفسير هذه المصطلحات.

ومنها: التداخل المتعمد -من قِبَل اليهود وغيرهم- لدينهم مع تاريخهم، فيجعلون كتابهم المقدس سجلًا لتاريخهم.

والذي يظهر لي أن اليهود هم امتداد لبني إسرائيل -الذي هو يعقوب-، وظهر لهم هذا الاسم -يهود- في فترة لاحقة لفترة بني إسرائيل، وفي تحديد هذه الفترة احتمالان:

الاحتمال الأول: أن يكون ظهور هذا الاسم لهم في عهد موسى عليه السلام، وهو من يهود الشعب، أو المختارين منهم، أي رجوعهم وتوبتهم.

الاحتمال الثاني: أن يكون ظهور هذا الاسم بعد عهد سليمان، في مملكة يهوذا الجنوبية وذلك لكثرة سبط يهوذا -أحد أولاد يعقوب- فيها فلقبت باسمه، وفي هذه الفترة كان يطلق الاسم على بعض بني إسرائيل، ثم بعد دمار المملكة الشماليَّة لم يبق إلا مُلك يهوذا فغلب على بني إسرائيل اسم يهود، إلى عهد الرومان الذين فرقوهم في الأقطار باسم اليهود ومن التحق بهم من فلول بقية الأسباط، ثم صار اسم اليهود مطلقًا على المتدينين بدين التوراة. وهذا الاحتمال الثاني أرجح.

وعلى كلٍّ فلا يوجد ثمة صلة دينية بين إبراهيم وبنيه إلى الأسباط، وبين اليهود.

وفي هذا كله أبحاث، والله أعلم.

وعلى ما تقدم نقول: يبدأ تاريخ بني إسرائيل بيعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وقد سُمي يعقوب فيما بعد: إسرائيل، وهو قد نشأ وعاش في أرض الكنعانيين (أرض فلسطين)، وولد له اثنا عشر من الولد، وكل واحد منهم ولَد أمة تسمى سِبطًا ينسب إليه، فأسباط إسرائيل هم ذرية يعقوب من أبنائه الاثني عشر.

ولما حدثت قصة يوسف بن يعقوب المشهورة مع إخوته وأبيهم يعقوب والتي تم على أثرها أن دخل يعقوب وأبناؤه مصر هربًا من المجاعة، فعاشوا فيها معززين مكرمين في ظل يوسف عليه

السلام، وكان ذلك إبان سيطرة الهكسوس عليها، ولما أخرج الهكسوس من مصر، أذل المصريون بني إسرائيل -أحفاد يوسف وإخوته- وساموهم أصناف العذاب، واضطهدهم فرعون مصر الموجود آنذاك واستعبدهم.

ثم بعث الله إليهم موسى عليه السلام وهو من بني إسرائيل، ولد في مصر أيام فرعونها رمسيس الثاني على الأرجح ١٣٠١- ١٢٣٤ ق.م. وقد تربى في قصر هذا الفرعون بعد أن ألقته أمه في النهر داخل تابوت عندما خافت عليه من فرعون، الذي كان يقتل أبناء بني إسرائيل، فألقى النهر التابوتَ إلى قصر فرعون فأخذته امرأة فرعون ولم تدع فرعون يقتله، وتربى بذلك في قصر فرعون.

ولما شبَّ موسى رأى مصريًا يضرب عبرانيًا من شيعة موسى، فوكز موسى المصريَّ فمات دون أن يقصد قتله، فخرج من مصر إلى مدين حيث عمل راعيًا لدى شيخ صالح هناك، قيل: إنه شعيب عليه السلام الذي زوجه إحدى ابنتيه.

وفي طريق عودته إلى مصر أوحى الله إليه في سيناء بالرسالة، وأمره أن يذهب هو وأخوه هارون إلى فرعون وقومه لدعوته إلى الإيمان بالله وحده ولخلاص بني إسرائيل، فلما دعوا فرعون إلى ذلك لم يستجب لهما، وأجرى الله على يد موسى من المعجزات والآيات الكثيرة ولكن فرعون أعرض عنهما، وناصبهما العداء.

فخرج موسى ببني إسرائيل من مصر وقد كان ذلك سنة ١٢١١ق.م في عهد فرعونها «منفتاح» الذي خلف أباه رمسيس الثاني (على أحد الأقوال)، ولحق بهم هذا الفرعون، لكن الله أغرقه في اليم، ونجّى موسى وقومه إلى أرض سيناء.

وفي صحراء سيناء صعد موسى الجبلَ ليكلم ربه وليأخذ الألواح، لكنه لما عاد وجد غالب قومه قد عكفوا على عجل من ذهب صنعه لهم السامري فزجرهم موسى، ولما أمرهم بدخول فلسطين امتنعوا عليه وقالوا له: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾.

فلما حاورهم رجال من بني جلدتهم في ذلك قالوا لموسى: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾.

هنا دعا موسى على قومه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾. فكان سببًا في غضب الله عليهم وتركهم يتيهون في الصحراء أربعين سنة، مات خلالها موسى ودفن في كثيب أحمر دون أن يدخل فلسطين.

ومات قبله أخوه هارون ودفن في جبل هور، ويذكر المؤرخون أن الذين كانوا مع موسى ماتوا كلهم في التيه، باستثناء اثنين كان يوشع (يشوع) بن نون أحدهما.

ثم تولى يوشع بن نون القيادة بعد موسى، ولما انقضت مدة التيه دخل ببني إسرائيل عن طريق شرقي نهر الأردن إلى أريحا، ومنها إلى عدة مدن داخلية، وتنسبُ نصوصُ العهد القديم إلى يوشع

مذابح الدموية في المدن التي دخلها، وقد مات يوشع سنة ١١٣٠ق.م.

وتم تقسيم الأرض المفتوحة بين الاثني عشر سبطاً، الأمر الذي أضعف قوتهم، وبذلك انحصرت دولتهم في عدد من القرى الصغيرة على رأس كل منها قاضٍ أصله كاهن، وكثرت النزعات والحروب الداخلية والخارجية بينهم وبين غيرهم من السكان الأصليين، وتكرر حوادث الارتداد والكفر؛ فيُذكر أنهم في هذه الفترة ارتدوا عن عبادة الله تعالى سبع مرات على الأقل إذ عبدوا عددًا من الأوثان مثل: بعليم (البعل)، وعيشتارون، وملكوم، . . .، وقد استمرت هذه الفترة حوالي ١٤٠ عامًا حسب تقدير المؤرخين.

وآخر هؤلاء القضاة هو صموئيل الذي توَّج شاءول ملكاً عليهم -وهو الذي يسميه القرآن طالوت- بطلب من بني إسرائيل ليقاتلوا به عدوهم، في حدود سنة ١٠٢٥ق.م، فانتقل بهم من حالة البداوة إلى حالة التمدن والاستقرار. ومع ذلك لم تتجاوز مملكته حدود قبيلته، وفي فترة حكمه ظلت الحروب بين بني إسرائيل وغيرهم من المجاورين.

وفي إحدى المعارك مع الفلسطنيين السكان الأصليين كان داود في جيش شاءول، واستطاع داود صرع العملاق جلياط (جَالُوت) بالمقلاع، الأمر الذي عزز مكانته بين بني إسرائيل لِيَتَوَّجه صموئيل ملكًا عليهم (١٠٠٤- ٩٦٥ق.م) ليصبح الملك الثاني لهم، مع كونه نبيًّا، أعطاه الله الزبور، وألان له الحديد، واتخذ من القدس (أورشليم) عاصمة لمملكته وبنى فيها معبدًا وأودع فيه تابوت العهد، وقد دام حكمه أربعين سنة، وتنسب إليه نصوص العهد القديم ما لا يليق بالأنبياء.

ثم خلف سليمانُ بن داود عليهما السلام أباه، وبنى المعبد (الهيكل) الذي كان أمر وشرع أبوه في بنائه، وكان نبيًّا وحباه الله بالحكمة وفصل الخطاب، وأنعم عليه بتسخير الرياح والجن وعلمه منطق الطير، ودانت له مملكة سبأ.

وبعد موت سليمان جاء بعده رَحُبْعَام ابنه الذي صار ملكًا عليهم سنة ٩٣٥ ق.م إلا أنه لم يحظ بمبايعة الأسباط سوى قبيلتين وهما سبطا يهوذا وبنيامين، بينما مال باقي الأسباط الاثني عشر إلى يَرُبْعَام، مما أدى إلى انقسام المملكة إلى قسمين:

١- المملكة الشماليَّة، واسمها إسرائيل، وعاصمتها شكيم، ويحكمها يربعام.

٢- المملكة الجنوبية، واسمها يهوذا، وعاصمتها أورشليم، ويحكمها رحبعام.

وحكم في كل من المملكتين ١٩ ملكاً، واتصل المُلك في ذرية سليمان في مملكة يهوذا فيما تنقل في عدد من الأسر في مملكة إسرائيل، وطوال هذه الفترة وقع بنو إسرائيل في الردة والكفر والفجور مرات عديدة في أزمنة مختلفة، وجاء كثير من الأنبياء لتردهم عن ذلك فكذبوهم وأثخنوا فيهم القتل.

ثم وقع اليهود الإسرائيليون في سنة ٧٢١ ق.م تحت قبضة الآشوريين في عهد الملك سرجون الثاني ملك آشور فقضى عليها ودمرها نهائيًّا ونقل من بقي منهم أسرى إلى آشور (العراق)، فزالوا

من التاريخ تمامًا.

وبقيت مملكة يهوذا الجنوبية إلى أن جاء فرعون مصر فزحف عليها سنة ٦٠٨ق.م فاحتلها واستمر في زحفه حتى احتل مملكة إسرائيل التي كانت سقطت تحت سلطة الآشوريين، وقد ثار لذلك البابليون الذين خلفوا الآشوريين وورثوا ممتلكاتهم فجاءوا بقيادة نبوخذ نصر (بختنصر) فهزم فرعون مصر واستعاد مملكة إسرائيل، ثم احتل مملكة يهوذا ودمر أورشليم وأحرق المعبد (الهيكل) وسبى من بقي من بني إسرائيل إلى بابل سنة ٥٨٦ ق.م وهذا هو التدمير الأول للمدينة والمعبد، وبذلك سقطت مملكة يهوذا، أو ما تبقى من مملكة بني إسرائيل.

وعاش بني إسرائيل في المنفى أو السبي البابلي مدة طويلة انحرفوا خلالها عن الدين الحق وتأثروا بوثنية أسيادهم البابلين ومن جاء بعدهم.

وفي سنة ٥٣٨ ق.م احتل الفرسُ بلادَ بابل وورثوا ممتلاكاتهم، وقد سمح لهم قورش ملك الفرس بالعودة إلى فلسطين سنة ٥٣٦ق.م، ولكن لم يرجع منهم إلا القليل، وسمح لهم بإعادة بناء أورشليم والهيكل.

ويذهب بعض الباحثين إلى أنه منذ ذلك الزمان يختفي ذكر الأسباط العشرة الأخرى، فمن عاد منهم إلى فلسطين اختلط بسبطي يهوذا وبنيامين، وفي ذلك الحين سمي الإسرائيليون يهودًا.

وظل اليهود تحت حكم الفرس، واستمرّوا يدفعون الجزية لهم، وتمتَّع اليهود بقسط كبير من الحرية أيام حكمهم، ولكن لم يقم وقتئذ ملوك عليهم، بل ولّي عليهم الأنبياء والقادة والكهنة، من أمثال: زروبابل القائد الذي قام بإعادة بناء الهيكل، ويشوع الكاهن بن يهوصاداق الملقب أيضًا بهوشع، ثم بعدهما عزرا، ثم نحميا، وذلك بمعاونة مجلس أعلى سُمِّيَ بمجلس السنهدرين، قوامه سبعون من الشيوخ يرأسهم رئيس الكهنة، كمحكمة عُليا للأمة اليهوديَّة.

وفي سنة ٣٣٤ ق. م خضع الفُرس للإسكندر الأكبر المقدوني اليوناني، وخضع اليهود له تبعًا لذلك حتى وفاته عام ٣٢٣ ق. م.

ثم خضع اليهود بعده للبطالسة المصريين تحت حكم بطليموس سوتر أحد قادة الإسكندر الأربعة الذين اقتسموا مملكته بعد وفاته.

واستمرّوا كذلك حتى عام ٢٠٣ق.م فخضعوا للسلوقيين -نسبة إلى سلوقس الأول أحد قوّاد الإسكندر المقدوني الأربعة؛ الذي أسَّس مملكة السلوقيّين في بابل سنة ٣١٢ق.م- الذين انتزعوا هذا القسم من البطالسة بقيادة أنطيوخس الكبير سليل سلوقس الأول.

واستمر اليهود خاضعين للملوك السلوقيين حتى عام ١٦٧ق.م، وعندئذ نعموا بالاستقلال على عهد دولة المكابيين التي استمرَّت حتى عام ٦٣ق.م.

ثم اكتسح الرومان فلسطين سنة ٦٣ ق.م. واستولوا على القدس بقيادة بامبيوس، ثم حكَّموا عليهم أسرة هيرود التي حلت محل المكابيين بعد القضاء عليهم، وهدم هيرود الهيكل وأعاد بناءه

سنة ٢٠ق.م، وبنى في الوقت نفسه معبدًا لآلهة مدينة روما.

وفي فترة حكم الرومان ولد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وبظهوره ظهرت فئة اليهوديَّة المسيحيَّة التي آمنت بالمسيح وبقيت على شريعة التوراة والتزامها بالدين اليهودي وأحكامه، ثم لما تطورت على يد بولس انتهت هذه الجماعة إلى تشيكل دين جديد له ملامحه المميزة.

وعلى إثر الثورات التي كان يقوم بها اليهود على السلطات الرومانية سنة ٧٠ م دمر الإمبراطور تيطس الروماني مدينة أورشليم وأحرق الهيكل، وهذا هو التدمير الثاني، وقتل وسبى عددًا كبيرًا من اليهود، وتفرَق عدد منهم في البلاد.

وجاء أدريانوس سنة ١٣٥م على إثر ثورة أخرى لليهود فدمر مدينة أورشليم وأزال معالمها تمامًا، وقد بنى هيكلًا وثنيًا اسمه جوبيتار -كبير آلهة الرومان- مكان الهيكل المقدس، وقد استمر هذا الهيكل الوثني حتى دمره النصارى في عهد الإمبراطور قسطنطين.

وتخلص أدريانوس من اليهود تمامًا بقتلهم وتشريدهم ونفيهم، ولم يبق بأورشليم يهودي واحد، ومنعهم من دخولها، فازداد تشتت اليهود وتفرقهم في أنحاء العالم في دول آسيا وأوربا وإفريقيا.

ويذهب بعض الباحثين إلى أنه بذلك ينتهي تاريخ اليهود كأمة، وتاريخهم فيما بقي من العصور ملحق بتاريخ الممالك التي توطنوا أو نزلوا فيها.

وفي سنة ٦٣٦م فتح المسلمون فلسطين وأجلوا عنها الرومان، وقد اشترط عليهم صفرونيوس بطريرك النصارى ألا يسكن المدينة أحد من اليهود.

وفي سنة ١٨٩٧م بدأت الحركة الجديدة لليهود تحت اسم الصهيونيَّة، لبناء دولة إسرائيل على أرض فلسطين حتى وقتنا الحالي[١].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي (١/ ٤٩٥- ٤٩٩)، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، د. عبد الوهاب المسيري، موجز تاريخ اليهود، د. محمود عبد الرحمن قدح ص(٨- ٣٣)، هل العهد القديم كلمة الله، د. منقذ السقار، اليهودية عرض تاريخي، د. عرفان عبد الحميد فتاح ص(٢١- ٦٩)، تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور (١/ ٥٣٢).

الفصل الثاني
عقائد اليهود

مجمل عقائدهم

قال الشهرستاني: ومسائلهم تدور على: جواز النسخ ومنعه، وعلى التشبيه ونفيه، والقول بالقدر والجبر، وتجويز الرجعة واستحالتها.

أما النسخ: لم يجيزوا النسخ أصلًا، قالوا: فلا يكون بعده شريعة أصلًا؛ لأن النسخ في الأوامر بَدَاء ولا يجوز البَدَاء على الله تعالى.

وأما التشبيه: فلأنهم وجدوا التوراة ملئت من المتشابهات مثل الصورة والمشافهة والتكليم جهرًا، والنزول على طور سينا انتقالًا، والاستواء على العرش استقرارًا، وجواز الرؤية فوقًا وغير ذلك.

وأما القول بالقدر: فهم مختلفون فيه حسب اختلاف الفريقين في الإسلام؛ فالربانيون كالمعتزلة فينا، والقراءون كالمجبرة والمشبهة.

وأما جواز الرجعة: فإنما وقع لهم من أمرين:

أحدهما: حديث عزير عليه السلام إذ أماته الله مائة عام ثم بعثه.

والثاني: حديث هارون عليه السلام إذ مات في التيه، وقد نسبوا موسى إلى قتله بالواحة. قالوا: حسده؛ لأن اليهود كانوا أميل إليه منهم إلى موسى، واختلفوا في حال موته: فمنهم من قال: إنه مات وسيرجع، ومنهم من قال: غاب وسيرجع[١].

وقال الرازي: وهم متفقون على أن النسخ غير جائز، وكلهم يؤمنون بموسى عليه السلام وهارون ويوشع، وأكثرهم يؤمنون بالأنبياء الذين جاءوا بتقرير شرع موسى عليه السلام، وبعضهم ينكر ذلك، والأغلب عليهم التشبيه[٢].

تفصيل عقائدهم

- عقيدتهم في الإله

اليهود كتابيون موحِّدون وهذا الأصل[٣].

---

(١) الملل والنحل، الشهرستاني (١/ ٢١١، ٢١٢).

(٢) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، الرازي ص(٨٢).

(٣) سفر التثنية ٦/ ٤-٩، سفر إشعيا ٤٥/ ٥ .

ولكنهم كانوا يتجهون إلى تعدد الآلهة والتجسيم والنفعية مما أدى إلى كثرة الأنبياء فيهم؛ لردهم إلى جادة التوحيد كلما أصابهم انحراف في مفهوم الألوهية[١].

فقد اتخذوا العجل معبودًا لهم بُعَيْد خروجهم من مصر[٢].

ويروي العهد القديم أن موسى قد عمل لهم حية من نحاس وأن بني إسرائيل قد عبدوها بعد ذلك[٣].

وأنهم عبدوا آلهة أخرى مثل عشتار (العشتاروث)[٤]، وبعل (البعليم)[٥]، وتموز[٦]، والغيرة[٧]، وملكوم ولكموش[٨]، والترافيم والأفود والتماثيل[٩]، والأصنام[١٠]، والشمس والقمر والمنازل وأجناد السماء[١١].

وعبدوا آلهة آرام، وآلهة صيدون، وآلهة موآب، وآلهة بني عمون، وآلهة الفلسطينيين[١٢].

وصنع لهم يربعام عجلين من ذهب فذبحوا وعيدوا عندهما[١٣].

والإله عندهم سموه يهوه[١٤]، وخلعوا عليه صورة بشرية محضة، فهو ليس إلهًا معصومًا بل يخطئ ويندم[١٥]. ويبكي وعيناه تذرفان الدموع ليلًا ونهارًا[١٦]. ويدعو على نفسه بالويل والهلاك[١٧].

---

(١) سفر أرميا ٢/ ٤- ٥، ٥/ ١٩- ٢٠، ٧/ ٩- ١٠، ١٦/ ١١- ١٣، انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٥٠٢)، الفرق والمذاهب اليهودية، عبد المجيد همو ص(١٧- ٢٠).

(٢) سفر الخروج ٣٢/ ١- ٦، التثنية ٩/ ١٢ .

(٣) سفر العدد ٢١/ ٩ .

(٤) سفر القضاة ٢/ ١٣، ١٠/ ٦، صموئيل الأول ٧/ ٣- ٤، ١٢/ ١٠ .

(٥) سفر العدد ٢٥/ ١- ٣، القضاة ٢/ ١٣، ١٠/ ٦، صموئيل الأول ٧/ ٣- ٤، ١٢/ ١٠ .

(٦) سفر حزقيال ٨/ ١٤ .

(٧) سفر حزقيال ٨/ ٣- ٦ .

(٨) سفر الملوك الأول ١١/ ٧، ٣٣، الملوك الثاني ٢٣/ ١٣ .

(٩) سفر القضاة ١٨/ ١٤- ٣١، صموئيل الأول ١٩/ ١٣ .

(١٠) سفر حزقيال ٨/ ١٠- ١٢ .

(١١) سفر الملوك الثاني ٢٣/ ٤، ٥، ١١، ١٣، ١٤، ٢٤، حزقيال ٨/ ١٦ .

(١٢) سفر القضاة ١٠/ ٦ .

(١٣) سفر الملوك الأول ١٢/ ٢٨- ٢٩ .

(١٤) سفر الخروج ٣/ ١٥، ٦/ ٣، المزامير ٨٣/ ١٨، أشعياء ١٢/ ٢، أرميا ١٦/ ٢١، ٣٣/ ٢، هوشع ١٢/ ٥، عاموس ٤/ ١٣، ٩/ ٦ .

(١٥) سفر التكوين ٦/ ٦، الخروج ٣٢/ ١٤، صموئيل الأول ١٥/ ١١، أخبار الأيام الأول ٢١/ ١٥، أرميا ١٥/ ٦، ٢٦/ ٣، ١٩، ٤٢/ ١١، يوئيل ٢/ ١٤، عاموس ٧/ ٣، ٦ .

(١٦) سفر أشعيا ١٦/ ٩، أرميا ١٤/ ١٧ .

(١٧) سفر أرميا ١٠/ ١٧ .

ويتعب ويستريح[١]. ويستيقظ[٢]. ويتذكر[٣]. وينوح ويولول ويمشي عريانًا[٤]. ويصفق بيديه[٥]. ويصارع البشر[٦]. ويخدعهم[٧]. وينقض العهد[٨]. وقلبه يتلوى ألمًا[٩].

ويقع منه الحزن والأسف[١٠]. والجهل[١١]. وعدم العلم بالأشياء مسبقًا[١٢].

وهو ساكن في الضباب[١٣]. ويركب ملاكًا ويطير فوقه[١٤]. وينفخ بالبوق ويسير في الزوابع[١٥].

وله أنف يخرج منه دخان وله فم يخرج منه نار[١٦]. والريح وسيلة لنقله تحمله فيها حيث يريد[١٧]. والغمام هو غبار رجله[١٨]. والسحاب تستره فلا يُرى[١٩].

وهو يأمر بالسرقة[٢٠]. وبالإبادة[٢١]. وبالسكر[٢٢]. وبالرذيلة والفواحش[٢٣].

---

(١) سفر الخروج ٣١/١٧ .

(٢) سفر زكريا ٢/ ١٣، المزامير ٧٨/٦٥ .

(٣) سفر التكوين ٩/١٣- ١٦، الخروج ٢/ ٢٤ .

(٤) سفر ميخا ١/٨ .

(٥) سفر حزقيال ٢١/١٧ .

(٦) سفر التكوين ٣٢/٢٢ .

(٧) سفر أرميا ٢٠/٧ .

(٨) سفر المزامير ٨٩/٣٩ .

(٩) سفر أرميا ٤/١٩ .

(١٠) سفر التكوين ٦/٥- ٧ .

(١١) سفر التكوين ٣/٩، ١٢/٢٣، ١٨/٢٠، الخروج ١٢/٧، العدد ٢٢/٩ .

(١٢) سفر التكوين ١/٢٤، ٣١ .

(١٣) سفر أخبار الأيام الثاني ٦/١ .

(١٤) سفر صموئيل الثاني ٢٢/٧- ١١ .

(١٥) سفر زكريا ٩/١٤ .

(١٦) سفر صموئيل الثاني ٢٢/٩ .

(١٧) سفر صموئيل الثاني ٢٢/١٠، المزامير ١٨/١٠، ١٠٤/٣ .

(١٨) سفر ناحوم ١/٣ .

(١٩) سفر أيوب ٢٢/١٤ .

(٢٠) سفر الخروج ٣/٢١، ٢٢ .

(٢١) سفر التثنية ٢٠/١٣- ١٦، ٧/٢، ١٦ .

(٢٢) سفر نشيد الإنشاد ٥/١ .

(٢٣) سفر عاموس ٧/١٦، صموئيل الثاني ١٢/١١، هوشع ١/٢ .

إنه إله بني إسرائيل فقط[١]. فهو يحب بني إسرائيل ويغفر لهم خطاياهم مهما فعلوا، وهو بهذا عدو للآخرين[٢].

ويزعمون أنه يسير أمام جماعة من بني إسرائيل في عمود من سحاب[٣].

ويشبهونه بأشياء لا تنبغي في حقه عز وجل[٤].

- **عقيدة الشعب المختار**

يعتقد اليهود أنهم شعب مقدَّس اختاره الرب[٥]، وهو الشعب الأزلي الأبدي، وأن له رسالة متميِّزة وسمات خاصة تميِّزه وتفصله عن الشعوب الأخرى.

ويشكر اليهودي إلهه في كل الصلوات لاختياره الشعب اليهودي. ويعتقدون أن أرواح اليهود جزء من الله، وإذا ضرب أمميٌّ (جوييم) إسرائيليًّا فكأنما ضرب العزة الإلهية، وأن الفرق بين درجة الإنسان والحيوان هو بمقدار الفرق بين اليهودي وغير اليهودي[٦].

وترتب على ذلك تشريعات، منها: يجوز غش غير اليهودي، وسرقته، وإقراضه بالربا الفاحش، وشهادة الزور ضده، وعدم البر بالقسم أمامه، ذلك أن غير اليهود في عقيدتهم كالكلاب والخنازير والبهائم، بل إن اليهود يتقربون إلى الله بفعل ذلك بغير اليهودي[٧].

- **عقيدة الأرض المقدَّسة**

يعتقد اليهود أن الأرض المقدَّسة -فلسطين- خاصة ببني إسرائيل، وهي ميراثهم، فهذا هو العطاء الذي أعطاه الإلهُ لإبراهيم، ومن بعده ليعقوب، ومن بعده لموسى وبني إسرائيل ونسلهم من بعد ذلك[٨].

وهي عندهم الأرض التي يحل فيها الرب ولذلك تُسمَّى أرض الرب[٩].

وهي الأرض التي يرعاها الإله[١٠]، ثم هي الأرض المختارة[١١]، وصهيون التي يسكنها الرب[١٢].

---

(١) سفر التثنية ٢٣/٣، الملوك الثاني ٥/١٥ .

(٢) سفر التثنية ٢٣/ ٢٠ ، الخروج ١٢/ ١٢ .

(٣) سفر الخروج ١٣/ ٢١، ٢٢ .

(٤) سفر العدد ٢٤/٩، هوشع ٥/ ١٢، ١٣/ ٤-٨، المزامير ٧٨/ ٦٥، العدد ٢٤/ ٨، مراثي إرميا ٣/ ١٠، ميخا ١/ ٨ .

(٥) سفر التثنية ١٤/ ٢، اللاويين ٢٠/ ٢٤- ٢٦ .

(٦) سفر التثنية ١٣/ ٢، ٧/ ٦- ٧، الخروج ١٩/ ٥ .

(٧) انظر: الكنز المرصود في أسرار التلمود، روهلنج وأشيل لوران، ترجمة: د. يوسف نصر الله.

(٨) سفر التكوين ١٢/ ٧، ١٣/ ١٥، ١٥/١٨، ٢٨/ ٤، ١٣، العدد ١٣/ ١، ٢ .

(٩) سفر أشعياء ١٤/ ٢، يوشع ٩/ ٣ .

(١٠) سفر التثنية ١١/ ١٢ .

(١١) تتمة سفر أستير ٤٩/ ٩ .

(١٢) المزامير ٩/ ١١، ٧٤/ ٢، ٧٦/ ٢، ١٣٢/ ١٣، أشعياء ٨/ ١٨ .

وهي الأرض المقدَّسة [١] التي تفوق في قدسيتها أيَّ أرضٍ أخرى؛ لارتباطها بالشعب المختار. وهي الأرض البَهِيَّة [٢].

ويعتقدون أن تعاليم التوراة والشعائر الدينيَّة لا يمكن أن تُنفَّذ كاملة إلا في الأرض المقدَّسة [٣].

وحتى الآن، يرسل بعض اليهود في العالم في طلب شيء من تراب الأرض ليُنثَر فوق قبورهم بعد موتهم.

- عقيدة المخلِّص المنتظر

يعتقد اليهود أنه سيأتي في آخر الزمان ملِك من نسل داود يخلِّصهم من الشتات، ويعيد مجد إسرائيل، ويعود بهم إلى القدس ويتخذها عاصمة له، ويعيد بناء الهيكل، ويحكم بالشريعتين المكتوبة والشفوية، ويقضي على أعداء بني إسرائيل وينتقم منهم، وسيحقق للشعب اليهودي السيادة والسؤدد، ويبدأ بعدها الفردوس الأرضي.

وهو عندهم إنسان سماوي، وكائن معجز، خلقه الله قبل الدهور، ويبقى في السماء حتى تحين ساعة إرساله، وهو يحمل لقب ابن الإنسان؛ أي: إنه سيظهر في صورة إنسان، وإن كانت طبيعته تجمع بين الله والإنسان.

والزمان المقدَّس عند اليهود يمتزج بالمكان المقدَّس، فالأرض المقدَّسة هي أرض الميعاد، وهي أيضًا أرض المعاد التي سيعود إليها اليهود تحت قيادة المخلص؛ أي الأرض التي ستشهد نهاية التاريخ.

ويرى بعض الباحثين أن هذه الفكرة برزت عند اليهود في وقت متأخر بعد سقوط دولتهم، وأسْرِهم في بابل ثم خضوعهم للفُرس، ومما رجَّحوا به ذلك عدم بروزها في العهد القديم قبل سفر دانيال.

- عقيدتهم في الأنبياء

جميع الأنبياء لم يسلموا من قول اليهود الفاحش فيهم؛ فالأنبياء عندهم غير معصومين من المعاصي، ولا الكبائر، بل ولا أكبر الكبائر، ولا الشرك بالله العظيم؛ ففيه اتهامات لهم بالشرك وعبادة غير الله، وبالزنى عمومًا، وزنى المحارم خصوصًا، والكذب، والقتل، وعمل الشر والقبيح، وغير ذلك.

فيزعمون أن نوحًا عليه السلام شرب الخمر فسكر وتعرَّى [٤]، وأن يعقوب قد صارع

---

(١) سفر زكريا ٢/ ١٢ .

(٢) سفر دانيال ١١/ ١٦ .

(٣) سفر أشعياء ٣٣/ ٢٤ .

(٤) سفر التكوين ٩/ ٢١ .

الرب[١]، واحتال على أخيه وكذب على أبيه ليأخذ مكان أخيه[٢].

وأن يهوذا بن يعقوب زنى بامرأة ابنه وأنجب منها[٣].

وأن لوطًا قد شرب الخمر وزنى بابنتيه بعد نجاته إلى جبل صوغر[٤].

وأن هارون صنع لبني إسرائيل عجلًا مسبوكًا من حُلِيِّهم، وقال لهم: هذا آلهكم، وبنى له مذبحًا، وجعل له عيدًا[٥].

وأن داود قبيح في عين الرب، وأنه زنى بامرأة أحد مقاتليه، وأوصى بعمل مؤامرة لقتله في المعركة ليضم زوجته بعد ذلك إليه[٦]، وفي شيخوخته يضاجع فتاة صغيرة في فراشه[٧]، وغير ذلك من الأمور المستقبحة[٨].

وأن سليمان تزوج بأجنبيات كثيرة جدًا، أملن قلبه عن عبادة الله، وأوقعنه في الوثنية، وجعلنه يعبد آلهتهن الوثنية، مثل: عشتروث، وملكوم، ولكموش، وبنى لهذه الآلهة مذابح[٩]، وأنه قتل أخاه[١٠].

وأن أيوب يسب دهرَه، ويعترض على قدر الله[١١].

وأن عيسى موجود في لجات الجحيم بين القار والنار، وأن أمه مريم أتت به من العسكري باندارا عن طريق الخطيئة[١٢].

وهذا الأمر حدا ببعض الباحثين إلى القول بأنه يجب على القارئ المسلم أن يميز بين أنبياء اليهود والأنبياء الذين يرد ذكرهم في القرآن، حتى لو حملوا نفس الاسم.

فموسى (موشيه) القائد الحربي «القومي» ليس هو سيدنا موسى عليه السلام.

وداود (ديفيد) قاطع الطريق، والملك، ليس هو سيدنا داود عليه السلام.

---

(١) سفر التكوين ٣٢/ ٢٤ .

(٢) سفر التكوين ٢٧/ ١٩ .

(٣) سفر التكوين ٣٨/ ١٣- ١٨ .

(٤) سفر التكوين ١٩/ ٣٠، ٣١ .

(٥) سفر الخروج ٣٢/ ١- ٦ .

(٦) صموئيل الثاني ١١/ ١- ٢٧ .

(٧) سفر الملوك الأول ١/ ١- ٣ .

(٨) سفر صموئيل الثاني ١٢/ ١١، ١٣/ ٣١، أخبار الأيام الأول ٢١/ ١ .

(٩) سفر الملوك الأول ١١/ ١- ٨ .

(١٠) سفر الملوك الأول ٢/ ٢٥ .

(١١) سفر أيوب ٣/ ١- ٣، ١١ .

(١٢) الكنز المرصود في أسرار التلمود.

وسليمان (شلومو) قاتل منافسيه، ليس هو سيدنا سليمان عليه السلام.

فرغم الاتفاق في الأسماء وفي بعض تفاصيل القصص؛ فإن السياق والبناء العقائدي والديني والقصصي الذي ترد فيه هذه الأسماء يختلف اختلافًا جوهريًا، والسياق والبناء وحده هو الذي يحدد المعنى العام والشامل.

- عقيدتهم في اليوم الآخر والثواب والعقاب

لم يرد في دين اليهود شيء ذو بال عن البعث والخلود، والثواب والعقاب، والجنة والنار، إلا إشارات ضئيلة، وذلك أن هذه الأمور بعيدة عن تركيبة الفكر اليهودي المادي.

والثواب والعقاب عندهم إنما يتم في الدنيا، فالثواب هو النصر والتأييد، والعقاب هو الخسران والذل والاستعباد؛ فالجزاء والعقاب مادي دنيوي(١).

- الهيكل

هو البناء الذي أمر به داود، وأقامه سليمان فوق جبل موريا، وهو جبل بيت المقدس، أو هضبة الحرم التي يُوجَد فوقها المسجد الأقصى وقبة الصخرة.

وقد بني بداخله المحراب -قدس الأقداس- وهيَّأ كذلك بداخله مكانًا يوضع فيه تابوت عهد الرب.

ويعتبر الهيكل عند اليهود مركزًا روحيًا لهم، وعاصمة لملكهم، ووسيلة لنقل تراثهم، وذكرى لهم، كأنه علم من نار يتراءى لهم طوال تجوالهم الطويل المدى على ظهر الأرض(٢).

وهو أهم مبنى للعبادة الإسرائيلية، ومركز العبادة القربانية المركزية، وبعد هدمه عام ٧٠م، لم يحل محله مبنى مركزي مماثل.

ومن أهم أسماء الهيكل عندهم: بيت يهوه؛ لأنه يحل فيه، ويُسمَّى أيضًا «البنان»؛ لأنه يُطهِّر بني إسرائيل من خطاياها ويجعلهم بيضاء كاللبن، وكان التصور أنه يقع في مركز العالم فقد بُنِيَ في وسط القدس التي تقع في وسط الدنيا، فقدس الأقداس الذي يقع في وسط الهيكل هو بمنزلة سُرَّة العالم، ويُوجَد أمامه حجر الأساس: النقطة التي عندها خلق الإله العالم.

والهيكل عندهم كنز الإله مثل جماعة إسرائيل، وهو عنده أثمن من السماوات بل من الأرض التي خلقها بيد واحدة، بينما خلق الهيكل بيديه كلتيهما. بل إن الإله قرَّر بناء الهيكل قبل خلق الكون نفسه.

وكان يحج إليه اليهود في أعياد الحج الثلاثة: عيد الفصح، وعيد الأسابيع، وعيد المظال.

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٥٠٢)، الفرق والمذاهب اليهودية ص(١٧).

(٢) انظر: قصة الحضارة، ول ديورانت (٢/ ٣٣٨).

ووصف الهيكل بحسب ما جاء في العهد القديم في سفر الملوك الأول في الإصحاحان ٦، ٧، وأخبار الأيام الأول في الإصحاحات ٢- ٤، مع وجود اختلاف فيما بين السفرين: يبلغ طوله: ٩٠ قدمًا = ٣٠ مترًا، وعرضه: ٣٠ قدمًا = ١٠ أمتار، وارتفاعه: ٤٥ قدمًا = ١٥ مترًا، وهو ينقسم إلى مكانين: مكان يعرف باسم الدبير، وآخر باسم الهيكل، وفي الجهة الغربية يقوم قدس الأقداس وكان مكعبًا تبلغ مساحته نحو عشرة أمتار، وبداخله يوجد تابوت العهد(١).

وقد حرق الهيكل على يد نبوخذ نصر سنة ٥٨٦ ق.م، ثم أعاد زروبابل بناءه سنة ٥٢٠ ق.م، ثم هدمه هيرود ليعيد بناءه سنة ٢٠ ق.م، ثم هدمه تيطس سنة ٧٠ م، ويحاول اليهود الآن أن يعيدوا بناءه الثالث لعودة المخلص المنتظر.

- التابوت

وهو صندوق كانوا يحفظون فيه أغلى ما يملكون من ثروات ومواثيق وكتب مقدسة.

ووصف التابوت بحسب ما جاء في العهد القديم: صندوق خشبي طوله ذراعان ونصف، وعرضه ذراع ونصف، وكذا ارتفاعه، وتغطيه من الداخل والخارج صفائح من الذهب النقي، ويحيط به إكليل من الذهب، وبه أربع حلقات من الذهب في قوائمه الأربع، وعصوان من الخشب المغشى بالذهب تدخل في الحلقات الجانبية ليحمل التابوت بهما، وغطاء التابوت من ذهب طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع ونصف، وعلى طرفي الغطاء جسمين من ذهب على شكل طائرين، وجه كل واحد منهما إلى الآخر، وهما باسطان أجنحتهما مظللان بهما على الغطاء، وتوضع في التابوت الوصايا العشر المحفورة على لوحين حجريين يعرفان باسم لوحي الشهادة، اللوح الواحد يشمل خمس وصايا(٢).

- المذبح

مكان مخصص لإيقاد البخور يوضع قدام الحجاب الذي أمام التابوت.

ووصف المذبح بحسب ما جاء في العهد القديم: مصنوع من خشب السنط، طوله ذراع، وعرضه ذراع، وارتفاعه ذراعان، وله قرون، مغشى سطحه وحيطانه بذهب نقي، وحوله إكليل من ذهب، وتحت الإكليل على الجانبين حلقتان من ذهب يكونا بيتين لعصوين لحمله بهما، والعصوان مصنوعان من خشب السنط ومغشيان بالذهب.

ويوقد عليه هارون بخورًا عطرًا كل صباح، حين يصلح السرج، وحين يصعد هارون السرج في العشية يوقده، ويصنع هارون كفاة على قرونه مرة في السنة من ذبيحة الخطية التي للكفارة(٣).

---

(١) انظر: سفر الملوك الإصحاح السادس وما بعده.

(٢) سفر الخروج ٢٥/ ١٠- ٢١ .

(٣) سفر الخروج ٣٠/١- ١٠ .

- القرابين

كانت القرابين من الحيوان والثمار، وكانت تشمل الضحايا البشرية، فكان الإنسان يُقدَّم مع القرابين الأخرى(١).

ثم اكتفى الإله بعد ذلك بجزء من الإنسان، وهو ما يقتطع منه في عملية الختان التي يتمسك بها اليهود إلى يومنا هذا، فضلًا عن الثمار والحيوان إلى جانب ذلك، فأصبح يضحى بالبقر والخراف أو ببواكير الثمار، تحرق أمام المعبد مع الجزء الذي يقطع في الختان.

وكانت القرابين عبارة عن هدية يتقرب بها الشخص للإله رجاء قضاء حاجة، وكانت أحيانًا للشكر والاعتراف بعون حصل عليه الشخص قبل تقديمها، وتقدم أيضًا في الأعياد والاحتفالات الدينيَّة.

وكان يصحب القرابين احتفال طويل وشعائر يقوم بها الكهنة في الصباح والمساء (٢).

- الكهانة

وتختص بأبناء ليفي أحد أبناء يعقوب، فهم وحدهم لهم حق تفسير النصوص وتقديم القرابين، وهم معفون من الضرائب، وتقدم لهم العشور من نتاج الضأن، ويأخذون ما بقي في الهيكل من القرابين، وقد جمعوا بذلك أموالًا ضخمة وثراءً عظيمًا، وشخصياتهم وسيلة يتقرب بها إلى الله، فأصبحوا بذلك أقوى من الملوك.

وكان مقام الكهنة كبيرًا لدرجة اعتقادهم أنه لا تقبل توبة ولا قرابين إلا إذا باركها الكاهن، فقد كان مفتاح السماء في يده.

وللوصول إلى الكهنوتية كان الواحد منهم يمر بتدريبات وتقاليد يعرف خلالها الطقوس والأسرار الدينيَّة.

وبعد الرجوع من السبي البابلي تأسس من كبار الكهنة مجلس، يبحث الشئون الكبرى التي تهم اليهود، ويسمى هذا المجلس: المجمع الكهنوتي، أو السنهدرين(٣).

وكان هذا المجلس يبحث في كل الشئون التي لها علاقة بالدين، فهو يضع قوانين المعاملة، وقوانين الزواج والطلاق، ويحدد الأعياد ومواعيدها، ويحكم في القضايا الجنائية الكبرى، وهم رعاة المعبد وخدمه، وغير ذلك من الأمور، وأصبح بذلك للكهنة النفوذ الديني والمادي في الشعب اليهودي كله.

---

(١) سفر الملوك الثاني ٣/١٦ .

(٢) انظر: اليهودية ص(٢٠٥- ٢٠٧).

(٣) انظر: اليهودية ص(٢٠٢).

- ديانة عنصرية

إن ديانة اليهود خاصة بهم، مقفلة على الشعب اليهودي، فممنوع على غير اليهودي أن يُقْبلوا في الجماعة اليهوديَّة، وأن يدينوا بالولاء لرب بني إسرائيل[(١)]، فالإله خاص بهم، والديانة ديانتهم فقط، مرتبطة بشعب معين هو الشعب اليهودي، فهي ديانة مقفلة ليست من ديانات الدعوة، وعليهم أن ينفصلوا عن شعوب الأرض، وعن النساء الغريبة، فممنوع أن يتخذوا نساء غريبة أجنبية ليست يهودية[(٢)].

بل كثير من مفكريهم يميل إلى مزيد من تضييق الدائرة، فلا يعدون يهودًا إلا أولئك الذين يعيشون في فلسطين أو يعتبرونها وطنهم، وإن بعدوا عنها للضرورة[(٣)].

- بعض صور التشريع

١- الولد الأكبر الذي هو أول من يرث وله حظ اثنين من إخوته، ولا فرق بين المولود بنكاح شرعي، أو غير شرعي في الميراث.

٢- بعد الزواج تعد المرأة مملوكة لزوجها، ومالها ملك له، ولكن لكثرة الخلافات فقد أقر بعد ذلك أن تملك الزوجة رقبة المال والزوج يملك المنفعة.

٣- من بلغ العشرين ولم يتزوج فقد استحق اللعنة، وتعدد الزوجات جائز شرعًا بدون حد، فقد حدده الربانيون بأربع زوجات بينما أطلقه القراءون.

---

(١) سفر التثنية ٣/٢٣ .
(٢) سفر عزرا ١٠/١٠- ١٢ .
(٣) انظر: اليهودية، د. أحمد شلبي، ص(١٨٧).

الفصل الثالث
أعياد اليهود

تنقسم الأعياد اليهوديَّة إلى قسمين:

١- الأعياد التي جاء ذكرها في العهد القديم؛ أي التي نزلت قبل التهجير.

وهي: أعياد الحج الثلاثة: عيد الفُصْح، وعيد الحصاد (الأسابيع)، وعيد المظال، وهي أعياد زراعية، ثم صارت رموزًا لأحداث تاريخية لها أهميتها في الوعي الجمعي العام لليهود.

ويوم السبت، وعيد الثامن الختامي الذي يَعُده البعض عيدًا مستقلًا، ثم أيام التكفير وهي رأس السنة اليهوديَّة، ويوم الغفران، وأخيرًا عيد القمر الجديد وهو أقل أهمية من الأعياد الأخرى.

٢- الأعياد التي أضيفت بعد نزول التوراة، التي أُضيفت بعد العودة من بابل.

وهي: عيد النصيب، وعيد التدشين، وعيد لاج بعومير، والخامس عشر من آف، وعيد رأس السنة للأشجار. ومع أن التاسع من آف يوم صوم وحداد على سقوط القدس وهَدْم الهيكل، فإنه يُعتبَر أيضًا عيدًا.

ويضم الاحتفال بأي عيد يهودي ثلاثة عناصر:

١- المرح الذي يأخذ شكل المأدبات الاحتفالية (باستثناء يوم الغفران) والامتناع عن العمل في الأعياد المهمة.

٢- الأدعية والابتهالات التي تضاف إلى الصلاة (عاميدا).

٣- طقوس احتفالية خاصة مثل أكل خبز الفطير في عيد الفصح، وإيقاد الشموع في عيد التدشين، وزرع الأشجار في عيد رأس السنة للأشجار.

وهذه الأعياد على التفصيل الآتي:

١- **عيد الفصح (الفطير)**: وهو يبدأ من مساء ١٤ أبريل وينتهي مساء ٢١ منه، ويكون الطعام فيه خبزًا غير مختمر، ومناسبته في أصوله البعيدة هو موسم الربيع، ثم صار رمزًا إلى خلاص بني إسرائيل من العبودية في مصر وخروجهم، وطقوس الاحتفال بهذا العيد كثيرة ومعقدة، ولها تراتيب كثيرة، وهو من أهم أعيادهم.

٢- **عيد المظال**: يبدأ في الخامس عشر من شهر تشري، ومدته سبعة أيام، بعد عيد يوم الغفران. والمناسبة التاريخية لهذا العيد هي إحياء ذكرى خيمة السعف التي آوت العبرانيين في العراء أثناء الخروج من مصر (لاويين ٢٣/ ٤٣)، ويأخذون فيه أربعة أغصان من نباتات معينة ويلوحون بها، ثم يقيمون في أكواخ أو مظال من الأغصان أو السعف يتناولون فيها الطعام.

٣- عيد الأسابيع (الحصاد): ويأتي بعد سبعة أسابيع من عيد الفصح ومن هنا تسميته، ومدته يومان، هما ٩، ١٠ من شهر سيفان (= ٩، ١٠ يونيه)، وفيه يزينون المعابد بالزهور والنباتات، ويُقرَأ فيه سفر راعوث.

٤- يوم التكفير أو الغفران: في أول الشهر السابع من السنة اليهوديَّة (شهر تشري = سبتمبر- أكتوبر)، ويبدأ بعيد رأس السنة، فينقطع الشخص تسعة أيام يتعبد فيها ويصوم وتسمى أيام التوبة، وفي اليوم العاشر الذي هو يوم التكفير لا يأكل فيه اليهودي ولا يشرب، ويمضي وقته في العبادة حيث يعتقد أنه تغفر فيه جميع سيئاته ويستعد فيه لاستقبال عام جديد، ويعد يوم الغفران أقدس الأعياد الدينيَّة عندهم.

٥- يوم السبت: لا يجوز لديهم الاشتغال في هذا اليوم؛ لأنه اليوم الذي استراح فيه الرب كما يعتقدون. فقد اجتمعت اليهود على أن الله تعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض استوى على عرشه مستلقيًا على قفاه واضعًا إحدى رجليه على الأخرى. تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

٦- عيد الثامن الختامي: وهو مستقل عن عيد المظال، ولكنه ضُم إليه كيوم ثامن، ويتم فيه ترديد دعاء خاص بطلب نزول المطر.

٧- الهلال الجديد: كانوا يحتفلون لميلاد كل هلال جديد حيث كانت تنفخ الأبواق في البيت المقدس وتشعل النيران ابتهاجًا به.

٨- زيارة بيت المقدس: يتحتم على كل يهودي ذكر رشيد زيارة البيت المقدس مرتين كل عام.

٩- عيد التدشين أو الخانوكة (الإهداء الشموع): يستمر ثمانية أيام بدءًا من الخامس والعشرين من كسلو (= ديسمبر)، والمناسبة التاريخية لهذا العيد هي دخول يهودا الحشموني (أو المكابي) القدس وإعادته للشعائر اليهوديَّة في الهيكل، وفيه تُوقَد شمعة في الليلة الأولى، ثم تُضاف ثانية في اليوم التالي، وهكذا حتى اليوم الثامن، ثم يليه دعاء وإنشاد أغنية.

١٠- عيد النصيب (القرعة): يُحتفَل به في الرابع عشر من آدار (= فبراير)، وهو عيد بابلي، كانت الآلهة البابلية تُقرِّر فيه مصير البشر، وهو اليوم الذي أنقذت فيه أستير يهود فارس من المؤامرة التي دبرها هامان لذبحهم، وفيه يقرأ أحدهم سفر إستير من إحدى اللفائف الخمس ليلة العيد وفي يوم العيد نفسه، ويصاحبه صخب عند ذكر اسم هامان.

١١- عيد الاستقلال: يحتفل فيه الإسرائيليون بإنشاء الدولة الصهيونيَّة في يوم ١٤ مايو حسب التقويم الميلادي= ٥ إيار حسب التقويم اليهودي، وتبدأ احتفالات العيد على جبل هرتزل في القدس بجوار مقبرته، ثم توقد اثنتي عشرة مشعلة، ثم يسير حملة المشاعل في استعراض، ويتم فيه استعراض عسكري، وينتهي الاحتفال بإطلاق المدافع، على أن يكون عدد الطلقات مساويًا لعدد سني الاستقلال.

١٢- الميمونة: احتفال يعقده يهود المغرب، وكثير من العرب اليهود، في آخر يوم من أيام عيد

الفصح. وهو اليوم الذي يوافق ذكرى وفاة ميمون بن يوسف (والد موسى بن ميمون) الذي عاش في فاس لبعض الوقت.

١٣- التاسع من آف (= يوليه- أغسطس): هو يوم صوم وحداد عند اليهود في ذكرى سقوط القدس وهدم الهيكلين الأول والثاني حسب التصور اليهودي.

١٤- بهجة التوراة: وهو عيد يلي اليوم الثامن الختامي، وهو اليوم الأخير من عيد المظال، ويُحتفَل به داخل المعبد.

١٥- عيد رأس السنة للأشجار (عيد الشجرة): ويُحتفَل به في ١ أو ١٦ من شفاط (= يناير- فبراير)، وهو اليوم الذي يجب بعده أن يحسب اليهودي عشور النباتات المقدمة للهيكل، والآن في إسرائيل أصبح هذا العيد هو العيد القومي للشجرة حيث يقوم أطفال المدارس بغرس الأشجار.

١٦ - لاج بعومير: كلمة «لاج» معناها «الثالث والثلاثون»، أما «عومير» فمعناها «حزمة من محصول الشعير»، وهو عيد يهودي غير مهم يُحتفَل به في يوم ١٨ إيار، يتم إنهاء فترة الحداد ويُسمح بالزواج وبقص الشعر.

١٧- السنة السبتية، وسنة اليوبيل: هي السنة التي يجب أن تُراح فيها الأرض بعد ستة سنوات فيريحها في السنة السابعة، وكل ما ينمو على الأرض في هذه السنة يُصبح ملكًا مشاعًا للجميع يُحرَّم الاتجار فيه.

وتتسع دائرة سنة الراحة حتى إنه بعد سبع دورات كل دورة فيها مكونة من سبعة أعوام، تحل السنة الخمسون التي يُطلَق عليها «سنة اليوبيل»، وفيها تُطبَّق كل شعائر السنة السبتية وتُضاف إليها شعيرة أخرى، وهي إعادة الأرض المرهونة إلى أصحابها، كما تُعاد الأرض المبيعة إلى ملاكها الأصليين.

وتأخذ دائرة السنة السبتية في الاتساع إلى أن تشمل الزمان كله ثم تنغلق حين تصل إلى «سبت التاريخ»، أي نهايته، حين تستريح الأرض كلها ويأتي الماشيَّح ليقود شعبه بأسره إلى أرض الميعاد[1].

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/٥٠١)، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، اليهودية عرض تاريخي ص(١٣٨- ١٤٥).

الفصل الرابع

الجذور الفكريَّة والعقائديَّة لليهود

عاشت اليهوديَّة في كنف عدة حضارات تأثرت بها وشكَّل بعضها تحديًا لها ولقيمها.

فقد تحركت اليهوديَّة داخل التشكيلات الحضارية المختلفة في الشرق الأدنى القديم وتأثرت بها وتبنَّت رموزها وقيمها؛ فالعبرانيون عاشوا في وسط المصريين القدماء وترك هذا أثرًا في فكرهم وتصوراتهم كما سيأتي بيان ذلك، ثم حَدَث التغلغل العبراني في كنعان، وحدثت المواجهة الأولى مع الحضارة الكنعانية، ثم حدثت المواجهة الثانية مع الحضارة البابلية.

ومن الواضح أن العبرانيين قد استوعبوا الكثير من العناصر الدينيَّة والثقافية من هاتين الحضارتين، ثم من الحضارة الفارسية.

ثم حدثت المواجهات الثالثة والرابعة والخامسة، مع الحضارة الهيلينية والنصرانيَّة وحضارة المسلمين، وحدثت المواجهة السادسة مع الحضارة العلمانيَّة في الغرب.

١- قدماء المصريين

عبادة العجل مأخوذة عن قدماء المصريين حيث كانوا هناك قبل الخروج، والفكر المصري القديم يعد مصدرًا رئيسيًا للأسفار في العهد القديم.

يقول ول ديورانت: لم يتخلوا قط عن عبادة العجل والكبش والجمل؛ ذلك أن موسى لم يستطع منع قطيعه من عبادة العجل الذهبي، لأن عبادة العجول كانت لا تزال حية في ذاكرتهم منذ كانوا في مصر، وظلوا زمنًا طويلًا يتخذون هذا الحيوان القوي آكل العشب رمزًا لإلههم. وإنا لنقرأ في سفر الخروج ٣٢/ ٢٥- ٢٨ كيف أخذ اليهود يرقصون وهم عراة أمام العجل الذهبي، وكيف أعدم موسى واللاويون ثلاثة آلاف منهم عقابًا لهم على عبادة هذا الوثن[(١)].

وبقيت عبادة العجل تتجدد في حياة بني إسرائيل من حين إلى حين، فقد جاء في سفر الملوك الملوك الأول ٢٨/١٢ أن يربعام عمل عِجْلَيْ ذهب ليعبدهما أتباعه حتى لا يحتاجوا إلى الذهاب إلى الهيكل، وعبد أهاب ملك إسرائيل الأبقار بعد سليمان بقرن واحد[(٢)].

كما أن أهم مصدر اعتمدت عليه أسفار العهد القديم هو تشريع حورابي الذي يرجع إلى نحو سنة ١٩٠٠ ق.م، وقد اكتشف هذا التشريع في سنة ١٩٠٢م محفورًا على عمود أسود من الصخر وهو أقدم تشريع سامي معروف حتى الآن.

---

(١) قصة الحضارة (٢/ ٣٣٨).

(٢) انظر: اليهودية ص(١٧٥).

ويرى بعض الباحثين أن فكرة تابوت العهد اقتباس من الفكر المصري الذي كان به نظائر لهذا التابوت المقدس.

ويرى بعض الباحثين أيضًا أن مزامير داود منقولة حرفيًا وبدون تصرف من أناشيد إخناتون أول فرعون اعتمد ديانة التوحيد في مصر(١).

٢- الكنعانيون

عبادة بعل في عهد القضاة مأخوذة من معبودات الكنعانيين بعد دخول بني إسرائيل فلسطين، وبعل كان يرمز إليه بحجارة مخروطية قائمة كثيرة الشبه بلنجا إله الهندوس؛ وذلك لأنه في رأيهم الجوهر الذكر في التناسل، وزوج الأرض الذي يخصبها.

ويظهر هذا بجلاء بعد انقسام المملكة، فإسرائيل الشماليَّة كانت دولة غنية حظى سكانها بالاستقرار، وقبلوا عادات الكنعانيين، وعبدوا إلههم بعل.

كما أنهم في بعض مراحلهم عبدوا آلهة آرام، وآلهة صيدوم، وآلهة مؤاب، وآلهة الفلسطينيين(٢).

كما أن إطلاق اسم يهوه على إلههم من الجذور العقدية المأخوذة من الكنعانيين، وذلك لأنه من بين الآثار التي وجدت في كنعان (عام ١٩٣١م) قطع من الخزف من بقايا عصر البرنز (٣٠٠٠ ق.م) عليها اسم إله كنعاني يسمى ياه أو ياهو.

يقول ول ديورنت: ويبدو أن اليهود الفاتحين عمدوا إلى أحد آلهة كنعان فصاغوه في الصورة التي كانوا هم عليها، وجعلوا منه إلهًا(٣).

ويرى باتاي أن الشخيناه -التعبير الأنثوي عن الإله- إلهة كنعانية قديمة هي ملكة السماء، وأن اليهود قاموا بعبادتها في المملكة الجنوبية قبل سقوط أورشليم، ويُقال: إن بعض اليهود الذين فروا إلى مصر استمروا في عبادتها مدة طويلة بعد ذلك.

٣- الفينيقيون

يقول ول ديورنت عن الهيكل الذي بناه سليمان: وكان طرازه هو الطراز الذي أخذه الفينيقيون عن مصر، وأضافوا إليه ما أخذوه عن الآشوريين والبابليين من ضروب التزيين(٤).

٤- البابليون

يقول التلمود بالتناسخ، وهي فكرة تسربت لبابل من الهند فنقلها حاخامات بابل إلى الفكر

---

(١) انظر: اليهودية ص(١٩٨)، المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، ص(١٥٤).

(٢) سفر القضاء ١٠/ ٦٠ .

(٣) قصة الحضارة (٢/ ٣٤٠).

(٤) قصة الحضارة (٢/ ٣٣٥).

اليهودي. وكذلك التنبؤ بالغيب على الطريقة البابلية.

ويرى بعض الباحثين أن القبالاه -الصوفيَّة اليهوديَّة- ترجع إلى بلاد بابل، إذ المعتمد عند مؤرخة الفكر الديني عند اليهود أن تعاليم القبالاه كانت نفذت أوربا من خلال صوفي عراقي الأصل والنشأة هو أبو هارون بن صموئيل من مدعي الخوارق والكرامات والنزعات الباطنية المنتشرة في الشرق، الذي هاجر إلى إيطاليا، ونشر تعاليمه بين أفراد من عائلة كالانيموس، الذين نقلوهم بدورهم إلى ألمانيا في القرن العاشر(١).

٥- الفرس

يذهب بعض الباحثين إلى أنه نتيجة العلاقة بين الفرس واليهود، حيث سمح لهم ملك الفرس قورش بالعودة إلى فلسطين وبناء الهيكل. درس اليهود الديانة الزرادشتية ديانة الفرس، ومن تعاليم هذه الديانة اقتبس اليهود الاعتقاد في حياة أخرى بعد الموت، ولأول مرة عرفوا أيضًا أن هناك جنة ونارًا فنقلوا ذلك الاعتقاد في دينهم. وفي هذا الجو بدأ أشعيا كلامه الذي يشير إلى يوم البعث والحساب والجزاء، كما أخذ دانيال يحذر الناس ويذكرهم بيوم الحساب(٢).

يقول ول ديورانت: ولم تدر فكرة البعث في خلد اليهود إلا بعد أن فقدوا الرجاء في أن يكون لهم سلطان في هذه الأرض، ولعلهم أخذوا هذه الفكرة عن الفرس، أو لعلهم أخذوا شيئًا منها عن المصريين(٣).

ويرى بعض الباحثين أيضًا أن فكرة المخلِّص المنتظر مستعارة من الزرادشتية التي يدين بها الفرس في فترة السبي البابلي، وهي فكرة انتصار الخير على الشر في الصراع الطويل بينهما، فما سماه الفرس خيرًا هو عند اليهود المخلص(٤).

ويذهب بعض الباحثين أن القبالاه الصوفيَّة اليهوديَّة قد أخذت -أو تأثرت- من دين زرادشت، ومن ذلك كتاب الزوهار بمعنى النور والضياء، والحياة في عرف الزوهار صراع بين الخير والشر(٥).

كما أن الأفكار الثنوية الرؤياوية التي تساوي بين الجوهر الإلهي وجوهر آخر، وهي فكرة ذات أصول فارسية، وجدت طريقها إلى القبَّالاه أيضًا، في تفرقتها بين عالَم الدنس والرذيلة والموت الحالي من ناحية، وعالم الخير والطهارة والوجود الأبدي الآتي بعد ظهور الماشيَّح من ناحية أخرى(٦).

---

(١) انظر: اليهودية عرض تاريخي ص(١١٥).

(٢) سفر دانيال ١٢/ ٢ .

(٣) انظر: قصة الحضارة ٢/ ٣٤٥، اليهودية ص(١٩٥).

(٤) انظر: اليهودية ص(٢١١).

(٥) انظر: الفرق والمذاهب اليهودية ص(١٢١).

(٦) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

٦- الهيلينية اليونانيَّة

دخل كثير من الأفكار اليونانيَّة على النسق الديني اليهودي. وتأغرقت النخبة اليهودية.

ويرى بعض العلماء أن ثمة علاقة بين فكرة الشخيناه في الفكر اليهودي، وفكرة اللوجوس في فلسفة فيلون.

٧- النصرانيَّة

تأثروا بالفكر النصراني فتراهم يقولون: تسبب يا أبانا في أن نعود إلى شريعتك، قربنا يا ملكنا إلى عبادتك، وعد بنا إلى التوبة النصوح في حضرتك.

٨- المسلمون

ويظهر ذلك من خلال فرقة القرّائين، فكان الاحتجاج القرائي دليلًا على هذا، وقد تأثر القرّاءون بعلم الكلام عند المسلمين.

٩- الحضارة العلمانيَّة في الغرب

انتشر فكر حركة الاستنارة وأخذ اليهود يحاولون إعادة صياغة اليهوديَّة على نمط العالم الغربي المسيحي العلماني، فظهرت حركة التنوير التي وَجَّهت نقدًا قاسيًا للفقه اليهودي ولما يُسمَّى «الشخصية اليهوديَّة».

وظهرت حركة اليهوديَّة الإصلاحية والمحافظة والحركات الثورية المختلفة، وتصاعدت معدلات التنصر والاندماج والعلمنة والإلحاد بين اليهود [1].

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/٥٠٣، ٥٠٤).

الفصل الخامس

الصوفيَّة اليهوديَّة (القبَّالاه)

القبَّالاه: هي مجموعة التفسيرات والتأويلات الباطنية والصوفيَّة عند اليهود.

وكان القبَّاليون يرون أن المعرفة، كل المعرفة (الغنوص أو العرفان)، توجد في أسفار موسى الخمسة، وكانوا ينطلقون في تفسيرها من مفهوم غنوصي أفلاطوني مُحدَث يُفضي إلى معرفة غنوصية، أي باطنية، بأسرار الكون وبنصوص العهد القديم وبالمعنى الباطني للتوراة الشفوية.

والتوراة حسب هذا التصور هي مخطَّط الإله للخلق كله، وينبغي دراستها، لكن كل كلمة فيها تمثل رمزًا، وكل علامة أو نقطة فيها تحوي سرًّا داخليًّا، ومن ثم تصبح النظرة الباطنية الوسيلة الوحيدة لفهم أسرارها.

وقد جاء أنه، قبل الخلق، كُتبت التوراة بنار سوداء على نار بيضاء، وأن النص الحقيقي هو المكتوب بالنار البيضاء، وهو ما يعني أن التوراة الحقيقية مختفية على الصفحات البيضاء لا تدركها عيون البشر.

ومن تفسير القبَّاليين: أخذوا ما جاء في سفر التكوين ٢٨/١ من أن الإله قد خلق الإنسان على صورته، وفسروه تفسيرًا حرفيًّا ثم فرضوا عليه كثيرًا من المعاني حتى توصلوا إلى فكرة آدم قدمون، أي الإنسان الأصلي، ومفادها أن جسم الإنسان يعكس في سماته بناء التجليات النورانية العشرة (سفيروت).

ويقول القبَّاليون: إن الأبجدية العبريَّة لها قداسة خاصة، ولها دور في عملية الخلق، وتنطوي على قوى غريبة قوية ومعان خفية، وبالذات الأحرف الأربعة التي تكوِّن اسم يهوه (تتراجرماتون)، فلكل حرف أو نقطة أو شرطة قيمة عددية.

وإذا كانت الديانات التوحيدية، وضمنها اليهوديَّة، التي تدور حول إله مفارق يتجاوز الطبيعة والتاريخ ترى أن ثمة مساحة تفصل بين الخالق والمخلوق، وبين الإله والكون، فإن التراث القبَّالي ينزع نزوعًا حلوليًّا واضحًا نحو تضييق المسافة بينهما، حتى تتلاشى تمامًا في نهاية الأمر.

وقد أصبحت القبَّالاه في نهاية الأمر ضربًا من الصوفيَّة الحلوليَّة ترمي إلى محاولة معرفة الإله بهدف التأثير في الذات العلية حتى تنفِّذَ رغبات القبَّالي أو المتصوف حتى يتسنى لصاحب هذه المعرفة السيطرة على العالم والتحكم فيه.

وهي أقرب إلى السحر الذي يستخدم اسم الإله والمعادل الرقمي للحروف (جماتريا) والأرقام الأوليَّة والاختصارات (نوطيرقون) للسيطرة.

وترتبط القبَّالاه في وجهها العملي بعدد من العلوم السحرية، مثل: التنجيم، والسيمياء،

والفراسة، وقراءة الكف، وعمل الأحجبة، وتحضير الأرواح.

وكان القبَّاليون يقتربون من رؤية ثنوية للخير والشر، فالشر هو «السترا أحرا» (الجانب الآخر).

بل إن بعض القبَّاليين يتحدثون عن تجليات اليسار، وهي تجليات مضادة؛ قوى مظلمة دنسة تعادي قوى القداسة والخير، وتدخل في صراع شديد معها للسيطرة على العالم.

ومن هنا كان اهتمام القبَّاليين بالجن سمائيل (الشيطان) وزوجته ليليت في القبَّالاه.

ويظهر أثر القبَّالاه في الصلوات والأدعية والتسابيح والابتهالات وشعائر السبت والأعياد والعادات والأخلاق، وفي الأفكار الخاصة بالملائكة والشياطين والماشيَح، والأفكار الأخروية بشكل عام ودور الشعب اليهودي في المنفى، أي أن تأثير القبَّالاه في الحياة اليومية يفوق في عمقه تأثيرها في الأمور ذات الطابع التشريعي والفقهي، وهي الرقعة التي تركوها لعلماء التلمود الذين كانوا يُصدرون فتاواهم الجافة المجردة التي لا حياة فيها لانفصالها عن الواقع[1].

تاريخ الصوفيَّة اليهوديَّة

جذور التصوف ترجع إلى التوراة نفسها فهناك مادة غزيرة جدًّا في أسفار العهد القديم، والتلمود لا يقصر عنها أبدًا في هذا المضمار، ومن الأمثلة البارزة على مادة القبالاه في التوراة: قصة الخليقة في سفر التكوين، رؤيا أشعيا في الهيكل، أوصاف المركبة السماوية في حزقيال، الرؤى الكشفية النبوية في دانيال.

كما أن التلمود ممتلئ بالتأملات الصوفيَّة حول مسألة عمل الخلق والمركبة الإلهية، وهناك شذرات من أدب صوفي يعرف باسم الهياكل والحجرات السماوية، ويرجع تاريخها إلى زمن الفاؤنيم، وهي تتحدث عن الذين ينزلون إلى المركبة ويرتدونها، ويتحدث التلمود عن المتصوفين الذين دخلوا جنات الفردوس، إلى جانب هذه الرواسب والشذرات يطالعنا كتاب شيعوركوماه (مقاييس القوام الإلهي) ويأتي سفر تيزيراه (كتاب الخلق) الذي يذكره التلمود مثال إلى أهم أثر صوفي يرجع عهده إلى تلك الفترة.

ويظهر ارتباط التلمود بالقبَّالاه من خلال دراسة تاريخ التصوف اليهودي، فقد تشكلت حلقات من أتباع يوحنان بن زكاي، وهو من معلمي المشناه (تنائيم) ومن مؤسسي حلقة يفنه التلمودية في القرنين الأول والثاني.

وحاولت هذه الحلقات أن تغوص في أسرار الخلق أو ما يُسمَّى عمل الخليقة، وفي طبيعة العرش الإلهي (أو المركبة).

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، اليهودية عرض تاريخي ص(١١٥)، الفرق والمذاهب اليهودية ص(١٢١).

وقد ساهمت كتاباتهم في وضع أسس أدب الهيخالوت الصوفي، أو الحجرات السماوية، الذى ازدهر في بابل بيزنطة في القرنين السابع والثامن، والذي يصوِّر سبعة قصور أو عوالم سماوية تسكنها الملائكة التي تسبِّح بحمد الإله.

ويوجد عرش الإله، حسبما جاء في قصص هذا الأدب، في العالم السابع، أي في السماء السابعة.

وقد اعتقد أتباع هذه المدرسة أنه من خلال التدريبات الروحية الصارمة، ومن خلال الصوم وإرهاق الجسد، يمكن الوصول إلى الشطحات الصوفيَّة التي تمكِّن الواصلين (أو مشاهدي المركبة) من أن يشعروا بروحهم وهي تصعد من خلال هذه السماوات حتى تصل إلى النقطة التي يطالعون فيها، وبشكل مباشر، التجلي أو الحضور الإلهي والعرش الإلهي.

وبإمكان الأرواح التي تصل إلى هذه المنزلة أن تكشف أسرار الخلق وطُرق الملائكة وموعد وصول المخلص (الماشيَّح).

وقد انتقلت تقاليد أدب الهيخالوت إلى جنوب إيطاليا، ومنها إلى ألمانيا، حيث ظهر ضرب جديد من التقوى الصوفيَّة وصل إلى قمته في القرن الثاني عشر يُسمَّى «أتقياء ألمانيا».

وقد نادى هؤلاء بضرورة الاكتراث بالعواطف والرغبات الدنيويَّة.

وعلى أية حال، فإن القبَّالاه، بمعناها الحالي، ظهرت في فرنسا، وكان من أهم العارفين بالقبَّالاه أبراهام بن داود وابنه إسحاق الأعمى اللذان بدأا في القرن الثاني عشر يتداولان كتاب الباهير، الذي يُعَدُّ أقدم النصوص القبَّالية، ومؤلفه مجهول، وظهر أول ما ظهر في بروفانس؛ فرنسا، ويحتوي الكتاب على أول محاولة لشرح النظرية القبَّالية الحلوليَّة في الفيض الإلهي، وفكرة تناسخ الأرواح، كما يحاول الكتاب وضع أسس التفسير الصوفي لحروف الأبجدية العبريَّة.

وانتقل مركز القبَّالاه بعد ذلك إلى إسبانيا حيث نشأت حلقات متصوفة تحاول أن تتواصل مع الإله من خلال التأمل في التجليات النورانية العشرة، التي تسمى سفيروت أي تجلّيات الإشعاعات الصادرة من النور الذاتي للإله، وهي التي أوجدت العالم، وهي الواسطة وحلقة الوصل بين الإله والكون.

كما كان هؤلاء المتصوفون يهدفون إلى تجديد تقاليد النبوَّة، وإلى الكشف الإلهي من خلال الشطحات الصوفيَّة، ومن خلال التأمل في حروف الكتاب المقدَّس وقيمها العددية وأسماء الإله المقدَّسة.

ومن أهم القبَّاليين في أسبانيا أبراهام بن شموئيل أبو العافية (١٢٤٠ ـ ١٢٩١)، الذي كتب عدة مؤلفات عن القبَّالاه، وكذلك إسحاق بن لطيف بن نحمان (١١٩٥- ١٢٧٠). وكانت مدينة جيرونا في فطالونيا من أهم مراكز القبَّالاه في إسبانيا.

وقد وصلت الحركة القبَّالية إلى قمتها بظهور كتاب الزوهار، الذي تستند إليه الأنساق القبَّالية التي ظهرت بعد ذلك، فهو يعتبر أهم كتب التراث القبَّالي، وهو تعليق صوفي مكتوب بالآراميَّة

على المعنى الباطني للعهد القديم، ويعود تاريخه الافتراضي، حسب بعض الروايات، إلى ما قبل الإسلام والمسيحيَّة، ولكن يقال: إن الذي وضعه هو موسى دي ليون القرطبي وأنه كتبه بين عامي ١٢٨٠- ١٢٨٥، ونسبه إلى الحاخام شمعون بن يوحاي أحد معلمي المشناه في القرن الثاني.

والموضوعات الأساسية التي يعالجها الزوهار هي: طبيعة الإله وكيف يكشف عن نفسه لمخلوقاته، وأسرار الأسماء الإلهية، وروح الإنسان وطبيعتها ومصيرها، والخير والشر، وأهمية التوراة، والماشيَّح والخلاص.

وقد قام القبَّاليون بإنشاء مركز لهم في مدينة صفد في فلسطين عام ١٤٢١ .

وبعد ذلك، انتشرت التقاليد القبَّالية بعد أن أخذت شكلها المحدد في الزوهار، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر في إسبانيا ثم في كل إيطاليا وبولندا.

وتُسمَّى القبَّالاه النابعة من الزوهار قبَّالاة الزوهار (ويسميها جيرشوم شوليم «القبَّالاه النبوية»).

وازداد الاهتمام بالقبَّالاه بعد طرد يهود إسبانيا وتَصاعُد الحمَّى المشيحانية، وخصوصًا بما اشتملت عليه القبَّالاه من عقيدة خلاص جماعة بني إسرائيل.

وكان من أهم القباليين في ذلك الوقت إسحاق أبرابانيل (١٤٣٧-١٥٠٨) الذي وضع ثلاثة كتب عن عقيدة المخلص (الماشيَّح)، وهي: مصادر الخلاص، وخلاص الماشيَّح، وإعلان الخلاص.

وقد وُجد واحد من أهم مراكز القبَّالاه في صفد، وكان يضم مجموعة من اليهود السفارد الذين طُردوا من إسبانيا، ومن هنا كان عمق إحساسهم بالكارثة التي حاقت باليهود وبعجزهم الكامل وعزلتهم عن أية مشاركة حقيقية في العمليات التاريخية.

ومن أهم أعضاء هذه المجموعة إسحاق لوريا (١٥٣٤-١٥٧٢) الذي طوَّر المفاهيم القبَّالية فيما سُمِّي «القبَّالاه اللوريانية»، (ويسميها جيرشوم شوليم: القبَّالاه المشيحانية)، وهي تعني أساسًا بالخلاص وبالنهاية.

ولعل أهم إسهامات لوريا مفهومه الخاص عن الشرارات الإلهية المتناثرة والمتبعثرة (نيتسوتسوت) ومن ضمنها مشاركة الإنسان اليهودي الحَرْفية مع الإله (وليس المجازية) في عملية الخلاص الكونية، وعودة جماعة بني إسرائيل وانتصارها كخطوة أساسية في هذه العملية.

وقد خلف لوريا أتباع كثيرون نشروا فكره وشرحوه، ومن أتباعه حاييم فيتال، ويوسف بن طبول، وإسرائيل سروج.

ومن علماء القبالاه يعقوب أبو حصيرة (١٨٠٧-١٨٨٠) المدفون بقرية دِمِتوه القريبة من دمنهور، وقد بنى اليهود له ضريحًا وكانوا يذهبون إليه للتبرك به، واتخذوا من مقبرته ما يشبه حائطًا جديدًا للمبكى حيث يُقام الاحتفال بمولده كل عام.

وقد سيطرت القبَّالاه، في نهاية الأمر، وأصبحت جزءًا لا يتجزأ من اليهوديَّة الكلاسيكية

أو اليهوديَّة المعيارية أو التلمودية، ويحدد جيرشوم شولم الفترة بين عامي ١٦٣٠ و١٦٤٠ على أنها الفترة التي أحكمت فيها القبَّالاه اللوريانية سيطرتها شبه الكاملة على الفكر الديني اليهودي.

حتى إن الحاخام جويل سيركيس (١٥٦١ ـ ١٦٤٠)، وهو من أهم علماء التلمود قال: إن من يعترض على العلم القبَّالي يُطرَد من حظيرة الدين.

كما أن الشولحان عاروخ نفسه، أهم كتب المؤسسة الحاخامية الأرثوذكسيَّة، يجعل الإيمان بالقبَّالاه فرضًا دينيًا.

وقد أصبحت القبَّالاه من اللاهوت اليهودي نفسه، ولم يَعُد بمقدور أي يهودي مهاجمتها.

وقد استمرت هذه النزعة داخل الحركة الشبتانية والحركة الفرانكية وبين الدونمه، وأخيرًا في الحركة الحسيديَّة في القرن التاسع عشر التي اكتسحت يهود شرق أوربا (وهي تَصدُر عن الإيمان بعقائد القبَّالاه على وجه العموم والقبَّالاه اللوريانية على وجه الخصوص)، وأكدت مفهوم التوحد مع الإله والالتصاق به (ديفيقوت).

ولكن حركة التنوير ناضلت ضد القبَّالاه وضد التصوف الحلولي في اليهوديَّة الأرثوذكسيَّة، وخاصة بين الحاخامات.

والصهيونيَّة وريثة التراث القبَّالي في بنيتها، فهي التعبير عن الطبقة الحلوليَّة، وهي طبقة عبَّرت عن نفسها في بداية الأمر من خلال رؤية حلولية تبشر بالخلاص القومي وترابط الثالوث الحلولي (الإله والشعب والأرض)، فتأتي الصهيونيَّة وتؤكد ارتباط الشعب بالأرض نتيجة الحلول الإلهي أو سريان روحه المقدَّسة، ثم حوَّلت الدولة نفسها إلى مطلق واحد أحد يدين له الجميع بالولاء، فهي محط الحلول الإلهي أو هي التعبير عن الحلوليَّة بدون إله.

كما تأثر كثير من المفكرين الصهاينة بالفكر القبَّالي، ومن أهمهم الحاخام أبراهام كوك الذي توصَّل إلى صيغة صهيونية ليست قومية دينية وحسب، وإنما صيغة صهيونية قومية عضوية حلولية لا تقنع فقط بالرؤية التقليدية التي ترى أن الإله قد يجعل اليهود محط عنايته الخاصة بل تؤكد كذلك أن الإله يحل فيهم كجماعة حتى يشكِّل هو والشعب والأرض ثالوثًا حلوليًا صهيونيًا.

كما يُلاحَظ أثر القبَّالاه في فكر جماعة جوش إيمونيم. وفي مقابلة بين كاتب إسرائيلي من رافضي الاستيطان في الضفة الغربية وأحد أعضاء جوش إيمونيم، قال الأخير: انطلاقًا من تراث القبَّالاه، العالم مقسَّم إلى خمسة أقسام: الجماد، والنبات، والحيوان، والناطق، واليهودي. والتناقض الأساسي كامن بين الناطق واليهودي.

وآخر كُتب القبَّالاه في العالم الغربي وضعه بالألمانيَّة هيرتس أبراهام شير، ونُشر عام ١٨٧٥ .

ولكن، ظهرت كتب قبَّالية مختلفة في شرق أوربا والشرق الأوسط حتى الحرب العالمية الثانية.

ولا تزال كتب القبَّالاه تُكتَب وتُطبَع وتُنشَر في إسرائيل.

الحلول في الصوفيَّة اليهوديَّة

يصل الحلول إلى منتهاه وإلى درجة وحدة الوجود في تراث القبَّالاه، فهو تراث يكاد يكون خاليًا تمامًا من أي توحيد أو تجاوز أو علو للإله، وبحيث لا يصبح هناك فارق بين الجوهر الإلهي والجوهر اليهودي، ويصبح الفارق الأساسي هو بين الجوهر اليهودي المقدَّس وجوهر بقية البشر.

ويصبح الفرق بين اليهود والأغيار فرقًا ميتافيزيقيًا، فاليهود قد خُلقوا من مادة مقدَّسة (حل فيها الإله بروحه) مختلفة عن تلك المادة (الوضيعة العادية) التي خُلقت منها بقية البشر.

ويكتسب الإله صفات بشرية، ولذا فهو يغازل الشعب اليهودي (بنت صهيون)، ويدخل معه (أو معها) في علاقة عاطفية قوية ذات إيحاءات جنسية، وهي فكرة أصبحت أساسية في التراث القبَّالي.

وتتضح النزعة نفسها في قصة الخلق في التراث القبَّالي، فالإله لا يخلق العالم من العدم وإنما صدرت عنه التجليات النورانية العشرة (سفيروت) التي تأخذ صورة آدم الأول أو القديم (آدم قدمون)؛ أي أن صورة الإله هي صورة الإنسان، وتستقل التجليات العشرة تمامًا عن الخالق حتى إنه يتحدث مع الشخيناه (التجلي العاشر).

كما أن التجلي المذكر للإله يطارد التجلي المؤنث.

وتصبح تلاوة الشماع، حسب الفكر القبَّالي، هي المحاولة التي يبذلها اليهود ليتوحد التجلي الذكوري بالتجلي الأنثوي، ويجتمعان معًا بالمعنى الجنسي.

وفي داخل التراث القبَّالي، يصبح التجلي العاشر (شخيناه) الذات الإلهية والتعبير الأنثوي عن الإله، وهو نفسه جماعة بني إسرائيل، أي أن الزواج بين الخالق والشعب يصبح هنا توحدًا كاملًا.

ويقوم هذا الشعب بتوزيع رحمة الإله على العالمين.

ثم تصل الحلوليَّة إلى ذروتها والشرك إلى قمته، حين يصبح الإنسان اليهودي شريكًا للإله في عملية الخلق نفسها، ويزداد الإله اعتمادًا على الإنسان.

وبعد عملية السقوط، وتَهشُّم الأوعية في القبَّالاه اللوريانية، تتفتت الذات الإلهية نفسها، وتتوزع الشرارات الإلهية، ولا يتأتى للإله أن يستعيد كماله ويحقق ذاته إلا من خلال شعبه اليهودي.

فاليهود بآثامهم يؤخِّرون عملية الخلاص التي تؤدي إلى خلاص العالم وإلى اكتمال الإله، وهم بأفعالهم الخيرة يعجلون بها؛ ولذا فالأغيار والإله يعتمدون على أفعال اليهود الذين يشغلون مكانة مركزية في العملية التاريخية والكونية للخلاص.

وعند هذه النقطة، يصبح من الصعب الحديث عن اليهوديَّة باعتبارها ديانة توحيديَّة[١].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، اليهودية عرض تاريخي ص(١١٦- ١١٩)، الفرق والمذاهب اليهودية ص(١٢١- ١٣٠).

الباب الثاني
فرق اليهود

الفصل الأول: حقيقة التفرق اليهودي.

الفصل الثاني: التدرج الزمني لظهور فرق اليهود.

الفصل الثالث: فرق اليهود.

- السامريون (أو السامرة)
- الصدوقيون (أو الصدوقية)
- الفريسيون
- الغيورون (قنَّائيم)
- عصبة حملة الخناجر
- الأسينيون
- الفقراء (الإبيونيون)
- المَغارية
- المعالجون (ثيرابيوتاي)
- المستحمون في الصباح (هيميروبابتست)
- عبدة الإله الواحد (هبستريون)
- البناءون (بنائيم)
- الكتبة
- الناموسيون
- القرّاءون أو العَنانية
- السفارد
- الإشكناز
- الحسيديون أو الحسيديَّة

الفصل الأول

حقيقة التفرق اليهودي

توجد في اليهوديَّة فرق كثيرة تختلف الواحدة منها عن الأخرى اختلافات جوهرية وعميقة تمتد إلى العقائد والأصول، فهي في الواقع ليست كالاختلافات التي توجد بين الفرق المختلفة في الديانات التوحيدية الأخرى.

ومن ثم، فإن كلمة «فرقة» لا تحمل في اليهوديَّة الدلالة نفسها التي تحملها في سياق ديني آخر.

ففي داخل اليهوديَّة يمكن ألا يؤمن اليهودي بالإله ولا بالغيب ولا باليوم الآخر ويُعتبر مع هذا يهوديًّا حتى من منظور اليهوديَّة نفسها.

فالصدوقيون مثلًا كانوا ينكرون البعث واليوم الآخر، ومع هذا كانوا يجلسون في السنهدرين - مجمع الكهنة -، جنبًا إلى جنب مع الفريسيين، ويشكلون قيادة اليهود الكهنوتية.

ولعل هذا يعود إلى طبيعة العقيدة اليهوديَّة التي تشبه التركيب الجيولوجي التراكمي أي الطبقات المستقلة المتراكمة الواحدة فوق الأخرى والغير متجانسة، وأهم هذه الطبقات هي الطبقة التوحيدية والطبقة الحلوليَّة.

ويعود أيضًا إلى أن الشريعة اليهوديَّة تُعرِّف اليهودي بأنه من يؤمن باليهوديَّة، أو من وُلد لأم يهودية حتى ولو لم يؤمن بالعقيدة.

فاليهوديَّة لم تتبنَ تعريفًا عقيديًّا وحسب (اليهودي هو من يؤمن باليهوديَّة)، ولكنها تبنت أيضًا تعريفًا بيولوجيًّا ماديًّا (اليهودي هو من وُلد لأم يهودية)، وفي الآونة الأخيرة تبنت تعريفًا نفسيًّا (اليهودي هو من يشعر بذلك في قرارة نفسه، ومن قَبل أن يربط مصيره بمصير الشعب اليهودي)، وهذه تعريفات تُسقط المعيارية وتفتح الباب على مصراعيه لكل من يريد أن يُسمِّي نفسه يهوديًّا؛ فالتعريفان الثاني والثالث لا علاقة لهما بأية معيارية عقيدية[1].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، د. عبد الوهاب المسيري.

الفصل الثاني

التدرج الزمني لظهور فرق اليهود

يجرنا البحث عن الفرق اليهوديَّة وعن تاريخها وأفكارها إلى البحث عن نشأة اليهوديَّة نفسها ومعرفة بداية ظهورها، والذي ذهب إليه كثير من الباحثين هو أن اليهوديَّة قد نشأت على يد عزرا ونحميا، وعلى ذلك براهين، منها: أنه لا توجد كلمة اليهوديَّة أو ما يشير إلى الديانة اليهوديَّة في العهد القديم قبل سفر عزرا الذي كتب التوراة بعد فقدها حين غزو نبوخذنصر (أو بختنصر) لهم، أو إخفائها من قِبلهم في الأسر البابلي.

وعلى هذا فأي فرقة من فرق اليهود لن تتعدى في الزمن القرن الخامس قبل الميلاد[1].

ونلاحظ هنا أنه عند كل مواجهة لليهودية مع الكتل الدولية الفكريَّة الكبرى الموجودة في ذلك الوقت فإن اليهوديَّة تنقسم وتظهر الفرق اليهوديَّة.

١- ففي القرن الخامس قبل الميلاد كان ظهور أولى الفرق اليهوديَّة التي أدَّت إلى انقسام اليهوديَّة وهي فرقة السامريين التي ظلت أقلية معزولة بسبب قوة السلطة الدينيَّة المركزية المتمثلة في الهيكل ثم السنهدرين (طبقة الكهنة)، وكان هذا بعد مواجهة اليهوديَّة لأزمة كبرى أولى مع الآشوريين والبابليين.

٢- ومع القرن الثاني قبل الميلاد، خاضت اليهوديَّة أزمة حقيقية كبرى ثانية بسبب المواجهة مع الحضارة الهيلينية.

فظهرت فرقة الصدوقيين، وفرقة الفريسيين، وظهرت فرقتا الغيورين، وعصبة حملة الخناجر اللذين كانا يُعَدان جناحًا متطرفًا من الفريسيين، ثم ظهرت فرقة الأسينيين.

وقد حققت هذه الفرق ذيوعًا، وأدَّت إلى انقسام اليهوديَّة.

ولكنها اختفت لسببين: **أولهما**: انتهاء العبادة القربانية بعد هدم الهيكل، **وثانيهما**: ظهور المسيحيَّة التي حلت أزمة اليهوديَّة في مواجهتها مع الهيلينية إذ طرحت رؤية جديدة للعهد يضم اليهود وغير اليهود، ويحرر اليهود من نير التحريمات العديدة، ومن جفاف العبادة القربانية وشكليتها.

وظهرت فرقة الحسيديَّة وهي جماعات من مؤيدي التمرد الحشموني في القرن الثاني قبل الميلاد.

ثم استُخدمت للإشارة إلى الحركة الصوفيَّة التي نشأت في ألمانيا في القرن الثاني عشر، ثم أصبحت تشير إلى أتباع الحَركة الحسيديَّة التي نشأت في بولندا في القرن الثامن عشر، وهذا هو

---

(١) انظر: الفرق والمذاهب اليهودية، عبد المجيد همو، ص(٢٦).

الاستخدام الشائع في الوقت الحالي.

٣- وبعد ظهور المسيحيَّة واجهت اليهوديَّة أزمة كبرى ثالثة فظهر في القرن الأول الميلادي اليهوديَّة المسيحيَّة، وظهرت فرق صغيرة لكل منها تصوُّرها الخاص عن اليهوديَّة، مثل: فرقة الفقراء أو الإبيونيين، وفرقة المغارية، وفرقة المعالجين أو الثيرابيوتاي، وفرقة المستحمون في الصباح، وفرقة عبدة الإله الواحد.

ولكن هذه الفرق الصغيرة نظرًا لعزلتها، لم تؤثر كثيرًا في مسار اليهوديَّة وقد اختفى معظمها من الوجود.

كما ظهرت فرقة البنائيين السرية التي عُرِفت بالقوة الخفية، وكان هدفها هو تقويض المسيحيَّة والقضاء عليها، وظلت هذه الفرقة تعمل بخفاء حتى ظهورها في القرن الثامن عشر باسم الماسونية، وظهرت في العصر الحديث بأثواب وأشكال أخرى كالروتاري والليونز وغيره.

٤- وجابهت اليهوديَّة أزمة كبرى رابعة حين تمت المواجهة مع الفكر الإسلامي، فأدى هذا إلى ظهور القرائين كنوع من رد الفعل، فرفضت الشريعة الشفوية وطرحت منهجًا للتفسير يعتمد على القياس والعقل؛ أي أنها انشقت عن اليهوديَّة الحاخامية تمامًا.

والقرّاءون بعد عصرهم الذهبي في القرن العاشر، سقطوا في حرفية التفسير، الأمر الذي قلَّص نفوذهم حتى تحولوا إلى فرقة صغيرة آخذة في الاختفاء.

٥- ثم حدثت مواجهة لليهودية مرة أخرى مع المسيحيَّة في شبه جزيرة أيبريا -أسبانيا والبرتغال- في القرن الخامس والسادس عشر فأدى إلى ظهور اليهود السفارد وجماعات المارانوا، وفي المقابل ظهور اسم اليهود الإشكناز.

٦- وقد جابهت اليهوديَّة أزمتها الكبرى الخامسة في العصر الحديث (في الغرب) مع الانقلاب التجاري الرأسمالي الصناعي.

وقد ظهرت إرهاصات الأزمة في شكل ثورة شبتاي تسفي على المؤسسة الحاخامية، فهو لم يهاجم التلمود وحسب، وإنما أبطل الشريعة نفسها، وأباح كل شيء لأتباعه، الأمر الذي يدل على أن تراث القبَّالاه الحلولي، الذي يعادل بين الإله والإنسان، كان قد هيمن على الوجدان الديني اليهودي، وقد وصف الحاخامات تصوُّر القبَّاليين للإله بأنه شرك.

وبعد أن أسلم شبتاي تسفي، هو وأتباعه الذين أصبحوا يُعرفون بالدونمه، ظهر جيكوب فرانك الذي اعتنق المسيحيَّة هو وأتباعه وحاول تطوير اليهوديَّة من خلال أطر مسيحية كاثوليكيَّة.

وقد تفاقمت الأزمة واحتدمت مع الثورة الفرنسيَّة، حيث إن الدولة القومية الحديثة في الغرب منحت اليهود حقوقهم السياسية، وطلبت إليهم الانتماء السياسي الكامل، الأمر الذي كان يعني ضرورة تحديث اليهود واليهوديَّة وما تسبب عن ذلك من أزمة أدَّت إلى تصدعات جعلت أتباع اليهوديَّة الحاخامية التقليدية (أي اليهود الأرثوذكس) أقلية صغيرة، إذ ظهرت اليهوديَّة الإصلاحية

ثم المحافظة ثم التجديدية، وهي فرق أعادت تفسير الشريعة أو أهملتها تمامًا، واعترفت بالتلمود أو وجدت أنه مجرد كتاب مهم دون أن يكون مُلزمًا.

كما أنها عَدَّلت معظم الشعائر، مثل شعائر السبت والطعام، وأسقطت بعضها، وعَدَّلت أيضًا كتب الصلوات وشكل الصلاة، أي أن فهمها لليهودية وممارستها لها يختلف بشكل جوهري عن اليهوديَّة الحاخامية الأرثوذكسيَّة.

ومنذ أيام الفيلسوف إسبينوزا، ظهر نوع جديد من اليهود لا يمكن أن نقول: إنه فرقة ولكن لا بد من تصنيفه حيث يشكل الأغلبية العظمى من يهود العالم (نحو ٥٠%).

وهذا النوع من اليهود هو الذي يترك عقيدته اليهوديَّة، ولكنه لا يتبنى عقيدة جديدة، وهو لا يؤمن عادةً بإله على الإطلاق، وإن آمن بعقيدة ما فهو يؤمن بشكل من أشكال الدين الطبيعي أو دين العقل أو دين القلب، ولا يمارس أية طقوس.

وهؤلاء يُطلَق عليهم الآن اسم «اليهود الإثنيون»؛ أي أنهم لا ينتمون إلى أية فرقة دينية تقليدية أو حديثة، ولكنهم مع هذا يسمون أنفسهم يهودًا؛ لأنهم ولدوا لأم يهودية.

ويمكن أن نضيف إلى الفرق اليهوديَّة يهود الفلاشاه ويهود الهند الذين لا يشكلون فرقًا بالمعنى الدقيق، فهم لم ينشقوا عن اليهوديَّة الحاخامية بقدر ما انعزلوا عنها عبر التاريخ وتطوَّروا بشكل مستقل ومختلف، فهم لا يعرفون التلمود أو العبريَّة، كما أن كتبهم المقدَّسة مكتوبة باللغات المحلية[1].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

الفصل الثالث
فرق اليهود

قال ابن حزم: افترقوا على خمس فرق.

ثم ذكرهم: السامريَّة، والصدوقية، والعنانية، والربانية، والعيسوية[١].

وقال الشهرستاني: اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة[٢].

ثم ذكر أربعة فرق وهي: العنانية، والعيسوية، والمقاربة، والسامرة، ثم قال: فهذه أربع فرق هم الكبار وانشعبت منهم الفرق إلى إحدى وسبعين فرقة.

وهم بأسرهم أجمعوا على أن في التوراة بشارة بواحد بعد موسى، وإنما افتراقهم إما في تعيين ذلك الواحد أو في الزيادة على ذلك الواحد.

وذكر المشيحا وآثاره ظاهر في الأسفار.

وخروج واحد في آخر الزمان هو الكوكب المضيء الذي تشرق الأرض بنوره أيضًا متفق عليه. واليهود على انتظاره، والسبت يوم ذلك الرجل، وهو يوم الاستواء بعد الخلق.

وقد اجتمعت اليهود عن آخرهم على أن الله تعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض استوى على عرشه مستلقيًا على قفاه واضعًا إحدى رجليه على الأخرى.

وقالت فرقة منهم: إن ستة الأيام التي خلق الله تعالى فيها السموات والأرض هي ستة آلاف سنة فإن يومًا عند الله كألف سنة مما تعدون بالسير القمري، وذلك هو ما مضى من لدن آدم عليه السلام إلى يومنا هذا، وبه يتم الخلق، ثم إذا بلغ الخلق إلى النهاية ابتدأ الأمر ومن ابتداء الأمر يكون الاستواء على العرش والفراغ من الخلق وليس ذلك أمرًا كان ومضى بل هو في المستقبل إذا عددنا الأيام بالألوف[٣].

أما المؤرخ اليهودي يوسيفوس الذي عاش في القرن الأول فقد تكلم عن نشأة مذاهب دينية- سياسية أربعة وسماها بالفلسفات الأربع، تعبيرًا عن غربة هذه المذاهب عن التيار الربائي الحاخامي الممثِّل لليهودية وتقاليدها المتوارثة، وذهب إلى أن هذه المذاهب كانت وليدة تأثيرات فلسفية أجنبية غريبة عن اليهوديَّة ولا تمت إليها بصلة، وهذه الفرق الأربعة عند يوسيفوس هي: الفريسيون، والصدوقيون، والأسينيون، والغيوريون[٤].

---

(١) الفصل، ابن حزم (١/ ٨٢).

(٢) الملل والنحل، الشهرستاني (١/ ٢١٤).

(٣) الملل والنحل (١/ ٢١٩).

(٤) انظر: اليهودية عرض تاريخي، د. عرفان عبد الحميد فتاح، ص(٩٢، ٩٣).

وهناك من الباحثين من صنَّف فرق اليهود بعدة اعتبارات منها:

١- اعتبارات سياسية: مثل انقسام دولة إسرائيل بعد موت سليمان -حسب رواية التوراة- إلى إسرائيل ويهوذا، وكل منهما شكل مذهبًا خاصًا، فقد كانت دولة إسرائيل تعبد إله إيل، ومالت من عبادة إيل إلى عبادة البعل والعجول، بينما عبدت دولة يهوذا يهوه إلها آخر، وقد جمع بين هذين المذهبين في تقليدين توراتيين الإيلي واليهوي.

٢- اعتبارات فقهية: مثل انقسامهم إلى الصدوقية والفريسية.

٣- اعتبارات عقدية: مثل انقسامهم إلى من يؤمن بالتوراة فقط، ومن يؤمن بغيرها من الكتب كالتلمود[١].

وعلى كل الأحوال فسوف نتكلم عن كل فرق اليهود بحسب الترتيب الزمني التاريخي لها.

السامريون (أو السامرة) Samaritanss

التعريف:

السامريون: صيغة جمع عربية، وهي كلمة معربة من كلمة شوميرونيم العبريَّة، أي سكان السامرة. ويُشار إليهم في التلمود بلفظة «كوتيم»، وتعني «الغرباء». لكن هذه التسميات هي تسميات اليهود الحاخاميين لهم.

وكان يوسيفوس يسميهم الشكيميين نسبةً إلى شكيم (نابلس الحالية).

أما هم فيطلقون على أنفسهم «بنو إسرائيل»، أو «بنو يوسف»، باعتبار أنهم من نسل يوسف.

كما يطلقون على أنفسهم اسم «شومريم»؛ أي «حفظة الشريعة»، باعتبار أنهم انحدروا من صلب يهود السامرة الذين لم يرحلوا عن فلسطين عند تدمير المملكة الشماليَّة عام **٧٢٢** ق.م، فاحتفظوا بنقاء الشريعة.

وقال الشهرستاني عنهم: هؤلاء قوم يسكنون جبال بيت المقدس وقرايا من أعمال مصر، ويتقشفون في الطهارة أكثر من تقشف سائر اليهود.

وعرفهم البعض بأنهم: طائفة من المتهوّدين الذين دخلوا اليهوديَّة من غير بني إسرائيل، كانوا يسكنون جِبَالِ بيت المقدس[٢].

التاريخ والأحداث

بعد تهجير قطاعات كبيرة من سكان المملكة الشماليَّة، قام الآشوريون بتوطين قبائل من بلاد

---

(١) انظر: الفرق والمذاهب اليهودية ص(٢٢).

(٢) انظر: الملل والنحل (١/٢١٨)، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الموسوعة الميسرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي (١/٥٠٠).

عيلام وسوريا وبلاد العرب لتحل محل المهجرين من اليهود، وتسكينهم في السامرة وحولها.

وامتزج المستوطنون الجدد مع من تبقَّى من اليهود، واتحدت معتقداتهم الدينيَّة، وقد نتج عن تلك اختلاف عن بقية اليهود.

ولكن الانشقاق النهائي حدث عام ٤٣٢ ق.م، بين اليهود والسامريين، بعد عودة عزرا ونحميا من بابل، حيث دافعا عن فكرة النقاء العرقي، ومنع الزواج من الأغيار[١].

وثمة قصتان لتاريخ الانشقاق:

أولاهما ترد في العهد القديم ففي سفر نحميا ١٣/ ٢٣- ٢٨: في تلك الأيام، كان واحد من بني يوياداع بن الياشيب الكاهن العظيم صهرًا لسنبلط الحوروني فطردته من عندي.

وقد وردت عن يوسيفوس رواية أخرى مفادها أن منَسَّى شقيق الكاهن الأعظم تزوج من ابنة حاكم السامرة سنبلط الثالث (الفارسي)، فخيَّره الكهنة بين أن يطلق زوجته أو أن يتخلى عن مكانته وسلطاته الكهنوتية، فلجأ منَسَّى لحميه الذي بَنَى لزوج ابنته هيكلًا على عادة العبرانيين القدامى على جبل جريزيم لينافس هيكل القدس، وأصبح الشاب المطرود كاهن السامريين، وبعد أن أسس الهيكل، انضم إليه عشرات الكهنة الآخرين المتزوجين من أجنبيات وعناصر يهودية أخرى غير راضية عن المؤسسة الدينيَّة في القدس.

ومن الواضح أن ثمة عناصر مشتركة بين القصتين تتمثل في بعض الأسماء والعلاقات الأساسية وفي عملية الطرد.

ومع أن هناك قرنًا من الزمان يفصل بين القصتين الأولى والثانية، فإن من الواضح أنهما تشيران إلى الواقعة نفسها.

ويحل المؤرخون هذه القضية بأن يأخذوا بقصة يوسيفوس ويرجعوا بتاريخها إلى زمن نحميا.

وقد نشبت صراعات بين السامريين وبقية اليهود، واشتدت الخصومة بينهما وانتهت بعداوة راسخة وانفصال تام، وأدى هذا إلى نفي بعض اليهود عن السامريين صفة الانتساب إلى اليهوديَّة، كما أنهم يعاملونهم معاملة الأغيار في أمور الزواج والموت.

وفي بعض طبعات التلمود، تحل كلمة «السامريين» محل كلمة «الأغيار» حتى تبدو عبارات السباب العنصري وكأنها موجهة إلى السامريين وحدهم وليس إلى كل الأغيار.

ويذهب السامريون إلى أن اليهوديَّة الحاخامية هرطقة وانحراف، وأن قيادة اليهود الدينيَّة أضافت إلى التوراة وأفسدت النص ليتفق مع وجهة نظرها.

ومع هذا فإن السامرة تعرضوا لكثير من التوترات التي تَعرَّض لها اليهود في علاقتهم بالإمبراطوريات التي حكمت المنطقة.

---

(١) انظر: عزرا ١٠/ ٩- ١٢، نحميا ١٣/ ٢٣- ٢٨.

فبعد أن فتح الإسكندر المنطقة عام ٣٢٣ ق.م، هاجر بعض السامريين إلى مصر وكونوا جماعات فيها. وهذه هي بداية الشتات السامري التي امتدت وشملت سالونيكا وروما وحلب ودمشق وغزة وعسقلان.

وحينما قرر أنطيوخوس الرابع (١٧٥ . ١٦٤ ق.م) دَمْج يهود فلسطين في إمبراطوريته لتأمين حدوده مع مصر، كان السامريون ضمن الجماعات التي استهدف دمجها وإذابتها رغم أنهم أعلنوا أنهم لا ينتمون إلى الأصل اليهودي.

وحينما استولى الحشمونيون على الحكم (١٦٤ ق.م)، واجه السامريون أصعب أزمة في تاريخهم إذ سيطر الحشمونيون على شكيم وجريزيم، واستولوا على مدينة السامرة وحطموها.

وقد حطم يوحنا هيركانوس معبدهم المقدس (هيكلهم) عام ١٢٨ ق.م. ومع هذا، فقد استمر السامريون في تقديم قرابينهم على جبل جريزيم.

كما أن هَدْم الهيكل لم ينتج عنه انتهاء طبقة الكهنة على عكس اليهود الذين انتهت عبادتهم القربانية المركزية وطبقة الكهنة التي تقوم بها بهدم هيكل القدس.

ويبدو أن السامريين لم يساعدوا اليهود أثناء التمرد اليهودي الأول، ومع هذا نشب تمرُّد مستقل في صفوفهم ضد فسبسيان عام ٦٧ ق.م، وتم قمعه.

كما ثار السامريون ضد الرومان عام ٧٩ . ٨١ م، فهُدمت شكيم وبُني مكانها نيابوليس (نابلس) أي «المدينة الجديدة».

وتمتع السامريون بمرحلة ازدهار فكري في القرن الرابع الميلادي تحت قيادة زعيمهم القومي بابا رابا.

ومن أهم مفكريهم الدينيين مرقه الذي عاش في القرن نفسه، وكاتب الأناشيد التي تُسمَّى «إمرالم دارا».

وقد عانى السامريون من الاضطهاد على يد الإمبراطورية البيزنطيَّة.

وفي عام ٥٢٩ الميلادي، قام جوستينيان بشن هجمة شرسة عليهم لم تقم لهم قائمة بعدها.

ويُقال: إن الرومان سمحوا للسامريين ببناء هيكلهم الذي دمره الحشمونيون حينما رفضوا الانضمام إلى ثورة بركوخبا، ولكن هذا الهيكل دُمِّر بدوره عام ٤٨٤م.

وقد ساعد السامريون المسلمين إبان الفتح الإسلامي، كما وقفوا مع المسلمين ضِد الغزو الصليبي.

وظهر في السامرة رجل يقال له: الألفان ادعى النبوة وزعم أنه هو الذي بشر به موسى عليه السلام، وأنه هو الكوكب الدري الذي ورد في التوراة أنه يضيء ضوء القمر، وكان ظهوره قبل المسيح عليه السلام بقريب من مائة سنة.

وافترقت السامرة إلى دوستانية وهم الألفانية، وإلى كوستانية،

والدوستانية معناها: الفرقة المتفرقة الكاذبة، والكوستانية معناها: الجماعة الصادقة وهم يقرون بالآخرة والثواب والعقاب فيها، والدوستانية تزعم أن الثواب والعقاب في الدنيا

وبين الفريقين اختلاف في الأحكام والشرائع.

المعتقدات والأفكار

١- أثبتوا نبوة موسى وهارون ويوشع بن نون عليهم السلام، وأنكروا نبوة من بعدهم من الأنبياء إلا نبيًّا واحدًا، وقالوا: التوراة ما بشرت إلا بنبي واحد يأتي من بعد موسى يصدق ما بين يديه من التوراة ويحكم بحكمها ولا يخالفها ألبتة.

٢- الكتاب المقدَّس عند السامريين هو أسفار موسى الخمسة، ويُضاف إليها أحيانًا سفر يشوع بن نون. وهو في عقيدتهم منزل من عند الله، وهي تختلف عن الأسفار المدونة، وينكرون الشريعة الشفوية، ويأخذون بظاهر نصوص التوراة.

٣- لغتهم غير لغة اليهود، وزعموا أن التوراة كانت بلسانهم وهي قريبة من العبرانيَّة فنقلت إلى السريانيَّة.

ولغة العبادة عندهم هي العبريَّة السامريَّة، ولكن لغة الحديث ولغة الأدبيات الدينيَّة كانت العربيَّة. وكان كتابهم المقدَّس يُكتَب بحروف عبرية قديمة، ويزعم السامريون أن اللغة والحروف جاءتهم صحيحة من عهد النبي موسى.

٤- يحتفل السامريون بالأعياد اليهوديَّة، مثل يوم الغفران وعيد الفصح، ولكنهم كانت لهم أعياد مقصورة عليهم وتقويم خاص بهم.

٥- يؤمنون بعودة الماشيَّح برغم أنه لا توجد في أسفار موسى الخمسة أية إشارة إليه.

٦- قبلة السامرة جبل يقال له: جريزيم بين بيت المقدس ونابلس، وهو المكان المقدس لديهم.

قالوا: إن الله تعالى أمر داود أن يبني بيت المقدس بجبل نابلس[1]، وهو الطور الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام[2]، وتحول داود إلى إيلياء وبنى البيت ثمة وخالف الأمر فظلم.

والسامرة توجهوا إلى تلك القبلة دون سائر اليهود.

٧- قال ابن حزم: وهم يقولون: إن مدينة القدس هي نابلس، وهي من بيت المقدس على ثمانية عشر ميلًا ولا يعرفون حرمة لبيت المقدس ولا يعظمونه، ولهم توراة غير التوراة التي بأيدي سائر اليهود، ويبطلون كل نبوة كانت في بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام وبعد يوشع عليه السلام

---

(١) انظر: تكوين ١٨/ ١٠- ١٩ .

(٢) انظر: تثنية ٢٧/ ١١- ١٥ .

فيكذبون بنبوة شمعون، وداود، وسليمان، وأشعيا، واليسع، وإلياس، وعاموص، وحبقوق، وزكريا، وأرميا، وغيرهم، ولا يقرون بالبعث ألبتة وهم بالشام لا يستحلون الخروج عنها[١].

الأعداد والتواجد الحالي

يُعَدُّ السامريون جماعة شبه منقرضة، فهم يعتبرون أصغر جماعة دينية في العالم، فعددهم لا يتجاوز خمسمائة، حوالي ٣٣٧ شخصًا بين ذكور وإناث، وقد مر عليهم وقت غير بعيد لم يزد عددهم فيه عن ١٠٠ نفس متفرقين في قرى مختلفة.

وقبل ٣٥٠ سنة لم يكن قد بقي منهم سوى خمسة ذكور وخمس إناث لا غير، فجمعهم الكاهن صدقة في نابلس بعد أن كانوا يعيشون متفرقين في دمشق وغزة ومصر، ويعيش بعضهم في نابلس ويعيش البعض الآخر في حولون (إحدى ضواحي تل أبيب)[٢].

الصدوقيون (أو الصدوقية) Saducees

التعريف:

الصدوقيون: مأخوذة من الكلمة العبريَّة «صدوقيم»، ويُقال لهم أحيانًا: البوئيثيون Boethusian.

وأصل الكلمة غير محدَّد، وله احتمالان:

الأول: ما ذهب إليه بعض الباحثين ومنهم ابن حزم أنهم نسبوا إلى رجل يقال له: صدوق، ولكنهم اختلفوا في تعينه، فقيل: هو اسم الكاهن الأعظم في عهد سليمان، الذي توارث أحفاده مهمته حتى عام ١٦٢ ميلادية[٣]، وقيل: هو اسم كاهن وجد في القرن الثالث قبل الميلاد.

الثاني: أن تكون التسمية من الأضداد؛ لأنهم مشهورون بالإنكار، فهم ينكرون البعث والحساب والجنة والنار، وينكرون التلمود كما ينكرون الملائكة والمسيح المنتظر.

والصدوقيون فرقة دينية وحزب سياسي، وهم أعضاء القيادة الكهنوتية المرتبطة بالهيكل وشعائره والمدافعون عن الحلوليَّة اليهوديَّة الوثنية.

التاريخ والأحداث

يرى بعض الباحثين أنهم نشئوا في عهد النبي سليمان، ويرى غالبية الباحثين أنهم نشئوا في القرن الثالث قبل الميلاد.

---

(١) الفصل (١/ ٨٢).

(٢) انظر: الملل والنحل (١/ ٢١٨، ٢١٩)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، الرازي، ص(٨٣)، الموسوعة الميسرة (١/ ٥٠٠)، الفرق والمذاهب اليهودية ص(٣٤- ٤٧)، اليهودية عرض تاريخي ص(١١٢- ١١٤).

(٣) انظر: سفر الملوك الأول ١/ ٨، ١/ ٣٨- ٣٩ .

وكان الصدوقيون، بوصفهم طبقة كهنوتية مرتبطة بالهيكل، يعيشون على النذور التي يقدمها اليهود، وعلى بواكير المحاصيل، وعلى نصف الشيقل الذي كان على كل يهودي أن يرسله إلى الهيكل، الأمر الذي كان يدعم الثيوقراطية الدينيَّة التي تتمثل في الطبقة الحاكمة والجيش والكهنة.

وكان الصدوقيون يحصلون على ضرائب الهيكل، كما كانوا يحصلون على ضرائب عينية وهدايا من الجماهير اليهوديَّة، وقد حوَّلهم ذلك إلى أرستقراطية وراثية تؤلِّف كتلة قوية داخل السنهدرين (مجمع الكهنة) الذي هو أعلى سلطة دينية سياسية عند اليهود وبلغ عددهم عشرين عضوًا من أصل سبعين عضوًا.

ويعود تزايد نفوذ الصدوقيين إلى أيام العودة من بابل بمرسوم قورش (٥٣٨ ق.م) إذ آثر الفرس التعاون مع العناصر الكهنوتية داخل الجماعة اليهوديَّة؛ لأن بقايا الأسرة المالكة اليهوديَّة من نسل داود قد تشكل خطرًا عليهم.

واستمر الصدوقيون في الصعود داخل الإمبراطوريات البطلمية والسلوقية والرومانية، واندمجوا مع أثرياء اليهود وتأغرقوا، حتى إنه يطلق المؤرخون اسم الصدوقيين على هذه الفئة التي رغبت أن تصبح إغريقية في جميع مظاهرها وفي ديانتها وعبادتها.

وقام الصدوقيون بدور الوسيط بين الطبقة الحاكمة والشعب، فكانوا يعملون لصالح الإمبراطورية الحاكمة في جمع الضرائب وفي عملية استغلال الجماهير اليهوديَّة؛ ولكن وبالتدريج ظهرت جماعات من علماء ورجال الدين، أهمهم جماعة الفريسيين، تلقوا العلم بطرق ذاتية، كما كانت شرعيتهم تستند إلى علمهم وتقواهم لا إلى مكانة يتوارثونها.

وكانوا يحصلون على دخلهم من عملهم، لا من ضرائب الهيكل، وقد أدَّى ظهور الفريسيين، بصورة أو بأخرى، إلى إضعاف مكانة الصدوقيين.

ومما ساعد على الإسراع بهذه العملية، ظهور الشريعة الشفوية؛ حيث كان ذلك يعني أن الكتاب المقدَّس بدأت تزاحمه مجموعة من الكتابات لا تقل عنه قداسة.

كما أن الكتب الخفية والمنسوبة وغيرها من الكتابات كانت قد بدأت في الظهور.

وقد ساهم الأثر الهيليني في اليهود في إضعاف مكانة الصدوقيين الكهنة، فقد كان اليونانيون القدامى يعتبرون الكهنة من الخدم لا من القادة، وكانت جماعات العلماء الدينين -الفريسيين- أكثر ارتباطًا بالحضارة السامية وبالجماهير ذات الثقافة الآراميَّة.

لكل هذا، زاد نفوذ الفريسيين داخل السنهدرين وخارجه، حتى إنهم أرغموا الكاهن الأعظم على أن يقوم بشعائر يوم الغفران حسب منهجهم هم.

وقد وقف الصدوقيون، على عكس الفريسيين، ضد التمرد الحشموني (١٦٨ ق.م)، ولكنهم عادوا وأيدوا الملوك الحشمونيين باعتبار أن الأسرة الحشمونية أسرة كهنوتية (ابتداءً من ١٤٠ ق.م).

ويرى البعض أنه لا يمكن فَهْم الصراعات التي لا تنتهي بين ملوك الحشمونيين إلا في إطار الصراع بين الحزب الشعبي -الفريسي- وحزب الصدوقيين.

وقد أيَّد الصدوقيون بعد ذلك الرومان.

ولعبوا بعد ذلك دورًا كبيرًا في نقاش عيسى عليه السلام، فقد كانوا في طليعة المسئولين عن محاكمة المسيح في السنهدرين[١].

المعتقدات والأفكار

١- الصدوقيون لا يؤمنون بيوم القيامة، ولا بعالم الآخرة، فهم ينكرون البعث والحياة الآخرة والحساب والجنة والنار، وينكرون مقولات: الروح والآخرة والبعث والثواب العقاب، ويرون أنه لا توجد سوى الحياة الدنيا، وأن جزاء الإنسان يتم في الدنيا وبشكل مادي.

٢- الصدوقيون يرون أن الخالق لا يكترث بأعمال البشر، وأن الإنسان هو سبب ما يحل به من خير وشر، ولذا، فقد قالوا بحرية الإرادة الإنسانية الكاملة.

وهم ينكرون القضاء والقدر وما كتب للإنسان كما ينكرون اللوح المحفوظ ويرون في الإنسان خالقًا لأفعاله وهو مسئول؛ لأنه حر التصرف.

٣- الصدوقيون لا يؤمنون بالشريعة الشفوية كالتلمود (المشنا والجمارا)، ويقولون: علينا ألا نراعي إلا ما ورد في النص المدون، ولا نأخذ بما جاءت به التقاليد الشفوية الموروثة عن الآباء والأجداد.

٤- الصدوقيون يقدمون تفسيرًا حرفيًا للعهد القديم، ويحرِّمون على الآخرين تفسيره.

٥- ينكرون وجود الملائكة والشياطين، فالملاك الذي يذكر في العهد القديم يفسرونه بالرب مباشرة.

٦- يدافعون عن الشعائر الخاصة بالهيكل والعبادة القربانية، ويرون أن فيها الكفاية، وأنه لا توجد حاجة إلى ديانة أو عقيدة دينية مجردة، ولا حاجة إلى إقامة الصلاة أو دراسة التوراة باعتبار أن ذلك شكل من أشكال العبادة.

٧- ينكرون المسيح المنتظر ولا يترقبونه.

٨- ذكر ابن حزم عنهم: أنهم يقولون بين سائر اليهود: إن العزير هو ابن الله -تعالى الله عن ذلك- وكانوا بجهة اليمين.

---

(١) انظر: متى ٧/٣، ١/١٦، ٢٣/٢٢، مرقس ١٨/١٢، لوقا ٢٧/٢٠، أعمال الرسل ١/٤، ١٧/٥ .

التواجد الحالي

قد اختفت هذه الفرقة تمامًا بهدم الهيكل سنة ٧٠ م؛ نظرًا لارتباطها العضوي به[١].

الفريسيون Pharisees

التعريف:

كلمة «فريسيون» مأخوذة من الكلمة العبريَّة «بيروشيم»؛ أي «المنعزلون».

وكانوا يلقبون أيضًا بلقب «حبيريم»؛ أي «الرفاق أو الزملاء».

وهم أيضًا «الكتبة»، أو على الأقل قسم منهم، من أتباع شماي الذين يشير إليهم المسيح عليه السلام.

والفريسيون: فرقة دينية وحزب سياسي -والبعض يجعلهم حركة دينية اجتماعيَّة متشددة رهبانية- ظهرت نتيجة الهبوط التدريجي لمكانة الكهنوت اليهودي بتأثير الحضارة الهيلينية التي تُعلي من شأن الحكيم على حساب الكاهن.

التاريخ والأحداث

يرجع التراث اليهودي جذورهم إلى القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد، بل يُقال: إنهم خلفاء الحسيديين (المتقين)، وهي فرقة اشتركت في التمرد الحشموني.

ولكن الفريسيين ظهروا باسمهم الذي يُعرَفون به في عهد يوحنا هيركانوس الأول (١٣٥ - ١٠٤ ق.م)، وانقسموا فيما بعد إلى قسمين: بيت شماي وبيت هليل.

وقد كان الفريسيون يشكلون أكبر حزب سياسي ديني في ذلك الوقت، ويُقال: إنهم كانوا يشكلون أغلبية داخل السنهدرين (مجمع الكهنة)، أو كانوا على الأقل أقلية كبيرة.

ومن المعروف أنه حينما عاد اليهود من بابل، هيمن الكهنة عليهم وعلى مؤسساتهم الدينيَّة والدنيويَّة، تلك المؤسسات التي عبَّر عن مصالحها فريق الصدوقيين.

ولكن اليهوديَّة كان قد دخلتها في بابل أفكار جديدة، كما أن وضع اليهود نفسه كان آخذًا في التغير، إذ إن حلم السيادة القومية لم يَعُد له أي أساس في الواقع، بعد التجارب القومية المتكررة الفاشلة، وبعد ظهور الإمبراطوريات الكبرى، الواحدة تلو الأخرى.

وقد زاد عدد اليهود المنتشرين خارج فلسطين، وخصوصًا في بابل، ولكل ذلك، نشأت الحاجة إلى صيغة جديدة تعبِّر عن الوضع الجديد.

---

(١) انظر: الفصل (١/ ٨٢)، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الموسوعة الميسرة (١/ ٤٩٩)، اليهودية، د. أحمد شلبي، ص(٢٢١- ٢٢٣)، الفرق والمذاهب اليهودية ص(٤٧- ٥٢)، اليهودية عرض تاريخي ص(١٠٢- ١٠٤).

ومن هنا، ظهر الفريسيون الذين لم يكونوا من عامة الشعب، بل كان بعضهم من الأثرياء، وإن كانوا على العموم يتسمون بأنهم يعيشون من عملهم، فكان منهم الحرفيون والتجار، على عكس الصدوقيين الذين كانوا يشكلون طبقة كهنوتية أرستقراطية مرتبطة بالهيكل وتعيش من ريعه، مما علهم يصفون الفريسيين بالضحالة والجهالة.

ورغم تميز الفريسيين طبقيًّا، ورغم تعصبهم للشريعة، وربما بسببه، فإنهم كانوا يلقون تأييد الجماهير، وأغلب علماء التوراة برزوا بين ظهرانيهم.

وقد دخل الفريسيون في صراع دائم مع الصدوقيين على النفوذ والمكانة والامتيازات.

فكانوا يتصرفون مثل الكهنة كأن يأكلوا كجماعة، ويقيموا شعائر الختان، بل حاولوا فرض نفوذهم على الهيكل نفسه على حساب الصدوقيين، وذلك عن طريق ممارسة بعض الطقوس المقصورة على الهيكل خارجه.

وقد قوي نفوذ الفريسيين مع ثراء الدولة الحشمونية والرخاء الذي ساد عصرها بعض الوقت.

وبلغوا درجة من القوة حتى إنهم نجحوا في حَمْل الكاهن الأعظم على القَسَم بأنه سيقيم طقوس عيد يوم الغفران حسب تعاليمهم، وقد أيَّد الفريسيون التمرد الحشموني (١٦٨ ق.م) وساندوه، في بادئ الأمر، على مضض.

ولكن التناقض بينهم وبين الأسرة الحشمونية ظهر إبان حكم يوحنا هيركانوس الأول، فتحدوا سلطته الكهنوتية وذبح هو آلافًا منهم، وتَحقَّق للصدوقيين بذلك شيء من النصر.

ولكن زوجة هيركانوس (سالومي ألكسندرا) التي خلفته في الحكم، تصالحت معهم وأسلمتهم زمام الأمور في الداخل، فاضطهدوا الصدوقيين حتى إن الجو صار مهيئًا لحرب أهلية.

والواقع أن الصراع الذي دار بين يوحنا هيركانوس الثاني وأخيه أرسطوبولوس الثاني كان صراعًا بين الصدوقيين والفريسيين، ويبدو أن الفريسيين اصطبغوا بصبغة هيلينية في أواخر الأسرة الحشمونية، وعارضوا التمرد اليهودي الأول (٦٦ ـ ٧٠م). لكن خوفهم من الغيورين كان عميقًا، فأخذوا يسايرونهم، غير أنهم كانوا يستسلمون للقوات الرومانية كلما سنحت لهم الفرصة كما فعل يوسيفوس.

وقد كانوا يرون أن الدولة الرومانية أساس للبقاء اليهودي. ويقول أحد الفريسيين: صلوا من أجل سلام الحكومة الرومانية، فلولا الخوف الذي تبعثه في القلوب لابتلع الواحد منا الآخر. (فصول الآباء ٣/ ٢).

ولم يكن لديهم كبير اهتمام بالأمور السياسية وشئون الحكم ما داموا أحرارًا في الإيفاء بوجباتهم الدينيَّة، ولذلك كان لديهم استعداد للتصالح مع الدولة الحاكمة، أو القوة العظمى في المنطقة آنذاك (روما)، وعدم اكتراث بنوعيتها ورؤيتها ما دامت لا تتدخل في حياة اليهود الدينيَّة، بل إنهم كانوا يفضلون حكومة غير يهودية لا تعطل شعائر اليهوديَّة على حكومة يهودية تعطلها، مثل الحكومة

الهيرودية أو حتى الحشمونية.

وقد قام أحد الفريسيين (يوحنان بن زكاي) بتأسيس حلقة يفنه التلمودية التي طورت اليهوديَّة الحاخامية.

وقد وقف الفريسيون من عيسى عليه السلام موقف العداء؛ فقاوموه أشد المقاومة، ورأوه خارجًا عن الديانة اليهوديَّة، وكانوا من أشد الناس خصومة له، وكانوا سببًا في القبض عليه وصلبه، وقد جاء في أناجيل النصارى تنديد عيسى بالكتبة والفريسيين في مواضع كثيرة[1].

وثمة نظرية جديدة تقول: إن المسيح عليه السلام كان (في الأصل) فريسيًّا من أتباع مدرسة هليل ذات الاتجاه العالمي التبشيري، والتي كانت ترى أن مهمة اليهود نشر وصايا نوح بين الأغيار، وأنه حينما كان يشير إلى «الكتبة والفريسيين» إشارات سلبية وقدحية فإنما كان يشير إلى أتباع شماي وحسب.

المعتقدات والأفكار

يُعَدُّ الفكر الفريسي أهم تطوُّر في اليهوديَّة بعد تبنِّي عبادة يهوه، وقد كان جوهر برنامجهم يتلخص في.

١- الفريسيون يؤمنون بأنه يمكن عبادة الخالق في أي مكان، وليس بالضرورة في الهيكل في القدس، أي أنهم حاولوا تحرير اليهوديَّة، كنسق أخلاقي ديني، من حلوليتها الوثنية المتمثلة في عبودية المكان والارتباط بالهيكل وعبادته القربانية.

ووسعوا نطاقها بحيث أصبحت تغطي كل جوانب الحياة إذ أن واجب اليهودي لا يتحدد في العودة إلى أرض الميعاد، وإنما في العيش حسب التوراة، وعلى اليهودي أن ينتظر إلى أن يقرر الخالق العودة.

وبهذا، يكون الفريسيون هم الذين توصلوا إلى صيغة اليهوديَّة الحاخامية أو اليهوديَّة المعيارية التي انتصرت على الاتجاهات والمدارس الدينيَّة الأخرى.

٢- طالبوا بتطبيق العقل وتفسير التوراة على أن يبتعد التفسير عن الحرفية، وأن يتم التركيز على روح النصوص في مواجهة تفسير الصدوقيين الحرفي.

وقد أقاموا تفسيرات كثيرة حسب اجتهادهم، وذلك لتطويع اليهوديَّة لمطالب التحديات الاجتماعيَّة التي كانوا يوجهونها، قد ضلوا وأضلوا في محاولتهم لتفسير بعض طلاسم التوراة مستشهدين في ذلك بطلاسم أخرى وصفها الكتبة الفريسيون في الأسفار الأخرى.

---

(١) انظر: متى ١٢/١- ٢، ١٢/٢٤- ٢٧، ١٥/١- ٦، ١٩/٢- ٩، ٢٢/١٥- ٢٢، ٢٣/١٣- ٣٩ . مرقس ٣/١- ٤، ١١/٢٧- ٣٣ . لوقا ٥/١٧- ٢٣، ١٧/٢٠- ٢١، ١٩/٣٧- ٤٠ . يوحنا ٣/١- ٢، ٧/٣٣- ٣٤، ٨/٢- ١١ .

ويذهب الباحثون إلى أن التوراة التي بين أيدينا ليست إلا من نسج الفريسيين وخيالهم، ولم يستبعد بعضهم أن يكون عزرا أحد العناصر الفريسية أو هو الذي أنشأها.

٣- الفريسيون من أنصار الشريعة الشفوية التي تناقلها الحاخامات من جيل إلى جيل.

ويرى الفريسيون أن الروايات الشفوية -التلمود- بحد ذاتها أقدم وأفضل من التوراة، وأن ما فيها كله من جانب الله أوحى به إلى موسى على جبل سيناء مثل القانون المكتوب.

ولضمان تقديس اليهود للتلمود أعلن الفريسيون أن للحاخامات سلطة عليا، وأنهم معصومون وأن أقوالهم صادرة عن الله وأن مخافتهم هي مخافة الله.

٤- الفريسيون لا يدَّعون النبوة، فقد كانوا ينادون بأن مرحلة النبوة وصلت إلى نهايتها وأنهم أقرب إلى حكماء الحضارة الهيلينية.

٥- يؤمن الفريسيون بوحدانية الخالق، والماشيح، وبخلود الروح في الحياة الآخرة، وبالبعث والثواب والعقاب والملائكة.

واستدلوا على البعث الجسماني بما جاء في سفر دانيال ١٢/٢ .

٦- يؤمنون بحرية الإرادة التي لا تتعارض مع معرفة الخالق المسبقة بأفعال الإنسان، وأن الأفعال يمكن أن تتأثر بالقضاء والقدر ولكنها غير واقعة بهما.

٧- الفريسيون يعتقدون بوجود الشيطان، وهي عقيدة لم يكن العبريون القدماء أدخلوها في نصوص التوراة، وتبعًا لذلك توسع الفريسيون في الكلام عن الملائكة على أنهم المؤتمرون بأمر الله، القائمون بخدمته، والكلام عن الأبالسة والجن والعفاريت على أنهم المؤتمرون بأمر الشيطان القائمون بخدمته[1].

٨- يعتقدون أن التوراة بأسفارها الخمسة خلقت منذ الأزل وكانت مدونة على ألواح مقدسة ثم أوحي بها إلى موسى فتدوينها بعده هو في الحقيقة إعادة تدوين[2].

٩- الفريسيون لا يتزوجون، لكنهم يحافظون على مذهبهم عن طريق التبني.

التواجد الحالي

تمثل هذه الفرقة القاعدة الصلبة اليهوديَّة وعليها يعتمد جمهور اليهود وهم متعصبون، ولكن ظهر منهم فرق متعصبة أشد حدود التعصب.

ويذكر جنيير هذه الفرق المتعصبة فيقول: كان في فلسطين بين الفرق الأخرى فريق وثيق الصلة بالفريسيين، يتفق معهم في أكثر عقائدهم، كالقول بالمسيح المنتظر، وكالحماسة الوطنية، والميل للعبادة، ولكن هذا الفريق امتاز بعدم التسامح بل بالعدوانية ضد المواطنين الذين اتهموا باللادينية

(١) انظر: سفر أيوب ١/٦- ٩ .

(٢) انظر: سفر التثنية ٩/٧- ١٢ .

أو بقبول الخضوع لغير الله، وكان من سياسة هذا الفريق ألا ينتظر أتباعه العون من إلههم بل يعملوا بأنفسهم ليساعدوا الإله على تحقيق ما يريده لشعبه، وكانوا بذلك يكونون الجناح اليساري في فريق الفريسيين.

بيد أنهم كانوا في غاية الحماسة تجاه شغفهم بالحرية، ولم يعترفوا بأي سلطان عليهم سوى سلطان الله، وكان الموت عندهم أسهل من طاعة اليهود، ومن ثم أعلنوا احتقارهم لجماعة الفريسيين الذين قبلوا الأمر الواقع وخضعوا للرومان.

وكانت الحركة الثورية التي قام بها المتعصبون في مطلع القرن الميلادي الأول سببًا في الحدة بين اليهود وبين الرومان، مما دفع الرومان إلى أن يضربوا الثائرين ضربات قاصمة وأن يذبحوا قادة الثورة، ولكن إخماد هذه الثورات لم يضع نهاية لحركات المتعصبين، فهبوا من جديد يدبرون ثورات أخرى ويجمعون لها الجموع.

ولما أحس الرومان بذلك قضوا على السلطة المحلية التي كانوا قد منحوها لليهود وحكموا مناطق اليهود بطريق مباشر وكان ذلك باعثًا لحماسة هذا الفريق ودافعًا إلى خلق جو من الاضطراب والقلق في المناطق اليهوديَّة، وفي هذا الجو بدأ المتعصبون حركات اغتيال وفوضى ضد الرومان وضد اليهود الذين كانوا يتعاونون مع الحكم الروماني، وبلغ من حماستهم أنهم كانوا يرتكبون جرائمهم علنًا في الطرقات، ويغتالون دون تردد كل من يرون أن القضاء عليه سيحقق لهم هدفهم، وبهذا أطلق عليهم: السفاكون.

كما لجئوا إلى النهب واللصوصية والفتك، وأوقعوا بالبوليس الروماني ألوانًا من العنت، ومن أجل هذا يعد الباحثون هذا الفريق ضمن الفرق السياسية، أو فرق العصابات، مع أنهم بدءوا حركتهم في إطار ديني ولهدف ديني ولكن جرائمهم الكبرى نقلتهم من ميدان إلى ميدان(١).

ويمكن أن يُعتبر «الغيورون» و«عصبة الخناجر» و«الأسينيون» هم هذه الأجنحة المتطرفة من الحزب الفريسي.

الغيورون (قنَّائيم) Zealots

التعريف:

كلمة «غيورون» ترجمة للفظة «قنَّائيم»، وهي من الكلمة العبريَّة «قانًا» بمعنى «غيور» أو «صاحب الحمية».

والغيورون فرقة دينية يهودية، ويُقال: إنه جناح متطرف من الفريسيين وحزب سياسي وتنظيم عسكري.

---

(١) انظر: اليهودية ص(٢٢٤، ٢٢٥)، الفرق والمذاهب اليهودية ص(٨٤- ٨٨)، الموسوعة الميسرة (١/ ٤٩٩)، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

التاريخ والأحداث

جاء أول ذكر لهم باعتبارهم أتباعًا ليهودا الجليلي في العام السادس قبل الميلاد، ويبدو أن واحدًا من العلماء الفريسيين، ويُدعَى صادوق، قد أيده.

ولكن يبدو أن أصولهم أقدم عهدًا، إذ إنها تعود إلى التمرد الحشموني (١٨٦ ق.م).

ويذكر يوسيفوس شخصًا يُدعَى حزقيا باعتباره رئيس عصابة أعدمه هيرود، وحزقيا هذا هو أبو يهودا الجليلي الذي ترك من بعده شمعون ويعقوب ومناحم (لعله أخوه).

وقد تولىَّ مناحم الجليلي، وهو زعيم عصبة الخناجر، قيادة التمرد اليهودي الأول ضد الرومان (٦٦ ـ ٧٠م)، وذلك بعد أن استولى على ماسادا وذبح حاميتها واستولى على الأسلحة، ثم عاد إلى القدس حيث تولىَّ قيادة التمرد هو وعصبته الصغيرة، فأحرقوا مبنى سجلات الديون، وأحرقوا أيضًا قصور الأثرياء وقصر الكاهن الأعظم آنانياس ثم قاموا بقتله، بل يبدو أنهم حاولوا إقامة نظام شيوعي.

ويبدو كذلك أن عصابة مناحم كانت متطرفة ومستبدة في تعاملها مع الجماهير اليهوديَّة.

وقد كانت لدى مناحم ادعاءات مشيحانية عن نفسه، كما أنه جمع في يديه السلطات الدينيَّة والدنيويَّة.

ولذلك قامت ثورة ضده انتهت بقتله، هو وأعوانه، وهروب البقية إلى ماسادا.

وقد استمر نشاط الغيورين حتى سقوط القدس وهدم الهيكل عام ٧٠ ميلادية، ويرى البعض أنهم كانوا السبب في هذه الكارثة التاريخية.

ولكن هناك من يرى أنهم اشتركوا أيضًا في التمرد اليهودي الثاني ضد هادريان (١٣٢ ـ ١٣٥م).

وكان الغيورون منقسمين فيما بينهم إلى فرق متطاحنة متصارعة.

ومن قياداتهم الأخرى، يوحنان بن لاوي وشمعون برجيورا.

ويُعَدُّ ظهور حزب الغيورين تعبيرًا عن الانهيار الكامل الذي أصاب الحكومة الدينيَّة وحكم الكهنة.

وقد قام الغيورون، تحت زعامة يهودا الجليلي، بحَثّ اليهود على رفض الخضوع لسلطان روما، وخصوصًا أن السلطات الرومانية كانت قد قررت إجراء إحصاء في فلسطين لتقدير الملكية وتحديد الضرائب، وفرضها على اليهود الأمر الذي عده يهودا الجليلي بمثابة فرض العبودية على اليهود وخرقًا للوصية الأولي من الوصايَا العشر.

وقد تبعت حزب الغيورين، في ثورته، الجماهير اليهوديَّة التي أفقرها حكم أثرياء اليهود بالتعاون مع اليونانيين والرومان.

ونظرًا لجهل الغيورين بحقائق القوى الدولية وموازينها، وبمدى سلطان روما في ذلك الوقت، قاموا بثورة ضارية ضد الرومان واستولوا على القدس.

وقد تعاونوا مع الفريسيين في هذه الثورة، ولكن الفريسيين كانوا مترددين بسبب انتماءاتهم.

وحينما بدأت المقاومة المسلحة، استخدم الغيورون أسلوب حرب العصابات ضد روما، كما قاموا بخطف وقتل كل من تعاون مع روما، حتى إن الجماهير اليهوديَّة ثارت ذات مرة ضدهم.

وقد قضى الرومان على ثورة الغيورين، واستسلمت القوات اليهوديَّة، وكان آخرها القوات اليهوديَّة في ماسادا بقيادة القائد الغيوري إليعازر بن جاير، وهي القوات التي آثرت الانتحار على الاستسلام؛ نظرًا لأنها كانت قد ذبحت الحامية الرومانية بعد استسلامها لهم وخشي قائد الغيورين أن يذبحهم القائد الروماني، على عكس القلاع الأخرى (مثل ماخايروس وهيروديام) التي استسلمت للرومان.

ويرى بعض الباحثين أن المسيح عيسى ابن مريم كان له صلة -أو من المتعاطفين معهم- بحركة الغيورين مستندين في ذلك بشواهد من الأناجيل وأن ذلك كان سبب صلبه من قبل السلطات الرومانية[١].

المعتقدات والأفكار

١- يتسم فكر الغيورين بأنه فكر شعبي مفعم بالأساطير الشعبية، ولذا نجد أن أسطورة الماشيَّح أساسية في فكرهم، بل إن كثيرًا من زعمائهم ادعوا أنهم الماشيَّح المخلص.

٢- قدموا رؤية للتاريخ قوامها أن هزيمة روما شرط أساسي للخلاص، وأن ثمة حربًا مستعرة بين جيوش بني إسرائيل وجيوش يأجوج ومأجوج (وهي عندهم روما)، وأن اليهود مكتوب لهم النصر في الجولة الأخيرة.

وعلى هذا، فإن فكرهم يتسم بالنزعة الأخروية التي انتشرت في فلسطين آنذاك، ويُقال إن معظم أدب الرؤى (أبوكاليبس) من أدب الغيورين[٢].

عصبة حملة الخناجر Sicarii

التعريف:

عصبة الخناجر: ترجمة لكلمة «سيكاري» المنسوبة إلى كلمة «سيكا» اللاتينيَّة، التي تعني الخنجر. و«سيكاريوس sicarius» كلمة مفردة تعني «حامل الخنجر» وجمعها «سيكاريي sicarii».

وعصبة الخناجر جماعة متطرفة من الغيورين الذين كانوا بدورهم جماعة متطرفة من الفريسيين،

---

(١) انظر: لوقا ١٥/٣، متى ٥/١٧، أعمال الرسل ٢٢/٥ .

(٢) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، اليهودية عرض تاريخي ص(١٠٨- ١١٢).

وقد كانوا يخبئون خناجرهم تحت عباءاتهم ليباغتوا أعداءهم في الأماكن العامة ويقتلوهم.

التاريخ والأحداث

أثناء التمرد اليهودي الأول ضد الرومان (٦٦ . ٧٠م)، يُقال: إنهم كانوا تحت قيادة مناحم الجليلي، وإنهم هم الذين أحرقوا منزل الكاهن الأعظم أنانياس، وقصري أجريبا الثاني وأخته بيرنيكي عشيقة تيتوس.

كما أحرقوا سجلات الديون حتى ينضم الفقراء المدينون إليهم، وكانوا يخفون تحت ملابسهم الخناجر ويستعملونها في اغتيال خصومهم المتعاونين فعلًا أو المشكوك في تعاونهم مع السلطات الرومانية الوثنية، مستغلين المناسبات العامة الصاخبة لتنفيذ اغتيال أعدائهم، وكانت عقيدتهم الراسخة أن الرب لن يساعد من لا يهب لمساعدة نفسه ببذل الجهد الذاتي، وأطلقوا على الموالين للوثنية الرومانية: الأغراب وجامعي الضرائب تحقيرًا لهم ولخيانتهم، وقد أدّى نشاطهم إلى فرار الأرستقراطيين اليهود.

ولكن الجماهير، بقيادة الغيوري المعتدل إليعازر بن حنانيا من حزب القدس، تمردت على المتطرفين وقتلت زعيمهم مناحم الجليلي، ففرت فلولهم.

ويُقال: إن الجماعة التي لجأت إلى ماسادا، وأبادت الجالية الرومانية بعد استسلامها، من أعضاء عصبة الخناجر.

وثمة رأي آخر يرى أن جماعة إليعازر بن جاير كانت معادية لهم، ولكنها اختلفت معهم بشكل مؤقت.

ويبدو أنه كان يوجد داخل حركة الغيورين جناحان: جناح متطرف هو عصبة الخناجر، وجناح القدس، ويشار إلى أعضاء هذا الجناح باسم «الغيورين» وحسب.

وكان الفارق بين الفريقين كما يلي:

١-لم يرتبط غيورو القدس بأية أسرة محددة، ولم يعلنوا قوادهم ملوكًا.

٢- كانت قاعدة الغيورين في القدس، بينما كانت قاعدة العصبة في الجليل.

٣- كانت الأبعاد الاجتماعيَّة لعصبة الخناجر أوضح منها في حالة الغيورين، رغم ثورة هؤلاء على الكاهن الأعظم والأقلية الثرية الحاكمة.

والواقع أن عصبة الخناجر هي الجماعة الوحيدة التي استمرت في نشاطها بعد إخماد التمرد، هذا التمرد الذي اتسع نطاقه إلى الإسكندرية وبرقة، حيث قام يهودي من عصبة الخناجر يدعى يوناثان بقيادة أعضاء الجماعة اليهوديَّة في ثورة تم قمعها.

وبعد اغتيال بعض القيادات اليهوديَّة هناك، قام أعضاء الجماعة اليهوديَّة بالقبض على أعضاء عصبة الخناجر وتسليمهم إلى القوات الرومانية.

وقد كانت عصبة الخناجر، رغم نشاطها وحركتها، تشكل أقلية لا يزيد عددها حسب بعض التقديرات على ألفين.

المعتقدات والأفكار

يبدو أن فكر عصبة الخناجر كان فكرًا شيوعيًا بدائيًا، ولذلك كان شعارهم: لا ملك إلا الرب، فهو وحده: مالك الأرض.

وقد يعود تأثرهم بهذا الفكر إلى بعض التيارات الكامنة في العهد القديم. فقد جاء في سفر اللاويين ٢٥/٢٣: والأرض لا تُباع بتة؛ لأن لي الأرض وأنتم غرباء ونزلاء عندي. بل في كل أرض ملككم تجعلون فكاكًا للأرض. وفي مواضع غيرها[١].

وكذلك في مفهوم السنة السبتية حيث تُلغى ديون الفقراء من اليهود[٢].

الأسينيون Essenes

التعريف:

أسينيون: من الكلمة الآراميَّة «آسيا»، ومعناها «الطبيب» أو «المداوي»، وهي من «يؤاسي المريض».

ويُقال: إنها من الكلمة السريانيَّة «هاسي».

كما يُقال: إنها تعود إلى كلمة «هوسيوس» اليونانيَّة؛ أي: «المقدَّس»، ولعلها النطق اليوناني «أسيديم» للكلمة العبريَّة «حسيديم»، أي «الأتقياء»، ولعلها تصحيف للكلمة العبريَّة «حَاشائيم»؛ أي «الساكتين».

التاريخ والأحداث

الأسينيون فرقة دينية يهودية -والبعض يرى أنها ظاهرة دينية اجتماعيَّة- لم يأت ذكرها في العهد الجديد، وما ذُكر عنها في كتابات فيلون ويوسيفوس متناقض.

ولعل هذا يدل على وجود خلافات في صفوف الأسينيين أنفسهم الذين لم يزد عددهم على أربعة آلاف.

وهذه الفرقة هجرت الثورة المكابية واعتزلت في الجبال، وكانوا يمارسون شعائرهم شمال غرب البحر الميت في الفترة ما بين القرنين الثاني قبل الميلاد والأول الميلادي.

والبعض يرى أنهم كانوا منتشرين في كل بقاع المنطقة ولم يكونوا منعزلين عن المجتمع.

---

(١) انظر: اللاويين ٢٥/٢٣، ٢٥/٥٥، تثنية ١٥/٤ ـ ٥، ١٥/٦ .

(٢) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، اليهودية عرض تاريخي ص(١١١).

وقد عاشوا في جماعة مترابطة حياة النساك يلبسون الثياب البيض ويتطهرون حتى شهروا بالمتطهرين أو المغتسلين، ويطبقون شريعة موسى تطبيقًا حرفيًا.

وعاشوا على عملهم بالزراعة وتربية الماشية، وكانوا لا يتناولون من الطعام إلا ما أعدوه بأنفسهم، وهو ما زاد ترابط الجماعة، الأمر الذي جعل عقوبة الطرد منها بمنزلة حكم الإعدام.

وكانوا يهتمون بالطب الروحاني ويشتغلون بالأعشاب الطبيَّة وتصنيفها وبالأحجار والمعادن الكريمة ومن هنا تسميتهم بهذا الاسم المشتق من كلمة ISI التي تعني المعالجون الروحانيون.

وكان فكر الأسينيين متأثرًا بالفكر الهيليني وأفكار فيثاغورث، وبآراء البراهمة والبوذيين، وهو ما كان منتشرًا في فلسطين، ملتقى الطرق التجارية العالمية في القرن الأول قبل الميلاد.

ويزعم بعض الباحثين أن يوحنا المعمدان -يحيى عليه السلام- هو أحد تلامذتهم أو أحد أفرادهم، وذلك لأن التعميد بالماء هو من خاصية وتقاليد هذه الفرقة، ولهذا لم ينكر الفريسيون تعميد عيسى، بينما أنكروا عليه أمورًا أخرى، وهذا ما جعل بعض الباحثين أيضًا يزعم أن عيسى عليه السلام من أفراد هذه الفرقة أو أنه تأثر بفكرهم، ومن المعروف أن المسيح طرد التجار والمرابين من الهيكل وهو ما يتوافق مع فكرهم كما سيأتي[(١)].

ويُقال: إن الأسينيين آمنوا بيسوع الناصري كواحد من أنبياء بني إسرائيل المصلحين، ولكنهم رفضوا دعوة بولس إلى العقيدة المسيحيَّة وظلوا متمسكين بالنواميس اليهوديَّة.

ويُقال أيضًا: إنهم قد عرفوا في مرحلة تاريخية لاحقة بعد تدمير الهيكل باسم المسيحين اليهود أو الأبيونين.

المعتقدات والأفكار

الأسينيون فيما يبدو جناح متطرف من الفريسيين، وتقترب عقائدهم من عقائد ذلك الفريق، ويظهر هذا في ابتعادهم عن اليهوديَّة كدين قرباني مرتبط بهيكل القدس.

ومن عقائدهم أيضًا:

١- الإيمان بيوم القيامة وبخلود الروح والثواب والعقاب، ويؤمنون بالملائكة ويعطونها أسماء.

٢- وقوفهم ضد العبودية والملكية الخاصة، بل ضد التجارة، وانسحبوا تمامًا من الحياة العامة وانعزلوا عن الناس، وهذا على عكس الفريسيين.

٣- قسَّم الأسينيون الناس إلى فريقين: البقية الصالحة من جماعة بني إسرائيل، وأبناء الظلام.

وقد كشفت مخطوطات البحر الميت أو وادي قمران سنة ١٩٤٧م عن كثير من عقائد الأسينين، ومن أهم كتبهم كتاب الحرب بين أبناء النور وأبناء الظلام، وهو من كتب الرؤى (أبوكاليبس)،

---

(١) انظر: متى ٣/ ١- ٢، ٣/ ٤- ٥، ٣/ ١٣- ١٦ .

وهو ذو طابع أخروي حاد.

٤- ترقبوا نزول الماشيَّح لينشئ على الأرض ملكوت السماء ويحقق السلام والعدالة في الأرض.

٥- يبدو أنه كان لهم تقويمهم الخاص، وكانوا يراعون طقوس السبت، ويستغرقون في فترات صمت طويلة.

٦- يؤدون الصلاة ولكن عند شروق الشمس، وقد اختلفت عن صلاة اليهود، وقد تأثروا بهذه الصلاة بصلاة المجوس والمصريين ويسمونها صلاة الأسلاف.

٧- حرموا الذبائح، ويعدونها سفكًا للدماء، ولذلك فقد كانوا يقدمون للهيكل قرابين نباتية وحسب، ورأى بعض العلماء أنهم بذلك متأثرون بالفلسفة الهندية.

وقد ذهب جنبير إلى أنهم يحرمون أكل اللحم، ومن هنا جاء تحريم اللحوم وما يخرج من كل نفس حية أيامًا معدودة من كل سنة في الديانة المسيحيَّة.

٨- حرموا على أنفسهم -أو على الأقل على الأغلبية العظمى منهم- الزواج، وهذا بخلاف ما عليه اليهود حيث إنهم في ذلك الوقت كانوا يتزوجون أكثر من امرأة ويعدون المرأة مِلْكًا من ممتلكات الرجل يحق له التصرف فيها كما يشاء.

٩- يحرمون الرق والاستعباد باعتباره مدعاة للظلم وطريقًا إلى اقترافه، وهو مخالف لما في توراة اليهود، فقد أحلت لهم استعباد العالم كله[1].

١٠- أكثر الفرق إيمانًا بالقضاء والقدر.

التواجد الحالي

قد انقرض الأسينيون كلية في أواخر القرن الأول الميلادي[2].

الفقراء (الإبيونيون) Ebionites

الكلمة العبريَّة «إبيون» تعني «فقير»، وهي كلمة ذات مدلول اقتصادي ومنها «الإبيونيون»، وقد أصبحت هذه الكلمة ذات تضمينات دينية واستخدمها بعض أعضاء الجماعات اليهوديَّة المسيحيَّة في بداية العصر المسيحي للإشارة إلى أنفسهم باعتبار أنهم ورثة مملكة الرب.

وقد تبع الإبيونيون الشريعة اليهوديَّة، وأصروا على أن المسيحيين ملزمون بها، كما أنهم راعوا شعائر السبت.

---

(١) انظر: سفر اللاويين ٢٥/ ٤٤- ٤٥ .

(٢) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الفرق والمذاهب اليهودية ص(٦٦- ٧٢)، اليهودية عرض تاريخي ص(١٠٤- ١٠٧).

وقد رفض معظمهم فكرة ألوهية المسيح وولادته العذرية، ولكنهم آمنوا بأنه الماشيَّح الذي اختاره الإله عند تعميده.

ومن هنا كان تعميد المسيح موضوعًا أساسيًّا في إنجيل الإبيونيين، وقد اعتبر الإبيونيون تعاليم بولس الرسول هرطقة محضة.

وذهب فريق من الإبيونيين مذهب الغنوصيين، فقالوا بأن المسيح هو آدم.

وقال فريق آخر: إنه الروح القدس حل بآدم، ثم بالآباء، وأخيرًا حل بعيسى، فلما صُلب عيسى صعد الروح القدس، الذي هو المسيح، إلى السماء.

ومع اتساع الهوة بين اليهوديَّة والمسيحيَّة، اختفت هذه الجماعات في نهاية القرن الرابع الميلادي(١).

المَغارية Maghariya

المغارية: فرقة يهودية ظهرت في القرن الأول الميلادي حسبما جاء في القرقشاني.

وهذا الاسم مشتق من كلمة «مغارة» العربيَّة، أي كهف، فالمغارية إذن هم سكان الكهوف أو المغارات، وهذه إشارة إلى أنهم كانوا يخزنون كتبهم في الكهوف للحفاظ عليها.

ويبدو أنها فرقة غنوصية، إذ يذهب المغارية إلى أن الإله متسام إلى درجة أنه لا تربطه أية علاقة بالمادة (فهو يشبه الإله الخفي في المنظومة الغنوصية)، ولهذا فإن الإله لم يخلق العالم، وإنما خلقه ملاك ينوب عن الإله في هذا العالم.

وقد كتب أتباع هذه الفرقة تفسيراتهم الخاصة للعهد القديم وذهبوا إلى أن الشريعة والإشارات الإنسانية إلى الإله إنما هي إشارات لهذا الملاك الصانع.

فزعموا أن الله تعالى خاطب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بواسطة ملك اختاره وقدمه على جميع الخلائق واستخلفه عليهم.

وقالوا: كل ما في التوراة وسائر الكتب من وصف الله تعالى فهو خبر عن ذلك الملك وإلا فلا يجوز أن يوصف الله تعالى بوصف.

قالوا: وإن الذي كلم موسى عليه السلام تكليمًا هو ذلك الملك والشجرة المذكورة في التوراة هو ذلك الملك ويتعالى الرب تعالى أن يكلم بشرًا تكليمًا.

وحمل جميع ما ورد في التوراة من طلب الرؤية، وشافهت الله، وجاء الله، وطلع الله في السحاب وكتب التوراة بيده واستوى على العرش استقرارًا، وله صورة آدم، وشعر قطط، ووفرة

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

سوداء، وأنه بكى على طوفان نوح حتى رمدت عيناه، وأنه ضحك الجبار حتى بدت نواجذه إلى غير ذلك على ذلك الملك.

قال: ويجوز في العادة أن يبعث ملكًا روحانيًّا من جملة خواصه ويلقي عليه اسمه ويقول: هذا هو رسولي ومكانه فيكم مكاني، وقوله قولي، وأمره أمري، وظهوره عليكم ظهوري، كذلك يكون حال ذلك الملك.

وقيل: إن آريوس حيث قال في المسيح: إنه هو الله، وإنه صفوة العالم أخذ قوله من هؤلاء وكانوا قبل آريوس بأربعمائة سنة وهم أصحاب زهد وتقشف.

وقيل: صاحب هذه المقالة هو بنيامين النهاوندي وقرر لهم هذا المذهب وأعلمهم أن الآيات المتشابهات في التوراة كلها مؤولة، وأنه تعالى لا يوصف بأوصاف البشر، ولا يشبه شيئًا من المخلوقات، ولا يشبهه شيءٌ منها، وأن المراد بهذه الكلمات الواردة في التوراة ذلك الملك العظيم.

وقد قرن بعض العلماء المغارية بالأسينيين والثيرابيوتاي[1].

المعالجون (ثيرابيوتاي) Therapeutae

المعالجون: ترجمة لكلمة «ثيرابيوتاي» المأخوذة من الكلمة اليونانيَّة «ثيرابي» أي «العلاج»، وتعني «المعالجون».

والمعالجون (ثيرابيوتاي) فرقة من الزهاد اليهود تشبه الأسينيين، استقرت على شواطئ بحيرة مريوط قرب الإسكندرية في القرن الأول الميلادي، ويشبه أسلوب حياتهم أسلوب الأسينيين وإن كانوا أكثر تشددًا منهم.

وقد كانت فرقة المعالجين تضم أشخاصًا من الجنسين، وأورد فيلون في كتابه كل ما يعرفه عنهم، فيذكر إفراطهم في الزهد وفي التأمل وبحثهم الدائب عن المعنى الباطني للنصوص اليهوديَّة المقدَّسة.

كما يذكر فيلون أنهم كانوا يهتمون بدراسة الأرقام ومضمونها الرمزي والروحي، كما كانوا يقضون يومهم كله في العبادة والدراسة والتدريب على الشعائر.

أما الوفاء بحاجة الجسد، فلم يكن يتم إلا في الظلام (وهو ما قد يوحي بأصول غنوصية)[2].

المستحمون في الصباح (هيميروبابتست) Hemerobaptists

المستحمون في الصباح: ترجمة للكلمة اليونانيَّة «طوبلحاشحريت» أو «هيميروبابتست».

---

(١) انظر: الملل والنحل (١/ ٢١٧)، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

(٢) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

والمستحمون في الصباح فرقة يهودية أسينية كان طقس التعميد بالنسبة إليها أهم الشعائر؛ ولذا فقد كان هذا الطقس يُمارَس بينهم كل يوم بدلًا من مرة واحدة في حياة الإنسان.

كما أنهم كانوا يتطهرون قبل النطق باسم الإله. ويبدو أن يوحنا المعمدان كان واحدًا منهم.

وقد ظلت بقايا من هذه الفرقة حتى القرن الثالث الميلادي[١].

عبدة الإله الواحد (هبسستريون) Hypsisterion

عبدة الإله الواحد: ترجمة للكلمة اليونانيَّة «هبسستريون»، وعبدة الإله الواحد هم فرقة شبه يهودية كانت تعبد الإله الواحد الأسمى (والاسم مشتق من كلمة يونانية لها هذا المعنى).

وقد كان أعضاء هذه الفرقة يعيشون على مضيق البسفور في القرن الأول الميلادي وظلت قائمة حتى القرن الرابع.

ومن الشعائر اليهوديَّة التي حافظوا عليها شعائر السبت والطعام، وكانت عندهم شعائر وثنية مثل تعظيم النور والأرض والشمس، وخصوصًا النار، ومع هذا يُقال: إن الأمر لم يصل بهم قط إلى درجة تقديس النار كما هو الحال مع المجوس[٢].

البناءون (بنائيم) Banaaim

البناءون: ترجمة لكلمة «بنائيم».

والبناءون فرقة يهودية صغيرة ظهرت في فلسطين في القرن الأول أو الثاني الميلادي.

ومعنى الكلمة غير معروف بصورة محددة، فيذهب بعض العلماء إلى أن الاسم مشتق من كلمة «بنا» بمعنى «يبني»، وأن أتباع هذه الفرقة علماء يكرسون جلّ وقتهم لدراسة تكوين العالم (كوزمولوجي).

ويذهب آخرون إلى أن (البنائيم) فرع من الأسينيين.

ويذهب فريق ثالث إلى أن الاسم مشتق من كلمة يونانية بمعنى «حمام» أو «المستحمون».

ويذهب فريق رابع إلى أنهم أتباع الراهب الأسيني بانوس.

ولعل ربط البنائيم بالأسينيين يرجع إلى اهتمامهم البالغ بشعائر الطهارة والحفاظ على نظافة ملابسهم.

والذي أرجحه أن هذه هي فرقة البنائيين الأحرار الذين عرفوا باسم القوة الخفية، وظهروا في القرن الثامن عشر باسم الماسونية[٣].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

(٢) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

(٣) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

الكتبة Sopherim

التعريف:

الكتبة: هي المقابل العربي لكلمة «سوفريم» وهي صيغة جمع عبرية بنفس المعنى.

وهي مصطلح يُطلَق على الكتبة والعلماء اليهود الذين قاموا بتدريس وتعليم وشرح الشريعة من حوالي منتصف القرن الخامس قبل الميلاد إلى حوالي عام ١٠٠ ق.م، وقد جُمعت أقوالهم واجتهاداتهم في كتب المدراش.

وعرفهم آخرون بأنهم: مجموعة من اليهود عرفوا الشريعة من خلال عملهم في النسخ والكتابة، فاتخذوا الوعظ وظيفة لهم، ويسمون بالحكماء، وبالسادة، وواحدهم لقبه أب، وقد أثروا ثراءً فاحشًا على حساب مدارسهم ومريديهم[(١)].

التاريخ والأحداث

بعد عودة العبرانيين من بابل (٥٨٦ ق.م) اتخذوا الشريعة الأساس في تنظيم حياة العبرانيين، وبتبنِّيها دستورًا للحياة، ظهرت الحاجة إلى نشر التوراة بينهم، وتطلبت هذه العملية فئة من المعلمين قادرة على قراءة التوراة باللغة العبريَّة (لغة التوراة) وترجمتها وتفسيرها بالآراميَّة (لغة جماهير العبرانيين آنذاك).

وكنتيجة لهذه الأوضاع، اكتسب لفظ «كاتب» دلالة خاصة واستُخدم للإشارة إلى مجموعة المعلمين الذين قاموا بقراءة وترجمة وتفسير الشريعة خلال فترة الهيكل الثاني (٥٣٩ ق.م . ٧٠م).

وبهذا المعنى، يكون عزرا أول الكتبة حين وضع أساس الدراسات الحاخامية، والكتبة هم أولئك الذين قاموا بوضع الشريعة الشفوية فعلًا.

وتعود أهمية الكتبة إلى أنهم أول من بدءوا الدراسات الحاخامية، وبالتالي، فإن ظهورهم يُعتبَر بداية المرحلة اليهوديَّة، مقابل المرحلة الإسرائيلية أو العبرانيَّة من تواريخ الجماعات اليهوديَّة في العالم.

وقد قام الكتبة بتحقيق العهد القديم وتنقيحه وتدوينه.

وكوَّنوا تنظيمًا خاصًّا بهم، إلا أن تنظيمهم كان مفتوحًا للعامة كتنظيم الأنبياء. ومن هنا، فإن مهنة الكتبة لم تكن مقصورة على أحد، ووُجد بين صفوف الكتبة كهنة وأفراد من عامة الشعب.

وكان هؤلاء الكتبة أول فئة احترفت التعليم.

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٤٩٩/١)، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، اليهودية ص(٢٢٣، ٢٢٤).

ومنذ القرن الأول، أصبح اسم «حاخاميم» يُطلَق على معلمي الشريعة المشهورين وهي كلمة عبرية تعني «الفقهاء» أو «الحكماء»، بينما بقي استخدام لفظ «كاتب» للإشارة إلى أي معلم للشريعة.

نظر هؤلاء الكتبة إلى عملهم باعتباره مقدَّسًا، وقد أُوكلت مهمة نقل شريعة يهوه إليهم فقاموا بترجمة وتفسير التوراة للجماهير، كما قاموا بعمل نسخ منها لتُستخدَم ككتب دراسية.

وأسَّسوا مدارس عليا لتدريس التراث الديني لعدد منتقى من الطلاب، محاولين بذلك إيجاد أكبر عدد ممكن من دارسي ومفسري الشريعة، كما قاموا بتعليم الكبار والصغار.

وفي داخل مدارسهم، ظهر التراث الشفوي الذي كوَّن فيما بعد التلمود.

كان هؤلاء الكتبة، في بداية الأمر، منفتحين في تطبيقاتهم للشريعة فأدخلوا التفسيرات والتعليقات المختلفة الملائمة لظروف الحياة المتغيرة.

واعتمد المفسرون في شروحهم هذه على مفهوم الشريعة الشفهية، التي يُفترَض أنها أُعطيَت لموسى مع الشريعة المكتوبة، كما يُفترَض أن حَمَلَة هذه الشريعة الشفهية هم الحاخامات (بمعنى الفقهاء).

وبسقوط الهيكل عام ٧٠ ميلادية، أصبح يُطلَق على كلٍّ من هؤلاء الكتبة لقب «حاخام»، وأصبح هؤلاء الحاخامات هم المسئولين ليس فقط عن توجيه الحياة الدينيَّة لليهود بل أصبحوا أيضًا ممثلين للسلطة الحاكمة وقاموا بحكم الجماعة اليهوديَّة في فلسطين وفي غيرها من البلدان.

وبعد الكتبة (سوفريم)، جاء الفريسيون ومعلمو المشناه (تنائيم)، والشراح (أمورائيم)، والفقهاء (جاءونيم)، وهؤلاء جميعًا يُعدون استمرارًا طبيعيًّا للكتبة.

وحين يشير العهد الجديد إلى الفريسيين والكتبة، فإن الإشارة تنصرف إلى فقهاء الشريعة اليهوديَّة بشكل عام، وهم أولئك الذين أصبح يُطلَق عليهم لفظ «حاخام» فيما بعد.

وقد كان يوجد كتبة في صفوف الفريسيين والصدوقيين، كما أن بعضهم كانوا أعضاء في السنهدرين.

وقد لعب الكتبة والفريسيون دورًا كبيرًا في حياة عيسى عليه السلام، وجاء في أناجيل النصارى وصف عيسى لهم بعدم الأمانة والتنديد بهم[1].

وقد تطوَّر معنى الكلمة بحيث أصبحت كلمة «سوفير» تعني «معلم التوراة (للأطفال)»، كما أصبحت تعني «كاتب لفائف التوراة».

وفي العبريَّة الحديثة، تُستعمَل الكلمة بمعنى «كاتب» و«أديب» و«محرر صحفي».

---

(١) انظر: متى ٢٨/٧، ٢٨/١٢، ١٥/١ - ٢، ١٣/٢٣ - ٢٣ . مرقس ١/٧، ١١/٩ - ١٨، ٢٢/١٢ - ٢٨، ٣٨/١٢ - ٤٠، ١/١٤ - ٢، ٥٣/١٤ - ٥٥، ١/١٥ .

الأعمال

تنسب إليهم المصادر اليهوديَّة تحقيق المآثر التالية:

١ . قراءة نصوص الشريعة في أيام معينة من الأسبوع.

٢ . تحديد الصلوات اليومية، وإدخال شعائر الشكر بعد تناول الطعام (صلاة المائدة).

٣ . إدخال الشعائر والطقوس الدينيَّة مثل عادة سكب الماء على الأرض في عيد المظال، والدوران بمركب حول المذبح حاملين أغصان الصفصاف.

٤ . وضع القواعد المتعلقة بإعداد تميمة الصلاة (تفيلين) أو شال الصلاة (طاليت) بجدائله الأربع (تسيت تسيت).

٥ . تعديل بعض الشرائع التوراتية وتكيفها وفقًا لمتطلبات الحياة، وتخفيف قسوة الشرع الموسوي فيما يختص بشريعة القصاص التوراتية في حالة الاعتداء، والتساهل في تطبيق قوانين السبت خلافًا لبعض الفرق المتشددة في تمسُّكها بحرفية القانون وفي امتناعها عن القيام بأية نشاطات جسدية في يوم الراحة.

وكذلك تخفيف صرامة القانون الخاص بإثبات وفاة الزوج بحيث أصبحت شهادة رجل واحد تكفي لكي يحق للزوجة أن تتزوج من جديد، حتى لو كانت هذه الشهادة تستند إلى مجرد الشائعات.

وقد وقعت مهمتان أساسيتان على عاتق هؤلاء الكتبة:

أولاهما: تفسير الشريعة المكتوبة واستخراج التفسيرات والتطبيقات الكامنة والظاهرة فيها.

وثانيتهما: تعليم الشباب الذين سيتولون هذه المهمة من بعدهم.

وقد جمع كل كاتب متميِّز حوله عددًا من التلاميذ الذين يودون دراسة الشريعة والتراث الشفهي في شكل حلقات دراسية، كما كوَّن كل حكيم مشهور مجموعة التلاميذ المريدين الخاصين به.

وترك بعض هؤلاء الحكماء بصمتهم الواضحة على طلابهم وكذلك تفسيرهم الخاص للشريعة، وكان أشهرهم هليل وشماي.

في البداية، استُخدمت أروقة الهيكل والمعابد للتدريس، وربما استخدم بعض الحكماء بيوتهم لتدريس الشريعة.

ومنذ القرن الأول قبل الميلاد، أسِّس أول مبنى خُصِّص للتدريس أُطلق عليه «بيت الدراسة (بيت هامدراش»)، وتم بناؤه بجانب الهيكل.

كان موضوع الدراسة أساسًا هو الشريعة والتفسيرات المختلفة، وكانت الدراسة في معظمها شفهية. ومن أجل مساعدة الطالب على التذكر، كان المعلمون يلقون دروسهم في شكل أمثال وحكم ووصايا.

وقد افترضت الدراسة على هذا المستوى نوعًا من التعليم الأولي، إلا أن هذا النوع من التعليم ظل خاصًا حتى القرن الأول قبل الميلاد.

وكان المعلم يشرح الكتاب المقدَّس ويعرض التفسيرات والشروح المختلفة لكل جزء منه وتفسيره هو لها، وذلك من أجل إيضاح النقاط الصعبة أو الغامضة أو غير المتفق عليها بهدف الوصول إلى قرار فيها، فإذا اتفق الدارسون عليها تحولت إلى جزء من التراث الشفوي.

وقد اتُبعت قواعد معيَّنة في استخراج التفسيرات والقوانين المختلفة من الشريعة المكتوبة، ذكر هليل منها سبع قواعد، ثم أُضيفت قواعد أخرى فيما بعد.

ومع مرور الوقت، اكتسبت هذه الشريعة الشفهية المكوَّنة من قرارات وتفسيرات الكتبة الحكماء شكلًا ثابتًا وقداسة معينة.

وفي أحيان أخرى، كان المُعلم أو الدارس يُثير سؤالًا ذا طبيعة عملية حول مشكلة معينة تتطلب إجابة محدَّدة.

وللتوصل للإجابة، كانت هذه المشكلة تُحلَّل إلى عناصرها الأولية، ويعود الدارسون إلى التراث الشفوي، فإن وجدوا الإجابة المرجوة انتهت المشكلة. وإن لم يجدوا، رجع المعلم والدارسون إلى الكتاب المقدَّس متبعين القواعد الموضوعة في تفسيره، واستخرجوا الإجابة أو الحل أو التفسير، فإذا وافقت الأغلبية عليه تحول إلى جزء من التراث الشفوي واكتسب قدسية خاصة، شأنه في ذلك شأن كل أجزاء الشريعة الشفوية.

واعُتبِرَت دراسة الشريعة وتدريسها واجبًا مقدَّسًا لا يجب أن يحصل منه الفرد على أيِّ عائد مادي، ومن ثم كان دارسو الشريعة ومدرسوها إما من المتيسرين ماليًا أو ممن احترفوا حرفة أخرى لكسب معاشهم[1].

الناموسيون

التعريف:

الناموسيون: هم مقررو الشريعة، والناموس -كما يُعَرِّفُونه- هو شريعة موسى (الأسفار الخمسة)، وهؤلاء هم المعلمون في المدارس والمجامع اليهوديَّة، ويخلطون في كثير من الأحيان بالكتبة.

التاريخ والأحداث

كان الناموسيون في بداية أمرهم كتبة ونقلة ودارسين ومفسرين للناموس المقدس عندهم، وهم أناس تضطرهم مهنتهم إلى الانزواء والاختفاء في غرف الدرس بعيدًا عن عيون الناس، ولكنهم

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الفرق والمذاهب اليهودية ص(٧٣- ٨٠).

نظموا أنفسهم فيما بعد في هيئة ثابتة تتوارث هذه المهنة.

وكانوا يلقبونهم أحيانًا بالكتبة والفريسيين؛ لأنهم جميعًا يعملون في الشريعة وعلى وئام فيما بينهم، وإن كان يبدو أن الناموسيين أرفع هؤلاء الثلاثة.

وكان المعلم منهم يدعى حبرًا أو رابيًا، وكان هذا اللقب تكريمًا وتفخيمًا، ولم يصبح لقبًا رسميًّا إلا بعد المسيح بسنوات قلائل، وأصبح لهؤلاء الناموسيين المقام الكبير في عهد المسيح، فقد ورد اسمهم في أناجيل النصارى، ومن ذلك:

وسأله واحد منهم وهو ناموسي ليجربه قائلًا. متى ٢٢/ ٣٥

وإذا ناموسي قام يجربه قائلًا يا معلم ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية. لوقا ١٠/ ٢٥

وأما الفريسيون والناموسيون فرفضوا مشورة الله من جهة أنفسهم غير معتمدين منه. لوقا ٧/ ٣٠

فقال ويل لكم أنتم أيها الناموسيون لأنكم تحملون الناس أحمالا عسرة وأنتم لا تمسون الأحمال بإحدى أصبعكم. لوقا ١١/ ٤٦

ويل لكم أيها الناموسيون؛ لأنكم أخذتم مفتاح المعرفة ما دخلتم أنتم والداخلون منعتموهم. لوقا ١١/ ٥٢

الأعمال

كانت هذه الفئة تعلم الدين، وتشرح التقاليد، وتجلس في كرسي القضاء في المجامع الدينيَّة.

وكان هؤلاء الناموسيون يحبون أن يستشيرهم الشعب اليهودي في كل أمورهم.

وكان الناموسيون أصحاب القول الفصل في المشكلات الحياتية كالزواج والطلاق وشئون العبادة كالصوم والصلاة وحفظ السبت[(١)].

القرّاءون او العَنانية Karaites

التعريف:

قرّاءون: مصطلح يقابله في العبريَّة «قرّائيم»، أو «بني مقرّا»، أو «بعلي هامقرّا»؛ أي: «أهل الكتاب».

وقد سُمِّيت القرّاءون بهذا الاسم؛ لأنهم لا يؤمنون بالشريعة الشفوية (السماعية)، وإنما يؤمنون بالتوراة (المقرّا) فقط.

فهم أتباع اليهوديَّة التوراتية، مقابل اليهوديَّة التلمودية أو الحاخامية.

---

(١) انظر: الفرق والمذاهب اليهودية ص(٩٧، ٩٨).

وتسميتهم بالعنانية نسبة إلى رجل يقال له: عنان بن داود رأس الجالوت، أي رئيس الجماعة اليهوديَّة في المنفى. وتسميهم اليهود العراس والمسر.

التاريخ والأحداث

أسس هذه الفرقة عنان بن داود في العراق في القرن الثامن الميلادي وانتشرت أفكارها في كل أنحاء العالم.

ولم تُستخدَم كلمة «قرّائين» للإشارة إليهم إلا في القرن التاسع إذ ظل العرب يشيرون إليهم بالعنانية نسبةً إلى مؤسس الفرقة.

ومن أهم أسباب ظهور هذه الفرقة انتشار الإسلام في الشرق الأدنى وطرحه مفاهيم دينية وأطرًا فكرية جديدة كانت تشكل تحديًا حقيقيًّا للفكر الديني اليهودي وبخاصة بعد أن غلبت عليه النزعة الحلوليَّة الموجودة داخله.

ويبدو أيضًا أنه كانت هناك، منذ هدم الهيكل عام ٧٠م، عناصر دينية رافضة لليهودية الحاخامية من بين بقايا الصدوقيين والعيسويين أتباع أبي عيسى الأصفهاني (٦٩٠م)، وأتباع يودغان.

وقد أخذ القرّاءون عن الصدوقيين فكرة منع إشعال النار يوم السبت، وأخذوا عن العيسويين إيمانهم بأن عيسى (عليه السلام) ومحمدًا (صلى الله عليه وسلم) رسولان من عند الله، كما أخذوا الترهب عن أتباع يودغان.

وهناك نظرية تذهب إلى أن يهود الجزيرة العربيَّة الذين وُطِّنوا في عهد عمر في البصرة وغيرها من بقاع العالم الإسلامي، ولم يكونوا يعرفون التلمود، كانوا من أهم العناصر التي ساعدت على انتشار المذهب القرّائي.

ومن المعروف أن اليهوديَّة، حتى ذلك الوقت، لم تكن قد صاغت عقائدها الدينيَّة بشكل محدد وواضح، فقد كانت اليهوديَّة لا تزال مجموعة من الممارسات الدينيَّة تشرف الحلقات التلمودية على تنفيذها وعلى إصدار الفتاوى بشأنها حسبما تقتضيه الظروف، وهو ما يعني أن البناء العقائدي كان لا يزال غير متماسك ويسمح بتفسيرات كثيرة.

ويضاف إلى كل هذا، الوضع الاقتصادي المتردي لأعضاء الجماعات اليهوديَّة، وخصوصًا بين أولئك الذين استوطنوا المناطق الحدودية بعيدًا عن سلطة هذه الحلقات.

أما تاريخهم فإن القرّائين أنفسهم يُرجعونه إلى أيام يُربعام الأول، حينما انقسمت المملكة العبرانيَّة المتَّحدة إلى مملكتين: المملكة الشماليَّة والمملكة الجنوبية (٩٢٨ ق.م).

وأما المؤسسة الحاخامية فكانت تشيع أن عنان بن داود أسَّس الفرقة لأسباب شخصية، بسبب إخفاقه في الوصول إلى رئاسة الجالوت خلفًا لوالده نظرًا لما عرف عنه من غلو ونزعة متطرفة

وتأويلات عدها الحاخاميون تحريفًا وجدفًا فتجاوزوه إلى أخيه الأصغر سنًّا منه.

وبعد انشقاقهم عن اليهوديَّة الحاخامية، ظل القرّاءون حتى بداية القرن العاشر في حالة جمود يختلفون فيما بينهم وينقسمون.

وقد دافع القرقساني وهو أحد مفكريهم عن هذا الانقسام بقوله: إن القرّائين يصلون إلى آرائهم الدينيَّة عن طريق العقل، ولذا فإن الاختلاف بينهم أمر طبيعي، أما الحاخاميون، فإنهم يدَّعون أن آراءهم، أي الشريعة الشفوية، مصدرها الوحي الإلهي، فإن كان هذا هو الأمر حقًّا، فلا مجال للاختلاف في الرأي بينهم، ومن ثم فإن وجود مثل هذه الاختلافات يدحض ادعاءاتهم التي تنسب الشريعة الشفوية لأصل إلهي.

وقد اشتد الصراع بين القرّائين والحاخاميين إلى حد أن كل طائفة قامت بتكفير الأخرى وإعلان نجاستها وحرمانها من رحمة الإله.

ويُلاحَظ في هذه الفترة أثر التفكير الديني الإسلامي على فكر القرّائين، وخصوصًا في عصرهم الذهبي في منتصف القرن التاسع.

ويُعَدُّ بنيامين بن موسى النهاوندي، وهو أول من استخدم مصطلح «قرّائي»، أهم مفكري القرّائين، كما يُعتبَر ثاني مؤسسي الفرقة حيث عاش في بلاد فارس في أواخر القرن التاسع، ثم تبعه مفكرون آخرون من أهمهم أبو يوسف يعقوب القرقساني الذي عاش في القرن العاشر.

وفي هذه الفترة تصدى في الرد عليهم من الحاخامات سعيد بن يوسف الفيومي المعروف بسعديا الفيومي، ويقال: إنه كان سببًا في تقلص نشاطهم وتضاؤل حجمهم.

وفي الفترة الممتدة بين القرنين الثاني عشر والسادس عشر، انتشر المذهب القرّائي بين مختلف أعضاء الجماعات اليهوديَّة، خصوصًا في مصر وفلسطين وإسبانيا الإسلاميَّة حيث عمل اليهود الحاخاميون على طَرْدهم منها، وفي الإمبراطورية البيزنطيَّة قبل الفتح العثماني.

ومع حلول القرن السابع عشر، انتقل مركز النشاط القرّائي إلى ليتوانيا وشبه جزيرة القرم التي يعود استيطان القرّائين إياها إلى القرن الثاني عشر.

وابتداءً من القرن التاسع عشر، يبدأ فصل جديد في تاريخ القرّائين بعد ضم كل من ليتوانيا (عام ١٧٩٣) وشبه جزيرة القرم (عام ١٧٨٣) إلى روسيا. فحتى ذلك الوقت، كانت المجتمعات التقليدية التي وُجد فيها اليهود تُصنِّف كلًّا من اليهود الحاخاميين واليهود القرّائين باعتبارهم يهودًا وحسب دون تمييز أو تفرقة.

ولكن الدولة الروسية اتبعت سياسة مختلفة إذ بدأت تعامل القرّائين كفرقة تختلف تمامًا عن الحاخاميين، فأعفت أعضاء الجماعة القرّائية من كثير من القوانين التي تطبَّق على اليهود، مثل: تحديد الأماكن التي يمكنهم السكنى فيها (منطقة الاستيطان)، وتحديد عدد المسموح لهم بالزواج والخدمة العسكرية الإجبارية، وعدم امتلاك الأراضي الزراعية في مناطق معيَّنة.

وقد حاول القرّاءون قدر استطاعتهم أن يقيموا حاجزًا بينهم وبين الحاخامين، فقدموا مذكرات للحكومة القيصرية يبينون فيها أنهم ليسوا كسالى أو طفيليين مثل اليهود الحاخاميين، وهي اتهامات كانت شائعة ضد اليهود في ذلك الوقت.

كما أن القرّائين كانوا يؤكدون أنهم لا يؤمنون بالتلمود الذي كانت الحكومة الروسية ترى أنه العقبة الكأداء في سبيل تحديث يهود روسيا.

وقد قام المؤرخ والعالم القرّائي أبراهام فيركوفيتش بإعداد مذكرة موثقة للحكومة القيصرية تبرهن على أن اليهود هاجروا من فلسطين قبل التهجير البابلي، وبالتالي فإن تطورهم الديني والتاريخي مختلف تمامًا عن اليهود الحاخاميين.

وقد أُعيد تصنيف اليهود القرّائين بحيث اعتُبروا قرّائين روسيين من أتباع عقيدة العهد القديم.

وقد أثَّر هذا في الهيكل الوظيفي للقرّائين، فبينما كان معظم اليهود الحاخاميين (في القرم) من الباعة الجائلين والحرفيين وأعضاء في جماعات وظيفية وسيطة، كان القرّاءون يحصلون على امتيازات استغلال مناجم الفحم، وكانوا من كبار الملاك الزراعيين الذين تخصصوا في زراعة التبغ، وقد احتكروا تجارته في أوديسا، كما كانت تربطهم علاقة جيدة مع السلطات القيصرية.

وحينما ضمت القوات الألمانيَّة القرم وأجزاء أخرى من أوربا إبان الحرب العالمية الثانية، قرَّر النازيون أن القرّائين يتمتعون بسيكولوجية عرْقية غير يهودية؛ ولذلك فلم تُطبق عليهم القوانين التي طُبّقت على الحاخامين.

وقد جاء في بعض المصادر أن موقف القرّائين من أحداث الحرب العالمية الثانية كان يتراوح بين عدم الاكتراث والتعاون مع النازيين.

وعند إنشاء الدولة الصهيونيَّة، كان القرّاءون معادين لها بطبيعة الحال، ولكن الدعاية الصهيونيَّة والسياسية التي انتهجتها بعض الحكومات العربيَّة والمبنية على عدم إدراك الاختلافات بين الحاخامين والقرّائين جعلت معظمهم يهاجر من البلاد العربيَّة إلى إسرائيل وغيرها من الدول.

المعتقدات والأفكار

١- لا يعترفون إلا بالعهد القديم كتابًا مقدسًا، ولا يخضعون للروايات الشفوية كالتلمود، فلا يعترفون به بدعوى حريتهم في شرح التوراة، ويتبرءون من قول الأحبار ويكذبونهم.

وقد هاجم القرّاءون التلمود، وهدموه، وفندوا تراثه الحاخامي باعتباره تفسيرًا من وضع البشر؛ أي أنهم وضعوا التوراة التي يُقال لها «المقرّا» مقابل المشناه بمعنى «التكرار الشفوي».

ورفضهم الشريعة الشفوية هو في جوهره رفض النزعة الحلوليَّة التي ترى أن الإله يحل بشكل دائم في الحاخامات، ومن ثم يتساوى الاجتهاد الإنساني والوحي الإلهي، والتمسك بالنص الإلهي المكتوب.

وكان من شعار عنان مؤسس الفرقة قوله: فتش بدقة في النصوص ولا تعتمد على رأيي.

وقد وضع القراءون أصولًا للتفسير على الترتيب الآتي: المعنى الحرف، الإجماع، القياس، العقل.

٢- تصوُّرهم للإله تم تطهيره تمامًا من أية بقايا وثنية أو طبائع بشرية، فالإله هو خالق السموات والأرض من العدم، وهو الخالق الذي لم يخلقه أحد، ولا شكل له ولا مثيل له، إله واحد أرسل نبيه موسى وأوحى إليه التوراة التي تنقل الحق الكامل الذي لا يمكن تغييره أو تعديله، وخصوصًا من خلال العقيدة الشفوية.

وعلى المؤمن أن يعرف المعنى الحق للتوراة.

وقد أرسل الإله الوحي إلى أنبياء آخرين، ولكن درجة النبوة لديهم أقل منها عند موسى، وسيبعث الإله الموتى، ويحاسبهم يوم القيامة، ويعاقب المذنب ويكافئ المثيب.

وكل هذا يعني أن الإله عادل وسيحاسب كل فرد على أفعاله، وأن الإنسان خير، وأن الروح لا تفنى.

٣- يخالفون سائر اليهود في السبت والأعياد والصلاة والصيام وشئون الطعام والشراب والزواج، وينهون عن أكل الطير والظباء والسمك والجراد، ويذبحون الحيوان على القفا، ولهم تقويم خاص بهم.

٤- يصدقون عيسى عليه السلام في مواعظه وإشاراته، ويقولون: إنه لم يخالف التوراة ألبتة بل قررها ودعا الناس إليها وهو من بني إسرائيل المتعبدين بالتوراة ومن المستجيبين لموسى عليه السلام إلا أنهم لا يقولون بنبوته ورسالته.

ومن هؤلاء من يقول: إن عيسى عليه السلام لم يدَّع أنه نبي مرسل، وليس من بني إسرائيل، وليس هو صاحب شريعة ناسخة لشريعة موسى عليه السلام بل هو من أولياء الله المخلصين العارفين بأحكام التوراة، وليس الإنجيل كتابًا أنزل عليه وحيًا من الله تعالى بل هو جمع أحواله من مبدئه إلى كماله وإنما جمعه أربعة من أصحابه الحواريين فكيف يكون كتابًا منزلًا؟

قالوا: واليهود ظلموه حيث كذبوه أولًا ولم يعرفوا بعد دعواه وقتلوه آخرًا ولم يعلموا بعد محله ومغزاه.

وقد ورد في التوراة ذكر المشيحا في مواضع كثيرة وذلك هو المسيح ولكن لم ترد له النبوة ولا الشريعة الناسخة وورد فارقليط وهو الرجل العالم.

وكذلك ورد ذكره في الإنجيل فوجب حمله على ما وجد وعلى من ادعى غير ذلك تحقيقه وحده.

٥- تأثر القرّاءون بعلم الكلام عند المسلمين، وتأثر مؤسس الفرقة، عنان بن داود، بأصول الفقه على مذهب أبي حنيفة.

الأعداد والتواجد الحالي

هذه الفرقة كانت بالعراق ومصر والشام، وكانوا في الأندلس بطليطلة وطليبرة.

وبلغ عدد اليهود القرّائين في القرم حين ضمها الروس نحو ٢٤٠٠، ووصل العدد إلى ١٢ ٩٠٧, عام ١٩١٠، وإلى عشرة آلاف عام ١٩٣٢ . ويصل عددهم الآن حوالي ٤٥٧١ .

ويوجد تجمُّع قرّائي آخر في ولاية كاليفورنيا يضم حوالي ١٢٠٠ يهودي معظمهم من أصل مصري.

ويبلغ عدد القرّائين في إسرائيل نحو عشرين ألفًا، توجد أعداد كبيرة منهم في الرملة، وزعيمهم وحاخامهم الأكبر هو حاييم هاليفي، ويعيش بعضهم في أشدود.

وهناك اثنا عشر معبدًا قرّائيًا ومحكمة شرعية. ويمكن القول بأن معظم القرّائين في إسرائيل من أصل مصري (حيث هاجروا إليها عام ١٩٥٠). والواقع أن انتماءهم الديني القرّائي لا يزال قويًا، ولذا فإن ثمة خلافات دائمة بينهم وبين اليهود الحاخامين، الأمر الذي ينعكس على العلاقات فيما بينهم داخل المستوطنات المشتركة(١).

السفارد Sephardim

التعريف:

سفارد: مصطلح مأخوذ من الأصل العبري «سفارديم».

ويُشار إلى السفارد أيضًا بكلمة «إسبانيولي»، وباليديشية بكلمة «فرانك» التي تشبه قولنا بالعربيَّة «الفرنجة».

و«سفارد» اسم مدينة في آسيا الصغرى تم ربطها بإسبانيا عن طريق الخطأ فتُرجمت الكلمة في الترجوم (الترجمة الآراميَّة لأسفار موسى الخمسة) إلى «إسباميا»، و«سباميا»، أما في البشيطا (الترجمة السريانيَّة لأسفار موسى الخمسة) فهي «إسبانيا».

وابتداءً من القرن الثامن الميلادي، أصبحت كلمة «سفارد» هي الكلمة العبريَّة المستخدمة للإشارة إلى إسبانيا.

وتُستخدَم الكلمة في الوقت الحاضر للإشارة إلى اليهود الذين عاشوا أصلًا في إسبانيا والبرتغال، مقابل الإشكناز الذين كانوا يعيشون في ألمانيا وفرنسا ومعظم أوربا.

---

(١) انظر: الفصل (١/ ٨٢)، الملل والنحل (١/ ٢١٥)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٨٢)، روح المعاني، الآلوسي (٣/ ١٦٧)، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الموسوعة الميسرة (١/ ٤٩٩)، اليهودية ص(٢٢٣)، اليهودية عرض تاريخي ص(٩٤- ٩٨).

التاريخ والأحدث

استقر أعضاء الجماعة اليهوديَّة في شبه جزيرة أيبريا (أسبانيا والبرتغال) في أيام الإمبراطورية الرومانية.

ولكن أهم فترة في تاريخهم هي الفترة التي حكم فيها المسلمون شبه جزيرة أيبريا والتي يُشار إليها باسم «العصر الذهبي».

وكان أعضاء الجماعة اليهوديَّة يتحدثون العربيَّة في تلك الفترة، ويفكرون ويكتبون بها، ثم جاء الغزو المسيحي لشبه الجزيرة واستردادها، فاكتسب اليهود الصبغة الإسبانية وتحدثوا باللادينو، وهي لهجة إسبانية.

ثم تم طردهم من إسبانيا عام ١٤٩٢، ومن البرتغال عام ١٤٩٧، فاتجهت أعداد منهم إلى الدولة العثمانية التي كانت تضم شبه جزيرة البلقان وشمال أفريقيا.

ويُعَدُّ ميناء سالونيكا (في شبه الجزيرة اليونانيَّة) عاصمة السفارد في العالم حتى الحرب العالمية الأولى، فقد كانت هذه المدينة تضم أغلبية سفاردية.

ومن أهم المدن الأخرى التي استقر فيها السفارد في الدولة العثمانية: أدرنة والأستانة وصفد والقدس والقاهرة، وعاشوا في بعضها فيما يسمى بالأحياء اليهوديَّة.

وبعد قرن من الزمان، لحقت بجماعة السفارد جماعات المارانو، وهم من يهود السفارد المُتخفِّين (البرتغاليين)، فاتجهت جماعات منهم إلى هولندا وفرنسا، كما اتجهت جماعات أخرى إلى أماكن أخرى في أوربا، مثل: إنجلترا وألمانيا وإيطاليا والدنمارك والنمسا والمجر، وإلى العالم الجديد (البرازيل والولايات المتَّحدة)، حيث أعلنت أعداد منهم عن هويتهم الدينيَّة ومارسوا العقيدة اليهوديَّة بشكل علني.

وكان المُبعَدون من السفارد إسبانيين أو برتغاليين في تراثهم وثقافتهم ولباسهم وطَهْوِهم وأسمائهم، ولذا كان يُطلَق عليهم اسم «الأسبان» أو «البرتغاليون».

وقد احتفظ هؤلاء المُبعَدون بعلاقاتهم الثقافية بوطنهم الأصلي، حيث كانوا معتزين بهذا التراث وبالمكانة العالية التي حققوها في هذه البلاد.

وقد ظهر في صفوف السفارد عدد كبير من المفكرين مثل أوريل داكوستا.

وليس من قبيل الصدفة أن أول مفكر يهودي يُعتَدُّ به في العصر الحديث كان سفاردي الأصل، وهو إسبينوزا.

كما أن قبَّالاة الزوهار، وكذلك القبَّالاه اللوريانية التي اكتسحت أوربا الإشكنازية، كانت من أصل سفاردي، وكذا الشولحان عاروخ، أهم المصنفات الفقهية اليهوديَّة، حيث وضعه يوسف كارو.

وكان شبتاي تسفي من أصل سفاردي أيضًا، أي أن كل التطورات التي حدثت بين الجماعات اليهوديَّة في هذه الفترة كانت ذات أصول سفاردية.

وقد كان السفارد يُصرّون على الاحتفاظ بمسافة بينهم وبين الإشكناز، الذين كانوا يتسمون بقدر كبير من العزلة والتخلف الحضاريين. وأخذت هذه المسافة شكل مؤسسات دينية وتعليمية مستقلة، ورفض الزواج المُختلَط من الإشكناز، حتى إن السفاردي الذي يتزوج من إشكنازية كان يُطرَد من الجماعة السفاردية ولا يُدفَن في مدافنها.

وحينما كانت الجماعة السفاردية تضطر إلى السماح لبعض الإشكناز بحضور الصلوات في معبدها، فإن أعضاءها كانوا يصلون وراء حاجز خشبي يُقام بهدف الفصل بين أعضاء الجماعتين.

وحينما كانت أية جماعة سفاردية تهاجر إلى أية مدينة، فإنها كانت تحتفظ باستقلالها وبإحساسها بتَفوُّقها وتَفوُّق قيمها، حتى إنها كانت تصبغ بقية الجماعة بصبغة سفاردية.

هذا ما حدث على سبيل المثال في الدولة العثمانية، حين امتزج اليهود الروم (الرومانيوت) واليهود المستعربة باليهود السفارد، فأصبحت اللادينو هي اللغة السائدة بينهم. وقد حدث الشيء نفسه في شمال أفريقيا.

وفي العصر الحديث، كانت الهجرة اليهوديَّة في الغرب تأخذ الشكل التالي: يستقر أعضاء جماعة سفاردية تمتلك من الخبرات ورءوس الأموال والاتصالات الدولية ما يجعل منها جماعة تجارية إدارية متقدمة، ثم تأتي الجماهير الإشكنازية وتلحق بهم، وكان السفارد يشغلون في معظم الأحيان قمة الهرم. ولذا، لعب السفارد دورًا مهمًّا في تَطوُّر الرأسمالية الغربية وبروز النظام الاقتصادي الجديد (في العالم) واتساع نطاق حركة الاكتشافات الجغرافية.

وقد بدأ السفارد يستثمرون في كثير من المشروعات الاستعمارية الهولندية، فامتلكوا عددًا كبيرًا من أسهم شركة الهند الغربية الهولندية. في حين ظل الإشكناز على هامش هذا التطور، فكان منهم صغار التجار وكان منهم المرابون المرتبطون بالنظام الاقتصادي القديم.

ولعل هذا يُفسِّر بقاء المسألة اليهوديَّة مسألة إشكنازية بالدرجة الأولى. ففي فرنسا مثلًا، اصطدم النظام الجديد بعد الثورة بيهود الألزاس واللورين، وهم من يهود اليديشية الإشكناز، بينما لم تَحدُث أية مواجهة بين هذا النظام وبين يهود بايون وبوردو من السفارد. وفي إنجلترا، لم تكن هناك مسألة يهودية إلا بعد هجرة يهود اليديشية بجحافلهم المتخلفة إليها.

وقد حقق السفارد بروزًا غير عادي في المجتمعات الغربية خصوصًا هولندا. وكان منهم أعداد كبيرة من يهود البلاط. كما اشتركوا في تمويل بعض الشركات الاستيطانية. وقد بلغ اليهود السفارد قمة نفوذهم المالي في نهاية القرن السابع عشر.

ولكن وَضْعَهم أخذ في التدهور بعد ذلك التاريخ، وذلك مع ظهور القوة البريطانية وانكماش القوة الهولندية، ومع تَزايُد حجم التجارة الدولية التي لم يتمكن رأس المال السفاردي من

ستيعابها، ومع ظهور بورجوازيات محلية حلت محل يهود البلاط.

وقد أدَّى وصول قوات الثورة الفرنسيَّة إلى هولندا إلى قطع علاقة أعضاء الجماعات اليهوديَّة فيها بالشبكة التجارية اليهوديَّة في ألمانيا وبولندا والدولة العثمانية، ومن ثم فَقَد السفارد ما تَبقَّى لهم من قوة وثروة، وحدث التراجع الذي رجَّح كفة الإشكناز.

كل هذا أدى إلى تَدهَور وضع اليهود السفارد، بعد أن كانوا الأكثر عددًا والأعلى مكانة والأكثر ثقافة.

ففي العصور الوسطى، كانوا يشكلون نصف يهود العالم، وكانوا على احتكاك بمؤسسات صنع القرار في بلادهم، كما كانوا يشتغلون بالشئون المالية المتقدمة.

ولكن، ابتداءً من القرن السابع عشر، بدأ صعود الإشكناز عدديًا ثم ثقافيًا. ورغم وجود أقليات سفاردية مهمة في لندن وأمستردام حتى القرن التاسع عشر، زاد المد الإشكنازي وغطى الانفجار السكاني في صفوفهم على السفارد تمامًا. ومع الحرب العالمية الثانية، كان يهود العالم يبلغون ١٦ ٥٠٠, ٠٠٠, منهم ١٥ مليون إشكنازي، والباقي سفارد بالمعنيين الديني والعرْقي.

وتُوجَد أغلبية السفارد في شمال أفريقيا (ما بين ٢٥٠ ألفًا إلى ٣٠٠ ألف) وأوربا (٢٥٠ ألفًا).

كما كان هناك عدد كبير في أمريكا اللاتينيَّة (١٢٠ ألفًا)، وتركيا (٧٣ ألفًا)، وفلسطين (٤٧ ألفًا)، وتَوزَّع الباقي على ثلاث دول أخرى. لكن هذه الأرقام غير دقيقة، كما أنها تضم اليهود المستعربة ضمن السفارد، وكذلك أعضاء الجماعات اليهوديَّة الأخرى (مثل الفلاشاه وبني إسرائيل والدونمه).

وقد أدَّت تَقلُّبات القرن العشرين، من تحديث في اليونان والدولة العثمانية، وحروب بين اليونان وتركيا، إلى تشتيتهم من مراكز تَجمُّعهم الأساسية، لا سيما وأن عاصمتهم سالونيكا كانت مدينة تركية في شبه الجزيرة اليونانيَّة. وقد تم إخلاء سكانها وتهجيرهم إلى تركيا، وضمن ذلك اليهود، باعتبارهم أتراكًا، خصوصًا وأن نسبة كبيرة من سفارد سالونيكا كانوا من الدونمه، أي من اليهود المتخفين الذين أظهروا الإسلام، ولذلك تم تصنيفهم باعتبارهم مسلمين.

وهاجرت أعداد كبيرة منهم إلى أوربا والولايات المتَّحدة وأمريكا اللاتينيَّة حيث كان الجو الحضاري اللاتيني مواتيًا لهم.

وقد لعب اليهود السفارد دورًا مهمًا في إسقاط الدولة العثمانية، وفي تسهيل مهمة تهجير الإشكناز إلى فلسطين ما قبل الحرب العالمية الأولى، ومع ذلك لم تبذل الحركة الصهيونيَّة جهدًا لتهجير اليهود السفارد وتوطينهم؛ وذلك لأن اصطلاح يهودي لدى الصهاينة يعني الإشكنازي فحسب، ومسألة اليهود في الأصل مسألة إشكنازية، وكذلك لدى الصهيونيَّة.

ولذلك كانت هجرة السفارديين عند قيام الدولة الصهيونيَّة مفاجأة غير سارة من وجهة نظر بعض المفكرين الإشكناز.

ووصل الأمر لدرجة أن أحد علماء الاجتماع الصهاينة وهو آرثر روبين ذكر في أحدى دراساته أنه من الصعب اعتبار السفارديين يهوداً[(١)] .

الإشكناز Ashkenazim

التعريف:

الإشكناز: من «إشكنازيم» العبريَّة. و«الإشكناز» هم يهود فرنسا وألمانيا وبولندا.

و«إشكناز»، حسب الرواية التوراتية، اسم أحد أحفاد نوح[(٢)] .

ومن المحتمل أن تكون الكلمة قد استُخدمت للإشارة إلى قبيلة ظهرت في زمن أسرحدون تحالَف أعضاؤها مع آشور.

وهم الذين تشير إليهم المدونات الآشورية في القرن السابع قبل الميلاد بلفظ «إشوكوزا»، وهم الذين أشار إليهم اليونانيون بكلمة «إسكيثيانز Scythians» وهم الإسكيثيون.

ويبدو أن هذه الأقوام كانت تشغل المنطقة الموجودة على حدود أرمينيا في أعالي الفرات، وجزءًا من مملكة الميديين. ويقرن يوسيفوس كلمة «إشكناز» بمدينة في مركز ميديا.

وفي بعض الكتابات الحاخامية، يُشار إلى آسيا بأسرها باعتبارها «إشكناز»، كما كان يُشار إلى الخَزَر باعتبارهم «إشكناز»، بل واستُخدمت الكلمة للإشارة إلى حملات الفرنجة.

أما الاشتقاق الحالي لكلمة «الإشكناز»، فهو من كلمة «إشكناز» بمعنى «ألمانيا». ومن الصعب معرفة متى حدث هذا التَرادُف.

وثمة آراء احتمالية عدة، فهناك من يربط بين إشكناز وإسكندنافيا، وهناك من يربط بينها وبين الساكسون ومن ثم بينها وبين ألمانيا.

ومع زمن راشي، أصبح هذا الترادف أمرًا مقبولًا تمامًا، فهو يشير إلى «لشون إشكناز»، أي «اللسان الألماني» أو «اللغة الألمانيَّة»، وكان يشير إلى «إرتس إشكناز» أي «أرض ألمانيا».

التاريخ والأحداث

. المصطلح يشير إلى يهود فرنسا وألمانيا ونسلهم من اليهود الذين هاجروا إلى إنجلترا وشرق أوربا (بولندا وليتوانيا) بعد حروب الفرنجة.

ويرى بعض المؤرخين، ومن بينهم العالم الإسرائيلى إ. ن. بولياك أستاذ التاريخ اليهودى الوسيط في جامعة تل أبيب، وكذلك علماء الأجناس، أن يهود شرق أوربا الإشكناز ليسوا من

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الفرق والمذاهب اليهودية ص(١٣٧- ١٤٠).

(٢) انظر: سفر التكوين ١٠/١- ٥ .

نسل يهود فلسطين وإنما من نسل الخزر الذين استوطنوا هناك بعد تشرذمهم. وقد وصفهم الجغرافيون العرب بأنهم ذوو بشرة بيضاء وعيون زرقاء وشعر غزير ضارب للحمرة.

ويطرح آرثر كوستلر هذه النظرية بكلامه عن أصل أكبر كتلة بشرية إشكنازية (أي يهود بولندا)، فيرى أن الجماعات اليهوديَّة في فرنسا وألمانيا قد أبيدت تمامًا أو اختفت، وأن يهود بولندا هم في الواقع بقايا يهود الخزر الذين نزحوا عن أراضيهم بعد سقوط دولتهم وأسسوا دولة المجر ثم هاجروا منها إلى بولندا. وبالتالي، فإن الإشكناز عنصر تركي غير سامي.

وقد انتشر الإشكناز من بولندا إلى أوربا، خصوصًا بعد هجمات شميلنكي في أوكرانيا (١٦٤٨)، فاستقرت أعداد منهم في بولندا وألمانيا وإنجلترا والعالم الجديد.

ثم هاجر الملايين منهم في نهاية القرن التاسع عشر إلى الولايات المتَّحدة وأمريكا اللاتينيَّة وأستراليا ونيوزيلندا، بعد الانفجار السكاني الذي حدث في صفوفهم.

كما أنهم توجهوا إلى آسيا وأفريقيا مع حركة التوسع الإمبريالي.

ولما كان يهود شرق أوربا هم أهم كتلة بشرية يهودية، فقد ارتبط المصطلح بهم، ولكننا نُفضِّل أن نشير إلى هؤلاء باعتبارهم «يهود اليديشية».

وكان معظم الإشكناز يتحدثون اليديشية التي اختفت بالتدريج مع عشرينيات هذا القرن، وبالتالي فهم يتحدثون في الوقت الحاضر لغة البلد الذي يوجدون فيه. ولغتهم الأساسية الآن هي الإنجليزية باعتبار أن أغلبيتهم تُوجَد ضمن التشكيل الاستعماري الاستيطاني الأنجلو . ساكسوني (الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة - كندا - أستراليا - جنوب أفريقيا).

والعبريَّة السائدة بين الإشكناز مختلفة عن عبرية السفارد حيث ينطقونها بطريقة مختلفة.

وكان أكثر من نصف يهود العالم، في العصور الوسطى وحتى بدايات القرن الثامن عشر، من السفارد ويهود العالم الإسلامي؛ ولكن بعد ذلك التاريخ أخذ الإشكناز في التزايُد إلى أن حدث الانفجار السكاني في صفوفهم في القرن التاسع عشر وأصبحوا يشكلون نحو ٩٠٪ من يهود العالم. ولا تزال نسبتهم عالية. ومع أنها قد هبطت قليلًا في الآونة الأخيرة، بسبب تَناقُص معدلات الإنجاب بينهم، فإن الأغلبية الساحقة من يهود العالم تظل إشكنازية (بمعنى: غربية).

كما أنهم نظرًا لوجودهم في المجتمع الغربي، فإن لهم بروزًا عالميًا؛ ولذا فإن معظم مشاهير اليهود الآن من الإشكناز، ابتداءً بأينشتاين، ومرورًا بكيسنجر، وانتهاءً براكيل ويلش.

وتُذكَر كلمة «إشكناز» عادةً مقابل «سفارد»، وبالتالي أصبحت كلمة «إشكناز» مرادفة لمعنى «غربي» وأصبحت «سفاردي» بمعنى «شرقي»، وهو تَرادُف خاطئ؛ لأن كثيرًا من يهود الشرق (يهود الفلاشاه وبني إسرائيل) ليسوا من السفارد، ولا علاقة لهم بالتراث السفاردي الإثني أو الديني.

ولكن هذا الترادف التصنيفي الخاطئ ربما يعود إلى الرغبة المتزايدة في التصنيفات الثنائية (مثل:

سالب وموجب - ذكر وأنثى)، وإلى جَعْل مرجعية اليهود الوحيدة والأساسية هي تراثهم، ومحاولة رؤيتهم داخل إطار يهودي مُوحَّد، وهو أمر يصبح صعبًا لو أخذنا بتصنيف تَعدُّدي ثلاثي يراعي وجود أقسام مختلفة من اليهود في العالم.

ومما يزيد الأمور اختلاطًا، أن الحسيديين، وهم من أشد اليهود إشكنازيةً إن صح التعبير، تَبنَّوا بعض الممارسات الدينيَّة السفاردية في محاولة لتأكيد استقلالهم عن المؤسسة الحاخامية الإشكنازية. ومع تَزايُد فقدان الجماعات اليهوديَّة سماتها الخاصة، وتَزايُد اندماجها وتَحوُّل أعضائها إلى أمريكيين يهود أو فرنسيين يهود... إلخ، يصبح من الأدق استخدام مصطلح «يهود غربيون» للإشارة لما يُسمَّى الآن «اليهود الإشكناز».

لكل ما تَقدَّم، نجد أن مصطلح «إشكناز» اكتسب دلالة حضارية وإثنية وعِرْقية ودينية، وأصبح هذا المصطلح يشير إلى مركب إشكنازي من العناصر والعلاقات، وقد انعكس هذا على الوضع في فلسطين[1].

التأثير المتبادل بين الإشكناز والسفارد

يُلاحَظ أن تأثير السفارد الفكري الديني في الإشكناز كان عميقًا؛ فرغم أن بدايات القبَّالاه إشكنازية، فإن تَحوُّلها إلى نسق متكامل في قبَّالاة الزوهار ثم القبَّالاه اللوريانية تم على يد السفارد، بل إن الفكر القبَّالي ذاته يكاد يكون فكرًا سفارديًا، وهو الذي اكتسح الفكر الحاخامي الإشكنازي.

كما أن أهم كتب الشريعة اليهوديَّة (الشولحان عاروخ) كتاب سفاردي كتب عليه أحد الإشكناز شروحًا وتعليقات.

وقد لاحَظ أحد المفكرين أثر الفكر المسيحي في الفكر الديني للإشكناز، فظاهرة الاستشهاد فيما يُعرَف بمصطلح «تقديس الاسم» (بالعبريَّة: «قيدوش هاشيم») هي ظاهرة إشكنازية لعلها جاءت نتيجة تأثير واقعة الصلب في المسيحيَّة على اليهود.

أما المارانية، وهي شكل من أشكال التَّقية، فهي ظاهرة سفاردية. ويمكن ملاحظة تأثير الفكر المسيحي في الحسيديَّة أيضًا، على عكس الفكر السفاردي الذي تأثر في بعض جوانبه بالفكر الديني الإسلامي.

ومن الظواهر التي تستحق التسجيل أن المشيحانية (وهي المعبِّرة عن إحباط الجماهير) حركة إشكنازية بالدرجة الأولى رغم أن الفكر القبَّالي فكر سفاردي، ورغم أن شبتاي تسفي (أول ماشيَّح دجال في العصر الحديث) سفاردي. كما أن قيادة هذه الحركات انتقلت إلى الغرب بعد حركة شبتاي تسفي. فجيكوب فرانك إشكنازي (رغم تَبنِّيه بعض الأساليب السفاردية، ورغم أن

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الفرق والمذاهب اليهودية ص(١٣٥- ١٣٧).

أعداءه سموه «فرانك»، أي السفاردي باليديشية) والحركة الحسيديَّة أيضًا حركة إشكنازية.

ويُلاحَظ أيضًا أن الوضع تغيَّر بعد سنوات من التبعية للفكر السفاردي، وبدأ الإشكناز في الإبداع في مجال الفكر الديني والدنيوي، فظهرت حركة التنوير في صفوفهم، كما ظهر بينهم علم اليهوديَّة، وكذلك جميع الحركات الدينيَّة في اليهوديَّة الإصلاحية والمحافظة والأرثوذكسيَّة والتجديدية[1].

الفروق بين السفارد والإشكناز

١- أن عبرية السفارد مختلفة عن عبرية الإشكناز.

وهذا يعود إلى أن يهود العالم العربي كانوا منذ أيام الأندلس لا يتحدثون إلا العربيَّة، واقتصر استخدام العبريَّة على الكتابة الدينيَّة المتخصصة.

وقد كان لاحتكاك اليهود بالعرب أثر عميق في لغتهم، فقد ازدادت عبريتهم فصاحة بمجاورتها اللغة العربيَّة التي تُعدُّ أرق لغات المجموعة السامية كلها. وقد تَرتَّب على ذلك أن دولة إسرائيل، التي قامت على أكتاف الإشكناز، وجدت نفسها رغم كل شيء مُضطرَّة إلى اعتبار عبرية السفارد هي لغة المسرح الرسمية وكذلك لغة الإذاعة والتعليم في الجامعات والمدارس.

وقد اضطر المؤلفون في الأدب العبري الحديث، أو العاملون في مجال الدراسات اللغوية، حتى وإن كانوا من الإشكناز، إلى الخضوع المُطلَق للسان السفارد.

ولكن هذا لا ينفي أن هناك مزيجًا لغويًّا في جبهة السفارد ذاتها، فبعضهم (مثل المارانو) يتحدث اللادينو أو البرتغالية، أما البعض الآخر فيتحدث اليونانيَّة أو التركية وهم أقلية.

وقد انعكس هذا التباين اللغوي على طريقة نطقهم للعبرية. بل إن هذا التباين يمكن ملاحظته في نُطق العبريَّة بين اليهود الذين يتحدثون اللغة نفسها، فثمة سمات محلية في النطق أصبحت تُميِّز اليهودي العراقي عن اليهودي اليمني أو المغربي، ليست نتيجة احتكاكه باللغة العربيَّة الفصحى وحسب بل ونتيجة احتكاكه العميق باللهجة التي يتحدث بها مواطنو بلده.

وفي الوقت الحاضر، بدأ السفارد يتحدثون (أساسًا) لغة البلاد التي يتواجدون فيها.

٢- لا يوجد اختلاف جوهري بين السفارد والإشكناز في العقائد، فكلاهما يعتبر أن التلمود البابلي هو المرجع الوحيد والنهائي في الأمور الدينيَّة والفقهية.

٣- كان ليهود إسبانيا طريقتهم الخاصة في الصلاة وإقامة الشعائر الدينيَّة التي تُعَدُّ استمرارًا للتقاليد الدينيَّة اليهوديَّة التي نشأت وتطورت في بابل.

أما الإشكناز، فتعود عبادتهم أساسًا إلى أصول يهودية فلسطينية.

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

وقد تعمَّقت الفروق بين الفريقين نتيجة تأثر السفارد في عبادتهم وتلاوتهم وترتيلهم وإنشادهم بالذوق العربي، كما انفردوا بنصوص شعرية ونثرية في أدعيتهم وصلواتهم قريبة الشبه بما يماثلها عند المسلمين.

٤- إن السفارد بسبب مستواهم الثقافي العالي، كانوا أكثر تَسامُحًا وأوسع أفقًا. ومن هنا نجد أن الشولحان عاروخ (المُصنَّف التشريعي الذي وضعه كارو السفاردي) أكثر ليبرالية من تلك الرؤية التي سادت بين الإشكناز عند صدوره.

أما الإشكناز فلم ينفتحوا على الحضارات التي عاشوا بين ظهرانيها برغم تأثرهم بها، وانغلقوا على الكتاب المقدَّس والتلمود وعلى تفسير النصوص الجزئية. كذلك لم يحاول الإشكناز جَمْع الشريعة وتقنينها والتوصل إلى مبادئها العامة.

٥- اختلافات بين السفارد والإشكناز تعود إلى اختلاف البيئات الحضارية التي عاش في كنفها أعضاء الجماعات اليهوديَّة السفاردية والإشكنازية.

ففي عيد الفصح، يستخدم السفارد الخس باعتباره أحد الأعشاب المُرَّة التي تُؤكل في هذه المناسبة بدلًا من الفجل الحار.

٦- الصلوات في المعبد، فهي مختلفة في كثير من النواحي السطحية، وعلى سبيل المثال، يرفع السفارد مخطوطة التوراة قبل قراءتها على خلاف الإشكناز الذين يفعلون ذلك بعدها. كما أن الخط المستخدم في كتابة المخطوطة مختلف.

وكذلك، فإن معمار المعبد السفاردي يختلف، في بعض التفاصيل، عن معمار المعبد الإشكنازي.

٧- تختلف المصطلحات الدينيَّة بين الإشكناز والسفارد على النحو التالي:

صلاة العشاء: يقابلها عند السفاردي: عربت، ويقابلها عند الأشكنازي : معاريف.

تابوت العهد: يقابلها عند السفاردي: هيكل، ويقابلها عند الأشكنازي: آرون.

صلاة عيد الفصح: يقابلها عند السفاردي: هاجاداه، ويقابلها عند الأشكنازي: سيدر.

يوم الغفران: يقابلها عند السفاردي: كيبور، ويقابلها عند الأشكنازي: يوم كيبور.

حاخام: يقابلها عند السفاردي: ربي / راف، ويقابلها عند الأشكنازي: راباي.

كتاب صلاة: يقابلها عند السفاردي: تيفيلوت، ويقابلها عند الأشكنازي: سيدور.

وبسبب هذه الاختلافات وغيرها، اكتسب مصطلح «سفارد» دلالة دينية إلى جانب دلالته الإثنية الأصليَّة، وأصبح يُطلَق على كل اليهود الذين يتبعون التقاليد السفاردية في العبادة سواء أكان أصلهم يعود إلى شبه جزيرة أيبريا أم يعود إلى غير ذلك.

ويُطلَق المصطلح الآن على كل اليهود الذين لا ينتمون إلى أصل إشكنازي غربي في التجمع الإسرائيلي.

ولكن مما يثير بعض المشاكل في التصنيف أن الحسيديين، وهم من الإشكناز، اقتبسوا كثيرًا من التقاليد والطقوس السفاردية، كما أن بعض اليهود الهولنديين والإنجليز يتبعون التقاليد السفاردية في العبادة.

ولذا فحينما نتحدث عن سكان التجمع الصهيوني من اليهود نقول: «اليهود الإشكناز» و«اليهود السفارد»، و«يهود البلاد الإسلاميَّة»، أو نقول: «يهود شرقيون Oriental Jews» و«يهود غربيون Western Jews» بدلًا من «سفارد» و«إشكناز» حتى لا نَسقُط في التصنيفات الثنائية البسيطة والسهلة التي تُشوِّه الواقع.

٨- أن البناء الوظيفي والمهني للإشكناز مختلف عن بناء السفارد؛ فالإشكناز كانوا يقفون دائمًا على هامش المجتمع الغربي، كشعب شاهد، ثم كأقنان بلاط ويهود بلاط ومرابين وتجار ووسطاء في النظام الإقطاعي، على عكس السفارد الذين كان بعضهم يضطلع بالوظائف الهامشية نفسها، ولكنهم كانوا أكثر اندماجًا في النظام الاقتصادي الجديد في الغرب باعتبارهم من كبار المموِّلين الذين ساهموا في أمستردام وغيرها في تأسيس بعض الشركات الرأسمالية الجديدة، كما استثمروا أموالهم في المشاريع الاستعمارية والاستيطانية.

٩- من الناحية الثقافية، فقد كان السفارد أقل انغلاقًا على المجتمع الغربي، وأكثر استيعابًا لثقافته وأسلوب حياته على عكس الإشكناز؛ ولذلك فإن المسألة اليهوديَّة مسألة إشكنازية، لم تُوجَد إلا في البلاد التي تُوجَد فيها أقلية إشكنازية، وحينما وُجدت أقلية سفاردية وأخرى إشكنازية في بلد واحد، كما كان الحال في فرنسا، فإن السفارد كانوا يندمجون في الاقتصاد الجديد دون أن يصادفوا عقبات كثيرة، ودون أن يواجهوا مشكلة ازدواج الولاء؛ ولهذا، فحينما تَوجَّه نابليون لحل مشكلة يهود فرنسا، انصبت جُلَّ جهوده على حل مشكلة يهود الألزاس واللورين من الإشكناز، ولم يضم لهم يهود بوردو وبايون من السفارد[١].

الوضع في فلسطين المحتلة

انعكس الانقسام بين السفارد والإشكناز على الجماعة اليهوديَّة في فلسطين، إذ كانت هذه الجماعة تنقسم بدورها إلى إشكناز وسفارد، ولكل جماعة حاخام خاص بها.

وقد كان أعضاء اليشوف القديم (وهي مؤسسة دينية محضة) ينقسمون إلى إشكناز وسفارد، وهذا الانقسام لا يزال قائمًا في إسرائيل، فهناك حاخامان يشرف كل منهما على الشئون الدينيَّة لجماعته.

وبشكل عام، كان السفارد يُبقون مسافة اجتماعيَّة واسعة بينهم وبين الإشكناز، ويحاولون تأكيد نقط الاختلاف بين الفريقين.

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

وقد كتب المفكر اليهودي السفاردي إسحق دي بنتو رسالة إلى فولتير يبين له فيها أن السفارد لا يتزاوجون مع الإشكناز، وأن لهم معابدهم المستقلة، وأن أزياء السفارد لا تختلف عن أزياء الأغيار على عكس الإشكناز، وأن أثرياء السفارد يتسمون بالتحضُّر ولا يختلفون عن الأغيار إلا في الدين. وختم دي بنتو خطابه بقوله: «لو تزوج سفاردي من إشكنازية، فإنه يفقد كل حقوقه ويُطرَد من المعبد اليهودي السفاردي ويُستبعَد تمامًا من الجماعة السفاردية ولا يُدفَن في مدافنهم».

وفسَّر دي بنتو هذا الاختلاف على أساس عرْقي، فالإشكناز لا تجري في عروقهم دماء يهودية نقية، أما السفارد فهم من نسل كبار أسرة قبيلة يهودا الذين أرسلوا إلى إسبانيا أثناء التهجير البابلي.

وقد ارتبط اليهود غير الغربيين (المغاربة والمستعربة) بالحاخامية السفاردية، ومن هنا كان اختلاط المجال الدلالي للكلمة بحيث أصبحت تشير إلى كل من ليس بإشكناز.

وكانت السلطات الإنجليزية تُفضِّل السفارد واليهود المستعربة على الإشكناز؛ نظرًا لأن الفريق الأول كان يعرف تقاليد فلسطين أكثر من الوافدين الجدد.

وإذا كانت المسألة اليهوديَّة مسألة إشكنازية؛ فإن الحركة الصهيونيَّة هي الأخرى حركة إشكنازية. بل إن جميع الظواهر اليهوديَّة الحديثة تبلورت في صفوف الإشكناز، فالحسيديَّة نشأت في بولندا وانتشرت منها، والإصلاح الديني بدأ في ألمانيا وتبعه تزايد معدلات الاندماج والانصهار.

والواقع أن كل مفكري الصهيونيَّة، بدون استثناء، إشكناز. وربما كان الاستثناء الوحيد هو الحاخام القلعي الذي تنبع صهيونيته من رؤاه القبَّالية، وكان يعيش في أطراف الدولة العثمانية (في شبه جزيرة البلقان).

وقد كان المؤتمر الصهيوني الأول يضم وفودًا إشكنازية بالدرجة الأولى. بل إن السفارد الذين حضروا، كانوا من بلاد أوربية مثل بلغاريا أو فرنسا. وظل الاستيطان الصهيوني (أساسًا) استيطانًا إشكنازيًا.

ومن ناحية أخرى، فإن مصطلح «يهودي» كان يعني في الأدبيات الصهيونيَّة الأولى «الإشكنازي». ولا تزال النخبة الحاكمة في إسرائيل إشكنازية، كما أن المؤسسات الأساسية (مثل الكيبوتس) كلها إشكنازية.

والواقع أن هذه المؤسسات تحاول أن تحافظ على توجه الدولة الإشكنازي، لكن العنصر اليهودي الإشكنازي في الدولة الصهيونيَّة قد أصبح، مع ذلك، أقل من ٥٠٪ بسبب هجرة اليهود السفارد واليهود الشرقيين الذين يزيد عددهم عن ٥٥٪ بسبب تدفقهم على الدولة الصهيونيَّة وازدياد معدل الزيادة الطبيعة.

وقد كانت الصهيونيَّة إشكنازية لدرجة أن كلمة «يهودي» في الأدبيات الصهيونيَّة الأولى كانت مرادفة لكلمة «إشكنازي» بمعنى «يديشي»، كما أن المشروع الصهيوني كان مشروعًا غربيًا لحماية مصالح الغرب في الشرق.

ولكن بعد تأسيس الدولة، هاجر الألوف من يهود الشرق إليها، الأمر الذي أدَّى إلى زيادة العنصر غير الإشكنازي في الدولة. وقد أعطاها هذا الطابع الذي يُقال له: «سفاردي أو شرقي».

وتتسم العلاقات في المُستوطَن الصهيوني بين الشرقيين والسفارد من جهة، والإشكناز من جهة أخرى، بالتوتر الشديد، فيشير الإشكناز للشرقيين بوصفهم «شفارتز» (أي «سود» أو «شحوريم»، مع تحميل الكلمة إيحاءات قدحية)، وهناك مَثَل يديشي يقول: «فرانك كرانك»؛ أي «السفارد مرض»، والرد الشرقي السفاردي هو الإشارة إلى «الإشكي نازي» بكل تداعيات الكلمة في الذهن الإسرائيلي.

وتُصِر النخبة الحاكمة في الدولة الصهيونيَّة على الطبيعة الغربية (الإشكنازية) للدولة.

وقد صرح شاعر الصهيونيَّة الأكبر نحمان بياليك، وهو إشكنازي من يهود اليديشية، بأنه يكره العرب؛ لأنهم يُذكِّرونه باليهود الشرقيين.

ولعل خوف النخبة الإشكنازية من العزلة الحضارية هو ما يدفعها إلى إثارة الحروب من آونة إلى أخرى في المنطقة حتى لا يندمج الشرقيون في المحيط الحضاري العربي، فهم في حقيقة الأمر، ينتمون حضاريًّا وعِرْقيًّا إلى هذه المنطقة.

ولو تَحقَّق مثل هذا الاندماج، لوجدت النخبة الحاكمة الإشكنازية نفسها في موضع الأقلية مرة أخرى، وهو الأمر الذي خططت هذه النخبة وأنفقت كل أيامها من أجل الهرب منه.

وعلى كلٍّ، فقد تحولت الأغلبية الإشكنازية إلى أقلية عددية، ولكنها لا تزال تملك ناصية الأمور وتحتكر صنع القرار.

ويُقال: إن الاهتمام المحموم، من جانب المؤسسة الحاكمة في إسرائيل، بالهجرة السوفيتية لا يعود إلى حاجة المُستوطَن الصهيوني إلى مادة بشرية قتالية وحسب وإنما إلى حاجته إلى مادة إشكنازية على وجه التحديد تُوازن العنصر الشرقي السفاردي، بعد أن انخفض عدد اليهود الغربيين في الدولة الصهيونيَّة إلى أقل من النصف.

ويبدو أن التميز العنصري مستمر بالنسبة لأبناء اليهود الشرقيين ممن وُلدوا ونشئوا في إسرائيل. وقد اتضح هذا في النظام الحزبي في إسرائيل، فقد ظهرت فيه الأحزاب الإثنية بعد إعلان الدولة الصهيونيَّة، وقد أعلن الصهاينة حينذاك أن هذا أمر مؤقت وأن الصهيونيَّة (أي القومية اليهوديَّة) ستصهر الجميع في بوتقة واحدة.

ولكن ظهر في التسعينيات أحزاب تعبِّر عن الانقسام الإثني فيضم حزب شاس (الديني) وحزب تامي اليهود السفارد، أما حزب إسرائيل بعالياه (العلماني) فيضم المهاجرين السوفييت[١].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

الحسيديون أو الحسيديَّة Hassidism

التعريف:

الحسيديَّة: بالعبريَّة حسيدوت، وهو مصطلح مشتق من الكلمة العبريَّة «حسيد»، أي «تقي».

وقد وردت هذه الكلمة في العهد القديم وتشير إلى: الرجل التقي الثابت على إخلاصه للإله وإيمانه به.

وقد استُخدمت هذه الكلمة بعد ذلك للإشارة إلى جماعات من مؤيدي التمرد الحشموني (١٦٨ ق.م) كانت تتسم بالحماس الديني والتقوى (القرن الثاني قبل الميلاد).

ثم استُخدمت للإشارة إلى الحركة الصوفيَّة التي نشأت في ألمانيا في القرن الثاني عشر.

ثم أصبحت الكلمة تشير إلى أتباع الحركة الحسيديَّة التي نشأت في بولندا في القرن الثامن عشر، وهذا هو الاستخدام الشائع في الوقت الحالي.

التاريخ والأحداث

بدأت حركة الحسيدين الحديثة على يد بعل شيم طوف في جنوب بولندا وقرى أوكرانيا في القرن الثامن عشر، وخصوصًا في مقاطعة بودوليا، وقد كانت هذه المقاطعة تابعةً لتركيا في نهاية القرن السابع عشر، وانتشرت الحسيديَّة منها إلى وسط بولندا وليتوانيا وروسيا البيضاء ثم المناطق الشرقيَّة من الإمبراطورية النمساوية المجرية: جاليشيا، وبوكوفينا، وترانسلفانيا، وسلوفاكيا، فالمجر ورومانيا، ولكن أقصى تركيز لها كان في الأراضي البولندية التي ضمتها روسيا إليها.

وبعد موت بعل شيم طوف عام ١٧٦٠ م خلفه دوف بير (هامجيد: الواعظ المتجول) عام ١٧٦٦ م الذي يعتبر المؤسس الحقيقي للحركة الحسيديَّة وذلك لشخصيته وسلوكه الشخصي ونشاطه التبشيري بين طبقات جديدة وفي مناطق جديدة في بولندا بأسرها.

وقد انتشرت الحسيديَّة في بادئ الأمر في القرى بين أصحاب الحانات والتجار والريفيين والوكلاء الزراعيين، ثم انتشرت في المدن الكبيرة حتى أصبحت عقيدة أغلبية الجماهير اليهوديَّة في شرق أوربا بحلول عام ١٨١٥، بل يُقال: إنها صارت عقيدة نصف يهود العالم آنذاك، إلى جانب أنها عقيدة أغلبية يهود اليديشية.

ويُلاحَظ أن الحركة الحسيديَّة لم تضم في صفوفها كثيرًا من العمال والحرفيين اليهود؛ لأن الأساس الاقتصادي لوجودهم كان ثابتًا، كما أن أولادهم كانوا لا يدرسون إلا التوراة، بل كانوا يتركون المدارس بسبب فقرهم. ولهذا، فإنهم لم يكونوا يخوضون في دراسة الشريعة الشفوية. وبالتالي، وجدوا أفكار الحسيديَّة غريبة وغير مفهومة، كما أن الأحزاب الاشتراكية والثورية نجحت في ضمهم إلى صفوفها.

ويرجع نجاح الحسيديَّة إلى أسباب اجتماعيَّة وتاريخية عدة، فالجماهير اليهوديَّة كانت تعيش في بؤس نفسي وفقر اقتصادي شديد بسبب التدهور التدريجي للاقتصاد البولندي، إذ طُرد كثير من يهود الأرندا، وأصحاب الحانات من القرى الصغيرة، الأمر الذي زاد من عدد المتسولين واللصوص والمتعطلين. ويُقال: إن عُشْر أرباب العائلات كانوا بلا عمل، وكانت قيادة الحركة الحسيديَّة -أساسًا- من يهود الأرندا السابقين ومستأجري الحانات وأصحاب المحال الصغيرة.

وكانت هذه الجماهير في خوف دائم بعد هجمات شميلنكي، وعصابات الهايدماك من الفلاحين القوزاق.

كما كانت تشعر بالإحباط العميق، بعد فشل دعوة شبتاي تسفي وتحوُّله إلى الإسلام. وهي مشاعر زادت من حدتها التحولات الاقتصادية والاجتماعيَّة التي كانت تخوضها مجتمعات شرق أوربا آنئذ، هذه التحولات التي جعلت من القهال (مجلس إدارة الجماعة اليهوديَّة) شكلًا إقطاعيًّا طفيليًّا لا مضمون له، يقوم باستغلال اليهود لحساب الحكومة البولندية والنبلاء البولنديين، ولحساب موظفي القهال من اليهود الذين كانوا يشترون المناصب.

وقد صاحب هذا الوضع تدنِّي الحياة الثقافية والدينيَّة داخل الجيتو والشتتل (الحي والمدينة للتجمع السكاني اليهودي) إلى درجة كبيرة، وصار اليهود يعيشون في شبه عزلة عن العالم، بل في عزلة عن المراكز التلمودية في المدن الكبرى.

وعلى أية حال، كانت اليهوديَّة الحاخامية قد تحولت إلى عقيدة شكلية، تافهة وجافة، خالية من المضمون الروحي والعاطفي، تؤكد الأوامر والنواهي دون اهتمام بالمعنى الروحي لها.

ويُلاحَظ أن القبَّالاه (الصوفيَّة اليهوديَّة) كانت قد أحكمت هيمنتها على الفكر الديني اليهودي بين جماهير اليهود وحتى بين طلاب المدارس التلمودية العليا وأعضاء المؤسسة الحاخامية، والفكر القبَّالي الحلولي قادر على إشباع التطلعات العاطفية لدى الجماهير الساذجة اليائسة.

ومن المفارقات أن أعضاء الجماعات اليهوديَّة، بعد أن عاشوا بين فلاحي أوكرانيا وشرق أوربا لمئات السنين، بعيدًا عن المؤسسات الحاخامية في المدن الكبرى والمدن الملكية، تأثروا بفولكلور فلاحي شرق أوربا، وبمعتقداتهم الشعبية الدينيَّة، وبوضعهم الحضاري المتدني بشكل عام.

ويبدو أن الحسيديين تأثروا بالتراث الديني المسيحي، وخصوصًا تراث جماعات المنشقين الدينيَّة المتطرفة (بالروسية: راسكولنيكس Raskolniks من فعل «راسكول raskol» بمعنى «ينشق») في روسيا وأوكرانيا، وكان أتباع هذه الفرق يتبعون أشكالًا حلولية متطرفة.

وأقرب الجماعات المسيحيَّة المنشقة إلى الحسيديَّة هي جماعات الخليستي. وقد ذهب قادة هذه الجماعة إلى أنه حينما صُلب المسيح، ظل جسده في القبر. أما البعث، فهو هبوط الروح القدس بحيث تحل في مسيح آخر هو قائد الجماعة. ولذا، فإن قادتهم مسحاء قادرون على الإتيان

بالمعجزات، يحل فيهم الإله.

والواقع أن مفهوم التساديك (السيد: قائد الجماعة) في الحسيديَّة قريب جدًّا من هذا، فالتساديك هو القائد الذي يحل فيه الإله، وعادةً ما يتم توارث الحلول؛ ولذا فإننا نجد أن قيادات الخليستي يكونون أسرًا حاكمة يتبع كل واحدة منها مجموعة من الأتباع، وهذا ما حدث بين الحسيديين أيضًا.

بل إن التماثل في التفاصيل كان يصل إلى درجة مدهشة، فكان الخليستي يعيشون بعيدًا عن زوجاتهم باعتبار أن الإله إن شاء أن تحمل العذراء حملت. وهذا هو موقف بعل شيم طوف، برغم أن فكرة «الحمل بلا دنس» أبعد ما تكون عن اليهوديَّة. فعندما ماتت زوجته وعُرض عليه أن يتزوج من امرأة أخرى، احتج ورفض وقال إنه لم يعاشر زوجته قط، وإن ابنه هرشل قد وُلد من خلال الكلمة (اللوجوس).

وكان دانيال الكوسترومي (١٦٠٠ - ١٧٠٠) من أهم زعماء الخليستي. وقد وُلد ابنه (الروحي) بعد أن بلغت أمه من العمر مائة عام. وكذلك بعل شيم طوف، فقد وُلد، حسب الأساطير التي نُسجت حوله، بعد أن بلغت أمه من العمر مائة عام.

وكان الخليستي يرتدون ثيابًا بيضاء في أعيادهم، وكذلك الحسيديون.

وقد كان الخليستي يُعدون أنفسهم، من خلال الغناء والرقص، لحلول روح المسيح فيهم، وهذا قريب من تمارين الحسيديين أيضًا.

والمضمون الفكري الاجتماعي لكلٍّ من الخليستي والحسيديين مضمون شعبي يقف ضد التميزات الطبقية بشكل عام.

وفي هذا المناخ، ظهر الدراويش الذين يحملون اسم «بعل شيم»، أي «سيد الاسم»، وهم أفراد كانت الجماهير البائسة تتصور أنهم قادرون على معرفة الأسرار الباطنية، وإرادة الإله، وطرد الأرواح الشريرة من أجساد المرضى، كما أنهم كانوا يتسمون بالتدفق العاطفي الذي افتقدته الجماهير في الحاخامات.

وظهرت الحسيديَّة بحلوليتها المتطرفة، وبريقها الخاص، ورموزها الشعبية الثرية التي تروي عطش الجماهير اليهوديَّة الفقيرة التي كان يخيم عليها التخلف.

وقد تبدَّت هذه الأفكار الحلوليَّة المتطرفة في التصادم الحاد بين الحسديين والمؤسسة الحاخامية (متنجديم)، وهو تصادم كان حتميًا، باعتبار أن الحسيديَّة تمثل رؤية بعض قطاعات الجماعة اليهوديَّة التي استُبعدت من جانب المؤسسة الحاخامية والقهال. وكانت الحسيديَّة تحاول أن تحقق لهم قسطًا -ولو ضئيلًا- من الحرية ومن المشاركة في السلطة.

والحسيديَّة، في جانب من أهم جوانبها، محاولة لكسر احتكار المؤسسة التلمودية للسلطة الدينيَّة، ومحاولة لحل مشكلة المعنى، وقد انعكس هذا التصادم، على المستوى الفكري، حين قام

الحسيديون بالتقليل من شأن الدراسة التلمودية أو دراسة التوراة.

فإذا كان الهدف من الحياة ليس الدراسة وإنما التأمل في الإله والالتصاق به والتوحد معه وعبادته بكل الطرق، فإن هذه العملية لا بد أن تستغرق وقتًا طويلًا، وهو ما لا يترك للإنسان أي وقت لدراسة التوراة على الطريقة الحاخامية القديمة.

كما أن التواصل المباشر مع الإله يطرح إمكانيةً أمام اليهود العاديين، ممن لا يتلقون تعليمًا تلموديًا؛ لأن يحققوا الوصول والالتصاق (ديفيقوت). بل إن الجهل، في إطار التجربة الوجودية المباشرة، يصبح ميزة كبرى.

وهدف التجربة الدينيَّة هو الفرح والنشوة، وهو إعادة تعريف للتجربة الدينيَّة تؤكد العاطفة (الجوانية) كوسيلة للوصول إلى الإله، بدلًا من الشعائر والدراسات التلمودية (البرانية)، فالإله (حسب تصوُّر بعل شيم طوف) لا يسمع الدعاء ولا يقبل الصلاة إلا إذا نبعت من قلب فَرِح. ومن ثَمَّ، يصبح الإخلاص العاطفي أهم من التعليم العقلي.

وقد قلَب الحسيديون الأمور رأسًا على عقب، إذ تبنوا الفكرة اللوريانية الخاصة بحاجة الإله إلى الشعب اليهودي ككل، وخصوصًا القادة التساديك. وقد ذهب الحسيديون إلى أنه لا يوجد ملك دون شعب. وبالتالي، فإن ملك اليهود في حاجة إليهم، ومن خلال حاجته إليهم تتضاءل أهمية الأوامر والنواهي.

وقد نجحت الحسيديَّة في تحقيق قدر من الاستقلال عن المؤسسة الحاخامية، فاتبعت بعض التقاليد السفاردية في الشعائر (ربما تحت تأثير القبَّالاه اللوريانية ذات الأصول السفاردية)، كما أدخلوا بعض التعديلات على طريقة الذبح الشرعي (وهو ما يعني في واقع الأمر السيطرة على تجارة اللحم). وأصبح للحسيديين معابدهم الخاصة وطريقة عبادتهم، ولذلك تحوَّلت الحركة من يهودية حسيدية إلى يهودية تساديكية (نسبة إلى التساديك الذي يقوم بالوساطة بين أتباعه والإله). وقد أصبح هذا مفهومًا محوريًّا في الفكر الحسيدي.

وكان الحسيديون يعمدون إلى إحلال التساديك محل الحاخام (لتقليص سلطان المؤسسة الحاخامية) كلما كان ذلك بوسعهم.

وقد تحولت الحسيديَّة (التساديكية) إلى بيروقراطية دينية لها مصالحها الخاصة، واستولت على القهال في كثير من الأحيان، ولكنها لم تدخل أية إصلاحات اجتماعيَّة. بل كان القهال أحيانًا يزيد الضرائب على اليهود بعد استيلاء الحسيديين عليه.

وقد ارتبطت كل جماعة حسيدية بالتساديك الخاص بها؛ ولذا فقد انقسمت الحركة إلى فرق متعددة. فبعض هذه الفرق اتجه اتجاهًا صوفيًّا عاطفيًّا محضًا، في حين اتجه بعضها الآخر، مثل حركة حبد، اتجاهًا صوفيًّا ذهنيًّا يعتمد على دراسة كل من القبَّالاه والتلمود. كما أن وجود هؤلاء الحاخامات داخل دول مختلفة، زاد من هذا الانقسام.

وأثناء الحرب النابليونية ضد روسيا، أيَّد بعض الحسيديين الروس روسيا ضد نابليون، ولكن بعض الجماعات أيدته ضد روسيا، بل تجسست لحسابه.

وقد حاولت المؤسسة الحاخامية القضاء على الحسيديَّة، فأصدر معارضو الحسيديَّة الذين كان يُقال لهم المتنجديم قرارًا بطرد اليهود من حظيرة الدين، وحرق كتاباتهم كلها، وعدم التزاوج بهم. وكان من أهم الشخصيات الحاخامية التي قادت الحرب ضدهم الحاخام إلياهو (فقيه فلنا).

ومع هذا، ورغم الانقسامات والخلافات بين الحسيديَّة واليهوديَّة الحاخامية، فقد وحدوا صفوفهم في النهاية بسبب انتشار العلمانيَّة ومُثُل الاستنارة والتنوير والنزعات الثورية بين اليهود.

ولما كان القهال قد تداعى كإطار تنظيمي، فإن الحسيديَّة استطاعت أن تحل محله كإطار تنظيمي جديد.

ولذا، فإن الحسيديَّة لم تنتشر جغرافيًا وحسب، بل انتشرت عبر حدود الطبقات أيضًا.

ويتكون الأدب الحسيدي من الكتب التي تلخص تفاسير الزعماء التساديك للكتاب المقدَّس، وتعاليمهم وأقوالهم، وقصص الأفعال العجائبية التي أتوا بها.

ومن أشهر القادة التساديك شيناءور زلمان وليفي إسحق ونحمان البراتسلافي (حفيد بعل شيم طوف).

وكان لكل مجموعة من الحسيديين أغانيها وطرقها في الصلاة، وكذلك عقائدها وقصصها.

وكانت لهم شبكة من العلاقات الاجتماعيَّة والاقتصادية خارج القهال.

وقد أتت النازية على المراكز الحسيديَّة الأساسية في شرق أوربا، وقد انتقلت الحركة الحسيديَّة إلى الولايات المتَّحدة، مع انتقال يهود اليديشية إليها، منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر، لكن جماعات الحسيديين تفرقت وتبعثرت نظرًا لابتعاد زعامتها المتمثلة في التساديك.

وقد هاجر بعض القادة التساديك بعد الحرب العالمية الأولى، لكن الحركة الحسيديَّة لم تبدأ نشاطها الحقيقي إلا بعد الحرب العالمية الثانية. وقد استقر الحسيديون في بروكلين في منطقة وليامزبرج.

وأهم الجماعات الحسيديَّة هي: جماعة لوبافيتش (حبد)، وجماعة الساتمار، وبراتسلاف وتشرنوبيل، ولا تزال توجد بينهم جيوب قوية معارضة للصهيونية.

ويوجد مركزان أساسيان للحسيدية في الوقت الحاضر: أحدهما في الولايات المتَّحدة والآخر في إسرائيل.

المعتقدات والأفكار

١- وحدة الوجود: يرى الحسيديون أن العالم بمنزلة ثوب الإله، صَدَر عنه ولكنه جزء منه، تمامًا مثل محارة الحيوان البحري المعروف بالحلزون، قشرته الخارجية جزء لا يتجزأ منه.

والحسيديون يؤمنون بالتالي بأن الإله هو كل شيء وما عدا ذلك وهم وباطل، أي أن الحسيديَّة تعبير عن الحلوليَّة في مرحلة وحدة الوجود الروحية التي لا تختلف عن وحدة الوجود الماديَّة إلا في تسمية المبدأ الواحد أو القوة الكامنة في المادة الدافعة لها، إذ يسميها دعاة وحدة الوجود الروحية «الإله»، أما دعاة وحدة الوجود الماديَّة فيسمونها «قوانين المادة والحركة».

إن الحسيديَّة تطالب اليهودي بالغوص في أعماق ذاته، وفي هذه الأعماق يستطيع الإنسان أن يرتفع ويتسامى على حدود الكون والطبيعة حتى يصل إلى أن الإله هو الكل في الكل ولا يوجد سواه (الواحدية الكونية). ولم تَعُد وسيلة الوصول إلى الإله هي التفكير العقلاني الجاف، وإنما الفرح والرقص والنشوة وصفاء الروح والنية الصادقة.

٢- يرى الحسيديون أن الهدف من حياة الإنسان ليس فهم أو تغيير الكون وإنما الالتصاق بالإله والتوحد معه وبإرادته المستقلة (ديفيقوت). وبتأكيد أن الإله هو كل شيء، لا يصبح هناك مجال لممارسة الإرادة الإنسانية ولا مجال للحزن أو المأساة.

٣- نادى الحسيديون بأن عبادة الإله يجب أن تتم بكل الطرق، كما يجب أن نخدمه بكل شكل: بالجسد والروح معًا ما دام أنه إله غير مفارق، لا يتجاوز الطبيعة والتاريخ، كامن في كل شيء، حتى في مذاق الطعام وتدخين التبغ وفي العلاقات الجنسية والتجارية، وقد قال أحد زعماء الحسيديَّة: إن على المرء أن يشتهي كل الأشياء الماديَّة، ومنها المرأة، حتى يصل إلى ذروة الروحانية.

فالفرح الجسدي عند الحسيديين، يؤدي إلى الفرح الروحي، والحسيديَّة تؤمن بروحانية المادة؛ لأن الروح ليست إلا شكلًا من أشكال المادة؛ بل إن العبادة والخلاص بالجسد يصلان إلى حد عبادة الإله من خلال العلاقات الجنسية.

٤- غيَّروا بعض تفاصيل الذبح الشرعي، وإهمال دراسة التوراة والعبادة عندهم كانت تأخذ شكل رقص وشطحات.

٥- التساديك، حسب التصور الحسيدي: تعبير متطرف عن الرؤية الحلوليَّة اليهوديَّة. فهو أولًا شخص ذو قداسة خاصة يقف في منزلة لا تتلو إلا منزلة الإله، وهو أحد التجليات النورانية العشرة (سفيروت)، أي أنه جزء من الإله. بل هو أحد العُمُد التي تستند إليها الدنيا، وهو أساس العالم (يسود). وأكثر من ذلك، فإن العالم خُلق من أجله.

ويعتقدون أن التساديك يحتاج إليه الإله في الوصول إلى الناس، فالتساديك هو الوسيلة الوحيدة التي تربط الأرض بالسماء.

ومهمة التساديك هي أن يقوم بقيادة جماعته، وأن يربط بينها وبين السماء، فهو قادر على التأمل الصوفي الذي يقربه من الإله ويوحده معه، وبذا فإنه يصبح حلقة الوصل بين الخالق ومخلوقاته، وهو إن لم يقم بهذه المهمة فلا معنى لوجوده. ولكن إذا كان التساديك حلقة الوصل، فإن الجماهير تحتاج إليه احتياج الإله إليه، فهو الذي يأتي إليها بالشفاعة، ويحضر لها الحياة من

السماء، كما أنه يوصل روح الإله إليها، وهو قادر على الالتصاق بالإله (ديفيقوت)، ومن خلال التصاقه هو بالإله تتمكن الجماهير هي الأخرى من تحقيق الالتصاق بالخالق. وقد تَعمَّق هذا المفهوم حتى أصبح الإيمان بالإله هو الإيمان بقدرات التساديك العجائبية.

٥- يقول الحسيديون إن الشعب اليهودي يوجد الآن في المنفى. ولذلك، يحل الإله في أي إنسان متواضع شأنه في هذا شأن الملك المسافر الذي يمكنه أن يحط رحاله في أي منزل مهما بلغ تواضعه.

وعلى العكس من هذا، فلو أن الملك كان في عاصمته، فإنه لن ينزل إلا في قصره وحده. وفي الماضي، كان الزعماء والأنبياء اليهود هم وحدهم القادرون على الوصول إلى الروح الإلهية، ولكن الشخيناه الآن في المنفى، ولذلك يحل الإله في أية روح خالية من الذنوب؛ أي أن التساديك أصبح تجسيدَ الإله، ومن ثم وسيلة اليهودي المنفي للوصول إلى الإله.

٦- تنعكس الحلوليَّة في شكلين هما في الواقع شيء واحد: حب عارم لفلسطين أو إرتس إسرائيل، يقابله كره عميق للأغيار. ولذلك، لم يكن مفر من أن يخرج الحسيديون من بين الأغيار المدنَّسين، وبلاد الأغيار المدنسة، ليستقروا في الأرض الطاهرة المقدَّسة التي هي هدف القداسة ومصدرها في وقت واحد.

٧- إحدى نقط الاختلاف الأساسية أن الشبتانية جعلت الفكرة المشيحانية تدور حول شخص الماشيَّح الواحد: شبتاي تسفي أو فرانك.

أما الحسيديَّة، فقد أصبحت مشيحانية بلا ماشيَّح واحد، وأصبح هناك عدد من المشحاء الصغار، يظهرون في شخصية التساديك، وتتوزع عليهم القداسة أو الحلول الإلهي، وهو ما قلل من تركُّزه وقلل بالتالي من تَفجُّر الحسيديَّة. كما أن النزعة المشيحانية عبرت عن نفسها في النفس الإنسانية لا في الواقع الخارجي. وجعلت النفس البشرية مجال المشيحانية لا مسرح التاريخ؛ ولذا كان على الحسيدي أن يغوص في فردوس الذات بدلًا من أن يحاول تحقيق الفردوس الأرضي.

وإذا كانت الرؤية المشيحانية التقليدية رؤية أبوكاليبسية تَحدُث بغتة عن طريق تَدخُّل الإله في التاريخ، فالمشيحانية الحسيديَّة تدرجية، وقد حوَّلت المشيحانية إلى حركة بطيئة متصاعدة يشترك فيها كل جماعة بني إسرائيل، بقيادة عدد كبير من التساديك، ولا تتوقع أية تحولات فجائية (وقد تأثر الفكر الصهيوني بهذه الفكرة)[١].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الفرق والمذاهب اليهودية ص(٥٣، ٥٤).

الحسيديَّة والصهيونيَّة Hassidism and Zionism

من المعروف أن معظم المفكرين والزعماء الصهاينة إما نشئوا في بيئة حسيدية، أو تعرَّفوا إلى فكرها الحلولي بشكل واعٍ أو غير واعٍ. بل إن الصهيونيَّة ضرب من «الحسيديَّة اللادينية» أو الحسيديَّة داخل إطار حلولية بدون إله ووحدة الوجود المادِّيَّة.

والدارس المدقق يكتشف أن ثمة تشابهًا بين الحسيديَّة والصهيونيَّة، فالجماهير التي اتبعت كلًّا من الصهيونيَّة والحسيديَّة كانت في وضع طبقي متشابه؛ أي جماهير توجد خارج التشكيلات الرأسمالية القومية بسبب الوظائف المالية والتجارية التي اضطلعت بها مثل نظام الأرندا.

لذلك نجد أن جماهير الحسيديَّة، شأنها شأن جماهير الصهيونيَّة، تتفق على حب صهيون؛ الأرض التي ستشكل الميراث الذي سيمارسون فيه شيئًا من السلطة.

كما قامت الحسيديَّة بإضعاف انتماء يهود اليديشية الحضاري والنفسي إلى بلادهم، وهذه نتيجة طبيعية لأية تطلعات مشيحانية الأمر الذي جعل اليهود مرتعًا خصبًا للعقيدة الصهيونيَّة.

كما أن الحسيديَّة والصهيونيَّة تؤمنان بحلولية متطرفة تضفي قداسة على كل الأشياء اليهوديَّة وتفصلها عن بقية العالم.

وفي الحقيقة، فقد كانت الهجرة الحسيديَّة التي تعبِّر عن النزعة القومية الدينيَّة فاتحةً وتمهيدًا للهجرة الصهيونيَّة.

والصهيونيَّة، مثل الحسيديَّة، حركة مشيحانية تهرب من حدود الواقع التاريخي المركب إلى حالة من النشوة الصوفيَّة، تأخذ شكل أوهام عقائدية عن أرض الميعاد التي تنتظر اليهود. ويعتقد المفكر النيتشوي الصهيوني بوبر أنه لا يمكن بعث اليهوديَّة دون الحماس الحسيدي، بل يرى أن الرواد الصهاينة قد بعثوا هذا الحماس.

ولكن الحسيديَّة تظل، في نهاية الأمر، حركة صوفية حلولية واعية بأنها حركة صوفية، ولذا فإن غيبيتها منطقية داخل إطارها، ولا تتجاوز أفعالها، النابعة من المشيحانية الباطنية، نطاق الفرد المؤمن بها وأفعاله الخاصة، أما سلوكه العام فقد ظل خاضعًا إلى حدٍّ كبير لمقاييس المجتمع؛ ولذا ظل حب صهيون بالنسبة إلى هذه الجماهير حبًّا لمكان مقدَّس لا يتطلب الهجرة الفعلية.

أما الصهيونيَّة، فهي حركة علمانيَّة، ذات طابع عملي حرفي. كما أن الفكرة الصهيونيَّة لا تنصرف إلى السلوك الشخصي لليهودي وإنما إلى سلوكه السياسي. ولكي تتحقق الصهيونيَّة، لا بد أن تتجاوز حدودها الذاتية لتبتلع فلسطين، وتطرد الفلسطينيين بحيث يتحول حب صهيون إلى استعمار استيطاني.

ومما لا شك فيه أن الحسيديَّة قد ساهمت في إعداد بعض قطاعات جماهير شرق أوربا لتتقبل

الأفكار الصهيونيَّة العلمانيَّة الغيبية، عن طريق عزلها عن الحضارات التي كانت تعيش فيها، وإشاعة الأفكار الصوفيَّة الحلوليَّة شبه الوثنية التي لا تتطلب أيَّ قدر من إعمال العقل أو الفهم أو الممارسة.

ولكن هذا لا يعني أن الحسيديَّة مسئولة عن ظهور الصهيونيَّة، فكل ما هناك أنها خلقت مناخًا فكريًّا ودينيًّا مواتيًا لظهورها.

ومما يجدر ذكره أن بعض الحسيديين عارضوا فكرة الدولة الصهيونيَّة وأسسوا حزب أجودات إسرائيل.

ولكن بعد إنشاء الدولة، بل قبل ذلك، أخذوا يساندون النشاط الصهيوني، وهم الآن من غلاة المتشددين في المطالبة بالحفاظ على الحدود الآمنة و«الحدود المقدَّسة» و«الحدود التاريخية لإرتس إسرائيل».

ولكن هناك فرقًا حسيدية قليلة لا تزال تعارض الصهيونيَّة ودولة إسرائيل بعداوة، من بينها جماعة ساتمار (ناطوري كارتا)[1].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

الباب الثالث

كتاب اليهود المقدس

الفصل الأول: تعريف العهد القديم.

الفصل الثاني: مكونات العهد القديم.

الفصل الثالث: تاريخ كتابهم المقدس.

الفصل الرابع: لغة كتابهم المقدس وتشكيله وتقسيمه وترتيبه وترجماته.

الفصل الخامس: مكانة كتابهم المقدس.

الفصل السادس: علم نقد العهد القديم.

الفصل السابع: نظرية مصادر العهد القديم.

الفصل الثامن: تاريخ تدوين أسفار العهد القديم.

الفصل التاسع: أثر نقد العهد القديم في اليهوديَّة والنصرانيَّة المعاصرتين.

الفصل الأول

تعريف العهد القديم

العهد القديم: مصطلح يستخدمه النصارى للإشارة إلى كتاب اليهود المقدَّس.

وترجع هذه التسمية إلى بولس، حين سمى التوراة بالعهد القديم في قوله: عند قراءة العهد العتيق[١]. لتصبح الأناجيل والرسائل الملحقة هي العهد الجديد.

أما اليهود أنفسهم، فيستخدمون عبارة «سيفري هاقودش» أو «كتبي هاقودش»؛ أي «الكتب المقدَّسة»، ويستخدمون أحيانًا تعبير «كتوفيم»؛ أي «الكتب».

كما يُستخدَم لفظ «توراة» في بعض الأحيان.

ومن الألفاظ الأخرى المستخدمة لفظ: المقرا، وتعني: القراءة، أو المطالعة.

وأيضًا من الألفاظ المستخدمة لفظ: تناخ، وهو مختصر من الحروف الأولى لثلاث كلمات عبرية هي: التوراة (أسفار موسى الخمسة)، ونفيئيم (أسفار الأنبياء)، وكتوفيم (المزامير وسفر الأمثال ونشيد الإنشاد وبقية أسفار الحكمة وغيرها).

والعهد القديم مقدَّس لدى اليهود والنصارى؛ إذ إنه سِجِلٌّ فيه شعر، ونثر، وحكم، وأمثال، وقصص، وأساطير، وفلسفة، وتشريع، وغزل، ورثاء.

ويُعرِّفُ محققو العهد القديم -في ما سُمي بمدخل إلى الكتاب المقدس، والذي نقلته الرهبانيَّة اليسوعيَّة من الترجمة المسكونيَّة الفرنسيَّة للكتاب المقدس- بأنه: مجموعة كتب مختلفة جدًّا يمتد زمن وضعها على أكثر من عشرة قرون، وتنسب إلى عشرات المؤلفين المختلفين، وقد وضع بعضها بالعبريَّة، مع بعض المقاطع بالآراميَّة، وبعضها الآخر باليونانيَّة، وتشتمل على مختلف الفنون الأدبية؛ كالرواية التاريخية ومجموعة القوانين والوعظ والصلاة والقصيدة الشعرية والرسالة والقصة[٢].

---

(١) كورنثوس (٢) ٣/ ١٤ .

(٢) انظر: الكتاب المقدس، العهد القديم، ص(٢٩)، المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، د. محمد علي البار، ص(١٤٤)، الموسوعة الميسرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي (١/ ٥٠٠)، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، د. عبد الوهاب المسيري، حقائق حول الكتاب المقدس.

الفصل الثاني

مكونات العهد القديم

يُقسِّمُ بعضُ الباحثين العهد القديم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: التوراة: أسفار موسى الخمسة.

الثاني: أسفار الأنبياء: وينقسم إلى قسمين:

١- الأنبياء الأولون أو المتقدمون.

٢- الأنبياء الآخرون أو المتأخرون.

الثالث: كتب الحكمة والأناشيد[١].

ويذهب بعض الباحثين إلى تقسيمه إلى قسمين اثنين فقط، بجعل القسمين الثاني والثالث السابقين قسمًا واحدًا[٢].

ولمزيد من الإيضاح يمكننا أن نصنف أسفار العهد القديم ضمن خمس مجموعات:

المجموعة الأولى: التوراة: وهي تسمى أيضًا: أسفار موسى، أو: كتب موسى الخمس، أو: كتب الشريعة، وهذه الكتب هي:

١- التكوين: وهو يتحدث عن تاريخ العالم من تكوين السموات والأرض، وقصص الإنسان الأول آدم وامرأته حواء، ونسلهما، ثم عن الطوفان، ونسل سام أحد أبناء نوح، ثم عن إبراهيم وأبنائه إلى استقرار أولاد يعقوب أو إسرائيل في أرض مصر.

٢- الخروج: وهو يحكي قصة حياة النبي موسى عليه السلام، وخروج الشعب اليهودي من مصر التي كان مُستعبدًا فيها من المصريين، ورحلة اليهود في صحراء سيناء بزعامة موسى وتسليم الله أحكام الشريعة له، وإقامة خيمة الاجتماع، وما صنعه الله لموسى من المعجزات ليؤمن اليهود ويخضعوا لشريعته.

٣- اللّاوِيين: وهم السبط (الجماعة) المسئولة عن الكهنوت في المذبح اليهودي، وهو يحكي عن شروط الذبيحة وأوصافها والطقوس الخاصة بتقديم الذبيحة، وشريعة التطهير، ومراسيم متنوعة من المواسم والأعياد.

٤- العدد: وهو يعطي تقريرًا عن الأعداد من قبائل الشعب اليهودي الذين خرجوا من مصر وقبل دخولهم أرض الموعد، وعن أعداد جيوشهم وأموالهم، وفيه أيضًا أخبار تذمُّر الشعب،

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، اليهودية عرض تاريخي، د. عرفان عبد الحميد فتاح ص(٧٣).

(٢) انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٥٠٠)، الفرق والمذاهب اليهودية، عبد المجيد همو ص(١١، ١٢).

والتجسس على أرض كنعان.

٥- التثنية: ويقال له: تثنية الاشتراع، ومعناه الإعادة والتكرار لتثبيت التشريعات والتعاليم، وهو تكرار لسرد الأحداث التي وقعت لليهود في صحراء سيناء، وهو يشمل الوصايا العشر والكثير من الوصايا للشعب اليهودي، وكلمة الوداع التي قالها موسى قبل رحيله، وتكليف يشوع (يوشع) بقيادة الشعب اليهودي بعد موت موسى، وتسليم التوراة لحاملي تابوت عهد الرب، ثم خبر وفاة موسى على جبل نبو.

ورموز هذه الأسفار هي: التكوين (تك)، الخروج (خر)، اللاويين (لا)، العدد (عد)، التثنية (تث).

المجموعة الثانية: كتب التاريخ: وهي تشمل ١٢ سفرًا:

١- يشوع: وهو يحكي عن دخول يشوع أرض كنعان مع شعبه، وتقسيم الأرض بين الأسباط أو القبائل العبرانيَّة.

٢- القضاة: وهو يحكي عن الشعوب التي كانت تستوطن أرض كنعان، ويحكي أيضًا عن الحروب والمنازعات بين هذه الشعوب والشعب اليهودي.

٣- راعوث: قصة لفتاة من شعب «موآب» وهي تعتبر جدة للملك داود.

٤، ٥- سفر صموئيل الأول والثاني: وفيهما أحداث عن النبي «صموئيل» الذي كان معلمًا وسياسيًا، ولعب دورًا مُهِمًّا في تكوين مملكة إسرائيل.

٦، ٧، ٨، ٩- سفر الملوك الأول والثاني، وسفر أخبار الأيام الأول والثاني: وفيها متابعة تاريخ الأمة اليهوديَّة التي انقسمت إلى مملكة إسرائيل ومملكة يهوذا.

١٠، ١١- عزرا ونحميا: وهي قصة إعادة بناء مدينة أورشليم بعد أن كان قد خرّبها ملك بابل.

١٢- أستير: وهي حكاية فتاة يهودية تحت حاكم من غير بني إسرائيل، استخدمت جمالها وفتنتها في سبيل رفع الظلم عن اليهود، وتقديم خدمات لهم.

ورموز هذه الأسفار هي: يشوع (يش)، قضاة (قض)، راعوث (را)، سفر صموئيل الأول (١صم)، صموئيل الثاني (٢صم)، الملوك الأول (١مل)، الملوك الثاني (٢مل)، سفر أخبار الأيام الأول (١أي)، أخبار الأيام الثاني (٢أي)، عزرا (عز)، نحميا (نح)، أستير (اس).

المجموعة الثالثة: كتب الحكمة (الأسفار الشعرية): وهي كتبة مليئة بالحكم والأمثال ومكتوبة بطريقة شعرية.

١- أيوب: والكتاب يحكي قصة أيوب عليه السلام.

٢- المزامير: وهو كتاب صلوات وأغاني، وقد استخدمها الشعب اليهودي في الصلوات، وهو

منسوب إلى نبي الله داود.

٣- الأمثال: وهو منسوب إلى نبي الله سليمان، وكلها نصائح وأمثال.

٤- الجامعة: وهي ملخص تعاليم سليمان عن عدم وجود معنى للحياة بدون الله.

٥- نشيد الإنشاد: وهو عبارة عن أنشودة شعرية تصف الحب بين العريس والعروس.

ورموز هذه الأسفار هي: أيوب (اي)، المزامير (مز)، الأمثال (ام)، الجامعة (جا)، نشيد الإنشاد (نش).

المجموعة الرابعة: كتب الأنبياء:

وهذه تقسم إلى قسمين:

القسم الأول: كتب الأنبياء الكبار: وهم الذين يعلنون للشعب بشارة الله وكلمته المقدَّسة، وتُسمى كتب الأنبياء الكبار بسبب طول مدة وعمق تأثير خدمتهم بين الشعب.

١- أشعياء: وقد عاش في وقت تثبتت فيه مملكة بابل، وقد تنبأ مُسبقًا بوقوع اليهود في الأسر ولكنه أعلن أنه سيأتي الخلاص. وقبل حوالي ٧٠٠ سنة من ميلاد المسيح تنبأ أشعياء بميلاده من عذراء وصلبه نيابة عن البشر ثم قيامته من الأموات.

٢- إرميا: وقد كتب عن الأسر في مملكة بابل وتنبأ مُسبقًا عن رجوع اليهود إلى وطنهم بعد ٧٠ سنة، والذي قد تحقق بالفعل.

٣- مراثي إرميا: وهو يتناول هدم يهودا وأورشليم والهيكل على يد البابليين.

٤- حزقيال: وهو عاش في زمن الأسر في مملكة بابل وقد تنبأ بالعديد من الأمور التي حدثت بالفعل.

٥- دانيال: وهو عاش أيضًا في زمن الأسر وترقى مناصب هامة في مملكة بابل، وقد تنبأ بظهور ممالك وسقوطها، وقد تحققت هذه النبوءات.

ورموز هذه الأسفار هي: أشعياء (اش)، إرميا (ار)، مراثي إرميا (مرا)، حزقيال (حز)، دانيال (دا).

القسم الثاني: كتب الأنبياء الصغار: وهي أسفار قصيرة، وكاتبوها تنبئوا بكلمة الله في عصر كان فيه الناس لا يهتمون بالأمور الدينيَّة بل ويتذمرون على الله.

١- هوشع: وهو كان يعظ الشعب عن محبة الله للإنسان برغم معصيته وعدم أمانته.

٢- يوئيل: وهو قد سبق وتنبأ بحلول الروح القدس على المؤمنين.

٣- عاموس: وقد كان راعيًا للغنم وقد كان يبين للشعب مساوئ الظلم الاجتماعي في ذلك الوقت، وحذرهم من يوم عقاب الرب الذى سيحل عليهم بسبب خطاياهم وعدم توبتهم.

٤- عوبديا: وقد تنبأ عن حلول يوم غضب الرب على آدوم، وهو أصغر كتب العهد القديم.

٥- يونان: وهو يحكي عن رجل أرسله الله إلى مدينة نينوى ليبشر فيها، ولكنه لم يطع، وفي البداية حاول الهرب في سفينة، ولما قامت ريح شديدة رماه البحارة في البحر ولكن سمكة كبيرة ابتلعته، وفي النهاية أطاع يونان كلام الرب وذهب وبشر المدينة فتابت عن شرورها.

٦- ميخا: وقد عاش في زمن أشعياء وهوشع، وقد تنبأ أيضًا بخراب المملكة اليهوديَّة، ولكنه تنبأ أيضًا بمجيء المُخلِّص.

٧- ناحوم: وقد تنبأ بسقوط مدينة نينوى التي بعد أن تاب أهلها عن الشر أيام يونان النبي عادت مرة أخرى للشر.

٨، ٩- حبقوق وصفنيا: حذروا الشعب من الاستمرار في الشر والبعد عن الله.

١٠، ١١- حجي وزكريا: وقد قاموا بتشجيع الشعب على إعادة بناء الهيكل عند عودتهم إلى وطنهم بعد الأسر.

١٢- ملاخي: وقد عاش قبل ميلاد المسيح بحوالي ٤٠٠ سنة.

ورموز هذه الأسفار هي: هوشع (هو)، يوئيل (يؤ)، عاموس (عا)، عوبديا (عو)، يونان (يون)، ميخا (مى) ناحوم (نا)، حبقوق (حب)، صفنيا (صف)، حجي (حج)، زكريا (زك)، ملاخي (مل).

المجموعة الخامسة: الأسفار القانونية الثانية:

هي الأسفار التي لم يعترف بها اليهود ضمن أسفار العهد القديم، وكذلك قام البروتستانت بحذف هذه الأسفار من طبعة الكتاب المقدس المنتشرة بين أيدينا، وهم يعتبرونها لا ترتقي إلى مستوى الوحي الإلهي، وهي من وجة نظرهم أسفارٌ مدسوسة، وتضم موضوعات غير ذات أهمية وخرافات لا يقبلونها.

وقد اعتمدتها الكنيسة الكاثوليكيَّة كجزء معتمد من الكتاب المقدَّس، وإن كان أُطلق عليها مصطلح: كتب تثنوية؛ أي مجموعة ثانية من الكتب المعتمدة، وقد حذت حذوها الكنائس الأرثوذكسيَّة: اليونانيَّة، والأرمنية، والقبطية الإثيوبية.

أما الكنيسة الأرثوذكسيَّة الروسية، فقد اعتمدتها وإن كانت قد أعطتها مكانة أقل من كتب العهدين القديم والجديد. أما الكنيسة القبطية المصريَّة فقد استبعدت هذه الكتب ولم تعطها أية قيمة دينية.

وهذه الأسفار هي:

١- سفر طوبيا: وهو رجل من سبط نفتالي سباه «شلمنآسر» ملك آشور، وسكن أثناء السبي في مدينة نينوى مع حني امرأته وابنه الذي كان له نفس الاسم «طوبيا»، ويتكون سفر طوبيا من ١٤ إصحاحًا.

٢- سفر يهوديت: وهي امرأة يهودية أنقذت بجمالها وذكائها شعبها من بطش أعدائه، ويتكون السفر من ستة عشر إصحاحًا.

٣- تتمة سفر أستير: وهي فتاة يهودية لم يكن لها أب ولا أم، وفي وقت السبي أخذها ابن عمها مردخاي إلى مدينة (شوش) التي كانت عاصمة مملكة فارس، وهناك أحبها الملك أحشويرس، فوضع تاج الملك على رأسها.

وسفر أستير بحسب طبعة البروتستانت (=طبعة دار الكتاب المقدس) يتكون من عشرة إصحاحات آخرها وهو الإصحاح العاشر يضم ثلاثة أعداد فقط. غير أنه بإضافة الجزء الذي حذفه البروتستانت منه (=وهو من إستير ٤ : ١ - أستير١٦) يتضح لنا أن السفر مكون من ستة عشر إصحاحًا.

وهذه التتمة تعتقد الكنيستان الأرثوذكسيَّة والكاثوليكيَّة في صحتها وقانونيتها رغم رفض البروتستانت له.

٤- سفر الحكمة: وهو منسوب لسليمان الملك عليه السلام، ويضم ١٩ إصحاحًا.

٥- سفر يشوع بن سيراخ: وهو أحد حكماء اليهود وكان كاتبًا مشهورًا مات أثناء السبي في بابل ودُفِنَ هناك، ويتكون السفر من ٥١ إصحاحًا. وهو عبارة عن حكمة ومديح لأنبياء ملوك وكهنة وقادة بني إسرائيل وآبائهم الكبار.

٦- سفر نبوة باروخ: وهو باروخ بن نيريل بن معسيا بن صدقيا بن حسديا بن حلقيا. كان يعمل كاتبًا لإرميا النبي يكتب له ما يأمر بكتابته، وعرف عنه أيضًا أنه كان نبيًّا صدِّيقًا، وقد كتب سفر نبوته في بابل بعد السبي. وقد نسب السفر إلى باروخ؛ لأنه كتب الإصحاحات الخمسة الأولى منه. أما الإصحاح السادس والأخير فقد كتبه إرميا لليهود الذين كان ملك بابل مزمعًا أن يسوقهم في السبي إلى بابل.

٧- تتمة سفر دانيال: وهو مكمِّل لسفر دانيال، ويشمل بقية إصحاح ٣، كما يضم إصحاحين آخرين هما ١٣ و١٤ .

٨، ٩- سفر المكابيين الأول والثاني: هما آخر أسفار التوراة، وقد كان عدد أسفار المكابيين التي تحدَّثت عن تاريخ انتصار اليهود على أعدائهم ومستعمريهم واستقلالهم كأمّة بقيادة الأسرة الماكبيّة، وهو خمسة أسفار، لم تقبل منها الكنيستان الأرثوذكسيَّة والكاثوليكيَّة إلا السفرين الأول والثاني فقط، وهما السِّفران القانونيَّان المشهود بصِحَّتهما.

ويُنسَب سفرا المكابيين إلى الأسرة المكابية التي أسسها متتيا أو متاثياس، وقد كان من نسل الكهنة اللاويين.

١٠- مزمور ١٥١ : هذا المزمور غير موجود في الطبعة المنتشرة بيننا للكتاب المقدس، ولكنه مُدرَج في كتب الكنيسة، وهو منسوب إلى داود النبي عن نفسه عندما كان يحارب جليات (جلياط) الفلسطيني.

ورموز هذه الأسفار هي: طوبيا (طو)، يهوديت (يهو)، الحكمة (حك)، يشوع بن سيراخ (سيراخ)، المكابين الأول (١مكا)، المكابين الثاني (٢مكا)، نبوة باروخ (با)[1].

---

(١) انظر: مقدمة موسوعة الكتاب المقدس، شحادة بشير، الموسوعة الميسرة (١/ ٥٠٠، ٥٠١)، اليهودية عرض تاريخي ص(٧١- ٧٤)، العهد القديم ليس مقدسًا، مستشار حسن إمام إسماعيل ص(١٩)، الإسلام واليهودية دراسة مقارنة، د. عماد علي عبد السميع حسنين ص(٢٣، ٢٤).

الفصل الثالث

تاريخ كتابهم المقدس

تدوين العهد القديم بدأ في فترة زمنية تَبعُد عن موسى مئات السنين، وكذلك عن كثير من الأحداث التي تم التأريخ لها.

كما أن عملية التدوين لم تتم دفعة واحدة، وإنما تمت خلال مدة زمنية طويلة.

وتم اختيار بعض النصوص المقدَّسة عندهم من بين نصوص مقدَّسة أخرى.

وتم ذلك على النحو التالي:

١- يرى كثير من الباحثين أن أول جزء من العهد القديم تم تدوينه هو أسفار موسى الخمسة.

ويُقال: إن هذه العملية تمت في بابل أثناء فترة التهجير (٥٨٧ ق. م) أو ربما قبل ذلك بوقت قصير، ذلك أنه لم يأت ذكر لقراءة التوراة في الاحتفالات الخاصة بافتتاح الهيكل، وأول إشارة إلى قراءة التوراة هي قراءة عزرا عام ٤٤٤ ق.م.

٢- أما كُتُب الأنبياء، فمن الأرجح أنها دُوِّنت أثناء المرحلة الفارسية فيما قبل عام ٣٣٣ ق.م.

ومما يدعم هذا الرأي أن سفري الأخبار لم يحلا محل سفري صموئيل والملوك ولم يلحقا بهما، الأمر الذي يدل على أن كتب الأنبياء كان قد تم تدوينها والاعتراف بها ككتب قانونية.

ولا توجد في أسفار الأنبياء أية كلمة إغريقية، ولا أية إشارة إلى سقوط الإمبراطورية الفارسية أو ظهور الإمبراطورية اليونانيَّة.

ولكن لا بد أن ثمة فترة زمنية قد مرَّت بين تدوين أسفار موسى الخمسة وتدوين أسفار الأنبياء؛ ذلك لأن هذه الأخيرة لم تكن تُقرأ في الاجتماعات العامة التي وُصفت في سفر نحميا الإصحاحان ٨، ١٠.

كما أن السامريين الذين انفصلوا عن اليهود، وبنوا هيكلهم في جريزيم عام ٤٢٨ ق.م، اعترفوا بالتوراة ولم يعترفوا بكتب الأنبياء.

وقد جُمعت أسفار الأنبياء ونُظِّمت خلال الفترة الممتدة من القرن السادس حتى القرن الثالث قبل الميلاد، ويبدو أنها أُلِّفت في فترة كانت فيها أسفار موسى مجهولة منسية، إذ يَندُر أن تجد فيها ذكرًا لاسمه.

ويبدو أن بعض الأنبياء أيضًا (عاموس مثلًا) لم يكن لهم به علم.

٣- أما القسم الثالث، وهو كتب الحكمة والأناشيد، فقد أُلِّف بعضه أثناء عصر الأنبياء،

ولكنها لم تُضَم إلى كتب الأنبياء باعتبار أنها لم تكن ثمرة الوحي الإلهي.

أما الكتب ذات الطابع النبوي، مثل كتب دانيال وعزرا والأخبار، فلا بد أنها كُتبت في مرحلة متأخرة بحيث لم يمكن ضمها إلى كتب الأنبياء.

ولقد ضُمَّت أسفار الحكمة والأناشيد، لكنها لم تُعتبَر جزءًا من العهد القديم إلا في القرن الثاني قبل الميلاد، فقبل ذلك التاريخ كان الحديث يتواتر عن التوراة باعتبارها أسفار موسى الخمسة والأنبياء دون إشارة إلى كتب الحكمة والأناشيد.

ومن الأدلة الأخرى على أن هذه الأسفار كانت متأخرة، وجود كلمات يونانية في نشيد الإنشاد ودانيال، وكذلك الإشارة في سفر دانيال إلى سقوط الإمبراطورية الفارسية.

ولا يشير بن سيرا إلى سفر دانيال أو إستير.

وقد استمر الجدل حول أسفار مثل: الأمثال، ونشيد الإنشاد، وإستير، وسفر الجامعة، هل تُضَم مع الأسفار القانونية أم لا؟

معنى الأسفار القانونية وغير القانونية

ويُطلَق مصطلح «كانون Canon» أي «الأسفار القانونية»، على تلك الأسفار أو النصوص التي تم اعتمادها.

أما الكتب غير القانونية، فتُسمَّى الكتب الخارجية أو الخفية أو الكتب المنسوبة (سيودإبيجرفا).

والقواعد التي استخدمها محررو العهد القديم لضم أو استبعاد هذا أو ذاك النص غير معروفة، ولكن يبدو أن هذه القواعد هي بشكل عام:

١- أن يكون النص مكتوبًا بالعبريَّة.

ويبدو أن بداية ونهاية سفر دانيال تُرجِمتا من الآراميَّة إلى العبريَّة بسرعة حتى يمكن ضمهما إلى النص القانوني المُعتمَد.

٢- أن يكون النص قد كُتب في مرحلة ما قبل النبي مالاخي، أي في القرن الخامس قبل الميلاد، وهي الفترة التي يرى الحاخامات أن النبوة توقفت عندها في جماعة بني إسرائيل.

٣- أن يتفق مضمون النص مع المعايير الدينيَّة التي تبناها الحاخامات.

ويبدو أن مشادات فقهية بين الفقهاء، كانت تحدث من وقت لآخر، في شأن بعض الأسفار نظرًا لما تحتويه من أفكار غنوصية مثل سفر حزقيال واتفقوا في نهاية الأمر على تركه داخل إطار الكتب القانونية مع عدم تدريسه للصغار(١).

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، اليهودية عرض تاريخي ص(٧١).

الفصل الرابع

لغة كتابهم المقدس وتشكيله وتقسيمه وترتيبه وترجماته

- لغة الكتاب المقدَّس اليهودي هي العبريَّة، وإن كانت التراكيب والأساليب وبعض المفردات تختلف باختلاف هذه الأسفار وتنم عن الفترة التي وُضع فيها كل سفر.

ومع هذا، فإن هناك أجزاء وُضعت باللغة الآراميَّة.

- والعبريَّة، مثلها مثل العربيَّة، تتميَّز بالعلامات الصوتية المميِّزة للحرف، أي علامات التشكيل.

ولما كان النص العبري الأصلي مكتوبًا دون علامات التشكيل، فقد كان لا بد أن يتم الاتفاق على قراءة معيارية.

وبالفعل، ظهر النص المعتمد كتابةً وقراءة، وهو الذي يُطلَق عليه مصطلح النص «الماسوري» أو «ماسوراتي» نسبة إلى قرية سورة البابلية، وكان ذلك في حدود الفترة ٧٥٠- ١٠٠٠ق.م.

ويُطلَق على المحققين الذين وضعوا علامات الضبط بالحركات «الماسوريون».

- وقد تم تقسيم أسفار العهد القديم إلى إصحاحات في سنة ١٢٠٠م على يد أُسقف كانتربري الأسقف ستفنلان جتون (ت ١٢٢٨م).

ثم رقمت جمل الإصحاحات في الطبعة الباريسية الصادرة عام ١٥٥١م.

- وأما ترتيب الأسفار فقد أعيد غير مرة، وكان قد أقر له ترتيب في مجمع روما ٣٨٢م، ثم عدل في ترنت ١٥٤٦م، ولهذا التغيير علاقة قوية بقيمة الأسفار وأهميتها ودرجة ثبوتها.

- **وقد تُرجم العهد القديم إلى مختلف لغات العالم تقريبًا.**

ومن أهم الترجمات:

١- **الترجمة اليونانيَّة**، وهي ما يُعرَف باسم «الترجمة السبعينيَّة»، في الفترة ما بين القرن الثالث قبل الميلاد حتى السنوات الأخيرة قبل رسالة المسيح.

٢- **الترجمة الآراميَّة وأهمها «الترجوم»**، ومن أشهر الترجمات الآراميَّة للكتاب المقدَّس: ترجوم أونكيلوس لأسفار موسى الخمسة وحدها، وترجوم يوناثان لبقية أسفار العهد القديم.

٣- **الترجمة اللاتينيَّة**، وتُعرَف باسم «الفولجاتا أو الشعبية»، وهي عن الترجمة السبعينيَّة، في القرنين الرابع والخامس.

٤- **الترجمة السريانيَّة**، وتعرف باسم «البشيطاه»، في القرن الثاني بعد الميلاد.

٥- **الترجمة العربيَّة**، أقدم ترجمة هي ترجمة أحمد بن عبد الله بن سلام الذي ترجم العهد القديم

من العبرانيَّة إلى العربيَّة في عهد هارون الرشيد.

وترجمة حنين بن إسحاق النسطوري (٨٧٤م)، واعتمد فيها على الترجمة اليونانيَّة.

وترجمة أبي كثير (٩٣٢م)، وترجمة سعيد (سعدان) بن يوسف الفيومي (٩٤٣م).

ووجدت محاولات للترجمة قديمة عُثر عليها في الجنيزاه القاهرية باللهجة المصريَّة العامة.

ويرى بعض النقاد أن ترجمات العهد القديم: اليونانيَّة (السبعينيَّة) والسريانيَّة (البشيطّاه) واللاتينيَّة (الفولجاتا)، هي في الواقع من قبيل التفسير؛ إذ إن المترجمين كانوا يضيفون أحيانًا كلمات هنا وهناك لتوضيح المعنى[1].

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، اليهودية عرض تاريخي ص(٤٩)، الفرق والمذاهب اليهودية ص(٨٠- ٨٣)، الفهرست، النديم ص(٣٢، ٣٣).

الفصل الخامس

مكانة كتابهم المقدس

١- يرى اليهود الأرثوذكس أن كلمات العهد القديم، وأسفار موسى الخمسة بصفة خاصة، هي كلام الإله الذي أوحي به إلى موسى حرفًا حرفًا، وأملاه عليه حينما صعد إلى جبل سيناء، وهو كلام أزلي لا يتغيَّر.

والكتب التاريخية وأسفار الأنبياء والأناشيد والحكم، هي الأخرى نتاج الروح المقدَّسة، وإن كانت بدرجة أقل، تلك الروح التي تغمر روح الإنسان فيتحدث باسم الإله.

وتُعتبَر كل كلمة، وكل جملة وردت في العهد القديم، ذات معنى داخلي ومغزى عميق.

لكل هذا، نجد أن العهد القديم، بالنسبة إلى اليهود الأرثوذكس، هو السلطة العليا التي لا يمكن التشكيك فيها، وهو المرجع الأخير في الحياة الدينيَّة.

ولكن أسفار موسى الخمسة، مع هذا تظل أهم الأجزاء التي تشكل جوهر اليهوديَّة وشريعتها.

٢- أما بالنسبة إلى اليهود الإصلاحيين والمحافظين والتجديديين؛ فإن العهد القديم يُعَدُّ مجرد إلهام من الإله وليس وحيًا منه.

وقد وصل هذا الإلهام إلى واضعي الكتاب المقدَّس بدرجات مختلفة؛

ولذا فإن بعض أجزاء العهد القديم ذو قيمة روحية وأخلاقية أعلى من غيره.

كما لم يكن الوحي الإلهي -أي: الإلهام- خالصًا، فقد اصطبغ هذا الوحي بصبغة إنسانية، فلزم أن يقوم اليهودي بإعادة تفسيره ليستخلص الوحي الإلهي (المطلق) من النص الذي يضم عناصر إنسانية تاريخية (نسبية).

ويُعتبَر العهد القديم العبري من مصادر التشريع اليهودي الأساسية، وقد ظل قرونًا طويلة يشكل المنهج الدراسي الوحيد في المدارس الدينيَّة اليهوديَّة، وإلى جانبه التلمود الذي هو تفريع منه.

وفي إسرائيل، فإن منهج الدراسة يتضمن خمس ساعات أسبوعيًّا لدراسة العهد القديم.

٣- أما الصهاينة اللادينيين؛ فيعتبرون العهد القديم وكتب اليهود المقدَّسة كتبًا عظيمة تشكل جزءًا مهمًّا من تراث اليهود وفلكلورهم القومي، وهو تعبير عن انتشار الحلوليَّة بدون إله بين الصهاينة.

وقد نشر أحد التربويين الإسرائيليين في أحد الكيبوتسات كتابًا يروي قصص العهد القديم باعتبارها أدبًا من صنع البشر، ومن ثم فإنه قد استبعد أي إشارة إلى الإله.

٤- أما النصارى؛ فإنهم يعتقدون أن العهد القديم موحى به من الله، فقد جاء في وثائق المجمع

الفاتيكاني الثاني ما نصه: الكتاب المقدس كله بجميع أجزائه موحى به من الله، ثم ذكروا أن الروح القدس هو الذي كان يساند عمل الكُتَّاب وينير عقولهم حتى يكتبوا كل ما يريد الله إعلانه، ثم قالوا ما نصه: لذا يحق القول -بكل صدق- إن الله تعالى نفسه هو المؤلف الأصلي للكتب المقدَّسة وأنها كلمة الله[١].

كما يزعم طائفة من النصارى موافقين في ذلك دعوى اليهود في التلمود: أن موسى هو الكاتب للتوراة، وأن جُل أسفار العهد القديم كتبها الأشخاص الذين وضعت أسماؤهم عليها.

هذا اعتقاد المتدينين من اليهود، واعتقاد جُل طوائف النصارى الكبار مثل: الكاثوليك، والأرثوذكس اليونان، والأرثوذكس الأقباط، والبروتستانت، ونحوهم[٢].

---

(١) انظر: وثائق المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني ص(٣٩٥).

(٢) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، اليهودية عرض تاريخي ص(٧٨، ٧٩)، تحريف الكتاب المقدس، المدخل إلى العهد القديم، صموئيل يوسف، ص(٤١).

الفصل السادس

علم نقد العهد القديم

تعريفه:

هو العلم الذي يهدف إلى دراسة نصوص العهد القديم باعتبارها نصوصًا تاريخية، على الدارس أن يُطبِّق عليها كل المعايير التي يطبقها على أية نصوص تاريخية أخرى.

كما يهدف إلى اكتشاف أسباب التناقضات التي قد توجد بين نص وآخر، وعدم الاتساق فيما بينها، ثم محاولة تفسيرها في ضوء المعطيات التاريخية.

ويلجأ علم نقد العهد القديم إلى تحليل النصوص المختلفة؛ ليصل إلى عناصرها الأساسية، وإلى الربط بينها؛ لإيضاح تتابعها التاريخي بحيث تلقي الضوء على تطوُّر العبرانيين وعقائدهم منذ مراحلهم البدائية حتى اكتمال النسق الديني اليهودي.

أي أن نقد العهد القديم هو العلم الذي يهدف إلى إبراز وتوضيح سائر المشاكل الخاصة بنصوص العهد القديم، وبالتالي وضع أساس للدراسات الأخرى، الاجتماعيَّة والتاريخية والدينيَّة، التي تتناول العصور التي تم فيها وضع العهد القديم وتدوينه.

المبحث الأول

تاريخ علم نقد العهد القديم

بدأ نقد العهد القديم على يد المؤلف اليهودي القرّائي حيوي البلخي الذي عاش في القرن التاسع.

وقد ظهرت بعدها محاولات متفرقة هنا وهناك، أهمها دراسة إسحاق أبرابانيل (١٤٤٧ . ١٥٠٨) الذي قدَّم أول دراسة علمية لنصوص العهد القديم، وكذلك ما قدمه كرلستادت (١٤٨٠.١٥٤١م).

كما أن ابن حزم الأندلسي (٩٩٤- ١٠٦٣م)، والجويني (١٠٢٨- ١٠٨٥م)، والغزالي (١٠٥٨- ١١١١م)، وشهاب الدين القرافي (١١٨٥م) وغيرهم كثير من الدارسين المسلمين القدامى لاحظوا أن ما ينسبه العهد القديم إلى الأنبياء من جرائم، يُعدُّ دخيلًا على النص الأصلي، وما فيه من أغلاط وتناقضات يثبت تحريفها وعدم نسبتها إلى موسى عليه السلام، فقدموا دراسات في هذا الموضوع.

ولكن العلم نفسه، بالمعنى الحديث، بدأ مع الفيلسوف اليهودي إسبينوزا (١٦٣٢- ١٦٧٧م) الذي تكلم عن الظواهر المعجزات وعلاقتها بالطبيعة وقوانيينها، وعن طريقة الفحص التاريخي للكتب، وليصل إلى نتيجة أن موسى لم يكتب الأسفار الخمسة بل كتبها شخص آخر عاش بعد موسى بزمن وقرون طويلة، بل وباقي الأسفار لم يكتبها من سُميت بأسمائهم، إنما كاتبها مؤرخ واحد أراد أن يروي تاريخ اليهود القديم حتى هدم المدينة لأول مرة، وربما كان عزرا.

وبعد ذلك، تتالى العلماء الغربيون في دراسة العهد القديم من وجهة نظر نقدية، مثل ريشارد سيمون الذي أصدر كتاب التاريخ النقدي للعهد القديم سنة ١٦٧٨م.

وكان أول الكتب لجان استروك الأستاذ في جامعة باريس عام ١٧٥٣، وتبعه كتاب ج. آيتشورن عام ١٧٧٩ .

وهناك آخرون بينوا مصادر العهد القديم المختلفة، مثل إيلجن في عام ١٧٩٨م، وكار داود الجن ١٨٣٤م، وهرمن هوبفلد في عام ١٨٥٣، ولم يبق سوى تبيان تتاليها التاريخي، وهو ما أنجزه فون جراف عام ١٨٦٦، وفلهاوزن (١٨٧٦. ١٨٧٨)، وكونهيل.

ويُلاحَظ أن هؤلاء الثلاثة من أشهر علماء الإسلاميات في الغرب، ولا بد أن النقد القرآني للتحريفات التي وردت في التوراة، كان دافعًا لدراستهم النقدية.

وقد انضم إليهم آخرون، من بينهم لودز ١٩٤١، وجايجر، وجرايتس، وكاوفمان، وكوهلر[1].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبنوزا، ص (٢٢٦، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٧١، ٢٧٤، ٢٧٧)، حقائق حول الكتاب المقدس.

المبحث الثاني

معايير النقد

استخدم نقاد العهد القديم في دراساتهم المعايير التالية:

١- التناقض بين الأجزاء التشريعية.

٢- التناقض في القصص.

٣- التناقض بين ما جاء في الشرائع وما ورد في القصص.

٤- تباين الأسلوب الأدبي.

٥- استخدام نسخ وترجمات العهد القديم المختلفة.

٦- الاكتشافات الأثرية.

وسوف نتحدث عن هذه المعايير ونذكر لها نماذج وأمثلة.

المعيار الأول: التناقض في الأجزاء التشريعية

يوجد في العهد القديم نصوص بتشريعات معينة، وتوجد نصوص أخرى تناقض هذه التشريعات.

من أمثلة ذلك:

١- شريعة السبت.

جاء في مواضع أن الحكمة من فرض شريعة السبت هو استراحة الرب فيه بعد خلق السموات والأرض.

ففي سفر الخروج ٢٠/٨- ١١: في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها، واستراح في اليوم السابع، لذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه.

ولكن جاء في مواضع أخرى أن الحكمة هي خروج بني إسرائيل من مصر.

ففي سفر التثنية ٥/ ١٢- ١٥: واذكر أنك كنت عبدًا في أرض مصر فأخرجك الرب إلهك من هناك بيد شديدة، وذراع ممدودة؛ لأجل ذلك أوصاك الرب إلهك أن تحفظ يوم السبت.

٢- ذنب الأبناء لذنب الآباء.

جاء في مواضع من العهد القديم أن ذنب الآباء لا يصل إلى الأبناء، بل كُلٌّ عليه خطيئته.

ففي سفر الملوك الثاني ١٤/ ٦: حسب ما هو مكتوب في سفر شريعة موسى حيث أمر الرب قائلًا: لا يُقتل الآباء من أجل البنين، والبنون لا يُقتلون من أجل الآباء، إنما كل إنسان يُقتل بخطيته.

وفي سفر التثنية ١٦/٢٤: لا يقتل الآباء عن الأولاد، ولا يقتل الأولاد عن الآباء كل إنسان بخطيته يقتل.

وفي سفر حزقيال ١٨/ ٢٠: النفس التي تخطئ هي تموت، الابن لا يحمل من إثم الأب، والأب لا يحمل من إثم الابن، بر البار عليه يكون، وشر الشرير عليه يكون.

وفي سفر إرميا ٢٩/٣١، ٣٠: في تلك الأيام لا يقولون بعد الآباء أكلوا حصرما وأسنان الأبناء ضرست، بل كل واحد يموت بذنبه كل إنسان يأكل الحصرم تضرس أسنانه.

ولكن جاء في مواضع أخرى ما يناقض ذلك.

ففي سفر الخروج ٢٠/ ٥، والتثنية ٥/ ٩: أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي (من الذين يبغضونني).

وفي سفر الخروج ٦/٣٤، ٧: غافر الإثم والمعصية والخطية ولكنه لن يبرئ إبراء مفتقد إثم الآباء في الأبناء وفي أبناء الأبناء في الجيل الثالث والرابع.

وفي سفر العدد ١٨/١٤: الرب طويل الروح كثير الإحسان يغفر الذنب والسيئة، لكنه لا يبرئ، بل يجعل ذنب الآباء على الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع.

وفي سفر صموئيل الثاني ١/٢١- ٩: وكان جوع في أيام داود ثلاث سنين؛ سنة بعد سنة، فطلب داود وجه الرب فقال الرب: هو لأجل شاول ولأجل بيت الدماء؛ لأنه قتل الجبعونيين، فدعا الملك الجبعونيين، . . . ، قال داود للجبعونيين: ماذا أفعل لكم وبماذا أكفر فتباركوا نصيب الرب، . . . ، فقالوا للملك: الرجل الذي أفنانا والذي تآمر علينا ليبيدنا لكي لا نقيم في كل تخوم إسرائيل، فلنعط سبعة رجال من بنيه فنصلبهم للرب في جبعة شاول مختار الرب، فقال الملك: أنا أعطي، . . . ، فأخذ الملك ابني رصفة ابنة اية اللذين ولدتهما لشاول ارموني ومفيبوشث وبني ميكال ابنة شاول الخمسة الذين ولدتهم لعدرئيل ابن برزلاي المحولي، وسلمهم إلى يد الجبعونيين فصلبوهم على الجبل أمام الرب فسقط السبعة معا وقتلوا في أيام الحصاد في أولها في ابتداء حصاد الشعير.

وفي سفر الملوك الأول ١١/ ١١، ١٢: فقال الرب لسليمان: من أجل أن ذلك عندك ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها؛ فإني أمزق المملكة عنك تمزيقًا وأعطيها لعبدك، إلا أني لا أفعل ذلك في أيامك من أجل داود أبيك بل من يد ابنك أمزقها.

وفي سفر مراثي إرميا ٥/ ٧: آباؤنا أخطئوا وليسوا بموجودين ونحن نحمل آثامهم[1].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الاختلافات في الكتاب المقدس، سمير سامي شحاتة.

المعيار الثاني: التناقض في القصص

العهد القديم مليء بالقصص، وكثير من هذا القصص نجده يتناقض مع بعضه البعض.

من أمثلة ذلك:

١- ترتيب خلق الحيوانات والطيور والنباتات وآدم.

جاء في الأسفار الخمسة خلق الحيوانات والطيور أولًا في اليوم الخامس وآدم في اليوم السادس، ففي سفر التكوين ١/ ٢٠-٢٣: وقال الله لتفض المياه زحافات ذات نفس حية وليطِرْ طير فوق الأرض على وجه جلد السماء، فخلق الله التنانين العظام وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التي فاضت بها المياه كأجناسها وكل طائر ذي جناح كجنسه، ورأى الله ذلك أنه حسن وباركها الله قائلًا أثمري وأكثري واملئ المياه في البحار . . . وكان مساء وكان صباح يومًا خامسًا.

وفي سفر التكوين ١/ ٢٧-٣١: فخلق الله الإنسان على صورته . . . وكان مساء وكان صباح يومًا سادسًا.

ولكن جاء فيها خلق الله الإنسان أولًا ثم النباتات ثم الحيوانات والطيور، ففي سفر التكوين ٢/ ٧-١٩: وَجَبَلَ الربُّ الإلهُ آدمَ ترابًا من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفسًا حية، وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقًا ووضع هناك آدم الذي جبله، وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل، . . .، وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها.

٢- الموت عند الأكل من الشجرة.

جاء في الأسفار الخمسة أن الله قال لآدم: يوم تأكل من الشجرة تموت.

ففي سفر التكوين ٢/ ١٧: وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها؛ لأنك يوم تأكل منها موتًا تموت.

ولكن آدم أكل من الشجرة ولم يمت، ففي التكوين ٥/ ٥: فكانت كل أيام آدم التي عاشها تسعمائة وثلاثين سنة ومات.

وفي التكوين ٣/ ٣: فقال الله: لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتاه، فقالت الحية للمرأة: لن تموتا.

٣- عمر إسماعيل.

في سفر التكوين ١٦/ ١٥، ١٦: فولدت هاجر لإبرام ابنًا ودعا إبرام اسم ابنه الذي ولدته هاجر إسماعيل، وكان إبرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل لإبرام.

وفي سفر التكوين ١٧/ ٢٤، ٢٥: وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن في لحم غرلته، وكان إسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن في لحم غرلته.

وفي سفر التكوين ٢١/ ٥: وكان إبراهيم ابن مائة سنة حين ولد له إسحاق ابنه.

وفي سفر التكوين ٢١/ ٨- ١٠: فكبر الولد وفطم وصنع إبراهيم وليمةً عظيمةً يوم فطام إسحاق، ورأت سارة ابنَ هاجر المصريَّة الذي ولدته لإبراهيم يمزح، فقالت لإبراهيم اطرد هذه الجارية وابنها؛ لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحاق.

فبناءً على ذلك يكون عُمر إسماعيل فوق الأربع عشرة سنة.

ولكن جاء بعد ذلك ما يبين أنه صبي صغير ففي سفر التكوين ٢١/ ١٤- ٢٠: فبكر إبراهيم صباحًا وأخذ خبزًا وقربة ماء وأعطاهما لهاجر واضعًا إياهما على كتفها والولد وصرفها فمضت وتاهت في برية بئر سبع، ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار، ومضت وجلست مقابله بعيدًا نحو رمية قوس؛ لأنها قالت: لا أنظر موت الولد فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت، فسمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الله هاجر من السماء، وقال لها: ما لك يا هاجر لا تخافي؛ لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو، قومي احملي الغلام وشدي يدك به لأني سأجعله أمة عظيمة، وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام، وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية وكان ينمو رامي قوس.

٤- معرفة اسم الرب بيهوه.

في سفر التكوين ٢٢/ ١٤: فدعا إبراهيم اسم ذلك الموضع يهوه يراه، حتى إنه يقال اليوم في جبل الرب يرى.

ولكن في سفر الخروج ٦/ ٢، ٣: ثم كلم الله موسى وقال له: أنا الرب، وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شيء، وأما باسمي يهوه فلم أعرف عندهم.

وأيضًا قوله: حتى إنه يقال اليوم في جبل الرب يرى. يدل على أن الكاتب كتب بعد زمان حادثة الذبح، وبعد ما سمي ذلك الموضع بجبل الرب، ومعلوم أن هذا الجبل لم يحمل هذا الاسم إلا بعد الشروع في بناء الهيكل في عهد داود عليه السلام وأكمل بناءه سليمان عليه السلام كما في سفر الأخبار الثاني ٣/ ١، ٢، فهذه التسمية متأخرة جدًّا عن زمان موسى، فيتضح أن كاتب هذا السفر جاء بعد موسى بزمن طويل.

٥- قطورة زوجة إبراهيم أم جاريته.

نجد في سفر التكوين ٢٥/ ١ أنها زوجة: وعاد إبراهيم فأخذ زوجة اسمها قطورة؛ فإنها ولدت زمران ويقشان ومدان. . .

بينما نجد في سفر الأيام الأول ١/ ٣٢ أنها سرية: وأما بنو قطورة سرية إبراهيم فإنها ولدت

زمران ويقشان ومدان . . .

٦- مدينة دان.

في سفر التكوين ١٤/١٤ : فلما سمع إبرام أن أخاه سبي جر غلمانه المتمرنين ولدان بيته ثلاثمائة وثمانية عشر وتبعهم إلى دان.

ولم تحمل دان هذا الاسم إلا بعد موت يشوع بمدة طويلة، كما ورد في سفر القضاة ١٨/ ٢٩: ودعوا اسم المدينة دان باسم دان أبيهم الذي ولد لإسرائيل ولكن اسم المدينة أولا لايش.

٧- المرور بأرض الأدوميين (بني عيسو).

جاء في سفر التثنية ٢/ ٤ : وأوص الشعب قائلًا : أنتم مارون بتخم أخوتكم بني عيسو الساكنين في سعير فيخافون منكم فاحترزوا جدًا.

ولكن في سفر العدد ٢٠/ ٢١ : وأبى آدوم أن يسمح لإسرائيل بالمرور في تخومه فتحول إسرائيل عنه.

٨- مكان موت هارون.

في سفر العدد ٣٣/ ٣٨: فصعد هارون الكاهن إلى جبل هور حسب قول الرب ومات هناك في السنة الأربعين لخروج بني إسرائيل من أرض مصر.

وفي سفر التثنية ٣٢/ ٥٠ : كما مات هرون أخوك في جبل هور.

ولكن في سفر التثنية ١٠/ ٦ : وبنو إسرائيل ارتحلوا من آبار بني يعقان إلى موسير، هناك مات هارون وهناك دُفن.

٩- عدد بني إسرائيل ورجال يهوذا.

في سفر صموئيل الثاني ٢٤/ ٩ : فدفع يوآب جملة عدد الشعب إلى الملك فكان إسرائيل ثمانمائة ألف رجل ذي بأس مستل السيف، ورجال يهوذا خمسمائة ألف رجل.

ولكن في سفر أخبار الأيام الأولى ٢١/ ٥ : فدفع يوآب جملة عدد الشعب إلى داود فكان كل إسرائيل ألف ألف ومائة ألف رجل مستلي السيف، ويهوذا أربعمائة وسبعين ألف رجل مستلي السيف.

١٠- صاحب فكرة إحصاء بني إسرائيل.

في سفر صموئيل الثاني ٢٤/ ١ : وعاد فحمى غضب الرب على إسرائيل فأهاج عليهم داود قائلًا : امضِ وأحصِ إسرائيل ويهوذا.

ولكن في سفر أخبار الأيام الأولى ٢١/ ١ : ووقف الشيطان ضد إسرائيل وأغوى داود ليحصي إسرائيل.

١١- عدد سنين الجوع التي حكم الله بها على داود.

في سفر صموئيل الثاني ١٣/٢٤ : فأتى جاد إلى داود وأخبره وقال له : أتأتي عليك سبع سني جوع في أرضك أم تهرب ثلاثة أشهر أمام أعدائك وهم يتبعونك.

ولكن في سفر أخبار الأيام الأول ٢١/ ١١ : فجاء جاد إلى داود وقال له : هكذا قال الرب اقبل لنفسك إما ثلاث سنين جوع أو ثلاثة أشهر هلاك أمام مضايقتك.

١٢- عدد المراكب التي قضى عليها داود من أرام.

في سفر صموئيل الثاني ١٨/١٠ : وهرب أرام من أمام إسرائيل وقتل داود من أرام سبعمائة مركبة وأربعين ألف فارس وضرب شوبك رئيس جيشه فمات هناك.

ولكن في سفر أخبار الأيام الأول ١٨/١٩ : وهرب أرام من أمام إسرائيل وقتل داود من أرام سبعة آلاف مركبة وأربعين ألف رجل وقتل شوبك رئيس الجيش.

١٣- عدد الأحواض لسليمان عليه السلام.

في سفر الملوك الأول ٧/ ٢٦ : وغلظه شبر وشفته كعمل شفه كأس بزهر سوسن يسع ألفي بث.

ولكن في سفر أخبار الأيام الثاني ٤/ ٥ : وغلظه شبر وشفته كعمل شفة كأس بزهر سوسن يأخذ ويسع ثلاثة آلاف بث.

١٤- عدد مزاود الخيل لسليمان عليه السلام.

في سفر أخبار الأيام الثاني ٩/ ٢٥ : وكان لسليمان أربعة آلاف مزود خيل ومركبات واثنا عشر ألف فارس فجعلها في مدن المركبات ومع الملك في أورشليم.

ولكن في سفر الملوك الأول ٤/ ٢٦ : وكان لسليمان أربعون ألف مزود لخيل مركباته واثنا عشر ألف فارس.

١٥- عدد الإسرائيليين الذين أطلقوا من سبي بابل.

نجد في سفر عزرا الإصحاح ٢ اختلافًا مع ما في سفر نحميا الإصحاح ٧ عن عدد أفراد قبائل الإسرائيليين الذين أطلقوا من سبي بابل، فمن ذلك:

الاسم	عزرا	نحميا
بنو أرح	٧٧٥	٦٥٢
بنو فحث موآب	٢٨١٢	٢٨١٨
بنو زتو	٩٤٥	٨٤٥
بنو باني	٦٤٢	٦٤٨
بنو باباي	٦٢٣	٦٢٨

الاسم	عزرا	نحميا
بنو عرجد	١٢٢٢	٢٣٢٢
بنو أدونيقا	٦٦٦	٦٦٧
بنو بغواي	٢٠٥٦	٢٠٦٧
بنو حشوم	٢٢٣	٣٢٨
بنو بيصاي	٣٢٣	٣٢٤

وهكذا في الباقي.

وهذه يؤدي إلى الاختلاف في العدد الإجمالي للإسرائيليين.

١٦- عدد الذين قتلهم يوشيب بشبث التحكموني عندما هز رمحه.

في سفر صموئيل الثاني ٢٣/ ٨: هذه أسماء الأبطال الذين لداود يوشيب بشبث التحكموني رئيس الثلاثة، هو هز رمحه على ثمانمائة قتلهم دفعة واحدة.

ولكن في سفر أخبار الأيام الأول ١١/١١: وهذا هو عدد الأبطال الذين لداود.

يشبعام بن حكموني رئيس الثوالث هو هز رمحه على ثلاثمائة قتلهم دفعة واحدة.

١٧- عمر أخزيا عندما أصبح ملكًا.

في سفر الملوك الثاني ٨/٢٦: كان أخزيا ابن اثنتين وعشرين سنة حين ملك وملك سنة واحدة في أورشليم واسم أمه عثليا بنت عمرى ملك إسرائيل.

ولكن في سفر أخبار الأيام الثاني ٢٢/٢: كان أخزيا ابن اثنتين وأربعين سنة حين ملك وملك سنة واحدة في أورشليم واسم أمه عثليا بنت عمري.

١٨- عمر يهوياكين عندما نصب ملكًا، مدة حكمه.

في سفر الملوك الثاني ٢٤/٨: كان يهوياكين ابن ثماني عشرة سنة حين ملك وملك ثلاثة أشهر في أورشليم.

ولكن في سفر أخبار الأيام الثاني ٣٦/٩: كان يهوياكين ابن ثماني سنين حين ملك وملك ثلاثة أشهر وعشرة أيام في أورشليم.

١٩- الذي خلف يهوياكين.

في سفر الملوك الثاني ٢٤/٨- ١٧: كان يهوياكين ابن ثماني عشرة سنة حين ملك ... وملك بابل متنيا عمه عوضًا عنه وغيَّر اسمه إلى صدقيا.

ولكن في سفر أخبار الأيام الثاني ٣٦/٩-١٠: كان يهوياكين ابن ثماني سنين حين ملك ...

أرسل الملك نبوخذ نصر فأتى به إلى بابل . . . وملك صدقيا أخاه على يهوذا أورشليم.

٢٠- ملك يهورام بن أخاب.

في سفر الملوك الثاني ٣/ ١: وملك يهورام بن آخاب على إسرائيل في السامرة في السنة الثامنة عشرة ليهوشافاط ملك يهوذا.

ولكن في سفر الملوك الثاني ١/ ٢- ١٧: وسقط أخزيا من الكوة التي في عليته التي في السامرة . . . فمات حسب كلام الرب الذي تكلم به إيليا، وملك يهورام عوضًا عنه في السنة الثانية ليهورام بن يهوشافاط ملك يهوذا؛ لأنه لم يكن له ابن.

٢١- اسم زوجة داود أم سليمان عليهما السلام.

في سفر صموئيل الثاني ١١/ ٣- ١٢/ ٢٤: بثشبع بنت أليعام امرأة أوريا الحثي . . . وعزى داود بثشبع امرأته ودخل إليها واضطجع معها فولدت ابنًا فدعا اسمه سليمان.

ولكن في سفر أخبار الأيام الأول ٣/ ١-٥: وهؤلاء ولدوا له في أورشليم شمعى وشوباب وناثان وسليمان أربعة من بثشوع بنت عميئيل.

٢٢- وقت إتيان داود بالتابوت.

نجد في سفر صموئيل الثاني ٥/ ٢٥- ٦/ ٢-١١، أنه بعد محاربة الفِلَسطينين: ففعل داود كذلك كما أمره الرب وضرب الفلسطينيين من جبع إلى مدخل جازر . . . وقام داود وذهب هو وجميع الشعب الذي معه من بعلة يهوذا ليصعدوا من هناك تابوت الله . . . فأركبوا تابوت الله على عجلة جديدة . . . وبقي تابوت الرب في بيت عوبيد أدوم.

بينما نجد في سفر الأيام الأول ١٣/ ٥-١٤، ١٤/ ١٠ - ١٦ أنه قبل محاربة الفلسطينين: وجمع داود كل إسرائيل من شيحور مصر إلى مدخل حماه ليأتوا بتابوت الله من قرية يعاريم، وأركبوا تابوت الله على عجلة جديدة من بيت أبيناداب . . . وبقي تابوت الله عند بيت عوبيد أدوم.

فسأل داود من الله قائلًا: أأصعد على الفلسطينيين فتدفعهم ليدي. فقال الرب: اصعد فأدفعهم ليدك فصعدوا إلى بعل فراصيم وضربهم داود هناك . . . ثم عاد الفلسطينيون أيضًا وانتشروا في الوادي . . . ففعل داود كما أمره الله وضربوا محلة الفلسطينيين من جبعون إلى جازر.

٢٣- اسم أم أبيا.

في سفر أخبار الأيام الثاني ١١/ ١٨-٢٠: واتخذ رحبعام لنفسه امرأة محله بنت يريموث بن داود . . . ثم بعدها أخذ معكة بنت أبشالوم فولدت له أبيا.

ولكن في أخبار الأيام الثاني ١٣/ ١، ٢: ملك أبيا على يهوذا ملك ثلاث سنين في أورشليم واسم أمه ميخايا بنت أوريئيل من جبعة.

٢٤- اسم ابن صموئيل البكر.

في سفر صموئيل الأول ٨/ ٢: وكان اسم ابنه البكر يوئيل، واسم ثانيه أبيا.

بينما في سفر أخبار الأيام الأول ٦/ ٢٨: وابنا صموئيل البكر وشني ثم أبيا.

٢٥- سؤال شاول الرب.

في سفر صموئيل الأول ٢٨/ ٥- ٦: ولما رأى شاول جيش الفلسطينيين خاف واضطرب قلبه جدًا، فسأل شاول من الرب فلم يجبه الرب لا بالأحلام ولا بالأوريم ولا بالأنبياء.

ولكن في سفر أخبار الأيام الأول ١٠/ ١٣-١٤: فمات شاول بخيانته التي بها خان الرب من أجل كلام الرب الذي لم يحفظه وأيضًا لأجل طلبه إلى الجان للسؤال، ولم يسأل من الرب فأماته وحوَّل المملكة إلى داود بن يسَّى.

٢٦- مَن التي تزوجها عدرئيل من بنات شاول.

في سفر صموئيل الأول ١٨/ ١٩- ٢٧: وكان في وقت إعطاء ميرب ابنة شاول لداود أنها أعطيت لعدرئيل المحولي امرأة، وميكال ابنة شاول أحبت داود، . . . ، فأعطاه شاولُ ميكالَ ابنتَه امرأة.

وفي سفر صموئيل الأول ٢٥/ ٤٤: فأعطى شاول ميكال ابنته -امراة داود- لفلطي بن لايش الذي من جليم.

ولكن في سفر صموئيل الثاني ٢١/٨: وبني ميكال ابنة شاول الخمسة الذين ولدتهم لعدرئيل ابن برزلاي المحولي.

٢٧- شمشون مبارك ونذير أم زان.

في سفر القضاة ١٣/ ٢٤: فولدت المرأة ابنًا ودعت اسمه شمشون، فكبر الصبي وباركه الرب وابتدأ روح الرب يحركه في محله دان بين صرعة وأشتأول.

ولكن في سفر القضاة ١٦/ ١: ثم ذهب شمشون إلى غزة ورأى هناك امرأة زانية فدخل إليها.

٢٨- عقاب ياهو.

في سفر الملوك الثاني ٩/ ١-١٠: ودعا اليشع النبي واحدًا من بني الأنبياء، . . . ، واذهب إلى راموت جلعاد وإذا وصلت إلى هناك فانظر هناك ياهو بن يهوشافاط . . . وقال له هكذا قال الرب إله إسرائيل قد مسحتك ملكًا على شعب الرب إسرائيل فتضرب بيت أخاب سيدك وانتقم لدماء عبيدي الأنبياء ودماء جميع عبيد الرب من يد إيزابل، فيبيد كل بيت أخاب واستأصل لأخاب كل بائل بحائط ومحجوز ومطلق في إسرائيل واجعل بيت أخاب كبيت يربعام بن نباط وكبيت بعشا بن أخيا، وتأكل الكلاب إيزابل في حقل يزرعيل وليس من يدفنها.

ولكن في سفر هوشع ١/ ٤: فقال له الرب: ادع اسمه يزرعيل؛ لأنني بعد قليل أعاقب بيت

ياهو على دم يزرعيل وأبيد مملكة بيت إسرائيل.

٢٩- ارتفاع تاج عمود بيت الرب.

في سفر الملوك الثاني ٢٥/ ١٧: وعليه تاج من نحاس وارتفاع التاج ثلاث أذرع.

ولكن في سفر إرميا ٥٢/ ٢٢: وعليه تاج من نحاس ارتفاع التاج الواحد خمس أذرع.

٣٠- وقت مجيء نبوزرادان ليحرق الهيكل.

في سفر الملوك الثاني ٢٥/ ٨: وفي الشهر الخامس في سابع الشهر وهي السنة التاسعة عشرة للملك نبوخذناصر ملك بابل جاء نبوزرادان رئيس الشرط عبد ملك بابل إلى أورشليم، وأحرق ...

ولكن في سفر إرميا ٥٢/ ١٢: وفي الشهر الخامس في عاشر الشهر وهي السنة التاسعة عشرة للملك نبوخذراصر ملك بابل جاء نبوزرادان رئيس الشرط الذي كان يقف أمام ملك بابل إلى أورشليم، وأحرق ...

٣١- عدد ندماء الملك الذين أخذهم نبوزرادان.

في سفر الملوك الثاني ٢٥/ ١٨: وأخذ رئيس الشرط ... وخمسة رجال من الذين ينظرون وجه الملك الذين وجدوا في المدينة...

ولكن في سفر إرميا ٥٢/ ٢٤: وأخذ رئيس الشرط ... وسبعة رجال من الذين ينظرون وجه الملك الذين وجدوا في المدينة ...

٣٢- يوم خروج يهوياكين من السجن.

في سفر الملوك الثاني ٢٥/ ٢٧: وفي السنة السابعة والثلاثين لسبي يهوياكين ملك يهوذا في الشهر الثاني عشر في السابع والعشرين من الشهر رفع أويل مرودخ ملك بابل في سنة تملكه رأس يهوياكين ملك يهوذا من السجن.

ولكن في سفر إرميا ٥٢/ ٣١: وفي السنة السابعة والثلاثين لسبي يهوياكين في الشهر الثاني عشر في الخامس والعشرين من الشهر رفع أويل مرودخ ملك بابل في سنة تملكه رأس يهوياكين ملك يهوذا وأخرجه من السجن.

٣٣- طول العمودين اللذين أقامهما سليمان أمام الهيكل.

في سفر الملوك الأول ٧/ ١٥: وصوّر العمودين من نحاس طول العمود الواحد ثمانية عشر ذراعًا.

ولكن في سفر أخبار الأيام الثاني ٣/ ١٥: وعمل أمام البيت عمودين طولهما خمس وثلاثون ذراعًا.

٣٤- موت يهوياقيم والذي خلفه على كرسي داود.

في سفر الملوك الثاني ٢٤/٦: ثم اضطجع يهوياقيم مع آبائه وملك يهوياكين ابنه عوضًا عنه.

ولكن في سفر إرميا ٣٦/ ٣٠: لذلك هكذا قال الرب عن يهوياقيم ملك يهوذا. لا يكون له جالس على كرسي داود وتكون جثته مطروحة للحر نهارًا وللبرد ليلًا[1].

المعيار الثالث: التناقض بين ما جاء في الشرائع وما ورد في القصص

يوجد في العهد القديم تناقضًا بين ما ورد في بعض الشرائع وبين ما ورد في القصص.

من أمثلة ذلك:

١- تقديم القرابين في مذبح مركزي.

في سفر التثنية ١٢/ ٥، ٦ يصر على ضرورة تقديم القرابين في مذبح مركزي، فقد جاء فيه: بل المكان الذي يختاره الرب إلهكم من جميع أسباطكم ليضع اسمه فيه سكناه تطلبون وإلى هناك تأتون، وتقدمون إلى هناك محرقاتكم وذبائحكم وعشوركم ورفائع أيديكم ونذوركم ونوافلكم وأبكار بقركم وغنمكم.

ومع هذا قدَّم إلياهو (إيليا) قرابين على جبل الكرمل ففي سفر ملوك أول ١٨/١٩ - ٣٨: فالآن أرسل وأجمع إلي كل إسرائيل إلى جبل الكرمل وأنبياء البعل أربع المائة والخمسين وأنبياء السواري أربع المائة الذين يأكلون على مائدة إيزابل، ...، وبنى الحجارة مذبحًا باسم الرب وعمل قناة حول المذبح تسع كيلتين من البزر، ثم رتب الحطب وقطع الثور ووضعه على الحطب، وقال: املئوا أربع جرات ماء وصبوا على المحرقة وعلى الحطب، ...، فسقطت نار الرب وأكلت المحرقة والحطب والحجارة والتراب ولحست المياه التي في القناة.

٢- تقديم القرابين في سنوات التيه.

تؤكد أسفار موسى الخمسة أهمية تقديم القرابين خلال سنوات التيه، كما في سفر اللاويين ١٤/ ١- ١٣، وغيرها.

بينما يؤكد النبي عاموس أن مثل هذه القرابين لم تُقدَّم، ففي سفر عاموس ٥/ ٢٥: هل قدمتم لي ذبائح وتقدمات في البرية أربعين سنة يا بيت إسرائيل؟!

وينكر إرميا أن الإله أمر بمثل هذه القرابين ففي سفر إرميا ٧/ ٢٢: لأني لم أكلم آباءكم ولا أوصيتهم يوم أخرجتهم من أرض مصر من جهة محرقة وذبيحة.

---

(١) انظر: هل الكتاب المقدس كلام الله، أحمد ديدات، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، تحريف الكتاب المقدس.

٣- الزواج بالعمة.

في سفر اللاويين ١٨/ ١٢: عورة أخت أبيك لا تُكشف؛ إنها قريبة أبيك.

ولكن جاء في قصص العهد القديم ما يخالف ذلك.

ففي سفر الخروج ٦/ ٢٠: وأخذ عمران يوكابد عمته زوجة له فولدت له هارون وموسى.

٤- الزواج من الأجنبيات.

جاء في العهد القديم منع تزويج أحد من بني إسرائيل بأجنبية، ففي سفر التثنية ٧/ ٣ عند كلامه عن الحثيين والجرجاشيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين قال: ولا تصاهرهم، بنتك لا تعطِ لابنه، وبنته لا تأخذ لابنك.

وفي سفر الخروج ٣٤/ ١٥، ١٦: احترز من أن تقطع عهدًا مع سكان الأرض فيزنون وراء آلهتهم، ويذبحون لآلهتهم فتدعى وتأكل من ذبيحتهم، وتأخذ من بناتهم لبنيك فتزني بناتهم وراء آلهتهن ويجعلن بنيك يزنون وراء آلهتهن.

وفي سفر عزرا ١٠/ ١٠- ١٢: فقام عزرا الكاهن وقال لهم إنكم قد خنتم واتخذتم نساء غريبة لتزيدوا على إثم إسرائيل، فاعترفوا الآن للرب إله آبائكم واعملوا مرضاته وانفصلوا عن شعوب الأرض وعن النساء الغريبة.

ولكن جاء في قصص العهد القديم خلاف ذلك.

فجاء فيه أن يهوذا تزوج بأجنبية: بابنة رجل كنعاني، ففي سفر التكوين ٣٨/ ٢: ونظر يهوذا هناك ابنة رجل كنعاني اسمه شوع فأخذها ودخل عليها. وكذا في سفر أخبار الأيام الأول ٢/ ٣ .

وفيه أن عيسو تزوج بأجنبية: بابنة رجل حثي، ففي سفر التكوين ٢٦/ ٣٤: و لما كان عيسو ابن أربعين سنة اتخذ زوجة يهوديت ابنة بيري الحثي وبسمة ابنة إيلون الحثي.

وفيه أن يوسف تزوج بامرأة مصرية ففي سفر التكوين ٤١/ ٥٠: وولد ليوسف ابنان قبل أن تأتي سنة الجوع ولدتهما له أسنات بنت فوطي فارع كاهن آون.

وفيه أن موسى تزوج بامرأة من مدين، ففي سفر الخروج ٢/ ٢١: فارتضى موسى أن يسكن مع الرجل فأعطى موسى صفورة ابنته.

وفيه أن سليمان تزوج من عدة نساء أجنبيات: صيدونيات، وكنعانيات، وحثيات، وابنة فرعون، فمثلًا في سفر الملوك الأول ٣/ ١: وصاهر سليمان فرعون ملك مصر وأخذ بنت فرعون وأتى بها إلى مدينة داود إلى أن أكمل بناء بيته وبيت الرب وسور أورشليم حواليها.

وجاء تأكيد لهذا في سفر نحميا ١٣/ ٢٣- ٢٧: في تلك الأيام أيضًا رأيت اليهود الذين ساكنوا نساء أشدوديات وعمونيات وموابيات، ونصف كلام بنيهم باللسان الأشدودي ولم يكونوا يحسنون التكلم باللسان اليهودي بل بلسان شعب وشعب، فخاصمتهم ولعنتهم وضربت منهم

أناسًا ونتفت شعورهم واستحلفتهم بالله قائلًا لا تعطوا بناتكم لبنيهم ولا تأخذوا من بناتهم لبنيكم ولا لأنفسكم، أليس من أجل هؤلاء أخطأ سليمان ملك إسرائيل ولم يكن في الأمم الكثيرة ملك مثله وكان محبوبًا إلى إلهه فجعله الله ملكًا على كل إسرائيل هو أيضًا جعلته النساء الأجنبيات يخطئ، فهل نسكت لكم أن تعملوا كل هذا الشر العظيم بالخيانة ضد الهنا بمساكنة نساء أجنبيات.

٥- الدخول في جماعة الرب.

في سفر التثنية ٢٣/٢: لا يدخل ابن زنى في جماعة الرب حتى الجيل العاشر لا يدخل منه أحد في جماعة الرب.

يلزم منه ألا يدخل داود وهو نبي في جماعة الرب؛ لأنه هو البطن التاسع لفارص، وفارص هو ولد زنى على حسب ما في سفر التكوين ٣٨/ ١٢- ٣٠ .

٦- استخدام العرافة في التنبؤ.

في سفر إرميا ١٤/ ١٤: فقال الرب لي: بالكذب يتنبأ الأنبياء باسمي، لم أرسلهم ولا أمرتهم ولا كلمتهم، برؤيا كاذبة وعرافة وباطل ومكر قلوبهم هم يتنبئون لكم.

ولكن في سفر صموئيل الأول ٢٨/ ٧ - ١٥: فقال شاول لعبيده: فتِّشوا لي على امرأة صاحبة جان فأذهب إليها واسألها، فقال له عبيده هو ذا امرأة صاحبة جان في عين دور . . . فقالت المرأة: من أصعد لك؟ فقال: أصعدي صموئيل، . . .، فقالت المرأة لشاول: رأيت آلهة يصعدون من الأرض، فقال لها: ما هي صورته؟ فقالت: رجل شيخ صاعد وهو مغطى بجبة، فعلم شاول أنه صموئيل فخرَّ على وجهه إلى الأرض وسجد، فقال صموئيل لشاول: لماذا أقلقتني بإصعادك إياي.

٧- تلف الأشجار المثمر في الحرب.

في سفر التثنية ٢٠/ ١٨: إذا حاصرت مدينة أيامًا كثيرةً محاربًا إياها لكي تأخذها فلا تتلف شجرها بوضع فاس عليه. إنك منه تأكل. فلا تقطعه؛ لأنه هل شجرة الحقل إنسان حتى يذهب قدامك في الحصار.

ولكن في سفر الملوك الثاني ٣/ ١٩: فتضربون كل مدينة محصّنة وكل مدينة مختارة وتقطعون كل شجرة طيبة (مثمرة حسب الترجمة التفسيرية والعربيَّة المشتركة) وتطمُّون جميع عيون الماء وتفسدون كل حقلة جيدة بالحجارة.

٨- الزنى بالأخت من الأب.

في سفر اللاويين ١٨/ ٩: عورة أختك بنت أبيك أو بنت أمك المولودة في البيت أو المولودة خارجًا لا تكشف عورتها.

وفي اللاويين ٢٠/ ١٧: وإذا أخذ رجل أخته بنت أبيه أو بنت أمه ورأى عورتها ورأت هي

عورته فذلك عار يقطعان أمام أعين بني شعبهما قد كشف عورة أخته يحمل ذنبه.

ولكن في سفر صموئيل الثاني ١٣/١- ٢١: وجرى بعد ذلك أنه كان لأبشالوم بن داود أخت جيلة اسمها ثامار فأحبها أمنون بن داود، . . . . ، و قال لها تعالي اضطجعي معي يا أختي، . . . ، بل تمكن منها وقهرها واضطجع معها، . . .

٩- وصف النوم والنعاس.

جاء في المزامير وصف الرب أنه لا ينعس ولا ينام، ففي المزمور ١٢١/٣، ٤: لا يدع رجلك تزل لا ينعس حافظك، أنه لا ينعس ولا ينام حافظ إسرائيل.

ولكن جاء في المزمور ٧٨/ ٦٥: فاستيقظ الرب كنائم كجبار معيط من الخمر.

١٠- وصف التعب.

جاء وصف الرب بعدم التعب ففي سفر أشعياء ٤٠/٢٨: إله الدهر الرب خالق أطراف الأرض لا يكل ولا يعيا.

ولكن جاء في سفر التكوين ٢/ ٢: وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع.

١١- وصف الندم.

جاء وصف الرب بعدم الندم، ففي سفر العدد ٢٣/١٩: ليس الله إنسانًا فيكذب ولا ابن إنسان فيندم.

ولكن جاء في سفر الخروج ٣٢/ ١٤: فندم الرب على الشر الذي قال: إنه يفعله بشعبه.

وفي سفر صموئيل الأول ١٥/ ١٠، ١١: وكان كلام الرب إلى صموئيل قائلًا: ندمت على أني جعلت شاول ملكًا.

وفي سفر صموئيل الأول ١٥/ ٣٥: والرب ندم؛ لأنه ملك شاول على إسرائيل.

١٢- وصف نقض العهد.

جاء في المزامير وصف الرب بعدم نقض العهد، ففي المزمور ٨٩/ ٣٤: لا أنقض عهدي ولا أغير ما خرج من شفتي.

ولكن في المزمور ٨٩/ ٣٩: نقضت عهد عبدك.

١٣- الكلام للبشر.

جاء في العهد القديم أن الرب لا يستعلن إلا في الحلم للأنبياء وأنه لن يكلم أحدًا فما لفم سوى موسى، ففي سفر العدد ١٢/٦- ٨: فقال اسمعا كلامي إن كان منكم نبي للرب فبالرؤيا أستعلن له في الحلم أكلمه، وأما عبدي موسى فليس هكذا بل هو أمين في كل بيتي، فما إلى فم، وعيانًا أتكلم معه لا بالألغاز.

ولكن جاء في سفر صموئيل الأول ٣/ ١٠: فجاء الرب ووقف ودعا كالمرات الأول صموئيل صموئيل فقال صموئيل: تكلم لأن عبدك سامع.

وفي سفر الملوك الأول ٨/ ١٥: وقال -أي سليمان-: مبارك الرب إله إسرائيل الذي تكلم بفمه إلى داود أبي.

١٤- قدرة البشر على رؤية الرب.

جاء في سفر الخروج ٣٣/ ٢٠: وقال: لا تقدر أن ترى وجهي؛ لأن الإنسان لا يراني ويعيش.

ولكن جاء في الخروج ٣٣/ ١١: ويكلم الرب موسى وجهًا لوجه كما يكلم الرجل صاحبه.

وفي الخروج ٢٤/ ٩ - ١١: ثم صعد موسى وهارون وياداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل، ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعه من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل، فرأوا الله وأكلوا وشربوا.

وفي التكوين ٣٢/ ٣٠: فدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل، قائلًا: لأني نظرت الله وجهًا لوجه[1].

المعيار الرابع: تباين الأسلوب الأدبي

توصَّل الباحثون في أمر التوراة، من خلال ملاحظة اللغات والأساليب وما تشتمل عليه من موضوعات وأحكام وتشاريع، وبعد دراسة الاختلافات الواضحة في مفردات النصوص وأفكارها -إلى أن هذه النصوص تعود إلى فترات زمنية مختلفة وبأقلام مختلفة.

من أمثلة ذلك

١- في سفر الخروج يعلن أن الآباء يعرفون الإله باسم «شدَّاي»، وهو ما يساعد على تحديد هذه النصوص وتحديد تاريخها، وأنها تعود إلى المصدر نفسه.

٢- اختلاف الخلفيات التاريخية في سفر أشعياء والمزامير يُسهِّل عملية معرفة المؤلف وتاريخ التأليف.

٣- في سفر الخروج ٦/ ١: فقال الرب لموسى ...، وفي الخروج ٦/ ١٣: فتكلم موسى أمام الرب ...، وفي العدد ١١/ ١١: فقال موسى للرب ...، وفي التثنية ٣١/ ١٤: وقال الرب لموسى ....

فالضمير هنا هو ضمير الغائب لآخر غير الرب أو موسى، وهكذا في أكثر من سبعمائة جملة من أسفار الخروج واللاويين والعدد والتثنية.

---

(١) انظر: هل الكتاب المقدس كلام الله، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الفرق والمذاهب اليهودية ص(٢١)، تحريف الكتاب المقدس.

إنه أسلوب مؤرخ يتحدث عن الرب وموسى، وهذه يدل على أن موسى لم يكتب هذه الأسفار.

٤- جاء في سفر التثنية ٣٤/ ٥- ١٠: فمات هناك موسى . . . ودفنه . . . وكان موسى ابن مائة وعشرين سنة حين مات . . . ولم يقم بعدُ نبي في إسرائيل مثل موسى . . . .

فكيف يكتب موسى تفاصيل موته؟

ولما عرف الحاخامات أن هذا الإصحاح من سفر التثنية لا يمكن أن يكون موسى قد كتبه، ففسروه بطريقة تعسفية وهي أنه كتبه وهو يموت، وأن الإله أملى عليه هذه الكلمات، وأنها كُتبت بروح النبوة.

٥- الأسلوب الذي كُتب به سفر التثنية متغير، فإننا نجد أن موسى يتحدث بنفسه، وبضمير المتكلم، وذلك بعد أن يقدمه الراوي قائلًا: هذا هو الكلام الذي كلم به موسى جميع إسرائيل في عبر الأردن.

ثم يستطرد: ابتدأ موسى يشرح هذه الشريعة قائلًا: الرب إلهنا، وكلمتكم في ذلك الوقت قائلا، فأجبتموني، وأمرت قضاتكم في ذلك الوقت قائلًا: . . . ، وأمرتكم في ذلك الوقت . . . ، ثم ارتحلنا . . . ، فقلت لكم: . . . ، فكلمتكم . . . ، ثم تحولنا وارتحلنا . . . ، فعبرنا . . . ، إلخ

وظل موسى يتكلم بنفسه، كما قدمه الراوي، طيلة الخطاب الأول من السفر المذكور حتى ٤/ ٤٠ .

حيث عاد الراوي في ٤/ ٤١ إلى الكلام عن موسى بضمير الغائب: حينئذ أفرد موسى ثلاث مدن.

وبدأ الراوي خطاب موسى الثاني في ٤/ ٤٤ بقوله: وهذه هي الشريعة التي وضعها موسى أمام بني إسرائيل.

فكانت الوصايا العشر (من الإصحاح ٥ إلى الإصحاح ١١)، ثم مجموعة الفرائض والإحكام (من الإصحاح ١٢ إلى الإصحاح ٢٦)، وقد صيغت كلها بضمير المتكلم.

حتى إذا وصل الراوي إلى خطاب الخاتمة الذي هو نهاية الخطاب الثاني (من الإصحاح ٢٧ إلى الإصحاح ٢٨)، عاد ليتحدث عن موسى بضمير الغائب: ودعا موسى . . . ، وقال لهم . . .

ثم يعود فيتكلم موسى بصيغة الخطاب وضمير المتكلم: فقد سرت . . . ، وأخذنا . . . ، أوصيل بها . . . أنبئكم اليوم . . . ، أشهد عليكم، . . .

وهكذا يستمر الكلام متغيرًا إلى أن يصل إلى أعمال موسى الأخيرة ووفاته، حتى آخر السفر.

فطريقة الكلام والشواهد، ومجموع نصوص القصة كلها، يعطي انطباعًا بأن موسى لم يكتب هذه الأسفار، بل كتبها شخص آخر.

٦- في سفر التثنية ٣٤/ ١٠: ولم يقم بعد نبي في إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجهًا لوجه.

وهذا مما يؤكد، أن صاحب الكلام هو غير موسى بالطبع.

٧- جاء في سفر التكوين ٣٦/ ٣١: وهؤلاء هم الملوك الذين ملكوا في أرض أدوم قبلما مَلَكَ ملكٌ لبني إسرائيل.

أي أن كاتب هذه الفقرة عاش بعد أن عرفت جماعة إسرائيل نظام الملكية، ولم يحدث ذلك إلا بعد عدة قرون من موت موسى.

٨- التوراة كُتبت بالعبريَّة، ويرى بعض الباحثين أن موسى الذي عاش في مصر لم يكن يتحدث العبريَّة، وإنما كان في الأغلب يتحدث لغة المصريين القدامى أو كان يتحدث لغة كنعانية متأثرة بالمصريَّة القديمة.

٩- استنتج ٣٢ عالمًا، و٥٠ طائفة متعاونة معهم في تنقيح نسخة الملك جيمس في نهاية النصوص المنقحة للكولينز عن أسفار الكتاب المقدس هذه الاستنتاجات: سفر التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية (أقروا بأن علمهم لا يمكن أن ينسب هذه الأسفار إلى موسى).

مؤلف يشوع: يُنسب معظمه إلى يوشع.

مؤلف خاتمة سفر يشوع: غير معروف.

مؤلف سفر القضاة: غير معروف، (ربما كتبه صموئيل).

مؤلف سفر راعوث: ليس معروفًا بالتحديد.

مؤلف سفر صموئيل الأول (R. S.V.): غير معروف، (ربما كتبه صموئيل).

مؤلف سفر صموئيل الثاني (R. S.V.): غير معروف.

مؤلف سفر الملوك الأول: غير معروف.

مؤلف سفر الملوك الثاني: غير معروف.

مؤلف سفر أخبار الأيام الأول: المؤلف مجهول، (ولكن ربما جمعه وحرره عزرا).

مؤلف سفر أخبار الأيام الثاني: المؤلف مجهول، (ولكن ربما جمعه وحرره عزرا).

مؤلف سفر عزرا: من المحتمل أن عزرا كتبه أو حرره.

مؤلف سفر أستير: غير معروف.

مؤلف سفر أيوب: يحتمل أن يكون أيوب، ويرى البعض أنه موسى أو سليمان أو أليهو.

مؤلف المزامير: كتب داود ٣٧ مزمورًا، وكتب آساف ١٢ مزمورًا، وأبناء قورح ٩ مزامير، وكتب سليمان مزمورين، وهناك ٥١ مزمورًا لا يعرف كاتبها.

مؤلف سفر الأمثال والجامعة ونشيد الأناشيد: المؤلف مجهول، ولكنها عادة تنسب إلى سليمان.

مؤلف سفر أشعياء: ينسب معظمه إلى أشعياء، (ولكن بعضه من المحتمل كتبه آخرون).

مؤلف سفر حبقوق: لا يعرف شيء عن مكان أو زمان ولادته.

وهكذا تستمر الاستنتاجات: إما أن المؤلفين (مجهولون غير معروفون) أو يكونون (احتمالًا) أو (ذوي أصل مشكوك فيه)[1].

١٠- في سفر إرميا ٣٨/١: وسمع شفطيا بن متان وجدليا بن فشحور ويوخل بن شلميا وفشحور بن ملكيا الكلام الذي كان إرميا يكلم به كل الشعب.

وهذا يبين أن إرميا النبي ليس هو الذي كتب سفر إرميا وإنما شخص آخر.

١١- في سفر التثنية ٣١/٩: وكتب موسى هذه التوراة وسلمها للكهنة بني لاوي حاملي تابوت عهد الرب ولجميع شيوخ إسرائيل.

ويستحيل أن يكون موسى قد قال ذلك، بل لا بد من أن يكون قائلها كاتبًا آخر يروي أقوال موسى وأعماله.

١٢- في سفر التثنية ٣/ ١١: أن عوج ملك باشان وحده بقي من بقية الرفائيين، هوذا سريره سرير من حديد، أليس هو في ربة بني عمون؟ طوله تسع أذرع و عرضه أربع أذرع بذراع رجل.

وتدل هذه الإضافة على أن من كتب هذه الأسفار عاش بعد موسى بمدة طويلة، وفضلًا عن ذلك، فلا شك في أنه لم يعثر على هذا السرير الحديدي إلا في عصر داود الذي استولى على الرباط (ربة عمون) كما في سفر صموئيل الثاني ١٢/٢٩- ٣١[2].

المعيار الخامس: استخدام نسخ وترجمات العهد القديم المختلفة

يجد النقاد أن الترجمات القديمة للعهد القديم تظهر فيها نصوص أو مقطوعات ليست في النص العبري، كما وجدوا أيضًا ما هو مخالف.

من أمثلة ذلك

١- الترجمة الآراميَّة.

سعت التراجم الآراميَّة إلى إضفاء مسْحَة من ثقافة عصرها على النص فقام المترجمون بإدخال مصطلحات مثل «الجن والملائكة» بديلًا عن الإشارة إلى الرب مجسدًا.

٢- الترجمة السبعينيَّة.

توجد صياغات في الترجمة السبعينيَّة لم نجدها في النص العبري الحالي.

ومع هذا عُثر على نظيرها العبري في مخطوطات قُمران، وهو ما يؤكد اعتماد المترجمين على

---

(١) انظر: هل الكتاب المقدس كلام الله ص(٤٤، ٤٥، ٧٢، ٧٣، ٣٣، ٣٤).

(٢) انظر: هل الكتاب المقدس كلام الله، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، تحريف الكتاب المقدس.

نصوص عبرية متعددة.

وقد تجاهل العلماء الهيلينيون العهد القديم، ولم تصلنا أية تعليقات لهم عليه.

ولكن الفقهاء اليهود في فلسطين، قبلوا الترجمة واعتمدوها في بادئ الأمر، فأجَّلها اليهود المتحدثون باليونانيَّة، واستفادت اليهوديَّة منها في عملية التبشير.

ونظرًا للاختلافات بين الترجمة والنص العبري، وهي اختلافات استفاد منها المسيحيون الأولون، وبعد أن اعترفت الكنيسة المسيحيَّة بالترجمة السبعينيَّة باعتبارها الإنجيل الرسمي، أظهر الحاخامات العداء لها، وخصوصًا ابتداءً من عام ٧٠ الميلادي.

وأصبحت الترجمة السبعينيَّة تشبَّه بـ «العجل الذهبي».

ولم تكن الترجمة على مستوى رفيع، فلم يكن المترجمون ملمين بالعبريَّة بالقدر الكافي، ولم تكن النصوص التي ترجموا عنها نصوصًا جيدة، كما أن المترجمين أخذوا في الاعتبار حساسيات العالم الهيليني.

من أمثلة ذلك:

١- تُرجمت كلمة «الأرنب» (لاويين ١١/٦)، وهو حيوان مدنَّس حسب الشريعة اليهوديَّة، بعبارة «ذو الأقدام الخشنة»؛ لأن كلمة «الأرنب» باليونانيَّة هي «لاجوسlagos»، وهي أحد ألقاب أسلاف الأسرة البطلمية.

٢- تم تغيير عبارة «آراميًا تائهًا كان أبي فانحدر إلى مصر وتغرَّب هناك» (تثنية ٢٦/ ٥) فصارت «أبي ترك سوريا وذهب إلى مصر»، وذلك لإرضاء البطالمة أيضًا حيث كانت سوريا تحت حكم السلوقيين أعدائهم، وكلمة «آرامي» تعني «سوري».

٣- وأسقط المترجمون أسماء الأعلام التي كان يتسمَّى بها الإله مثل «أدوناي، و«شدَّاي صباءوت»، واستخدموا بدلًا من ذلك أسماء مثل «الإله» أو «الخالق». وبدلًا من تأكيد خصوصية الإله وخصوصية علاقته بالشعب، يصبح هو الكائن الأعظم للجنس البشري.

وهذا يعود إلى وجود اتجاه عام في العالم الهيليني نحو تعظيم الخالق الواحد، وكانت الآلهة المحلية آخذة في الاختفاء.

٤- أسقط المترجمون العبارات التي تنسب إلى الخالق صفات جسدية، فبينما تتحدث النسخة العبريَّة عن أنهم «رأوا إله إسرائيل» (خروج ٢٤/ ١٠)، فإن الترجمة اليونانيَّة تتحدث عن أنهم «رأوا المكان الذي كان قد وقف فيه إله إسرائيل». والهدف من هذا كله هو: تقريب التوراة من العقل الهيليني.

٥- تم أغرقة المصطلح تمامًا في بعض الأحيان، فتُرجمت «توراة» بكلمة «نوموس» اليونانيَّة، والتي تعني «قانون».

أما كلمة «إموناه»، وهي بمعنى «إيمان»، فتُرجمت بالكلمة اليونانيَّة «بيستيس pistis» وتعني «الاعتقاد».

٦- تشتمل الترجمة السبعينيَّة على عدة أسفار لا توجد في الأصل العبري الذي وصل إلينا، وهي: سفر طوبيا، وسفر الحكمة لسليمان، وأسفار المكابيين وعددها أربعة أسفار، وسفر يهوديت، وسفر الكهنوت أو سفر الحكمة ليسوع بن سيراخ، ونشيد الأطفال الثلاثة، وسفر الحكماء الثلاثة، وسفر بعل والتنين، وثلاثة أسفار منسوبة إلى عزرا، وذلك زيادة على السفر المثبت في الأصل العبري، وبعض زيادات في سفر إستير ودانيال، وهي الأسفار التي أصبحت تشكل أبوكريفا العهد القديم (الكتب الخارجية أو الخفية).

٧- الترجمة السبعينيَّة لسفر أيوب (٣٨/ ٢) تضم فقرة لا توجد في النص العبري تُغيِّر تفسير السفر تمامًا.

٨- في سفر صموئيل الأول ١/ ٢٤ نجد النص العبري لهذه الفقرة هو: ثم حين فطمته أصعدته معها بثلاثة ثيران وإيفة دقيق وزق خمر وأتت به إلى الرب في شيلوه والصبي صغير.

بينما نجده في الترجمة السبعينيَّة كذا: وصعدت معه إلى سلوام مع عجل ذي ثلاث سنين وخبز وإيفة دقيق وزق خمر ودخلت بيت الرب في سيلوم ومعه الصبي.

ونجده في النسخة قمران هكذا: وأصعدته معها إلى شيلوه مع عجل ذي ثلاث سنين وخبز وإيفة دقيق وزق خمر ودخلت بيت الرب في شيلوه ومعهم الصبي.

٩- في سفر صموئيل الأول ١/ ٢٥ نجد النص العبري لهذه الفقرة هو: فذبحوا الثور وجاءوا بالصبي إلى عالي.

بينما نجده في الترجمة السبعينيَّة هكذا: وجاءوا أمام الرب وذبح أبوه التقدمة كما فعل سنة بعد سنة للرب، ثم قربوا الصبي فذبح العجل وأتت أم الصبي وقالت.

ونجده في النسخة قمران هكذا: وجاءوا أمام الرب، وذبح أمامهم التقدمة ما فعل سنة بعد سنة للرب، ثم قربوا الصبي فذبحوا العجل وأتت حنة أم الصبي إلى عالي وقالت.

١٠- في سفر التثنية ٣٢/ ٤٣ نجد النص العبري هكذا: تهللوا أيها الأمم شعبه.

بينما نجده في الترجمة السبعينيَّة هكذا: تهللوا أيتها الأمم مع شعبه، وأنتم يا ملائكة الله اعبدوه.

ونجده في النسخة قمران هكذا: تهللي أيتها السموات معه، وأنتم أيها الآلهة اعبدوه[1].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الفرق والمذاهب اليهودية ص(٨٢، ٨٣).

الترجمات الحديثة

من أمثلة ذلك:

١- أجمعت ترجمات الكتاب المقدس العربيَّة والإنجليزية والفرنسيَّة الحديثة على ما جاء في سفر الخروج ٦/ ٢٠: وأخذ عمرام يوكابد عمته زوجة له، فولدت له هارون وموسى، انظر نسخة البروتستانت العربيَّة ١٩٨٣م.

ويختلف هذا مع ما جاء في ترجمة الكتاب المقدس العربيَّة لرجارد واطس طبعة لندن ١٨٣١ م، ووليم واطس طبعة لندن ١٨٦٦ م: فتزوج عمرام يوخابد ابنة عمه فولدت له هارون وموسى. انظر نسخة (رجارد واطس) العربيَّة طبعة لندن.

٢- أجمعت ترجمات الكتاب المقدس العربيَّة والإنجليزية والفرنسيَّة الحديثة على ما جاء في سفر الخروج ٣٢/ ٢٨: ففعل بنو لاوي بحسب قول موسى، ووقع من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل.

ويختلف هذا مع ما جاء في ترجمة الكتاب المقدس لرجارد واطس سنة ١٨٣١، ووليم واطس طبعة لندن سنة ١٨٦٦ م: فصنع بنو لاوي كما أمرهم موسى فقتلوا في ذلك اليوم من الشعب نحو ثلاثة وعشرين ألف رجل.

٣- جاء في ترجمات الكتاب المقدس للبروتستانت ١٩٧٠ م، ١٩٨٣، ورجارد واطس ١٨٣١م، ووليم واطس ١٨٦٦م، والملك جيمس المعتمدة، ولوي سيجو في سفر صموئيل الأول ٦/ ١٩: وضرب أهل بيتشمس؛ لأنهم نظروا إلى تابوت الرب، وضرب من الشعب خمسين ألف رجل وسبعين رجلًا فناح الشعب؛ لأن الرب ضرب الشعب ضربة عظيمة.

ويختلف هذا مع ما جاء في ترجمة الكتاب المقدس للآباء اليسوعيين سنة ١٩٨٦ م والرهبانيَّة اليسوعيَّة سنة ١٩٨٦م، وكتاب الحياة سنة ١٩٨٨ م، والقياسيَّة المراجعة، والفرنسيَّة المسكونيَّة فصار النص كالآتي: وضرب الرب أهل بيت شمس؛ لأنهم نظروا إلى تابوت الرب وقتل من الشعب سبعين رجلًا وكانوا خمسين ألف رجل فناح الشعب؛ لأن الرب ضرب الشعب هذه الضربة العظيمة.

٤- جاء في ترجمات الكتاب المقدس للبروتستانت ١٩٧٠م، ١٩٧٣م. والآباء اليسوعيين ١٩٨٦م والملك جيمس المعتمدة، والعربيَّة طبعة لندن ١٨٣١ م، ١٨٦٦، في سفر صموئيل الأول ١٣/ ١، والنص للأخيرة: فلما ملك شاول كان ابن سنة وملك سنتين على إسرائيل.

أما الترجمة القياسيَّة المراجعة، ولوي سيجو، والفرنسيَّة المسكونيَّة والرهبانيَّة اليسوعيَّة (كتب التاريخ ١٩٨٦) فقد تركوا مكان السن فارغًا، والنص للأخيرة: وكان شاول ابن. . . حين صار ملكًا وملك. . . سنة على إسرائيل.

ثم علقت في الهامش فقالت: في النص العبري: كان شاول ابن سنة حين صار ملكًا وملك

ستين على إسرائيل. وهذا أمر غير معقول، لربما لم يعرفوا عمر شاول عند ارتقائه العرش، أو لربما سقط العمر من النص، أو لربما قصرت مدة ملكه إلى ستين لعبرة لاهوتية.

أما أصحاب الكتاب المقدس (كتاب الحياة ١٩٨٨م) القاهرة: وكان شاول ابن -ثلاثين- سنة حين ملك وفي السنة الثانية من ملكه.

٥- طبع كتاب الرومان الكاثوليك في ريمز عام ١٥٨٢ م من اللاتينيَّة وأعيد طبعه في دووي عام ١٦٠٩ م وبهذا فهو أقدم كتاب مطبوع.

وبالرغم من قدمها فالبروتستانت يرفضون هذه النصوص؛ لأنها تحتوي على كتب مشكوك في صحتها، وعددها سبعة وهي: سفر طوبيا - وسفر أستير - ونبوءة باروك - وسفرا المكابيين الأول والثاني - وسفر الحكمة وحكمة يشوع بن سيراخ.

٦- طبع كتاب البروتستانت عام ١٦١١م بأمر الملك جيمس الأول وترجم إلى ألف وخمسمائة لغة من لغات العالم النامي.

ثم عُدّلت النصوص عام ١٨٨١م، فسميت النصوص المنقحة.

ثم نقحت أكثر وسميت (R.S.V.) عام ١٩٥٢م.

ثم أعيد تنقيحها عام ١٩٧١م.

تقول دار النشر (كولنز) في ملاحظتها عن الكتاب المقدس ص(١٠): إن هذا الكتاب المقدس هو ثمرة جهد اثنين وثلاثين عالمًا في علم اللاهوت، ساعدهم فيها هيئة استشارية تمثل خمسين طائفة دينية متعاونة.

وفي ص(٣) من مقدمة النسخة المنقحة يقول العلماء المراجعون للنسخة المنقحة: إن نسخة الملك جيمس قد أطلق عليها أنبل إنجاز في النثر الإنجليزي، فمراجعوها عام ١٨٨١م أعجبوا ببساطتها وسموّها وبقوتها ونغماتها المرحة وإيقاعها الموسيقي وتعبيراتها اللبقة فقد دخلت في تكوين خصائص المؤسسات الحكومية في الدول المتحدثة باللغة الإنجليزية ونحن مدينون لها كثيرًا، ولكن نصوص الملك جيمس بها عيوب خطيرة جدًا وإن هذه العيوب والأخطاء عديدة وخطيرة مما يستوجب التنقيح في الترجمة الإنجليزية.

وتعترف طائفة شهود يهوه في الصفحة الخامسة من مقدمة كتابهم: في أثناء نسخ المخطوطات الأصليَّة باليد تدخَّل عنصر الضعف الإنساني ولذلك فلا توجد من بين آلاف النسخ الموجودة اليوم باللغة الأصليَّة نسختان متطابقتان.

٧- جاء في سفر صموئيل الأول ١٥/ ٢ - ٣: هكذا يقول رب الجنود: إني قد افتقدت ما عمل عماليق بإسرائيل حين وقف له في الطريق عند صعوده من مصر، فالآن أذهب وأضرب عماليق وحرموا كل ماله ولا تعفُ عنهم بل اقتل رجلًا وامرأة، طفلًا ورضيعًا، بقرًا وغنمًا، جملًا وحمارًا.

وقد غيَّر مترجم الكتاب المقدس من الإنجليزية إلى العربيَّة كلمة (تذكرت) إلى (افتقدت) حيث يدل السياق على ذلك، وكلمة (افتقدت) للأشياء لا للذكريات وقد تذكر الرب ما فعله العماليق منذ ٤٠٠ سنة فاتخذ القرارات بالغة القسوة.

وكذلك غيَّر المترجم كلمة (خربوا) إلى (حرموا) وهذا تحريف بيِّنٌ في الترجمة والسياق؛ ففي التثنية ٢٠/١٦: يقول الرب لإسرائيل: وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبًا فلا تستبقِ منها نسمة ما.

وفي سفر يشوع ٦/٢١: وحرموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف.

وقد غيَّر المترجم في النص الأسبق كلمة (مالهم) إلى (ماله)، وكلمة (كل رجل وكل امرأة) إلى كلمة (رجلًا وامرأةً)؛ وذلك للتخفيف من وقع الكلمات على النفس.

أما مترجمو الكتاب المقدس في كتاب: الترجمة التفسيرية الحديثة لكتاب الحياة، المطبوع بالقاهرة، فلم يغيروا كلمة (حرقوا) إلى كلمة (حرموا)، بل أبقوها كما هي في الأصل الإنجليزي.

٨- في الترجمة العربيَّة لسفر إرميا ٢٠/٧: قد أقنعتني يا رب فاقتنعت وألححت علي فغلبت. صرت للضحك كل النهار كل واحد استهزأ بي.

ولكن في الترجمة الإنجليزية: لقد خدعتني يا رب. You have deceived me.

والفرق شاسع وواضح بين الإقناع والخداع[1].

النسخ الثلاث العبرانيَّة والسامريَّة واليونانيَّة

بعد رجوع اليهود من السبي البابلي في القرن الخامس قبل الميلاد ظهر للعهد القديم نسختان:

نسخة يؤمن بها غالب اليهود وهي النسخة العبرانيَّة، ونسخة يؤمن بها السامريون وهي النسخة السامريَّة.

وفي القرن الثالث قبل الميلاد قام سبعون من علماء اليهود بترجمة التوراة العبرانيَّة إلى اللغة اليونانيَّة، فأصبح للتوراة ثلاث نسخ: التوراة السامريَّة، والتوراة العبرانيَّة، والتوراة اليونانيَّة.

وبمضاهاة الثلاث نسخ بعضها مع بعض كُشف عن اختلافها في مواضع عديدة.

من أمثلة ذلك:

١- الاختلاف في عدد الأسفار: على النحو التالي:

- العهد القديم للسامريين: وهو يحتوي على أسفار موسى الخمسة، ويضاف إليها أحيانًا سفر

---

(١) انظر: هل الكتاب المقدس كلام الله ص(١٥- ١٧)، الكتاب المقدس في الميزان، عبد السلام محمد ص(١٢٠- ١٢٥)، الاختلافات في الكتاب المقدس.

يشوع، وهو المعتمد عند اليهود السامريين فقط، وهي غير التي بأيدي سائر اليهود.

- العهد القديم للعبرانيين: وهو يحتوي على تسعة وثلاثين سفرًا، وهو المعتمد عند اليهود وجمهور علماء البروتستانت، وكان إجماع النصارى إلى القرن الخامس عشر منعقد على أن النسخة العبريَّة محرفة حرفها اليهود سنة ١٣٠ م عمدًا لتشكيك النصارى في النسخة اليونانيَّة التي بأيديهم، حتى ظهرت فرقة البروتستانت في القرن السادس عشر الميلادي وعكست الأمر وقالت بصحة العبرانيَّة واعتمدتها.

- العهد القديم للنسخة اليونانيَّة: وهو يحتوي على تسعة وثلاثين سفرًا بالإضافة إلى الأسفار القانونية الثانية، وهو المعتمد عند نصارى الأرثوذكس والكاثوليك، وعند اليهود الهلينستيين الذين كانوا يتكلمون اللغة اليونانيَّة، رغم أن مخطوطة الترجمة الأولى مفقودة.

- ثم إن اليهود أعدموا نسخًا كتبت في المائة السابعة والثامنة؛ لأنها كانت تخالف مخالفة كثيرة النسخ التي كانت معتمدة عندهم[(١)].

٢- الزمان من خلق آدم إلى طوفان نوح عليه السلام على وفق النسخة العبرانيَّة ١٦٥٦ عامًا، وعلى وفق النسخة اليونانيَّة ٢٢٦٢ عامًا، وعلى وفق النسخة السامريَّة ١٣٠٧ أعوام.

٣- جاء في سفر التثنية ٢٧/ ٤ في النسخة العبرانيَّة: حين تعبرون الأردن تقيمون هذه الحجارة التي أنا أوصيكم بها اليوم في جبل عيبال، وفي النسخة السامريَّة: جبل جرزيم.

وعيبال وجرزيم جبلان متقابلان كما يفهم ذلك من سفر التثنية ١١/ ٢٩: وإذا جاء بك الرب إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لكي تمتلكها فاجعل البركة على جبل جرزيم واللعنة على جبل عيبال.

وفي النسخة اليونانيَّة: جبل عيبال هو جبل البركة، وبُنِيَ عليه مذبح للرب.

٤- جاء في سفر أخبار الأيام الثاني ١٣/ ٣- ١٧: وابتداء أبيا في الحرب بجيش من جبابرة القتال أربعمائة ألف رجل مختار ويربعام اصطف لمحاربته بثمانمائة ألف رجل ... فسقط قتلى من إسرائيل خمسمائة ألف رجل مختار.

ولما كانت هذه الأرقام مبالغًا فيها جدًّا ومخالفة للقياس غُيرت في أكثر النسخ اللاتينيَّة:

إلى: أربعين ألفًا، بدلًا من: أربعمائة ألفٍ، في الموضع الأول.

وإلى: ثمانين ألفًا، بدلًا من: ثمانمائة ألفٍ، في الموضع الثاني.

وإلى: خمسين ألفًا، بدلًا من: خمسمائة ألف، في الموضع الأخير[(٢)].

---

(١) انظر: إظهار الحق، رحمة الله الهندي (٢/ ٦٠٩)، العهد القديم ليس مقدسًا ص(٢٠- ٣٠)، الإسلام واليهودية دراسة مقارنة ص(٢٥، ٢٦)، الفرق والمذاهب اليهودية ص(٢٠، ٢١، ٤٤- ٤٧).

(٢) انظر: الكتاب المقدس في الميزان ص(١٠٨- ١١١)، الاختلافات في الكتاب المقدس.

٥- ذكروا في العهد القديم تاريخ مواليد بني آدم إلي نوح عليه السلام، ونصوا على عمر كل واحد منهم، وكذلك عمره حين ولد له أول مولود، وبعقد مقارنة بين ما ورد في النسخ الثلاث في أعمار من ذكروا حين ولد لهم أول مولود تتبين الاختلافات الآتية:

أسماء	عبرية	سامرية	يونانية
آدم	١٣٠	١٣٠	٢٣٠
شيث	١٠٥	١٠٥	٢٠٥
أنوش	٩٠	٩٠	١٩٠
قينان	٧٠	٧٠	١٧٠
مهللئيل	٦٥	٦٥	٦٥
يارد	١٦٢	٦٢	٢٦٢
أخنوخ	٦٥	٦٥	٦٥
متوشالح	١٨٧	٨٧	١٨٧
لامك	١٨٢	٥٣	١٨٨
نوح	٦٠٠	٦٠٠	٦٠٠
المجموع	١٦٥٦	١٣٢٧	٢٢٦٢

٦- الخلاف بين النسختين العبريَّة واليونانيَّة في زمان الوفاة من آدم وحتى إبراهيم، ويتضح ذلك من خلال الجدول الآتي:

أسماء	عبرية/ سنة الوفاة	يونانية/ سنة الوفاة
آدم	٩٣٠	٩٦٠
شيث	٩١٢	٩١٢
أنوشر	٩٠٥	٧٠٥
قينان	٩١٠	٩١٠
مهللئيل	٨٩٥	٨٥٠
يارد	٩٦٢	٩٦٢
أخنوخ	٣٦٥	٣٦٥
متوشالح	٩٦٩	٩٢٧
لامك	٧٧٧	٧٨٢

أسماء	عبرية/ سنة الوفاة	يونانية/ سنة الوفاة
نوح	٩٥٠	١٦٥٠
سام	٦٠٠	٦٠٠
أرفكشاد	٤٣٨	٤٣٨
قينان	...	٤٣٣
شالح	٤٣٣	٤٣٣
عابر	٤٦٤	٤٤٠
فالج	٢٣٩	٢٣٩
راعد	٢٣٩	٢٣٩
سروج	٢٣٠	٢٣٠
ناحور	١٤٨	٢٤٨
تارح	٢٠٥	٢٠٥
إبراهيم	١٧٥	١٧٥

٧- اختلاف المدة من الطوفان إلى ولادة إبراهيم عليه السلام.

ففي النسخة العبريَّة ٢٩٢ سنة، وفي السامريَّة ٩٤٢ سنة، وفي اليونانيَّة ١٠٧٢ سنة.

٨- اختلاف المدة من خلق آدم إلى ميلاد عيسى عليه السلام.

ففي النسخة العبريَّة ٤٠٠٤ سنة، وفي السامريَّة ٤٧٠٠ سنة، وفي اليونانيَّة ٥٨٧٢ سنة.

٩- الوصايا العشر.

في النسخة العبريَّة واليونانيَّة: عشر وصايا، وفي النسخة السامريَّة: أحد عشر.

١٠- أعداد بني إسرائيل وأولاده عند دخولهم مصر.

في النسخة السامريَّة: ٧٥، وفي النسخة اليونانيَّة: ٧٠ .

١١- في النسخة السامريَّة والترجمة اليونانيَّة في سفر الخروج ٦/ ٢٠: وأخذ عمرام يوكابد ابنة عمه زوجة له فولدت له هرون وموسى ومريم أختهما.

وفي النسخة العبريَّة: وأخذ عمرام يوكابد عمته زوجة له فولدت له هرون وموسى.

وأسقط: ومريم أختهما. وجاء لفظ: عمته، بدلًا من: ابنة عمه. وانظر: سفر العدد ١٢/ ١-١٥ .

١٢- مما زادت به النسخة السامريَّة وهو غير موجود في النسخة العبريَّة في سفر التكوين ١١/ ١١: كانت كل أيام سام ستمائة سنة ومات.

١٣- جاء في النسخة العبرانيَّة في سفر التكوين ٤/٨: وقال قابيل لهابيل أخيه، ولما صارا في الحقل قام قابيل.

ولم يذكر فيه مقال قابيل، وقد جاء النقص تامًّا في النسخة السامريَّة، وفيه: قال نخرج إلى الحقل.

١٤- زادت النسخة العبرانيَّة عن النسخة السامريَّة الآيات العشر الأُوَل في الإصحاح الثلاثين من سفر الخروج، وقد بدأ الإصحاح الثلاثون في النسخة السامريَّة بالفقرة ١١ .

١٥- زادت النسخة السامريَّة على النسخة العبرانيَّة ما وقع بين الفقرتين ١٠- ١١ من سفر العدد في الإصحاح ١٠، وفيه: قال الرب مخاطبًا موسى: إنكم جلستم في هذا الجبل كثيرًا، فارجعوا، وهلموا إلى جبل الأمورانيين وما يليه إلى العرباء، وإلى أماكن الطور والأسفل قبالة التيمن وإلى شط البحر أرض الكنعانيين ولبنان وإلى النهر الأكبر نهر الفرات، هو ذا أعطيتكم فادخلوا، ورثوا الأرض التي حلف الرب لآبائكم إبراهيم وإسحاق ويعقوب أنه سيعطيكم إياها، ولخلفكم من بعدكم.

١٦- زادت النسخة السامريَّة على النسخة العبرانيَّة ما وقع بين الفقرتين ٣- ٤، من سفر الخروج الإصحاح ١١، وفيه : وقال موسى لفرعون: الرب يقول: إسرائيل ابني، بل بكري، فقلت لك: أطلق ابني ليعبدني، وأنت أبيت أن تطلقه، ها أنا سأقتل ابنك بكرك. وفي العبرانيَّة مثله في ٩/١- ٣ .

١٧- الفقرات التالية من سفر صموئيل الأول: ١٧/١٨- ٣١، ٤١، ٥١- ٥٨، ١٨/١- ٥، ٩، ١٠، ١١، ١٧، ١٨ غير موجودة في الترجمة اليونانيَّة.

١٨- طبقًا للموسوعة البريطانية فإن النص السامري يختلف عن النص اليوناني في الأسفار الخمسة بما يزيد على أربعة آلاف اختلاف، ويختلف عن النص العبري القياسي بما يربو على ستة آلاف اختلاف[1].

المعيار السادس: الاكتشافات الأثريَّة

يدرس ناقدو العهد القديم الآثار والمدونات الآشورية والبابلية والمصريَّة ليحصلوا على المعلومات التي تلقي ضوءًا جديدًا على التاريخ وعلى عقائد العبرانيين القدامى، وعلى تطوُّر العقيدة اليهوديَّة.

---

(١) انظر: الفرق والمذاهب اليهودية ص(٤٦، ٤٧، ٥٠)، تحريف الكتاب المقدس، اليهودية عرض تاريخي ص(١١٣، ١١٤).

وتتفق هذه المدونات مع الرواية التوراتية أحيانًا، وأحيانًا تتناقض معها.

من أمثلة ذلك:

١- وقائع هجرة العبرانيين من مصر، كما وردت في سفر الخروج، تختلف في كثير من النواحي عن الشذرات المتناثرة التي وصلتنا عن هذا الخروج، إن لم تكن متناقضة معها.

٢- إن هربهم من الجوع كما تذكر التوراة أمر يتناقض تمامًا مع الصور المنقوشة على جدران المعابد المصريَّة لمحاولات التسرب وطرد الحرس لهم وبناء المصريين لحائط على الحدود لسد الطريق في وجوههم.

بالإضافة إلى أن الرعي والرحيل يناقض الأصول التي أوردتها التوراة عن (أور) والحضارة المكتشفة فيها.

٣- يذهب بعض الباحثين إلى أن اسم الإله يهوه جاء من عَمْد اليهود إلى أحد آلهة كنعان فصاغوه في الصورة التي كانوا هم عليها، وذلك لأنه من بين الآثار التي وجدت في كنعان (عام ١٩٣١م) قطع من الخزف من بقايا عصر البرنز (٣٠٠٠ ق.م) عليها اسم إله كنعاني يسمى ياه أو ياهو.

٤- يرى بعض الباحثين أن مزامير داوود منقولة حرفيا وبدون تصرف من أناشيد إخناتون أول فرعون اعتمد ديانة التوحيد في مصر.

٥- جاء في العهد القديم تحريم أخلاط النباتات، وأخلاط الحيوانات، والخلط بين الصوف والكتان.

ففي سفر اللاويين ١٩/١٩: فرائضي تحفظون لا تنز بهائمك جنسين، وحقلك لا تزرع صنفين، ولا يكن عليك ثوب مصنف من صنفين.

وفي سفر التثنية ٢٢/٩- ١١: لا تزرع حقلك صنفين؛ لئلا يتقدس الملأ الزرع الذي تزرع ومحصول الحقل، لا تحرث على ثور وحمار معًا، لا تلبس ثوبًا مختلطا صوفًا وكتانًا معًا.

وقد لاحظ العلماء أن ثمة تشابهًا بين هذا الحظر التوراتي، وبين بعض الشرائع المماثلة عند الحيثيين.

٦- جاء في سفر العدد ١٨/١٦: وفداؤه من ابن شهر تقبله حسب تقويمك فضة خمسة شواقل على شاقل القدس. هو عشرون جيرة.

وفي سفر الخروج ٣٠/١٢، ١٣: إذا أخذت كمية بني إسرائيل بحسب المعدودين منهم يعطون كل واحد فدية نفسه للرب عندما تعدهم لئلا يصير فيهم وبا عندما تعدهم، هذا ما يعطيه كل من اجتاز إلى المعدودين نصف الشاقل بشاقل القدس؛ الشاقل هو عشرون جيرة نصف الشاقل تقدمة للرب.

وفي سفر التكوين ٢٢/٢٤: وحدث عندما فرغت الجمال من الشرب أن الرجل -عبد لإبراهيم- أخذ خزامة ذهب وزنها نصف شاقل وسوارين على يديها وزنهما عشرة شواقل ذهب.

وشاقل القدس لم يكن مستخدمًا في مصر، أو في القفر، أو في أي مكان آخر في زمن إبراهيم وموسى؛ لأنه لم يكن قد قام ملك القدس بعد، ولم يكن قد جرى صك شاقل القدس.

٧- في سفر التكوين ٩/١١: لذلك دعي اسمها بابل؛ لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض.

إن بابل تسمت كذلك؛ لأن (باب) يعني باب كما في اللغة العربيَّة و(ال) في الآراميَّة: الله. و(إلى) في الآشورية: الله. و(إله) في العربيَّة: الله و(الوهو) في السريانيَّة: الله، والمعنى على كل هذه اللغات (باب الله) فمن أجل ذلك سميت بابل لا بسبب بلبلة الألسن[1].

(١) انظر: المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم ص(١٥٢- ١٥٤)، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

الفصل السابع
نظريَّة مصادر العهد القديم

اتفق نقاد العهد القديم على أن أسفار موسى الخمسة وسفر يشوع بن نون ترتد إلى مصادر أربعة أساسية متباينة في تواريخها ومختلفة في مضامينها، وأن هذه المصادر أو الأصول قد جُمعت ودُوِّنت من قِبل عدد من المحققين أو الكتبة تتابعوا قرنًا بعد قرن، وهذه المصادر هي:

١ . المصدر اليهوي.

مصدر (J) وهذا هو الحرف الأول من كلمة «Jahwist» نسبة إلى «جهوفاه».

ومن الواضح أن هذا المصدر يحمل اسم الإله يهوه، ويرجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد، ويُرجعه البعض الآخر إلى القرن العاشر.

وقد سُمِّي «مصدر يهوه»؛ لأنه يستخدم هذا الاسم للإشارة إلى الإله، وكان رواته من المملكة الجنوبية (مملكة يهوذا).

وتصوُّر الإله في هذا المصدر قَبَلي ضيق يتداخل فيه المقدَّس والزمني والمطلق والنسبي (فهو حلولي وثني)، والإله سلطته محدودة بمكان خاص باليهود، وهو يتعصب لليهود ويناصرهم على أعدائهم ويتجلى في تاريخهم، وهو ذو سمات بشرية عديدة.

فالإله لا يختلف كثيرًا عن مخلوقاته، فهو يغار منهم، ويخشى أن يصبح الإنسان عاقلًا أو قويًّا، وهو يصارع يعقوب ولكن يعقوب يهزمه.

كما أن قيمه الأخلاقية ليست سامية ولا عالمية، فإبراهيم يكذب على فرعون ليضمن بقاءه، ويجعل زوجته تدَّعي أنها أخته ليكون له خير بسببها.

ويعقوب يخدع إسحاق وعيسو، ويهودا يضاجع زوجة ابنه، . . . وهكذا.

وقصص هذا المصدر متأثرة بالأدب الشعبي والقصص الديني للشعوب التي عاش العبرانيون بينها، سواء في الفكرة أو الحبكة القصصية.

ويؤكد هذا المصدر أهمية سبط يهودا، ويرى أن عصر داود هو العصر الذهبي الذي تحقَّق فيه الثالوث الحلولي، إذ ارتبط الإله بالشعب بالأرض في رباط حلولي عضوي.

وهذا المصدر هو الذي يشير إلى أرض كنعان باعتبارها أرض بني إسرائيل.

٢- المصدر الإلوهيمي.

مصدر (E) نسبة إلى «إلوهيم Elohim».

ويحمل هذا المصدر اسم «إلوهيم» باعتباره اسم الإله، ويتحاشى اسم «يهوه»، وقد أُلِّف في

القرن الثامن قبل الميلاد، حوالي سنة ٧٧٠ ق.م في المملكة الشماليَّة (مملكة إسرائيل).

وهذا المصدر يتسم بالرؤية التوحيدية أو شبه التوحيدية للإله، فهو يصوِّر الإله في صورة أسمى مما يفعل المصدر اليهوي، فهو الإله الذي يقول «كن فيكون» ويتسامى عن صفات وعواطف البشر.

وهو إله شامل قد تكون له علاقة خاصة بشعبه، ولكنها علاقة لا تنتقص من عالميته، كما أن ثمة شعورًا دينيًّا عميقًا بطاعة الإله والولاء له.

ويُلاحَظ على هذا المصدر تأكيد البُعد الأخلاقي بكل وضوح على حساب الجانب الشعائري.

كما تسيطر عليه رؤية الأنبياء إذ هناك أحكام مشابهة لأحكام الأنبياء.

وهو ينفرد بنسبة النبوة إلى إبراهيم ويوسف وموسى، ولذلك فإن كثيرًا من النقاد يعتبرون المصدر الإلوهيمي الإطار النظري لحركة النبوة.

والواقع أن المصدر الإلوهيمي يفتح الباب واسعًا أمام بني إسرائيل لإعلان توبتهم وندمهم على ما اقترفوه من أخطاء، وعن طريق التوبة والندم يحدث العفو الإلهي.

والمصدر الإلوهيمي ينظر إلى المصريين نظرة أكثر تسامحًا.

ويُعنى هذا المصدر بسرد التاريخ الديني لبني إسرائيل، كما أنه يعكس بيئة المملكة الشماليَّة.

وقد استقى المصدر قصصه من قبيلة أفرايم.

٣- مصدر التثنية.

مصدر (D) نسبة إلى «ديتيرونومي Deuteronomy» أو تثنية الشريعة.

وقد أُدخل هذا المصدر في صميم العهد القديم في القرن السابع قبل الميلاد في عام ٦٢١ق.م.

ويحاول المصدر التوفيق بين المصدرين الإلوهيمي واليهوي، وبين تراث الشمال وتراث الجنوب.

وكذلك بين الفكر النبوي والفكر الكهنوتي المتعارضين، فالأول يركز على الجوانب الروحية، والثاني يركز على العبادة القربانية، ولذا فإن هذا المصدر يحتفظ بالاتجاه القومي العنصري (اليهوي) والاتجاه العالمي المثالي (الإلوهيمي).

كما أن هذا المصدر صادر عن وسط مثقف مرتبط بالإصلاح الديني (التثنوي) الذي حدث عام ٦٢٢ ق.م، حين أرسل الملك يوشيا (٦٤١ ـ ٦١١ ق.م)، أي بعد وفاة موسى بما يقرب من سبعمائة عام، أحد أتباعه إلى الكاهن الأعظم، ليحسب النقود التي دفعها زوار الهيكل، فوجد توراة موسى في بيت الإله وندموا على أنهم كانوا قد نسوها.

ويبدو أن كاتب هذا السفر هو أحد الكهنة.

والواقع أن النص كان يمثل رد فعل للغزو الثقافي الآشوري الذي اكتسح العبرانيين آنذاك فانصرفوا عن عبادة يهوه، ولذا كان لا بد للكهنة والأنبياء أن يوحدوا صفوفهم، وهو ما ينجزه هذا المصدر الذي يشبه أسلوبه أسلوب إرميا الذي عاش في ذلك الوقت.

كما أنه يصر على أن التضحية ليهوه لا بد أن تتم في مكان واحد يختاره هو، أي الهيكل، وهو الأمر الذي يتفق مع إصلاحات يوشيا ومع أهداف الكهنة، كما يتفق مع محاولة تقوية الدولة من خلال العبادة القربانية المركزية.

٤- المصدر الكهنوتي (حواشي الكهنة).

مصدر (P) من كلمة «بريستلي Priestly»، أي الكهنوتي ويعود تاريخه إلى ما بعد فترة التهجير البابلي، في القرن الخامس قبل الميلاد.

ويضم أساسًا قوانين اللاويين والإحصاءات والأرقام التي وردت في أسفار موسى الخمسة، كما يضم بعض الروايات التي وردت في سفر التكوين والخروج والعَدد.

ويستخدم هذا المصدر القصص إطارًا للشرائع، بهدف إعطاء القوانين والشرائع صفة القدسية.

والإله في هذا المصدر هو خالق كل شيء، كائن وحاضر في كل آن ومكان، وفي كل شيء.

ومؤلفو هذا المصدر يتمتعون بثقافة عالية، ولذا فهو يتسم بالصياغات المنطقية.

كما أن أسلوبهم دقيق وغطي وجاف، ويظهر فيه التمييز بين الكهنة واللاويين، ويرد فيه أول ذكر للأعياد ووصف تفصيلي لخيمة الاجتماع.

٥- وقد امتزج المصدران، اليهوي والإلوهيمي، حوالي عام ٦٥٠ ق.م، ولذا يشار أحيانًا إلى المصدر (JE) الواحد، أي المصدر اليهوي الإلوهيمي.

٦- كما توجد مصادر سابقة أخرى، مثل مصدر (H) نسبة إلى «هولينيس Holiness» ويُطلَق عليه «مصدر القداسة».

ويُنسَب إلى مجموعة من الكتاب أثناء السبي البابلي، وقد حاولوا أن يعطوا طابعًا شخصيًا للإيمان الديني يَبعُد عن الشعائر البرانية الجافة، وقد تبنوا مجموعة من المبادئ الأخلاقية العالية.

٧- وأخيرًا، فإن هناك مصدر (K) من «كينايت Kenite»، أي «المصدر القيني»، ويُقال: إنه أقدم المصادر على الإطلاق، ولكن أجزاءً كثيرةً منه فُقدت.

وقد استفاد منه كتَّاب المصدرين اليهوي والإلوهيمي وحذفا منه الكثير.

وثمة مصادر أخرى للتوراة غير هذه المصادر الأربعة الأساسية، ولكنها تقل عنها كثيرًا في الأهمية وفي وجودها داخل النص.

وقد اتجه بعض النقاد إلى ضم هذه المصادر.

بل مال بعضهم إلى تقسيم المصدر الواحد إلى عدة مصادر داخلية والتمييز بينها بإعطاء رقم

معيَّن كأن نقول مثلًا: يهوي١، يهوي٢، يهوي٣ أو إلوهيمي٢، إلوهيمي٣، وهكذا.

وذلك عندما اكتشف لودز ثلاثة مصادر لليهوي، وأربعة مصادر للإلوهيمي، وستة مصادر للتثنية، وتسعة مصادر للكهنوتي.

٨- وهناك مصدر مهم لم يتمكن النقاد من ضمه بسهولة إلى مادة المصادر الأربعة الرئيسية.

ولهذا، فقد اتجه بعض النقاد، مثل إيسفلت، إلى إعطائه علامة تميِّزه عن غيره.

ووقع اختيار إيسفلت على الرمز (L) للدلالة على مادة هذا المصدر.

وهذا الرمز اختصار لكلمة «لاي Lay» التي نترجمها هنا إلى كلمة «العامي» أو «غير الكهنوتي»، وقد اعتبر إيسفلت هذا المصدر أقدم المصادر على الإطلاق؛ لاحتوائه على عناصر تبدو أصلية وبدائية في آن واحد.

منها، مثلًا، نظرته إلى الإنسان القديم بوصفه بدويًّا، وإلى البشرية آنذاك باعتبارها جماعةً من البدو، وإلى جماعة إسرائيل باعتبارها جماعةً بدويةً، وهي صورة لا نجدها في بقية المصادر.

كما أن تصوير هذا المصدر للإلوهية تصوير تجسيدي تشبيهي.

ويجب ألا تُفسَّر كلمة «مصدر» بأنها نص كتبه مؤلف واحد، فقد يكون نصًّا كتبته مجموعة من المؤلفين في فترة زمنية واحدة.

وقد تداخلت المصادر كالطبقات الجيولوجية دون أي تمازج، وهو ما يفسر وجود التناقضات المختلفة، وخصوصًا في مفاهيم محورية مثل مفهوم الخالق، إذ تتفاوت بين الحلوليَّة ذات النزعة الأخلاقية القومية والتوحيدية ذات النزعة الأخلاقية العالمية.

ويتضح تعدُّد المصادر وعدم تمازجها بصورة كبيرة في أسفار موسى الخمسة، ثم يطَّرد التناقض في أسفار القضاة والملوك والأيام.

ونجد أن أسفار الأنبياء عادةً ما تضم خطبهم ونبوءاتهم وتتسم بكثير من الاتساق ما عدا سفري أشعياء وزكريا.

أما كتب الحكم والأمثال، فمصادرها متنوعة وكثيرة ومتناقضة.

وتعبير «تكستوال ويتنسيز textual witnesses» يشير إلى تلك البقايا (الترسبات) التي وردت من عصور مختلفة لتدلنا على فترة (أو فترات) زمنية لم يكن كل مصدر فيها قد تبلور بعده.

وتُعَدُّ لفيفة المعبد (مجيلات هامقدش) من تلك الشواهد.

كما أن مخطوطات قمران والترجمة السبعينيَّة تُعَدُّ هي الأخرى دليلًا على أن هناك حالة من الاضطراب في وضع المصادر سادت بين المحررين للتوصل إلى قدر من المواءمة بين النصوص (بالإنجليزية: هارمونيست تكست harmonist text، أي «نص متوائم»).

وهذه المصادر هي النص في حالة سديمية.

فمخطوطات قمران هي النص في الحالة الجنينية، ومرحلة النص الماسوري هي المرحلة الناضجة[1].

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، اليهودية عرض تاريخي ص(٧٨- ٨٢)، حقائق حول الكتاب المقدس.

الفصل الثامن

تاريخ تدوين أسفار العهد القديم

تتضارب الآراء المتصلة بتاريخ تدوين الأسفار.

وأولى المشاكل: هي الإشارات العابرة في العهد القديم إلى نصوص وأسفار ضائعة أو لم تُدوَّن، مثل:

سفر حروب الرب، والإشارة إليه في سفر العدد ٢١/ ١٤

وسفر ياشر، والإشارة إليه في سفر يشوع ١٠/ ١٣

وسفر رؤى يعدو الرائي، والإشارة إليه في سفر أخبار الأيام الثاني ٩/ ٢٩ .

وسفر أخبار جاد الرائي، والإشارة إليه في سفر أخبار الأيام الأول ٢٩/ ٣١ .

وسفر أمور سليمان، والإشارة إليه في سفر الملوك الأول ١١/ ٤١ .

وسفر كلام ناثان النبي، والإشارة إليه في سفر أخبار الأيام الثاني ٩/ ٢٩

سفر أخيا النبي الشيلوني، والإشارة إليه في سفر أخبار الأيام الثاني ٩/ ٢٩

كتاب العهد لموسى عليه السلام، والإشارة إليه في سفر الخروج ٢٤/ ٧

وسفر أخبار شمعيا، وسفر أخبار الأيام لملوك يهودا، وسفر ملوك جماعة إسرائيل، وغيرها.

وتدل أسماء الأسفار السابقة على أن ملوك العبرانيين كانوا يدونون أخبارهم على عادة ملوك الشرق الأدنى القديم، وأن كتب الأخبار وكتب الملوك الحالية هي كل ما تبقى.

والمشكلة الثانية: هي أن نصوص العهد القديم تم تَناقُلها شفاهةً.

ولذا، فإن معظم المؤرخين يرجحون تعرُّضها إلى ما تتعرض له عادةً كل الأقوال المنقولة مشافهة، وبالتالي دخلتها التناقضات وتداخلت النصوص والمصادر.

وجاء في دائرة المعارف الأمريكيَّة [ENCYLOPAEDIA AMERICANA] طبعة ١٩٥٩، الجزء الثالث: لم يصلنا أي نسخة بخط المؤلف الأصلي لكتب العهد القديم، أما النصوص التي بين أيدينا، فقد نقلتها إلينا أجيال عديدة من الكتبة والنساخ، ولدينا شواهد وفيرة تبين أن الكتبة قد غيروا بقصد أو دون قصد منهم في الوثائق والأسفار، التي كان عملهم الرئيسي هو كتابتها ونقلها، وقد حدث التغيير دون قصد حين أخطئوا في قراءة بعض الكلمات... كذلك حين كانوا ينسخون الكلمة أو السطر مرتين، وأحيانًا ينسون كتابة كلمات بل فقرات بأكملها، وأما تغييرهم في النص الأصلي عن قصد فقد مارسوه مع فقرات كاملة حين كانوا يتصورون أنها كتبت خطأً في الصورة التي بين أيديهم، كما كانوا يحذفون بعض الكلمات أو الفقرات، أو يضيفون على النص الأصلي

فقرات توضيحية . . .، ولا يوجد سبب يدعو للافتراض بأن أسفار العهد القديم لم تتعرض للأنواع العادية من الفساد في عملية النسخ، على الأقل في الفترة التي سبقت اعتبارها أسفارًا مقدسة.

ويقرر سبينوزا -بعد التحقيق في أسفار العهد القديم، والتحقق من قدسيتها- إننا: نجهل تمامًا مؤلفي كثير من هذه الأسفار، أو نجهل الأشخاص الذين كتبوها أو نشك فيهم.

كما إننا: لا ندري في أية مناسبة وفي أي زمان كتبت هذه الأسفار التي نجهل مؤلفيها الحقيقيين، ولا نعلم في أي أيدي وقعت، وممن جاءت المخطوطات الأصليَّة التي وجد لها عدد من النسخ المتباينة، ولا نعلم أخيرًا، إذا كانت هناك نسخ كثيرة أخرى في مخطوطات من مصدر آخر.

إضافة إلى ذلك، فنحن: لا نملك هذه الأسفار في لغتها الأصليَّة؛ أي في لغة كتابها.

والمشكلة الثالثة:

إن كثيرًا ما تتناقض وقائع هذا التاريخ -التاريخ التوراتي- ووقائع التاريخ الدنيوي وإن كانت تتفق معها أحيانًا.

ولكن كثيرًا من القصص التي وردت في العهد القديم، والتي تدَّعي لنفسها صفة التاريخية، لا يمكن إثباتها بالعودة إلى التاريخ الدنيوي.

ومن هنا، فقد قام علم نقد العهد القديم بتطوير نظرية المصادر وتفسير التناقضات وعدم التجانس الأسلوبي، كما تقدم بيان ذلك.

وسوف نعرض لذلك أيضًا من خلال الحديث عن أسفار العهد القديم[1].

الأسفار الخمسة

١- جمهور النصارى وجُل الباحثين المعاصرين يرون أن التوراة فقدت من بني إسرائيل خاصةً عند مهاجمة الملك البابلي بختنصر بيت المقدس وتدميره له، وأن الموجود الآن بين أيديهم إنما كتبه عزرا الذي كان في زمن السبي البابلي.

ويقول النصارى ومن وافقهم من اليهود والباحثين: إن الله أو الروح القدس ألهمه التوراة، إلا أن هذه الدعوى لا يوجد ما يدل عليها في سفر عزرا ولا في سفر نحميا اللذين حكيا جمع عزرا للتوَراة، وإنما ورد في سفر عزرا ما يدل على أن عزرا قد اجتهد في جمع التوراة وتعليمها، فقد قالوا في سفر عزرا ٧/ ١٠: لأن عزرا هيأ قلبه لطلب شريعة الرب والعمل بها وليعلِّم إسرائيل فريضة وقضاء.

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، رسالة في اللاهوت والسياسة ص(٢٥٥، ٢٥٦).

وليس في هذا دلالة على أن الله أوحى إليه التوراة كما يزعم اليهود والنصارى، ولو كان الله أوحى إليه التوراة لذكر ذلك؛ لأنه مفخرة عظيمة له، وفيه تأييد له وبرهان على صحة ما كتب، فلما لم يذكر ذلك دل على أن الله لم يوح إليه شيء.

وأظهر ما يكون في الأسفار الخمسة التي يزعمون أنها التوراة أنها بشكلها العام من وضع عزرا، وقد يكون عزرا استفاد من أصولٍ أقدم كانت بين يديه لا يعلم على التحقيق أصولها ولا كُتَّابها ولا تواريخها، مما يعطي عمل عزرا قيمةً أدبيةً ونوعًا ما تاريخية، لكنه لا يمكن بحالٍ أن يرتقي إلى درجة الكتب المقدَّسة الموحى بها من الله المعصومة عن الخطأ والزلل.

٢- ويرى التقدميون بأنه لا يمكن أن يكون موسى كاتب الأسفار الخمسة ومنها سفر التكوين، ومنهم جان ستروك إيكهورن والكاهن «الكسندر جديس»، و«فيلهوزن»، و«يوديه» و«أدتويشفيلد»، والعالم اللاهوتي «جيرهارد فون راد»، وغيرهم كثير، يعتقدون أن الأسفار الخمسة كتبت بواسطة كاتب غير معروف استعان على كتابته لها بمصادر العديدة.

ثم ذكروا أن أولئك العلماء وغيرهم اكتشفوا ما يسمى نظرية المصادر وهي أن جامع الأسفار الخمسة استعان على كتابته وجمعه لها بمصادر عديدة، وفَّق بينها، وأخرج من مجموعها النص الموجود، وتقدم الكلام عن نظرية المصادر.

والمقصود بذلك أن جامع الأسفار الخمسة الموجودة الآن جمعها من مصادر عدة كُتبت قبله، فأخذ من هذا المصدر شيئًا وأخذ ما بعده من مصدرٍ آخر، وكمَّل بعضها من بعض، وقد يكون قد تصرف في ألفاظها حتى يوجد بينها الترابط المناسب، وأخرج من مجموع ذلك ما يسمى بالأسفار الخمسة أو التوراة.

إلا إن هذا العمل بما فيه من أخطاء موجودة في المصادر، وأخطاء أخرى وقع فيها الجامع والناسخ، تبين أن تلك الكتب لا يمكن أن تكون وحيًا من الله تعالى، وأنها تضمنت وضع وتصرفات البشر[1].

فمجموعةً كبيرةً من اليهود والنصارى نقدوا العهد القديم بما يفيد أن كاتبه ليس هو موسى u، وليس واحدًا من الأنبياء الذين نُسبت إليهم تلك الكتب، بل هم مجهولون، بل إن كُتَّابها عاشوا في فترة زمنية متأخرة جدًّا عن زمن وتأريخ وقوع الأحداث التي تحكيها تلك الكتب بعضها يقارب الثلاثمائة سنة وأكثر.

وبها نعلم عدم دقة وانضباط القول الذي يشيعه المحافظون من اليهود والنصارى من أن كاتب التوراة هو موسى u وأن كُتَّاب الكتب الأخرى هم الأشخاص الذين نسبت إليهم.

٣- ومن الأمور المعترف بها عند اليهود و النصارى هي ضياع المخطوطات الأصليَّة التي

---

(١) انظر: القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، موريس بوكاي، ص(٩).

صدرت عن يد المؤلف الأصلي فلا توجد نسخة واحدة الآن مكتوبة بالنص الأصلي، والنسخ الموجودة الآن رغم كثرتها ما هي إلا ترجمات أخذت عن ترجمات.

يقول الأستاذ: جاك كاترول في كتابه سلطان الكتاب المقدس ص(٣٩): يحسن بنا أن نقول: إن المخطوطات الأصليَّة غير متواجدة، وأن هذه الترجمات ليست واحدة وليست منضبطة تمامًا، بل فيها زيادة ونقصان.

سفر التكوين

يحكي تاريخ العالم من بدء تكوين السموات والأرض، وقصة آدم وحواء، ونوح والطوفان وأولاده سام وحام ويافث، ونسل سام إبراهيم وإسحاق ويعقوب، والعهد بين الخالق وشعبه.

وينتهي هذا السفر بقصة يوسف ومجيئه إلى مصر ولحاق يعقوب وأبنائه الأحد عشر به واستقرارهم في أرض الفراعنة.

وتعكس الأجزاء الأولى التقاليد الحضارية لبلاد الرافدين بعد أن دخلت عليها العناصر التوحيدية.

ويرى علماء الكتاب المقدَّس أن سفر التكوين ليس متجانسًا وإنما قام بوضعه كُتَّاب مختلفون، في حين يرى البعض الآخر أنه عمل متكامل يستند إلى فلسفة متسقة مع نفسها، وأن تكرار بعض الأجزاء ليس إلا من قبيل الصيغة الأدبية، وأنه وُضع في القرن التاسع قبل الميلاد، أي بعد موسى بنحو خمسة أو ستة قرون.

سفر الخروج

ويعرض تاريخ بني إسرائيل في مصر. كما يأتي فيه ذكر قصة موسى وذهابه إلى سيناء، والوحي الإلهي الذي جاء فيه، والعهد بين الإله وبني إسرائيل، وعودة موسى إلى مصر ليساعد اليهود على الخروج من أرض العبودية، ثم تلقِّي موسى الوصايا العشر في سيناء، وقيادته بني إسرائيل حتى حدود أرض كنعان.

كما يشتمل السفر على طائفة من أحكام الشريعة اليهوديَّة في العبادات والمعاملات، وما إلى ذلك مما يشبه قوانين حمورابي، وترد فيه أيضًا قصة عبادة العجل الذهبي وما تبع ذلك من محاولات تطهير الدين.

ويرى علماء الكتاب المقدَّس أن ثمة مصادر عديدة لهذا السفر، وأنه وُضع نحو القرن التاسع قبل الميلاد، أي بعد موسى بنحو خمسة أو ستة قرون.

سفر اللاويين

يتوقف السرد القصصي في هذا السفر ليحل محله تناول شئون العبادات، وخصوصًا ما يتعلق

بالأعياد والأضحية والقرابين والمحرمات من الحيوانات والطيور وما يتعلق بالطهارة، وكذلك التعاليم الأخلاقية والنظم الاجتماعيَّة التي لم ترد في سفر الخروج، والتعليمات الخاصة بخيمة الاجتماع.

واللاويون هم سدنة الهيكل والمشرفون على شئون الذبح والأضحية والقرابين.

وثمة وحدة في الموضوع بين هذا السفر والجزء الأخير من سفر الخروج وجزء كبير من سفر العدد.

ويرى بعض علماء الكتاب المقدَّس أن هذا السفر تجميع لوصايا متفرقة كُتبت على حدة في بداية الأمر، كما أن بعضهم يرى أن السفر كله لم يُكتب إلا بعد التهجير البابلي في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد.

سفر العدد

يشتمل في معظمه على إحصاءات عن قبائل العبرانيين وجيوشهم وأموالهم وكثير مما يمكن إحصاؤه من شئونهم كما يشتمل على أحكام تتعلق بطائفة من العبادات والمعاملات.

ويأتي في هذا السفر ذكر تذمُّر بني إسرائيل من متابعة السير على خطوات موسى، وهو ما أثار غضبه عليهم.

وقد دُوِّن هذا السفر بعد التهجير البابلي في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد.

سفر التثنية

وهو يتكون من:

١- المقدمة، وتحوي مراجعة موسى لما حدث منذ عبور سيناء.

٢- نصائح موسى الأخلاقية (ومنها إعادة الوصايا العشر)، وتتضمن تلخيصًا للتشريع الذي قبلته جماعة إسرائيل.

٣- خطب موسى الأخيرة.

٤- أفعال موسى الأخيرة وأغنية الوداع، ومعها سرد لأحداث موته.

ومن النقد الموجه إلى هذا السفر:

١- يختلف هذا السفر من حيث الأسلوب واللغة عن الأسفار السابقة، بل يناقضها أحيانًا.

٢- يرى بعض العلماء أن بعض القوانين التي أتت في سفر التثنية، إنما هي من وضع مجموعة من المؤلفين قاموا بكتابة بعض الأجزاء الأخرى في أسفار موسى الخمسة.

٣- يختلف العلماء في تحديد تاريخ هذا السفر، فيرى بعضهم أنه وُضع أثناء عصر القضاة، ويرى البعض الآخر أنه وُضع في وقت لاحق في أواخر القرن السابع قبل الميلاد.

٤- برهن العالم الألماني (دي فيتيه) من بداية القرن التاسع عشر بالدليل القاطع أن كتاب التثنية ما كان بوسعه أن يظهر في زمن موسى، أي في القرن الخامس عشر ق. م؛ فالقوانين والأحكام المدونة في الكتاب تعني شعبًا يعيش حياة حضرية مرتبة ويشتغل بالزراعة، كما يملك مدنًا كبيرة ونظامًا سياسيًّا جيد التطور، وكل هذه الأشياء لم تكن موجودة زمن موسى إذ كان في الصحراء وجماعته جماعة منقطعة عن كل شكل زراعي أو حضري.

سفر يشوع

القراءة المتأنية لهذا السفر تكشف عن تأخر تاريخ كتابته عن يشوع بسنين طويلة.

١- فقد جاء فيه خبر موت يشوع؛ ففي ٢٩/ ٢٤- ٣٠: مات يشوع بن نون عبد الرب ابن مائة وعشر سنين فدفنوه في تخم ملكه.

٢- ويذكر السفر أحداثًا بعد موته كتعظيم بني إسرائيل له بعد موته. انظر: يشوع ٣١:٢٤ .

٣- والسفر برمته يتحدث عن يشوع بضمير الغائب. انظر: ٨:٣٥، ٦:٢٧ .

سفر القضاة

يتحدث السفر عن الفترة التي تلت يشوع والتي سبقت الملكية، وهي فترة مبكرة من تاريخ بني إسرائيل.

١- ولكن السفر يحوي ما يدل على أنه كتب في عهد الملوك فقد جاء في ٢٥/ ٢١: في تلك الأيام لم يكن ملك في إسرائيل، وفي ٦/١٧: وفي تلك الأيام لم يكن ملك في إسرائيل.

٢- ويقول الأب لوفيفر: إن سفر القضاة أعيدت كتابته وعدلت مرات كثيرة قبل أن يصل إلى صيغته النهائية، وأن أحداثه التاريخية تعوزها الدقة.

٣- ويعترف النصارى بأنه لا يعلم كاتب السفر وعلى الأرجح أنه صموئيل.

سفرا صموئيل الأول والثاني

١- ينسب السفران للنبي صموئيل لكن السفر الأول يذكر وفاة صموئيل ودفنه ففي ٢٥/ ١: فمات صموئيل فاجتمع إسرائيل، وندبوه، ودفنوه.

فمن الذي أكمل السفر وكتب الثاني؟

٢- ويقول منقحو الكتاب المقدس الذي راجعه القسيس فانت السكرتير العام لجمعيَّة الكتاب المقدس بنيويورك: بأن مؤلف السفرين «مجهول، ويحتمل أن يكون عزرا هو الذي كتبه وراجعه».

سفر ايوب

١- أيوب: اسم سفر يعالج مسألة عذاب الأبرار، وتدور أحداثه حول رهان بين الإله وبين

الشيطان الذي سُمح له بأن يختبر إيمان أيوب.

٢- وابتلي أيوب، ففقد ممتلكاته وحُرم من أسرته وأصيب في جسده.

٣- وتلت المقدمة حوارات شعرية بين أيوب وثلاثة أصدقاء جاءوا لمواساته.

٤- ويضم السفر إشارات عديدة يُفهم منها إنكار البعث والحياة في الآخرة، وأن الثواب والعقاب يقتصران على الحياة الدنيا.

٥- ومع هذا، يظهر الإله لأيوب في العاصفة ويوجه إليه اللوم على الاعتراض على حكمه، فعقل الإنسان قاصر عن إدراك حكمة الإله؛ ولذا لا يحق له أن يعترض على حكمه، فيتوب أيوب وينيب ويعود إلى نجاح فاق نجاحه الأول.

٦- ولا توجد أية إشارة إلى يهوه في الحوار الشعري الذي يدور في السفر، ولا إلى تاريخ جماعة إسرائيل، ولا إلى أيٍّ من شرائعهم؛ إذ إن تناول القوانين الأخلاقية يتم بشكل إنساني عام.

٧- كما أن السفر خالٍ من الزخارف اللفظية، من الصور التي تسم الأسفار ذات الأصل العبراني.

٨- وقد جاء في وسط السفر ما يدل على أن ثمة كاتبًا آخر غير أيوب قد تدخل في السفر ففي نهاية الإصحاح ٣١: تمت أقوال أيوب.

لكن لم ينته السفر حينذاك بل استمر بعده أحد عشر إصحاحًا تحدثت عن أيوب.

وفي نهاية السفر في ٤٢/١٦ - ١٧: وعاش أيوب بعد هذا مائة وأربعين سنة ورأى بنيه، وبني بنيه إلى أربعة أجيال، ثم مات أيوب شيخًا وشبعان الأيام.

كل ما سبق حدا ببعض الباحثين إلى القول بأن الكتاب من أصل أدومي أو تقليد لنص أدومي.

ولم يُحدَّد، على وجه الدقة تاريخ كتابة السفر؛ فالبيئة والظروف التي يتحدث عنها تشبه البيئة والظروف التي عاش فيها الآباء الأولون.

ولذلك يُحتمَل أنه يرجع إلى الألف الثاني قبل الميلاد، وإن كانت هناك آراء تذهب إلى أنه وُضع في تاريخ متأخر من القرن الرابع قبل الميلاد، وربما بعد ذلك.

وكان الكاهن الأعظم يتلو سفر أيوب في يوم الغفران. ولا يزال السفارد يقرءونه في التاسع من آب.

سفر المزامير

سُمِّي «سفر المزامير» بهذا الاسم؛ لأنه يحوي مجموعة من الأغاني تُنْشَد بمصاحبة المزامير.

وتُقسَّم المزامير إلى خمس مجموعات (١)، (٤٢)، (٧٨)، (٩٠)، (١٠٧)، وتُختَم كل مجموعة بتسبيحة شكر.

وعدد المزامير مائة وخمسون مزمورًا تنسب إلى مؤلفين مختلفين؛ إذ ينسب لداود ثلاثة وسبعون مزمورًا، ولموسى مزمور واحد، ولأساف أحد عشر مزمورًا، ولبني قورح أحد عشر مزمورًا، ومزموران لسليمان، وآخر لايثان، وتسمى الباقية بالمزامير اليتيمة التي لا يعرف مَن قائلها.

ويتناول هذا السفر موضوعات كثيرة، كالترانيم والأدعية والتسابيح، والتعبير عن ثقة وإيمان المؤمنين بإله الكون، وأغانٍ تعبِّر عن الحزن والفرح، وأناشيد تُغنَّى في مناسبات مثل: يوم الزفاف الملكي، واعتلاء العرش، وفي الأعياد، وأغاني الأفراح والحروب.

وكان بعضُ المزامير يُغنَّى بشكل جماعي، والبعض الآخر يُغنَّى بشكل فردي.

١- ويشبه كثير من المزامير القصائد الأوجاريتية، كما يظهر في المزمور رقم ١٠٤ أثر قصيدة أخناتون التي يخاطب فيها معبوده الشمس، وتوجد أيضًا تأثيرات بابلية.

ولا يُعرَف على وجه الدقة متى أصبح إنشاد المزامير جزءًا من الصلوات في المعبد اليهودي، وإن كانت أغلبية الباحثين تميل إلى القول بأن ذلك تم بعد التهجير البابلي.

وقد أصبح كثير من المزامير جُزءًا من الصلوات اليهوديَّة والمسيحيَّة، نظرًا لجمال بعضها وبساطته.

ولكن البعض الآخر يتسم بالنزعة القومية العنصرية (بل العسكرية أيضًا).

وقد خُصِّصت بعض المزامير لمناسبات معيَّنة ولأيام محدَّدة.

وفي التراث القبَّالي، يُنظَر إلى المزامير باعتبارها «أسلحة» في يد المؤمن يبيد بها أعداءه.

٢- ومن ناحية أخرى، فإن إصحاحات السفر مرتبة في النص العبري بطريقة تختلف في هذا السفر عنها في الترجمة السبعينيَّة.

٣- والمتأمل في المزامير يدرك بوضوح كبير أن المزامير تعود للقرن السادس قبل الميلاد وتحديدًا إلى أيام السبي البابلي، وذلك يظهر من أمثلة متعددة منها في ٧٩/ ١- ٢: اللهم إن الأمم قد دخلوا ميراثك، ونجسوا هيكل قدسك، وجعلوا أورشليم أكوامًا، دفعوا جثث عبيدك طعامًا لطيور السماء.

ومثله في ١٤٧/ ٢ : الرب يبني أورشليم، يجمع منفى إسرائيل، يشفي المنكسري القلوب، ويجبر كسرهم.

ومثله في١٣٧/ ١: على أنهار بابل جلسنا ... بكينا أيضًا عندما تذكرنا صهيون، ... لأنه هناك سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة، ومعذبونا سألونا فرحًا قائلين: رنموا لنا من ترنيمات صهيون.

وهذه الأمثلة تثبت أن كتابة المزامير تأخرت عن داود ما لا يقل عن أربعة قرون؛ وعليه فلا تصح نسبتها إليه.

سفر الأمثال

وهو يضم مجموعة من الأمثال، ويتناول موضوعات مختلفة مثل: مخافة الإله، وطاعة الوالدين، واحترام المعلمين، والنهي عن المنكر، والأمر بالعدل، والصبر، وعدم الغش في الكيل، والتَّبصُّر في الأمور.

ويؤكد السفر أن الصالحين من العلماء سيُكافَئون وأن الصالحين من الجهلاء سيُجازون.

١- والتوجه الأخلاقي للسفر فردي إنساني وليس قوميًّا.

٢- كما يخلو السفر من النهي عن عبادة الأوثان.

٣- وتُنسَب معظم أجزاء السفر إلى سليمان، كما تُنسَب أجزاء أخرى إلى مؤلفين آخرين حُدِّدت أسماء بعضهم، ولم تُحدَّد أسماء البعض الآخر.

٤- ويشبه السفر كتب الحكم والأمثال المصريَّة، كما يُلاحَظ تأثره بأدب الأمثال الكنعاني والآشوري.

٥- ويختلف ترتيب مجموعات الأمثال في النسخة العبريَّة عن ترتيبها في الترجمة السبعينيَّة، الأمر الذي يدل على تعدُّد المصادر.

وينسب الحاخامات نشيد الإنشاد وسفر الأمثال وسفر الجامعة إلى سليمان، فيقولون: إنه وضع الأول في شبابه، والثاني في تمام عقله وحكمته، والثالث في شيخوخته.

سفر الجامعة

يحاول واضعه أن يُعرِّف معنى الحياة وهدفها، ولكنه يرى أن كل شيء باطل وعبث، فيسقط في العدمية والحسية والقدرية، وشعاره هو «باطل الأباطيل، كل شيء باطل»، فكل شيء مقرَّر من قبل لا مجال للاختيار الإنساني.

ويرى صاحب السفر أن الحكمة والمعرفة لا جدوى من ورائهما، فلا فرق بين الحيوان والإنسان، ولا حساب بعد الموت، ولذا فيوم الوفاة خير من يوم الميلاد، وأن يذهب الإنسان للعزاء خير من أن يذهب ليبارك مقدم مولود.

١- وثمة تَماثُل في بعض الوجوه بين سفر الجامعة وبين الفلسفة اليونانيَّة؛ إذ يقول بركليس: «إن الخير كل الخير ألا يولد الإنسان أصلًا، ولكن ما يلي ذلك هو أن يموت الإنسان صغيرًا».

٢- وقد ضُمِّن السفر في العهد القديم برغم رؤيته اللادينية.

٣- ويبدو أنه قد وُضع في القرن الثالث قبل الميلاد، وكُتب في أسلوب دقيق سهل ناصع، ولغته قريبة من عبرية المشناه.

وينسب اليهود نشيد الإنشاد إلى سليمان، وكذلك سفر الأمثال وسفر الجامعة.

ويقولون: إنه كتب الأول في شبابه، والثاني في تمام عقله وحكمته، والثالث في شيخوخته. ويُقرأ سفر الجامعة في عيد المظال.

سفر نشيد الإنشاد

يضم نشيد الإنشاد قصائد حب كُتبت على هيئة حوار، وقد فسرها البعض على أنها مسرحية شعرية ذات فصول ومناظر، شخصياتها هي الراعية شولاميت وبنات أورشليم والراعي الشاب، وتدور أحداثها حول غرام سليمان بشولاميت التي كانت تحب الراعي بعد أن خطبت له، وبقيت وفية على حبها له إلى أن تزوجا في النهاية. ويرى البعض أنها مجرد أغاني حبٍّ وزفاف.

١- وتتسم قصائد السفر بالإسراف في التعبير عن عاطفة الحب والحسية في الوصف الأمر الذي أثار الجدل حوله، وقد تم تفسيره تفسيرًا رمزيًّا باعتباره نشيد زفاف جماعة إسرائيل إلى الإله، أو زفاف التوراة إلى جماعة إسرائيل.

ويُعَد نشيد الإنشاد من أهم أسفار العهد القديم من منظور التراث القبَّالي؛ لأنه يستخدم صورًا مجازية جنسية.

٢- ويُلاحَظ أن اسم الإله لم يُذكَر في هذا السفر إلا مرة واحدة (٨/ ٦): «اجعلني كخاتم على قلبك كخاتم على ساعدك؛ لأن المحبة قوية كالموت، الغيرة قاسية كالهاوية لهيبها لهيب نار لظى الرب».

ويُنسَب نشيد الإنشاد إلى سليمان، كما يُنسَب إليه الأمثال والجامعة. ويقولون: إنه وضع الأول في شبابه، والثاني في أيام العقل والحكمة، والثالث في شيخوخته.

سفر اشعياء

هو أول سفر في كتب الأنبياء.

وينسب السفر للنبي أشعياء في القرن الثامن قبل الميلاد، فقد عاصر الملك عزيا ثم يوثام ثم أحاز ثم حزقيا.

١- ولكن السفر يتحدث عن الفترة الممتدة بين القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد مما يؤكد أن ثمة كاتب أو كاتبين أو أكثر قد كتبوا ذلك بعد أشعياء.

٢- ومن أمثلة ذلك حديثه عن بابل الدولة العظيمة وتنبؤه بانهيارها.

٣- وأيضًا حديثه عن كورش الفارسي الذي ردَّ اليهود من السبي. انظر ٤٤/ ٢٨، ٤٥/ ١ .

٤- كما يتحدث عن رجوع المسبيين والشروع في بناء الهيكل في الإصحاحات ٥٦- ٦٦ .

٥- وقال العالم الألماني أستاهلن: لا يمكن أن يكون الباب الأربعون وما بعده حتى الباب

السادس والستين من تصنيف أشعياء.

٦- ويذهب بعض الباحثين إلى أن هذا السفر ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: هو أشعياء الأول يبدأ من الإصحاح ١ إلى الإصحاح ٣٩، ويرجع تاريخه إلى ٧٤٠ ق.م.

والقسم الثاني: هو أشعياء الثاني يبدأ من الإصحاح ٤٠ إلى الإصحاح ٥٦، ويرجع تاريخه إلى ٥٤٠ ق.م.

والقسم الثالث: هو أشعياء الثالث يبدأ من الإصحاح ٥٦ إلى الإصحاح ٦٦، ويرجع تاريخه إلى القرن الخامس قبل الميلاد.

سفر إرميا

أما سفر إرميا فلا تصح نسبته للنبي إرميا؛ إذ هو من عمل عدة مؤلفين.

١- بدليل تناقضه في ذكر الحادثة الواحدة.

ومن ذلك تناقضه في طريقة القبض على إرميا وسجنه. انظر: إرميا ٣٧/ ١١ - ١٥، ٣٨/ ١٣ .

٢- كما يحمل السفر اعترافًا بزيادة لغير إرميا، ففي ٣٣/ ٣٦: فأخذ إرميا درجًا آخر، ودفعه لباروخ بن نيريا الكاتب، فكتب فيه عن فم إرميا، كل كلام السفر الذي أحرقه يهوياقيم ملك يهوذا بالنار، وزيد عليه أيضًا كلام كثير مثله.

وفي ٦٤/ ٥١: إلى هنا كلام إرميا. ومع ذلك يستمر السفر، فمن أكمله؟.

سفر مراثي ارميا

ويضم خمسة إصحاحات من المراثي تتناول هدم يهوذا وأورشليم والهيكل على يد البابليين.

وتقرر المراثي أن ما حدث من خراب ودمار لأورشليم، إنما هو نتيجة أعمال قاطنيها وشرورهم.

ويبكي الشاعر احتلال أورشليم ورحيل حكامها، ويدعو إلى التوبة ويأمل في رحمة الإله وفي انتقامه من الأعداء، وأخيرًا فإنه يستعطف الإله ويرجوه إرجاع المجد القديم.

ويُنشد السفر في التاسع من آب.

١- توجد كتب مراث للمدن المهدمة في الأدب السوري والأكادي، وكلها تتناول موضوعات مثل: المجاعة وتهديم المدينة والمعبد ونهب المدينة والأسر والنحيب، وهو ما يشير إلى احتمال تأثيرها في مراثي إرميا.

٢- من الواضح أن له أكثر من مؤلف.

سفر حزقيال

سفر حزقيال ثالث الأسفار في كتب الأنبياء الكبار، وحزقيال معاصر لإرميا، وقد كان على دراية تامة بتعاليمه وصوره المجازية الإيضاحية.

١- السفر مكتوب بضمير المتكلم، وأسلوبه شعري ويحوي صورًا مجازية ورموزًا عديدة.

٢- قد استخدم حزقيال الزنى كصورة مجازية، وهي الصورة التي استخدمها هوشع من قبل، ولكنه طورها.

كما أنه كان يرى أن تاريخ الشعب كله، منذ الخروج، تاريخ عصيان. انظر: ٢٠/ ١- ٣٨ .

٣- يرى الباحثون أن أعمال -أسلوب- حزقيال ليست مرتفعة القيمة.

سفر دانيال

هذا السفر ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: المعروف باسم دانيال: يضم الإصحاحات من ١ إلى ٦، وتضم ست قصص عن محن دانيال وانتصاراته هو ورفاقه الثلاثة.

القسم الثاني: ويضم الإصحاحات من ٧ إلى ١٢، وهنا تتغيَّر شخصية دانيال، ويتحول من حكيم يفسر الأحلام، والإشارات للملوك، ومن وزير يقع ضحية دس منافسيه إلى صاحب رؤى (أبوكاليبس). فدانيال هو نفسه الذي يرى الأحلام المفزعة هذه المرة، ويقوم ملاك بتفسيرها له.

ويثير سفر دانيال كثيرًا من الجدل.

فهو أولًا: لا يَرِدُ ضمن كتب الأنبياء في النسخة العبريَّة من العهد القديم، وإنما يَرِدُ ضمن كتب الحكمة. أما الترجمة السبعينيَّة، فتورده في القسم الخاص بالأنبياء، ولعل هذا يعود إلى أن نصَّ السفر كُتب متأخرًا كما أنه كُتب بالعبريَّة والآراميَّة.

وثانيًا: هذا السفر في عداد القسم المسمَّى بالكتب في العهد القديم، وقد كُتب بعضه بالعبريَّة وبعضه بالآراميَّة.

وثالثًا: إن الجزء الثاني من سفر دانيال يُعَد من كتب الرؤى (أبوكاليبس)، والتي تختلف اختلافًا جوهريًا عن كتب الأنبياء.

فبينما تركز كتب الرؤى على تفسير التاريخ تفسيرًا عجائبيًا غير أخلاقيًا، حيث يأتي الخلاص ويصبح كل ما يحدث في التاريخ الإنساني مصيرًا محتومًا، تركز كتب الأنبياء على الخلاص التدريجي، ومن خلال الإرادة الإنسانية.

ورابعًا: إن بعض الباحثين يرى أن هذا السفر كتبه علماء المجمع الكبير.

وخامسًا: إن معظم العلماء يرون الآن أن الجزء الأكبر كُتب عام ٣٠٠ ق.م، أما الثاني، فكُتب في عهد أنطيوخوس الرابع في وقت كانت اليهوديَّة تتعرض فيه للاضطهاد الشديد على يد هذا الحاكم السلوقي، ولذا فإن رسالة الأمل التي يحملها السفر مناسبة للعصر.

وسادسًا: إنه لا يمكن أن يكون قد كتب في ذلك الزمن البعيد الذي روي أنه عاش دانيال فيه أي عندما سقطت بابل في يد الملك الفارسي كورش عام ٥٣٨ ق. م بل لا بد أن يكون هذا السفر قد كتب بعد ذلك بثلاثة قرون أو أربعة للأسباب التالية:

١- يتضمن هذا السفر كلمات مقدونية مع أن اليهود في الأسر البابلي لم يكونوا قد خالطوا اليونان ولا حكت أسماعهم للغة اليونانيَّة.

٢- إن هذا السفر فيه وصف للكلدانيين لا يتسنى الإتيان به لكاتب سابق على عصر الإسكندر.

٣- اقتبس طرفًا من أقوال إرميا وحزقيال وزكريا مع أن هؤلاء الأنبياء متفرقون في الزمن، فإرميا بداية الأسر، وحزقيال في وسطه، وزكريا في أواخر الدولة الفارسية.

سفر هوشع

سفر هوشع أول أسفار الأنبياء الصغار.

والصورة المجازية الأساسية في سفر هوشع هي صورة الزنى، فأول ما يبدأ السفر ١/ ٢: أول من كلم الرب هوشع قال الرب لهوشع: اذهب خذ لنفسك امرأة زنى وأولاد زنى؛ لأن الأرض قد زنت زنى تاركة الأرض.

وقد أنجب هوشع من زوجته الزانية ثلاثة أبناء لهم أسماء رمزية:

فالأول: سماه: يزرعئيل، باسم البقعة التي ذبح فيها ياهو أسرة آخاب، ففي ١/ ٤: لأنني بعد قليل أعاقب بيت ياهو على دم يزرعيل وأبيد مملكة بيت إسرائيل.

والثاني: طفلة سماها: لورحامة -من العبريَّة: لا رحمة- ففي ١/ ٦: لأنني لا أعود أرحم بيت إسرائيل بل أنزعهم نزعًا.

والثالث: سماه: لوعمي -من العبريَّة: «ليس شعبي»- ففي ١/ ٩: لأنكم لستم شعبي وأنا لا أكون لكم.

فذنب جماعة إسرائيل هو سلوكها اللاأخلاقي واعتمادها على القرابين والقوة العسكرية.

ويهيب هوشع دائمًا بالماضي فيشير إلى يعقوب، وإلى الخروج والتيه، فالرب هو الذي أخرج الشعب من مصر، ولكن الشعب إثبت أنه غير وفيٍّ حتى قبل أن يصل إلى أرض الميعاد.

وحينما وصلوا إلى هناك، أخفقوا في معرفة مصدر نجاحهم الحقيقي ونسبوا إلى بعل الخيرات التي منحهم يهوه إياها؛ ولذا فإن الرب سيعاقب الأمة ويلحق بها الخراب وينقل سكانها.

ولكن، مع كل هذا، ورغم فساد الأمة، فإن يهوه في علاقته بجماعة إسرائيل يشبه هوشع في علاقته بزوجته الزانية.

فيهوه هو الزوج الذي تركته زوجته الزانية التي تسير مع الفساق الآخرين، ولكنه مع هذا يظل على حبه لها.

ولذا، وإلى جانب العقاب والوعيد، فإن هوشع يدعو الشعب للتوبة ويبشر بالعودة (١٤/١ـ ٩).

ويمكن القول بأن العلاقة بين يهوه والشعب علاقة حب مشبوب لا يمكن أن تنال منه خطايا الشعب.

وتوجد في السفر صور مجازية أخرى مثل صورة الأب والابن ١١/١ـ ٣، والطبيب والمريض ٧/١، والصائد والطير ٧/١٢ .

سفر يوئيل

يوئيل أحد الأنبياء الصغار.

ويمكن تقسيم سفر يوئيل إلى قسمين:

القسم الأول: ويضم الإصحاحين الأول والثاني اللذين ترد فيهما نكبة الجراد.

القسم الثاني: ويضم الإصحاحين الثالث والرابع اللذين يتناولان يوم الرب حينما يعيد الرب شعبه من السبي ويعاقب أعداءه.

والتاريخ الذي كُتب فيه السفر غير معروف، فمن العلماء من يظن أن كاتبه كان معاصرًا لأشعياء، ومنهم من يذهب إلى أنه عاش في ملك يوشيا، ولكن ثمة اتفاقًا عامًّا بين العلماء على أن يوئيل تنبأ بعد العودة من بابل.

سفر عوبديا

عوبديا رابع الأنبياء الصغار.

يوجه اللوم العنيف في سفره إلى أدوم؛ لأنها لم تهبَّ لمساعدة القدس ساعة محنتها، ويؤكد فيه أن يوم الرب قريب.

ومن غير المعروف متى كُتب السفر، ولكن من المتفق عليه أنه كُتب بعد هدم الهيكل.

سفر يونان

يونان -يونس- خامس الأنبياء الصغار.

وقد ورد في هذا السفر أن الإله طلب إلى يونان أن يذهب إلى نينوى، عاصمة الإمبراطورية

الآشورية، ليعلن خرابها.

ولكن القوم في نينوى أصغوا إلى نصيحة يونان وتابوا، فلم يُخرِّبها الإله وصفح عنهم، فاغتم يونان لذلك فقرَّعه الإله.

كما ورد في السفر حادثة ابتلاع الحوت ليونان، حيث مكث في بطنه ثلاثة أيام.

سفر حبقوق

حبقوق أحد الأنبياء الصغار.

والسفر في أساسه فيما يُرجح العلماء مكوَّن من إصحاحين الأول والثاني، أما الإصحاح الثالث فله جانب أسطوري واضح، ولذا افتُرض أنه منحول.

ومما يؤكد ذلك اكتشاف تفسير للسفر في قمران لا يحتوي إلا على الإصحاحين الأولين منه.

سفر زكريا

زكريا أحد الأنبياء الصغار.

وقد كتب زكريا سفره أثناء حكم دارا الأول وبعد العودة من بابل، وكان زكريا من الكهنة.

وتتعلق نبوءاته بتجميع المنفيين، والتحرر من النير الأجنبي، وتوسيع القدس.

وهو يصف رُؤَاهُ وتفسيرها من خلال ملاك.

وينسب بعض العلماء الإصحاحات من ٩ إلى ١٤ إلى مؤلف آخر عاصر فترة الهيكل الأول، وذلك على أساس لغتها ومضمونها.

الوصايا العشر

أي «الكلمات العشر» التي كُتبت على لَوْحَيْ حجر (تثنية ٤/ ١٣). ووردت العبارة نفسها تقريبًا في سفر الخروج (٣٤/ ٢٨): «فكتب على اللوحين كلمات العهد الكلمات العشر».

وثمة مشاكل عديدة تثيرها الوصايا العشر:

أولًا: أن من المتفق عليه في الموروث الديني اليهودي أن موسى ذهب إلى جبل سيناء، وصام أربعين يومًا، ونزلت عليه الوصايا هناك، لكنه حطمها عندما اكتشف أن أعضاء جماعة إسرائيل يعبدون العجل الذهبي، وعاد فصام أربعين يومًا أخرى، وأعطاها الإله له مرة أخرى.

ولكن ليس من المعروف على وجه الدقة هل أعطاها الإله له مباشرة، وقام هو بتوصيلها للشعب أم أنه أعطاها له على مسمع من الشعب، أم أن الإله أعطاها للشعب مباشرة.

وهناك إشارات عديدة إلى كل هذه الاحتمالات في سفر الخروج (١٩/ ٩ ـ ٢٥ و٢٠/ ١٨ ـ ٢)، وسفر التثنية (٤/ ١٠ و٥/ ٤ـ ٥ و٥/ ٢٢)، بل يُقال في الاجتهادات الحاخامية: إن الإله خطها

بإصبعه على جانبي اللوحين (لَوْحَيْ الشهادة)، أي أنها كانت صيغة مقروءة وليست مسموعة؛ استنادًا إلى النص الوارد في سفر الخروج (٣١/ ١٨، ٣٢/ ١٥ . ١٦).

ثانيًا: لكن المشكلة الأكثر حدة هي ما أثاره نقاد العهد القديم؛ فالإشارة الواردة في سفر الخروج إلى الكلمات العشر تتعلق بالصيغة المألوفة الواردة في سِفْرَي الخروج (٢٠/ ١ . ٧) والتثنية (٥/ ٦ . ٢١).

ولكن هناك صيغة ترد مباشرة قبل عبارة «الكلمات العشر» في سفر الخروج (٣٤/ ٢٨)، وهي في سفر الخروج أيضًا وفي الإصحاح نفسه (٣٤/ ١١ . ٢٦)، وهي تختلف تمامًا عن الصيغتين الأخريين المألوفتين شكلًا ومضمونًا.

ولنبدأ بنص الصيغة غير المألوفة: «احفظ ما أنا موصيك اليوم. ها أنا طارد من قدامك الأموريين والكنعانيين والحيثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين. احترز من أن تقطع عهدًا مع سكان الأرض التي أنت آتٍ إليها؛ لئلا يصيروا فخًّا في وسطك. بل تهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتقطعون سواريهم:

١- فإنك لا تسجد لإله آخر؛ لأن الرب اسمه غيور. إله غيور هو. احترز من أن تقطع عهدًا مع سكان الأرض فيزنون وراء آلهتهم ويذبحون لآلهتهم، فتُدعَى وتأكل من ذبيحتهم، وتأخذ من بناتهم لبنيك، فتزني بناتهم وراء آلهتهن ويجعلن بنيك يزنون وراء آلهتهن.

٢- لا تصنع لنفسك آلهة مسبوكة (أي من معدن مصهور).

أما بقية الوصايا، فجاءت على النحو التالي:

٣- تحفظ عيد الفطير (الفصح). سبعة أيام تأكل فطيرًا كما أمرتك في وقت شهر أبيب؛ لأنك في شهر أبيب خرجت من مصر.

٤- لي كل فاتح رحم. وكل ما يُولَد ذكرًا من مواشيك بكرًا من ثور وشاه. وأما بكر الحمار فتفديه بشاة، وإن لم تفده تكسر عنقه. كل بكر من بنيك تفديه ولا يظهروا أمامي فارغين.

٥- ستة أيام تعمل. وأما اليوم السابع فتستريح فيه، في الفلاحة وفي الحصاد تستريح.

٦- وتصنع لنفسك عيد الأسابيع.

٧- أبكار حصاد الحنطة وعيد الجمع في آخر السنة. ثلاث مرات في السنة يظهر جميع ذكورك أمام السيد الرب إله إسرائيل؛ فإني أطرد الأمم من قدامك وأوسع تخومك ولا يشتهي أحد أرضك حين تصعد لتظهر أمام الرب إلهك ثلاث مرات في السنة.

٨- لا تذبح على خمير دم ذبيحتي.

٩- ولا تبت إلى الغد ذبيحة عيد الفصح. أول أبكار أرضك تحضره إلى بيت الإله إلهك.

١٠- لا تطبخ جديًا بلبن أمه.

الملاحظات النقديَّة على هذه الصيغة:

١- يرى نقاد العهد القديم أن هذه الصيغة تعود إلى المصدر القيني (K) أقدم مصادر العهد القديم، وهو مصدر يختلف اختلافًا تامًا عن المصادر الأخرى نصًا وروحًا.

٢- يشير نقاد العهد القديم إلى هذه الصيغة باعتبارها «الوصايا القربانية»؛ لأنها تحتوي على عدد كبير من الطقوس الخاصة بالأعياد والقرابين، كما أن الأخلاقيات الواردة فيها بدائية إلى أقصى حد تعكس بيئة رعوية.

٣- يرى أحد نقاد العهد القديم أنه توجد صيغ أخرى مثل تلك الواردة في خروج (١٣/٣ . ١٦، ٢٣/ ١٠ . ١٩)، وهي لا تختلف كثيرًا عن الصيغة السابقة في بدائيتها، وتعكس بيئة شمالية أكثر ثراءً.

كما يشيرون إلى صيغ أخرى موجودة بشكل متناثر في سفر التثنية.

٤- يُفسَّر تعدُّد الصيغ بالإشارة إلى الثورات المختلفة في المملكة الشماليَّة والمملكة الجنوبية ضد العبادات الأجنبية، وأن كل ثورة كانت تؤكد صيغة جديدة.

- وأهم الصيغ التي وردت هي، كما تَقدَّم، في سفري الخروج (٢٠/ ١ . ١٧) والتثنية (٥/ ٦ . ٢١)، والصيغتان متشابهتان تمامًا إلا في تفاصيل قليلة لا دلالة لها، باستثناء الوصية الثالثة حيث نجد أن ثمة اختلافًا جوهريًا بين الصيغتين، والوصيتين التاسعة والعاشرة حيث هناك تباينات لفظية.

وقد أوردنا فيما يلي الصيغة الأولى بأكملها، بعد أن أثبتنا بين قوسين في السياق الوصايا الثالثة والرابعة والتاسعة والعاشرة في صياغتها الأخرى:

ثم تكلم الإله بجميع هذه الكلمات قائلًا: أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبوديَّة:

١- لا يكن لك آلهة أخرى أمامي. لا تصنع لك تمثالًا منحوتًا ولا صورة ما مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهن ولا تعبدهن؛ لأني أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي، وأصنع إحسانًا إلى ألوف من محبي وحافظي وصاياي.

٢- لا تنطق باسم الرب إلهك باطلًا؛ لأن الرب لا يُبرئ من نطق اسمه باطلًا.

٣- اذكر يوم السبت لتقدسه، ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك، وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك. لا تصنع عملًا ما أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذي داخل أبوابك؛ لأن في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها واستراح اليوم السابع. لذلك بارك الرب يوم السبت وقدَّسه [وأما اليوم السابع فسبت للرب إلهك لا

فيه عملًا ما أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وثورك وحمارك وكل بهائمك ونزيلك الذي في أبوابك لكي يستريح عبدك وأمتك مثلك. واذكر أنك كنت عبدًا في أرض مصر. فأخرجك الرب إلهك من هناك بيد شديدة وذراع ممدودة. لأجل ذلك أوصاك الإله إلهك أن تحفظ يوم السبت].

٤- أكرم أباك وأمك لكي تطول على الأرض التي يعطيك الرب إلهك [أكرم أباك وأمك كما أوصاك الرب إلهك؛ لكي تطول أيامك ولكي يكون لك خير على الأرض التي يعطيك الرب إلهك].

٥- لا تقتل.

٦- لا تزنِ.

٧- لا تسرق.

٨- لا تشهد على قريبك شهادة زور.

٩- لا تشتهِ بيت قريبك [لا تشته امرأة قريبك].

١٠- لا تشتهِ امرأة قريبك، ولا عبده، ولا أمته، ولا ثوره، ولا حماره، ولا شيئًا مما لقريبك [لا تشته بيت قريبك، ولا حقله، ولا عبده، ولا أمته، ولا ثوره، ولا حماره، ولا كل ما لقريبك]».

ويمكن تقسيم الوصايا على النحو التالي من (١) إلى (٣): وصايا تختص بعلاقة الإنسان بالإله، وبقية الوصايا تختص بعلاقة الإنسان بالإنسان.

الملاحظات النقديّة على هذه الصيغة:

١- تبدأ الوصايا بالإله يُعرِّف نفسه، وأهم سماته هي مساهمته في التاريخ اليهودي، فهو يُعرِّف نفسه بأنه الإله الذي «أخرجك من أرض مصر وأرض العبودية»؛ أي أن ديباجة الوصايا العشر ذات طابع حلولي ترسِّخ الإحساس بالعلاقة الخاصة بالإله الذي يتدخل في التاريخ لصالح جماعة إسرائيل، وتعمِّق الإحساس بكره الأغيار (المصريين).

٢- كما يُلاحَظ أن فكرة التوحيد ليست كاملة؛ إذ إن هذه الوصية تعترف ضمنًا بوجود آلهة أخرى.

٣- أما الوصية الأولى، فهي تتحدث عن الإله الغيور الذي يتعقب ذنوب الآباء في الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع من أعدائه، وهي بذلك تنسب صفات بشرية إلى الإله، وتتضمن أخلاقيات بدائية إذ يصبح الشر والخير بالضرورة مسألة موروثة وليست مسألة دينية مرتبطة بقيم أخلاقية وبالاختيار والمسئولية الفردية.

٤- أما الوصية الثالثة، فهي الوصية التي يرد فيها تفسيران مختلفان لتقديس يوم السبت، وهذا يعود بطبيعة الحال إلى تعدُّد المصادر، ولكن الحاخامات فسروا الاختلاف باعتبار أنه يعود إلى أن

موسى حطم لَوْحَي العهد، فلما عاد أتى بنسخة أخرى من الوصايا، وكانت النسخة الأخرى غير مطابقة تمامًا للنسخة الأولى. وقد فسر آخرون هذا الاختلاف بأنه معجزة محضة، فقد أرسل الإله النسختين في آن واحد. وهو التفسير الذي ساد والذي يتسق إلى حدٍّ كبير مع تركيب اليهوديَّة الجيولوجي التراكمي الذي تتعايش داخله الطبقات المتراكمة المتناقضة.

ولهذا التفسير الحاخامي الأخير دلالة خاصة. فالصيغتان الأولى والثانية، كما بيَّنا، تتفقان في كل التفاصيل تقريبًا، إلا في الوصية الثالثة التي تختص بتقديس يوم السبت، حيث يختلف تفسير مصدر القداسة من صيغة إلى أخرى، فصيغة سفر الخروج (٢٠/ ١١) تورد أن الإله قد خلق الأرض في ستة أيام واستراح في اليوم السابع، أما سفر التثنية (٥/ ١٥) فيذكر أن ذلك اليوم مقدَّس؛ لأنه اليوم الذي أخرج الإله فيه جماعة إسرائيل من مصر؛ أي أنه من خلال ربط الصيغتين يتم مزج المقدَّس بالدنيوي والإلهي بالقومي؛ فقد ساوت الصيغتان الحادثة الكونية (خلق العالم أو الطبيعة) بحادثة قومية تاريخية (الخروج من مصر) في بداية التاريخ اليهودي.

وهكذا ترتبط الطبيعة والتاريخ، ويُمنَح اليهود عطلة يوم السبت لسببين: أحدهما كوني، والآخر تاريخي يختص بالشعب المقدَّس، ولكنهما يتساويان في الدرجة.

والسبت في هذا لا يختلف عن معظم الأعياد اليهوديَّة التي هي أعياد دينية تاريخية وهي في الوقت نفسه أعياد طبيعية لا علاقة لها بالدين أو التاريخ أو الأخلاق.

وفي هذا اتساق مع النمط الحلولي الذي لاحظناه، وهو تداخل النسبي والمطلق، والدنيوي والمقدَّس، وإضفاء مركزية كونية على التاريخ اليهودي.

٥- تعالج بقية الوصايا قضايا أخلاقية عامة ومهمة لتنظيم أي مجتمع، وإن كان هناك تخصيص في الوصية الأخيرة التي توصي اليهودي بعدم ارتكاب المعاصي ضد أقاربه من اليهود، وتلتزم الصمت تجاه الأغيار.

٦- ثمة تشابه واضح بين الوصايا العشر في موضوعاتها وعناصرها الأساسية وأقسامها وترتيب أجزائها من جهة والمعاهدات المعروفة في حدود النصف الأول من القرن الثالث عشر ق.م، مثل المعاهدات المبرمة بين الملوك الحيثيين والدويلات الخاضعة لهم من جهة أخرى.

فهذه المعاهدات تبدأ بديباجة أو مقدمة تاريخية، يليها شروط تتعلق بحفظ المعاهدة.

وقد أخذت الوصايا العشر شكل إحدى هذه المعاهدات؛ فالرب هو الحاكم الإلهي الذي يذكر لعبيده أفضاله عليهم، وما أسدي إليهم من جميل، ثم يملي عليهم شروطه، ويهدد بإنزال العقوبات على المخالفين منهم.

كما كانت مثل هذه المعاهدات تتطلب أن تُقرأ نصوص المعاهدة علنًا بشكل دوري، وأسلوب الوصايا العشر يدل على أنه يجب قراءتها بصوت عالٍ على الملأ.

وقد وُضعت الوصايا العشر في سفينة العهد التي كان يُنظَر إليها باعتبارها مسند قدم الإله.

والواقع أن هذه العادة سادت الشرق الأدنى القديم حيث كانت تُودَع نسخ من المعاهدات تحت أقدام الإله الذي شهد عليها.

٧- ثمة تشابه بين الجانب الأخلاقي في الوصايا وبين الدليل الذي كان يُوضَع بجوار الموتى في مصر الفرعونية، ليهديهم في اليوم الآخر، والمسمَّى «إعلان البراءة»، الذي ورد فيه: «لم أسرق؛ لم أطمع في شيء؛ لم أقتل إنسانًا؛ لم أكذب؛ لم أزنِ».

ثالثا: قد أصبحت الوصايا العشر جزءًا من الصلاة التي تتلى في عيد الأسابيع (عيد نزول التوراة) وهو ما يدل على أنه كان هناك عيد إسرائيلي قديم (لتجديد العهد)، وأنه كان يتضمن قراءة نصوص الوصايا العشر.

وكانت الوصايا العشر، في الأصل جزءًا من الصلاة في الهيكل، وكان اليهود يريدون أن تصبح هذه الوصايا جزءًا من الصلاة اليومية، ولكنهم مُنعوا من ذلك، حتى تُدحَض ادعاءات الفرق اليهوديَّة المهرطقة التي كانت تدَّعي أنها وحدها المنزلة من الإله وما عدا ذلك فهو اجتهاد بشري؛ ولذا فهو غير مُلزم لأحد.

وردًا على ذلك، جاء في الأجاداه أن هذه الأوامر والنواهي كانت مكتوبة على لَوْحَي العهد في الفراغات بين الكلمات، وهذه محاولة لخلع القداسة على الشريعة الشفوية التي يحمل الحاخامات مشعلها.

ولكل هذا، لم تُضَم الوصايا العشر إلى الصلوات اليومية.

والواقع أن الأهمية الخاصة والوحيدة لهذه الوصايا هي أن المصلين يقفون عند تلاوتها في المعبد.

وفي احتفالات بلوغ اليهودي سن التكليف الديني (برمتسفا) في المعابد الإصلاحية، يقوم المُحتفَل به بتلاوتها أمام تابوت العهد.

وقد أضاف حاخامات اليهود ما يُسمَّى الأوامر والنواهي أو المتسفوت وعددها ٦١٣ .

ويوجد أيضًا ما يُسمَّى شريعة نوح، وهي تضم مجموعة من الأوامر والنواهي الملزمة لليهود وغير اليهود[1].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، تحريف الكتاب المقدس، المدخل إلى العهد القديم ص(٨٤- ٨٨)، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ص(٢٨- ٣٠).

الفصل التاسع

أثر نقد العهد القديم في اليهوديَّة والنصرانيَّة المعاصرة

إن نقد العهد القديم كان له أثر واضح بيِّن في اليهوديَّة المعاصرة، وذلك على النحو التالي:

١- **اليهوديَّة الإصلاحيَّة:** تنطلق اليهوديَّة الإصلاحية من تَقبُّل نتائجه، فهي تنطلق من دنيويَّة أو نسبية أو تاريخية أو زمنية التراث الديني اليهودي بأسره، وهذا ما يعني أنه ليس مرسلًا من الإله وإنما نتيجة قريحة عقل الإنسان، وربما بإلهام وليس بوحي من الإله.

٢- **اليهوديَّة المحافظة:** لا تختلف اليهوديَّة المحافظة أو التجديدية عن اليهوديَّة الإصلاحية في هذه الناحية إلا من ناحية الدرجة.

٣- **اليهوديَّة الأرثوذكسيَّة:** تبقى اليهوديَّة الأرثوذكسيَّة وحدها هي التي ترفض نقد العهد القديم.

٤- **الصهيونيَّة:** إن الصهيونيَّة وسائر التيارات التي تعرِّف اليهوديَّة بأنها انتماء إثني أو عِرْقي، وليس دينيًا، تستند إلى معطيات نقد العهد القديم الذي يحوِّل كتب اليهود المقدَّسة إلى شكل من أشكال الفلكلور.

٥- **أما الفكر النصراني،** فقد استفاد بنقد العهد القديم في نقده اليهوديَّة؛ إذ يشير كثير من المفكرين النصارى الدينيين إلى أن اليهوديَّة تحوي عناصر وتراكمات وثنية عديدة حاول الأنبياء القضاء عليها وتطهير النسق الديني اليهودي منها، وقد نجحوا في ذلك بعض الوقت.

ولكن اليهوديَّة سقطت مرة أخرى في الوثنية والعبادة القربانية، والالتفاف حول الهيكل، والانغماس في النزعة العِرْقية.

ولذا، فلم يكن بالإمكان إنقاذ الجوهر الديني الحق لليهودية إلا عن طريق المسيحيَّة.

هذه هي وجهة وموقف المفكرين النصارى تجاه علم نقد العهد القديم، ولكن عند تطبيق هذا العلم على العهد الجديد فسنجد نفس النتائج التي وجدت هنا، فماذا سيكون موقف هؤلاء النصارى المفكرين حينئذ؟![1].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

الباب الرابع
التَّلمود

الفصل الأول: التعريف بالتلمود، وأهمية التلمود عند اليهود.
الفصل الثاني: مكونات التلمود.
الفصل الثالث: موضوعات التلمود.
الفصل الرابع: تاريخ التلمود.
الفصل الخامس: طبعات وترجمات التلمود وما طرأ عليه من حذف وتغيير.
الفصل السادس: صور مما ورد في التلمود.
الفصل السابع: مكانة التلمود في إسرائيل.

الفصل الأول

التعريف بالتلمود واهميته عند اليهود

التلمود: كلمة مشتقة من الجذر العبري «لامد»، الذي يعني الدراسة والتعلم، كما في عبارة «تلمود توراه»، أي «دراسة الشريعة».

ويعود كل من كلمة «تلمود» العبريَّة وكلمة «تلميذ» العربيَّة إلى أصل سامي واحد.

وتجري هذه الكلمة على عدة معان:

١- التلمود بمعنى التعليم والتعلم والدرس (المدراش).

٢- تدل على التدريس بواسطة نصوص الكتاب المقدس، والاستنتاجات التفسيرية المستخلصة من دراسة تلك النصوص حيث يتم شرح الأصول الشرعية والأحكام الفقهية بالاستناد إلى النصوص التوراتية.

٣- التلمود بمعناه اللاحق كمصنف للأحكام الشرعية أو مجموعة القوانين الفقهية اليهوديَّة.

وحينئذ يمكننا أن نعرف التلمود كالآتي

التلمود مُصنَّف للأحكام الشرعية أو مجموعة القوانين الفقهية اليهوديَّة، وسجل للمناقشات التي دارت في الحلقات التلمودية الفقهية اليهوديَّة حول المواضيع القانونية (هالاخاه) والوعظية (أجاداه).

وقد أصبح التلمود مرادفًا للتعليم القائم على أساس الشريعة الشفوية (السماعية).

أهمية التلمود عند اليهود

يعتقد اليهود أن موسى عليه السلام كان قد تلقى في سيناء شريعتين، أو توراتين في عرفهم، التوراة المدونة التي كتبها موسى بإملاء من الله مباشرة، والتوراة الشفوية التي نقلت عبر سلسلة معصومة من الرواة الثقات من موسى، إلى قادة اليهود وعنهم إلى الفريسيين.

ويقصدون بالتوراة -أو الشريعة- الشفوية: السنن والتقاليد المتواترة التي تنقل شفاهةً، وهي التي شكلت من بعد مادة التلمود ومفرداته.

وبذلك يصبح التلمود من أهم الكتب الدينيَّة عند اليهود، فهو الثمرة الأساسية للشريعة الشفوية.

ويذهب البعض إلى أن التلمود هو تفسير الحاخامات للشريعة المكتوبة (التوراة)، إلا أن هذا التفسير -كلمات علماء التلمود- كان يوحي بها الروح القدس نفسه (روح هقودش) باعتبار أن الشريعة الشفوية مساوية في المنزلة للشريعة المكتوبة.

ويخلع التلمود القداسة على نفسه بهذا الاعتبار فقد جاء فيه: أن الإله وافق على أنه يجب أن يُفسِّر الحاخامات ما قاله هو.

ومما ساعد التلمود على اكتساب مركزية في الفكر الديني اليهودي جهل أوربا المسيحيَّة بوجوده حتى القرن الثالث عشر الميلادي، وهو ما يعني أنه أصبح الرقعة اليهوديَّة الخالصة، بعد أن اعتبرت الكنيسة العهد القديم (كتاب اليهود المقدَّس) أحد كتبها المقدَّسة.

وحل التلمود محل التوراة في العصور الوسطى باعتباره كتاب اليهود المقدَّس الأساسي، حتى إن كثيرًا من الحاخامات كانوا يعرفون التلمود أساسًا ويعرفون العهد القديم بدرجة أقل.

وقد تركزت في التلمود -بعد تدوينه- كل السلطة الدينيَّة والروحية في اليهوديَّة، حتى إن كل قرار في الحياة اليهوديَّة، مهما علا شأن هذا القرار أو صَغُر، قد جرى اتخاذه وفقًا للسلطة التلمودية.

فمنذ نهاية القرن السابع للميلاد، ومع مطلع القرن الثامن، صار التلمود العامل الجوهري في التجربة الدينيَّة للجماعات اليهوديَّة؛ إذ أصبح المعيار السائد المقبول في كل ما يتعلق بحياة اليهود وأعمالهم ونشاطهم الفكري.

حتى إننا حينما نتحدث عن «اليهوديَّة» بعد ذلك التاريخ، فإننا في واقع الأمر نتحدث عن «اليهوديَّة الحاخامية»؛ أي «التلمودية».

وقد استُخدم التلمود حتى نهاية القرن التاسع عشر أساسًا للتربية بين أعضاء الجماعات اليهوديَّة، فكان الدارسون في كثير من الجماعات اليهوديَّة في الغرب يستذكرونه سبع ساعات يوميًا طوال سبع سنوات.

وتظهر الحلوليَّة والانعزالية في تلك القداسة التي تحيط بالتلمود.

وهو في الواقع -كما أسلفنا- مجرد تفسير للعهد القديم وضعه الحاخامات، إلا أنه مثله مثل كل كتب التفسير اليهوديَّة، يكتسب قداسة خاصة.

وقد سيطرت أسطورة الشريعة الشفوية على الوجدان اليهودي سيطرة تامة بعد ظهور المسيحيَّة، فكان يُنظر إلى التلمود في بداية الأمر باعتبار أنه يأتي في المرتبة الثانية بعد التوراة، ولكنه أصبح بعد حين يُلقَّب بالتوراة الشفوية، أي صار مساويًا لتوراة موسى في المرتبة، ولم يَعُد في وسع أي يهودي مخالفته.

وأخذت درجة قداسته في الازدياد والاتساع حتى أصبح أكثر قداسة من التوراة نفسها، ويعدون التوراة خبزًا ويرون الإنسان لا يعيش بالخبز فقط، وأن الأدْمَ هو التلمود.

وقد جاء في التلمود: إن من درس التوراة فعل فضيلة لا يستحق المكافأة عليها، ومن درس (المشنا) فعل فضيلة استحق أن يكافأ عليها، ومن درس (الجمار) فعل أعظم فضيلة.

وقال أحد الحاخامات: يا بني كن حريصًا على مراعاة أقوال الكتبة [أي الحاخامات واضعي التلمود] أكثر من حرصك على أقوال التوراة؛ لأن أحكام التوراة تحوي الأوامر والنواهي. أما شرائع الكتبة؛ فإن من ينتهك واحدة منها يجلب على نفسه عقوبة الإله (أو عقوبة الموت لنفسه).

وجاء أيضًا: التفت يا بني إلى أقوال الحاخامات أكثر من التفاتك إلى شريعة موسى.

وجاء أيضًا أنه: من احتقر أقوال الحاخامات استحق الموت، دون من احتقر أقوال التوراة، ولا خلاص لمن ترك التلمود واشتغل بالتوراة فقط؛ لأن أقوال علماء التلمود أفضل مما جاء في شريعة موسى، وهي أفضل من أقوال الأنبياء.

وجاء في أحد كتبهم المسمى (الهمار) وهو شرح على التوراة: إن الإنسان لا يعيش بالخبز فقط، والخبز هو التوراة بل يلزمه شيء آخر وهو أقوال الله كقواعد وحكايات التلمود.

وجاء في التلمود: إن القساوة أو التقليد الصارم بتعاليم الكتبة هو أشد منه بالنسبة إلى التوراة.

وجاء أيضًا: إن تدرس التوراة ولا تلتفت إلى المشنا فإنك تقترف إثمًا بحق من أعطى التوراة؛ إذ لا يمكن فهم التوراة فهمًا صحيحًا دون شروحات المشنا وتفسيراته[1].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، د. عبد الوهاب المسيري، الموسوعة الميسرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي (١/ ٥٠١)، الكنز المرصود في قواعد التلمود، روهلنج، واشيل لوران، ترجمة: د. يوسف نصر الله، اليهودية عرض تاريخي، د. عرفان عبد الحميد فتاح ص(٨٣)، الفرق والمذاهب اليهودية، عبد المجيد همو ص(١١٨، ٥٥، ٥٦)، اليهودية، د. أحمد شلبي ص(٢٦٦).

الفصل الثاني

مكونات التلمود

التلمود كتاب ضخم متعدِّد الأجزاء، مجلداته كثيرة وضخمة تصل في بعض الطبعات إلى ما يزيد على عشرين مجلدًا.

وهناك طبعة إفري مانز تلمود المختصرة.

وهناك تلمودان:

١- التلمود الفلسطيني: وينسبه اليهود خطأً إلى أورشليم (القدس) فيقولون: «الأورشليمي»، ذلك مع أن القدس خلت من المدارس الدينيَّة بعد هدم الهيكل الثاني، وانتقل الحاخامات إلى إنشاء مدارسهم في يفنة وصفورية وطبرية.

كما أطلق يهود العراق على التلمود الفلسطيني اسم «تلمود أرض بني إسرائيل»، وأطلقوا عليه أحيانًا اسم «تلمود أهل الغرب»؛ نظرًا لوقوع فلسطين إلى الغرب من العراق.

٢- التلمود البابلي: وهو نتاج الحلقات التلمودية (أكاديمية - يشيفا) في العراق (بابل)، وأشهرها سورا ونهاردعه وبومبديثا.

ويُعرَف هذا التلمود في حالات نادرة جدًّا باسم «تلمود أهل الشرق».

وكلا التلمودين مُكوَّن من: المشناه والجماراه.

١- المشناه

مِشْنَاه: كلمة عبرية مشتقة من الفعل العبري «شنَّاه» ومعناه «يُثنِّي» أو «يكرر».

ولكن، تحت تأثير الفعل الآرامي «تانا»، صار معناها «يدرس».

ثم أصبحت الكلمة تشير بشكلٍ محدد إلى دراسة الشريعة الشفوية أو التثنية الشفوية، وخصوصًا حفظها وتكرارها وتلخيصها.

والمشناه مجموعة موسوعية من الشروح والتفاسير تتناول أسفار العهد القديم، وتتضمن مجموعة من الشرائع اليهوديَّة التي وضعها معلمو المشناه (تنائيم) على مدى ستة أجيال (١٠. ٢٢٠م).

وقد رتبت مادتها حسب المسائل وصنفت تبعًا لذلك إلى ثلاث وستين عنونًا.

٢- الجماراه

جَماراه: كلمة آرامية تعني «التتمة» أو «التكملة» أو «الدراسة».

وهي عبارة عن التعليقات والشروح والتفسيرات التي وضعها على المشناه الفقهاء اليهود الذين يسمَّون بالشراح (أمورائيم) في الفترة ٢٢٠ ـ ٥٠٠م. وهي تأخذ عادةً شكل أسئلة وأجوبة.

والمشناه يمثل النص والمتن ولذلك فهو في كل من التلمودين واحد لا اختلاف بينهما، أما الجماراه فيمثل الشرح أو التفسير، ولذلك فهو اثنتان: إحداهما وُضعت في فلسطين، والأخرى في العراق.

ولما كانت الجماراه البابلية أكمل وأشمل من الجماراه الفلسطينيَّة، فإن التلمود البابلي هو الأكثر تداولًا، وهو الكتاب القياسي عند اليهود.

ولذا، فحين يُستخدَم لفظ «التلمود» بمفرده، محلًّى بأداة التعريف، فإن المقصود به هو التلمود البابلي دون سواه، وذلك على أساس الميزة والأفضلية والتفوق.

وفي الكتابات العلميَّة، يشير اللفظ إلى الجماراه وحدها.

ويضاف عادةً تعليق راشي على التلمود عند طبعه، وإن كان هذا التعليق لا يُعَدُّ جزءًا منه.

ويبلغ عدد كلمات التلمود البابلي مليونين ونصف مليون كلمة في نسخته الأصليَّة (تشكل الأجاداه ٣٠% منها)، وعلى هذا فإن حجمه يبلغ ثلاثة أضعاف حجم التلمود الفلسطيني.

وقد كُتب التلمود بأكثر من لغة، فالمشناه كُتبت بعبرية خاصة تُسمَّى عبرية المشناه، أما الجماراه فكُتبت بالآراميَّة، فقد كُتبت الجماراه الفلسطينيَّة باللهجة الآراميَّة الغربية، أما الجماراه البابلية فكُتبت باللهجة الآراميَّة الشرقيَّة.

وتتسم الشروح الواردة في التلمود الفلسطيني بأنها أقصر وأكثر حرفية وقربًا من النص، ولكن يبدو ناقصًا ومشوهًا في ترتيبه ومظهره إذا ما قورن بالتلمود البابلي الذي يمتاز باشتماله على نص المشنا كاملًا وأفضليته في التنظيم والترتيب والمضمون.

ويتكون التلمود من عنصرين؛ فهناك العنصر الشرعي والقانوني (هالاخي) الذي يُذكِّرنا بأحكام الفرائض والتشريعات الواردة في أسفار الخروج واللاويين والتثنية، وهناك العنصر القصصي والروائي والأسطوري (أجادي) بما يشمله من الأقوال المأثورة (والأخبار والخرافات والشطحات والخيال) إلى جانب السحر والتراث الشعبي.

ومعظم المشناه تشريع (هالاخاه)، بينما معظم الجماراه قصص وأساطير (أجاداه).

ويُلاحَظ أن التفسير يستمد أهميته وثقله من مدى قدمه، فالأقدم أكثر ثقةً وأهمية من الأحدث[1].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الموسوعة الميسرة (١/ ٥٠١)، اليهودية عرض تاريخي ص(٨٦)، الفرق والمذاهب اليهودية ص(١١٨)، اليهودية ص(٢٦٥).

الفصل الثالث

موضوعات التلمود

وينقسم التلمود إلى كتب وأقسام تُسمَّى «سداريم»، وعدد السداريم ستة يعالج كل واحد منها موضوعًا من مواضيع الشريعة.

وتنقسم السداريم بدورها إلى أسفار تُسمَّى «ماسيختوت» مجموعها ثلاثة وستون، وتنقسم الأسفار إلى فصول تسمَّى «براقيم».

وقد قام الدكتور أسعد رزوق بوضع وصف موجز لأقسام التلمود (البابلي) وأسفاره حتى يُعرِّف بالموضوعات والمسائل الواردة فيه، وهي:

السدر الأول: سدر زراعيم (البذور):

يتألف هذا السدر من أحد عشر سفرًا أو مقالة، ويتناول قوانين التوراة الزراعية من الناحيتين الدينيَّة والاجتماعيَّة، ويسهب في شرح الأحكام التوراتية المتصلة بحقوق الفقراء والكهنة واللاويين في غلال الأرض والحصاد.

كما يَبسُط القواعد والأنظمة المتعلقة بالفلاحة والحرث وزراعة الحقول والجنائن وبساتين الأثمار، والسنة السبتية والعشار، بالإضافة إلى المواد المحظور خلطها في النبات والحيوان والكساء.

أما أسفار سدر زراعيم فهي:

١ . براخوت (البركات):

ويتناول هذا السفر صلوات اليهود وعباداتهم، والقواعد المتعلقة بالأجزاء الأساسية للصلوات اليومية.

٢ . فعاه (زوايا الحقل):

ويتناول القوانين المتعلقة بزوايا الحقل، واللقاط المنسي مما ينبغي تركه للفقراء، وغير ذلك من الفرائض والواجبات التي يرد ذكرها في سفر اللاويين (١٩/٩ . ١٠).

٣ . دماي (المشكوك بأمره من المحاصيل):

يتحدث هذا السفر عن المحاصيل الزراعية، كالذرة وغيرها من منتجات الأرض، وعن استخراج العشار اللازم منها أو عدمه.

٤ . كلائيم (المخاليط أو الأخلاط):

ويعالج هذا السفر الأحكام التوراتية الواردة في اللاويين (١٩/١٩)، والتثنية (٢٢/٩ . ١١)، بالنسبة لخلط البذور المختلفة في الزراعة، أو الجمع بين جنسين من المواد في الثوب.

٥ . شفيعوت (السنة السابعة أو السبتية):

ويبحث في القوانين المتعلقة بإراحة الأرض والإبراء من الديون في السنة السبتية.

٦ . تروموت (التقدمات: الرفائع أو جراية الكهنة):

ويعالج القوانين والفرائض المتعلقة بذلك القسم من الغلال والمحاصيل المعين للكاهن.

٧ . معشروت (العشور):

وموضوعه العشار الأول المتوجب دفعه سنويًا إلى اللاوي من غلة الحصاد، واللاوي بدوره يعطي الكاهن منه نسبة العُشر.

٨ . معشر شيني (العشار الثاني):

يتناول هذا السفر موضوع العشار الثاني الذي يحمله المالك بنفسه إلى أورشليم (القدس) لكي يؤكل هناك.

٩ . حلّه (أول العجين):

ويتعلق هذا السفر بذلك القسم من العجين المفروض إعطاؤه للكاهن، وقد سمي هذا السفر كذلك؛ لأنه يتناول قانون العجين الأول وفرائضه.

١٠ . الغُرله (بلاختتان . الغلفاء):

ويتناول هذا السفر الحظر على استعمال ثمار الأشجار الصغيرة خلال السنوات الثلاث الأولى، وقواعد الاعتناء بهذه الأشجار في السنة الرابعة طبقًا لما جاء في سفر اللاويين (١٩/ ٢٣ . ٢٥).

١١ . البكوريم (البواكير، الثمار الأولى):

وهنا أيضًا، فإن هذا السفر ينص على قوانين تقديم الثمار الأولى في الهيكل، ويتضمن وصفًا للشعائر التي ترافق التقدمة.

السدر الثاني: سدر موعيد (الأعياد والمواسم).

يؤلف سدر موعيد القسم الثاني من التلمود البابلي في طبعة سونسينو، وهو يتوزع على اثني عشر سفرًا تضمها أربعة مجلدات ضخمة.

أما تسمية «موعيد» بمعنى «الموعد» أو «الموسم المقدَّس»؛ فهي مأخوذة على الأرجح من سفر اللاويين (٢٣/ ٢).

والملاحَظ أن المسائل الأساسية التي تتناولها أسفار هذا القسم تتعلق بالسبت والأعياد وأيام الصوم وغير ذلك من المواسم والمناسبات الدينيَّة، بالإضافة إلى الطقوس والشعائر والفرائض والقرابين، وإلى قواعد تنظيم التقويم العبراني «حساب الميقات للأعياد اليهوديَّة . . وكيفية معرفة الأشهر العبريَّة القمرية من السنة الشمسية لتعيين الأعياد اليهوديَّة».

وهنا أيضًا يطالعنا الكثير من شرائع التوراة والشرائع والقوانين المستمدة من خارج التوراة، جنبًا إلى جنب:

١ . **شبات (السبت):**

يتناول هذا السفر قوانين السبت والقواعد اللازمة لمراعاة عطلة يوم الراحة، كما يتحدث بالتفصيل عن الأعمال المحظورة في ذلك النهار.

وفي مواضع أخرى من التلمود، نجد الحاخامات يضعون السبت مقابل جميع الأحكام الأخرى الواردة في التوراة من حيث الأهمية وقد وضع الحاخامات قائمة مفصلة تتضمن تسعة وثلاثين عملًا من الأعمال الأساسية وأضافوا إليها سلسلة أخرى من الأعمال الفرعية وغيرها.

٢ . **عيروبين (المقادير):**

لفظة «عيروب» تكون بمعنى «الخليط» أو «المزيج»، ومن هنا فإن صيغة الجمع «عيروبين» تكون بمعنى كمية من الأطعمة المحددة التي تُودَع في مكان معيَّن لكي تكون بمنزلة الزاد للمسافرين أثناء عطلة السبت دون أن تبتعد تلك الأمكنة عن بعضها البعض الآخر فيصبح الانتقال خرقًا لقانون السبت. والعيروبين هي المقادير المثاليَّة التي يصح الجمع بينها فيما يتعلق بالأمكنة والأطعمة والمسافات بحيث يؤدي ذلك إلى توسيع حدود السبت.

لذا، نجد هذا السفر يتناول القوانين والأنظمة التي تتيح لليهودي حرية الحركة خارج نطاق الحدود الموصوفة وأثناء السبت والأعياد.

٣ . **فصاحيم (خراف الفصح):**

ويتناول هذا السفر قوانين إتلاف الخمائر أثناء عيد الفصح اليهودي، وتقديم الخراف والذبائح قربانًا، ومواسم الرب المقدَّسة.

وفي الفصل العاشر والأخير من هذا السفر، ترد التفاصيل المتعلقة بوليمة عشية الفصح والصلوات التي تصاحبها.

٤ . **شقاليم (الشواقل):**

من «شيقل»؛ أي «شيكل» وهو «المثقال من الفضة».

ويحوي هذا السفر أحكام الضرائب والرسوم التي تتم جبايتها لصيانة الهيكل وتأمين نفقاته وتقديم الذبائح بصورة منتظمة.

كما يتحدث بالتفصيل عن الأشياء التي تُنفَق من أجلها الشواقل، ويتضمن القوائم التي تسرد أسماء كبار العاملين الرسميين في الهيكل.

٥ . **يوما (اليوم):**

يُعرف هذا السفر أيضًا باسم سفر «يوم الغفران»؛ لأنه يتناول أنظمة هذا العيد وفرائضه داخل

الهيكل، كما يَبسُط قوانين الصوم وأحكامه ويصف الاحتفالات والطقوس التي كان يترأسها الكاهن الأعظم في ذلك اليوم.

٦ . سوكاه (المظلة):

يحوي هذا السفر قوانين عيد المظال، وكيفية إقامة المظلة أو الخيمة، والإقامة تحتها سبعة أيام.

كما يتحدث عن شعائر هذا العيد وصلواته، وعن النباتات الأربعة التي تؤخذ أغصانها لصنع المظلة.

٧ . بيصة (بيضة العيد):

ويُعرف أيضًا باسم «العيد» أو «يوم طوف»؛ إذ يرسم الحدود التي تتحكم في إعداد الأطعمة أثناء الأعياد. كما يسرد مختلف أنواع الأعمال التي يُحظَر إتيانها أو يُسمَح بها خلال أيام العيد.

٨ . روش هشاناه (رأس السنة):

يتناول المسائل المتعلقة بالتقويم العبري ورؤية الأهلة للسنة الجديدة، مثلما يحوي القوانين التي تجب مراعاتها في مطلع الشهر السابع (تشري)، أي رأس السنة المدنية عند اليهود.

٩ . تعنيت (الصوم):

ويتناول أحكام الصوم للأيام الرسمية أو المناسبات الطارئة على الصعيدين الشخصي والجماعي، وترتيب الصلوات التي تُتلى في ذلك اليوم.

١٠- مجيلاه (لفافة التوراة):

ويتناول هذا السفر كتاب إستير (بالدرجة الأولى)؛ لأنه يتناول أحكام قراءة قصة إستير في عيد النصيب.

كما ترد فيه أحكام أخرى تتعلق بقراءة التوراة أثناء العبادات العامة.

١١ . موعيد قاطان (العيد الصغير):

ويُعرف هذا السفر أيضًا باسم «مشكين»، نسبة إلى الكلمات الأولى في السفر.

ويتناول أحكام العمل أثناء الأيام الفاصلة بين أوائل عيد الفصح وأواخره وبين عيد المظال.

كما يتحدث عن الفرائض المتعلقة بالحزن والحداد.

١٢ . حجيجاه (قرابين الأعياد):

يتناول القوانين والأحكام المتصلة بالقرابين التي تُقدَّم في الأعياد، ويقارن بين شعائر الأعياد الثلاثة الكبرى، بالإضافة إلى الحديث عن فريضة الحج إلى القدس، وأنواع القرابين التي ينبغي تقديمها في مثل تلك المناسبات.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا السفر يتضمن ذلك الاستطراد الشهير عن التعليم الباطني

للتوراة، حيث تكثر التخريجات والشطحات الخيالية التي وجدت تربتها الخصبة في كتاب الزوهار، وكان لها أبعد الأثر في تعاليم القبَّالاه أو التصوف اليهودي.

السدر الثالث: سدر ناشيم (آلنساء).

تشتمل أسفار هذا القسم من التلمود على قوانين الزواج والطلاق، وغير ذلك من الأحكام التي تحدد العلاقات بين الزوجين، وبين الجنسين بصورة عامة.

وهي تبلغ السبعة عددًا، موزَّعة على أربعة مجلدات في طبعة سونسينو.

١ . يباموت:

وهذه الكلمة صيغة جمع مؤنث في اللغة العبريَّة مفردها «يَبَماه»، واليماه هي امرأة الأخ المتوفى التي يجب على أخيه الباقي على قيد الحياة الزواج منها.

وهذا السفر يبدأ بالحديث عن الشرع التوراتي القائل بوجوب زواج الأخ من امرأة أخيه الذي تُوفي دون أن ينجب.

كما يتناول الزيجات المحظورة بشكل عام، وحق الفتاة القاصر في إبطال عقد زواجها، بالإضافة إلى التقليد اليهودي المعروف باسم «خلع النعل».

و«خلع النعل» يتم عند امتناع الرجل عن أخذ امرأة أخيه عملًا بقوانين زواج الأرملة.

٢ . كتوبوت (شئون الزواج والعقود):

يتناول هذا السفر أحكام الاتفاق حول العروس والغرامة المتوجبة عن الإغواء، بالإضافة إلى واجبات الزوجين وحقوق الأرملة والأولاد المنحدرين من زيجات سابقة.

٣ . نزاريم (النذور):

يصف هذا السفر مختلف أشكال النذور، والأنواع غير الصحيحة منها، وكيفية إلغائها والتراجع عنها. كما يتحدث عن قوة إلغاء النذور التي نذرتها المرأة أو الابنة وألزمت نفسها بها.

٤ . نازير (النذير أو الناذر):

ويتحدث هذا السفر عن النذر الذي يُلزم الناذر به نفسه وكيفية التخلي عنه، والأمور المحظورة على الناذر والقيمة التي تُعطَى لنذر النساء والعبيد.

٥ . سوطه (المرأة المشبوهة):

الموضوع الأساسي في هذا السفر هو المحنة التي تتعرض لها المرأة التي يشكك زوجها في إخلاصها، ويتهمها بارتكاب الزنى، والإجراءات التي ترافق ذلك.

وهناك موضوعات أخرى تتعلق بالمعادلات والصياغات الدينيَّة، ما يجوز منها بلغات أخرى، وما لا يصح إلا بالعبريَّة وحدها. كما يتحدث هذا السفر عن الأنواع السبعة من الفريسيين، وعن

الإصلاحات التي أوجدها هيركانوس إلى جانب الحرب الأهلية التي دارت رحاها بين أريسطوبولس وهيركانوس حينذاك.

٦ . جيطين (كتب أو وثائق الطلاق):

ويعرض بالتفصيل للظروف المختلفة التي تؤدي بالرجل إلى مناولة المرأة وثيقة طلاقها عندما يفسخ الزواج.

وفي الشرع اليهودي، هناك أسباب معينة (كما هو الحال في الشرائع الدينيّة الأخرى) تخوّل الزوج حق إرغام زوجته على قبول الطلاق، والعكس بالعكس.

وصيغة المفرد من كلمة «جيطين» هي «جيط» ومعناها «كتاب الطلاق» أو «وثيقة الطلاق».

٧ . قدوشيم (التكريس):

يتناول هذا السفر الشعائر والفرائض المتصلة بالخطوبة والزواج، كما يتحدث عن كيفية اقتناء العبيد والأقنان بصورة شرعية، وتملُّك العقارات، إلى جانب مبادئ الأخلاق وغير ذلك من المسائل المتعلقة بعقود الزواج والقران... إلخ.

السدر الرابع: سدر نزيقين (الأضرار).

وتُقسَّم الأسفار العشرة في هذا الجزء من التلمود إلى قسمين أساسيين:

القسم الأول: يضم الأسفار، أو الأبواب الثلاثة الأولى (الباب الأول والأوسط والأخير) وموضوعها العام هو القانون المدني.

وفي التلمود الفلسطيني تندرج هذه الأسفار الثلاثة تحت موضوعٍ واحد وشامل: قضايا المال.

أما القسم الثاني، فيضم مقالتي «سنهدرين»، و«ماكوت» في القانون الجنائي، وتأتي الأسفار الخمسة الباقية كملاحق لهما.

١ . بابا قاما (الباب الأول):

التسمية آرامية الأصل، والمُسمَّى يتناول أحكام الأضرار اللاحقة بالأملاك، والأذى المرتكب ضد الأشخاص بدافع إجرامي، أو على صعيد الجنحة.

كما يعالج قضايا التعويض عن السرقة والسلب واقتراف العنف.

ومن أحكامه الشائعة في شتى المصنفات والمقتبسات عن التلمود، ما يلي: إذا نطح ثور الإسرائيلي ثورًا يملكه رجل كنعاني، فإن صاحب الثور اليهودي لا يلتزم بشيء. أما إذا كان الثور الكنعاني هو البادئ بالنطح، فعلى صاحبه أن يتكفل بالتعويض الكامل عن كل عطل وضرر.

٢ . بابا متسيعا (الباب الأوسط):

ويتناول الأحكام المتعلقة بالأشياء المفقودة التي يتم العثور عليها، والبيع والمبادلة والربا والغش

والاحتيال واستئجار العمال والبهائم، بالإضافة إلى الإيجار والتأجير والملكية المشتركة للبيوت والحقول.

٣ . بابا باترا (الباب الأخير):

يعالج هذا السفر القوانين المتعلقة بتقسيم أملاك الشراكة والعقارات، وقوانين التجارة، بالإضافة إلى القيود المفروضة على الأملاك الخاصة والعامة وحقوق الملكية والوراثة.

كما يتناول مسألة التملك والتمليك، وإعداد مسودات الوثائق.

٤ . سنهدرين (المحاكم القضائية):

ويتناول تأليف مختلف المحاكم القضائية، وإجراءات المحاكمة، وعقوبات الموت والإعدام عن الجرائم الكبرى.

فهو مليء بالقوانين المتعلقة بالمحاكمات والتحكيم والإجراءات القضائية في القضايا المالية وفي الجرائم الكبرى.

كما يتضمن مواصفات كيفية تنفيذ أحكام الإعدام وعقوبات الموت، إلى جانب العقائد المتصلة بالديانة اليهوديَّة.

ويحوي السفر الشيء الكثير مما له علاقة مباشرة أو غير مباشرة بمحاكمة السيد المسيح والعقوبة التي يجب إنزالها بالخارج على دينه.

٥ . مكوت (الجلدات):

يتحدث هذا السفر عن اليمين الكاذبة، والحنث باليمين، وشهادة الزور، وعن «مدن اللجوء». بالإضافة إلى الآثام التي عقوبتها الجلد بالسياط، والأحكام المتعلقة بكيفية تنفيذ الجلد (٣٩ جلدة).

٦ . شبوعوت (القَسَم أو اليمين):

يتناول هذا السفر مختلف أنواع اليمين، أي ما يحلفه الشخص بمفرده أمام المحكمة.

ويمين المحكمة يصدق على الشهود والمتقاضين، مثلما يصدق على المراقبين والأوصياء.

٧ . عيديوت (الشهادات):

ويتضمن هذا السفر مجموعة من القوانين والأحكام المختلفة.

٨ . عفوده زاراه (عبادة الأصنام):

ويتحدث هذا السفر عن عبدة الأصنام والأوثان: شعائرهم وطقوسهم وأعيادهم. كما يتضمن مواصفات الأحكام التي ينبغي إنزالها بعبدة الأصنام، والذين يشاركونهم، أو يختلطون معهم عن طريق التعامل أو الاتصال الاجتماعي. ويتضمن السفر كثيرًا من الأحكام والأقوال

ذات الطابع الانتقامي التعويضي.

٩ . آفوت (سفر الآباء):

ويتضمن التعاليم والأقوال المأثورة عن آباء التراث اليهودي منذ السنهدرين الأكبر فصاعدًا. وهو مليء بالتعاليم الأخلاقية والأقوال الحكمية المنسوبة في معظمها إلى معلمي المشناه (تنائيم).

١٠ . هورايوت (الأحكام أو القرارات):

ويتناول هذا السفر الأحكام الخاطئة التي تَصدُر عن السلطات الدينيَّة في المسائل المتعلقة بالشعائر والطقوس.

كما يتحدث عما يجب تقديمه من تضحيات وذبائح، إذا تَصرَّف الجمهور وفقًا لهذه التعاليم والأحكام الخاطئة.

السدر الخامس: سدر قداشيم (المقدَّسات).

يدور الموضوع الأساسي في هذا القسم من التلمود حول الطقس القرباني والتضحيات المتعلقة بالهيكل.

وكانت معظم الفرائض والأحكام الواردة في أسفاره مرتبطة أشد الارتباط بوجود الهيكل.

لكن الحاخامات، في فلسطين وبابل، تابعوا اهتمامهم بالطقوس القربانية والعبادات رغم هدم الهيكل وانقطاع الصلة بين الممارسة الفعلية والغرض الأساسي من وراء تلك الشعائر.

ويحاول الحاخام الذي كتب مقدمة هذا الجزء في طبعة سونسينو إرجاع الاهتمام لدى المدارس الدينيَّة المتأخرة بموضوع الطقوس القربانية إلى اعتبارات تاريخية أكاديمية وأخرى عملية على حدٍّ سواء.

فمن جهة، كان هناك الأمل اليهودي في تطلُّعِه الدائم إلى إعادة بناء الهيكل عاجلًا أم آجلًا واستعادة العبادة القربانية.

لذا، فقد رأوا أن من واجبهم الإلمام بقوانين تلك الطقوس التي سوف تؤذن بالرجوع إلى سابق العهد.

ومن جهة ثانية، نما اعتقاد الحاخامات بأن دراسة الشرائع والفرائض القربانية يمكنها أن تحل محل طقس الهيكل، وهي بالتالي لا تقل قيمة عن تقديم القرابين والتضحيات في حد ذاتها.

ويقسَّم هذا السدر إلى أحد عشر سفرًا كما يلي:

١ . زباحيم (الذبائح):

يحتوي هذا السفر على الأحكام المتعلقة بتقديم الذبائح الحيوانية على اختلاف أنواعها وعلى اختلاف المراحل التي تمر بها.

كما يضع الشروط التي تجعل القرابين مقبولة أو غير مقبولة.

ويسهب السفر في شرح الشعائر المتصلة برش الدماء، وإحراق القطع الدهنية أو الذبيحة الحيوانية كلها، إلى آخر تلك التفاصيل المتعلقة بهذه الممارسات.

٢ . مناحوت (قرابين اللحوم والشراب):

ويصف قواعد إعداد قرابين الطعام والشراب وكيفية القيام بها: من سكب الزيت على القرابين إلى الدقيق الملتوت، ومن حزمة أول الحصيد إلى الرغيفين المخبوزين «خميرًا باكورة للرب»، إلى الفطائر الاثني عشر التي تُخبَز من الدقيق أيضًا.

٣ . حولين (الدنيويات):

ويتضمن هذا السفر مواصفات ذبح الحيوانات والطيور للاستهلاك العادي، بالإضافة إلى تعداد مختلف الأمراض التي تجعل أكل تلك الذبائح محرَّمًا.

وهناك معالجة عامة لجميع قوانين الأطعمة والأحكام التي ينبغي التقيد بها في إعداد الطعام.

٤ . بكوروت (البواكير):

ويتناول القوانين المتعلقة بالمواليد البكر من الحيوان والإنسان.

٥ . عراخين (التقديرات):

ويتضمن هذا السفر قواعد تحديد الكمية التي ينبغي تقديمها وفاءً لنذر ما للهيكل، بحيث يجري تقييم الشخص أو الشيء المنذور، ويختلف التقييم باختلاف السن والجنس (الذكر والأنثى)، كما أن تجنيس البهيمة وتقييمها عائد إلى كاهن الهيكل.

وعلاوة على التقييمات المذكورة، يتناول السفر القوانين التابعة لسنة اليوبيل.

٦ . تموره (الإبدال أو البدل):

ويتناول قواعد إبدال القرابين وتغييرها: الجيد بالرديء والرديء بالجيد، أي أن الموضوع يتعلق بتبديل بهيمة نجسة بأخرى سَبَق تقديمها على مذبح الهيكل.

٧ . كريتوت (الرسوم الجزائية):

ويعالج الآثام والأخطاء التي تخضع لعقاب القطع (كريتاه) أو الفصل فيما لو جرى اقترافها بمحض الإرادة.

أما إذا جرى ارتكاب الخطيئة عن غير قصد، فلا بد أيضًا من تقديم القرابين تكفيرًا عنها.

ويبحث هذا السفر كذلك الحالات التي يتوجب فيها تقديم القرابين بصورة غير مشروطة أو يتوجب فيها تعليق القرابين.

٨ . معيله (الإثم والخطيئة):

ويتناول هذا السفر مسألة انتهاك الحرمات والمقدَّسات وتدنيس الأشياء التابعة للهيكل والمذبح.

٩ . تاميد (التضحية اليومية أو المستمرة):

ويصف خدمات الهيكل من حيث اتصالها بتقديم القرابين اليومية في الصباح والمساء، وخصوصًا الخراف التي ينبغي تقديمها على المذبح صباحًا وعشية.

١٠ . مِدوت (المقاييس والأبعاد):

يحتوي هذا السفر على مقاييس الهيكل ومواصفاته، سواء فيما يتعلق بالساحات والأبواب والقاعات، أو فيما يتعلق بالمذبح.

كما يتضمن وصفًا للخدمات التي يؤديها الكهنة أثناء وجودهم في الهيكل، وأثناء قيامهم بحراسته وتدبير شئونه.

١١ . قنِّيم (الأعشاش):

ويسرد الأنظمة والأحكام المتعلقة بتقديم العصافير والطيور قربانًا للتكفير عن الخطايا والمعاصي التي يقترفها الفقراء.

كما يتناول بعض الأحوال والشروط المتصلة بالنجاسة والقذارة، ويبحث حالة الخلط بين الطيور التي تخص مختلف الأشخاص أو التي تنتمي إلى قرابين مختلفة.

السدر السادس: سدر طُهاروت (التطهيرات).

والواقع أن الموضوع المشترك بين أسفار هذا الجزء السادس والجزء الأخير من التلمود يتصل بأحكام الطهارة والنجاسة (أو الرجاسة) لدى الأشياء والأشخاص. وتؤلف هذه الأحكام جزءًا من مجموعة قوانين تتعلق بالطهارة اللاوية.

ومما يجدر التنبيه إليه أن قوانين النجاسة هذه لم تكن سارية المفعول خارج فلسطين، فقد بطل معظمها في فلسطين بعد هدم الهيكل وطويت في عالم النسيان، إلا ذلك القانون المتعلق بأحكام الحيض لدى النساء فما زال ساري المفعول حتى أيامنا هذه. وقد أصبح التشديد محصورًا بالدرجة الأولى في مسألة النجاسة اللاوية وتَعدَّى نطاق العلاقات الزوجية. والمعروف أن أحكام الطهارة هذه تستند إلى عدد من الأوامر والنواهي الواردة في أماكن مختلفة من الأسفار الخمسة للتوراة، وبشكل خاص في الإصحاحات (١١/ ١٥) من سفر اللاويين.

١ . كلائيم (الأواني والأوعية):

ويتحدث هذا السفر عن قواعد النجاسة في الأواني والأدوات التي تُستخدَم للمنفعة البشرية، فيحاول تبيان الظروف والشروط التي تتحكم في نجاستها أو تجعلها عرضة للتنجس.

والأواني تشمل الأثاث والملابس، وغير ذلك من أدوات الاستعمال.

٢ . أُهالوت (الخيام):

ويتناول الخيام والمساكن باعتبارها ناقلة للنجاسة والرجس، سواء عن طريق جثة الميت. أو بواسطة الأواني والأوعية التي توجد معها تحت سقف الخيمة أو المسكن، حيث تنتقل منها إلى الأشخاص والأدوات الأخرى.

٣ . نجاعيم (البَرَص والطواعين والأوبئة):

يبسط القوانين المتعلقة بمعالجة البَرَص في البشر والألبسة والمساكن.

كما يتضمن المواصفات الضرورية لتطهير الأبرص وطرد النجاسة من بدنه.

٤ . باراه (العجلة الحمراء . البقرة الصغيرة):

ويتحدث هذا السفر عن الخصائص الواجب توافرها في العجلة الحمراء (باراه أدوما) وصولًا إلى إعداد رمادها للاستخدام في التطهير من النجاسة والرجاسة.

٥ . طُهاروت (تطهيرات):

ويعالج أحكام النجاسة في الأطعمة والأشربة على اختلاف أنواعها ودرجاتها.

كما يبين الشروط التي تتحكم في تنجيسها عن طريق الاحتكاك بمختلف مصادر النجاسة ودرجاتها.

٦ . مقواءوت (الآبار والخزانات):

ويتضمن هذا السفر مواصفات الآبار والصهاريج والخزانات فيما يتعلق بالمتطلبات التي تجعلها صالحة شعائريًّا للتطهير والتغطيس، كما يتناول القواعد الحاكمة في جميع أنواع التغطيس الشعائري والطقسي.

٧ . نيدّه (الحائض والحيض):

ويفصل القول في أحكام النجاسة الشرعية التي تنشأ لدى النساء بسبب الحيض والنفاس وبعد الولادة.

٨ . مقشيرين (الاستعدادات):

ويتناول الظروف التي تصبح الأطعمة بموجبها قابلة للنجاسة أو عرضة للتنجس بعد احتكاكها بالسوائل، كما يعدِّد السوائل التي تجعل الأطعمة في تلك الحالة.

٩ . زافيم (الزاب . السيلان):

ويتحدث هذا السفر عن نجاسة الرجال والنساء عند الإصابة بأمراض الزهري والسيلان المنوي وغير ذلك.

١٠ . طبول يوم (الغسل اليومي):

ويبحث في طبيعة النجاسة لدى الشخص الذي قام بالغسل الشعائري (المفروض أثناء النهار) لتطهير نفسه؛ فإن عليه الانتظار حتى غروب الشمس لكي يُعتبر طاهرًا ونظيفًا.

١١ . يادِيم (اليدان وتطهيرهما):

ويتناول نجاسة اليدين قبل الغسل وكيفية تطهيرهما بطريقة شعائرية مستمدة من الشريعة الشفوية، والتطهير يتم بالماء.

ويتضمن إلى جانب ذلك بحثًا عن بعض أسفار التوراة، كما يسجل شيئًا من المناظرات والخلافات التي دارت بين الصدوقيين والفريسيين.

١٢ . عقصين (سويقات الثمار وقشورها):

ويعرض للظروف والشروط التي تصبح بموجبها سويقات النبات والثمر قابلة لنقل النجاسة إلى الثمار والنباتات المتصلة بها والعكس بالعكس؛ أي كيف تتنجس هذه الأشياء لدى ملامستها الأشياء النجسة.

نظرة عامة على موضوعات التلمود

التلمود يضم بداخله وجهات نظر شتى متناقضة تمامًا، فهو عبارة عن موسوعة تتضمن الدين والشريعة والتأملات الميتافيزيقية والتاريخ والآداب والعلوم الطبيعية.

كما يتضمن، علاوة على ذلك، فصولًا في الزراعة وفلاحة البساتين والصناعة والمهن والتجارة والربا والضرائب وقوانين الملكية والرق والميراث وأسرار الأعداد والفلك والتنجيم والقصص الشعبي، بل ويغطي مختلف جوانب حياة اليهودي الخاصة، أي أنه كتاب جامع مانع بشكل لا يكاد يدع للفرد اليهودي حرية الاختيار في أي وجه من وجوه النشاط في حياته العامة أو الخاصة، إن هو أراد تطبيق ما جاء فيه.

ويشيرون إلى التلمود بعبارة «كلُّ بو» (أي: كلٌّ به)، فهو يشتمل على كل ما يَعنُّ لليهودي أن يسأل عنه من شريعة دينه.

وكل العقائد اليهوديَّة المعروفة قد دُوِّنت وصُنِّفت فيه، بشكل واضح أحيانًا، وبشكل غامض مشوش أحيانًا أخرى.

ويضم أيضًا موضوعات وطرائف لا تنضوي بالضرورة داخل إطار فلسفي واضح، أو رؤية دينية محددة، فهو يتحول أحيانًا إلى مجرد وثيقة اجتماعيَّة لا توجه الواقع وإنما تعكسه وحسب؛ فصفحات التلمود تعكس وضع اليهود الاقتصادي كجماعة وظيفية تعمل بالتجارة.

ولا يقتصر التلمود على حياة اليهود العامة، وإنما يمتد ليشمل أخص خصوصياتهم.

فهو يتناول، ضمن ما يتناول، كل دقائق إعداد الطعام وتناوله والعلاقات الخاصة بين الرجل

وزوجته والطمث.

والتلمود كتاب طبي أيضًا، فإننا نجد فيه وصفات طبية عديدة، فهو ينصح بضرورة التعرض للماء البارد بعد حمام ساخن.

كما نجد في التلمود شرحًا لأسباب الإمساك وطريقة معالجته. وينصح التلمود أيضًا بأن من: «يطيل البقاء في المرحاض، يطيل الرب أيامه وسنيه».

وهناك صلاة شكر تُتلى بعد تلبية نداء الطبيعة.

ويمكن اعتبار التلمود كتاب فولكلور يعكس شتى الممارسات والآراء الخرافية التي كانت سائدة في مكان نشأته، سواء في بابل أو في الأماكن الأخرى التي عاش فيها الشارحون.

ولأن كُتَّاب التلمود يدورون في نطاق حلولي، فإننا نجدهم يؤمنون بإمكانية التحكم الكامل والتوصل للحل السحري (الغنوصي) وبفاعلية العلاجات العجائبية والعقاقير الشيطانية والسحر والرق والتعاويذ.

والتلمود أيضا كتاب تنجيم وسحر وتفسير أحلام.

ومما يُذكَر فيه أن قارئه الراغب في رؤية العفاريت رؤية العين يمكنه ذلك باتباع خطوات تم تحديدها بدقة متناهية، وإن أراد طرد العفاريت فصفحاته تضم تعاويذ تفي بذلك الغرض.

ويُلاحظ بعض الباحثين أن بعض المفاهيم القانونية في التلمود البابلي تعكس أثر القانون الفارسي.

كما أن التلمودين مختلفان في بعض المواطن، فيُلاحظ مثلًا أن الموقف من الوثنيين في التلمود البابلي أكثر تسامحًا؛ لأن وضع اليهود في بابل كان جيدًا، فقد جاء في التلمود البابلي أن الأغيار خارج فلسطين لا يمكن اعتبارهم من الوثنيين.

وبينما يُحرِّم التلمود الفلسطيني بيع أية سلع للوثنيين في الأيام الثلاثة التي تسبق أي عيد وثني، فإن علماء بابل حرموا البيع في أيام العيد الوثني وحسب.

ومن أهم التطورات التي دخلت الشريعة اليهوديَّة ما جاء في التلمود البابلي من أن: «شريعة الدولة هي شريعتنا»، بل قد ورد في التلمود البابلي دعاء خاص يُتلى أمام ملوك الأغيار ويطلب لهم البركة، نصه: «مبارك هو الذي منح مخلوقاته شيئًا من جلاله»[١].

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، اليهودية عرض تاريخي ص(٨٦).

الفصل الرابع

تاريخ التلمود

تعود الآراء والفتاوى التي وردت في التلمود إلى القرن الخامس قبل الميلاد.

وقد بدأت عملية جمعها وتدوينها مع القرن الثاني الميلادي، واستمرت عملية التفسير والتدوين حتى القرن السادس.

وبعد اكتمال نص التلمود، استمرت الإضافات والتعليقات، حتى القرن التاسع عشر، حين أضاف إلياهو (فقيه فلنا) تعليقاته.

ويمكن تلخيص ظهور التلمود وتطوُّره على النحو التالي:

السنة

الإضافات والتعليقات

٤٠٠ - ١٠٠ ق.م

الكتبة (سوفريم): يكتبون كتب المدراش (التعليق والتفسير) بالعبريَّة.

١٥٠ ق.م - ٣٠ م

الأزواج (زوجوت)، وهم المعلمون الكبار.

١٠٠ ق.م - ٧٠ م

الفريسيون دعاة الشريعة الشفوية.

٧٠ - ٢٠٠

معلموا المشناه (التنائيم)، ومن أشهر التنائيم الأواخر يهودا الناسي وهو الذي جمع أقوال علماء الدينيين السابقين في المشناه المكتوبة بالعبريَّة.

٢٠٠ - ٤٠٠

الشراح (أمورائيم)، الجماراه الفلسطينيَّة بالآراميَّة، وقليل من العبريَّة.

٢٠٠ - ٥٠٠

الشراح (أمورائيم)، الجماراه البابلية بالآراميَّة، وقليل من العبريَّة.

٥٠٠ - ٧٠٠

المفسرون (صبورائيم) تدوين المشناه والجماراه.

وبذلك يكون قد انتهى تدوين التلمود، وتبدأ مرحلة التعليقات.

٧٠٠م- ١٠٠٠م

الفقهاء (جاءونيم) في بابل ينشرون التعاليم التلمودية.

١٠٠٠

تعليقات راشي (١٠٤٠ - ١١٠٥)، وتعليقات الشراح الإضافيين (توسافوت)، أهم التعليقات بالعبريَّة.

١٢٠٠

موسى بن ميمون (١١٣٥ - ١٢٠٤) يؤلف مشنيه توراه (تثنية الشريعة).

١٣٠٠

يعقوب بن آشر يؤلف سفر هاطوريم (كتاب الصفوف).

١٦٠٠

جوزيف كارو (١٤٨٨ -١٥٧٥) يؤلف الشولحان عاروخ (المائدة المصفوفة أو العامرة) عام ١٥٦٤، ويشير إلى أن الإيمان بالقبالاه فرض ديني.

١٨٥٠

إلياهو (فقيه فلنا) يضيف تعليقاته.

المصنفات على التلمود:

ويشكل التلمود، بسبب ضخامته وطريقة تصنيفه، صعوبة غير عادية في محاولة استخدامه والاستفادة منه. ومن هنا، بدأت جهود تصنيفه بعد الانتهاء منه.

وقد كانت أولى هذه المحاولات هي هالاخوت بيسكوت (القوانين المقررة) التي تُنسَب إلى يهوداي جاءون، والقوانين العظمى التي كتبها سيمون كيارا، وكلا العملين يلخصان المادة التلمودية المتعلقة بالشرائع.

وظهرت عدة مصنفات أخرى في القرن الحادي عشر، وخصوصًا في العالم العربي، في شمال أفريقيا وأوربا وأهمها:

١- مشنيه توراه، أي «تثنية التوراة» أو «إعادة الشريعة» التي كتبها موسى بن ميمون في القرن الثاني عشر.

وهي من أهم الأعمال التي صدرت في هذا الحقل.

ويختلف منهجه عن التلمود في أنه لا يكتفي بالعرض دون ترجيح.

وهو لا يجمع روايات ولا يخوض غمار المناقشات بل نجده يفصل في الأمور حكمًا فاصلًا.

وقد اتبع ابن ميمون مبدأ عقلانيًا، فأقصى عن مادته جميع القواعد الشعبية التي كانت في منزلة

الشريعة في زمن التلمود والتي ترجع جذورها إلى الخرافات الشائعة.

والموقف الأساسي لديه يتلخص في القول بأن الشريعة والشعائر وُجدت من أجل الإنسان وليس العكس.

وقد أعاد موسى بن ميمون توزيع السداريم الستة إلى أربعة عشر كتابًا يُسمَّى الواحد منها «السفر».

وقد اشتهر كتابه باسم «يد حزقاه» (أي «اليد القوية»)؛ لأن الياء تساوي عشرة والدال تساوي أربعة في حساب الجمل، وفي ذلك ما يرمز إلى الأربعة عشر جزءًا التي يتألف منها الكتاب.

٢- وقد أثّر مصنف ابن ميمون في المصنفات التي جاءت بعده، ويظهر هذا في كتاب سفر هاطوريم، أو كتاب الصفوف الذي وضعه يعقوب بن آشر في الأندلس في القرن الرابع عشر حيث اعتمد على تثنية التوراة في تنسيق الأحكام الشرعية وثيقة الصلة بالحياة العملية، وحذف تلك الشرائع التي أصبحت بالية منذ هدم الهيكل.

٣- الشولحان عاروخ: وقد وضعه جوزيف كارو في القرن السادس عشر، وقد اتبع تقسيم سفر هاطوريم، وهو آخر التصنيفات وأصبح أهمها، وخصوصًا بعد أن قام موسى إيسيرلز (موشى يسرائيليتش) بإضافة شروحه.

ويُعَدُّ الشولحان عاروخ المستودع الأساسي للأفكار والقيم الحاكمة في اليهوديَّة الحاخامية والتلمودية[1].

انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الموسوعة الميسرة (١/ ٥٠١)، اليهودية عرض تاريخي ص(٨٣-٨٥)، إظهار الحق، رحمة الله الهندي (١/ ٧١)، الفرق والمذاهب اليهودية ص(١١٩).

الفصل الخامس

طبعات وترجمات التلمود وما طرا عليه من حذف وتغيير

طُبع التلمود الفلسطيني في البندقية (١٥٢٣ ـ ١٥٢٤)، كما أن التلمود البابلي كان قد بدأت طباعته في إسبانيا عام ١٤٨٢ .

لكن أقدم طبعة كاملة ظهرت في البندقية أيضًا (١٥٢٠ ـ ١٥٢٣)، وأشرف على طبعها دانيال بومبرج.

وقد أصبحت هذه الطبعة النموذج الأصلي الذي حذت حذوه مختلف الطبعات التي تلتها.

فطبع في مدينة أمستردام في سنة ١٦٤٤م، وفي سلزباج سنة ١٧٦٩م، وفي فارسوفيا سنة ١٨٦٣م، وفي مدينة براغ سنة ١٨٣٩م.

وكل هذه الطبعات محذوف منها، ويضعوا مكان الحذف الأحرف (بند) المختصرة من لفظة بندقية، أي ما هو محذوف في هذه النسخة موجود في النسخ المطبوعة في مدينة البندقية، فعليك بمراجعتها.

وقد نُشرت الطبعة القياسيَّة في فلنا عام ١٨٨٦، وهي تحوي تعليقات، وتعليقات على تعليقات في أكثر من عشرين جزءًا.

فكان يتم طبع المشناه والجماراه في العمود الأوسط، وتُطبَع ببنط أسود، ثم تُطبَع في العمود المجاور لها تعليقات راشي وتعليقات وإضافات.

وقد تُرجم التلمود إلى معظم اللغات الأوربية الأساسية، وتُرجمت مختارات قصيرة منه إلى العربيَّة لا تمثل الطبيعة الجيولوجية المتناقضة للفكر التلمودي.

ولكنه تُرجم بأكمله إلى الإنجليزية (في لندن) وإلى كثير من اللغات الأوربية الأخرى.

ويُلاحَظ أن الرقابة الحكومية كانت تفرض على اليهود أحيانًا أن يحذفوا بعض الفقرات التي تُظهر عداءً متطرفًا للأغيار، أو أن يُضيِّقوا المجال الدلالي لبعض الكلمات والعبارات العنصرية المتطرفة.

ولذا، حلت كلمة «عكوم» بمعنى «عابد الكواكب وأبراج النجوم»، و«كوتي» بمعنى «سامري»، و«كوشي» بمعنى «زنجي»، أو «حبشي» محل «نكري»، أو «جوي» بمعنى «أجنبي» أو «غريب». وحلت كلمة «بابليم»، أي «البابليين»، و«كنعانيم»، أي «الكنعانيين»، محل «أوموت هاعولام»، التي تعني «أمَمُ العالم».

والواقع أن جميع المحاولات تُضيِّق المجال الدلالي لكلمة «الأغيار» وتخصصها، وتجعلها مقصورة إما على الوثنيين وحسب، أو على جماعة محدَّدة من الناس مثل السامريين أو البابليين.

وكان يُسجَّل في مستهل كل صفحة من التلمود إعلان رسمي يقرِّر أن قوانين التلمود ضد الوثنية لا تنطبق على الأمم التي يعيش اليهود بين ظهرانيها، وأنها لا تنطبق إلا على الوثنيين وحسب (وحينما احتلت إنجلترا الهند، قيل: إن المقصود هو الهنود، كما ضُمَّ إلى قائمة المعنيين بالهجوم سكان أستراليا الأصليون).

وبعض الطبعات تقرر أن المعني بالهجوم هو «اليشماعيلي» وتعني «المسلم العربي».

وكما يقول الحاخام آجوس، فإن هذه الصيغة التي كانت قوانين الرقابة تتطلبها كان يتم تجاهلها في النصوص المختلفة؛ لأن كتَّاب التلمود وشارحيه لا يعرفون سوى نوعين من البشر: اليهود، وغير اليهود.

وحتى حينما كان بعض الزعماء الدينيين اليهود يعترضون على النزعة الحلوليَّة العنصرية المتعالية، كان اعتراضهم ينطلق من أسباب عملية مثل: الخوف من اعتياد اليهود ممارسة الشر، والخوف من الإساءة إلى سمعة اليهود، أو إثارة حنق الأغيار وكرههم.

وكثيرًا ما كان يتبادل أعضاء الجماعات اليهوديَّة فيما بينهم، دون علم السلطات، مخطوطات خاصة تضم المحذوفات التلمودية؛ أي تلك النصوص التي حذفتها الرقابة الحكومية.

كما كان يُعاد شرح بعض المصطلحات الجديدة، مثل «بابلي» أو «كوتي»، حتى يُعرَف معناها الأصلي والحقيقي لتكون بمعنى «مسيحي».

ويُعاد في إسرائيل طبع النسخة الأصليَّة من التلمود دون تعديل.

ولما كانت عملية الطباعة مكلفة وتستغرق وقتًا طويلًا، فقد نشروا كتابًا في طبعة شعبية رخيصة بعنوان حسرونوت شاس (أي المحذوفات التلمودية).

وقد صدرت في إسرائيل موسوعة تلمودية ضخمة تُسهِّل عملية الوصول إلى الأحكام الفقهية.

ورغم ذلك، ففي إحصاء أُجري عام ١٩٨٧، قرر ٨٤% من الإسرائيليين أنهم لم يقرءوا التلمود قط ولم يطلعوا على أي جزء منه.

وفي الوقت الحالي، يقوم الحاخام آدين ستانيسلاتس بإعداد طبعة جديدة من التلمود (البابلي والفلسطيني) تكون في متناول القارئ العادي، وهي مزودة بترجمة عبرية حديثة للنصوص الآراميَّة فضلًا عن شروح الكلمات الصعبة.

وقد طُبعت المشناه والجماراه، وكذلك الشروح المتعلقة بهما ببنوط طباعية مختلفة.

وقد صدر حتى الآن عشرون جزءًا من التلمود البابلي.

ومن المتوقع أن يَصدُر التلمود في أربعين جزءًا خلال خمسة عشر عامًا.

وقد ظهرت ترجمة إنجليزية للأجزاء الأولى[1].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

الفصل السادس
صور مما ورد في التلمود

١- تصور التلمود للإله ولوحدانيته

الحلوليَّة تيار مهم في العهد القديم، ولكنها تضخمت واتسعت في التلمود بحيث يمكننا اعتبار التصور التلمودي للإله يشكل نكسة للفكر التوحيدي.

فالتلمود يخلع العديد من الصفات الإنسانية واليهوديَّة على الإله؛

فالعصمة ليست من صفات الإله، جاء في التلمود: إن النهار اثنتا عشرة ساعة: في الثلاث الأولى منها يجلس الله ويطالع الشريعة، وفي الثلاث الثانية يحكم، وفي الثلاث الثالثة يطعم العالم، وفي الثلاث الأخيرة يجلس ويلعب مع الحوت ملك الأسماك.

وقال مناحم: إنه لا شغل لله في الليل غير تعلمه التلمود مع الملائكة ومع (اسموديه) ملك الشياطين في مدرسة في السماء ثم ينصرف (اسموديه) منها بعد صعوده إليها كل يوم.

والإله، في التلمود، متعصب بشكل كامل لشعبه المختار، ولذا فهو يعبِّر عن ندمه على تركه اليهود في حالة تعاسة وشقاء حتى إنه يلطم ويبكي.

ومنذ أن أمر بهدم الهيكل وهو في حالة حزن وندم، توقف عن اللعب مع التنين الذي كان يسليه، وأصبح يمْضي وقتًا طويلًا من الليل يزأر كالأسد قائلًا: تبًّا لي لأني صرحت بخراب بيتي وإحراق الهيكل ونهب أولادي.

وشغل الله مساحة أربع سنوات فقط بعد أن كان ملء السموات والأرض في جميع الأزمان.

ولكنه في آخر الأيام، بعد إقامة المجتمع اليهودي الأمثل في العصر المشيحاني، في ظل الدولة المستعادة، يجلس على العرش يقهقه لانتصار شعبه، وعبثًا يتوافد الوثنيون طالبين قبولهم.

ويتبدَّى التعصب الإلهي في أنه حينما يأتي الماشيَّح سيصبح كل الناس عبيدًا لجماعة إسرائيل.

- وفي التلمود تخطئة القمر لله فإنه قال له: أخطأت حيث خلقتني أصغر من الشمس. فأذعن الله لذلك واعترف بخطئه، وقال: اذبحوا لي ذبيحة أكفر بها عن ذنبي؛ لأني خلقت القمر أصغر من الشمس، وليس الله على حسب ما جاء في التلمود معصومًا من الطيش؛ لأنه حالما يغضب يستولي عليه الطيش، كما حصل ذلك منه يوم غضب على بني إسرائيل وحلف بحرمانهم من الحياة الأبدية. ولكنه ندم على ذلك بعد ذهاب الطيش منه، ولم ينفذ ذلك اليمين؛ لأنه عرف أنه فعل فعلًا ضد العدالة.

وجاء في التلمود: إن الله إذا حلف يمينًا غير قانونية احتاج إلى من يحله من يمينه وقد سمع أحد العقلاء من الإسرائيليين الله تعالى يقول: من يحللني من اليمين التي أقسمت بها؟ ولما علم باقي

الحاخامات أنه لم يحلله منها اعتبروه حمارًا؛ لأنه لم يحلل الله من يمينه. ولذلك نصبوا ملكًا بين السماء والأرض اسمه (مي) لتحليل الله من أيمانه ونذوره عند اللزوم.

٢- تصور التلمود للحاخامات

في معرض تقديس التلمود والإيمان المطلق بكل ما دوَّنه الحاخامات فيه، جاء في التلمود: إن تعاليم الحاخامات لا يمكن نقضها ولا تغييرها ولو بأمر الله، وقد وقع يومًا الاختلاف بين الباري تعالى وبين علماء اليهود في مسألة، فبعد أن طال الجدال تقرر إحالة فصل الخلاف إلى أحد الحاخامات الرابيين، واضطر الله أن يعترف بغلطه بعد حكم الحاخام المذكور.

وفي هذا المقام أيضًا، ردد بعض الحاخامات أن الإله يستشير الحاخامات على الأرض إذا صادفته مسألة معضلة يتعذر عليه حلها في السماء.

- وتصل الحلوليَّة إلى ذروتها (أو هوتها) حين يؤكد التلمود أن الحاخامات كانوا قادرين على الخلق، فقد ذكر أن حاخامًا خلق مرة إنسانًا بأن نطق اسم الإله الأعظم وأرسله إلى الحاخام زعيرا الذي تحدَّث إليه، ولكنه لم يستطع أن يجيب، فتعجب الحاخام قائلًا: أنت مخلوق بفعل السحر، ارجع إلى التراب.

وجاء فيه: إن أحد مؤسسي ديانة التلمود كان في إمكانه أن يخلق رجلًا بعد أن يقتل آخر. وكان يخلق كل ليلة عجلًا عمره ثلاث سنوات بمساعدة حاخام آخر وكانا يأكلان منه معًا وكان أحد الحاخامات أيضًا يحيل القرع والشمام إلى غزلان ومعيز.

وجاء فيه: وكان الرابي (نياي) يحول الماء إلى عقارب وقد سحر يومًا ما امرأة وجعلها حمارة، وركبها ووصل عليها إلى السوق.

وجاء فيه: وكان إبراهيم الخليل (عليه السلام وحاشاه) يتعاطى السحر ويعلمه. وكان يعلق في عنقه حجرًا ثمينًا يشفي بواسطته جميع الأمراض، فوصل هذا الحجر لبعض الحاخامات التلموديين، وكان بقوته هو وباقي رفقائه يقيمون الموتى!! وحصل أن أحد الحاخامات قطع مرة رأس حية ثم لمسها بالحجر المذكور فإذا هي حية تسعى. وقد لمس أيضًا به جملة أسماك مملحة فدبت فيها الروح بقوة السحر.

- ولا يكون من المستغرب أن يرد في التلمود أن حكماء اليهود أعلى قدرًا من الأنبياء (بابا باترا).

٣- تصور التلمود للشعب اليهودي

جاء في التلمود أن الإله اختار اليهود؛ لأنهم اختاروه، وهي عبارة تفترض المساواة بين الإله والشعب.

وهذه العبارة كان يرددها بن جوريون برضا شديد.

وجاء في التلمود: لماذا اختار الواحدُ القدوسُ تباركَ اسْمُه جماعةَ إسرائيل؛ لأن... أعضاء جماعة إسرائيل اختاروا الواحد القدوس تبارك اسمه وتوراته.

وقد جاء في التلمود: كل اليهود مقدَّسون... كل اليهود أمراء... لم تُخلَق الدنيا إلا لجماعة إسرائيل... لا يُدْعى أحد أبناء الإله إلا جماعة إسرائيل... لا يحب الإله أحدًا إلا جماعة إسرائيل.

ويدَّعي التلمود أن روح الإله من روح الشعب كما أن الابن جزء من أمه، ولذا فمن يعتدي على يهودي فهو كمن يعتدي على العزة الإلهية.

جاء في التلمود: أن الإسرائيلي معتبر عند الله أكثر من الملائكة. فإذا ضرب أمميٌّ إسرائيليًّا فكأنما ضرب العزة الإلهية.

وجاء فيه: إذا ضرب أممي إسرائيليًّا فالأمي يستحق الموت.

وجاء فيه: من رفع يده ضد جاره (والاثنان يهوديان) حتى ولو لم يضربه فإنه شرير خاطئ أما الوثني فإنه يستحق الموت.

ومن يعادي جماعة إسرائيل أو يكرهها فإنه يعادي الإله ويكرهه، وخصوصًا إذا عرفنا أن الإله كان يقطن بينهم حينما كانوا في أرض الميعاد، وأن الشخيناه (التعبير الأنثوي عن الإله) بقيت معهم حينما نُفوا خارجها إذ إن موسى طلب ذلك من الإله.

- وكان الاختيار في بادئ الأمر تلقائيًّا نابعًا من رحمة الإله وإرادته الإلهية، ولكن اليهود - حسب الرؤية التلمودية الحلوليَّة- بينوا أنهم جديرون بهذا الاختيار.

ولذا، تحوَّل الاختيار من مجرد منحة من الإله إلى حق من حقوقهم مُلزم له وإلى دين عليه أن يؤديه حتى لو ضلوا الطريق.

وقد جاء في التلمود على لسان الإله: «لن أعامل جماعة إسرائيل كالأمم الأخرى، حتى وإن لم تعمل حسنات إلا قليلًا تافهًا كروث الدجاج المتناثر في الحظيرة، فسأجمع هذه الحسنات ليكون لها حسنات كثيرة».

وجاء في التلمود: الحسنة والصدقة الصادرة من بني إسرائيل ترفع شأنهم وهي مقبولة لديه تعالى. وأما الصدقة الصادرة من بقية الأمم فهي خطاياهم؛ لأنهم لا يفعلونها إلا كبرياء.

وهكذا اختل التوازن الحلولي لصالح اليهود مرة أخرى، وإن كان هناك رأي تلمودي مغاير يرى أن الاختيار تكليف إلهي وعبء مُلقى على كاهل اليهود عليهم أن يضطلعوا به.

والتوراة هي ميراث الشعب المختار وحده، ومن يدرسها من الأغيار يستحق الموت (ولكن ثمة رأيًا تلموديًّا مغايرًا يرى أن الوثني الذي يدرس التوراة هو في منزلة الكاهن الأعظم).

وقد جاء في التلمود أن بني إسرائيل يُشبَّهون بحبة الزيتون؛ لأن الزيتون لا يمكن خلطه مع المواد

الأخرى، وكذلك أفراد بني إسرائيل يستحيل اختلاطهم مع الشعوب الأخرى.

٤- تصور التلمود لغير اليهود (الأغيار)

معظم صفحات التلمود مملوءة بالأحكام الموجهة ضد غير اليهود، وخصوصًا سفر عفوده زاره أو عبادة الأوثان، فلن يدخل الجنة سوى اليهود.

فقد جاء فيه: لا يدخل الجنة إلا اليهود. أما الجحيم فهو مأوى الكفار ولا نصيب لهم فيه سوى البكاء لما فيه من الظلام والعفونة والطين. ويوجد في كل محل منه زيادة على ذلك: ستة آلاف صندوق، في كل صندوق منها ستة آلاف برميل ملأى من الصبر، والجحيم أوسع من النعيم ستين مرة؛ لأن الذين لا يغسلون سوى أيديهم وأرجلهم كالمسلمين، والذين لا يختتون كالمسيحيين الذين يحركون أصابعهم (يفعلون إشارة الصليب) يبقون هناك خالدين.

وقد خلق الإله الأغيار على هيئة الإنسان لكي يكونوا لائقين بخدمة اليهود الذين خُلقت الدنيا من أجلهم، إذ ليس من الملائم أن يقوم حيوان على خدمة الأمير، وهو على صورته الحيوانية.

وذكر في التلمود: أن نطفة غير اليهودي هي كنطفة باقي الحيوانات، وبعد موت اليهودي تخرج روحه وتشغل جسمًا آخر، فإذا مات أحد الجدود مثلًا تخرج روحه وتشغل أجسام نسله الحديثي الولادة.

وجاء في تلمود فلسطين: أن النطفة المخلوق منها باقي الشعوب الخارجين عن الديانة اليهوديَّة هي نطفة حصان.

ولا يُعتدُّ بشهادة غير اليهودي أمام المحاكم إلا في حالات قليلة.

وإذا وقع أذى بشخص، فمن المهم جدًّا تحديد هل هذا الشخص يهودي أم لا، بل إن هذا التميز يسري أيضًا في المعاملات التجارية.

وفي مسائل الطهارة، يعتبر الأغيار أنجاسًا في حياتهم، ولكن مقابرهم، باعتبار أنها غير مقدَّسة، لا تنجس الكهنة. والعكس صحيح بالنسبة إلى اليهود، فهم طاهرون في حياتهم وقبورهم مصدر نجاسة أساسي للكهنة اليهود.

جاء في التلمود: أن اليهودي يتنجس إذا لمس القبور وفاقًا للتوراة ما خلا قبور من عداهم من الأمم، إذ كانوا يعدونهم بهائم لا أبناء آدم.

ويعتبر التلمود أيضًا: الأجانب بصفة كلاب؛ لأنه مذكور في سفر الخروج: أن الأعياد المقدَّسة لم تجعل للأجانب ولا للكلاب.

بل إن التلمود يطلب أحيانًا إلى اليهود أن يستخدموا مقياسين أخلاقيين: أحدهما للتعامل مع اليهود، والآخر للتعامل مع غير اليهود.

وقد جاء في التلمود: أنه لا يصح أن يباع لليهودي الشيء الذي يحتمل فساده إن تُرك، ولكنه

من الممكن أن يُباع لغير اليهودي، كما يُحرِّم على الطبيب اليهودي أن يعالج مريضًا غير يهودي (إلا لدرء أذى الأغيار).

وجاء فيه: إذا سرق أولاد نوح (أي غير اليهود) شيئًا، ولو كانت قيمته طفيفة جدًّا، يستحقون الموت؛ لأنهم قد خالفوا الوصايا التي أعطاها الله لهم، وأما اليهود فمصرح لهم أن يضروا الأميّ؛ لأنه جاء في الوصايا (لا تسرق مال القريب).

وقال علماء التلمود مفسرين هذه الوصية: إن الأمي ليس بقريب وإن موسى لم يكتب في الوصية (لا تسرق مال الأميّ) فسلب ماله لم يكن مخالفًا للوصايا.

وجاء زيادة على ذلك: لا تظلم الشخص الذي تستأجره لعمل ما إذا كان من إخوتك، أما الأجنبي فمستثنى من ذلك.

وجاء فيه: مسموح غش الأمميّ، وأخذ ماله بواسطة الربا الفاحش، لكن إذا بعت أو اشتريت من أخيك اليهودي شيئًا فلا تخدعه ولا تغشه.

إذا جاء أجنبي وإسرائيلي أمامك بدعوى فإذا أمكنك أن تجعل الإسرائيلي رابحًا فافعل وقل للأجنبي هكذا تقضي شريعتنا إذا حصل ذلك في مدينة يحكم فيها اليهود. وإذا أمكنك ذلك وفقًا لشريعة الأجنبي فاجعل الإسرائيلي رابحًا، وقل للأجنبي هكذا تقضي شريعتك. فإذا لم تتمكن من كلا الحالين، بأن كان اليهود لا يحكمون البلد، والشريعة الأجنبية لا تعطي الحق لليهودي فاستعمل الغش والخداع في حق هذا الأجنبي حتى تجعل الحق لليهودي.

وجاء فيه: إن الله لا يغفر ذنبًا ليهودي يرد للأميّ ماله المفقود، وغير جائز رد الأشياء المفقودة من الأجانب.

وجاء فيه: غير مصرح لليهودي أن يقرض الأجنبي إلا بالربا.

وجاء فيه: إذا نطح ثور يهودي ثور أمميّ فلا يلتزم اليهودي بشيء من الأضرار، ولكن إذا كان الأمر بالعكس يلتزم الأمميّ بجميع قيمة الضرر الذي حصل لليهودي.

– وكان اليهودي يشكر إلهه على أن مكانه «بين أولئك الذين يجلسون في بيت الدراسة والمعبد [أي اليهود] ولم تجعل مكاني بين أولئك الذين يذهبون إلى المسارح والسيرك [أي غير اليهود]».

وحتى حينما كان بعض المفسرين ينصحون اليهود بعدم الكذب على الأغيار، فإنهم يصرون على ضرورة عدم الاحتكاك بهم، أو الدخول معهم في علاقة.

وقد قال أحد الشارحين في القرن السابع عشر في بولندا إن من الواضح أن التوراة تأمر اليهود بأن يحتفظوا بالكراهية بينهم وبين الأغيار حتى يبعدوا خطر الزواج المختلَط. ولذا، فلا يمكن السماح بتلك الأفعال التي قد تقلل الكره بين اليهود والأغيار.

– وقتل غير اليهودي مباح سواء الصالح منهم أو الطالح فلا فرق بينهما عند أصحاب التلمود،

ـ هذا عندهم من القُرَب إلى الله، وعلى اليهودي أن يسعى لقتله إذا وجد فرصة لذلك.

قال التلمود: إنه جائز قتل من ينكر وجود الله، وإذا نظر أحد اليهود كافرًا في حفرة فعليه ألا يخرجه منها، وحتى ولو وجد فيها سلمًا يمكن الكافر أن يخرج بواسطته منها وجب على اليهودي نزعه محتجًا بأنه أخرجه حتى لا ينزل عليه قطيعه. وإذا وجد حجرًا بجانب الحفرة وجب عليه وضعه عليها، ويقول: إني أضع هذا الحجر ليمر عليه قطيعي.

وقال التلمود: من العدل أن يقتل اليهودي بيده كافرًا؛ لأن من يسفك دم الكافر يقرب قربانًا إلى الله.

وجاء في التلمود أيضًا: إن الكافر كما قال الحاخام [اليعازر] هم يسوع المسيح ومن اتبعه.

وقال الرابي يهوذكيا: إن هذه اللفظة تشمل الوثنيين على العموم؛ بل إن اليهودي مأمور بقتل غير اليهودي، ومحرم عليه إنقاذه من هلاك يحيط به.

يقول التلمود: اقتل الصالح من غير الإسرائيليين، ومحرَّم على اليهودي أن ينجِّي أحدًا من باقي الأمم من هلاك، أو يخرجه من حفرة يقع فيها؛ لأنه بذلك يكون حفظ حياة أحد الوثنيين.

- وتصل النزعة المتعالية ذروتها في عبارة: اقتل أفضل الأغيار، أسحق رأس أنبل الأفاعي.

وقد اقتبس أحد كتيبات الحاخامية العسكرية الإسرائيلية هذه العبارة التلمودية التي أثارت ضجة داخل إسرائيل وتصدَّى لها بعض القادة الدينيين ووصفوها بأنها تشويه للعقيدة اليهوديَّة.

فالحلوليَّة إذًا هي الإطار الفلسفي، والانعزالية والتعالي الإثنين هما الترجمة العملية لها.

٥- تصور التلمود للمتهوِّدين

لأن التلمود يرى أن اليهود وحدهم يجسدون روح الإله، لذا نجده لا يرحب بالمتهوِّدين.

وقد ورد فيه «إن المتهوِّدين مثل القذى في عين جماعة إسرائيل» وهو موقف لا يزال يسيطر على المؤسسة الأرثوذكسيَّة وريثة التراث التلمودي في إسرائيل.

وقال ميما نود: يصفح عن الأمي إذا جدف على الله، أو قتل غير إسرائيلي، أو زنى بامرأة غير يهودية ثم تهود، لكنه لا يصفح عنه إذا قتل يهوديًا أو زنى بامرأة يهودية ثم صار يهوديًا.

٦- تصور التلمود للفلاحين

على اليهودي، حسب التقاليد التلمودية، أن يتلو ثلاث تسبيحات شكر كل يوم؛ لأن الإله خلقه يهوديًا، ولأنه لم يخلقه امرأة ولم يخلقه فلاحًا.

وقد جاء أنه «لا يوجد عمل أكثر امتهانًا من فلاحة الأرض»، ومع هذا، هناك أقسام طويلة في التلمود عن الزراعة وقوانينها وأفضالها.

٧- تصور التلمود للرقيق

من أهم أنواع التجارة التي مارسها أعضاء الجماعات اليهوديَّة تجارة الرقيق؛ ولذا فإننا نجد أن التلمود نظم عملية امتلاك عبد من الأغيار. فهو يُمتلَك بالشراء أو بالصك أو بالخدمة الفعلية.

ويوجد في التلمود صيغة لاستمارة يتم ملؤها للحصول على عبد تقول: «هذا العبد تم استعباده بصورة قانونية وليس له أي حق من حقوق الأجراء، وليست له مطالب يقدمها للملك أو الملكة. وليست به أية علامة إنسانية، وهو خال من أية عيوب جسدية، ومن أية علامة في الجلد تدل على إصابته بالبرص سواء حديثًا أم في الماضي».

وكانت طبقة العبيد مُحتَقرة كما كان يسود الاعتقاد بأنهم كسالى: «هناك عشرة مقاييس من النوم نزلت إلى العالم، فأخذ العبيد تسعة منها وأخذ بقية الناس الواحد المتبقي».

ولا يتمتع العبد بثقة كاتبي التلمود، فهو لا يُعَدُّ إنسانًا، ولذا فليس بإمكان اليهودي أن يصلي معه أو أن يصلي عليه أو يسير في جنازته.

٨- تصور التلمود للمرأة

ينبعث من صفحات التلمود احتقار عميق للمرأة، وقد كتب أحدهم يقول: هناك أربع خصائص للنساء: فهن شرهات، ومتصنتات، وكسولات، وغيورات، وهن أيضًا كثيرات الشكوى وثرثارات.

وقد أفاض التلمود بشأن الصفة الأخيرة: نزلت إلى العالم عشرة مقاييس للكلام، أخذت النساء تسعة منها وأخذ الرجال واحدًا.

وجاء في التلمود: إن المرأة الجميلة مهما كانت هي من حق اليهودي ومحرمة على الوثني.

ويعتبر التلمود أن إتيان زوجات الأجانب جائز، واستنتج من ذلك الحاخام راشي أن اليهودي لا يخطئ إذا تعدى على عرض الأجنبي؛ لأن كل عقد نكاح عند الأجانب فاسد؛ لأن المرأة التي لم تكن من بني إسرائيل هي كالبهيمة، والعقد لا يوجد مع البهائم وما شاكلها، وقد أجمع على هذا الرأي الحاخامات: بشاي وليفي وجرسون.

وقال ميمانود: إن لليهود الحق في اغتصاب النساء الغير مؤمنات؛ أي الغير يهوديات.

وقال الحاخام تام: إن الزنى بغير اليهود ذكورًا كانوا أو إناثًا لا عقاب عليه؛ لأن الأجانب من نسل الحيوانات.

ولذلك صرح الحاخام المذكور ليهودية أن تتزوج بمسيحي تهوَّد مع أنها كانت رفيقة له غير شرعية قبل الزواج، فاعتبر العلاقات الأصليَّة كأنها لم تكن؛ لأنها أشبه شيء بنكاح الحيوانات.

وقال الرابي كرونر: إن التلمود يصرح للإنسان (يعني اليهودي) أن يسلم نفسه للشهوات إذا لم يمكنه أن يقاومها، ولكنه يلزم أن يفعل ذلك سرًّا لعدم الضرر بالديانة!!

وذكر في التلمود عن كثير من الحاخامات كالرابي راب والرابي نحمان: أنهم كانوا ينادون في المدن التي يدخلونها عما إذا كان يوجد فيها امرأة تريد أن تسلم نفسها لهم مدة أيام.

وجاء في التلمود أيضًا عن الرابي اليعازر: أنه فتك بكل نساء الدنيا، وأنه سمع مرة أن واحدة تطلب صندوقًا ملآنًا من الذهب حتى تسلم نفسها لمن يعطيها إياه، فحمل الصندوق وعدّى سبعة شلالات حتى وصل لها... (ولنضرب صفحًا عن باقي القصة؛ لأنها مخلة بالآداب).

ومن الأمور المذمومة أنه جاء في آخر القصة أنه: لما توفي هذا الحاخام صرخ الله من السماء قائلًا: تحصل الرابي [اليعازر] على الحياة الأبدية.

٩- تصور التلمود للملائكة والشياطين والسحر وخلق آدم وحواء

يشمل التلمود على أخبار عن الملائكة، وعن الشياطين والسحر، وعن خلق آدم وحواء في غاية العجب، لن نذكر منها شيئًا لفظاعتها وبشاعتها.

١٠- تصور التلمود للقسم

ينص التلمود على أن اليمين التي يقسم بها اليهودي في معاملاته مع باقي الشعوب ليست يمينًا؛ لأنه كأنه أقسم لحيوان، والقسم لحيوان لا يعد يمينًا؛ لأن اليمين إنما جعلت لحسم النزاع بين الناس ليس إلا.

فإذا اضطر يهودي أن يحلف لمسيحي فله أن يعتبر ذلك الحلف كأنه لا شيء.

على أنه لا معنى للنزاع القائم بين يهودي ومسيحي بخصوص الملكية؛ لأنه من المقرر أن أموال المسيحي ودمه من تعلقات اليهودي، وله التصرف المطلق فيها، وله الحق، طبقًا لقواعد التلمود، في استرجاع تلك الأموال.

فإذا دعي يهودي لحلف يمين مختصة بشيء متنازع فيه فعليه أن يرفض ذلك؛ لأنه لا محل لليمين في هذه الحالة.

وإذا خاف سلطة شخص أو ضررًا يصل إليه من عدم تأدية اليمين فعليه أن يحلف بما يريدون، غير أنه يلزم أن يكون معتقدًا باطنًا أن الأموال التي حصل بخصوصها اليمين هي في الحقيقة تعلقه، وله الحق في استرجاعها في أول فرصة.

يجوز لليهودي الحلف زورًا، فلا يخطئ إذا حول اليمين لوجهة أخرى!!

وقد حلف الرابي (يوحنان) يومًا لامرأة على ألا يبوح بسرها قائلًا لها: إني لا أبوح بهذا السر أمام الله، ففهمت المرأة أن الحاخام يحلف لها بالله على كتمان السر مطلقًا مع أنه حوله بالكيفية الآتية: احلف ألا أبوح بهذا السر أمام الله، ولكني سأفشيه لبني إسرائيل.

ومن القواعد المقررة عند اليهود أن يستعملوا مثل هذا التأويل إذا كانت اليمين إجبارية، كما إذا كلفت الحكومة مثلًا أحد الأفراد بحلف يمين؛ ففي هذه الحالة يعتبر اليهودي نفسه أنه غير حرٍّ،

وله الحق في الكذب.

وفي كل مدة يوجد في مجمع اليهود يوم للغفران العام الذي يمنح لهم، فيمحو كل ذنب ارتكبوه، ومن ضمنها اليمينات الزور.

وليس على اليهودي أن يرد ما نهبه أو سرقه من الأجنبي لأجل التحصل على ذلك الغفران.

١١- تصور التلمود للأرض المقدَّسة

يعتبر التلمود أن الأرض المقدَّسة وهي فلسطين تفوق في قدسيتها أيَّ أرض أخرى.

فقد جاء في التلمود: الواحد القدوس تبارك اسمه قاس جميع البلدان بمقياسه ولم يستطع العثور على أية بلاد جديرة بأن تمنح لجماعة إسرائيل سوى أرض إسرائيل.

ويعتبر التلمود السكنى في الأرض بمنزلة الإيمان: لأن من يعيش داخل أرض إسرائيل يمكن اعتباره مؤمنًا، أما المقيم خارجها فهو إنسان لا إله له.

١٢- التلمود والعرب

تقصَّى الدكتور أسعد رزوق موقف التلمود من العرب، فوجد أنه (في بعض نواحيه) تعبير عن الانعزالية المتعالية نفسها.

جاء في سفر سوكاه (٥٢ ب) أن الإله ندم على خلقه أربعة أشياء: المنفى، والكلدانيين، والإسماعيليين (أي العرب)، ونزعة الشر.

وينسب التلمود إلى العرب أعمال السحر، فقد جاء في سفر سنهدرين (٦٧ب) أن عربيًّا امتشق السيف وقطع به الناقة، ثم قرع جرسًا فنهضت دون وجود آثار عليها.

والعرب، حسبما جاء في التلمود، خبراء في الطب، وخصوصًا الطب الشعبي. ويرد في التلمود العديد من القصص الطريفة والأعاجيب عن العرب.

وهناك قصص ليست في صالح راويها الحاخامي إذ إن بعضها يدل على خبرة العرب وبراعتهم واحترامهم موق اليهود أكثر من احترام الحاخام إياهم.

وأخيرًا، فقد جاء في سفر السبت (١١ أ) القول التالي: لا بأس من الخضوع لحكم واحد من أبناء إسماعيل بدلًا من حكم الغريب [أي الأدومي]. وبحسب ما جاء في حاشية الشارح، فإن المقصود بذلك هو تفضيل الحكم العربي على البيزنطي.

١٣- التلمود والنصارى

ظل التلمود مجهولًا تقريبًا في أوربا النصرانية، ولم يكتشفه النصارى إلا في أواسط القرن الثالث عشر، وذلك عن طريق اليهود المتنصرين.

ومنذ ذلك التاريخ، أصبح التلمود محط سخط السلطات الدينيَّة؛ لأنها كانت تراه كتاب خرافات مسئولًا عن عدم اعتناق اليهود المسيحيَّة، كما كانت ترى أنه يحتوي على ملاحظات مهينة

ضد المسيحيَّة كعقيدة، وضد شخص المسيح.

ومما يذكره التلمود عن المسيح أنه كان يهوديًا كافرًا، وأن تعاليمه كفرٌ بيِّن، وأن المسيحيين كَفَرة مثله، وأن أمه حملت به سفاحًا من جندي روماني يُدعى بندارا.

جاء في التلمود: أن المسيح كان ساحرًا، ووثنيًا.

ويقول التلمود: إن المسيح كان مجنونًا.

ووصف التلمود المسيح بأنه: كافر لا يعرف الله.

ويسمى التلمود المسيح: تمثالًا.

وجاء في التلمود: المسيحيون من عابدي الأصنام، غير أنه جائز أن يتعامل الإنسان معهم في أول يوم من الأسبوع الذي هو يوم عيد عندهم.

ومما جاء في ذلك أنه في ٢٤ يونيو (حزيران) سنة ١٢٤٠ صار عقد جلسة حافلة في سراي الملك لويس التاسع في باريس تحت رئاسة الملكة (بلانش).

وكان القصد من هذه الجلسة الفحص عما ادُّعي به على اليهود من الأمور المنكرة. ومن جملتها استنزاف الدم البشري حملًا على اعتقاداتهم الدينيَّة وما جاء في تلمودهم.

وهنالك أعطيت الحرية المطلقة لبني إسرائيل بالمدافعة عن أنفسهم وعن تلمودهم.

ولما لم يتمكنوا من إخفاء حقيقة ما نسب إليهم أقروا به، وقد تحصل وقتئذ من ترجمة نصوص تلمودهم ما يعتقدون به وهو: أن يسوع الناصري موجود في لجات الجحيم بين الزفت والنار، وأن أمه أتت به من العسكري (باندارا) بمباشرة الزنى، وأن الكنائس النصرانيَّة بمقام قاذورات، وأن الواعظين فيها أشبه بالكلاب النابحة، وأن قتل المسيحي من الأمور المأمور بها، وأن العهد مع مسيحي لا يكون عهدًا صحيحًا يلتزم اليهودي القيام به، وأنه من الواجب دينًا أن يلعن ثلاث مرات رؤساء المذهب النصراني وجميع الملوك الذين يتظاهرون بالعداوة ضد بني إسرائيل.

ورغمًا عن كل ذلك لم تحكم الحكومة وقتئذ بإضرار اليهود، بل اكتفت بإتلاف وإحراق ما وجد من نسخ التلمود.

ويضم التلمود، فضلًا عن ذلك، أجزاء عن محاكمة المسيح في السنهدرين، ويُقر بأن اليهود هم الذين صلبوا المسيح، وأنهم يتحملون المسئولية كاملة عن ذلك.

وقد كانت الكنيسة تنظم مناظرات (مجادلات خلافية) علنية يشترك فيها عادةً يهود متنصرون ملمون بالتلمود ويعرفون جوانبه السلبية.

ومن أهم المناظرات، وربما آخرها، تلك المناظرة التي تمت في بولندا في يونيو ١٧٥٧ ويوليو ١٧٥٩ بين أتباع يعقوب فرانك وممثلي المؤسسة الحاخامية.

وقد كانت الكنيسة تحرق نسخ التلمود التي تُضبَط من آونة إلى أخرى.

يقول روهلنج: يوجد في نسخ كثيرة من التلمود المطبوع في المائة سنة الأخيرة (أي في القرن التاسع عشر) بياض أو رسم دائرة بدلًا عن ألفاظ سب في حق المسيح والعذراء والرسل (عليهم الصلاة والسلام أجمعين) كانت مذكورة في النسخ الأصليَّة. ومع ذلك لم تخل من طعن في المسيحيين. فإنه يستفاد من الشروحات أن كل ما جاء في التلمود بخصوص باقي الأمم غير اليهوديَّة كلفظ (أمين، أو أجانب، أو وثنيين) المراد منها المسيحيون.

ولما اطلع المسيحيون على هذه الألفاظ هالهم الأمر، وتذمروا ضد اليهود فقرر المجمع الديني لليهود وقتئذ في مدينة بولونيا سنة ١٦٣١(م) أنه من الآن فصاعدًا تترك محلات هذه الألفاظ على بياض أو تعوض بدائرة على شرط أن هذه التعاليم لا تعلم إلا في مدارسهم فقط فيشرحون للتلميذ مثلًا أن المسيحيين مجبولون على الخطايا ولا يجب استعمال العدل معهم ولا محبتهم أصلًا.

ووصف المعلم جراز -وهو خوجة في مجمع الحاخامات في مدينة (برزلو)- المسيحي بالعداوة، وقال: إنه يجب إعدامه، ومدح الوسائط التي يمكن بها التوصل لهذا الغرض، ولو كانت صادرة عن نفاق أو خيانة.

في كتاب سدرحا دوروت، صحيفة ١٢٧ ما يلي: الحاخام الرباني يهوذا كان محبوبًا لدى الإمبراطور، وأطلعه على حيل الناصريين قائلًا له: إنهم سبب وجود الأمراض المعدية.

وبناء على ذلك تحصل على الأمر بقتل كل هؤلاء الناصريين الذين كانوا يسكنون رومة في سنة ٣٩١٥(عبرية) أي ١٥٥ بعد المسيح.

وجاء في الكتاب نفسه بعد هذه العبارة: إن الإمبراطور (مارك أوريل) قتل جميع الناصريين بناء على إيعاز اليهود.

وقال في صحيفة ١٢٥: أنه في سنة ٣٩٧٤ أي ٢١٤ بعد المسيح قتل اليهود مائتي ألف مسيحي في رومة وكل نصارى قبرص.

وذكر في كتاب (سفر يوكاسين) المطبوع في مدينة أمستردام سنة ١٧١٧ في الملزمة ١٠٨: أنه في زمن البابا كليمان قتل اليهود في رومة وخارجًا عنها جملة من النصارى (كرمال البحر، وأنه بناء على رغبة اليهود قتل الإمبراطور ديو كليسين جملة من المسيحيين ومن ضمنهم البابوات كليس ومرسلينوس وأخا كليس المذكور، وأخته روزا[1].

---

(١) انظر: الكنز المرصود في أسرار التلمود، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الفرق والمذاهب اليهودية ص(٨٥- ٨٨)، اليهودية ص(٢٦٧- ٢٧١).

الفصل السابع

مكانة التلمود في إسرائيل

أثر التلمود، بما احتوى من نظرة حلولية انعزالية، في كثير من أجزائه، في الفكر الصهيوني، حيث وجد المفكرون الصهاينة ما يدعم اتجاهاتهم.

فقد جاء في سفر «عفوده زاره» على سبيل المثال لا الحصر: ينبغي ألا تُؤجَّر البيوت لغير اليهود في أرض إسرائيل، ناهيك عن الحقول.

وهذه إحدى القواعد الأساسية للصندوق القومي اليهودي.

كما أن الصهاينة يقتبسون من التلمود عبارات مثل: من يقيم خارج أرض إسرائيل هو مثل إنسان بدون إله. (كتوبوت ١١٠ب).

ونجد أنه يرد فيه عكس هذه الأفكار تمامًا، فقد قال الحاخام يهودا: من يصعد من بابل إلى أرض إسرائيل، فقد انتهك إحدى الوصايا الإلهية.

ويستشهد بسفر إرميا (٢٧/ ٢٢)، ثم يقول: مثلما أنه ممنوع مغادرة أرض إسرائيل إلى بابل، فمن الممنوع أيضًا مغادرة بابل إلى غيرها من البلدان، ثم يستطرد قائلًا: إن من يعيش في بابل كأنه مقيم في أرض إسرائيل. (كتوبوت ١١١أ).

كما توجد في التلمود أيضًا أفكار متناقضة عن العصر المشيحاني، بعضها ذو نكهة صهيونية انعزالية والبعض الآخر معاد لها وله نزعة اندماجية عالمية.

وتجد التوسعية الصهيونيَّة تبريرًا لها في الصورة التي يرسمها التلمود لحدود الأرض في المستقبل، فهي سوف تمتد وتصعد في جميع الجهات، ومن المقدر لأبواب القدس أن تصل إلى دمشق، وسوف يأتي المنفيون لينصبوا خيامهم في الوسط.

وقد جاء أيضًا: إن فلسطين تُدعى أرض الظبي، فكما أن جلد الظبي يعجز عن استيعاب لحمه وجسمه، كذلك هي أرض إسرائيل: عندما تكون مأهولة تجد لنفسها متسعًا، لكنها تتقلص متى كانت غير مأهولة. فحدود هذه الأرض متغيرة، وتزداد بازدياد المستوطنين اليهود فيها.

ولا يختلف هذا القول كثيرًا عن موقف تيودور هرتزل من الحدود حين بيَّن أن ما سيقرر حدود الدولة هو مدى حاجة الصهاينة: كلما ازداد عدد المهاجرين ازدادت حاجتنا إلى الأرض.

وأثر تطبيق المفاهيم والتصورات التلمودية في إسرائيل كبير وواضح، ومن أوضحها هو ما يتعلق بالممارسات التي تتم ضد غير اليهود على أثر الخلفية التلمودية التي تقدم بيان صورها فيما سبق.

ومن هذه التطبيقات هو القرار الذي أصدره مؤتمر الدراسات التلمودية الثامن عشر الذي عُقد

في القدس عام ١٩٧٤م وحضره رئيس الوزراء إسحاق رابين، والذي جاء فيه ضرورة منع: قيام الطبيب اليهودي بمساعدة المرأة غير اليهوديَّة على الحمل، وقد أثبتت بعض استطلاعات الرأي في إسرائيل أن الخوف من الأغيار لا يزال واحدًا من أهم الدوافع وراء سلوك الإسرائيليين، وأثر التلمود والشرع التلمودي واضح في قوانين الأحوال الشخصية في إسرائيل، فالتشريعات التي تضبط قضايا الزواج والطلاق فيها لا تختلف عن الأحكام التلمودية الواردة في أسفار سدر ناشيم.

وفي شئون الطلاق، لا يزال سفر جيطين المصدر الأساسي للأحكام المتعلقة بوثيقة الطلاق (جيط) التي يكتبها الزوج.

وفي مسائل الزواج وتسجيل المواليد، لا تزال أحكام الشريعة التي حددها التلمود هي الشريعة السائدة؛ فاليهودي هو المولود لأم يهودية، أو من اعتنق اليهوديَّة على يد حاخام أرثوذكسي.

وعملية التهود ليست هينة، إذ يصر الحاخام على التقيد بالشعائر التلمودية، ومن بينها الحمام الطقوسي الذي يجب أن تخضع له الأنثى التي تريد التهود، فتدخل الحمام عارية تمامًا، بحضور ثلاثة من الحاخامات وتحت أنظارهم.

وكذلك تُطبَّق في إسرائيل الشرائع التلمودية الخاصة بقوانين الطعام والقوانين الزراعية التي وردت في سفر براخوت من سدر زراعيم.

ويُدرَّس التلمود في إسرائيل، وتقتصر الدراسة في المدارس والمعاهد الدينيَّة على دراسته، كما أن جامعة بار إيلان تشترط على طلابها تحصيل معرفة تمهيدية بالتلمود[١].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

الباب الخامس

الصهيونيَّة

الفصل الأول: تعريف الصهيونيَّة.

الفصل الثاني: مفهوم مصطلح الصهيونيَّة.

الفصل الثالث: الحركات الصهيونيَّة عبر التاريخ.

الفصل الرابع: الحركة الصهيونيَّة الحديثة.

الفصل الخامس: جولات الحروب ومحطات السلام بين العرب والصهيونيَّة اليهوديَّة.

الفصل السادس: إسرائيل الكبرى.

الفصل السابع: بروتوكولات حكماء صهيون.

الفصل الأول

تعريف الصهيونيَّة

الصهيونيَّة نسبة إلى جبل صهيون الواقع في الجنوب الغربي من القدس القديمة، إذ ابتنى داود قصره بعد انتقاله من حبرون (الخليل) إلى بيت المقدس في القرن العاشر قبل الميلاد.

وأصبح هذا الاسم يرمز إلى مملكة داود، وإعادة تشييد هيكل سليمان من جديد، بحيث تكون القدس عاصمة لها.

والصهيونيَّة حركة دينيَّة سياسيَّة عنصريَّة متطرفة، ترمي إلى إقامة دولة لليهود في فلسطين تحكم من خلالها العالم كلَّه. وتأييد ذلك بالقول أو بالمساعدة الماليَّة أو الأدبيَّة.

وذلك تحقيقًا لعقيدة المخلص المنتظر.

وتعتبر الصهيونيَّة جميع يهود العالم أعضاء في جنسيَّة واحدة هي الجنسيَّة الإسرائيليَّة.

- أهداف الصهيونيَّة:

أهدافها ذات جانبين: ديني وسياسي:

أولًا: الجانب الديني: ويتلخص فيما يلي:

١- إثارة الحماس الديني بين أفراد اليهود في جميع أنحاء العالم، لعودتهم إلى أرض الميعاد المزعومة (أرض فلسطين).

٢- حث سائر اليهود على التمسك بالتعاليم الدينيَّة والعبادات والشعائر اليهوديَّة والالتزام بأحكام الشريعة اليهوديَّة.

٣- إثارة الروح القتاليَّة بين اليهود، والعصبية الدينيَّة والقوميَّة لهم للتصدي للأديان والأمم والشعوب الأخرى.

ثانيًا: الجانب السياسي: ويتلخص فيما يلي:

١- محاولة تهويد فلسطين (أي جعلها يهوديَّة داخليًا) وذلك بتشجيع اليهود في جميع أنحاء العالم على الهجرة إلى فلسطين وتنظيم هجرتهم وتمويلها، وتأمين وسائل الاستقرار النفسي والوظيفي والسكني وذلك بإقامة المستوطنات داخل أرض فلسطين «وهي عبارة عن مجمعات سكنية حديثة كاملة المرافق تمولها الصهيونيَّة من تبراعات اليهود والدول الموالية لهم في العالم»، وتوطيد الكيان اليهودي الناشئ في فلسطين سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا.

٢- تدويل الكيان الإسرائيلي في فلسطين عالميًا، وذلك بانتزاع اعتراف أكثر دول العالم بوجود دولة إسرائيل في فلسطين وشرعيتها وضمان تحقيق الحماية الدوليَّة لها، وفرضها على العالم، وعلى

المسلمين على وجه الخصوص. لذلك نجد أنَّ الصهيونيَّة تقوم بدور رئيس في دفع أمريكا وروسيا وأكثر الدول في أوربَّا لحماية إسرائيل سياسيًا وعسكريًا ودعمها اقتصاديًا وبشريًا، فبالرغم من أنَّ أمريكا ودول أوربَّا -دول نصرانيَّة-، وبالرغم من أنَّ روسيا شيوعيَّة تحارب الأديان وبالرغم أيضًا من أنَّ شعوب هذه الدول تكره اليهود بحقٍّ إلَّا إنَّها لا تزال تحمي دولة إسرائيل وتدعمها. وما ذلك إلا بتأثير الصهيونيَّة الواضح.

٣- متابعة وتنفيذ المخططات اليهوديَّة العالميَّة السياسيَّة والاقتصاديَّة، خطوة بخطوة، ووضع الوسائل الكفيلة بالتنفيذ السريع والدقيق لهذه المخططات، ثم التهيئة لها إعلاميًا وتمويلها اقتصاديًا ودعمها سياسيًا.

٤- توحيد وتنظيم جهود اليهود في جميع العالم أفراد وجماعات ومؤسسات ومنظمات، وتحريك العملاء والمأجورين عند الحاجة لخدمة اليهود وتحقيق مصالحهم ومخططاتهم[١].

---

(١) انظر: القاموس السياسي ص(١١٧)، الموسوعة الميسرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي (١/٥١٨)، اليهودية، د. أحمد شلبي ص(١١٩).

الفصل الثاني

مفهوم مصطلح الصهيونيَّة

- وردت لفظة صهيون لأول مرة في العهد القديم عندما تعرض للملك داود الذي أسس مملكته ١٠٠٠. ٩٦٠ ق.م [١]. فتشير كلمة صهيون حينئذٍ إلى جبل صهيون.

ثم يتسع النطاق الدلالي للكلمة فيشير إلى القدس، ثم إلى الأرض المقدَّسة ككلٍّ[٢].

ويُشير اليهود إلى أنفسهم باعتبارهم بنت صهيون[٣].

كما تُستخدَم الكلمة للإشارة إلى اليهود كجماعة دينيَّة.

- وفي أواخر القرن السادس عشر أطلق مصطلح الصهيونيَّة في الأوساط البروتستانتيَّة في إنجلترا على اليهود باعتبارهم شعبًا عضويًّا مختارًا وطنه المقدَّس في فلسطين ولذا يجب أن يُهجَّر إليه.

وقد استمرَّ هذا التيار المنادي بتوطين اليهود في فلسطين حتى بعد أن خمد الحماس الديني الذي صاحب حركة الإصلاح الديني.

ويُطلَق على هذه النزعة اسم: الصهيونيَّة المسيحيَّة، وهي تمارس في الولايات المتَّحدة الآن بعثًا جديدًا وخصوصًا في بعض الأوساط البروتستانتيَّة (الأصوليَّة) المتطرفة.

- وظهرت في أوربَّا نزعات ومفاهيم صهيونيَّة في أوساط الفلاسفة -ولا سيَّما الرومانسيين- والمفكرين السياسيين والأدباء، تنادي بإعادة توطين اليهود في فلسطين، استنادًا لأسباب تاريخيَّة وسياسيَّة وعلميَّة.

- ومع الحملات العسكريَّة والحربيَّة على الشرق الإسلامي نجد أنَّ مفهوم الصهيونيَّة انتقل إلى عالم السياسة والمنفعة المادِّيَّة ومصالح الدول، فنجد أن نابليون بونابرت أول غازٍ غربيٍّ للشرق الإسلاميِّ في العصر الحديث وواحد من أهم المعادين لليهود في العالم الغربي،-كما يدل على ذلك سجله في فرنسا- وواحد من أهم دعاة العلمانيَّة الشاملة، هو أيضًا صاحب أول مشروع صهيونيٍّ حقيقيٍّ، إذ دعا الصهاينة إلى الاستيطان في «بلاد أجدادهم»!.

- وأصبح مفهوم الصهيونيَّة مفهومًا أساسيًّا في الخطاب السياسي الغربي عام ١٨٤١ م مع نجاح

---

(١) انظر: سفر صموئيل الثاني ٥/٧، المزامير ٧٤/٢، ٧٨/٦٨، أشعياء ٤/٥، ٨/١٨، ١٠/١٢، ١٨/٧، ٢٤/٢٣، ٢٩/٨.

(٢) انظر: سفر الملوك الأول ٨/١، أخبار الأيام الأول ١١/٥، أخبار الأيام الثاني ٥/٢، المزامير ٢/٦، ٩/١١، ٤٨/٢، ٥٠/٢، ٥١/١٨، ٦٥/١.

(٣) انظر: المزامير ٩/١٤، نشيد الإنشاد ٣/١١، أشعياء ١/٨، ٥٢/٢، إرميا ٦/٢

أوربًا في بلورة مشروعها الاستعماري ضد العالم العربي والإسلامي الذي حقق أول نجاح حقيقيٍّ له في القضاء على مشروع محمد علي في تحديث مصر والدولة العثمانيَّة، ومع تفاقم المسألة اليهوديَّة التقت المسألة الشرقيَّة بالمسألة اليهوديَّة وساد التصوُّر القائل بإمكان حل المسألتين من خلال دمجهما.

- وتمت بلورة المفاهيم الصهيونيَّة وملامح المشروع الصهيوني بشكلٍ كاملٍ في الفترة بين منتصف القرن التاسع عشر وعام ١٨٨٠ على يد المفكرين الصهاينة غير اليهود لورد شافتسبري ولورانس أوليفانت.

وقد لخص شافتسبري التعريف الغربي لمفهوم الصهيونيَّة في عبارة: أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض.

وقد حاول أوليفانت أن يضع المشروع الصهيوني موضع التنفيذ.

- وفي أواخر القرن التاسع عشر عبَّرت النزعة الصهيونيَّة في شرق أوربًا عن نفسها من خلال جماعات أحباء صهيون التي حاولت التسلل إلى فلسطين للاستيطان فيها.

وبدأت المساعدات التي كان أثرياء اليهود في الغرب يدفعونها للجمعيَّات التوطينيَّة المختلفة التي كانت تهدف إلى توطين يهود شرق أوربًا في أي بلد (ويشمل ذلك فلسطين).

- وقد نحت مصطلح الصهيونيَّة نفسه المفكر اليهودي النمساوي نيثان بيرنباوم في أبريل ١٨٩٠ في مجلة الانعتاق الذاتي وشرح معناه في خطاب بتاريخ ٦ نوفمبر ١٨٩١ قال فيه: إنَّ الصهيونيَّة هي إقامة منظَّمة تضمُّ الحزب القوميَّ السياسيَّ بالإضافة إلى الحزب ذي التوجه العملي -أحباء صهيون- الموجود حاليًا.

وفي مجال آخر في المؤتمر الصهيوني الأول ١٨٩٧ صرَّح بيرنباوم بأنَّ الصهيونيَّة ترى أنَّ القوميَّة والعِرْق والشعب شيء واحد.

- وبعد المؤتمر الصهيوني الأول ١٨٩٧ في بازل، تحدَّد مصطلح الصهيونيَّة وأصبح يشير إلى الدعوة التي تبشر بها المنظَّمة الصهيونيَّة وإلى الجهود التي تبذلها، وأصبح الصهيونيُّ هو من يؤمن ببرنامج بازل.

- بعد ذلك بدأت دلالات الكلمة تتفرع وتتشعب، فهناك «صهيونيَّة سياسيَّة» -يُشار إليها أحيانًا بعبارة «الصهيونيَّة الدبلوماسيَّة»-، وأخرى «عمليَّة»، وتبعتها «الصهيونيَّة التوفيقيَّة».

وكلُّ صهيونيَّة لها توجُّهها وأسلوبها الخاص وإن كانت جميعًا لا تختلف في الهدف النهائيِّ.

وتذهب الصهيونيَّة التوفيقيَّة إلى أنَّ كلَّ الاتجاهات الصهيونيَّة غير متناقضة بل يكمل الواحد منها الآخر، ومن ثم يَسهُل التوفيق بينها.

- تَبلور المفهوم الغربي للصهيونيَّة تمامًا في وعد بلفور الذي مُنح للشعب اليهودي، والذي أشار

للعرب باعتبارهم الجماعات غير اليهوديَّة، أي أن اليهود أصبحوا شعبًا بلا أرض وفلسطين أصبحت أرضًا بلا شعب.

- ثم ظهرت بعد ذلك الصهيونيَّة الثقافيَّة، والدينيَّة، التي أضافت إلى الصهيونيَّة البعد الإثني (الديني والعلماني).

- ثم ظهرت الصهيونيَّة الديموقراطيَّة، والصهيونيَّة العماليَّة، والصهيونيَّة التصحيحيَّة، والصهيونيَّة الراديكاليَّة، وبعد عام ١٩٤٨، ظهرت: صهيونيَّة الدياسبورا.

- وهناك مصطلح: الصهيونيَّة الجغرافيَّة، الذي ورد في رسالة بعث بها يوسف ضياء الدين الخالدي رئيس بلديَّة القدس إلى حاخام فرنسا الأكبر صادوق كاهن -الصديق المقرب لكلٍّ من هرتزل ونوردو- يُذكِّره بأنَّ فلسطين جزءٌ لا يتجزأ من الإمبراطوريَّة العثمانيَّة ويسكنها غير اليهود، ويتنبأ بقيام حركة شعبيَّة ضد الصهيونيَّة فيما لو استمرت الحال على ما هي عليه، ولذا فقد نصح الصهاينة بالتخلي عن «الصهيونيَّة الجغرافيَّة»، أي الربط بين صهيون وفلسطين وبضرورة البحث عن أرض أو بلاد أخرى.

- وفي الوقت الحاضر فإنَّ كلمة صهيونيَّة تعني في العالم العربي: الاستعمار الاستيطاني الإحلالي في فلسطين الذي تَرسَّخ بدعم من الغرب.

- الصهيونيَّة حركة عنصريَّة حسب أحد قرارات هيئة الأمم، وأنَّها ليست كذلك حسب قرارات أخرى.

الفصل الثالث

الحركات الصهيونيَّة عبر التاريخ

العودة إلى صهيون فكرة محوريَّة في الدين اليهودي، إذ إنَّ أتباع هذه العقيدة يؤمنون بأنَّ الماشيح المخلِّص سيأتي في آخر الأيام ليقود شعبه إلى صهيون (الأرض- العاصمة) ويحكم العالم فيسود العدل والرخاء[١].

وقامت نداءات وحركات لتحقيق هذا الهدف، وهو اتخاذ فلسطين وطنا قوميًا لليهود وإقامَة دولة لهم.

ومن هذه النداءات والدعوات والكتابات:

١- أول دعوة علنية لإنشاء وطن قومي لليهود كانت في كتاب: نداء اليهود الذي أصدره السير هنري فنش بإنجلترا عام ١٦١٦

٢- الحاخام زفي هيرش كاليشر ١٧٩٥- ١٨٧٤ في كتابه: البحث عن صهيون.

٣- الحاخام موسى هيس ١٨٢١- ١٨٧٥ في كتابه من روما إلى القدس.

٤- المفكر اليهودي بيريتز سمولنسكن ١٨٤٢- ١٨٨٥ في كتابه: فلنبحث عن الطريق[٢].

ومن أهم الحركات:

حركة المكابيين

عقب العودة من السبي البابلي قامت حركة المكابيين في الفترة ١٦٧- ٦٣ق.م، وكان أول أهدافها العودة إلى صهيون وبناء هيكل سليمان.

وهذه الحركة قام به ميتاثياس من أسرة حشمون، من سبط هارون، وأبناؤه الخمسة: يوهنان كاديس، وسيمون، وجوداس، والبزر، ويوناثان، وكانت الحركة لخلع طاعة السلوقين، وضد حكم اليونانين، وكان شعار ميتاثياس: من كان يغار على الشريعة، وأراد أن يؤيد العهد فليتبعني.

وبعد موت ميتاثياس قاد الحركة ابنه جوداس الذي كان رجل حرب، وكان معروفا باسم يهودا المكابي وعرفت الحركة باسمه، وألحق باليونانيِّين كثيرًا من الهزائم واستطاع تحرير الأرض من أيديهم وإنقاذ القدس واستعادة المعبد، ولكنَّه قتل عام ١٦١ق.م.

وواصل أخوه يوناثان الحرب بشجاعة عظيمة ولكنَّه قُتل هو الآخر عند عكا.

---

(١) انظر: المزامير ١٤/٧، ٢٠/٢، أشعياء ٤٦/١٣ .

(٢) انظر: موجز تاريخ اليهود، د. محمود عبد الرحمن قدح ص(٣٤).

ولم يبقَ بعدئذ من الإخوة الخمسة إلا سيمون، وقد استطاع بمعونة روما أنْ ينال في عام ١٤٢ق.م اعترافًا باستقلال بلاد اليهود.

وعُين سيمون بمرسوم شعبي حاخامًا أكبر وقائدًا عسكريًّا، وهذان المنصبان قد أصبحا وراثيين في هذه الأسرة فقد أضحى هو مؤسس الأسرة المالكة الحشمونيَّة، وعدت أول سني حكمه بداية تاريخ الجديد، وصدرت عملة تعلن مولد الدولة اليهوديَّة الجديدة.

وقد سقط هذا الحكم اليهودي المستقل بقيام الرومان بغزو المنطقة عام ٦٣ ق.م، فاختفى وجود اليهود السياسي المستقل تقريبًا(١).

حركة باركوخيا

أثار اليهودي باركوخيا ١١٨. ١٣٨م الحماسة في نفوس اليهود وحثهم على التجمع في فلسطين وتأسيس دولة يهوديَّة فيها.

حركة موزس الكريتي

وكانت شبيهة بحركة باركوخيا.

حركة دافيد روبين وسولومون مولوخ

حثَّ دافيد روبين وتلميذه سولومون مولوخ ١٥٠١. ١٥٣٢م اليهود على ضرورة العودة لتأسيس ملك إسرائيل في فلسطين.

حركة منشه بن إسرائيل

تعتبر حركة منشه بن إسرائيل ١٦٠٤. ١٦٥٧م هي النواة الأولى التي وجَّهت خطط الصهيونيَّة وركزتها على أساس استخدام بريطانيا في تحقيق أهداف الصهيونيَّة.

حركة شبتاي تسفي

ادَّعى شبتاي تسفي ١٦٢٦. ١٦٧٦م أنَّه مسيح اليهود المخلص، فأخذ اليهود في ظله يستعدون للعودة إلى فلسطين ولكنَّ مخلِّصهم مات.

حركة رجال المال

كانت تهدف حركة رجال المال التي تزعمها روتشيلد وموسى مونتفيوري إلى إنشاء مستعمرات يهودية في فلسطين كخطوة لامتلاك الأرض ثم إقامة دولة اليهود.

الحركة الفكريَّة الاستعماريَّة

دعت الحركة الفكريَّة الاستعماريَّة إلى إقامة دولة يهوديَّة في فلسطين في بداية القرن التاسع عشر.

---

(١) انظر: قصة الحضارة، ول ديورانت، التاريخ اليهودي العام (٢/ ١٩٣)، صابر طعيمة، اليهودية عرض تاريخي، د. عرفان عبد الحميد فتاح ص(٥٠- ٥٢)، الفرق والمذاهب اليهودية، عبد المجيد همو ص(٥٦، ٥٧).

فرنسا الاستعماريَّة

أطلق نابليون بونابرت دعوته لليهود بالهجرة إلى فلسطين في إبريل من عام ١٧٩٩م للميلاد، ووجه إلى اليهود بيانًا سماهم فيه ورثة فلسطين الشرعيين، وعرض تعاون الحركة الاستعماريَّة الفرنسيَّة معهم، لتمكينهم من السيطرة على أرض بيت المقدس.

ولهذا فإنَّه بعد أن غزا مصر عمد إلى غزو الشام، وخاض معارك كبيرة هناك، إلا أنَّها انتهت بهزيمته في عكا في معركة أبي قير، مما أجهض مشروعه الإجرامي لتمكين اليهود في فلسطين في ذلك الوقت المبكر الذي سبق ميلاد الحركة الصهيونيَّة المعاصرة بنحو مائة عام.

ولكن فرنسا ظلت محتفظة بالتزامها بالتعاون مع اليهود بصور تظهر تارة وتختفي تارة، وكان من أبرز صور التعاون معهم بعد إقامة دولتهم المشاركة في العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦م. والأظهر من ذلك تمكين دولة اليهود من تصنيع القنبلة النوويَّة بتعاون فرنسيٍّ إسرائيليٍّ وثيق منذ نهاية الخمسينات.

بريطانيا الاستعماريَّة

استفادت بريطانيا من إخفاقات نابليون في تحقيق هذا الغرض، وسارت في خطوات حثيثة لإنجاح المشروع الذي لم تفلح فيه فرنسا، وقد تكلل هذا المسعى المشئوم بالنجاح في نهاية المطاف.

فالمشروع الإنجليزيُّ لتمكين اليهود في فلسطين بدأ عام ١٨٤٠م، وأثمر قيام الدولة عام ١٩٤٨م.

بدأت بريطانيا مشروعها بتصدير رجال دين نصارى لهذه المهمة؛ حيث رأت أنَّ رجال السياسة لن يصلحوا لمرحلة البداية التي تحتاج إلى تحفيز روحيٍّ وعقديٍّ، ولهذا فإنَّ أول من أذنت له بريطانيا ببذل مساعيه لإحياء المشاعر الدينيَّة عند اليهود بخصوص العودة لفلسطين هو القس (وليام هشلر) الذي تحرك في دول أوربَّا من أجل الإقناع بهذا الهدف.

وبينما كان القس يهيئ الأجواء لقبول المشروع البريطاني، كان الساسة يرتبون للتحرك على محاور أخرى لاستثمار نتائج مساعيه أولًا بأول، وأصبحت بريطانيا تنادي علنًا بحماية حقوق الأقليات الدينيَّة في العالم، ولم يكن يهمها في الحقيقة من هذه الأقليات سوى الأقليات اليهوديَّة لجمع شتاتها المبعثر في العالم، وحشره في بيت المقدس.

وعندما آتت هذه المساعي شيئًا من أكلها بانتعاش الأقلية اليهوديَّة في فلسطين انتقلت بريطانيا في الثلث الثاني من القرن التاسع عشر إلى جلب يهود آخرين إلى أرض فلسطين من خارجها، واستغلت خبرتها العريقة في اغتصاب الشعوب باسم (الاستعمار) لتضعها تحت تصرف اليهود باسم (الاستيطان)، أي تحويل أرض الغير إلى وطنٍ.

وقد أرادت بريطانيا بذلك المسعى أن تضرب عصفورين بحجر واحدٍ؛ فهي من ناحية تحقق ذلك الهدف المشبوه من مشروع تمكين اليهود في بيت المقدس بعد تيه قارب الألفي عام، ومن ناحية

أخرى، تضع خنجرًا في خاصرة العالم الإسلامي، لتكرس حالة الوهن التي وصل إليها بعد ضعف الدولة العثمانيَّة، وذلك حتى لا يقوم لهذا العالم كيان عالمي يحاول النهوض من جديد.

وقد جعل وزير خارجية بريطانيا (اللورد بالمرستون) مهمته الأولى هي السير قدمًا في وضع السياسات الكفيلة بتحقيق هذين الهدفين.

ولكن برامج (بالمرستون) ظلَّت مجمَّدة حتى انتهت الحرب العالميَّة الأولى التي نتج عنها هزيمة الدولة العثمانيَّة؛ حيث استغل الإنجليز نتائجها وسارعوا إلى اغتنام فرصة الفراغ والبلبلة الناشئة عنها، ونادوا بضرورة فرض الحماية البريطانيَّة على فلسطين، ولم تكن هذه الخطوة إلا تطبيقًا لأفكار بالمرستون للإمعان في تهيئة الأوضاع في فلسطين للتمكين لليهود فيها بالتنسيق مع فعاليات الحركة الصهيونيَّة العالميَّة التي كانت قد بلغت في ذلك الوقت مرحلة من النضج التنظيمي الذي يؤهلها للقيام بدور فاعل في هذه التطورات المصيريَّة في المنطقة.

لقد شهدت البدايات الأولى للقرن التاسع عشر تلاقيًا ظاهرًا بين أهداف الحركة اليهوديَّة العالميَّة وأهداف بريطانيا زعيمة العالم النصراني في ذلك الوقت.

لقد توَّجت بريطانيا هذا التلاقي بإصدار حكومتها وعدًا رسميًا لليهود بإقامة (وطن) -لا مستوطنات- ولم يكن هذا الوعد الصادر في نوفمبر عام ١٩١٧م مجرد وعود تشجيعيَّة، وإنما كان بمثابة حكم قضائي، سخرت لتطبيقه القوى المتنفذة في ذلك الوقت، فوعد (بلفور) كان يعني بتعبير آخر، تعهد بريطانيا بتحويل فلسطين إلى وطن لليهود، ولم يكن هذا التعهد قابلًا للتنفيذ عن بُعد، ولهذا أقدمت بريطانيا على احتلال القدس بعد صدور الوعد بشهر واحد.

وهكذا، وبعد عشرين عامًا من اجتماع قادة الصهيونيَّة في (بال) بسويسرا فتحت لهم بريطانيا مصاريع أبواب فلسطين لكي يلج منها مشروعهم التآمري ضد المسلمين، بل ضد البشريَّة جمعاء[١].

حركة أحباء صهيون

على إثر مذابح اليهود في روسيا سنة ١٨٨٢م قامت حركة صهيونيَّة عنيفة، وفي هذه الفترة ألف هيكلر الجرماني كتاب بعنوان: إرجاع اليهود إلى فلسطين حسب أقوال الأنبياء.

وظهرت في روسيا لأول مرة حركة عرفت باسم: أحباء (عشاق) صهيون، وكان أنصارها يجتمعون في حلقات اسمها (أحباء صهيون) وقد تم الاعتراف بهذه الجماعات في عام ١٨٩٠م تحت اسم: جمعيَّة مساعدة الصناع والمزارعين اليهود في سوريا وفلسطين، وترأسها ليون بنسكر واستهدفت الجماعة تشجيع الهجرة إلى فلسطين وإحياء اللغة العبريَّة.

---

(١) انظر: مجلة البيان، المنتدى الإسلامي، العدد ١٤٥ ص(٦٠- ٦٤)، التاريخ اليهودي العام (٢/ ١٩٤، ١٩٥).

ويقول وايزمان في مذكراته: إنَّ الحركة الصهيونيَّة في حقيقتها وجوهرها نشأت في روسيا، وإن يهود روسيا كانوا العمود الفقري للكيان اليهودي في فلسطين منذ قيام الحركة[١].

وقدمت الحركة سنة ١٨٨٢ طلبًا إلى القنصل العثماني في روسيا يطلبون الإقامة في فلسطين فكان الرد بالرفض القاطع من السلطان عبد الحميد الثاني.

وأخذ اليهود يتسللون من روسيا واتجه أكثرهم إلى الولايات المتَّحدة وأراد بعضهم الاتجاه إلى فلسطين ولكنَّ الحكومة التركية أصدرت قانونًا يحرِّم على اليهود دخول فلسطين، وفي الوقت نفسه منعت حكومة القيصر بروسيا الدعوة للهجرة.

وعلى الرغم من كلِّ ذلك استطاع نفر قليل من الشبان أن يصلوا إلى فلسطين سنة ١٨٨٣ حيث أنشئوا أولى المستعمرات الزراعية بالقرب من يافا، وأطلقوا عليها اسم: ريثون ليزيون، أي الأولون في صهيون، ويسميها بن جوريون: الهجرة الأولى، أما الهجرة الثانية فكانت نتيجة الثورة الروسيَّة التي قامت سنة ١٩٠٥ وقد تمكن القيصر من القضاء عليها، ويقول بن جوريون: إنَّ هذه الثورة لو نجحت لأدت إلى رفع الاضطهاد عن اليهود وبالتالي لاستقر يهود روسيا بها، ولكن فشلها دفع اليهود إلى ما يسميه بن جوريون بالهجرة الثانية، وكان بن جوريون من مهاجري هذه الموجة[٢]. وتلا ذلك هجرات من الدول المختلفة بأوربَّا وبخاصَّة رومانيا.

وتبعًا لهذه الهجرات أنشأت عدة مستعمرات في مناطق جودا والخليل والسامرة، وقد تعرضت المستعمرات الصهيونيَّة إلى كثير من الكساد وأوشكت على الانهيار لولا المساعدات الضخمة التي قدمها أثرياء اليهود وبخاصَّة البارون أدمون دي روتشيلد[٣].

وألفت في بعض بلاد أوربَّا جمعيَّات مماثلة لجمعيَّة عشاق صهيون التي ألفت في روسيا.

ثم جاء هرتزل الذي يعتبر أبا للصهيونيَّة الحديثة[٤].

---

(١) مذكرات وايزمان ص(١٤).

(٢) إسرائيل وسنوات التحدي، بن جوريون.

(٣) هذه هي الصهيونيَّة، إسرائيل كوهين ص(٣٣).

(٤) انظر: اليهودية ص(١٢٠، ١٢١)، موجز تاريخ اليهود ص(٣٤).

الفصل الرابع

الحركة الصهيونيَّة الحديثة

الصهيونيَّة الحديثة هدفها الأساسي الواضح هو قيادة اليهود إلى حكم العالم بدءًا بإقامة دولة لهم في فلسطين.

وهي الحركة المنسوبة إلى تيودور هرتزل الصحفي اليهودي المولود في بودابست في ٢/ ٥/ ١٨٦٠م، والذي حصل على شهادة الحقوق من جامعة فينا ١٨٧٨م.

وقد شهد بباريس -كمراسل صحفي- محاكمة الضابط الفرنسي اليهودي دريفوس، الذي اتُّهم بالخيانة عام ١٨٩٤م لنقله أسرارًا عسكريَّة من فرنسا إلى ألمانيا، لكن ثبتت براءته فيما بعد، ولكنَّه أحس في المحاكمة -كما يقول- بروح العداء للسامية ولليهود فكتب كتابه الدولة اليهوديَّة سنة ١٨٩٥م يعلن فيها ضرورة قيام دولة لليهود يحتمون بها من هذا العنت.

وإصدار كتابه هذا الشهير أكسبه أنصارًا لا بأس بعددهم مما شجعه على إقامة أول مؤتمر صهيوني عالمي في بازل بسويسرا سنة ١٨٩٧م، مستغلًا محاكمة الضابط اليهودي الفرنسي، ونجح هرتزل من تصوير المأساة اليهوديَّة -في زعمه- من خلال هذه الواقعة الفرديَّة.

ونجح في جمع كلمة اليهود وتوجيه نشاطهم، ووضع ما عرف فيما بعد اسم «برنامج بال» الصهيوني.

وقد حدد هرتزل أهدافه في هذا المؤتمر بقوله: إنَّنا اجتمعنا هنا لكي نضع حجر الأساس لمبادئ التي تجمع الشعب اليهودي.

وسرعان ما سيطر شعور اليهود الشرقيين -الروس بوجه خاصٍّ- على هذا المؤتمر، وكان هؤلاء يتمسكون بأن يكون مأوى اليهود في أرض فلسطين.

وقد علق هرتزل على هذا المؤتمر بقوله: لو طلب إليَّ تلخيص أعمال المؤتمر فإني أقول بل أنادي على مسمع من الجميع إنني قد أسست الدولة اليهوديَّة، إنَّ العالم سيرى بعد خمسين سنة على وجه التأكيد هذه الدولة[1].

واتخذ المؤتمر القرار التالي:

إنَّ أماني الصهيونيَّة هي إنشاء وطن للشعب اليهودي يُعْتَرَف به من الناحيتين الرسميَّة والقانونيَّة، ويصبح الشعب اليهودي بإنشائه في مأمن من الاضطهاد، على أن يكون هذا الوطن هو فلسطين.

---

(١) يوميات هرتزل (٢/ ٥٨١).

وحدد المؤتمر الوسائل الكفيلة بتحقيق هذه الغاية بما يلي:

أولًا: تنمية الاستيطان اليهودي في فلسطين، وذلك بتعمير كل ما يمكن من الأراضي الفلسطينيَّة بسكانٍ يهود مستقرين، من عمال وزراعيين وصناعيين، لإنشاء أجيال تتشبث بالأرض، ويستحيل اقتلاعها أو إجلاؤها.

ثانيًا: تشجيع وتنظيم هجرة اليهود في العالم إلى أرض فلسطين لتكثيف الوجود اليهودي فيها، وربط هذه الهجرة بمنظمات محليَّة ودوليَّة.

ثالثًا: تقوية الشعور اليهودي والوعي القومي اليهودي، وبعث الشخصية اليهوديَّة، بما ينبغي أن تحمله من مشاعر وعقائد وشعائر وتقاليد على المستوى الفردي والجماعي، وذلك بإحياء ما اندرس من تراث الديانة اليهوديَّة نظريًا وعمليًا.

رابعًا: إنشاء جهاز إداري دقيق لجمع المال، واشترك أثرياء اليهود بسخاء في التمويل وبخاصة المليونير روتشيلد وأسرته.

خامسًا: توحيد جميع اليهود في مؤسسات أقليميَّة وعامَّة وفقًا للقوانين المرعية في كلِّ بلدٍ.

سادسًا: إحياء اللغة العبريَّة وجعلها اللغة الرسميَّة للجماعة الصهيونيَّة فكل من اعتنق فكرة الصهيونيَّة كان عليه أن يبادر بتعلم اللغة العبريَّة دون إبطاء، ويقول شاختر في بيان ضرورة اللغة العبريَّة لليهود: اللغة العبريَّة هي الخزانة التي أودعنا فيها كل نفيس من حياة بني إسرائيل الروحيَّة، ولولاها لفصلنا من الشجرة الكبرى التي هي بمثابة الحياة للمتصلين بها، إنَّ اليهود الإغريقين هي الطائفة الوحيدة المعروفة في التاريخ بمحاولتها هذه التجربة للتخلص من اللغة العبريَّة وقد خاب فلها وانتهت إلى الهلاك، وسارت في طريق الاضمحلال، وأخيرًا ارتدت جملة عن الدين اليهودي، فلنتجنب مغالطة أنفسنا، ليس هناك أي مستقبل لليهود الذين يقاومون اللغة العبريَّة (١).

سابعًا: اتخاذ الخطوات التحضيريَّة للحصول على الضمانات الحكوميَّة اللازمة لتحقيق أهداف الصهيونيَّة.

ومن الناحية التنفيذيَّة أسس المؤتمر المنظمة الصهيونيَّة العالميَّة، وأقر نظامها الداخلي وهيكلها التنظيمي وشروط العنصريَّة فيها، فمنح حقَّ العضويَّة لكلِّ يهودي في العالم يلتزم ببرنامج بال، ويدفع اشتراكًا سنويًا محددًا، كما أقرَّ المؤتمر شكل العلم الصهيوني، وجدير بالذكر أنَّ المؤتمر قد تعمد أن يستعمل في قراره الرئيسي تعبير «وطن» لأسباب دبلوماسيَّة بينما كان القصد الحقيقي للمؤتمر من البداية هو «دولة يهوديَّة» كما أكد هرتزل في مذكراته.

وهكذا اتجهت الحركة الصهيونيَّة بعد ذلك المؤتمر للعمل على جبهتين:

---

(١) في الفكر اليهودي ص(١٧).

١- الجبهة اليهوديَّة بهدف استكمال تنظيماتها وكسب ولاء اليهوديَّة العالميَّة.
٢- والجبهة الخارجيَّة بهدف كسب تأييد حركة الاستعمار الأوربيّ العالميّ.

العمل على الجبهة اليهوديَّة

عقدت المنظمة الصهيونيَّة العالميَّة بين مؤتمر بازل ١٨٩٧ وسنة ١٩١٣ عشرة مؤتمرات تم خلالها تشكيل عدد من الهيئات التنظيميَّة والماليَّة لتنفيذ برنامج الاستيطان اليهوديّ في فلسطين بجباية الأموال واستخدامها في تمويل الهجرة اليهوديَّة إلى فلسطين وشراء الأراضي الفلسطينيَّة، وقصر العمل فيها على اليهود دون غيرهم، ويلاحظ أن الاستيطان الزراعي القائم على الانغلاق الصهيوني كان هو الوسيلة الوحيدة أمام الصهيونيَّة لمحاولة إيجاد جذور للمهاجرين اليهود الغرباء في أرض فلسطين.

وإجمالًا يمكن اعتبار العمل الصهيوني في الفترة ما بين مؤتمر بازل في ١٨٩٧ واندلاع الحرب العالميَّة الأولى في ١٩١٤ محاولة لوضع الأسس الأولى للوجود الصهيونيّ في فلسطين من كافَّة النواحي مع الأخذ بعين الاعتبار تلك الخطوات المحدودة التي كانت قد بدأت في ميدان الهجرة والاستيطان منذ سنة ١٨٨٢، وقد شهدت فلسطين خلال الفترة من ١٨٨٢ إلى ١٩١٤ موجتين للهجرة اليهوديَّة كانت الأولى بين ١٨٨٢ و١٩٠٣، وضمنت أفرادًا وجماعات صغيرة من أوربَّا الشرقيَّة استجابة إلى دعوات الجماعات الصهيونيَّة الأولى، والثانية بين ١٩٠٤ و١٩١٤ وقد تألفت جمهورها من يهود أوربَّا الشرقيَّة الذي عملوا في المستعمرات اليهوديَّة التي أقيمت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ووضعوا أسس الحركة العماليَّة الصهيونيَّة والمستعمرات الجماعيَّة الأولى.

العمل على الجبهة السياسيَّة الدوليَّة

كانت الحركة الصهيونيَّة تخطط لإيجاد دولة يهوديَّة في فلسطين في وقت كان الوجود اليهودي البشري والمادي في فلسطين أقل من أن يذكر، وأمام هذه المفارقة كان لا بدَّ لها من أن تبحث عن قوة استعماريَّة كبرى تتولى نقلها إلى فلسطين، وتحمي بالقوة حركة الهجرة والاستيطان، وهكذا بدأت الصهيونيَّة بقيادة هرتزل عملًا حسيسًا عرضت فيه خدماتها على عدد من الدول الأوربيَّة وعلى الدولة العثمانيَّة مؤكدة لكلٍّ منها أنَّ الدولة الصهيونيَّة في فلسطين ستكون حارسًا أمينًا على مصالحها مقابل أداء الدولة المعنية للخدمات المطلوبة منها، وقد شمل التحرك الصهيوني عددًا من الدول من أهمها:

أولًا: ألمانيا

وذلك نظرًا لوجود أعداد كبيرة من اليهود فيها، ولصداقتها بالدولة العثمانيَّة صاحبة السيادة على فلسطين آنذاك، وكان عرض هرتزل على قيصر ألمانيا أنَّ تتبنى مطالب الحركة الصهيونيَّة لدى السلطان العثماني مقابل إبعاد يهود ألمانيا عن الحركات المناوئة للقيصر ونشر الثقافة والنفوذ

الألمانيين في دول المشرق، ولكن هذا المسعى لم يوفق.

ثانيًا: الدولة العثمانيَّة

وذلك لإقناعها بالسماح بهجرة يهوديَّة واسعة النطاق إلى فلسطين في مقابل كفالة ديون الدولة العثمانيَّة ودفع مبالغ طائلة لإنقاذ ماليَّة السلطنة المنهارة، كما قدمت الحركة الصهيونيَّة رشاوى إلى عدد من المسئولين العثمانيِّين لضمان موافقة السلطان، لكنَّه لم يوافق، ورفض رفع القيود المفروضة على أعداد اليهود المسموح بوجودهم في فلسطين. وفيما بعد حصلت الحركة الصهيونيَّة على تسهيلات من الإدارة العثمانيَّة بعد انقلاب ١٩٠٨ وإبعاد السلطان عبد الحميد، فسمح بزيادة عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى، وإن كان عدد اليهود في فلسطين قد انخفض في نهاية الحرب عنه قبلها بسبب الأهوال التي عانت منها فلسطين في تلك الفترة.

ثالثًا: بريطانيا

فقد توجه هرتزل بعد فشل مساعيه في استنبول إلى بريطانيا حيث وجد المناخ مهيئًا، إذ كانت الحكومة هناك تسعى لإيجاد حلٍّ للتذمر في أوساط العمال البريطانيِّين بسبب تزايد أعداد المهاجرين اليهود من أوربَّا الشرقيَّة مما هدد بخلق أزمة بطالة حادة في بريطانيا، وقد وافق وزير المستعمرات البريطاني بعد أن عرض عليه هرتزل المخططات الصهيونيَّة شارحًا الفوائد التي ستجنيها بريطانيا ومصالحها الاستعماريَّة من تأييد اليهود لها- وافق على توطين اليهود في العريش وشمال سيناء ولكن الدراسات اللاحقة أظهرت أن المشروع يحتاج إلى كمِّيَّات هائلة من المياه لإنجاحه. وقد رفضت الحكومة المصريَّة الموافقة على تقديم المياه المطلوبة من نهر النيل لري أراضي الاستيطان اليهودي المرتقب في العريش. وهنا اقترح وزير المستعمرات كينيا أو موزمبيق كمكانين بديلين، وقد وافق هرتزل على هذا العرض تكنيكيًا خاصَّة وأنه رافق وقوع حملات اضطهاد واسعة النطاق ضد اليهود في روسيا، غير أن المؤتمر الصهيوني السادس ١٩٠٣ انقسم بشأن هذا العرض وأن وافق عليه بأغلبيَّة الأصوات مقابل تعهد هرتزل بعدم البدء في توطين اليهود في الوطن الأفريقي المقترح قبل الحصول على موافقة مؤتمر صهيوني جديد، غير أن هرتزل مات في السنة نفسها، ومات بعده هذا العرض بعد أن جاء تقرير البعثة التي أوفدتها المنظمة الصهيونيَّة لدراسة إمكانيَّة الاستيطان هناك غير مشجع، وهكذا أسقط المؤتمر الصهيوني السابع في ١٩٠٥ هذا المشروع نهائيًّا.

التآمر الدولي على فلسطين

أدى النشاط الصهيوني المكثف في الساحة الدوليَّة إلى نتائج محددة عكست مدى نجاح الحركة الصهيونيَّة في استقطاب التأييد من أهم القوى الفاعلة في هذه المساحة، ونجتزئ من هذه النتائج هنا نتيجتين بالغتي الأهمِّيَّة توضحان مدى التآمر الدولي على فلسطين، وبداية خطوات التنفيذ الفعلي لخطة إنشاء دولة صهيونيَّة على أرض فلسطين.

أولًا: معاهدة سايكس بيكو

بينما كان النشاط الصهيوني يتزايد في فلسطين بعد عزل السلطان عبد الحميد الثاني في ١٩٠٨، وبسبب الفساد والرشوة كانت الدوائر الاستعماريَّة الأوربيَّة ترسم الخطط السرِّيَّة فيما بينها لاقتسام الدولة العثمانيَّة التي كانت مظاهر تدهورها وانهيارها بادية للعيان، وهكذا توصلت كلٌّ من بريطانيا وفرنسا في مايو ١٩١٦ إلى عقد معاهدة سرِّيَّة لاقتسام المشرق العربي فيما بينهما، وقد وافقت روسيا القيصريَّة على هذه المعاهدة مقابل اتفاق تعترف فيه بريطانيا وفرنسا بحقها في ضمِّ مناطق معينة من آسيا الصغرى بعد الحرب.

ويلاحظ أنَّ معاهدة سايكس- بيكو:

١- تقاسمت أقطار المشرق العربي في نفس الوقت الذي كانت بريطانيا تتبادل فيه الرسائل المتضمنة اعترافًا باستقلال المشرق العربي مع الشريف حسين الذي كان يتحدث باسم العرب.

٢- سلخت فلسطين من المشرق العربي، وحددت لها بالتدويل مصيرًا مغايرًا لباقي أقطاره، وذلك كخطوة أولى تهيئها، لمخطط الوطن القومي اليهودي والانتداب البريطاني في المرحلة التالية.

٣- ظلَّت سرًّا لا يدري به العرب إلى أن نشرتها الحكومة السوفيتيَّة في روسيا بعد نجاح الثورة الاشتراكيَّة في ١٩١٧، وعندها سارعت بريطانيا إلى طمأنة العرب إلى أنَّ المعاهدة أصبحت ملغاة بعد انسحاب روسيا من الحرب وانضمام العرب إلى جانب الحلفاء.

أما الزعماء الصهاينة فقد احتجوا لدى الحكومة البريطانيَّة لتنافي تدويل فلسطين مع فكرة الوطن القومي اليهودي، فأكدت لهم أنَّ التدويل هو مجرد خطوة مرحليَّة تكتيكيَّة أملاها موقف فرنسا وروسيا اللتين كانت لهما مطامع عديدة أيضا في فلسطين، وأنَّها -أي بريطانيا- ستعمل على إلغائه، وهو ما تأكد فعلًا بصدور تصريح بلفور حتى قبل انتهاء الحرب.

ثانيًا: وعد بلفور

كثف زعماء الحركة الصهيونيَّة جهودهم من أجل الحصول على دعم قوة استعماريَّة لمشروعهم مع نشوب الحرب العالميَّة الأولى وجاءت تطورات الحرب لترجح كفَّة الفريق الذي يراهن على بريطانيا، وأظهرت السياسة البريطانيَّة بالمقابل وعيًا بالأغراض الاستراتيجيَّة التي يمكن أن يحققها قيام دولة صهيونيَّة مرتبطة بها في فلسطين، إذ إن هذه الدولة سوف تحقق لها ما يلي:

١- تشكل مركزًا استراتيجيًّا لحماية طرق المواصلات الإمبراطوريَّة إلى الهند وأفريقيا وللسيطرة على سواحل البحرين الأبيض والأحمر.

٢- تؤمن الوجود البريطاني في مصر وفيها قناة السويس أهمّ ممرٍّ مائيٍّ في العالم اقتصاديًّا وعسكريًّا.

٣- تكون جدارًا عازلًا أمام الأطماع المتزايدة للدولة الأوربيَّة المتنافسة ونقطة وثوب إلى باقي

بلاد المشرق العربي.

٤- تشطر الوطن العربي بريًّا، ويمكن استخدامها لمجابهة حركة التحرر في الوطن العربي عامَّة حين تدعو الحاجة إلى ذلك.

وبناء على ما سبق وجه بلفور وزير خارجيَّة بريطانيا في ٢ نوفمبر ١٩١٧ رسالة إلى روتشيلد أحد زعماء الحركة الصهيونيَّة وكبار رجال المال في بريطانيا تنصُّ على أنَّ الوزارة البريطانيَّةَ قد وافقت على «أنَّ حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهوديِّ في فلسطين، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جليًّا أنَّه لن يؤتي بعمل من شأنه أن يضير بالحقوق المدنيَّة والدينيَّة التي تتمتع بها الطوائف غير اليهوديَّة المقيمة في فلسطين، ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلاد الأخرى».

ويلاحظ على هذا الوعد:

١- عدم مشروعيته: وذلك:

أ- لصدوره ممن لا يملك فلسطين إلى من لا حقَّ لهم فيها.

ب- لتناقضه مع التعهدات التي قطعتها بريطانيا للعرب بالاستقلال بعد الحرب.

٢- عدم شرعيته: وذلك:

أ- لتجاهله أنَّ شعب فلسطين كان يمثل وقت صدوره ٩٥% من سكان فلسطين، وقد أشار لهذا الشعب باعتباره «الطوائف غير اليهوديَّة» مع العلم بأنَّ اليهود الذين اعتبروا الأصل في هذا الوعد كانوا يمثلون ٤% من السكان ويملكون ٢% من الأرض.

ب- لتجاهله الحقوق السياسيَّة لشعب فلسطين، فقد أشار فقط إلى الحقوق المدنيَّة والدينيَّة للطوائف غير اليهوديَّة، بينما أكد الحقوق السياسيَّة لليهود في فلسطين بالتأكيد على فكرة تأسيس وطن قومي لهم فيها، وفي غير فلسطين بنصِّه على عدم المساس بوضعهم السياسي في البلاد الأخرى.

٣- غموضه: وذلك لاستعماله تعبير «الوطن القومي» للتهرب من النصِّ صراحة على إنشاء دولة اليهود تجنُّبًا لردود أفعال أوسع.

وفي سبتمبر ١٩١٨ تم احتلال فلسطين من قبل الجيوش البريطانيَّة لتكون هذه هي الخطوة الأولى في طريق وضع الوعد موضع التنفيذ.

فلسطين تحت الانتداب

عقد مؤتمر السلام في باريس في مطلع ١٩١٩ لتصفية تركة الحرب العالميَّة الأولى في ضوء خريطة سياسيَّة جديدة تطابق الأهداف الاستعماريَّة للدول الكبرى المسيطرة على المؤتمر والمنتصرة في الحرب. وجدير بالذكر أنَّه على الرغم من سماع المؤتمر لوجهة النظر العربيَّة وإطلاعه عليها، ومن

وجود تقرير لجنة كنج- كرين الأمريكيَّة الذي أوضح وجهة النظر العربيَّة، وبين التناقض الواضح في وعد بلفور بين المشروع الصهيوني ومبادئ حقِّ تقرير المصير- على الرغم من ذلك فإنَّ جو الأطماع الاستعماريَّة الذي ساد المؤتمر قد وضع المطالب العربيَّة والصهيونيَّة إلى المؤتمر في موقعين مختلفين: إذ كانت مطالب الحركة الصهيونيَّة قد أصبحت جزءًا من مخططات الاستعمار الأوربِّي في المشرق العربي بينما كانت المطالب العربيَّة تتناقض تمامًا مع هذه المخططات.

وقد أقر المؤتمر ميثاق عصبة الأمم في أبريل ١٩١٩ الذي اختصت المادة ٢٢ منه بنظام الانتداب بإشراف عصبة الأمم، وهو كما نعلم ذلك الشكل الاستعماري الجديد الذي اقترح كمخرج للتناقض بين مبادئ حقِّ تقرير المصير التي أعلنتها دول الحلفاء أثناء الحرب وبين سعيها لضمان مصالحها الاستعماريَّة، وبموجب هذا النظام فرض الانتداب البريطاني على فلسطين.

وسوف نحاول تحديد أبعاد النموذج العام لتطور الصهيونيَّة مع القضية الفلسطينيَّة في ظل الانتداب، وهي أبعاد نرى أنَّها تقتضي دراسة العناصر الأربعة التالية: السياسة البريطانيَّة- المقاومة الفلسطينيَّة والعربيَّة- الإرهاب الصهيوني- محاولات التسوية السياسيَّة. فالعناصر الثلاثة الأولى تمثل القوى الفاعلة على الساحة الفلسطينيَّة أثناء الانتداب، وقد انعكس تفاعل هذه القوى، وموازين القوى بينها على المحاولات المختلفة لتسوية القضية الفلسطينيَّة على نحو ما سنرى.

١- السياسة البريطانيَّة

كانت هذه السياسة هي حجر الزاوية في خلق وجود صهيوني مؤثر على أرض فلسطين في فترة الانتداب على النحو الذي جعل هذا الوجود فيما بعد قوة فاعلة على الساحة الفلسطينيَّة، وقد ظهرت هذه السياسة البريطانيَّة المتحالفة مع الحركة الصهيونيَّة على كل المستويات، ونشير فيما يلي إلى مجرد أمثلة توضح مضمون وتوجهات هذه السياسة.

أولًا: على أساس المستوى السياسي:

١- تم تعيين غلاة الصهاينة في مناصب حساسة أصبحوا معها أداوت هامَّة لتنفيذ المخطط الصهيوني في فلسطين.

٢- سمح للمؤسسات الصهيونيَّة التي كانت المنظمة الصهيونيَّة العالميَّة قد شكلتها بالعمل بمنتهى الحريَّة في فلسطين فضلًا عن تشكيل مؤسسات جديدة.

٣- بدئ في إرساء أولى رموز الدولة الصهيونيَّة المزمع إنشاؤها على أرض فلسطين، فأعلنت العبريَّة لغة رسميَّة إلى جانب العربيَّة والإنجليزيَّة وكتب على النقود وطوابع البريد بالعبريَّة «أرض إسرائيل» بجانب كلمة فلسطين بالعربيَّة والإنجليزيَّة.

٤- فتحت أبواب الهجرة اليهوديَّة على مصراعيها إلى فلسطين لإيجاد الرصيد البشري اللازم للسير قدمًا في مشروع الدولة الصهيونيَّة.

ثانيًا: على المستوى الاقتصادي

١- بدأت عمليات انتقال الأراضي إلى أيدي الصهاينة وخصوصًا أراضي الدولة، وأخذت حكومة الانتداب ترهق الفلاحين الفلسطينيين بزيادة الضرائب حتى يضطروا لبيع أراضيهم كي يستطيعوا دفع هذه الضرائب.

٢- منحت امتيازات بعض مرافق البنية الأساسيَّة والأنشطة الاقتصاديَّة الهامَّة ليهود، فمنح امتياز توليد الكهرباء سنة ١٩٢١ لمدة سبعين عامًا ليهودي روسي، والأخطر من ذلك أن الامتياز قد شمل الاستفادة من أنهار الأردن واليرموك والعوجة ومياه بحيرة طبرية، وقد قضى الامتياز بألّا يسمح لغير صاحبه بتنوير أي بلد في فلسطين أو استعمال محركات كهربيَّة إلا بإذنه وذلك فيما عدا مدينة القدس التي كان امتيازها ممنوحا من قبل الدولة العثمانيَّة لأحد اليونانيين وكذلك منح امتياز استخراج أملاح البحر الميت ومعادنه في ١٩٣٩ ليهوديين لمدة ٧٥ عامًا، وأجرت لهما آلاف الدونمات من أراضي الدولة لحساب المشروع.

٣- تم سن القوانين اللازمة لحماية الصناعات الصهيونيَّة وضرب الصناعات العربيَّة.

ثالثًا: على المستوى العسكري

سمح للصهاينة بالتسلح بعد ثورة البراق عام ١٩٢٩ بحجَّة الدفاع عن النفس حتى وصل الأمر إلى أن أصبح للوكالة اليهوديَّة في الثلاثينات ما يسمى بجيش الدفاع الذي تألف من وحدات نظاميَّة تولى تجهيزها وتدريبها ضباط بريطانيون.

وهكذا يتضح أنَّ السياسة البريطانيَّة بأبعادها السابقة قد مكنت الصهاينة من البدء في زرع عناصر الدولة الصهيونيَّة على أرض فلسطين وتوفير الغطاء العسكري اللازم لحماية هذه العمليَّة.

٢- المقاومة الفلسطينيَّة والعربيَّة

يشيع أحيانًا وهم لدى البعض من الذين يجهلون تفاصيل تطور القضية الفلسطينيَّة مؤداه أن العمليَّة السابقة قد تمت في غفلة من الشعب الفلسطيني والواقع أن هذا الشعب بصفة عامة قد بذل من صنوف المقاومة لعمليَّة الاغتصاب الاستعماري هذه ما يندر أن نجد له مثيلًا في حركات التحرر الوطني المعاصرة. وكما كانت المؤامرة البريطانيَّة الصهيونيَّة شاملة فقد كانت المقاومة الفلسطينيَّة شاملة أيضًا، وقد تصاعدت حدة هذه المقاومة كلما زاد معدل الهجرة والاستيطان الصهيونيين، وامتدت إلى كل المجالات.

ففي مجال مقاومة انتقال الأرض إلى الصهاينة أسس الفلسطينيون صندوقًا من التبرعات والاشتراكات لشراء الأراضي من المُعسِرين من الفلسطينيين، بل لقد وصل الأمر إلى إصدار فتاوى دينية تحرم بيع الأرض للصهاينة ودفن سماسرة الأرض من الفلسطينيين في المقابر الفلسطينيَّة.

وفي المجال السياسي عرفت الحركة الفلسطينيَّة أعمال العصيان المدني كما حدث في مقاطعة انتخابات المجلس التشريعي عام ١٩٢٣ الذي كان سيضم أغلبيَّة من البريطانيين واليهود وفقًا

ـستور فلسطين الصادر في أغسطس سنة ١٩٢٢، وهو ما أدى إلى إفشال عملية تكوين هذا مجلس.

وعندما وصلت علميات الهجرة والاستيطان إلى معدلات أكثر إنذارًا بالخطر في نهاية لعشرينات وطيلة الثلاثينات اتخذت الحركة الوطنية الفلسطينيَّة شكلًا عنيفًا، فحدثت على سبيل ـثال في عام ١٩٢٩ ثورة البراق كرد فعل لإتيان الصهاينة بتصرفات اعتقد معه العرب أنَّها مقدمة لاحتلالهم للمسجد الأقصى، وقد انحازت بريطانيا للصهاينة أثناء أحداث الثورة وفي الأحكام لقضائيَّة التي تلتها، ولهذا لم يكن غريبًا أن اتجهت المقاومة الفلسطينيَّة في الثلاثينات إلى بريطانيا مباشرة بعد أن أصبح انحياز السياسة البريطانيَّة إلى جانب الصهاينة في غير حاجة إلى إثبات.

وهكذا اتخذت المقاومة الفلسطينيَّة منذ أوائل الثلاثينات طابعًا مسلحًا، وكذلك طابعًا وطنيًّا بمشاركة المسلمين والمسيحيين فيها، بل وعربيًّا بقدوم متطوعين عرب كما حدث في أحداث ثورة ١٩٣٦ التي كانت نقطة الذروة في تصاعد المقاومة الفلسطينيَّة للكيان الصهيوني.

وقد بدأت هذه الثورة التي استمرت من أبريل- أكتوبر ١٩٣٦ بالإضراب وإعلان العصيان لمدني بالامتناع عن دفع الضرائب، ثم امتدت إلى الهجوم على المستعمرات الصهيونيَّة وتدمير خطوط السكك الحديديَّة والجسور. وقد اتصلت بريطانيا في مواجهة عنف الثورة وتصاعدها بملوك العرب مبدية استعدادها للنظر في المطالب العربيَّة حالما يعود السكون، وأسفرت لاتصالات عن إصدار ملوك السعوديَّة والعراق واليمن، وأمير شرق الأردن لنداء موجه إلى عرب فلسطين يدعونهم فيه للسكينة حقنًا للدماء، واعتمادًا على رغبة الحكومة البريطانيَّة المعلنة لتحقيق لعدل ويعدون بأنَّهم سيواصلون السعي في سبيل مساعدتهم، وتلا ذلك دعوة اللجنة العربيَّة العليا لتي كانت بمثابة مجلس لقيادة ثورة الشعب الفلسطيني إلى إنهاء الإضراب، والاضطرابات اعتبارًا من ١٢ أكتوبر ١٩٣٦ .

وفيما بعد تفجرت الثورة مرة أخرى في عامي ١٩٣٧ و١٩٣٨ بعد اقتراح اللجنة الملكيَّة لتحقيق التي شكلت في أعقاب ثورة ١٩٣٦ للتقسيم كأساس لحل القضية الفلسطينيَّة، وقد فرضت لحرب العالميَّة الثانية منذ بدايتها في ١٩٣٩ وحتى نهايتها في ١٩٤٥ قيودًا على حركة المقاومة لفلسطينيَّة بسبب ظروف الحرب ذاتها ونقص ورود السلاح إلى المقاومة وبوصولنا إلى النصف لثاني من الأربعينات كانت حلقات المؤامرة قد بدأت تكتمل.

٣- الإرهاب الصهيوني

أدى تدفق الهجرة الصهيونيَّة إلى أرض فلسطين في عهد الانتداب، والسماح لهؤلاء الصهاينة بالتسلح في أعقاب ثورة البراق عام ١٩٢٩ إلى الحد الذي أصبح معه للوكالة اليهوديَّة في الثلاثينات وحدات نظاميَّة تسمَّى بجيش الدفاع- أدى هذا كلُّه إلى أن أصبح الصهاينة يمثِّلون قوة فاعلة جديدة في الساحة الفلسطينيَّة مارست الإرهاب على نحو منتظم كجزء من مخطط تنفيذ مشروع الدولة

الصهيونيَّة على أرض فلسطين، وكان هذا الإرهاب يستخدم ويؤتي ثماره على نحو ما سنرى في الفترات التي يبدو فيها احتمال تقديم سلطة الانتداب لأي تنازل تكتيكي للفلسطينيين، بل إنَّ هذا الإرهاب امتدَّ فيما بعد إلى المنشآت والأفراد البريطانيين أنفسهم، كما قام بدوره فيما بعد في إجبار السكان الفلسطينيين على ترك ديارهم، وبالذات في اللحظات الحرجة التي واكبت إعلان إنشاء دولة إسرائيل.

٤- محاولات التسوية

نتيجة تفاعل العوامل الثلاثة السابقة: السياسة البريطانيَّة- المقاومة الفلسطينيَّة والعربيَّة- الإرهاب الصهيوني تتابعت المشروعات التي قدمت من الأطراف المعنية بالصراع لحل القضية الفلسطينيَّة، وقد أخفقت كلّ هذه المشروعات على نحو ما سنرى لأنَّها لم ترضَ مطالب أطراف الصراع المختلفة دون أن يكون لأيها القدرة على حسم الموقف لصالحه، وهكذا قررت بريطانيا في النهاية إحالة القضية برمتها إلى الأمم المتَّحدة.

وسوف نعرض فيما يلي موجزًا لأهم مشروعات التسوية وإن كان من الضروري أن نتعرض لبعض الوثائق الأساسيَّة التي تلقي الضوء على الموقف البريطاني الرسمي من القضية قبل أن نعرض لهذه المشروعات حتى نستطيع أن نحكم عليها وعلى ما تمثله من استمرار أو تغير في موقف الأطراف المتبنية لها.

أولًا: الكتاب الأبيض البريطاني لعام ١٩٢٢:

وكان من أهم بنوده:

١- التأكيد على أنَّ تصريح بلفور لا يعنى تحويل فلسطين كلِّها إلى وطن قومي لليهود.

٢- التأكيد على أنَّ الوطن القومي لا يعني دولة يهوديَّة، ولا ينشأ فورًا وإنَّما بالتدريج.

٣- التأكيد على أنَّ وجود اليهود في فلسطين حقٌّ وليس منَّة.

٤- التأكيد على ضرورة استمرار الهجرة اليهوديَّة وإن حددها بالقدرة الاستيعابيَّة للبلاد.

ثانيًا: صك الانتداب ١٩٢٢:

وقد صادق عليه مجلس عصبة الأمم في يوليو ١٩٢٢، وتضمن في مقدمته نصّ وعد بلفور، وتأكيد الصلة التاريخيَّة التي تربط الشعب اليهودي بفلسطين، وكان هو الدستور الاستعماري الصهيوني الذي حكمت بموجبه فلسطين طيلة فترة الانتداب، **ومن أهم ما تضمنه:**

١- إعطاء الدولة المنتدبة السلطة التشريعيَّة والإداريَّة التامَّة واعتبارها مسئولة عن وضع البلاد في أحوال تضمن إنشاء الوطن القومي اليهودي.

٢- إنشاء وكالة يهوديَّة معترف بها لإسداء المشورة إلى إدارة فلسطين والتعاون معها في كافَّة الأمور التي تؤثر في إنشاء الوطن القومي لليهود.

٣- تسهيل هجرة اليهود وتشجيع حشدهم في الأراضي الأميريَّة والأراضي الموات.

٤- تسهيل اكتساب اليهود للجنسيَّة الفلسطينيَّة.

٥- إمكان الاتفاق بين الإدارة البريطانيَّة والوكالة اليهوديَّة على قيام الوكالة بإنشاء أو تسيير الأشغال والمصالح والمنافع العموميَّة وتطوير مرافق البلاد الطبيعيَّة.

٦- اعتبار الإنجليزيَّة والعربيَّة والعبريَّة اللغات الرسميَّة في فلسطين.

ثالثًا: الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٠:

وقد صدر في أعقاب ثورة البراق في ١٩٢٩، وعكس إلى حد ما نوعًا من التنازلات التكتيكيَّة البسيطة لصالح الحركة الوطنيَّة الفلسطينيَّة، وكان من أهم ما ورد فيه:

١- تأكيد الحكومة البريطانيَّة أنَّها لن تتخلى عن التزامها بموجب صك الانتداب وإن كانت قد قالت: إن الالتزامين المفروضين نحو فريقي السكان متساويان من حيث الدرجة، ويمكن التوفيق بينهما (أي وضع فلسطين في أحوال تضمن إنشاء الوطن القومي اليهودي، وترقية وصيانة الحقوق المدنيَّة والدينيَّة لجميع سكَّان فلسطين).

٢- بالنسبة لموضوع الهجرة رأى الكتاب أنَّه لا بدَّ عند تحديد عدد العمال المسموح لهم بدخول البلاد من المهاجرين الصهاينة -من التأكد من عدد العمال العاطلين، والاهتمام بقدرة فلسطين الاقتصاديَّة على استيعاب مهاجرين جدد.

وقد عبأ اليهود كل قواهم لمقاومة الكتاب الأبيض لمجرد أنَّ فيه شبهة تقييد للهجرة اليهوديَّة، وسيروا المظاهرات في عديد من أنحاء العالم، واستقال رئيس الوكالة اليهوديَّة معلنًا عدم تعاونه مع الحكومة البريطانيَّة التي سرعان ما تراجعت، ووجه رئيس وزرائها إليه -أي إلى رئيس الوكالة اليهوديَّة- في فبراير ١٩٣١ رسالة نسخ فيها معظم ما جاء في الكتاب الأبيض (ولهذا أسماها العرب الكتاب الأسود)، وأكد التزام حكومته بتسهيل هجرة اليهود وامتلاكهم للأرض.

رابعًا: اللجنة الملكية للتحقيق (١٩٣٦):

شكلت هذه اللجنة في أعقاب ثورة ١٩٣٦، ومن أهم ما توصلت إليه استحالة تسوية النزاع بين العرب والصهاينة، وأنَّ الحل لن يكون إلا بعمليَّة جراحيَّة لأنَّ التزامات بريطانيا تجاه كل من العرب واليهود غير قابلة للتوفيق، وهذه العمليَّة الجراحيَّة كما رأتها اللجنة هي التقسيم، وقد اقترحت بناء على ذلك خطة للتقسيم تفجرت بعدها الثورة في فلسطين من جديد كما سبق أن أشرنا سنة عامي ١٩٣٧، ١٩٣٨.

ويلاحظ أنَّ الخطة المقترحة للتقسيم بموجب اللجنة الملكية كانت تشمل دولة يهوديَّة تضم ٣٢٥ ألف عربيٍّ مقابل ٣٠٠ ألف يهوديٍّ، بينما تضم الدولة العربيَّة ١٢٥٠ يهوديًا فقط، وقد أصدرت الحكومة البريطانيَّة في يوليو ١٩٣٧ بيانًا توافق فيه على مبدأ التقسيم، وتعلن أنَّها ستتخذ

الإجراءات اللازمة لتنفيذه، وتم تشكيل لجنة فنيَّة لذلك بدأت عملها في أبريل ١٩٣٨، وانتهت منه في نوفمبر ١٩٣٨ .

وقد أعلنت هذه اللجنة الفنيَّة في تقريرها أنَّ أيَّ مشروع للتقسيم تعترضه عقبات جسميَّة أهمُّها المقاومة العربيَّة للتقسيم، فضلًا عن عدم وجود حدود من شأنها أنَّ تنطوي على أمل معقول في إنشاء دولة عربيَّة وأخرى يهوديَّة تكون كل منهما في النهاية قابلة للحياة ذاتيًّا، ورافق صدور تقرير اللجنة إعلان رسمي من قبل الحكومة البريطانيَّة في ١ نوفمبر ١٩٣٨ يعترف بأنَّ اقتراح التقسيم غير عملي، ولذلك فإنَّ بريطانيا ستواصل الاضطلاع بمسئوليتها في حكم فلسطين بأجمعها وستحاول الوصول إلى تفاهم بين العرب واليهود باعتبار أنَّ ذلك من أثبت الأسس لإقامة دعائم السلام والتقدم في فلسطين. واعتبر ذلك انتصارًا لثورة الفلسطينيين ضد التقسيم.

خامسًا: مؤتمر لندن والكتاب الأبيض (١٩٣٩):

يلاحظ أنَّ الدول العربيَّة قد مثلت في المؤتمر نتيجة للدور العربي السابق الإشارة إليه في القضية الفلسطينيَّة، وقد مثل الطرف العربي في ذلك المؤتمر كل من العراق ومصر والسعوديَّة واليمن وشرق الأردن. ومن ناحية أخرى اختارت اللجنة العربيَّة العليا وفد فلسطين بعد أن أصر الفلسطينيُّون على ذلك ضد رغبة بريطانيا.

وقد اتفق ممثلو الطرف العربي إجرائيًّا على إلا يجلسوا مع الصهاينة وموضوعيًّا على أن يكون هدف المفاوضات وقف الهجرة وانتقال الأراضي إلى الصهاينة، وقيام دولة مستقلَّة ترتبط بمعاهدة مع بريطانيا، وتضمن الحقوق السياسيَّة والدينيَّة لليهود.

وفي أثناء فترة المؤتمر حرص كلّ من العرب والصهاينة على تقوية مواقعهم في فلسطين، فقام الصهاينة بحملة إرهابيَّة، وصعد العرب أعمال الثورة.

وفي سياق المؤتمر اقترحت الحكومة البريطانيَّة أسسا للتسوية تضمنها فيما بعد، الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩، وعلى الرغم من رفض الطرفين لها أكَّدت الحكومة البريطانيَّة أنَّها ستنفذ ما تراه ملائمًا حتى دون موافقة الطرفين، وتقوم مقترحات الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩ على أنَّ السياسة البريطانيَّة لا تقوم على جعل فلسطين دولة يهوديَّة أو دولة عربيَّة مستقلَّة، وعليه فهي ترغب في قيام دولة فلسطينيَّة مستقلَّة يشارك في حكمها العرب واليهود، ولكن لا بدَّ من نشوء علاقات طيبة بين العرب واليهود قبل ذلك، ولذلك لا بدَّ من فترة انتقال تتضمن ما يلي:

١- حكمًا ذاتيًّا:

يستمر لمدة عشر سنوات تستقل فلسطين بعدها ومع ذلك. فإنَّ لبريطانيا أن تؤجلَّ إقامة الدولة المستقلَّة إذا ظهر أنَّ الظروف تقتضي ذلك.

٢- تقييد الهجرة اليهوديَّة إلى فلسطين:

بحيث يسمح بها أولًا لمدة خمس سنوات حتى يصل السكان اليهود إلى ثلث السكان تقريبًا،

وكان هذا يعني السماح بدخول ٧٥ ألف يهوديٍّ خلال هذه الفترة وبعد ذلك لا يسمح أي هجرة أخرى إلا إذا كان عرب فلسطين قابلين لها.

٣- منح المندوب السامي سلطة تخوله منع انتقال الأراضي وتنظيمه:

ومع أن هذه الأبعاد الثلاثة السابقة للحكم في الفترة الانتقاليَّة تعد مكسبًا للثورة الفلسطينيَّة على نحو محدود إلا أنَّ العرب رفضوها لأنَّ الاستقلال منوط بمساهمة الصهاينة وبالآراء النهائيَّة لبريطانيا، أي أنَّ الفترة الانتقاليَّة غير محددة المدة، كما أنَّ منع انتقال الأراضي للصهاينة منوط بإرادة المندوب السامي.

كذلك أعلن الصهاينة رفضهم للكتاب الأبيض بدورهم، وشرعوا في القيام بأعمال إرهابيَّة ضد المؤسسات البريطانيَّة في فلسطين، وكذلك ضد العرب.

وقد حاولت الحكومة البريطانيَّة بالفعل أن تنفذ ما جاء في الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩، فصعد الصهاينة أعمالهم الإرهابيَّة ضد المؤسسات والمنشآت والأفراد البريطانيين.

وإزاء هذه الضغوط دعت بريطانيا إلى تشكيل لجنة أنجلو -أمريكية- لتعيد النظر في البحث عن حلٍّ للقضية، وقد بدأت اللجنة أعمالها في يناير ١٩٤٦، وجاءت توصياتها ناسفة للمكاسب الجزئيَّة التي تحققت للعرب في الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩، واستمر تصعيد الصهاينة لأعمالهم الإرهابيَّة.

سادسًا: مؤتمر لندن (١٩٤٦-١٩٤٧):

وقد عرضت بريطانيا في هذا المؤتمر على العرب مشروعًا يقوم على فكرة التقسيم، وبذلك طويت صفحة الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩، وكان من الطبيعي أن يرفض العرب هذا المشروع، فطالبتهم بريطانيا بمشروع بديل، فقدموا مشروعًا يتلخص في:

١- إعلان فلسطين دولة موحدة.

٢- تنشأ في هذه الدولة حكومة ديمقراطيَّة بموجب دستور تضعه جمعيَّة تأسيسيَّة منتخبة.

٣- تنشأ حكومة انتقاليَّة تتكون من ٧ عرب و٣ يهود (على أساس التمثيل النسبي) يرأسها المندوب السامي البريطاني، وتضمن تمتع اليهود بحقوقهم المشروعة، والمحافظة على حقوق الأقليَّات، وتوقف الهجرة على أن يترك أمرها للحكومة المستقلة الآتية، وتعقد معاهدة تحالف بين حكومتي فلسطين وبريطانيا، وتعطى الضمانات لاحترام الأماكن المقدَّسة وحريَّة زيارتها.

واستأنف المؤتمر أعماله بعد ذلك في يناير ١٩٤٧ حيث رفضت بريطانيا المشروع العربي وعرضت مشروعًا جديدًا لا يختلف كثيرًا عن مشروعها السابق وكان من الطبيعي أن يرفضه العرب، وعندئذ أعلنت الحكومة البريطانيَّة عزمها على رفع القضية إلى الأمم المتَّحدة، وكان هذا حلٌّ يخلص بريطانيا من تبعة هذه المشكلة الشائكة، كما أنَّه أرضى اليهود لأنَّه نقل المشكلة إلى

ساحة تتميز بنفوذ قوي للحليف العالمي الجديد للحركة الصهيونيَّة وهو الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة ويضعف النفوذ العربي فيها.

المؤامرة في الأمم المتَّحدة

دعت بريطانيا إلى عقد دورة خاصة للجمعيَّة العامة للأمم المتَّحدة من أجل مناقشة الوضع في فلسطين، وقد انعقدت هذه الدورة بالفعل في ٢٨ إبريل ١٩٧٤ وانتهت إلى قرار باختيار لجنة تحقيق دولية للتثبت من الحقائق وقد قاطع الفلسطينيون هذه اللجنة إثناء تواجدها في فلسطين لأنَّ مهمتها لا تتضمن تحقيق استقلال فلسطين بينما رأت اللجنة السياسيَّة لجامعة الدول العربيَّة أنَّها لا تستطيع مقاطعتها لأنَّ حكومات أعضائها أعضاء في الأمم المتَّحدة وأنَّه من المصلحة أن تقدم للجنة مذكرة بالموقف العربي.

وهكذا استمعت اللجنة في فلسطين إلى الهيئات والشخصيات الصهيونيَّة بينما تلا عليها وزير خارجيَّة لبنان في يونيو ١٩٤٧ مذكرة جماعيَّة باسم ممثلي الحكومات العربيَّة.

وقد احتوى تقرير اللجنة على توصيات عامَّة وافق عليها جميع الأعضاء تتلخص في ضرورة إنهاء الانتداب البريطاني على فلسطين ومنحها الاستقلال ثم انقسمت اللجنة بعد ذلك إلى أكثريَّة وأقليَّة قدمت كل منهما مشروعًا. **وكان مشروع الأكثريَّة يقوم على:**

أولًا: تقسيم فلسطين إلى دولتين عربيَّة ويهوديَّة.

ثانيًا: تستقل الدولتان بعد مرحلة انتقال مدتها عامان.

ثالثًا: تقيم الدولتان فيما بينهما اتحادًا اقتصاديًا.

رابعًا: اشتراط قبول ١٥٠ ألف مهاجر في الدولة اليهوديَّة المقترحة بمعدل خمسة آلاف في الشهر.

أما مشروع الأقليَّة (ممثلي الهند وإيران ويوغوسلافيا) فقد تلخص فيما يلي:

أولًا: قيام حكومتين في فلسطين مستقلتين استقلالًا ذاتيًا تتألف منهما دولة عاصمتها القدس.

ثانيًا: تتولى الحكومة الاتحاديَّة قضايا الدفاع والشئون الخارجيَّة والمصالح الاقتصاديَّة المشتركة.

ثالثًا: تنحصر الهجرة اليهوديَّة في المنطقة اليهوديَّة في نطاق استيعاب تقرره لجنة مكونة من تسعة أعضاء (٣ عرب + ٣ يهود + ٣ ممثلين للأمم المتَّحدة).

وفي نوفمبر ١٩٤٧ نظرت الجمعيَّة العامة للأمم المتَّحدة في المشروعات المختلفة المقدمة لها، وأيدت الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة مشروع التقسيم ولكن المفاجأة كانت في تأييد الاتحاد السوفيتي له، وهو يخالف العداء المعروف من جانب الاتحاد السوفيتي للصهيونية على المستويين الأيديولوجي والسياسي، وكان المبرر السوفيتي الرسمي لهذا التحول في المواقف هو استحالة التعايش العربي-اليهودي في ذلك الوقت، بينما أغلب الظن أنَّ قادة الحركة الصهيونيَّة كانوا قد نجحوا في خداع

قيادة السوفيتيَّة بأنَّه سوف تكون لدولتهم المقبلة في فلسطين طبيعة معادية للإمبرياليَّة، وقد ادعت بريطانيا أن موقفها يتمثل في عزمها على الجلاء عن فلسطين والامتناع عن التصويت لأنَّها لا تريد حلًا لا يوافق عليه العرب واليهود معًا.

وانتهى الأمر بالجمعيَّة العامَّة للأمم المتَّحدة إلى أن وافقت في جلستها بتاريخ ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ على قرار تقسيم فلسطين إلى دولتين عربيَّة ويهوديَّة تضم ٥٦% من أرض فلسطين، كما نص القرار على اتحاد اقتصادي بين الدولتين وعلى تدويل مدينة القدس وقد تمت الموافقة بأغلبيَّة ثلاثة وثلاثين صوتًا ضد ثلاثة عشر صوتًا مع امتناع عشر دول عن التصويت، وذلك بعد أن سقطت في اللجنة الخاصَّة كافة الاقتراحات العربيَّة سواء مشروع الدولة الواحدة أو نقل القضية إلى محكمة العدل الدوليَّة أو استشارة هذه المحكمة حول صلاحيَّة الأمم المتَّحدة لتنفيذ أي نوع من التقسيم دون موافقة السكان.

وهكذا أصبحت الحركة الصهيونيَّة تمسك في يدها بقرار دولي تعتبره أساسًا لشرعية وجودها الاستعماري على أرض فلسطين وبالفعل فإنَّ إعلان قيام دولة إسرائيل في ١٤ مايو ١٩٤٨ قد أشار بالإضافة إلى تصريح بلفور وصك الانتداب إلى قرار الجمعيَّة العامة للأمم المتَّحدة بتقسيم فلسطين وإنشاء دولة يهوديَّة على جزء من أراضيها.

وبعد عام كامل في ١٢ مايو ١٩٤٩ قبلت عضويَّة إسرائيل في الأمم المتَّحدة في وقت كانت أزمة العضويَّة على أشدها في هذه المنظمة الدوليَّة وكان هذا يشير إلى أنَّ إسرائيل ما زالت ناجحة تمامًا في استقطاب كافة القوى الدوليَّة المؤثرة لصفها، وهكذا استكملت بمعايير المجتمع الدولي -وليس بمعايير الحقِّ والعدل- أركان وجودها كدولة[1].

(١) دروس في المشكلات الدولية المعاصرة، د. محمد فتح الله الخطيب، د. أحمد يوسف أحمد ص(٧٤- ٩١).

الفصل الخامس

جولات الحروب ومحطات السلام بين العرب وبين الصهيونيَّة اليهوديَّة

- وسيكون الكلام عن ذلك من خلال مرحلتين:

المرحلة الأولى: جولات الحروب في النصف الأول من عمر الصراع (١٩٤٨- ١٩٧٣م)

الجولة الأولى: حرب أيار (مايو) ١٩٤٨م

بعدما أصدرت الأمم المتَّحدة قرارها الظالم في نوفمبر ١٩٤٧م بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود، سارع القادة السياسيون العرب إلى اتخاذ قرار بدخول حرب شاملة لـ (تأديب) عصابات اليهود، وكان ذلك القرار حماسيًّا ارتجاليًّا، لم يسبقه إعداد أو تخطيط، وقد عارض القادة العسكريون قرار الحرب بشدة في هذا التوقيت، وحذروا منه أشد التحذير.

وفوجئ القادة العسكريون باتخاذ القرار السياسي الفعلي بالحرب، قبل بدء تلك الحرب بيومين أو ثلاثة، في وقت لم يكن لدى معظم الجيوش العربيَّة حتى ميزانية تسمح بدخول حرب، ولم يكن قد جرى تدريبها بعدُ على الدخول في حروب شاملة.

وقد اجتمع رؤساء أركان كل من (مصر والعراق والأردن وسوريا ولبنان) قبل الحرب وأعلنوا الاتفاق على إعداد ما لا يقل عن خمس فرق عسكريَّة كاملة الاستعداد والتسليح مع ستة أسراب من المقاتلات والقاذفات، بحيث تكون جميعًا خاضعة لقيادة عربيَّة موحدة، ولكن هذا الاتفاق لم ير النور، فلم يتم إعداد الفرق، ولم تدبر الأسراب ولم توحد القيادة!

ولم توضع خطة منسقة للجيوش العربيَّة لخوض الحرب، بل حُدد لكلِّ جيش هدف يصل إليه، وأُجِّل التنسيق إلى ما بعد وصول كل جيش إلى هدفه!

ولم يتجاوز عدد الجنود العرب الذين سيقوا إلى الحرب خمسة عشر ألف جندي، في حين حشد اليهود نحو ستين ألف مقاتل مجهزين تجهيزًا كاملًا للمعركة التي لم يقرروا هم البدء فيها.

وفي ١٥ مايو ١٩٤٨م أعلن بن جوريون قيام دولة يهوديَّة في فلسطين على إثر إعلان بريطانيا انتهاء الانتداب، وقد تسارعت الدول الغربيَّة الصليبيَّة التي تتلاق مصالحها ومطامعها مع المخططات اليهوديَّة إلى الاعتراف بالدولة اليهوديَّة الغاصبة وفي مقدمة تلك الدول أمريكا وفرنسا وروسيا.

ودخلت الجيوش العربيَّة الحرب في ١٥ مايو ١٩٤٨م، دون أي معلومات عن العدو، بل كانت غالبية تلك الجيوش تقاتل في أرض تجهل طبيعتها وطريقة القتال فيها.

وكان الفيلق الأردني هو الأجود من حيث التدريب والتسليح، ولكنه مع الأسف كان تحت قيادة الجنرال البريطاني النصراني (جلوب).

وبالرغم من كل هذا، فقد دفعت العاطفة الإسلاميَّة الجنود العرب إلى إحراز عدة نجاحات في بداية الحرب، كادت أن تحوِّل الدفة لصالحهم ضد اليهود المعروفين بالجبن الشديد في القتال، ولكن حكومتي بريطانيا وأمريكا أحستا بذلك الخطر، فسارعتا إلى دفع مجلس الأمن الدولي إلى إصدار قرار بفرض الهدنة اعتبارًا من يوم ٨ يوليو ١٩٤٨م ولمدة شهر كامل.

ومرة أخرى سقط السياسيون في العجلة، ووافقوا على الهدنة، فتنازلوا بذلك لليهود عن عنصر المبادأة أو المبادرة، وحرص العرب على أن يظهروا بمظهر الحريص على احترام (الشرعيَّة الدوليَّة)! التي لم تحترمهم، والتي زرعت اليهود في أرضهم.

وقد حرص اليهود على استغلال كل دقيقة من فترة الهدنة لتغيير موازين القوى لصالحهم، وسخروا أشد السخرية من القرار العربي بقبول الهدنة، حتى إنَّ مناحم بيجن كتب وقتها يقول: إننا لا نعرف حتى الآن كيف ولماذا قبلت الدول العربيَّة الهدنة، بعد أن كان الموقف العسكري في صالحها تمامًا!

وبعد انتهاء شهر الهدنة، كان اليهود قد نجحوا في تسلم زمام المبادرة سياسيًّا وعسكريًّا، ثم دخلوا في حرب استنزاف للجيوش العربيَّة كلًّا على حدة، فقد عادت الحرب ثانية، وكان اليهود هم البادئون هذه المرة، فنفذوا ضربة جوية مفاجئة لمطار العريش في مصر، وهو المطار الذي كان يعتمد عليه الجيش المصري؛ لأن بقية المطارات كانت خاضعة للمحتل الإنجليزي، ثم أعقب ذلك قصف جوي لتجمعات الجيش البريَّة في كل قطاعات القتال مما أدى إلى حالة من الفوضى والارتباك.

وبعد أن حقق اليهود قدرًا كبيرًا من النجاح وأصبحوا في حاجة إلى فرصة لالتقاط الأنفاس، أصدر مجلس الأمن قرارًا ثانيًا بالهدنة، واستجاب العرب مرة أخرى فأعطوا لليهود فرصة ثانية لمزيد من لمِّ الشمل واستعادة النشاط!

وعادت الحرب للمرة الثالثة بمعارك متفرقة هنا وهناك، إلى أن أصدر مجلس الأمن قراره الثالث بإيقاف الحرب نهائيًّا بعد أن فشلت كل الجهود العربيَّة في إجلاء اليهود عن الأراضي التي احتلوها في فلسطين، وهو ما يعني بعبارة أخرى: الهزيمة في تلك الحرب والفشل في تحقيق أي من أهدافها!

ومما يجدر ذكره هنا، أن عقد الأربعينات الذي جرت فيه تلك الحرب، قد شهد انتعاشًا في الشعور بالانتماء القومي العربي، حيث بدأ العرب وقتها في الفصل بين مفهومي (الأمة العربيَّة) و (الأمة الإسلاميَّة) وتُوِّج هذا الشعور القومي بإنشاء (الجامعة العربيَّة) ردًّا على من كانوا ينادون بالعودة إلى (الجامعة الإسلاميَّة).

الجولة الثانيَّة: حرب ١٩٥٦م:

جاءت الجولة الثانية بعد أن آلت السلطة في بعض الدول العربيَّة إلى أنظمة ثوريَّة، دعت نفسها بالتقدميَّة، وكان النظام الثوري العسكري في مصر هو المتزعم لها، وقد عدّ من أهدافه الرئيسة المعلنة: تحرير فلسطين والقضاء على دولة إسرائيل، وجعل من هذا الهدف إلى جانب توحيد العرب تحت راية القوميَّة العربيَّة قضية يبني بها المجد والزعامة، فماذا كان مسلك الثوريين العساكر بعد أن تسلموا دفة الصراع مع اليهود؟ هذا ما توضحه المشاهد التاريخيَّة التالية:

كان أول عمل قام به (قائد الثورة) (جمال عبد الناصر) بعد تسلمه منصب الرئاسة رسميًّا هو تأميم قناة السويس في ٢٦ تموز (يوليو) ١٩٥٦م، وكان ذلك قرارًا دعائيًّا اتخذ دون دراسة أو تحسب لما يمكن أن يترتب عليه من نتائج، وقد جاء رد فعل على تصريح لوزير الخارجيَّة الأمريكي وقتها فوستر دالاس قال فيه: إن الاقتصاد المصري منهار.

وقد ثار الغرب لهذا القرار، وخاصّة ما كان من إنجلترا وفرنسا حيث أخذتا في الإعداد لإجراء حاسم وتواترت الأنباء عن حشود إنجليزيَّة وفرنسيَّة في قبرص استعدادًا لعمل عسكري ضد مصر بالاشتراك مع دولة اليهود، ولكن عبد الناصر لم يكترث، ولم يأخذ هذه التهديدات مأخذ الجد، بل كان هناك استرخاء عسكري بالرغم مما يجري، حتى إنَّ القيادة المصريَّة خففت من أعداد القوات المعدة للقتال لأسباب غير مفهومة.

وعندما بدأت نذر الحرب كان اليهود يحتفظون بالتفوق العسكري مقارنة بالإمكانات المصريَّة التي يفترض أنَّها أكبر وأقوى الإمكانات العربيَّة، فقد كان التفوق ظاهرًا حتى في الجانب العددي البشري، فكان التفوق في المشاة بنسبة ١: ٣ لصالح اليهود، وفي القوات البرية (الدبابات) بنسبة ١: ١٫٨ لصالح اليهود، وفي سلاح المدفعيَّة بنسبة ١: ٢٫٥ لصالح اليهود أيضًا.

وقد نسق اليهود جهودهم مع حلفائهم استعدادًا للحرب، فاتفقوا مع فرنسا على تأمين الغطاء الجوي الكافي للمدن الإسرائيليَّة وعلى أن يتولى السلاح البحري تأمين حراسة السواحل الإسرائيليَّة، وأن تشارك القوات الفرنسيَّة بالقتال ضد أي دولة عربيَّة تدخل الحرب إلى جانب مصر، وأسند إلى السلاح الجوي البريطاني مهمَّة تدمير الطيران المصري على الأرض.

وأخيرًا اقتنعت القيادة الثوريَّة بأنَّ أمر الحرب جد لا هزل فيه، فبدأت في تركيز الجهود على حماية سيناء من الشرق، بينما أهملت الجبهة الجنوبيَّة إهمالًا مريبًا، حيث كان من الغريب أن يخصص لهذه المنطقة الحيويَّة نحو ١٢٠ جنديًّا من المشاة لحمايتها!!

وبدأت الحرب في ٢٩ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٦م بمهاجمة الخط الأقل خطرًا في نظر القيادة المصريَّة، وهو المنطقة الجنوبيَّة من سيناء، وأعلن اليهود أنَّهم يقاتلون على بعد ٤٠ كيلو مترًا من قناة السويس، حتى يعطوا الذريعة لكل من إنجلترا وفرنسا للتدخل العسكري، بحجة حماية حرية الملاحة الدوليَّة في قناة السويس.

وبالفعل أقدم سلاح الجو البريطاني على ضرب الطيران المصري على الأرض، واضطر المصريون للقتال دون غطاء جوي على مختلف المحاور، وأبلى المقاتلون المصريون بلاءً حسنًا في القتال، لولا أن الأوامر صدرت من القاهرة، للقوات الرئيسة بالانسحاب بعد إنذار أرسلت به إنجلترا وفرنسا، وبدأ الانسحاب ليلة ٣١ أكتوبر ١٩٥٦م، من قطاع إثر قطاع مما سبب حالة من الارتباك والاضطراب.

وفي ظل غياب أي غطاء جوي أو طبيعي من جبال أو أشجار، كان الانسحاب شاقًا ومكلفًا، فقد أصبحت القوات المنسحبة هدفًا مكشوفًا أمام الطائرات النفاثة المغيرة والمحملة بكل أنواع الأسلحة المدمرة والحارقة.

وهكذا انتهت الحرب بهزيمة الجيش المصري وإهانته في حرب بدأتها الدعاية وأوصلها الغرور في أسوأ نهاية، فقد احتُلت سيناء ولم تنسحب إسرائيل منها إلا بعد أن ضمنت السماح لها بالملاحة في خليج العقبة كيف تشاء.

وكان لبريطانيا (صديق العرب المفضل دائمًا) الدور الأكبر في تقديم الجيش المصري لقمة سائغة لإخوان القردة والخنازير.

الجولة الثالثة: حرب يونيو ١٩٦٧م

هي الحرب الثانية في العهد الثوري التقدمي الوحدوي الاشتراكي، العلماني! وقد كانت عارًا لم تُمسح آثاره إلى اليوم، حيث كان الهدف الرئيس لها احتلال القدس، فتحقق الاحتلال، ولم يتم التحرير إلى اليوم لا سلمًا ولا حربًا.

وهذه بعض المشاهد التاريخيَّة للكارثة التي سميت (نكسة)!:

تضخم الغرور في الذات اليهوديَّة بعدما تم إحرازه من انتصارات رخيصة على شعوب مغلوبة على أمرها، ولم تكد تنقضي عشر سنوات على حرب ١٩٥٦م حتى تفتحت شهية اليهود لحرب جديدة، ففي شهر ديسمبر ١٩٦٦م أعلن ليفي إشكول رئيس وزراء إسرائيل في ذلك الوقت، نية بلاده في دخول حرب جديدة ضد العرب وهدد بغزو سوريا، في لهجة جديدة وغير معهودة من اليهود المتظاهرين أبدًا بالمسكنة والاستضعاف.

وفي عام ١٩٦٧م لم ينقض شهر نيسان (إبريل) منه حتى كان اليهود قد نفذوا ما توعدوا به؛ فشن سلاحهم الجوي هجومًا ضخمًا ضد سوريا، وفي الشهر التالي هدد إسحاق رابين بدخول دمشق، بعد افتعال مشكلة وأزمة بسبب تحويل مجرى نهر الأردن، وقيام أعمال فدائيَّة ضد دولة اليهود من داخل سوريا.

وكان هذا الهجوم الإسرائيلي ضد سوريا رسالة موجهة أيضًا إلى مصر، التي كان قادتها منهمكين أو غارقين في المستنقع اليمني، حيث الحرب الظالمة التي أقحم فيها الجيش المصري للقتال هناك نصرة للقوى (التقدميَّة) ضد القوى (الرجعيَّة)! وبدلًا من أن تتنبه تلك القيادة للخطر،

وتسعى لحشد القوة ضد العدو الحقيقي المتربص من وراء الحدود، اكتفى الثوار بنشر قوات بغرض الردع والتخويف واستعراض القوة في سيناء.

اعتبر اليهود ذلك الاستعراض بمثابة إعلان حرب من مصر، وأعلن موشي دايان وقتها أن مصر هي العدو الحقيقي وليست سوريا، وأن على إسرائيل أن تتفرغ لحربها وأصبح قرار الحرب في إسرائيل في حكم المنتهى منه، ولم يبق إلا انتظار الذريعة المناسبة.

ومرة أخرى قدم النظام الثوري الذريعة لليهود المتربصين، فصدر قرار بمنع الملاحة في خليج العقبة الذي تنتقل منه البضائع من وإلى إسرائيل.

وانتشرت القوات المصريَّة على خليج العقبة بعد انسحاب قوات الطوارئ الدوليَّة منه، وزاد الطين بلة أن جرى الإعلان عن توقيع ميثاق دفاع مشترك بين مصر والأردن) بالرغم من الخلافات التي كانت قائمة بينهما.

لم يعد هناك وقت للتفكير لدى دولة اليهود، فشكّل رئيس وزرائها حكومة حرب وأدخل فيها موشي دايان وزيرًا للدفاع، لينفذ توعده بالانتقام من مصر، وكانت القوات الإسرائيليَّة قد أتمت استعداداتها التي بدأتها منذ زمن لخوض الحرب الشاملة في حين كانت القوات المصريَّة غير مستعدة حتى مساء الرابع من يونيو من العام نفسه.

وفي صباح الخامس من يونيو ١٩٦٧م، قام اليهود بشن الحرب، معلنين أنَّهم في وضع دفاع عن النفس بعد أن حشدت مصر قواتها في سيناء، وأغلقت خليج العقبة؛ وأحلت قواتها محل قوات الأمم المتَّحدة، وبدأ اليهود في توجيه ضربة جوية مفاجئة ضد القواعد الجوية العربيَّة في كل من مصر وسوريا والأردن والعراق، وأطلق على هذه العملية (ضربة صهيون)!

انطلق الطيران اليهودي كله من مرابضه (١٥٠ طائرة) وتوجه نحو ١٩ قاعدة مصريَّة جويَّة موزعة في أنحاء مصر (الدلتا- سيناء- الصعيد) لتدكها وهي على الأرض وبعد خمس عشرة دقيقة من بدء الحرب كان الجنرال مردخاي هود قائد سلاح الجو الإسرائيلي في لقاء مع ممثلي الصحافة الإسرائيليَّة والعالميَّة، حيث زف إليهم البشرى بتلك المذبحة الجوية وقال: لقد دمرنا الحصيلة الكبرى من طائرات العدو، منها (٣٠٩) طائرة في مصر، و (٦٠) طائرة في سوريا، و(٢٩) طائرة في الأردن، و (١٢) طائرة في العراق، وطائرة واحدة في لبنان، في حين لم تخسر إسرائيل إلا (١٩) طائرة!!

يعود السبب في هذا الحدث المفجع في تاريخ الحروب الحديثة إلى عدد من الأخطاء الفادحة التي وقعت فيها القيادات العربيَّة، ومنها: إساءة تقدير قوة العدو، وإهدار الاستفادة بالقدرات الذاتيَّة، ويعود أيضًا إلى سبب آخر مهم، وهو: أن القيادة المصريَّة كانت قد قررت القبول بتلقي الضربة الأولى نزولًا على نصائح (السوفييت)، حيث قدرت الخسائر المتوقعة في حال تلقي الضربة الأولى بما يتراوح بين ١٥ ٢٠% من مجموع القوة الجوية العربيَّة، واعتبرت القيادة السياسية هذه

نسبة ضئيلة، وتُعد تضحية مقبولة في مقابل إظهار إسرائيل بمظهر البادئ بالعدوان أمام الرأي العام العالمي!

أما الحرب البريَّة الرئيسية بعد ذلك، التي دارت رحاها في سيناء، فيكفي أن نتصور ساحة قتال مكشوفة أمام طيران معادٍ، يصول ويجول فيها وينتقي الأهداف التي يشتهيها دون أي عائق من جيش مأمور بالانسحاب لا بالمقاومة!

وبالرغم من كل عوامل الفشل التي بدأت بها المعركة، إلا أنَّ دفاعًا مستميتًا من الجنود، حاول في بعض الجهات مقاومة الهزيمة ببسالة نادرة، حتى إن القادة الإسرائيليين أنفسهم اعترفوا بحدوث موجة من الاضطراب سادت صفوفهم في المحور الشمالي بسبب المقاومة العنيفة.

وأجمع عسكريون كثيرون على أن القيادة العسكرية المصريَّة لو كانت قد دبرت هجمة مضادة لإجهاض الهجوم الإسرائيلي في ذلك الوقت لكان لذلك تأثير في تغيير مجرى المعركة غير أنَّها أصيبت بالشلل المعنوي بسبب الضربة الجوية المفاجئة فاكتفت بإصدار أوامر الانسحاب، مما تسبب في فقد الجيش المصري لـ ٨٠% من سلاحه، وفقد عشرة آلاف جندي، وألف وخمسمائة ضابط، ووقوع خمسة عشر ألف جندي، ونحو خمسمائة ضابط أسرى في يد العدو، ولم تتوقف الحرب على الجبهة المصريَّة إلا بعد أن طلبت مصر وقف إطلاق النار على جبهتها معلنة بذلك التسليم بالهزيمة.

التفت اليهود بعد ذلك إلى الجبهة الأردنيَّة، فاحتلوا الضفة الغربيَّة، فطلبت الأردن وقف إطلاق النار وسلمت بالهزيمة، ثم اتجه اليهود إلى سوريا واحتلوا مرتفعات الجولان مع قاعدتها مدينة القنيطرة، ثم أعلن عن وقف إطلاق النار؛ وبذلك انتهت الجولة العسكرية الثالثة، وأعلن الرئيس المصري أنه يتحمل مسئولية الهزيمة؛ وأنه لذلك سوف يتخلى عن السلطة، ولكن الجماهير التي خدرتها الشعارات الثوريَّة، تقبلت الهزيمة والتضحية بالأرض والدم والوطن، ولكنها لن تقبل التفريط في الزعيم ولو قادها إلى الجحيم!

الجولة الرابعة: حرب أكتوبر ١٩٧٣م

درجت أوساط كثيرة على وصف حرب أكتوبر عام ١٩٧٣م بأنَّها حرب (التحريك) وليست حرب (التحرير) كما اشتهرت على الألسنة. ومن العجيب أن الرئيس المصري الحالي نفسه قد وصفها علنًا بذلك الوصف، فهل في الأمر من سر؟!

الظاهر أن ذلك الوصف فيه شيء من الصحة، إذ إن الأمور بعد هزيمة عام ١٩٦٧م، كانت تتجه نحو الحل السلمي، حتى إنَّ عبد الناصر نفسه قد قبل في آخر حياته بمبادرة أمريكية للسلام بين العرب وإسرائيل، وهي مبادرة (روجرز) وسميت بذلك الاسم نسبة إلى وزير الخارجيَّة الأمريكي آنذاك وليام روجرز.

ولكن جو الإحباط بعد أن تبينت الشعوب حجم الكارثة، ومشاعر السخط على القيادات

العربيَّة التي تسببت فيها، بالإضافة إلى استمرار احتلال اليهود لما احتلوه في تلك الحرب في (مصر وسورية والأردن وفلسطين)، كل ذلك حال دون إمكانية الإقدام على توقيع معاهدات صلح مع اليهود، تقرهم فيه الزعامات العربيَّة من موقف ضعف على البقاء والعيش في أرض فلسطين، كان لا بدَّ إذًا من عمل شيء كبير، يكون نقطة انطلاق نحو إنهاء حالة الحرب مع اليهود إلى الآن!

ولأن هذه الخطوة المطلوبة أعني إنهاء الصراع مع اليهود كانت كبيرة في حجمها، خطيرة في أبعادها، ومثيرة في تفاصيلها، فقد كان لا بدَّ من تخفيف وقعها على الشعوب قدر المستطاع وعلى مراحل؛ ولهذا كان الإعداد لحرب (التحريك) التي وُضِعَ لها سيناريو مسبق في ردهات وكواليس السياسة الدوليَّة.

وكان هذا السيناريو يقضي باستعادة الجيش المصري والنظام معه لهيبته باسترجاع جزء من شبه جزيرة سيناء التي أضاعها النظام الثوري نفسه في مرحلة سابقة، وفي الوقت نفسه يحفظ لقادة اليهود ماء وجوههم أمام شعبهم فيلتفون حول هذا النصر، ويفرغونه من محتواه من الناحية العسكرية ثم من الناحية السياسيَّة.

وقد تم الأمر على هذا النحو: في يوم السادس من تشرين الأول (أكتوبر) **١٩٧٣**م الموافق للعاشر من رمضان **١٣٩٣**هـ، اجتازت القوات المصريَّة قناة السويس، وانتقلت إلى الضفة الشرقيَّة، واقتحمت خط بارليف الحصين، لتأخذ مواقع دفاعيَّة بعد عشرة كيلو مترات من شاطئ القناة في داخل سيناء، ولم تعط للقوات المسلحة بعد ذلك أي صلاحيَّة لتتابع تقدمها في سيناء لإكمال تحريرها مع وجود الإمكانية لذلك، حتى إن رئيس الأركان نفسه في الجيش المصري سعد الدين الشاذلي قد اختلف مع القيادة السياسيَّة واتهمها بالتواطؤ، وعاش سنوات طويلة في منفاه الاختياري خارج البلاد.

وبعد عشرة أيام من بدء الحرب وإحراز تلك الانتصارات فيها لصالح العرب، عبرت عدة دبابات يهوديَّة قناة السويس من منطقة الدفرسوار وفتحت ثغرة في صفوف القوات المصريَّة، ثم تتابع تقدم الدبابات اليهوديَّة، وانتشرت على طول القناة من ضفتها الغربيَّة، وحاصرت مدن القناة، وحجزت القوات المصريَّة في سيناء، وبهذا انقطعت وسائل الاتصال بين قطاعات الجيش المصري، وبدت إسرائيل أمام مواطنيها ومؤيديها في الداخل والخارج منتصرة، حيث تمكنت من أسر القوات المصريَّة كلها في سيناء، والالتفاف عليها؛ بينما كانت الدعاية المصريَّة والعربيَّة تصور العبور على أنَّه من أعظم الانتصارات، وانتهت الحرب عند ذلك الحد بإعلان وقف إطلاق النار، في وضع لا يسمح للمصريين بادعاء النصر الشامل، ولا يمنع اليهود من ادعاء الثأر الكامل.

وبعد انتهاء الحرب مباشرة بدأ تدشين العمليَّة السلمية بين مصر وإسرائيل في مراحلها المبكرة، وذلك بزيارة قام بها وزير الخارجية الأمريكي (اليهودي) هنري كيسنجر لمصر، حيث اتفق مع القيادة على فض الاشتباك بين المصريين والإسرائيليين والاتجاه نحو حل النزاع في الشرق الأوسط

منطرق السلميَّة.

وهنا أمر ينبغي تنبيه القارئ إليه، وهو أننا لا نشكك في إمكانية تحقيق النصر على اليهود، ولا في إخلاص الجنود الذين قاتلوا وقتلوا، بل لا نقلل من أهمية دور التعبئة المادِّيَّة والمعنويَّة للمعركة هذه المرة، ولكننا نعبر فقط عن قناعة بأن هذا النصر الجزئي كان حجة أقامها الله على العرب والمسلمين في إمكان نصرهم على عدوهم ولو كانوا أذلة، وأنَّه كان يمكن أن يكون نقطة انطلاق نحو نهضة ووحدة عربيَّة وإسلاميَّة شاملة، ولكن أعداء الأمَّة أصروا أن يجعلوا منه نقطة انطلاق أيضًا، ولكن إلى نكبة وفُرقة عربيَّة وإسلاميَّة شاملة، وهذا ما كان في المرحلة الثانية.

المرحلة الثانية: مسارات ومراحل العمليَّة السلميَّة من (١٩٧٣-١٩٩٧م)

استعراض مسيرة الحلول السلميَّة التي حملها (قطار السلام) الذي انطلق بعد حرب ١٩٧٣م، ومنه أهم المحطات.

المحطة الأولى: مؤتمر جنيف ١٩٧٤م:

(الحرب من أجل السلام): بهذا العنوان، أو بهذه الروح دخل العرب الحرب الرابعة مع اليهود عام ١٩٧٣م، وأثناء تلك الحرب، وقبل أن تضع أوزارها، وجه الرئيس المصري السابق أنور السادات يوم ١٦ أكتوبر ١٩٧٣م (أي بعد بدء الحرب بعشرة أيام) رسالة مفتوحة إلى الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون اقترح فيها مشروعًا للسلام يتضمن الدعوة إلى إيقاف إطلاق النار على أن تنسحب إسرائيل فورًا من جميع الأراضي العربيَّة التي احتلتها في حرب يونيو ١٩٦٧م، وأبدى استعداده لحضور مؤتمر سلام دولي لإقرار السلم في منطقة الشرق الأوسط.

وسرعان ما تحركت الأطراف الدوليَّة وعلى رأسها واشنطن وموسكو لإنهاء القتال الذي بدا أنه يمكن أن يهدد الدولة اليهوديَّة، وأسفرت جهودهما عن صدور قرار من مجلس الأمن الدولي يدعو لوقف القتال والبدء فورًا في مفاوضات بهدف إقامة سلم (دائم) و(عادل)! في الشرق الأوسط، وسارعت مصر وسوريا والأردن وإسرائيل أيضًا إلى قبول قرار وقف إطلاق النار، بينما رفضته العراق ومنظمة التحرير الفلسطينيَّة التي كانت تتبنى مبدأ عبد الناصر وهو أن (ما أخذ بالقوة لا يمكن أن يسترد بغير القوة).

وهنا وبسبب عدم وجود أرضيَّة من الثوابت المشتركة، بدأ التصدع في الجدار العربي، الذي كان مائلًا أصلًا بسبب الأرض الهشة التي يقف عليها فمصر بدأت تسير في (عملية السلام) في اتجاه الحل المنفرد، بينما تباينت مواقف الدول العربيَّة الأخرى بما يدل على أن العرب بدءوا عمليه السلام في مراحلها المبكرة، دون أدنى اتفاق أو تنسيق أو تحديد للثوابت، كما كان شأنهم عبر عقود الحرب.

ثم جاء وقت انعقاد مؤتمر جنيف الذي دعا إليه مجلس الأمن بعد الحرب، إلَّا أنَّ كلًا من الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة وإسرائيل لم يرق لهما أن تُبحث قضية السلام دوليًا، فربما تبرز أنواع من الضغوط عبر القنوات الدوليَّة لا تكون في صالح اليهود؛ ولهذا تقرر فجأة أن تدخل واشنطن بثقلها لتحويل مجريات الأمور، فكان أن جاء وزير خارجيَّة الولايات المتَّحدة في ذلك الوقت اليهودي هنري كيسنجر إلى مصر في بداية عام ١٩٧٤م ليجري مباحثات كانت بمثابة مرحلة التدشين لعملية السلام الأمريكيَّة الإسرائيليَّة في المنطقة.

وبدأ العمل على إدخال مصر في مسار الحل المنفرد لدورها الكبير في قضية الصراع.

المحطة الثانية: كامب ديفيد ١٩٧٨م:

توالت الأحداث لتوصل إلى الهدف المحدد بدقة من قبل، وهو إخراج مصر من ساحة المعركة مع اليهود، لينكسر بذلك أحد فكي الكماشة التي كان يمكن لها في وقت من الأوقات أن تكسر ظهر الكيان اليهودي في فلسطين، وكانت (كامب ديفيد) الاتفاقيَّة التي أوصلت إلى هذا المصير المنتظر، فقد أعلنت الولايات المتَّحدة في ١٧ سبتمبر ١٩٧٨م عن توصل كل من مصر وإسرائيل إلى صيغة اتفاق بينهما لوضع حد نهائيٍّ للنزاع العربي الإسرائيلي، وكان هذا الإعلان بعد سلسلة من الاجتماعات استمرت (١٣) يومًا، ضمت كلًّا من الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر والرئيس المصري السابق أنور السادات ورئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق مناحيم بيجين، وكان ذلك في المنتجع الذي أطلقوا عليه (مخيم داود) والذي اشتهر إعلاميًّا باسم (كامب ديفيد).

وأثمرت هذه الاجتماعات إعلانًا عن توقيع اتفاقيتين منفصلتين:

الأولى: تتعلق بتحديد أسس علاقات السلام بين دولة اليهود والدول العربيَّة الأخرى، وتدعو بقية دول المواجهة أن تحذو حذو مصر في إنهاء الحروب مع اليهود، وتنص من جهة أخرى على إقامة حكم ذاتي للفلسطينيين في الضفة الغربيَّة وقطاع غزة، وذلك لمدة خمسة أعوام، دون تحديد موعد البدء بها، أو ما سيكون عليه الحال بعدها.

أما الوثيقة الثانية: فتحدد أسس معاهدة سلام بين مصر وإسرائيل على أن تنجز وتبرم في فترة لا تتعدى ثلاثة أشهر من تاريخ اجتماعات (كامب ديفيد)، أما بنود هذه المعاهدة الثانية، فهي تأكيد لكل الإجراءات التي من شأنها إيقاف أي أعمال عسكريَّة بين الطرفين بشكل نهائي، واستعداد كل طرف لممارسة علاقات طبيعيَّة مع الطرف الآخر، ونصت إحدى بنود هذه الاتفاقيَّة على أنَّها معاهدة ملزمة، وليس لأحد الطرفين حق نقضها! ومن الجدير ذكره هنا، أن تلك الاتفاقيات المعلنة، صاحبتها أيضًا اتفاقات سريَّة؛ فكان هناك اتفاق سري حول لبنان يقضي بتجريد القوات الفلسطينيَّة والميلشيات اللبنانيَّة من السلاح تدريجًا بإشراف دولي وعربي! وقد ترجم هذا عمليًّا بعد ذلك بإخراج المقاومة الفلسطينيَّة من لبنان عام ١٩٨٢م.

وتتضمن بنود كامب ديفيد اتفاقات سريَّة أخرى وتتلخص فيما يلي:

١- وعد أمريكي لمصر بزيادة المساعدات الماليَّة والاقتصاديَّة كلما تم تنفيذ بنود المعاهدة؛ ويتضمن ذلك وعدًا أمريكيًا آخر بتعويض مصر عن المساعدات العربيَّة التي يمكن أن تفقدها بإيقافها من قِبَلِ الدول العربيَّة.

٢- اتفاق على تنسيق التعاون بين الاستخبارات المصريَّة ووكالة الاستخبارات المركزيَّة الأمريكيَّة (السي أي إيه) ليس فقط يتعلق بالأوضاع في مصر، بل في إطار المنطقة العربيَّة كلِّها.

٣- تتعهد أمريكا بتحديث الجيش المصري (ضد من؟) وتزويده بالأسلحة الأمريكيَّة التي تعوضه عن الأسلحة السوفييتية عند الاستغناء عنها.

٤- موافقه الرئيس المصري على تسريح قطاع كبير من الجيش المصري، بحيث تخفض أعداده من ٦٥٠ ألف جندي إلى ٢٥٠ ألف جندي فقط!

٥- السماح باستخدام أمريكا لبعض القواعد العسكرية التي ستتخلى عنها إسرائيل في سيناء.

٦- إعطاء أمريكا صلاحيات موسعة لاستخدام منطقة شرم الشيخ فيما يخدم استراتيجتها في المنطقة.

ردود الفعل العربيَّة على اتفاقات كامب ديفيد:

بطبيعة الحال، كان لا بدَّ أن ترفض أكثر الدول العربيَّة اتفاقيات كامب ديفيد، لا لأنَّها تتضمن اعترافًا بدولة اليهود فتلك دعوى كانت تتردد بين آن وآخر ولكن لأنَّ هذا الاعتراف جاء بشكل منفرد ودون سابق مشورة، أما الأدبيات القوميَّة أو الليبرالية أو حتى الثوريَّة، فإنَّها لم تكن تتضمن مبادئ ثابتة فيما يتعلق بضوابط الصداقة والعداء، أو الولاء والبراء، فالدول التي ترتمي في أحضان القوى الشيوعيَّة الملحدة، أو النصرانيَّة الصليبيَّة، ما الذي يمنعها من إقامة علاقة ود وصداقة مع دولة يهودية؟

لقد أثبتت الأيام بعد ذلك أن كل محرمات العلمانيَّة يمكن استحلالها، وكل ممنوعاتها يمكن السماح بها، فليس ثَمَّ حرام دائم أو حلال دائم عند من يستمدون تشريعهم من الأهواء.

ولكن الظروف وقتها كانت لا تسمح إلا بالرفض على مستوى الدول، وأيضًا على مستوى الشعوب التي صدمت فيما رأته تراجعًا عن ثوابت لا يمكن التراجع فيها.

لقد أخذ الرفض العربي صورة تشنجيَّة عالية الصوت، لامعة الضوء، ولكنها سراب يحسبه الظمآن ماءً، وقد أثمر هذا الرفض في النهاية ولادة ما أطلق عليه وقتها: (جبهة الصمود والتصدي)!! تلك الجبهة التي تعهدت بالمضي في المعركة مع الغاصبين إلى النهاية، وتم الإعلان عن هذه الجبهة في مؤتمر القمة العربي المنعقد في بغداد ١٩٧٩م، وقد عقدت دول تلك الجبهة بعد ذلك أكثر من مؤتمر لإحكام المقاطعة العربيَّة للدولة التي خرجت عن (الإرادة العربيَّة)، ولكن لم يكد ينقضي عقد من الزمان حتى آل أمر جبهة (الصمود والتصدي) إلى الخمود والتصدع! فقد بدأ بعض أعضائها في التسلل تحت جنح الظلام إلى معسكر السلام!

المحطة الثالثة: مؤتمر فاس:

شرع الرافضون لكامب ديفيد من (الصامدين) يتصدون لطرح مبادرة عربيَّة، تقول للسلام مع اليهود: نعم، ولكن بشكل جماعي، وكان ذلك في مؤتمر (فاس) الذي عقد في المغرب بين (٦- ٩/ ٩/ ١٩٨٢م) ومن العجيب أن ما علت الأصوات العربيَّة باستنكاره من اتفاقات كامب ديفيد (الخيانيَّة الانفراديَّة) قد سطّر بهدوء، ودون ضجيج في البند السابع من مشروع (فاس)، ولكن مع الفارق المذكور، وهو أنَّ الأول كان بمبادرة فرديَّة، والثاني كان بمبادرة شبه جماعيَّة.

وتعد نتائج مؤتمر (فاس) هي الأرضية التي انطلقت منها بعد ذلك كلّ مشروعات التسوية بدءًا من الاتفاق الأردني الفلسطيني (٢٢/ ١١/ ١٩٨٤م) الداعي إلى مبدأ (الأرض مقابل السلام) وحتى اتفاقات أوسلو.

المحطة الرابعة: مشروع إعلان الدولة الفلسطينيَّة:

في الفترة ما بين ١٩٨٦، ١٩٨٨م، بدأت منظمة التحرير الفلسطينيَّة تنشط بدورها في إجراء اتصالات مع عناصر إسرائيليَّة، تمهيدًا للدخول في حوار سلمي مع الدولة اليهوديَّة، وذلك بعد قرار صدر عن المجلس الوطني الفلسطيني في دورته لعام ١٩٨٦م، يدعو اللجنة التنفيذيَّة لمنظمة التحرير لوضع خطط بفتح الاتصال المباشر مع دوائر يهوديَّة وإسرائيليَّة.

وكانت الإشارات قد بدأت تدل على نية رئيس المنظمة ياسر عرفات إلى الاعتراف بقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢، الذي يدعو إلى اعتراف العرب بدولة إسرائيل بحدود ما قبل حرب ١٩٦٧م، وكان العرب جميعًا قبل ذلك يطلقون على رفض هذا القرار باعتبار أنَّه يعني التنازل مقدمًا عن ثلثي أرض فلسطين، بل كان ياسر عرفات يقول ويكرر: إنَّه يقبل أن تقطع يده على أن يقبل بالقرار ٢٤٢! ولكن عرفات عاد وقبل بالقرار، ولكن قبوله وقتها كان له وقعه وصداه المؤقت وحتى يغطي على هذا التراجع المخيف، فقد أوعز إلى المجلس الوطني الفلسطيني بأن يعلن في دورته التاسعة عشرة عن قيام (دولة فلسطين المستقلة)! ثم خطت منظمة التحرير خطوة (سلمية) أخرى، حينما ذهب رئيسها إلى جنيف، وأعلن أمام الجمعيَّة العامة للأمم المتَّحدة في ١٣ ديسمبر ١٩٨٨ ما يلي:

١- أنه على استعداد للتفاوض مع إسرائيل.

٢- تتعهد المنظمة أن تتعايش بسلام مع إسرائيل، وأن تحترم حقها في العيش بسلام ضمن حدود آمنة ومعترف بها.

٣- أن المنظمة تدين أعمال العنف الفردي والجماعي وإرهاب الدولة، ولن تلجأ إلى شيء من ذلك! ولقد كانت هذه (التوبة) المعلنة كافية لكي تكفر عن الفلسطينيين أمام الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة وإسرائيل كل ما اقترفته أيدي الفدائيين الفلسطينيِّين والمجاهدين وأبطال الحجارة من (إساءات) في حق اليهود (المظلومين)! وقد قرت أعين هؤلاء اليهود وأعوانهم بما قال عرفات، حتى إنَّ جورج شولتز وزير الخارجية الأمريكي في ذلك الوقت علق على خطاب عرفات قائلًا: إنه

نتصار باهر، يدل على أن اللاءات الثلاث العربيَّة الشهيرة في مؤتمر الخرطوم ١٩٦٧م، تحولت في جنيف لتصبح (نعم) ثلاث مرات أيضًا!

المحطة الخامسة: مؤتمر مدريد:

قبيل حرب الخليج الثانية، كان الفلسطينيون قد سد في وجوههم باب (السلام) بعد أن عادت الولايات المتَّحدة ساخطة عليهم بسبب عمليَّة فدائية قامت بها إحدى الفصائل الفلسطينيَّة التي كانت على علاقة بالمنظمة، وبعد أن توقفت الحرب وفي يوم ٦ مارس ١٩٩١م، وهو يوم الاحتفال بالنصر، ألقى الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش خطابًا أعلن فيه أنَّ الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة عازمة وبجزم على تسوية الصراع العربي الإسرائيلي، وقد بدأ جيمس بيكر وزير الخارجيَّة الأمريكي وقتها جولات لتهيئة الأوضاع لعملية سلمية جديدة تتناسب مع ظروف جديدة، وكان المقرر أن يعقد مؤتمر دولي يكون مجرد واجهة علنية عامة لمحادثات ثنائيَّة منفصلة بين كل دولة عربية وبين إسرائيل، أما منظمة التحرير المعنية أصلًا بموضوع السلام، فقد تقرر استبعادها لموقفها في حرب الخليج، على أن يكون البديل عنها وفد فلسطيني من الداخل، وليس من المنظمة وعلى أن يكون ذلك الوفد أيضًا جزءًا من الوفد الأردني في المؤتمر.

وتقرر أن تكون العاصمة الأسبانية مدريد المقر الرسمي لانعقاد المؤتمر، ثم تجري بعد ذلك المفاوضات في مسارات ثنائية بين كل طرف عربي على حدة وبين الطرف اليهودي، واختيرت مدريد في ذلك الوقت لأسباب لا تخلو من إيحاءات ورموز زمانيَّة ومكانيَّة لم تكن خافية.

وقد تجسد الضعف بل الذل العربي في هذا المؤتمر، حيث صال إسحاق شامير رئيس وزراء إسرائيل الأسبق وجال، ولوّح بالتوراة وآياتها، وذكّر بالتاريخ ودروسه وشرّق وغرّب باسم اليهوديَّة وأمجادها وآمالها وآلامها في القديم والحديث، وكان هو الزعيم الوحيد من أطراف الصراع الذي حضر بنفسه ولم ينب أحدًا عنه، وكان قد أصر على شروط لا تقبل أنصاف الحلول قبل التفاوض في أي شيء وكأنَّما أراد أن يذكّر بها أن الجلوس على مائدة المفاوضات لا يعني النِّدِّيَّة أو التكافؤ بين الأطراف؛ وأراد شامير أن يذل العرب والمسلمين في شخص الفلسطينيين فاشترط هذه الشروط:

١- لا يسمح بمشاركة أي فلسطيني عضو في المجلس الوطني في المؤتمر.

٢- مجرد ذكر منظمة التحرير في المؤتمر يعني انسحاب اليهود.

٣- الإشارة لأي اعتزاز بالانتماء للكفاح الفلسطيني، يعني أن المؤتمر في حكم الملغي، وسينسحب هو ووفده منه! وكاد يحدث بالفعل ما حذر منه شامير، إذ أقدم أحد أعضاء الوفد الفلسطيني وهو صائب عريقات على وضع الكوفيَّة الفلسطينيَّة المشهورة على رأسه أثناء الاجتماع فاحتج شامير واحتد، وطلب إزالة هذه المخالفة فورًا.

فبأي روح يا ترى، وبأي نفسية كانت تجري المفاوضات (السلميَّة) ومع هذه الشخصيات

(العدوانيَّة) في تركيبها وتكوينها وتفكيرها واعتقادها وأحلامها؟!

المهم أن المؤتمر انعقد، وكأنَّه تظاهرة تحتفي بهوان أمة لم تجد من يتكلم باسمها أو يدافع عن كرامتها ومقدساتها، وكان من المفارقات العجيبة بعد انتهاء المؤتمر أن تختار النصرانيَّة حنان عشراوي لتتكلم باسم القضية الفلسطينيَّة العربيَّة الإسلاميَّة!!

المحطة السادسة: محادثات المسارات المتعددة في واشنطن:

بعد الانتهاء من مؤتمر مدريد، اختيرت واشنطن لتكون مقرًّا لاجتماعات مسارات التفاوض الثنائيَّة، ودارت المحادثات على مسارات منفصلة كما هو متفق عليه أو كما أرادت إسرائيل فقد كانت تخطط لإضاعة الوقت في هذه المفاوضات لتشتيت جهود العرب والاستفراد بكل طرف على حدة، لكي تستثمر هذا الوقت لصالحها بتنفيذ برامج ومخططات تحتاج إلى تغطية، وقد ظهرت هذه النية بعد ذلك على لسان شامير الذي قال: كنت أريد للمفاوضات في واشنطن أن تمتد عشر سنوات، حتى تستكمل خطط الاستيطان، وحتى لا تبقى أرض فلسطينية يتم التفاوض عليها.

لقد حرص هؤلاء الأعداء على إضاعة الوقت فعلًا، حتى إنَّ بعض القضايا التي جرت مناقشتها بين الوفد الإسرائيلي والأردني مثلًا، كان منها: التعاون من أجل مقاومة توالد البعوض في وادي الأردن! وكان منها: ضرورة التنسيق للتوصل إلى حل في مشكلة الحمام البري الطائر الذي يطير من الأراضي الأردنيَّة ليتغذى على الغلال في الصوامع الإسرائيليَّة!!

أما القضايا الجادة على كل المسارات فكانت تؤجل باستمرار، وكانت وفود اليهود تردد دائمًا قناعتها بأنَّ من أصول التفاوض الصحيح حل المشكلات الصغيرة أولًا ثم التفرغ للمشكلات الكبيرة. ومع كل هذا الهوان، فقد كان المفاوض العربي والفلسطيني يشعر في نفسه بذلك الهوان، بغض النظر عن القضايا التي تناقش، يعبر عن ذلك د. حيدر عبد الشافي بقوله: نحن وفد منقسم على نفسه، وفي الحقيقة فنحن أربعة عشر عضوًا فلسطينيًّا وكل عضو فينا وفد مستقل، وكل واحد منا يمثل نفسه، وله اتصالاته وله ميادينه!!

وكان من الطبيعي مع كل هذا أن تكون نتائج مسارات واشنطن.. الفشل!!

المحطة السابعة: اتفاقيات أوسلو:

بعد فشل محادثات المسارات المتعددة في واشنطن، اتجهت الأنظار إلى (أوسلو) عاصمة النرويج، وكان ذلك عقب ظهور عدد من المستجدات على الساحة العربيَّة والدوليَّة منها:

١- انتقال رئاسة الوزراء في إسرائيل إلى حزب العمل برئاسة إسحاق رابين بعد سقوط إسحاق شامير زعيم حزب الليكود.

٢- أن منظمة التحرير من خلال محادثات واشنطن ظهر أنَّها مستعدة نفسيًّا وعمليًّا لإعطاء كل شيء مقابل الاعتراف بها، وأنَّها سوف ترحب بأي تعاون من شأنه ألا ينقل الوصاية على القضية الفلسطينيَّة من يد المنظمة إلى أيدي حماس.

٣- حرص كل أجهزة المخابرات ومراكز الدراسات في إسرائيل وغيرها على إظهار وإبراز أن هناك قوة إسلاميَّة عارمة يمكن أن تكتسح أكثر من ساحة عربيَّة ومن ضمنها فلسطين في ظل التشرذم والفشل العربي، وأن تلك الموجه الإسلاميَّة يمكن لها أن تقفز إلى واجهة الأحداث ليرى اليهود أنفسهم وجهًا لوجه أمام مبارز جديد لم يتعودوا على منازلته، وقد عبر عن هذا التخوف أحد الوزراء في حكومة رابين عندما قال: إنَّ الحركة الإسلاميَّة ستتصاعد، وستؤدي إلى تقوية التيار الديني في إسرائيل نفسها، وأستطيع أن أقول: إن المتشددين الإسلاميِّين والمتشددين اليهود سيلتقون في ساحة المواجهة هنا على أرض فلسطين، وعندها سيخرج الأمر من أيدينا تمامًا!

وكان رابين يرى لأجل ذلك أنَّه لا مانع من الاعتراف بالمنظمة بعد اعترافها بإسرائيل، وبحقها في حياة آمنه ضمن حدود معترف بها، وكان في ذلك مخالفًا لسلفه شامير وقد سوّغ وجهة نظره بقوله: إنَّ المنظمة إذا وضعت بصمتها على ورقة الاستسلام، فلن يستطيع أحد أن يزايد على أصحاب الشأن!

وبدأ الفلسطينيون عبر قنوات اتصال سريَّة في التفاوض مع الإسرائيليين لإبرام اتفاق منفرد، وأثمرت هذه الاتصالات في الوصول إلى اتفاق مبدئي أطلق عليه: (غزة وأريحا أولًا) وكان المفاوضون قد اتفقوا في أوسلو على ألا يكرروا الخطأ الذي حدث في واشنطن من الوفد الفلسطيني وهو المطالبة بالبدء بالموضوعات الصعبة الرئيسية مثل: حق تقرير المصير، والمستوطنات، ومستقبل القدس.

واختاروا أن يكون البدء بأمور عمليَّة تقبل التنفيذ، ووقع الاختيار على (غزة وأريحا أولًا) بمعنى تمكين الفلسطينيين من حكم هاتين المنطقتين حكمًا ذاتيًا، وكانت هذه مبادرة إسرائيليَّة صرفة، صادفت هوًى لدى القيادة الفلسطينيَّة، وقد تم التوصل إليها بينهما دون شراكة من أي طرف ثالث.

وقد أراد الإسرائيليون بهذه الاتفاقيَّة أن يضربوا عددًا من العصافير بحجر واحد في هذه المرحلة وذلك بما يلي:

١- التخلص من قطاع غزة المزدحم والمزعج، والمليء بأسباب التوتر الأمني والعلل الاقتصاديَّة والكثافة السكانيَّة العربيَّة.

٢- إرضاء غرور القيادة الفلسطينيَّة المتطلعة إلى زعامة وهميَّة على دولة غير واقعيَّة لن تفيد الشعب الفلسطيني، ولن تضر الشعب الإسرائيلي.

٣- إيهام العالم بعدالة الصفقة اليهوديَّة في آخر فصول القضية الفلسطينيَّة.

٤- عزل القوى العربيَّة غير الراغبة في السلام إن وجدت بإعطاء البرهان على أن أصحاب القضية قد ألقوا البندقيَّة.

٥- احتواء التيار الإسلامي المتصاعد في غزة على يد الشرطة الفلسطينيَّة بعد أن عجزت الشرطة

الإسرائيليَّة عن القضاء عليها.

وبعد خمس جولات من المباحثات في أوسلو، تم التوصل في (٨/ ٥/ ١٩٩٣م) إلى ما يسمى وقتها بـ (اتفاق إعلان المبادئ) المتعلق بمنح الفلسطينيين حكمًا ذاتيًّا في غزة وأريحا، وكان بيريز متحمسًا للإسراع في إبرام ذلك الاتفاق الذي تفتقت عنه قريحته، فقد كان يراه فرصة تاريخيَّة لا تعوض في مثل ذلك الظرف الذي كان يقتضي الاعتراف بالعدو الذي لم يعد عدوًّا (منظمة التحرير)؛ لأنَّ البديل هو كابوس لا يمكن تصوره، ولذلك قال: إنَّ البديل الوحيد لمنظمة التحرير إذا تجاوزناها هو (حماس) وحماس لن تعترف أبدًا بإمكانية السلام معنا!

وما كان لاتفاق أوسلو أن يخرج إلى الوجود، إلا بعد أن تم تأجيل كل القضايا الأساسية وهي: (القدس) (الحدود) (المستوطنات). وبالرغم من أن الاتفاق أسوأ مما كان ينتظره المتشائمون، حيث إنَّه لا يحقق الحد الأدنى من الثوابت الفلسطينيَّة، إلا أن ياسر عرفات كان يحب أن يطلق عليه: (سلام الشجعان).

وفي مقابل قبول الاتفاق على مضض من بعض العرب بسبب إجحافه بالفلسطينيين في أرضهم، فإنَّ الإسرائيليين عمهم الفرح به، حتى إنَّ أحد الوزراء الإسرائيليين وهو يوسي ساريد علق عليه قائلًا: إن إسرائيل اليوم خلقت من جديد، فمنذ إنشائها لم تكن الدولة شرعيَّة في المنطقة التي قامت فيها، واليوم (١٣ سبتمبر ١٩٩٣م) اكتسبت إسرائيل شرعيَّة الاعتراف بها. هذا على مستوى العارفين بالأمور من الإسرائيليين، أما قطاعات الشعب التي ساءها أن ترى عرفات داخل أرض الميعاد مرة أخرى، فقد هالهم هذا التغيير، ولكن رابين طمأنهم وهدأ من روعهم، وخاطبهم ولما يجف مداد الاتفاق قائلًا: إنه لن يكون هناك انسحاب إسرائيلي، ولكن: إعادة انتشار، والسلطة للفلسطينيين سوف تكون تحت سيطرة الدولة الإسرائيليَّة، وحتى الأرض، فليس هناك اتفاق بشأنها، ولكن بشأن البشر الذين يسكنون عليها. أمَّا الأموال التي ستأتي لتلك السلطة الفلسطينيَّة، فلن تصل إلى أيديها مباشرة بل ستمر عبر قنوات دوليَّة تضمن سلامة مصارفها!

ثم بدأ تنفيذ بعض بنود الاتفاق، واستقدمت أعداد من المقاتلين الفلسطينيين السابقين الذين كانوا قد تفرقوا في عدد من البلدان العربيَّة، لتتشكل منهم كتائب شرطة لمكافحة الشغب أو بالأحرى مكافحة الشعب، إذا أراد أن ينتفض مرة أخرى، ومع كل هذا التنازل فإن الطرف اليهودي كان يتعامل مع الطرف الفلسطيني بالازدراء كلِّه، والمكر والخداع كلِّه، وكعادة اليهود في التملص من العهود، فإنَّهم لم يصبروا على اتفاق أوسلو رغم حيفه وجوره، وعادوا إلى التمثيليَّة المكرورة وهي (تعدد فهم النص) تلك التمثيليَّة التي درجوا على اللجوء إليها كلما أرادوا التحريف أو التزييف، فيقولون: النص هكذا، ولكننا نفهم منه كذا، وأنتم تفهمون منه كذا، وبهذا في كل مرة يتخلصون من أي التزام، ويتبرءون من كل مسئولية، لقد قال رابين قبل مصرعه: إنني اكتشفت أن هناك قراءتين لاتفاق أوسلو: قراءة فلسطينيَّة وقراءة إسرائيليَّة، ونحن أمام تفسيرات

مختلفة لقضية كنت أظنها واضحة في الاتفاق، وقال: إن فجوة الاتفاق بيننا وبين عرفات واسعة.

بمثل هذه التصريحات، وفي ظلِّ تلك المواقف التي توجهها الرغبة في التلاعب، تجري فصول عمليَّة السلميَّة، فما كان يفهم شامي) من قواعد اللعبة، يمكن أن يختلف غدًا عما فهمه بيريز، وما كان مسلّمًا به عند رابين، يمكن أن ينقلب على أعقابه في مفهوم نيتنياهو! وما تعاهدت عليه حكومة الليكود اليوم، ليس ملزمًا لحكومة العمل غدًا. وهكذا تتوالى الفصول في عمليَّة السلام الهزول نقضًا للوعود، ونكثًا للعهود.

إذًا، فقطار (السلام)، لا يركبه اليهود إلا للوصول عبر محطاته إلى ميدان الحرب؛ وهذا أمر واضح لمن راقب أحوال القوم في القديم والحديث[1].

---

(١) مجلة البيان العدد ١١٥ ص(٦٨- ٧٩)، العدد ١١٦ ص(٧٢- ٧٩)، العدد ١١٧ ص(٧٠- ٧٥).

الفصل السادس

إسرائيل الكبرى

هناك اتفاق بين الساسة المتنفذين في الدولة العبريَّة على أن العمل لاستكمال (مشروع إسرائيل الكبرى) هدف كبير واعد، ولكنه بعيد آجل، ولا بدَّ من الوصول إليه عبر مراحل في الزمان والمكان.

غير أن هناك مفهومين سائدين ومختلفين في الوسيلة التي يمكن من خلالها الوصول إلى تنفيذ هذا المشروع، وأحد هذين المفهومين يتبناه الصقور وتمثلهم كتلة الليكود التي تضم بعض الأحزاب اليمينية والدينيَّة، والآخر يتبناه الحمائم ويمثلهم حزب العمل الذي يضم يساريين وليبراليين.

وبأدنى قدر من الفهم يستطيع المراقب لسياسات الاتجاهين أن يدرك أنَّهما يتبادلان الأدوار على حسب ما تقتضيه المرحلة في كل ظرف، لكن الحزبين في النهاية يعملان لأهداف مشتركة وإن اختلفت الوسائل.

أما المفهوم الأول: وهو الذي تتبناه كتلة الليكود في عملها لصالح ذلك المشروع، فيعتمد على المفهوم (الهرتزلي) في ذلك؛ حيث قال هرتزل للمستشار الألماني هوهنكر حين سأله عن الأرض التي يريد: سنطلب ما نحتاجه، وتزداد المساحة المطلوبة مع ازدياد السكان[1]. وهذا يعني أن باب التوسع مفتوح دائمًا.

وقد سار بن جوريون أول رئيس لدولة اليهود على الخط نفسه، وعبر عن ذلك بقوله: حدودنا حيث يصل جنودنا[2]، فالقوة وسياسة الأمر الواقع هي السبيل الأوحد للوصول إلى الهدف في نظر بن جوريون! وقد كان هذا الرجل يشخص ببصره نحو (إسرائيل الكبرى). ففي مبدأ إنشاء الدولة على أرض محدودة عام ١٩٤٨م يقول: إن الصهيونيَّة حققت هدفها في الرابع عشر من مايو ١٩٤٨م ببناء دولة يهوديَّة أكبر مما كان متفقًا عليه في مشروعات التقسيم وبفضل قوات (الهاجاناه). وليست هذه نهاية كفاحنا، بل إننا اليوم قد بدأنا، وعلينا أن نمضي لتحقيق قيام الدولة التي جاهدنا في سبيلها من النيل إلى الفرات[3].

وسار على الدرب نفسه ليفي إشكول فخاض حرب عام ١٩٦٧م لقضم أكبر قطعة من أرض (إسرائيل الكبرى) وقد بدأ يكثف حديثه علنًا عن هذا المشروع منذ شهر أكتوبر عام ١٩٦٧م، ويشاركه فيه دايان وآلون وكبار الحاخامين وزعماء الأحزاب.

---

(١) مذكرات هرتزل (٢/ ٧٠٢).

(٢) حياة بن جوريون ص(٣٢٧).

(٣) حياة بن جوريون ص(٣٢٧).

والمرأة التي كانت تفخر بأن يقال لها: أنت أقوى رجل في إسرائيل، (جولدا مائير) كانت تؤمن بالأسلوب نفسه فيما يتعلق بالعمل لصالح (إسرائيل الكبرى) وقد قالت في خطاب لها: إن إسرائيل يجب أن تكون دولة وقوة عظمى في الشرق الأوسط، لها حق التصرف كما تريد[١].

وجاء بعدها مناحم بيجن فكان صريحًا فصيحًا في التعبير عن النوايا اليهوديَّة تجاه أرض إسرائيل (الكاملة)، يقول بيجن: منذ أيام التوراة، وأرض إسرائيل تعتبر أرض الأمم لأنبياء إسرائيل، وقد سُميت هذه الأرض فيما بعد فلسطين، وكانت تشمل دومًا ضفتي نهر الأردن ولبنان الجنوبي وجنوبي غرب سورية، إن تقسيم الوطن عمليَّة غير مشروعة، وإن تواقيع الأفراد والمؤسسات على اتفاقيَّة التقسيم باطلة من أساسها، وسوف تعود أرض إسرائيل إلى شعب إسرائيل بتمامها إلى الأبد[٢]. وقد أشار محمد كامل وزير الخارجيَّة المصري الأسبق إلى أن برنامج حزب (حيروت) ضمن كتلة الليكود، بزعامة بيجن كان يقوم على أساس السعي لإقامة إسرائيل الكبرى[٣].

أما شامير، زعيم الليكود بعد بيجن، فكان أصرح وأفصح الزعماء في الإعلان عن قيمة مشروع (إسرائيل الكبرى) في الفكر والوجدان اليهودي. قال ذات مرة وهو يخاطب أحد الصحفيين: إن (إسرائيل الكبرى) هي عقيدتي وحلمي شخصيًا، وبدون هذا الكيان لن تكتمل الهجرة، ولا الصعود إلى أرض الميعاد[٤]. وقد فاز في الانتخابات الإسرائيليَّة لمنصب رئاسة الوزراء بسبب برنامجه الهادف إلى السعي من أجل إسرائيل الكبرى.

وجاء اليهودي الليكودي الجَلْد نتنياهو ليمثل مرحلة ساخنة على طريق السعي اليهودي المسعور نحو (إسرائيل الكبرى). لقد ولد نتنياهو ونشأ في بيئة تغلب عليها أفكار حزب (حيروت) العقل الأيدولوجي لتكتل ليكود، ولذا فمن البدهي أن يكون تأييده لمبادئ الحزب جزءًا من طبيعته ونشأته وتفكيره، وتلك المبادئ يأتي على رأسها حقهم المزعوم في (إسرائيل الكبرى). وقد انتخب نتنياهو عام ١٩٩٦م تأييدًا لبرنامجه الانتخابي القائم على عدم التنازل عن شبر من أرض إسرائيل المستعادة.

المفهوم الثاني: ويرتكز على فهم خاصٍّ لدى بعض ساسة اليهود، مؤداه أن الشعب اليهودي لن يستطيع أن يسيطر على ما حوله من الشعوب إلا بالدهاء والحيلة والقوة بأشكالها المختلفة، بحيث تعوض هذه القوة الكيفية، الضعف الكمي عندهم، وفي هذا يقول بن جوريون مخاطبًا الشعب اليهودي: لقد ذكر أنبياؤنا منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة أنكم أقل الشعوب جميعًا، ولذلك يجب على شعب إسرائيل أن يكون شعب قدرات وتفوق، بحيث يستطيع أن يقف أمام شعوب أكبر منه[٥].

---

(١) صحيفة معارف الإسرائيلية (٢٩/ ١٠/ ١٩٧٢م).
(٢) الثورة، لمناحيم بيجن ص(٣٢٥).
(٣) السلام الضائع في كامب دفيد، لمحمد كامل ص(٢٧).
(٤) جريدة الحياة، عدد ١٠٤٧٥ .
(٥) أخطر من النكسة ص(١٠٢).

وحزب العمل كان ولا يزال يتبنى هذا المفهوم، ولعل من أبرز المتحمسين لهذا المسلك، حمامة السلام المفترسة شمعون بيريز تلك الشخصية الأفعى، التي تصدت دائمًا لمشروعات امتصاص دماء الشعوب المحيطة وابتزازها، إما بالترغيب، عن طريق مشروعات السلام الوهمي، أو بالترهيب عن طريق الترسانة النوويَّة التي يُعد مهندسها وأبوها الروحي.

لقد كان شمعون بيريز ينادي دائمًا بـ (إسرائيل العظمى) أولًا، قبل إسرائيل الكبرى، بمعنى أن تستكمل الدولة اليهوديَّة أسباب القوة لتصبح قوة عظمى، ثم تستكمل بعد ذلك المساحة لتكون أرضًا كبرى.

وهو يسير على محورين للتوصل إلى تلك الغاية:

أولهما: السعي لزيادة قوة الدولة اليهوديَّة دون أدنى خضوع لعقبات أو عراقيل تفرضها الأوضاع أو الأعراف الدوليَّة.

والثاني: العمل على توهين وإضعاف قوة البلاد العربيَّة المجاورة بكل وسيلة ممكنة، واستغلال أسباب قوتها ومصادر مواردها لغير صالح شعوبها.

وقد برهن عمليًا على هذين المسلكين، فهو في نظر اليهود (بطل) القوة النوويَّة الإسرائيليَّة وراعي مسيرتها منذ البداية حتى النهاية.

وهو من جهة أخرى عرّاب عمليات السلام مع العرب في مرحلة ما بعد كامب ديفيد، وهو واسطة الوصول للمأمول عبر (القنوات السريَّة) في أوسلو الأولى والثانية ووادي عربة.

وعندما أعلن عن خططه لعمليات السلام في عام ١٩٩١م برز حرصه كأي زعيم صهيوني على قضية أمن اليهود وتحصينهم ضد الأخطار العسكريَّة، وكذلك الأخطار الاقتصادية التي ليست بأقل في نظره من الأخطار العسكريَّة.

أما الأخطار العسكريَّة فقد كفاهم إياها بمنجزاته النوويَّة، وأما الأخطار الاقتصاديَّة، فقد اختار لمواجهتها طروحاته شرق الأوسطيَّة؛ حيث دعا إلى مشروع يهدف إلى جعل الدولة العبريَّة جزءًا من نسيج المنطقة المحيطة بها، بحيث تتمدد في جسدها سرطانيًا لتقتلها ببطء وترث تركتها بأمان!

اعتبر شمعون بيريز أن مشروع (الشرق أوسطية) يمكن أن يقوم على تكامل الطاقات: المياه التركية والسورية والعراقية، الأيدي العاملة المصريَّة والفلسطينيَّة، الأسواق والثروة النفطية الخليجية، مع الخبرة والذكاء الإسرائيلية، لإنشاء الشرق الأوسط الجديد! وما الشرق الأوسط إلا تسمية أخرى حداثية لـ(أرض الميعاد) وما حولها.

لقد اعتبر بيريز أن أنهار المنطقة الرئيسية: (النيل، والفرات، والأردن، ودجلة) بحاجة إلى مشروع (إقليمي) لتنظيمها وتحقيق الاستفادة منها، وكذلك الثروات الأخرى بما فيها (السياحة) سواء كانت سياحة دينيَّة أو مدنيَّة.

ولا شكَّ أنَّ إسرائيل الطامعة في الإشراف على تلك المشروعات الشمعونيَّة الإقليميَّة كانت تطلع إلى عقد معاهدات صلح مع كل جيرانها العرب تتمكن خلالها من تحقيق مآربها في أن تصبح جزءًا من نسيج المنطقة، أو بالأحرى تصبح المنطقة جزءًا من نسيجها وساحة لتحقيق أهدافها، وفي مقابل هذا، أو لتحقيق هذا؛ لا ضير على إسرائيل على حد تعبير بيريز أن تترك للعرب (بعض) لأراضي مقابل سلام قد يعده البعض تنازلًا عن الحقِّ التاريخيِّ والدينيِّ في أرض إسرائيل، وهو من وجهة نظره قيام بواجب تاريخي تجاه مصلحة إسرائيل! يقول: إنَّها بذلك تكون قد أدت واجبها تاريخيًّا بحماية طابعها الخاص من الإفساد والتشويه. ويقصد طبعًا الوضع الناجم عن وجود الفلسطينيين بين الإسرائيليين ضمن كيان واحد، وبعد أن يتم (تطهير) الجسم الإسرائيلي من عناصر غير الإسرائيليَّة وتضع إسرائيل يدها على المواقع المهمة في الضفة الغربية المنزوعة السلاح، وتعقد الصلح مع الجيران، بعدها تدخل في علاقات أعمق مع الدول المحيطة، وعندما تحقق إسرائيل هذا المشروع المتعدد والمتداخل الحلقات؛ فإنَّها تكون قد وضعت رجلها حقًّا في رأي شمعون بيريز على طريق (إسرائيل الكبرى).

ويتساءل بيريز: ماذا ينفع إسرائيل في هذه المرحلة لو ضمت الأراضي الواسعة وخسرت بالمقابل يهوديتها وخصائصها؟ وماذا يضيرها لو أنَّها تخلَّت عن مساحات صغيرة من الأرض (وهي تحت سلطانها الفعلي) لقاء تحولها من كيان محاصر ومعزول إلى قوة إقليمية عملاقة؟

ويخلص بيريز إلى تلخيص رؤية حزب العمل فيما يتعلق بالعمل لصالح إسرائيل الكبرى فيقول: إنَّ إسرائيل تواجه خيارًا حادًّا بين أن تكون (إسرائيل الكبرى) اعتمادًا على عدد العرب الذين تحكمهم، أو تكون (إسرائيل الكبرى) اعتمادًا على حجم واتساع السوق الواقعة تحت تصرفها.

ويهاجم بيريز مفهوم حزب الليكود القائم على اعتبار ضم الأراضي هدفًا في حد ذاته، فيقول: إسرائيل الكبرى بمفهوم ليكود ستضم الفلسطينيين والعرب، فيمثلون جسمها، وتظل حبلى بالمشاكل والاضطرابات، وتبقى عرضة للمجابهات المسلحة مع الجيران والتوتر في علاقاتها الاقتصاديَّة المتقلبة، والانخفاض في عدد المهاجرين إليها.

إنَّه بهذا الكلام لا يتخلى عن (إسرائيل الكبرى) كهدف، ولكنه ينتقد أسلوبًا ومفهومًا مغايرًا في تحقيق هذا الهدف، إنَّه لا يريد حكم الفلسطينيين والعرب، ولكنه يريد التحكم فيهم والسيطرة عليهم عبر (الشرق أوسطية) التي ستوضع كما قال تحت إمرة إسرائيل ورهن تصرفها باعتبارها الكيان الأكثر تطورًا.

فطريق حزب العمل إلى (إسرائيل الكبرى) يمر عبر الدبلوماسيَّة واللياقة التي تستند إلى التهديد الدائم بالرعب النووي الرابض في صحراء النقب!

وتأمل في تلك التوصية التي صدرت منذ أكثر من أربعة عقود عن أحد مؤتمرات اليهود تحت عنوان: (الحاخام جوهاشيم برنز يشرح وثائق المخطط الأخير) جاء فيها: التخطيط المتفق عليه

سهل في مظهره وفي تنفيذه، ولا يعرض من يعملون لتحقيقه إلى أي نوع من الخطر، وكل ما في الأمر يتلخص في كتمان القصد من الدعوة لهذا المخطط حتى لا يكتشفه أحد، ولقد أطلق على هذا المخطط اسم: (مخطط السلام). والعمل على تحقيقه لا يتطلب منا سوى الإلحاح والمثابرة على الدعوة للمحافظة على السلام، والقصد منه ذو شقين: **أحدهما**: الحصول على الوقت اللازم لنا ولحلفائنا لكي نتمكن من تسليح جيوشنا وتقوية أجهزتنا الحربيَّة؛ لأننا في هذا الوقت لم نستكمل العدة لخوض حرب عالمية ثالثة تكفل لنا النصر. **وأما الشق الأخر**: فهو سباق التسلح السائد الآن لدى الدول المعادية لنا ولحلفائنا، وإرغام الدول على تدمير أسلحتها الذرية وتخفيض جيوشها، وقتل الروح العسكريَّة في الأوساط الشعبيَّة، ودفع الجماهير إلى غير الجنديَّة وتنفيرهم منها، بينما سنثابر نحن وحلفاؤنا على التسلح إلى أبعد مدى مستطاع.

ولكي نتوصل إلى تحقيق هذه الأهداف، عليكم العمل دون هوادة على دعوة الناس إلى مناصرة السلام، وتسفيه كل منهاج أو رأي يدعو إلى التسلح، والهجوم على كل من يناصر الجندية، وإثارة الإنكار على كل مشروع دفاعي، وتحريض الناس على الامتناع عن الإسهام في الأغراض العسكريَّة، والتنديد بما ينفق في أمور الحرب.

أيها الإخوة.. ربما استغرب أحدكم انقلابنا المفاجئ وسأل عن الأسباب التي دفعتنا إلى أن نكون دعاة سلم بعد أن كنا دعاة حروب وثورات، واعلموا إذًا أن الأسباب التي حملتنا في الماضي على إشعال نار الثورة الفرنسيَّة ثم الثورة الروسية، ولافتعال الحربين العالميتين، هي نفسها تدفعنا اليوم إلى الدعوة إلى السلام لأول مرة في التاريخ، وما هذه الأسباب بخافية عليكم، فهي ما تعرفونه من أهدافنا الخاصة التي يتطلب تحقيقها تجريد خصومنا من أسلحتهم ريثما نتمكن من التسلح والتأهب لجولاتنا القادمة.

وعندما نتيقن من نجاح مخططاتنا هذه؛ ستكون ساعة الصفر قد أزفت، فتزحف جيوشنا إلى الميادين المعينة لها، وتقضي سريعًا على مقاومة أعدائنا التي ستكون حتمًا هزيلة، ونزيل الدول المنهارة عن طريقنا، ثم نعلن للعالم انتصارنا، ونفرض سيادتنا تحت ظل دولتنا الموحدة وعلمها ذي النجمة المقدَّسة[١] [٢].

---

(١) نشرة الصليب والعلم الدورية الصادرة عام ١٩٥٥م.

(٢) مجلة البيان العدد ١٢٨ ص(٨٨- ٩٣).

الفصل السابع

بروتوكولات حكماء صهيون

تستمد الصهيونيَّة فكرها ومعتقداتها من الكتب المقدَّسة التي حرفها اليهود، وقد صاغت الصهيونيَّة فكرها في بروتوكولات حكماء صهيون.

وهي عبارة عن خطط ومبادئ تم طرحها على طاولة البحث في المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في سويسرا عام ١٨٩٧، وبعد مناقشتها تم اعتمادها كدستور للحركة الصهيونيَّة.

أما كيف تم اكتشاف هذه البروتوكولات؟ فقد استطاعت سيدة فرنسية (مدام ك) أثناء اجتماعها بزعيم من أكابر رؤساء الصهيونيَّة خلال المؤتمر الماسوني اليهودي في فرنسا أن تختلس بعض هذه الوثائق ثم تفر بها، وسلمتها إلى أليكس نيقولا نيفتش كبير جماعة أعيان روسيا الشرقيَّة أيام القيصرية، الذي سلمها سنة ١٩٠١ إلى يد العالم الرومي السيد سرجي نيلسون الذي أدرك خطورة ما تريده الصهيونيَّة بعد دراسة معمقة ومقارنة للأحداث الهامة التي جرت في العالم وبين ما في هذه البروتوكولات من خطط، فقام هذا العالم الرومي بنشرها سنة ١٩٠٥ ملحقًا لكتاب له.

وقد لاقت البروتوكولات رواجًا كبيرًا بعد نشوب الثورة البلشفيَّة التي أسماها البعض آنذاك «الثورة اليهوديَّة»، إذ عزا الكثيرون الانتفاضات الاجتماعيَّة التي اجتاحت كثيرًا من البلدان الأوربيَّة إلى اليهود.

وانتقلت البروتوكولات إلى غرب أوربًا عام ١٩١٩ حيث حملها بعض المهاجرين الروس. وبلغت البروتوكولات قمَّة رواجها في الفترة الواقعة بين الحربين، وقد أصبحت البروتوكولات من أكثر الكتب رواجًا في العالم الغربي بعد الإنجيل، وتُرجمت إلى معظم لغات العالم وضمن ذلك العربيَّة حيث ظهرت عدة طبعات منها، وحازت اهتمام كثير من المشتغلين بالتأليف وبالإعلام.

وهي تضم أربعة وعشرين بروتوكولًا، وأهم ما جاء في هذه البروتوكولات:

البروتوكول الأول:

أبرز ما جاء فيه: أن الجوييم أو الأمميون هم البشر من عدا اليهود وأن قانون الطبيعة هو الحق يكون في القوة والحريَّة السياسيَّة طعم لجذب العامة، واستخدام المال للسيطرة على الدول، وأنَّ الحاكم المقيد بالأخلاق ليس بالسياسي البارع، وأن الإخلاص والأمانة رذائل في السياسة، والغاية تبرر الوسيلة، وكل وسائل العنف والخديعة متاحة، والعنف الحقود هو العامل الرئيسي في قوة العدالة، والحرية والمساواة والإخاء كلمات رددتها ببغاوات جاهلة.

البروتوكول الثاني:

ويركز هذا البروتوكول على أسلوب الحكم، واعتماد اليهود في السيطرة على الأمم على العملاء

اعتمادًا على جهل غير اليهود، واستفادة اليهود من الأثر غير الأخلاقي لعلوم دارون وماركس ونيتشه.

البروتوكول الثالث:

إغراء مختلف القوى بسوء استعمال حقوقها لضمان إيجاد الفوضى، واستغلال حاجات الطبقة العاملة لتجنيدها في الجيوش اليهوديَّة، والتحكم بالطوائف عن طريق استغلال مشاعر الحسد والبغضاء بينها، واحتفاظ اليهود بأسرار العلوم وقيادة الأمم من خيبة لخيبة تمهيدًا لقيام الملك الطاغية من دم صهيون، وأخيرًا نص على أن كلمة الحريَّة لا بدَّ أن تمحق من معجم الإنسانيَّة عندما يستحوذ اليهود على السلطة.

البروتوكول الرابع:

يُظهر هنا دور الماسونيَّة في السيطرة على الشعوب، وانتزاع فكرة الله من عقول الأمميين، وإشغال الأمم بمصالحها، وجعل التجارة على أساس المضاربة لزلزلة الحياة الاجتماعيَّة للأمميين.

البروتوكول الخامس:

الحكومة الاستبداديَّة لليهود، وكيفية أن يكون استبداد اليهود مناسبًا للحضارة الحالية، وزرع الكراهية بين الأمميين لضمان أمان اليهود، وترِد هنا مقولة بحكمي فليحكم الملوك أي (قوة رأس المال أعظم من مكانة التاج)، واليد الخفية.

وراء الاحتكارات المطلقة للصناعة والتجارة، وتجريد الشعوب من السلاح لإخماد الشجاعة والنخوة في قلوبها، وإفقاد الشعوب قوة الإدراك والكلام الجوف والخطب الرنانة والآراء المتناقضة حتى لا يكون لها رأي في المسائل السياسيَّة، ومضاعفة وتضخيم الأخطاء العرفيَّة حتى لا يستطيع إنسان أن يفكر في ظلامها المطبق.

البروتوكول السادس:

استخدام الاحتكارات في إحداث الانهيار السياسي، وإبقاء منافع الأرض في أحط مستوى ممكن وفرض السيطرة على الصناعة والتجارة والمضاربة، وإفشاء الترف الشديد والفقر الشديد في ذات المجتمع لإفشاء البغض والظلم.

البروتوكول السابع:

الجيش والبوليس ضروريان لإتمام الخطط واستخدام المنازعات بين الأقطار والدسائس لأحكام السيطرة، والمفاوضات والاتفاقات يجب أن تنطوي على كثير من الدهاء والخبث وإعلان الحرب على من يعارض، واعتبار جرائم العنف وحكم الإرهاب وسيلة من وسائل الرد، والمدافع الأمريكيَّة أو الصينيَّة أو اليابانية للدفاع عن اليهود!

البروتوكول الثامن:

استخدام التعبيرات القانونية المعقدة لإخفاء الأحكام الطائشة والظالمة، علم الاقتصاد وجيش كامل من الاقتصاديين في خدمة الحكومة اليهوديَّة.

البروتوكول التاسع:

تغير أخلاق الأمم بالتدريج، وإعادة صياغة الشعار الماسوني الحرية والمساواة والإخاء، وإبداء حاجة اليهود إلى الانفجارات المعادية للسامية، وإقامة سد من الرعب بين القوى الحاكمة والشعوب ضمانًا لعدم وجود تحالف بينهما، خداع الأجيال الناشئة بعلوم ونظريات فاسدة واستخدام الاضطرابات والانقلابات في مواجهة من يكتشفون الخطط.

البروتوكول العاشر:

الحكومات تقنع في السياسة بالجانب المبهرج الزائف، ويجب كتمان الأمور عن الرعاع وعلى الأمَّة أن تحترم الأعمال القذرة والتدليس إذا اقترنت بالجسارة والمهارة وتسخير الأمم لخدمة أغراض اليهود، واستخدام لعبة الانقلابات، وتدمير الحياة الأسريَّة لدى الشعوب، وشراء الرعاع بالمال، ولعبة التغيير بين الملكيَّة والجمهوريَّة واستخدام رؤساء أصحاب سوابق.

البروتوكول الحادي عشر:

برنامج الدستور الحديث للعالم من خلال زرع الخوف في قلوب الناس بإغماض عيونهم واعتبار الأميون قطيع من الغنم واليهود هم الذئاب، والأصل في تنظيم الماسونيَّة أنَّ اليهود شعب مشتت لا يصلون إلى أغراضهم إلا بالمراوغة، التشتت هو سر القوة هنا.

البروتوكول الثاني عشر:

حدود الحرِّيَّة عند اليهود، ودور الصحافة والأدب والسيطرة عليهما وخضوعهما لليهود، وسبل التحكم في دور النشر وكل قنوات التفكير الإنساني.

البروتوكول الثالث عشر:

إشغال الناس بالمشكلات السياسيَّة لصرف انتباههم، إفقاد الشعوب نعمة التفكير بالفن والرياضة، واعتبار كلمة التقدم فكرة زائفة تعمل على تغطية الحقّ.

البروتوكول الرابع عشر:

تحطيم كل عقائد الإيمان غير اليهوديَّة وإن أثمر ملحدين، واستغلال الأخطاء التاريخيَّة لحكومات الأمميين والقيام بحملة على الديانات غير اليهوديَّة، وأسرار اليهود لن تفشى لغير اليهود، وتشجيع الأدب المريض وإظهار أنَّ اليهوديَّة ضد هذا الأدب.

البروتوكول الخامس عشر:

الانقلابات المتعددة تمهيدًا لاستلام اليهود السلطة، والإعدام بلا رحمة لمن يهدد استقرار سلطة

اليهود، حتى الماسونيين غير اليهود لا بدَّ من نفيهم، وتقوية هيبة السلطان لضمان استقرارها، وكل الوكلاء في البوليس الدولي سيكونون حلفاء لتحطيم صلابة العالم.

البروتوكول السادس عشر:

ويختص بشئون الجامعات ومناهجها الجديدة، والمعرفة الخاطئة للسياسة والنظام التربوي للأمميين، ومبادئ الأسلوب التربوي لجديد.

البروتوكول السابع عشر:

نظام الدفاع الجديد أمام القضاء والحط من كرامة رجال الدين من الأمميين للأضرار برسالتهم، القضاء على الديانات الأخرى، ملك الكيان الصهيوني سيصير البابا الحق لكل العالم، بوليس سري غير رسمي لتنفيذ مخططات اليهود، إفشاء أفكار لتلويث حياة الأمميين ثم القضاء عليها بعد ذلك.

البروتوكول الثامن عشر:

السياسة البوليسيَّة، وإثارة الشعوب لاكتشاف المتآمرين بينهم، واعتماد الاغتيالات الفرديَّة لتدمير هيبة الحكام الأمميين، الأسلوب الجديد لحماية ملك اليهود وفرض هيبته.

البروتوكول التاسع عشر:

تحريم العمل السياسي ومساواة الجريمة السياسيَّة بغيرها من الجرائم لوصمها بالعار وبرز هنا مفهوم أن الثورة لا تُجدي مع الحكومة المنظمة تنظيمًا اجتماعيًا حسنًا!

البروتوكول العشرون:

البرنامج المالي لحكومة اليهود، تجنب فرض ضرائب ثقيلة فيما بينهم، واعتبار الحاكم مالك لكل أملاك الدولة، وفرض ضرائب على الفقراء هو أصل كل الثورات، وتوجيه الفوائض إلى التداول، عدم السماح لعملة بأن تودع دون نشاط، إنشاء هيئة للمحاسبة، ويوضح ذلك أن الأزمات الاقتصاديَّة التي دبرها اليهود بنجاح تمت عن طريق سحب العملة من التداول، وإصدار العملة يجب أن يساير نمو السكان، إلغاء العملة الذهبية، خطط تدمير المؤسسات المالية للأمميين، القروض الخارجية ودورها في تحطم ميزانية الأمم.

البروتوكول الحادي والعشرون:

استبعاد مسالة القروض الخارجيَّة في دولة اليهود، أسلوب العمل في القروض الداخليَّة لإظهار أن مصالح الشعوب لا تتفق مع مصالح الحكومات الأمميَّة.

البروتوكول الثاني والعشرون:

الذهب والعنف لفرض النظام، ضوابط جديدة للحريَّة، السلطة الحقة لا تستسلم لأي حق حتى حق الله.

البروتوكول الثالث والعشرون:

في دولة اليهود المنتظرة يجب تدريب الناس على الحشمة والحياء، وتخريب المصانع الخاصة، لأنَّ البطالة هي الخطر الأكبر على الحكومة، تحريم الخمر، الأمم لا تخضع خضوعا أعمى إلا للسلطة الجبارة وتدمير كل الأفكار والهيئات التي أسلمت الأمم لحكم اليهود.

البروتوكول الرابع والعشرون:

يختص بالأسلوب الذي تقوى به دولة الملك داود، ويتعرض لتربية الملوك وخلفائهم تربية خاصة، وانتخاب الملوك بالمواهب الخاصة وليس بحق الوراثة، وهم الذين يفقهون أسرار الفن السياسي وحدهم ويتم استبدالهم وإذا حدث أي تقصير منهم، لن يعرف أحد خطط اليهود المستقبلية إلا الحاكم والثلاثة الذين دربوه، سيخاطب الملك رعاياه جهارًا مرات كثيرة لقيام انسجام بين قوة الملك وقوة الشعب، ويجب أن يكون الملك مثالًا للنزاهة والعزة والجبروت!

أفعى صهيون

الأفعى الرمزيَّة هي الشعار اليهودي- البلشفي في روسيا السوفيتية، ورأسها ترمز إلى المتفقهين في خطط الإدارة اليهوديَّة، وجسمها يرمز إلى الشعب اليهودي.

وقد وضح رسم طريق الأفعى الرمزيَّة كما يلي: كانت مرحلتها الأولى في أوربا سنة ٤٢٩ ق. م. في بلاد اليونان حيث شرعت الأفعى أولًا في عهد بركليس Percles تلتهم قوة تلك البلاد، وكانت المرحلة الثانية في روما في عهد أغسطس Augustus حوالي سنة ٦٩ ق. م.، والثالثة في مدريد في عهد تشارلس الخامس Charles سنة ١٥٥٢م، والرابعة في باريس حوالي ١٧٠٠ في عهد الملك لويس السادس عشر، والخامسة في لندن سنة ١٨١٤ وما تلاها (بعد سقوط نابليون)، والسابعة في سان بطرسبرج الذي رسم فوقها رأس الأفعى تحت تاريخ ١٨٨١، كل هذه الدول التي اخترقتها الأفعى قد زلزلت أسس بيانها، من بعد ذلك يتوجه رأس الأفعى نحو موسكو وكييف وأودسا، ونحن نعرف الآن جيدًا مقدار أهمية المدن الأخيرة من حيث هي مراكز للجنس اليهودي المحارب، وكانت القسطنطينيَّة المرحلة الأخيرة لطريق الأفعى قبل وصولها إلى فلسطين.

وثيقة البروتوكولات

هناك من الباحثين من يشكك في صحة هذه الوثيقة ويعتبرها وثيقة روسية دعائية، ولكن الواقع يشهد بصدق ما جاء فيها من مخططات ومبادئ ووسائل يهودية، فإن البرنامج المفصل لإفساد العالم على يد اليهود، والذي اشتهر بهذا الاسم -بروتوكولات حكماء صهيون- كان قد بدأ في وضعه منذ المؤتمر الأول لفيف من عتاة زعماء اليهود، يمثلون خمسين جمعيَّة يهودية، ولم يكونوا يخططون فقط للسيطرة على فلسطين، بل كانوا يخططون للسيطرة على العالم منطلقين منها، ومن (أورشليم) تثبيت عرش الحكومة العالمية برئاسة ملك من نسل داود ومن هناك وعبر وسائل ووسائط سياسية واقتصادية وثقافية وإعلامية، يستغل اليهود فيها جهود غير اليهود ويوظفونها لمصلحتهم هم، جاء

في البروتوكول الثالث: وحينما يأتي أوان تتويج حاكمنا العالمي ستمسك بهذه الوسائل نفسها، أي نستغل الغوغاء كيما نحطم كل شيء قد يثبت أنَّه عقبة في طريقنا.

وجاء فيه: إن المحفل الماسوني المنتشر في كل أنحاء العالم ليعمل في غفلة كقناع لأغراضنا، ولكن الفائدة التي نحن دائبون على تحقيقها من هذه القوة في خطة عملنا في مركز قيادتنا ما تزال على الدوام غير معروفة للعالم كثيرًا.

وجاء في البروتوكول الخامس: إننا نقرأ في شريعة الأنبياء أننا مختارون من الله لنحكم الأرض، وقد منحنا الله العبقرية كي نكون قادرين على القيام بهذا العمل. إن كان في معسكر أعدائنا عبقري فقد يحاربنا، ولكن القادم الجديد لن يكون كفؤًا إلا لأيد عريقة كأيدينا... إن القتال المتأخر بيننا سيكون ذا طبيعة مقهورة لم ير العالم مثيلًا لها من قبل، والوقت متأخر بالنسبة لعباقرتهم، وإن عجلات جهاز الدولة كلها تحركها قوة، وهذه القوة في أيدينا، هي التي تسمى.. الذهب!.

إذًا فالبروتوكولات تحدثنا عن صراع لم تنته أكثر فصوله[1].

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، مجلة البيان العدد ١١٨ ص(٦٦- ٧٣).

الباب السادس
الماسونيَّة

الفصل الأول: تعريف الماسونيَّة.
الفصل الثاني: تاريخ الماسونيَّة.
الفصل الثالث: معتقدات وأفكار الماسونيِّين.
الفصل الرابع: منهج العمل عند الماسونيَّة.
الفصل الخامس: شعارات ورموز الماسونيَّة.
الفصل السادس: الماسونيَّة واليهود.
الفصل السابع: الماسونيَّة والنصارى.
الفصل الثامن: الماسونيَّة والمسلمون.
الفصل التاسع: الماسونيَّة والصهيونيَّة.
الفصل العاشر: الماسونيَّة والأمم المتَّحدة.
الفصل الحادي عشر: أبناء العهد (بناي برث).
الفصل الثاني عشر: الروتاري.
الفصل الثالث عشر: الليونز.
الفصل الرابع عشر: الإنتراكت.
الفصل الخامس عشر: الروتراكت (شباب الروتاري).
الفصل السادس عشر: حكم الماسونيَّة والانتماء إليها.

الفصل الأول

تعريف الماسونيَّة

الماسونيَّة: مشتقَّةٌ من الكلمة الفرنسيَّة: فرماسون، وهي مركَّبة من مقطعين، وهما: فرانك، ومعناها بالفرنسيَّة الصادق أو الحرّ، وماسون: ومعناها الباني، والبعض يذهب إلى أنَّها مشتقَّةٌ من كلمة الإنجليزيَّة: فري ماسون، وهي بنفس المعنى.

إذًا فمعنى الكلمة: الباني الصادق أو الباني الحرّ، فالماسون طبقًا لذلك هم البناءون الأحرار.

وهو اسم مضلل لا يعبر عن حقيقة هذا التنظيم.

وقد يكون المعنى المراد منه: الذين يبنون أو يساهمون في بناء هيكل سليمان، وهو عند اليهود يعني الهيكل، رمز للسيطرة على العالم.

ويرى بعض الباحثين أنَّ معظمَ حروف كلمة ماسون، مشكَّلة من كلمة موسى -عليه السلام- المرسل إلى بني الكيان الصهيوني بالتوراة، قد صاغها اليهود تلك الصياغة لتكون جارية على الألسنة في كل لغة.

والماسونيَّة هي: منظمة يهوديَّة سريَّة هدامة، إرهابيَّة غامضة، محكمة التنظيم تهدف إلى ضمان سيطرة اليهود على العالم، وتدعو إلى الإلحاد، والإباحية والفساد، وتتستر تحت شعارات خداعه: حرِّيَّة، إخاء، مساواة، إنسانيَّة.

جلُّ أعضائها من الشخصيات المرموقة في العالم، من يوثقهم عهدًا بحفظ الأسرار، ويقيمون ما يسمَّى بالمحافل للتجمع والتخطيط والتكليف بالمهام، تمهيدًا لتأسيس جمهوريَّة ديمقراطيَّة عالميَّة -كما يدعون- وهي في الحقيقة إقامة دولة إسرائيل الكبرى ليحكموا العالم كلَّه ويتحكموا في كافَّة الشعوب ومقدراتها ومصائرها، وتتخذ الوصوليَّة والنفعيَّة أساسًا لتحقيق أغراضها في تكوين حكومة لا دينيَّة عالميَّة [١].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي (١/ ٥١٠)، الماسونية في أثوابها المعاصرة، د. سعد الدين صالح ص(١٧).

الفصل الثاني

تاريخ الماسونيَّة

لقد قامت الماسونيَّة منذ أيامها الأولى على المكر والتمويه والإرهاب، حيث اختاروا رموزًا وأسماء وإشارات للإيهام والتخويف، ولذلك فهناك عدَّة تفسيرات لنشأة الماسونيَّة منها:

١- أنَّها تعود إلى بناة هيكل سليمان قبل الميلاد.

٢- أنَّها تعود إلى اليهود المضطهدين للنصارى بعد الميلاد بقليل.

٣- أنَّها تعود إلى بناة الأحجار المتجولين في العصور الوسطى.

٤- أنَّها تعود إلى المفكرين الحاخامات في القرن السابع عشر.

٥- أنَّها تعود إلى منشئ الصهيونيَّة هرتزل في القرن التاسع عشر.

ويمكننا أن نرجع الماسونيَّة إلى مرحلتين رئيسيتين

المرحلة الأولى: تبدأ من سنة ٤٣م حتى القرن الثامن عشر:

في إطار حملتهم للقضاء على الديانة النصرانيَّة، ومنع دينهم من الانتشار، أنشأ اليهود جمعيَّة سريَّة أطلقوا عليها اسم «القوة الخفيَّة» واستعانوا بشخصية يهوديَّة تعرف باسم «احيرام أبيود» أحد مستشاري الملك هيرودس الثاني عدو النصرانيَّة الأكبر على تحقيق هذه الغاية، وأسندت رئاسة الجمعيَّة إلى الملك المذكور.

وهكذا تم عقد أول اجتماع سري عام ٤٣م حضره الملك المذكور ومستشاراه اليهوديان «احيرام أبيود وموآب لافي» وستة من الأنصار المختارين، وكان الغرض الرئيس من إنشاء هذه الجمعيَّة القضاء على النصرانيَّة.

ثم عقدوا الاجتماع الثاني واتخذوا بعض القرارات السريَّة وتعاهدوا على كتمانها وأفسحوا لمن يثقون بهم المجال للانضمام إلى هذه الجمعيَّة على أن تعصب عينيْ كل من يود الانتساب للجمعيَّة، واتفقوا على اتخاذ بعض الأدوات الهندسيَّة كالبيكار والميزان رمزًا لمنظمتهم السريَّة.

وبعد هلاك الملك هيرودس انتقلت رئاسة هذه الجمعيَّة السرية إلى «احيرام» مستشاره ثم أعقبه ابن أخيه «طوبان لقيان».

ومن هنا يرى بعض المؤرخين أنَّ بولس اليهودي الذي اعتنق النصرانيَّة فجأة وأصبح من كبار دعاتها هو من أعضاء الماسونيَّة فقد استطاع أن يقضي على النصرانيَّة بتحويلها من عقيدة توحيد وتنزيه على يد عيسى إلى عقيدة شرك وتثليث وتأليه للبشر، وربما كانت الحملة الشرسة على عيسى وأمِّه في التلمود وما جاء فيه من وصفهما من وضع الماسون أيضًا.

واستمرت جمعيَّة القوة الخفية تعمل في السرّ، ولا يدري أحد عنها شيئًا حتى أميط اللثام عن هذه المنظمة عام ١٧١٧م، وذلك لدى ظهور ثلاثة من أقطاب اليهود «جوزيف لافي، وابنه إبراهيم، وإبراهيم أبيود»، وكانوا يحتفظون بنسخة من مبادئ هذه الجمعيَّة وقراراتها وطقوسها وأخذوا يجوبون الأقطار للاتصال بالبقية الباقية من أتباع هذه المنظمة السرِّيَّة، وكانوا يهدفون إلى استعادة مجد إسرائيل، واسترداد هيكل سليمان في بيت المقدس، ثم قصدوا لندن التي كانت تضمُّ أعظم جماعة من اليهود المنتمين إلى تلك القوة الخفية.

وفي ٢٤ يونيو من العام المذكور، عقد هؤلاء الثلاثة الذين يعتبرون ورثة السرّ أول اجتماع في العاصمة البريطانيَّة وضموا إليهم اثنين من غير اليهود البسطاء للتمويه والتضليل وقرروا تجديد جمعيَّة «القوة الخفيَّة» ووضعوا لها بعض المبادئ البرَّاقة «حرِّيَّة، مساواة، إخاء، تعاون».

واستبدلوا الرموز القديمة باصطلاحات جديدة كما قرروا تبديل اسم «هيكل» الذي كانوا يستعملونه قديمًا باسم «محفل» وتبديل اسم القوُة الخفيَّة باسم «البنائين الأحرار»، كلافتة تعمل من خلالها، ثم التصق بهم الاسم دون حقيقة.

ولأول مرَّة في التاريخ ظهر لعالم الوجود ما يسمُّونه بالبنائين الأحرار، وأخذت تنتشر الجمعيَّات التي تحمل هذا الاسم، وزعم أقطاب اليهود الذين يقفون وراء هذه الجمعيَّات أنَّ أهدافها نشر المبادئ الإصلاحيَّة والاجتماعيَّة وبناء مجتمع إنساني جديد.

وقد استطاعوا أن يتَّخذوا من أحد أنصارهم «ديزا كوليبه» مطية لتحقيق أغراضهم وأطلقوا عليه وعلى من يسيرون على غراره من غير اليهود اسم «العميان» كما أطلقوا على اسم محفل لندن الماسوني المركزي اسم «محفل إنجلترا الأعظم» على أن يكون في مقدمة مهامِّه دعم اليهود ومحاربة الأديان وبث روح الإلحاد والإباحيَّة.

المرحلة الثانية: تبدأ من القرن الثامن عشر حتى عصرنا الحاضر:

تكونت مع بداية القرن الثامن عشر مجموعة من كبار المفكرين والعلماء الذين كفروا بتعاليم المسيحيَّة، فجاءت حركتهم كردَّة فعل على سلطان الكنيسة الواسع آنذاك.

فلقد كانوا يجاهرون بحرِّيَّة الإنسان التامَّة واستقلاله من كل سلطة عليا (كسلطة الكنيسة).

وكانوا يبغضون الشرائع وكلَّ النظم للهيئة الاجتماعيَّة وعلى الأخصِّ القوانين الكنسيَّة.

لقد حافظت الحركة الماسونيَّة على سريتها منذ إنشائها؛ فكانت تحرص على ألا تكشف سرها إلا للذين اختبرتهم زمنًا طويلًا.

وكانت تعمل بالخفاء جاهدة، مستغلَّة بعض الفلاسفة الملحدين أمثال فلتير وروسو ودلمار وفريدريك ملك بروسيا، الذين وجدت فيهم أنصارًا تكاتفوا في هدم أركان الدين وتخريب الممالك والعروش.

وهكذا استمرت بعملها المنظم موجهة أغلب اهتمامها لإضعاف سلطه الكنيسة حتى تمكَّنت من ضرب وحدتها سنة ١٧١٧ وظهور البروتستنتيين.

عندئذ أعاد الماسون تنظيم حركتهم وغيروا فيها لتناسب الجوّ البروتستانتيّ الذي قرروا أن يؤيدُّوه ضد الكاثوليكيَّة، تكملة لمخططهم الذي وضعوه لضرب المسيحيين.

فأسسوا في ذلك العام محفل بريطانيا الأعظم، وأطلقوا على أنفسهم البنائين الأحرار بعد أن كانوا فيما سبق يحملون اسم (القوة المستورة).

وجعلوا من أهداف الماسونيَّة الجديدة أو شعارها: الحرِّيَّة، الإخاء، المساواة.

ومن بريطانيا، انتشرت الماسونيَّة، فتأسس بإشراف محفل بريطانيا الأعظم:

- أول محفل ماسوني في جبل طارق سنة ١٧٢٨ .
- أول محفل ماسوني في باريس سنة ١٧٣٢
- أول محفل ماسوني في ألمانيا سنة ١٧٣٣ .
- أول محفل ماسوني في أمريكا سنة ١٧٣٣ .
- أول محفل ماسوني في سويسرا سنة ١٧٤٠ .
- أول محفل ماسوني في الهند سنة ١٧٥٢ .
- أول محفل ماسوني في ايطاليا سنة ١٧٦٣ .
- أول محفل ماسوني في روسيا سنة ١٧٧١ .

ظهور النورانيَّة في منتصف القرن الثامن عشر:

كانت حالة اليهود في أوربا يرثى لها؛ ولقد لقي هؤلاء من المسيحيين ما لم يلقه أحد. فلقد كان الصراع بين اليهوديَّة والمسيحيَّة صراعًا عقائديًا ودمويًا. فكان المسيحيون في أوربا يضطهدون اليهود ويلاحقونهم ويطاردونهم في كل مكان وجدوا فيه؛ ولقد ذبحوهم عدة مرات ونشروا الرعب في صفوفهم وخاصَّة في القرن الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر.

عندئذ، أي مع مطلع العقد السابع من القرن الثامن عشر، اجتمع عدد من كبار الحاخامين والمديرين والحكماء، وقرروا أن يؤسسوا مجمعًا سريًا يعمل على تخليصهم من هذا الوضع المزري ويعيد إليهم حقَّهم المسلوب وسلطانهم ومجدهم الموهوب من قبل الربِّ كما يزعمون ولقد سمّوا هذا المجمع بالمجمع النوراني، نسبة إلى الشيطان الذي يقدِّسونه.

وكان المجلس الأعلى للمجمع النوراني مؤلَّفًا من ثلاثة عشر عضوًا -بني إسرائيل يتألفون من ثلاث عشرة قبيلة- ويشكل هؤلاء اللجنة التنفيذية لمجلس الثلاثة والثلاثين -نسبة إلى الرتبة ٣٣، وهي من أعلى الرتب التي يمكن أن يصل إليها النوران.

وكان النورانيون يجبرون كلَّ عضو جديد ينضمُّ إلى صفوفهم على أن يحلف أيمانًا مغلظة بخضوع المطلق الشامل لرئيس مجلس الثلاثة والثلاثين والاعتراف بمشيئته مشيئة عليا لا تفوقها أية مشيئة أخرى على الأرض كائنة من كانت.

وفي عام ١٧٧٣ دعا ماير روتشيلد، اثني عشر رجلًا من كبار الأغنياء والمتنفذين لملاقاته في فرانكفورت، وكان الهدف من وراء هذا الاجتماع هو إقناع هؤلاء بضرورة تنسيق الأمور فيما بينهم وتجميع ثرواتهم وتأسيس مجموعة واحدة تمكنهم من تمويل الحركة الثوريَّة العالميَّة فيستخدمونها للوصول إلى الهدف الأسمى عندهم، ألَّا وهو السيطرة على الثورات والموارد الطبيعيَّة واليد العاملة في العالم بأجمعه: ولقد انتهى هذا الاجتماع بإقناع أغلبية المجتمعين بفكرة ماير بعد ذلك أمد ماير رجلًا يدعى آدم وايزهاويت النصراني الألماني بالمال ليضع مخططًا على أسس حديثة يستهدف تحقيق أهداف المجتمع النوراني وتطوير محافله.

فقام هذا بمهمته خير قيام إذ نظم سنة ١٧٧٦ جماعة يبلغ عددهم نحو ألفي شخص، في محافل سماها محافل النورانيين، واختار وايزهاويت أنصاره من علية القوم، زاعمًا أنَّ الهدف من ذلك هو إنشاء حكومة عالميَّة واحدة من ذوي القدرات والكفاءة والذكاء، لتحكم العالم حكمًا خيرًا رشيدًا، ووضع حد للحروب والعصبية والويلات.

ولكن الهدف من ذلك كان درس التسلل إلى قلب الماسونيَّة الأوربيَّة والإفادة من تغلغلها وسريتها في التمهيد لكنيس الشيطان للسيطرة على العالم.

استطاعوا خداع ألفي رجل من كبار الساسة والمفكرين وأسسوا بهم المحفل الرئيسي المسمَّى بمحفل الشرق الأوسط، وفيه تم إخضاع هؤلاء الساسة لخدمة الماسونيَّة.

لقد قرر النورانيون محفل الشرق الأكبر في مدينه انغولدشتان بألمانيا، مركزًا لانطلاق حملة تغلغل المنظمة في قلب الماسونيَّة الأوربيَّة في كل مكان.

في هذا الوقت، كان وايزهاويت قد وضع مخططه الذي كان يستدعي تدمير جميع الحكومات والأديان الموجودة، وذلك عن طريق خلق معسكرات متناحرة ومتصارعة في المجتمعات غير اليهوديَّة التي يسمّونها الجوييم (لفظة يطلقها اليهود على جميع البشر من الأديان الأخرى) وإبقائها في حالة حرب حتى تضعف جميعها وتكفر بكلِّ القوانين والأديان، فيصبح من السهل على هؤلاء الشياطين أن يسيطروا على تلك الشعوب المنهكة ويسيروها كيفما شاءوا.

وكانت خطة وايزهاويت تقتضي اتباع الخطوات الآتية:

١- استعمال الرشوة بالمال والجنس للوصول إلى السيطرة على الأشخاص الذين يشغلون المراكز الحساسة في جميع الحكومات وفي مختلف مجالات النشاط الإنسانيِّ.

٢- حث النورانيين على العمل كأساتذة في الجامعات والمعاهد العلميَّة ليتسنى لهم اصطياد الطلاب النابغين والمتفوقين من الأسر العريقة فيغررونهم بأنفسهم بحكم تفوُّقهم ويعطونهم

الشهادات والرتب والألقاب والمنح، ثم يقنعونهم بفكرتهم ويضمونهم إلى المحافل النورانيَّة.

٣- تدريب الشخصيات ذات النفوذ والطلاب المتفوقين الذين تم اصطيادهم، ومساعدتهم بكلِّ الوسائل على تولي أخطر المراكز الحساسة لدى جميع الحكومات، بحيث يكون في إمكانهم توجيه سياسة تلك الحكومات بشكل يخدم على المدى البعيد؛ مخططات المجمع النوراني في القضاء على جميع الأديان والحكومات.

وهكذا، وعلى هذا الأساس، بدأت النورانيَّة بتطبيق مخططاتها وترجمتها عمليًا على الأرض، عاملة على جبهتين: الجبهة الأولى وهي جبهة الشعب، وتطبق فيها خطة وايزهاوبت الآنفة الذكر، والجبهة الثانية وهي جبهة الحركة الماسونيَّة بالأجهزة النورانيَّة، وذلك سنه ١٧٨٢ وهكذا تمكنت النورانيَّة اليهوديَّة بإشراف موسى مندلسوهي، من النفاذ إلى قلب الماسونيَّة الأوربيَّة الحرّة على يد آدم وايزهاويت، تحت ستار محفل الشرق الأكبر.

أمَّا بالنسبة للجبهة الأولى، ولما كانت فرنسا وإنجلترا أعظم قوتين في العالم في تلك الفترة، أصدر وايزهاوبت أوامره بإثارة الحروب الاستعماريَّة من أجل إنهاك بريطانيا وإمبراطوريتها، والعمل على تنظيم ثورة كبرى، يتم التخطيط لها، من أجل إنهاك فرنسا.

ولكن في سنة ١٧٨٤ ولسوء حظ وايزهاوبت، وقعت مخططاتها التي وضعت على شكل وثيقة في أيدي رجال أمن تابعين لحكومة بافاريا، وذلك في منطقة راتسبون في طريقها من فرانكفورت إلى عملاء وايزهاوبت في باريس، الذين أوفدهم إلى فرنسا لتدبير الثورة فيها.

وعلى أثر اكتشافها تلك الوثيقة، أمرت حكومة بافاريا بإغلاق محفل الشرق الأكبر عام ١٧٨٥ واعتبرت جماعة النورانيين خارجين عن القانون.

ومنذ ذلك الوقت، انتقل نشاط النورانيَّة إلى الخفاء؛ وأصدر وايزهاوبت تعاليمه إلى أتباعه بالهجرة إلى سويسرا وفرنسا والعمل مع رفاقهم في الماسونيَّة الحرَّة من أجل نجاح مخططه من هناك.

وبالتقاء ماسونيَّة الشرق الأكبر النورانيَّة مع الماسونيَّة الغربيَّة الحرَّة، جرت منذ ذلك التاريخ وحتى يومنا هذا، الأحداث الكبرى في أوربا وأمريكا بصورة خاصَّة وفي العالم كلِّه بصورة عامَّة وبشكلها الذي جرت وتجري فيه.

فلم يأتِ عام ١٧٨٩ حتى اندلعت الثورة في فرنسا وسقط الملك، وسقطت الملكة ودفعا رأسيهما ثمن تجاهلهما لتحذيرات الحكومة البافارية.

وكما حذرت حكومة بافاريا حكومات فرنسا وإنجلترا وروسيا من خطر هؤلاء، فلقد حذَّر منهم حتى بعض الماسونيِّين الذين كانوا من رؤساء الماسونيَّة الحرّة والذين أحسوا بخطر هؤلاء على حركتهم بشكل خاصٍّ وعلى العالم بشكل عام، تجرءوا، وبدافع غيرتهم على بلادهم وشعبهم، على البوح بأسرار هؤلاء ومخططاتهم ولطالما حذروا منهم؛ ففي عام ١٧٨٩، عام انفجار الثورة في فرنسا، حذَّر جون روبسون الزعماء الماسونيِّين من تغلغل جماعة النورانيِّين في محافلهم ولكن تحذيره

هنا لم يسمع.

وفي عام ١٧٩٨ عمد روبسون إلى نشر كتاب أسماه (البرهان على وجود مؤامرة لتدمير كافَّة الحكومات والأديان)

ولكن هذا التحذير تجوهل كما تجوهلت التحذيرات التي سبقته، وفي التاسع عشر من تموز ١٧٩٨، أدلى دافيد باين، رئيس جامعة هارفارد، بنفس التحذير إلى المتخرجين في أمريكا.

وفي عام ١٨٢٦ حذَّر الكابتن وليام مورغان (أحد رؤساء ومنظمي الماسونيَّة الحرة في أمريكا) بقية رفاقه الماسونيِّين والرأي العام وأعلمهم وشرح لهم الحقيقة فيما يتعلق بالنورانيِّين ومخططاتهم السريَّة وهدفهم النهائي، ولكن النورانيِّين استطاعوا أن يتخلَّصوا منه عن طريق أحد عملائهم وهو الانجليزي ريتشارد هوارد، الذي تمكَّن من اغتيال مورغان على مقربة من وادي نياغارا على الحدود الكنديَّة وعلى الرغم من أنَّ هذا الحادث أدَّى آنذاك إلى استياء وغضب ما يقرب من ٤٠% من الماسونيِّين في شمالي أمريكا وهجرهم للماسونيَّة، فلقد تمكَّن هؤلاء القائمون على تلك المؤامرة وبحكم نفوذهم، من طمس تلك الأحداث، والتشويش على كلِّ التحذيرات التي كانت تصدر بين الحين والآخر وحذف حوادث بارزة كثيرة من مناهج التدريس التي تدرس في المدارس الأمريكيَّة وغيرها.

الماسونيَّة في الدولة العثمانيَّة

تأسس أول محفل ماسوني في الدولة العثمانيَّة عام ١٨٦١م تحت اسم «الشورى العثمانيَّة العالية» ولكنَّه لم يستمر طويلًا، فالظاهر أنَّه قوبل برد فعل غاضب مما أدَّى إلى إغلاقه بعد فترة قصيرة من تأسيسه.

ومن المعروف أنَّ أول سلطان عثماني ماسوني كان السلطان مراد الخامس الشقيق الأكبر للسلطان عبد الحميد الثاني والذي لم يدم حكمه سوى ثلاثة أشهر تقريبًا عندما أقصي عن العرش لإصابته بالجنون.

وقد انتسب إلى الماسونيَّة عندما كان وليًّا للعهد وارتبط بالمحفل الإسكتلنديِّ، كما كان صديقًا حميمًا لولي العهد الإنجليزي الأمير إدوارد «ملك إنجلترا فيما بعد» الذي كان ماسونيًّا مثله، حتى ظنَّ بعض المؤرِّخين أنَّ ولي عهد إنجلترا هو الذي أدخله في الماسونيَّة، ولكن هذا غير صحيح لأنَّه كان ماسونيًّا قبل تعرفه إلى الأمير «إدوارد».

وكان من النتائج الخطيرة لتواجد المحافل الماسونيَّة الأجنبيَّة داخل حدود الدولة العثمانيَّة احتضان هذه المحافل حركة «الاتحاد والترقي» وهي في مرحلة المعارضة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، وأصبحت المحافل الماسونيَّة محل عقد اجتماعات أعضاء جمعيَّة الاتحاد والترقي بعيدًا عن عين شرطة الدولة وعيونها لكونها تحت رعاية الدول الأجنبيَّة ولا يمكن تفتيشها.

ويعترف أحد المحافل الماسونيَّة التركية الحالية وهو محفل «الماسنيون الأحرار والمقبولون» في

صفحة «الإنترنت» التي فتحوها تحت رموز: بأنَّه: «من المعلوم وجود علاقات حميمة بين أعضاء جمعيَّة الاتحاد والترقي وبين أعضاء المحافل الماسونيَّة في تراقيا الغربيَّة، بدليل أنَّ الذين أجبروا السلطان عبد الحميد الثاني على قبول إعلان المشروطيَّة كان معظمهم من الماسونيِّين».

يقول المؤرخ الأمريكي الدكتور «أرنست أ. رامزور» في كتابه «تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨م» وهو يشرح سرعة انتشار حركة جمعيَّة الاتحاد والترقي في مدينة سلانيك: «لم يمضِ وقت طويل على المتآمرين في سلانيك وهي مركز النشاط حتى اكتشفوا فائدة منظمة أخرى وهي الماسونيَّة، ولما كان يصعب على عبد الحميد أن يعمل هنا بنفس الحرِّيَّة التي كان يتمتع بها في الأجزاء الأخرى من الإمبراطوريَّة فإنَّ المحافل الماسونيَّة القديمة في تلك المدينة استمرت تعمل دون انقطاع -بطريقة سرية طبعًا- وضمت إلى عضويتها عددًا ممن كانوا يرحبون بخلع عبد الحميد.

ثم يقول «ويؤكد لنا دارسٌ آخر أنَّه في حوالي سنة ١٩٠٠ قرر «المشرق الأعظم» الفرنسي -أي المحفل الماسوني الفرنسي- إزاحة السلطان عبد الحميد وبدأ يجتذب لهذا الغرض حركة تركيا الفتاة منذ بداية تكوينها.

ثم إنَّ محلِّلًا آخر يلاحظ: يمكن القول بكلِّ تأكيد إنَّ الثورة التركية (أي حركة جمعيَّة الاتحاد والترقي) كلُّها تقريبًا من عمل مؤامرة يهودية ماسونية».

ويقول «سيتون واطسون» في كتابه «نشأة القوميَّة في بلاد البلقان»: إن أعضاء تركيا الفتاة -الذين كان غرب أوربا على اتصال دائم معهم- كانوا رجالًا منقطعين وبعيدين عن الحياة التركيَّة وطراز تفكيرها لكونهم قضوا ردحًا طويلًا من الزمن في المنفى، وكانوا متأثرين وبشكلٍ سطحيٍّ بالحضارة الغربيَّة وبالنظريات غير المتوازنة للثورة الفرنسيَّة. كان كثير منهم أشخاصًا مشبوهين، ولكنَّهم كانوا دون أي استثناء رجال مؤامرات لا رجال دولة، ومدفوعين بدافع الكراهيَّة والحقد الشخصي لا بدافع الوطنيَّة. والثورة التي أنجزوها كانت نتاج عمل مدينة واحدة وهي مدينة سلانيك إذ نمت وترعرعت فيها وتحت حماية المحافل الماسونيَّة «جمعيَّة الاتحاد والترقي» وهي المنظمة السرِّيَّة التي بدلت نظام حكم عبد الحميد.

وكما كان عهد الاتحاديين هو العهد الذهبي بالنسبة لليهود الراغبين في الهجرة إلى فلسطين كذلك كان العهد الذهبي في فتح المحافل الماسونيَّة في طول البلاد وعرضها في الدولة العثمانيَّة.

يقول فخر البارودي في مذكراته واصفًا وضع دمشق بعد وصول الاتحاد والترقي إلى الحكم: وقد ساعد الاتحاديين على نشر دعايتهم اللوج -أي المحفل- الماسوني الذي كان مغلقًا قبل الدستور. ثم يقول: وبعد الانقلاب فتح المحفل أبوابه، وجمع الأعضاء شملهم وأسسوا محفلًا جديدًا أسموه محفل «نور دمشق» وربطوه بالمحفل الإسكتلندي.

ولكي نعرف مكانة المحافل الماسونيَّة لدى أعضاء جمعيَّة الاتحاد والترقي نسوق هنا اعتراف أحد أعضائهم: كان هناك نوعان من الأعضاء في الجمعيَّة: أحدهما مرتبط بالمحفل الماسوني وهذا كنا

نطلق عليه اسم الأخ من الأب والأم، وآخر غير مرتبط بالمحفل الماسوني، فكنا نطلق عليه اسم الأخ من الأب فقط.

وفي كتاب نشره الماسونيون في تركيا تحت عنوان «الماسونيَّة في تركيا وفي العالم» يتحدث عن دور محافل الماسونيَّة في إنجاح حركة الاتحاديين: وقد انتشرت الماسونيَّة بشكل خاص في سلانيك وحواليها. ومع أن عبد الحميد حاول أن يحد ويشل الحركة الماسونيَّة هناك، إلا أنَّه لم يوفق في مسعاه، وقد قامت هذه المحافل، لا سيَّما محفل «ريزورتا» ومحفل «فاريتاس» بدور كبير في تأسيس وتوسيع حركة جمعيَّة الاتحاد والترقي، كما كان للماسونيين دورهم في «إعلان الحرية» سنة ١٩٠٨م.

فالماسونيَّة هي القوى الرئيسة التي أسقطت السلطان عبد الحميد الثاني من عرشه بعد أن رفض طلب اليهود بمنحهم أرض فلسطين.

والماسونيون الأتراك؛ هم جميعهم دون أي استثناء يدعون الكماليَّة الأتاتوركيَّة، علمًا أن مصطفى كمال أتاتورك قام بإغلاق كافة المحافل الماسونيَّة في تركيا عام ١٩٣٥، ولكن تم إعادة افتتاحها مجددًا في عهد الرئيس المشرف الذي تلاه وهو (عصمت أينينو) بل وحدث أن شرعها قانونيًا في الدولة.

والماسونيُّون يسمون السنوات التي يكونون فيها منغلقين «بعهد النوم الماسوني»، وما نستغربه هو كيف يحب الماسونيون الأتراك أتاتورك مع أنَّه أغلق محافلهم؟ وفيما يبدو أن الإجابة عن هذا السؤال ستبقى سرًا من أسرارهم الدفينة أيضا!.

والماسونيون في تركيا يشهرون سيفهم علنًا ضد الدين والقرآن والأحكام الإسلاميَّة، ويحركون النفوذ السياسي لصالح هذا الهدف.

وكل ما واجه تركيا من كوارث في القرنين الأخيرين من احتلال وضربات عسكريَّة وتغيرات فيها كانت من صنع الماسونيين.

وفي هذا الإطار يبين البروفيسور أحمد يوكسال أوزميرا في مقالته بعنوان «فروس المعبد» أمرًا مهمًا وهو: لقد اتَّضح أن الماسونيَّة هي وراء الحركات الهدامة للأديان والدول، وقد نجحت الماسونيَّة بواسطة جمعيَّة الاتحاد والترقي في تركيا في القضاء على الخلافة الإسلاميَّة.

الماسونيَّة في مصر

الماسونيَّة دخلت مصر مع الحملة الفرنسيَّة، ورفضت الخضوع لأجهزة الدولة، ولكنها اختفت كعادتها أو كادت بعد اغتيال الجنرال الفرنسي كليبر الذي كان من دعاتها ولكنها عادت إلى نشاطها في منتصف القرن التاسع عشر، واتسع نشاطها مع تدفق الأجانب إلى مصر والتمكين لهم من التدخل السياسي والاجتماعي.

وقد استطاعت المحافل الماسونيَّة في مصر أن تجذب إليها عددًا من العلماء والأدباء والسياسيين والفنانين الذين خدعتهم بشعاراتها.

وقد كان من العلماء الكبار أمثال الشيخين محمد عبده وجمال الدين الأفغاني الذين خدعوا بمبادئها في البداية ثم حذروا منها، كما ذكر ذلك كثير من الباحثين.

ولأجل ذلك فقد طالبت الكاتبة الصحفية المصريَّة صافيناز كاظم في مقال منشور: كل المواطنين الشرفاء بالاستقالة من هذه النوادي المشبوهة مشيرة إلى أن الكثيرين من أعضائها لديهم حسن نية لكنهم اغتروا بالواجهات البراقة لهذه النوادي والشعارات الطنانة مثل الحرية والمساواة والإخاء، وكان من بين هؤلاء الرجال الأفاضل العالم الجليل جمال الدين الأفغاني الذي انضمَّ للماسونيَّة ثم خرج منها لاعنًا إياها حينما استشعر غموضها وسمومها ومراميها غير السامية ضد الإسلام ووطنه.

وقد رفضت المنظمات الماسونيَّة الخضوع لتفتيش وزارة الشئون الاجتماعيَّة وكان هذا سببًا في إغلاقها عام ١٩٦٤، ولكنها أعادت نشاطها مرة أخرى تحت مسميات جديدة وهي: الروتاري، الليونز، منظمة شهود يهوه، البابية، والبهائية.

ولم تقنع الماسونيَّة بذلك، بل اندست في بعض الأنشطة الرياضية كاليوجا، كما أن أنشطة هذه المؤسسات في مصر اتجهت إلى النساء، وخاصة إلى زوجات الأعضاء، فابتكرت لهن مؤسسة خاصة أسمتها (أنرويل)، وكان الهدف من ذلك توريط النساء وشغلهن بما انشغل به أزواجهن حتى لا يعترضن على هذا النشاط[١].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٥١٠، ٥١١)، الماسونية في أثوابها المعاصرة ص(٤١)، الماسونيَّة، مازن عبد الله.

الفصل الثالث

معتقدات وافكار الماسونيين

١- يكفرون بالله ورسله وكتبه وبكل الغيبيات ويعتبرون ذلك خزعبلات وخرافات.

في سنة ١٨٦٥ انعقد مؤتمر الطلاب للماسونيَّة في مدينة ليبزج الألمانيَّة التي تعتبر إحدى المراكز ماسونيَّة في العالم، وفي هذا المؤتمر ألقى الماسوني لاف ارج خطابًا موجهًا إلى الطلاب الوافدين من مانيا وأسبانيا وروسيا وانجلترا وفرنسا قائلًا: يجب على الإنسان أن يتغلب على الإله، وأن يعلن لحرب عليه، وأن يخرق السموات ويمزقها كالأوراق، إنَّ الإلحاد من عناوين المفاخر، فليعش ولئك الأبطال الذين يناضلون في الصفوف الأولى، وهم منهمكون في إصلاح الدنيا، نحن - لماسونيين- أعداء للأديان وعلينا ألا ندخر جهدًا في القضاء على مظاهرها، سنعلنها حربًا شعواء على العدوِّ الحقيقي للبشريَّة الذي هو الدين، وسننتصر على العقائد الباطلة وعلى أنصارها، ولكننا تتخذ الإنسانيَّة غاية لنا من دون الله.

وفي عام ١٨٦٦م جاء في جريدة الماسون: يجب على الماسون أن يقيموا أنفسهم فوق كلِّ اعتقاد بالله أيًا كان.

٢- يعملون على تقويض الأديان.

جاء في مضابط مؤتمر بلجراد الماسوني سنة ١٩١١م : يجب ألا ننسى بأننا -نحن الماسونين- أعداء للأديان وعلينا ألَّا نألو جهدًا في القضاء على مظاهرها.

وهذا هو زعيم الماسونيَّة الفرنسيَّة، يقول في النشرة الرسميَّة: إنا نحن الماسون لا يمكننا أن نكف عن الحرب بيننا وبين الأديان؛ لأنَّه لا مناص من ظفرها أو ظفرنا، ولا بدَّ من موتها أو موتنا، ولن نرتاح إلا بعد إقفال جميع المعابد.

وقالت صحيفة آرجوه إسرائيليه بتاريخ (١٢ مارس ١٩٠٨م): عرف اليهود جيدًا بأنَّ الماسونيَّة أحسن وسيلة لإمحاء الدين، الماسونيَّة التي تحقِّر وتزيِّف الأديان وعقائد الشعوب الأخرى تفتح الطريق لنشر اليهوديَّة وتعاليمها.

وقد نصَّت مضابط المحفل الماسونيِّ الأكبر عام (١٨٩٧ م) (ص ٥٤): لا يقبل المتدينون في المحافل الماسونيَّة لأنَّ الذي ينخرط في المحافل يجب أن يكون حرًّا والماسوني الحقيقي لا يكون متدينًا وعلى الماسونيَّة أن تتفق مع كل أولئك الذين لا يدعون إلى الدين أمثال الاشتراكيِّين والديمقراطيِّين ودعاة حقوق الإنسان والجمعيَّات المتحررة وعليها أن تشترك في المجالات الأخرى للعمل كالجامعات الشعبيَّة والمدارس السياسية والمؤسسات الأخرى.

ونشرت المشرق الأعظم عام (١٩٠٣ م) (ص ٣٠٠) وجاء فيه أيضًا: على الأخوان أن ينفذوا

في صفوف الجمعيَّات الدينيَّة وغيرها، بل عليهم إن احتاج الأمر أن يقوموا بتأسيس تلك الجمعيَّات على ألَّا تشم منها أي رائحة حقيقيَّة للدين. عليكم أن تلموا شمل قطيعكم أينما كنتم حتى في المعابد الصغيرة وعليكم أن تولوا أمورها السذج من رجال الدين ولتطعموا -خفيَّة- ذوي القلوب الكبيرة من الرجال بقطرات من سمومكم. وبغية التفرقة بين الفرد وأسرته عليكم أن تنزعوا الأخلاق من أسسها لأنَّ النفوس تميل إلى قطع روابط الأسرة والاقتراب من الأمور المحرمة فعليكم أن تنتزعوا أمثال هؤلاء من بين أطفالهم وزوجاتهم وتقذفوا بهم إلى لذائذ الحياة البهيميَّة.

٣- العمل على إسقاط الحكومات الشرعيَّة وإلغاء أنظمة الحكم الوطنيَّة في البلاد المختلفة والسيطرة عليها، وعلى العالم.

جاء في قرار المؤتمر الماسوني المنعقد عام (١٩٠٠ م) في باريس: أن غاية المؤتمر الماسونيَّة تأسيس جمهوريات علمانيَّة (تتخذ الوصوليَّة والنفعيَّة) أساسًا للاتحاد الماسوني.

وجاء في مؤتمر المشرق الأعظم الفرنسي سنة ١٩٢٣م: الماسونيَّة هي الجمعيَّة التي تعمل في الخفاء للاستيلاء على العالم عن طريق بث أفكارها وإن غايتنا هي تطعيم أكبر مجموعة من الكتل البشرية بأفكارنا وأن تقبل أفكارنا يكون مبعثًا لارتياحنا.

وفي البيان الماسوني المؤرخ سنة ١٧٤٤م: إن غاية الماسونيَّة -كما أوضحها قبل نصف قرن- هي تأسيس جمهوريَّة ديمقراطيَّة عالميَّة وهي بذلك تتخذ الوصوليَّة والنفعيَّة أساسًا للاتحاد الماسوني.

والماسونيَّة لها تدخل في سياسات الأمم، وذلك ما يظهر في تصريحات الماسونيين الكبار، حيث يقول بلات: نعم إنَّه لأمر ثابت ومقرر بأنَّ الماسونيَّة مشروع سياسي وإنما هذا فخرها.

وقال غونار: إننا في محافلنا نسعى بأعمال السياسة وسياستنا هي نعم السياسة فإن الأبحاث السياسيَّة والاجتماعيَّة غايتنا الخاصة التي نجاهر بها علنًا.

وقال محرر مجلة الماسون المعروفة بالجمهوريَّة الماسونيَّة: إنَّه من الواجب اللازم أن تكون الماسونيَّة زعيمة كلِّ الأحزاب السياسيَّة فتقودها ولا تنقاد لأوامرها.

وقد جاء في قرار المؤتمر الدولي المنعقد في (بروكسل) ص ١٢٤: يجب ألَّا يغرب عن الأذهان أنَّ الماسونيَّة هي التي دبَّرت الثورة الفرنسيَّة في محافلها لأجل تحقيق أغراضها.

وجاء في محفل الكرسي الأكبر سنة (١٩٢٢ م) (ص ٢٨١): أنَّ الماسونيَّة التي لعبت أهمَّ الأدوار في إشعال الثورة الفرنسيَّة يجب أن تكون على أهبَّة الاستعداد للقيام بأيَّة ثورة منتظرة في المستقبل.

وهي كما قال بعض المؤرخين: آلة صيد بيد اليهوديَّة يصرعون بها الساسة ويخدعون عن طريقها الأمم والشعوب الجاهلة.

نعم إنَّ الماسونيَّة تنظيمٌ سياسيٌّ ولو تتبعنا الأمور التي جرت في أوربَّا على مدى القرون الثلاثة

لأخيرة لوجدنا الماسونيَّة من وراء كلِّ ذلك بالتخطيط والتنفيذ.

والماسونيَّة وراء عدد من الويلات التي أصابت الأمَّة الإسلاميَّة، ووراء جل الثورات التي وقعت في العالم: فكانوا وراء إلغاء الخلافة الإسلاميَّة، وعزل السلطان عبد الحميد، كما كانوا وراء الثورة الفرنسيَّة والبلشفيَّة والبريطانيَّة.

فالماسونيَّة هي التي قوضت أركان الخلافة الإسلاميَّة وهي التي أوصلت كمال أتاتورك الماسوني الملحد إلى حكم تركيا والماسونيَّة هي التي أقامت العديد من الثورات الأوربيَّة البلشفيَّة في روسيا وغير ذلك من الأحداث السياسيَّة المؤثرة في تاريخ العالم كلِّه.

٤- إباحة الجنس واستعمال المرأة كوسيلة للسيطرة.

يقول الماسوني أرنولد ليس في نشرة ماسونيَّة صادرة في لندن سنة ١٩٣٥: إنَّ أمنيتنا هي تنظيم جماعة من الناس يكونون أحرارًا جنسيًّا، نريد أن نخلق الناس الذين لا يخجلون من أعضائهم التناسليَّة!!

وقالت دائرة المعارف اليهوديَّة: إنَّ تعاليم الماسونيَّة محوطة بالسرِّيَّة الدائمة وهي تنصُّ في صلبها على تقديس الجنس والحرِّيَّة التامَّة لنشر الإباحيَّة، وآمال الماسونيين أمام هذا الجانب الأخلاقي من حياة الناس، وهو تنظيم جماعة من الناس يرونهم أحرارًا لا يخجلون من أعضائهم التناسليَّة حين يجتمعون في نوادي العراة ويلتقون على شواطئ المصايف[1].

٥- العمل على تقسيم غير اليهود إلى أمم متنابذة تتصارع بشكل دائم.

٦- تسليح هذه الأطراف وتدبير حوادث لتشابكها.

٧- بث سموم النزاع داخل البلد الواحد وإحياء روح الأقليات الطائفيَّة العنصريَّة.

٨- تهديم المبادئ الأخلاقيَّة والفكريَّة والدينيَّة، ونشر الفوضى والانحلال والإرهاب والإلحاد.

٩- استعمال الرشوة بالمال والجنس مع الجميع وخاصَّة مع ذوي المناصب الحساسة لضمهم لخدمة الماسونيَّة، والغاية عندهم تبرر الوسيلة.

١٠- إحاطة الشخص الذي يقع في حبائلهم بالشباك من كلِّ جانب، لإحكام السيطرة عليه وتسييره كما يريدون ولينفذ صاغرًا كلَّ أوامرهم.

١١- الشخص الذي يلبِّي رغبتهم في الانضمام إليهم يشترطون عليه التجرُّد من كلِّ رابطٍ دينيٍّ أو أخلاقيٍّ أو وطنيٍّ، وأن يجعل ولاءه خالصًا للماسونيَّة.

وقد جاء في بعض الإحصائيات أنَّ ٥٩ مليون ماسونيٍّ في العالم يرفضون العقائد والأديان ويرفضون الانتماء للأوطان.

---

(١) دائرة المعارف اليهودية (٥/ ٥٠٣).

ومن أقوالهم: إننا إذا سمحنا لمسلم أو نصرانيٍّ بالدخول في أحد هياكلنا فإنَّما ذلك قائم على شرط أنَّ الداخل يتجرَّد من أضاليله ويجحد خرافاته وأوهامه التي خدع بها في شبابه.

١٢- إذا تململ الشخص أو عارض في شيءٍ تُدبَّرُ له فضيحة كبرى وقد يكون مصيره القتل.

ويعلق «ج. رنييه» في كتاب «حياة روبسير» لما شنَّ «روبسير» هجومًا عنيفًا على الماسونيَّة قال: لقد تلفظ «روبسير» في الواقع بأكثر مما يجب، ولذا فقد تعرض لطلقة ناريَّة مزقت فكه، وأخرسته بصورة عمليَّة حتى اليوم التالي الذي سيق فيه إلى «المقصلة»، وهكذا تم القضاء على ماسونيٍّ منهم أتيح له أن يعرف أكثر مما يجب.

صاحب كتاب «فضائح الماسونيَّة» الأستاذ محمد علي الزغبي، كان قد تدرج في أسلاك الماسونيَّة في لبنان وسوريَّة على مدى أكثر من ١٥ سنة قبل أن يعرف أهدافها الخبيثة، وعندما اكتشف أهدافها الشيطانيَّة انسحب منها وألف كتابه هذا الموجود إلى اليوم في المكتبات العربيَّة، وقال أحد تلامذته: لقد مات شهيدًا في لبنان بسبب تأليفه لهذا الكتاب.

١٣- كل شخص استفادوا منه ولم تعد لهم به حاجة يعملون على التخلص منه بأيَّة وسيلة ممكنة.

١٤- العمل على السيطرة على رؤساء الدول لضمان تنفيذ أهدافهم التدميريَّة.

تختار الماسونيَّة أعضاءها من الشخصيَّات المرموقة في المجتمعات عن طريق محافلها المنتشرة في أنحاء العالم، فغالبيَّة رؤساء الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة ومجلس الشيوخ بدءًا من جورج واشنطن هم من الماسونيِّين.

وقد استطاعت اختراق معظم النظم السياسيَّة في العالم، وضم عدد كبير من الملوك ورؤساء الجمهوريات إليها على امتداد القرون الثلاثة الماضية، وتنتشر بوجهٍ خاصٍّ في أمريكا وانجلترا.

وقد صرح السياسيُّ الإنجليزيُّ المشهور (بنيامين) سنة (١٨٤٤ م) قائلًا: إن الذين يديرون دفَّة السياسة في العالم ليسوا الذين هم في دست الحكم ظاهرًا وإنَّما هم الذين يكمنون وراء الكواليس.

وصرح نابليون الثالث ملك فرنسا عام (١٨٥٩ م) بقوله: يجب ألَّا نخدع أنفسنا، أن الدنيا تدار من قبل المنظمات السرِّيَّة.

وجاء في قرار مؤتمر محافل الماسونيَّة عام (١٨٨٤ م) يجب على الماسونيِّين الذين بيدهم زمام الأمور أن يأتوا بالماسونيِّين إلى سدة الحكم وأن يقربوهم من كراسيه وأن يكثروا من عددهم فيه، وفي وسع الماسونيِّ أن يكون مواطنًا أو نائبًا أو رئيسًا بشرط أن يكون ماسونيًّا وعليه أن يستلهم الأفكار الماسونيَّة، ومهما علت مكانته الاجتماعيَّة فإنَّه يستوحي مذهبه من المحفل الماسونيِّ لا من مكانته.

١٥- السيطرة على الشخصيات البارزة في مختلف الاختصاصات لتكون أعمالهم متكاملة.

الماسونيَّة هي منظمة تحرص على اختيار المتسبين إليها من ذوي المكانة الماليَّة أو السياسيَّة والاجتماعيَّة أو العلميَّة، أو أيَّة مكانة يمكن أن تستغل نفوذًا لأصحابها في مجتمعاتهم، فيما لا يهمُّها انتساب من ليس لهم مكانة يمكن استغلالها كالفقراء والمزارعين؛ ولذلك تحرص كلَّ الحرص على ضمِّ الملوك والرؤساء وكبار موظفي الدولة ونحوهم لمنحهم العضويَّة الماسونيَّة.

ففي أرشيف إحدى الصحف أنَّ رجلين تركيَّينِ أحدهما يعمل موظَّفًا في القطار تقدما رسميًّا في عام ١٩٣٠ إلى القنوات التركيَّة الرسميَّة بطلب للانتساب إلى الماسونيَّة؛ فجاء الرد الرسمي على طلبهما بعد دراسته كما يلي: مهما كنتما من المواطنين الذين هم أهلًا للثقة والأمانة إلا أنَّكما لا تحملان المميزات الرفيعة التي تؤهلكما للحصول على العضويَّة الماسونيَّة.

١٦- السيطرة على أجهزة الدعاية والصحافة والنشر والإعلام واستخدامها كسلاح فتَّاك شديد الفاعليَّة.

١٧- بثّ الأخبار المختلفة والأباطيل والدسائس الكاذبة حتى تصبح كأنَّها حقائق لتحويل عقول الجماهير وطمس الحقائق أمامهم.

١٨- دعوة الشباب والشابات إلى الانغماس في الرذيلة، وتوفير أسبابها لهم، وإباحة الاتصال بالمحارم، وتوهين العلاقات الزوجيَّة، وتحطيم الرباط الأسري.

وقد جاء في تعاليم الماسونيَّة ما نصه: إنَّ السيطرة على الشبيبة من أولى الغايات دعوا الكهول والشيوخ وتفرغوا للشباب بل حتى للأطفال.

١٩- الدعوة إلى العقم الاختياريِّ وتحديد النسل لدى المسلمين.

٢٠- السيطرة على المنظمات الدوليَّة بترؤسها من قبل أحد الماسونيِّين كمنظمة الأمم المتَّحدة للتربية والعلوم والثقافة ومنظَّمات الأرصاد الدوليَّة، ومنظَّمات الطلبة والشباب والشابات في العالم.

إنَّ الجمعيَّات الرياضيَّة والفرق الموسيقيَّة وغيرها من المؤسسات التي تربِّي البيئة الناشئة عقليًّا وجسميًّا هي المرتع الخصب لنمو الماسونيَّة فيها، ويمكن إضافة المكتبات والدورات وغيرها إلى ذلك، وقد أضافوها.

٢١- يحمل كلُّ ماسونيٍّ في العالم فرجارًا صغيرًا وزاوية لأنَّهما شعار الماسونيَّة منذ أن كانا الأداتين الأساسيتين اللتين بنى بهما سليمان الهيكل المقدس بالقدس.

٢٢- يردد الماسونيُّون كثيرًا كلمة «المهندس الأعظم للكون» ويفهمها البعض على أنَّهم يشيرون بها إلى الله سبحانه وتعالى، والحقيقة أنَّهم يعنون «حيراما» إذ هو مهندس الهيكل وهذا هو الكون في نظرهم.

٢٣- الماسونيَّة منظَّمة عالميَّة سرِّيَّة تُخْفِي تنظيمها تارةً وتعلنه تارة؛ بحسب ظروف الزمان

والمكان، ولكن مبادئها الحقيقيَّة التي تقوم عليها هي «السّرِّيَّة» في جميع الأحوال.

فقد ورد في مواد الدستور الماسوني: يجب على الموقرين والخطباء ألَّا يدعوا فرصةً تمرُّ دون أن ينبهوا الماسوني إلى عدم إفشاء السّرِّ مهما كان السبب أو أن يكتب شيئًا يتعلَّق بالمجلس دون أن يرخَّص له بذلك.

وفي الفترة الأخيرة أذاع الماسونيُّون في بريطانيا أنَّهم سيتخلون عن غموضهم، ولكن ليس كلّ الأسرار الماسونيَّة، فقد قالت صحيفة تايمز في اليوم الاثنين ٢٨/ ١/ ٢٠٠٢: إنَّه سينظم أسبوعًا في أواخر يونيو المقبل يشمل زيارات عامة للمحافل الماسونيَّة.

وسيبدأ الماسونيُّون المشهورون بتأثيرهم على المجتمع البريطاني من وراء الستار أعمالًا خيريَّة في شوارع لندن وهم يرتدون قمصانًا طبعت عليها عبارة «أنا ماسونيٌّ». كما سيمكنهم قراءة مجلتهم (الماسونيَّة الفصليَّة) التي ستصدر في إبريل المقبل.

ويأتي أسبوع الأحداث الماسونيَّة في إطار مراجعة جذريَّة أجرها زعماء الماسونيَّة، قرروا خلالها التخلِّي عن الغموض الذي يحيط بهم والتركيز على أنشطتهم الخيريَّة.

لكن لن تكشف كل الأسرار. ففي حين ستشجع الحركة نحو ٣٠٠ ألف ماسونيٍّ في بريطانيا على التحدث بصراحة عن دورهم في المجتمع، لن يسمح لهم بالحديث عن طريقة المصافحة أو كلمة السرِّ المطلوبة لدخولهم المراكز الماسونيَّة كما ستظل اجتماعاتهم قاصرة عليهم.

٢٤- الماسونيُّون يتكاتفون ويحمون بعضهم البعض بشكل كبير. وهم يوزعون كراسيهم بين بعضهم بكرم وأخوة. وهم لا يوكلون أي عضوٍ لا يحمل الهوية الماسونيَّة في أي عمل داخل المنظمة مهما علا قدره سياسيًّا واجتماعيًّا بمعنى أن الهويَّة الماسونيَّة تتقدم دوما على الهوية السياسيَّة والاجتماعيَّة.

٢٥- الماسونيُّون يتقاسمون الأموال بينهم، بيد أنَّه لا يمكن أن تجد ماسونيًّا واحدًا فقيرًا بل كلّهم في رخاء ورفاه[1].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٥١١- ٥١٣)، الماسونية في أثوابها المعاصرة ص(٢٩)، هذه هي الماسونية فاقتلعوا جذورها، خضر محمد ص(١٢).

الفصل الرابع

منهج العمل عند الماسونيَّة

للماسونيَّة درجات ثلاث:

١- الماسونيَّة الرمزيَّة

أو العُمْي الصغار، والمقصود بهم المبتدئون من الماسونيِّين، ويدخل فيها أتباع الديانات المختلفة، ويباشرون طقوسًا وحركات لا يفهم مغزاها، ويظلُّ فيها الشخص قانعًا بألفاظ الحريَّة والمساواة والإخاء، سعيدًا بما يناله من عون من الأعضاء الآخرين، ذلك العون الذي كثيرًا ما يدفع العضو إلى مكان الصدارة في عمله، أو يكسب له وظيفة ممتازة أو ثراء عريضًا، مما يجعله يزداد ارتباطًا بالماسونيَّة وحبًّا لأنظمتها.

وفى داخل هذا القسم يوجد ثلاث وثلاثون درجة، يترق فيها العضو درجة بعد درجة بمقدار إخلاصه وكفاءته وإقباله على الماسونيَّة وتعاليمها والدعوة إليها، وينال العضو أسمى الدرجات إذا تم انحرافه التَّامّ عن دينه ووطنه وعقيدته وخلقه القويم وأصبحت الماسونيَّة كل عقيدته.

وهذه الدرجة من أخطر الدرجات وأكثرها انتشارًا فهي تندس في الأوطان على أنَّها جمعيَّات خيريَّة هدفها إسعاد الإنسان بصرف النظر عن دينه أو جنسه أو وطنه وترفع للناس شعارات الحرِّيَّة والإخاء والمساواة، وحقيقة هدف هذا النوع.

أولًا: جمع المعلومات السياسيَّة والاقتصاديَّة عن الدول والتعرف على أحوالها وأفكارها وكل كبيرة وصغيرة حتى ولو كانت تافهة.

ثانيًا: ضمّ المخدوعين بشعارات الخدمة العامة من الوجهاء وأصحاب المراكز المرموقة ثم انتقاء من يصلح منهم لترقيته إلى الدرجات العليا وإعطائه قدرًا أكبر من المعلومات والمسئوليَّات.

ولهذه الدرجة الرمزيَّة محافل منتشرة في أنحاء دول العالم فضلًا عن محافظات الدول ومراكزها الداخليَّة.

وفي هذه الدرجة الرمزيَّة العامة تدعي الماسونيَّة أنَّها تؤمن بكائن أعلى تسميه بالمهندس الأعظم وأحيانًا تقول باحترام الأديان جميعًا واستبعادها من مجال الاعتبار في داخل المحافل بمعنى أن العضو ينسى دينه وعقيدته ويتذكر أنَّه ماسوني وحسب، وفي هذه الدرجة أيضًا قد تظهر موقفًا سلبيًّا فتقول نحن لا نثبت وجود الله ولا ننكره.

٢- الماسونيَّة الملوكيَّة

وأكثر أعضائها من اليهود، ويطلق عليهم الرفقاء ومن مشاهير الرفقاء: الرفيق لينين، والرفيق ستالين، والرفيق تروتسكي، والرفيق بريجنيف، ولا يسمح لغير اليهود بالدخول في تلك المرتبة إلا

لمن باع دينه بدنيا الماسونيَّة والانحراف والكفر والإلحاد.

وهذه لا ينالها إلا من تنكَّر كليًّا لدينه ووطنه وأمَّته وتجرد لليهوديَّة كتشرشل وبلفور.

ولهذه الدرجة هدفٌ محددٌ وهو العمل على إعادة بناء هيكل سليمان وإقامة دولة إسرائيل الكبرى، ولا يدخل إلى هذه الدرجة إلا اليهود أو الذين وصلوا إلى أرق درجات الماسونيَّة الرمزيَّة وهي درجة ٣٣.

ويجب على الماسوني في هذه الدرجة أن يؤمن بإله جديدٍ يسمَّى (يه- بل- أن) (Jah- Bui- On)

وقد فسَّر الكاتب الإسلامي/ مسبهول إسلام فاروقي هذه التركيبة من خلال المحاضر الرمزيَّة الماسونيَّة فقال: إنَّها مركَّبة من ثلاثة ألفاظ يحتفظ كل عنصر منها بخصائصه:

- يهوه (Jahweh) إله اليهود
- بعل (Baal) إله آشور
- أوزوريس (Osotis) إله قدماء المصريين

٣- الماسونيَّة الكونيَّة

وهي قمَّة الطبقات، وكل أفرادها يهود، وهم آحاد، وهم فوق الأباطرة والملوك والرؤساء؛ لأنَّهم يتحكَّمون فيهم، وكل زعماء الصهيونيَّة من الماسونيَّة الكونيَّة كهرتزل، وهم الذين يخططون للعالم لصالح اليهود.

وهذه أرق مراتب الماسونيَّة، ويطلق عليهم اسم (الحكماء) ورئيس هذه المرتبة يطلق عليه (الحكيم الأعظم) وهذا الحكيم هو مصدر السلطات لجميع المحافل الماسونيَّة ولا يعرف أحد أعضاء هذه المرتبة ولا مركز نشاطها ويذكر بعض الباحثين أنَّ لها مركزًا واحدًا وهو نيويورك.

وهدف هذه الدرجة هو تحقيق الحلم اليهودي الأخير وهو حكم العالم كلّه وإخضاع الأمم لملك من جنس بني صهيون.

ويقال إنَّ عدد أعضاء هذا التنظيم ثلاثمائة رجل يعرفون بعضهم حركيًّا وتنظيميًّا وهم يتحركون باستعدادت خاصَّة ومكونات عالية تؤهلهم للعمل في هذه الحكومة السرِّيَّة وعندما يموت واحد منهم أو يسقط يتم تعيين غيره على الفور من الصف الثاني.

وتربط بين هذه المرتبة وباقي المراتب اتصالات سرِّيَّة محدودة جدًّا وغامضة.

كيفيَّة قبول العضو الجديد في الماسونيَّة

تعمل الماسونيَّة على اختيار أعضائها، ولا تسمح للآخرين بالانضمام إليها تبعًا لإراداتهم الشخصيَّة، ويمرُّ العضو بهذه الجمعيَّات بعدة مراحل في جوٍّ مرعب مخيف وغريب، يلتزم فيها بممارسة عدة طقوس شديدة الغرابة.

حيث يقاد إلى الرئيس معصوب العينين، ثم يتعهد بعدم إفشاء أسرار الجماعة وإلَّا فإنَّه يستحقُّ عقوبة قطع رقبته وقطع لسانه من جذوره، وما أن يؤدي يمين حفظ السرِّ ويفتح عينيه حتى يفاجأ بسيوف مسلولة حول عنقه وبين يديه كتاب العهد القديم، ومن حوله غرفة شبه مظلمة فيها جماجم بشريَّة وأدوات هندسيَّة مصنوعة من خشب وكل ذلك لبث المهابة في نفس العضو الجديد.

وسرعان ما يعلم العضو الجديد أنَّ الماسونيَّة نظام أخلاقي غريب يعتمد على المجاز، وتوضحه الرموز، وتستمد هذه الرموز بصفة رئيسيَّة من حرفة بناء الحجارة الفعليَّة، وتلعب دورًا حيويًا في الطقوس والتعاليم الماسونيَّة.

ويشرح زعيم المحفل حين يقدم للعضو الجدد بطريقة طقسيَّة معدات البناء، ويقول: نحن نستخدم هذه المعدات لتشكيل أخلاقنا، وحين ينتهي العضو من هذه المراسم يقال: إنَّ العضو الجديد قد اجتاز المرتبة الأولى ويمكن أن يصل إلى المرتبتين الأخريين خلال عدة أشهر، ويتوقف الكثيرون من الماسونيِّين عند هذه النقطة.

إلَّا أنَّه توجد مراسم أخرى تسمَّى القوس الملكي تسمح للمتحمِّسين بتنويعة كبيرة من المراتب العليا، ويرى الباحثون أنَّها مستمدَّة من مصادر عديدة فرعونيَّة ويهوديَّة وآشوريَّة.

وجاء في مضابط المشرق الأعظم عام (١٨٩٣ م) نصُّه هكذا: إنَّ المشرق الأعظم يرى حفظ الأسرار من أهمِّ واجبات الماسونيَّة ويمنع منعًا باتًّا كلَّ النشرات المتعلِّقة بالأفعال والحركات. . . إنَّ كلَّ شيءٍ عندنا قد يسدل عليه ستار من السرِّ وبقوة الوحدة والكتمان ننتصر في المعارك الفاصلة.

وحقائق الماسونيَّة لا تُكْشَفُ لأتباعها إلا بالتدريج حين يرتقون من مرتبة إلى مرتبة وعدد المراتب ثلاث وثلاثون.

فأفراد الدرجة الرمزيَّة لا يعرفون شيئًا عن أفراد الدرجة الملوكيَّة، وأفراد الملوكيَّة لا يعرفون شيئًا عن الدرجة العليا؛ لأنَّ معظم الاجتماعات التي على المستويات العليا يلبس فيها الأعضاء كمامات تغطِّي الوجه حتى لا يرى أحدهم الآخر.

المحافل والمجمع والمحفل الأعظم والشرق

الوحدة الأساسيَّة في التنظيمات الماسونيَّة هي المحفل أو الورشة، ويحقُّ لكلِّ سبعةِ ماسونيِّين أن يشكِّلوا محفلًا، والمحفل يمكن أن يضمَّ خمسين عضوًا.

وتعقد المحافل اجتماعًا دوريًا كلّ خمسة عشر يومًا يحضره المتدربون والعرفاء والمعلمون، أما ذوو الرتب الأعلى فيجتمعون على حدة في ورش (التجويد).

ويفترض في المشاركين في الاجتماع أن يقبلوا بلباس معين فهم يضعون في أيديهم قفازات بيضاء ويزينون صدورهم بشريط عريض ويربطون على خصورهم مآزر صغيرة وقد يرتدون ثوبًا أسودَ طويلًا أو (سموكينج) أو بزة قاتمة اللون بحسب تقاليد محفلهم وهي تقاليد غاية في التعقيد والتنوع.

وتشكل المحافل اتحادات تدين بالولاء والطاعة لأحد المحافل الكبرى، والأصل في الجمعيَّات الماسونيَّة أنَّها سرِّيَّة بمعنى أنَّ طقوسها وبعض الإشارات الأخرى فيها سرِّيَّة، ومن ينضمُّ إلى الحركة يقسم على ألا يكشفها، ولا تسمح الحركة الماسونيَّة لأي شخص بالانضمام إليها، وإنَّما يتم تجنيد الأعضاء عن طريق توصية أحد الأعضاء العاملين، كما أنَّ المحافل تخفي بعض الطقوس عن الأعضاء الجدد إلى حين التأكد من ولائهم.

أمَّا نصُّ القسم كما أورده الأستاذ محمد علي الزغبي في كتابه (الماسونيَّة منشئة ملك إسرائيل) فهو كالآتي: أقسم بمهندس الكون الأعظم ألَّا أفشي أسرار الماسونيَّة ولا علاماتها وأقوالها ولا تعاليمها وعاداتها، وأن أصونها مكتومة في صدري إلى الأبد . . أقسم بمهندس الكون الأعظم ألَّا أخون عهد الجمعيَّة وأسرارها، لا بالإشارة ولا بالكلام ولا بالحروف، وألا أكتب شيئًا من ذلك ولا أنشره بالطبع أو بالحفر أو بالتصوير، وأرضى -إن حنثت في قسمي- أن تحرق شفتاي بحديد ملتهب، وأن تقطع يداي ويحز عنقي، وتعلق جثتي في محفل ماسونيٍّ ليراها طالب آخر ليتعظ بها، ثم تحرق جثتي ويذر رمادها في الهواء، لئلا يبقى أثر من جنايتي.

والمجمع: هو الوحدة أو الخليَّة التنظيميَّة الأعلى ويتألَّف من مجموعة محافل في منطقة معينة داخل البلد الواحد.

والمحفل الأعظم: هو الوحدة أو الخلية العليا التي تشرف على المجامع والمحافل الفرعيَّة.

والشرق: هو هيئة تشرف على مجموعة محافل ومجامع في عدة بلدان.

وعلى سبيل المثال فإنَّه في مصر كانت هناك عدة محافل منتشرة في المحافظات، ولكنَّ لهذه المحافل مركز قيادة وتوجيه تتبعه وهو المسمى بالمحفل الوطني، والمحفل الوطني مع عدة محافل أخرى من عدة بلدان لهم تبعية لمحفل من المحافل العظمى في بريطانيا وفي تبعية أخطبوطية رهيبة كان محفل الشرق الأعظم البريطاني تابعًا لمحفل أعظم منه في فرنسا ومحفل فرنسا يتبع مركز قيادة أعلى وهكذا دواليك[(١)] .

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٥١٣)، الماسونية في أثوابها المعاصرة ص(٣٠- ٣٢، ٣٩)، الماسونية، محمود عوض.

الفصل الخامس

شعارات ورموز الماسونيَّة

للماسونيَّة عدة شعارات منها:

١- الحرية: وتحارب باسمها الأديان عدا اليهوديَّة.

٢- الإخاء: وتحاول به كسب الودِّ لليهود.

٣- المساواة: وتنشر بها الفوضى السياسيَّة والاقتصاديَّة وتروج للشيوعيَّة.

ويلتزم الماسون دائمًا بالدعوة إلى المساواة والحريَّة والتسامح دون أيَّة ضوابط، الأمر الذي يعني عمليًا تحطيم كلِّ الأديان والمذاهب لصالح الأهداف الماسونيَّة الغامضة.

والواقع أنَّ الماسونيَّة لم تكن تقصد من رفع هذه الشعارات تطبيق حقيقتها وإنَّما كانت تهدف إلى أهداف أخرى منها:

١- تذويب الفوارق والحواجز بين اليهود وغيرهم خصوصًا وأنَّ اليهود كانوا يعيشون معزولين عن الناس لا يسمح لهم بالاختلاط بالمجتمعات وذلك بسبب أخلاقهم الذميمة فرفعوا هذه الشعارات لكي يعطوا أنفسهم فرصة الدخول إلى المجتمعات والتحكم في مقدراتها.

وكان النصارى ينظرون إليهم نظرة الاحتقار بسبب معتقداتهم الفاسدة فحاولوا أن يرفعوا الرابطة الدينيَّة من مجال الشعور ويحلوا محلَّها الرابطة الإنسانيَّة أي أنَّ الإنسان بصرف النظر عن دينه وبذلك كسروا الحاجز النفسي الذي كان موضوعا بينهم وبين الناس.

٢- خداع الناس بإظهار الماسونيَّة على أنَّها مركز خدمة الإنسانيَّة.

٣- محاولة جمع الناس حول هذه الشعارات البراقة لأنَّ من الناس من تستهويه هذه الشعارات فينضمُّ إلى هذه الأوكار ثم يستخدم بعد ذلك في تحقيق الأغراض الحقيقيَّة التي من أجلها أنشئت الماسونيَّة.

ومن الشعارات الأخرى شعار النورانيِّين في فترة المرحلة الثانية للماسونيَّة:

١- الهرم: يرمز إلى المؤامرة الهادفة إلى تحطيم الكنيسة الكاثوليكيَّة (كممثلة للمسيحيَّة العالميَّة) وإقامة حكم ديكتاتوري تتولاه حكومة عالميَّة على نمط الأمم المتَّحدة.

٢- العين: التي في أعلى الهرم ترسل الإشعاعات في جميع الجهات: ترمز إلى وكالة تجسس وإرهاب أسسها وايزهاويت على نمط الغستابو تحت شعار الأخوة لحراسة أسرار المنظَّمة وإجبار الأعضاء على الخضوع لقوانينها.

٣- الكلمتان المحفورتان في أعلى الشعار (Annuit Coeptis) تعنيان: مهمتنا قد تكللت بالنجاح.

٤- الكلمات المحفورة في أعلى الشعار (Novus O r do Seclo r um) معناها : النظام الجديد.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ هذا الشعارَ لم يتبن من قبل الماسونيَّة إلا بعد دمج أنظمتها بالأنظمة النورانيَّة إبَّان مؤتمر فلمسباد سنة ١٧٨٢ م.

وهذا الشعار هو الذي تبنَّاه وايزهاوبت عندما أسس منظمة في أيار ١٧٧٦ وهو نفسه الذي يظهر على أحد وجهي الدولار الأمريكي.

والتاريخ الذي تعنيه الأرقام المحفورة على قاعدته بالحرف الروماني (MOCCLXXVI) تعني ١٧٧٦ تاريخ إعلان إنشاء المنظَّمة وليس تاريخ إعلان وثيقة الاستقلال الأمريكي.

ومن رموز الماسونيَّة:

المثلث، والفرجار، والمسطرة، والمقص، والرافعة، والنجمة السداسيَّة، والأرقام ٣، ٥، ٧ (وهى رموز وطقوس تساعد على اكتشاف النور).

الفصل السادس

الماسونيَّة واليهود

إنَّ الماسونيَّة منظَّمة يهوديَّة من رأسها إلى قدمها، يهوديَّة أمًّا وأبا وروحًا ونشاطًا.

لقد تيقن اليهود أنَّ خير وسيلة لهدم الأديان هي الماسونيَّة فإنَّها هي التي تزيف الأديان وتفتح الباب على مصراعيه لإعلاء اليهوديَّة وانتصارها.

فهي يهوديَّة النشأة، يهوديَّة الغاية والهدف، يهوديَّة الرموز والشعائر.

١- أمَّا النشأة: فعلى الرغم من اختلاف المؤرخين في التاريخ الذي ظهرت فيه، فلم يختلف أحد على أن الذين أنشئوها هم اليهود.

فالذين قالوا بأنَّها ظهرت قبل الميلاد قالوا بأنَّ الذين أنشئوها هم اليهود.

والذين قلوا بأنَّها قد نشأت بعد ميلاد المسيح بسنوات معدودة ردوا نشأتها إلى اليهود أيضًا.

والذين قالوا بأنَّها نشأت في القرن السبع عشر أيضًا لم يردوا نشأتها إلى غير اليهود.

والذين قالوا بأنَّها وليدة القرن التاسع عشر ردوا نشأتها إلى هرتزل زعيم اليهود.

وهكذا اختلف المؤرخون في تاريخ نشأتها، ولكنهم اتفقوا تمامًا على نسبتها إلى اليهود.

ولن ندلل على هذه الحقيقة إلَّا من كلام اليهود والماسون أنفسهم والذين كتبوه في مخططهم السري.

فقد ورد في البروتوكول الخامس عشر: وإلى أن يأتي الوقت الذي نصل فيه إلى السلطة سنحاول أن ننشئ ونضاعف خلايا الماسونيِّين الأحرار في جميع أنحاء العالم، وسنجذب إليها كلَّ من يصير أو من يكون معروفًا بأنَّه ذو روح عامة وهذه الخلايا ستكون الأماكن الرئيسيَّة التي سنحصل منها على ما نريد من أخبار، كما أنَّها ستكون أفضل مراكز للدعاية. إننا كنَّا الشعب الوحيد الذي يوجه المشروعات الماسونيَّة، ونحن الشعب الوحيد الذي يعرف كيف يوجهها، ونحن نعرف الهدف الأخير لكلِّ عملٍ على حين أنَّ الأمميين (غير اليهود) جاهلون بمعظم الأشياء الخاصة بالماسونيَّة، ولا يستطيعون ولو رؤية النتائج العاجلة لماهم فاعلون.

وجاء في البروتوكول الرابع: أن المحفل الماسونيَّ المنتشر في كل أنحاء العالم ليعمل في غفلة كقناع لأغراضنا، ولكن الفائدة التي نحن دائبون على تحقيقها من هذه القوة في خطة عملنا وفي مركز قيادتنا ما تزال علي الدوام غير معروفة للعالم كثيرًا.

والجدير بالذكر أنَّ الذين كتبوا هذه البروتوكولات هم من الصهاينة الماسون الذين وصلوا إلى أرق درجات الماسونيَّة فقد وردت عبارة في نهاية البروتوكولات نصها: وقعه ممثلو صهيون من

الدرجة الثالثة والثلاثين.

قال الحاخام آيزاك ويز: الماسونيَّة يهوديَّة في تاريخها ودرجاتها وتعاليمها وكلمات السرّ فيها وفي إيضاحاتها، يهوديَّة من البداية إلى النهاية.

ومن النشرة اليهوديَّة Laverite Isvaelite: سنة ١٨٦١م: إنَّ روح الماسونيَّة الأوربيَّة هي روح اليهوديَّة في معتقداتها الأساسيَّة، لها نفس المثل واللغة، وهي الأغلب نفس التنظيم، والآمال التي تنير طريق الماسونيَّة وتدعمها، هي الآمال التي تنير طريق إسرائيل وتدعمه، ومكان تتويجها هو (بيت العبادة البديع) حيث تصبح القدس رمزًا وقلبًا منتصرًا.

وهذا رئيس (اليانس أونيفرسال اسرائيلت) وهو من مشاهير ساسة فرنسا والماسونيين ذوي النفوذ القوي (أدولف إسحاق بريمة) يقول في الخطبة التي ألقاها في عام (١٨٦٠ م) في افتتاح (اليانس): الاتحاد الذي نريد خلقه ليس بفرنسيٍّ أو إنجليزي كما أنَّه ليس بسويسريٍّ أو ألمانيٍّ بل إنَّه يهوديٌّ وعالميٌّ. واجبنا عظيم ومقدَّس إذ يجب استيلاء المبدأ اليهودي على العالم فاطمئنوا إنَّ النصر حليفنا مطلقًا، فإنَّ الشبكة التي بثت في العالم من قبل إسرائيل أخذت بالتوسع يومًا فيومًا. فستحقق وعود كتبنا المقدَّسة. فيقتضي أن نستفيد من كل الفرص التي تسنح لنا فلا نخاف من أي شيء حيث إنَّ اليوم التي ستكون فيه جميع ثروات العالم ملكًا لبني إسرائيل ليس ببعيد إذا تعمم تطبيق الاشتراكيَّة.

٢- وأما عن وحدة الهدف والغاية: فمن المعلوم بالبداهة أن هدف اليهود الأساسي هو بناء هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى، ومن هنا أرسلت إسرائيل يهوديًا يحاول حرق المسجد الأقصى، ولما استطاع المسلمون أن يقاوموا الحريق بجهودهم الذاتيَّة زعمت إسرائيل أنَّ الذي قام بالحريق رجل مختل عقليًا.

وها هي الآن تحاول أن تقول بأعمال تنقيب حول المسجد الأقصى في محاولة لزعزعة بنيانه، وبناء الهيكل على أنقاض المسجد هو أيضًا هدف الماسونيَّة الرئيسي.

وذلك ما ينصُّ عليه أ.س• ماكبرايد، وهو أحد الماسون الكبار في كتابه: الماسونيَّة التأمليَّة، رسالتها وتطورها ومعالمها، حين يقول: لأن رسالة الماسون هي بناء المعبد، فالماسونيُّ الحقُّ هو الذي يعمل بصدق لإقامة هذا المعبد. إنَّ هذا هو المحفل الحقيقي للأخوَّة الأنسانيَّة، وهو موجود من أجل بناء المعبد (هيكل سليمان)، إنَّه المصنع الذي تساغ فيه أرواح الناس وتشكل لتلائم المعبد المثالي الأعظم، هذه هي الغاية الرئيسيَّة ... ألف ياء المحفل. إن معبد سليمان هو أنموذج المثل الأعلى والهدف المركزي في التراث الرمزيّ للماسونيَّة[1].

وعرّف المستشرق الهولندي (دوزي) الماسونيَّة بأنَّها: جمهور كبير من مذاهب مختلفة، يعملون

---

(١) الماسونية، محمود ثابت الشاذلي ص(٤٥).

لغاية واحدة هي: إعادة بناء الهيكل الذي هو رمز إسرائيل[١].

وجاء في النشرة الماسونيَّة الصادرة في نيويورك عام ١٩٠١م : إنَّ الماسونيَّة الأوربيَّة ستشيد بناءً حيث يعبد إله إسرائيل إلى الأبد[٢].

ويقول إدريس راغب وهو من أبرز الماسونيين العرب: إنَّ الاعتقاد بوجوب إقامة الهيكل يقوِّي إيماننا بالوعود المذكورة في الكتاب.

ففي هذه النصوص تبرز الفكرة الإسرائيليَّة عقيدةً ومؤامرةً وغايةً وهدفًا، فبناء هيكل سليمان هو بؤرة النشاط الماسونيِّ وهو الجنس العبري المشتت.

٣- وأما عن وحدة الرموز والشعائر: في دائرة المعارف اليهوديَّة يعرف محرر مادة: ماسون، الماسونيَّة بأنَّها: أسست مبادئها وكلمات سرِّها، ورموزها وشعائرها التي يعتقد أنَّها مستمدَّة من شعائر بناء أول معبد في القدس.

إنَّ المثلث الذي هو رمز الماسونيَّة مأخوذ من هيكل سليمان حيث يقول ماكبرايد: إن كلَّ حجرٍ استخدم في بناء الهيكل كان عليه مثلث متساوي الأضلاع.

ومن هنا كان رمز الماسونيَّة والصهيونيَّة وإسرائيل هو النجمة السداسيَّة، وهي عبارة عن مثلثين متقاطعين، والماسونيَّة يسمّون هذه النجمة درع داود وقد ورثها سليمان عنه، وهي عندهم تشير إلى عينين عند تداخل المثلثين، وكل عين مثلث متساوي الأضلاع وكان سليمان قد قصد بالمثلث كما لو كان (عين الله)، وفيما بعد أصبحت العين أو المثلث رمزًا لله نفسه، ومن هنا كانت قداسة الرمز عند اليهود والماسون[٣].

وأما درجات الماسونيَّة وشعائرها فهي يهوديَّة إسرائيليَّة.

فالدرجة الأولى من درجات الماسونيَّة هي: درجة المبتدئ أو الصبي وهي تقابل صفة الصبية المبتدئين في الصنعة الذين كان يستخدمهم (سليمان) في بناء الهيكل؛ ويسمي المنتسب فيها بالأخ.

والدرجة الثانية هي درجة الصانع الحاذق أو المهني المحترف وهي تقابل أرباب الحرف الذين كان سليمان يستخدمهم كرؤساء مهن أو حرف عند بناء هيكل.

ودرجة الأستاذ ويتدرج صاحبها في ألقاب: الأستاذ المحترم، والمبجل الأعظم، وفائق الاحترام، وكلي الاحترم، وكامل الاحترم، وهذه الدرجة تقابل الصفة التي انطبقت على حيرام أبيف الذي جاء من صور ليشرف على بناء هيكل سليمان من جميع النواحي الفنيَّة، وكان يجيد كل المهن والصناعات.

---

(١) الماسونية في العراء، محمد على الزغبي، ص(١٦٣).

(٢) جذور البلاء، عبد الله التل، ص(١٢٧).

(٣) الماسونية، محمود ثابت الشاذلي ص(٤٩).

وأمَّا الدرجة الرابعة فهي مرتبة العقد الملوكي التي يتدرج منها العضو إلى درجات أعلى حتى الدرجة الثالثة والثلاثين، ويسمى المنتسب فيها: الرفيق، وفي هذه الدرجة تُبَثُّ الفكرة الإسرائيليَّة عقائديًا وسياسيًّا.

ويقول شاهين مكاريس: في كتابة الأسرار الخفيَّة في الجمعيَّة الماسونيَّة: إنَّ الأستاذ الأعظم الأول هو سليمان بن داود النبي الملك ومن هنا يسمَّى زعيم المحفل الماسوني بالأستاذ الأعظم.

ويشير إلى الصلة الرمزيَّة أيضًا الحبر الماسونيٌ ارثر إدوارد وايت في كتابه موسوعة جديدة في الماسونيَّة بقوله: فالحجر الذي نام عليه يعقوب والمنطقة الروحيَّة التي تسمى فدان ارام والسلم الذي رآه في الرؤيا علامات رمزيَّة للماسونيَّة.

وهو يشير بذلك إلى هذا النصِّ الذي ورد في التوراة في سفر التكوين ١٨/ ١٠- ١٢: فخرج يعقوب من بئر سبع وذهب نحو حاران وصادف مكانًا وبات هناك وأخذ من حجارة المكان ووضعه تحت رأسه فاضطجع في ذلك المكان ورأى حلمًا وإذا سلم منصوب على الأرض ورأسه يمس السماء.

وأما الشعائر والطقوس فهي يهوديَّة أيضًا وعند تأسيس أي محفل ماسونيٍّ يتلو الجميع هذه الأدعية الصهيونيَّة: هو ذا ما أحسن وما أجمل أن يسكن الأخوة معًا مثل الدهن الطيب على الرأس النازل على اللحية، لحية هارون النازل إلى طرف ثيابه مثل ندى حرموى النازل على جبل صهيون لأنَّه هناك أمر الربّ بالبركة حياة إلى الآبد ندفع آيات الشكر وعبارات الثناء والحمد لمهندس الكون الأعظم الذي أكرم أرواح عباده وجعلها في عليين ببركة السرِّ المنبعث من عنان السموات اشكروا يا أخواني بصوت عالٍ يهوه الذي شيدت القبلة والهيكل لعبادته وذكر اسمه الأعلى.

وبعد عدة أدعية تعبر عن العقيدة اليهوديَّة يقوم الرئيس ويتلو من سفر أخبار الأيام الثاني الإصحاح الثاني من عدد ١ إلى ١٦ وهي الأعداد التي تتحدث عن قصة بناء هيكل سليمان.

ومن الأدعية التي يقرأها جميع الحاضرين من الدرجة ٣٣ في المحافل الماسونيَّة: سنعود إلى عهد سليمان بن داود ونبني الهيكل الأقدس، ونقرأ فيه التلمود، وننفذ كل ما جاء في الوصايا والعهود، وفي سبيل مجد إسرائيل نبذل كلَّ مجهودٍ... والويل الويل للغاضبين المستعمرين، سنجعلهم قطعًا في أفواه الأسود، الانتقام، الانتقام، طال المكوث في الظلام، أنعم علينا يا رب، أنوار القدس التي تجلت على موآب.

وقالت دائرة المعارف الماسونيَّة الصادة في فيلادفيا سنة ١٩٠٦م: يجب أن يكون كل محفل ماسونيٍّ رمزًا لهيكل اليهود، وهو بالفعل كذلك، وأن يكون كلّ أستاذ على كرسيه ممثلًا لملك اليهود، وكلّ ماسوني تجسيدًا للعامل اليهوديّ.

فواقع النصوص والدلائل يلزم العاقل بضرورة الاعتراف بأنَّ الماسونيَّة يهوديَّة العقيدة والشعائر والهدف وأنَّها وإن كانت تنشر الإلحاد والفساد فلكي تقضي على الدين الإسلامي والنصراني حتى

تجمع الناس بعد ذلك على ديانة اليهود وهذا ما ورد في البروتوكولات: حينما نمكن أنفسنا فنكون سادة الأرض لن نبيح قيام أي دين غير ديننا[١].

فإذا كانت الماسونيَّة يهوديَّة النشأة ويهوديَّة الأهداف ولغايات ويهوديَّة الرموز والشعائر، فهي إذًا منظمة يهوديَّة حتمًا.

اعتراض: ذهب الدكتور عبد الوهاب المسيري في كتابه (اليد الخفية) إلى أنَّ «العلاقة التآمرية المباشرة بين اليهود والماسونيين لا وجود لها»، وبحسب ما توافر لديه من وثائق: ليست هناك هيئة مركزيَّة عالمية تضم كل المحافل الماسونيَّة، كما أن هناك يهودًا معادين للماسونيَّة، وماسونيين معادين لليهود واليهوديَّة، ولكن ثمة علاقة بنيويَّة وفعليَّة بين الماسونيين وأعضاء الجماعات اليهوديَّة تفسر انخراط اليهود بأعداد كبيرة في المحافل الماسونيَّة. وبعد تفسير الظاهرة يخلص المسيري إلى أن هذا الانخراط: لا يعدو أن يكون مجرد ظاهرة اجتماعيَّة [٢].

نقض الاعتراض: إذا كان الحديث عن علاقة اليهوديَّة بالماسونيَّة لناحية النشأة والتحكم السيروري والمصلحي، يشوبه الضعف عند البعض لجهة السند والمعطى اليقيني بحكم تاريخيَّة القضية وتعقيداتها المتداخلة والمركبة والمفتوحة على أكثر من احتمال وحساب واعتبار، فإنَّ ما يوفره العصر الحديث من دلائل ومعطيات يقتل الشك باليقين، ويؤكد على حقيقة لا تقبل الجدل، ومفادها أنَّ الماسونيَّة هي البنت الوفية لليهوديَّة بمعتقداتها ورموزها وأهدافها، وهذا ما أكَّدت عليه دائرة المعارف اليهوديَّة لمؤلفها الماسونيِّ اللبناني حنا أبو راشد في النصِّ التالي: أمَّا أنَّ الماسونيَّة يهوديَّة، فذلك مما لا شك فيه من ناحية واحدة لا تتعداها، ونحن الماسونيُّون العريقون أعلم بذلك من الخوارج المتطفلين، بل إنَّنا لنسمح بأنَّ ندل هؤلاء على الحجة الدامغة في هذا الشأن، وهي حجة التوراة في عدة صفحات ورد فيها ما لا يمكن المكابرة معه عند المقابلة بين نصها والنص المماثل في التعاليم الماسونيَّة.

وما صدر عن دائرة المعارف الماسونيَّة الصادرة في فيلادلفيا طبعة ١٩٠٣ تصب في هذا الاتجاه. ومما جاء فيها: إنَّ اللغة الفنيَّة والرموز والطقوس التي يمارسها الماسونيُّون الأوربيُّون ملأى بالمُثل والاصطلاحات اليهوديَّة، ففي محفل «اسكوتلندا» نجد التواريخ الموضوعة على المراسلات والوثائق الرسميَّة كلّها بحسب تقويم العصر والأشهر اليهوديَّة، وتستعمل كذلك الأبجديَّة اليهوديَّة.

وفي الدائرة نفسها لسنة ١٩٠٦ نقرأ الفقرة التالية: يجب أن يكون كلُّ محفلٍ ماسوني تجسيدًا للعامل اليهوديِّ، وأن يكون كلَّ أستاذٍ على كرسي المحفل ممثلًا لملك اليهود.

---

(١) انظر: الماسونية في أثوابها المعاصرة ص(٢٠- ٣٠)، الماسونية في العراء ص(١٠٥)، مجلة البيان العدد ١٣٥ ص(٧٨- ٨٧).

(٢) اليد الخفية، دراسة في الحركات اليهودية الهدامة والسرية، د. عبد الوهاب المسيري ص(١١٦- ١٤١).

إن الماسونيَّة كانت ولا تزال البنت الوفية لأمها اليهوديَّة والأداة المثلى لإقامة المشروع اليهودي على أنقاض المشاريع الرساليَّة السماويَّة الحقَّة، بدءًا من الشعارات المعلنة وانتهاءًا بجوهر العقيدة القائم على نفي كل ما هو إلهي وديني حقيقي، نقول هذا بالاستناد إلى ما ذُكر ودُوِّن في ندوات ونشرات الماسونيِّين أنفسهم، وعلى سبيل المثال لا الحصر جاء في نشرة الماسون الألمانيَّة الصادرة بتاريخ ١٥ - ١٢ - ١٧٦٦ ما نصُّه: لا يجب على الفرمسون ألَّا يكترثوا للأديان المختلفة فحسب، لكن ينبغي عليهم أيضًا أن يقيموا أنفسهم فوق كل اعتقاد بالإله أيًا كان.

وعن المحفل الفرنسي الأكبر لاجتماعات شهر أكتوبر العام ١٩٢٢ جاء في إعلانه ما حرفيته:

لنشتغل بأيدٍ خفيَّة نشيطة ولننسج الأكفان التي سوف تدفن كل الأديان!!.

بالإضافة إلى ما يؤكده الحاخام الدكتور إسحاق وايز الذي يوضح أن أهداف الماسونيَّة في الظاهر تختلف عنها في الباطن، فهي تبدو للسذج كأنَّها جمعيَّة أدبيَّة تخدم الإنسانيَّة وتنور الأذهان وتنشر الإخاء وتوطد الحبَّ بين الأعضاء وتحثهم على فعل الخير والإحسان لإخوتهم المحتاجين، أمَّا في حقيقتها فهي مؤسسة يهوديَّة، وليس تاريخها ودرجاتها وتعاليمها وكلمات السرِّ فيها وشروحها إلا أفكارًا يهوديَّة من البداية إلى النهاية.

وهناك دلائل تشير إلى أنَّه كان يوجد أربعة يهود من بين مؤسسي أول محفل ماسوني في الولايات المتَّحدة عام ١٧٣٤، كما أسس أول محفل ماسونيٍّ يهوديٍّ في إنجلترا عام ١٧٩٣، أمَّا في فرنسا فقد أصبح السياسيُّ الفرنسيُّ اليهوديُّ أدولف كريميه (١٨٦٩) البنَّاء الأعظم للمحفل الأكبر على الطريقة الإسكتلنديَّة[١].

---

(١) انظر: الموقع الالكتروني: بلادي، الماسونية حركة التحرر من الأخلاق والدين، أحمد غانم.

الفصل السابع

الماسونيَّة والنصارى

منذ ظهرت النصرانيَّة والماسونيَّة في صراع معها حتى يرجع بعض المؤرخين نشأة الماسونيَّة إلى محاولة إيجاد طريق لمقاومة تعاليم المسيح.

وفي العصر الحديث حارب بابوات الفاتيكان الماسونيَّة منذ عام ١٧٣٨م على عهد البابا كليمنت الثاني عشر، الذي أصدر أول مرسوم يتعلق بالماسونيَّة، جاء فيه: أفادتنا الأنباء عن تأليف جمعيَّات سرية تحت اسم «فرماسون» وأسماء أخرى شبيهة بهذا الاسم، ومن خواصها أنَّها تضمَّ إليها رجالًا من كل الأديان والشيع، يرتبطون فيما بينهم بروابط سرِّيَّة غامضة، وحسبنا شاهدًا على أن اجتماعاتِها الخفيَّة هي للشرِّ لا للخير، وأنَّها تبغض النور، وإذا كان هذا فكرنا في الأضرار الجسيمة التي تنجم عن هذه الجمعيَّات السرِّيَّة فقد رأينا منها ما يوجب القلق، سواء كان لسلامة الممالك أم لخلاص النفوس، ومن بعد أخذ رأي إخوتنا الكرادلة، ولعلمنا التامَّ، وقوة سلطتنا وحكمنا بأن هذه المنظمات، والجماعات المعروفة باسم «الفرماسون» يجب رذلها ونفيها. وبناءً عليه نرذلها ونشجبها بقوة هذا المنشور الذي نريد أن يكون مفعوله مخلدًا.

وقد ظلَّ موقف الفاتيكان ثابتًا إزاء الماسونيَّة حتى عام ١٩٦٥م، عندما أصدر البابا بولس السادس أمرًا يعطي للكهنة الحقَّ بإلغاء كلِّ قرارٍ كنسيٍّ سابق تضمن الفرمان المسيحي بتجريم الماسوني.

وقام بنفسه باستقبال مجموعة من أعضاء نادي «الروتاري» عام ١٩٦٥م ليباركهم ناقضًا بذلك التعاليم البابويَّة التي تنصُّ على أن : المسيحي الذي ينضمُّ لنادي الروتاري يتعرض إيمانه للشبهة. وبذلك يكون قد سمح للنصارى بالانضمام إلى الماسونيَّة وأنديتها كالروتاري بعد الحظر الذي كان قائمًا.

بيد أن موقف البابا بولس السادس من الماسونيَّة كان منسجمًا مع موقفه من اليهود عندما أصدر لهم «براءة» من دم المسيح.

وقد ارتبط ظهور الماسونيَّة الحديثة وانتشارها بالبروتستانتيَّة وليس هنالك أدنى شك في أنَّ «مارتن لوثر» كان ماسونيًا، وهنالك انسجام تامٌّ بين الماسونيَّة والبروتستانتيَّة، مثلما هو الأمر بالنسبة للبروتستانتيَّة والصهيونيَّة.

وهكذا استطاع الماسون أن يكتسحوا النصرانيَّة وأن يتركوا كنائسها أماكن خربة شامخة البناء ولكنها عديمة التأثير بعد أن أفقدوا الناس الثقة فيها وشغلوهم عنها بالملاهي الجديدة[1].

---

(١) انظر: الماسونية في أثوابها المعاصرة ص(٤٠ - ٤٢)، موقف المسيحية والإسلام من الماسونية، إبراهيم فؤاد عباس.

الفصل الثامن

الماسونيَّة والمسلمون

من نتائج الماسونيَّة في أول الإسلام

١- عمل المؤامرة لقتل الخليفة الثاني.

٢- اختلاق الأكاذيب على الخليفة الثالث وعمَّاله.

٣- تزوير المكاتيب وقلب الحقائق.

٤- العبث بعقول الأحزاب حتى أنشئوا فيهم الخوارج والنواصب.

٥- نشر التجهم بفروعه المختلفة من جهميَّة ومعتزلة وقدريَّة وغيرهم هذا إلى جانب القرامطة والباطنيَّة في نواحٍ أخرى.

٦- دعم الفرقة التي قامت على يد ميمون بن ديصان وولده عبد الله وقد قام هذا الرجل بدور خطير في تزييف الأحاديث ونشر الإباحيَّة في الناس في الوقت الذي تمسح فيه بمحبَّة آل البيت والتشيع لهم، ونسب نفسه للإسماعيليَّة وكان من تعاليم هذا الماسونيِّ: إنَّ الأديان والأخلاق ليست ضلالا وسخرية وأنَّ ما بقي البشر -أو الحمر كما يسميهم- ليسوا أهلًا لفهم هذه التعاليم.

٧- أكاذيبهم على الأمويين والتعاون مع الأعاجم على الإطاحة بهم حتى تسنَّى لهم ترويج هذه المذاهب وما عملوه في زمنهم من إبراز المختار الكذاب ونحوه كما ضبطه صاحب كتاب (تاريخ الجمعيَّات السريَّة والحركات الهدامة في الإسلام)

٨- العمل على إضرام نيران الحروب التتريَّة والصليبيَّة وإبراز من يخدمها ويمد للغزاة سبيل الفتك كالنصير الطوسي وابن العلقمي وغيرهم على نصارى الشرق وإثارة النعرة فيهم ليتعاونوا مع إخوانهم الغزاة ضد المسلمين ويتجسسوا لهم ويدلوهم على كل طريق كما قرره قادة الغزو في ثنائهم على نصارى العرب، عكس ما يزعمه أتباع (جورج حبش) ونحوه من القوميين عن جهل أو تضليل.

٩- جرّوا أوغاد المسلمين بالتقليد إلى محاربة دينهم، بسبب قيام الثورة الفرنسيَّة على حكم الكنيسة الذي هو من أوضاعها المقصودة لإشقاء الناس ومحاربة العلم والمخترعين ليتم لهم ما يريدونه من حرب الدين واقتلاعه من النفوس.

وحدث هذا دون النظر إلى الفوارق العظيمة بين الدين الإسلامي ودين الكنيسة وطالما يستغلون عبث السياسة وتلاعب الموظفين تحت الاستبداد لنيل أغراضهم من الإسلام وأهله كأنَّهم إذا حكموا حولوا الدنيا إلى جنات الفردوس.

١٠- لعبت الماسونيَّة دورًا خطيرًا في القضاء على الخلافة الإسلاميَّة حيث جنَّدت في صفوفها

حزب تركيا الفتاة واستخدمت يهود سالونيك في إثارة القلاقل للسلطان عبد الحميد الذي رفض رفضًا قاطعًا دخول اليهود إلى فلسطين على الرغم من ضخامة العرض الذي عرضه عليه الماسوني قره صوه.

وساعدت الماسونيَّة كمال أتاتورك على الوصول إلى الحكم وإلغاء الخلافة الإسلاميَّة بذلك فتح الطريق أمام اليهود للعودة إلى فلسطين.

وما زالت الماسونيَّة تقوم بدور الحرب الخفيَّة ضد الإسلام وتنشر أوكارها وروافدها الجديدة في كلِّ دول العالم الإسلاميِّ خصوصًا بعد أن انكشف دورها وافتضح أمرها وأغلقت محافلها في معظم بلدان العالم الإسلامي فقد حاولت أن تظهر من جديد ولكن تحت أسماء جديدة ووجوه مختلفة وأثواب متباينة، مثل: الروتاري والليونز وبني برث والمائدة المستديرة والكيواني والاكتشانج والإخاء الديني والسوروبتمست وجمعيَّة أنصار السلام[1].

(١) انظر: الماسونية، لعبد الرحمن الدوسري ص(٢)، الماسونيَّة في أثوابها المعاصرة ص(٤٢- ٤٦).

الفصل التاسع

الماسونيَّة والصهيونيَّة

الذي يقرأ تاريخ الماسونيَّة والصهيونيَّة معًا يتولد لديه من البداية شعور بأنَّهما شيء واحد، وهذه هي الحقيقة فكلاهما يدعو للآخر.

إنَّ الدراسات والمعلومات التي وصل إليها علماء التاريخ والاجتماع والسياسة تؤكد أنَّ الحركات الماسونيَّة لها علاقة بإسرائيل وبالصهيونيَّة العالميَّة، وهناك عدة دلائل منها:

١- أنَّ كلًا منهما يرسم في الظلام ويخطط في السرِّ ويعمل من وراء الستار ويراقب في الخفاء، كما هي عادة المجرمين الذين يفكرون في الجريمة وينفذونها في السرِّ.

٢- أنَّ الماسونيَّة والصهيونيَّة وليدة شرعيَّة لليهوديَّة تستمد منها أصولها من التلمود وتنفذ تعليماته، وتعمل لها في السرِّ والخفاء.

٣- تتفق الماسونيَّة مع الصهيونيَّة في عداء كلٍّ منهما للأديان غير اليهوديَّة، ويجب التذكير هنا بأنَّ منظِّر الماسونيَّة الحديثة الأول -جيمس أندرسون- كان يهوديًا .. وقد انضمَّ اليهود -كما هو معلوم- إلى الماسونيَّة في القرن التاسع عشر...، ويعترف محرر مادة الماسونيَّة في دائرة المعارف اليهوديَّة مفاخرًا بأنَّ اليهود هم أول من أدخلوا الماسونيَّة إلى الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة.

٤- أن اسم هذه الحركة الماسونيَّة تعني (البناءون) إشارة إلى محاولة بناء هيكل سليمان مكان المسجد الأقصى الشريف وهو هدف الصهيونيَّة العالميَّة.

٥- المطرقة والميزان وآلات النجارة التي تستعملها هذه المحافل هي رمز هدم هيكل سليمان وإعادة بنائه.

٦- ومن الأشياء التي تثبت العلاقة بين الماسونيَّة والصهيونيَّة أو اليهوديَّة بعض الرموز التي تتبع في الطقوس الماسونيَّة من كلمات مثل: بوغز: وهو رمز لأحد أجداد سليمان عليه السلام.

جيكين: وهو ابن شمعون بن يعقوب.

شبولت: معناها سنبلة.

ومن الأسماء مثل: فالج بن عابر: الذي يزعم اليهود أنَّهم من نسله.

نواح بسائيل: الذي صنع لموسى تابوت العهد.

أوبيل: الذي قاد الشعب مع زروبابل من السبي البابلي إلى أرض كنعان.

٧- والتقويم عند الماسون هو نفسه تقويم اليهود.

٨- أن المحافل الماسونيَّة في جميع أنحاء العالم تضع على واجهتها في غالبيَّة مراكزها نجمة داود

وهي شعار الكيان الصهيوني، كما أنَّ اللون الأزرق الذي تطلى به مباني المحافل هو لون علم الكيان الصهيونيِّ.

٩- الشمعدان السباعي -وهو أساس في معابد اليهود- يوجد في جميع المحافل الماسونيَّة، وهو يرمز -بصفة أساسيَّة- إلى السنين السبع التي أتَمَّ فيها سليمان بناء المعبد.

١٠- توجد في محافلهم أيضًا حيَّة مثلثة الرأس ينصبون لها تمثالًا وترمز إلى التنين الذي يجب على الماسوني قطع رءوسه الثلاثة «السلطة الدينيَّة - السلطة المدنيَّة - السلطة العسكريَّة» التي لا تؤيِّد اليهوديَّة العالميَّة، وهناك رموز أخرى كثيرة، وما ذكرناه هو أهمها.

١١- منظِّر الماسونيَّة الحديثة الأول هو جيمس أندرسون كان يهوديًا وقد نظم اليهود إلى المحافل الماسونيَّة في منتصف القرن الثامن عشر لا في إنجلترا وحدها وإنَّما في هولندا وفرنسا وألمانيا وفي سنة ١٧٩٣م أسس يهود لندن محفلًا ماسونيًّا أطلقوا عليه اسم: محفل الكيان الصهيوني.

١٢- ويرى بعض الباحثين في مجال الماسونيَّة أنَّ المؤتمر الصهيونيَّ الأوَّل الذي عُقد في بازل بسويسرا سنة ١٨٩٧، هو مؤتمر ماسوني، ويستندون في هذا الرأي إلى مقتطفات جاءت في خطاب تيودور هيرتزل عندما قال: عندما تخمد نيران الثورة التي نقوم بها جميعًا في سائر البلدان، وينتج عنها حتمًا سقوط الحكومات القائمة تحل سلطتنا محلَّها، عندئذ نأمر الجميع بحلِّ الجمعيَّات السريَّة القائمة، وهي كما تعلمون تضمُّ إلى جانب ما تضمُّه من جهابذة الماسونيَّة (اليهود) رجالًا من الخوارج (غير اليهود) وتصبح السلطة في أيدينا نكون قد بلغنا المرام فلا نعد بحاجة إلى شعارات الحريَّة والإخاء والمساواة؛ لأنَّها أدَّت الرسالة المطلوبة منها.

١٣- لعبت الماسونيَّة دورًا هامًّا في إنشاء دولة الكيان الصهيوني منذ بداية ظهور المشروع الاستيطاني الاستعماري على أرض فلسطين وفي الكثير من الأحداث التي وقعت هنا وهناك نورد ما يلي:

- قامت الجمعيَّات الماسونيَّة بدور بارز في شراء الأراضي على أرض فلسطين حين قامت بإنشاء أكبر محافلها في مدينة القدس تحت مسمًّى جمعيَّات خيريَّة تهدف لمساعدة الضعفاء وذلك في عهد الدولة العثمانيَّة في أواخر القرن التاسع عشر.

- أعضاء جمعيَّة الاتحاد والترقي التركيَّة التي عملت على خلع السلطان عبد الحميد الثاني العثماني كلّهم من الماسون وقد سعت تلك الجمعيَّة إلى إحداث مجازر في الوطن العربي بعد تسلمهم السلطة وإلغائهم للخلافة الإسلاميَّة ولا يزال دورهم بارز في محاربة الإسلام في تركيا وتحويلها إلى دولة علمانيَّة ومحاربة حجاب المرأة وإغلاق المساجد وتحويلها إلى متاحف تحت مسمًّى حفظ التراث.

١٤- ترتبط الماسونيَّة بعلاقات وثيقة ببعض المذاهب الخارجة عن الإسلام من أشهرها البهائيَّة اتَّضح ذلك من بعض الرموز التي تستند إليها البهائيَّة في تعاليمها وعلاقتها بالأبجديَّة العبريَّة ويتمتع أعضاء البهائيَّة بكل الحفاوة والاحترام من قبل يهود العالم خاصَّة في الكيان الصهيونيِّ حيث يوجد

في مدينة حيفا الفلسطينيَّة أكبر محفل بهائيٍّ ضخم (البيت العالمي للعدالة) وبالقرب منه في مدينة عكا يوجد مقرٌّ آخر.

١٥- للماسونيَّة محافل كثيرة في بعض الدول العربيَّة والكثيرون من أعضاء تلك المحافل مؤيدون بشكلٍ كبير لسياسة الصهيونيَّة ويدعمون مخططها.

١٦- إنَّ جميع البروتوكولات الأربعة والعشرين تؤكد نصًّا أو ضمنًا أن الماسونيَّة واحدة من بنات أفكار اليهود، ومن النصوص التي تبيِّن دور المحافل الماسونيَّة في العمل لخدمة الصهيونيَّة العالمية: ما جاء في البروتوكول الثالث حيث يقول: إنّ المحافل الماسونيَّة تقوم في العالم أجمع دون أن تشعر بدور القناع الذي يحجب أهدافنا الحقيقيَّة، على أنَّ الطريقة التي ستستخدم بها هذه القوَّة في خطتنا، بل في مقرِّ قيادتنا لا زالت مجهولة من العالم بصفة عامَّة.

وفي البروتكول الرابع: إنَّ المحفل الماسوني المنتشر في كلِّ أنحاء العالم ليعمل في غفلة كقناع لأغراضنا.

وفصَّل البروتوكول الحادي عشر الأهداف التي ترمي إليها الصهيونيَّة من إفساح المجال لغير اليهود للانضمام إلى المحافل الماسونيَّة. فقد جاء فيه: ما هو السبب الذي دفعنا إلى أن نبتدع في سياستنا ونثبِّت أقدامنا عند غير اليهود، لقد رسَّخناها في أذهانهم دون أن ندعهم يفقهون ما تبطن من معنى، فما هو السرُّ الذي دفعنا إلى أن نسلك هذا المسلك، اللهمَّ إلَّا أننا جنس مشتَّتٌ وليس في وسعنا بلوغ غرضنا بوسائل مباشرة، بل بوسائل مباشرة فحسب. هذا هو السبب الحقيقيّ لتنظيمنا الماسونيَّة التي لم يتعمق هؤلاء الخنازير من غير اليهود في فهم معناها، أو الشك في أهدافنا، إنَّنا نسوقهم إلى محافلنا التي لأعداد لها ولا حصر، تلك المحافل التي تبدو ماسونيَّة فحسب، كي نذر الرماد في عيون رفاقهم.

وأهمُّ ما جاء في البروتوكولات بخصوص علاقة الماسونيَّة بالصهيونيَّة: ما جاء في البروتوكول الخامس عشر: وإلى أن يأتي الوقت الذي نصل فيه إلى السلطة سنحاول أنَّ ننشئ ونضاعف خلايا الماسونيِّين الأحرار في جميع أنحاء العالم. وسنجذب إليها كلَّ من يصير أو من يكون معروفًا بأنَّه ذو روح عامَّة، هذه الخلايا ستكون الأماكن الرئيسيَّة التي سنحصل من خلالها على ما نريد من أخبار، كما أنَّها ستكون أفضل مراكز الدعاية وسوف نركز هذه الخلايا تحت قيادة واحدة معروفة لنا وحدنا، هذه القيادة من علمائنا وسيكون لها أيضًا ممثلوها الخصوصيُّون كي تحجب المكان الذي تقيم فيه قيادتنا حقيقة.

ويضيف هذا البروتوكول يقول: ومن الطبيعي أننا كنَّا الشعب الوحيد الذي يعرف أن يوجهها، ونعرف الهدف الأخير لكلِّ عملٍ على حين أنَّ الأمين (غير اليهود) جاهلون بمعظم الأشياء الخاصَّة بالماسونيَّة، ولا يستطيع رؤية النتائج العاجلة لما هم فاعلون.

بهذا يتضح بأنَّ الماسونيَّة تتحرك بتعاليم الصهيونيَّة وتوجيهاتها وتخضع لها زعماء العالم

ومفكريه، فترتبط الماسونيَّة بعلاقة وثيقة بالصهيونيَّة في كونها الوجه الخفي للحركة الصهيونيَّة، كما وأنَّها أقدم منها في التخطيط وبناء الأهداف ليصل يهود العالم على حد اعتقادهم إلى حكم العالم بأسره.

ولكن ربما اختلفت الماسونيَّة عن الصهيونيَّة من بعض الوجوه:

١- الماسونيَّة منظَّمة أو جمعيَّة تضم في أعضائها غير اليهود بهدف الاستفادة من نشاطهم لصالح يهود العالم بينما لا يسمح بالانضمام إلى الصهيونيَّة إلا اليهود فقط.

٢- الصهيونيَّة يهوديَّة بحتة في شكلها وأسلوبها ومضمونها وأشخاصها، في حين أنَّ الماسونيَّة يهوديَّة مبطنة تظهر شعارات إنسانيَّة عامَّة، وقد ينطوي تحت لوائها غير اليهود من المخدوعين والنفعيين.

٣- الصهيونيَّة حركة دينيَّة سياسيَّة معلنة تخدم اليهود بطريق مباشر فهي الجهاز التنفيذيّ الشرعي والرسمي لليهوديَّة العالميَّة.

في حين أنَّ الماسونيَّة حركة علمانيَّة إلحاديَّة سريَّة تخدم اليهود بطريق غير مباشر، فهي القوَّة الخفيَّة التي تهيئ الظروف والأوضاع لليهود[1].

(١) انظر: أضواء على الصهيونية لعلي السعدني، وغيره من الكتب والمقالات.

الفصل العاشر

الماسونيَّة والأمم المتَّحدة

لما كانت مهمَّة الماسونيَّة هدم الأديان سوى دين اليهود والقيام بتزييفها وطمسها من جهة ومن جهة أخرى العمل الدائب لإعلاء اليهود وانتصارهم ونفوذ كلمتهم، فقد عملت الماسونيَّة التي هي القوة الخفيَّة على تركيزهم في المناصب الممتازة لأنَّ غايتها القصوى تمكين اليهود من الاستيلاء على العالم فهي أساس أعمالهم.

وقد ركزت عددًا هائلًا من اليهود في عصبة الأمم سابقًا وهيئة الأمم المتَّحدة أو مجلس الأمن لاحقًا كما دل على ذلك مضابط المحفل الأكبر للماسونيَّة.

وهذه أهم أسماء الأشخاص الذي ركزتهم الماسونيَّة في أهم المراكز العالميَّة الحساسة:

١- هيئة الأمم المتَّحدة: في مكتب السكرتارية أهمّ شعبة فيه قد تمركز فيه اليهود.

٢- الدكتور إج إس بلوك رئيس قسم التسلح، فلاحظوا مبلغ الخطر يا أحبابي.

٣- انتوني كولات. للأمور الاقتصاديَّة.

٤- أنس كارروز نبرغ: المستشار الخاص للشئون الاقتصاديَّة.

٥- دايف وانتراوب: رئيس قسم الميزانيَّة.

٦- رئيس قسم الخزائن والواردات (كارل لاجن).

٧- معاون سكرتير الشئون الاجتماعيَّة (هنري لانكير) كل هؤلاء يهود.

٨- رئيس قسم المواد المتبادلة (الدكتور ليون استبنك) يهودي.

٩- رئيس قسم حقوق الإنسان (الدكتور شيكويل يهودي) فما أبعد الإنسانيَّة عن نيل حقوقها من اليهود.

١٠- رئيس دائرة مراقبة البلاد غير المستقلة (إج أي ويكوف) يهودي ولهذا لا تحصل بلاد على استقلالها حتى يستكمل المسخ الفكريّ لأهلها من جهة وحتى يتسلم البلاد من المستعمر من يحكمها بأخبث من حكمه وأشنع ولو بتصارع جبهات لا يرتفع فيها إلا الذي يرضاه المستعمر خلفًا له كما جرى في كثير من البلدان آخرها (عدن).

١١- مساعد السكرتير العام لقسم الاستعلامات العامة (بنيامين كوهين) يهودي.

١٢- رئيس قسم الأفلام (جي بنيوت ليفي) يهودي فلا تستنكر ما تراه في عالم الأفلام من الخلاعة والمجون وإثارة الغرائز وغلبة الوقاحة ما دامت الرئاسة لليهود.

١٣- مساعد السكرتير العام لشعبة القوانين (الدكتور إيفان كرو) يهودي ولهذا ينشأ في كلِّ بلدة

من أبنائها من يحبذ القوانين الغربيَّة ويسخر من الشريعة السماويَّة.

١٤- رئيس الشعبة القانونيَّة (إبراهام إج فيلر) يهودي.

١٥- مشاور شعبة القانون الدولي (جي ساند برك) يهودي.

١٦- رئيس قسم المطبوعات (دافيد زايلود ويسكي) يهودي.

١٧- رئيس قسم المترجمين (جرجو رابنو فيج) يهودي.

١٨- رئيس قسم التصاميم (مرسيدس بركمن) يهودي.

فانظر إلى مدى خطر هذا الموظَّف اليهودي الذي ركزته الماسونيَّة في هذا المنصب لأنَّ جميع طلبات الانتماء لوظائف هيئة الأمم المتَّحدة تُقبل أو تُرفض من قبل هذا المدير بهذه المديريَّة وبلا شكٍّ يُقبل كل متقدم للوظيفة هنا من اليهود الخبثاء ويُرفض ما سواهم وبهذا يزداد عددهم في أخطر مؤسسة عالميَّة.

١٩- رئيس قسم المراجعات (الدكتور أي سنجر) يهودي وله تأثير أيضًا.

٢٠- رئيس أطبَّاء قسم الصحَّة العالميَّة (باول رادزر بانكو) يهودي.

٢١- رئيس قسم الاستخبارات لمركز جنيف (جرزي شيزو) يهودي.

٢٢- رئيس قسم الاستخبارات لمركز الهند (بي ليكفر) يهودي.

٢٣- رئيس قسم الاستخبارات لمركز الصين (هنري فاست) يهودي.

٢٤- رئيس قسم الاستخبارات لمركز وارشو (الدكتور جولويس سناويسكي) يهودي.

٢٥- رئيس الأقسام الداخليَّة والدوليَّة لهيئة الأمم المتَّحدة (دافيد - أي موريس) واسمه الحقيقيّ (موسكو فيج) يهودي.

٢٦- مساعد لهذا هو (النمن) يهودي بولوني.

٢٧- مساعد آخر (دايفيد زلباخ) يهوديّ أميركي.

٢٨- مساعد ثالث للمذكور آنفًا (فينست) يهودي بلجيكي. هؤلاء يسيطرون على هذا القسم.

٢٩- رئيس الأقسام الداخليَّة لمنطقة خط الاستواء (في. كبريل كارسز) يهودي.

٣٠- مخابر بولونيا لشعبة الأقسام الداخليَّة (جان روزنر) يهودي.

الرؤساء المسيطرون على هذه الأقسام الهامَّة في هيئة الأمم المتَّحدة كلهم من اليهود.

٣١- رئيس شعبة التغذية والزراعة (اندري مايس) يهودي.

٣٢- الممثل الداناركي في شعبة التغذية والزراعة (أي بي جاكوين) يهودي.

٣٣- الممثل الهولندي في شعبة التغذية والزراعة (إي فريس) يهودي.

٣٤- رئيس شعبة التعمير (إم. إم ليمين) يهودي.

٣٥- رئيس شعبة التعايش (كيروا كاردوس) يهودي.

٣٦- رئيس شعبة المتفرقات (بي كاردوس) يهودي.

٣٧- رئيس شعبة الاقتصاد التحليلي (إم. ازاكل حسقل) يهودي.

٣٨- المشاور الفني لشعبة الغابات (جي بي كاكان) يهودي.

٣٩- رئيس شعبة صيانة الغابات (إم أي هاريرن) يهودي.

٤٠- رئيس قسم التغذية (جي مار) يهودي.

٤١- رئيس قسم الإدارة (إف رسل).

فهؤلاء عشرة رؤساء في أقسام هامَّة من تغذية العالم التابعة لهيئة الأمم كلُّهم من اليهود فيا له من خطر.

٤٢- رئيس لجنة التبادل الخارجي لمنظمة اليونسكو للتعليم والثقافة (ألف سومر فيلد).

٤٣- رئيس لجنة تنظيم الثقافة العالميَّة (جي إترنهارد) يهودي. وهذان اليهوديان هما المحوران الأساسيَّان في شعبة التعليم والثقافة.

٤٤- رئيس شعبة الثقافة العالمية (إم. لافهن) يهودي.

٤٥- رئيس قسم الاستعلامات العام (إج كابلن) يهودي.

٤٦- رئيس قسم الميزانية والإدارة (سي إج ويتز) يهودي.

٤٧- رئيس شعبة الذاتية باليونسكو (إس ساMول سيليكن) يهودي.

٤٨- رئيس شعبة الإيواء والسياحة (بي أبرايسكي) يهودي.

٤٩- رئيس مكتب الهيئة والتعيين (بي ويرمل) يهودي.

٥٠- رئيس المصلحة الفنية لشعبة صحاري آسيا (الدكتور أي ويلسكي) يهودي.

فهؤلاء تسعة ركائز كبار مترئسين في منظمة اليونسكو التي يعتمد عليها أدعياء العروبة تارة والإسلام تارة.

٥١- المدير الاقتصادي لبنك الإعمار الدولي (ليونارد بي رست) يهودي.

٥٢- الممثل الشيكوسلفاكي في مجلس شورة الإدارة (ليوبولد جيمله) يهودي.

٥٣- عضو الشورى لمجلس الإدارة (أي بولاك) يهودي.

٥٤- الممثل الهولندي في مجلس شورى الإدارة (أي إم جونك) يهودي.

٥٥- الممثل الفرنسي في هذا المجلس (بي. منديس) يهودي.

٥٦- ممثل بيرو في هذا المجلس (جي إم برنليس) يهودي.

٥٧- سكرتير بنك الإعمار الدولي (إم. إم منلس) يهودي.

٥٨- ممثل يوغسلافيا في مجلس شورى الإدارة (وي إبراموفيج) يهودي.

فهؤلاء ثمانية متمركزون في بنك الإعمار الدولي بأهمِّ المراكز.

٥٩- المدير العام لمؤسسة صندوق النقد الدولي (كميل كات).

٦٠- معاون المدير العام (لويس آلتمن) يهودي.

٦١- مدير قسم التدقيق (إي إم برنستن) يهودي.

٦٢- المشاور العام للمؤسسة (ليوليفا نفاك) يهودي.

٦٣- المشاور الأقدم للمؤسسة (جوزيف كولد) يهودي.

٦٤- العضو الشيكوسلوفاكي في هيئة الإدارة (جوزيف كولوهن) يهودي.

٦٥- الممثل الفرنسي في هيئة الإدارة (بي. منديس) يهودي.

فهؤلاء تسعة ركائز من اليهود في مؤسسة خطيرة تعتبر العمود الفقري لهيئة الأمم المتَّحدة.

٦٦- المدير العام لمؤسسة الصحة العالميَّة (أي زارب) يهودي.

٦٧- رئيس قسم الطب (جي. ماير) يهودي.

٦٨- المدير العام لقسم الجراحة (دكتور إم كودمز) يهودي.

٦٩- مدير قسم إدارة الطب والماليَّة (إم سنسكل) يهودي.

٧٠- رئيس الشعبة الفنيَّة (زت دوستجن) يهودي.

فهؤلاء خمسة في مؤسسة الصحَّة العالميَّة التي هي من أعظم المرافق متمركزون فيها.

٧١- رئيس اللجنة الداخليَّة في مؤسسة التجارة العالميَّة (ماكس لونتز) يهودي.

٧٢- رئيس قسم الاستعلامات الدوليَّة (إف سي وولف) يهودي.

فهؤلاء الذين ضُبطت أسماؤهم منذ عشرين سنة تقريبًا قد تمركزوا واحتلُّوا الصدارة في أعظم المؤسسات العالميَّة، وأخطرها وإذا كانوا قد بلغوا هذا العدد الهائل في أول وهلة فقد يتضخم عددهم ويتضاعف.

يقول «وليام غاي كار»: والدليل على سيطرة القوى الخفية الماسونيَّة على «الأمم المتَّحدة»، وتمكنهم من تنفيذ مخططاتهم عبرها؛ هو أنَّ الأمم المتَّحدة سلمت فلسطين إلى الصهيونيَّة السياسيَّة، بعدما كان الصهيونيُّون يسعون وراء ذلك لمدة نصف قرن من الزمان[1].

(١) الماسونية، عبد الرحمن الدوسري ص(٧- ١١).

الفصل الحادي عشر

ابناء العهد (بناي برث)

التعريف:

بناي برث: جمعيَّة من أقدم الجمعيَّات والمحافل الماسونيَّة المعاصرة وذراع من أذرعتها الهدَّامة، ولا تختلف عنها كثيرًا من حيث المبادئ والغايات، إلَّا أنَّ عضويتها مقصورة على أبناء اليهود، وخدمتها موجهة أساسًا لدعم الصهيونيَّة في العالم، والتقاط الأخبار واحتلال مراكز حساسة في الدول، ولهذه الجمعيَّة فروع منتشرة في جميع أنحاء العالم، وهي مكلفة بدراسة نفسيَّة كلِّ قائدٍ أو سياسيٍّ أو زعيمٍ أو أي شخصيَّةٍ عامَّةٍ للاستفادة من جوانب الضعف فيها.

التاريخ والأحداث

تأسست هذه الجمعيَّة في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة في مدينة نيويورك في ١٣/ ١٠/ ١٨٤٣م بصفة رسميَّة بعد أن حصل اثنا عشر يهوديًا هاجروا من ألمانيا برئاسة هنري جونيس (جونز) على رخصة رسميَّة بذلك.

وقد اتخذت الجمعيَّة من مدينة نيويورك مقرًا لها ومنها انتشرت وتأسست فروع لها في جميع أنحاء الكرة الأرضيَّة.

وشعارها الشمعدان وهو شعار يهوديٌّ دينيٌّ قديم.

منذ سنة ١٨٦٥م والجمعيَّة تسعى لأن تكون لها وجود في فلسطين، وفي سنة ١٨٨٨م تأسس أول محفل لها، ولغة العمل الرسميَّة فيه هي اللغة العبريَّة، ومن أبرز شخصياته: ناحوم سوكولوف، دزنكوف، حاييم نخمان، دافيد يلين، مائير برلين، حاييم وايزمن، وجادفرامكين.

لقد عملوا على تأسيس مستعمرات يهوديَّة صغيرة في فلسطين، وكانت موتسا أول قرية يؤسسونها عام ١٨٩٤م بالقرب من القدس مشكلين بذلك نواة الكيان الإسرائيلي الحالي.

اليهودي سيجموند فرويد عالم النفس الشهير (١٨٥٦-١٩٣٩م): انضمَّ عام ١٨٩٥م إلى هذه الجمعيَّة وكان مواظبًا على حضور اجتماعاتها.

في عام ١٩١٣م أسَّسوا جمعيَّة لمكافحة التشهير والإهانة وتشويه السمعة التي يتعرض لها اليهود في العالم.

فيليب كلوزنيك كان رئيسًا لهذه الجمعيَّة عندما عُيِّن في عهد الرئيس أيزنهاور رئيسًا للوفد الأمريكيِّ لدى الجمعيَّة العامَّة للأمم المتَّحدة.

جون فوستر دالاس: وزير خارجيَّة الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة عام ١٩٥٨م وهو نصرانيٌّ بروتستانتيٌّ شارك في الحفل الذي أقامته الجمعيَّة في ٨/ ٥/ ١٩٥٦م حيث قال في هذه المناسبة: إنَّ

مدنية الغرب قامت في أساسها على العقيدة اليهوديَّة في الطبيعة الروحيَّة للإنسانيَّة، ولذلك يجب أن تدرك الدول الغربيَّة أنَّه يتحتم عليها أن تعمل بعزم أكيد من أجل الدفاع عن هذه المدنيَّة التي معقلها إسرائيل.

إنَّ رؤساء الولايات المتَّحدة يثنون دائمًا على الأعمال التي تقوم بها هذه الجمعيَّة.

قامت المنظَّمة بعد إعلان قيام إسرائيل بتقديم إمدادات طبيَّة وملابس ومعدات وساهمت في إنشاء المكتبات وتشجير الغابات وتقوم بتصريف سندات إسرائيل وتجنيد العمال الفنين في الولايات المتَّحدة وكندا لإسرائيل.

يتقلد زمام المنظَّمة رئيس ينتخب كل ٣ سنوات من قبل المحفل الأعلى الذي يتألف من ممثلي المحافل المحليَّة. وهناك لجنة إداريَّة ومدراء يشاركون في إدارة المنظَّمة أيضًا.

معتقدات وأفكار أبناء العهد

- الشعارات الظاهريَّة المعلنة:

١- حب الخير للإنسانيَّة والعمل على تحقيق الرفاهيَّة لها.

٢- مساعدة الضعفاء والعجزة وذوي العاهات وتقديم الدعم للمستشفيات الخيريَّة.

٣- افتتاح بيوت الشباب في جميع أنحاء العالم.

٤- الدفاع عن حقوق الإنسان.

٥- منع إهانة الجنس اليهودي.

٦- العطف على المضطهدين من اليهود.

٧- تطوير التبادل الثقافي والاهتمام بالاحتياجات الثقافيَّة والدينيَّة للطلاب اليهود، وذلك عن طريق مؤسسة The Hillel Foundation.

٨- التوجيه في مجال التدريب المهني.

٩- مساعدة ضحايا الكوارث الطبيعيَّة.

١٠- فتح حوار مع مسئولي الحكومات حول موضوعات الحقوق المدنيَّة والهجرة والاضطهاد.

- الأهداف الحقيقيَّة:

١- ضم شباب الإسرائيليِّين بعضهم إلى بعض للنظر في مصالحهم العموميَّة والمحافظة عليها وإعدادهم لأخذ فلسطين وطنًا لهم وبثّ الحماسة في نفوسهم لتحقيق ذلك.

٢- التصدي لمن يتعرض لليهود أو يحاول عرقلة جهودهم الرامية إلى تحقيق أطماعهم واتخاذ كافَّة السُّبل لمواجهته.

٣- تمويل عمليات الهجرة إلى إسرائيل وبيع سنداتها وتجميع الأموال اللازمة والمساعدات التي

تساعد على إدخال المهاجرين وزيادة طاقة إسرائيل العدوانيَّة، وإنشاء الشركات -لا سيَّما الأمريكيَّة- في إسرائيل في شتَّى المجالات وتسويق منتجاتها في مختلف بلدان العالم.

٤- الدعم العسكري لإسرائيل بصفة مستمرَّة وبصورة تدعو للدهشة والاستغراب في معرفة ما يلزم اليهود من المعدات العسكريَّة كمًّا وكيفًا ولتلك الجمعيَّة دور بارز في إنشاء المستوطنات العسكريَّة قبل قيام إسرائيل.

٥- تبرئة اليهود من دم المسيح حتى يتيسر لليهود تحقيق أهدافهم بعيدًا عن مناوأة المسيحيَّة لهم.

٦- التغلل في الأجهزة الحكوميَّة والتحكم في سياسات الحكومات وخصوصًا في أمريكا وبريطانيا، إذ تغلغلت في صميم الحياة الاجتماعيَّة والسياسيَّة والاقتصاديَّة والعسكريَّة... إلخ.

٧- أن يكون الولاء أولًا وأخيرًا لإسرائيل بحيث يتجاوز الوطن الذي يعيش فيه اليهودي.

أفكار ومعتقدات أخرى:

١- إنَّهم يهود ولا يهمهم إلا إعلاء هذا العنصر ليسود العالم.

٢- دعم الماسونيَّة العالميَّة في خططها وبرامجها الهدَّامة.

٣- دعم الوجود الإسرائيلي في فلسطين وتشجيع اليهود ليهاجروا إليها.

٤- العمل على تدمير الأخلاق والحكومات الوطنيَّة والأديان عدا اليهوديَّة.

٥- التعاون مع الماسونيَّة والصهيونيَّة لإشعال الحروب والفتن وقد كان لهم دور بارز في الحرب العالميَّة الأولى.

٦- قاموا بشن هجوم على هتلر وحكمه حينما جاء إلى الحكم سنة ١٩٣٣م.

٧- كان لهم دور خطير في التمهيد للحرب العالميَّة الثانية.

٨- التقاط الأخبار واحتلال المراكز الحساسة في الدول المختلفة، كما أنَّ لهم أنظمةً داخليَّة سرِّيَّة وشبكة من العملاء السريين.

٩- تغلغلت هذه الجمعيَّة في صميم الحياة الأمريكيَّة والإنجليزيَّة وتحكَّمت في شئون الاجتماع والسياسة والاقتصاد لهذين البلدين بخاصَّة.

١٠- إنَّهم يستخدمون المال والجنس والدعاية المركزة من أجل تحقيق الأهداف اليهوديَّة المدمرة.

١١- لقد عملوا على خطف أدولف إيخمان النازي الشهير في عام ١٩٦٠م من الأرجنتين إلى إسرائيل حيث أعدم هناك في ٣١/ ٥/ ١٩٦٢م.

١٢- التصدي لكلِّ من يحاول النَّيل من اليهود، واغتيال الأقلام التي تتعرض لهم حتى يخضع الجميع لهيبتهم.

١٣- إنَّها جمعيَّة لا تقدم خدماتها إلا لأبناء الجالية اليهوديَّة ولا تعمل إلا من أجل دعم تفوُّقهم

وسيطرتهم.

١٤- في الاجتماع الذي عقد في مدينة بازل بسويسرا ١٨٩٧م قال رئيس الوفد الأمريكي لجمعيَّة بناي برث: ولسوف يأتي الوقت الذي يسارع فيه المسيحيُّون أنفسهم طالبين من اليهود أن يتسلموا زمام السلطة.

١٥- حظيت بناي برث بتمثيل في الأمم المتَّحدة، وذلك من خلال عضويتها في المجلس التنسيقيّ للمنظمات اليهوديَّة.

علاقة أبناء العهد بالماسونيَّة

بعد انكشاف أهداف الصهيونيَّة ونشر بروتوكولاتهم وإغلاق الكثير من محافل الماسونيَّة، لجأ اليهود إلى تغيير الأسماء ووضعوا لافتات جديدة لنشاطاتهم مثل الروتاري والليونز وبناي برث، وهي جميعها حرب على الأديان وتخريب للمبادئ الإنسانيَّة السامية.

- فأبناء العهد منظَّمة يهوديَّة وبالتالي فإنَّ التلمود هو محور عقيدتها وتفكيرها.
- وبروتوكولات حكماء صهيون ركن أساسي في خططها وأهدافها.
- وطموحات الماسونيَّة الهدَّامة أمر مهمٌّ تعمل على تحقيقه وإنجازه.

الانتشار ومواقع النفوذ

- تأسست بناي برث في نيويورك وانتشرت محافلها في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة وبريطانيا وألمانيا وفرنسا، وصارت لها في هذه الدول مواقع نفوذ قويَّة.

- امتدت فروعها إلى استراليا وأفريقيا وبعض دول آسيا، كما أنَّ لها نوادي في بعض البلدان الإسلاميَّة: الأردن، سوريا، لبنان، البحرين، المغرب، تونس، العراق، مصر، السودان.

- في مصر تأسس لها محفلان؛ أحدهما: محفل ماغين دافيد رقم ٤٣٦ وقانونه مطبوع باللغة العربيَّة، والآخر: محفل ميمونت رقم ٣٦٥ وقانونه مطبوع بالألمانيَّة، وقد تم حظر نشاطهما في الستينات، ولكن حدث أن التقى الرئيس المصري أنور السادات بوفد من المنظمة يضمُّ ٢٤ عضوًا باستراحة الرئيس بالمعمورة، كما استقبل الوفد د. مصطفى خليل رئيس وزراء مصر آنذاك (مايو عام ١٩٧٩م) وهكذا تلقَّى وفودها ترحيبًا في بعض الدول الإسلاميَّة[1].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٥٢٧- ٥٣١).

الفصل الثاني عشر

الروتاري

التعريف:

الروتاري: جمعيَّة ماسونيَّة يهوديَّة تضمُّ رجال الأعمال والمهن الحرة، تتظاهر بالعمل الإنسانيِّ من أجل تحسين العلاقات بين البشر، وتشجيع المستويات الأخلاقيَّة السامية في الحياة المهنيَّة، وتعزيز النية الصادقة والسلام في العالم.

وكلمة روتاري كلمة إنجليزيَّة معناها دوران أو مناوبة.

وقد جاء هذا الاسم لأنَّ الاجتماعات كانت تعقد في منازل أو مكاتب الأعضاء بالتناوب، ولا زالت تدور الرئاسة بين الأعضاء بالتناوب.

وقد اختارت النوادي شارة مميزة لها هي «العجلة المسننة» على شكل ترس ذات أربعة وعشرين سنًا باللونين الذهبي والأزرق وداخل محيط العجلة المسننة تتحدد ست نقاط ذهبيَّة، كل نقطتين متقابلتين تشكلان قطرًا داخل دائرة الترس بما يساوي ثلاثة أقطار متقاطعة في المركز وبتوصيل نقطة البدء لكلِّ قطر من الأقطار الثلاثة بنهاية القطرين الآخرين تتشكل النجمة السداسيَّة تحتضنها كلمتي «روتاري» و«عالمي» باللغة الإنجليزيَّة.

أما اللونان الذهبي والأزرق فهما من ألوان اليهود المقدَّسة التي يزينون بها أسقف أديرتهم وهياكلهم ومحافلهم الماسونيَّة، وهما اليوم لونا علم «دول السوق الأوربيَّة المشتركة».

التاريخ والأحداث

في ٢٣ من فبراير عام ١٩٠٥م أسس المحامي بول هاريس أول ناد للروتاري في مدينة شيكاغو بولاية ألينوي، وذلك بعد ثلاث سنوات من نشر بول هاريس لفكرته التي اقتنع بها البعض.

ويعتبر سليفر شيلر (تاجر الفحم) وغوستاف ايه لوهر (مهندس المعادن) وسيرام إي شورى (التاجر الخياط) بالإضافة إلى بول هاريس (المحامي) مؤسسي الحركة الروتارية وواضعي أسسها الفكريَّة بعد اجتماعات متكررة دوريَّة.

وقد عقد اجتماعهم الأول في نفس المكان الذي بني عليه فيما بعد مقرّ النادي الروتاري الذي يحمل اسم شيكاغو ١٧٧ اليوم.

ولم يقبل بول هاريس أن يرأس النادي في أوّل عهده بل ترك رئاسته لأحد زملائه وهو سليفر ولم يقبل بول رئاسة النادي إلّا في عام ١٩٠٨م.

وبعد ثلاث سنوات انضمَّ إليه رجل يدعى شيرلي د. بري الذي وسع الحركة بسرعة هائلة، وظل سكرتيرًا للمنظَّمة إلى أن استقال منها في سنة ١٩٤٢م.

توفي بول هاريس (المؤسِّس) سنة ١٩٤٧م بعد أن امتدت الحركة إلى ٨٠ دولة، وأصبح لها ٦٨٠٠ نادٍ تضمُّ ٣٢٧٠٠٠ عضوٍ.

. ثم انتقلت الحركة إلى دبلن بأيرلندا سنة ١٩١١م ثم انتشرت في بريطانيا بفضل نشاط شخص اسمه مستر مورو الذي كان يتقاضى عمولة عن كلِّ عضوٍ جديدٍ.

ثم تأسس نادي الروتاري في مدريد سنة ١٩٢١م ثم أغلق ولم يسمح له بمعاودة النشاط في كل أسبانيا والسويد.

الروتاري في الوطن العربي

لا يُدَوِّن الروتاري الدولي اسم فلسطين في سجلاته بل يذكر صراحة اسم إسرائيل ومن المعلوم أنَّ مصر وفلسطين الدولتان الأوليان في العالم العربي والإسلامي اللتان تأسس فيهما أول نادي للروتاي وذلك في عام ١٩٢٩م (نادي روتاري القاهرة ٢/ ١/ ١٩٢٩م)، نادي أورشليم (القدس) ١٩٢٩م أيضًا، كما أنَّهما أكثر عددًا (مصر أكثر من عشرين ناديًا، فلسطين أكثر من أربعين ناديًا).

وقد ارتبط تاريخ الروتاري في الوطن العربي بثلاث ظواهر:

١- بالاستعمار الغربي في نشأته وغالبيَّة أعضائه.

٢- بالطبقات الارستقراطيَّة وذوي النفوذ والمال.

٣- بنشاط شامل عام لجميع العالم العربي بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

- في الثلاثينات تم تأسيس فروع للروتاري في الجزائر ومراكش برعاية الاستعمار الفرنسي.

- يوجد في طرابلس الغرب فرع للروتاري ومن أعضاء مجلس الإدارة فيه المستر جون روبنسون والمستر فونت كريج.

- يعقوب بارزيف رئيس نادي الروتاي في إسرائيل عام ١٩٧٤م غادر إسرائيل في ١٤/ ٣/ ١٩٧٤م إلى مدينة تاور مينا بصقلية لحضور المؤتمر الذي ينظمه النادي الروتاري الإيطالي، وادعى أنَّه سيكون مؤتمرًا عربيًّا إسرائيليًّا لاشتراك وفود عدد من الدول العربيَّة مع وفد إسرائيلي.

- كان أول المتحدثين مختار عزيز ممثل النادي الروتاري التونسي ثم تكلم بعده يعقوب بارزيف اليهودي.

الروتاري في مصر

وقد انتشرت في مصر أندية الروتاري وخاصَّة في عواصم المحافظات والمدن الكبرى، والغرض الظاهري منها هو النظر في الشئون الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة، بإلقاء المحاضرات والخطب والعمل على التقارب بين أتباع الديانات المختلفة، أما الغرض الحقيقي فهو أن يمتزج اليهود بالمجتمع باسم الإخاء والود، ثم يحاول اليهود عن هذا الطريق أن يصلوا إلى جمع المعلومات التي تساعدهم في تحقيق أغراضهم اقتصاديَّة كانت أو صناعيَّة أو سياسيَّة.

معتقدات وأفكار الروتاري

١- عدم اعتبار الدين مسألة ذات قيمة لا في اختيار العضو، ولا في العلاقة بين الأعضاء، ولا يوجد أي اعتبار لمسألة الوطن: يزعم الروتاري أنَّه لا يشتغل بالمسائل الدينيَّة أو السياسيَّة وليس له أن يبدي رأيًا في أي مسألة عامَّة قائمة يدور حولها جدال.

٢- تلقَّن نوادي الروتاري أفرادها قائمة بالأديان المعترف بها لديها على قدم المساواة مرتبة حسب الترتيب الأبجدي: البوذيَّة، النصرانيَّة، الكونفشيوسيَّة، الهندوكيَّة، اليهوديَّة، المحمَّديَّة... وفي آخر القائمة التأويزم (الطاوية الصيني).

٣- إسقاط اعتبار الدين يوفر الحماية لليهود ويسهل تغلغلهم في الأنشطة الحياتيَّة كافَّة، وهذا يتضح من ضرورة وجود يهودي واحد أو اثنين على الأقل في كلِّ نادٍ.

ومن شعائرهم: الأديان تفرقنا، والروتاري يجمعنا.

٤- عمل الخير لديهم يجب أن يتمَّ دون انتظار أي جزاء ماديٍّ أو معنويٍّ، وهذا مصادم للتصوُّر الديني الذي يربط العمل التطوعي بالجزاء المضاعف عند الله.

٥- لهم اجتماع أسبوعيٌّ، وعلى العضو أن يحرز ٦٠% من نسبة الحضور سنويًّا على الأقل.

٦- باب العضويَّة غير مفتوح لكلِّ الناس، ولكن على الشخص أن ينتظر دعوة النادي للانضمام إليه على حسب مبدأ الاختيار.

٧- التصنيف يقوم على أساس المهنة الرئيسيَّة، وتصنيفهم يضم ٧٧ مهنةً.

٨- العمال محرومون من عضويَّة النادي، ولا يختار إلا من يكون ذا مكانة عالية.

٩- يحافظون على مستوى أعمار الأعضاء ويعملون على تغذية المنظمة بدم جديد وذلك باجتلاب رجال في مقتبل العمر.

١٠- يشترط أن يكون هناك ممثل واحد عن كلِّ مهنة وقد تخرق هذه القاعدة بغية ضمِّ عضوٍ مرغوب فيه، أو إقصاء عضو غير مرغوب فيه، وقد نصَّت الفقرة الثالثة من المادة الرابعة من القانون الأساسي للروتاري الدولي على ما يلي:

- لا يجوز قبول أكثر من عضوٍ عاملٍ واحدٍ في تصنيف من تصنيفات الأعمال والمهن باستثناء تصنيفات الأديان ووسائل الإعلام والسلك الدبلوماسي ومع مراعاة أحكام اللائحة الداخليَّة الخاصَّة بالأعضاء العاملين الإضافيين.

١١- يشترط أن يكون في المجلس الإداري لكلِّ نادٍ شخص أو شخصان من رؤساء النادي السابقين أي من ورثة السرِّ الروتاري المنحدر من (بول هاريس).

١٢- تشارلز ماردن الذي كان عضوًا لمدة ثلاث سنوات في أحد نوادي الروتاري قام بدراسة عن الروتاري وخرج بعدد من الحقائق.

١٣- بين كلّ ٤٢١ عضوًا في نوادي الروتاري ينتمي ١٥٩ عضوًا منهم للماسونيَّة مع الاستنتاجات جعل الولاء للماسونيَّة قبل النادي.

١٤- في بعض الحالات اقتصرت عضويَّة الروتاري على الماسون فقط كما حدث في أدنبرة - بريطانيا سنة ١٩٢١م.

١٥- ورد في محافل نانس بفرنسا سنة ١٨٨١م ما يلي: إذا كون الماسونيَّة جمعيَّة بالاشتراك مع غيرهم فعليهم ألَّا يدعوا أمرها بيد غيرهم، ويجب أن يكون رجال الإدارة في مراكزها بأيد ماسونيَّة وأن تسير بوحي من مبادئها.

١٦- نوادي الروتاري تحصل على شعبيَّة كبيرة ويقوى نشاطها حينما تضعف الحركة الماسونيَّة أو تخمد، ذلك لأنَّ الماسون ينقلون نشاطهم إليها حتى تزول تلك الضغوط فتعود إلى حالتها الأولى.

١٧- تأسست الروتاري عام ١٩٠٥م وذلك إبَّان فترة نشاط الماسونيَّة في أمريكا.

١٨- هناك عدد من الأندية تماثل الروتاري فكرًا وطريقة وهي: الليونز، الكيواني، الاكستشانج، المائدة المستديرة، القلم، بناي برث (أبناء العهد) فهي تعمل بنفس الصورة ولنفس الغرض مع تعديل بسيط وذلك لإكثار الأساليب التي يتم بواسطتها بثُّ الأفكار واجتلاب المؤيدين والأنصار.

بين هذه النوادي زيارات متبادلة، وفي بعض المدن يوجد مجلس لرؤساء النوادي من أجل التنسيق فيما بينها.

١٩- تتظاهر بالعمل الإنساني من أجل تحسين الصلات بين مختلف الطوائف، وتتظاهر بأنَّها تحصر نشاطها في المسائل الاجتماعيَّة والثقافيَّة، وتحقق أهدافها عن طريق الحفلات الدوريَّة والمحاضرات والندوات التي تدعو إلى التقارب بين الأديان وإلغاء الخلافات الدينيَّة.

أما الغرض الحقيقيُّ فهو أن يمتزج اليهود بالشعوب الأخرى باسم الودِّ والإخاء وعن طريق ذلك يصلون إلى جمع معلومات تساعدهم في تحقيق أغراضهم الاقتصاديَّة والسياسيَّة وتساعدهم على نشر عادات معينة تعين على التفسخ الاجتماعي، ويتأكد هذا إذا علمنا بأنَّ العضويَّة لا تمنح إلا للشخصيات البارزة والمهمَّة في المجتمع.

٢٠- تتخذ الناقوس والمطرقة شعارًا لها وتتخذ هذه المنظمة أسماء أخرى تعمل في ظلها مثل: لجنة الإنرهويل التي تختص بالسيدات وتضم مصر والأردن منطقة إنرهويل واحدة تحمل رقم ٩٥، ولجنة الروتاراكت ولجنة الانتراكت.

الروتاري والماسونيَّة

١- يوجد توافق كامل كبير بين الماسونيَّة والروتاري في مسألة (الدين والوطن والسياسة)، وفي

اعتمادهم على مبدأ (الاختيار) فالعضو لا يمكنه أن يتقدم بنفسه للانتساب ولكن ينتظر حتى ترسل إليه بطاقة دعوة للعضويَّة.

٢- القيم والروح التي يُصْبغُ بها الفرد واحدةٌ في الماسونيَّة والروتاري مثل فكرة المساواة والإخاء والروح الإنسانيَّة والتعاون العالميّ.

وهذه روح خطيرة تهدف إلى إذابة الفوارق بين الأمم، وتفتيت جميع أنواع الولاءات، حتى يصبح الناس أفرادًا ضائعين تائهين، ولا تبقى قوة متماسكة إلا اليهود الذين يريدون السيطرة على العالم.

٣- الروتاري وما يماثله من النوادي تعمل في نطاق المخططات اليهوديَّة من خلال سيطرة الماسون عليها الذين هم بدورهم مرتبطون باليهوديَّة العالميَّة نظريًّا وعمليًّا، ورصيد هذه المنظمات ونشاطاتها يعود على اليهود أولًا وآخرًا.

٤- إنَّ الروتاريين يستهدفون القضاء على المعالم الثقافيَّة والدينيَّة المتميزة لإيجاد بيئة واحدة تعمُّها الأفكار والمبادئ الروتاريَّة التي تستمد مفاهيمها من الحركة الماسونيَّة العالميَّة.

٥- ليس أدل على صلة الروتاري بالماسونيَّة من أنَّ رمزَ الماسونيَّةِ هو نفس رمز الروتاري وهو المثلثان المتقاطعان اللذان يكونان النجمة السداسيَّة والتغيير الوحيد هو أن هذه النجمة كانت في الماسونيَّة موضوعة داخل إطار على شكل ترس.

٦- تختلف الماسونيَّة عن الروتاري في أن قيادة الماسونيَّة ورأسها مجهولان على عكس الروتاري الذي يمكن معرفة أصوله ومؤسسيه، ولكن لا يجوز تأسيس أي فروع للروتاري إلا بتوثيق من رئاسة المنظمة الدوليَّة وتحت إشراف مكتب سابق.

الانتشار ومواقع النفوذ

- بدأت أندية الروتاري في أمريكا سنة ١٩٠٥م وانتقلت بعدها إلى بريطانيا وإلى عدد من الدول الأوربيَّة، وفروعها الرئيسيَّة في لندن وزيورخ وباريس وترتبط رئاسة كل منطقة روتاريَّة على مستوى العالم ارتباطًا مباشرًا بالمركز العام في إيفانستون عن طريق ممثلها العالمي في الأفرع الرئيسيَّة وقد غطَّت أندية الروتاري ١٥٧ دولة في العالم.

- المنطقة ٢٤٥ تضمُّ مصر، السودان، لبنان، الأردن، البحرين، قبرص، كما أنَّ لهذه المنظمة أكثر من أربعين فرعًا في إسرائيل، ولها نوادٍ في عدد من الدول العربيَّة كمصر أكثر من ٢٣ ناديًا، والأردن ناديان، وتونس والجزائر وليبيا والمغرب ١٣ ناديًا، ولبنان ٥ أندية، وتعدُّ بيروت مركز جمعيَّات الشرق الأوسط[١].

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٥٣٢- ٥٣٦).

الفصل الثالث عشر

الليونز

التعريف:

الليونز: مجموعة نوادٍ ذات طابع خيريٍّ اجتماعيٍّ في الظاهر، لكنَّها لا تعدو أن تكون واحدة من المنظمات العالميَّة التابعة للماسونيَّة التي تديرها أصابع يهوديَّة بغية إفساد العالم وإحكام السيطرة عليه.

التاريخ والأحداث

في صيف ١٩١٥م دعا مؤسس هذه النوادي ملفن جونس إلى فكرة إنشاء نواد تضم رجال الأعمال من مختلف أنحاء الولايات المتَّحدة، وكان أول نادٍ تأسس من هذا النوع في مدينة سانت أنطونيو - تكساس.

في مايو ١٩١٧م ظهرت المنظمة العالمية لنوادي الليونز إلى الوجود وقد عقدت اجتماعها الأول في شيكاغو حيث أقدم نوادي الروتاري هناك.

يعتقد بعض الدارسين أن هذا النادي تابع لنوادي بناي برث أي (أبناء العهد) الذي تأسس في ١٣/ ١٠/ ١٨٣٤م في مدينة نيويورك.

بصورة عامَّة فإنَّ هذه النوادي جميعًا تتبع بشكل أو بآخر منظمة البنَّائين الأحرار (الماسون).

لقد أنشئ نادي الليونز ليكون بديلًا عن النوادي السابقة في حالات انكشافها أو اضطهادها لما يتمتع به من مظهر اجتماعي إصلاحي خيري.

والليونز هو من الهيئات المنتشرة في كثير من دول العالم ومنها مصر، حيث يتناول أعضاؤه بالقاهرة الغذاء مرتين في الأسبوع إحداهما في فندق شيراتون القاهرة والأخرى بمنطقة الهرم.

معتقدات وأفكار الليونز

١- إن اسمهم (الليونز) أي (الأسُود) إنما يرمز إلى القوّة والجرأة وحروف الكلمة بالإنجليزيَّة (Lions) كل منها يرمز لمعنى عندهم.

٢- تنهى كسائر النوادي الماسونيَّة عن المجادلة في الأمور السياسيَّة والعقائديَّة الدينيَّة.

٣- تتظاهر بالعمل في الميادين التالية:

- الدعوة إلى الإخاء والحريَّة والمساواة.
- الخدمات العلميَّة والثقافيَّة.
- تشجيع تبادل الزيارات والرحلات واللقاءات.

- نشر معاني الخير والتعاون بين الشعوب.
- تنمية روح الصداقة بين الأفراد بعيدًا عن الروابط العقديَّة.
- الاهتمام بالرفاهية الاجتماعيَّة.
- العمل على نشر المعرفة بكلِّ الوسائل الممكنة.
- مساعدة المكفوفين والخدمات الاجتماعيَّة الأخرى.
- تخفيف متاعب الحياة اليوميَّة عن المواطنين.
- تقديم الخدمات إلى البيئة المحليَّة.
- إقامة المسابقات الترفيهيَّة وتشجيع اللقاءات وتبادل الزيارات والرحلات.
- دعم المشروعات الخيريَّة.
- دعم مشروعات الأمم المتَّحدة.

العضويَّة

شروط العضويَّة في هذه النوادي لا تختلف كثيرًا عن شروط العضويَّة في نوادي الماسونيَّة والروتاري.

ولكنَّها تمتاز عن النوادي الماسونيَّة بأنَّه يجوز لديهم بأن يمثل المهنة الواحدة أكثر من عضوين.

ولا يستطيع أي شخص أن يقدم طلب انتساب إليها، إنَّما هم الذين يرشِّحونه ويعرضون عليه ذلك إذا رأوا مصلحة لهم فيه.

ومن شروط قبول العضويَّة في أندية الليونز

١- يشترط أن يكون العضو من رجال الأعمال الناجحين.

٢- يشترط أن يكون مكان عمل العضو في ذات المنطقة التي فيها النادي.

٣- يفرض على كلِّ عضوٍ أن يحقق نسبة حضور في الاجتماعات الأسبوعيَّة لا تقل عن ٦٠% سنويًّا.

٤- يمنعون منعًا باتًّا دخول العقائديين وذوي الغيرة الوطنيَّة الشديدة.

٥- يجتذبون الشباب والشابات بغية المحافظة على أدنى مستوى ممكن من الأعمار الشابة للمحافظة على حيويَّة النادي الدائمة فضلًا عن سهولة التأثير.

٦- يجتذبون السيدات من زوجات كبار المسئولين كما يسند إليهن مهمَّة الاتصال بالشخصيَّات الكبيرة، ولهن نوادٍ بهنَّ تسمَّى نوادي سيدات الليونز.

الهيكل التنظيمي

تتشابه أندية الليونز مع أندية الروتاري في وضع نظام شبه جغرافي يقسم العالم إلى عدد من

التكتلات حسب كثافة انتشار الأندية ولكلٍّ تكتل رقم خاصٌّ، ويتكون التكتل الواحد من دولة أو عدد من الدول ويسمَّى بالمنطقة أو المحافظة رقم، وترتبط رئاسة كلِّ منطقة من المناطق على مستوى العالم مباشرة بالمركز العام وتقع مجموعة الدول العربيَّة في المنطقة ٣٥٢ .

ويتكون كلُّ نادٍ من:

١- رئيس.

٢- نائب رئيس أو أكثر.

٣- سكرتير -وأمين صندوق.

٤- مجلس إدارة مؤلف من (١٢) عضوًا على أن يكون بينهم شخص أو اثنان من رؤساء النادي السابقين بهدف إحكام القبضة على المجلس كي لا ينحرف في أي مسار لا يريدونه لناديهم.

٥- لجان متنوعة تشكَّل من قبل المجلس لتشمل الأنظمة المختلفة.

خطورة هذه النوادي

- نشاطاتها الخيريَّة الظاهريَّة مصيدة تخفي وراءها أهدافها الحقيقيَّة.

- يتسمون بالتخطيط الدقيق، ويعملون على أساس من السريَّة في جمع المعلومات.

- يتعرفون على أسرار المهن من خلال لقاءاتهم مما يعطيهم قدرة على التحكم في السوق المحليَّة كما يعينهم على التدخل في الشئون الاقتصاديَّة للبلد.

- يجمعون المعلومات المتعلقة بالشئون السياسيَّة والدينيَّة للبلد الذي يعملون فوق أرضه ويرسلونها إلى مركز المنظمة العالمي التي تقوم بتحليلها ووضع الخطط اللازمة والمناسبة حيالها.

- إنَّهم يُقَسِّمون المنطقة التي يعملون فيها، ومن ثم يجب أن يغطى كل قسم بنشاطه القطاع المتعلِّق به.

- هناك غموض شديد يكتنف أسرارهم ومواردهم ووسائلهم.

- تضرب مجالس إدارات مناطق الليونز إجراءات أمن مشددة حولها.

- يرددون دائمًا شعار (الدين لله والوطن للجميع).

- الإسلام لديهم يقف على قدم المساواة مع الديانات الأخرى سماويَّة كانت أم بشريَّة هذا من حيث الظاهر، أمَّا الحقيقة فإنَّهم يكيدون له أكثر مما يكيدون لسواه.

- يركزون في دعواتهم ومحاضراتهم على إبراز مكانة معينة لإسرائيل وشعبها، كما يقومون بزراعة أفكار صهيونيَّة في عقول أعضائها.

- لقد عقدوا دورة في نوادي ليونز مصر الجديدة بالقاهرة للحديث عن معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل.

- إنَّهم يقيمون حفلات مختلطة ماجنة راقصة تحت شعار (الحفلات الخيريَّة).

- لقد أصدر المجمع الفقهي في دورته الأولى المنعقدة في مكَّة المكرمة بتاريخ ١٠ رمضان ١٣٩٨هـ قرارًا بيَّنَ فيه أنَّ مبادئ حركات الماسونيَّة والليونز والروتاري تتناقض كليًّا مع مبادئ وقواعد الإسلام.

الليونز والماسونيَّة

- إنَّ نوادي الليونز لا تخرج عن الدائرة الماسونيَّة التي تتبع لها، فالجذور إذًا واحدة.

- إنَّها تدعو إلى فكرة الرابطة الإنسانيَّة وإزالة العوائق بين البشر، كما هو الحال في دعوة الماسونيَّة.

- إنَّها تستمد جوهرها الحقيقي من الفكر الصهيوني.

- إن الليونز لافتة جديدة للماسونيَّة لجأ اليهود إليها عندما أغلقت المحافل الماسونيَّة، والحقيقة أن ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب.

الانتشار ومواقع النفوذ

- لهذه المنظمة نوادٍ في أمريكا وأوربًا وفي كثير من بلدان العالم.

- ادَّعت نوادي الليونز في أوائل عام ١٩٧٠م بأنَّ عدد أعضائها يزيد عن (٩٣٤ ٠٠٠,) عضوٍ موزعين في (١٤٦) بلدًا.

- مركزها الرئيسي الحالي هو في أوك بروك بولاية الينوي في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة.

- نوادي الليونز والروتاري نشطت في مصر بعد توقيع معاهدة السلام مع إسرائيل.

- إنَّها تتخذ من الفنادق الضخمة مراكز لها كفندق السلام بمصر الجديدة وفندق هيلتون وشبرد وشيراتون.

- إنَّها ترصد مبالغ ضخمة كجوائز تقدم خلال حفلات تنمية الصداقة وحفلات الاهتمام ببعض المشروعات مما يضع إشارة استفهام حول طبيعة الموارد الماليَّة.

- أنَّها تباشر نشاطها في كثير من البلاد الإسلاميَّة مثل: مصر والأردن وسوريا ولبنان والبحرين والمغرب وتونس والعراق، وهم يعرضون أحيانًا بعض ما يسمونه نشاطًا اجتماعيًّا ويدَّعون أنَّهم يريدون به للمجتمع أن ينمو وفق نظام هندسيٍّ دقيقٍ تذوب فيه النعرات القوميَّة والعصبيَّات الجنسيَّة والاختلافات الدينيَّة، والحقيقة التي يجب ألَّا تخفى على مسلم هي أنَّهم جماعة مشبوهة، ويكتنفها الريب والشكوك، ويكفي أنَّها مدعومة من جهات خارجيَّة غير معلومة[1].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٥٣٩- ٥٤٣).

الفصل الرابع عشر

الأنتراكت

التعريف:

هي نوادي اجتماعيَّة وثقافيَّة مرتبطة بمنظمة الروتاري الدوليَّة، التي تسيطر عليها اليهوديَّة العالميَّة والمنظمات الماسونيَّة، وتضمُّ هذه النوادي طلبة المدارس الإعداديَّة والثانويَّة.

التاريخ والأحداث

بتوجيه من مؤتمر الروتاري الدولي عام ١٩٦١م/ ١٩٦٢م، أنشئت أندية الأنتراكت من طلبة المدارس الإعداديَّة والثانويَّة، وتسمى: بأندية الطلائع ... وتتراوح أعمار الأطفال بين ١٤ و ١٨ سنة.

وقد دلت إحصائيَّة خاصَّة عن أندية الأنتراكت عن العام ١٩٨٣م/ ١٩٨٤م بأنَّه تم إنشاء ١٢١ ناديًا للأنتراكت بلغ عدد أعضائها من تلاميذ المدارس ٩٥١٥٠ عضوًا.

ويشرف على هذا العدد من أندية الأنتراكت: ٣٤٥٩ ناديًا للروتاري في ٧٩ دولة من مجموع الدول الروتاريَّة.

وفي سنة ١٩٨٦م صدرت عن المركز الرئيسي للروتاري بالولايات المتَّحدة الأمريكيَّة نشرة خاصَّة بعنوان: هذا الروتاري، جاء فيها عن الأنتراكت والروتراكت أنَّه أصبح لها أكثر من عشرة آلاف ناديًا في مائة دولة.

وقد أنشئت نوادي الأنتراكت في بعض البلاد العربيَّة منها: مصر... ولقد نشرت مجلة: أكتوبر... في تاريخ ١٦/ ١١/ ١٩٨٠م الحفل السنويّ لنادي الأنتراكت، الذي أقيم في نادي سبورتنج بالإسكندريَّة، وأحيت الحفلة فرقة البتي شاه الغنائيَّة الراقصة.

ولا توجد تحت أيدينا إحصائيات عن نوادي الأنتراكت في البلاد العربيَّة والإسلاميَّة الأخرى.

معتقدات وأفكار الأنتراكت

١- إنَّ تخصيص هذه النوادي لرعاية الأطفال من ١٤ - ١٨ سنة يكشف المخطط الخطير الذي تسعى إليه منظمة الروتاري العالميَّة، للتأثير على الأطفال وصياغة تفكيرهم وسلوكهم وفق أهدافها الخبيثة، بعد أنَّ تمت السيطرة على الكبار من الرجال والنساء.

٢- ترفع هذه النوادي شعارات خادعة تلبس ثوبًا براقًا مثل التربية الحديثة، والرياضة، والثقافة. وقضاء أوقات الفراغ... وإعداد الطفل للمجتمع... إلخ.

وتخفي الهدف الحقيقي وهو إخضاع وتلقين الصغار مفاهيم روتاريَّة لاستخدامهم في المستقبل في

تنفيذ المآرب الصهيونيَّة الخبيثة.

٣- تنشأ هذه النوادي في حدود منطقة الروتاري، حيث توجد نوادي الكبار، كي يسهل السيطرة عليها ضمن خطط الروتاري للرجال، والأنرهويل للنساء.

٤- تنشأ هذه النوادي -على الأرجح- في المعاهد الخاصَّة التي تديرها الأقليَّات النصرانيَّة واليهوديَّة في البلاد العربيَّة والإسلاميَّة.

٥- تقيم هذه النوادي حفلات غنائيَّة ومسرحيَّة خاصَّة بالصغار لما لهذه الوسائل من تأثير قوي فعال في الصغار.

٦- من أنشطة هذه النوادي إقامة الرحلات والمخيمات الخلوية.

علاقة الأنتراكت بالروتاري والماسونيَّة العالميَّة

- باعتبار أنَّ الأنتراكت تأسست من قبل نادي الروتاري، فإنَّ غرضها هو غرض نادي الروتاري الدولي، ذي الخلفية اليهوديَّة العالميَّة والمنظمات الماسونيَّة.

- وإنَّ جميع الأنشطة التي تقوم بها هذه الأندية تخدم في النهاية اليهوديَّة العالميَّة، باسم الإنسانيَّة، والثقافة، والإخاء بين الشعوب.

الانتشار ومواقع النفوذ

تأسست هذه النوادي في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة بتوجيه من مؤتمر الروتاري الدولي سنة ١٩٦١م وانتشرت في أوربَّا، وصار لها فروع في معظم أنحاء العالم، ولها فرع في إسرائيل وفي بعض الدول العربيَّة مثل مصر والأردن ولبنان ودول المغرب العربي.

وتعمد إلى تثبيت انتماءات الشباب الغض للأفكار الماسونيَّة عن طريق منح السلام الدراسيَّة وتبادل الشبيبة[١].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٥٥٠، ٥٥١).

الفصل الخامس عشر

الروتراكت (شباب الروتاري)

التعريف:

هي أندية اجتماعيَّة ثقافيَّة ترويحيَّة، مرتبطة بمنظمة الروتاري الدوليَّة التي تسيطر عليه اليهوديَّة العالميَّة والمنظمات الماسونيَّة.

وتضمُّ هذه النوادي طلبة الجامعات وخريجيها ممن لا يقل عمرهم عن ١٨ سنة، ولا يزيد عن ٢٨ سنة من الذكور أو الإناث أو من الجنسين حسب ما يقرره النادي الراعي.

ونادي شباب الروتاري منظَّمة يرعاها نادي الروتاري وتهدف -كما يزعمون- إلى تشجيع التمسك بالمستويات الخلقيَّة العليا في جميع الأعمال وتنمية القيادة والشعور بالمسئوليَّة عن طريق خدمة المجتمع وتعزيز التفاهم الدولي والسلام.

التاريخ والأحداث

في عام ١٩١٧م بدأ الروتاري يعني بشئون الشباب فأنشأ صندوقًا خاصًا لذلك الغرض، وأصبح هذا الصندوق فيما بعد نواة لهذه المؤسسة.

أوصى مؤتمر الروتاري الدولي عام ١٩٦٧م/ ١٩٦٨م بإنشاء أندية للشباب من طلبة الجامعات وخريجيها، ويسمح لأندية الروتاري بإنشاء أندية الروتراكت في حدود منطقتها لإتاحة الفرصة أمام الشباب للدراسة في بلدٍ غير بلده.

وقد دلت إحصائيَّة خاصَّة عن أندية الروتراكت عن العام الروتاري ١٩٨٣م/ ١٩٨٤م على أنَّه تم إنشاء ١٣٤ ناديًا في شتى أنحاء العالم هذا العام وحده، وقد وصل عدد الأندية في العالم ٤٣٠٥ ناديًا تتبع ٤٠١١ ناديًا من أندية الروتاري المنتشرة في ٩٠ دولة من دول الروتاري، ووصل عدد أعضاء الروتراكت إلى ٨٦٠٠٠ ستة وثمانين ألف عضوٍ.

أنشئت نوادي الروتراكت في بعض البلاد العربيَّة والإسلاميَّة.

معتقدات وأفكار الروتراكت

١- من الأهداف المعلنة لنوادي الروتراكت إتاحة الفرصة للشباب للدراسة في بلد غير بلده، أي إعطاء منح دراسيَّة على هيئة بعثات من المنطقة الروتارية ٢٤٥ التي تضمُّ جمهوريَّة مصر العربيَّة والسودان ولبنان ودولة البحرين والأردن وقبرص. وهذه المنح خاصَّة بأبناء أعضاء الروتاري، وتخضع لتنظيم الروتاري العالمي... وللخداع... يشترط في الشباب المتقدم للحصول على المنحة أن يكون متمسِّكًا بدينه الإسلامي! وأن يكون متسامحًا!

٢- ومن نشاط هذه النوادي مشروع تبادل الشباب المريب، الذي يتمّ فيه اختلاط الشباب من

الجنسين... ومن شروط المشروع:

- تفضيل من كان عضوًا في أحد أندية شباب الروتاريين أو أن يكون والده روتاريًا.

- السفر في الإجازة الصيفيَّة، ومدة الإقامة ثلاثة أسابيع ويتكفل الطالب بمصاريف سفره في الذهاب والعودة، ومصاريف الإقامة يتحملها النادي المضيف.

- أن يتراوح سن الطالب أو الطالبة بين ١٨ سنة و٢٢ سنة.

- أن يكون حاصلًا على الشهادة الثانويَّة على الأقل وأن يكون ملمًّا بلغة البلد المسافر إليه.

- يشترط أن يكون ولي الأمر مستعدًّا لاستضافة طالب أو طالبة في منزله لمدة مماثلة للمدة التي يقضيها ابنه أو ابنته في الخارج.

- ومن تطبيقات هذا المشروع:

سفر وفد صهيوني من الكيان اليهودي في فلسطين المحتلَّة يوم ١٩٨١/١/٢٤م برئاسة دافيد روزلين مدير العلاقات التربويَّة والعلميَّة في وزارة خارجيَّة الكيان الصهيوني إلى مصر العربيَّة المسلمة لبلورة تفاصيل تبادل الشباب، وتألفت المجموعة الأولى من ٥٠ طالبًا إسرائيليًّا لقضاء العطلة الصيفيَّة بين الأسر العربيَّة المسلمة في مصر، واستضاف الكيان الصهيونيّ مجموعة مماثلة من الشباب المسلم لقضاء الإجازة الصيفيَّة بين الأسر اليهوديَّة، وقد تم الاتفاق على ذلك سابقًا أثناء محادثات إسحاق نافون في أواخر عام ١٩٨٠م بهدف تطبيع العلاقات!

٣- ومن الأهداف المعلنة أيضًا: خلق روح القيادة الاجتماعيَّة في الشباب والشعور بالمسئوليَّة لدى المواطنين، وغرس المثل العليا للأخلاقيَّات، وبحث مشاكل المجتمع الصحية والتعليمية... ويظهر أنَّ هذه الأهداف المخادعة تعلن للسذَّج من أفراد المجتمع... أو للحصول على الترخيص من الدولة.

٤- أمَّا الهدف الحقيقي لهذه النوادي فهو إفساد الجيل المسلم أخلاقيًّا، وإبعاده عن قيم دينه وتعاليمه... وتستخدم في ذلك الحفلات الموسيقيَّة الراقصة (التي تسميها الخيريَّة) والسهر إلى ما بعد منتصف الليل مع الاختلاط بكلِّ أشكاله، وشرب الخمر المسموح به في هذه الحفلات وقضاء الإجازات مع عائلات لا تتقيد بالأخلاق الإسلاميَّة... والاتصالات الفاجرة بين الجنسين أثناء الرحلات والأسفار الترويحيَّة أو الدراسيَّة.

ومن هذه الحفلات الفاسدة، ما أقامه شباب نادي روتراكت بالإسكندريَّة في نادي سبورتنج وحضره مجموعة من الضيوف البريطانيِّين من أصدقاء وشباب الروتراكت وعدد كبير من سيدات ورجال المجتمع المسلم! وأحيا الحفل الفنان عمر خورشيد وفرقة الجاز، ورقص على أنغامها الشباب والزهرات واستمر الحفل إلى ما بعد منتصف الليل... وقد نشرت إحدى المجلات صورًا خليعة لعضوات النادي بأوضاع غير أخلاقيَّة وشبه عارية...!

٥- إلهاء الشباب في أنشطة سياحيَّة وترفيهيَّة منحرفة تشغلهم عن القضايا المصيريَّة التي تهم أمتهم، وأهمها قضية فلسطين واحتلال اليهود لها...

٦- إنشاء جيل روتاري يصل إلى درجة المسئوليَّة في بلده، لتنفيذ المخططات الروتارية الصهيونيَّة الصليبيَّة الخطيرة.

الروتراكت وعلاقته بالروتاري والماسونيَّة العالميَّة

- نوادي الروتراكت تتبع نادي الروتاري الدولي... ذي الخلفيَّة الماسونيَّة اليهوديَّة.

- وبالتالي فإنَّ جميع أنشطة النادي مخططة من قبل الماسونيَّة العالميَّة وتخدم اليهوديَّة العالميَّة.

- وتعتبر أندية الانتراكت والروتراكت وجهين لعملة واحدة فعلى الشباب المسلم الحذر من ألاعيب التضليل الصهيونيِّ والانخداع بالشعارات البرَّاقة التي تضع السمَّ في الدسم وتنشر الفساد وخراب الذمم.

الانتشار وأماكن النفوذ

تأسست نوادي الروتراكت في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة بتوجيه من الروتاري الدولي سنة ١٩٦١م. وانتشرت بعد ذلك في أوربَّا وصار لها فروع في نواحٍ كثيرة من العالم، ولها فرع في فلسطين المحتلة وبعض البلاد العربيَّة[١].

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٥٥٣- ٥٥٥).

الفصل السادس عشر

حكم الماسونيَّة والانتماء إليها

عقد في مكَّة المكرَّمة وتحت رعاية الملك فيصل مؤتمر عالمي للمنظمات الإسلاميَّة، في المدة من ١٤ إلى ١٨ ربيع الأوَّل سنة ١٣٩٤هـ، واشترك في هذا المؤتمر ١٤٠ وفدًا تمثل جميع الدول والأقلِّيَّات الإسلاميَّة في العالم، وأصدر المؤتمر قراره الحادي عشر، ونصُّه: الماسونيَّة جمعيَّة سرِّيَّة هدَّامة لها صلة وثيقة بالصهيونيَّة العالميَّة التي تحركها وتدفعها لخدمة أغراضها، وتتستر تحت شعارات خدَّاعة كالحريَّة والإخاء والمساواة وما إلى ذلك مما أوقع في شباكها كثيرًا من المسلمين وقادة البلاد وأهل الفكر، وعلى الهيئات الإسلاميَّة أن يكون موقفها من هذه الجمعيَّات على النحو التالي:

١ . على كلِّ مسلمٍ أن يخرج منها فورًا.

٢ . تحريم انتخاب أي مسلم ينتسب لها لأي عمل إسلاميٍّ.

٣ . على الدّول الإسلاميَّة أن تمنع نشاطها داخل بلادها وأنْ تغلق محافلها وأوكارها.

٤ . عدم توظيف أي شخصٍ ينتسب لها ومقاطعته مقاطعة كلِّيَّة.

٥ . فضحها بكتيبات ونشرات تباع بسعر التكلفة.

وعقد مجمع الفقه الإسلامي المنبثق عن رابطة العالم الإسلامي دورته الأولى المنعقدة في مكَّة المكرَّمة من ١٠ إلى ١٧ شعبان ١٣٩٨ وجاء في قرارته:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه. أما بعد:

فقد نظر المجمع الفقهيُّ الإسلاميُّ، في قضية الماسونيَّة والمنتسبين إليها وحكم الشريعة الإسلاميَّة في ذلك.

وقد قام أعضاء المجمع بدراسة وافية عن هذه المنظمة الخطيرة، وطالع ما كتب عنها من قديم وجديد، وما نشر من وثائقها نفسها فيما كتبه ونشره أعضاؤها وبعض أقطابها من مؤلفات، ومن مقالات في المجلات التي تنطق باسمها.

وقد تبين للمجمع بصورة لا تقبل الريب، من مجموع ما اطلع عليه من كتابات ونصوص ما يلي:

١- أنَّ الماسونيَّة منظَّمةٌ سرِّيَّةٌ، تُخْفِي تنظيمها تارةً وتعلنه تارةً، بحسب ظروف الزمان والمكان، ولكن مبادئها الحقيقيَّة التي تقوم عليها، هي سرِّيَّة في جميع الأحوال محجوب علمها حتى على أعضائها إلا خواص الخواص، الذين يصلون بالتجارب العديدة إلى مراتب عليا فيها.

٢- أنَّها تبني صلة أعضائها بعضهم ببعض في جميع بقاع الأرض على أساس ظاهريٍّ، للتمويه على المغفلين، وهو الإخاء الإنساني المزعوم بين جميع الداخلين في تنظيمها، دون تمييز بين مختلف العقائد والنحل والمذاهب.

٣- أنَّها تجتذب الأشخاص إليها، ممن يهمها ضمهم إلى تنظيمها بطريق الإغراء بالمنفعة الشخصيَّة، على أساس أن كلَّ أخ ماسونيٍّ مجنَّد في عون كلِّ أخ ماسونيٍّ آخر، في أي بقعة من بقاع الأرض: يعينه في حاجاته وأهدافه ومشكلاته، ويؤيده في الأهداف إذا كان من ذوي الطموح السياسيِّ، ويعينه إذا وقع في مأزق من المآزق أيًّا كان، على أساس معاونته في الحقِّ والباطل، ظالمًا أو مظلومًا، وإن كانت تستر ذلك ظاهريًّا بأنَّها تعينه على الحقِّ لا الباطل، وهذا أعظم إغراء تصطاد به الناس من مختلف المراكز الاجتماعيَّة، وتأخذ منهم اشتراكات ماليَّة ذات بال.

٤- أنَّ الدخول فيها يقوم على أساس احتفال بانتساب عضوٍ جديدٍ، تحت مراسم وأشكال رمزيَّة إرهابيَّة، لإرهاب العضو إذا خالف تعليماتها والأوامر التي تصدر إليه بطريق التسلسل في الرتبة.

٥- أنَّ الأعضاء المغفلين يُتركون أحرارًا في ممارسة عباداتهم الدينيَّة، وتستفيد من توجيههم وتكليفهم في الحدود التي يصلحون لها، ويبقون في مراتب دنيا، أما الملاحدة أو المستعدون للإلحاد، فترتقي مراتبهم تدريجيًّا، في ضوء التجارب والامتحانات المتكررة للعضو، على حسب استعدادهم لخدمة مخططاتها ومبادئها الخطيرة.

٦- أنَّها ذات أهدافٍ سياسيَّةٍ، ولها في معظم الانقلابات السياسيَّة والعسكريَّة والتغييرات الخطيرة ضلع وأصابع ظاهرة أو خفية.

٧- أنَّها في أصلها وأساس تنظيمها يهوديَّة الجذور، ويهوديَّة الإدارة العليا العالميَّة السرِّيَّة، وصهيونيَّة النشاط.

٨- أنَّها في أهدافها الحقيقيَّة السرِّيَّة ضد الأديان جميعًا، لتهديمها بصورة عامَّة، وتهديم الإسلام في نفوس أبنائه بصورة خاصَّةٍ.

٩- أنَّها تحرص على اختيار المتسبين إليها من ذوي المكانة الماليَّة، أو السياسيَّة، أو الاجتماعيَّة، أو العلميَّة، أو أية مكانة يمكن أن تستغل نفوذًا لأصحابها في مجتمعاتهم، ولا يهمها انتساب من ليس لهم مكانة يمكن استغلالها، ولذلك تحرص كل الحرص على ضم الملوك والرؤساء والوزراء وكبار موظفي الدولة ونحوهم.

١٠- أنَّها ذات فروع تأخذ أسماء أخرى، تمويها وتحويلًا للأنظار، لكي تستطيع ممارسة نشاطاتها تحت مختلف الأسماء، إذا لقيت مقاومة لاسم الماسونيَّة في محيط ما، وتلك الفروع المستورة بأسماء مختلفة من أبرزها منظمة الأسود (الليونز) والروتاري إلى غير ذلك من المبادئ والنشاطات الخبيثة، التي تتنافى كليًّا مع قواعد الإسلام وتُناقضه مناقضة كلِّيَّة.

وقد تبين للمجمع بصورة واضحة، العلاقة الوثيقة للماسونيَّة باليهوديَّة الصهيونيَّة العالميَّة، وبذلك استطاعت أن تسيطر على نشاطات كثير من المسئولين في البلاد العربيَّة وغيرها، في موضوع قضية فلسطين، وتحول بينهم وبين كثير من واجباتهم في هذه القضية المصيريَّة العظمى، لمصلحة اليهود والصهيونيَّة العالميَّة.

لذلك ولكثير من المعلومات الأخرى التفصيليَّة عن نشاط الماسونيَّة وخطورتها العظمى، وتلبيساتها الخبيثة، وأهدافها الماكرة، يقرر المجمع الفقهي اعتبار الماسونيَّة من أخطر المنظمات الهدَّامة على الإسلام والمسلمين، وأن من ينتسب إليها على علم بحقيقتها وأهدافها فهو كافر بالإسلام مجانب لأهله، لكن الأستاذ الزرقاء أصرَّ على إضافة جملة (معتقدًا جواز ذلك) فيما بين جملة (على علم بحقيقتها وأهدافها) وبين جملة (فهو كافر..) وذلك كيما ينسجم الكلام مع حكم الشرع في التميز بين من يرتكب الكبيرة من المعاصي مستبيحًا لها، وبين من يرتكبها غير مستبيحٍ: فالأول كافر، والثاني عاصٍ فاسقٍ. والله ولي التوفيق.

الرئيس: عبد الله بن حميد، رئيس مجلس القضاء الأعلى في المملكة العربيَّة السعوديَّة.

نائب الرئيس: محمد علي الحركان، الأمين العام لرابطة العالم الإسلاميّ.

الأعضاء: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، الرئيس العام لإدارة البحوث العلميَّة والإفتاء، محمد محمود الصواف، صالح بن عثيمين، محمد بن عبد الله السبيل، محمد رشيد قباني، مصطفى الزرقاء، محمد رشيدي، عبد القدوس الهاشمي الندوي، أبو بكر جوسي.

وقد أصدرت لجنة الفتوى بالأزهر بيانًا بشأن الماسونيَّة والأندية التابعة لها مثل الليونز والروتاري جاء فيه: ويحرم على المسلمين أن ينتسبوا لأندية هذا شأنها وواجب المسلم ألَّا يكون إمَّعة يسير وراء كلّ داعٍ ونادٍ، بل واجبه أن يمتثل لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول: «لا يكن أحدكم إمَّعةً» يقول: «إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساءوا أسأت ولكن وطّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم».

وواجب المسلم أن يكون يقظًا لا يغرَّر به، وأن يكون للمسلمين أنديتهم الخاصة بهم، ولها مقاصدها وغاياتها العلنية، فليس في الإسلام ما نخشاه ولا ما نخفيه والله أعلم.

رئيس الفتوى بالأزهر: عبد الله المشد.

الباب السابع

المخلِّص المنتظر

الماشيَّح والمشيحانية Messiah and Messianism

الفصل الأول: معنى الكلمة وتطورها الدلالي.

الفصل الثاني: عقيدة اليهود في المخلص المنتظر.

الفصل الثالث: الحركات المشيحانية عبر التاريخ.

الفصل الرابع: عقيدة النصارى في المخلِّص المنتظر.

الفصل الخامس: حقيقة العلاقة اليهوديَّة النصرانيَّة.

الفصل السادس: المسيح الحق والمسيح الدجال.

الفصل الأول

معنى الكلمة وتطورها الدلالي

ماشيَّح: كلمة عبرية تعني «المسيح المخلِّص»، ومنها «مشيحيوت» أي «المشيحانية»، وهي الاعتقاد بمجيء الماشيَّح.

وهذه الكلمة تطور معناها ومرت بعدة أطوار:

المعنى الأصلي للكلمة: الكلمة مشتقة من الكلمة العبريَّة «مشح»؛ أي «مسح» بالزيت المقدَّس.

والزيت المقدس يسمى في العهد القديم دهن المسحة، وتذكر أن مَن يوضع عليه سواء كان: شخصًا وثيابًا، أو مسكنًا، أو أواني، أو المذبح، أو المرحضة، أو أي جماد -يصير مقدسًا مطهرًا، وهو مصنوع من أطياب تجمع من بني إسرائيل، وقد جعلت لهارون ولبنيه من بعده فريضة دهرية، وهي بذلك تكون للأنبياء وللكهنة فيكون الكاهن الممسوح هو الكاهن العظيم (١).

ثم جعلت بعد ذلك علامة على المِلك عندما طلب بني إسرائيل من صموئيل ملكا لهم فنصب لهم شاءول وصب على رأسه الدهن ومسحه، ومن بعده داود وسليمان، وكان يسمى مسيح الرب (٢).

ويرى بعض الباحثين أن هذه عادة الشعوب القديمة، يمسحون رأس الملك والكاهن بالزيت قبل تنصيبهما، علامة على المكانة الخاصة الجديدة، وعلامة على أن الروح الإلهية أصبحت تحل وتسري فيهما.

المعنى الثاني: ثم أصبحت كلمة «الماشيَّح» تشير إلى كل ملوك اليهود وأنبيائهم، بل كانت تشير أيضًا إلى قورش ملك الفرس، أو إلى أي فرد يقوم بتنفيذ مهمة خاصة يوكلها الإله إليه (٣).

كما أن هناك في المزامير إشارات متعددة إلى الشعب اليهودي على أنه شعب من المشحاء.

المعنى الثالث والنهائي: ثم في نهاية الأمر اكتسبت الكلمة معنى محددًا، إذ أصبحت تشير إلى شخص مُرسَل من الإله يتمتع بقداسة خاصة، إنسان سماوي وكائن معجز خلقه الإله قبل الدهور يبقى في السماء حتى تحين ساعة إرساله (٤).

---

(١) انظر: سفر الخروج ٦/٢٥، ٧/٢٩، ٢١، ١١/٣١، ٨/٣٥، ١٥، ٢٨، ٣٧/ ٢٩، ٣٨، ٩/٤٠، اللاويين ٢/٨، ١٠، ١١، ٣٠، ٢١/١٠، ٣/٤، ٥، ١٦، العدد ١٦/٤، ٨/١٨، ٢٥/٣٥ .

(٢) انظر: سفر صموئيل الأول ١/١٠، ١٣/١٦، ٦/٢٤، ٩/٢٦، ١١، ٢٣، صموئيل الثاني ١٤/١، ١٦، ٣/٥، ٢١/١٩، ١/٢٣، الملوك الأول ٣٩/١، الملوك الثاني ٣٠/٢٣ .

(٣) إشعياء ١/٤٥ .

(٤) انظر: المزامير ٦/٢٠، ٨/٢٨ .

وهو يُسمَّى عندهم «ابن الإنسان»؛ لأنه سيظهر في صورة الإنسان وإن كانت طبيعته تجمع بين الإله والإنسان، فهو تَجسُّد الإله في التاريخ[1].

---

(١) انظر: سفر دانيال ٧/١٣، ١٤ .

الفصل الثاني

عقيدة اليهود في المخلص المنتظر

هو ملك من نسل داود، سيأتي بعد ظهور النبي إليا ليعدل مسار التاريخ اليهودي، بل البشري، فينهي عذاب اليهود ويأتيهم بالخلاص ويجمع شتات المنفيين ويعود بهم إلى صهيون ويحطم أعداء بني إسرائيل، ويتخذ أورشليم (القدس) عاصمة له، ويعيد بناء الهيكل، ويحكم بالشريعتين المكتوبة والشفوية ويعيد كل مؤسسات اليهود القديمة مثل السنهدرين (مجمع الكهنوت)، ثم يبدأ الفردوس الأرضي الذي سيدوم ألف عام، ومن هنا كانت تسمية «الأحلام الألفية» و«العقيدة الاسترجاعية».

ومن هذه النصوص الواردة في الشريعة المكتوبة عند اليهود، في العهد القديم:

في سفر إشعياء ٩/٦، ٧: يولد لنا ولد ونعطي ابنا وتكون الرياسة على كتفه ويدعى اسمه عجيبًا مشيرًا إلهًا قديرًا أبًا أبديًّا رئيس السلام، لنمو رياسته وللسلام لا نهاية على كرسي داود وعلى مملكته ليثبتها ويعضدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد غيرة رب الجنود تصنع هذا.

وفي سفر إشعياء ١١/١- ١٢: ويخرج قضيب من جذع يسى و ينبت غصن من أصوله، ويحل عليه روح الرب روح الحكمة والفهم روح المشورة والقوة روح المعرفة ومخافة الرب، ولذته تكون في مخافة الرب فلا يقضي بحسب نظر عينه ولا يحكم بحسب سمع أذنيه، بل يقضي بالعدل للمساكين ويحكم بالإنصاف لبائسي الأرض ويضرب الأرض بقضيب فمه ويميت المنافق بنفخة شفتيه، ويكون البر منطقة متنيه والأمانة منطقة حقويه، فيسكن الذئب مع الخروف ويربض النمر مع الجدي والعجل والشبل والمسمن معًا، وصبي صغير يسوقها، والبقرة والدبة ترعيان تربض أولادهما معًا، والأسد كالبقر يأكل تبنًا، ويلعب الرضيع على سرب الصل، ويمد الفطيم يده على حجر الأفعوان، لا يسوءون ولا يفسدون في كل جبل قدسي؛ لأن الأرض تمتلئ من معرفة الرب كما تغطي المياه البحر، ويكون في ذلك اليوم أن أصل يسى القائم راية للشعوب إياه تطلب الأمم، ويكون محله مجدًا، ويكون في ذلك اليوم أن السيد يعيد يده ثانية ليقتني بقية شعبه التي بقيت من آشور ومن مصر ومن فتروس ومن كوش ومن عيلام ومن شنعار ومن حماة ومن جزائر البحر، ويرفع راية للأمم و يجمع منفيي إسرائيل ويضم مشتتي يهوذا من أربعة أطراف الأرض . . .

وفي سفر دانيال ٧/١٣، ١٤: كنت أرى في رؤى الليل وإذا مع سحب السماء مثل ابن إنسان أتى، وجاء إلى القديم الأيام فقربوه قدامه، فأعطي سلطانًا ومجدًا وملكوتًا لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة، سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول، وملكوته ما لا ينقرض.

وفي سفر زكريا ٩/٩، ١٠: ابتهجي جدًا يا ابنة صهيون، اهتفي يا بنت أورشليم، هوذا

ملكك يأتي إليك هو عادل ومنصور وديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن أتان، واقطع المركبة من أفرايم والفرس من أورشليم، وتقطع قوس الحرب ويتكلم بالسلام للأمم، وسلطانه من البحر إلى البحر، ومن النهر إلى أقاصي الأرض.

وتتأكد هذه العقيدة في الشريعة الشفوية؛ ففي التلمود: حين يأتي المسيح تطرح الأرض فطيرًا وملابس من الصوف وقمحًا حبه بقدر كلاوي الثيران الكبيرة. وفي ذلك الزمن ترجع السلطة لليهود، كل الأمم تخدم ذلك المسيح وتخضع له. وفي ذلك الوقت يكون لكل يهودي ألفان وثمانمائة عبد يخدمونه، وثلاثمائة وعشرة أعوان تحت سلطته، ولكن لا يأتي المسيح إلا بعد انقضاء حكم الأشرار (الخارجين عن دين بني إسرائيل)(١).

ويقول: أرض إسرائيل ستنبت الخبز والأقمشة من أجود أنواع الصوف، وستنبت القمح في لبنان عاليًا مثل أشجار النخيل وَسَيَهُبُّ هواء يجعله دقيقًا فاخرًا(٢).

وقد جاء في التلمود أنه بعد وصول الماشيِّح، سيجلس الإله على عرشه يقهقه فرحًا لعلو شأن شعبه، وهزيمة الشعوب الأخرى التي تحاول دون جدوى أن يكون لها نصيب في عملية الخلاص(٣).

وجاء فيه أيضًا: وتكون الأمة اليهوديَّة إذ ذاك في غاية الثروة؛ لأنها تكون قد تحصلت على جميع أموال العالم. وهذه الكنوز ستملأ (سرايات) واسعة لا يمكن حمل مفاتيحها وأقفالها على أقل من ثلاثمائة حمار، وترى الناس كلهم حينئذ يدخلون في دين اليهود أفواجًا(٤).

وفيه: ويتحقق منتظر الأمة اليهوديَّة بمجيء إسرائيل، وتكون تلك الأمة هي المتسلطة على باقي الأمم عند مجيئه(٥).

وتجدد -بل ويستمر- ذكر هذه العقيدة في العصر الحديث؛ ففي بروتوكولات حكماء صهيون: إن حكومتنا ستحيل مظهر الثقة الأبوية في شخص مَلِكنا وستعتده أمتنا ورعايانا فوق الأب الذي يُعنى بسد كل حاجاتهم ويرعى أعمالهم ويرتب جميع معاملات رعاياه بعضهم مع بعض، وبهذا سينفذ الإحساس بتوقير الملك بعمق بالغ في الأمة، حتى لن تستطيع أن تقدم غير عنايته وتوجيهه؛ إنهم لا يستطيعون أن يعيشوا في سلام إلا به، وسيعرفون في النهاية أنه حاكمهم الأوتوقراطي المطلق(٦).

---

(١) الكنز المرصود في أسرار التلمود.
(٢) الكنز المرصود في أسرار التلمود، التلمود تاريخه وتعاليمه لظفر الدين خان ص(٦٠).
(٣) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.
(٤) الكنز المرصود في أسرار التلمود.
(٥) الكنز المرصود في أسرار التلمود.
(٦) البروتوكول الخامس عشر ص(١٦٣).

وفيه: ويوم يضع ملك إسرائيل على رأسه المقدس التاج الذي أهدته له كل أوربا سيصير البطريك لكل العالم[١].

وفيه: إن ملك إسرائيل سيصير البابا الحق للعالم: بطريرك الكنيس الدولي[٢].

وفيه: إن ملكنا سيكون مختارًا من عند الله، ومُعَيَّنًا من أعلى كي يدمر كل الأفكار التي تغري بها الغريزة، لا العقل، إن هذه الأفكار قد دمرت كل النظم الاجتماعيَّة مؤدية بذلك إلى حكم ملك إسرائيل، ولكن عملها سيكون قد انتهى حين يبدأ ملكنا، وحينئذ يجب علينا أن نكنسها بعيدًا حتى لا يبقى أي قذر في طريق ملكنا، وحينئذ سنكون قادرين على أن نصرخ في الأمم: صلوا لله واركعوا أمام ذلك الملك الذي يحمل آية التقدير الأزلي للعالم، والذي يقود الله ذاته نجمه، فلن يكون أحد آخر إلا هو نفسه قادرًا على أن يجعل الإنسانية حرة من كل خطيئة[٣].

وفي البروتوكول الرابع والعشرين وهو الأخير من البروتوكولات المترجمة، يقول المتحدث فيه: والآن سأعالج الأسلوب الذي تُفدى به دولة الملك داود حتى تستمر إلى اليوم الآخر.

ثم تختم البروتوكولات حديثها بهذه العبارة: إن قطب العالم في شخص الحاكم العالمي الخارج من بذرة إسرائيل ليطرح كل الأهواء الشخصية من أجل مصلحة شعبه، إن ملكنا يجب أن يكون مثال الجبروت. توقيع ممثلي صهيون من الدرجة الثالثة والثلاثين[٤].

صور المخلِّص المنتظر

لما لم تتحقق الآمال المشيحانية، ظهرت عند اليهود صورة أخرى مكملة للأولى، وهي صورة الماشيَّح ابن يوسف الذي سيعاني كثيرًا، وسيخر صريعًا في المعركة، وستحل الظلمة والعذاب في الأرض، وهذه هي الفكرة التي أثرت في فكرة المسيح عند النصارى.

ولكن سيصل بعد ذلك الماشيَّح العجائبي الخارق من نسل داود، والذي سيأتي بالخلاص.

ويفسر الحاخامات تأخُّر وصول الماشيَّح بأنه ناتج عن الذنوب التي يرتكبها الشعب اليهودي؛ ولذا فإن عودته مرهونة بتوبتهم.

وقد تميَّزت المشيحانية بأنها صيغة هلامية لا يمكن أن تُهزَم:

فإذا ظهر ماشيَّح، فإن ظهوره علامة على صدق الرؤية المشيحانية، وإذا لم يظهر فإن الواجب هو الانتظار.

أما إذا ظهر الماشيَّح وانتصر في المراحل الأولى، فهذا علامة على صدقه.

---

(١) البروتوكول الخامس عشر ص(١٦٣).

(٢) البرتوكول الثالث والعشرون، ص(١٨٨).

(٣) البروتوكول الثالث والعشرون، ص(١٨٧).

(٤) البروتوكول الرابع والعشرون، ص(١٨٨).

وإذا انهزم فهزيمته نفسها تعد علامة صدقه، فهو يتعذب من أجل شعبه.

وإذا أخذت الهزيمة شكل ارتداد عن اليهوديَّة، فإن هذا (حسب التصورات المشيحانية) من باب التمويه والتقية.

كما أنه، باعتباره الماشيَّح، عليه أن ينزل إلى عالم الشر ذاته لمواجهته (ومن هنا ارتداده عن اليهوديَّة).

كما أنه إذا قُتل أو مات، فإن أتباعه عادةً ما يؤمنون بأنه لم يمت أو يُقتَل وإنما اختفى وسيعود.

وتكون جماعة التابعين المنتظرين، شيعة أو فريقًا دينيًّا مستقلًّا عن المؤسسة الحاخامية، تدور عقائدها حول أفكار الماشيَّح، وتدور ممارساتها حول انتظاره.

وهذا هو -في الواقع- النمط الكامن في معظم الحركات المشيحانية (اليهوديَّة وغير اليهوديَّة) التي عادةً ما تنتهي بالإخفاق، فيدفع المؤمنون بها الثمن غاليًا[١].

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

الفصل الثالث

الحركات المشيحانية عبر التاريخ

١- الأصفهانية (العيسوية).
٢- اليودغانية.
٣- النحمانيون.
٤- الرءوبينية.
٥- الشبتانية.
٦- الدونمة.
٧- الفرنكية.
٨- الحسيديَّة: حبد.

الأصفهانية او العيسوية Asfahanism-Al

التعريف:

الأصفهانية أو العيسوية: نسبة إلى أبي عيسى إسحاق بن يعقوب الأصفهاني، وقيل: إن اسمه عوفيد الوهيم أي عابد الله.

والأصفهانية: هي فرقة يهودية فارسية ظهرت في القرن الثامن تزعم بأن أبا عيسى الأصفهاني هو الماشيَّح، ورتبوا على ذلك أحكامًا وشرائعَ.

التاريخ والأحداث

تعتبر هذه الفرقة هي أولى الفرق بعد هدم الهيكل الثاني، أسس هذه الفرقة أبو عيسى الأصفهاني الذي كان خياطًا أميًّا، عاش في زمن المنصور (٧٥٤ - ٧٧٥ م)، وابتدأ دعوته في زمن آخر ملوك بني أمية مروان بن محمد الحمار (٧٤٤ - ٧٥٠ م).

أعلن أبو عيسى في سنة ٧٥٥ م أنه الماشيَّح الذي سيحرِّر اليهود من الأغيار، فاتبعه بشر كثير من اليهود على ذلك.

وقاد بهذه الصفة، ثورة ضد الحكم العباسي، وانضم له العديد من يهود فارس، لكن هذا التمرد تم إخماده بعد عدة سنوات وقُتل أبو عيسى.

لكن أتباعه أعلنوا أنه لم يقتل وإنما دخل كهفًا واختفى، كما تداولوا بعض القصص عن المعجزات والآيات التي أتى بها، منها أنه لما حورب خط على أصحابه خطًّا بعود آس وقال: أقيموا في هذا الخط فليس ينالكم عدو بسلاح فكان العدو يحملون عليهم حتى إذا بلغوا الخط رجعوا عنهم خوفًا من طلسم أو عزيمة ربما وضعها، ثم إنه خرج من الخط وحده على فرسه فقاتل وقتل من المسلمين كثيرًا وذهب إلى أصحاب موسى بن عمران الذين هم وراء النهر المرمل ليسمعهم كلام الله.

وقيل: إنه لما حارب أصحاب المنصور بالري قتل وقتل أصحابه.

ظلت فرقة العيسوية قائمة حتى حوالي عام ٩٣٠م.

ويُقال: إن يودغان وعنان بن داود -مؤسسي المذهب القرّائي- تأثرا برؤية أبي عيسى وبأفكاره.

المعتقدات والأفكار

١- زعم أبو عيسى أنه نبي، وأنه رسول المسيح المنتظر، وزعم أن للمسيح خمسة من الرسل يأتون قبله واحدًا بعد واحد، من بينهم موسى وعيسى عليهما السلام، ومحمد صلوات الله وسلامه عليه، وأنه هو خاتم المرسلين.

وقيل: إنه لم يعلن أنه الماشيَّح نفسه، وإنما المبشر به، أي الماشيَّح ابن يوسف الذي يُمهِّد لظهور الماشيَّح الحقيقي (الماشيَّح ابن داود).

٢- زعم أن الله تعالى كلمه وكلفه أن يخلص بني إسرائيل من أيدي الأمم العاصين والملوك الظالمين.

وزعم أن المسيح أفضل ولد آدم، وأنه أعلى منزلة من الأنبياء الماضين؛ وإذ هو رسوله فهو أفضل الكل أيضًا.

وكان يوجب تصديق المسيح، ويعظم دعوة الداعي، ويزعم أيضًا أن الداعي هو المسيح.

٣- حرم في كتابه الذبائح كلها، ونهى عن أكل كل ذي روح على الإطلاق طيرًا كان أو بهيمة، فمنع بذلك أكل اللحم، ومنع شرب الخمر، والنواح بسبب هدم الهيكل.

٤- أوجب عشر صلوات، وذكر البعض أنه جعلها سبعًا، وأمر أصحابها بإقامتها، وذكرَ أوقاتها، وخالف اليهود في كثير من أحكام الشريعة الكثيرة المذكورة في التوراة.

٥- منع الطلاق متأثرًا في ذلك بالنصرانيَّة.

٦- يقولون بنبوة عيسى ابن مريم ومحمد صلى الله عليه وسلم، ويقولون: إن عيسى بعثه الله عز وجل إلى بني إسرائيل على ما جاء في الإنجيل وأنه أحد أنبياء بني إسرائيل، ويقولون: إن محمدًا صلى الله عليه و سلم نبي أرسله الله تعالى بشرائع القرآن إلى بني إسماعيل عليهم السلام وإلى سائر العرب كما كان أيوب نبيًا في بني عيص، وكما كان بلعام نبيًا في بني موآب بإقرار من جميع فرق اليهود[1].

(١) انظر: الفصل (١/ ٨٢)، الملل والنحل (١/ ٢١٥، ٢١٦)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٨٣)، روح المعاني (٣/ ١٦٧)، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

اليودغانية أو اليوذعانية Yudghanism

التعريف:

يُقال: إن كلمة «يودغان» صيغة فارسية لكلمة «يهودا».

واليودغانية: نسبة إلى يودغان الأصفهاني أو الهمداني، وقيل: كان اسمه يهودا.

واليودغانية: هي فرقة يهودية ظهرت في القرن الثامن تزعم بأن يودغان هو الماشيَّح.

التاريخ والأحداث

عاش يوذعان في أصفهان -وربما في همدان- في النصف الأول من القرن الثامن.

وظهر يودغان بعد أبي عيسى الأصفهاني، ويُقال: إنه تلميذه، وقد ادعى يودغان النبوة، كما ادعى أنه الماشيَّح، وهو يشبه أبا عيسى في كثير من عقائده.

ومنهم الموشكانية: أصحاب موشكان، كان على مذهب يودغان غير أنه كان يوجب الخروج على مخالفيه ونصب القتال معهم؛ فخرج في تسعة عشر رجلًا فقتل بناحية قم.

وذكر عن جماعة من الموشكانية أنهم أثبتوا نبوة المصطفى محمد عليه الصلاة والسلام إلى العرب وسائر الناس سوى اليهود؛ لأنهم أهل ملة وكتاب.

ويُقال: إن عنان بن داود مؤسس المذهب القرّائي تأثر بأفكار يودغان.

العقائد والأفكار

١- ادعى يودغان النبوة، كما ادعى أنه الماشيَّح، واعترف برسالة كلٍّ من عيسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم.

٢- كان يزعم أن للتوراة ظاهرًا وباطنًا وتنزيلًا وتأويلًا، وخالف بتأويلاته عامة اليهود، وخالفهم في التشبيه، ومال إلى القدر وأثبت الفعل حقيقة للعبد، وقدر الثواب والعقاب عليه وشدد في ذلك.

٣- كان يحث على الزهد وتكثير الصلاة، وينهى عن أكل اللحوم وشرب الأنبذة، ويذهب إلى أن شعائر السبت والأعياد ليست ملزمة لليهود؛ فهي مجرد تذكرة لهم بالماضي، وفيما نقل عنه تعظيم أمر الداعي[١].

---

(١) انظر: الملل والنحل (١/٢١٦- ٢١٨)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٨٣)، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

النحمانيون Nahmanim

التعريف:

نسبة إلى داود بن سليمان، ويُدعى أيضًا داود الرائي أو الروحي، وقيل: إن كلمة «الروحي» أو «الرائي» تصحيف لكلمة «الدوحي»، وهو اسم أسرته بالعربيَّة.

سمَّى هو نفسه مناحِّم؛ أي «المواسِّي»، وهو أحد الألقاب التي كانت تُطلَق على الماشيَّح.

والنحاميون: فرقة يهودية ظهرت في القرن الثاني عشر تزعم بأن داود بن سليمان هو الماشيَّح.

التاريخ والأحداث

بدأت الحركة على يد سليمان -أبي داود- الذي أعلن أنه إليا المبشَّر به، ثم جاء داود وأعلن أنه هو الماشيح.

وداود بن سليمان من مواليد مدينة آمد في إقليم كردستان سنة ١١٣٥م، درس التوراة والمدراش والمشناه، كما أتقن علوم العرب التي كانت مزدهرة آنذاك وتعلَّم فنون السحر والتصوف اليهوديَّة.

وفي شمال شرق القوقاز، بدأت دعوته المشيحانية بين يهود الجبال، وذلك بعد هجوم قبائل الكبشاك -من شعوب الإستبس المقيمين حول البحر الأسود- وهو الهجوم الذي ألحق البؤس الشديد بأعضاء الجماعة اليهوديَّة.

وأخذ داود الرائي في نشر دعوته بين يهود بغداد والموصل والمناطق المحيطة، وتَجمَّعت حوله أعداد كبيرة من يهود أذربيجان.

وبعد أن انكسرت قواته، حاول نقل مركز حركته إلى آمد -في جبال كردستان- على الطريق الإستراتيجي الموصل بين مملكة الخزر اليهوديَّة التركية والممالك الصليبية.

وقد انتشرت حوله الشائعات، فأُشيع أنه أودع السجن ولكنه فرَّ منه بسحره.

وقد دعا الرائي يهود أذربيجان وفارس والموصل إلى أن يأتوا إلى آمد مخبئين أسلحتهم، ليشهدوا كيف سيستولي على المدينة.

ويبدو أن بعض المحتالين زيفوا خطابًا باسمه، وعد فيه يهود بغداد بأنه سينقلهم إلى القدس ليلًا على أجنحة الملائكة، وصدق كثيرون ما جاء في الخطاب، فانتظروا وصول الماشيَّح طوال الليلة الموعودة، وفي الصباح أصبحوا أضحوكة الجميع.

وفي نهاية الأمر، قتله والد زوجته بعد أن تقاضى مكافأة من حاكم المدينة.

وبعد مقتله، تحوَّل إلى أسطورة حافلة بالخوارق والمعجزات الخرافية، وقد بقى المؤمنون من يهود أذربيجان ينتظرون عودته، وقد كتب دزرائيلي رواية خيالية تدور أحداثها حوله[1].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

الرءوبينية Reuvenism

التعريف:

نسبة إلى ديفيد رءوبيني وهو ذو تطلعات مشيحانية في القرن السادس عشر.

التاريخ والأحداث

كان ديفيد رءوبيني يدَّعي أنه ابن لملك يُدعى سليمان، وأخ لملك يُدعى يوسف يحكم قبائل رءوبين وجاد، وكذلك نصف قبائل منَسَّى في خيبر بالقرب من المدينة المنورة، ومن هنا كان اسمه «الرءوبيني».

وقد كانت رواياته عن أهله متضاربة، فقد ذكر في مناسبة أخرى أنه من نسل قبيلة يهودا، وأنه رسول من ملك يُدعى يوسف.

وانتقل من بلد إلى آخر، حتى وصل إلى روما راكبًا فرسه الأبيض، وهي إحدى علامات الماشيَّح.

وذهب إلى البابا كليمنت السابع عام ١٥٢٤، وأخبره بأن أخاه لديه ثلاثمائة ألف جندي مدربين على الحرب، ولكنهم لسوء الحظ ينقصهم السلاح، وطلب إلى البابا تزويدهم بما ينقصهم حتى يمكنهم طرد المسلمين من فلسطين.

وقد استقبله البابا استقبالًا حسنًا، فقد كان رءوبيني يخبره أن رؤيته بالنسبة له كانت مثل رؤية الإله.

وقد التف يهود روما من حوله، واكتتبوا ببعض الأموال له، حتى يعيش على مستوى يليق بمقام سفير ملك اليهود.

وقد نجح رءوبيني في مقابلة ملك البرتغال عام ١٥٢٥، وفي التأثير فيه، حتى إنه أوقف محاكمات يهود المارانو الذين أحرز رءوبيني شعبية واسعة بينهم، وكان من بينهم ديوجو بيريس الذي أخذه الحماس فتهود وتختن وغيَّر اسمه إلى سولومون ملكو وتبع رءوبيني وكانت له هو الآخر تطلعات مشيحانية.

وحتى يؤكد ملكو أنه الماشيَّح، وكي ينفذ إحدى النبوءات الخاصة بالماشيَّح، ارتدى ملكو ملابس الشحاذين وجلس لمدة ثلاثين يومًا مع المرضى والشحاذين والعجزة على كوبري على نهر التيبر في روما.

وقد طلب الاثنان -رءوبيني وملكو- من إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة تشارلز الخامس تسليح المارانو ليحاربوا ضد المسلمين.

ولأسباب ما قبض عليهما الإمبراطور وسلمهما لمحاكم التفتيش التي حكمت بحرق ملكو

ونفذت فيه حكم الإعدام سنة ١٥٣٢م لخروجه على المسيحيَّة، حيث وشي به أنه كان مسيحيًا أبطن اليهوديَّة ثم أظهرها حينما سنحت الفرصة، وهو الأمر الذي كانت محاكم التفتيش لا تسمح به.

وأودع الآخر وهو رءوبيني السجن في إسبانيا حيث مات مسمومًا سنة ١٥٣٥م.

ولحياة رءوبيني دلالة عميقة، إذ يبدو أنه كان يرى أن مهمته تمهد للعصر المشيحاني، وربما إلى عودة الماشِيَّح، وبالتالي يمكن أن نعده قائد أولى الحركات ذات الطابع المشيحاني، والتي ظهرت تعبيرًا عن ضائقة أعضاء الجماعات اليهوديَّة وبداية أزمة اليهوديَّة نفسها في الغرب.

كما يمكننا أن نرى في سيرة حياة رءوبيني ملامح من الحل الصهيوني للمسألة اليهوديَّة.

فرغم استفادته من التطلعات المشيحانية لدى اليهود، لم يَدَّع أنه نبي أو ماشِيَّح، بل حاول أن يقدم برنامجًا سياسيًا واقعيًا عمليًا، وأن يقدم نفسه كقائد عسكري، ويُلاحَظ أيضًا أنه أكد الفائدة العسكرية لليهود.

وهذا ما حاولت الصهيونيَّة إنجازه، فقد قدمت نفسها هي الأخرى باعتبارها الحل السياسي العسكري الواقعي للمسألة اليهوديَّة.

وقد علمنت الصهيونيَّة التطلعات المشيحانية، وحولتها إلى حركة استيطانية.

وقد أدرك رءوبيني إمكانية الاستفادة من التطلعات العسكرية لأوربا نحو الشرق، ومن الصراعات الداخلية فيها.

فقد كان يعلم أن البابا يود تعزيز سلطته الدنيويَّة، وأن قيام حملة صليبية تحت رعايته لا بد أن تنجز مثل هذا الهدف.

وقد قدَّم هو حملته اليهوديَّة على أنها تفي بهذا الغرض.

والصهيونيَّة دائمة الاستفادة من الصراعات داخل العالم الغربي، ومن التطلعات الاستعمارية للغرب.

والواقع أن الحل الصهيوني ومخطط رءوبيني متماثلان، فكلاهما مبني على التحالف بين أعضاء الجماعات والغرب لتهجير اليهود وإعادة توطينهم في الشرق، وبذلك تتخلص أوربا منهم، وفي الوقت نفسه تفتح أجزاء من العالم المتخلف للنفوذ الغربي، أي أن حل رءوبيني شبه المشيحاني هو الحل الصهيوني الاستعماري.

ومن الأمور الأخرى التي تثيرها حياة رءوبيني أن الدعوة الاسترجاعية والألفية كانت أمرًا منتشرًا في أوربا بأسرها ليس بين أعضاء الجماعات اليهوديَّة وحسب، وإنما بين أعضاء النخبة الحاكمة الدينيَّة والسياسية.

فنجد أن شخصية أساسية مثل البابا يستقبل رءوبيني وتابعه ويبسط عليهما حمايته، رغم تحريم المسيحيَّة الكاثوليكيَّة للعقيدة الألفية وحربها ضدها آنذاك.

كما نجد أن ملك البرتغال هو الآخر يسلك السلوك نفسه، ولا شك في أن انتشار الأحلام الاسترجاعية نتيجة متوقعة لظهور الرؤية الإمبريالية الغربية(١).

الشبتانية Shabbateanism

التعريف:

الشبتانية: نسبة إلى شبتاي تسفي، الذي زعم بأنه هو الماشيح.

والحركة الشبتَّانية: مصطلح يُطلَق على الحركات المشيحانية الدينيَّة الباطنية -الغنوصية- اليهوديَّة التي ظهرت في الغرب وأطراف الدولة العثمانية بعد أن أسلم شبتاي تسفي، في القرن السابع عشر وما بعده.

التاريخ والأحداث

في أجواء تصاعُد الحمى المشيحانية، وقيام أعداد كبيرة من اليهود بالإعداد لوصول الماشيَّح ظهر شبتاي تسفين الذي وُلد في أزمير سنة ١٦٢٦م لأب إشكنازي يشتغل بالتجارة، فقد كان مندوبًا لشركتين تجاريتين: إحداهما بريطانية والأخرى هولندية، وكان إخوته أيضًا من التجار الناجحين.

وقد تلقَّى تسفي تعليمًا دينيًا تقليديًا، فدرس التوراة والتلمود، ولكنه استغرق في دراسة القبَّالاه وخصوصًا القبَّالاه اللوريانية بنزوعها الغنوصي.

ويبدو أن حياته النفسية لم تكن سوية، فقد كان محبًّا للعزلة، كثير الاغتسال والتعطر؛ حتى إن أصدقاءه الشبان كانوا يعرفونه برائحته الزكية.

وكان يظهر عليه ما يُسمَّى في علم النفس بالسيكلوثاميا، وهي حالة نشاط وهيجان بالغين يعقبهما انقباض وقنوط، وقد صاحبته هذه الحالة حتى الأيام الأخيرة من حياته.

وكثيرًا ما كان شبتاي يتغنى بالأشعار وينشد المزامير في حالة نشاطه.

وحيث إنه تلقى تعليمًا دينيًا تلموديًا كاملًا، فلم يتهمه أحدًا قط بالجهل.

وتزوج شبتاي بفتاة بولندية يهودية حسناء تُدعى سارة تربت في أحد الأديرة الكاثوليكيَّة أو ربما في منزل أحد النبلاء البولنديين إذ يبدو أن أباها كان من يهود الأرندا؛ أي وكيلًا ماليًّا للنبيل في منطقة أوكرانيا، ويبدو أنها كانت سيئة السمعة من الناحية الأخلاقية، وهناك من يقول: إنها كانت عاهرة، وكانت تدَّعي أنها لن تتزوج إلا الماشيَّح؛ ولذا فإن الإله قد أعطاها رخصة أن تعاشر من تشاء جنسيًّا إلى أن يظهر الماشيَّح ويعقد قرّانه عليها.

وحينما نشبت انتفاضة شميلنكي التي اكتسحت الإقطاع البولندي في أوكرانيا، كما اكتسحت

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية.

وكلاء النبلاء الإقطاعيين، كان أبواها من ضحاياها.

وقد قابل تسفي سارة في القاهرة، أو ربما سمع عنها، فأرسل إليها وتزوجها.

وفي عام ١٦٤٨م أعلن أنه الماشيَّح، ومخلص بني إسرائيل الموعود، ونطق باسم يهوه، وأعلن بطلان سائر النواميس والشريعة المكتوبة والشفوية.

ولتأكيد مشيحانيته، طلب أن تُزَفَّ التوراة إليه، فهي عروس الإله.

وقد تنقَّل تسفي في الأعوام العشرة التالية في مدن اليونان، فذهب إلى سالونيكا وغيرها، وقضى بضعة أشهر في إستنبول.

ونَظَّم أدعية أو ابتهالات تتلى في الصلوات للإله ليحلل ما حرَّم، وحينما زار القاهرة، انضم إلى حلقة من دارسي القبَّالاه كان من أعضائها رئيس الجماعة اليهوديَّة، روفائيل يوسف جلبي مدير خزانة الدولة.

ثم رحل إلى فلسطين عام ١٦٦٢ .

وقد بشَّر به اليهودي الإشكنازي نيثان الغزاوي عام ١٦٦٤م، على أنه الماشيَّح الصادق الموعود، وأنه ليس مجرد المسيح ابن يوسف، وإنما هو المسيح بن داود نفسه، وصار هو الداعية الأول له.

وأعلن نيثان أنه هو نفسه النبي المرسل من هذا الماشيَّح، وكتب عدة رسائل لأعضاء الجماعات اليهوديَّة يخبرهم فيها بمقدم الماشيَّح الذي سيجمع الشرارات الإلهية التي تبعثرت أثناء عملية الخلق، والذي سيستولى على العرش العثماني ويخلع السلطان، وهذه من الأفكار الأساسية للقبَّالاه اللوريانية.

وقد دخل شبتاي القدس في مايو عام ١٦٦٥م، وأعلن أنه المتصرف الوحيد في مصير العالم كله، وركب فرسًا -كما هو متوقع من الماشيَّح- وطاف مدينة القدس سبع مرات هو وأتباعه، وقد عارضه الحاخامات وأخرجوه من المدينة.

ولكن تسفي أعلن عام ١٦٦٦م أنه سيذهب إلى تركيا ويخلع السلطان.

وجاء في أول رسالة وجهها إلى اليهود: من أول ابن لله شبتاي تسفي، المسيح، مخلص شعب إسرائيل، إلى جميع أبناء إسرائيل . . . السلام . . . لما كان قد قدر لكم أن تكونوا جديرين برؤية اليوم العظيم، وإنجاز وعد الله إلى أبنائه، فلا بد أن تغيروا أحزانكم فرحًا وصومكم مرحًا؛ لأنكم لم تبكوا بعد الآن، فاستمتعوا وغنوا واستبدلوا باليوم الذي كان من قبل يقضى في حزن وآلام، يوم عيد؛ لأني ظهرت، . . . وقد زاد ذلك حدة التوقعات المشيحانية بين يهود أوربا وزاد حماسهم.

وقد وصلت الأنباء إلى لندن وأمستردام وهامبورج، ووجد له فيها أتباع، بالإضافة إلى أتباعه بالمشرق.

وصارت الجماهير اليهوديَّة تحمل بيارق الماشيَّح في بولندا وروسيا،

ومما يجدر ذكره أن أهم مؤسسة يهودية في العالم آنذاك، وهي مجلس البلاد الأربعة، اكتسحتها الحمى المشيحانية فأرسلت مندوبين عنها للحديث معه والاعتراف به، ولم تُصدر هذه المؤسسة قرارًا بطرده إلا عام ١٦٧٠ بعد تردُّد طويل.

بل إن بعض الأوساط المسيحيَّة بدأت تؤمن بأن تسفي سيُتوَّج ملكًا على فلسطين.

وحينما حاول حاخامات أمستردام الاعتراض على رسائل تسفي وما جاء فيها، كادت الجماهير تفتك بهم.

ولقد باع بعض الأثرياء كل ما يملكونه استعدادًا للعودة، واستأجروا سفنًا لتنقل الفقراء إلى فلسطين، واعتقد البعض الآخر أنهم سيُحمَلون إلى القدس على السحاب.

وسيطرت الهستريا على الجماهير، فكان أتباعه يُغشَى عليهم ويرونه في رؤاهم ملكًا متوجًا.

وانقسم كثير من الجماعات اليهوديَّة بصورة حادة، وبدأ تسفي في توزيع الممالك على أتباعه، واحتفظ لنفسه بلقب ملك الملوك، وألغى الدعاء للخليفة العثماني الذي كان يُتلى في المعبد اليهودي، ووضع بدلًا من ذلك الدعاء له هو نفسه كملك على اليهود ومخلِّص لهم.

وأخذ تسفي يضفي على نفسه ألقابًا يوقع بها رسائله، ومن هذه الألقاب: «ابن الإله البكر»، و«أبوكم إسرائيل»، و«أنا الرب إلهكم شبتاي تسفي».

وتوجَّه تسفي إلى إستنبول في فبراير عام ١٦٦٦م حيث أُلقي القبض عليه، فتم سجنه في قلعة جاليبولي المخصصة للشخصيات المهمة.

وقد تحوَّل السجن بالتدريج إلى بلاط ملكي لشبتاي تسفي، فكان يحتفظ بعدد كبير من الحريم، ومع هذا كانت له تصرفات تنم عن ميول نحو الشذوذ الجنسي، أي أنه كان مخنثًا.

وكان الحجاج يأتونه من كل بقاع الأرض، وكُتبت الأناشيد الدينيَّة تسبيحًا بحمده، وأُعلنت أعياد جديدة وطقوس جديدة.

فألغى صيام اليوم السابع عشر من تموز من التقويم اليهودي، كما ألغي صيام التاسع من آب وجعله عيدًا لميلاده.

وقد أعلن نيثان -والذي يعد من أكبر أتباعه والداعين إليه- أن التغييرات الحادة التي تطرأ على مزاج الماشيَّح تعبير عن الصراع الدائر داخل نفسه بين قوى الخير والشر.

وفي سبتمبر من ذلك العام، جاء الحاخام القبَّالي نحميا من بولندا لزيارة شبتاي، وقضى ثلاثة أيام في الحديث معه رفض بعدها دعواه بأنه الماشيَّح، بل أخبر السلطات التركية بأنه يحرض على الفتنة، فقُدِّم للمحاكمة وخُيِّر بين الموت أو أن يعتنق الإسلام، فأشهر إسلامه، وتسمى باسم محمد أفندي، وتعلَّم العربيَّة والتركية ودرس القرآن.

وأسلمت زوجته من بعده، ثم حذا حذوه كثير من أتباعه الذين أصبح يُطلَق عليهم اسم «دونمه».

واستمر في قيادة حركته، وظل كثير من أتباعه على إيمانهم به؛ لأن الماشيَّح في التصور القبَّالي سيكون خَيِّرًا من داخله، شريرًا من خارجه، وهذه مواصفات تنطبق على تسفي تمام الانطباق.

ويتضح هنا تأثر تسفي بتفكير يهود المارانو بشأن ضرورة أن يُظهر المرء غير ما يُبطن.

وطلب من الدولة السماح له بالدعوة في صفوف اليهود فسمحت له بذلك فعمل بكل خبث واستفاد من هذه الفرصة للنيل من الإسلام.

واتضح للحكومة العثمانية بعد أكثر من عشر سنوات أن إسلام شبتاي كان خدعة فنفته إلى ألبانيا حيث مات هناك بوباء الكوليرا عام ١٦٧٦ .

وقد تأسست بعد موت تسفي مراكز شبتانية في أطراف الدولة العثمانية في البلقان، وفي كلٍّ من إيطاليا وبولندا وليتوانيا.

وأهم الحركات الشبتانية هي حركة جيكوب فرانك.

ولقد كانت الحركة الشبتانية منتشرة بشكل عميق في أوربا؛ إذ ظل الشبتانيون داخل اليهوديَّة الحاخامية، وأبطنوا آراءهم، وقاموا بالدعوة لها سرًّا، حتى إن أحد عُمُد اليهوديَّة الحاخامية وهو الحاخام جوناثان إيبيشويتس (١٦٩٠-١٧٦٤) كان من دعاتها.

وقد أصبح الشبتانيون من أهم العناصر الثورية والعدمية في أوربا واحتفظوا بآرائهم داخل أنفسهم، حتى ظهرت الثورة الفرنسيَّة، فصار كثير منهم من دعاتها ورسلها.

وكان موسى دوبروشكا، أحد المرشحين لرئاسة حركة فرانك، من زعماء الثورة الفرنسيَّة ممن أُعدموا مع دانتون عام ١٧٩٤م[١].

الدونمه Donmeh

التعريف:

الدونمه: كلمة تركية بمعنى المرتدين، وفي تفسيرها قولان:

١- أن كلمة «دونمه» مكوَّنة من كلمتين تركيتين مدغمتين «دو» بمعنى «اثنين»، و«نمه» بمعنى «عقيدة» فهم أصحاب عقيدتين واحدة ظاهرة وهي الإسلام، والثانية مبطنة وهي اليهوديَّة.

٢- أن الكلمة مشتقة من كلمة «دونماك» بمعنى «العائدين»؛ أي يهود المارانو الذين هاجروا من شبه جزيرة أيبريا إلى الدولة العثمانية.

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، اليهودية ص(٢١٥- ٢١٧).

وقد أُطلق هذا الاسم على جماعة يهودية تركية شبتانية من اليهود المتخفين استقرت في سالونيكا -في اليونان حاليًا- وأشهرت إسلامها تشبُّهًا بشبتاي تسفي.

فقد اعتقد كثيرون من أتباعه المؤمنين به أن ارتداده عن دينه واعتناقه الإسلام تلبية لأمر خفي من الرب وتنفيذ للإرادة الإلهية، فحذوا حذوه، ولكنهم ظلوا متمسكين سرًّا بتقاليد اليهوديَّة.

وكان مركز الجماعة في بادئ الأمر في أدرنة ثم انتقل إلى سالونيكا.

وأسهموا في تقويض الدولة العثمانية وإلغاء الخلافة عن طريق انقلاب حزب الاتحاد والترقي.

فرق الدونمه

تنقسم الدونمه إلى عدة فرق:

١- اليعاقبة أو اليعقوبلية.

بعد موت تسفي، أعلنت آخر زوجاته أن روح زوجها قد حلت في أخيها يعقوب فيلسوف -أو يعقوب قويريدو، أي المحبوب- وأن تسفي تجسَّد مرة أخرى من خلاله.

وقد اعتنق أتباع يعقوب الإسلام وتسمى باسم عبد الغفور أفندي، بل أدَّى هو فريضة الحج عام ١٦٩٠م ومات أثناء عودته.

وقد تبعه ما يقرب من ثلاثمائة أسرة انقسمت عن جماعة الدونمه ككل، ويرى البعض أنه هو مؤسس الدونمه.

وقد سُمِّي أتباع يعقوب «اليعقوبلية»؛ أي «اليعقوبيون»، وهم يسمون باللادينو «أرابادوس»، أي «الحليقون النظفاء»؛ لأنهم يحلقون شعور رءوسهم تمامًا، وإن كانوا يرسلون لحاهم.

وكان الأتراك يسمونهم «الطربوشلوه»؛ أي «لابسو الطرابيش»؛ لأنهم كانوا يرتدون الطرابيش.

ويضم هذا الفريق أساسًا أفرادًا من الطبقات الوسطى أو الدنيا من الموظفين الأتراك.

وهم مندمجون في المجتمع التركي تمامًا، على الأقل من الناحية الشكلية.

٢- الأزميرلية.

وقد أُطلق على بقية الدونمه اسم «الأزميرلية»، ولكنهم ما لبثوا أن انقسموا إلى قسمين:

الأول: القنهيلية «(القونيوسوس» باللادينو، و«كاركاشلر» بالتركية).

وقد حدث انقسام آخر في صفوف هؤلاء عام ١٧٠٠م حين ظهر قائد جديد هو باروخيا روسو الذي أعلن أنه تجسُّد جديد لشبتاي تسفي وأعلن أتباعه أنه التجسد أو التجلي المقدَّس وأنه ربهم.

وكان باروخيا روسو -وكان اسمه التركي مصطفى شلبي، كما كان يُعرَف باسم الحاخام باروخ فونيو- أكثر الدونمه راديكالية؛ فقد قام بتعليم التوراة المشيحانية الخفية، أو توراة التجليات التي

تطالب بقلب القيم، فطالب على سبيل المثال بإيقاف العمل بالستة والثلاثين حظرًا التي وردت في التوراة والتي تُعرَف باسم «القاطعة» (بالعبريَّة: كيريتوت)، وقد كانت عقوبة من يخالفها هو اجتثاث الروح من جذورها وإبادتها تمامًا، بل وحوَّلها إلى أوامر واجبة الطاعة.

وقد كان ذلك يتضمن العلاقات الجنسية، ومن ذلك العلاقات بين المحارم.

وأعضاء هذه الفرقة من الدونمه هم أساسًا من الحرفيين، مثل الحمالين والإسكافيين والجزارين، ويُقال: إن جميع الحلاقين في سالونيكا كانوا من أتباع هذه الفرقة.

وكانوا يرسلون لحاهم ولا يحلقون شعر رأسهم.

وتُعَدُّ فرقتهم أكثر الفرق تطرفًا؛ نظرًا لعدميتهم الدينيَّة، وقد قام هذا الفريق من الدونمه بنشاط تبشيري كثيف بين أعضاء الجماعات اليهوديَّة، وأُسِّست جماعات تابعة له في أماكن عدة.

وقد ظهرت الحركة الفرانكية من أحد هذه الأماكن.

الثاني: القبانجي.

بعد موت باروخيا، انفصلت مجموعة أخرى سُمِّيت «القبانجي»، وهي كلمة تركية تعني «القدماء»، أو «القائمون على حراسة الأبواب» (باللادينو: «كافاليروس»)، رفضوا الاعتراف بقويريدو، كما رفضوا الطبيعة المشيحانية لباروخيا، ولم يعترفوا إلا بشبتاي تسفي، وأصبح اسم «الأزميرلية» يُطلَق عليهم وحدهم، وأصبحوا أرستقرّاطية الحركة الشبتانية.

وتضم هذه الفرقة المهنيين من أطباء ومهندسين، وأصحاب المهن الحرة وأثرياء اليهود.

وهؤلاء كانوا يحلقون رءوسهم ولا يطلقون لحاهم.

وكان كل فريق من الدونمه يعيش بمعزل عن الآخر.

العقيدة والأفكار

١- يؤمنون بألوهية شبتاي تسفي، وأنه الماشيِّح المنتظر الذي أبطل الوصايا العشر وغيرها من الأوامر والنواهي.

٢- يقولون: إن الجسم القديم لشبتاي صعد إلى السماء فعاد بأمر الله في شكل ملاك يلبس الجلباب والعمامة ليكمل رسالته.

٢- يرون أن التوراة المُتداوَلة -توراة الخلق- فارغة من المعنى وأنه أحل محلها توراة التجليات، وهي التوراة بعد أن أعاد تسفي تفسيرها.

٣- يحمل كل عضو من أعضاء الدونمه اسمين: اسم تركي مسلم، وآخر عبري يُعرَف به بين أعضاء مجتمعه السري.

٤- يظهرون الإسلام ويبطنون اليهوديَّة، فكانوا يتدارسون التلمود مع بقية اليهود ويستفتون الحاخامات فيما يقابلهم من مشاكل، كما كانوا يحتفلون بجميع الأعياد اليهوديَّة ويقيمون شعائرهم

عدا شعيرة الكف عن العمل يوم السبت حتى لا يلفتوا النظر إلى حقيقتهم.

وقد أضافوا إلى الأعياد عيدًا آخر اعتبروه أقدس الأعياد على الإطلاق وهو عيد ميلاد شبتاي تسفي.

ولهم أعياد كثيرة تزيد على العشرين منها: الاحتفال بإطفاء الأنوار وارتكاب الفواحش، ويعتقدون أن مواليد تلك الليلة مباركون ويكتسبون نوعًا من القدسية بين أفراد الدونمه.

٥- لا يصومون ولا يصلون ولا يغتسلون من الجنابة، وقد يظهرون بعض الشعائر الإسلاميَّة في بعض المناسبات كالأعياد مثلًا إيهامًا وخداعًا ومراعاة لعادات الأتراك ذرًّا للرماد في عيونهم ومحافظة على مظاهرهم كمسلمين.

٦- يحرمون مناكحة المسلمين ولا يستطيع الفرد منهم التعرف على حياة الطائفة وأفكارها إلا بعد الزواج.

٧- لهم زي خاص بهم، فالنساء ينتعلن الأحذية الصفراء والرجال يضعون قبعات صوفية بيضاء مع لفها بعمامة خضراء.

٨- يحرمون المبادرة بالتحية لغيرهم.

٩- يهاجمون حجاب المرأة، ويدعون إلى السفور والتحلل من القيم، ويدعون إلى التعليم المختلط ليفسدوا على الأمة شبابها.

١٠- عقيدتهم يهودية صرفة وبالتالي فهم يتحلون بالخصال الأساسية لليهودية، كالخبث والمراوغة والدهاء والكذب والجبن والغدر.

١١- يدفنون موتاهم في مدافن خاصة بهم، وكل فريق منهم يتعبد في معبده الخاص الذي يُسمَّى: القهال -الجماعة أو جماعة المصلين-، والذي يوجد عادةً في مركز الحي الخاص بهم مخبأ يخفيهم عن عيون الغرباء.

١٢- كانت صلواتهم وشعائرهم تُكتَب في كتب صغيرة الحجم حتى يَسهُل عليهم إخفاؤها، ولهذا لم يطلع عليها أحد حتى عام ١٩٣٥م.

وكانت كتب الصلوات بالعبريَّة أصلًا، لكن اللادينو حلت محل العبريَّة سواء في الأدب الديني أم الدنيوي، ثم حلت التركية محل اللادينو في منتصف القرن التاسع عشر.

١٣- اتهمت الدونمه -أو على الأقل إحدى فرقها- بالاتجاهات الإباحية وبالانحلال الخلقي والانغماس في الجنس، وذلك بسبب تحليل الزيجات التي حرمتها الشريعة اليهوديَّة وبسبب الحفلات التي كانوا يقيمونها ويتبادلون خلالها الزوجات.

وللدونمه صيغة خاصة من الوصايا العشر لا تُحرِّم الزنى، بل إنها تُحوِّل عبارة «لا تزنِ» إلى ما يشبه التوصية بأن يتحفظ الإنسان فقط في ارتكاب الزنى وليس أن يمتنع عنه تمامًا.

والموعظة الطويلة التي تركها أحد زعمائهم تحتوي على دفاع قوي عن إسقاط التحريمات الخاصة بالجنس في توراة الخلق.

١٤- تؤكد الموسوعة اليهوديَّة أنهم يعقدون احتفالات ذات طابع عربيدي داعر في عيد من أعيادهم الذي يُسمَّى عيد الحمل في ٢٢ مارس/آدار، وهو عيد بداية الربيع.

وتم أخيرًا إزاحة النقاب عن سر الدونمه بعد أن نجحت طويلًا في إخفاء حقيقة أمرها عن المسلمين واليهود على السواء، فقد ظهرت وثائق ومخطوطات كشفت عن عدميتهم المتأصلة وبعدهم التام عن الإسلام وعن اليهوديَّة.

الأعداد والتواجد الحالي

لا تُعرَف أعداد الدونمه إلا على وجه التقريب.

ويُقال: إن عددهم وصل إلى ما بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفًا قبل الحرب العالمية الأولى.

وقد تَفرَّق شملهم على أثر اتفاقية تبادل السكان التي وقعتها تركيا واليونان بعد الحرب عام ١٩٢٤م بسبب اضطرار أعضائها، باعتبارهم مسلمين اسمًا، إلى ترك مقرهم في سالونيكا والاستقرار في جهات متفرقة في تركيا، خصوصًا إستنبول.

وقد حاولوا أن ينضموا مرة أخرى إلى الجماعة اليهوديَّة، ولكن طلبهم رُفض؛ لأن أولادهم يُعتبَرون غير شرعيين.

والدونمه يعملون ضمن مخططات الصهيونيَّة العالمية.

ولم يكن بين المهاجرين اليهود الأتراك إلى إسرائيل غير أفراد قلائل من الدونمه.

وتتركز الغالبية العظمى للدونمه في تركيا، وقد لعب الكثير من أعضائها دورًا قياديًا في الثورة التركية سنة ١٩٠٩م، وخصوصًا داود بك الذي أصبح فيما بعد وزيرًا للمالية، وكان من نسل باروخيا رئيس الجماعة القنهيلية المتطرفة.

وثمة دلائل تشير إلى أن القنهيلية استمرت موجودة حتى الستينيات، وأنها لا تزال تبقي على إطارها التنظيمي، وأن رئيس الجماعة أستاذ في جامعة إستنبول.

ويُشاع بين يهود سالونيكا أن كمال أتاتورك نفسه كان من الدونمه.

ولا يزالون إلى الآن يملكون في تركيا وسائل السيطرة على الإعلام والاقتصاد ولهم مناصب حساسة جدًا في الحكومة، مع كونهم يشكلون نصف الجهاز الحكومي.

وهم وراء تكوين حزب الاتحاد والترقي المتشبع بالعصبية الطورانية المعادية للعروبة والإسلام حتى يومنا هذا.

وللدونمه علاقة وثيقة بالحركات الماسونية في تركيا ويلعبون دورًا نشيطًا في عملية علمنة تركيا، وهو ما يُعطي الحركة الماسونية طابعًا خاصًا، وكبار الدونمه من كبار الماسونيين.

ويمتلكون ويديرون أكثر الجرائد التركية انتشارًا مثل: جريدة حريت، ومجلة حياة، ومجلة التاريخ، وجريدة مليت، وجريدة جمهوريت وكلها تحمل اتجاهات يسارية ولها تأثر واضح على الرأي العام التركي(١).

الفرانكية Frankist

التعريف:

الحركة الفرانكية نسبة إلى جيكوب فرانك، الذي أعلن بأنه الماشيح.

والفرانكية مجموعة من اليهود الذين تنصروا في القرن الثامن عشر -عام ١٧٥٩م- وأبطنوا اليهوديَّة، ويعدون امتدادًا لأفكار الحركة الشبتانية، ويلتزمون الإباحية والانحلالية وإسقاط الشرائع والأوامر والنواهي.

التاريخ والأحداث

نشأت الحركة الفرانكية على يد جيكوب فرانك الذي وُلد في بودوليا، ودرس في مدرسة دينية أولية خاصة، وعمل في بوخارست كتاجر ملابس وأحجار نفيسة، كما عمل في وظائف أخرى عديدة أتاحت له أن يتنقل بين مدن البلقان التابعة للدولة العثمانية في الفترة من ١٧٤٥ إلى ١٧٥٥م.

اتصل فرانك بأتباع الحركة الشبتانية في مرحلة مبكرة من حياته، ودرس الزوهار، واتبع مذهب الدونمه (طائفة الباروخيا أو اليعقوبيَّة المتطرفة).

وسافر في عام ١٧٥٣م إلى سالونيكا لأول مرة، وتعرَّف على أتباع باروخيا، وسافر إلى بعض المدن العثمانية الأخرى، ثم عاد إلى سالونيكا عام ١٧٥٥م وبدأ يتلبس دور الماشيِّح.

وأعلن فرانك أن الروح التي كانت تسكن في شبتاي تسفي وباروخيا قد تقمصته، وأنه تجسيد جديد لها.

ضُبط فرانك عام ١٧٥٦ وهو يقود إحدى الجماعات الشبتانية في طقوس ذات طابع جنسي تشبه طقوس جماعة «اليعقوبيَّة».

سافر إلى تركيا ومكث فيها بعض الوقت، واعتنق الإسلام عام ١٧٥٧م، ولكنه كان يزور أتباعه في بودوليا سرًا.

وأُجريت مناظرة علنية سنة ١٧٥٩م بين الفرانكيين والحاخامات انتهت بتَقَبُّل فرانك التعميد والتنصر ولكنه كان تنصرًا على الطريقة المارانية (الظاهرية).

وقد عَيَّن فرانك اثني عشر من الإخوة أو الحواريين أو الرسل، هم تلاميذه الأساسيون (مثل

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الموسوعة الميسرة (١/٥٠٧- ٥٠٩).

حواريي المسيح)، ولكنه عَيَّن أيضًا اثنتي عشرة أختًا كنَّ في واقع الأمر خليلاته، فمن الواضح أن فرانك استمر في الممارسات الجنسية التي كان يمارسها باروخيا.

وقد اكتُشف أمر فرانك وجماعته، فقُبض عليه وأودع السجن، واستمر أتباعه في تقديسه واعتبروه الماشيَّح المعذَّب.

ومات فرانك عام ١٧٩٩م ودُفن في مقابر المسيحيين، وخلفته ابنته الحسناء إيف في قيادة الجماعة، واستمرت هي الأخرى، مثلها مثل أبيها، في الممارسات الجنسية الشاذة.

أما أتباعه المتنصِّرون فأصبح بعضهم من كبار النبلاء البولنديين، كما انخرط كثير من أبنائهم في سلك حركة التنوير اليهوديَّة وفي الحركات الليبرالية والماسونية، وكان من بينهم بعض رجالات الثورة الفرنسيَّة، وهذا ترجمة لمفهوم عبء الصمت حيث ينخرط الفرانكي في عدة ديانات ومؤسسات بهدف تقويضها من الداخل ثم نبذها بعد ذلك.

وكان معظم أتباع فرانك من الفقراء أو من اليهود الذين يشغلون وظائف هامشية أو وظائف لم يَعُد لها نفع.

فكان منهم الذين يعملون في تقطير الكحول، وكان منهم أصحاب حانات وأعضاء في الطبقات من بقايا يهود الأرندا، وكان هؤلاء قد فقدوا علاقتهم بالمؤسسة الحاخامية وزادت علاقتهم بالفلاحين السلاف، حتى إنهم تأثروا بفكرهم ومعتقداتهم.

كما انضم إليه عدد كبير من صغار الحاخامات الذين لم يحققوا ما كانوا يطمحون إليه من نجاح.

ومع هذا، فقد كانت الحركة تضم غير قليل من كبار التجار الأثرياء.

العقائد والأفكار

تدور العقيدة الفرانكية حول ثالوث جديد يتكون مما يلي:

١- الإله الخيِّر، أو الأب الطيب.

وهو إله خفي يختبئ وراء ثاني أعضاء الثالوث، ولا علاقة له بعملية الخلق أو المخلوقات، فهو لم يخلق الكون، فلو أنه خلق الكون لأصبح هذا الكون خالدًا وخيِّرًا، ولكانت حياة الإنسان أبدية.

٢- الأخ الأعظم أو الأكبر، ويُسمَّى أيضًا «هذا الذي يقف أمام الإله».

وهو الإله الحقيقي للعقيدة الذي يحاول العبد التقرب منه، ومن خلال الاقتراب منه يستطيع العابد أن يحطم هيمنة حكام العالم الثلاثة (قيصر روسيا، والسلطان العثماني، وحاكم إحدى القوى العظمى الأخرى ولعلها النمسا أو ألمانيا) الذين يهيمنون على العالم ويفرضون عليه شريعة غير ملائمة.

٣- الأم «علماه»، أو العذراء «بتولاه»، أو «هي».

وهي خليط من الشخيناه والعذراء مريم.

وصورة الأنثى في الثالوث الفرانكي جعلت العنصر الجنسي الكامن في القبَّالاه اللوريانية أو في الحركة الشبتانية عنصرًا أكثر وضوحًا.

وقد استخلص الفرانكيون أن التجربة الدينيَّة الحقة لا بد أن تأخذ شكل ممارسة جنسية.

ولن يصل العالم إلى الخلاص إلا باكتمال الثالوث الجديد السابق. وشبتاي تسفي نفسه، حسب التصور الفرانكي، ليس إلا أحد تجليات الإله، فهو تجسيد جديد للأخ الأعظم، ولكنه تملَّكه الضعف وهو بعد في منتصف الطريق، فلم يستطع تحقيق أي شيء.

ووصولًا إلى الخلاص، لا بد أن يظهر ماشيَّح جديد يكمل الطريق، ولا بد أيضًا أن تظهر العذراء (تجسيد العنصر الأنثوي).

وحتى يتحقق الخلاص، ينبغي أن يسير المؤمن بالعقيدة الفرانكية في طريق جديد تمامًا، لم يطرقه أحد من قبل، وهو طريق عيسو (أدوم) الذي يُشار إليه في الأجاداه بلفظ «أدوم» ويُستخدَم اللفظ نفسه للإشارة إلى «روما»، أي القوى الكاثوليكيَّة.

فعيسو رمز تَدفُّق الحياة الذي سيحرر الإنسان والحياة فهو قوة لا تخضع لأي قانون.

وقد جاء في التوراة أن يعقوب قال: إنه سيزور أخاه (سفر التكوين ٣٣/ ١٤) ولكنه لم يفعل؛ لأن الطريق كان صعبًا عليه.

وقد حان الوقت لأن يسير الماشيَّح في ذلك الطريق الذي يؤدي إلى الحياة الحقة التي تحمل كل معاني الحرية والإباحية.

فالطريق الجديد يؤدي إلى عالم لا توجد فيه قوانين ولا حدود، عالم تم فيه التجرد من كل الشرائع والقوانين والأديان، لكنه عالم ليس فيه حدود -والحد بمعنى «الحاجز الذي يفصل بين شيئين»، وبمعنى «عقوبة مُقدَّرة وجبت على الجاني»، وبمعنى «حدود الشخصية» أي هويتها-، وتصبح العدمية والتخريب هما طريق الخلاص.

إن هذا العالم الشرير لم يخلقه الإله الخفي، وهو مادة دنيئة تقف في وجه وصول الإنسان إلى الأخ الأعظم.

وحتى يتم إنجاز هذا الهدف، لا بد أن تُحطَّم كل القوانين والتعاليم والممارسات التي تعوق تدفُّق الحياة: «لقد أتيت لأحرر العالم من كل الشرائع والعادات الموجودة فيه. إن مهمتي هي إزالة كل شيء حتى يستطيع الإله أن يكشف عن نفسه».

ثم تظهر العدمية الدينيَّة بشكل أوضح في الحديث عن الطريق إلى الحياة الجديدة، فهو طريق جديد تمامًا، وكما يقول فرانك: «أينما كان يخطو آدم، كانت تنشأ مدينة. لكن أينما أضع أنا قدمي، يجب أن يُدمَّر كل شيء، فقد أتيت إلى هذا العالم لأدمِّر وأبيد».

والطريق الجديد طريق غير مرئي، لا يكون إلا في الخفاء.

ولذا، فإنه يتعين على المؤمنين أن يرتدوا رداء عيسو (أي المسيحيَّة)، فعليهم أن يتظاهروا بالتنصر.

وقد عبر المؤمنون إلى الأمة اليهوديَّة والإسلام (الإشارة إلى شبتاي تسفي) ولم يبق سوى المسيحيَّة.

والمؤمن الحق يختبئ تحت «عبء الصمت» يحمل الإله في قلبه الصامت فيعتنق الديانات الواحدة تلو الأخرى ويمارس شعائرها.

لكن التغلب على الأديان الأخرى وتدميرها يتطلب من الفرد أن يكون صامتًا تمامًا ومخادعًا: «فالإنسان الذي يرغب في غزو حصن لا يفعل ذلك بالكلام والإعلان، بل يتسلل إليه في صمت وسكون، لقد تحدَّث الأجداد كثيرًا، لكنهم لم يفعلوا شيئًا؛ لذلك يجب الآن تَحمُّل الصمت. وحينئذ، لن يكون الفرد في حاجة إلى الدين».

وحينما يمارس المؤمن طقوس الديانات الأخرى دون أن يتقبل أيًا منها، بل يحاول أن يحطمها من الداخل، فهو يؤسس الحرية الحقة؛

فالواقع أن الديانة المنظمة على أساس مؤسسي التي يعتنقها اليهودي المتخفي ليست سوى عباءة يرتديها المرء كرداء يلقي به -فيما بعد- في طريقه إلى المعرفة المقدَّسة، وهي المعرفة الغنوصية بالمكان الذي تُحطَّم فيه كل القيم التقليدية في تيار الحياة، طريق غير مرتبط بأي قانون وإنما مرتبط بإرادة فرانك وحده.

وإذا كان الإفصاح عن الإيمان بالمسيحيَّة ضروريًا، فإن الاختلاط بالمسيحيين وكذلك الزواج منهم محظور.

وفرانك نفسه تجسيد آخر للأخ الأعظم تقمصته الروح القدس، وقد سَمَّى نفسه «سانتو سنيورا»؛ أي «السيد المقدَّس»، وروج للمفهوم القبَّالي اللورياني للشر، وهو مفهوم يرى أن الشر ليس حقيقيًا، وكل شيء، وضمن ذلك الشر نفسه، هو خير أو علقت به شرارات إلهية على الأقل.

ومن هنا، فقد أعلن فرانك أن ظهور الماشيَّح أضفى القداسة على كل شيء في الحياة حتى الشر.

وبهذا، برزت فكرة «الخطيئة المقدَّسة» التي ترى أنه ينبغي الوقوع في الخطيئة الكبرى حتى ينبثق عالم لا مكان فيه للخطيئة، عالم هو الخير كله.

ولكي يصعد الإنسان، يجب عليه أن يهبط أولًا: «إنني لم آتِ إلى هذا العالم لكي أصعد بكم، بل لأهبط بكم إلى قاع الهوة، حيث لا يستطيع الإنسان أن يصعد بقوته الذاتية».

أما النزول إلى تلك الهوة، فهو لا يقتضي فقط ترك كل الأديان والمعتقدات، بل يوجب أيضًا اقتراف أعمال آثمة غريبة.

وهذا يتطلب أن يتخلى الإنسان عن الإحساس بذاته إلى درجة تصبح معها الوقاحة والفجور هما

ما يقود إلى إصلاح الأرواح.

وأعلن فرانك أنه سيخلص العالم من كل النواميس الموجودة وسيتجاوز كل الحدود، فقضى ببطلان الشريعة اليهوديَّة.

ورغم أن الإله أرسل رسلًا إلى بني إسرائيل، فإن التوراة تتضمن شرائع يصعب مراعاتها وثبت عدم جدواها.

والشريعة الحقة هي إذن التوراة الروحية أو توراة الفيض التي أتى بها شبتاي تسفي.

وشن فرانك حربًا شعواء على التلمود، وأعلن أن الزوهار هو وحده الكتاب المقدَّس.

وكان الفرانكيون يُدعَون باسم «الزوهاريين» لهذا السبب؛ ومع هذا، وصلت العدمية بفرانك إلى منتهاها إذ طلب من أتباعه التخلي عن الزوهار نفسه، وعن كل تراث قبَّالي.

كانت كل هذه الأفكار تعمل على إعداد أتباعه للتنَصُّر الماراني الظاهري، حيث كان لهم شرط أساسي هو الاحتفاظ بشيء من هويتهم اليهوديَّة العلنية كأن يمتنعوا عن حلاقة سوالفهم، وأن يرتدوا الثياب الخاصة بهم، ويُبقوا أسماءهم اليهوديَّة إلى جانب أسمائهم المسيحيَّة الجديدة، وألا يأكلوا لحم الخنزير، وأن يستريحوا يوم السبت، ولعل من المفارقات أن مثل هذه الشعائر السطحية كانت كل ما تبقى من اليهوديَّة بالنسبة للبعض.

كما طالبوا بإعطائهم رقعة أرض في شرق جاليشيا تستطيع جماعتهم أن تؤسس فيها حياتها الجديدة، وخصوصًا أن مسرح الخلاص في الرؤية الفرانكية هو بولندا وليس صهيون.

هذا مع وضع برنامج لتحويل اليهود إلى قطاع منتج، كأن يعملوا بالزراعة مثلًا.

وقد أكد فرانك أهمية الجوانب العسكرية في تنظيمه.

وكان ينادي بأن يترك اليهود الكتب والدراسات الدينيَّة، وأن يتحولوا إلى شعب محارب.

حبد Habad

التعريف:

حبد: اختصار للكلمات العبريَّة الثلاث: «حوخماه» و«بيناه» و«دعت»؛ أي «الحكمة» و«الفهم» و«المعرفة».

وهي أعلى درجات التجليات النورانية العشرة (سفيروت).

التاريخ والأحداث

حبد حركة حسيدية أسسها شنياءور زلمان في روسيا البيضاء في قرية لوبافيتش، ولذا يشار إليها أحيانًا على أنها حركة لوبافيتش، ويُشار إلى قائد الحركة على أنه «اللوبافيتشر ربي»؛ أي «حاخام لوبافيتش».

ويكمن الاختلاف بينها وبين الحركة الحسيديَّة الشعبية المعروفة في أنها أقل عاطفية، وأكثر فكرية رغم صوفيتها وحلوليتها؛ فالتجليات العاطفية جاءت بعد التجليات الفكريَّة.

كما أنها تبتعد عن بعض المفاهيم الحسيديَّة المتطرفة مثل: التسامي عن طريق الغوص في الرذيلة.

وقد أسقط أتباع مدرسة حبد استخدام كلمة «تساديك» وعادوا إلى استخدام كلمة «حاخام».

وقد بدأت الحركة تمارس نشاطها مؤخرًا في روسيا وأوكرانيا.

ولحبد فرع في إسرائيل، ويتبعها بعض المستوطنات الزراعية.

ويُلاحَظ انتشار أفكارها العنصرية في الآونة الأخيرة.

وقد قالت شالوميت ألوني عضو الكنيست: إن الجماعة صعَّدت دعايتها العنصرية قبل غزو لبنان، وطلبت إلى الأطباء والممرضات ألا يعالجوا جَرْحَى الأغيار؛ أي العرب.

ومن أهم أتباع حبد اثنان من رؤساء دولة إسرائيل السابقين هما زلمان شازار وأفرايم كاتزير.

كما أن عددًا كبيرًا من أعضاء جماعة جوش إيمونيم من أتباع حبد.

وقد دخلت حبد الانتخابات الإسرائيلية عام ١٩٨٨م، تأييدًا لحركة أجودات إسرائيل الدينيَّة، وقد ارتفع عدد نوابها في البرلمان مما مكنها من تأسيس حزب جديد هو: هيجيل هاتوراة.

ومع انخراطها في السياسة، أخذت حركة (حبد) أو اللوبافيتس اتجاهًا يبشر بعودة المسيح القريبة، وأعطى حاخام الحركة نفسه الحق في الاشتراك في كل الحملات الانتخابية الإسرائيلية للتركيز على القضية الأساسية وهي قرب مجيء المسيح وضرورة تجهيز الأرض اليهوديَّة لاستقباله.

وحيث أعلنت تلك الحركة عن قرب مجيء المسيح؛ فقد أصبح أتباعها ينظرون إلى أنفسهم أنهم جنود جيش المسيح المنتظر في جميع أنحاء العالم، وأعلنوا أنهم سيركزون جهودهم للإسراع بمجيء المسيح مخلِّص الإنسانية.

وانطلق شباب منهم لابسين السواد للانتشار بدعوتهم في نيويورك، ولندن، وباريس، وكذلك في مدريد وجنيف، ويركزون خلال ذلك على غزو أحياء اليهود لدفعهم بقوة للعودة للدين والتوبة التي ستسرِّع لحظة الرؤية السامية للجميع!

ووسط أجواء محمومة بالتبشير بالعودة إذا الحاخام مناحيم شنيرسون يظهر فيهم، ويطرح نفسه على أنه المسيح!

واستطاع شنيرسون أن يسترعي أنظارهم، ويستجلب رضا هؤلاء اليهود بثقافته التوراتية العميقة، وعبقريته العلميَّة المتنوعة، ومنطقه المقنع، وحماسه المبهر، ومهارته في فك الألغاز والأحاجي بين سطور الأساطير، إضافة إلى مركزه العلمي الأكاديمي المشيد فوق هرم من شهادات الدكتوراه، مما صنع منه في نظر آلاف الأتباع.

وبدأ رعاع اليهود ينسجون حول الرجل أقاصيص الكرامات وأساطير المعجزات مما جعل مقره في مدينة بروكلين قبلة يؤمها المريدون اليهود من كل أنحاء العالم!

ومع بداية التسعينات كثر أتباعه المصدقون بأنه هو المسيح، ولم يشأ أن ينفي عن نفسه هذه الصفة؛ بل شجع من ينظرون إليه هذه النظرة، بل حاول تأكيدها بنسبته إلى الجيل السابع (المقدس) من مؤسس حركة (حبد) والجيل السابع مفضل دائمًا عند اليهود، واستغل صفة أخرى وُجدت فيه ليزيد أتباعه فتنة، وهي دعواه أنه من نسل داود!

ولكن الرجل الذي دعا نفسه ودعاه أتباعه بالمخلِّص قد خلُص إليه الموت قبل أن يخلِّص أحدًا مما أذهل أتباعه المهووسين به، ودفع بعضهم إلى الاعتقاد أنه هو المسيح القادر على أن يعود مرة أخرى ليظهر أمام العالم بملابسه البيضاء؛ ليكون ذلك أدعى للتصديق به.

المعتقدات والأفكار

١- أن الإنسان له روحان:

إحداهما: الروح الإلهية (نيفيش إلوهيت).

والثانية: الروح الحيوانية أو البهيمية (نيفيش ها بيهيميت).

والإنسان هو ميكروكوزم؛ أي نموذج مصغر للعالم، وهو أيضًا حلبة صراع لقوى الخير والشر التي تتصارع في الكون، ولكن الشر هو السترا أحرا، أو الجانب الآخر للإله، حسبما جاء في القبَّالاه.

ويوجد طريق وسط يجمع بين الشيئين، وهو المحارة التي التصقت بها الشرارات الإلهية حسب العقيدة القبَّالية.

٢- تنقسم أرواح البشر، وفقًا لدرجة تجلِّي القوى الإلهية (سفيروت) فيها؛ فالأرواح العليا تجسِّد القيم الثلاث العليا؛ أي: الحكمة والفهم والمعرفة، كما أنها تتصف بشدة القوى العاطفية. أما الأرواح البهيمية، فتتبع الشهوات.

واليهودي العادي حلبة صراع بين العواطف والشهوات من جهة، والقوى العقلية من جهة أخرى. وبمقدوره أن يسيطر على رغباته الشريرة من خلال الحكمة والفهم والمعرفة، وبإمكان الإنسان أن يصل إلى خشية الإله من خلال التأمل في صفاته، الأمر الذي يقوده إلى حبه والالتصاق به والتوحد معه (ديفيقوت).

٣- ركزت حركة حبد على التوراة والتأمل العقلي؛ ولهذا فإن أول مدرسة تلمودية (يشيفا) حسيدية كانت تابعة لهذه الحركة.

وقد أكدت حبد أهمية الأوامر والنواهي، ولكنها عارضت التطرف في تطبيقها.

٤- يذهب شيناءور زلمان في كتاب هاتانيا -دستور حركة حبد- إلى أن الأغيار مخلوقات بهيمية

شيطانية تمامًا وخالية من الخير وأن ثمة اختلافًا جوهريًا بين اليهودي وغير اليهودي.

ولهذا يختلف الجنين اليهودي عن الجنين غير اليهودي.

ووجود الأغيار في العالم أمر عارض، فقد خُلقوا من أجل خدمة اليهود، وهذا متسق تمامًا مع القبّالاه التي جعلت اليهودي ركيزة للكون.

الأعداد وأماكن التواجد

انتقلت قيادة حبد إلى الولايات المتّحدة حيث يترأسها في الوقت الحالي الحاخام لوبافيتش في نيويورك (في كراون هايتس في بروكلين).

وحبد منظمة ثرية للغاية إذ تبلغ ميزانيتها نحو مائة مليون دولار (ويقدرها البعض بثمانمائة مليون دولار) ويبلغ أتباعها ١٣٠ ألف (٣٠ ألف في بروكلين و١٠٠ ألف في أنحاء العالم).

ويُقال: إن عدد مؤيديها وأتباعها يصل إلى ما يزيد عن مليونين، وهو رقم مُبالَغ فيه.

وتتبع حركة حبد دار للنشر طبعت ملايين الكتب بعدة لغات ولها مكتبة وأرشيف يضم مجموعة فريدة من الكتب والمنشورات والوثائق اليهوديَّة.

كما تمتلك الحركة صحيفة خاصة بها.

ويتبعها آلاف الذين يعملون في كثير من دول العالم التي توجد فيها جماعات يهودية.

وقد أصبحت حركة حبد من أكثر الحركات تطرفًا في التوسعية والعنصرية الصهيونيَّة[١].

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، فصل (دبابات الإيمان) من كتاب الأصولية اليهودية.

الفصل الرابع
عقيدة النصارى في المخلِّص المنتظر

إذا كان عهد اليهود بانتظار مسيحهم قد طال بطول زمن التوراة، فإن انتظار النصارى لمسيحهم ظل مستمرًّا منذ زمن الإنجيل.

يقول ول ديورانت: كان ثمة عقيدة مشتركة وحدت الجماعات المسيحيَّة المنتشرة في أنحاء العالم، وهي: أن المسيح ابن الله، وأنه سيعود لإقامة مملكته على الأرض وأن كل من يؤمن به سينال النعيم المقيم في الدار الآخرة[١].

والجماعات النصرانيَّة التي وحدت بينها تلك العقيدة كما قال ديورانت لم تكتف بالاعتقاد، بل لم تقف عند حد الانتظار، وإنما تفاعلت مع ذلك المعتقد مُحاوِلةً تحقيق علاماته واستدعاء مقدماته؛ فالطوائف الرئيسة من أصحاب تلك الديانة وهم الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت جميعهم يؤمنون بعودة المسيح ثانية.

يقول القس روبر كليمان: عند مجيء المسيح تتزعزع الخليقة كلها، وَسَيَدُلّ مجيئه على انتهاء الزمن القديم، وتظهر بداية الزمن الجديد؛ حيث يشمل الخليقة كلها ببركته، ولذلك سُمي هذا اليوم الأخير: يوم المسيح؛ أي يوم مجيء الرب وحضوره[٢]!

ولكن أين سينزل المسيح في اعتقاد النصارى؟ يقولون أيضًا: سينزل في القدس، وسيمارس دعوته من الهيكل.

إذن يبدأ الأمر عندهم من القدس، من الأرض المقدَّسة التي ولد فيها المسيح، والتي سيعود إليها مرة أخرى ليقيم مملكته على الأرض وينال كل من يؤمن به النعيم الأبدي.

التحول الفكري العقائدي

إن أتباع عيسى ظلوا ينظرون تاريخيًّا إلى اليهود على أنهم أعداء المسيح، المنكرون لدعوته والساعون في أذاه، واعتبر النصارى أنفسهم أَوْلى برسالة موسى التي جاء عيسى مصدقًا بها ومتممًا لها، وآلت إليهم بمقتضى ذلك المقدساتُ التي دعت التوراة والإنجيل إلى تقديسها، أما اليهود فلم يعترفوا لهم بذلك بل كفَّروهم كما كفَّر النصارى اليهود.

وما يعنينا هنا، أنه نشأ ارتباط وجداني وعقدي بالأرض المقدَّسة عند النصارى، جعلهم ينظرون إليها على أنها إرث المسيح لأتباعه، بعد أن دنسها اليهود وتسببوا في هدم هيكلها بإفسادهم

---

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت (٣/ ٢٩٠).

(٢) إيماننا الحي، ص(٥٢٧).

مرتين كما دلت على ذلك سورة الإسراء.

بل إن النصارى رفضوا أن يُطلق على القدس صهيونَ اليهوديَّة، بل أسموها مدينة العهد الجديد، واعتبروها الوطن المقدس الذي ورّثه المسيح لهم، واستودعهم إياه حتى يعود ثانية.

وقد برهنوا تاريخيًّا على هذا الارتباط عبر عشرين قرنًا مضت، اختلفوا خلالها في كل شيء حتى في ذات الإله ولكنهم لم يختلفوا على تقديس بيت المقدس خاصة مدينة بيت لحم التي فيها ولد المسيح، والناصرة التي فيها ترعرع، ومكان قبره المزعوم في القدس.

وبعد ظهور الإسلام والفتوحات الإسلاميَّة فقد ناطح النصارى المسلمين في أرض بيت المقدس وما حوله منذ وقت مبكر من عمر الإسلام، بدءًا من غزوة مؤتة وتبوك في عصر الرسالة، ومرورًا بعصر الخلفاء الراشدين في أجنادين واليرموك، وصعودًا إلى عصور الخلافة المتوالية، وخاصة في زمان الحروب الصليبية التي أثبتت أحداثها العظام أن القدس كانت هدفها الأول والأخير، وانتهاء بما حدث في احتلال فرنسا لمدينة دمشق حيث وقف الجنرال اللّنبي على قبر صلاح الدين الأيوبي قائلًا: ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين.

ولكن الحروب الصليبية كانت أبرز المعالم التاريخية الدالة على مركزية القدس في معتقد النصارى. نعم! فلأجل تلك المدينة خاضوا حروبًا متواصلة تحت راية الصليب؛ لاستعادة القدس من أيدي أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وكان هذا الصدام من أكبر الحروب في التاريخ كله؛ إذ استهدف توحيد أوربا دينيًّا تحت زعامة البابوات، وتشكيل تحالف من كل عروش أوربا للوقوف في وجه المسلمين في عُقر ديارهم.

وقد بدأت تلك الحروب في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، واستمرت حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، أرسل الغرب خلالها أكثر من خمس عشرة حملة صليبية كبيرة إلى بلاد المسلمين، واشتركت فيها كل أوربا النصرانيَّة، ونجح الصليبيون خلالها في الاستيلاء على بيت المقدس، وأقاموا مملكة فيها، وسيطروا على المسجد الأقصى، ورفعوا الصلبان على مآذنه نحو ثمانين سنة، ولم تخمد تلك الحروب إلا بعد أن تأكد للغرب، أن استمرار السيطرة على الأرض المقدَّسة أمر مستحيل في أرض محفوفة بالمسلمين من كل جانب.

ثم طوى الزمان عبر قرون ممتدة أحلام أهل الصليب في التمكين للوثنية النصرانيَّة في الأرض المقدَّسة، وانكفأت أوربا في شواغلها وصراعاتها حتى جاء القرن السادس عشر الميلادي، وحدث الانقلاب الفكري العقائدي.

حدث هذا الانقلاب في القرن السادس عشر باسم الإصلاح والتجديد في الديانة النصرانيَّة، وعرف بالحركة البروتستانتيَّة، وغيَّر هذا الانقلاب معالم الديانة النصرانيَّة الدائمة التغيُّر ولكن التغيير جاء هذه المرة لصالح اليهود، وكانت إطاحة هذه الحركة البروتستانتيَّة بحق الكنيسة في احتكار تفسير الكتاب المقدس مفتاحًا للولوج إلى التفسيرات الحرفية للنصوص التوراتية فيما يتعلق

باليهود، بل بدأت النصرانيَّة تُخترق بالمفاهيم اليهوديَّة وتختلط بها بعد أن ضم البروتستانت التوراة إلى جانب الإنجيل مصدرًا أوليًا وحرفيًا للتلقي، خلافًا لما كان عليه الأمر خلال خمسة عشر قرنًا خلت من عمر الديانة.

ولم يأتِ القرن السابع عشر، حتى ظهرت نظرة غربية جديدة لليهود أعداء الأمس فقد دعا الحرفيون البروتستانت إلى ضرورة احتضان اليهود والتمكين لهم في العودة إلى الأرض المقدَّسة، على اعتبار أن مساعدتهم في ذلك سوف يعجل بمجيء المسيح عيسى ابن مريم إلى الأرض مرة أخرى؛ فالتفسيرات الحرفية للتوراة والإنجيل بعيدًا عن تأويلات الكنيسة أظهرت لهم أن خلاصة اليهود سوف يدخلون في ديانة المسيح عندما يعود، وبقيتهم من غير المؤمنين به سوف يقتلون مع باقي أعداء المسيح، أما أتباع المسيح من النصارى ومن يلحق بديانتهم؛ فسوف يعيشون مع المسيح في القدس مدة ألف عام قبل يوم القيامة.

جاء في سفر رؤيا يوحنا ٣/١١، ١٢: ها أنا آتي سريعًا، تمسك بما عندك لئلا يأخذ أحد إكليلك، من يغلب فسأجعله عمودًا في هيكل إلهي، ولا يعود يخرج إلى خارج، واكتب عليه اسم إلهي واسم مدينة إلهي: أورشليم الجديدة، النازلة من السماء من عند إلهي، واسمي الجديد.

وجاء في سفر رؤيا يوحنا ٢٠/٦، ٧: مبارك ومقدس من له نصيب في القيامة الأولى، هؤلاء ليس للموت الثاني سلطان عليهم، بل سيكونون كهنة لله والمسيح، وسيملكون معه ألف سنة، ثم متى تمت الألف سنة، يُحل الشيطان من سجنه.

يعني يرتفع السلام عن الأرض، ويعود الشيطان للإفساد بين البشر.

أما عن إيمان أعداد من اليهود بالمسيح عند مقدمه الثاني فيقول الإنجيل المتداول في سفر رؤيا يوحنا ٧/ ٢- ٤: ورأيت ملاكًا آخر طالعًا من مشرق الشمس معه ختم الله الحي فنادى بصوت عظيم إلى الملائكة الأربعة الذين أعطوا أن يضروا الأرض والبحر، قائلًا: لا تضروا الأرض ولا البحر ولا الأشجار حتى نختم عبيد إلهنا على جباههم، وسمعت عدد المختومين مائة وأربعة وأربعون ألفًا مختومين من كل سبط من بني إسرائيل.

إذن فالعودة حسب هذه العقيدة النصرانيَّة ستكون في أورشليم الجديدة، وسوف تكون على رأس ألفية جديدة، وسوف تكون في زمان لليهود فيه وجود في الأرض التي سيعود إليها المسيح؛ فلا بد أولًا من عودة اليهود، لكي يعود المسيح!

فتأييد نصارى الغرب لليهود في العصر الحديث، يرجع إذًا إلى جذور في بنية التكوين الثقافي بعد حركة التغيُّر البروتستانتي؛ بل لا يكون المرء مبالغًا إذا قال: إن الفكرة الصهيونيَّة الحديثة ذاتها، ولدت في أحضان النصرانيَّة البروتستانتيَّة قبل أن يرفع هرتزل لواءها بقرون.

قال كينين وهو أحد أبرز قيادات اليهود في أمريكا في كتابه خط الدفاع الإسرائيلي: إسرائيل كانت أنشودة مسيحية، قبل أن تصبح حركة سياسية يهودية.

فالبروتستانت النصارى هم الذين أقاموا الحركة الصهيونيَّة، وشجعوا اليهود للالتفاف حولها، وحتى عندما تردد هرتزل في اختيار فلسطين وطنًا تقام فيه الدولة اليهوديَّة، أرسل إليه المبشر النصراني البروتستانتي وليم بلاكستون نسخة من التوراة موضح عليها المواضع التي تشير إلى أن اليهود سيعودون في آخر الزمان إلى الأرض المقدَّسة، فاقتنع هرتزل.

وعندما عقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بازل بسويسرا عام ١٨٩٧م كان من أبرز المشاركين فيه القس البروتستانتي وليام هشلر وقد دخل إلى قاعة المؤتمر بصحبة هرتزل وهتف بحياته قائلًا: يحيا الملك يحيا الملك!

وعندما جاء دوره في إلقاء كلمته خاطب الصهاينة المجتمعين قائلًا: استفيقوا يا أبناء إسرائيل، فالرب يدعوكم للعودة إلى وطنكم في الأرض المقدَّسة.

وبقية القصة معروفة بعد بازل؛ حيث استلمت بريطانيا البروتستانتيَّة فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى، ثم أعطى وزير خارجيتها بلفور البروتستانتي لليهود وعدًا بوطن قومي في فلسطين امتثالًا لنظرة العطف من حكومة صاحبة الجلالة البروتستانية، ثم تخلت بريطانيا عن فلسطين بعد أن هيأتها لليهود خلال فترة الانتداب، ثم ساندتها حتى تم إعلان الدولة!

فلماذا كل هذا الحماس الإنجليزي لإعادة اليهود إلى الأرض المقدَّسة؟ يجيب الزعيم اليهودي حاييم وايزمان عن هذا في مذكراته فيقول: إذا سأل سائل: ما أسباب حماسة الإنجليز لمساعدة اليهود وشدة عطفهم على أماني اليهود؟ فالجواب على ذلك: أن الإنجليز هم أشد الناس تأثرًا بالتوراة، وتدين الإنجليز هو الذي ساعدنا في تحقيق آمالنا؛ لأن الإنجليزي المتدين يؤمن بما جاء في التوراة من وجوب إعادة اليهود إلى فلسطين، وقد قدمت الكنيسة الإنجليزية في هذه الناحية أكبر المساعدات[١].

وتقول الكاتبة الأمريكيَّة لي أوبرين: إن المذاهب اللاهوتية لكثرة من البروتستانت تصف إنشاء دولة إسرائيل بأنه تحقيق لنبوءة توراتية، وهي تذهب أيضًا إلى أن تجمع اليهود هو مجرد تمهيد لتنصيرهم قبل المجيء الثاني للمسيح[٢].

وعندما انعقد المجمع العالمي للكنائس النصرانيَّة في أفناتون عام ١٩٥٤م، قدمت له اللجنة المختصة ببحث علاقة اليهود بالكنيسة تقريرًا جاء فيه: إن الرجاء المسيحي بالمجيء الثاني للمسيح لا يمكن بحثه عبر فصله عن رجاء شعب إسرائيل الذي لا نراه بوضوح فقط في كتاب العهد القديم؛ بل فيما نراه من عون إلهي دائم لهذا الشعب، ولا نرتاح قبل أن يقبل شعب الله المختار المسيح بصفة ملك.

---

(١) انظر: اليهودية، أحمد شلبي، ص(١٠٦).
(٢) المنظمات اليهودية الأمريكية ونشاطاتها في دعم إسرائيل، تأليف لي أوبرين، ص(٢٨٦).

وأصدر الأساقفة المجتمعون في ذلك المؤتمر البيان الآتي: إننا نؤمن أن الله اختار إسرائيل الشعب المختار؛ لكي يتابع الخلاص للبشرية، ومهما كان موقفنا فلا نتمكن من نكران أننا أغصان قد تطعمت على الشجرة القديمة إسرائيل؛ ولذلك فإن شعب العهد الجديد لا يمكن أن ينفصل عن شعب العهد القديم، إن انتظارنا لمجيء المسيح الثاني يعني أملنا القريب في اعتناق الشعب اليهودي للمسيحية، وفي محبتنا الكاملة لهذا الشعب المختار(١).

أمريكا وعدوى البروتستانت

انتقلت تلك الحُمى إلى أمريكا مع الأنجلوساكسون المهاجرين إليها، وهم عنصر البيض البروتستانت، الذين يعتبرون أنفسهم صفوة المجتمع الأمريكي وأصحاب الفضل في تأسيس دولته العملاقة، فهم الذين شكلوا بذرة الهجرة الأولى لهذه الأرض الجديدة قبل ٣٠٠ عام، وهم يحملون في غالبيتهم معتقد البروتستانت، الذي يعني الاحتجاج، وبالرغم من وجود شرائح كبيرة من الأمريكيين ترجع إلى أصول إسبانية وآسيوية وإفريقية، إلا أن الأنجلوساكسون ذوي الأصول الأوروبية هم العنصر المسيطر والمتسيِّد في الولايات المتَّحدة.

ومع تصاعد القوة الأمريكيَّة في هذا القرن، تصاعد المد البروتستانتي، وتحول في العقود الأخيرة من عقيدة مذهبية إلى عُقد أصولية، وهو المصطلح الذي نشأ في الغرب لكي يطلق على المتشددين البروتستانت في مقابل التقليديين من أتباع المذاهب الأخرى.

وفي أواخر السبعينات الميلادية، شهدت الساحة الأمريكيَّة بروزًا لتيار أكثر تشوقًا داخل أتباع المذهب البروتستانتي الحرفي، وأطلق على هذا التيار: الحركة الصهيونيَّة المسيحيَّة.

ويُطلق عليهم أحيانًا: الإنجيليون اليمينيون، وانتساب هؤلاء إلى الصهيونيَّة رغم نصرانيتهم، ليس غريبًا على قوم يدينون بالتوراة التي تقدس جبل صهيون وما كان عليه من مقدسات، ولهذا فإنهم يتبنون الدعوة إلى الدعم المطلق لدولة اليهود من أجل تحقيق الطموحات الإسرائيلية أو التنبُّؤات التوراتية في الشرق الأوسط، ويأتي على رأسها السعي لتحقيق مشروع إسرائيل الكبرى، والقدس الكبرى، وإعادة بناء الهيكل؛ لأنه بكل بساطة سوف يكون مكانًا لدعوة المسيح في القدس التي ستصبح عاصمة له في معتقدهم.

لقد بلغ التحول التاريخي في الغرب النصراني من اليهود ذروته في العقود الثلاثة الأخيرة ووقع هؤلاء في فتنة استدراج محكمة منذ أن احتل اليهود القدس في عام ١٩٦٧م، فقد صور لهم الشيطان هذا الحدث على أنه أعظم دليل على أن التوراة حق؛ لأنها أخبرت عن عودة اليهود إلى القدس، وأن الإنجيل حق؛ لأنه أخبر بعودة اليهود إلى القدس، وما داموا قد عادوا إليها كما أخبرت الكتب؛ فلا بد أنهم سيتنصرون في النهاية كما أخبرت أيضًا.

---

(١) مجلة الأمل، العدد ١٠٤، ١٩٨٢م.

يقول هول ليندسي في كتابه آخرة كرة أرضية: قبل أن تصبح إسرائيل دولة، لم يكشف عن شيء، أما الآن وقد حدث ذلك، فقد بدأ العد العكسي لحدوث المؤشرات التي تتعلق بجميع أنواع النبوءات، واستنادًا إلى النبوءات فإن العالم كله سوف يتمركز على الشرق الأوسط، وخاصة إسرائيل في الأيام الأخيرة.

أما الصراع الدموي التاريخي بين اليهود والمسيحيَّة، فقد مسحته تلك النبوءات والأحلام المتحققة، وتحول أعداء المسيح إلى حلفاء، بعد أن برئوا من دمه، وإلى أصدقاء بعد أن أصبحوا علامة على قرب مقدمه.

لقد تنامى هذا التيار الصهيوني المسيحي بشكل جارف في سنوات معدودة؛ فبعد نحو خمس سنوات من ظهوره في أواخر السبعينيات الميلادية، كانت الإحصاءات تشير إلى ظهور نحو ٢٥٠ منظمة إنجيلية موالية لإسرائيل من مختلف التخصصات والواجهات، تعكس آراء ورغبات نحو ٤٠ مليونَ أمريكيٍّ إنجيلي (إنجيلي: تعني: من يكتفي بنص الإنجيل ولا يعبأ بتأويلات الكنيسة، وهذا جوهر الحركة البروتستانية).

وقد نجحوا في توسيع رقعة التأييد الشعبي المطلق لليهود إضافة إلى التأييد الرسمي؛ وذلك عن طريق تنظيم المهرجانات للتضامن مع اليهود، وتجمعات ما يسمى بالوعي بإسرائيل، التي تقيمها الكنائس الإنجيلية، وبعض هذه المنظمات تنظم الجولات للأرض المقدَّسة، وبعضها يعد المطبوعات ويعقد المؤتمرات، وبعضها ينغمس في الدعم السياسي والمالي المباشر لدولة اليهود، ويقوم بمختلف عمليات الضغط سواء عن طريق استكتاب الرسائل، أو عن طريق وسائل الإعلام التي يعبرون فيها بقوة عن تأييدهم لإسرائيل.

لقد غدا تحقيق أهداف إسرائيل من علاقتها بالغرب، هدفًا لهذه المنظمات، ولم يقصر الأمريكيون من النصارى الصهاينة في دعم دولة اليهود بكل مستطاع، حتى إن بنيامين نتنياهو عندما كان سفيرًا لدولته في الأمم المتَّحدة خاطب جموعًا منهم في ٦ فبراير ١٩٨٥م، وقال لهم معترفًا بجميلهم وجميل كل النصارى تجاه اليهود: لقد كان هناك شوق قديم في تقاليدنا اليهوديَّة للعودة إلى أرض إسرائيل.

وهذا الحلم الذي ظل يراودنا منذ ٢٠٠٠ سنة، تفجر من خلال المسيحيين الصهيونيين.

وقال: المسيحيون ساعدونا في تحول الأسطورة الجميلة إلى دولة يهودية.

وأضاف: إن الذين يستغربون مما يظنون أنه صداقة حديثة بين إسرائيل ومؤيديها المسيحيين، يجهلون أمر اليهود أو المسيحيين، إن هناك روابط روحية تشدنا بإحكام وثبات، إنها شراكة تاريخية أدت وتؤدي دورها بشكل جيد لتحقيق الأحلام الصهيونيَّة[١].

(١) انظر: النبوة والسياسة، ص(١٤٠).

أما بعد أن أصبح نتنياهو رئيسًا لوزراء اليهود في دولتهم، فقد قوبل بجفاوة بالغة في الكونجرس الأمريكي، وواجهه أعضاء الكونجرس جميعًا بعاصفة من التصفيق بعد أن هبوا وقوفًا لتحيته عندما ردد أمامهم فيما يشبه القسم عبارة: القدس هي العاصمة الأبدية الموحدة لإسرائيل، ثلاث مرات.

لقد تبنى الكونجرس الأمريكي الذي يسيطر عليه اليمينيون بشكل كامل النهج الإسرائيلي فيما يتعلق بالقدس؛ فقد وافق في قراره رقم ٥٧٠ في ٢٤/ ١٠/ ١٩٩٥م على مشروع القانون الذي تقدمت به وزارة الخارجية لتخصيص مبلغ مائة مليون دولار لنقل السفارة الأمريكيَّة من تل أبيب إلى القدس، وكانت الموافقة بأغلبية ٤٠٦ أصوات مقابل ١٧ صوتًا، واشترط الأعضاء أن يتم نقل السفارة في موعد أقصاه يوم ٣١/ ٥/ ١٩٩٩م، مع إعطاء الرئيس حق التأجيل لمدة لا تزيد على ستة أشهر، أي حتى بداية عام ٢٠٠٠م، بشرط أن يكون ذلك أمرًا تتطلبه دواعي الأمن القومي الأمريكي!

ولم ينتظر المحمومون بألفية القدس حتى يحل موعد نقل السفارة، بل ظلت أصواتهم تعلو بهذا المطلب حتى لا يبرد أثر القرار؛ فقد نشرت صحيفة نيويورك تايمز في منتصف إبريل من عام ١٩٩٧م إعلانًا عجيبًا موقعًا بأسماء عدد من كبار القساوسة الأمريكيين من أعضاء ما يسمى بالاتحاد المسيحي نحو القدس الموحدة، جاء فيه: إن الاتحاد يدعم سيطرة إسرائيل الكاملة على القدس، ويعتبرها العاصمة الروحية والسياسية لليهود وحلمهم خلال ثلاثة آلاف عام خلت بحكم الإنجيل والتوراة.

وطالب الإعلان بالمشاركة في معركة القدس التي قد بدأت، والتي يجب الوقوف مع اليهود فيها، وطالب الإعلان الأمريكيين بإمطار البيت الأبيض والكونجرس برسائل تطالب بنقل السفارة الأمريكيَّة إلى القدس دون إبطاء.

موقف الفاتيكان

يعكس موقف الفاتيكان مواقف الكنائس الكاثوليكيَّة التي كانت تعتقد بأن المسيح مدفون في الأرض المقدَّسة بعد أن صلبه اليهود، ولهذا؛ فقد ظل الكاثوليك يرفضون تاريخيًّا سيطرة اليهود على بيت المقدس ولا يشجعون عودتهم.

فلما عادوا، أعاد الكاثوليك النظر في نظرتهم العدائية لليهود، وصدر في عام ١٩٦١م بيان من المجلس العالمي للكنائس يدين العداء للسامية ويعفي اليهود من المسئولية التاريخية في صلب المسيح، ثم أتبع ذلك بتبرئة رسمية، ثم حذفت سائر الأدعية والصلوات التي كانت تتضمن إدانة لليهود في عبادات الكنيسة الكاثوليكيَّة.

ثم حصل لقاء تاريخي بين البابا وشمعون بيريز رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق، وكان ذلك في بداية الثمانينات وقد بدا البابا في الصور منحنيًا أمامه ليصافحه.

وفي عام ١٩٩٣م، اعترف الفاتيكان رسميًّا بدولة اليهود إلا أنه ظل إلى الآن متحفظًا على التنازل عن القدس عاصمة لهم، ولا ندري عن السر في الاستمرار في هذا الموقف: فهل هو بسبب الشك في أسطورة صلاح حال اليهود في آخر الزمان؟ أم بسبب استمرار العداوة التاريخية والعناد بين الكاثوليك والبروتستانت؟ أم بسبب عدم الموافقة على قرب موعد مجيء المسيح، أم لأسباب أخرى؟

المهم في ذلك أن الفاتيكان لن يقر بحيازة المسلمين للقدس في دولة فلسطين أو غيرها؛ فالقدس هي القدس عند الكاثوليك والأرثوذكس: عاصمة المسيح والمسيحين، لا عرفات ولا بنيامين، أما قرار الاتحاد الأوربي بتأييد قيام دولة فلسطينية، فليس فيه إشارة إلى أن تكون القدس عاصمة لها.

نصارى فلسطين

يمكن معرفة موقفهم من المذكرة التي أعدها البطاركة وزعماء الطوائف النصرانيَّة في القدس، والتي نشرت في ١٤ نوفمبر ١٩٩٥م، فقد طالبوا فيها بتحويل القدس إلى عاصمة للجنس البشري!!

وأكد أصحاب المذكرة أن الرب اختار القدس مكانًا لسكنه -تعالى الله عن زعمهم- وأن القدس هي مكان الخلاص، وفيها ولدت الكنيسة.

ولفتت المذكرة النظر إلى أن سِفْر الرؤيا قد بشر بمجيء المسيح إلى القدس الجديدة، المدينة التي سيمسح فيها الرب كل الدموع!

وقالت المذكرة: إن القدس بالنسبة لكل مسيحي هي منبع الحياة؛ فكل مسيحي يُولد في القدس، والوجود في القدس يعني الوجود في بيت الرب!

وإجمالًا؛ فإن نصارى العالم يتخذون موقفًا موحدًا برفض سيطرة المسلمين على القدس، وينقسمون على أنفسهم في شأن السماح لليهود في اتخاذها عاصمة.

وقد عبَّرت السفارة المسيحيَّة الدولية عن موقفها الداعم لليهود والذي كُشف عن بعضه في كتاب صدر عام ١٩٩٣م بعنوان: بابل أو القدس، لمؤلفه يان فيلان دارهوفن، جاء فيه: تعارض السفارة مطالب المسلمين في البيت المقدس، وتطالب بالتسامح تجاه اليهود الذين يطالبون بالصلاة فيه، وتؤكد على حق إسرائيل في جعل القدس عاصمة موحدة لهم.

ثم قال مؤلف الكتاب: إن المسيحين الدوليين واثقون أنه على الرغم من أن الرب ترك القدس زمنًا طويلًا، فإنه سيعود إليها في صورة ابن الملك داود، الملك المسيح الذي سيحكم من المدينة، وعندئذ ستجتذب القدس إليها جميع شعوب المنطقة وحكامها! وهذا الواقع الجديد سيكون تحقيقًا لرؤيا آخر الأيام التي سينتج عنها سلام وعدل عالميين، والمسيحيون يؤمنون بهذه الرؤيا؛ لذلك فهم يعتقدون أن الصلاة من أجل مصير القدس معناها صلاة من أجل خلاص الكرة الأرضية جمعاء![1].

---

(١) مجلة البيان العدد ١٣٨ ص(٨٦- ٩٥).

الفصل الخامس

حقيقة العلاقة اليهوديَّة النصرانيَّة

يعجب الإنسان عندما يكتشف أن تلك المشاعر الدينيَّة الحميمة من النصارى تجاه اليهود، هي مشاعر في حقيقتها مزيفة، أو مصلحية على أقل تقدير، فيبدو أن نصارى الغرب قد درجوا على تقديم المصلحة في كل شيء حتى في الدين؛ فاليهود عندهم هم القنطرة التي سيعبرون فوقها نحو أمجاد الأيام الأخيرة، فلن يأتي المسيح ولن يقيم مملكة الرب النصرانيَّة إلا بعد أن يُعاد اليهود إلى فلسطين ويسكنوا القدس ويبنوا الهيكل.

ثم يخرج مسيحهم المنتظر -أي مسيح اليهود- ليعيث في الأرض فسادًا ويملأها كفرًا وإجرامًا، ثم يأتي عيسى عليه السلام ليذبحه ويقتل ثلثي اليهود ويبقى ثلث يتوجب تنصيرهم! !

فالنصارى يؤمنون بمسيح آخر سيأتي في وقت مجيء المسيح ابن مريم، ويسمون ذلك المسيح (Anti - chrest) أي ضد المسيح، أو (المسيح الدجال)! !

النصارى والمسيح الدجال

يعتقد النصارى خاصة البروتستانت أن هناك عدوًّا كافرًا طاغيًا قاسيًا سيخرج قبيل عودة عيسى عليه السلام، وأنه سوف يكون من اليهود؛ فأمه امرأة يهودية وَسَتَلْتَهِمُ جيوشه العالم بعد أن يخرج من شمال إسرائيل، أو بالتحديد من سوريا من قبيلة (دان).

ويؤمنون أيضًا أنه سيبدأ بدعوى الصلاح وينتحل شخصية المسيح المخلِّص، ثم لا يلبث أن يتحول إلى دعوى الربوبية التي سيتبعه عليها أكثر الناس نظرًا للخوارق التي ستُجرى على يديه، والتي سيقلد بها أفعال الإله في الإحياء والإماتة وإنزال المطر وإنبات الزرع... إلخ.

ويؤمنون أيضًا، بأنه سيعتلي منبر الهيكل بعد إعادة بنائه، وسيهدم مقر البابوية في روما، وسيضطهد المؤمنين ويضيق عليهم حتى يبلغ البؤس مداه، وعند ذلك يتدخل الإله، وينزل المسيح ابن مريم لينقذ بقايا المؤمنين بعد أن يقتل المسيح الدجال، ويقاتل أتباعه من اليهود وقوم يأجوج ومأجوج، ويتفرغ بعد ذلك لإقامة مملكة الرب التي سيسودها السلام.

فاليهود على هذا شر لا بد منه، والدجال قدر لا بد من مواجهته، وهذا الدجال الذي تؤمن النصارى بحتمية خروجه، قد وردت بشأنه الأخبار في مصادرهم؛ ففي الإنجيل في رسالة بولس الثانية إلى أهل تسالونيكي ٢/ ٣، ٤: لا يخدعنكم أحد على طريقة ما؛ لأنه لا يأتي إن لم يأت الارتداد أولًا، ويستعلن إنسان الخطيئة ابن الهلاك...، حتى إنه يجلس في هيكل الله كإله مظهرًا نفسه أنه إله.

والنص هنا يذكر الارتداد، فلا بد إذًا أن تكون ردة، ولكن ردة مَنْ؟ وعن ماذا؟

إن النصارى أنفسهم يتقاذفون اليوم التهم بهذه الردة التي يقول الإنجيل: إنها لا بد أن تسبق أولًا، ولهذا فهم يتبادلون التكفير بين طوائفهم بحيث إن كل طائفة تتهم الأخرى بأنها ستكون من

أنصار الإنتي كريست، أو الدجال عدو المسيح؛ فالنصارى الشرقيون العرب مثلًا وأكثرهم من الأرثوذكس يعتقدون أن طوائف الكاثوليك الغربيين هم نصارى بالاسم فقط، وأنهم سيكونون مع الدجال ومع أعداء المسيح.

يقول القس هنري إيرنسايد في تفسيره لسفر دانيال: مما لا شك فيه أن المسيحيَّة المرتدة سيعاد توحيدها، ولكن هذا الاتحاد سيكون خاليًا من تعاليم المسيح، ستتحد جميع الأنظمة المرتدة، ستستعيد الكنيسة البابوية نفوذها وسلطانها، وستشكل جميع كنائسها هيئة عظيمة واحدة تضم جميع أجزاء النصرانيَّة... هذه الكنائس ستكون مستمدة قوتها من البابوية، وستكون خادمة للوحش أي المسيح الدجال[١].

والغريب أن البروتستانت ينظرون أيضًا إلى كاثوليك أوربا هذه النظرة؛ فهم يؤمنون أن الوحش الذي ورد ذكره في سفر الرؤيا يعني أنه سيكون هناك اتحاد قوي من عشر دول أوربية سوف تنهض في الأيام الأخيرة، وأن قيام المجموعة الأوربية المكونة من عشر دول هي تحقيق لهذه النبوءة، وهذا في نظرهم دليل على أننا نعيش فعلًا الأيام الأخيرة؛ لأن هذه القوى الأوروبية العشرة قائمة الآن وستكون معادية للمسيح؛ لأنها ستكون مرتدة عن المسيحيَّة التي بشر بها[٢].

ومع اتهام طوائف النصارى بعضهم بعضًا بأنهم أتباع الدجال عندما يخرج؛ فإنهم يُجمعون على أن اليهود هم طليعة أنصاره، ورأس حربته، وهم الذين سيقودون معسكر أعداء المسيح.

يقول مفسر سفر دانيال: سينصِّب المسيح الدجال نفسَه الإله الوحيد الجدير بالعبادة، وله سيبدي المسيحيون المرتدون ولاءًا مطلقًا، وسينتحل لنفسه أمام اليهود صفة مسيحهم الموعود به منذ عهد بعيد على ألسنة الأنبياء، ويقبل اليهود ادعاءاته ويقولون: هذا هو حقًّا المسيح الذي طالما انتظرناه، وهذا هو الذي يتكلم كتابنا المقدس عنه[٣].

إن من حقنا أن نعجب، ومن حقنا أن نتساءل: إذا كانت كل طائفة تدعي أن المخلِّص منها وأنهم أتباعه وأنصاره، وتدعي في مبغضيها أنهم أتباع الدجال وأنصاره، فمن إذن هم الأتباع الحقيقيون للدجال الذي يتبرأ منه الجميع الآن، فإذا جاء كانوا أول المسارعين لنصرته والإيمان به.

وإذا كان للنصارى مسيح ينتظرونه قريبًا، كما أن لليهود مسيحَهم المنتظر منذ أمد بعيد، وكل من هؤلاء وأولئك يهيئون العالم الآن -في زعمهم- لمخرج المسيح الذي يؤمنون به، فمن هو هذا المسيح المنتظر عند الأمتين الضالتين[٤]؟

---

(١) تفسير سفر دانيال، ص(٦١).

(٢) النبوءة والسياسة، ص(٤٣).

(٣) تفسير سفر دانيال، ص(١٣٤).

(٤) مجلة البيان العدد ١٤٠ ص(٧٦- ٨٥)، العدد ١٤١ ص(١٠٤- ١١٥).

الفصل السادس

المسيح الحق والمسيح الدجال

نحن لا نشك أن اليهود بمجموعهم سيكونون طليعة أنصار الدجال؛ فهو منهم وإليهم، وخاصة يهود الشرق الذين سيخرج فيهم.

أما النصارى، فعلى رغم أنهم يزعمون أنهم سيكونون في جيوش المسيح الحق ضد المسيح الدجال؛ فالله يعلم أنهم بجميع طوائفهم هم الذين هيَّئوا أنفسهم بأنفسهم لكي يكونوا أول المصدقين بِدَعِيٍّ من البشر يدَّعي الألوهية.

أليسوا هم الذين اعتنقوا عقيدة: المسيح الإله القادر على كل شيء؟!

والمسيح الدجال سيقول: أنا المسيح الإله القادر على كل شيء! فما الذي سيكون مستغربًا في دعوة الدجال على مسامع النصارى الذين لا يستهجنون ولا يستبعدون أن يتجسد الإله في صورة إنسان! وخاصة أنه يمنعهم ومعهم اليهود من مشاركته في فرض السيطرة النهائية على العالم باعتبارهم أتباعه.

إن النصارى اليوم على اختلاف طوائفهم يشكلون ما يقرب من ثلث سكان العالم، ويعلم الله كم سيبلغون إذا خرج فيهم من يهيئون الدنيا لمقدمه ظنًّا منهم أنهم يهيئونها للمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، إن هؤلاء مع مسيحيتهم كفار بنبوءة عيسى وعبوديته؛ ولهذا سيسارعون بتصديق من يقول: إنه هو المسيح الإله!

ولهذا فإن الله تعالى سوف يزيل هذه الغمة بإنزال عيسى نفسه، لإقامة الحجة على الناس وعندها سيسقط في أيدي من ضلوا وأضلوا كثيرًا من البشر عبر القرون مدعين أنه إله أو ابن إله، وسيدفعون دفعًا إلى الإيمان بأن عيسى نبي الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، ليس بإله ولا ابن إله، إنما هو عبد أنعم الله عليه وجعله رسولًا ومثلًا لبني إسرائيل، وعند نزوله سيرون ذلك رأي العين، ويسمعون منه كلامه الفصل.

أما بقية القطعان البشرية الوثنية من ملايين البوذيين والهندوس والملحدين واللادينيين ونحوهم؛ فإنه لا حجاب بينهم وبين الإيمان بالدجال إذا خرج وقال لهم: إني أنا الإله؛ فهؤلاء وهؤلاء لن تزيدهم عقائدهم الوثنية التي تؤله الأحجار والأشجار والأنهار والأبقار إلا فتنة بالبشر المخلوق للفتنة إذا جاء وقال لهم: إني أنا الإله، وشرع يجذب أبصارهم بالخوارق، وأسماعهم بالشبهات، وبطونهم وفروجهم بالشهوات!

نحن نؤمن أيضًا أن المسيح ابن مريم سيعود، ونؤمن معهم أن الدجال سيخرج -والأحاديث بذلك متواترة-، ولكن شتان بين إيمان وإيمان وبين عودة وعودة؛ فإيماننا: أن عودة عيسى عليه

السلام هي القدر الإلهي الحكيم الذي سيضع النهاية للاختلاف الذي عم الأمم حوله، ولا يمكن أن ينتهي ذلك الاختلاف في شأنه إلا بعودته.

يقول ابن كثير رحمه الله: إن عيسى عليه السلام سينزل إلى الأرض، ويؤمن به أهل الكتاب الذين اختلفوا فيه اختلافًا بينًا، فمن مدعٍ إلهيته كالنصارى، ومن قال فيه قولًا عظيمًا أنه ولد ريبة وهم اليهود، فإذا أنزل قبل يوم القيامة تحقق كل من الفريقين كذب نفسه فيما يدعيه من الافتراء[(١)].

أما الدجال، فلا نشك في خروجه، وإن كنا لا نعلم موعده، ولكن مقصودنا هنا التنبيه على أن اليهود والنصارى يستعدون لخروجه، ومع ذلك فهو مسيح الضلالة الذي تُعَاقَبُ به أمَّتا الضلالة الذين تكبروا عن الإيمان بمحمد سيد الرسل عليه صلوات الله وسلامه وفضلوا أن يبقوا على ديانات منسوخة لم تلبث أن تحولت إلى ديانات ممسوخة بالافتراء على الله والكذب على أنبياء الله.

يقول ابن تيمية رحمه الله: اليهود يتأولون البشارة بالمسيح على أنه ليس هو عيسى ابن مريم، بل هو آخر ينتظرونه، وهم في الحقيقة إنما ينتظرون المسيح الدجال؛ فإنه الذي يتبعه اليهود ويخرج معه سبعون ألف مطيلس من يهود أصبهان[(٢)].

ويقول ابن القيم رحمه الله: ومن تلاعبه بهم -يعني: اليهود- أنهم ينتظرون قائمًا من ولد داود النبي، إذا حرك شفتيه بالدعاء، مات جميع الأمم، وأن هذا المنتظر بزعمهم هو المسيح الذي وُعِدوا به، وهم في الحقيقة إنما ينتظرون مسيح الضلالة الدجال، فهم أكثر أتباعه[(٣)].

ويقول أيضًا رحمه الله: فالمسلمون يؤمنون بالمسيح الصادق الذي جاء من عند الله بالهدى ودين الحق، الذي هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، والنصارى إنما يؤمنون بمسيح دعا إلى عبادة نفسه وأمه، وأنه ثالث ثلاثة، وأنه الله أو ابن الله، وهذا هو أخو المسيح الكذاب لو كان له وجود [أي: لو كان لمسيح النصارى بهذا الوصف وجود]، فإن المسيح الكذاب -الذي ينتظره النصارى- يزعم أنه الله، والنصارى في الحقيقة أتباع هذا المسيح، كما أن اليهود إنما ينتظرون خروج مسيح، وهم يزعمون أنهم ينتظرون النبي الذي بشروا به، فعوضهم الشيطان من الإيمان به بعد مجيئه انتظارًا للمسيح الدجال، وهكذا كل من أعرض عن الحق يعوض عنه بالباطل[(٤)]. [(٥)].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير، النهاية في الفتن والملاحم ص(٥٧).

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (١/ ١٧٧).

(٣) إغاثة اللهفان، لابن القيم، (٢/ ٣٣٨)

(٤) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ابن قيم الجوزية، ص(٦٥).

(٥) مجلة البيان العدد ١٤١ ص(١٠٤- ١١٥).

القسم الثاني

النصارى

الباب الأول
تاريخ وفرق النصارى

الفصل الأول

تاريخ النصارى والنصرانيَّة

النصارى: اسم جمع نَصْري، أو ناصري، نسبة إلى الناصرة، وهي قرية نشأت منها مريم أم المسيح عليهما السلام، وقد خرجت مريم من الناصرة قاصدة بيت المقدس فولدت المسيح في بيت لحم، ولذلك كان بنو إسرائيل يدعونه يشوع الناصري أو النَّصْري.

وقد مرت النصرانيَّة بعدة مراحل وأطوار تاريخية مختلفة، انتقلت فيها من رسالة منزلة من عند الله تعالى إلى ديانة مُحرَّفة ومبدلة، تضافر على صنعها بعض الكهان ورجال السياسة، ويمكن تقسيم هذه المراحل كالتالي:

المرحلة الأولى: النصرانيَّة المُنَزَّلة من عند الله التي جاء بها عيسى ابن مريم عليه السلام

هي رسالة أنزلها الله تعالى على عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام إلى بني إسرائيل بعد أن انحرفوا وزاغوا عن شريعة موسى عليه السلام، وغلبت عليهم النزعات الماديَّة.

وافترقوا بسبب ذلك إلى فرق شتى، فمنهم من يؤمن بأن غاية الإنسان هي الحياة الدنيا، حيث لا يوم آخر، ولا جنة ولا نار، ومنهم من يعتقد أن الثواب والعقاب إنما يكونان في الدنيا فقط، وأن الصالحين منهم يوم القيامة سيشتركون في ملك المسيح الذي يأتي لينقذ الناس، ليصبحوا ملوك العالم وقضاته.

كما شاع فيهم تقديم القرابين والنذور للهيكل رجاء الحصول على المغفرة، وفشا الاعتقاد بأن رضا الرهبان ودعاءهم يضمن لهم الغفران.

لذا فسدت عقيدتهم وأخلاقهم؛ فكانت رسالة ودعوة عيسى عليه السلام داعية إلى توحيد الله تعالى حيث لا رب غيره ولا معبود سواه، وأنه لا واسطة بين المخلوق والخالق سوى عمل الإنسان نفسه، وهي رسالة قائمة على الدعوة للزهد في الدنيا، والإيمان باليوم الآخر وأحواله، ولذا فإن عيسى عليه السلام كان موحِّدًا على دين الإسلام ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين.

- المبلِّغ: عيسى ابن مريم عليه السلام، أمُّه البتول مريم ابنة عمران أحد عظماء بني إسرائيل، نذرتها أمها قبل أن تحمل بها لخدمة المسجد، وكفلها زكريا أحد أنبياء بني إسرائيل وزوج خالتها، فكانت عابدة قانتة لله تعالى، حملت به من غير زوج بقدرة الله تعالى، وولدته عليه السلام في مدينة بيت لحم بفلسطين، وأنطقه الله تعالى في المهد دليلًا على براءة أمه من بهتان بني إسرائيل لها بالزنى، فجاء ميلاده حدثًا عجيبًا على هذا النحو ليُلْقِي بذلك درسًا على بني إسرائيل الذين غرقوا في الماديات، وفي ربط الأسباب بالمسببات، ليعلموا بأن الله تعالى على كل شيء قدير.

وقد بُعث عيسى عليه السلام نبيًّا إلى بني إسرائيل، مؤيَّدًا من الله تعالى بعدد من المعجزات

الدالة على نبوته، فكان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيرًا بإذن الله. ويبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله.

كما كان يخبر الناس بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم بإذن الله.

وقد أيده الله هو وحواريِّيه بمائدة من السماء أنزلها عليهم لتكون عيدًا لأولهم وآخرهم.

وقد تآمر اليهود على قتله برئاسة الحبر الأكبر (كايافاس) وأثاروا عليه الحاكم الروماني لفلسطين (بيلاطس) لكنه تجاهلهم أولًا، ثم لما كذبوا عليه وتقوَّلوا على عيسى عليه السلام بأنه يدعو نفسه مسيحًا ملكًا، ويرفض دفع الجزية للقيصر، دفع ذلك الحاكم إلى إصدار أمرًا بالقبض عليه، وإصدار حكم الإعدام ضده عليه السلام.

واختفى عيسى وأصحابه عن أعين الجند، إلا أن أحد أصحابه دلَّ جند الرومان على مكانه، فألقى الله تعالى شبه عيسى عليه السلام وصورته عليه، ويقال: إنه يهوذا الإسخريوطي، وقيل: غيره، فنُفِّذ حكم الصلب فيه بدلًا من عيسى عليه السلام حيث رفعه الله إليه، على أنه سينزل قبل قيام الساعة ليحكم بالإسلام، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ثم يموت كما دلت على ذلك النصوص من الكتاب والسنة الصحيحة.

وقد آمن بدعوة المسيح عليه السلام الكثير ولكنه اصطفى منهم اثني عشر حواريًّا، وهناك الرسل السبعون الذين يقال بأن المسيح عليه السلام اختارهم ليعلِّموا النصرانيَّة في القرى المجاورة.

المرحلة الثانية: ويسميها مؤرِّخو الكنيسة بالعصر الرسولي

وينقسم هذا العصر إلى قسمين: التبشير وبداية الانحراف، والاضطهاد الذي يستمر حتى بداية العهد الذهبي للنصارى.

القسم الأول: التبشير وبداية الانحراف

- التبشير

بعدما رُفع المسيح عليه الصلاة والسلام، اشتد الإيذاء والتنكيل بأتباعه وحوارييه بوجه خاص؛ وقُتل يعقوب بن زبدي أخو يوحنا الصياد؛ فكان أول من قتل من الحواريين، وسجن بطرس، وعذب سائر الرسل، وحدثت فتنة عظيمة لأتباع المسيح عليه الصلاة والسلام حتى كادت النصرانيَّة أن تفنى.

وفي ظل هذه الأجواء المضطربة أعلن شاول الطرسوسي اليهودي الفريسي، صاحب الثقافات الواسعة بالمدارس الفلسفية والحضارات في عصره، وتلميذ أشهر علماء اليهود في زمانه عمالائيل، أعلن شاول الذي كان يُذيق أتباع المسيح سوءَ العذاب، إيمانه بالمسيح بعد زعمه رؤيته عند عودته من دمشق، مؤنبًا له على اضطهاده لأتباعه، آمرًا له بنشر تعاليمه بين الأمم، فاستخف الطرب أتباع المسيح، في الوقت الذي لم يصدقه بعضهم، إلا أن برنابا الحواري دافع عنه وقدمه إلى

الحواريين فقبلوه، وبما يمتلكه من حدة ذكاء وقوة حيلة ووفرة نشاط استطاع أن يأخذ مكانًا مرموقًا بين الحواريين وتسمى باسم بولس.

وانطلق الحواريون للتبشير بين الأمم اليهوديَّة في البلدان المجاورة، التي سبق أن تعرفت على دعوة المسيح عليه السلام أثناء زيارتها لبيت المقدس في عيد العنصرة.

وتذكر كتب التاريخ النصراني بأن متَّى ذهب إلى الحبشة، وقُتل هناك بعد أن أسس فيها كنيسة ورسَّم -عيَّن- لهم أسقفها.

وكذلك فعل مرقس في الإسكندرية بعد أن أسس أول مدرسة لاهوتية وكنيسة فيها بتوجيه من بطرس الذي أسس كنيسة روما وقتل في عهد نيرون عام ٦٢م.

أما بولس فذهب إلى روما وأفسس وأثينا وأنطاكية، وأسس فيها كنائس نصرانية نظير كنيسة أورشليم ورسَّم لهم أساقفة.

وفي أحد جولاته في أنطاكية صحبه برنابا فوجدا خلافًا حادًّا بين أتباع الكنيسة حول إكراه الأمميين على اتباع شريعة التوراة فعادا إلى بيت المقدس لعرض الأمر على الحواريين لحسم الخلاف بينهم.

- بداية الانحراف

فيما بين عام ٥١ - ٥٥م عقد أول مجمع يجمع بين الحواريين -مجمع أورشليم- تحت رئاسة يعقوب بن يوسف النجار المقتول رجمًا سنة ٦٢م ليناقش دعوى استثناء الأمميين، وفيه تقرر -إعمالًا لأعظم المصلحتين- استثناء غير اليهود من الالتزام بشريعة التوراة إن كان ذلك هو الدافع لانخلاعهم من ربقة الوثنية، على أنها خطوة أولى يُلزم بعدها بشريعة التوراة.

كما تقرر فيه تحريم الزنى، وأكل المنخنقة، والدم، وما ذُبح للأوثان، بينما أبيحت فيه الخمر ولحم الخنزير والربا، مع أنها محرمة في التوراة.

وعاد بولس بصحبة برنابا إلى أنطاكية مرة أخرى، وبعد صحبة غير قصيرة انفصلا وحدث بينهما مشادة عظيمة نتيجة لإعلان بولس نسخ أحكام التوراة وقوله إنها: «كانت لعنة تخلَّصنا منها إلى الأبد»، و«أن المسيح جاء ليبدل عهدًا قديمًا بعهد جديد» ولاستعارته من فلاسفة اليونان فكرة اتصال الإله بالأرض عن طريق الكلمة، أو ابن الإله، أو الروح القدس، وترتيبه على ذلك القول بعقيدة الصلب والفداء، وقيامة المسيح وصعوده إلى السماء؛ ليجلس على يمين الرب ليحاسب الناس في يوم الحشر.

وهكذا كرر بولس نفس الأمر مع بطرس الذي هاجمه وانفصل عنه مما أثار الناس ضده، لذا كتب بولس رسالة إلى أهل غلاطية ضمنها عقيدته ومبادئه، ومن ثم واصل جولاته بصحبة تلاميذه إلى أوربا وآسيا الصغرى ليلقى حتفه أخيرًا في روما في عهد نيرون سنة ٦٥م.

وقد استمرت المقاومة الشديدة لأفكار بولس عبر القرون الثلاثة الأولى: ففي القرن الثاني الميلادي تصدى هيولتس، وإيبيي فايتس، وأوريجين لها، وأنكروا أن بولس كان رسولًا، وظهر بولس الشمشاطي في القرن الثالث، وتبعه فرقته البوليسية إلا أنها كانت محدودة التأثير.

وهكذا بدأ الانفصال عن شريعة التوراة، وبذرت بذور التثليث والوثنية في النصرانيَّة، أما باقي الحواريين والرسل فإنهم قُتلوا على يد الوثنيين في البلدان التي ذهبوا إليها للتبشير فيها.

القسم الثاني: الاضطهاد

عانت الدعوة النصرانيَّة أشدَّ المعاناة من سلسلة الاضطهادات والتنكيل على أيدي اليهود الذين كانت لهم السيطرة الدينيَّة، ومن الرومان الذين كانت لهم السيطرة والحكم، ولذلك فإن نصيب النصارى في فلسطين ومصر كان أشد من غيرهم، إذ اتخذ التعذيب والقتل أشكالًا عديدة؛ ما بين الحمل على الخُشُبِ، والنشر بالمناشير، إلى التمشيط ما بين اللحم والعظم، والإحراق بالنار.

ومن أعنف الاضطهادات وأشدها:

١- اضطهاد نيرون سنة ٦٤م الذي قُتل فيه بطرس وبولس.

٢- واضطهاد دمتيانوس سنة ٩٠م وفيه كتب يوحنا إنجيله في أفسس باللغة اليونانيَّة.

٣- واضطهاد تراجان سنة ١٠٦م وفيه أمر الإمبراطور بإبادة النصارى وحرق كتبهم، فحدثت مذابح مُروِّعة قُتل فيها يعقوب البار أسقف أورشليم.

٤- ومن أشدها قسوة وأعنفها اضطهادُ الإمبراطور دقلديانوس ٢٨٤م الذي صمم على ألا يكف عن قتل النصارى حتى تصل الدماء إلى ركبة فرسه، وقد نفذ تصميمه؛ وهدم الكنائس وأحرق الكتب، وأذاقهم من العذاب صنوفًا وألوانًا، مما دفع النصارى من أقباط مصر إلى اتخاذ يوم ٢٩ أغسطس ٢٨٤م بداية لتقويمهم تخليدًا لذكرى ضحاياهم.

وهكذا استمر الاضطهاد يتصاعد إلى أن استسلم الإمبراطور جالير لفكرة التسامح مع النصارى لكنه مات بعدها، ليعتلي قسطنطين عرش الإمبراطورية.

وقد سعى قسطنطين بما لأبيه من علاقات حسنة مع النصارى إلى استمالة تأييدهم له لفتح الجزء الشرقي من الإمبراطورية حيث يكثر عددهم، فأعلن مرسوم ميلان الذي يقضي بمنحهم الحرية في الدعوة والترخيص لديانتهم ومساواتها بغيرها من ديانات الإمبراطورية الرومانية، وشيَّد لهم الكنائس، وبذلك انتهت أسوأ مراحل التاريخ النصراني قسوة، التي ضاع فيها إنجيل عيسى عليه الصلاة والسلام، وقُتل الحواريون والرسل، وبدأ الانحراف والانسلاخ عن شريعة التوراة، ليبدأ النصارى عهدًا جديدًا من تأليه المسيح عليه الصلاة والسلام وظهور اسم المسيحيَّة.

نشأة الرهبانيَّة والديرية وتأثير الفلسفة على النصرانيَّة

في خلال هذه المرحلة ظهرت الرهبنة في النصرانيَّة في مصر أولًا على يد القديس بولس الطبي

٢٤١ - ٣٥٦م والقديس أنطوان المعاصر له كرد فعل على الاضطهاد، إلا أن الديرية -حركة بناء الأديرة- نشأت أيضًا في صعيد مصر عام ٣١٥ - ٣٢٠م أنشأها القديس باخوم، ومنها انتشرت في الشام وآسيا الصغرى.

وفي نفس الوقت دخلت غرب أوربا على يد القديس كاسليان ٣٧٠ - ٤٢٥م، ومارتن التوري ٣١٦ - ٣٨٧م، كما ظهرت مجموعة من الآباء المتأثرين بمدرسة الإسكندرية الفلسفية (الأفلاطونية الحديثة) وبالفلسفة الغنوصية، مثل كليمنت الإسكندري ١٥٠ - ٢١٥م، وأوريجانوس ١٨٥-٢٤٥م وغيرهما.

العهد الذهبي للنصارى

يطلق مؤرخو الكنيسة اسم العهد الذهبي للنصارى ابتداء من تربُّع الإمبراطور قسطنطين على عرش الإمبراطورية الرومانية عام ٣١٢م لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل تاريخ النصرانيَّة.

ويمكن تقسيم ذلك العهد إلى مرحلتين رئيسيتين:

مرحلة جمع النصارى على عقيدة واحدة، ومرحلة الانفصال السياسي.

مرحلة جمع النصارى على عقيدة واحدة

(عصر المجامع أو عهد الخلافات والمناقشات)

ما إن أعلن قسطنطين إعلان ميلان حتى قرَّب النصارى وأسند إليهم الوظائف الكبيرة في بلاط قصره، وأظهر لهم التسامح، وبنى لهم الكنائس، وزعمت أمه هيلينا اكتشاف الصليب المقدس، الذي اتخذه شعارًا لدولته بجانب شعارها الوثني، فنشطت الدعوة إلى النصرانيَّة، ودخل الكثير من الوثنيين أصحاب الفلسفات في النصرانيَّة، مما كان له أثره البالغ في ظهور الكثير من العقائد والآراء المتضاربة، والأناجيل المتناقضة، حيث ظهر أكثر من خمسين إنجيلًا، وكل فرقة تدعي أن إنجيلها هو الصحيح وترفض الأناجيل الأخرى.

وفي وسط هذه العقائد المختلفة والفرق المتضاربة ما بين من يُؤَلِّه المسيح وأمه (الريمتين)، أو من يؤله المسيح فقط، أو يدعي وجود ثلاثة آلهة: إله صالح، وإله طالح، وآخر عدل بينهما (مقالة مرقيون).

أعلن آريوس أحد قساوسة كنيسة الإسكندرية صرخته المدوية بأن المسيح عليه الصلاة والسلام ليس أزليًا، وإنما هو مخلوق من الأب، وأن الابن ليس مساويًا للأب في الجوهر، فالتف حوله الأنصار، وكثر أتباعه في شرق الإمبراطورية حتى ساد مذهبه التوحيدي كنائس مصر والإسكندرية وأسيوط وفلسطين ومقدونيا والقسطنطينيَّة وأنطاكية وبابل، مما أثار بطريرك الإسكندرية بطرس ضده ولعنه وطرده من الكنيسة، وكذلك فعل خلفه البطريرك إسكندر، ثم الشماس إثناسيوس، وضمانًا لاستقرار الدولة أمر الإمبراطور قسطنطين عام ٣٢٥م بعقد اجتماع عام يجمع كل أصحاب هذه الآراء للاتفاق على عقيدة واحدة يجمع الناس حولها، فاجتمع في نيقية ٢٠٤٨ أسقفًا

منهم ٣٣٨ يقولون بألوهية المسيح، وانتهى ذلك المجمع بانحياز الإمبراطور إلى القول بألوهية المسيح ولينفضَّ على القرارات التالية:

١- لعن آريوس الذي يقول بالتوحيد ونفيه وحرق كتبه، ووضع قانون الإيمان النيقاوي (الإثناسيوسي) الذي ينص على ألوهية المسيح.

٢- وضع عشرين قانونًا لتنظيم أمور الكنيسة والأحكام الخاصة بالأكليريوس.

٣- الاعتراف بأربعة أناجيل فقط: متى، لوقا، مرقس، يوحنا، وبعض رسائل العهد الجديد والقديم، وحرق باقي الأناجيل لخلافها عقيدة المجمع.

- وللتغلب على عوامل انهيار وتفكك الإمبراطورية أنشأ قسطنطين مدينة روما الجديدة عام ٣٢٤م في بيزنطة القديمة باليونان على نفس تصميم روما القديمة، وأنشأ بها كنيسة كبيرة (أجياصوفيا)، ورسَّم لهم بطريركًا مساويًا لبطاركة الإسكندرية وأنطاكية في المرتبة على أن الإمبراطور هو الرئيس الأعلى للكنيسة.

وعُرفت فيما بعد بالقسطنطينيَّة، ولذلك أطلق عليها بلاد الروم، وعلى كنيستها كنيسة الروم الشرقيَّة أو كنيسة الروم الأرثوذكس.

وتمهيدًا لانتقال العاصمة إلى روما الجديدة (القسطنطينيَّة) اجتمع قسطنطين بآريوس حيث يدين أهل القسطنطينيَّة والجزء الشرقي من الإمبراطورية بعقيدته، وإحساسًا منه بالحاجة إلى استرضاء سكان هذا القسم أعلن الإمبراطور موافقته لآريوس على عقيدته، وعقد مجمع صور سنة ٣٣٤م ليعلي من عقيدة آريوس، ويلغي قرارات مجمع نيقية، ويقرر العفو عن آريوس وأتباعه، ولعن إثناسيوس ونفيه، وهكذا انتشرت تعاليم آريوس أكثر بمساندة الإمبراطور قسطنطين.

مرحلة الانفصال السياسي

قسَّم قسطنطين الإمبراطورية قبل وفاته عام ٣٣٧م على أبنائه الثلاثة: فأخذ قسطنطين الثاني الغرب، وقسطنطيوس الشرق، وأخذ قنسطانس الجزء الأوسط من شمال أفريقيا، وعمد كل منهم إلى تأييد المذهب السائد في بلاده لترسيخ حكمه.

فاتجه قسطنطيوس إلى تشجيع المذهب الآريوسي، بينما شجع أخوه قسطنطين الثاني المذهب الإثناسيوسي مما أصَّل الخلاف بين الشرق اليوناني والغرب اللاتيني.

وقد توحدت الإمبراطورية تحت حكم قسطنطيوس عام ٣٥٣ - ٣٦١م بعد وفاة قسطنطين الثاني، ومقتل قنسطانس، ووجد الفرصة سانحة لفرض مذهبه الآريوسي على جميع أجزاء الإمبراطورية شرقًا وغربًا.

ولم يلبث الأمر طويلًا حتى اعتلى فلوديوس عرش الإمبراطورية ٣٧٩ - ٣٩٥م الذي اجتهد في إلغاء المذهب الآريوسي والتنكيل بأصحابه، والانتصار للمذهب الإثناسيوسي.

ولذا ظهرت في عهده دعوات تنكر الأقانيم الثلاثة ولاهوت الروح القدس، فقرر عقد مجمع القسطنطينيَّة الأول ٣٨٢م، وفيه فرض الإمبراطور العقوبات المشددة على أتباع المذهب الآريوسي.

كما تقرر فيه أن روح القدس هو روح الله وحياته، وأنه من اللاهوت الإلهي، وتم زيادته في قانون الإيمان النيقاوي، ولعن من أنكره مثل مقدنيوس، وبذلك اكتملت فكرة التثليث كعقيدة للنصارى، وذلك بالإضافة إلى عدة قوانين تنظيمية وإدارية تتعلق بنظام الكنيسة وسياستها.

نشأة البابوية

على إثر تقسيم الإمبراطورية إلى شرقية وغربية، ونتيجة لضعف الإمبراطورية الغربية تم الفصل بين سلطان الدولة والكنيسة، بعكس الأمر في الإمبراطورية الشرقيَّة حيث رسخ الإمبراطور قسطنطين مبدأ القيصرية البابوية، ومن هنا زادت سلطات أسقف روما وتحوَّل كرسيه إلى بابوية لها السيادة العليا على الكنيسة في بلدان العالم المسيحي الغربي (روما - قرطاجة).

وقد لعب البابا داماسوس الأول ٣٦٦ - ٣٨٤م دورًا هامًّا في إبراز مكانة كرسي روما الأسقفي -سيادة البابوية- وفي عهده تم ترجمة الإنجيل إلى اللغة اللاتينيَّة، ثم تابعه خلفه البابا سيرى كيوس ٣٨٤ - ٣٩٩م في تأليف المراسم البابوية.

بداية الصراع والتنافس على الزعامة الدينيَّة بين الكنيستين

ظهر الصراع والتنافس بين كنيسة روما بما تدعي لها من ميراث ديني، وبين كنيسة القسطنطينيَّة عاصمة الدولة ومركز أباطرتها في مجمع أفسس الأول عام ٤٣١م حيث نادى نسطور أسقف القسطنطينيَّة بانفصال طبيعة اللاهوت عن الناسوت في السيد المسيح عليه السلام، وبالتالي فإن اللاهوت لم يولد ولم يصلب، ولم يقم مع الناسوت، وأن المسيح يحمل الطبيعتين منفصلتين: اللاهوتية والناسوتية، وأنه ليس إلهًا، وأمه لا يجوز تسميتها بوالدة الإله، وقد حضر المجمع مائتان من الأساقفة بدعوة من الإمبراطور ثاؤديوس الصغير، الذي انتهى بلعن نسطور ونفيه، والنص في قانون الإيمان بأن مريم العذراء والدة الإله.

وبسبب دعوى أرطاخي باتحاد الطبيعتين في السيد المسيح عقد له أسقف القسطنطينيَّة فلافيانوس مجمعًا محليًّا وقرر فيه قطعه من الكنيسة ولعنه؛ لكن الإمبراطور ثاؤديوس الصغير قبل التماس أرطاخي، وقرر إعادة محاكمته، ودعا لانعقاد مجمع أفسس الثاني عام ٤٤٩م برئاسة بطريرك الإسكندرية ديسقورس لينتهي بقرار براءته مما نسب إليه.

انفصال الكنيسة مذهبيًّا

لم يعترف أسقف روما ليو الأول بقرارات مجمع أفسس الثاني ٤٤٩م وسعى الإمبراطور مركيانوس لعقد مجمع آخر للنظر في قرارات ذلك المجمع، فوافق الإمبراطور على عقد المجمع في القسطنطينيَّة، ثم في كلدونية ٤٥١م لمناقشة مقالة بابا الإسكندرية ديسقورس: من أن للمسيح طبيعتين في طبيعة واحدة (المذهب الطبيعي - المونوفيزتية)، ليتقرر لعن ديسقورس وكل من شايعه

ونفيه، وتقرير أن للمسيح طبيعتين منفصلتين.

فكان ذلك دافعًا ألا تعترف الكنيسة المصريَّة بهذا المجمع ولا بالذي يليه من المجامع، ومنذ ذلك التاريخ انفصلت في كنيسة مستقلة تحت اسم الكنيسة المرقسية - الكنيسة الأرثوذكسيَّة - أو القبطية تحت رئاسة بطريرك الإسكندرية، وانفصلت معها كنيسة الحبشة وغيرها، ليبدأ الانفصال المذهبي عن الكنيسة الغربية.

بينما اعترفت كنيسة أورشليم الأرثوذكسيَّة بقرارات مجمع كلدونية وصارت بطريركية مستقلة تحت رئاسة البطريرك يوفيناليوس.

نشأة الكنيسة اليعقوبيَّة

واجه الإمبراطور جستنيان ٥٢٧ - ٥٦٥م صعوبة بالغة في تحقيق طموحه بتوحيد مذهبي الإمبراطورية لتتحقق له سلطة الإمبراطورية والبابوية معًا.

وبعد انتصاره في إيطاليا ودخول جيوشه روما حاول إرضاء زوجته بفرض مذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزتية) على البابا فجليوس الذي رفض ذلك بشدة، مما عرضه إلى القبض عليه وترحيله إلى القسطنطينيَّة، ليعقد مجمع القسطنطينيَّة الخامس سنة ٥٥٣م الذي انتهى بتقرير مذهب الطبيعة الواحدة، ولعن أصحاب فكرة تناسخ الأرواح، وتقرير أن عيسى عليه السلام كان شخصية حقيقية وليست بخيالية.

ومن آثار هذا المجمع استقلالُ أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة وإقامةُ كنيسة منفصلة لهم، تعرف بالكنيسة اليعقوبيَّة، تحت رئاسة مؤسسها يعقوب البرادعي أسقف الرَّها مما زاد في عداء البابوية للإمبراطورية الشرقيَّة.

نشأة الكنيسة المارونيَّة

في عام ٦٧٨ - ٦٨١م عمل الإمبراطور قسطنطين الرابع على استرضاء البابا أجاثون بعدما فقد المراكز الرئيسية لمذهب الطبيعة الواحدة في مصر والشام لفتح المسلمين لهما، فتم عقد مجمع القسطنطينيَّة الثالث عام ٦٨٠م للفصل في قول يوحنا مارون من أن للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة.

وفيه تقرر أن للمسيح طبيعتين ومشيئتين، ولعن وطرد من يقول بالطبيعة الواحدة أو بالمشيئة الواحدة، ولذلك انفصلت طائفة المارونيَّة ولحقت بسابقتها من الكنائس المنفصلة.

انفصال الكنيسة إداريًا

جاء هذا الانفصال بعد النزاع والصراع الطويل ابتداءً من الإمبراطور ليو الثالث ٧٢٦م الذي أصدر مرسومًا يُحرِّم فيه عبادة الأيقونات، ويقضي بإزالة التماثيل والصور الدينيَّة والصلبان من الكنائس والأديرة والبيوت على أنها ضرب من الوثنية، متأثرًا بدعوة المسلمين لإزالة هذه التماثيل

التي بالكنائس في داخل الدولة الإسلاميَّة.

وتصدى لهذه الدعوة البابا جريجوري الثاني، ثم خَلَفه البابا جريجوري الثالث ليصدر الإمبراطور قرارًا بحرمان الكراسي الأسقفية في صقلية وجنوب إيطاليا من سلطة البابا الدينيَّة والقضائية وجعلها تحت سلطان بطريرك القسطنطينيَّة.

واستمر الوضع على ذلك إلى أن جاء الإمبراطور قسطنطين الخامس ٧٤١ - ٧٧٥م، وازدادت الثورات اشتعالًا ضد دعاة اللاأيقونية، فعقد مجمعًا في القسطنطينيَّة لتبرير سياسة تحريم الصور والأيقونات.

وقد رفضت البابوية حضوره، ولم يحضره سوى ثلاثمائة وأربعين أسقفًا تحت رئاسة بطريرك القسطنطينيَّة ليقضي بتحريم تصوير المسيح في أي شكل، وكذلك تحريم عبادة صور القديسين، وتحريم طلب الشفاعة من مريم؛ لأن كل هذا من ضروب الوثنية.

ولكن هذه القرارات لم تدم طويلًا حيث أمرت الإمبراطورة الأيقونية إيرين التي خلفت زوجها الإمبراطور ليو الخزري بعقد مجمع نيقية عام ٧٨٧م بعد تعيينها للبطريرك خرسيوس المتحمس للأيقونية بطريركًا على القسطنطينيَّة، وانتهى المجمع على تقديس صور المسيح ووالدته والقديسين، ووضع الصور في الكنائس والأديرة والبيوت والطرقات بزعم أن النظر إليهم يدعو للتفكير فيها.

- وفي عام ٨٦٩م أثار بطريرك القسطنطينيَّة فوسيوس مسألة انبثاق الروح القدس من الآب وحده، فعارضه -كالعادة- بطريرك روما وقال: إن انبثاق الروح القدس من الآب والابن معًا، وعقد لذلك مجمع القسطنطينيَّة الرابع ٨٦٩م (مجمع الغرب اللاتيني) الذي تقرَّر فيه أن الروح القدس منبثقة من الآب والابن معًا، وأن جميع النصارى في العالم خاضعون لمراسيم بابا روما، وأن من يريد معرفة ما يتعلق بالنصرانيَّة وعقائدها عليه برفع دعواه إلى بابا روما.

ولذلك تم لعن وعزل فوسيوس وحرمانه وأتباعه، إلا أن فوسيوس استطاع أن يعود إلى مركزه مرة أخرى.

وفي عام ٨٧٩م عقد المجمع الشرقي اليوناني (القسطنطينيَّة الخامس) ليلغي قرارات المجمع السابق، ويعلن أن الروح القدس منبثقة من الآب وحده، ويدعو إلى عدم الاعتراف إلا بالمجامع السبعة التي آخرها مجمع نيقية ٧٨٧م.

- وهكذا تم الانفصال المذهبي للكنيسة الشرقيَّة تحت مسمى الكنيسة الشرقيَّة الأرثوذكسيَّة، أو كنيسة الروم الأرثوذكس برئاسة بطريرك القسطنطينيَّة، ومذهبًا بأن الروح القدس منبثقة من الأب وحده، على أن الكنيسة الغربية أيضًا تميَّزت باسم الكنيسة البطرسية الكاثوليكيَّة، وبزعم أن لبابا روما سيادة على كنائس الإمبراطورية، وأنها أم الكنائس ومعلمتهن، وتميزت بالقول بأن الروح القدس منبثقة عن الأب والابن معًا.

ولم يتم الانفصال النهائي -الإداري- إلا في عام (١٠٥٤م)، وبذلك انتهى عهد المجامع

المسكونيَّة (العامة)، وحلت محلها المؤتمرات الإقليمية أو سلطات البابا المعصوم لتستكمل مسيرة الانحراف والتغيير في رسالة عيسى عليه السلام.

- ومن أبرز سمات هذه المرحلة الأخيرة -القرون الوسطى- الفساد، ومحاربة العلم والعلماء، والتنكيل بهم والاضطهاد لهم، وتقرير أن البابا معصوم له حق الغفران، مما دفع إلى قيام العديد من الحركات الداعية لإصلاح فساد الكنيسة، وفي وسط هذا الجو الثائر ضد رجال الكنيسة انعقد مؤتمر ترنت عام ١٥٤٢ - ١٥٦٣م لبحث مبادئ مارتن لوثر التي تؤيدها الحكومة والشعب الألماني، وانتهى إلى عدم قبول آراء الثائرين أصحاب دعوة الإصلاح الديني.

ومن هنا انشقَّت كنيسة جديدة هي كنيسة البروتستانت ليستقر قارب النصرانيَّة بين أمواج المجامع التي عصفت بتاريخها على ثلاث كنائس رئيسية لها النفوذ في العالم إلى اليوم، ولكل منها نحلة وعقيدة مستقلة، وهي: الأرثوذكس، الكاثوليك، البروتستانت، بالإضافة إلى الكنائس المحدودة مثل: المارونيَّة، والنسطوريَّة، واليعقوبيَّة، وطائفة الموحدين، وغيرهم[1].

(١) انظر: الموسوعة الميسرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي (٢/ ٥٦٤- ٥٧٤)، تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور (١/ ٥٣٣).

الفصل الثاني

المجامع النصرانيَّة

المجامع هيئات شورية في الكنيسة النصرانيَّة رسم الرسل نظامها في حياتهم، إذ عقدوا المجمع الأول في أورشليم سنة ٥١م، برئاسة أسقفها «يعقوب» الرسول، للنظر في مسألة ختان الأمم، ومن ثم نسجت الكنيسة بعد ذلك على منوالهم سنة جمع المجامع للنظر في أمور العقيدة والشريعة.

وبداية المجامع النصرانيَّة على وجه العموم قد عقدت لما ظهر التغير والفساد على دين المسيح.

والمجامع عندهم نوعان:

١- مجامع مسكونية أو عامة، أي تجمع رجال الكنائس المسيحيَّة في كل أنحاء المعمورة.

٢- مجامع مكانية أو إقليمية، وهي التي تعقدها كنائس مذهب أو أمة في دوائرها الخاصة من أساقفتها وقساوستها، أما لإقرار عقيدة، أو لرفض عقائد أخرى، أو للنظر في بعض الشئون المحلية الخالصة.

ويقول المؤرخون: إن الإحصائيات التي أجريت لمعرفة عدد المجامع العامة التي انعقدت بين المدة من القرن الأول المسيحي إلى عام ١٨٦٩م تساوي عشرين مجمعًا، مع الاختلاف والإنكار لعمومية بعضها أو لصحة قراراتها.

وأخطر المجامع التي لها صلة بانحراف عقائد النصارى أربعة وهي:

١- مجمع نيقية الأول المنعقد في ٣٢٥م.

٢- مجمع قسطنطينة الأول المنعقد في ٣٨١م.

٣- مجمع أفسس المنعقد في ٤٣١م.

٤- مجمع خليكدونية المنعقد في ٤٥١م.

وترجع أهمية دراسة المجامع لاتصالها بقضية التثليث في العقيدة النصرانيَّة؛ وذلك لأن عقيدة التثليث على النظام الموجود حاليًا، الذي تتصف به الديانة النصرانيَّة حاضرًا لم يكن من التعاليم التي جاء بها المسيح، بل ولا من تعاليم الإنجيل في حدود نصوصه الدينيَّة، ولكنه كان من تفسيرات القساوسة والأساقفة في المجامع التي انعقدت خاصة لمثل هذه التأويلات في العقيدة الدينيَّة النصرانيَّة، ومجمعًا بعد مجمع، وطائفة بعد طائفة، ولد ذلك الذي يسميه النصارى اليوم بالأقانيم.

فأهمية دراسة المجامع من زاوية أنها أضفت على وجودها مسحة من الأحقية في التشريع الديني بما لا يوجد له، ولا به، ولا فيه نص واحد من نصوص الأناجيل، بل إن الرسائل التي تعتبر المصدر الوحيد للطقوس والبروتوكول الديني، لم يتعرف بها إلا في بدء القرن الرابع الميلادي، وما

قبله من الزمن فهي أما مجهولة، أو غير معترف بصحتها.

فأهمية دراسة المجامع النصرانيَّة يرجع للآتي:

١- إنها تبرز العوامل التي ساهمت في بناء العقيدة النصرانيَّة ونشرها، كتحديد بدء الاتفاق على القول بألوهية المسيح والروح القدس وبالتثليث، وتحديد بدء إدخاله في الديانة النصرانيَّة كنظام ديني، وكذلك تحديد الفاعلين، والقائلين، والمتمذهبين بهذا التثليث وأدلتهم، ومراجعهم الدينيَّة أو التاريخية.

وكذلك تحديد بدء الاتفاق على تقديس صور المسيح والقديسين، ووضعها في الكنائس والأبنية المقدَّسة والبيوت والطرقات.

٢- معرفة كيف انفصلت الكنيسة جغرافيًّا إلى شرقية وغربية، وكيف انفصلت عقائديًّا إلى أرثوذكسية وكاثوليكيَّة وبروتستانتيَّة.

٣- معرفة كيف نشأت البابوية، وتملك الكنيسة البابوية الغفران، وعصمة البابا.

٤- معرفة كيف نشأت فكرة الإصلاح الديني.

٥- معرفة كيف نشأت فكرة فصل الدين عن الدولة في أوربا.

وقد تقدم الكلام عن أهم المجامع النصرانيَّة خلال السرد التاريخي للنصارى والنصرانيَّة[1].

---

(١) انظر: المجامع النصرانية، د. سلطان عبد الحميد سلطان ص(٧٩- ٨٤)، أضواء على المسيحية ص(٩٣، ٩٥)، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء، د. رءوف شلبي ص(٢٠٣)، محاضرات في النصرانية: محمد أبو زهرة ص(١٤٧)، تاريخ الأقباط، زكي شنودة (١/ ١٧٠).

الفصل الثالث

فرق النصارى

قال ابن حزم: «النصارى وإن كانوا أهل كتاب ويقرون بنبوة بعض الأنبياء عليهم السلام، فإنَّ جماهيرهم وفرقهم لا يقرون بالتوحيد مجرَّدًا بل يقولون بالتثليث»[١].

وقال الشهرستاني: «اختلافاتهم تعود إلى أمرين:

أحدهما: كيفية نزوله واتصاله بأمِّه وتجسد الكلمة.

والثاني: كيفيَّة صعوده واتِّصاله بالملائكة وتوحد الكلمة...

ثم افترقت النصارى اثنتين وسبعين فرقةً وكبار فرقهم ثلاثة: الملكانيَّة، والنسطوريَّة، واليعقوبيَّة. وانشعبت منها: الأليانيَّة، والبليارسيَّة، والمقدانوسيَّة، والسباليَّة، والبوطينوسيَّة، والبوليَّة، إلى سائر الفرق»[٢].

الأبيونيَّة

التعريف:

تنسب إلى قس اسمه أبيون. وقيل: الأبيونيَّة هم: الفقراء إلى الله، فسمّوا بذلك لفقرهم وزهدهم.

التاريخ والأحداث

ظهرت هذه الفرقة في القرن الأول الميلادي من أصل يهوديٍّ، وقد نشطت هذه الفرقة بعد عام ٧٠م.

وقد ذكر معتقدات هذه الفرقة المؤرخون الأوائل خلال نقدهم لعقائد فرقة الآريوسية المتأخرة، فيقول بطريرك الإسكندريَّة (عام ٣٢٦م) عن عقيدة آريوس: «فهذا التعليم الثائر على تقوى الكنيسة هو تعليم أبيون وأرطيماس، وهو نظير تعليم بولس السمياطي».

ويقول كيرلس الأورشليمي (٣٨٨م) عن الهراطقة: «فكرنثوس صنع خرابًا في الكنسية، وأيضًا ميناندر وكربو قراط وأبيون».

وقد كان لهذه الفرقة شأن، إذ كثروا حتى شمل نفوذها فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى ووصل إلى روما، واستمر وجودهم إلى القرن الرابع الميلادي حيث يفهم من كلام القديس جيروم في القرن

(١) الفصل (١/٤٧).

(٢) الملل والنحل (١/٢١٩- ٢٢١).

الرابع أنَّهم كانوا في حالة من الضعف والاضطهاد، وذلك بعد مخالفتهم لأوامر قسطنطين ومجمع نيقيَّة.

ويرى بعض المحققين المسلمين أنَّ هذه الفرقة هم من عناهم المسيح بقوله في متى ٥/٣- ٩: «طوبى للمساكين بالروح، فإنَّ لهم ملكوت السموات، طوبى للودعاء، فإنَّهم يرثون الأرض، طوبى للحزانى فإنَّهم يتعزون، طوبى للجياع والعطاش فإنَّهم يشبعون».

المعتقدات والأفكار

- يقولون: إنَّ الله هو الذي خلق العالم، وينكرون القول بألوهيَّة المسيح.
- كان الأبيونيُّون يقولون بردة بولس، وكانوا يتَّهمونه بالتحريف.
- تذكر المصادر أنَّ هؤلاء استخدموا إنجيل متَّى أو إنجيل العبرانيين، ولعل الاسمين لمسمَّى واحدٍ، فلعلهم استخدموا الأصل العبراني لمتَّى، ولم يبالوا بغيره، ويرى بعض المؤرخين أنَّه بسبب هذه الفرقة دعي يوحنا لكتابة إنجيله الذي يقرر فيه لاهوتيَّة المسيح.
- يحفظون الختان، وكل العوائد المذكورة في شريعتهم[١].

الكرنثيُّون

ظهر الداعية كرنثوس في ٧٣م، وقد كان يعتقد أنَّ المسيح كان مجرد إنسان بارز، كما رفض الأناجيل عدا إنجيل متَّى (أي النص العبراني المفقود)[٢].

المعلمون او المستنيرون

في أواخر القرن الثاني ظهر أمونيوس، فادَّعى بأنَّ المسيح إنسان خارق للعادة حبيب لله، عارف بعمل الله بنوع مدهش، وأنَّ تلاميذه أفسدوا دعوته، ويمثل هذا نادى كربو قراط، لكنهم بالغوا في إثبات بشريَّة المسيح حتى قالوا كان كسائر الحكماء، ويقدر جميع الناس أن يفعلوا مثله، ويسلكوا سلوكه، فكانت ردة فعلهم على قول القائلين بألوهيَّته غير صحيحة، ففي زحمة إنكارهم لألوهيَّته هضموه وأنقصوه عن حقِّه عليه الصلاة والسلام[٣].

البولينيَّة

هم أتباع بولس الشمشاطي، الذي تولى أسقفية إنطاكية عام ٢٦٠م كما كان يشغل منصبًا كبيرًا في مملكة تدمر.

---

(١) انظر: الله واحد أو ثلاثة، د. منقذ محمود السقار.

(٢) انظر: الله واحد أو ثلاثة، تحجيل من حرف التوراة والإنجيل.

(٣) انظر: الله واحد أو ثلاثة.

وهم يؤمنون بأنَّ الله إله واحد، جوهر واحد، أقنوم واحد، ولا يسمونه بثلاثة أسماء، ولا يؤمنون بالكلمة أنَّها مخلصة، ولا أنَّها من جوهر الأب، ولا يؤمنون بروح القدس المحيي، ويقولون: إنَّ المسيح إنسان خلق من اللاهوت مثل خلق آدم، وكمثل واحد منا في جوهره، وأن الابن ابتداؤه من مريم. وقد عقدت الكنسية ثلاث مجامع خلال خمس سنوات لإقناعه بالعدول عن مذهبه، آخرها مجمع في إنطاكية عام ٢٦٨م، وحضره بولس، ودافع فيه عن مذهبه، فطرد وعزل من جميع مناصبه، لكن أتباعه استمر وجودهم إلى القرن الميلادي السابع.

قال ابن حزم: «أصحاب بولس الشمشاطي وكان بطريركًا بأنطاكية، وكان قوله التوحيد المجرَّد الصحيح، وأن عيسى عبد الله ورسوله كأحد الأنبياء عليهم السلام، خلقه الله تعالى في بطن مريم من غير ذكر، وأنَّه إنسان لا إلهيَّة فيه، وكان يقول: لا أدري ما الكلمة ولا روح القدس»[(١)].

وقال الشهرستاني: «وبوطينوس وبولس الشمشاطي يقولان: إن الإله واحد، وإن المسيح ابتدأ من مريم عليها السلام، وإنَّه عبد صالح مخلوق إلا أن الله تعالى شرفه وكرمه لطاعته وسمَّاه ابنًا على التبني لا على الولادة والاتحاد»[(٢)].

وقال ابن البطريق في بيان مذهب بولس هذا: «إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا في جوهره، وإن الابن من مريم، وإنه اصطفى ليكون مخلصًا للجوهر الإنسي، صحبته النعمة الإلهيَّة، وحلت فيه بالمحبَّة والمشيئة، ولذلك سمي ابن الله، ويقولون: إنَّ الله جوهر واحد، وأقنوم واحد، ويسمّون بثلاثة أسماء، ولا يؤمنون بالكلمة، ولا بروح القدس»[(٣)].

اللوسيانيَّة

ظهر في بداية القرن الميلادي الرابع عالم مترهب يدعى لوسيان، وكان يرى أنَّ المسيح كائن سماوي أخرجه الله من العدم إلى الوجود، وتجلَّى فيه العقل الإلهي في كيفيته الشخصيَّة، فكانت روحه غير بشريَّة، لكنَّه لم يكن الإله على الإطلاق[(٤)].

اتباع مرقيون

زعموا أنَّ مرقيون هو رئيس الحورايين وأنكروا بطرس، وكان يقول: إن هناك آلهةً ثلاثةً: صالح، وطالح، وعدل بينهم.

---

(١) الفصل (١/ ٤٧).
(٢) الملل والنحل (١/ ٢٢٤).
(٣) انظر: محاضرات في النصرانية ص(١٨٥).
(٤) انظر: الله واحد أو ثلاثة.

البربرانيَّة

قال ابن حزم: «وهم يقولون: إن عيسى وأمَّه إلهان من دون الله عزَّ وجلَّ»[١].

البابليدوسيّة

يقولون: إنَّ المسيح من الآب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة أخرى فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية.

الأليانيَّة

يقولون: لم تحبل مريم تسعة أشهر وإنَّما مرَّ في بطنها كما يمرُّ الماء في الميزاب؛ لأنَّ الكلمة دخلت في أذنها وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعته[٢].

الآريانيَّة او الآريوسيَّة

التعريف:

الآريانيَّة أو المذهب الآريوسي نسبة لأسقف الإسكندريَّة آريوس، الذي درس في مدرسة لوسيان اللاهوتيَّة في أنطاكية.

قال ابن حزم: «أصحاب آريوس، وكان قسيسًا بالإسكندريَّة، ومن قوله: التوحيد المجرَّد، وأن عيسى عليه السلام عبد مخلوق، وأنَّه كلمة الله تعالى التي بها خلق السموات والأرض»[٣].

التاريخ والأحداث

كان آريوس فيما يظهر عالمًا زاهدًا متقشفًا، يجيد الوعظ والإرشاد، فالتفَّ حوله عددٌ من المؤمنين، وانضمَّ إليه عدد كبير من رجال الأكليروس. وكان يقول: «إنَّ الابن ليس مساويًا للأب في الأزليَّة، وليس من جوهره، وقد كان الأب في الظل وحيدًا، فأخرج الابن من العدم بإرادته، والآب لا يمكن أن يراه أو يكيفه أحد، ولا حتى الابن؛ لأنَّ الذي له بداية لا يعرف الأزلي، والابن إله بحصوله على لاهوت مكتسب».

وقد توفى آريوس سنة ٣٣٦م، لكن دعوته انتشرت بعد وفاته، وأوشك العالم أن يكون كله آريوسيًا لولا تدخل الأباطرة في العمل على ضرب تلك العقيدة واستئصال تبعيتها. ويؤكد كثرة الآريوسيين المؤرِّخ ابن البطريق، وينقل أنَّ أكثر أهل مصر كانوا آريوسيين.

---

(١) الفصل (١/٤٧).

(٢) انظر: محاضرات في النصرانيَّة ص(١٨٧، ١٨٨).

(٣) الفصل (١/٤٧).

ومما يؤكد قوة مذهب آريوس إبَّان حياته وبعد موته، أنَّ الكنيسة عقدت مجامع عدة لبحث عقيدته، كما كان لآريوس وأتباعه مجامع، منها: مجمع قيسارية ٣٣٤م، وصور ٣٣٥م، وقد قرر المجتمعون في مجمع صور عزل أثناسيوس البابا -الداعي لألوهيَّة المسيح والذي كتبت أمانة النصارى بإشرافه في مجمع نيقية-كما نفوه إلى فرنسا، ثم عقدوا مجمعًا آخر في إنطاكية عام ٣٤١م حضره سبع وتسعون أسقفًا آريوسيًا، قرروا فيه مجموعة من القوانين التي تتفق مع مبادئهم ومعتقداتهم.

ثم أعاد الإمبراطور الروماني الأسقف أثناسيوس إلى كرسي البابويَّة، فاحتج الآريوسيون لذلك، وأثاروا اضطرابات عدة، ثم عقدوا مجمعًا في آرلس بفرنسا عام ٣٥٣م، وقرروا فيه بالإجماع -عدًا واحدًا- عزل أثناسيوس. ثم أكدوا ذلك في مجمع ميلانو ٣٥٥م، فعُزل، وتولَّى الأسقف الآريوسي جاورسيوس كرسي الإسكندريَّة، وفي عام ٣٥٩م عقد الإمبراطور مجمعين أحدهما للغربيين في ريمني، والآخر للشرقيين في سلوفيا، وقرر المجمعان صحة عقائد الآريوسيَّة، وباتت الكنائس الغربيَّة آريوسيَّة.

ويذكر المؤرخ ناسيليف أنَّ الإمبراطور قسطنطين نفسه قد تحوَّل إلى المذهب الآريوسي ممالأة لأفراد شعبه، وذلك بعد نقل عاصمته إلى القسطنطينيَّة، وقد تعلق بذلك الأنبا شنودة وهو يبرر كثرة أتباع المذهب الآريوسي، فذكر بأنَّه بسبب معاضدة الإمبراطور له.

وفي مجمع إنطاكية ٣٦١م وضع الآريوسيون صيغة جديدة للأمانة، ومما جاء فيها: الابن غريب عن أبيه، ومختلف عنه في الجوهر والمشيئة. وفي نفس العام عقدوا مجمعًا في القسطنطينيَّة وضعوا فيه سبعة عشر قانونًا مخالفًا لما صدر عن مجمع نيقية.

وفي هذا العام أيضًا تولَّى الإمبراطوريَّة يوليانوس الوثني، فأعاد أثناسيوس وأساقفته إلى أعمالهم، وجاهر بعبادة الأصنام، وسلَّم الكنائس للنصارى الوثنيين، ثم خلفه الإمبراطور يوبيانوس ٣٦٣م، فأكمل ما بدأه سلفه، وعادى الآريوسيين، وفرض عقيدة النصرانيَّة الوثنيَّة، ومما قاله مخاطبًا شعبه وأركان دولته: «إذا أردتم أن أكون إمبراطوركم كونوا مسيحيِّين مثلي»، ثم حرم مذهب الآريوسيِّين، وتبنَّى قرارات نيقية، وطلب من الأسقف أثناسيوس أن يكتب له عن حقيقة الدين المسيحي الذي كان قد أجبر الناس عليه قبل أن يقف على حقيقته.

المعتقدات والأفكار

١- إنَّ الله لا يمكن أن يولد؛ لأنَّه بلا بداية وبناء على ذلك فبما أنَّ الابن أي الشخص الثاني من الثالوث مولد، فلا يمكن أن يكون إلهًا بنفس مستوى أو معنى ألوهيَّة الأب، وبالتالي فإنَّ الابن لم يتولد من نفس الجوهر الألوهيِّ للأب، ولم يوجد منه الأزل، بل خلقه الله من لا شيء، كما خلق سائر المخلوقات. وأنَّ العلاقة بينهم علاقة خالق ومخلوق. وليست علاقة انبثاق جوهري أو ولادة حقيقيَّة.

وانقسمت إلى قسمين:

- أنصاف الآريانيِّين: قبلوا بأنَّه الابن من نفس طبيعة الأب أو من النفس الجوهر.

- الآريانيّين الجدد: لم يترددوا في التأكيد على مخلوقيَّة الابن.

٢- زعم آريوس: أنَّ الله واحد سماه آبا، وأنَّ المسيح كلمة الله وابنه على طريق الاصطفاء وهو مخلوق قبل خلق العالم، وهو خالق الأشياء.

٣- زعم أنَّ الله تعالى روحٌ مخلوقة أكبر من سائر الأرواح، وأنَّها واسطة بين الأب والابن تؤدي إليه الوحي.

٤- زعم أن المسيح ابتدأ جوهرًا لطيفًا روحانيًّا خالصًا غير مركب ولا ممزوج بشيء من الطبائع الأربع، وإنَّما تدرع بالطبائع الأربع عند الاتحاد بالجسم المأخوذ من مريم[١].

البليارسيَّة

نسبة إلى بليارس الذي كان يقول: إذا صار الناس إلى الملكوت الأعلى أكلوا ألف سنة، وشربوا وناكحوا، ثم صاروا إلى النعم التي وعدهم آريوس، وكلّها لذة وراحة وسرور وحبور لا أكل فيها ولا شرب ولا نكاح[٢].

السباليَّة

نسبة إلى سباليوس الذي زعم أنَّ القديم جوهر واحد، أقنوم واحد، له ثلاث خواص، واتَّحد بكلِّيَّته بجسد عيسى ابن مريم عليهما السلام[٣].

المقدونيُّون او الأبولنياريُّون

نسبة إلى مقدونيوس، وكان بطريركًا على القسطنطينيَّة أيَّام قسطنطين بن قسطنطين الثاني، وكان هذا الملك آريوسيًّا. وأقام مقدونيوس عشر سنين ومات، ولكنَّ مقالته لم تمت بموته، بل كان له أشياع وأتباع خصوصًا من بين الموحدين الذين لم يزولوا من المملكة الرومانيَّة، وإن أصبحوا في الجملة لا سلطان لهم. ولأجل ذلك انعقد مجمع القسطنطينيَّة سنة ٣٨١م.

وكان من قول مقدونيوس التوحيد المجرَّد، وإن عيسى عبد مخلوق إنسان نبي رسول الله كسائر الأنبياء، وأن عيسى هو روح القدس وكلمة الله عزَّ وجلَّ، وأنَّ روح القدس والكلمة مخلوقان خلق الله كل ذلك[٤].

---

(١) انظر: الملل والنحل (١/ ٢٢٧)، الله واحد أو ثلاثة.

(٢) انظر: الملل والنحل (١/ ٢٢٦).

(٣) انظر: الملل والنحل (١/ ٢٢٦).

(٤) انظر: الفصل (١/ ٤٧)، محاضرات في النصرانية ص(١٩٠، ١٩١).

النساطرة أو النسطوريَّة

التعريف:

ينسبون إلى نسطور بطريرك القسطنطينيَّة الذي ظهر في زمان المأمون، في القرن الخامس في قيصريَّة بسورية.

التاريخ والأحداث

يُعد نسطور امتدادًا لأريوس وفرقته، وقد شايعه بعض الأساقفة والفلاسفة، وكان نسطور يقول: «إن في المسيح جزءًا لاهوتيًا، لكنَّه ليس من طبيعة المسيح البشريَّة، فلم يولد هذا الجزء من العذراء التي لا يصحُّ أن تسمَّى أم الله». ويعتقد نسطور أنَّ اتحاد اللاهوت بعيسى الإنسان ليس اتحادًا حقيقيًّا، بل ساعده فقط، وفسَّر الحلول الإلهي بعيسى على المجاز أي حلول الأخلاق والتأييد والنصرة.

وقال في إحدى خطبه: «كيف أسجد لطفل ابن ثلاثة أشهر؟» وقال: «كيف يكون لله أم؟ إنَّما يولد من الجسد ليس إلا جسدًا، وما يولد من الروح فهو روح. إنَّ الخليقة لم تلد الخالق، بل ولدت إنسانًا هو إله اللاهوت».

وقد عقد في أفسس ٤٣١م مجمع قرر عزله ونفيه إلى مصر، فمات في صحراء ليبيا، ولكن مذهبه استمر. يقول المؤرخ سايرس ابن المقفع في كتابه تاريخ البطاركة: «إنَّ نسطور كان شديد الإصرار على تجريد المسيح من الألوهيَّة، إذ قال: إنَّ المسيح إنسان فقط. إنَّه نبي لا غير».

وذكر ابن المقفع أنَّه عند نفيه أرسل له البطارقة أنَّه إذا اعترف بأنَّ المصلوب إله متجسد فسوف يعفون عنه، فيقول ابن المقفع: «فقسا قلبه مثل فرعون، ولم يجبهم بشيء».

وقد هاجرت طائفة النساطرة من الرها بعد أن أغلقت مدرستهم فيها -مدرسة الرها- على يد زينون سنة ٤٣٩م، فهاجرت الطائفة تحت قيادة بارسوما سنة ٤٥٧م إلى فارس، وأنشأت فيها مدرسة نصيبين.

ولم يكونوا عاملين على نشر المسيحيَّة فقط، بل أرادوا أن ينشروا منها تعاليمهم الخاصَّة في طبيعة المسيح، فأخذوا يستعينون على بثِّ أفكارهم بأقوال ومذاهب منتزعة من الفلسفة اليونانيَّة. فأصبح كلُّ مبشِّرٍ نسطوريٍّ بالضرورة معلِّمًا في الفلسفة اليونانيَّة، كما أنَّه مبشِّر بالدين المسيحيِّ.

وقد تغيَّر مذهب النسطوريَّة بعد نسطور فأشبه مذاهب التثليث، إذ يقول النسطوريَّة: إنَّ المسيحَ شخصيَّة لها حقيقتان: بشريَّة وإلهيَّة، فهو إنسان حقًّا، إله حقًّا، ولكنَّه ليس شخصيَّة قد جمعت الحقيقتين، بل ذات المسيح كانت تجمع شخصيتين.

المعتقدات والأفكار

١- قال نسطور: إنَّ الله تعالى واحد ذو أقانيم ثلاثة: الوجود، والعلم، والحياة. وهذه الأقانيم ليست زائدة على الذات ولا هي هو.

ويقولون: إنَّ الله تعالى ثلاثة أشياء: أب، وابن، وروح القدس، كلها لم تزل، وأنَّ عيسى ابن مريم -عليهما السلام- إله تامٌّ كلّه، وإنسان تامّ كلّه، وليس أحدهما غير الآخر. وأنَّ الإنسان من عيسى ابن مريم -عليهما السلام- هو الذي صُلِبَ وقتل. وأنَّ مريم -عليها السلام- ولدت الإنسان ولم تلد الإله، وأنَّ الله تعالى هو الذي ولد الإله.

- واتّحدت الكلمة بجسد عيسى عليه السلام لا على طريق الامتزاج كما قالت الملكانيَّة، ولا على طريق الظهور به كما قالت اليعقوبيَّة، ولكن كإشراق الشمس في كوة على بلورة وكظهور النقش في الشمع إذا طبع بالخاتم.

- وبعضهم يثبت لله تعالى صفات أخرى بمنزلة القدرة والإرادة ونحوهما ولم يجعلوها أقانيم كما جعلوا الحياة والعلم أقنومين.

- ومنهم من أطلق القول بأنَّ كلَّ واحد من الأقانيم الثلاثة حي ناطق إله.

- وزعم الباقون أنَّ اسم الإله لا يطلق على كلِّ واحد من الأقانيم.

- وزعموا أنَّ الابن لم يزل متولدًا من الأب، وإنما تجسد واتّحد بجسد المسيح حين ولد.

- والحدوث راجع إلى الجسد والناسوت فهو إله وإنسان اتّحدا.

- وهما جوهران أقنومان طبيعتان: جوهر قديم وجوهر محدث إله تامٌّ وإنسان تامٌّ، ولم يبطل الاتّحاد قدم القديم ولا حدوث المحدث لكنهما صارا مسيحًا واحدًا له طبيعة واحدة.

- وربما بدَّلوا العبارة: فوضع مكان الجوهر الطبيعة، ومكان الأقنوم الشخص.

٢- وأما قولهم في القتل والصلب فيخالف قول الملكانيَّة واليعقوبيَّة قالوا: إنَّ القتل وقع على المسيح من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته؛ لأنَّ الإله لا تحله الآلام.

٣- ومن النسطوريَّة قوم يقال لهم المصلين قالوا في المسيح مثل ما قال نسطور إلَّا أنَّهم قالوا: إذا اجتهد الرجل في العبادة وترك التغذي باللحم والدسم ورفض الشهوات الحيوانيَّة والنفسانيَّة تصفى جوهره حتى يبلغ ملكوت السموات، ويرى الله تعالى جهرة، وينكشف له ما في الغيب فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

٤- ومن النسطوريَّة من ينفي التشبيه، ويثبت القول بالقدر خيره وشرِّه من العبد.

- تمركزهم: هذه الفرقة غالبة في الموصل والعراق وفارس وخراسان، وهي في سوريا الطبيعيَّة وتركيا وشمال العراق، وكذلك سموا بالآشوريين، ومنهم طائفة تقيم في الهند.

ومنذ عام ١٨٣٠م التزم أساقفتهم التبتل والامتناع عن الزواج[(١)].

اليعاقبة او اليعقوبيَّة

التعريف:

ينسبون إلى يعقوب الرهاوي أو البراذعي. وكان راهبًا بالقسطنطينيَّة.

التاريخ والأحداث

ظهرت هذه منتصف القرن الخامس على يد بطريرك الإسكندريَّة ديسقوروسن فإنَّه أول من أعلن بأن المسيح ذو طبيعتين جامعة بين اللاهوت والناسوت، وكذلك أعلنه أفتيخيوس. وبسبب ذلك الإعلان انعقد مجمع خليكدونيَّة، وقرر أنَّ المسيح ذو طبيعتين لا طبيعة واحدة، وبسبب ذلك القرار انفصلت الكنيسة المصريَّة عن الكنيسة الرومانيَّة.

وفي القرن السادس أعاد يعقوب البراذعي هذه الشيعة، وكان من أنشط الدعاة إليها، من أجل ذلك نسبة إليه.

المعتقدات والأفكار

١- أن المسيح حين تجسَّد لم يكن له إلا ذات واحدة وطبيعة واحدة.

وقالوا بالأقانيم الثلاثة، إلا أنَّهم قالوا: انقلبت الكلمة لحمًا ودمًا فصار الإله هو المسيح وهو الظاهر بجسده بل هو هو.

٢- منهم من قال: إن المسيح هو الله تعالى.

٣- ومنهم من قال: ظهر اللاهوت بالناسوت فصار الناسوت المسيح مظهر الجوهر لا على طريق حلول جزء فيه ولا على سبيل اتحاد الكلمة التي هي في حكم الصفة بل صار هو هو، وهذا كما يقال: ظهر الملك بصورة إنسان أو ظهر الشيطان بصورة حيوان.

٤- وزعم أكثر اليعقوبيَّة أن المسيح جوهر واحد أقنوم واحد إلا أنَّه من جوهرين.

٥- وربما قالوا: طبيعة واحدة من طبيعتين فجوهر الإله القديم وجوهر الإنسان المحدث تركبا تركيبًا كما تركبت النفس والبدن فصارا جوهرًا واحدًا أقنومًا واحدًا وهو إنسان كله وإله كله.

فيقال: الإنسان صار إلهًا ولا ينعكس فلا يقال: الإله صار الإنسان

كالفحمة تطرح في النار فيقال: صارت الفحمة نارًا، ولا يقال صارت النار فحمة وهي في الحقيقة لا نار مطلقة ولا فحمة مطلقة بل هي جمرة.

---

(١) انظر: الفصل (١/ ٤٨)، الملل والنحل (١/ ٢٢٣، ٢٢٤)، محاضرات في النصرانية ص(١٩١- ١٩٤)، الله واحد أو ثلاثة.

٦- وزعموا أن الكلمة اتحدت بالإنسان الجزئي لا الكلي.

- ولربَّما عبروا عن الاتحاد بالامتزاج والادراع والحلول كحلول صورة الإنسان في المرآة المجلوة.

٧- وزعم قوم من اليعقوبيَّة: إنَّ الكلمة لم تأخذ من مريم شيئًا ولكنَّها مرت بها كالماء بالميزاب وما ظهر بها من شخص المسيح في الأعين فهو كالخيال والصورة في المرآة وإلا فما كان جسمًا متجسمًا كثيفًا في الحقيقة.

- تمركزهم: هو مذهب السريان الأرثوذكس في بلاد الشام، ونحوه مذهب الكنيسة القبطية في مصر التي مركزها الإسكندريَّة[١].

الملكانيَّة او الملكانيُّون

التعريف:

أصحاب ملكا الذي ظهر بأرض الروم واستولى عليها، فصار ملك الروم البيزنطي.

المعتقدات والأفكار

١- أن للمسيح ذاتًا واحدة وطبيعتين؛ طبيعة لاهوتيَّة، وطبيعة ناسوتيَّة.

قالوا: إنَّ الكلمة اتحدت بجسد المسيح وتدرعت بناسوته، ويعنون بالكلمة: أقنوم العلم، ويعنون بروح القدس: أقنوم الحياة.

ولا يسمون العلم قبل تدرعه ابنًا؛ بل المسيح مع ما تدرع به ابن؛ فقال بعضهم: إنَّ الكلمة مازجت جسد المسيح كما يمازج الخمر أو الماء اللبن.

٢- صرحت الملكانيَّة أن الجوهر غير الأقانيم؛ وذلك كالموصوف والصفة، وعن هذا صرحوا بإثبات التثليث.

٣- قالت الملكانيَّة: إنَّ المسيح ناسوت كلي لا جزئي وهو قديم أزلي من قديم أزلي، وقد ولدت مريم عليها السلام إلهًا أزليًّا، والقتل والصلب وقع على الناسوت واللاهوت معًا.

٤- أطلقوا لفظ الأبوة والنبوة على الله عزَّ وجلَّ، وعلى المسيح لما وجدوا في الإنجيل حيث قال: إنَّك أنت الابن الوحيد وحيث قال له شمعون الصفا: إنَّك ابن الله حقًّا، لعل ذلك من مجاز اللغة كما يقال لطلاب الدنيا: أبناء الدنيا ولطلاب الآخرة أبناء الآخرة.

- تمركزهم: معظم الروم ملكانيَّة، ونصارى مصر وسوريا[٢].

---

(١) انظر: الفصل (١/ ٤٨)، الملل والنحل (١/ ٢٢٤- ٢٢٦)، محاضرات في النصرانية ص(١٩٤، ١٩٥).

(٢) انظر: الفصل (١/ ٤٨)، الملل والنحل (١/ ٢٢١).

الباب الثاني

مذاهب النصارى

الفصل الأول: الأرثوذكس.
الفصل الثاني: الكاثوليك.
الفصل الثالث: البروتستانت.
الفصل الرابع: المارونيَّة.
الفصل الخامس: الجزويت.
الفصل السادس: المورمون.
الفصل السابع: شهود يَهْوَه.
الفصل الثامن: الأبوس دبي.
الفصل التاسع: المونية (حركة صن مون التوحيدية).

الفصل الأول
الأرثوذكس

التعريف:

هي أحد الكنائس الرئيسية الثلاث في النصرانيَّة، وقد انفصلت عن الكنيسة الكاثوليكيَّة الغربية بشكل نهائي عام ١٠٥٤م، وتمثَّلت في عدة كنائس مستقلة لا تعترف بسيادة بابا روما عليها.

ويجمعهم الإيمان بأن الروح القدس منبثقة عن الأب وحده وعلى خلاف بينهم في طبيعة المسيح.

وتُدعى أرثوذكسية بمعنى مستقيمة المعتقد مقابل الكنائس الأخرى، ويتركَّز أتباعها في المشرق ولذا يطلق عليها الكنيسة الشرقيَّة.

التاريخ والأحداث

في نهاية القرن التاسع الميلادي، وبالتحديد بعد انقضاء مجمع القسطنطينيَّة الخامس عام ٨٧٩م أصبح يمثل الأرثوذكسيَّة كنيستان رئيسيتان.

١- الكنيسة الأرثوذكسيَّة المصريَّة أو القبطية، والمعروفة باسم الكنيسة المرقسية الأرثوذكسيَّة أو كنيسة الإسكندرية، التي تؤمن بأن للمسيح طبيعة واحدة ومشيئة واحدة، وتضم كنائس الحبشة والسودان، ويوافقها على ذلك كنائس الأرمن واليعقوبيَّة.

٢- الكنيسة الأرثوذكسيَّة أو كنيسة القسطنطينيَّة، والمعروفة باسم كنيسة الروم الأرثوذكس أو الكنيسة الشرقيَّة، تخالف الكنيسة المصريَّة في طبيعة المسيح بينما توافق الكنيسة الكاثوليكيَّة الغربية بأن للمسيح طبيعتين ومشيئتين، ويجمعها مع الكنيسة المصريَّة الإيمان بانبثاق الروح القدس عن الآب وحده، وتضم كنائس أورشليم واليونان وروسيا وأوربا الشرقيَّة.

الكنيسة الأرثوذكسيَّة المصريَّة

يدعي أصحابها أن مؤسسها مرقس الرسول عام ٤٥ م.

بوادر الانفصال:

ظهرت بوادر الانفصال المذهبي للكنيسة المصريَّة، منذ أن جعل الإمبراطور ثيودوسيوس كنيسة القسطنطينيَّة هي الكنيسة الرسمية للإمبراطورية الشرقيَّة عام ٣٨١م وأن كنيسة الإسكندرية تليها في المرتبة، مما دفع بطريرك الإسكندرية كيرلس عام ٤١٢م إلى تولي زعامة الشعب ضد الإمبراطور وعماله في مصر.

وزادت هوَّة الخلاف بين الكنيستين على إثر إعلان نسطور -أسقف القسطنطينيَّة- مقالته التي تصدى لها كيرلس بطريرك الإسكندرية في مجمع أفسس عام ٤٣١م الذي استطاع استصدار حكمًا

ضد نسطور باللعن والطرد.

الانفصال الرسمي:

بعث فلافيانوس بطريرك القسطنطينيَّة مقالة نسطور مرة أخرى فتصدى لها ديسقورس بطريرك الإسكندرية في مجمع أفسس عام ٤٤٩م، والذي لم يعترف به أسقف روما، فعقد لذلك مجمع كليدونية عام ٤٥١م ليقرر لعن ديسقورس ونفيه، بل وتعين بطريرك ملكاني خلفًا له، الأمر الذي دفع الكنيسة المصريَّة لإعلان عصيانها وعدم اعترافها بمجمع كليدونية عام ٤٥١م ولا بقراراته، مما سبَّب عودة الاضطهاد مرة أخرى لحمل الكنيسة المصريَّة على اتباع عقيدة كنيسة القسطنطينيَّة والتي توافقها عليها الكنيسة الغربية.

وهكذا عاشت الكنيسة المصريَّة سلسلة من المنازعات حول تعيين الأسقف، إلى أن تم الاتفاق عام ٤٨٢م على أن يختار المصريون أسقفهم دون تدخل من الإمبراطور، فكان هذا التاريخ يمثل بداية الانفصال الحقيقي عن كنيسة القسطنطينيَّة.

وسرعان ما عاد الاضطهاد مرة أخرى للكنيسة المصريَّة، بعدما ولَّى هرقلُ المقوقس حُكم مصر بعد استردادها من الفرس عام ٦٢٨م في محاولة منه لتوطيد أركان ملكه عن طريق توحيد عقيدة الإمبراطورية على مذهب الطبيعتين، فلم يألُ المقوقس جهدًا في إنفاذ ذلك، كما لم يعدم حيلة، مستخدمًا الترغيب تارة، والترهيب والعذاب والتنكيل تارة أخرى، مما دفع بطريرك الكنيسة المصريَّة بنيامين للهروب إلى الصحراء، وأن يكتب إلى جميع أساقفته باللجوء إلى الجبال والبراري فرارًا بعقيدتهم.

الفتح الإسلامي لمصر:

ما أن ظهرت بشائر الفتح الإسلامي منطلقة من الجزيرة العربيَّة حتى رحبت بها الكنيسة المصريَّة، للتخلص من ظلم واضطهاد إخوانهم نصارى الإمبراطورية البيزنطيَّة.

وما إن وطئت طلائع الفتح الإسلامي أرض مصر بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه، ودانت لهم، حتى أُعيد بنيامين بطريرك الكنيسة المصريَّة إلى كرسيه، واجتمع به عمرو بن العاص ووافقه على ما أبداه من مقترحات لحفظ كيان الكنيسة، كما وافقه على تشييد ما دعت إليه الحاجة من الكنائس وتجديد إصلاح البعض الآخر.

وقد تأثر الكثير من النصارى المصريين بعدالة الإسلام، وسماحة مبادئه، حيث ترك لهم حق الاعتقاد وحرية ممارسة العبادة والشعائر الخاصة بهم، كما سمح لهم بالمشاركة في بعض وظائف الدولة، مما فتح قلوبهم لقبول الحق، والدخول في دين الإسلام أفواجًا، وبذلك صارت اللغة العربيَّة لغتهم ولغة البلاد، وأصبح منهم العلماء والقادة فيما بعد.

محاولات سيطرة كنيسة روما:

على الرغم من ذلك لم يهدأ لكنيسة روما بال عن فرض سيادتها على كنائس الشرق، مستخدمة

في ذلك أساليب الحرب والقوة تارة، والدبلوماسية والمفاوضات تارة أخرى.

- ففي سنة ١٢١٩م قامت الحملة الصليبية الخامسة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا في محاولة لإخضاع الكنيسة المصريَّة الأرثوذكسيَّة لمذهب الكنيسة الغربية الكاثوليكيَّة.

وقد تمكنت في بادئ الأمر من احتلال مدينة دمياط وفرض بطريرك كاثوليكي من الآباء الفرنسيسكان عليها، ليمثِّل أول وجود كاثوليكي في مصر، فما أن هب المسلمون لصد العدوان حتى انهزمت الحملة وأُسر قائدها وبذلك باءت مخططاتها بالفشل.

- وفي سنة ١٧٦٩م أعادت الكنيسة الغربية الكَرَّة، ولكن هذه المرة عن طريق المفاوضات والمصالحة، وعرض انضمام الكنيسة المصريَّة إليها، ليقابلها بطريرك الكنيسة المصريَّة يؤانس الثامن عشر بالرفض التام.

الإرساليات الغربية وحركات تطوير الكنيسة المصريَّة

بدأت بوادر حركة إصلاح وتطوير الكنيسة المصريَّة في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، وبخاصة في عهد البطريرك كيرلس الرابع ١٨٥٤ - ١٨٦٢م "أبو الإصلاح" كما يسميه أتباع الكنيسة لإدخاله العديد من الإصلاحات لمواجهة نشاط الإرساليات الكاثوليكيَّة والبروتستانتيَّة، التي زاد نشاطها واستطاعت تأسيس مراكز للدعوة إلى مذاهبهم في صعيد مصر بوجه خاص.

وكانت استجابة بعض الأرثوذكس لهم دافعًا للقيام بهذه الإصلاحات وافتتاح مدارس للبنين والبنات، وإنشاء المدرسة البطريركية، بالإضافة إلى إدخال أول مطبعة إلى مصر.

وبأسلوب آخر تصدى البطريرك ديمتريوس الثاني ١٨٦٢- ١٨٧٤م للتبشير الكاثوليكي والبروتستانتي في مصر، بإصدار قرارات الحرمان ضد المرسلين الأمريكيين ومن يتصل بهم من الأقباط.

وقد ازدادت حملة الكنيسة المصريَّة ضراوة ضد إرساليات الكنائس الغربية في مصر في عهد البطريرك كيرلس الخامس ١٨٧٤ - ١٩٢٧م حيث أغلق مدارسهم، وأصدر قرارات تَعتبر هذه الكنائس وإرساليتها وتابعيها ومن ينضم إليها من الأقباط مهرطقين، ولم يفلح تدخل القنصل الأمريكي وليم تاير والمنصِّر جون هوم في إقناع البطريرك من أن نشاطهم غير موجه ضد الأرثوذكس.

ويُعد حبيب جرجس ١٨٦٧-١٩٥١م من أبرز رواد الإصلاح والتطوير في الكنيسة المصريَّة، إذ أنشأ مدارس الأحد والمدرسة الإكليريكية، ودعم وساهم في العديد من الأنشطة الاجتماعيَّة والثقافية التي توسَّعت بعده إلى حد كبير، فظهرت المجلات والجرائد النصرانيَّة، كما أنشأ العديد من المدارس والمكتبات ودور النشر التي تهتم بنشر التعاليم النصرانيَّة بين المسلمين.

وازدادت -تبعًا لذلك- عدد المؤسسات الاجتماعيَّة المختلفة التي تخدم الأرثوذكس، كل هذا بغية التصدي للإرساليات التبشيريَّة الغربية.

تغيُّر موقف الكنيسة المصريَّة من الكنائس الأخرى:

هذا الموقف الرافض للتعاون أو القبول بوجود الكنائس الغربية بين الأرثوذكسيَّة تغيَّر بشكل ملحوظ أيام الاحتلال الإنجليزي لمصر، الذي ساعد وشجع هذا الاتجاه بما أثاره في نفوس الأقباط من أن أرض مصر المسلمة أرض نصرانية وأن المسلمين دخلاء يجب طردهم، وشجع حبيب جرجس على رفع شعار الأمة القبطية مقابل الأمة الإسلاميَّة.

- وفي عهد الخديوي إسماعيل دخل عدد كبير من الأرثوذكس القضاء والمجالس النيابية وكلفوا بالخدمة العسكرية، وظهرت في الساحة السياسية أسماء كبيرة متعاونة مع الاستعمار الإنجليزي مثل بطرس باشا غالي ويوسف باشا سليمان.

- بعد مؤتمر ١٩١٠م والذي انعقد بمناسبة مقتل بطرس باشا غالي، زاد نفوذهم السياسي وبخاصة بعد انضمامهم إلى حزب الوفد وتولّي مكرم عبيد منصب نائب رئيس الحزب.

- في عهد البطريرك يوساب الثاني أصدر القس إبراهيم لوقا مجلة اليقظة للدعوة إلى تقارب الكنيستين: البروتستانتيَّة الأسقفية والقبطية، كما دعا إلى أن الوقت قد حان لأن يتبادل قسوس الطوائف النصرانيَّة المختلفة الوعظ في كنائس بعضهم البعض.

- في عام ١٩٢١م عُقد مؤتمر حلوان بضاحية حلوان بمصر لعموم الكنائس الشرقيَّة والغربية بهدف توحيد جهود الكنائس لتنصير المسلمين لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ الكنيسة المصريَّة.

- وإمعانًا في التقارب انضمت الكنيسة المصريَّة إلى عضوية مجلس الكنائس العالمي الذي أنشئ عام (١٩٤٦م).

- في عام (١٩٥٢م) عاد الأقباط مرة أخرى إلى الانزواء داخل الكنيسة لخوفهم من حكومة جمال عبد الناصر، ومن ثم هاجر الكثير منهم إلى أوربا وأمريكا، مما كان لذلك أكبر الأثر في تحويل الرأي العام الغربي نحو الكنيسة الأرثوذكسيَّة المصريَّة، ومساندتها وممارسة الضغط السياسي والاقتصادي على الحكومة المصريَّة لتحقيق مركز ديني وسياسي واجتماعي متميز للأقباط الأرثوذكس في مصر.

- وفي هذه الأثناء أعلن إبراهيم فهمي المحامي أحد خريجي مدارس الأحد تأسيس جماعة الأمة القبطية وأنشأ لها فروعًا على مستوى محافظات مصر. وقد دعا إلى إحياء مفهوم الأمة القبطية من خلال التمسك بالعادات والتقاليد الكنسية، وبإحياء اللغة القبطية، واستخدام التقويم القبطي، وكذلك بإصدار الجرائد والمجلات التي تهتم بالأقلية القبطية، وهكذا تطور معه الأمر إلى أن أعلن بيانًا يطالب فيه بالحكم الذاتي لأقباط مصر.

- في عام ١٩٥٤م قامت جماعة الأمة القبطية باختطاف البطريرك يوساب الثاني وإجباره على توقيع وثيقة تنازل عن كرسي البابوية، ودعوة المجمع المقدس للانعقاد، ووضع وثيقة جديدة لانتخاب البطريرك تشارك فيها كل الطوائف النصرانيَّة، لذلك ألقت الحكومة المصريَّة القبض على

زعيم الجماعة، واعتقلت أفرادها، ثم قامت بحلها وإعادة البطريرك إلى كرسيه.

- خطا البطريرك كيرلس السادس ١٩٥٩ - ١٩٦٩م خطوات جديدة نحو تطوير الكنيسة؛ حيث أنشأ العديد من الأسقفيات، منها:

١- أسقفيات الخدمات، ومهمتها العلاقات الخارجية والاتصال بالكنائس الأخرى، سواء كانت الكنائس الغربية ومؤسساتها أو بالكنائس القبطية خارج مصر.

٢- وأسقفية للخدمات والشئون المالية، مهمتها جلب فرص العمل للأقباط، والحصول على توكيلات أكبر البنوك والشركات في العالم.

٣- وأسقفية البحث العلمي، ومهمتها إنشاء معهد عالٍ للدراسات القبطية وإصدار طبعات جديدة للكتاب المقدس، ووضع دائرة معارف قبطية.

٤- كما أنشأ أسقفية للتربية الكنسية، مهمتها الإشراف على كليات اللاهوت ومدارس الأحد وجميع شئون التعليم والتربية الكنسية.

- واستغلالًا للثقل الدولي للكنيسة بعد انضمامها إلى مجلس الكنائس العالمي، ومجلس الكنائس العالمية العاملة في أفريقيا، وتعاونها مع مجلس كنائس أمريكا زاد الضغط على الحكومة لإلغاء النظام الهمايوني الذي أصدرته الدولة العثمانية في عام ١٨٥٦م كنظام إصلاحي لتنظيم بناء وترميم الكنائس النصرانيَّة داخل الدولة.

وبالفعل تمت الاستجابة لمطلبهم، وأنشئت العديد من الكنائس منها كاتدرائية القديس مرقس بميدان العباسية بالقاهرة عام ١٩٦٧م، وتم إصلاح الأديرة وتعميرها وتحويلها من أماكن للعبادة إلى مراكز إنتاجية ومراكز اتصالات واسعة ومؤثرة على شئون الكنيسة؛ مستخدمة في ذلك الدعم السخي والأموال الطائلة من الكنائس الغربية والقبطية في الخارج.

الكنيسة المصريَّة في الوقت الحالي:

في عام ١٩٧١م تولى البابا شنودة الثالث رئاسة الكنيسة المصريَّة واسمه نظير جيد، تخرج من كلية الآداب جامعة القاهرة، والتحق بالقوات المسلحة كضابط احتياط، ثم عمل صحفيًا وكاتبًا وشاعرًا، وتسمى بعد ترهبُنه باسم شنودة الثالث.

وللأب شنودة الثالث درس أسبوعي -درس الجمعة- ظل محافظًا على إلقائه في كاتدرائية العباسية منذ افتتاحها. وكان لدرسه هذا الأثر الكبير في تكوين وانتشار الأسر الدينيَّة النصرانيَّة في أروقة الجامعة المصريَّة المختلفة.

- في عهده زاد التوجه السياسي للكنيسة المصريَّة وتقديم مفهوم جديد للنصرانية على أنها دين ودولة، مستخدمًا في ذلك سياسة الانتشار الدولي، والتقارب مع الكنائس الغربية ومؤسساتها لدعم السياسات الداخلية للكنيسة وتحقيق أغراضها، كما أعلن عن تنظيمات جديدة للكنيسة،

ودعا إلى تطوير الكلية الأكليريكية وإعادة الكنيسة إلى مكانتها العالمية، فزاد اهتمامه بإنشاء الكنائس في الخارج ورسم -عيّن- لها الأساقفة، من أجل ذلك تعددت جولاته ولقاءاته.

ومن أبرز هذه اللقاءات: لقاؤه ببابا الفاتيكان بولس السادس عام ١٩٧٣م، الذي تمت فيه المصالحة بين الكنيسة الكاثوليكيَّة الغربية والكنيسة المصريَّة الأرثوذكسيَّة.

وتوقيعه وثيقة رفع الحرم المتبادل بين كنيسته والكنائس الأرثوذكسيَّة الكلدونية وغير الكلدونية في مشميزي عام ١٩٩٠م.

وأيضًا الاتفاق على تحقيق الوحدة بين كل الكنائس النصرانيَّة، وزيارته لرئيس أمريكا كارتر عام ١٩٧٧م والتي كان لها أثرها السياسي والديني لصالح الكنيسة المصريَّة.

- تحت رئاسة وإشراف البابا شنودة تعددت الاجتماعات ذات الصبغة الدينيَّة والسياسية، التي تطالب بإعطاء الكنيسة الأرثوذكسيَّة في مصر دورًا فاعلًا في السياسة، وأن يكون لها نصيبها من المناصب الوزارية.

كما دعت الحكومة المصريَّة إلى التخلي عن فكرة تطبيق الشريعة الإسلاميَّة، والموافقة على إنشاء جامعة للأقباط على غرار جامعة الأزهر.

ومن أشهر هذه الاجتماعات اجتماع الكنيسة المرقسية بالإسكندرية عام ١٩٧٣م، واجتماع الإسكندرية عام ١٩٧٧م واجتماع تدزيب مدرسي ومدرسات وخدام الدين النصراني في كنيسة مارجرجس بدمنهور في ٢٧-٢٨ يناير ١٩٧٧م، واجتماع المحامين الأقباط بالإسكندرية.

كما اهتم بزيادة عدد الأبروشيات إذ ارتفعت إلى ثلاث وخمسين أبرشية بدلًا من ثلاث وعشرين في عهد سلفه، وبالتالي زاد عدد الأساقفة إلى اثنين وستين أسقفًا.

- وزادت في عهده أيضًا وبشكل ملحوظ النشرات والكتب، وحملات التنصير والاستفزاز للمسلمين، مما أشعل المواجهات بين المسلمين والنصارى فيما عرف بأحداث الفتنة الطائفية (الزاوية الحمراء ومناطق مختلفة من صعيد مصر) الأمر الذي دعا الرئيس السابق لمصر - أنور السادات- إلى عزله ونفيه في دير وادي النطرون، وقد أفرج عنه وعاد إلى كرسيه في عهد الرئيس الحالي لمصر محمد حسني مبارك.

- نتيجة للمنحى الجديد للكنيسة المصريَّة في عهد البابا شنودة الثالث، ظهرت داخل الكنيسة اتجاهات أخرى تعارضه، ويمكن تقسيم اتجاهات الكنيسة في عهده إلى:

١- اتجاه علماني:

يؤكد انفصال الدين عن الدولة في النصرانيَّة، ويرى أن الكنيسة في هذا العصر خرجت على النصرانيَّة الصحيحة -بزعمهم- لخلطها بين الدين والدولة، كما يطالب بأهمية قيام الكنيسة بواجبها الديني وابتعادها ورجال الكنيسة عن السياسة.

ومن أبرز ممثلي هذا التيار المهندس ميلاد حنا الخبير الإسكاني وأحد رموز الحركة اليسارية في مصر.

٢- اتجاه انعزالي كنسي:

يدعو إلى تبني الكنيسة للخطاب الديني المحض، ويتجه إلى إصلاح الأديرة وتطويرها، ويمثّله الأب متى المسكين اسمه يوسف إسكندر -صيدلي- انقطع للرهبنة في دير أبي مقّار قرب الإسكندرية.

٣- اتجاه روحي انعزالي:

يدعو إلى تكفير كل من يخالفه من المسلمين والأقباط على حد سواء، مستخدمًا في محاربتهم الحرب الروحية بصراع الأرواح الشريرة.

كما يدعو إلى محاربة التلفزيون كأحد أساليب مملكة الشر، وإلى مواجهة المجتمع والدولة سواء كانوا مسلمين أو نصارى مواجهة علنية.

وإلى هذا الاتجاه تُنسب الحوادث الأخيرة من إغماء الفتيات المسلمات في شوارع مصر، ويمثل هذا التيار الأب دانيال البراموسي خريج كلية الهندسة، وصاحب النشاط المؤثر بين الشباب النصراني في صعيد مصر خاصة، والقمص زكريا بطرس كاهن كنيسة مارجرجس بمصر الجديدة ١٩٧٩م الذي أُبعد عن منصبه وحُرم من الوعظ لمهاجمته الدولة ودعوته لتنصير المسلمين بشكل علني.

٤- اتجاه شمولي:

يرى أن الكنيسة مؤسسة شاملة مكلفة بأن تقدم الحلول لكل المشكلات، والأجوبة لكل الأسئلة المتصلة بالدين والدنيا، ويمثله البابا شنودة الثالث، والأنبا غريغوريوس أسقف البحث العلمي واسمه وهيب عطا حاصل على دكتوراه في فلسفة اللغات.

٥- اتجاه توفيقي:

يرى أن للكنيسة دورًا دينيًا ذا بعد وطني، يحتّم عليها أداء أدوار وطنية محددة؛ مثل الوقوف في وجه المستعمر مع البعد عن الأمور السياسية، ويمثله المفكر القانوني وليم سليمان قلادة.

الكنيسة الأرثوذكسيَّة الشرقيَّة

رغم الانفصال المذهبي للكنيسة الشرقيَّة عن الكنيسة الغربية تحت اسم كنيسة الروم الأرثوذكس أو الكنيسة الشرقيَّة، برئاسة بطريرك القسطنطينيَّة بعد رفض قرارات مجمع القسطنطينيَّة الرابع عام ٨٩٦م إلا أنها خضعت إداريًا للكنيسة الغربية تحت رئاسة بابا روما حتى الانفصال النهائي عام ١٠٥٤م.

بوادر الانفصال

- توسعت الكنيسة البيزنطيَّة في القرن التاسع في أوربا الشرقيَّة؛ فأسست في بلغاريا كنيسة وأصبحت النصرانيَّة الدين الرسمي للدولة بعدما أجبر الحاكم البلغاري بوريس الأول ٨٥٢-٨٨٨م على قبول المعمودية من الإرساليات التبشيريَّة.

- عمل خليفته القيصر سيمون ٨٩٣ - ٩٢٧م على حماية الكنيسة، وجعل اللغة السلافية لغة الطقوس الكنيسيَّة بدلًا من اليونانيَّة وفي عهده استقلت الكنيسة البلغارية في بطريركية مستقلة.

- أثناء حكم الإمبراطور باسل الثاني ٩٧٦ - ١٠٢٥م توطدت دعائم الكنيسة الأرثوذكسيَّة السلافية على يد مبشري الدولة البيزنطيَّة مثل القديسين كيرلس، وميثيوديوس والمعروفين برسل السلاف، ولذلك حيكت ضد الإمبراطور المؤامرات مما اضطره إلى الاستعانة بأمير كييف فلاديمير ٩٧٨ - ١٠١٥م للتصدي لها، فكان ذلك سببًا في اعتناق فلاديمير النصرانيَّة على المذهب الأرثوذكسي عام ٩٩٠م لتنضم روسيا إلى الكنيسة الأرثوذكسيَّة، وتصبح كنيستها أحد فروع الكنيسة اليونانيَّة.

- في الفترة ما بين القرنين العاشر والخامس عشر ظهرت داخل الأرثوذكسيَّة فرقة البوجوميلي نسبة إلى مؤسسها القس بوجوميل على أنها حركة سلافية تهدف إلى الإصلاح باسم الكنيسة الأرثوذكسيَّة البلغارية، متأثرة في ذلك بآراء الثنوية والمانوية الحديثة.

ولذلك فإنها تؤمن بأن العالم المرئي مملوء بالشر، كما تعارض عقيدة التجسد النصرانيَّة من جانبها المادي، وترفض التعميد، وتحتقر الصليب والمعجزات والكنائس الضخمة ونظام الكهنة، وبالجملة ترفض النظام الكنسي العام.

وسرعان ما انتشرت في البلدان الخاضعة للإمبراطورية البيزنطيَّة مما أدى إلى الحكم بهرطقتها، وإنزال العذاب الشديد بأتباعها، وحرق قائدهم في القسطنطينيَّة أمام الجماهير الحاشدة.

الانفصال الرسمي:

- أراد ميخائيل كيرولاريوس بطريرك القسطنطينيَّة عام ١٠٥٣م الانفصال النهائي عن سلطة الكنيسة الغربية ليصبح إمبراطورًا وبطريركًا، مساويًا لبابا روما، فاستغل الاضطراب السياسي في الإمبراطورية البيزنطيَّة وأعلن أن البابوية في روما أصبحت ألعوبة في يد رجال الدولة الغربية، وأن تقاليد الكنيسة الغربية فيها كفر ومخالفة للتعاليم النصرانيَّة الأولى؛ فتصدّى له بابا روما ليو التاسع وقضى على حركته باستمالة الإمبراطور البيزنطي قسطنطين التاسع إلى جانب دعواه بأحقيَّة سيادة الكنيسة الغربية على الكنيسة الشرقيَّة.

- ما لبث أن توفي بابا روما ليو التاسع عام ١٠٥٤م حتى استغل بطريرك القسطنطينيَّة الفرصة السانحة ليجمع حول دعوى الانفصال رجالَ الكنيسة الشرقيَّة مرة أخرى، حيث خضع لرأيهم الإمبراطور وأعلن رسميًا استقلال الكنيسة الشرقيَّة استقلالًا تامًا عن الكنيسة الغربية لتصبح كنيسة

أجا صوفيا التي أعاد بناءها الإمبراطور جستنيان في القرن السادس مركزًا للحياة الدينيَّة في الكنيسة الأرثوذكسيَّة.

محاولات سيطرة كنيسة روما:

- في عهد البابا أنورت الثالث ١١٩٨ - ١٢١٦م انطلقت الحملة الصليبية الرابعة لاحتلال القسطنطينيَّة والقضاء على كنيستها لتحقيق وحدة الكنيسة المسيحيَّة على مذهب روما الكاثوليكي.

- دخلت الحملة الصليبية الرابعة القسطنطينيَّة عام ١٢٠٤م كالجراد المنتشر، فأتت على الأخضر واليابس، فلم تترك فيها حرمة إلا انتهكتها، ولا ديرًا ولا كنيسة إلا خربتها بعد نهب ما فيها من تحف وثروات.

ولما استقر لهم الأمر ودانت لهم الإمبراطورية تم تقسيمها وعاصمتها على زعماء الحملة، وانتُخب بلدوين دي فلاندرز إمبراطورًا للإمبراطورية اللاتينيَّة في القسطنطينيَّة ١٢٠٤ - ١٢٦١م وعين البطريرك الكاثوليكي توماس مورسيني بطريركًا لكنيستها، مما زاد من حنق ونفور البيزنطيين من الغرب وكنيسته.

محاولات توحيد الكنيستين الشرقيَّة والغربية

بعد عودة كنيسة القسطنطينيَّة إلى سيادة الإمبراطورية البيزنطيَّة، قامت محاولات عديدة لتوحيد الكنيستين الشرقيَّة والغربية خلال الفترة من منتصف القرن الثالث عشر حتى بدايات القرن الخامس عشر الميلادي من أهمها:

١- ما قام به الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن ١٢٥٩ - ١٢٨٢م بالتعاون مع بابا روما نيقولا الثالث ١٢٧٧ - ١٢٨٠م والمتحمس لهذا الأمر، لكنها باءت بالفشل للمعارضة الشديدة من بطريرك القسطنطينيَّة الذي أصدر قرارًا بحرمان الإمبراطور ميخائيل الثامن، وأيَّده على ذلك بابا روما مارتن الرابع بقرار حرمان آخر للإمبراطور.

٢- محاولة أخرى قام بها الإمبراطور البيزنطي مايكل فلايولتوس أثناء مواجهته لملك صقلية شارل أونجو حيث أرسل اعترافًا إلى البابا جورج العاشر بسيادة الكنيسة الغربية، وبذلك نجح الإمبراطور في فرض بطريرك كاثوليكي شرقي يدعى جون بيكوس على رئاسة كنيسة القسطنطينيَّة، وما إن مات الإمبراطور حتى رفض المجلس الأرثوذكسي هذا الاعتراف.

٣- ومن آخر محاولات التوحيد في تلك الفترة ما قام به المجمع الذي عقد في فرارًا ثم فلورنس امتدادًا لمجمع بال لمواجهة نشاط العسكرية الإسلاميَّة التي طوَّقت القسطنطينيَّة، وقد نجح هذا المجمع أن يقبل الأرثوذكس معظم النقاط التي عرضها الإمبراطور جون الثامن، ورغم توقيع الإمبراطور البيزنطي حنا السادس عليها إلا أنها لم تتم للمعارضة الشديدة من الشعب وخدام كنيسة القسطنطينيَّة، بالإضافة إلى معارضة بطاركة كنائس الإسكندرية وأنطاكية وبيت المقدس.

٤- في منتصف القرن التاسع عشر ارتفعت من جديد نداءات الاتحاد بين الكنيستين: ففي عام

١٨٤٨م وجَّه البابا بيوس التاسع نداءه إلى الكنائس الشرقيَّة للاتحاد مع كنيسة روما إلا أنه رُفِضَ كما رفض غيره من قبل.

- في عهد الأمير أيفان الأول ١٣٢٨ - ١٣٤١م أصبحت موسكو المركز الروحي لروسيا بانتقال رئيس أساقفة روسيا من كييف إلى موسكو.

تمتعت كنيسة روسيا بحماية ملوك المغول، وعدم تدخلهم في سياستها مما ضاعف من نفوذها وثرواتها.

الفتح الإسلامي للقسطنطينية:

في مايو ١٤٥٣م فتحت جيوش السلطان العثماني محمد الفاتح مدينة القسطنطينيَّة، فأمَّن أهلهم وطمأنهم على أنفسهم وأعراضهم، ومنحهم حق الاعتقاد وحرية ممارسة الشعائر والعبادات الخاصة بهم، وأعلن الكثير منهم إسلامهم، ومن ثم أمر بتحويل كنيسة أجا صوفيا إلى مسجد.

في الوقت نفسه اجتمع مع الأساقفة وهدَّأ من روعهم، وأمر بتنصيب بطريرك جديد، فانتخبوا جليارنوس الذي استقبله السلطان محمد الفاتح بحفاوة وإكرام بالغ.

- جعل السلطانُ بطريركَ القسطنطينيَّة رئيس النصارى الديني والمدني، وجرى تقسيم الكنيسة الأرثوذكسيَّة البلقانية إلى وحدات قومية، أصبحت القسطنطينيَّة مركزًا لليونان، وأصبح للصرب بطريركًا خاصًّا في بيج بيوغسلافيا، والبلغار مطرانيتهم في أوهريد، أما سكان رومانيا فكان لهم مؤسسات دينية مشابهة.

وعهدت الحكومة العثمانية للكنيسة بسلطة إدارة العديد من الوظائف والمهام الدينيَّة والمدنية. وبذلك أصبحت الكنيسة جزءًا من الجهاز الحكومي. وهكذا مارس بطريرك القسطنطينيَّة سلطات أوسع من السلطات التي كانت مُخوَّلة له عام ١٥٨٨م في الدولة البيزنطيَّة، وجرت أعيادهم وعباداتهم بحرية أوسع تحت حماية الدولة العثمانية.

الكنيسة الروسيَّة

- استقلت الكنيسة الروسية ببطريركية مستقلة عام ١٥٨٨م وأبطلت سيادة كنيسة القسطنطينيَّة عليها بعد فرار البطريرك اليوناني من القسطنطينيَّة إلى موسكو.

- وفي عام ١٥٨٩م عين الإمبراطور فيودا الأول أول بطريرك روسي وحمل بطاركة الشرق على الاعتراف به عام ١٥٩٣م.

- أصبحت الكنيسة الروسية ذات أهمية خاصة بعد سقوط القسطنطينيَّة في أيدي العثمانيين عام ١٤٥٣م فقد اعتبرت نفسها المركز الحقيقي والحامية للأرثوذكسية الصحيحة، وبذلك أصبحت روما الثالثة.

يقول الراهب فليوثيوس من باسكوف: لقد سقطت الرومايان (روما والقسطنطينيَّة) وهذه روما

الثالثة، ولن يكون هناك روما رابعة.

- في أثناء حكم نيكون ١٦٥٢ - ١٦٥٨م انقسمت الكنيسة الروسية نتيجة لاقتراح نيكون بضرورة أن تتطابق الكنيسة الروسية في أفكارها، ومعتقداتها الكنيسة الإغريقية.

- ألغى بيتر العظيم عام ١٧٢١م البطريركية الروسية وتبنى المذهب البروتستانتي.

- ألغى الإمبراطور بطرس الأكبر البطريركية الروسية مرة ثانية، وتولى مجمع السينودس المقدس إدارة الكنيسة في المسائل الدينيَّة محتفظًا لنفسه وخلفائه برئاستها.

- في عام ١٧٤٤م أصدرت بطريركية الكنيسة في القسطنطينيَّة مرسومًا بتحريم الماسونية والانتساب إليها.

- وفي أيام الإمبراطورة كاترين استولت الحكومة على أملاك الكنيسة الروسية واحتفظت لنفسها بأمر تعليم الكهنة وتعيينهم.

وقد استمر أثر هذه الإجراءات حتى عام ١٩١٧م إذ أدخلت الثورة البلشفية النصرانيَّة في روسيا في مرحلة جديدة منفصلة بذلك عن الكنائس الأخرى، وانتُخِب أول بطريرك لها أثناء الحرب العالمية الثانية، وبالتالي أصبحت تعلن ولاءها للحكومات الشيوعية وتؤكد سياستها ضد الغرب.

الكنيسة اليونانيَّة والبلغاريَّة واليابانيَّة

- استقلت الكنيسة اليونانيَّة في عام ١٨٣٣م عن كنيسة القسطنطينيَّة.

- ظهرت في بلغاريا حركة تعمل على إصلاح الكنيسة البلغارية برئاسة الأب نيوفت بوزقيلي، وبعد أن عينت الحكومة العثمانية أساقفة غير بلغاريين على الكنيسة البلغارية.

- وفي عام ١٨٦٠م أعلن الأسقف غيلادبون مكاريو بولسكي استقلال الكنيسة البلغارية، ووافقت السلطات العثمانية على ذلك، وأنشأت لهم كنيسةً خاصة في إستانبول تحت رئاسة مطران، وهيئةً مساعدة خاصة بهم.

- وردًا على ذلك عقد مجمع القسطنطينيَّة عام ١٨٧٣م بحضور بطاركة القسطنطينيَّة وأنطاكية وأورشليم والإسكندرية ليصدر قرارًا بحرمان جميع النظام الكنسي البلغاري.

- بعد سيادة الشيوعية في دول شرق أوربا انضمت الكنيسة البلغارية والرومانية إلى الكنيسة الروسية مرة أخرى.

- استقلت الكنيسة الأرثوذكسيَّة اليابانية عام ١٩٣٩م عن الكنيسة الروسية التي ظلت تابعة لها منذ تأسيسها عام ١٨٦٠م على يد إرسالية أرثوذكسية روسية.

معتقدات وأفكار الكنيسة الأرثوذكسيَّة:

١- تؤمن الكنيسة الأرثوذكسيَّة مثل باقي الكنائس الأخرى بإله واحد مثلث الأقانيم: الآب، والابن، والروح القدس على حسب ما ورد في قانون الإيمان النيقاوي ٣٢٥م.

٢- كما تؤمن بربوبية وألوهية الرب والمسيح في آن واحد على أنهما من جوهر واحد ومشيئة واحدة، ومتساويين في الأزلية، لكن كنيسة أورشليم الأرثوذكسيَّة اليونانيَّة ومن يتبعها تؤمن بأن المسيح له طبيعتان ومشيئتان موافقةً لمجمع كليدونية ٤٥١م.

٣- يؤمن الأرثوذكس بالزيادة التي أضيفت على قانون الإيمان النيقاوي في مجمع القسطنطينيَّة عام ٣٨١م التي تتضمن الإيمان بالروح القدس الرب المحيي والمنبثق من الآب وحده، فله طبيعته وجوهره، وهو روح الله وحياة الكون ومصدر الحكمة والبركة فيه.

٤- يعتقد الأرثوذكس الأقباط أن الأقانيم الثلاثة ما هي إلا خصائص للذات الإلهية الواحدة، ومتساوية معه في الجوهر والأزلية، ومنزَّهة عن التأليف والتركيب، لكن الكنيسة الأرثوذكسيَّة اليونانيَّة ومن تبعها تعتبر أقنوم الابن أقل من أقنوم الأب في الدرجة، ولذلك فهي عند اليونان مراحل انقلب فيها الله إلى الإنسان.

٥- الإيمان بتجسُّد الإله في السيد المسيح من أجل خلاص البشرية من إثم خطيئة آدم، وذريته من بعده، فيعتقدون أنه وُلد من مريم وصلب ومات فداءً لخطاياهم، ثم قام بعد ثلاثة أيام ليجلس على يمين الرب ليحاسب الخلائق يوم الحشر.

٦- الإيمان بأن السيدة مريم العذراء والدة الإله، ولذا يوجبون تقديسها كما يقدسون القديسين، والأيقونات غير المجسمة، وذخائر القديسين، ويقدسون الصليب، ويتخذونه رمزًا وشعارًا.

٧- تؤمن الكنيسة الأرثوذكسيَّة المصريَّة بالمجامع المسكونيَّة السابقة على مجمع كليدونية لعام ٤٥١م بينما تؤمن الكنيسة اليونانيَّة ومن تابعها وكنيسة أورشليم الأرثوذكسيَّة بجميع المجامع السابقة على مجمع القسطنطينيَّة ٨٦٩م.

٨- الإيمان بنصوص الكتاب المقدس وبما يتضمنه من أسفار التوراة وأسفار الأنبياء بالإضافة إلى باقي الأسفار الأخرى، ولكنها تستخدم في الطقوس الكنسية النموذج البروتستانتي الذي يشتمل على الأسفار الخمسة فقط، كما تؤمن بنصوص العهد الجديد ورسائل الرسل على ما أقر في مجمع نيقية الأول (٣٢٥م).

٩- تؤمن الكنيسة الأرثوذكسيَّة بالأسرار السبعة للكنيسة:

١- سر المعمودية. ٢- سر الميرون. ٣- سر القربان. ٤- سر الاعتراف. ٥- سر مسحة المرض. ٦- سر الزواج . ٧- سر الكهنوت.

١٠- الصلاة: يعتقد الأرثوذكس بوجوب سبع صلوات: صلاة باكر، وتقال في الفجر، وصلاة الساعة الثالثة، وتقال التاسعة صباحًا، وصلاة السادسة، وتقال ظهرًا، وصلاة التاسعة وتقال حوالي الثالثة بعد الظهر، وصلاة الغروب، وصلاة النوم، وصلاة نصف الليل وتقال على دفعات.

والصلاة إما أن تكون فردية أو جماعية، وهي عبارة عن دعاء بهيئة معينة، ولا تستخدم الآلات الموسيقية في الترانيم الكنسية، ولا يقام فيها القداس يوميًّا.

١١- الصوم: وهو الامتناع عن الأكل حتى الغروب، ولغير المستطيع أن يصوم على قدر طاقته، ويعفى منه خمس فئات: المرضى، والرجل الشيخ، والمرأة العجوز، والأطفال أقل من اثنتي عشر سنة، والمرأة الحامل، والمرضع، ويمكنهم أن يأكلوا تبعًا لما رسمه لهم آباء الكنيسة بالامتناع عن اللحوم بأنواعها ومستخرجاتها، ويقتصر على ما تنبت الأرض.

وأنواع الصوم عندهم سبعة:

الصوم الكبير السابق لعيد القيامة عندهم، والصوم السابق لعيد الميلاد، صوم يونان، صوم الرسل بين عيد الخماسين وعيد الرسل، صوم السيدة العذراء، صوم البرمون، وذلك على مدد متفاوتة لكل منها.

١٢- الأعياد: تنقسم الأعياد في الأرثوذكسيَّة إلى:

١- أعياد سيدية كبرى.

٢- أعياد سيدية صغرى.

وللكنيسة المصريَّة أعياد خاصة بها مثل أعياد القديسين والشهداء.

وتحتفل الكنيسة الأرثوذكسيَّة بعيد ميلاد السيد المسيح في اليوم ٢٥ من ديسمبر وهو يوافق اليوم السادس من شهر يناير.

١٣- درجات الكهنوت: الكنيسة الأرثوذكسيَّة كنيسة شعبية يقوم على رأسها البابا أو البطريرك، ويرأس كل مجموعة كنائس بطريركية في البلد أو الإقليم، ويقوم بجانبها مجلس مقدس كالمجلس الملي في مصر الذي يضم مطارنة وعلمانيين، وتشرف عليه الحكومة المصريَّة.

ويتكون التنظيم الكهنوتي للكنيسة من البطريرك، ثم المطارنة، ثم الأساقفة، ثم القمامصة، ثم القساوسة، ثم الشمامسة، ولا تعترف الكنيسة بسلطة بابا روما ولا بعصمته.

١٤- الرهبنة: وهي سبع مقامات روحية، وتنقسم إلى نوعين: رهبنة فردية، رهبنة ديرية.

١٥- الدين: تؤمن الأرثوذكسيَّة مثل باقي الكنائس بعالمية النصرانيَّة، كما تؤمن الكنيسة الأرثوذكسيَّة المصريَّة بضرورة بعث ميراث الكنيسة القبطية وإحياء القومية واللغة القبطية.

وينادي بطريرك الكنيسة الحالي شنودة الثالث بأن الكنيسة مؤسسة شاملة مكلفة بأن تقدم حلولًا لكل المشكلات وأجوبة على كل الأسئلة المتصلة بالدنيا والدين، ولذلك نشطت في عهده في التنصير وإقامة الكنائس في أفريقيا وغيرها.

١٦- تقبل زواج الكهنة إذا تزوجوا قبل الدخول في الرتب الكنسية، ولا تسمح بزواج الكهنة بعد وفاة الزوجة الثانية.

١٧- تعمل الكنيسة الأرثوذكسيَّة المصريَّة على عرقلة تطبيق الشريعة الإسلاميَّة أو قصرها على المسلمين فقط، كما تسعى إلى امتلاك ناصية الاقتصاد المصري.

١٨- تمنح الكنيسة الجوائز للمتزوجين ومساعدة من يريد الزواج منهم لزيادة نسلهم.

الأعداد وأماكن التواجد

- تنتشر الكنائس الأرثوذكسيَّة اليونانيَّة في الدول التالية: تركيا، اليونان، روسيا، ودول البلقان، وجزر البحر الأبيض، والمجر ورومانيا، وتشرف كنيسة أنطاكية على بيت المقدس، كما أن لطور سيناء في مصر كنيسة مستقلة تشرف على دير سانت كاترين ومطرانها هو الأب رئيس الدير.

- ينتشر نفوذ الكنيسة المصريَّة في مصر حيث يبلغ إجمالي نصارى مصر بجميع مذاهبهم وطوائفهم ٥ ,٧٨% من إجمالي السكان حسب الإحصائيات الرسمية بالتعاون مع عشر هيئات محلية وعالمية من بينها الأمم المتَّحدة ويتبعها نصارى الحبشة والسودان، إذ بها أقدم الكنائس التابعة لكنيسة الإسكندرية.

وفي العصر الحديث أسست الكنيسة المصريَّة عدة كنائس تابعة لها في كل من: كينيا، وليبيا، والجزائر، والكويت، والعراق، والإمارات، ودبي، وأبو ظبي، والبحرين، وبلاد الشام، وفلسطين، ودير السلطان، والأردن، ولبنان، وأمريكا الشماليَّة: كندا، استراليا، وبعض دول أوربا مثل: النمسا، وفرنسا.

- الأرمن: تتفق كنيسة الأرمن مع الكنيسة الأرثوذكسيَّة المصريَّة في الأفكار والمعتقدات وإن كان لها ترتيب كنسي خاص بها.

- اليعقوبيَّة: تتفق مع الكنيسة الأرثوذكسيَّة المصريَّة في الإيمان بالمذهب المونوفيزيتي في القول بالطبيعة الواحدة للمسيح، ويوجد معظم أتباعها في العراق، بينما يقيم بطريركهم في حمص بسوريا.

يتضح مما سبق:

- اختلاف أتباع المذهب الأرثوذكسي فيما بينهم في أصل العقيدة وقانون الإيمان، ولذلك فإن الكنيسة اليونانيَّة الأرثوذكسيَّة فضلًا عن الكنيسة الغربية الكاثوليكيَّة تحكم بكفر وهرطقة الكنيسة المصريَّة.

- كان للفلسفة الأفلاطونية الحديثة، وللأفكار الغنوصية أثرُها على عقيدة الكنيسة الأرثوذكسيَّة.

- كان للتلفيق بين تعاليم النصرانيَّة والعقائد الوثنية في مصر وبلاد الكنيسة الأرثوذكسيَّة بزعم الترغيب في النصرانيَّة أثره البالغ في انحراف عقائد وأفكار الكنيسة.

- ظهرت القسوة والاضطهاد بين أبناء الملة الواحدة لمحاولة السيطرة وفرض مذاهبهم بالقوة

مثل ما حدث بين أتباع الأرثوذكسيَّة البيزنطيَّة وبين أبناء الكنيسة المصريَّة من الاضطهاد والتعذيب، وبين أتباع الكنائس الغربية سواء كانت كاثوليكيَّة أو بروتستانتيَّة أو أتباع الأرثوذكسيَّة.

بالمقارنة بالمعاملة الحسنة من المسلمين للنصارى، وإظهار سماحة وعدالة الإسلام كيف كان لذلك دافعًا قويًا للدخول في دين الله تعالى أفواجًا، ويتضح ذلك من مواقف عمرو بن العاص رضي الله عنه، وسائر خلفاء الدولة الإسلاميَّة مع النصارى، ومن مواقف السلطان محمد الفاتح وسلاطين الدولة العثمانية مع رعايا دولتهم من النصارى.

- كان لتحكُّم الإمبراطورية البيزنطيَّة في الكنيسة وسياستها أثره البالغ على عدم استقرارها وكثرة انحرافاتها.

- تحالف النصارى الأرثوذكس مع الحملات الصليبية في سوريا ولبنان ومصر إبان الحملة الفرنسيَّة والحملة الإنجليزية على مصر والشام، وبرزت شخصيات نصرانية متعصبة، ومتأثرة بالدعاية الغربية التي أخذت تدعو في مصر مثلًا إلى إحياء القومية واللغة القبطية.

- الأثر البالغ والبعيد المدى لمدارس الأحد في تخريج قيادات الكنيسة المصريَّة على اختلاف اتجاهاتهم الفكريَّة.

- ظهور التوجه السياسي للكنيسة القبطية ومحاولة التأثير في السياسات الحكومية بما يوافق مصالحهم وخططهم، مستخدمة في ذلك انتشار وزيادة نفوذ الكنيسة في داخل وخارج مصر، مستغلة العلاقات الدولية والتجمعات القبطية في الخارج لتهيئة الرأي العام العالمي ضد المسلمين، لكسب المزيد من التعاطف الدولي لدعم قضاياهم الدينيَّة والسياسية.

- اهتمام الكنيسة المصريَّة بالحملات التنصيريَّة في داخل وخارج مصر مستخدمة في ذلك وسائل متعددة. أما الكنيسة الأرثوذكسيَّة اليونانيَّة ومن يتبعها فكانت جهودهم ضعيفة في هذا الجانب نظرًا للتحجيم الشيوعي لدور الكنائس في روسيا ودول أوربا الشرقيَّة[١].

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٥٨٣- ٥٩٩).

الفصل الثاني
الكاثوليك

التعريف:

أكبر الكنائس النصرانيَّة في العالم، وتدعي أنها أم الكنائس ومعلمتهن، يزعم أن مؤسسها بطرس الرسول، وتتمثل في عدة كنائس تتبع كنيسة روما وتعترف بسيادة بابا روما عليها.

وسميت بالكنيسة الغربية، أو اللاتينيَّة؛ لامتداد نفوذها إلى الغرب اللاتيني خاصة.

التاريخ والأحداث

- يدعي أصحابها بأن القديس بطرس ت ٦٢م هو المؤسس الأول لكنيستها على حسب ما أشار إليه القديس سيبريان ٢٤٨ - ٢٥٨م مع أن مصادر التاريخ الكنسي تشير إلى أن لكل من بولس وبطرس دوره في وجودها.

- أول من استعمل لفظ كاثوليك للدعوة لتأييد الكنيسة مقابل حركات الخروج على مفاهيمها وعقائدها -الهرطقة- أسقُف أنطاكية القديس أغناطيوس الأنطاكي في القرن الثاني الميلادي.

- منذ أن أسس قسطنطين مدينة القسطنطينيَّة روما الجديدة وبنى فيها كنيستها أجاصوفيا وجعلها تلي كنيسة روما في المكانة، قام التنافس بين الكنيستين في السيطرة على العالم المسيحي، الذي استمر إلى أن تم الانفصال الإداري بينهما عام ٨٦٩م بعد مجمع القسطنطينيَّة.

وفي خلال تلك الفترة وما يليها وقعت أحداث جسام، وبرز باباوات وقديسون، كان لهم أكبر الأثر في تطور الكنيسة. وفيما يلي أهم تلك الأحداث وأبرز هذه الشخصيات:

تأكيد سيطرة الكنيسة الغربيَّة:

- اعترف مجمع سرديكا عام ٣٤٣ أو ٣٤٤م بحق استئناف قرارات المجامع الإقليمية إلى أسقف روما، مما زاد من دعاوى روما بأنها الحكم الأعلى للنصرانية.

- يرجع الفضل إلى البابا داماسوس الأول ٣٦٦ - ٣٨٤م في ترجمة الإنجيل إلى اللاتينيَّة، كما رأس مجمع روما عام ٣٨٢م للرد على قرارات مجمع القسطنطينيَّة لعام ٣٨١م لتأكيد صدارة روما التي تستمد مكانتها من وعد المسيح لبطرس الرسول بقوله: وأنا أقول لك أنت الصخرة، وعلى هذه الصخرة سأبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها.

- البابا ليو الأول ٤٤٠ - ٤٦١م والملقب بليو العظيم إذ كان له دور بارز في حماية روما والحفاظ عليها بعد سقوطها عام ٤١٠م في يد الآريوسيين -أتباع آريوس- ويرجع إليه الفضل في تميز الكنيسة الغربية بعقيدتها في المسيح من حيث إن له طبيعتين -المذهب الملكاني- بعد تصديه لأصحاب مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح -المونوفيزتية- في مجمع كلدونية عام ٤٥١م.

- أصدر الإمبراطور فالنتيان سنة ٤٥٥م مرسومًا يقضي بخضوع كل أساقفة وموظفي الإمبراطورية للبابا، مما زاد في نفوذ وثروات الكنيسة، وأقبل الناس على الدخول في الكنيسة بأعداد كبيرة تطلعًا للمكانة والكسب المادي.

- كان لاعتناق الإمبراطور كلوفس النصرانيَّة، وتعميده على العقيدة الكاثوليكيَّة عام ٤٩٦م أكبر الأثر في اعتناق الفرنجة السالين -أحد الطوائف الجرمانية- للمذهب الكاثوليكي.

- في ٦ أغسطس سنة ٥٢٥م قرر الإمبراطور ثيودريك تسليم جميع الكنائس الكاثوليكيَّة للآريوسيين، ردًّا على حملة الإمبراطور جستنيان في الدولة البيزنطيَّة ضد الآريوسين. فأنزل الاضطهاد والتعذيب على الكاثوليك، وسجن في هذه الفتنة البابا يوحنا الأول عام ٥٢٥م.

العصور المظلمة:

ويطلقها مؤرخو النصرانيَّة على الفترة من تولِّي البابا جرجوري الأول عام ٥٩٠م حتى تولي شارلمان الإمبراطورية ٨٠٠ - ٨٤٠م إذ شهدت العديد من الصراعات والانشقاقات التي أدت إلى الانهيار السياسي والانحطاط العلمي والثقافي للنصرانية، وإن تميزت بقوة التبشير النصراني، بالإضافة إلى شروق شمس الإسلام من جبال فاران (بمكة المكرمة) عام ٦١٠م حتى عمت أشعتها نصف العالم، وأخضعت العديد من الممالك النصرانيَّة في مصر وأفريقيا والأندلس وصقلية ودول الشام وإيران.

ومن أبرز شخصيات هذا العصر البابا جرجوري الأول ٥٩٠ - ٦٠٤م: الذي يلقب بجريجوري العظيم، لاهتمامه البالغ بتطوير الكنيسة وإصلاحها، متأثرًا بمبادئ وأصول الأديرة البندكتية التي نشأ فيها. بالإضافة إلى اهتمامه بالنواحي السياسية والإدارية، والدعوة للنصرانية حتى امتد نفوذ الكنيسة في عهده إلى أفريقيا وغاليا -فرنسا- ودخلت أسبانيا وإنجلترا في النصرانيَّة بعد بعثة القديس أوغسطين عام ٥٩٧م، وقد أصبحت الكنيسة في عهده أشبه بالحكومة المدنية العلمانيَّة، وبذلك استطاع فرض سيادة البابوية على الأساقفة الشرقيين في النواحي القضائية بما فيهم بطريرك القسطنطينيَّة، فحقق بذلك للبابوية قسطًا من السمو لم يسبق إليه مما كان لذلك الأثر البالغ في تذكية الصراع بين البابوية والإمبراطورية.

القرون الوسطى:

وتطلق على الفترة ما بين ٨٠٠ - ١٥٢١م التي اتسمت بكثرة الحروب الأهلية، والتي دامت طويلًا بين البابوية والإمبراطورية، واتسمت بظهور حركات الخروج على مبادئ الكنيسة فيما وسَمَتها الكنيسة بالهرطقة، ولذلك توسعت في استخدام محاكم التفتيش ضد هذه الحركات، وضد الأصوات المنادية بالإصلاح الكنسي.

وفي تلك الفترة أيضًا كانت بداية الحروب الصليبية، بالإضافة إلى فتح المسلمين للقسطنطينية عام ١٤٥٣م.

ويمكن تقسيم أهم أحداث الكنيسة الكاثوليكيَّة خلالها إلى:

١- العهد فيما بين شارلمان وجريجوري السابع ٨٠٠ - ١٠٧٣م:

وفيه ازدهرت البابوية، إذ اعتبر شارلمان المتوَّج من البابا ليو الثالث ٨٠٠م نفسه حاميًا للبابوية، وأنه رأس الكنيسة والدولة معًا، فأصبح يعين الأساقفة ويتولى رئاسة المجامع الرئيسية التي يدعو إليها، بالإضافة إلى تشريعه للقوانين اللازمة للكنيسة -القانون الكنسي- كما اهتم بإصلاح المدارس الدينيَّة، ورفع مستوى رجال الدين الثقافي؛ فظهرت لذلك نهضة علمية واسعة في عصره، إلا أن الصراع مع البابوية تجدد مرة أخرى لرغبة البابا ليو الثالث في التخلص من سيطرة الإمبراطور، لكنه لم يفلح في ذلك.

٢- الشقاق العظيم:

والمراد به الاختلاف الكبير الذي أدى إلى الانفصال النهائي للكنيسة الشرقيَّة والأرثوذكسيَّة عن الكنيسة الغربية الكاثوليكيَّة، بعد محاولة البابا ليو التاسع ١٠٥٤م فرض عقائد وأفكار الكنيسة الغربية على الشرق، التي رفضها بطريرك القسطنطينيَّة ميخائيل كيرولاريوس الأمر الذي فجَّر ما بينهما من الخلافات القديمة حول انبثاق روح القدس.

٣- العهد فيما بين البابا جريجوري السابع، والبابا بويفيس ١٠٧٣- ١٢٩٤م:

كان للبابوية في هذه الفترة دورها الكبير في تقرير تاريخ أوربا كما كان لها في السابق، وذلك بعد سلسلة من الصراعات بين البابوية والإمبراطورية التي عقد من أجلها اللاتران الأول عام ١١١٢م والثاني عام ١١٣٩م الذي أعلن فيه البابا أنوسنت الثاني ١١٣٠-١١٤٣م أن البابا له السيادة العليا على جميع الحكام العلمانيين، وما انتهى هذا الصراع في هذه المرحلة إلا بعد توقيع الصلح بين البابوية والإمبراطور فردريك ١١٧٧م.

ومن أهم أحداث هذه الفترة انطلاق الحملات الصليبية التي دعا إليها البابا جريجوري السابع عام ١٠٧٤م. وقد أعلن عن بداية هذه الحملات البابا أوربان الثاني في مجمع كليرمونت عام ١٠٩٥م، ولم يكتب هذه الحملات النصر إلا في الحملة الأولى ثم انكسرت شوكتهم بعد ذلك.

كما شهدت تلك الفترة ظهور حركات الهرطقة ضد الكنيسة، ومنها حركة المارسونية التي تُمثل أكبر بدعة ناهضت الكنيسة في تلك الفترة، بالإضافة إلى سقوط القسطنطينيَّة على يد الحملة الصليبية الرابعة ١٤٥٣م بالإضافة إلى تقنين القانون الكنسي.

٤- العهد بين البابا بونيفيس الثامن إلى عهد الإصلاح ١٢٩٤ - ١٥١٧م:

وهذه الحقبة التاريخية تمثل آخر فترات القرون الوسطى في أوربا، وفيها اشتد الصراع بين البابوية والإمبراطورية التي عملت على تفتيت قوة ونفوذ البابوية إلى أن تم إضعافها تحت ضربات حركات الإصلاح المتتالية، وتأسيس كنيسة البروتستانت - المعترضين.

ومن أهم الأحداث الكنسيَّة في تلك الفترة: فشل حركات الإصلاح الكنسي لتواطؤ البابا مارتن الخامس والبابا أبو جينوس الخامس ١٤١٧ - ١٤٤٧م على إجهاض حركات الإصلاح تحقيقًا لأطماعهم الشخصية.

كما شهدت تأسيس عدد من الجمعيَّات الرئيسية لمساعدة الكنيسة ضد حركات الخروج عليها، وإمدادها بأتباع مخلصين مثل: اليسوعيين عام ١٥٣٤م. والإخوان الفرنسيسكان والإخوان الدومينكان.

مجمع ترنت ١٥٤٢ - ١٥٦٣م:

الذي عقد على أثر ثورات الإصلاح التي علا صوتها بعد إعدام حناهس، والتي من أبرزها ثورة مارتن لوثر التي ساندتها الحكومة والشعب الألماني.

وفي الوقت نفسه كان في سويسرا ثورة أخرى بقيادة الرخ زونجلي، ليعارض الكنيسة ويؤيد دعوة لوثر، فعُقِد مجمع ترنت ليقرر عدم قبول آراء الثائرين، ويقضي بمحاكمة لوثر أمام محكمة التفتيش، ثم ليصدر البابا ليو العاشر قرارًا بحرمانه من الحقوق المدنية والرئيسية والقانونية، ليظهر بعد ذلك معارض ثالث في فرنسا: جون كلفن ١٥٠٩-١٥٦٤م الذي هرب إلى سويسرا لينشر مبادئ مارتن لوثر ويجمع حولها الأنصار، وتؤيده في ذلك بعض الدول؛ ليتقلص نفوذ الكنيسة الغربية - الكاثوليكيَّة- وتنفصل عنها كنيسة جديدة -البروتستانتيَّة- لتزيد من الفرقة والشقاق في العالم النصراني، ولتشتعل الحروب الطاحنة بين الكنيستين لعدة سنوات والتي ذهب ضحيتها خلق كثير، حتى أمكن التوصل إلى صلح -صلح أوجزبرج- سنة ١٥٥٥م على أساس إقرار مبدأ إسبير الأول سنة ١٥٢٦م القائل: بأن لكل أمير الحق في اختيار المذهب الذي يريد سريانه في إمارته.

وهكذا غربت شمس الكنيسة الكاثوليكيَّة، وتقلَّص سلطانها؛ إذ أصبح بمقدور كل دولة الخروج على سلطة البابا.

مجمع روما ١٧٦٩م:

في هذا الجو العاصف بالحركات الثائرة على الكنيسة عُقد هذا المجمع ليحدث مزيدًا من الانشقاق داخل الكنيسة بسبب تقريره عصمة البابا، لتظهر جماعة من المخالفين للقرار، سموا أنفسهم بالكاثوليك القدماء.

موقف الكنيسة من العلم والعلماء:

ما إن ظهرت في أوربا بوادر النهضة العلميَّة المتأثرة بحضارة المسلمين في الأندلس بعد ترجمة العلوم الإسلاميَّة واليونانيَّة إلى اللاتينيَّة، وبرز عدد من العلماء الذين بينوا بطلان آراء الكنيسة العلميَّة وبخاصة في الجغرافيا والفلك، حتى تصدت لهم الكنيسة استنادًا على ما ورد في الإصحاح الخامس من إنجيل يوحنا: إن كان أحد لا يثبت فيَّ يطرح خارجًا كالغصن فيجف، ويجمعونه ويطرحونه في النار فيحترق.

ولذلك استخدمت ضدهم الرقابة على الكتب والمطبوعات لئلا يذيعوا آراءً مخالفةً للعقيدة الكاثوليكيَّة، وتوسعوا في تشكيل محاكم التفتيش ضدهم، وقد حكمت تلك المحاكم في الفترة من ١٤٨١-١٤٩٩م على تسعين ألفًا وثلاثة وعشرين شخصًا بأحكام مختلفة، كما أصدرت قرارات تحرِّم قراءة كتب جاليليو وجيوردا نويرنو، وكوبرنيكوس، ونيوتن لقوله بقانون الجاذبية الأرضية، وتأمر بحرق كتبهم. وقد أحرق بالفعل الكاردينال إكيمنيس في غرناطة ثمانية آلاف كتاب مخطوط لمخالفتها آراء الكنيسة.

الكنيسة في عصر النهضة:

- في النصف الثاني من القرن السابع عشر، ازداد غضب الناس والعلماء والفلاسفة من سوء سلوك رجال الكنيسة، ومن الرقابة التي فرضوها على المطبوعات، وتوسُّعهم في استخدام محاكم التفتيش، ومبالغتهم في القسوة والتعذيب ضد المخالفين والعلماء، مما أثار الفلاسفة من أمثال ديكارت وفولتير، الذين وجَّهوا سهام النقد إلى الكنيسة وآرائها، ودعوا إلى إعلاء العقل مقابل النصوص الرئيسية، بفرض أن العقل يستطيع إدراك الحقائق العلميَّة، والخير والشر.

- في عام ١٧٩٠م أصدرت الجمعيَّة الوطنية الفرنسيَّة قرارات قاصمة لظهر الكنيسة إذ ألغت العشور الكنسية، وصادرت أموالها، وأجبرت رجال الكنيسة على الخضوع للدستور المدني، وأخذت تعين رجال الكنيسة بدلًا من البابا، بالإضافة إلى إغلاق المدارس التابعة للكنيسة، وتسريح الرهبان والراهبات.

- في سبيل حفاظ البابا جريجوري السادس عشر على مكانته بعد هذه القرارات أصدر البابا عدة منشورات يدين فيها حركة الحرية السياسية، والحرية الاقتصادية، على أنها تحمل مضامين تخالف الدين المسيحي.

- جاء القانون الذي أقرَّته الحكومة الفرنسيَّة ١٩٠٥م بفصل الدين عن الدولة على أساس التفريق بينهما وإعلان حياد الدولة تجاه الدين، كقاصمة أخرى شجعت المعارضين للكنيسة على نقد نصوص الكتاب المقدس والكنيسة بحرية، كما أجبر هذا القانون رجال الكنيسة على أن يقسموا يمين الولاء والطاعة للشعب والملك والدستور المدني الجديد.

وقد امتدت هذه القرارات حتى شملت دول أوربا، لينتهي بذلك دور الكنيسة في محاولة السيطرة على السياسة، ولتنزوي داخل الجدران، لتمارس الوعظ والترانيم على الأنغام الموسيقية.

الكنيسة والماسونية:

- تنبه رجال الكنيسة إلى شرور الحركات السرية بعد أن رأوا أن معظم رجال تلك الحركات أعضاء في الجمعيَّات والأندية الماسونية، ويعتبر البابا تليمنوس الثاني عشر أول من تصدى لهم وكشف زيفهم في مؤتمر ٢٨/٤/١٧٣٨م ثم تبعه البابا بندكتوس الرابع عشر، والبابا بيوس السابع، والبابا أوربان الذي أصدر قرارًا بالبراءة من الماسونية.

- كان موقف البابا بيوس العاشر من أقوى تلك المواقف في التصدي للماسونية في العصر الحاضر وذلك بعد رفضه محاولة مؤسس الصهيونيَّة تيودر هرتزل عام ١٩٠٣م في كسب موافقة الفاتيكان للاستيطان في فلسطين، كما رفض مبدأ قيام دولة لليهود في فلسطين، والاستيلاء على القدس، إلا أن اليهود استطاعوا بعد تغلغلهم في النصرانيَّة تنصيب أحد عملائهم البابا بولس السادس الذي ما إن جلس على كرسي البابوية حتى غيَّر موقف الفاتيكان من الماسونية واليهود، حيث أعطى في ديسمبر ١٩٦٥م الحق للكهنة في إلغاء الحرمان عن الكاثوليك الذين انضموا إلى الماسونية؛ بل عقد مجمعًا في الفاتيكان ليعلن براءة اليهود من دم المسيح، ضاربًا بنصوص الكتاب المقدس وقرارات المجامع والباباوات السابقين له عرض الحائط متابعًا لرأي الكاردينال بيا اليهودي الأصل.

وقد عارضه في ذلك الكاردينال الكاثوليكي الفرنسي مارسيل ليفيفر بقوله: لقد زج المجمع المسكوني الكنيسة للثورة. ومن هذا الزواج السفاح لا يجيء غير أبناء الزنى...

وفي أثناء زيارة البابا بولس السادس للقدس عام ١٩٦٤م أعلن اعترافه بدولة اليهود في فلسطين المحتلة.

الكنيسة في خدمة الاستعمار الغربي:

- مع إقرار الكنيسة بفصل الدين عن السياسة داخل أوربا، فإن مجلس الكنائس العالمي يقرر في مؤتمر سالونيك باليونان عام ١٩٥٦م: أن السياسة هي المجال الذي يتحتم على الكنيسة في دول أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينيَّة أن تعمل فيه، وأن على الكنائس أن تراقب خطط التنمية في تلك الدول لتميز بين ما يتفق مع إرادة الله -الزراعة والفلاحة فقط- وبين عمل الشيطان -الصناعة والتقدم العلمي- لتعلن للقوم أين يقف الله، ومن أين يطل الشيطان.

ويقرر في مؤتمر نيودلهي عام ١٩٦١م: إن على الكنيسة أن تكون متأهبة للصراع مع الدولة في أي وضع وتحت أي نظام سياسي.

وما ذلك إلا لتسخير تلك الشعوب ومقدراتها، وضمان تبعيتها باستمرار للمستعمر الغربي؛ حيث تشيع بينهم أن التقدم الاقتصادي وارتفاع مستوى المعيشة سيأتي دائمًا معه بكثرة الخطايا والشرور.

بعث الأمة الكاثوليكيَّة:

البابا السابق للفاتيكان يوحنا بولس الثاني الكاردينال كارول البولندي الأصل الذي يتميز عن غيره بأنه رجل تنظيم وسياسة. ولذا فإنه يتبنى فكرة بعث الأمة الكاثوليكيَّة من خلال إيجاد حكومة عالمية أو إمبراطورية مقدسة، والتي لا تكون إلا من خلال تحقيق وحدة القارة المسيحيَّة الأوربية وبناء أوربا جديدة على القواعد النصرانيَّة، مما لا بد فيه من حدوث صراع سياسي ومالي وربما عسكري، وأن مهمة الفاتيكان فيه هو تهيئة الأجواء لكسب هذا الصراع الحتمي مع التجمعات

الأيدلوجية الأخرى.

والبابا متأثر في ذلك بأفكار حركة المنشأة الإلهية (Opos Dei) والقاضية بأنه بالحكم والمال وحدهما تتحقق الآمال، ويحدث التغيير.

كما راهن البابا يوحنا بولس الثاني على أن قارة أفريقيا ستصبح قارة نصرانية عام ٢٠٠٠م وفي سبيل ذلك فإنه كان يقوم بما يزيد على أربع رحلات سنويًا، ويحاول التقارب وإيجاد أرضية عمل مشترك مع الطوائف النصرانيَّة الأخرى رغم ما بينهم من خلافات جذرية.

- أعلنت لجنة الفاتيكان للعلاقات مع اليهود براءة جديدة لليهود من دم المسيح في ٢٤ يونيو ١٩٨٥م ونشرتها مجلة أوبسير فاتوري رومانو لسان حال الفاتيكان في عددها الصادر بتاريخ ٢٥ يونيو ١٩٨٥م، وذلك بناءً على توجيهات البابا يوحنا بولس الثاني.

كما دعت تلك الوثيقة إلى عدم اعتبار اليهود شعبًا منبوذًا أو معاديًا للمسيح. على أن المسيح نفسه كان يهوديًا وسيظل يهوديًا، ولذلك فهي تؤكد أيضًا أن أرض فلسطين المحتلة هي أرض أجداد اليهود، كما تدعو إلى ترك المفهوم التقليدي للشعب المعاقب كما في نظر النصرانيَّة؛ لأنه يبقى في النهاية الشعب المختار.

معتقدات وأفكار الكنيسة الكاثوليكيَّة:

١- **الألوهية**: تؤمن الكنيسة الكاثوليكيَّة مثل باقي الكنائس الأخرى بإله واحد مثلث الأقانيم: الأب، الابن، الروح القدس، على حسب ما ورد في قانون الإيمان النيقاوي لعام ٣٢٥م كما تؤمن بأن للمسيح طبيعتين بعد الاتحاد: إحداهما لاهوتية، والأخرى ناسوتية.

٢- **يؤمن الكاثوليك** بما أقر في مجمع القسطنطينيَّة الرابع عام ٨٦٩م من أن الروح القدس منبثق من الأب والابن معًا.

٣- **الأقانيم**: يعتقد الكاثوليك أن أقنوم الابن أقل من أقنوم الأب في الدرجة، وأن الأقانيم ما هي إلا مراحل انقلب فيها الله إلى الإنسان، ولذا فهي ذوات متميزة يساوي فيها المسيح الأب حسب لاهوته وهو دونه حسب ناسوته، كما ينص على ذلك قانون الإيمان الأثناسيوسي.

٤- **التجسد والفداء**: الإيمان بتجسُّد الله -تعالى عن قولهم- في السيد المسيح من أجل خلاص البشرية من إثم خطيئة آدم وذريته من بعده، فيعتقدون أنه وُلد من مريم وصلب ومات فداءً لخطاياهم، ثم قام بعد ثلاثة أيام ليجلس على يمين الرب ليحاسب الخلائق يوم الحشر.

٥- **السيدة مريم والأيقونات**: يقدسون السيدة مريم والقديسين والقديسات، والأيقونات المجسمة والمصورة مع الإشادة بالمعجزات.

٦- **الإلهام**: تؤمن الكنيسة الكاثوليكيَّة بالإلهام كأحد مصادر المعرفة والوحي المستمرة.

٧- **الصليب**: يقدسون الصليب ويتخذونه شعارًا.

٨- **الكتاب المقدس**: تؤمن الكنيسة الكاثوليكيَّة بنصوص الكتاب المقدس وبما يتضمنه من التوراة وأسفار الأنبياء، وبالعهد الجديد ورسائل الرسل على ما أقر في مجمع نيقية الأول.

٩- **أسرار الكنيسة**: يؤمن الكاثوليك بممارسة سر الاعتراف مرة واحدة في السنة، وكذلك سر التناول في عيد الفصح، وكما يستعملون الفطير في العشاء الرباني بدلًا من الخبز المختمر، والمعمودية لا تتم إلا بالرش لا بالتغطيس ثلاثًا وتكون من الكاهن أو بالصبغة بدم الشهيد في سبيل الإيمان فقط، والمسح بالميرون المقدس يجوز تأخيره عن التعميد للقاصر حتى يبلغ سن الرشد، ولا يمسح بالزيت المقدس إلا لمن شارف على الموت، ويحرم الطلاق في جميع الأحوال حتى في حالات الزنى، وقد انفردت الكنيسة الكاثوليكيَّة بسر ثامن عن الكنائس الأخرى ألا وهو عصمة البابا عن ارتكاب المعاصي والآثام.

١٠- **الحياة الأخرى**: يعتقد الكاثوليك أنه يوجد بعد الموت مكان ثالث يسمى المطهر تُعتقل فيه النفوس التي لم تصل إلى درجة النقاوة الكاملة، وتظل تُعذَّب حتى تطهر بما بقي عليها من الدين للعدل الإلهي، وعندئذ يسمح لها بدخول الملكوت.

١١- **خلق أفعال العباد**: وأن كل ما خلقه الله تعالى حسن وإنما الشر من خلق العباد.

١٢- **تبيح أكل الدم والمنخنقة** على خلاف قرارات مجمع الرسل الأول في أورشليم ٥١-٥٥م ويجوز للرهبان أكل دهن الخنزير، ولبس الأساقفة الخواتم في أصابعهم، كما يجوز للكهنة حلق لحاهم على عكس الأرثوذكس.

١٣- **القداس**: القداس محور العبادة والحياة الروحية على أنه يقام يوميًا.

١٤- **الصلاة**: الصلاة الفردية أساسية في الدين على أن للصلاة طرقًا عديدة، وينبغي أن تقترن بشيء من التقشُّف.

١٥- **الصوم المفروض**: هو الصوم الكبير السابق لعيد الفصح، وجعل صوم الجمعة والسبت فقط عبارة عن الانقطاع عن أكل اللحوم. كما فرض أيضًا صوم الأزمنة الأربعة فيما يعرف بصوم البارامون (أي الاستعداد للاحتفالات) وهي السابقة لأعياد الميلاد، والعنصرة وانتقال العذراء وجميع القديسين.

ويوجد خلاف بين الكنيسة اللاتينيَّة وطوائف الكنيسة الكاثوليكيَّة الشرقيَّة في قواعد الصوم.

١٦- **الطقوس**: تتميز باستعمال اللغة اللاتينيَّة، والبخور، والصور، والتقويم الخاص بها.

وللكنيسة الكاثوليكيَّة عدة طقوس إلى جانب الطقوس الرومانية، هناك من يستعمل الطقوس الشرقيَّة مثل الروم الكاثوليك، جنوب إيطاليا، والموارنة والسريان الذين يتبعون الطقس الأنطاكي، وهناك كاثوليك أقباط وأحباش يستمسكون بالطقس القبطي.

١٧- **التنظيم الكهنوتي «الإكليروس»**: يدير البابا الكنيسة بواسطة كرادلة في روما ومطارنة في

جميع أنحاء العالم.

تنقسم الكنيسة عند الكاثوليك إلى أبروشيات على رأس كل أبروشية مطران يعينه البابا، وفي كل أبروشية عدة كنائس يديرها كهنة رعاة لخدمة أبناء الكنيسة.

١٨- البابا: كما تعتقد أن السيد المسيح أقام بطرس نائبًا على الأرض ورئيسًا على الرسل، ورأسًا للكنيسة، وعلى ذلك فالبابا في روما هو خليفة بطرس ورأس الكنيسة من بعده، ومرشدها الأعلى لجميع الكاثوليك في العالم.

ونظرًا لاعتقادهم بعصمة البابا؛ فإن المغفرة حق من حقوق الكنيسة تعطيها لمن تشاء.

١٩- الجماعات الدينيَّة المكونة من الرهبان والراهبات تخضع لبابا روما عن طريق رؤسائها الموجودين في روما.

٢٠- يدرس الكهنة قبل اضطلاعهم بمهمتهم العلوم الدينيَّة خمس أو ست سنوات ويدربون في معاهد دينية خاصة، ولا يتزوج رجال الدين إلا القليل منهم.

الأعداد وأماكن التواجد

تنتشر في أوربا: إيطاليا، فرنسا، لتوانيا، بولندا، سلوفاكيا، المجر، كرواتيا، بلجيكا، أسبانيا، البرتغال، أيرلندا، كندا الفرنسيَّة، أمريكا اللاتينيَّة، الفلبين، وجنوب شرق آسيا.

وهناك أقليات في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة، وهولندا، وألمانيا، وبعض دول أفريقيا.

يتضح مما سبق:

- إن المتأمل في تاريخ الكنيسة الكاثوليكيَّة لَيجِد أنه كان لها دور كبير في أحداث تاريخ أوربا بمختلف مراحله.

- كان للصراع مع الحكام والملوك أثره في ظهور عقائد جديدة في الكنيسة لم تكن من قبل مثل: سمو مكانة البابوية والكنيسة الغربية، وعصمة البابا عن ارتكاب الآثام والمعاصي بزعم أن روح القدس ينطق من فِيهِ على ما أقر في مجمع روما عام ١٧٦٩م السر الثامن.

- ونظرًا لاتباع الهوى وترك التشريع للرجال والمجامع ظهر التضارب في آراء الكنيسة والانقسام في صفوفها، فما يُقر في مجمع يُنقض في آخر، وفي كلتا الحالتين يأخذ صفة الحكم الإلهي، ففي فترات سيطرة رجال الكنيسة على مقاليد الحكم تستند إلى أقوال القديس أغسطس القاضية بأن تخضع سلطة الدولة لسلطة الكنيسة التي تمثل مدينة الله.

وفي فترات الاضطهاد تظهر دعاوى فصل الدين عن الدولة مثلما جاء في رسالة هوزيوس أسقف قرطبة للإمبراطور قسطنطيوس عام ٣٥٥م: «أما من جهتك فينبغي ألا تجر على نفسك جريمة ارتكاب ذنب خطير، بأن تسعى لأن تتولى حكومة الكنيسة، فلتُعطِ ما لقيصر لقيصر، ولتجعل لله ما لله، فلا يجوز لنا أن نباشر سلطة دنيويَّة وليس لك أيها الإمبراطور الحق في أن تحرق البخور».

وهذا ما اعتقدته حركة الإصلاح الكلوانية أنه سبيل لإصلاح الكنيسة.

- انتشرت داخل الكنيسة كافة مظاهر الانحراف والفساد مثل السيمونية، ومخالفة القانون الكنسي، رغم دعاوى الرهبنة والعزوبة وحياة الزهد والتقشف التي فرضها القانون الكنسي، ولم تستثن أحدًا بدءًا من البابا حتى أصغر كاهن وراهب.

تقول القديسة كاترين السينائية في القرن الرابع عشر الميلادي: «إنك أينما وليت وجهك سواء نحو القساوسة أو الأساقفة أو لم تر إلا شرًا ورذيلة، تزكم أنفك رائحة الخطايا الآدمية البشعة، اتخذوا بطونهم إلهًا لهم، يأكلون ويشربون في الولائم الصاخبة، حيث يتمرغون في الأقذار، ويقضون حياتهم في الفسق والفجور».

- كان للرهبانية أثرها البالغ على الأخلاق الأوربية، فانعدمت أخلاق الفتوة والمروءة التي أصبحت من المعايب والرذائل، كما هجر الناس البشاشة والسماحة والشجاعة. ومن أهم نتائجها أن تزلزلت دعائم حياة الأسرة، فكثيرًا ما أصبحت الأمهات ثكلى، والأزواج أيامى، والأولاد يتامى، بعد خطفهم من الرهبان، فأصبحوا يتكفَّفون الناس ويتوجهون إلى الصحراء، همهم الوحيد أن ينقذوا أنفسهم في الآخرة. وكان الرهبان يفرون من ظل النساء ويتأثمون من قربهن، يعتقدون أن مصادفتهن في الطريق العام والتحدث إليهن ولو كن أمهات أو زوجات أو شقيقات تحبط أعمالهم وجهودهم الروحية.

- على الرغم من الجوانب والآثار السلبية للحروب الصليبية وما تميزت به من قسوة ضد المخالفين سواء كانوا من نصارى أو مسلمين، إلا أنها كانت سببًا في انتقال المعارف الإسلاميَّة إلى أوربا.

تقول الكاتبة الألمانيَّة هونكة في شمس العرب تسطع على الغرب: «وكان للحروب الصليبية دور هام في تطور نظام الحصون وطرق الدفاع، أي في أوربا».

وتقول: «اختلط ملوك أوربا وأمراؤها بملوك الشرق وأمراء المسلمين في أثناء الحرب الصليبية، ورأوا بأعينهم أدباء العرب وشعراءهم ومؤرخيهم، لا سيما من كان منهم بمعية صلاح الدين الأيوبي».

وتقول: «وفي مراكز العلم الأوربية لم يكن هناك عالم واحد من بين العلماء إلا ومد يديه إلى الكنوز العربيَّة».

ومع ذلك لا تزال الصليبية على عهدها الأول يمنعها عن قبول الحق حواجز التقليد للآباء والأجداد والعقائد المتوارثة حتى لو شهدت الأدلة الساطعة على بطلانها.

- لم تقتصر محاكم التفتيش على المخالفين للكنيسة من النصارى فقط ولكنها طالت المسلمين أيضًا، ففي القرنين الخامس عشر والسادس عشر بعد سقوط الأندلس ذبحوا وأحرقوا ما يزيد على ٣١ ألفًا من المسلمين ولم يتركوا مسلمًا على قيد الحياة أو غير منفي.

وبعد استقلال اليونان عن الدولة العثمانية أباد النصارى شعب موريا المسلم عن أخره، بل ودمروا المساجد، وما فعله الأسقف مكاريوس بمسلمي قبرص، والمتعصب جوليوس نيريري بمسلمي زنجبار منا ببعيد.

- تنتقد دائرة المعارف البريطانية دعوى الإلهام التي ما زالت تؤمن بها الكنيسة الكاثوليكيَّة على أنها أحد مصادر المعرفة والوحي بقولها في المجلد الحادي عشر: "إن كل قول مندرج في الكتب المقدَّسة ليس إلهاميًا".

وهو ما أيده جيروم وكرتيس وبمركوبيس وغيرهم من علماء النصرانيَّة في القرن الثاني الميلادي إذ قالوا: «إن الذين يقولون: إن كل مندرج في الأناجيل إلهامي لا يقدرون على إثبات صحة دعواهم».

وهو ما أكدته دائرة المعارف الفرنسيَّة في المجلد السابع من أن: «هؤلاء الحواريين أصحاب المسيح ما كان يرى بعضهم بعضًا صاحب وحي كما يظهر في مباحثاتهم في محفل أورشليم».

- وكما جنت الكنيسة على الديانة النصرانيَّة بإدخال العقائد الوثنية، علاوة على التبديل والتحريف الذي لحق بالنصرانيَّة وكتابها، جنت أيضًا عليها وعلى الإنسانية بمحاربتها للعلم والعلماء باسم الدين. وظهور الفساد داخل الكنيسة، مما دفع الأفكار الإلحادية المناوئة للدين إلى الظهور تحت ستار المناداة بحرية الفكر، وحرية اختيار المذاهب الاعتقادية ولو كانت إلحادية، وبالتالي ظهرت الدعوات إلى الإلحاد والعلمانيَّة بمذاهبها المختلفة.

يقول فولتير في كتابه مقبرة التعصب: «ينبغي أن يخضع القسس للحكومة؛ لأنهم أفراد من الرعية التابعة للدولة».

ونتيجة لحرية الفكر والقضاء على رقابة الكنيسة تم بعث التراث الفلسفي اليوناني، سواء المترجم بالعربيَّة أو اليونانيَّة، وظهرت المذاهب الماديَّة الإلحادية والفلاسفة الماديين أمثال برتراندراسل، هيجل، وأنجلز، وكثرت مؤلفاتهم التي تدعو إلى القضاء على الدين.

يقول ديدرو هلباخ، ورينال في الأنسكلوبيديا: «إن الشرائع والأديان هي العوائق التي تحول دون حصول الإنسان على السعادة، فيجب عليه محوها ليرجع إلى الطبيعة».

- إن النصرانيَّة التي يتبناها الفاتيكان اليوم هي النصرانيَّة السياسية التي تريد ربط دول آسيا وأفريقيا بعجلة الغرب عن طريق نشر النصرانيَّة بينهم، وخلق جملة من الأفكار النصرانيَّة التي تقف أمام الإسلام والمسلمين في جميع الميادين. وفي سبيل ذلك تقاربت طوائف النصرانيَّة واليهوديَّة للحد من مارد الإسلام الذي بدأ يصحو من جديد.

- يقول رازينجر منظر السياسة في الفاتيكان: «من يبحث عن حل خارج الكنيسة في عصرنا الحدث ليس إلا واحد من اثنين: العودة إلى عصر ما قبل المسيح؛ أرسطو وأمثاله، التعلق بثقافة غير أوربية من جهة وبالإسلام من جهة أخرى، وبما أن الاحتمال الأول ليس له إمكانية الحياة،

فيبقى الاحتمال الثاني -الإسلام- فعلينا أن نحذر الإسلام أكثر بكثير مما مضى، فهو اليوم يعود من أعماق التاريخ ليقدم بديلًا عن نظامنا المشبع بالنصرانيَّة».

ويقول في أهمية وجود أندية لملء الفراغ الأيدلوجي لسقوط الشيوعية: «إن حدوث الفراغ الأيدلوجي في الثقافة العالمية بما يعني الانفتاح على الثقافات الأخرى بما فيها من مثل وقيم ومبادئ، وإن البقاء على التقليدية الكنسية السابقة، وما لقيصر لقيصر، ولا دين في السياسة ولا سياسة في الدين، سيترك الأبواب مفتوحة على مصراعيها لدخول الإسلام».

ولذلك عملت الكنيسة على تجنيد السياسة والإعلام الأوربي، وتوجيه عموم الشعب، نحو خصم جديد -الإسلام- ويتضح ذلك من ردود فعل رجال السياسة الأوربيين وتصريحاتهم حول رواية سلمان رشدي وغيره، ومن الحملات الإعلامية حول الأصولية والإرهاب[1] .

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٠٠- ٦١٤).

الفصل الثالث

البروتستانت

التعريف:

فرقة من النصرانيَّة، احتجوا على الكنيسة الغربية باسم الإنجيل والعقل، وتسمى كنيستهم بالبروتستانتيَّة حيث يعترضون (Protest) على كل أمر يخالف الكتاب وخلاص أنفسهم.

وتسمى بالإنجيلية أيضًا حيث يتبعون الإنجيل دون سواه، ويعتقدون أن لكل قادر الحق في فهمه، فالكل متساوون ومسئولون أمامه.

التاريخ والأحداث

الكنبسة البروتستانتيَّة حركة إصلاحية، بدأت في الكنيسة الكاثوليكيَّة في القرن السادس عشر متأثرة بدعوات الإصلاح السابقة لها، ومن ثَمَّ تحولت من حركة إصلاحية داخل الكنيسة إلى حركة عقائدية مستقلة ومناهضة لها، ومن أبرز المؤسسين: مارتن لوثر، والروخ هولدريخ زوينجلي، وجون كالفن.

مارتن لوثر:

ولد لوثر سنة ١٤٨٣م في ألمانيا، وعاش في بيئة نصرانية تشيع فيها الخرافات والمعتقدات الزائفة.

وفي عام ١٥٠٥م نال شهادة أستاذ في العلوم من جامعة إيرمورت ولكنه لم يُتم دراسته القانونية وتحول بعدها إلي الدراسات اللاهوتية، فدخل إلى دير الرهبان الأوغسطنين.

في عام ١٥٠٧م عُين قسيسًا لرعاية كنيسة كنتبرج بألمانيا.

في عام ١٥١٠م دفعته نزعته الدينيَّة وإخلاصه للكنيسة ورجالها إلى أن يحج إلي روما ليتبرك بالمقر الرسولي في روما، حيث منَّى نفسه برؤية القديسين والزهاد من الرهبان والكرادلة. ولكن ما إن حل في روما حتى هاله ما رأى من دعاوى: غفران الذنوب، وامتلاك سر التوبة، وحق منح صكوك الغفران، وتفشِّي مظاهر الفساد والانحلال الخلقي في الطبقات العليا من الكنيسة بوجه أخص.

ومن ثم عاد إلى ألمانيا خائبًا رجاؤه، ومستنكرًا ما رأى، وأصبح منشغلًا بوضع خطة لإصلاح الكنيسة.

في عام ١٥١٧م أرسل البابا ليو العاشر مندوبه الراهب حنا تتزل لبيع صكوك الغفران في ألمانيا، فما أن يعلن عنها ويبالغ في أمرها حتى ثار عليه لوثر، وكتب في معارضته وثيقَته الشهيرة التي تتضمن خمسة وتسعين مبدأ في معارضة الكنيسة وعلقها على باب كنيسة القلعة.

في الوقت الذي نشط في تأليف الكتب التي تعلن مبادئه، والتي أصبحت حديث الطبقة المتعلمة في ألمانيا مما زاد في التفاف الناس حوله، ولهذا كله أصدر البابا قرارًا بحرمانه في عام ١٥٢٠م.

عندما تلقي لوثر القرار بحرمانه، قام بتحريض من بعض الأمراء الألمان من أصحاب دعوى الانفصال عن الإمبراطورية بحرقِهِ في وسط الجموع الحاشدة في وتنبرج، التي أصبحت جامعتها المهد الأساسي للتعاليم اللوثرية في ألمانيا.

في عام ١٥٢٠م بعد ما أظهر مارتن لوثر تأييدًا للنزعة القومية في الدولة الألمانيَّة في تولي إدارة كنيستها، عقدت الكنيسة في روما مجمعًا قضى بمحاكمة لوثر أمام محكمة التفتيش لكنه هرب إلى قلعة وارتبورج، وفيها ترجم العهد الجديد إلى الألمانيَّة، ثم شرع في ترجمة الكتاب المقدس كله، لكنه لم يتمه وعاد إلى وتنبرج مرة أخرى.

في عام ١٥٢٩م أراد الإمبراطور تنفيذ قرارات الحرمان ضد مارتن لوثر، فأعلن حكام الولايات الإنجيلية في ألمانيا في مجلس سبير في ١٩ نسيان أنهم مستعدون لطاعة أوامر الإمبراطور والمجلس في كل القضايا الواجبة إلا التي تتعارض مع الكتاب المقدس أو التي لا يوجد لها نص فيه، وبالتالي رفضوا تسليم لوثر لمندوبي الإمبراطور.

عندما رأى لوثر صعوبة تحقيق دعوة الإصلاح الكَنَسِيّ كرَّس كل جهده لقضايا الإيمان في الكنائس الإنجيلية الناشئة.

توفي لوثر في بلدة وتنبرج عام ١٥٤٦م مخلِّفًا مجموعة من الكتب والمؤلفات التي تؤصِّل قواعد دعوته.

الروخ هولدريخ زوينجلي:

ولد سنة ١٤٨٤م في سويسرا ونشأ بها، وأصبح قسيسًا وأحد دعاة حركة الإنسانية التي بدأت مع عصر النهضة الأوربية.

دعا إلى نفس المبادئ التي دعا إليها مارتن لوثر، وبدأ دعوته في زيوريخ بسويسرا، وقد قاوم استعمال الطقوس والصور والتماثيل في الكنائس كما عارض فكرة عزوبة رجال الأكليروس، وحبذ المسئولية الفردية في المعتقد.

لاقت دعوة زوينجلي التأييد من السلطات الحكومية في مدينة زيوريخ، فشاعت لذلك دعوته وأصبح زعيمًا للبروتستانت في جنوب ألمانيا ومعظم سويسرا.

في عام ١٥٢٩م وفي مدينة ماربورج التقى زوينجلي بمارتن لوثر وتناقشا حول إصلاح الكنيسة واختلفا حول فرضية أو سر العشاء الرباني، كما اختلفا في أسلوب معارضة الكنيسة الكاثوليكيَّة، حيث استخدم زوينجلي القوة في سبيل نشر مبادئه ابتداءً من الحظر التجاري الذي فرضه على بعض المقاطعات الكاثوليكيَّة في شرقي سويسرا، حتى القتال والصدام مع رجال الكنيسة الذي قُتل فيه وهُزم أتباعه في كابيل عام ١٥٣١م.

ذابت تعاليم زوينجلي في تعاليم جون كالفن التي ارتكز في بعضها على عقيدته.

جون كالفن:

ولد سنة ١٥٠٩م في فرنسا ونشأ بها، وتثقف بثقافة قانونية لكنه مال عنها إلى الدراسة اللاهوتية، فتأثر بآراء مارتن لوثر دون أن يقابله بواسطة بعض أقاربه وبعض أساتذته.

شارك في إعداد خطاب ألقاه نيكولاس كوب مدير جامعة السربون بفرنسا التي كانت مركزًا لأكثر علماء الكاثوليكيَّة، والذي تضمن شرحًا لآراء مارتن لوثر؛ مما أغضب آباء الكنيسة عليه فاضطر إلى الهرب إلى جنيف في سويسرا.

بعد أن عاد في الحادي والعشرين من مايو ١٥٣٤م إلى مدينة نويون مسقط رأسه سلّم كهنةَ كاتدرائيتها كل شارات الامتياز الأكليريكية الخاصة به، ثم هرب بصحبة نيكولاس كوب إلى جنيف في سويسرا مرة أخرى.

في عام ١٥٣٥م شارك كلفن في حوار دعا إليه المبشرون المصلحون مع الأساقفة الكاثوليك في المدينة الذي انتهى بانسحاب الكاثوليك، مما مكن دي فاريل صديق كلفن الحميم من الاستيلاء على الكنائس الرئيسية الثلاثة في المدينة: كنيسة سان بيتر، المجدلية، سان جرفيز؛ وتحويلها إلى كنائس إنجيلية أو بروتستانتيَّة.

استغل كلفن استقراره في جنيف في تنظيم وتقنين مبادئ زعماء الإصلاح وعلى رأسهم مارتن لوثر، وظهرت له مؤلفات وكتابات عديدة في ذلك، ولذلك فإنه يعد أحد مؤسسي المذهب البروتستانتي.

خالف كالفن لوثر في سر -فرضية- العشاء الرباني من حيث كيفية حضور المسيح العشاء رغم اتفاقهما على عدم استحالة الخبز والخمر إلى جسد ودم المسيح.

عدل كلفن عن فكرة لوثر في إشراف الحكومة على الكنائس، لما رأى ما يحدث للبروتستانت في فرنسا، وطالب بأن تحكم الكنيسة نفسها بنفسها، وعلى الحاكم المدني أن يساعدها ويحميها، مما كان سببًا في انقسام الكنيسة الإنجيلية إلى لوثرية وكلفينية (الإصلاحية - الكلفينية).

تميزت حركته بالانتشار في فرنسا، فأصبحت الدين الرسمي في اسكتلندا كما امتدت إلى المقاطعات شرق سويسرا، واعتنقها معظم سكان المجر، يقول فيشر: «أصبحت أكثر أشكال الإصلاح البروتستاني اتساعًا».

تأسست جمهورية هولندا عام ١٦٦٩م على مبادئ البروتستانت الكليفنية بعد الحرب الدامية بين الكاثوليك والبروتستانت.

ومات جون كالفن سنة ١٥٦٤م.

ونتيجةً للحرية الفردية في فهم وتفسير الكتاب المقدس لكل فرد من المؤمنين بالمذهب

البروتستانتي انقسمت الحركة البروتستانتيَّة إلى كنائس عديدة، وطوائف مختلفة، ففي الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة وحدها حسب إحصائيات عام ١٩٨٢م يوجد ٧٦ ٧٥٤, ٠٠٩, بروتستانتي يتمون إلى ٢٠٠ طائفة إنجيلية.

ومن أهم الكنائس البروتستانتيَّة:

الكنيسة اللوثرية

- وقد بدأ إطلاق هذه التسمية على المؤمنين بأفكار معتقدات مارتن لوثر في القرن السادس عشر وذلك رغم مقاومة لوثر نفسه لهذه التسمية، وأصبحت جامعة وتنبرج المهد الأساسي لها.

- اهتم مارتن لوثر بقضايا الإيمان، وترك الأمر الإداري للكنيسة لغيره يقوم به، لكنه عيَّن بعض المراقبين ليتعاونوا مع حكام الدولة في الأقضية، وبذلك كان أول ظهور لنظام السينودس.

- ارتبطت اللوثرية في ألمانيا ارتباطًا وثيقًا بالحالة السياسية منذ أن دعا لوثر إلى إشراف الدولة على الكنيسة، ولذلك فإن الحكومة الألمانيَّة تدخلت أكثر من مرة لحل الخلافات بين أعضاء الكنيسة أو للاتفاق مع كنائس المصلحة.

- كان لظهور الكنائس المعمدانية في القرن السابع عشر أثرها في إثارة الخلافات بين البروتستانت مرة أخرى.

- في زمن فريدريك وليم الثالث ملك بروسيا تم الاتحاد بين الكنائس اللوثرية والمصلحة، ومنها تشكلت الكنيسة القديمة، غير أن جماعة كبيرة من اللوثرية لم تنضم إلى هذه الكنيسة وعرفوا باللوثريين القدماء.

- في عام ١٩٢٣م تأثرت الكنيسة بالنظام النازي في ألمانيا حيث حاول صبغ الكنيسة الألمانيَّة بصبغة قومية، فجرى توحيد ٢٨ كنيسة مصلحة ولوثرية على أساس أن الدم الآري أحد المؤهلات العضوية لهذه الكنيسة القومية العنصرية.

وقد تناول هذا التأثير العقائد والمبادئ أيضًا، مما مهَّد لقيام ثورة من آلاف القسوس البروتستانت من بينهم مارتن تيمولر للمطالبة بتشكيل السينودس الذهبي.

- في عام ١٩٣٤م عارض السينودس الذهبي تدخل الدولة في شئون الكنيسة بل رفض ذلك رفضًا حاسمًا.

- في عام ١٩٣٥م أنشأت الحكومة وظيفة وزير الدولة للشئون الكنسية، وخوَّلت له سلطات مطلقة على الكنيسة الإنجيلية الألمانيَّة.

- انتشرت في عام ١٩٣٦م حركة الإيمان الألماني التي تحالفت مع الفلسفة الوثنية الجديدة.

- بعد الحرب العالمية الثانية ألغت الكنيسة الإنجيلية دستورها المُوصَى به من النازية لعام ١٩٣٣م، وبدأت تنظيم نفسها من جديد.

- والكنيسة اللوثرية هي كنيسة الدولة في الدنمارك وأيسلندا والنرويج والسويد وفنلندا.

- يصدر الاتحاد اللوثري العالمي مجلة اللوثرية العالمية بالألمانيَّة والإنجليزية.

الكنائس المصلحة

وإن كان يُقصد بها بوجه عام جميع الكنائس البروتستانتيَّة؛ إلا أنه من الناحية التاريخية تقتصر على الكنائس البروتستانتيَّة التي يرتكز أصلها على عقائد كلفن، وعلى أساس النظام الكنسي المشيخي الذي تركَّز فيه السلطات على سلسلة مجالس من الشيوخ العلمانيين ورجال الأكليروس، وتنزع إلى الشكل البسيط في العبادة.

وقد قويت هذه الكنائس في إنجلترا في القرن السادس عشر وخصوصًا في اسكتلندا وشمال أيرلندا، وسميت كنائس سويسرا وهولندا وعدد من كنائس ألمانيا بالمصلحة، كما توجد بالولايات المتَّحدة الأمريكيَّة كنائس تحمل لقب المصلحة.

الكنائس الأسقفية

تطلق الكنيسة الأسقفية عند الإطلاق على الكنيسة الإنجليزية ويتبعها في أمريكا عدد من الكنائس الأسقفية، وتتبع هذه الكنائس النظام الأسقفي على أنه نظام إلهي خلافًا لسائر الفرق البروتستانتيَّة، وذلك في تعيين أو اختيار أو عزل القساوسة، والشمامسة، أو تدشين الأراضي والأبنية الدينيَّة، وإدارة تركات الموتى لحين وجود وصي شرعي للميت.

ويلقب أساقفة إنجلترا بلقب لورد حيث يُعتَبرون من أشراف المملكة، ويرأس ملوك إنجلترا الكنيسة الإنجليزية، وبذلك يعينون الأساقفة الذين يتم انتخابهم من القسوس بعد ذلك، ورئيس أساقفة كانتربري هو رأس الكنيسة، ويليه في المرتبة رئيس أساقفة يورك، أما أساقفة الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة فينتخبهم نواب من قسوس الأسقفية وأهاليها قبل عرضهم على مجمع الأساقفة أو على مجمع نواب مؤلف من السينودس والأهالي.

الصهيونيَّة المسيحيَّة

كان لليهود المهاجرين من أسبانيا إلى أوربا وبخاصة فرنسا وهولندا أثرهم البالغ في تسرب الأفكار اليهوديَّة إلى النصرانيَّة من خلال حركة الإصلاح، وبخاصة الاعتقاد بأن اليهود شعب الله المختار، وأنهم الأمة المفضلة، كذلك أحقيتهم في ميراث الأرض المباركة.

- في عام ١٥٢٣م أصدر مارتن لوثر كتاب عيسى وُلِد يهوديًا متأثرًا فيه بالأفكار الصهيونيَّة.

- وفي عام ١٥٤٤م أصدر لوثر كتابًا آخر فيما يتعلق باليهود وأكاذيبهم.

- كانت هزيمة القوات الكاثوليكيَّة وقيام جمهورية هولندا على أساس المبادئ البروتستانتيَّة الكالفينية عام ١٦٠٩م بمثابة انطلاقة للحركة الصهيونيَّة المسيحيَّة في أوربا، مما ساعد على ظهور جمعيَّات وكنائس وأحزاب سياسية عملت جميعًا على تمكين اليهود من إقامة وطن قومي لهم في فلسطين.

ومن أبرز هذه الحركات: الحركة البيوريتانية التطهيرية التي تأسست على المبادئ الكالفينية بزعامة السياسي البريطاني أوليفر كروميل ١٦٤٩-١٦٥٩م الذي دعا حكومته إلى حمل شرف إعادة إسرائيل إلى أرض أجدادهم حسب زعمه.

- في عام ١٨٠٧م أنشئت في إنجلترا جمعيَّة لندن لتعزيز اليهوديَّة بين النصارى وقد أطلق أنطوني إشلي كوبر اللورد ريرل شانتسبري ١٨٠١-١٨٨٥م، أحد كبار زعمائها شعار: «وطن بلا شعب لشعب بلا وطن» الأمر الذي أدى إلى أن يكون أول نائب لقنصل بريطانيا في القدس وليم برنج أحد أتباعها، ويعتبر اللورد بالمرستون وزير خارجية بريطانيا ١٧٨٤-١٨٦٥م من أكبر المتعاطفين مع أفكار تلك المدرسة الصهيونيَّة المسيحيَّة وأيضًا فإن تشارلز. هـ. تشرشل الجد الأعلى لونستون تشرشل - رئيس الحكومة البريطانية الأسبق - أحدُ كبار أنصارها.

- انتقلت الصهيونيَّة المسيحيَّة إلى أمريكا من خلال الهجرات المبكرة لأنصارها نتيجة للاضطهاد الكاثوليكي، وقد استطاعت تأسيس عدة كنائس هناك من أشهرها الكنيسة المورمونية.

- يعتبر سايسروس سكلوفليد ١٨٤٣م الأب اللاهوتي للصهيونية المسيحيَّة في أمريكا.

- لعبت تلك الكنائس دورًا هامًّا في تمكين اليهود من احتلال فلسطين واستمرار دعم الحكومات الأمريكيَّة لهم -إلا ما ندر- من خلال العديد من اللجان والمنظمات والأحزاب التي أنشئت من أجل ذلك ومن أبرزها: الفيدرالية الأمريكيَّة المؤيدة لفلسطين التي أسسها القس تشارلز راسل عام ١٩٣٠م، واللجنة الفلسطينيَّة الأمريكيَّة التي أسسها في عام ١٩٣٢م السناتور روبرت واضر، وضمَّت ٦٨ عضوًا من مجلس الشيوخ، و٢٠٠ عضوًا من مجلس النواب وعدد من رجال الدين الإنجيليين، ورفعت هذه المنظمات شعارات: الأرض الموعودة، والشعب المختار.

- وفي العصر الحديث تعد الطائفة التدبيرية التي يبلغ عدد أتباعها ٤٠ مليون نسمة تقريبًا والمعروفة باسم الأنجلو ساكسون، البروتستانت البيض من أكثر الطوائف مغالاة في تأييد الصهيونيَّة، وفي التأثير على السياسة الأمريكيَّة في العصر الحاضر.

ومن أشهر رجالها اللاهوتيين: بيل جراهام، وجيري فولويل، جيمي سويجارت. ومن أبرز رجالها السياسيين الرئيس الأمريكي السابق رونالد ريجان.

- اهتمت الكنيسة البروتستانتيَّة بنشر الإنجيل في أوربا وأمريكا منذ القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ثم تطور عملها في شكل منظمات وإرساليات، ووضعت اللوائح والقوانين المنظمة لها وكذلك الميزانيات اللازمة.

ومن ثم انتقل العمل التبشيري البروتستانتي إلى القارتين الأفريقية والآسيوية، وبخاصة التي كانت تستعمرها الدول الغربية ذات العقيدة البروتستانتيَّة.

ومن أوائل الذين قادوا حركة التبشير: جوف وسلي، ووليام ولبرفورس، ووليام كيري، أبو المبشرين في العصر الحديث.

معتقدات وأفكار الكنيسة البروتستانتيَّة

تؤمن الكنائس البروتستانتيَّة بنفس أصول المعتقدات التي تؤمن بها الكنيسة الكاثوليكيَّة، ولكنها تخالفها في بعض الأمور، ومنها ما يلي:

١- الخضوع لنصوص الكتاب المقدس وحده، حيث إن الكتاب المقدس بعهديه هو دستور الإيمان وعليه تقاس قرارات المجامع السابقة وأوامر الكنيسة؛ فيقبل ما يوافقه فقط، يقول لوثر: «يجب أن يكون الكتاب المقدس مرجعنا الأخير للعقيدة أو أداء الشعائر».

وعدد أسفار العهد القديم عند البروتسانت ستة وستون سفرًا وهي الأسفار القانونية، أما باقي الأسفار وعددها أربعة عشر، فتسميها الأبوكريفيا أي غير الصحيحة فلا تعترف بها.

٢- لا تؤمن الكنائس البروتستانتيَّة بعصمة البابا أو رجال الدين، وتهاجم بيع صكوك الغفران حيث ترى أن الخلاص والفوز في الآخرة لا يكون إلا برحمة الله وكرمه وفي الدنيا في الالتزام بالفرائض والكرازة - التبشير بالإنجيل.

٣- إن القديسين لقب يمكن أن يوصف به كل إنسان نصراني؛ حيث إن القداسة في فهمهم ليست في ذات الشخص ولكنها مقام يصل إليه.

٤- ترفض البروتستانتيَّة مرتبة الكهنوت حيث إن جميع المؤمنين بها كهنة، وليس هناك وسيط ولا شفيع بين الله والإنسان سوى شخص المسيح؛ لأنه جاء في معتقدهم رئيسًا للكهنة، كما لا تؤمن بالبخور والهيكل.

٥- تؤمن بسرين فقط من أسرار -فروض- الكنيسة وهما سرّا: المعمودية، والعشاء الرباني، على خلاف بينهم في كيفية حضور المسيح سر العشاء.

٦- لا تؤمن بالصوم كفريضة بل هو سنة حسنة، ولا يطلق إلا على الإمساك عن الطعام مطلقًا فقط.

٧- الصلاة ليس لها مقدار محدد، كما أنه ليس من الحتم الالتزام بحرفية الصلاة الربانية؛ ولذلك يجيزون الصلاة بلغة غير مفهومة كاللاتينيَّة التي تستعملها الكنائس الكاثوليكيَّة.

٨- لا تؤمن بالأعياد التي تقيمها الكنائس الأخرى.

٩- لا تؤمن الكنيسة البروتستانتيَّة بنظام الرهبنة.

١٠- الكهنوت درجتان فقط هما: القسوسية، الشمامسة، الراعي هو الأسقف، والرئاسة تكون بمجمع السنودس لا لفرد.

١١- منع البروتستانت اتخاذ الصور والتماثيل في الكنائس والسجود لها، معتقدين أن ذلك منهي عنه في التوراة.

١٢- تؤمن بعض الكنائس الإنجيلية -الصهيونيَّة- أن شرط المجيء الثاني للمسيح هو إقامة دولة

إسرائيل في فلسطين.

الأعداد وأماكن التواجد

تنتشر الكنائس البروتستانتيَّة في: ألمانيا، هولندا، بريطانيا، الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة، سويسرا، الدنمارك، وتوجد أقليات بروتستانتيَّة في باقي الدول الأخرى.

يتضح مما سبق:

- لا تختلف الكنائس البروتستانتيَّة عن باقي الكنائس النصرانيَّة سواء في الإيمان بإله واحد مثلث الأقانيم الأب، الابن، الروح القدس، تثليث في وحدة، أو وحدة في تثليث، حسب افترائهم.

- أو في الإيمان في عقيدة الصلب والفداء وتقديس الصليب.

- كانت لحركات الإصلاح البروتستانتيَّة الأثر الكبير في كشف عورات الكنيسة الكاثوليكيَّة، وفي فضح سلوك القائمين عليها.

كما أنها أفسحت المجال أمام العلماء والمفكرين وعامة المؤمنين بالكنيسة في حق فهم الكتاب المقدس، وبالتالي كسرت احتكار رجال الدين لهذا الأمر، مع ما نشأ عن ذلك من آثار سلبية عديدة على النصرانيَّة بوجه عام وعلى الكتاب المقدس بوجه خاص، حيث تعرض للنقد الشديد والتشكيك في صحة نصوصه.

- مع أن البروتستانت قرروا حرية البحث والنظر في الأمور الاعتقادية، إلا أنهم حرَّموها فيما بعد كالكاثوليك، بل أصبحت حرية الفكر عندهم مقتصرة فقط على نقد رجال الكنيسة الكاثوليكيَّة؛ فقد عذبوا رجالًا من أجل عقائدهم مثل سرفيتوس الأسباني، ومنعوا كتبًا من النشر؛ لأنها تحوي في نظرهم ما لا يتفق وتعاليم الكتاب المقدس.

يقول هربرت فيشر في أصول التاريخ الأوربي الحديث عن لوثر: «لم يكن يؤمن بالبحث الحر ولا بالتسامح».

وينقل غوستاف لوبون في كتابه روح الثورات والثورة الفرنسيَّة تصريحًا للوثر بأنه لا يجوز للنصارى أن يتبعوا غير ما جاء في الكتاب المقدس.

وعن موقف حركة الإصلاح الديني من العلم، يقول أ. وولف في كتابه عرض تاريخي للفلسفة والعلم: «أما من حيث حركة الإصلاح الديني فإن المصلحين كانوا لا يقلُّون تعصبًا عن رجال الكنيسة الكاثوليكيَّة إن لم يزيدوا عليها». ولذلك فإنهم هاجموا النظريات العلميَّة واضطهدوا من يقول بها، ويقول كلفن بعد أن أعلن كفر من يقول بدوران الأرض: «مَن مِن الناس يجرؤ على أن يضع سلطة كوبرنيكوس فوق سلطة الروح القدس؟».

لم يكن اضطهاد العلماء في تلك الفترة بأقل من اضطهاد الفلاسفة؛ فكما حاربت البروتسانتية النظريات العلميَّة المخالفة لنصوص الكتاب المقدس، كذلك حاربت العقل واضطهدت الفلاسفة

أمثال آرازموس الذي حاول التوفيق بين العقل والكتاب المقدس.

يذكر ديورانت في قصة الحضارة تصريحات للوثر تبين تطرفه في إنكار العقل حيث يقول: «أنت لا تستطيع أن تقبل كلًّا من الإنجيل والعقل، فأحدهما يجب أن يفسح الطريق للآخر»، ويقول: «إن العقل أكبر عدو للدين».

- نتيجة للحروب بين الكنيستين البروتستانتيَّة والكاثوليكيَّة، واضطهاد العلماء وقتلهم، وقتل الروح العلميَّة والفكريَّة، وتطرُّف زعماء حركة الإصلاح البروتستانتي في ذم العقل، أدى ذل كله إلى ظهور الأفكار المناوئة للدين، وتعالت الصيحات الإلحادية التي تطالب بحرية الفكر وسيادة العقل، واعتباره المصدر الوحيد للمعرفة، وأيضًا المناداة بفصل الدين عن الدولة.

- استطاع اليهود تهويد بعض الكنائس البروتستانتيَّة، وتسريب الأفكار الصهيونيَّة، وإنشاء أحزاب وكنائس تتبناها وتدعو إليها من خلال ما يعرف بالصهيونيَّة المسيحيَّة.

وللحقِّ فإن هناك من داخل الكنيسة الإنجيلية في أمريكا مَنْ وقف لهم بالمرصاد مثل: المجلس الوطني للكنائس المسيحي، الذي يضم ٣٤ طائفة يبلغ عدد أتباعها نحو الأربعين مليون شخص.

وتتعاطف الكنائس الإنجيلية: المشيخية، المنهجية، المعمدانية، الأسقفية، بنسب متفاوتة مع هذا الاتجاه[١].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦١٥- ٦٢٥).

الفصل الرابع

المارونيَّة

التعريف:

المارونيَّة: طائفة من طوائف النصارى الكاثوليك الشرقيين، قالوا بأن للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة، ينتسبون إلى القديس مارون ويعرفون باسم الموارنة متخذين من لبنان مركزًا لهم.

التاريخ والأحداث

تنتسب هذه الطائفة إلى القديس مارون الذي انعزل في الجبال والوديان مما جذب الناس إليه مشكِّلين طائفة عرفت باسمه، وكانت حياته في أواخر القرن الرابع الميلادي فيما كان موته حوالي سنة ٤١٠م بين أنطاكية وقورس.

- وقع خلاف شديد بين أتباع مارون وبين كنيسة الروم الأرثوذكس مما اضطرهم إلى الرحيل عن أنطاكية إلى قلعة المضيق قرب أفاميا على نهر العاصي مشيدين هناك ديرًا يحمل اسم القديس مارون.

- وقع كذلك خلاف آخر في المكان الجديد بينهم وبين اليعاقبة الأرثوذكس من أصحاب الطبيعة الواحدة عام ٥١٧م مما أسفر عن تهديم ديرهم فضلًا عن مقتل ٣٥٠ راهبًا من رهبانهم.

- خلال فترة الرحيل نالهم عطف الإمبراطور مرقيانوس الذي وسّع لهم الدير عام ٤٥٢م. وعطف الإمبراطور يوستنيان الكبير ٥٢٧-٥٦٥م الذي أعاد بناء ديرهم بعد تهديم اليعاقبة له. وكذلك عطف الإمبراطور هرقل الذي زارهم سنة ٦٢٨م بعد انتصاره على الفرس.

- احتكم الموارنة واليعاقبة عام ٦٥٩م إلى معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه- لإنهاء الخلاف بينهم، لكن الخصومة استمرت، إذ حدثت حروب انتقامية بين الطرفين مما أسفر عن هجرة الموارنة إلى شمالي لبنان وهو المكان الذي أصبح موطنًا لهم فيما بعد.

المارونيَّة الحديثة

ظهر في موطنهم الجديد بلبنان القديس يوحنا مارون الذي يعتبر صاحب المارونيَّة الحديثة ومقنن نظريتها ومعتقدها، وتتلخص سيرة حياته فيما يلي:

- ولد في سروم قرب أنطاكية، وتلقى دراسته في القسطنطينيَّة.
- عين أسقفًا على البترون على الساحل الشمالي من لبنان.

- أظهر معتقد الموارنة سنة ٦٦٧م الذي يقول بأن في المسيح طبيعتين ولكن له مشيئة واحدة لالتقاء الطبيعتين في أقنوم واحد.

– لم تقبل الكنائس النصرانيَّة هذا الرأي، فدعوا إلى مجمع القسطنطينيَّة الثالث الذي عقد سنة ٦٨٠م وقد حضره ٢٨٦ أسقفًا وقرروا فيه رفض هذه العقيدة وحرمان أصحابها ولعنهم وطردهم وتكفير كل من يذهب مذهبهم.

– يعد يوحنا مارون أول بطريرك لطائفة الموارنة وبه يبدأ عهد البطاركة المارونيين.

– تصدى بجيش من الموارنة لجيش قاده يوستنيان الثاني الذي أراد هدم معابدهم واستئصالهم إلا أن الموارنة هزموه في أميون مما أظهر أمرهم كأمة جبلية ذات شخصية مستقلة.

– لقد تحايلت كنيسة روما بعد ذلك عليهم في سبيل تقريبهم منها حيث قام البطريرك الماروني أرميا العمشيتي بزيارة لروما حوالي سنة ١١١٣م وعند عودته أدخل بعض التعديلات في خدمة القداس وطقوس العبادة وسيامة الكهنة.

– ولقد زاد التقارب بينهما حتى بلغ في عام ١١٨٢م إعلان طاعتهم للكنيسة البابوية، أما في عام ١٧٣٦م فقد بلغ التقارب حد الاتحاد الكامل معها فأصبحت الكنيسة المارونيَّة بذلك من الكنائس الأثيرة لدى باباوات روما.

المارونيون والصليبيون

لقد كان لهم دور بارز في خدمة الصليبيين من خلال تقديمهم أدلاء لإرشاد الحملة الصليبية الأولى إلى الطرق والمعابر، وكذلك إرسالهم فرقة من النشابة المتطوعة إلى مملكة بيت المقدس.

– لقد بلغ رجالهم القادرون على القتال ٤٠ ٠٠٠, على ما ذكر مؤرخو الحروب الصليبية.

– احتل الموارنة في الممالك التي شيدها الصليبيون المرتبة الأولى بين الطوائف النصرانيَّة متمتعين بالحقوق والامتيازات التي يتمتع بها الفرنجة كحق ملكية الأرض في مملكة بيت المقدس.

– لويس التاسع كان أول صديق فرنسي لهم، إذ تقدم إليه عندما نزل إلى البر في عكا وفدٌ مؤلف من خمسة عشر ألف ماروني ومعهم المؤن والهدايا، وقد سلمهم بهذه المناسبة رسالة مؤرخة في ٢١/ ٥/ ١٢٥٠م فيها تصريح بأن فرنسا تتعهد بحمايتهم فقد جاء فيها: «ونحن مقتنعون بأن هذه الأمة التي تعرف باسم القديس مارون هي جزء من الأمة الفرنسيَّة».

– استمر هذا التعاطف من الغرب مع الموارنة في الأجيال التالية وذلك عندما أرسل نابليون الثالث فرقة فرنسية لتهدئة الجبل عام ١٨٦٠م وكذلك بعد الحرب العالمية الأولى عندما صار لبنان تحت الانتداب الفرنسي.

أبرز شخصيات الموارنة

١– تيوفيل (تيوفيلوس) بن توما من شمال سوريا، ماروني، كان يعمل منجِّمًا في قصر الخليفة العباسي المهدي ٧٧٥–٧٨٥م كما قام بترجمة إلياذة هوميروس.

٢– المؤرخ اسطفانوس الدويهي المشهور، ماروني، توفي سنة ١٧٠٤م.

٣- البطريرك جرجس عميرة، ماروني، ألّف أول غراماطيق سرياني واضعًا قواعده باللاتينيَّة تسهيلًا على المستشرقين دراسة هذه اللغة.

٤- من مشاهيرهم: يوسف حبيش، وبولس مسعد، ويوحنا الحاج، والبطريرك إلياس الحويك.

٥- ومن الأساقفة: المطران جرمانوس فرحان، ويوسف سمعان السمعاني، ويوحنا حبيب، ويوسف الدبس.

٦- ومن بيوتاتهم المعروفة: آل خازن، ودحداح، وحبيش، والسعد، وكرام، والظاهر، والبستاني، والشدياق، والنقاش، والباز...

٧- ومن زعاماتهم المعاصرة: آل جميّل، وشمعون، وفرنجية، وإده...

معتقدات وأفكار المارونيَّة

١- أهم نقطة تميزهم عن بقية الطوائف النصرانيَّة هو معتقدهم بأن للمسيح طبيعتين، وله مشيئة واحدة؛ وذلك لالتقاء الطبيعتين في أقنوم واحد.

وعقيدة المشيئة الواحدة قال بها بطريرك الإمبراطور هرقل أيضًا ٦٣٨م ليوفق بين عقيدة أصحاب الطبيعة الواحدة الذين يشكلون الأكثرية من رعاياه النصارى في سوريا وبين أصحاب العقيدة الأرثوذكسيَّة للكنيسة البيزنطيَّة، إلا أن هذه المحاولة لم تفلح في سد الثغرة بينهما.

٢- يعتقدون أن خدمة القداس عندهم مأخوذة عن تلك الخدمة التي ينسبونها إلى القديس يعقوب، كما يعتقدون أن هذه الخدمة إنما هي أقدم خدمة في الكنيسة المسيحيَّة؛ إذ إن أصولها ترجع إلى العشاء الرباني الأخير.

٣- لا تزال الكنيسة المارونيَّة تحتفظ باللغة السريانيَّة في القداس إلى يومنا هذا، ولا يزال الطابع السرياني ساريًا حتى في الكنائس التي تعترف بسلطة البابا.

٤- منذ أوائل القرن الثالث عشر تم إدخال بعض التعديلات على الطقس الماروني القديم وذلك في عهد البابا إنوسنت الثالث ليكون أكثر تلاؤمًا مع الطقس اللاتيني ومن ذلك:

- تغطيس المعمود ثلاث مرات في الماء.

- طلبة واحدة للثالوث.

- تكريس الأحداث على أيدي المطارنة فقط.

- لقد صار الكهنة يتبعون الزي اللاتيني في لبس الخواتم والقلنسوة التي تشبه التاج والعكاز.

- استعمال الأجراس بدلًا من النواقيس الخشبية التي تستعملها سائر الكنائس الشرقيَّة في الدعوة إلى القداس متبعة بذلك التقليد اللاتيني.

الأعداد وأماكن التواجد

- البداية في أنطاكية، ومن بعدها رحلوا إلى قلعة المضيق، وأخيرًا صاروا إلى جبال لبنان موطنهم الحالي منذ النصف الثاني من القرن السابع الميلادي.

- منذ القرن الخامس عشر الميلادي أصبح دير قنُّوبين شماليلبنان فوق طرابلس المبني في صخر من صخور وادي قاديشا (أي المقدس) مقرًّا للبطريركية المارونيَّة، كما أصبحت بكركي المبنية فوق جونية المقر الشتوي حتى يومنا هذا، إذ لا يزال سيد بكركي يلقب ببطريرك أنطاكية وسائر الشرق؛ ذلك لأنه مستقل عن سائر البطاركة الشرقيين، كما تخضع لإدارته مطارنة وأبرشيات وجمعيَّات رهبانية مختلفة.

- عندما استرد صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس غادر الملك غوي دي ليزنيان إلى قبرص فتبعه جمهور كبير من الموارنة، لوقوفهم إلى جانب الصليبيين إبان الاحتلال، مستوطنين هناك الجبل الذي يقع شمالي نيقوسيا.

- لقد فرَّ كثير من الموارنة من لبنان بسبب الحروب والهجرة فوصلوا إلى تكريت وغيرها من المدن بين دجلة والفرات منذ القرن الثاني والثالث عشر، كما ذهب بعضهم تجاه سوريا الداخلية مستوطنين دمشق وحلب، وفريق ذهب إلى القدس وهبط بعضهم الآخر إلى مصر ورودس ومالطة، وهاجر آخرون إلى أمريكا وأفريقيا وإندونيسيا.

ولا يزال أغلبهم يعيشون في لبنان وهم يتخذون منها مركزًا لهم، ولهم أكبر الأثر في توجيه السياسة اللبنانية المعاصرة.

فمنذ عام ١٩٤٣م حتى اليوم استقر الأمر بأن يكون رئيس الجمهورية اللبنانية من الطائفة المارونيَّة وذلك بموجب الميثاق الوطني الذي تم فيه الاتفاق شفويًّا بين المسلمين والنصارى حول توزيع المناصب الرئيسية للدولة اللبنانية على مختلف الطوائف الدينيَّة فيها. ومن تنظيماتهم السياسية الحزبية العسكرية حاليًا: حزب الكتائب وحزب الأحرار[١].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٢٦- ٦٣١).

الفصل الخامس

الجزويت

التعريف:

الجزويت: فرقة كاثوليكيَّة يسوعية تنتشر في أوربا بصفة عامة، وفي البرتغال وأسبانيا وفرنسا بصفة خاصة.

وهي جمعيَّة دينية متعصبة تهدف حاليًا إلى القضاء على الدين الإسلامي.

التاريخ

أنشأها قسيس فرنسي يدعى أنياس لايولا في القرون الوسطى، وقد ساهمت في القضاء على المسلمين في الأندلس من خلال محاكم التفتيش، ويقوم عليها الآن مجموعة كبيرة من القسس والرهبان.

معتقدات وأفكار الجزويت

١- يلتزم الرهبان الذين ينتمون إليها بالمحافظة على أسرارها وعدم إفشائها ولو لأعضائها.

٢- يلتزم أعضاؤها كذلك بالمحافظة على سرية تعليماتها والحيلولة دون وصولها إلى أيدي الأجانب بشكل عام والأعداء بشكل خاص.

٣- تتستر هذه الجمعيَّة خلف أعمال البر كإنشاء المدارس والمستشفيات في شتى بقاع العالم، وتظهر العطف على المرضى، وتلزم أعضاءها باصطناع التواضع لاستقطاب الناس إليها وإلى الدين النصراني.

- تقبل التبرعات وتتفنن في أساليب جمع الأموال، ولكي تنفي عن نفسها مظنة الاكتناز، فإنها تتبرع ببعض الأموال في نفس المكان للإيهام بأن هدفها هو خدمة الفقراء.

- يلتزم أعضاء الجمعيَّة بالمحافظة على هيبتها، فلا يختلفون أمام الغير، بل يظهرون تماسكهم ورغبتهم في خدمة الآخرين.

- عندما يذهب أعضاء الجمعيَّة إلى إحدى المدن لأول مرة، فإنهم يجتنبون المبادرة إلى شراء الأرض، مدة معينة، حتى إذا ما ثبت أن شراء الأرض يعتبر ضروريًا، قاموا بالشراء، وغالبًا ما يتم شراء الأرض باسم مستعار حتى لا تهتز ثقة الناس في الجمعيَّة.

- تعد واردات الجمعيَّة سرًا مقدسًا، فلا يطلع عليها إلا رئيس الرهبان، وتعد خزانة الجمعيَّة في روما، بكافة محتوياتها، سرًا مقدسًا كذلك، فلا يجوز إفشاؤه.

٤- يتجنب أعضاءِ الجمعيَّة التكلف في اللباس ولا يقبلون الهدايا لأنفسهم، بل يحيلونها إلى دير

الجمعيَّة القريب من مكان وجودهم حتى يدخلوا في روع الناس أنهم مخلصون فيزداد العطف على الجمعيَّة.

٥- يحاول أعضاء الجمعيَّة بكافة الطرق الحيلولة دون إنشاء أو تأسيس أية مدارس بالقرب من مدارس الجمعيَّة، التي تهتم بالرياضة البدنية، وتتفانى في القيام بالعملية التربوية خير قيام، مع معاملة الدارسين معاملة حسنة، حتى يثقوا في هيئة التدريس وما تبثه من أفكار تبشيريَّة.

٦- تعمل الجمعيَّة بكافة الطرق الممكنة على كسب ود النساء الأرامل، وإذا كان لإحداهن راهب من غير الجمعيَّة فإنه يتم إبعاده ويستبدل به راهب من الجمعيَّة لإدارة أعمالها بالتدريج.

ولكي تتم السيطرة التامة على الأرامل: فإن الجمعيَّة ترغبهن في التصدق على الفقراء باسم المسيح ومريم، ويستمر هذا الوضع حتى تنفد جميع أموالهن، وفي سبيل ذلك فإن هذه الجمعيَّة لا تستنكف عن مساعدة هؤلاء الأرامل في إشباع رغباتهن وقضاء وطرهن عند الاقتضاء.

وإذا كان للأرامل بنات فإنه يتم إقناعهن بالرهبنة أو التربية النصرانيَّة، أما البنون فإنه يتم حثهم على أن يغشوا الأديرة والكنائس، مع إغراقهم في الملذات، والتلميح لهم بأنه لا إثم في العلاقات الجنسية الحرة، كما تيسر لهم سبل الانخراط في معسكرات صيفية يتم فيها إقناعهم بأهمية التربية النصرانيَّة.

٧- يكرر أعضاء الجمعيَّة زياراتهم للمرضى الميئوس من حالتهم، ويتم تخويفهم من النار وحثهم على التصدق بكل أموالهم للجمعيَّة.

٨- كل من يخرج على المبادئ الهدامة لهذه الجمعيَّة، يطرد ويتم اجتنابه ويحرم من كافة الامتيازات التي يتمتع بها الأعضاء، ويتم الطرد بوجه خاص، عند تشويه سمعة الجمعيَّة أو إفشاء أسرارها، أو الإضرار بأعضائها، أو الكسل وعدم القيام بالمهام المنوطة به.

٩- تحاول الجمعيَّة الحصول على الأسرار السياسية والأخبار الموثوقة والخطيرة، وإخبار الحكام بها للفوز بمكانة مرموقة لديهم، تساعدهم على اجتذاب أصحاب الثروات والنفوذ والأسر الكبيرة للجمعيَّة.

١٠- تحافظ الجمعيَّة على هيبتها في نفوس الآخرين، من خلال إفهامهم أنها تأسست على يد الراهب شوواكيم بإلهام إلهي، للحد من انحراف الكنيسة وإعادتها إلى وضعها الطبيعي ونشر دين عيسى في جميع أنحاء العالم، وبذا تبرر مسلكها القديم الذي كانت تبيع فيه صكوك الغفران، وترسم معالم طريقها الجديد الذي تقضي فيه على الإسلام والمسلمين.

الجزويت والأديان الأخرى

الهدف الأساسي لهذه الجمعيَّة الآن هو القضاء على أتباع الديانات الأخرى، لا سيما الدين الإسلامي، لذلك فإن أعضاءها لا يستنكفون عن استخدام كافة أساليب الاستمالة ووسائل جذب الناس من أجل تنصيرهم.

وبعد طرد هذه الجمعيَّة من كثير من الدول الأوربية، بدأت تستقطب عطف الساسة والمسئولين من خلال إظهار العداء للدين الإسلامي والتغلغل في الدول الإسلاميَّة لبث الأفكار الهدامة بين المسلمين من خلال المدارس وتحت غطاء دور الخير والبر.

ولتحقيق هذا الهدف أيضًا، فإن هذه الجمعيَّة تعمل على كسب ثقة رجال الدولة، وإرضائهم، والإشادة بهم، وغض الطرف عن ممارساتهم غير السوية وأعمالهم غير المستقيمة، وإفهامهم عند الاقتضاء أن الرب قد غفر لهم.

كما تعمل هذه الجمعيَّة على كسب ثقة حكام البلدان التي يمارسون التبشير فيها، فيرسلون إليهم مندوبين على درجة عالية من الذكاء والدهاء والثقافة، ويحرص هؤلاء المندوبون على إيهام أولئك الحكام، أنهم موفدون من قبل بابا روما، وأنهم يحملون إليهم تحياته.

وتبشير هذه الجمعيَّة يعتمد على هدم القيم الدينيَّة، ونشر الرذائل والقول بطبيعية العلاقات الجنسية الحرة، وإشاعة الأفكار الهدامة بين المسلمين، ومن ثم جعلهم لبنة هشة تقبل التشكيل الذي يلائم أهداف هذه الفرقة.

أماكن تواجدهم

تتخذ هذه الفرقة من أوربا ككل مركز انطلاق لها، وهي تتركز في البرتغال وأسبانيا إذ الرغبة في القضاء على كل أثر للإسلام هناك وفي فرنسا حيث نشأت مقولة الحرية المطلقة في مجال العقيدة، وإيطاليا حيث بابا الفاتيكان، ومن هذه المرتكزات تمد هذه الفرقة أذرعتها صوب التجمعات الإسلاميَّة في دول حوض البحر الأبيض المتوسط وجنوب شرق آسيا وبخاصة في إندونيسيا[١].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٣٢- ٦٣٥).

الفصل السادس

المورمون

التعريف:

المورمون: طائفة نصرانية جديدة نسبيًا منشقة عن النصرانيّة الأم، تلبس لباس الدعوة إلى دين المسيح عليه السلام، وتدعو إلى تطهير هذا الدين بالعودة به إلى الأصل أي إلى كتاب اليهود، ذلك أن المسيح -في نظرهم- قد جاء لينقذ اليهود من الاضطهاد وليمكنهم من الأرض.

إنها -كما تسمي نفسها- طائفة القديسين المعاصرين لكنيسة يسوع المسيح لقديسي الأيام الأخيرة، وكتابها المقدس هو الكتاب المقدس الحديث.

التاريخ والأحداث

نبيها المؤسس هو يوسف سميث، ولد يوسف سميث في ١٨٠٥/١٢/٢٣م بمدينة شارون بمقاطعة وندسور التابعة لولاية فرمونت. وعندما بلغ العاشرة من عمره رحل مع والده إلى مدينة بالمايرا بمقاطعة أونتاريو التابعة لولاية نيويورك.

وفي الرابعة عشرة من عمره انتقل مع أهله إلى مانشستر من نفس المقاطعة.

ولما بلغ الخامسة عشرة وجد الناس حوله منقسمين إلى طوائف:

الميثوديست، والمشيخي، والمعمداني... فشعر باضطراب وقلق.

وفي ربيع عام ١٨٢٠م ذهب إلى غابة، وأخذ يصلي منفردًا طالبًا من الله الهداية، وبينما هو كذلك إذ شاهد -كما يزعم- نورًا فوق رأسه، تمثل هذا النور في شخصين سماويين هما (الله، وابنه عيسى - تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا) وقد نهياه عن الانضمام إلى أي من هذه الفرق.

يدعي بأن الوحي قد انقطع عنه، وأنه خضع لاضطهاد عنيف وسخرية من جراء جهره برؤيته هذه، وقد تورط خلال ذلك بزلات طائشة إذ يقول عن نفسه: وكثيرًا ما أدت مخالطتي لشتى البيئات إلى اقتراف زلات طائشة وللاتّسام بما للشباب من نزق، وما للطبيعة البشرية من قصور، وقد ورطني ذلك -للأسف- في ألوان من التجارب والآثام المبغضة إلى الله، ولا يتبادر إلى الذهن بسبب هذا الاعتراف أني ارتكبت إثمًا فظيعًا أو وزرًا منكرًا، فما كان بي نزوع قط إلى مثل هذه الأوزار أو تلك الآثام. شهادة يوسف ص٧ .

كما يدعي أنه في مساء ٢١ سبتمبر ١٨٢٣م نزل عليه ملاك من السماء اسمه موروني وأخبره بأنه قد أعده لمهمة ينبغي عليه إنجازها، وأخبره عن كتاب نقشت عليه كلمات على صحائف من الذهب تروي أخبار القوم الذين استوطنوا القارة الأمريكيّة في الأزمنة الغابرة، وتاريخ السلف الذين انحدروا منهم، وأنبأه عن حجرين في قوسين من الفضة لترجمة الكتاب، وغادره هذا الملاك بعد أن

نهاه عن إظهار أحد من الناس على هذه الصحف.

وفي ١٨ يناير ١٨٢٧م تزوج من فتاة اسمها إيما هيل، فكان له من حميه فيما بعد سندًا قويًا أعانه على نشر فكرته، وذلك لما تتمتع به هذه الأسرة من مكانة طيبة.

وفي ٢٢ سبتمبر ١٨٢٧م تسلم الصحف -كما يزعم- متعهدًا بإعادتها بعد نهوضه بالمطلوب.

وقد رحل عن مقاطعة مانشستر الأمريكيَّة وذهب إلى حيث حموه في مقاطعة سوسكويهانا بولاية بنسلفانيا، واستوطن مدينة هارموني.

وشرع في الترجمة بمساعدة مارتن هاريس الذي أخذ بعض الحروف وشيئًا من الترجمة وعرض ذلك على الأستاذ تشارلز آنثون، والدكتور ميتشيل فأقرا بأن ما رأياه إنما هو ترجمة عن اللغة المصريَّة القديمة وأن الأصل إنما يتألف من حروف مصرية قديمة، وحروف كلدانية، وحروف آشورية، وحروف عربية.

وفي ٢٥ مايو ١٨٢٥م ذهب مع أوليفر كودري للصلاة في الغابة حيث زعما أنه هبط عليهما يوحنا المعمدان (أي نبي الله يحيى عليه السلام) وأمرهما بأن يعمد كل منهما الآخر، وأخبرهما بأنه قد جاء إليهما تنفيذًا لأمر بطرس ويعقوب، ورسَّمهما لرعاية الكنيسة المورمونية.

ويدعي كل من أوليفر كودري، وداود ويتمر، ومارتن هاريس أنهم قد شاهدوا الصحف وأنهم يشهدون على صحة الترجمة ودقتها وبأن هذا الكتاب إنما هو سجل لقوم نافي ولإخوتهم اللامانيين.

أعلن يوسف سميث في عام ١٨٣٠م وبحضور عدد من الشخصيات عن تأسيس كنيسة يسوع المسيح لقديسي الأيام الأخيرة.

ورحل يوسف سميث وأتباعه عن نيويورك إلى مدينة كيرتلاند المجاورة لمدينة كليفلاند بولاية أوهايو إذ شيَّد هيكلًا عظيمًا، كما أنه قام بعمل تبشيري واسع النطاق في تلك المنطقة وما جاورها.

وبعث بإحدى الإرساليات إلى ولاية ميسوري للتبشير ولاكتساب المؤيدين.

وتعرضوا للاضطهاد فتنازلوا عن منازلهم ومزارعهم ورحلوا إلى ولاية إلينوي حيث اشتروا المستنقعات الشاسعة المهجورة على شاطئ المسيسبي وقاموا بإصلاحها وبنوا مدينة نوفو أي الجديدة.

سجن يوسف سميث وأخوه هايرم في مدينة كارسيج بولاية إلينوي لاتهامات ضدهما، وبينما هما في السجن في ٢٧ يونيو ١٨٤٤م دخل عليهما مسلحان مقنعان فقتلاهما بالرصاص، فانتهت بذلك حياة هذا النبي المزعوم.

وقد آلت رئاسة الحركة والنبوة بعد يوسف سميث إلى بريجام يونج الذي رحل بالقوم إلى جبال روكي إذ حدد لهم مكان إقامتهم فبنوا مدينة سولت ليك وقد خطط الهجرات إلى يوتاه إذ كان بينهم

آلاف البريطانيين والاسكندنافيين، كما يعتبر يونج مسئولًا عن هذه الرحلة المأساوية والتي حدثت عام ١٨٥٦م حيث مات أثناءها أكثر من مائتي شخص من أتباعه.

هناك أقلية من المورمون لم توافق على سيطرة يونج بعد موت يوسف سميث، فقد بقي هؤلاء في إلينوي مؤسسين -بالتعاون مع إيما سميث الزوجة الأولى لنبيهم ومع ابن سميث جوزيف- كنيسة يسوع المسيح للقديسين المعاصرين المعاد تنظيمها، ومركزها ميسوري، تنفيذًا لوصية النبي المؤسس الذي قال لهم: إن صهيون ستكون فيها.

وقامت كذلك فئات أخرى منشقة، كل منها تدعي بأنها قد تلقت صحفًا فيها كتب قديمة مقدسة.

أنبياء المورمون

رؤساء الكنيسة هم الأنبياء، وقد تتابع هؤلاء الأنبياء على النحو التالي:

يوسف سميث. بريجام يونج. جون تيلور. ويلفورد وودروف. لورينزوسنو. هيبر جرانت. جورج ألبرت سميث. داود مكاي. يوسف فليدنج سميث. وأخيرًا سبنسر كيمبل الذي ما يزال نبيًّا ورئيسًا لهم إلى الآن.

ويرد في كتبهم اسم: إلما، يارد، لحي، إنهم أنبياء في كتاب المورمون.

الكتب المقدَّسة لديهم اليوم

١- الكتاب المقدس: يعتقدون بأنه مجموعة من كتابات مقدسة تحتوي على رؤى الله للإنسان، وأنها مخطوطات تتناول قرونًا كثيرة منذ أيام آدم حتى الوقت الذي عاش فيه المسيح، وقد كتبها أنبياء كثيرون -على زعمهم- عاشوا في أزمنة مختلفة، وهو ينقسم إلى قسمين:

- **العهد القديم**: فيه كثير من النبوءات التي تنبأت بقدوم المسيح.
- **العهد الجديد**: يروي حياة المسيح وتأسيس الكنيسة في ذلك اليوم.

٢- **كتاب المورمون**: هو سجل مقدس لبعض الناس الذين عاشوا في قارة أمريكا بين ٢٠٠٠ ق.م إلى ٤٠٠ بعد الميلاد، وهو يروي قصة زيارة يسوع المسيح لشعب القارة الأمريكيَّة بعد قيامه من الموت مباشرة (كما يعتقدون).

وهذا الكتاب يعدّ الحجر الأساسي لديهم، وإن الإنسان المورموني يتقرب إلى الله بطاعة تعاليمه، وقد قام يوسف سميث بترجمته إلى اللغة الإنجليزية بموهبة الله وقوته، وقد نزل به ملاك من السماء اسمه (موروني) على يوسف سميث.

وكتاب المورمون يشبه التلمود في كل شيء ويحاكيه وكأنه نسخة طبق الأصل عنه.

٣- كتاب المبادئ والعهود: هو مجموعة من الرؤى الحديثة التي تخصّ كنيسة يسوع المسيح كما أعيدت إلى أصلها في هذه الأيام الأخيرة، وهو يوضح تنظيم الكنيسة وأعمالها ووظائفها، وفيه

نبوءات عن حوادث ستأتي، وفيه أجزاء فيها معلومات مفقودة لمئات السنين، وفيه تعاليم الكتاب المقدس.

٤- الخريدة النفيسة: يحتوي على:

١- سفر موسى: فيه بعض رؤى موسى وكتاباته كما كُشفت ليوسف سميث في عام ١٨٣٠م.

٢- سفر إبراهيم: ترجمة يوسف سميث من درج بردي مأخوذ من مقابر المصريين القدماء.

٣- كتابات يوسف سميث ذاته: تحتوي على جزء من ترجمة الكتب المقدَّسة ومختارات من تاريخ الكنيسة المورمونية وبنود الإيمان لديهم ورؤية المملكة السماوية.

٤- رؤية فداء الأموات: وهي تروي زيارة يسوع المسيح للعالم الروحي، وهي رؤية أعطيت للرئيس يوسف سميث في ٣ أكتوبر ١٩١٨م.

٥- إضافة إلى الكتب الأربعة السابقة فإن كلمات الوحي والرؤى التي يذكرها أنبياؤهم تصبح كتبًا مقدسة، وكل النشرات والتعاليم وقرارات المؤتمرات كلها تعد كتبًا مقدسة أيضًا.

بنود الإيمان

بنود الإيمان لديهم: كما وضعها يوسف سميث ذاته:

١- الإيمان بالله، الأب الأزلي، وبابنه يسوع المسيح، وبالروح القدس.

٢- الإيمان بأن البشر سيعاقبون من أجل خطاياهم، وليس بسبب تعدي آدم.

٣- الإيمان بأن جميع البشر يستطيعون أن يخلصوا عن طريق كفارة المسيح وذلك بإطاعة شرائع الإنجيل ومراسيمه.

٤- الإيمان بأن المبادئ والمراسم الأربعة للإنجيل هي:

الإيمان بالرب يسوع المسيح، التوبة، العماد بالتغطيس لغفران الخطايا، وضع الأيدي لموهبة الروح القدس.

٥- الإيمان بأن الإنسان يجب أن يُدعى من الله عن طريق النبوة، ووضع الأيدي على يد هؤلاء الذين لهم السلطة لكي يبشر بالإنجيل ويقوم بالمراسيم المتعلقة به.

٦- الإيمان بنفس التنظيم الذي قامت عليه الكنيسة القديمة؛ أي: الرسل والأنبياء والرعاة والمعلمين والمبشرين إلخ.

٧- الإيمان بموهبة الألسن، والنبوة، والرؤيا، والأحلام، والشفاء، وتفسير الألسن.

٨- الإيمان بأن الكتاب المقدس هو كلمة الله بقدر ما ترجم صحيحًا، والإيمان بأن كتاب المورمون هو كلمة الله.

٩- الإيمان بكل ما كشفه الله وبما يكشفه الآن، وبأنه سيظل يكشف أمورًا كثيرة عظيمة تتعلق

بملكوت الله.

١٠- الإيمان بتجمع إسرائيل واستعادة القبائل العشر، وأن دولة صهيون (أورشليم الجديدة) ستؤسس على القارة الأمريكيَّة، وأن المسيح سيحلُّ شخصيًا على الأرض، وأن الأرض ستتجدد وتتسلم مجدها الفردوسي.

١١- يدَّعون امتياز عبادتهم لله القوي طبقًا لما يمليه عليهم ضميرهم كما يسمحون لجميع البشر بهذا الامتياز، فليعبدوا ما يريدون وكيف يريدون وأين يريدون.

١٢- الإيمان بأنه يجب عليهم الخضوع للملوك والرؤساء والحكام وأصحاب السلطة القضائية، كما يؤمنون بأنه يجب عليهم إطاعة القانون واحترامه وتعضيده.

١٣- الإيمان بأنه يجب عليهم أن يكونوا أمناء وصادقين وأطهارًا ومحسنين وأصحاب فضيلة وأن يعملوا الخير لكل البشر، وهم يسعون وراء كل شيء ذي فضيلة ومحبوب ويستحق التقدير أو المدح.

مراتبهم الدينيَّة والتنظيمية

ينقسم الكهنوت لديهم إلى قسمين:

١-كهنوت ملكي صادق: وهو أعظم كهنوت إذ يملك التوجيه والتبشير بالإنجيل كما يملك سلطة قيادة الكنيسة.

٢- **كهنوت هارون**: وهو الكهنوت الذي منح لهارون ولأولاده خلال جيع الأجيال، وأصحاب هذا الكهنوت يقومون بمراسم الإيمان والتوبة والتعميد.

معتقدات وأفكار المورمون

١- يعتقدون أن الله هو على شكل إنسان له لحم وعظام وبداخل جسده الملموس روح أزلية. كما يؤكدون على أن الإله متطور عن الإنسان، والناس يمكنهم أن يتطوروا إلى آلهة -تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

٢- الإنسان -كروح- ولد من وَالِدَيْن سماويين، وقد بقي هذا الإنسان في منازل الأب الأبدية قبل المجيء إلى الأرض في جسد مادي، كما أن المسيح هو الروح الأولى، فهو بذلك الابن الأكبر.

٣- يسوع المسيح هو الذي خلق الأرض وكل ما فيها، وخلق كذلك عوالم أخرى بتوجيه من أبيه السماوي. ثم خلق بعد ذلك الحيوانات.

وأمه مريم العذراء التي كانت مخطوبة لشخص اسمه يوسف، وقد حلّ عليها الروح القدس وقوة العلي ظللتها، وولدها هو ابن الله، وقد جاء الولد وارثًا لسلطة إلهية من أبيه، ووارثًا الفناء من أمه.

قام يوحنا المعمدان بتعميده وهو في الثلاثين من عمره، وقد صام أربعين يومًا ليحارب

الشيطان، كما أنه قد ظهرت على يديه معجزات.

إن المسيح قد ضُرِبَ، وعُذِّبَ، ومن ثم صُلِبَ، ليسجل انتصاره على الخطيئة، وقد استودع روحه بين يدي أبيه، وقد ظل جسده ثلاثة أيام في القبر، ثم عادت إليه روحه فقام متغلبًا على الموت.

بعد قيامه بقليل ظهر في أمريكا، وأسس كنيسته، ثم صعد إلى السماء. وقد دخلت الوثنية إلى العقيدة المسيحيَّة كما حارب رجال الدين بعضهم بعضًا مما استوجب نزول المسيح مرة أخرى مع الله وهبوطهما على يوسف سميث بغية إعادتها إلى الأرض مرة أخرى كما كانت في الأصل.

٤- حواء ابنة مختارة أعطيت لآدم، وسمح لهما بالأكل من كل الأشجار عدا شجرة معرفة الخير والشر، وقد أغراهما الشيطان فأكلا منها فأصبحا فانيين يشتغلان وينجبان.

٥- الروح القدس: عضو في الهيئة الإلهية، وله جسد من الروح في شكل إنسان، وهو يوجد في مكان واحد فقط في نفس الوقت إلا أن نفوذه يصل إلى كل مكان.

٦- النبي رجل دعاه الله ليمثله على الأرض ويتكلم بالنيابة عنه، والنبوة لديهم مستمرة لا تنقطع.

٧- التعميد: ترمز المعمودية إلى الموت والقيامة وذلك بأن ينزل رجل الدين إلى الماء مع الشخص الذي يريد تعميده، فيغطسه في الماء ثم يخرجه، وبذا تنتهي الحياة الخاطئة وتبدأ الحياة الجديدة، وهي تسمى الميلاد الثاني.

٨- القربان: كانت القرابين قبل المسيح تقدم على شكل ذبائح من الحيوانات، لكن كفارة المسيح بقتله أنهت هذا النوع من القرابين، وصارت عبارة عن خبز ونبيذ مصحوبة بالصلوات. وخلال رؤية حديثة لقديسي الأيام الأخيرة جعلوها خبزًا وماءً.

٩- يقدسون يوم السبت؛ لأن الله استراح فيه بعد انتهائه من خلق الكون، ولقد كان قيام المسيح بعد صلبه في يوم الأحد الذي صار محل تقديس عوضًا عن يوم السبت.

١٠- الصوم: هو الامتناع عن الطعام والشراب مدة أكلتين متتابعتين وبذلك يصوم الشخص أربعًا وعشرين ساعة. فإذا أكل أحدهم العشاء فلا يجوز له أن يأكل مرة ثانية حتى العشاء الآخر. كما يقدم الصائم للقائد الكهنوتي إما مالًا أو طعامًا مساويًا لطعام الوجبتين وهذا يسمى بعطاء الصوم.

١١- يحرمون شرب النبيذ، والمسكرات الكحولية والتبغ والدخان بكل أنواعه، ويمتنعون عن شرب القهوة والشاي لما يحتويان عليه من عقاقير مضرة. ويحذرون من تناول المرطبات وما فيها من مشروبات الصودا والمشروبات الفوارة والمياه الغازية، والكولا أشدها خطرًا. وينبهون إلى عدم الإسراف في أكل اللحم من دون تحريم، ويبيحون تناول الفواكه والخضر والبقول والغلال مركزين على القمح بخاصة لاعتقادهم بأنه نافع لجسم الإنسان ويؤدي إلى المحافظة على صحته وقوامه.

وجدير بالذكر أن يوسف سميث كان يرقص ويشرب الخمر ويشترك في المصارعة وقد كتب يقول: «خلق الإنسان ليتمتع بحياته».

١٢- يبيحون تعدد الزوجات ويجيزون للرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء؛ لأن في ذلك إعادة لما شرعه الله في الأزمان الغابرة. ولا يسمحون بذلك إلا لذوي الأخلاق العالية على أن يثبتوا قدرة على إعالة أكثر من أسرة. وقد مارس يوسف سميث هذا التعدد. كما استمرت هذه العادة حتى عام ١٨٩٠م.

تخلوا عن التعدد -ظاهريًّا- في عهد نبيهم ولفورد نتيجة للضغط الشديد الذي قوبلوا به من الطوائف الأخرى، وكذلك بغية تمكنهم من الانضمام إلى السلطات الاتحادية. وعلى الرغم من التحريم الرسمي العلني إلا أنهم يمارسون التعدد سرًّا.

١٣- يحرمون الزنى تحريمًا مطلقًا، والذي يخطئ يمكنه التوبة والرجوع عن جميع خطاياه.

١٤- يجب على كل فرد أن يدفع عُشر النقود التي يكسبها على أن يكون ذلك مصحوبًا بالفرح والسرور.

يدفعون عطاء الصوم، ويدفعون اشتراكات مختلفة وعطايا لغير سبب، فكنيستهم بذلك من الكنائس الغنية الموسرة.

١٥- من علامات القيامة:

- الشرور والحروب والاضطرابات.
- استعادة الإنجيل.
- بزوغ كتاب المورمون.
- اللامانيون يصبحون شعبًا عظيمًا.
- بناء أورشليم الجديدة في ولاية ميسوري.
- بيت إسرائيل يصبح شعب الله المختار.

١٦- بعد الحساب هناك عدة ممالك:

- المملكة السماوية: للذين تسلموا شهادة يسوع وآمنوا باسمه وتعمدوا.
- المملكة الأرضية: للذين رفضوا الإنجيل على الأرض ولكنهم استلموه في العالم الروحي.
- المملكة السفلية: للذين لم يتسلموا الإنجيل ولا شهادة يسوع سواء على الأرض أو في العالم الروحي ومع هؤلاء يكون الزناة والفجار.
- الظلمة الخارجية: للذين شهدوا ليسوع بالروح القدس وعرفوا قوة الرب؛ لكنهم سمحوا للشيطان بأن يتغلب عليهم فينكروا الحق ويَتَحَدُّوا قوة الرب.

١٧- يؤمنون بالعهد الألفي السعيد الذي يدوم ألف سنة من تاريخ مجيء المسيح إلى الأرض حيث يقوم كثير من الأموات، وبعضهم يختطف للقائه عندما ينزل، وهي القيامة الأولى. أما الأشرار فيهلكون في الأجساد ويبقون كذلك مع الأشرار من الأموات حتى انتهاء الألف سنة حيث تأتي القيامة الآخرة.

وفي فترة الألف سنة هذه تسود المحبة والسلام، ويملك يسوع شخصيًا، وتجتمع الأرض في مكان واحد، فلن يكون هناك قارات مختلفة، وينمو الأطفال بدون خطيئة.

ولن يكون هناك موت؛ لأن الناس سيتغيرون من حالتهم الفانية إلى حياة الخلود في لحظة.

وفي نهاية العهد الألفي سيطلق سراح الشيطان لمدة قصيرة، وتحدث معركة بين أتباع الأنبياء وأتباع الشيطان. وعندها ينتصر المؤمنون ويطرد الشيطان إلى الأبد مدحورًا.

المورمون واليهود

لليهود دور في نشوء هذه الطائفة تعزيزًا للانشقاق داخل الكنائس المسيحيَّة بغية السيطرة عليها.

ومما لا شك فيه أن لليهود دورًا فعالًا ونشيطًا في حركة المورمون ولذلك فهم:

- يعتقدون بأن الله أعطى وعده لإبراهيم، ومن ثم لابنه يعقوب بأن من ذريته سيكون شعب الله المختار.

- وأن يعقوب الذي اسمه (إسرائيل) رزق باثني عشر ابنًا يعرفون بالأسباط.

- وأن هؤلاء الأنبياء ارتكبوا الشرور فبددهم الله في الأرض منقسمين إلى مملكتين:

١- المملكة الشماليَّة: وتسمى إسرائيل حيث عاش فيها عشرة أسباط.

٢- المملكة الجنوبية: وتسمى مملكة يهوذا حيث عاش فيها سبطان فقط.

- الأسباط الشماليون هزموا في معركة ودفعوا إلى السبي، وقد هرب بعضهم وتاهوا في البلاد.

- بعد مائة عام انهزمت المملكة الجنوبية حوالي عام ٦٠٠ق.م. عندها ترك لحي وعائلته أورشليم مستقرين في القارة الأمريكيَّة فكان منهم النافيون وكذلك اللامانيون الذين يعتبرون من سلالة لحي. وقد هدمت أورشليم عام ٥٨٦ ق.م.

- سبطا إسرائيل اللذان بقيا أُخِذا أسيرين، كما أعيد بناء أورشليم بعد المسيح، إلا أن الجنود الرومانيين قد خربوها مرة ثانية.

- يصرحون بأن في هذا الزمان قد وعد الرب بأنه سيجمع بني إسرائيل ليتعلموا الإنجيل، كما أن موسى النبي قد نزل على يوسف سميث عام ١٨٣٦م وأعطاه سلطة جمع بيت إسرائيل في هيكل كيرتلاند.

- بيت إسرائيل الآن في طريقه إلى الجمع إذ إن آلافًا من الناس ينضمون إلى الكنيسة سنويًا من الإسرائيليين الذي ينتمون إلى عائلة إبراهيم ويعقوب إما بعلاقة الدم أو بعلاقة التبني حسب ادعاءاتهم.

- سيجمع سبطا افرايم ومنسي في أرض أمريكا، وسيعود سبط يهوذا إلى أورشليم كما أن الأسباط العشرة المفقودة ستتسلم البركات التي وعدت بها من سبط افرايم في أمريكا.

- الإسرائيليون المشتتون في كل دولة يدعون للتجمع في حظيرة المسيح في أوتاد صهيون.

- هذا التجمع الحرفي لإسرائيل لن يتم حتى المجيء الثاني للمخلص كما يزعمون.

- ستكون هناك عاصمتان في العالم: الأولى في أورشليم، والثانية في أمريكا؛ لأن من صهيون تخرج الشريعة، ومن أورشليم تخرج كلمة الرب.

فهم يعملون على ربط صهيون أو القدس الجديدة بالأرض الأمريكيَّة المقدَّسة -حسب وصايا الرب- انتظارًا لعودة المسيح الذي سيعود ليملك الأرض ويملأها جنات خالدات.

- ونلاحظ تعانق الفكر الصليبي مع الفكر الصهيوني في نظرتهم إلى فلسطين، فهم يقولون منذ عام ١٨٢٥م يوم كانت فلسطين ما تزال جزءًا من أرض الإسلام في كتاب المورمون في الإصحاح العاشر الفقرة ٣١: «فاستيقظي وانتفضي من الثرى يا أورشليم، نعم والبسي حللك الجميلة يا ابنة صهيون، ووسعي حدودك إلى الأبد، لكيلا تعودي مغلوبة ولكي تتحقق عهود الأب الأزلية التي قطعها معك، يا بيت إسرائيل».

ويقولون في الإصحاح الرابع عشر فقرة ٦ مخاطبين المورمون: «لا تعطوا القدس للكلاب ولا تطرحوا دوركم قدام الخنازير؛ لئلا تدوسها بأرجلها وتلتفت لتمزقكم».

- إن إسرائيل قد جندت كل إمكاناتها لخدمة هذه الطائفة عاملة على استمرارية العون والمساندة النصرانيَّة لها.

الأعداد وأماكن التواجد

آمن بفكرة المورمون كثير من النصارى، وكان دعاتها من الشباب المتحمس، وقد بلغ عدد أفرادها أكثر من خمسة ملايين نسمة، وما يزالون في نمو وازدياد، وثمانون بالمائة منهم في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة ويتمركزون في ولاية يوتاه حيث إن ٦٨% من سكان هذه الولاية منهم، و٦٢% من سكان مقاطعة البحيرات المالحة مسجلون كأعضاء في هذه الكنيسة ومركزهم الرئيسي في ولاية يوتاه الأمريكيَّة.

ولهم شخصيات بارزة في مجلس الشيوخ الأمريكي ومجلس النواب.

وانتشروا في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة، وأمريكا الجنوبية، وكندا، وأوربا، كما أن لهم في معظم أنحاء العالم فروعًا ومكاتب ومراكز لنشر أفكارهم ومعتقداتهم.

ويقومون بتوزيع كتبهم مجانًا، ودعوتهم تأتي خدمة لمصلحة إسرائيل وتأكيدًا لأهدافها المرسومة. ولهم ١٧٥ إرسالية تنصيريَّة، كما أنهم يملكون:

شبكة تلفزيونية، وإحدى عشرة محطة إذاعية.

ويملكون مجلة شهرية بالأسبانية، وصحيفة يومية واحدة.

ويملكون مركزًا متطورًا جدًّا للمعلومات في مدينة سولت ليك في ولاية يوتاه الأمريكيَّة.

نشرات المورمون

هناك نشرات توزعها كنيسة يسوع المسيح لقديسي الأيام الأخيرة بمدينة سولت ليك بولاية يوتاه في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة ومنها:

day Saints-The Church of Jesus Christ of Latter)

ومن نشراتهم باللغة العربيَّة ما يلي: - مبادئ الإنجيل. - دليل الشعبة. - دليل القائد الكهنوتي. - كلمة الحكمة. - شهادة يوسف سميث. - دليل العائلة. - ماذا عن المورمون، طبع الولايات المتَّحدة. - مقال عن المورمون في مجلة الأمة عدد ٢٢ شوال ١٤٠٢هـ/ آب ١٩٨٢م. - مقال في الموسوعة البريطانية عن المورمون.

- ولهم كذلك نشرات باللغة الإنجليزية هي: - Succession in the Presidency.

A Family home evening program suggested by the Church of - Famillies? .Y.H.W - The Lord's - .The Mormons and the Jewish people - .day saints-Jesus Christ of latter - .Perersen .Mark E ،A Word of Wisdom - .What the Mormons think of Christ - .Day How and by Whom administered? .Baptism[1]

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٣٦- ٦٤٧).

الفصل السابع
شهود يَهْوَه

التعريف:

هي منظمة عالميَّة دينيَّة وسياسيَّة، تقوم على سرية التنظيم وعلنية الفكرة، ظهرت في أمريكا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهي تدعي أنها مسيحية، والواقع يؤكد أنها واقعة تحت سيطرة اليهود وتعمل لحسابهم.

وهي تعرف باسم (جمعيَّة العالم الجديد) إلى جانب (شهود يهوه) الذي عرفت به ابتداء من سنة ١٩٣١م وقد اعترف بها رسميًا في أمريكا قبل ظهورها بهذا الاسم وذلك سنة ١٨٨٤م.

التاريخ والأحداث

أسسها سنة ١٨٧٤م الراهب تشارلز راسل ١٨٦٢ - ١٩١٦م وكانت تعرف آنذاك باسم مذهب الراسلية أو الراسليين نسبة إلى مؤسسها كما عرفت باسم الدارسون الجدد للإنجيل.

وعرفت بعد ذلك باسم جمعيَّة برج المراقبة والتوراة والكراريس Watch Tower Bible and Tract Society

ثم استقر الأمر أخيرًا وعرفت باسم يهوه نسبة إلى يَهْوَه إله بني إسرائيل على ما تردد توراتهم، في سفر الخروج ٦/ ٢- ٤: وكلم الله موسى قال له أنا الرب. أنا الذي تجليت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب إلهًا قادرًا على كل شيء وأما اسمي يهوه فلم أعلنه لهم.

ثم خلفه في رئاسة المنظمة فرانكلين رذرفورد ١٨٦٩ - ١٩٤٢م الذي ألف سنة ١٩١٧م كتاب سقوط بابل ويرمز ببابل لكل الأنظمة الموجودة في العالم.

ثم جاء نارثان هرمر كنور ١٩٠٥م وفي عهده أصبحت المنظمة دولة داخل الدولة كما يقال.

ويمكن اعتبارهم فرقة مسيحية منفردة بفهم خاص إلا أنهم واقعون تحت سيطرة اليهود بشكل واضح ويتبنون العقائد اليهوديَّة في الجملة ويعملون لأهداف اليهود.

وقد تأثروا بأفكار الفلاسفة القدامى واليونانيين منهم بخاصة.

معتقدات وأفكار شهود يهوه

١- إشاعة الفوضى الخلقية والتحلل من جميع الفضائل الإنسانية التي حثت عليها التعاليم الدينيَّة.

٢- يؤمنون بيهوه إلهًا لهم وبعيسى رئيسًا لمملكة الله.

٣- يؤمنون بالكتاب المقدس للنصارى؛ ولكنهم يفسرونه حسب مصالحهم.

٤- الطاعة العمياء لرؤسائهم.

٥- يستغلون اسم المسيح والكتاب المقدس للوصول إلى هدفهم وهو: إقامة دولة دينية دنيويَّة للسيطرة على العالم.

٦- تهيئة النفوس لإقامة الدولة اليهوديَّة الكبرى.

٧- نفي الحساب والعقاب في الآخرة فلا إثم على من يقترف ذنبًا أو معصية في دنياه.

٨- لا يؤمنون بالآخرة ولا بجهنم ويعتقدون بأن الجنة ستكون في الدنيا في مملكتهم.

٩- يعتقدون بقرب قيام حرب تحريرية يقودها عيسى وهم جنوده يزيحون بها جميع حكام الأرض.

١٠- يقتطفون من الكتاب المقدس الأجزاء التي تحبب إسرائيل واليهود إلى الناس ويقومون بنشرها.

١١- لا يؤمنون بالروح وبخلودها ولهم معابد خاصة بهم يسمونها القاعة الملكية أو بيت الرب.

١٢- الأخوة الإنسانية مقتصرة عليهم دون سواهم من البشر.

١٣- يعادون النظم الوضعيَّة ويدعون إلى التمرد، ويعادون الأديان إلا اليهوديَّة، وجميع رؤسائهم يهود.

١٤- إشاعة الفوضى العالمية بتحريض الشعوب على التمرد على حكوماتهم، وشق عصا الطاعة عليها، ومقاطعة جميع النشاطات الرسمية في الدولة، ويبررون ذلك بما جاء في كتابهم الأخضر «ليكن الله صادقًا بأنهم سفراء الله في ملكوته المقدس»، ومن ثمَّ فهم يتمتعون بحصانة تعفيهم من الخضوع للحكومات المدنية أيًا كانت مقوماتها.

١٥- يعترفون بقداسة الكتب التي تعترف بها اليهوديَّة وتقدسها وهي ١٩ كتابًا.

١٦- يقولون بالتثليث ويفسرونه بـ (يهوه، الابن، الروح القدس).

١٧- يمر العضو فيها بمراحل معقدة ويخضع الالتحاق بها إلى شروط قاسية، وتنتظم عضوية جمعيَّة شهود يهوه ثلاث مراتب:

الأولى: **أعضاء الرجاء السماوي**: وهم أعضاء الإدارة العليا ويرأسهم العبد العظيم أو الحكيم ويعرف مقره ببيت «إيل»؛ أي: بيت الله.

الثانية: **صف جلعاد أو الرجاء الأرضي**: ويشمل من الأعضاء الرواد والمعاونين ونظار المناطق، وهؤلاء هم أعضاء الإدارة التنفيذية.

الثالثة: **المبشرون**: ويعرف أعضاؤها بالخدم، وتضم هذه المرتبة الشهود وهم الأعضاء المكلفون بتوزيع مطبوعات الجمعيَّة ورسائلها.

شعاراتهم ورموزهم

١- تبني المينورا وهي الشمعدان السباعي الذي هو رمز اليهود الديني والوطني.

٢- تبني النجمة السداسية وهي رمز لليهود كذلك.

٣- تبني اسم يهوه ويكتبونه بالعبريَّة وهو «الإله» عند اليهود.

من كتب المنظمة

١- تنطق باسمهم مجلة كانت تصدر تحت اسم برج مراقبة صهيون ثم عدلوها إلى: برج المراقبة لإخفاء كلمة صهيون.

٢- هذا الخبر الجيد عن المملكة (المقصود مملكتهم المأمولة).

٣- الأساس في الإيمان بعالم جديد.

٤- لقد اقترب علاج الأمم.

٥- العيش بأمل نظام عادل جديد.

طريقتهم في العمل

يرون أنه ثبت بالدليل أن عددًا كبيرًا من الناس لا يحضرون إلى المعابد، وأن أكثر من نصف الناس في بعض البلدان لا ينتمون إلى طائفة من الطوائف الدينيَّة، وأن ملايين من المنتمين إلى الطوائف الدينيَّة لا يحضرون عبادتهم ولا يريدون أن يستمعوا إلى رجال الدين. فعملت شهود يهوه على أن تخفي نفسها تحت أستار أنها فرقة مسيحية تطوف بالبيوت والمقاهي والأندية العامة والطرقات، حاملة الكتب والمنشورات، تعرض فيها تعاليمها بحماسة مدعية أنها حاملة رسالة دين جديد يجمع تحت لوائه أهل الأديان كافة، تتظاهر بعدم معاداة أحد أو أية طائفة من الطوائف. كما عملت على عدم الاحتفاظ بأسماء أعضائها واكتفت فقط بحفظ ناشري مطبوعاتها ونشراتها وعملت -أيضًا- على عدم الإعلان عمن يساعدها بالأموال في أداء مهامها.

يصدرون آلاف الكتب والنشرات والصحف ويوزعونها مجانًا مما يدل على قوة رصيدهم المالي.

لهم مدارس خاصة بهم ومزارع ودور صحافة ودور نشر... ولكل منها إدارة خاصة بها.

لهم مكاتب للترجمة والتأليف ولجان دينية عليا لتفسير الكتاب المقدس وفق مصلحتهم.

لهم تعاون كبير مع المنظمات المماثلة التي تعمل لصالح اليهود.

تستفيد هذه المنظمة من أعضائها في أعمال الاستخبارات والجاسوسية والدعاية.

أعدادهم وأماكن تواجدهم

لا تكاد تخلو دولة في العالم من نشاط لهذه المنظمة السرية الخطرة.

مركزهم الرئيسي في أمريكا - حي بروكلين بنيويورك: ١٢٤ Columbia Heights.

USA - New York . ١ Brooklyn (i)

وصل عدد البلدان التي يزاولون فيها نشاطهم سنة ١٩٥٥م إلى ١٥٨ دولة وكان عددهم آنذاك ٦٣٢٩٢٩ عضوًا وعدد دعاتهم ١٨١٤ داعية فكم يكون إذًا عددهم الآن؟ وقد فطنت بعض الدول إلى خطورتهم فمنعت نشاطهم وتعقبتهم ومن هذه الدول: سنغافورة، لبنان، ساحل العاج، الفلبين، العراق، النرويج، الكاميرون، الصين، تركيا، سويسرا، رومانيا، هولندا... وما يزالون ينشطون في هذه الدول بطريقتهم الخاصة السرية. أما في إفريقيا والدول الإسلاميَّة فغالبًا ما يكون نشاطهم بالتعاون مع المنظمات التبشيريَّة.

لهم علاقة وطيدة بإسرائيل وبالمنظمات اليهوديَّة العالمية كالماسونية.

لهم علاقة تعاون مع المنظمات التبشيريَّة والمنظمات الشيوعية والاشتراكية الدولية.

لهم علاقة كبيرة مع أهل النفوذ من اليونانيين والأرمن[١].

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/٦٤٨- ٦٥٢).

الفصل الثامن

الأبوس دي

التعريف:

الأبوس دي: منظمة سرية دينية لا رهبانية نصرانية كاثوليكيَّة معاصرة، تسعى إلى سيادة التعاليم الإنجيلية والعودة إلى النصرانيَّة الأولى كما هي موجودة في الإنجيل المتداول. وذلك وفق ضوابط تنظيمية دقيقة محكمة مع الاستفادة الكاملة من معطيات العصر الحديث، وتتلمس طريقها من خلال السيطرة على النواحي السياسية والاقتصادية والتربوية.

واسمها يجمع بين اسمي جمعيَّة الصليب المقدس، ومنظمة العمل الإلهي معًا.

وتختلف عن الهيئات الأخرى في عدم ارتداء زيٍّ خاص بها، وسرية النذر وعدم وجود حياة جماعية مشتركة بشكل إجباري، ومصادر دخلها تعد سرًّا من الأسرار.

التاريخ والأحداث

أسس هذه المنظمة القس خوسيه ماريا أسكريفا في أسبانيا وذلك في ٢ أكتوبر ١٩٢٨م وهو يزعم أنه قد اختير لهذه المهمة بوحي إلهي وذلك كي يضفي على هذا التأسيس هالة من التقديس.

وفي عام ١٩٣٠م تم تأسيس الفرع النسائي للمنظمة على نفس نمط الفرع الرجالي تنظيمًا وانتشارًا.

وجدت أفكار أسكريفا أرضًا خصبة في إسبانيا تحت حكم الجنرال فرانكو وبخاصة عقب الانتهاء من الحرب الأهلية فيها.

ولقد نشأت هذه المنظمة في الأصل لتكون لصيقة بنظام الجنرال فرانكو، وكان لتأييده لها أثر مهم في زيادة نفوذها وانتشارها.

لقي المؤسس اهتمامًا من الفاتيكان مما جعله يقرر الانتقال من أسبانيا إلى روما والإقامة هناك بشكل نهائي جاعلًا منها المقر الرئيسي للمنظمة.

وفي الثاني من شباط سنة ١٩٤٧م قام الفاتيكان بمنح الأبوس دي درجة (هيئة دينية لا رهبانية) أي هيئة دينية للعمل ضمن ومن خلال المجتمع المدني.

ظل أسكريفا رئيسًا لهذه المنظمة طيلة حياته إلى أن توفي عام ١٩٧٥م.

ويمكن أن توصف المنظمة بأنها (مافيا دينية كاثوليكيَّة) بوحي من أهدافها وحسب مصلحتها للسيطرة السياسية والاقتصادية في أسبانيا بخاصة وفي مختلف دول العالم بعامة. وقد شكلت المنظمة إمبراطورية اقتصادية صناعية تماثل أرق وأحدث صور الإمبراطوريات الصناعية الاقتصادية

المتعددة الجنسيات الموجودة في العالم. وهي متغلغلة في جميع الأوساط والطبقات.

وتحاول المنظمة الوقوف بكل حزم أمام تيار المنظمات اليسارية والليبرالية والماسونية.

الهيكل التنظيمي

– المجلس العام: ويتألف من الرئيس والسكرتير العام والنائب العام وشخصيات من أربع عشرة دولة، وهو الذي يتخذ القرارات الحاسمة باعتباره أعلى سلطة في المنظمة بجميع فروعها في العالم وبأقسامها الثلاثة: القساوسة، والمدنيين، والفرع النسائي.

– القساوسة: وهي أعلى درجة يطمح العضو فيها ويرتقي إليها العضو النظامي، وحتى عندما يتحول العضو النظامي إلى قسيس؛ فإنه لا يتخلى عن عمله المهني ويصبح في هذه الحال طبيبًا قسيسًا أو محاميًا قسيسًا... إلخ.

– العضو النظامي: وهي أعلى درجة في التنظيم.

– الناذر نفسه (القربان) ويقوم بنذر نفسه للمنظمة ويكرس حياته لها.

– العضو غير النظامي.

– المتعاون، علاقته كنصير أو مؤيد.

– اعترفت الكنيسة الأسبانية بهذا الهيكل التنظيمي للأبوس دي اعترافًا شبه رسمي مما دعم مكانتها وزاد في انتشارها.

– يقوم تنظيم نسائي على يد أخوات الأعضاء البارزين في الحركة.

– إذا أظهر المرشح رغبة للانضمام فإن عليه أن يخضع (لإرادة الرب)، وإرادة الرب عندهم هي أن يدخل المرء في هذه المنظمة، وبعد ستة أشهر تقريبًا من العيش داخل المنظمة وروحانيتها يقبل المرشح بشكل رسمي.

– بعد ستة أعوام من الانضمام تقام حفلة (الإخلاص والوفاء) لتأكيد عضوية المتقدم بشكلٍ نهائي حيث يعطي خاتمًا عليه قطعة من الحجر الكريم يفرض عليه حمله طوال حياته.

– كثير من أعضاء المنظمة يجعلون من الحمار شعارًا لهم ويقولون: إن المسيح قد دخل القدس وهو راكب على ظهر حمار، ومن صلوات أسكريفا قوله مخاطبًا ربه: (أنا حمارك الجربان).

الأفكار الدينيَّة والتنظيمية

تؤمن المنظمة بكل معطيات النصرانيَّة من تثليث، وأب، وابن، وروح القدس، والعذراء، والصليب، والفداء، والقرابين، والخطيئة، وأكل لحم الخنزير، وما إلى ذلك مما يعتقده النصارى بعامة.

وأهداف المنظمة دينية صرفة، فهي تعمل من أجل إعلاء النصرانيَّة وفق العقائد الكاثوليكيَّة، عن طريق التربية والسياسة والاقتصاد.

- يتضمن نشاط المنظمة جهود رجال الدين، ومن غير رجال الدين، كما يشمل الرجال والنساء، ويعطي عناية خاصة للشباب.

- يحرض التنظيم على أن يكون أعضاؤه قدوة حسنة، كما يحرص على السرية والكتمان.

- يهدف التنظيم فيما يعلنون إلى تربية جادة صارمة لأعضائه، تقوم على الجدية، والعفة وحسن الخلق، بل والتقشف أيضًا، فكأنه يريد أن يحيي فيهم روح الأوائل.

- يقوم التنظيم على ضوابط دقيقة في الانتساب، ثم في التعامل بين الأعضاء في مرحلة ما بعد الانتساب، وحتى في حالات الاستقالة أو الفصل، وتوزع الأمور توزيعًا موضوعيًّا يعطي المرء حق التظلم والاعتراض.

- التنظيم عمل متكامل يهدف إلى المواءمة بين النواحي الروحية الدينيَّة وبين الاستفادة من كل ما تقدمه الحضارة الحديثة من أدوات تنظيمية دقيقة ذات أهداف ومناهج وضوابط وموارد مالية.

روحانيات الحركة

تتركز النواحي الروحية للحركة فيما يلي:

- تقبل الأرض عند الاستيقاظ.

- الحمام والحلاقة خلال نصف ساعة على الأكثر.

- نصف ساعة للصلاة الفردية، وبعد ذلك قداس جماعي لمدة عشر دقائق.

- بعد الغداء زيارة مكان القربان المقدس، وبعد ذلك ثلاث ساعات من الصمت الأصغر.

- (العصرونية) وهو وقت مخصص للنشاط الجماعي بسبب وجود بعض المدعوين (المرشحين) حيث تختلق مناقشات في موضوع ديني ما أو حادثة دينية معينة.

- نصف ساعة للصلاة.

- نهاية اليوم وتقرأ فيه الصلوات، ثم يجري فحص عام للنشاطات الروحية أو المالية التي جرت فيه، ويبدأ بعد الصمت الأكبر الذي يمنع فيه الكلام خلال كل الوقت الباقي حتى اليوم التالي.

- قبل النوم يرسم الأعضاء إشارة الصليب بأيديهم على جسمهم، ويرشون الماء المقدس على الفراش، ثم يقومون بصلاة قصيرة وينامون.

المؤلَّفات

- ألف أسكريفا كتيبًا صغيرًا عام ١٩٣٤م سماه اعتبارات روحية، لكن الكتاب اختفى فجأة ليحل محله كتاب الطريق الذي يعد إنجيل المنظمة، وقد ظهرت طبعته الأولى عام ١٩٣٩م، ويحتوي على ٩٩٩ حكمة ومقسم إلى أربعين بابًا و١٣٦ موضوعًا.

- لأسكريفا أطروحة دكتوراه، وله كتب صغيرة حول صلاتهم.

- من كتب المنظمة القيمة الإلهية للإنسان تأليف خوسي أورتيغا، يتكلم فيه عن الإنسان الكاثوليكي الصليبي. وكتاب روحانية العلمانيين تأليف خوان باركيستا توريو.

الأعداد وأماكن التواجد

- لا يوجد في العالم بلد نصراني إلا وللمنظمة وجود فيه، فقد اتسع وجود المنظمة ليشمل أكثر من خمسين دولة في العالم تغلغلت من خلالها في جميع الجوانب الفكريَّة والثقافية والسياسية والمالية.

- تتركز قوتها في المناطق التالية: أسبانيا وفيها ثقلها الأساسي، إيطاليا حيث يقوم المركز الرئيسي والدولي في روما بشارع فيرلا برورو Virla Bruro ومهمته الإدارة والتنظيم، الفلبين في شرق آسيا، المكسيك وفنزويلا في أمريكا اللاتينيَّة، وقد دخلت الحياة العامة في كولومبيا والبيرو وتشيلي، وأخيرًا في الأرجنتين ولكن بنسب متفاوتة، وكينيا في إفريقيا.

- يصل عدد أعضاء المنظمة في العالم اليوم إلى حوالي ٧٢٠٠٠ نسمة من ٧٨ جنسية نصفهم في أسبانيا. وتملك المنظمة أكثر من ٧٠٠ مدرسة ابتدائية وإعدادية وثانوية ومعهد وبيت للطلبة ومركز ثقافي منتشرة في العالم منها ٤٩٧ جامعة ومدرسة عليا.

- يملكون ٥٢ محطة إذاعة، ١٢ شركة توزيع وإنتاج سينمائي و٦٩٤ مطبوعة دورية و٣٨ وكالة أنباء و١٣ بنكًا وشركات ومصانع وعقارات كثيرة.

- وصلت المنظمة إلى السيطرة شبه الكاملة على المجلس الأعلى للأبحاث العلميَّة في أسبانيا.

- في أسبانيا وحدها تملك المنظمة ٢١ بيتًا من بيوت الطلبة تديرها بشكل مباشر.

- وللمنظمة أعضاء وصلوا إلى الوزارة في كل من أسبانيا وإيطاليا ويشكلون ثقلًا مهمًا في كلا البلدين.

- ولهم الآن ثلاثون نائبًا على الأقل في البرلمان الأسباني ينتمون إلى المنظمة ويتحركون بإيحاءاتها.

- وهناك أساقفة وقساوسة منتمون سرًا للمنظمة ويعملون بين مختلف الطبقات الاجتماعيَّة الأسبانية وفي صفوف الجيش.

- ولهم رئاسة قسم الدراسات اللاهوتية في روما وهو فرع من جامعة نافارا الأسبانية [1].

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٥٣- ٦٥٨).

الفصل التاسع

المونية (حركة صن مون التوحيدية)

التعريف:

المونية: حركة مشبوهة تدعو إلى توحيد الأديان وصهرها في بوتقة واحدة، بهدف إلغاء الفوارق الدينيَّة بين الناس لينصهروا جميعًا في بوتقة (صن مون) الكوري الذي ظهر بنبوة جديدة في هذا العصر الحديث.

التاريخ والأحداث

مؤسس هذه النحلة هو القس الثري صن مون المولود في كوريا عام ١٩٢٠، الذي ادّعى بأنه على اتصال بالمسيح عليه الصلاة والسلام منذ عام ١٩٣٦م، وأنه منذ بلوغه السادسة والعشرين من عمره بدأ يدرس حياة الأنبياء والقادة الروحيين من مثل موسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم، ومن مثل بوذا وكرشنا، ويطلع على تعاليم الأديان السماوية والوضعيَّة كاليهوديَّة والنصرانيَّة والإسلام وكذلك البوذية والهندوسية.

وفي عام ١٩٧٣م انتقل إلى الولايات المتَّحدة وعقد صلات عدة مع كبار الشخصيات هناك.

وقد ألقي القبض عليه وأودع السجن الفيدرالي بكنكتيكت لمدة سنة ونصف السنة بسبب تهربه من دفع الضرائب، وقد استطاع أتباعه تصوير سجنه على أنه اضطهاد في سبيل المعتقد الديني الذي يحمله.

ويحتل حاليًا منصب الرئيس للمجلس العالمي للأديان.

وزار ألمانيا، لكن سلطات بون أعلنت أنه شخص غير مرغوب فيه،

ويحاول صن مون أن يكون قريبًا من الأحداث المهمة؛ إذ كان له ولطائفته دور مهم في الوقوف إلى جانب الرئيس ريتشارد نيكسون في فضيحة ووترجيت، كما أنهم كانوا نشيطين في حماية برنامج الرئيس ريغان وسياسته في أمريكا الوسطى.

ويشغل منصب مساعد رئيس المجلس العالمي للأديان شانج هوان كواك، وهو أكبر معاوني مون، وقد أعلن في بيانه الذي ألقاه في المؤتمر المنعقد بتركيا سنة ١٩٨٥م عن نبوة مون وأنه يتلقى الوحي revelation من السماء.

وممن يتبع مون ويعمل في مؤسسته اليهودي فرانك كوفمان المقيم في نيويورك، وقد ناشد علماء المسلمين في مؤتمر تركيا «أن يتفهموا موقف الأديان الأخرى مثل اليهوديَّة والبوذية والهندوكية».

ومن مساعدي مون دكتور يوسف كلارك وهو قس كاثوليكي، وهو عضو مجلس إدارة المجلس العالمي للأديان، وكان ممثل المجلس في مؤتمر تركيا.

ورئيس مكتب مون في هندوراس شخص يدعى كوزا، وهو يعمل بهمة على نشر الحركة في أمريكا اللاتينيَّة.

ورئيس كنيسة مون بالولايات المتَّحدة الأمريكيَّة هو موسى دست.

ونظم مون عملية زواج جماعية في ميدان ماديسون جاردن بنيويورك قام خلالها بتزويج ٢٠٧٥ شابًا وفتاة على الرغم من أن المجلس القومي الكنسي في أمريكا كان قد أصدر بيانًا يعلن فيه عدم الاعتراف بكنيسة مون.

المعتقدات والأفكار

١- يزعم صن مون أنه على اتصال بالمسيح، وأنه يتلقى الوحي من السماء مدعيًا نبوة جديدة.

٢- شعاره وهدفه المعلن هو السعي من أجل توحيد الأديان على اختلاف أنواعها.

٣- يقول للنصارى بأن الإله قد رمى بالمسيحيَّة جانبًا وأبدلها برسالة جديدة هي رسالة توحيد الأديان الداعي إليها.

٤- من القانون الأساسي لحركة مون: «إن الهدف الرئيسي هو العمل من أجل توحيد العالم تحت راية إله واحد بحيث تضمحل من هذا العالم كل الحواجز والعوائق الكنسية والسياسية والوطنية والقومية والاجتماعيَّة».

٥- يقولون في كتابهم المبدأ المقدس: «إن رسالة آدم الأساسية أن يخلق الأسرة الكاملة في الأرض، وهذه المهمة لم تتحقق نتيجة لعمل الشيطان الذي كان نشيطًا في مهمته منذ بداية الخلق، وعيسى قد خلق آدم، وفشل في أمر الزواج، وترك مبدأ تكوين الأسرة الكاملة، وفشله ليس كاملًا فقد أحيا الجانب الروحي للإنسان، وقد ظل جسد الإنسان مستعبدًا للشيطان، هذا أيضًا يجب تجديده، وهذا يستلزم آدمًا ثالثًا بالاتحاد مع زوجة مثالية يمكن تحقيق هذا الهدف لإنجاب الإنسان الكامل».

٦- إنهم يقومون بدراسة رسومات بيانية يزعمون أنها «تبين أن التاريخ والأحداث متكررة ومقدرة سلفًا ووفقًا لهذه الجداول البيانية، ويقولون: إن هناك أمثلة متكررة من البشر قد اختيروا ليصيروا آباء كاملين، لكن الشيطان قد اعترض سبيلهم فلم ينجحوا، وقد وجدت هذه الأسر المثاليَّة على مر التاريخ الإنساني في فترات متقطعة على مدى أربعمائة عام سلفت».

٧- يؤكد مون محاربته للشيوعية ويركز هجومه عليها كما أنه يرسل البعثات لمناهضتها في أماكن عديدة من العالم.

طريق دعوتهم

- يتم اقتناص الشخص ليصبح عضوًا في حركتهم عن طريق دعوته أولًا إلى وجبة طعام، ثم دعوة للاشتراك في رحلة نهاية الأسبوع.

- يمنع الأفراد الجدد من التحدث بعضهم لبعض وعليهم الانتظار حتى اللقاء الآخر في نهاية الأسبوع.

- يمضي المدعو عدة أسابيع مع معلمه، وقد يجعلونه بعد ذلك في مسكن واحد مع أعضاء جدد آخرين ليلقنوهم جميعًا العقيدة الجديدة مع التركيز على تقديس وتمجيد شخصية مون والتأكيد على ضرورة التنكر لعقيدة أهاليهم ومجتمعاتهم.

- يقول مون في كتابه التوجيهي أقوال الأب الروحي: «إن عملية البعد عن العائلة والأصدقاء لا يتم بالصدفة؛ إذ لا بد أن تتمرس على حياتك الجديدة ومن بعدها يمكنك أن تتنكر لعائلتك وأصدقائك وجيرانك».

- إذا ما حاول العضو الفرار منهم فسيكون ذلك صعبًا لعدة أمور:

١- لأنه يكون قد انفصل عن عائلته فلا يستطيع العودة إليها بعد أن ناصبها العداء بسبب معتقده الجديد الذي يخالف معتقدها.

٢- لأنه يكون قد غُسِلَ دماغُه وصار أداة طيعة في أيديهم يحركونه كيفما يريدون بعد أن سيطروا عليه روحيًّا وخدعوه بالوعود السماوية الكاذبة.

٣- لأن أفراد عصابة مون سيتابعونه ويطاردونه حتى يعود إلى حظيرتهم من جديد.

٤- إذا ما استسلم العضو الجديد لهم؛ فإنهم يسخرونه لبيع الورود والشموع ليكون مصيدة لجذب الأعضاء الجدد فضلًا عن الإيراد المالي الذي يحققه لميزانية الحركة.

عقد المؤتمرات

لقد عقد مون عددًا من المؤتمرات سعيًا وراء تحقيق أهدافه، ومنها:

- مؤتمر توحيد اليهود في سويسرا.

- مؤتمر اتحاد العالم المسيحي في إيطاليا.

- مؤتمر البوذيين في اليابان.

- مؤتمر الهندوكية في سيريلانكا.

- مؤتمر اتحاد العالم الإسلامي: الذي تم عقده في تركيا قرب إسطنبول وذلك في الفترة من ١٩ - ٢٢ سبتمبر ١٩٨٥م، وقد تعاونت معهم كلية الإلهيات بجامعة مرمرة بهدف إنجاح المؤتمر.

- لديهم خطة لعقد مؤتمرات أخرى من سنة ١٩٨٩ - ١٩٩٣م.

- كان أتباع مون المشاركون في المؤتمر بتركيا يصورون الخلافات بين الأديان على أنها لا تعدو أن تكون شبيهة بتلك الخلافات الفقهية الموجودة بين المذاهب الإسلاميَّة ذاتها، وهذا محض افتراء، إذ إن الخلاف بين الأديان خلاف عقائدي قبل كل شيء، في حين أن الخلاف بين المذاهب الفقهية ليس أكثر من خلاف داخلي اجتهادي في الفروع دون الأصول.

- قال اليهودي كوفمان في الجلسة الختامية لهذا المؤتمر: «إن الأمر يحتاج إلى أن نبذل المزيد من الجهد حتى نفهم بعضنا، فإننا قد ننتسب إلى شيء واحد وعقيدة واحدة، ورغم ذلك نختلف، ومن أجل أن نلتقي لا بد لنا من أن نتفهم غيرنا من خلال نظرته!!».

المجلس العالمي للأديان

تذكر جريدة المسلمون في عددها ٣٦ أن المجلس العالمي للأديان الذي يترأسه صن مون إنما يعمل تحت رقابة المؤسسة العالمية المتَّحدة للأديان IrF، وهي واحدة من الوكالات الدينيَّة الإنسانية التابعة للكنيسة الموحدة التي هي إحدى الحركات الدينيَّة الجديدة التي أسسها صن مون في كوريا.

- وتذكر الجريدة بأن أهداف المجلس العالمي للأديان حسبما تورده مذكرة المجلس ذاته هي:

١- المناداة بوحدة الإنسانية.

٢- منح الاحترام الواجب للتراث الإنساني المختلف.

٣- دعوة الناس من كل الأديان إلى نوع من الوحدة الروحانية واحترام خصوصيات كل دين.

٤- تشجيع الفهم المتبادل والتعاون بين ومع المعتقدات الدينيَّة في العالم.

٥- معاونة هؤلاء المتطلعين إلى إيجاد تناسق وانسجام بين الأديان والمساعدة في التعاون بين المنظمات الدينيَّة.

٦- توسيع استخدام وجهات النظر الدينيَّة في حل المشكلات الإنسانية العامة.

٧- الدفاع عن حقوق الإنسان بما في ذلك حق حرية المعتقدات الدينيَّة وممارستها.

٨- التأييد العلمي للطموحات الفردية الخاصة بالمعتقدات الدينيَّة عن طريق وضع برامج من شأنها تخفيف المعاناة وتحسين حال البشرية.

أماكن تواجدهم

- تتمتع هذه الحركة بوجود ضخم في جنوب ووسط أمريكا؛ إذ إن لهم علاقات قوية مع كبار السياسيين في تشيلي وأرجواي والأرجنتين وهندوراس وبوليفيا.

- في أيرلندا لهم مركز وكنيسة أسمها الكنيسة التوحيدية، وتجدر الإشارة إلى أن لأيرلندا دورًا كبيرًا في دعم أمثال هذه الحركات.

- لهم استثمارات في جنوب كوريا، وقد سمحت لهم حكومة سيول بإقامة كنيسة لهم خارج العاصمة.

- إنهم متغلغلون في الجناح الأيمن للحزب الجمهوري بالولايات المتَّحدة كما يشكلون الجناح الأيمن للدكتاتورية في أمريكا الجنوبية.

- يمتلك زعيمهم عدة عقارات في العالم وشركات ومطاعم وأراض ومحلات لبيع المجوهرات

وشركة للنشر تسمى Paragon House، كما أسس جريدة الواشنطن تايمز التي يوزع منها ٧٥ ألف نسخة في اليابان ونيويورك وأرجواي وقبرص، ولديه فندق نيويوركر New Yorker في مانهاتن[١] .

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٥٩- ٦٦٤).

الباب الثالث

كتاب النصارى المقدَّس

الفصل الأول: تعريف العهد الجديد.

الفصل الثاني: مكوِّنات العهد الجديد.

الفصل الثالث: تاريخ تدوين أسفار العهد الجديد.

الفصل الرابع: تعدد الأناجيل.

الفصل الخامس: علم نقد العهد الجديد.

الفصل السادس: دراسة لنسب المسيح من خلال العهد الجديد.

الفصل السابع: صفات المسيح من خلال العهد الجديد.

الفصل الثامن: نظرة في قصة الصلب من خلال العهد الجديد.

الفصل الأول

تعريف العهد الجديد

العهد الجديد: هو الكتاب الخاص بالنصارى.

وباعتبار تسلسل النبوَّات فهم يضيفون إليه أسفار العهد القديم، ليشكلا معًا -أي العهد القديم والعهد الجديد- الكتاب المقدس عند النصارى.

وكلمة عهد تعني وثيقة أو عقد، وهو عادة يكون بين طرفين، وكل من العهد القديم والجديد عند النصارى هو عهد بين الله والناس.

وأسفار العهد الجديد تعرض حياة المسيح وأعماله وأقواله وتعاليمه ونشأة الكنيسة الأولى، بالإضافة إلى وصايا ووعود للمؤمنين بالمسيح وتنبؤات عن المستقبل وكذلك عن الحياة الأبدية مع المسيح.

ويعتقد النصارى أن العهد الجديد مثل العهد القديم موحى به من الله، جاء في وثائق المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني قولهم: إن ما تتضمنه وتعرضه الكتب المقدَّسة من حقائق موحاة مكتوبٌ كله بوحي من الروح القدس، وتؤمن أمُّنا الكنيسة المقدَّسة بموجب الإيمان الرسولي أن كتب العهدين القديم والجديد كلها وبجميع أجزائها مقدسة وقانونية؛ فالله هو مؤلِّفها مكتوبةٌ بوحي من الروح القدس.

والعهد الجديد كتب باللغة اليونانيَّة؛ لأنها اللغة السائدة آنذاك، والتي كان يفهمها معظم البشر[١].

---

(١) انظر: مقدمة موسوعة الكتاب المقدس، شحادة بشير، وثائق المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني ص(٤٠٨)، تحريف الكتاب المقدس.

الفصل الثاني

مكونات العهد الجديد

يمكن تقسيم كتب العهد الجديد والمكوَّن من ٢٧ سفرًا إلى أربع مجموعات رئيسية وهي:

المجموعة الأولى: البشائر الأربعة (الأناجيل الأربعة).

وهي كما كتبها كل من: متّى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا، وكل منهم يحكي قصة المسيح من منظور معين.

والإنجيل عند النصارى: معناه البشارة المفرحة، وهي البشارة بوجود مُخلص للعالم وهو يسوع المسيح، لذلك فالإنجيل هو إنجيل المسيح وإن كنا نطلق اسم الإنجيل حسب مؤلِّفه، فإن الاسم الكامل هو «إنجيل يسوع المسيح كما رواه متّى أو مرقس...».

١- **إنجيل متّى:** يعرض متّى يسوع المسيح كملِك ومُخلِّص وهو يستشهد بنبوءات العهد القديم ليثبت أن يسوع هو المسيح المُنتظر، وأن يسوع قد تمم نبوءات العهد القديم.

٢- **إنجيل مرقس:** وقد كتبه مرقس للمؤمنين في روما، وهو يحكى كيف عاش المسيح على الأرض كإنسان.

٣- **إنجيل لوقا:** والذي كتبه الطبيب لوقا إلى أحد معارفه، وفيه يصور كيف عاش المسيح كإنسان كامل.

٤- **إنجيل يوحنا:** وهو يؤكد أن المسيح هو ابن الله المُتجسِّد، وأن المؤمنين به يرثون الحياة الأبدية معه في الملكوت السمائي.

ورموز هذه الأسفار هي: إنجيل متّى (مت)، مرقس (مر)، لوقا (لو)، يوحنا (يو).

المجموعة الثانية: القسم التاريخي (كتاب التاريخ):

سفر أعمال الرسل: وفيه يحكي لوقا الطبيب كيف أن المسيح يسوع أرسل الروح القدس (البارقليط) حتى يواصل عمل المسيح على الأرض بعد أن صعد يسوع إلى السماء.

والسفر يحكى أيضًا كيف نشر الرسل بشارة الإنجيل في العالم، ويحكي أيضًا بصفة خاصة عن الرسول بولس الذي يُعرف برسول الأمم (غير اليهود)، وقد أسس الرسول بولس العديد من الكنائس...

ورمز هذا السفر هو: أعمال الرسل (أع).

المجموعة الثالثة: الأسفار التعليمية (الرسائل): وهي على قسمين:

القسم الأول: رسائل بولس الرسول:

وقد كتبها للكنائس ولبعض العاملين معه في نشر رسالة الإنجيل، وقد تناقلت الكنائس هذه

الرسائل فيما بينها، كذلك عملوا منها نسخًا خاصة بهم.

١- الرسالة إلى العبرانيين: توضح أن العهد الجديد في المسيح يسوع هو أفضل من العهد القديم، وتوضح أيضًا كيف أن الذبيحة في العهد القديم كانت ترمز ليسوع المسيح الذي مات من أجلنا على الصليب.

٢- الرسالة إلى رومية: تؤكد على أن الخلاص والدخول إلى الملكوت السماوي مبني على الإيمان بالمُخلِّص يسوع المسيح.

٣، ٤- رسالتا كورنثوس: كتبهما بولس ليعالج قضايا التعليم والممارسات في هذه الكنيسة.

٥- رسالة غلاطية: تؤكد مرة أخرى على أن الخلاص يكون بالإيمان وليس من خلال الأعمال الحسنة، مهما كان مقدارها.

٦، ٧، ٨- الرسائل إلى كل من أفسس وفيلبي وكولوسي: كتبها بولس الرسول في السجن بسبب تبشيره بالمسيح، وهذه الرسائل تعالج الحياة كمسيحي.

٩، ١٠- الرسالتان إلى تسالونيكي: تصفا الأمور التي سوف تحدث قبل مجيء المسيح الثاني من السماء.

١١، ١٢، ١٣، ١٤- الرسائل الأربعة: تيموثاوس الأولى والثانية، وتيطس وفيلمون: كتبها بولس لبعض للعاملين معه في خدمة الإنجيل.

ورموز هذه الأسفار هي: رسالة بولس الرسول إلى العبرانيين (عب)، رسالته إلى أهل رومية (رو)، رسالتا كورنثوس الأولى والثانية (١كو، ٢كو)، غلاطية (غل)، أفسس (اف)، فيلبي (في)، كولوسي (كو)، رسالتا تسالونيكى الأولى والثانية (١تس، ٢تس)، رسالتا تيموثاوس الأولى والثانية (١تى، ٢تى)، تيطس (تي)، فيلمون (في).

القسم الثاني: الرسائل الجامعة:

في حين رسائل بولس الرسول تحمل اسم المُرسَل إليه، فإن الرسائل الجامعة تحمل اسم كاتبها؛ لأنها كُتبت للكنائس وللمؤمنين عامة.

١- رسالة يعقوب: تؤكد على أن المؤمنين بالمسيح لا بد وأن تظهر أعمالهم الحسنة.

٢، ٣- رسالتا بطرس: تشجع المؤمنين الذين يتعرضون للآلام ويحثهم على الصبر لحين عودة يسوع.

٤، ٥، ٦- رسائل يوحنا الثلاثة: يوحنا كاتب الإنجيل وسفر الرؤية هو أيضا كاتب ٣ رسائل تحمل اسمه، وهو يحث المؤمنين على أن يحبوا الآخرين؛ لأن الله محبة.

٧- رسالة يهوذا: يحذر المؤمنين من التعاليم الباطلة، ويتحدث عن عودة المسيح الثانية ليدين العالم.

ورموز هذه الأسفار هي: رسالة يعقوب (يع)، رسالتا بطرس الأولى والثانية (١بط، ٢بط)، رسائل يوحنا الأولى والثانية والثالثة (١يو، ٢يو، ٣يو)، رسالة يهوذا (يه).

المجموعة الرابعة: كتاب النبوة (سفر النبوة):

سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي: وهو يتحدث بصورة رمزية عن نهاية العالم والأحداث التي تسبقها.

ورمز هذا السفر هو: سفر الرؤيا (رؤ)[1].

---

(١) انظر: مقدمة موسوعة الكتاب المقدس.

الفصل الثالث

تاريخ تدوين اسفار العهد الجديد

نناقش قضية تدوين أسفار العهد الجديد من خلال النقاط الست الآتية:

أولًا: مدى صحة نسبة الأناجيل إلى من نسبت إليهم:

إن كتب النصارى وخاصةً الأناجيل الأربعة متى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا، كتبٌ مجهولٌ كُتَّابها، ومما يبين ذلك عدة أشياء:

١- أن الأناجيل الأربعة وسفر الأعمال لم يذكر في أي واحد منها في بدايته أو نهايته اسم كاتبه، وكذلك أكثر الرسائل، ما عدا رسائل بولس.

فالأناجيل الأربعة لم يوقع أصحابها أو يكتبوا أسماءهم؛ ولذلك ففي الطبعات الإنجليزية تُكتب وفقًا لمتى، أو مرقس، أو لوقا، أو يوحنا.

٢- أن بولس صاحب أكبر مجموعة من الرسائل في العهد الجديد لم يشر ولا مرةً واحدةً لواحدٍ من تلك الأناجيل، ولم يذكر واحدًا منها ألبتة، وبولس يعتبر من أكثر المتقدمين الذين وصلت كتاباتهم الدينيَّة إلى أيدي النصارى، ومع ذلك لم يذكر ولا مرةً واحدةً في جميع رسائله إنجيلًا واحدًا من تلك الأناجيل الأربعة باسمه، وإنما ذكر ما أطلق عليه: الإنجيل، أو: إنجيل الله، كقوله في رسالته إلى تسالونيكي الأولى ٢/ ٢: جاهرنا في إلهنا أن نكلمكم بإنجيل الله بل كما استحسنا من الله أن نؤتمن على الإنجيل...

وهذا الإنجيل المشار إليه -أو إنجيل الله- لا وجود له بين الأناجيل المعتبرة لدى النصارى، بل إن أيًا من أصحاب الأناجيل أو الرسائل الأخرى لم يشر إلى إنجيلٍ من تلك الأناجيل، مما يدل دلالةً واضحةً أن تلك الأناجيل لم تكن معروفةً وليس لها وجود في تلك الأزمان وإلا وجب الإشارة إليها.

٣- إن الدراسات تثبت أنه إلى سنة ١٤٠م لم يُعرف أن أحدًا أشار إلى شيء من الأناجيل الأربعة أو ذكرها بالاسم، فقد قال أصحاب المدخل إلى العهد الجديد، والمطبوع مع العهد الجديد، الطبعة العاشرة من منشورات دار المشرق، في بيروت ١٩٨٥م ما نصه: ومهما يكن من أمر فليس هناك قبل ١٤٠م أي شهادة تثبت أن الناس عرفوا مجموعة من النصوص الإنجيلية المكتوبة، ولا يذكر أن لمؤلف من تلك المؤلفات صفة ما يلزم، فلم يظهر إلا في النصف الثاني من القرن الثاني شهادات ازدادت وضوحًا على مر الزمن، بأن هناك مجموعة من الأناجيل، وأن لها صفة ما يلزم، وقد جرى الاعتراف بتلك الصفة على نحو تدريجي، فيمكن القول: إن الأناجيل الأربعة حظيت نحو السنة ١٧٠م بمقام الأدب القانوني[1].

(١) انظر: اختلافات في تراجم الكتاب المقدس ص(٨٩)، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، موريس بوكاي ص(٩٨- ١٠٣).

ويؤرخ صاحب المدخل إلى العهد الجديد ظهورَ الأناجيل وكتب العهد الجديد ما بين ١٠٠-١٧٠م، ويقول: كانت أول مجموعة عرفتها الكنيسة من العهد الجديد هي مجموعة رسائل بولس؛ فهي أول ما جمع من كل كتب العهد الجديد... ثم يقول: أما المجموعة الثانية فهي مجموعة الأناجيل الأربعة، وقد ظهرت هذه المجموعة متأخرة بعض الوقت عن مجموعة كتابات بولس[1].

وهذا التاريخ ١٤٠م متأخرٌ جدًا عن وفاة آخر من تنسب إليهم تلك الكتب بنحو ٧٠ سنة، فإذا كانت تلك الكتب لم تعرف إلا بعد وفاة المنسوبة إليهم بأكثر من نصف قرن فكيف يمكن إثبات صحة نسبتها إلى أولئك الكُتَّاب.

٤- إن اللغة التي كتبت بها تلك الكتب في الأصل إما الآراميَّة أو العبريَّة، إلا أنها لم تُعرف إلا باليونانيَّة ولا يعرف من هو مترجمها.

والمعروف أن المسيح تكلم اللغة التي كانت دارجةً في فلسطين وقت بعثته، وهي اللغة الآراميَّة، وتواجه العلماء صعوبة كبرى تكمن في الكيفية التي ترجمت بها أقوال عيسى من الآراميَّة إلى اليونانيَّة.

ثانيًا: إن أصحاب الأناجيل المنسوبة إليهم مجهولون تمامًا:

لا يوجد لدى النصارى أي معلومات محققة عن شخصيات كُتَّاب كتبهم، بل كل المعلومات المتوفرة هي تلك التي تشير إلى شيءٍ قليلٍ جدًا من الحوادث ضمن أحداث مع المسيح عليه السلام، وهي لا تعطي تعريفًا بشخصيات كُتَّاب تلك الكتب.

يقول جورج كيرد: عندما كتبت الأناجيل لم يكن هناك مجرد التحقق من شخصية التلاميذ.

كما أعلن فاستوس الذي كان من أعظم علماء فرقة ماني في القرن الرابع الميلادي: إن تغيير الديانة النصرانيَّة كان أمرًا محقًّا، وإن هذا العهد الجديد المتداول حاليًا بين النصارى ما صنعه السيد المسيح ولا الحواريون تلامذته، بل صنعه رجل مجهول الاسم ونسبه إلى الحواريين أصحاب المسيح ليعتبر الناس.

ثالثًا: لا يوجد لدى النصارى أي دليل موثق لكتابة أحد من الذين نسبت إليهم تلك الأناجيل:

إنه لا يوجد معلومة صحيحة عند النصارى تؤكد أن متَّى الذي زعموا أنه حواري كتب إنجيلًا، أو مرقس الذي زعموا أنه من تلاميذ الحواريين، أو لوقا الذي هو تلميذ بولس، أو يوحنا الذي زعموا أنه من الحواريين كتبوا تلك الأناجيل بالطريقة التي يحتاج إليها لإثبات صحة الكتب، كما هو الحال مثلًا لدى المسلمين، فإن الشيخ يكتب الكتاب وينقله عنه تلاميذه بالسند المتصل، ويأخذه عنهم تلاميذهم، وهكذا حتى تصبح نسبة الكتاب إلى مؤلفه مشهورةً مؤكدةً لا يشك أدنى

---

(١) انظر: المدخل إلى العهد الجديد، فهيم عزيز، ص(١٤٦، ١٤٧).

طالب علمٍ بصحة النسبة إلى ذلك المؤلف.

أما النصارى فلا يوجد عندهم أي معلومة من هذا القبيل، ويمكن أن نضرب مثلًا بإنجيل متى ومرقس.

فأقدم معلومة معتمد عليها في ذلك وربما هي الوحيدة في ذلك هي ما نقله يوسابيوس القيصري في كتابه تاريخ الكنيسة عن رجل مجهول الحال يسمى بابياس كان أسقفًا لهيرابولس سنة ١٣٠ م.

قال بابياس: إن متى كتب الأقوال باللغة العبرانيَّة.

وقال عن مرقس صاحب الإنجيل: إن مرقس الذي صار مفسرًا لبطرس قد كتب بكل دقة كل ما نذكره من أقوال وأعمال الرب. ولكن ليس بالترتيب؛ لأنه لم يسمع الرب ولم يتبعه، ولكن كما قلت قبلًا عن بطرس الذي ذكر من تعاليم السيد ما يوافق حاجة السامعين بدون أن يهدف إلى كتابة كل ما قاله الرب وعمله، وهكذا فصل مرقس أنه لم يعمل خطًا واحدًا في كل ما ذكره وكتبه[١].

فهذان النصَّان يعتمد عليهما النصارى في نسبة هذين الكتابين إلى متى ومرقس، وهذان نصان لا يمكن اعتبارهما دليلًا وعمدةً لقضيةٍ خطرةٍ وعظيمةٍ كهذه القضية، وهي إثبات أن هذا الكتاب صحيح صادق موحًى به من الله من عدة أوجه:

١- أن بابياس سيء الفهم، ومحدود الإدراك؛ فقد قال عنه يوسابيوس المؤرخ: إنه أساء فهم الكتابات الرسولية، ويبدو أنه محدود الإدراك جدًّا كما يتبين من أبحاثه.

وكان قد قال عنه يوسابيوس: إنه كتب روايات يقول: إنها وصلته من التقليد غير المكتوب، وأمثالًا وتعاليم غريبة للمخلص وأمورًا خرافية[٢].

فبهذا يكون الشخص منكر الحديث، وغير مقبول الرواية، فكيف يمكن اعتبار شهادته وجعلها أصلًا لأمرٍ خطيرٍ كهذا.

٢- إن عبارته عن متى لا تفيد شيئًا، فلم يعين من هو متى، ولم يعين الأقوال ما هي.

كما أنه ذكر أن متى كتب كتابه باللغة العبريَّة، والكتاب لم تُعرف له أصولٌ عبرية ألبتة، وإنما وجد باللغة اليونانيَّة، وهذا إما أن يدل على أن بابياس عنى كتابًا آخر غير الموجود عند النصارى، وإما أن يكون ترجم من العبريَّة إلى اليونانيَّة فينشأ من هذا إشكال آخر وهو: من هو مترجمه؟ وما مدى علمه واستقامته وتدينه؟ وكذلك ما مدى معرفته بالعبريَّة التي ترجم منها ومعرفته باليونانيَّة التي ترجم إليها؟ إذ لا بد من الاطمئنان على معرفته باللغتين للتأكد من صحة ترجمته، وهذا مهمٌّ جدًّا؛ لأن النسخة اليونانيَّة صارت هي الأصل، أما العبريَّة فمفقودة، فلا بد من التأكد من علم

(١) انظر: تاريخ الكنيسة ص(١٧٧)، المدخل إلى العهد الجديد ص(٢١٨).
(٢) انظر: المدخل إلى العهد القديم ص(٧٨)، قاموس الكتاب المقدس ص(٣٥٧).

مترجمها وأمانته وإلا فقدت قيمتها.

وكذلك قوله عن مرقس، فإنه لم يحدد من هو مرقس هذا الذي صار مفسرًا لبطرس وقال: إنه كتب ما تذكر، مما يدل على أن الكتابة ليست موثقة، وإنما هي كتابة من الذاكرة التي لا يمكن اعتبارها شاهدًا موثوقًا، ثم قال أيضًا: إن بطرس إنما ذكر حاجة السامعين بدون أن يهدف إلى ذكر ما قاله الرب، مما يعني محدودية المعلومات المذكورة وأن هناك أشياء كثيرة لم يذكرها، مما يدل على ضياع التعاليم ولعدم شمولها لكل أقوال المسيح، أو على الأقل أكثرها، بل الأكثر هو الذي لم يذكر.

فمن هنا يمكننا القول: إنه لا يوجد لدى النصارى الإثباتات اللازمة لتأكيد صحة نسبة الأناجيل إلى من نسبت إليهم، وأن كل دعاويهم التي يدعون: مثل أن تلك الكتب وحي من الله أو الروح القدس، أو أنها صحيحةٌ وصادقةٌ، لا دليل عليها ألبتة سوى مجرد الدعوى[1].

رابعًا: الاختلافات بين النسخ المخطوطة للعهد الجديد وتصحيحها:

لا تجد بين مخطوطات العهد الجديد نسختين متفقتين، ولا يوجد (أصل) لإنجيل عيسى لحسم أي خلاف بين روايات الأناجيل.

يقول جورج كيرد: إن أول نص مطبوع من العهد الجديد كان الذي قدمه أرازموس عام ١٥١٦ م، وقبل هذا التاريخ كان يحفظ النص في مخطوطات نسختها أيدي مجهدة لكتبة كثيرين، ويوجد اليوم من هذه المخطوطات ٤٧٠٠ ما بين قصاصات من ورق إلى مخطوطات كاملة على رقائق من الجلد أو القماش، وأن نصوص جميع هذه المخطوطات تختلف اختلافًا كبيرًا ولا يمكننا الاعتقاد أن أيًا منها قد نجا من الخطأ، ومهما كان الناسخ حي الضمير فإنه ارتكب أخطاء، وهذه الأخطاء بقيت في كل النسخ التي نقلت من نسخته الأصليَّة، وأن أغلب النسخ الموجودة من جميع الأحجام قد تعرضت لتغييرات أخرى على أيدي المصححين الذي لم يكن عملهم دائمًا إعادة القراءة الصحيحة.

ويؤكد تشيندورف الذي عثر على نسخة سيناء (أهم النسخ) في دير سانت كاترين عام ١٨٤٤، والتي ترجع إلى القرن الرابع: إنها تحتوي على الأقل على ١٦٠٠٠ تصحيح، ترجع على الأقل إلى سبعة مصححين أو معالجين للنص، بل قد وجد أن بعض المواقع قد تم كشطها ثلاث مرات وكتب عليها للمرة الرابعة[2].

وقد اكتشف ديلتسش، أحد خبراء العهد القديم وأستاذ ومتخصص في اللغة العبريَّة، حوالي ٣٠٠٠ خطٍّ مختلفٍ في نصوص العهد القديم التي عالجها بإجلال وتحفظ.

---

(١) انظر: تحريف الكتاب المقدس.

(٢) انظر: Synopse، لهوك ليتسمان، ص(١١)، لعام ١٩٥٠ .

وتعترف طائفة شهود يهوه في الصفحة الخامسة من مقدمة كتابهم: في أثناء نسخ المخطوطات الأصليَّة باليد تدخَّل عنصر الضعف الإنساني ولذلك فلا توجد من بين آلاف النسخ الموجودة اليوم باللغة الأصليَّة نسختان متطابقتان.

خامسًا: ضعف سند الأناجيل.

إن أقدم الأناجيل الموجودة اليوم، لم تكتب في حياة المسيح ولا عقب رفعه مباشرةً، أو حتى بعد ذلك ببضع سنين، بل كتب أول الأناجيل بعد موت المسيح بمدة طويلة.

وقد قيل: إن من أسباب تأخر كتابتها:

١- تفشي فكرة المجيء الثاني للمسيح قبل أن يموت ذلك الجيل الذي عاصر المسيح.

٢- ما تعرض له الحواريون من اضطهاد من قبل اليهود والرومان. وهذا ابن حزم يعطينا صورةً واضحة للأحداث، والظروف التي مرت بها دعوة عيسى فيقول: «وأما النصارى فلا خلاف بين أحد منهم ولا من غيرهم في أنه لم يؤمن بالمسيح في حياته إلا مائة وعشرون رجلًا فقط، وكل من ظفر به منهم إما قتل بالحجارة، وإما صُلب أو قتل بالسيف أو بالسم، فبقوا على هذه الحالة لا يظهرون ألبتة، ولا لهم مكان يأمنون فيه، مدة ثلاثمائة سنة بعد رفع المسيح، وفي خلال ذلك ذهب الإنجيل المنزل من عند الله عز وجل إلا فصولًا قصيرة أبقاها الله تعالى حجةً عليهم وخزيًا لهم».

يضاف إلى ذلك أن عدم اعتناء النصارى بالتدوين مباشرة من فم المسيح أدى إلى أن يكون ما كتب من الذاكرة فقط بعد فترةٍ زمنية طويلة، فكانت النتيجة عدم دقة الأناجيل.

وتأخر كتابة الأناجيل فترة زمنية طويلة كفيلة بنسيان الشيء الكثير مما سمع من المسيح ونقل عنه كما نطق به، ولذلك ضاع منه ما ضاع ونسي منه ما نسي.

والكتبة: متىّ، مرقس، يوحنا، لوقا، كتبة الأناجيل المعتمدة لدى النصارى لم يسمعوا جميعهم من المسيح مباشرة، ولم يكونوا جميعهم من تلاميذه، ولم يذكروا سندًا للسماع فهو سند منقطع عن المسيح[١].

سادسًا: أثر المعتقدات على كتابة الأناجيل.

يقول الأب بولس إلياس: إن الأناجيل بُنِيَت على المعتقدات فقد نشأت المعتقدات بواسطة بولس، ثم كتب بولس رسائله بين سنة ٥٥ وسنة ٦٣ ميلادية، بَيْدَ أنَّ الإنجيليين لم يبدءوا كتابة أناجيلهم إلا في سنة ٦٣ ميلادية.

ويقول فردريك جرانت: إن العهد الجديد كتاب غير متجانس ذلك أنه شتات مجمع، فهو لا يمثل وجهة نظر واحدة من أوله إلى آخره، لكنه في الواقع يمثل وجهات نظر مختلفة.

---

(١) انظر: الإنجيل دراسة وتحليل، د. محمد شلبي شتيوي ص(١٤-١٥)

ويقول القس شورر: إن الهدف من القول بالوحي الكامل للكتاب المقدس، والمفهوم الرامي إلى أن يكون الله هو مؤلفه هو زعم باطل ويتعارض مع المبادئ الأساسية لعقل الإنسان السليم، الأمر الذي تؤكده لنا الاختلافات البينة للنصوص، لذلك لا يمكن أن يتبنى هذا الرأي إلا إنجيليون جاهلون أو مَن كانت ثقافته ضحلة[١].

وأما تفصيل الكلام عن الأناجيل فهو كالآتي:

إنجيل متَّى

شخصية متَّى غير متأكد منها، فقيل: إنه أحد تلاميذ المسيح، وقيل: غير ذلك.

والنقاد ينكرون نسبة هذا الإنجيل إلى متّى الحواري، وينسبونه إلى أحد أتباعه الذي وضع عليه اسم متَّى تلميذ عيسى ليطمئن الناس إليه ويقبلونه باعتباره أحد الذين عايشوا عيسى وشاهدوا أحواله.

ويؤكد رحمة الله الهندي أن الإنجيل المنسوب إلى «متَّى» ليس من تأليف «متّى الحواري»، إذ لو كان هو مؤلف هذا الإنجيل لظهر من كلامه في موضع من المواضع أنه يكتب الأحوال التي رآها، ولعبر عن نفسه بصيغة المتكلم، كما جرت به العادة سلفًا وخلفًا، وهذه العادة ما كانت مهجورة في عهد الحواريين أيضًا.

فمثلًا في متَّى ٩/٩: وفيما يسوع مجتاز من هناك رأى إنسانًا جالسًا عند مكان الجباية اسمه متَّى فقال له: اتبعني فقام وتبعه.

فمَن الذي يتحدث هنا عن متى؟ إنه شخص آخر وإلا قال: رأني جالسًا فقال لي... فقمت وتبعته، وزاد المعنى إيضاحًا فقال: (وتبعته)، بدلًا من (وتبعه).

ووقت كتابة هذا الإنجيل غير محدد أيضًا، فقيل: كتب إنجيله سنة ٤١م حسب قول البعض، والبعض الآخر يرى أنه كتب سنة٦٠م.

ولم يقع اتفاق على اللغة التي كتب بها هذا الإنجيل، فقيل: العبريَّة، وقيل: الآراميَّة.

ومهما كانت لغة الأصل؛ فإن هذا الأصل المزعوم مفقود والموجود هو الترجمة اليونانيَّة للأصل المزعوم المفقود.

والمترجم أيضًا مجهول، وتاريخ الترجمة كذلك مجهول، والأصل لا وجود له، مما يجعل من الصعب التثبت من مدى تطابق الترجمة مع الأصل إن كان هناك أصل[٢].

---

(١) انظر: يسوع المسيح، بولس إلياس، ص(١٨)، حقائق حول الكتاب المقدس.

(٢) انظر: الإنجيل دراسة وتحليل ص(٤٦، ٤٧)، مقارنة بين الأناجيل الأربعة، د. محمد علي الخولي ص(١٨)، الاختلافات في الكتاب المقدس.

إنجيل مرقس

في تحديد هوية مرقس ومعرفة ما إذا كان من تلاميذ المسيح أم لا فهناك ثلاثة أقوال:

١- فريق يدعي أن مرقس كان تلميذًا لعيسى أو أنه واحد من السبعين رسولًا -هكذا عند النصارى- الذين أرسلهم عيسى مبشرين بالدين الجديد في المدن التي يزمع عيسى الذهاب إليها.

٢- وفريق آخر يرى أن مرقس ليس من الحواريين الاثني عشر وليس من السبعين، ولا من المائة والعشرين الذين خطب فيهم بطرس، وإنما هو شخص مغمور من عامة الناس.

٣- وفريق ثالث يتوسط القضية فيجعل من مرقس تلميذًا لبطرس الذي كان تلميذًا لعيسى.

ولم يذكر مرقس في إنجيله أنه سمع من المسيح، ولا ذكر من أين استقى معلوماته.

وكتب مرقس إنجيله عام ٦١م، واللغة المكتوب بها الإنجيل هي اللغة اليونانيَّة، والأصل مفقود؛ أي لا توجد المخطوطة التي كتبها مرقس.

والمخطوطات الموجودة الآن لا نجد أي نسختين تتفقان تمامًا. وخاتمة إنجيل مرقس غير متفق عليها[١].

إنجيل لوقا

لم يدَّعِ أحد من النصارى أن لوقا من تلاميذ المسيح، ولكن كما هي العادة عند أكثر النصارى يحاول هؤلاء إضفاء صفة القدسية والرسولية على كتبة الأناجيل سواء بطريق مباشر كما ادعوا في مرقس، أو بطريق غير مباشر كما زعموا بشأن صاحب هذا الإنجيل الثالث، فقد زعموا أن لوقا كان تلميذًا لبولس، وبولس عندهم رسول وبذلك يكون إنجيل لوقا مكتوبًا بطريقة الإلهام وبمعاونة الروح القدس الذي امتلأ منه بولس الرسول المدعي، وبولس هذا لم يرَ المسيح.

وقد كتب لوقا إنجيله عام ٦٣م والأصل الذي كتبه غير موجود.

وقد كتبه دون أن يذكر مصدر رواياته وسندها، بل ولم يقل إنه كلام الله فقد قال في مقدمة الإنجيل ١/١- ٤: إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا، كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخدامًا للكلمة، رأيت أنا أيضا إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن اكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوفيلس، لتعرف صحة الكلام الذي علمت به.

فيعترف هنا لوقا بأنه لم يكتب إنجيله بالإلهام من الله بل كتبه نتيجة ما سلمه إليه آخرون ويقول (إذ قد تتبعت) وفي بعض الطبعات يقول (إذ قد أدركت)، ولم يقل: (إذ قد أُلهمت) وكتب هذا كما

(١) انظر: الإنجيل دراسة وتحليل ص(٥٢)، مقارنة بين الأناجيل الأربعة ص(٩٣)، النصرانية تاريخًا وعقيدة، د. مصطفى شاهين ص(١٧٣)، حقائق حول الكتاب المقدس.

كتبه الكثيرون فهو يمشي على خطى مَن سبقوه قبله.

وهذه الفقرات من إنجيل لوقا تجعل من إنجيله رسالة شخصية بين صديقين تحولت فجأة باختيار الكنيسة إلى إنجيل مقدس!! فهي رسالة ودية من لوقا إلى صديقه العزيز المسمى ثاوفيلس وليست رسالة موجهة إلى العالم. ولا يوجد ما يدعو إلى التفكير في كونها من عند الله(١).

إنجيل يوحنا

يوحنا هذا هو أحد الحواريين الاثني عشر حسب اعتقاد بعض النصارى، ولكن الأرجح لدى البعض أن كاتب إنجيل يوحنا ليس يوحنا الحواري وهذا ما صرحت به دائرة المعارف البريطانية التي اشترك في تأليفها خمسمائة من علماء النصارى، تقول دائرة المعارف البريطانية: أما إنجيل يوحنا فإنه لا مرية ولا شك كتاب مزوَّر، أراد صاحبه به المضادة بين اثنين من الحواريين بعضهما لبعض وهما القديسان «يوحنا» و«متيّ» وقد ادعى هذا الكاتب المزوِّر في متن الكتاب أنه الحواري الذي يحبه المسيح فأخذت الكنيسة هذه الجملة على علاتها وجزمت بأن الكاتب هو «يوحنا» الحواري ووضعت اسمه على الكتاب نصًا مع أن صاحبه غير يوحنا يقينًا، ولا يخرج هذا الكتاب عن كونه مثل بعض كتب التوراة التي لا رابطة بينها وبين من نُسبت إليهم، وإنا لنرأف ونشفق على الذين يبذلون منتهى جهودهم ليربطوا ولو بأوهى رابطة ذلك الرجل الفلسفي -الذي ألف هذا الكتاب في الجيل الثاني- بالحواري يوحنا الصياد الجليلي؛ فإن أعمالهم تضيع عليهم سدى لخبطهم على غير هدى.

ويقول هورن: إن هذا الإنجيل كتب، والغرض منه التصريح بألوهية المسيح بعد أن كان «شير ينطوس» و«أبيسون» وجماعتهما يعلِّمون المسيحيَّة بأن المسيح ليس إلا إنسانًا.

ومما يؤكد أيضًا أن كاتب هذا الإنجيل ليس «يوحنا» الحواري أن تاريخ كتابة هذا الإنجيل الذي كان عام ٩٨م وهو تاريخ متأخر عن رفع المسيح إلى السماء وإذا كان «يوحنا» هو تلميذ المسيح فلماذا تأخر هذا الوقت عن كتابة إنجيله، ثم إن هذا سن متقدم لا يكتب فيه الناس عادةً، فإذا كان كاتبه هو «يوحنا» التلميذ فسيكون سنه فوق السبعين، فماذا يتذكر الإنسان بعد هذا العمر من أقوال كانت قبل ٦٥ عامًا أو تزيد.

وفي الإصحاح ١٩/ ٣٥: والذي عاين شهد وشهادته حق وهو يعلم أنه يقول الحق لتؤمنوا أنتم.

فمَن يكون (هو) الذي يقصده يوحنا؟ إنه شخص آخر غيره يتحدث عنه.

ويؤكد هذا في الإصحاح ٢١/ ٢٤: هذا هو التلميذ الذي يشهد بهذا وكتب هذا ونعلم أن

---

(١) انظر: الإنجيل دراسة وتحليل ص(٦١)، مقارنة بين الأناجيل الأربعة ص(١٠٨)، الاختلافات في الكتاب المقدس، حقائق حول الكتاب المقدس.

شهادته حق... وأشياء أخر كثيرة صنعها يسوع أن كُتبت واحدة واحدة فلست أظن أن العالم يسع الكتب المكتوبة.

فمَن (هذا)؟، ومَن (هو) ومن القائل «وقد علمنا» و«ظننت»؟!

ومَن هو المقصود في قوله: (ونعلم أن شهادته حق)؟

إنه شخص آخر غير يوحنا كتب هذا السفر، فنسي أن يضبط وينظم ألفاظه كباقي الأسفار، فانكشفت الحقيقة بأن يوحنا لم يكتب إنجيله ولذلك لم يوقع باسمه.

والنسخة الأصليَّة من هذا الإنجيل مفقودة، والإصحاح الواحد والعشرين منه أضيف إلى الإنجيل فيما بعد.

يقول المحقق المشهور كَروتِيسَ: إن هذا الإنجيل كان عشرين بابًا فألحقت كنيسة (أفسس) الباب الحادي والعشرين بعد موت يوحنا.

في فترة المائة والخمسين عامًا الأخيرة تحقق العلماء أن الأناجيل الثلاثة الأولى تختلف عن إنجيل يوحنا أسلوبًا ومضمونًا.

وتقول دائرة المعارف الأمريكيَّة: إن هناك مشكلة هامة وصعبة تنجم عن التناقض الذي يظهر في نواحٍ كثيرة بين الإنجيل الرابع والثلاثة المتشابهة، إن الاختلاف بينهم عظيم لدرجة أنه لو قبلت الأناجيل المتشابهة باعتبارها صحيحة وموثوقًا فيها، فإن ما يترتب على ذلك هو عدم صحة إنجيل يوحنا[1].

إنجيل المسيح

أشار مرقس في ١/ ١٤ إلى إنجيل المسيح بقوله: وبعدما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله ويقول: قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل.

فأين هذا الإنجيل المشار إليه؟ إن قوله: «آمنوا بالإنجيل» صريح في أنه كان بيده إنجيل، وإلا فكيف يكلفهم بأن يؤمنوا بكتاب، لم يكن موجودًا. ثم كيف يتركون التوراة لكتاب غير موجود؟

وفي أعمال الرسل ٨/ ٢٥ يقول عن بطرس ويوحنا في دعوتهما للسامريين من اليهود: وكما شهدا وتكلما بكلمة الرب رجعا إلى أورشليم وبشرا بالإنجيل في قرى كثيرة للسامريين.

وفي رسالة بولس الأولى إلى أهل تسالونيكي ٢/ ٢، ٤: جاهرنا في إلهنا أن نكلمكم بإنجيل الله، بل كما استحسنا من الله أن نؤتمن على الإنجيل.

إذًا الإنجيل كان كتابًا موجودًا ومعروفًا بأنه إنجيل المسيح فأين هو هذا الإنجيل المشار إليه.

---

(١) انظر: محاضرات في النصرانية ص(٥٤)، النصرانية تاريخًا وعقيدة ص(١٨٣)، مناظرة بين الإسلام والنصرانية ص(٣٦)، الاختلافات في الكتاب المقدس، حقائق حول الكتاب المقدس.

إن الإنجيل الذي أتى به المسيح وسلمه إلى تلاميذه وأمرهم أن يبشروا به؛ لا يوجد الآن، وإنما توجد قصص ألفها التلاميذ وغير التلاميذ لم تسلم من المسخ والتحريف والزيادة والحذف.

يقول رحمة الله الهندي في كتابه إظهار الحق: طلبنا مرارًا من علمائهم الفحول السند المتصل فما قدروا عليه، واعتذر بعض القسيسين في محفل المناظرة التي كانت بيني وبينهم، وتفحصنا في كتب الإسناد لهم فما رأينا فيها شيئًا غير الظن والتخمين.

فالإنجيل الذي نزل على عيسى عليه السلام من الله عز وجل ليس هو الإنجيل الذي بين أيدي النصارى اليوم، فهو ليس صورة منسوخة من إنجيل عيسى عليه السلام، وإلا لاتفقت فيما بينها في اللفظ والمعنى، والنصارى يعلمون أن الأناجيل الأربعة لم تكتسب الثقة والصحة لديهم بأمر من الله، وإنما كان ذلك بقرار من الكنيسة مما أكد الشك القائم حولها؛ لأنها اختيرت من بين مجموعة كبيرة من الكتب كان الشك حولها جميعًا ثم أصبحت هذه الأربعة مقدسة مقبولة بقرار من المجمع المسكوني الأول[١].

---

(١) انظر: إظهار الحق ص(١٠٢-١٠٣)، النصرانية تاريخًا وعقيدة ص(٥١)، حقائق حول الكتاب المقدس.

الفصل الرابع

تعدد الأناجيل

كتب لوقا في ١/١- ٤: إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخدامًا للكلمة رأيت أنا أيضًا إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوفيلس لتعرف صحة الكلام الذي علّمت به.

يتبين لنا من مقدمة الخطاب الموجه من لوقا إلى صاحب السمو ثاوفيلس أن كثيرين هم الذين كتبوا مثل ما كتبه لوقا في بيان حال المسيح. فأين هذه الأناجيل؟ فمن الواضح جدًّا أنه كانت هناك كثرة في كتابة الأناجيل في ذلك الزمن... فأين هي؟

يقول ج. ما كنيكل في شرحه لعبارة «إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة»: هذه الكلمات هي الخبر اليقين الوحيد الذي بحوزتنا عن وجود سجلات مكتوبة قبل الشروع في تدوين الأناجيل الثلاثة الأولى، لكن تلك المؤلفات اندثرت جميعها[١].

من الملاحظ أن لوقا قد كتب إنجيله حوالي عام ٦٠م كما يذكر قاموس الكتاب المقدس ص ٨٢٣، وعليه فإن تلك السجلات المفقودة تعود لذلك التاريخ وما قبله.

وتعدد دائرة المعارف الأمريكيّة (ENCYCLOPEDIA AMERCANA، ١٩٥٩) أشهر الأناجيل الغير معترف بها والتي منها: إنجيل توما - إنجيل بطرس - إنجيل باسيليوس - إنجيل فيلب - إنجيل ماتياس - إنجيل برثولماوس - إنجيل أندراوس - إنجيل الأنكراتيين - إنجيل ثداوس - إنجيل غمالائيل - إنجيل أبللس - رؤيا إستفانوس... وغيرها من الأناجيل.

وعلى ذلك لم تكن الأناجيل الأربعة التي يتضمنها حاليًا الكتاب المقدس هي الأناجيل الوحيدة التي كانت قد دُوِّنت في القرون الأولى بعد الميلاد، فقد كان هناك الكثير من الأناجيل.

وهذا هو السبب الذي دفع لوقا أن يكتب رسالته تلك إلى صديقه ثاوفيليس التي اعتبرتها الكنيسة فيما بعد من كلام الله.

ومن المعلوم أن المجامع الأولى قد حرمت قراءة الكتب التي تخالف الكتب الأربعة والرسائل التي اعتمدتها الكنيسة فصار أتباعها يحرقون تلك الكتب ويتلفونها، فنحن لا ثقة لنا باختيار المجامع البشرية لما اختارته فنجعله حجة ونعد ما عداه كالعدم.

وها هو مجمع (ترنت) الذي عقد في القرن الخامس عشر والذي صادق على قرارات مجمع (قرطاج "Carthage" سنة ٣٩٧ بشأن الأسفار السبعة وحكم بقانونيتها، فجاءت الكنيسة

---

(١) تفسير الكتاب المقدس، جماعة من اللاهوتيين لدار منشورات النفير- بيروت.

البروتستانية بعد ذلك في أوائل القرن السادس عشر ورفضت قرارات هذين المجمعين بمجمع آخر!

يقول القس السابق عبد الأحد داود: إن هذه السبعة والعشرين سفرًا أو الرسالة الموضوعة من قبل ثمانية كُتَّاب لم تدخل في عداد الكتب المقدَّسة باعتبار مجموعة هيئتها بصورة رسمية إلا في القرن الرابع بإقرار مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م.

لذلك لم تكن أي من هذه الرسائل مصدقة لدى الكنيسة... وهناك أي في مجمع نيقية تم انتخاب الأناجيل الأربعة من بين أكثر من أربعين أو خمسين إنجيلًا، وتم انتخاب الرسائل الإحدى والعشرين من رسائل العهد الجديد من بين رسائل لا تعد ولا تحصى، وصودق عليها، وكانت الهيئة التي اختارت العهد الجديد هي تلك الهيئة التي قالت بألوهية المسيح، وكان اختيار كتب العهد الجديد على أساس رفض الكتب المسيحيَّة المشتملة على تعاليم غير موافقة لعقيدة نيقية وإحراقها كلها[(١)].

ويقول المؤرخ ديورانت في كتابه قصة الحضارة المجلد الثالث: وصدر مرسوم إمبراطوري يأمر بإحراق كتب آريوس جميعها، ويجعل إخفاء أي كتاب منها جريمة يعاقب عليها بالإعدام.

ويقول الكاتب المسيحي حبيب سعيد: وبذلك فض المؤتمر النزاع القائم، وقرر إبعاد آريوس وأتباعه وحرق الكتاب الذي أودعه آراءه الملحدة.

وقد أعلن «آدم كلارك» في المجلد السادس من تفسيره: إن الأناجيل الكاذبة كانت رائجة في القرون الأولى للمسيحية، وأن فابير بسينوس جمع أكثرَ من سبعين إنجيلًا من تلك الأناجيل وجعلها في ثلاث مجلدات.

وقد كتب في مسألة تعدد الأناجيل الكثير من مؤرخي النصرانيَّة، فيقول العالم الألماني «دي يونس» في كتابه (الإسلام): إن روايات الصلب والفداء من مخترعات بولس ومَنْ شابهه من المنافقين خصوصًا وقد اعترف علماء النصرانيَّة قديمًا وحديثًا بأن الكنيسة العامة كانت منذ عهد الحواريين إلى مضي ٣٢٥ سنة بغير كتاب معتمد، وكل فرقة كان لها كتابها الخاص بها.

الغريب أن الكنيسة هي التي حددت الكتب الصحيحة التي يجب أن تُداوَل وألغت الباقي واعتبرها كتب غير قانونية، ومنها كتب ورسائل للمسيح نفسه، وكتاب لمريم العذراء، وأناجيل أخرى كثيرة للحواريين تلاميذه.

فبأي سلطان عملت الكنيسة هذا؟

من بين أربعة آلاف مخطوطة مختلفة لعشرات الأناجيل قام قساوسة الكنيسة باختيار أربعة فقط كانت تتوافق مع ما يميلون إليه وسمّوها بشارات مَتّى ومرقس ولوقا ويوحنا[(٢)].

---

(١) الإنجيل والصليب ص(١٤).

(٢) انظر: حقائق حول الكتاب المقدس.

الفصل الخامس

علم نقد العهد الجديد

إن التناقض والتعارض الموجودَين في الكتاب المقدس هو أكبر دليل على تحريفه وبطلانه؛ ذلك أن التناقض من صفات الفكر البشري، ولا يمكن بأي حال أن يقع في الوحي السماوي إذ معناه الكذب والاختلاف والرب سبحانه وتعالى لا يكذب ولا يختلف مع نفسه.

ويجد المطلع على العهد الجديد وبخاصة الأناجيل الأربعة أن هناك تناقضًا فيما بينها من جهة، وتناقضًا في داخل الإنجيل الواحد من جهة أخرى، بل قد وجد في الصفحة الواحدة ما يناقض بعضه بعضًا، ويظهر هذا بوضوح أكثر في توقيت الحوادث والتقديم والتأخير في تاريخ الوقائع.

يقول (ول ديورانت): «ملاك القول أن ثمة تناقضًا كبيرًا بين بعض الأناجيل وبعضها الآخر، وأن فيها نقطًا تاريخية مشكوكًا في صحتها، وكثير من القصص الباعثة على الريبة والشُّبَه بما يروى عن آلهة الوثنيين».

معايير النقد

يمكننا في دراسة نقد العهد الجديد اتباع المعايير التالية:

١- التناقض في الشرائع بين العهد الجديد والعهد القديم.

٢- التناقض في النبوءات بين العهد الجديد والعهد القديم.

٣- التناقض في وصف الإله بين العهد الجديد والعهد القديم.

٤- التناقض في حياة يسوع بين أسفار العهد الجديد.

٥- التناقض بين الرسائل.

٦- الاختلاف بين النسخ والترجمات.

وسوف نتحدث عن هذه المعايير ونذكر لها نماذج وأمثلة.

المعيار الأول: التناقض في التشريع بين العهد الجديد والعهد القديم

الإكمال أم النقض:

في متى ٥/ ١٧: لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل.

١- الطلاق.

في متى ٥/ ٣١، ٣٢: وقيل: مَن طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق، وأما أنا فأقول لكم: إن من طلق امرأته إلا لعلة الزنى يجعلها تزني، ومن يتزوج مطلقة فإنه يزني.

٢- القصاص.

في متى ٥/٣٨- ٤١: سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشر بل مَن لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضًا، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضًا، ومن سخرك ميلًا واحدًا فاذهب معه اثنين.

٣- الزنى.

في اللاويين ٢٠/ ١٠- ١١: وإذا زنى رجل مع امرأة؛ فإذا زنى مع امرأة قريبة فإنه يقتل الزاني والزانية، وإذا اضطجع رجل مع امرأة أبيه فقد كشف عورة أبيه. إنهما يُقتلان كلاهما. دمهما عليهما.

ولكن في يوحنا ٨/ ٣- ١١: وقدم إليه الكتبة والفريسيون امرأة أمسكت في زنى. ولما أقاموها في الوسط. قالوا له: يا معلم هذه المرأة أُمسكت وهي تزني في ذات الفعل وموسى في الناموس أوصانا أن مثل هذه تُرجم فماذا تقول أنت، . . . ، وقال لهم: مَن كان منكم بلا خطية فليرمِها أولًا بحجر، . . . ، فقال لها يسوع: ولا أنا أدينك اذهبي ولا تخطئي أيضًا.

٤- الميراث.

في لوقا ١٢/ ١٣- ١٤: وقال له واحد من الجمع: يا معلم قل لأخي أن يقاسمني الميراث. فقال له: يا إنسان مَن أقامني عليكما قاضيًا أو مقسمًا.

٥- طلب دم الآباء من الأبناء.

في سفر التثنية ٢٤/ ١٦: لا يقتل الآباء عن الأولاد ولا يقتل الأولاد عن الآباء كل إنسان بخطيته يقتل.

ولكن في لوقا ١١/ ٥٠، ٥١: لكي يطلب من هذا الجيل دم جميع الأنبياء المهرق منذ إنشاء العالم من دم هابيل إلى دم زكريا.

٦- المسكر.

في التثنية ١٤/ ٢٦: وأنفق الفضة في كل ما تشتهي نفسك في البقر والغنم والخمر والمسكر وكل ما تطلب منك نفسك وكل هناك أمام الرب إلهك وافرح أنت وبيتك.

وفي نشيد الإنشاد ٥/ ١: كلوا أيها الأصحاب اشربوا واسكروا أيها الأحباء.

ولكن في رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس ٦/ ١٠: . . . ولا سكيرون ولا شتامون ولا خاطفون يرثون ملكوت الله.

وفي لوقا ١/ ١٥ يقول ملاك الرب عن يوحنا المعمدان: لأنه يكون عظيمًا أمام الرب وخمرًا ومسكرًا لا يشرب.

بينما في متى ١١/ ١٩: جاء ابن الإنسان يأكل ويشرب. فيقولون هو ذا إنسان أكول وشريب

خمر محب للعشارين والخطاة.

وفي يوحنا ٢/١- ١١: وفي اليوم الثالث كان عرس في قانا الجليل وكانت أم يسوع هناك،...، ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع له ليس لهم خمر،...، قال لهم يسوع املئوا الأجران ماء فملئوها إلى فوق،...، فلما ذاق رئيس المتكا الماء المتحول خمرا،...، هذه بداية الآيات فعلها يسوع في قانا الجليل وأظهر مجده فآمن به تلاميذه.

٧- المخصي والمجبوب.

في سفر التثنية ١/٢٣: لا يدخل مخصي بالرض أو مجبوب في جماعة الرب.

ولكن في متى ١٢/١٩: لأنه يوجد خصيان ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم. ويوجد خصيان خصاهم الناس، ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات. من استطاع إن يقبل فليقبل.

٨- الغضب.

في سفر الخروج ١٣/٢٠، والتثنية ١٧/٥: لا تقتل.

وفي الخروج ٧/٢٣: ولا تقتل البريء والبار.

ولكن في متى ٢١/٥، ٢٢: قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل ومن قتل يكون مستوجب الحكم، وأما أنا فأقول لكم إن كل من يغضب على أخيه باطلًا يكون مستوجب الحكم، ومن قال لأخيه رقا يكون مستوجب المجمع، ومن قال يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم[١].

المعيار الثاني: التناقض في النبوءات بين العهد الجديد والعهد القديم

١- نبوءة ملاخي.

في لوقا ٢٧/٧: هذا هو الذي كتب عنه ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيئ طريقك قدامك.

وفي متى ١١/ ١٠: فإن هذا هو الذي كتب عنه ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيئ طريقك قدامك.

وفي مرقس ٢/١: كما هو مكتوب في الأنبياء، ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيئ طريقك قدامك.

وهذه النبوءة في سفر ملاخي ١/٣: هأنذا أرسل ملاكي فيهيئ الطريق أمامي.

ولفظ: أمام وجهك، لم يوجد في كلام ملاخي، وفرق بين ضمير المتكلم في لفظ: أمامي، وضمير المخاطب في لفظ: طريقك قدامك.

---

(١) انظر: الاختلافات في الكتاب المقدس، تحريف الكتاب المقدس، حقائق حول الكتاب المقدس.

٢- نبوءة إشعياء، (فتى أم عبد).

في متّى ١٢/ ١٧- ٢١: لكي يتم ما قيل بإشعياء النبي القائل: هو ذا فتاي الذي اخترته، حبيبي الذي سُرَّتْ به نفسي، أضع روحي عليه فيخبر الأمم بالحق، لا يخاصم ولا يصيح ولا يسمع أحدٌ في الشوارع صوتَه، قصبة مرضوضة لا يقصف، وفتيلة مدخنة لا يُطْفَأ، حتى يخرج الحق إلى النصرة، وعلى اسمه يكون رجاء الأمم.

ولكن في سفر إشعياء ٤٢/ ١- ٤: هو ذا عبدي الذي أعضده مختاري الذي سرت به نفسي ووضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم، لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في الشارع صوته، قصبة مرضوضة لا يقصف وفتيلة خامدة لا يُطفأ، إلى الأمان يخرج الحق، لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض وتنتظر الجزائر شريعته.

٣- نبوءة إشعياء، (اسم العذراء).

في متّى ١/ ٢٢، ٢٣: وهذا كله كان لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل، هوذا العذراء تحبل وتلد ابنا ويدعون اسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا.

وهذه النبوءة في إشعياء ٧/ ١٤: ها العذراء تحبل وتلد ابنًا وتدعو اسمه عمانوئيل.

ويعتقد النصارى اعتقادًا جازمًا أن العذراء المقصودة هي مريم، وأن عمانوئيل يقصد به المسيح.

ولكن نصوص العهد القديم تنفي ذلك تمامًا، وتؤكد أنها أسماء بلاد:

في أرمياء ١٨/ ١٣: ما يقشعر منه جدًّا عملت عذراء إسرائيل.

وفي إشعياء ٤٧/ ١: انزلي واجلسي على التراب، أيتها العذراء ابنة بابل.

وأيضًا هذه الفقرة في سفر إشعياء لا تتنبأ عن المسيح القادم بل هي وعد الله لأحاز بن يوثان ملك يهوذا على لسان النبي إشعيا بأنه سوف يعطيه آية وعلامة لزوال ملك أعدائه، وقد بين له النبي إشعياء آية خراب ملك أعدائه وزواله وهي أن امرأة شابة تحبل وتلد ابنًا يسمى عمانوئيل ثم تصبح أرض أعداءه خرابًا قبل أن يميز هذا الصبي بين الخير والشر فتقول الفقرة السادسة عشر من الإصحاح السابع من سفر إشعيا: (لأنه قبل إن يعرف الصبي إن يرفض الشر ويختار الخير تخلى الأرض التي أنت خاش من ملكيها) إي إن أحاز سوف ينتصر على «إِسْرَائِيلَ وَأَرَامَ»، قبل إن يميز الصبي بين الخير و الشر.

ثم إن المسيح عليه السلام لم يُدْعَ «عمانوئيل» بل يسوع.

٤- نبوءة زكريا.

في متّى ٢١/ ٤، ٥ عن دخول المسيح أورشليم راكبًا جحش وأنثى حمار: فكان هذا كله لكي يتم ما قيل بالنبي القائل: قولوا لابنة صهيون هو ذا ملكك يأتيك وديعًا راكبًا علي أتان وجحش ابن أتان.

وهذا في سفر زكريا ٩/٩: ابتهجي جدًا يا ابنة صهيون اهتفي يا بنت أورشليم هو ذا ملكك يأتي إليك هو عادل ومنصور وديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن أتان، واقطع المركبة من افرايم والفرس من أورشليم وتقطع قوس الحرب، ويتكلم بالسلام للأمم وسلطانه من البحر إلى البحر، ومن النهر إلى أقاصي الأرض.

والكلام في سفر زكريا عن (ملك) (منصور) وله (سلطان) علي أرض واسعة... أما المسيح فقد ظل هاربًا ومختبئًا قبل دخوله أورشليم مباشرة كما يحكي إنجيل يوحنا.

وهو أيضا يتكلم بالسلام (للأمم) ومعروف لدى اليهود والنصاري أن كلمة (أمم) تعني الشعوب غير اليهود

٥- نبوءة هوشع.

في متى ٢/ ١٤، ١٥: فقام يوسف وأخذ الطفل وأمه ليلًا ورحل إلى مصر فأقام فيها إلى أن مات هيرودس، ليتم ما قال الرب بلسان النبي: من مصر دعوت ابني.

والمراد بلسان النبي القائل هو هوشع ١١/ ١: لما كان إسرائيل غلامًا أحببته، ومن مصر دعوت ابني.

إلا أن هذا الاستشهاد خطأ؛ لأن المقصود بالابن هو «إسرائيل» لا المسيح المنتظر، وهو بيان الإحسان الذي فعله الله في عهد موسى عليه السلام على بني إسرائيل وخروجهم من مصر.

٦- نبوءة زكريا وليس إرميا.

في متى ٩/٢٧: حينئذ تم ما قيل بإرميا النبي القائل: وأخذوا الثلاثين من الفضة ثمن المثمَّن الذي ثمنوه من بني إسرائيل وأعطوها عن حقل الفخاري كما أمرني الرب.

ولا يوجد في سفر إرميا مثل هذا، ويوجد في سفر زكريا ١١/ ١٢، ١٣، ولكن لا يطابق ألفاظ متَّى ألفاظه، ولا علاقة له في الحكاية التي يرويها، فهو يتكلم عما حدث بينه وبين شعبه، فيقول: فقلت لهم إن حسن في أعينكم فأعطوني أجرتي وإلا فامتنعوا فوزنوا أجرتي ثلاثين من الفضة، فقال لي الرب ألقها إلى الفخاري الثمن الكريم الذي ثمنوني به فأخذت الثلاثين من الفضة وألقيتها إلى الفخاري في بيت الرب.

بينما يتكلم متَّى عن يهوذا الذي خان المسيح نظير ثمن قليل من الفضة.

٧- نبوءة ميخا.

في متى ٢/ ٥، ٦: لأنه هكذا مكتوب بالنبي، وأنت يا بيت لحم أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا لأن منك يخرج مدبر يرعى شعبي إسرائيل.

وهذه النبوءة في سفر ميخا ٥/ ٢: أما أنت يا بيت لحم افراتة وأنت صغيرة أن تكوني بين ألوف يهوذا فمنك يخرج لي الذي يكون متسلطا على إسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل.

ولكن يقول ميخا عن بيت لحم إنها صغيرة، وبينما يذكرها متّى بأنها ليست صغيرة.

وأيضًا فإن المسيح لم يتسلط على إسرائيل طرفة عين.

٨- نبوءة إرميا.

في متى ٢/ ١٨: حينئذ تم ما قيل بإرميا النبي القائل: صوت سمع في الرامة نوح وبكاء وعويل كثير رحيل تبكي علي أولادها ولا تريد أن تتعزي؛ لأنهم ليسوا بموجودين.

وهذا في سفر إرميا ٣١/ ١٥: صوت سمع في الرامة نوح وبكاء مر حاحيل تبكي علي أولادها وتأبي أن تتعزي عن أولادها؛ لأنهم ليسوا بموجودين.

ولكن متّى يتكلم عن قتل أطفال بيت لحم علي يد الملك، بينما في إرميا يتكلم عن القرية المذكورة وهي الرامة.

وأيضًا فإن إرميا يتكلم عن استبعاد اليهود في بابل، وبعدها مباشرة يخبرهم ببشارة من الله بعودتهم إلى بلادهم قائلًا: هكذا قال الرب: أمنعي صوتك عن البكاء... فيرجعون من أرض العدو.

وهذا لا علاقة له بما حدث للأطفال في حياة المسيح.

٩- اقتباس بولس.

في رسالة بولس إلى العبرانيين ١/ ٥: أنا أكون له أبًا وهو يكون لي ابنًا.

وهذا مقتبس من سفر صموئيل الثاني ٧/ ١٤: أنا أكون له أبًا وهو يكون لي ابنًا.

ولكن المراد بهذا الشخص هو سليمان كما جاء ذلك في سفر أخبار الأيام الأول ٢٢/ ٩.

وأن هذا الشخص يبني بيتًا للرب كما جاء في سفر صموئيل الثاني ٧/ ١٣، وسفر أخبار الأيام الأول ٢٢/ ١٠: أنه يبني لاسمي بيتًا.

إن هذا الشخص يكون له سلطانًا كما جاء في سفر صموئيل الثاني ٧/ ١٦.

ومن وصفه أيضًا ما جاء في سفر أخبار الأيام الأول ٢٢/ ٩: يكون صاحب راحة وأريحه من جميع أعدائه حواليه؛ لأن اسمه يكون سليمان، فاجعل سلامًا وسكينة في إسرائيل في أيامه[(١)].

المعيار الثالث: التناقض في القصص ووصف الإله بين العهد الجديد والعهد القديم

١-اسم الإله.

في الخروج ٣/ ١٥: وقال الله أيضًا لموسى: هكذا تقول لبني إسرائيل «يهوه» إله آبائكم إله

---

(١) انظر: الاختلافات في الكتاب المقدس، تحريف الكتاب المقدس، حقائق حول الكتاب المقدس.

إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب أرسلني إليكم، هذا اسمي إلى الأبد وهذا ذكرى إلى دور فدور.

ولكن في متّى ١٨/٢٨ - ١٩: فتقدم يسوع وكلمهم قائلًا: . . . فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس.

ولم يذكر في العهد الجديد ولم يستخدم اسم الله الأبدي «يهوه» ولو مرة واحدة.

٢- إله الحرب والسلام.

في سفر الخروج ٣/١٥: الرب رجل الحرب.

وفي أشعياء ٦/٤٥، ٧: أنا الرب وليس آخر مصور النور وخالق الظلمة صانع السلام وخالق الشر.

وفي صموئيل الأول ١٤/١٦: وذهب روح الرب من عند شاول وبغته روح ردي من قبل الرب.

وفي رسالة بولس الثانية إلى أهل تسالونيكي ١١/٢: ولأجل هذا سيرسل إليهم الله عمل الضلال حتى يصدقوا الكذب.

ولكن في رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس ٣٣/١٤: لأن الله ليس إله تشويش بل إله سلام كما في جميع كنائس القديسين.

وفي رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس ٤/٢: الذي يريد أن جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون.

وفي رسالة بولس إلى العبرانيين ٢٠/١٣: وإله السلام الذي أقام من الأموات راعي الخراف العظيم.

٣- قدرة البشر على رؤية الرب.

في سفر التكوين ٣٠/٣٢: فدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل، قائلًا: لأني نظرت الله وجهًا لوجه.

وفي الخروج ٩/٢٤ - ١١: ثم صعد موسى وهارون وياداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل، ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعه من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل، فرأوا الله وأكلوا وشربوا.

ولكن في يوحنا ١٨/١: الله لم يره أحد قط.

وفي يوحنا ٣٧/٥: والآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي لم تسمعوا صوته قط ولا أبصرتم هيئته.

وفي رسالة يوحنا الأولى ١٢/٤: الله لم ينظره أحد قط.

وفي رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس ١٦/٦: ساكنًا في نور لا يُدنى منه الذي لم يره أحد من

الناس ولا يقدر أن يراه الذي له الكرامة والقدرة الأبدية.

٤- تغير الرب.

في ملاخي ٦/٣: لأني أنا الرب لا أتغير.

وفي إشعياء ٤٥/ ٥، ٦: أنا الرب وليس آخر لا إله سواي نطقتك وأنت لم تعرفني لكي يعلموا من مشرق الشمس ومن مغربها أنه ليس غيري أنا الرب وليس آخر.

وفي إشعياء ٤٣/ ١٠: قبلي لم يصور إله وبعدي لا يكون، أنا الرب وليس غيري مخلص.

وفي التثنية ٣٢/ ٣٩: أنا أنا هو وليس إله معي.

وفي إشعياء ٤٠/ ١٨: فبمن تشبهون الله وأي شبه تعادلون به.

ولكن الله تغير في ذاته عند المسيحيين، فأصبح آبًا وابنًا وروحًا قدسًا، فيعتقدون أنه بصفته ذاتًا هو الله الآب، وبصفته ناطقًا هو الله الابن، وبصفته حيًّا هو الله الروح القدس!

ففي رسالة يوحنا الأولى ٤/ ١٤: والآب قد أرسل الابن.

وفي يوحنا ١٦/ ٢٨: خرجت من عند الآب.

٥- سماع صوت رب بني إسرائيل.

في سفر التثنية ٤/ ١٠- ١٢: في اليوم الذي وقفت فيه أمام الرب إلهك في حوريب حين قال لي الرب اجمع لي الشعب فاسمعهم كلامي، . . . ، فكلمكم الرب من وسط النار وأنتم سامعون صوت كلام.

ولكن في يوحنا ٥/ ٣٧: والآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي لم تسمعوا صوته قط ولا أبصرتم هيئته.

٦- الآلهة الأخرى.

في سفر الخروج ٢٠/ ٣: لا يكن لك آلهة أخرى أمامي.

ولكن في سفر أعمال الرسل ١٥/ ٢٦: ربنا يسوع المسيح.

وفي رسالة بولس إلى العبرانيين ١٣/ ٢٠: ربنا يسوع.

وفي رسالة بولس إلى أهل رومية ١٥/ ٦، ١٨، ٢٠، ورسالته الأولى إلى أهل كورنثوس ١/ ٢، ٧، ٨، ١٠، ٥/ ٤، وغيرها: ربنا يسوع المسيح.

٧- محاكمة الرب.

في سفر إرميا ٤٩/ ١٩: لأنه من مثلي؟ ومن يحاكمني؟ ومن هو الراعي الذي يقف أمامي.

ونجد أنه قد تمت محاكمة يسوع أمام رئيس الكهنة وأمام الوالي بيلاطس وأمام هيرودس، وهو عند النصارى الرب.

٨- عدد الأسماء من آدم إلى إبراهيم.

في التكوين ٤/ ٢٥- ٢٦، ٥/ ٣- ٢٨، ١٠/ ٢١- ٢٥، ١١/ ١٠- ٢٦: وعرف آدم امرأته أيضًا، فولدت ابنًا ودعت اسمه شيثًا... وولد أنوش... وولد قينان... وولد مهللئيل... وولد يارد... وولد أخنوخ... وولد متوشالح... وولد لامك... وولد نوحًا... وولد سام... وولد أرفكشاد... وولد شالح.... وولد عابر... وولد فالج... وولد رعو... وولد سروج... وولد ناحور... وولد تارح... وولد أبرام.

بينما في لوقا ٣/ ٣٤- ٣٨: إبراهيم بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن قينان بن أرفكشاد بن سام بن نوح بن لامك بن متوشالح بن أخنوخ بن يارد بن مهللئيل بن قينان بن أنوش بن شيت بن آدم.

ونلاحظ أن عدد الأسماء في التكوين ١٩ ولكن في لوقا ٢٠ اسمًا، بزيادة قينان بين شالح وأرفكشاد.

٩- عدد آل يعقوب.

في التكوين ٤٦/ ٢٧: جميع نفوس بيت يعقوب التي جاءت إلى مصر سبعون.

ولكن في أعمال الرسل ٧/ ١٤: فأرسل يوسف واستدعى أباه يعقوب وجميع عشيرته خمسة وسبعين نفسًا.

١٠- عدد الذين ماتوا بسبب الزنى.

في سفر العدد ٢٥/ ١- ٩: وابتدأ الشعب يزنون مع بنات موآب... وكان الذين ماتوا بالوباء أربعة وعشرين ألفًا.

ولكن في رسالة بولس الأولى لأهل كورنثوس ١٠/ ٧، ٨: كما هو مكتوب جلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب ولا تزنِ كما زنى أناس منهم فسقط في يوم واحد ثلاثة وعشرون ألفًا.

١١- الذي ذهب إليه داود لأخذ الخبز منه.

في صموئيل الأول ٢١/ ١- ٤: فجاء داود إلى نوب إلى أخيمالك الكاهن... فقال داود لأخيمالك الكاهن... والآن فماذا يوجد تحت يدك؟ أعطِ خمس خبزات في يدي أو الموجود. فأجاب الكاهن داود وقال: لا يوجد خبز محلل تحت يدي ولكن يوجد خبز مقدس.

ولكن في مرقس ٢/ ٢٦ يقول المسيح: أما قرأتم قط ما فعله داود حين احتاج وجاع هو والذين معه كيف دخل بيت الله في أيام أبيأثار رئيس الكهنة وأكل خبز التقدمة الذي لا يحل أكله إلا للكهنة وأعطى الذين كانوا معه أيضًا.

١٢- صعود غير يسوع إلى السماء.

في سفر الملوك الثاني ٢/ ١١: وفيما هما يسيران ويتكلمان إذا مركبة من نار وخيل من نار ففصلت بينهما فصعد إيليا في العاصفة إلى السماء.

ولكن في يوحنا ٣/ ١٣: وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء[١].

المعيار الرابع: التناقض في قصة يسوع بين أسفار العهد الجديد

١- يوحنا المعمدان يأكل ويشرب.

يقول متى ١١/ ١٨: لأنه جاء يوحنا لا يأكل ولا يشرب فيقولون فيه شيطان.

بينما يقول مرقس ١/ ٦: وكان يوحنا يلبَس وَبَرَ الإبل ومنطقة من جلد على حقويه ويأكل جرادًا وعسلًا بريًّا.

وفي متّى ٣/ ٤: ويوحنا هذا كان لباسه من وبر الإبل وعلى حقويه منطقة من جلد وكان طعامه جرادًا وعسلًا بريًّا.

٢- معرفة يوحنا ليسوع قبل التعميد.

في متّى ٣/ ١٣، ١٦: حينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن إلى يوحنا ليعتمد منه، ولكن يوحنا منعه قائلًا أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي إلي، . . .، فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء وإذا السموات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلًا مثل حمامة وأتيا عليه.

وفي يوحنا ١/ ٣٣: وأنا لم أكن أعرفه لكن الذي أرسلني لأعمد بالماء ذاك قال لي الذي ترى الروح نازلًا ومستقرًّا عليه فهذا هو الذي يعمد بالروح القدس.

٣- يوحنا المعمدان هو إيليا.

في متى ١٧/ ١٠- ١٣ (يسوع يؤكد أنه إيليا): وسأله تلاميذه قائلين: فلماذا يقول الكتبة إن إيليا ينبغي أن يأتي أولًا؟ فأجاب يسوع وقال لهم: إن إيليا يأتي أولًا ويرد كل شيء ولكني أقول لكم إن إيليا قد جاء ولم يعرفوه بل عملوا به كل ما أرادوا، كذلك ابن الإنسان أيضًا سوف يتألم منهم، حينئذ فهم التلاميذ أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان.

ولكن في يوحنا ١/ ١٩- ٢١ (يؤكد أن يوحنا المعمدان ليس إيليا): وهذه شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه مَن أنت فاعترف ولم ينكر وأقر أني لست أنا المسيح فسألوه إذًا ماذا؟ إيليا أنت؟ فقال: لست أنا، النبي أنت؟ فأجاب: لا.

---

(١) انظر: الاختلافات في الكتاب المقدس، تحريف الكتاب المقدس، حقائق حول الكتاب المقدس.

٤- دعوة المسيح للخلاص والسلام أم للسيف والانقسام.

في لوقا ٩/ ٥٣- ٥٦: فلم يقبلوه لأن وجهه كان متجهًا نحو أورشليم، فلما رأى ذلك تلميذاه يعقوب ويوحنا قالا: يا رب أتريد أن نقول إن تنزل نار من السماء فتفنيهم كما فعل إيليا أيضًا، فالتفت وانتهرهما وقال لستما تعلمان من أي روح أنتما؛ لأن ابن الإنسان لم يأتِ ليهلك أنفس الناس بل ليخلص.

ولكن في لوقا ١٢/ ٤٩- ٥١: جئت لألقي نارًا على الأرض فماذا أريد لو اضطرمت، ولي صبغة أصطبغها وكيف انحصر حتى تكمل، أتظنون أني جئت لأعطي سلامًا على الأرض كلا أقول لكم بل انقسامًا.

وفي متّى ١٠/ ٣٤، ٣٥: لا تظنوا أني جئت لألقي سلامًا على الأرض ما جئت لألقي سلامًا بل سيفًا، فإني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه والابنة ضد أمها والكنة ضد حماتها.

٥- دعوة المسيح لبني إسرائيل أم لأمم العالم.

في متّى ١٥/ ٢٤: لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة.

وفي متّى ١٠/ ٥- ٦: هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلًا: إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحري إلى خراف بيت إسرائيل الضالة.

وفي لوقا ٢٤/ ٤٩، ٢٠: فأقيموا في مدينة أورشليم إلى أن تلبسوا قوة من الأعالي، . . .، وكانوا كل حين في الهيكل يسبحون ويباركون الله.

ولكن في متى ٢٨/ ١٩: فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس.

وفي مرقس ١٣/ ١٠: وينبغي أن يكرز أولًا بالإنجيل في جميع الأمم.

وفي مرقس ١٦/ ١٤- ١٥: أخيرًا ظهر للأحد عشر وهم متكئون. . . وقال لهم: اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها، . . .، وأما هم فخرجوا وكرزوا في كل مكان.

٦- المسيح يدين أحدًا.

في يوحنا ٥/ ٢٢: لأن الآب لا يدين أحدًا بل قد أعطى كل الدينونة للابن.

وفي يوحنا ٥/ ٢٧: وأعطاه سلطانًا أن يدين أيضًا؛ لأنه ابن الإنسان.

وفي أعمال الرسل ١٠/ ٤٢: وأوصانا إن نكرز للشعب ونشهد بأن هذا هو المعين من الله ديانا للإحياء والأموات.

ولكن في يوحنا ٣/ ١٧: لأنه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليخلّص به العالم.

وفي يوحنا ٨/ ١٥: أنتم حسب الجسد تدينون أما أنا فلست أدين أحدًا.

وفي يوحنا ١٢/٤٧: وإن سمع أحد كلامي ولم يؤمن فأنا لا أدينه لأني لم آت لأدين العالم بل لأخلص العالم.

٧- المسيح يعمد أم لا.

في يوحنا ٣/٢٢: وبعد هذا جاء يسوع وتلاميذه إلى أرض اليهوديَّة ومكث معهم هناك وكان يعمد.

وفي يوحنا ٣/٢٦: فجاءوا إلى يوحنا وقالوا له يا معلم هوذا الذي كان معك في عبر الأردن الذي أنت قد شهدت له هو يعمد والجميع يأتون إليه.

ولكن بعد قليل في يوحنا أيضًا ٤/١- ٣: فلما علم الرب أن الفريسيين سمعوا أن يسوع يصير ويعمد تلاميذ أكثر من يوحنا، مع أن يسوع نفسه لم يكن يعمد بل تلاميذه، ترك اليهوديَّة ومضى أيضًا إلى الجليل.

٨- شهادة المسيح لنفسه.

في يوحنا ٥/٣١: إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي ليست حقًّا.

ولكن في يوحنا ٨/١٤: وإن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق؛ لأني أعلم من أين أتيت وإلى أين أذهب.

٩- دخول يسوع كفر ناحوم.

في متَّى ٤/١٢- ١٩: (قبل دعوة بطرس وأندراوس): ولما سمع يسوع أن يوحنا أسلم انصرف إلى الجليل. وترك الناصرة وأتى فسكن في كفر ناحوم التي عند البحر... وإذ كان يسوع ماشيًا عند بحر الجليل أبصر أخوين: سمعان الذي يقال له بطرس وأندراوس أخاه... فقال لهما هلم ورائي.

ولكن في مرقس ١/١٦: (بعد دعوة بطرس وأندراوس): وفيما هو يمشي عند بحر الجليل أبصر سمعان وأندراوس أخاه... فقال لهما يسوع: هلم ورائي... وذهبا وراءه ثم دخلوا كفر ناحوم وللوقت دخل المجمع في السبت وصار يعلم.

١٠- ترتيب أحداث تجريب الشيطان.

في متى ٤/٥- ١٠: ثم أخذه إبليس إلى المدينة المقدَّسة، وأوقفه على جناح الهيكل، وقال له: إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل،...، ثم أخذه أيضًا إبليس إلى جبل عالٍ جدًّا وأراه جميع ممالك العالم ومجدها.

ولكن في لوقا ٤/٥- ٩: ثم أصعده إبليس إلى جبل عالٍ وأراه جميع ممالك المسكونة في لحظة من الزمان،...، ثم جاء به إلى أورشليم وأقامه على جناح الهيكل وقال له: إن كنت ابن الله فاطرح نفسك من هنا إلى أسفل.

١١- ترتيب شفاء الأبرص وخادم الضابط وحماة بطرس.

في متّى ٨/٢- ١٥: وإذا أبرص قد جاء وسجد له قائلًا يا سيد إن أردت تقدر أن تطهرني، . . .،

ولما دخل يسوع كفر ناحوم جاء إليه قائد مائة يطلب إليه، ويقول يا سيد غلامي مطروح في البيت مفلوجًا متعذبًا جدًّا، فقال له يسوع أنا آتي وأشفيه، . . .

ولما جاء يسوع إلى بيت بطرس رأى حماته مطروحة ومحمومة. . .

ولكن في لوقا ٤/٣٨- ٧/١١: ولما قام من المجمع دخل بيت سمعان وكانت حماة سمعان قد أخذتها حمى شديدة فسألوه من أجلها، . . .

وكان في إحدى المدن فإذا رجل مملوء برصًا فلما رأى يسوع خر على وجهه وطلب إليه قائلًا يا سيد إن أردت تقدر أن تطهرني، . . .

و لما أكمل أقواله كلها في مسامع الشعب دخل كفر ناحوم، وكان عبدٌ لقائد مائة مريضًا مشرفًا على الموت. . .

١٢- كيفية شفاء حماة سمعان من الحمى.

في مرقس ١/٣١: فتقدم وأقامها ماسكًا بيدها فتركتها الحمى حالًا وصارت تخدمهم.

وفي متّى ٨/١٥: فلمس يدها فتركتها الحمى فقامت وخدمتهم.

ولكن في لوقا ٤/٣٩: فوقف فوقها وانتهر الحمى فتركتها وفي الحال قامت وصارت تخدمهم.

١٣- من جاء إلى المسيح في قصة ابنة رئيس المجمع

في لوقا ٨/٤٩: وبينما هو يتكلم جاء واحد من دار رئيس المجمع قائلًا له: قد ماتت ابنتك لا تتعب المعلم.

ولكن في مرقس ٥/٣٥: وبينما هو يتكلم جاءوا من دار رئيس المجمع قائلين: ابنتك ماتت لماذا تتعب المعلم بعد.

١٤- الطريق المؤدي للحياة والنجاة.

في متّى ٧/١٤: يقول المسيح: ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذي يؤدي إلى الحياة وقليلون هم الذين يجدونه.

لكن في متى ١١/٢٩- ٣٠: يقول المسيح: احملوا نيري عليكم وتعلموا مني. . . لأن نيري هين وحملي خفيف.

١٥- أوصى المسيح تلاميذه بأخذ العصا.

في متّى ١٠/٥- ١٠: هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلًا. . . لا تقتنوا ذهبًا ولا

فِضَّة ولا نُحَاسًا في مناطقكم ولا مزودًا للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا.

ولكن في مرقس ٦/٧، ٨: ودعا الاثني عشر وابتدأ يرسلهم اثنين اثنين وأعطاهم سلطانًا على الأرواح النجسة، وأوصاهم ألا يحملوا شيئًا للطريق غير عصا فقط لا مزودًا ولا خبزًا ولا نحاسًا في المنطقة.

١٦- عدد الذين قالوا للمسيح بأن أمه وإخوته يطلبونه.

في متى ١٢/٤٦- ٤٨: وفيما يكلم الجموع إذا أمه وإخوته قد وقفوا خارجًا طالبين أن يكلموه فقال له واحد: هو ذا أمك وإخوتك واقفون خارجًا طالبين أن يكلموك. فأجاب وقال للقائل له: مَن هي أمي ومن هم إخوتي.

ولكن في مرقس ٣/ ٣١- ٣٣: فجاءت حينئذ إخوته وأمه ووقفوا خارجًا وأرسلوا إليه يدعونه. وكان الجمع جالسًا حوله فقالوا له: هو ذا أمك وإخوتك خارجًا يطلبونك. فأجابهم قائلًا: من أمي وإخوتي.

١٧- المكان الذي ألزمهم بالذهاب إليه بالسفينة.

في متى ١٤/ ٢٢: وللوقت الزم يسوع تلاميذه أن يدخلوا السفينة ويسبقوه إلى العبر حتى يصرف الجموع.

وفي مرقس ٦/ ٤٥: وللوقت الزم تلاميذه أن يدخلوا السفينة و يسبقوا إلى العبر إلى بيت صيدا حتى يكون قد صرف الجمع.

وفي يوحنا ٦/ ١٧: فدخلوا السفينة وكانوا يذهبون إلى عبر البحر إلى كفر ناحوم.

١٨- عدد العميان الذين شفاهم المسيح عند خروجه من مدينة أريحا.

في متّى ٢٠/ ٢٩- ٣٤: وفيما هم خارجون من أريحا تبعه جمع كثير. وإذ أعميان جالسان على الطريق فلما سمعا أن يسوع مجتاز صرخا قائلين: ارحمنا يا سيد يا ابن داود. . . فتحنن يسوع ولمس أعينهما، فللوقت أبصرت أعينهما فتبعاه.

ولكن في مرقس ١٠/٤٦- ٥٢: وفيما هو خارج من أريحا مع تلاميذه وجمع غفير كان بارتيماوس الأعمى ابن تيماوس جالسًا على الطريق يستعطي، فلما سمع أنه يسوع الناصري ابتدأ يصرخ ويقول: يا يسوع ابن داود ارحمني. . . فقال له يسوع: اذهب، إيمانك قد شفاك، فللوقت أبصر وتبع يسوع في الطريق.

١٩- ذهاب قائد المائة ومقابلة يسوع لكي يشفي غلامه.

في متى ٨/ ٥- ١٣: ولما دخل يسوع كفر ناحوم جاء إليه قائد مائة يطلب إليه، ويقول: يا سيد، غلامي مطروح في البيت مفلوجًا متعذبًا جدًّا فقال له يسوع: أنا آتي وأشفيه. فأجاب قائد المائة وقال: يا سيد، لست مستحقًّا أن تدخل تحت سقفي، لكن قل كلمة فقط فيبرأ غلامي. . . ثم قال

يسوع لقائد المائة: اذهب وكما آمنت ليكن لك فبرأ غلامه في تلك الساعة.

لكن في لوقا ٧/ ١- ٧: . . . دخل كفر ناحوم وكان عبدٌ لقائد مائة مريضًا مشرفًا على الموت. . . فلما سمع عن يسوع أرسل إليه شيوخ اليهود يسأله أن يأتي ويشفي عبده. . . فذهب يسوع معهم وإذ كان غير بعيد عن البيت أرسل إليه قائد المائة أصدقاء يقول له: يا سيد لا تتعب لأني لست مستحقًّا أن تدخل تحت سقفي. . . لكن قل كلمة فيبرأ غلامي.

٢٠- ترتيب شفاء المجنون الأخرس وإعطاء التلاميذ قدرة إخراج الشياطين.

في متى ٩/ ٣٢: وفيما هما خارجان إذ إنسان أخرس مجنون قدموه إليه، فلما أخرج الشيطان تكلم الأخرس.

ثم في متى ١٠/ ١، ٢: ثم دعا تلاميذه الاثني عشر وأعطاهم سلطانًا على أرواح نجسة حتى يخرجوها ويشفوا كل مرض.

لكن في لوقا ٩/ ١: ودعا تلاميذه الاثني عشر وأعطاهم قوة وسلطانًا على جميع الشياطين وشفاء أمراض.

ثم في لوقا ١١/ ١٤: وكان يخرج شيطانًا وكان ذلك أخرس. فلما أخرج الشيطان تكلم الأخرس.

٢١- سلطان التلاميذ على أن يشفوا كل مرض.

في متّى ١٠/ ١: ثم دعا تلاميذه الاثني عشر وأعطاهم سلطانًا على أرواح نجسة حتى يخرجوها ويشفوا كل مرض وكل ضعف.

ولكن في متى ١٧/ ١٤: ولما جاءوا إلى الجمع تقدم إليه رجل جاثيًا له وقائلًا يا سيد ارحم ابني فإنه يصرع ويتألم شديدًا ويقع كثيرًا في النار وكثيرًا في الماء، وأحضرته إلى تلاميذك فلم يقدروا إن يشفوه، فأجاب يسوع وقال: أيها الجيل غير المؤمن الملتوي إلى متى أكون معكم إلى متى احتملكم قدموه إلي هاهنا، فانتهره يسوع فخرج منه الشيطان فشفي الغلام من تلك الساعة.

٢٢- عدد المجانين الذين قابلوا المسيح عند كورة الجدريين (الجرجسيين).

في متى ٨/ ٢٨: ولما جاء إلى العبر إلى كورة الجرجسيين استقبله مجنونان خارجان من القبور.

ولكن في مرقس ٥/ ١- ٣: وجاءوا إلى عبر البحر إلى كورة الجدريين، ولما خرج من السفينة للوقت استقبله من القبور إنسان به روح نجس.

٢٣- سؤال الفريسيين يسوع عن شفاء صاحب اليد اليابسة يوم السبت.

في متى ١٢/ ٢- ١٣: فالفريسيون. . . ثم انصرف من هناك وجاء إلى مجمعهم وإذ إنسان يده يابسة، فسألوه قائلين: هل يحل الإبراء في السبوت لكي يشتكوا عليه، فقال لهم: أي إنسان منكم يكون له خروف واحد فإن سقط هذا في السبت في حفرة أفما يمسكه ويقيمه.

ولكن في مرقس ٣/ ١- ٤: ثم دخل أيضًا إلى المجمع، وكان هناك رجل يده يابسة، فصاروا يراقبونه هل يشفيه في السبت، لكي يشتكوا عليه، فقال للرجل الذي له اليد اليابسة: قم في الوسط، ثم قال لهم: هل يحل في السبت فعل الخير أو فعل الشر، تخليص نفس أو قتل؟ فسكتوا.

٢٤- حدوث التجلي.

في متى ٨/ ١٩- ٢١: فتقدم كاتب وقال له يا معلم، أتَّبعك أينما تمضي، . . . ، وقال له آخر من تلاميذه يا سيد ائذن لي أن أمضي أولًا وأدفن أبي.

ثم في متى ١٧/ ١- ٣: وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا آخاه وصعد بهم إلى جبل عالٍ منفردين، وتغيرت هيئته قدامهم وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور، وإذا موسى وإيليا قد ظهرا لهم يتكلمان معه.

ولكن في لوقا ٩/ ٢٨- ٣٠: وبعد هذا الكلام بنحو ثمانية أيام أخذ بطرس ويوحنا ويعقوب وصعد إلى جبل ليصلي، وفيما هو يصلي صارت هيئة وجهه متغيرة ولباسه مبيضًّا لامعًا، وإذا رجلان يتكلمان معه وهما موسى وإيليا.

ثم في لوقا ٩/ ٥٧- ٥٩: وفيما هم سائرون في الطريق قال له واحد يا سيد اتبعك إينما تمضي، . . . ، و قال لآخر اتبعني فقال يا سيد ائذن لي أن أمضي أولًا وأدفن أبي.

٢٥- الأتان والجحش.

في متى ٢١/ ١- ٢: ولما قربوا من أورشليم وجاءوا إلى بيت فاجي عند جبل الزيتون حينئذ أرسل يسوع تلميذين قائلًا لهما: اذهبا إلى القرية التي أمامكما، فللوقت تجدان أتانًا مربوطة وجحشًا معها فحلاهما وأتياني بهما.

ولكن في لوقا ١٩/ ٢٩- ٣١: وإذ قرب من بيت فاجي وبيت عنيا عند الجبل الذي يُدعى جبل الزيتون أرسل اثنين من تلاميذه. قائلًا: اذهبا إلى القرية التي أمامكما وحين تدخلانها تجدان جحشًا مربوطًا لم يجلس عليه أحد من الناس قط فحلاه وأتيا به.

٢٦- الذي ركبه يسوع وهو متوجه إلى أورشليم.

في مرقس ١١/ ٧: فأتيا بالجحش إلى يسوع وألقيا عليه ثيابهما فجلس عليه.

ولكن في متى ٢١/ ٧: وأتيا بالأتان والجحش ووضعا عليهما ثيابهما فجلس عليهما.

٢٧- الذي طلب من يسوع أن يجلس ابنا زبدي معه في الآخرة.

في متى ٢٠/ ٢٠، ٢١: حينئذ تقدمت إليه أم ابني زبدي مع ابنيها وسجدت وطلبت منه شيئًا فقال لها: ماذا تريدين؟ قالت له: قل أن يجلس ابناي هذان، واحد عن يمينك والآخر عن اليسار في ملكوتك.

لكن في مرقس ١٠/ ٣٥- ٣٧: وتقدم إليه يعقوب ويوحنا ابنا زبدي قائلين: يا معلم نريد أن

تفعل لنا كل ما طلبنا فقال لهما: ماذا تريدان أن أفعل لكما؟ فقالا له: أعطنا أن نجلس، واحد عن يمينك والآخر عن يسارك في مجدك.

٢٨- قصة تطهير الهيكل وشجرة التين.

في متى ٢١/ ١٢- ٢٠: ودخل يسوع إلى هيكل الله وأخرج جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون في الهيكل... ثم تركهم وخرج خارج المدينة إلى بيت عنيا وبات هناك. وفي الصبح إذ كان راجعًا إلى المدينة جاع. فنظر شجرة تين على الطريق وجاء إليها فلم يجد فيها شيئًا إلا ورقًا فقط. فقال لها: لا يكن منك ثمر بعد إلى الأبد فيبست التينة في الحال.

ولكن في مرقس ١١/ ١١- ٢٠: لما خرجوا من بيت عنيا جاع فنظر شجرة التين من بعيد عليها ورق وجاء لعله يجد فيها شيئًا فلما جاء إليها لم يجد شيئًا إلا ورقًا؛ لأنه لم يكن وقت التين. فأجاب يسوع وقال لها: لا يأكل أحد منك ثمرًا بعدُ إلى الأبد وكان تلاميذه يسمعون. وجاءوا إلى أورشليم ولما دخل يسوع الهيكل ابتدأ يُخرج الذين كانوا يبيعون ويشترون في الهيكل وقلب موائد الصيارفة وكراسي باعة الحمام... ولما صار المساء خرج إلى خارج المدينة وفي الصباح... رأوا التينة قد يبست من الأصول.

٢٩- حال يسوع عندما أقبل عليه رؤساء الكهنة لمناقشته.

في مرقس ١١/ ٢٧: وجاءوا أيضًا إلى أورشليم وفيما هو يمشي في الهيكل أقبل إليه الكهنة والكتبة والشيوخ.

ولكن في متى ٢١/ ٢٣: ولما جاء إلى الهيكل تقدم إليه رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب وهو يعلّم.

٣٠- قصة سكب المرأة العطر على يسوع.

في مرقس ١٤/ ١- ٨: وكان الفصح وأيام الفطير بعد يومين... وفيما هو في بيت عنيا في بيت سمعان الأبرص وهو متكئ جاءت امرأة معها قارورة طِيب ناردين خالص كثير الثمن فكسرت القارورة وسكبته على رأسه وكان قوم مغتاظين في أنفسهم فقالوا: لماذا كان تلف الطيب هذا؟ لأنه كان يمكن أن يباع هذا بأكثر من ثلاثمائة دينار ويُعطى للفقراء. وكانوا يؤنبونها. أما يسوع فقال: اتركوها. لماذا تزعجونها قد عملت بي عملًا حسنًا؛ لأن الفقراء معكم في كل حين ومتى أردتم تقدرون أن تعملوا بهم خيرًا. وأما أنا فلست معكم في كل حين...

وفي يوحنا ١٢/ ١- ٨: ثم قبل الفصح بستة أيام أتى يسوع إلى بيت عنيا... فصنعوا له هناك عشاءً. وكانت مرثا تخدم وأما لعازر فكان أحد المتكئين معه.

فأخذت مريم منًّا من طيب ناردين خالص كثير الثمن ودهنت قدمي يسوع ومسحت قدميه بشعرها فامتلأ البيت من رائحة الطيب فقال واحد من تلاميذه -وهو يهوذا سمعان الإسخريوطي المزمع أن يسلمه-: لماذا لم يبع هذا الطيب بثلاثمائة دينار ويُعطَ للفقراء؟!، قال هذا ليس لأنه كان يبالي بالفقراء بل لأنه كان سارقًا وكان الصُّندوق عنده وكان يحمل ما يُلقى فيه فقال يسوع:

اتركوها، إنها ليوم تكفيني قد حفظته؛ لأن الفقراء معكم في كل حين. وأما أنا فلست معكم في كل حين.

٣١- قصة العشاء الأخير.

في متى ٢٦/١٨، ١٩: فقال: اذهبوا إلى المدينة إلى فلان وقولوا له. المعلم يقول: إن وقتي قريب. عندك أصنع الفصح مع تلاميذي. ففعل التلاميذ كما أمرهم يسوع وأعدوا الفصح.

ولكن في مرقس ١٤/١٢- ١٦: قال له تلاميذه: أين تريد أن نمضي ونعد لتأكل الفصح. فأرسل اثنين من تلاميذه وقال لهما: اذهبا إلى المدينة فيلاقيكما إنسان حامل جرة ماء. اتبعاه. وحيثما يدخل فقولا لرب البيت إن المعلم يقول: أين المنزل حيث آكل الفصح مع تلاميذي. فهو يريكما علية كبيرة مفروشة معدة هناك، أعدا لنا. فخرج تلميذاه وأتيا إلى المدينة ووجدا كما قال لهما فأعدا الفصح.

ونحوه في لوقا ٢٢/٨- ١٣ وفيه سمى التلميذين: بطرس ويوحنا.

٣٢- علامة التلميذ الخائن.

في مرقس ١٤/ ٢٠: الذي يغمس معي في الصحفة.

وفي متى ٢٦/ ٢٣: الذي يغمس يده معي في الصحفة هو يسلمني.

لكن في يوحنا ١٣/ ٢٦: الذي أغمس أنا اللقمة وأعطيه.

٣٣- دخول الشيطان في يهوذا الإسخريوطي.

في لوقا ٢٢/٣- ٨: فدخل الشيطان في يهوذا الذي يُدعى الإسخريوطي وهو من جملة الاثني عشر فمضى وتكلم مع رؤساء الكهنة وقواد الجند كيف يسلمه إليهم ففرحوا وعاهدوه أن يعطوه فضة فواعدهم وكان يطلب فرصة ليسلمه إليهم خلوًّا من جمع. وجاء يوم الفطير الذي كان ينبغي أن يُذبح فيه الفصح. فأرسل بطرس ويوحنا قائلًا: اذهبا فأعدا الفصح.

ولكن في يوحنا ١٣/ ٢٦، ٢٧: أجاب يسوع: هو ذاك الذي أغمس أنا اللقمة وأعطيه. فغمس اللقمة وأعطاها ليهوذا سمعان الإسخريوطي فبعد اللقمة دخله الشيطان.

٣٤- الاستعانة بيهوذا الإسخريوطي عند القبض على المسيح.

في متى ٢٦/ ٤٧، ٤٨: وفيما هو يتكلم إذا يهوذا أحد الاثني عشر قد جاء ومعه جمع كثير بسيوف وعِصي من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب والذي أسلمه أعطاهم علامة قائلًا: الذي أقبّله هو هو. أمسكوه. فللوقت تقدم إلى يسوع وقال السلام: يا سيدي. وقبّله.

وكذلك في مرقس ١٤/ ٤٣- ٥٢، وفي لوقا ٢٢/ ٤٧، ٤٨ .

ولكن في يوحنا ١٨/ ٣- ٨: فأخذ يهوذا الجند وخدامًا من عند رؤساء الكهنة والفريسيين وجاء إلى هناك بمشاعل ومصابيح وسلاح، فخرج يسوع وهو عالم بكل ما يأتي عليه وقال لهم من

تطلبون، أجابوه يسوع الناصري قال لهم يسوع أنا هو وكان يهوذا مسلمه أيضًا واقفًا معهم.

وفي يوحنا ١٨/ ١٩، ٢٠: فسأل رئيس الكهنة يسوع عن تلاميذه وعن تعليمه أجابه يسوع: أنا كلمت العالم علانية، أنا علّمت كل حين في المجمع وفي الهيكل حيث يجتمع اليهود دائمًا وفي الخفاء لم أتكلم بشيء.

٣٥- المكان الذي ألقي القبض على المسيح فيه، وعدد المرات التي ترك تلاميذه ليصلي، والتي طلب منهم أن يصلوا، وأن يسهروا.

في متى ٢٦/ ٣٨- ٤٤: فقال لهم: نفسي حزينة جدًّا حتى الموت. امكثوا هاهنا واسهروا معي. ثم تقدم قليلًا وخرَّ على وجهه وكان يصلي... ثم جاء إلى التلاميذ فوجدهم نيامًا.

فقال لبطرس: أهكذا ما قدرتم أن تسهروا معي ساعة واحدة؟ اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجرِبة... فمضى أيضًا ثانية وصلى قائلًا: يا أبتاه... ثم جاء فوجدهم أيضًا نيامًا إذ كانت أعينهم ثقيلة فتركهم ومضى أيضًا وصلى ثالثة....

وفي مرقس ١٤/ ٣٢- ٤١: و جاءوا إلى ضيعة اسمها جثسيماني فقال لتلاميذه اجلسوا هاهنا حتى أصلي،...، فقال لهم نفسي حزينة جدًّا حتى الموت امكثوا هنا واسهروا،...، ثم جاء ووجدهم نيامًا فقال لبطرس: يا سمعان، أنت نائم أما قدرت أن تسهر ساعة واحدة، اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة،...، و مضى أيضًا وصلى قائلًا ذلك الكلام بعينه، ثم رجع ووجدهم أيضًا نيامًا إذ كانت أعينهم ثقيلة فلم يعلموا بماذا يجيبونه، ثم جاء ثالثة وقال لهم ناموا الآن واستريحوا.

ولكن في لوقا ٢٢/ ٣٩- ٤٦: وخرج ومضى كالعادة إلى جبل الزيتون. وتبعه أيضًا تلاميذه. ولما صار إلى المكان قال لهم: صلوا لكيلا تدخلوا في تجربة. وانفصل عنهم نحو رمية حجر وجثا على ركبتيه وصلى... ثم قام من الصلاة وجاء إلى تلاميذه فوجدهم نيامًا من الحزن. فقال لهم: لماذا أنتم نيام؟! قوموا وصلوا.

٣٦- وجود رؤساء الهيكل.

في لوقا ٢٢/ ٥٢: ثم قال يسوع لرؤساء الكهنة وقواد جند الهيكل والشيوخ المقبلين عليه.

وغير مذكورين في الأناجيل الثلاثة الأخرى.

٣٧- مرافقة يهوذا -من الاثني عشر- المسيحَ في الآخرة وقد وُعد بالهلاك.

في متى ١٩/ ٢٧- ٢٩: فقال لهم يسوع: الحق أقول لكم إنكم أنتم الذين تبعتموني في التجديد متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده تجلسون أنتم أيضًا على اثني عشر كرسيًّا تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر.

ولكن في مرقس ١٤/ ١٧- ٢١: ولما كان المساء جاء مع الاثني عشر... ويل لذلك الرجل

الذي به يُسلم ابن الإنسان. كان خيرًا لذلك الرجل لو لم يولد.

وفى متى ١٠/ ٢٠: لأن لستم أنتم المتكلمين بل روح أبيكم الذي يتكلم فيكم.

٣٨- مآل أجرة الخيانة، ونهاية يهوذا، ومن الذي اشترى الحقل، وسبب تسمية حقل الدم.

في متى ٢٧/ ٣- ٨: ندم ورد الثلاثين من الفضة إلى رؤساء الكهنة... فطرح الفضة في الهيكل وانصرف ثم مضى وخنق نفسه. فأخذ رؤساء الكهنة الفضة وقالوا: لا يحل أن نلقيها في الخزانة؛ لأنها ثمن دم. فتشاوروا واشتروا بها حقل الفخاري مقبرة للغرباء لهذا سمي ذلك الحقل حقل الدم إلى هذا اليوم.

لكن في أعمال الرسل ١/ ١٦- ١٩: ... يهوذا الذي صار دليلًا للذين قبضوا على يسوع... فإن هذا اقتنى حقلًا من أجرة الظلم، وإذ سقط على وجهه انشق من الوسط فانسكبت أحشاؤه كلها، وصار ذلك معلومًا عند جميع سكان أورشليم حتى دعي ذلك الحقل في لغتهم حقل دما، أي حقل دم.

٣٩- موقف المسيح من بطرس.

في متى ١٦/ ١٧- ١٩: فأجاب يسوع وقال له طوبى لك يا سمعان بن يونا إن لحما ودما لم يعلن لك لكن أبي الذي في السموات، وأنا أقول لك أيضًا: أنت بطرس وعلى هذه الصخرة ابني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات. فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطًا في السموات. وكل ما تحله على الأرض يكون محلولًا في السموات.

ولكن بعدها في متى ١٦/ ٢٣: وقال لبطرس: اذهب عني يا شيطان. أنت معثرة لي؛ لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس.

٤٠- عدد صياح الديك.

في مرقس ١٤/ ٣٠، ٧٢: قبل أن يصيح الديك مرتين تنكرني ثلاث مرات.

ولكن في لوقا ٢٢/ ٦١، وفي متى ٢٦/ ٧٥: قبل أن يصيح الديك تنكرني ثلاث مرات.

وقد ذكر الثلاثة خلال القصة صياحًا واحدًا فقط، خلافًا لما ذكره مرقس، فقد ذكر صياحين للديك.

٤١- ذكر هيرودس في محاكمة المسيح.

في لوقا ٢٣/ ٧- ١٢: وحين علم أنه من سلطنة هيرودس أرسله إلى هيرودس إذ كان هو أيضًا تلك الأيام في أورشليم...

وغير مذكور في هذا الموضع في باقي الأناجيل.

٤٢- جند بيلاطس وهيرودس.

متى ٢٧/ ٢٤- ٢٨: فلما رأى بيلاطس،...، فأخذ عسكر الوالي يسوع إلى دار الولاية

وجمعوا عليه كل الكتيبة، فعروه والبسوه رداء قرمزيًا.

وكذلك في مرقس ١٥/ ١٥- ١٧ .

ولكن في لوقا ٢٣/ ١١: فاحتقره هيرودس مع عسكره واستهزءوا به، وألبسه لباسًا لامعًا ورده إلى بيلاطس.

٤٣- الشهود وعددهم.

في مرقس ١٤/ ٥٧، ٥٨: ثم قام قوم وشهدوا عليه زورًا قائلين: نحن سمعناه يقول إني أنقض هذا الهيكل المصنوع بالأيادي وفي ثلاثة أيام أبني آخر غير مصنوع بأيادٍ.

ولكن في متى ٢٦/ ٦٠: ولكن أخيرًا تقدم شاهدا زور. وقالا: هذا قال إني أقدر أن أنقض هيكل الله وفي ثلاثة أيام أبنيه.

وفي يوحنا ٢/ ١٨- ٢٠: فأجاب اليهود وقالوا له: أية آية ترينا حتى تفعل هذا؟ أجاب يسوع وقال لهم: انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه.

٤٤- كلام المسيح مع بيلاطس أثناء المحاكمة.

في متى ٢٧/ ١١- ١٤: فوقف يسوع أمام الوالي فسأله الوالي قائلًا: أأنت ملك اليهود؟. فقال له يسوع: أنت تقول. وبينما كان رؤساء الكهنة والشيوخ يشتكون عليه لم يجب بشيء.

فقال له بيلاطس: أما تسمع كم يشهدون عليك؟ فلم يجبه ولا عن كلمة واحدة حتى تعجب الوالي جدًا.

ولكن في يوحنا ١٨/ ٣٣- ٣٨، ١٩/ ٩- ١١: ثم دخل بيلاطس أيضًا إلى دار الولاية ودعا يسوع وقال له: أنت ملك اليهود. أجابه يسوع: أمِن ذاتك تقول هذا أم آخرون قالوا لك عني؟ أجابه بيلاطس ألعلّي أنا يهودي؟... فقال له بيلاطس: أفأنت إذًا ملك؟. أجاب يسوع: أنت تقول: إني ملك. لهذا قد وُلدت أنا ولهذا قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق. كل مَن هو من الحق يسمع صوتي. قال له بيلاطس: ما هو الحق...

٤٥- إخبار الناس بأن يسوع هو المسيح.

في لوقا ٩/ ٢٠- ٢٢: وأنتم مَن تقولون إني أنا فأجاب بطرس وقال: مسيح الله. فانتهرهم وأوصى ألا يقولوا ذلك لأحد. قائلًا إنه ينبغي أن ابن الإنسان يتألم كثيرًا ويرفض من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة ويُقتل وفي اليوم الثالث يقوم.

ولكن في لوقا ٢٣/ ١- ٣: فقام كل جمهورهم وجاءوا به إلى بيلاطس. وابتدءوا يشتكون عليه قائلين: إننا وجدنا هذا يفسد الأمة... قائلًا إنه هو مسيح ملك. فسأله بيلاطس قائلًا: أنت ملك اليهود؟ فأجابه وقال: أنت تقول.

وفي مرقس ١٤/ ٦١: فسأله رئيس الكهنة أيضًا وقال له: أأنت المسيح ابن المبارك؟! فقال

يسوع: أنا هو. وسوف تبصرون ابن الإنسان جالسًا عن يمين القوة وآتيًا في سحاب السماء.

٤٦- حامل الصليب.

في مرقس ١٥/ ٢١: فسخروا رجلًا مجتازًا كان آتيًا من الحقل وهو سمعان القيرواني أبو الكسندرس وروفس ليحمل صليبه.

وفي متى ٧/ ٣٢: وفيما هم خارجون وجدوا أنسانًا قيروانيًا اسمه سمعان فسخروه ليحمل صليبه.

وفي لوقا ٢٣/ ٢٦: و لما مضوا به أمسكوا سمعان رجلًا قيروانيًا كان آتيًا من الحقل ووضعوا عليه الصليب ليحمله خلف يسوع.

ولكن في يوحنا ١٩/ ١٧: فأخذوا يسوع ومضوا به فخرج وهو حامل صليبه إلى الموضع الذي يقال له موضع الجمجمة.

٤٧- وقت الصلب.

في مرقس ١٥/ ٢٥: وكانت الساعة الثالثة فصلبوه.

ولكن في يوحنا ١٩/ ١٤- ١٨: ونحو الساعة السادسة... حيث صلبوه وصلبوا اثنين آخرين معه.

٤٨- علة المصلوب.

في مرقس ١٥/ ٢٦: وكان عنوان علته مكتوبًا ملك اليهود.

وفي متى ٢٧/ ٣٧: وجعلوا فوق رأسه علته مكتوبة هذا هو يسوع ملك اليهود.

وفي لوقا ٢٣/ ٣٨: وكان عنوان مكتوب فوقه بأحرف يونانية ورومانية وعبرانية هذا هو ملك اليهود.

وفي يوحنا ١٩/ ١٩، ٢٠: وكتب بيلاطس عنوانًا ووضعه على الصليب وكان مكتوبًا يسوع الناصري ملك اليهود،...، وكان مكتوبًا بالعبرانيَّة واليونانيَّة واللاتينيَّة.

٤٩- موقف اللصين.

في مرقس ١٥/ ٢٧، ٣٢: وصلبوا معه لصين، واحدًا عن يمينه وآخر عن يساره... واللذان صُلبا معه كانا يعيرانه.

وفي متى ٢٧/ ٤٤: كان اللصان اللذان صلبا معه يعيرانه.

ولكن في لوقا ٢٣/ ٣٩- ٤٣: وكان واحد من المذنبين المعلقين يجدف عليه... فأجاب الآخر...: أنت تخاف الله إذ أنت تحت هذا الحكم بعينه. أما نحن فبعدل لأننا ننال استحقاق ما فعلنا. وأما هذا فلم يفعل شيئًا ليس في محله. ثم قال ليسوع: اذكرني يا رب متى جئت في

ملكوتك، فقال له يسوع: الحق أقول لك إنك اليوم تكون معي في الفردوس.

٥٠- الشراب الذي أعطي على الصليب.

في مرقس ١٥/ ٢٣: وأعطوه خمرًا ممزوجة بمر ليشرب فلم يقبل.

ولكن في متى ٢٧/ ٣٤: أعطوه خلًا ممزوجًا بمرارة ليشرب. ولما ذاق لم يُرِدْ أن يشرب.

وفي لوقا ٢٣/ ٣٦: ويقدمون له خلًا.

٥١- الذي قال اترك عند الصلب.

في مرقس ١٥/ ٣٦: فركض واحد وملأ إسفنجة خلًا وجعلها على قصبة وسقاه قائلًا: اتركوا. لنرى هل يأتي إيليا لينزله.

ولكن في متى ٢٧/ ٤٧: وللوقت ركض واحد منهم وأخذ إسفنجة وملأها خلًا وجعلها على قصبة وسقاه. وأما الباقون فقالوا: اترك لنرى هل يأتي إيليا يخلصه.

٥٢- آخر الكلام على الصليب، ولمن كان يوجهه؟

في مرقس ١٥/ ٣٤: وفي الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلًا: ألوي ألوي لِمَ شبقتني؟! الذي تفسيره إلهي إلهي لماذا تركتني؟! ونحوه في متى ٢٧/ ٤٦

ولكن في لوقا ٢٣/ ٤٦: ونادى يسوع بصوت عظيم وقال: يا أبتاه في يديك أستودع روحي. ولما قال هذا أسلم الروح.

وفي يوحنا ١٩/ ٣٠: فلما أخذ يسوع الخل قال: قد أكمل. ونكس رأسه وأسلم الروح.

٥٣- ترك الرب يسوع.

في يوحنا ١٦/ ٣٢- ٣٣: هو ذا تأتي ساعة وقد أتت الآن تتفرقون فيها كل واحد إلى خاصته وتتركونني وحدي. وأنا لست وحدي؛ لأن الآب معي... ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم.

وفي يوحنا ٨/ ٢٩: والذي أرسلني هو معي ولم يتركني الآب وحدي لأني في كل حين أفعل ما يرضيه.

ولكن في مرقس ١٥/ ٣٤: وفي الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلًا: ألوي ألوي لِمَ شبقتني؟! الذي تفسيره إلهي إلهي لماذا تركتني؟!.

٥٤- ترتيب الموت وانشقاق حجاب الهيكل، وكيفية الانشقاق.

في متى ٢٧/ ٥٠، ٥١: فصرخ يسوع أيضًا بصوت عظيم وأسلم الروح، وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل.

وفي مرقس ١٥/ ٣٧، ٣٨: فصرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح، فانشق حجاب الهيكل إلى اثنين من فوق إلى أسفل.

وفي لوقا ٢٣/ ٤٥، ٤٦: وأظلمت الشمس وانشق حجاب الهيكل من وسطه، ونادى يسوع بصوت عظيم وقال يا أبتاه في يديك استودع روحي ولما قال هذا أسلم الروح.

٥٥- قصة خروج الأموات.

في متى ٢٧/ ٥١- ٥٣: وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل والأرض تزلزلت والصخور تشققت، والقبور تفتحت وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين، وخرجوا من القبور بعد قيامته ودخلوا المدينة المقدَّسة وظهروا لكثيرين.

والقصة غير مذكورة في الأناجيل الثلاثة الأخرى، بل ولا في باقي كتب العهد الجديد.

وفي أعمال الرسل ٢٦/ ٢٣: إن يؤلم المسيح يكن هو أول قيامة الأموات.

ورسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس ١٥/ ٢٠: ولكن الآن قد قام المسيح من الأموات وصار باكورة الراقدين.

٥٦- قول قائد المائة بعد الصلب ومن معه.

في متى ٢٧/ ٥٤: وأما قائد المائة والذين معه يحرسون يسوع... قالوا: حقًّا كان هذا ابن الله.

وفي مرقس ١٥/ ٣٩: ولما رأى قائد المائة الواقف مقابله أنه صرخ هكذا وأسلم الروح قال حقًّا: كان هذا الإنسان ابن الله.

ولكن في لوقا ٢٣/ ٤٧: فلما رأى قائد المائة ما كان مجد الله قائلًا: بالحقيقة كان هذا الإنسان بارًّا.

٥٧- الطعن بالحربة بعد الصلب.

في متى ٢٧/ ٥٠- ٥٤: فصرخ يسوع أيضًا بصوت عظيم وأسلم الروح وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل. والأرض تزلزلت والصخور تشققت والقبور تفتحت وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين. وخرجوا من القبور... وأما قائد المائة والذين معه يحرسون يسوع فلما رأوا الزلزلة وما كان خافوا جدًّا وقالوا حقًّا: كان هذا ابن الله. وهكذا في مرقس ولوقا لم يتم الطعن بالحربة.

ولكن في يوحنا ١٩/ ٣٣، ٣٤: وأما يسوع فلما جاءوا إليه لم يكسروا ساقيه؛ لأنهم رأوه قد مات لكن واحدًا من العسكر طعن جنبه بحربة وللوقت خرج دم وماء.

٥٨- الذي دفن يسوع.

في لوقا ٢٣/ ٥٠- ٥٣: وإذا رجل اسمه يوسف وكان مشيرًا ورجلًا صالحًا بارًّا، هذا لم يكن موافقًا لرأيهم وعملهم وهو من الرامة مدينة لليهود، ...، هذا تقدم إلى بيلاطس وطلب جسد يسوع، وأنزله ولفه بكتان ووضعه في قبر منحوت حيث لم يكن أحد وضع قط.

وكذلك في متى ٢٧/٥٧- ٦٠، مرقس ١٥/٤٣- ٤٦، يوحنا ١٩/٣٨ .

ولكن في سفر أعمال الرسل ١٣/٢٧- ٢٩: لأن الساكنين في أورشليم ورؤساءهم، . . . ، طلبوا من بيلاطس أن يقتل، ولما تمموا كل ما كتب عنه أنزلوه عن الخشبة ووضعوه في قبر.

٥٩- وقت شراء النساء للحنوط والأطياب.

في مرقس ١٦/ ١: وبعدما مضى السبت اشترت مريم المجدلية ومريم أم يعقوب وسالومة حنوطًا ليأتين ويدهنه.

وفي لوقا ٢٣/ ٥٤- ٥٦: وكان يوم الاستعداد والسبت يلوح، وتبعته نساء كن قد أتين معه من الجليل ونظرن القبر وكيف وضع جسده، فرجعن وأعددن حنوطًا وأطيابًا وفي السبت استرحن حسب الوصية.

٦٠- وقت ذهاب النساء للقبر.

في مرقس ١٦/ ٢: وباكر جدًّا في أول الأسبوع أتين إلى القبر إذ طلعت الشمس.

ولكن في يوحنا ٢٠/ ١: وفي أول الأسبوع جاءت مريم المجدلية إلى القبر باكرًا والظلام باقٍ.

٦١- عدد النساء الذاهبات إلى القبر.

في يوحنا ٢٠/ ١: وفي أول الأسبوع جاءت مريم المجدلية إلى القبر.

وفي متى ٢٨/ ١: وبعد السبت عند فجر أول الأسبوع جاءت مريم المجدلية ومريم الأخرى لتنظرا القبر.

وفي مرقس ١٦/ ١، ٢: وبعد ما مضى السبت اشترت مريم المجدلية ومريم أم يعقوب وسالومة حنوطًا ليأتين ويدهنه.

وفي لوقا ٢٣/ ٥٥، ٥٦، ٢٤/ ١: وتبعته نساء كن قد أتين معه من الجليل ونظرن القبر وكيف وضع جسده، فرجعن وأعددن حنوطًا وأطيابًا . . . ، ثم في أول الأسبوع أول الفجر أتين إلى القبر حاملات الحنوط الذي أعددنه ومعهن أناس.

٦٢- رؤية النساء للملاك أو الشاب أو أكثر وكيفية رؤيته، ووقت دحرجة الحجر.

في متى ٢٨/ ٢- ٥: وإذا زلزلة عظيمة حدثت لأن ملاك الرب نزل من السماء وجاء ودحرج الحجر عن الباب وجلس عليه. . . فأجاب الملاك وقال للمرأتين لا تخافا.

ولكن في مرقس ١٦/ ٤- ٦: فتطلعن ورأين أن الحجر قد دحرج لأنه كان عظيمًا جدًّا، ولما دخلن القبر رأين شابًّا جالسًا عن اليمين لابسًا حلة بيضاء فاندهشن، فقال لهن: لا تندهشن أنتن تطلبن يسوع الناصري المصلوب. . .

وفي لوقا ٢٤/ ٢- ٥: فوجدن الحجر مدحرجًا عن القبر، فدخلن. . . إذا رجلان وقفا بهن بثياب براقة، وإذ كن خائفات ومنكسات وجوههن إلى الأرض قالا لهن: . . .

أما في يوحنا ٢٠/ ١١، ١٢: أما مريم فكانت واقفة عند القبر خارجًا تبكي وفيما هي تبكي انحنت إلى القبر فنظرت ملاكين بثياب بيض جالسين واحدًا عند الرأس والآخر عند الرجلين. . .

٦٣- وقت رؤية المرأة ليسوع.

في متى ٢٨/ ٨، ٩: فخرجتا سريعًا من القبر بخوف وفرح عظيم راكضتين لتخبرا تلاميذه، وفيما هما منطلقتان لتخبرا تلاميذه إذا يسوع لاقاهما وقال سلام لكما فتقدمتا وأمسكتا بقدميه وسجدتا له.

ولكن في يوحنا ٢٠/ ١١- ١٦: أما مريم فكانت واقفة عند القبر خارجًا تبكي، . . .، ولما قالت هذا التفتت إلى الوراء فنظرت يسوع واقفًا ولم تعلم أنه يسوع، قال لها يسوع يا امرأة لماذا تبكين من تطلبين فظنت تلك أنه البستاني، فقالت له: يا سيد إن كنت أنت قد حملته فقل لي: أين وضعته؟ وأنا آخذه، قال لها يسوع يا مريم فالتفتت تلك وقالت له ربوني الذي تفسيره يا معلم.

٦٤- وقت إيمان التلاميذ بقيامة المسيح.

في لوقا ٢٤/ ٣٣، ٣٤: فقاما في تلك الساعة ورجعا إلى أورشليم ووجدوا الأحد عشر مجتمعين هم والذين معهم.

وهم يقولون إن الرب قام بالحقيقة وظهر لسمعان وأما هما فكانا يخبران بما حدث في الطريق وكيف عرفاه عند كسر الخبز.

ولكن في مرقس ١٦/ ٩- ١٤: ظهر أولًا لمريم المجدلية. . . فذهبت هذه وأخبرت الذين كانوا معه وهم ينوحون ويبكون فلما سمع أولئك أنه حي وقد نظرته لم يصدقوا. وبعد ذلك ظهر بهيئة أخرى لاثنين منهم وهما يمشيان منطلقين إلى البرية. وذهب هذان وأخبرا الباقين فلم يصدقوا ولا هذين. أخيرًا ظهر للأحد عشر وهم متكئون ووبخ عدم إيمانهم وقساوة قلوبهم؛ لأنهم لم يصدقوا الذين نظروه قد قام.

٦٥- توصيل النسوة لرسالة الملاك إلى التلاميذ.

في مرقس ١٦/ ٥- ٨: ولما دخلن القبر لكن اذهبن وقلن لتلاميذه ولبطرس. . . فخرجن سريعًا وهربن من القبر؛ لأن الرعدة والحيرة أخذتاهن، ولم يقلن لأحد شيئًا لأنهن كن خائفات.

ولكن في لوقا ٢٤/ ٤- ٩: إذا رجلان وقفا بهن بثياب براقة فتذكرن كلامه ورجعن من القبر وأخبرن الأحد عشر وجميع الباقين بهذا كله.

وفي متى ٢٨/ ٨: فخرجتا سريعًا من القبر بخوف وفرح عظيم راكضتين لتخبرا تلاميذه.

٦٦- عدد المرات التي ظهر فيها يسوع للتلاميذ.

في متى ٢٨/ ١٦، ١٧: وأما الأحد عشر تلميذًا فانطلقوا إلى الجليل حيث أمرهم يسوع ولما رأوه سجدوا له ولكن بعضهم شكوا.

ولكن في يوحنا ٢٠/١٩- ٢٦: ولما كانت عشية ذلك اليوم وهو أول الأسبوع وكانت الأبواب مغلقة حيث كان التلاميذ مجتمعين... جاء يسوع ووقف في الوسط وقال لهم سلام لكم... وبعد ثمانية أيام كان تلاميذه أيضًا داخلًا وتوما معهم. فجاء يسوع والأبواب مغلقة ووقف في الوسط وقال: سلام لكم.

وفي يوحنا ٢١/١- ١٤: بعد هذا أظهر أيضًا يسوع نفسه للتلاميذ على بحر طبرية... هذه مرة ثالثة ظهر يسوع لتلاميذه بعدما قام من الأموات.

٦٧- ذهب التلاميذ إلى الجليل كما أمرهم يسوع لكي يظهر لهم أم ظلوا في أورشليم.

في متى ٢٨/١٦، ١٧: وأما الأحد عشر تلميذًا فانطلقوا إلى الجليل إلى الجبل حيث أمرهم يسوع. ولما رأوه سجدوا له.

ولكن في يوحنا ٢٠/١٨، ١٩: فجاءت مريم المجدلية وأخبرت التلاميذ أنها رأت الرب وأنه قال لها هذا. ولما كانت عشية ذلك اليوم وهو أول الأسبوع وكانت الأبواب مغلقة حيث كان التلاميذ مجتمعين لسبب الخوف من اليهود جاء يسوع ووقف في الوسط وقال لهم: «سلام لكم».

٦٨- زمن ومكان صعود المسيح إلى السماء.

في لوقا ٢٤/١- ٥٢ في أيام الفصح بالقرب من بيت عنيا خلال ٢٤ ساعة من خروجه من القبر: ثم في أول الأسبوع أول الفجر أتين إلى القبر حاملات الحنوط... وإذا اثنان منهم كانا منطلقين في ذلك اليوم إلى قرية بعيدة عن أورشليم... وفيما هما يتكلمان ويتحاوران اقترب إليهما يسوع نفسه وكان يمشي معهما... وقد مال النهار فدخل ليمكث معهما... فقاما في تلك الساعة ورجعا إلى أورشليم ووجدا الأحد عشر... وفيما هما يتكلمون بهذا وقف يسوع نفسه في وسطهم... وقال لهم: هذا هو الكلام الذي كلمتكم به... وأخرجهم خارجًا إلى بيت عنيا ورفع يديه وباركهم. وفيما هو يباركهم انفرد عنهم وأُصعد إلى السماء.

ولكن في أعمال الرسل ١/٣- ٩، ١٢ صعد من جبل الزيتون بعد ٤٠ يومًا من خروجه من القبر: أراهم أيضًا نفسه حيًّا ببراهين كثيرة بعد ما تألم وهو يظهر لهم أربعين يومًا ويتكلم عن الأمور المختصة بملكوت الله... ولما قال هذا ارتفع وهم ينظرون وأخذته سَحابة عن أعينهم وفيما كانوا يشخصون إلى السماء وهو منطلق... حينئذ رجعوا إلى أورشليم من الجبل الذي يُدعَى جبل الزيتون الذي هو بالقرب من أورشليم.

٦٩- ما صنعه المسيح لا تسعه الكتب.

في يوحنا ٢١/٢٥: وأشياء أخرى كثيرة صنعها يسوع إن كنت كتبت واحدة واحدة فلست أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة.

ولكن في أعمال الرسل ١/١، ٢: الكلام الأول أنشأته -يا ثاوفيلس- عن جميع ما ابتدأ يسوع يفعله ويعلم به إلى اليوم الذي ارتفع فيه[(١)].

المعيار الخامس: التناقض بين الرسائل

١- الملائكة يخطئون ولا يقومون بوظيفتهم.

في رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس ٥/ ٢١: الملائكة مختارون بلا عيب: أناشدك أمام الله والرب يسوع المسيح والملائكة المختارين أن تحفظ هذا بدون غرض ولا تعمل شيئًا بمحاباة.

تناقضه رسالة يهوذا ٦: والملائكة الذين لم يحفظوا رياستهم بل تركوا مسكنهم حفظهم إلى دينونة اليوم العظيم بقيود أبدية تحت الظلام.

وفي رسالة بطرس الثانية ٢/ ٤: لأنه إن كان الله لم يشفق على ملائكة قد أخطئوا بل في سلاسل الظلام طرحهم في جهنم.

٢- جيل نهاية الدهر.

في رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس ١٠/ ١١: نحن الذين انتهت إلينا أواخر الدهور.

وفي رسالة بولس الأولى إلى أهل تسالونيكي ٤/ ١٥- ١٧: نحن الأحياء الباقين إلى مجيء الرب.

ولكن قد مات بولس ومات جميع الذين كانوا معه ولم يأتي الرب ولم تقم القيامة.

٣- حقيقة الكتاب عند بولس.

في رسالة بولس الثانية إلى تيموثاوس ٣/ ١٦: كل الكتاب هو موحى به من الله ونافع للتعليم والتوبيخ للتقويم والتأديب الذي في البر.

ولكن في رسالته إلى العبرانيين ٧/ ١٨: فإنه يصير إبطال الوصية السابقة من أجل ضعفها وعدم نفعها.

وفي ٨/ ٧: فإنه لو كان ذلك الأول بلا عيب لما طلب موضع لثان.

٤- شرب الخمر عند بولس.

في رسالة بولس إلى أهل رومية ١٤/ ٢١: حسن ألا تأكل لحمًا ولا تشرب خمرًا.

بينما في رسالته الأولى إلى تيموثاوس ٥/ ٢٣: لا تكن في ما بعد شراب ماء بل استعمل خمرًا قليلًا من أجل معدتك وأسقامك الكثيرة.

---

(١) انظر: الاختلافات في الكتاب المقدس، تحريف الكتاب المقدس، حقائق حول الكتاب المقدس.

٥- رسالة بولس الرسول إلى أهل كولوسي.

ولكن في أولها ١/١، ٢ نجد أنهما من: بولس رسول يسوع المسيح بمشيئة الله وتيموثاوس الأخ، إلى القديسين في كولوسي.

٦- رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل تسالونيكي.

ولكن في أولها ١/١ نجد أنها من: بولس وسلوانس وتيموثاوس إلى كنيسة التسالونيكيين.

٧- الزواج عند بولس.

في رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس ٤/١- ٣: ولكن الروح يقول صريحًا إنه في الأزمنة الأخيرة يرتد قوم عن الإيمان تابعين أرواحًا مضلة وتعاليم شياطين، في رياء أقوال كاذبة موسومة ضمائرهم، مانعين عن الزواج.

ولكن في رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس ٧/٨: و لكن أقول لغير المتزوجين و للأرامل إنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا.

وفي ٧/٢٧: أنت منفصل عن امرأة فلا تطلب امرأة.

٨- يسوع إله.

في يوحنا ٢٠/١٧: قال لها يسوع: لا تلمسيني لأني لم أصعد بعد إلى أبي ولكن اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم.

ولكن في رسالة بولس إلى أهل رومية ٩/٥: ولهم الآباء ومنهم المسيح حسب الجسد الكائن على الكل إلهًا مباركًا إلى الأبد.

المعيار السادس: الاختلاف بين النسخ والترجمات

الاختلافات الموجودة بين النسخة البروتستانتيَّة (الفانديك)، والنسخة الكاثوليكيَّة (الرهبانيَّة اليسوعيَّة)، فنجد أن الفقرات الآتية موجودة في النسخة البروتستانتية وغير موجودة في النسخة الكاثوليكية:

١- في إنجيل متى:

٦/١٣: لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد آمين.

غير موجودة

١٨/١١: لأن ابن الإنسان قد جاء لكي يخلص ما قد هلك.

غير موجودة

٢٣/١٤: ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تأكلون بيوت الأرامل. ولعلة تطيلون صلواتكم. لذلك تأخذون دينونة أعظم.

غير موجودة

٢٧/٣٥: لكي يتم ما قيل بالنبي اقتسموا ثيابي بينهم وعلى لباسي ألقوا قرعة.

غير موجودة

٢- في إنجيل مرقس:

٧/١٦: إن كان لأحد أذنان للسمع فليسمع.

غير موجودة

٩/٤٤: حيث دودهم لا يموت والنار لا تطفأ.

غير موجودة

١٥/٢٨: فتم الكتاب القائل وأحصي مع أثمة.

غير موجودة

١١/٢٦: وإن لم تغفروا أنتم لا يغفر أبوكم الذي في السموات أيضا زلاتكم.

غير موجودة

٣- في إنجيل لوقا:

١/٢٨: مباركة أنت في النساء.

غير موجودة

٨/٤٥: فقال يسوع من الذي لمسني وإذ كان الجميع ينكرون قال بطرس والذين معه: يا معلم الجموع يضيقون عليك ويزحمونك وتقول من الذي لمسني.

غير موجودة

٩/٥٥: فالتفت وانتهرهما وقال لستما تعلمان من أي روح أنتما.

غير موجودة

٩/٥٦: لأن ابن الإنسان لم يأت ليهلك أنفس الناس بل ليخلص.

غير موجودة

١١/١١: فمن منكم وهو أب يسأله ابنه خبزًا أفيعطيه حجرًا.

غير موجودة

١٧/٣٦: يكون اثنان في الحقل فيؤخذ الواحد ويترك الآخر.

غير موجودة

٢٣/١٧: وكان مضطرًا أن يطلق لهم كل عيد واحدًا.

غير موجودة

٤٢/٢٤ : فناولوه جزءًا من سمك مشوي وشيئًا من شهد عسل.

غير موجودة

٤- في إنجيل يوحنا :

١٣/٣ : وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء.

عبارة: الذي في السماء غير موجودة في النسخة الكاثوليكيَّة

٤١/١١ : فرفعوا الحجر حيث كان الميت موضوعًا.

غير موجودة

٤/٥ : لأن ملاكًا كان ينزل أحيانًا في البركة ويحرك الماء فمن نزل أولًا بعد تحريك الماء كان يبرأ من أي مرض.

غير موجودة

٥- سفر أعمال الرسل :

٣٧/٨: فقال فيلبس إن كنت تؤمن من كل قلبك يجوز. فأجاب وقال أنا أؤمن إن يسوع المسيح هو ابن الله.

غير موجودة

٥/٩ : فقال من أنت يا سيد، فقال الرب أنا يسوع الذي أنت تضطهده، صعب عليك إن ترفس مناخس.

غير موجودة

٦/٩ : فقال وهو مرتعد ومتحير يا رب ماذا تريد أن أفعل.

غير موجودة

٣٤/١٥: ولكن سيلا رأى إن يلبث هناك.

غير موجودة

٦/٢٤- ٨: وقد شرع إن ينجس الهيكل أيضًا أمسكناه وأردنا إن نحكم عليه حسب ناموسنا، فاقبل ليسياس الأمير بعنف شديد وأخذه من بين أيدينا، وأمر المشتكين عليه أن يأتوا إليك.

غير موجودة

٢٩/٢٨ : ولما قال هذا مضى اليهود ولهم مباحثة كثيرة فيما بينهم.

غير موجودة

٦- الرسالة الأولى ليوحنا.

٥/٧: فإن الذين يشهدون في السماء هم ثلاثة الآب والكلمة والروح القدس وهؤلاء الثلاثة هم واحد.

غير موجودة

٥/٨: والذين يشهدون في الأرض...

غير موجودة[١].

(١) انظر: حقائق حول الكتاب المقدس.

الفصل السادس

دراسة لنسب المسيح من خلال العهد الجديد

في متى: ١: ٢ إبراهيم ولد إسحاق، وإسحاق ولد يعقوب، ويعقوب ولد يهوذا وإخوته. ١: ٣ ويهوذا ولد فارص، وزارح من ثامار، وفارص ولد حصرون، وحصرون ولد آرام. ١: ٤ وآرام ولد عميناداب، وعميناداب ولد نحشون، ونحشون ولد سلمون. ١: ٥ وسلمون ولد بوعز من راحاب، وبوعز ولد عوبيد من راعوث، وعوبيد ولد يسي. ١: ٦ و يسي ولد داود الملك، وداود الملك ولد سليمان من التي لأوريا. ١: ٧ وسليمان ولد رحبعام، ورحبعام ولد آبيا، وآبيا ولد آسا ١: ٨ وآسا ولد يهوشافاط، ويهوشافاط ولد يورام، ويورام ولد عزيا. ١: ٩ وعزيا ولد يوثام، ويوثام ولد آحاز، وآحاز ولد حزقيا. ١: ١٠ وحزقيا ولد منسى، ومنسى ولد آمون، وآمون ولد يوشيا. ١: ١١ ويوشيا ولد يكنيا وإخوته عند سبي بابل. ١: ١٢ وبعد سبي بابل يكنيا ولد شالتيئيل، وشالتيئيل ولد زربابل. ١: ١٣ وزربابل ولد أبيهود، وأبيهود ولد الياقيم، والياقيم ولد عازور. ١: ١٤ وعازور ولد صادوق، وصادوق ولد أخيم، وأخيم ولد اليود. ١: ١٥ واليود ولد اليعازر، واليعازر ولد متان، ومتان ولد يعقوب. ١: ١٦ ويعقوب ولد يوسف رجل مريم التي ولد منها يسوع الذي يدعى المسيح.

وفي لوقا: ٣: ٢٣ ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة وهو على ما كان يظن ابن يوسف بن هالي ٣: ٢٤بن متثات بن لاوي بن ملكي بن ينا بن يوسف ٣: ٢٥بن متاثيا بن عاموص بن ناحوم بن حسلي بن نجاي ٣: ٢٦بن ماث بن متاثيا بن شمعي بن يوسف بن يهوذا ٣: ٢٧بن يوحنا بن ريسا بن زربابل بن شالتيئيل بن نيري ٣: ٢٨بن ملكي بن ادي بن قصم بن المودام بن عير ٣: ٢٩بن يوسي بن اليعازر بن يوريم بن متثات بن لاوي ٣: ٣٠بن شمعون بن يهوذا بن يوسف بن يونان بن الياقيم ٣: ٣١بن مليا بن مينان بن متاثا بن ناثان بن داود ٣: ٣٢بن يسى بن عوبيد بن بوعز بن سلمون بن نحشون ٣: ٣٣بن عميناداب بن آرام بن حصرون بن فارص بن يهوذا ٣: ٣٤بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

ومن خلال المقارنة بين النصين يتضح لنا الآتي:

١- لماذا يعطي الله أبًا -وهو يوسف- لابنه عيسى وهو مولود بدون أب؟!

٢- يوسف بن يعقوب تبعًا لمتى وهو ابن هالي تبعًا للوقا.

٣- في متى المسيح من أولاد سليمان بن داود، وفي لوقا هو من أولاد ناثان بن داود.

٤- سجل متى من داود إلى المسيح ٢٦ سلفًا فقط، يكون مقابل كل جيل ٤٠ سنة، بينما سجل (لوقا) من داود إلى المسيح ٤٠ سلفًا ليسوع، ولا يوجد اسم مشترك بينهما إلا يوسف، يكون

مقابل كل جيل ٢٠ سنة؛ لأن المدة بين داود ويسوع حوالي ١٠٠٠ سنة.

٥- ذكر (متى) أن جميع آباء وأجداد المسيح إلى جلاء بابل سلاطين، وفي (لوقا) لم تكن لهم شهرة ومن ثَمَّ لم يكونوا سلاطين ولم يكن معروفًا فيهم غير داود وناثان!

٦- ذكر (متى) شالتيل بن يكنيا، وذكر (لوقا) أن شالتيل بن نيري.

٧- ذكر (متى ١/ ١٣) أن ابن زربابل هو أبيهود، ويذكر (لوقا ٣/ ٢٧) أن ريسا ابن زربابل وفي أخبار الأيام الأول (٣/ ١٩) لم يذكر ابنًا لزربابل لا باسم أبيهود ولا باسم ريسا.

يبرر النصارى هذا الاختلاف في نسب المسيح بالقول إن أحدهم خاص بنسب مريم والآخر بنسب يوسف النجار ولكن متى ولوقا لم يقولا هذا نسب مريم أو يوسف النجار، بل قالا: إنه نسب المسيح، ثم ما دخل يوسف النجار في النسب هل هو أبوه؟!

وقد اعترف جماعة المحققين بأنهما مختلفان اختلافًا معنويًّا، ونقل آدم كلارك أحد كبار مفسري الإنجيل عذرًا من (هارمرسي) في الصفحة (٤٠٨) من المجلد الخامس هكذا: ويعلم كل ذي علم أن متىّ ولوقا، اختلفا في بيان نسب الرب اختلاف تحير فيه المحققون من القدماء والمتأخرين.

٨- كرَّم الكتاب المقدس شخصيات لولادتهم غير الشرعية (من الزنى) !، وهم آباء وأمهات وأجداد يسوع المسيح كالآتي:

أ - يهوذا زنى مع كنته ثامار(زوجة ابنه) وحبلت منه وولدت من هذا الزنى فارص وزارح وهم أيضًا في نسب المسيح. (تكوين ٣٨/ ١٥- ١٨)!.

ب - وسلمون ولد بوعز من راحاب (متى ١/ ٥) وراحاب امرأة زانية (يشوع ٢/ ١- ١٥).

ج - وبوعز ولد عوبيد من راعوث (متى ١/ ٥) وراعوث هي راعوث (راعوث ٤/ ٥) الموآبية.

د - وداود الملك زنى مع امرأة أوريا الحثي (صموئيل الثاني ١١/ ٤).

هـ- بغاء الأختين أهولة وأهوليبة (حزقيال الإصحاح ٢٣).

و- زنى ابنتي لوط مع أبيهما التكوين (١٩/ ٣٠- ٣٨).

ونتج عن هذا الزنى بنو عمون وبنو موآب الذين فضَّلهم الرب كما يدَّعون وبعد فترة أمرهم الرب المحب بذبح شعب آخر بدون رحمة رجالًا ونساءً وأطفالًا حتى الشجر والبهائم لم تفلت من ذلك الدمار!، ولكن نسل لوط «لا تعادهم ولا تناصبهم» تثنية ٢/ ١٩ .

وغير ذلك مما ذُكروا سابقًا تم تكريمهم بإدخالهم في نسب المسيح، على الرغم من تعهد الله بأن لا يدخل زنيم في جماعة الرب

كما في التثنية ٢٣/ ٢: لا يدخل ابن زنى في جماعة الرب حتى الجيل العاشر لا يدخل منه أحد في جماعة الرب لا يدخل عموني ولا موآبي في جماعة الرب، حتى الجيل العاشر لا يدخل منهم أحد في

جماعة الرب إلى الأبد.

فهل منع الرب دخول العموني والموآبي جماعة الرب حتى الجيل العاشر أم إلى الأبد ؟!.

٩- يؤكد لوقا ادعاء اليهود أن المسيح ابن يوسف النجار، وأنه لم يأتِ بمعجزة.

في لوقا ٢/ ٤، ٢٧ : «فصعد يوسف أيضًا من الجليل من مدينة الناصرة إلى اليهوديَّة إلى مدينة داود التي تُدعى بيت لحم لكونه من بيت داود وعشيرته ليكتتب مع مريم امرأته المخطوبة وهي حُبلى وبينما هما هناك تمت أيامها لتلد فولدت ابنها البكر. . . وعندما دخل بالصبي يسوع أبواه ليصنعا له حسب عادة الناموس. . .».

ويؤكد لوقا ٢/ ٤١ : «وكان أبواه يذهبان كل سنة إلى أورشليم في عيد الفصح».

وفي لوقا ٤/ ٢١- ٢٣ يذكر مقالة اليهود أمام المسيح وعدم رده عليهم وكأنه موافقهم على هذا الاتهام! : «فابتدأ يقول لهم. . . وكان الجميع يشهدون له ويتعجبون من كلمات النعمة الخارجة من فمه ويقولون: أليس هذا ابن يوسف؟! فقال لهم: على كل حال تقولون لي هذا المثل أيها الطبيب اشفِ نفسك». فهل هذه إجابة؟!.

ويؤكد لوقا ٣/ ٢٣ في سلسلة نسب المسيح أنه ابن يوسف، كيف يقال هذا لشخص ليس له أب ووُلد بمعجزة؟!

وفي لوقا ٢/ ٤٨ مريم تؤكد أبوَّة يوسف للمسيح! : «وقالت له أمه: يا بني لماذا فعلت بنا هكذا؟!، هو ذا أبوك وأنا كنا نطلبك معذبين».

وفي لوقا ٣/ ٢٣ يعلن أن سلسلة نسب المسيح على ما يظن!! : «ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة وهو على ما كان يظن ابن يوسف بن هالي. . .».

فهل يجوز هذا الظن في أمر عقَدي؟![1].

(١) انظر: الاختلافات في الكتاب المقدس، حقائق حول الكتاب المقدس.

الفصل السابع

صفات المسيح من خلال العهد الجديد

هل هذه الصفات صفات إله؟!

١- يسوع معدوم القوة:

في يوحنا ٥/ ٣٠: أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئًا.

ولكن في إشعياء ٤٠/ ٢٨، ٢٩: إله الدهر الرب خالق أطراف الأرض لا يكل ولا يعيا. ليس عن فهمه فحص. يعطى المعي قدرة ولعديم القوة يكثر شدة.

٢- يسوع لا يعلم يوم القيامة:

في مرقس ١٣/ ٣٢: وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلا الآب.

٣- يسوع لا يعلم الغيب ويجهل الموسم.

في مرقس ١١/ ١٢، ١٣: وفي الغد لما خرجوا من بيت عنيا جاع. فنظر شجرة تين من بعيد عليها ورق وجاء لعله يجد فيها شيئًا فلما جاء إليها لم يجد شيئًا إلا ورقًا؛ لأنه لم يكن وقت التين.

٤- يسوع مجرب من الشيطان.

في لوقا ٤/ ١، ٢، ١٣: أما يسوع... أربعين يومًا يجرب من إبليس... ولما أكمل إبليس كل تجربة فارقه إلى حين.

وفي رسالة بولس إلى العبرانيين ٤/ ١٥ يقول عن يسوع: بل مجرب في كل شيء مثلنا بلا خطية.

بينما يقول يعقوب في ١/ ١٣: لأن الله غير مجرب بالشرور وهو لا يجرب أحدًا. ولكن كل واحد يجرب إذا انجذب وانخدع من شهوته.

٥- يسوع يعترف بذنوبه ويتوب.

في متى ٣/ ١٣: حينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن إلى يوحنا ليعتمد منه.

وقد تم تغيير لفظ «يتعمد» إلى «يُعتمد».

٦- يسوع مُرسل من غيره.

في يوحنا ٨/ ١٨: أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي الآب الذي أرسلني.

٧- يسوع يهرب من اليهود.

في يوحنا ٧/ ١: وكان يسوع يتردد بعد هذا في الجليل؛ لأنه لم يرد أن يتردد في اليهوديَّة؛ لأن

اليهود كانوا يطلبون أن يقتلوه.

وفي يوحنا ١١/٥٣، ٥٤: فمن ذلك اليوم تشاوروا ليقتلوه فلم يكن يسوع يمشي بين اليهود علانية.

٨- يسوع صفاته مثل الناس جميعًا:

أ - يسوع يجوع:

في متى ٢١/١٨: وفي الصبح إذا كان راجعًا من المدينة جاع.

ب - يسوع عطشان:

في يوحنا ١٩/٢٨: قال: أنا عطشان.

ج: يسوع ينام:

في متى ٨/ ٢٤: وكان هو نائم

د - يسوع يتعب:

في يوحنا ٤/٦: فإذا كان يسوع قد تعب من السفر جلس هكذا على البئر.

هـ - يسوع يبكي:

في يوحنا ١١/ ٣٥: بكى يسوع.

و - يسوع يترعج:

في يوحنا ١١/ ٣٣: نزعج بالروح واضطرب.

ز - يسوع يحزن ويكتئب:

في متى ٢٦/ ٣٧: وابتدأ يحزن ويكتئب.

وفي مرقس ١٤/ ٣٣: وابتدأ يدهش ويكتئب.

ح - يسوع ضعيف:

في لوقا ٢٢/ ٤٣: وظهر له ملاك من السماء يقويه.

ط- يسوع يولد:

في متى ١/ ١٨: أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا.

وفي لوقا ٢/ ٧: فولدت ابنها البكر وقمطته وأضجعته في المذود إذ لم يكن لهما موضع في المنزل.

ي- يسوع له أخوة:

في متى ١٣/ ٥٤، ٥٥: ولما جاء إلى وطنه كان يعلمهم في مجمعهم حتى بهتوا وقالوا من أين لهذا

هذه الحكمة والقوات، أليس هذا ابن النجار، أليست أمه تدعى مريم وإخوته يعقوب ويوسي وسمعان ويهوذا[١].

(١) انظر: الاختلافات في الكتاب المقدس.

الفصل الثامن

نظرة في قصة الصلب من خلال العهد الجديد

تؤكد المزامير نجاة المسيح، وأن الشخص الذي أراد أن يوقع المسيح في حفرة هو الذي وقع فيها وصلب وعلق على الصليب بدلًا من المسيح.

فى المزامير ٥٧/٦: هيئوا شبكة لخطواتي... حفروا قدامي حفرة. سقطوا في وسطها.

وتؤكد المزامير ٩/١٦: الرب قضاء امضي: الشرير يعلق بعمل يديه.

فكيف حدث ذلك؟

يرى بعض الباحثين الآتي:

١- في المزامير ٥٦/٩- ١٣: وحين ترتد أعدائي إلى الوراء في يوم أدعوك فيه هذا قد علمته لأن الله لي... شكرًا لك؛ لأنك قد نجيت نفسي من الموت.

٢- في يوحنا ١٨/ ٣- ٨ اتفق مع المزامير في ارتداد أعداء المسيح إلى الوراء وزاد على ذلك بأنهم سقطوا على الأرض: فأخذ يهوذا الجند وخدامًا من عند رؤساء الكهنة والفريسيين، وجاء إلى هناك بمشاعل ومصابيح وسلاح. فخرج يسوع وهو عالم بكل ما يأتي عليه وقال له: من تطلبون؟ أجابوه: يسوع الناصري. قال لهم يسوع: أنا هو. وكان يهوذا مسلمه أيضًا واقفًا معهم. فلما قال لهم: إني أنا هو رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض...

فماذا يعنى ذلك ؟

٣- تدخلت قدرة الله العظيم -كما ذكر يوحنا- فسقطوا على الأرض، سقطت الجموع الغفيرة، وتدافع الجند، ووقعت المشاعل من أيديهم، ثم نهضوا ليجدوا دليلهم يهوذا الأسخريوطي وحيدًا في الساحة مبهوتًا أصابه الذهول، وقد رأى المسيح يرفع للسماء، وقد ألقى الله عليه شبه المسيح، فأخذوه لينال جزاء خيانته لسيده.

٤- فكانت لحظة سقوطهم هي لحظة الخلاص الخالدة التي تاهت عنها عيون الملايين من النصارى ممن ظن أن المأخوذ بعدها هو المسيح.

فكانت لحظةُ وقوع الجند: لحظة الخلاص كما وصفتها المزامير «الآن عرفت أن الرب مخلص مسيحه... هم جثوا وسقطوا، أما نحن فقمنا وانتصبنا» (المزمور ٢٠/٨).

وفي مزمور آخر: «أما أنت فتبارك، قاموا وخزوا» (المزمور ١٠٩/٢٨).

وفي مزمور آخر يسجل تلك اللحظة الخالدة: «حينئذ ترتد أعدائي إلى الوراء» (المزمور ٥٦/ ٩)، و «ليرتد إلى خلف، ويخجل المشتهون لي شرًّا» (المزمور ٧٠/ ٢)، و«عندما اقترب إلي الأشرار

ليأكلوا لحمي، ومضايقي وأعدائي عثروا وسقطوا» (المزمور ٢٧/ ٢)، «ليخز وليخجل معًا الذين يطلبون نفسي لإهلاكها، ليرتد إلى الوراء، وليخز المسرورون بأذيتي» (المزمور ٤٠/ ١٤-١٥) وغيرها.

٥- وأما المسيح فقد نزلت ملائكة الله وصعدت به إلى السماء، «وظهر له ملاك من السماء يقويه» (لوقا ٢٢/ ٤٤) لينجو من المؤامرة بحماية الله العظيم، وأعطي بذلك حياة طويلة تمتد إلى قبيل قيام الساعة حيث ينزل إلى الأرض عليه السلام لعيش عليها ويموت في سلام.

٦- بعدها حُمل يهوذا إلى المحاكمة وإلى ديوان بيلاطس، والشك في حقيقة شخصه يلاحقه في كل هذه الخطوات، فقد شك فيه رئيس الكهنة، وكانت إجاباته لبيلاطس وهيرودس تنبئ عن الذهول الذي أصابه، وعن عجزه عن بيان الحقيقة، التي لن يقنع أحدًا إن ذكرها، فكان يجيبهم: «أنت تقول» (متى ٢٧/ ١١).

٧- ولما اجتمع في النهار مشيخة الشعب، ورؤساء الكهنة، وأصعدوه إلى مجمعهم قائلين: إن كنت أنت المسيح، فقل لنا. فقال لهم: إن قلت لكم لا تصدقون، وإن سألت لا تجيبونني ولا تطلقونني. منذ الآن يكون ابن الإنسان جالسًا عن يمين قوة الله. فقال الجميع: أفأنت ابن الله؟ فقال لهم: أنتم تقولون: إني أنا هو (لوقا ٢٢/ ٦٦ - ٧٠).

ولا يفسر هذه الإجابات الغريبة، بل وتلك الأسئلة الغريبة من أناس كانوا يرون المسيح في كل يوم، لا يفسره إلا أن نقول بأن المأخوذ هو غير المسيح، وإن أشبهه، وهذا الشبه حير رؤساء الكهنة في حقيقة المأخوذ، فحاولوا استجلاء الحقيقة بسؤال المأخوذ، فلم ينكر ولم يثبت.

وأما يهوذا فقد عرف ألا فائدة من إنكاره، إذ لن يصدقه أحد، ولربما ولفرط ندمه قد استسلم لرداه، ورضي بعقوبة الله له، أن يصلب عن المسيح، لعله بذلك أن يفديه، لذلك تكرر سكوته.

ويرى بعض الباحثين شيئًا آخر:

٣- أنه لا يمكن أن يرتد أعداء المسيح إلى الوراء ويسقطوا على الأرض إلا بسبب حدوث معجزة ومفاجأة مذهلة أفقدتهم صوابهم والقدرة على الثبات والاتزان والوقوف على أرجلهم، فارتدوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض مع أن القوات المكلفة بالقبض على المسيح قوات خاصة مدربة على مواجه الصعاب؛ لأنهم كانوا يحملون السلاح ويتوقعون المقاومة من أتباع المسيح.

٤- كانت المفاجأة المذهلة أنهم رأوا تغير وجه يهوذا لقد صار وجهه كوجه المسيح، وكان يهوذا يقترب من المسيح ليشير إليه، فارتدوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض فحدثت فوضى، وعندما أفاقوا قبضوا على يهوذا وهم يظنونه المسيح، وحاكموه وعلق على الصليب بعمل يديه كما قالت المزامير وكما ألمح يوحنا.

٥- عندما ارتدا أعداء المسيح إلى الوراء وسقطوا على الأرض، اتخذها المسيح وتلاميذه فرصة نادرة للهرب فهربوا، وقد هرب المسيح من أعدائه قبل ذلك أكثر من مره:

ففي يوحنا ١٠/ ٣٩: فطلبوا أن يمسكوه فخرج من أيديهم.

وفى يوحنا ٨/ ٥٩: فرفعوا حجارة ليجرموه، أما يسوع فاختفى من الهيكل مجتازًا في وسطهم ومضى.

واعترف مرقس بعملية الهروب وقال فيه ١٤/ ٥٠: فتركه الجميع وهربوا.

ولم يلفت نظر مرقس أن المسيح هرب مع التلاميذ.

وأيد متى مرقس في عملية الهروب وذلك في ٢٦/ ٥٦ .

٦- هيأ الله الظروف للمسيح وتلاميذه للهروب، فكانت محاولة القبض بالليل وكانت المشاعل هي وسيلة الإضاءة الوحيدة، فلما أراد أعداؤه القبض عليه ارتدوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض، فسقطت المشاعل معهم وانطفأ أكثرها على الأقل، وكانت الإضاءة شبه معدومة، فكانت فرصة عظيمة للهروب أفضل من المرات السابقة التي هرب فيها المسيح، وعندما أفاق أعداء المسيح قبضوا على يهوذا وهم مقتنعون أنه المسيح.

٧- وكان يسوع يتخفى بعد ذلك من اليهود، مرة في صورة بستاني عندما قابل مريم المجدلية وقال لها في يوحنا ٢٠/ ١٧: لم أصعد بعد إلى أبي.

وكأنه في لغة اليهود واصطلاحهم يقول: لم أمت بعد. أو: إنني ما زلت حيًّا.

وفى المرة الثانية: عندما قابل أثنين من أتباعه وهما متوجهان إلى قرية عمواس ولم يعرفاه وذلك في لوقا ٢٤/ ١٣- ٣٣ .

فما فائدة التخفي من اليهود والمسيحُ في الأبدية؟!

ففي العبرانيين ٩/ ٢٧: وكما وضع للناس أن يموتوا مرة ثم بعد ذلك الدينونة.

لكن الحقيقة العظيمة أن المسيح لم يُقبض عليه ولم يُصلب ولم يمت بل كان هاربًا من اليهود وكان متخفيًا عن أعينهم وقد علق يهوذا على الصليب بعمل يديه كما قالت المزامير.

٨- في إنجيل مرقس ولوقا ويوحنا لم يظهر أثر ليهوذا بعد ذلك أبدًا، وهذا دليل عظيم على أنه الذي تم القبض عليه، وظن أعداء المسيح أن يهوذا هرب خوفًا من انتقام تلاميذ وأتباع المسيح.

ولو كان يهوذا حقًّا قام بتسليم المسيح لأعدائه لأصبح أكبر مجرم في التاريخ، ولما سكتت ثلاثة أناجيل عن ذكر مصيره أو ذكر أي شيء عنه بعد ذلك، والحقيقة الكبرى أن الله ألقى بشبه المسيح عليه فقبض عليه وصلب بدلًا من المسيح ووقع في الحفرة التي حفرها في المسيح كما تقول المزامير.

٩- أن يهوذا لم يستطع أن يتكلم أو يجيب بعد ذلك بشيء أثناء المحاكمة لهول ما وقع له أو لندمه على ما فعل.

ففي متى ٢٧/ ١٢: وبينما كان رؤساء الكهنة والشيوخ يشتكون عليه لم يجب بشيء، فقال له بيلاطس أما تسمع كم يشهدون عليك، فلم يجبه ولا عن كلمة واحدة حتى تعجب الوالي جدًا.

وفي مرقس ١٥/ ٤، ٥: فسأله بيلاطس أيضًا قائلًا أما تجيب بشيء انظر كم يشهدون عليك، فلم يجب يسوع أيضًا بشيء حتى تعجب بيلاطس.

١٠- اتفق متى ٢٧/ ٤٥، ومرقس ١٥/ ٣٤ على أن الذي عُلق على الصليب صرخ قائلًا: إيلي إيلي لما شبقتني؛ أي إلهي إلهي لماذا تركتني.

وهذا القول لا يليق ولا يمكن أن يصدر من المسيح، ولكنه صدر من شخص آخر ندم على فعلته وتاب إلى الله ودعاه أن ينجيه، ولكن الله لم يستجب لدعائه، فعبر بهذا القول اليائس وغير المؤمن بقضاء الله وقدره، ولا بد أن يكون هذا القول ليهوذا الذي علق بعمل يديه كما قالت المزامير.

١١- ثمة ملحوظة لغوية أخرى غاية في الخطورة، وهي أن العبارة المستخدمة: أنا هو، خلاف للصياغة اللغوية الصحيحة وليست بمعنى: أنا الذي تريدون، إنما أنا: هو شخص آخر، حيث قال: Iam he لا تقال هكذا وإنما تقال: Its' me

أما Iam he فمعناها أن هناك شخصين لا شخص واحد.

وبالفرنسيَّة تقال: C'est moi، ولا تقال: Je suis ill

معناها أنا ذلك الشخص الواقف بينكم (يهوذا) فلما رأوا يهوذا (المسيح) سقطوا على الأرض من هول المفاجأة لقد صار المسيح[1].

(١) انظر: الاختلافات في الكتاب المقدس، هل افتدانا المسيح على الصليب، د. منقذ بن محمود السقار.

الباب الرابع
عقائد النصارى

الفصل الأول: مجمل معتقدات النصارى.
الفصل الثاني: الجذور الفكريَّة والعقائدية للنصارى.
الفصل الثالث: عقيدة ألوهيَّة المسيح عليه السلام.
الفصل الرابع: عقيدة بنوة المسيح عليه السلام.
الفصل الخامس: عقيدة ألوهيَّة الروح القدس.
الفصل السادس: عقيدة التثليث.
الفصل السابع: عقيدة التجسيد.
الفصل الثامن: عقيدة الصلب.
الفصل التاسع: عقيدة الفداء والخلاص.

الفصل الأول

مجمل معتقدات النصارى

يمكن إجمال معتقدات النصارى بشكل عام فيما يلي:

١- الإله:

الإيمان عندهم بالله الواحد، الأب مالك كل شيء، وصانع ما يُرَى وما لا يُرَى. هكذا في قانون إيمانهم، وواضحٌ تأثُّرهم بألفاظ الفلاسفة في قولهم صانع ما يُرَى.

٢- المسيح:

إن ابنه الوحيد يسوع المسيح بكر الخلائق ولد من أبيه قبل العوالم، وليس بمصنوع (تعالى الله عن كفرهم علوًّا كبيرًا)، ومنهم من يعتقد أنه هو الله نفسه.

٣- روح القدس:

إن روح القدس الذي حلَّ في مريم لدى البشارة، وعلى المسيح في العماد على صورة حمامة، وعلى الرسل من بعد صعود المسيح، الذي لا يزال موجودًا، وينزل على الآباء والقديسين بالكنيسة يرشدهم ويعلمهم ويحل عليهم المواهب، ليس إلا روح الله وحياته، إله حق من إله حق.

٤- الأقانيم:

ولذلك يؤمنون بالأقانيم الثلاثة: الأب، الابن، الروح القدس، بما يُسمونه في زعمهم وحدانية في تثليث وتثليث في وحدانية. وذلك زعمٌ باطل صعُب عليهم فهمه، ولذلك اختلفوا فيه اختلافًا متباينًا، وكفرت كل فرقة من فرقهم الأخرى بسببه.

٥- الصلب والفداء:

المسيح في نظرهم مات مصلوبًا فداءً عن الخليقة، لشدة حب الله للبشر ولعدالته، فهو وحيد الله -تعالى الله عن كفرهم- الذي أرسله ليخلص العالم من إثم خطيئة أبيهم آدم وخطاياهم، وأنه دفن بعد صلبه، وقام بعد ثلاثة أيام متغلبًا على الموت ليرتفع إلى السماء.

٦- الدينونة والحساب:

يعتقدون بأن الحساب في الآخرة سيكون موكولًا للمسيح عيسى ابن مريم الجالس -في زعمهم- على يمين الرب في السماء؛ لأن فيه من جنس البشر مما يعينه على محاسبة الناس على أعمالهم.

٧- الصليب:

يُعد الصليب شعارًا لهم، وهو موضع تقديس الأكثرين، وحملُه علامة على أنهم من أتباع المسيح، وتعظم الكنائس النصرانيَّة -عدا البروتستانت- الصليب، وتعتبر منكر عبادته مرتدًّا،

وتصنع لذلك الصلبان الذهبية والمعدنية والخشبية، ويسجدون لها.

ولا يخفى ما في ذلك من خفة عقولهم وسفاهة رأيهم، فمن الأولى لهم أن يكرهوا الصليب ويحقروه؛ لأنه كان أحد الأدوات التي صلب عليه إلههم وسبب آلامه. وعلى حسب منطقهم فكان الأولى بهم أن يعظموا قبره الذي زعموا أنه دفن فيه، ولامس جسده تربته فترة أطول مما لامس الصليب.

٨- الصور التماثيل:

يستعمل النصارى الصور والتماثيل في العبادة مطلقًا، ويرون وجوب استعمالها في الكنائس، وحرمان ومروق الجماعات التي تناهض وجود التماثيل والصور في الكنائس.

٩- مريم البتول:

يعتقد النصارى على ما أضيف في قانون الإيمان أن مريم ابنة عمران والدة المسيح عليه السلام، هي والدة الإله، ولذا يتوجَّه البعض منهم إليها بالعبادة المتمثلة في عدد من الصلوات التي تؤدى لها.

١٠- الدين:

يؤمن النصارى بأن النصرانيَّة دين عالمي غير مختص ببني إسرائيل وحدهم، ولا يخلو اعتقادهم هذا أيضًا من مخالفة لقول المسيح المذكور في إنجيل متى ١٠/٥، ٦: إلى طرق الأمم لا تتجهوا، ومدن السامريين لا تدخلوا، بل انطلقوا بالحري إلى الخراف الضالة من آل بني إسرائيل.

١١- الصلاة:

الأصل عندهم في جميع الصلوات إنما هي الصلاة الربانية، والأصل في تلاوتها أن يتلوها المصلي ساجدًا، أو تكون بألفاظ منقولة أو مرتجلة أو عقلية بأن تنوي الألفاظ ويكون الابتهال قلبيًّا، وذلك على خلاف كبير بين طوائفهم في عددها وطريقة تأديتها. ليس لها عدد معلوم مع التركيز على صلاتي الصباح والمساء.

١٢- الصوم:

هو الامتناع عن الطعام الدسم وما فيه شيء من الحيوان أو مشتقاته مقتصرين على أكل البقول، وتختلف مدته وكيفيته من فرقة إلى أخرى.

١٣- الختان:

يؤمن النصارى بعدم الختان للأطفال على عكس شريعة التوراة.

١٤- الأسرار السبعة:

والتي ينال بها النصراني النعم غير المنظورة في صورة نعم منظورة، ولا تتم إلا على يد كاهن شرعي، ولذا فهي واجبة على كل نصراني ممارستها وإلا أصبح إيمانه ناقصًا. وبالجملة فإنها من

ضمن التشريعات التي لم يُنزل الله بها من سلطان، وإنما هي من تخرُّصات البابوات.

وهذه الأسرار السبعة هي:

١- سر التعميد: ويقصد به تعميد الأطفال عقب ولادتهم بغطاسهم في الماء أو الرش به باسم الأب والابن والروح القدس، لتمحي عنهم آثار الخطيئة الأصليَّة، بزعم إعطاء الطفل شيئًا من الحرية والمقدرة لعمل الخير، وهذا أيضًا على خلاف بينهم في صورته ووقته.

٢- سر التثبيت (الميرون): ولا يكون إلا مرة واحدة، ولا تكمل المعمودية إلا به، حيث يقوم الكاهن بمسح أعضاء المتعمد بعد خروجه من جرن المعمودية في ستة وثلاثين موضعًا -الأعضاء والمفاصل- بدهن الميرون المقدس.

٣- سر العشاء الرباني: ويكون بالخمر أو الماء ومعه الخبز الجاف؛ حيث يتحول في زعمهم الماء أو الخمر إلى دم المسيح، والخبز إلى عظامه، وبذلك فإن من يتناوله فإنما يمتزج في تعاليمه بذلك، وكذلك ففرقهم على خلاف في الاستحالة بل وفي العشاء نفسه.

٤- سر الاعتراف: وهو الإفضاء إلى رجل الدين بكل ما يقترفه المرء من آثام وذنوب، ويتبعه الغفران والتطهير من الذنب بسقوط العقوبة، وكان الاعتراف يتكرر عدة مرات مدى الحياة، ولكن منذ سنة ١٢١٥م أصبح لازمًا مرة واحدة على الأقل، وهذه الشعيرة عندهم أيضًا مما اختُلِف في وجوبها وإسقاطها.

٥- سر الزواج: يُسمح الزواج بزوجة واحدة مع منع التعدد الذي كان جائزًا في مطلع النصرانيَّة، ويُشترط عند الزواج حضور القسيس ليقيم وحده بين الزوجين، والطلاق لا يجوز إلا في حالة الزنى -على خلاف بينهم- ولا يجوز الزواج بعده مرة أخرى، بعكس الفراق الناشئ عن الموت، أما إذا كان أحد الزوجين غير نصراني فإنه يجوز التفريق بينهما.

٦- سر مسحة المرضى: وهو السر السادس بزعم شفاء الأمراض الجسدية المتسببة عن العلل الروحية وهي الخطيئة، ولا يمارس الكاهن صلوات القنديل السبع إلا بعد أن يتثبَّت من رغبة المريض في الشفاء.

٧- سر الكهنوت: وهو السر الذي ينال به الإنسان بزعمهم النعمة التي تؤهِّله لأن يؤدي رسالة السيد المسيح بين إخوانه من البشر، ولا يتم إلا بوضع يد الأسقف على رأس الشخص المنتخب ثم يتلى عليه الصلوات الخاصة برسم الكهنة.

١٥- الرهبانيَّة:

اختلفت طوائفهم في مدى لزوم الرهبنة التي يأخذ رجال الدين أنفسهم بها.

١٦- التنظيم الكهنوتي:

تختلف كل كنيسة -فرقة- عن الأخرى في التنظيم الكهنوتي، ولكنه بوجه عام هو تنظيمٌ

استعارته الكنيسة في عهودها الأولى من الرومان حيث كان يرأسها أكبرهم سنًّا على أمل عودة المسيح، ويقدسون رهبانهم ورجال كنيستهم، ويجعلون لهم السلطة المطلقة في الدين وفي منح صكوك الغفران؛ يقول تعالى مبينًا انحرافهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾. [التوبة: ٣١].

١٧- الهرطقة ومحاربتها:

حاربت الكنيسة العلوم والاكتشافات العلميَّة وكل المحاولات الجديدة لفهم كتابهم المقدس، ورمت ذلك كله بالهرطقة، وواجهت هذه الاتجاهات بمنتهى العنف والقسوة، مما أوجد ردة فعل قوية تمثَّلت في ظهور المذاهب العلمانيَّة والأفكار الإلحادية(١).

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٥٧٤- ٥٧٧).

الفصل الثاني

الجذور الفكريَّة والعقائديَّة للنصارى

أخذت النصرانيَّة من معظم الديانات والمعتقدات التي كانت موجودة قبلها، مما أفقدها شكلها وجوهرها الأساسي الذي جاء به عيسى عليه السلام من لدن رب العالمين.

تقول المهتدية إلى الإسلام مريم جميلة التي تقول: «لقد تتبعت أصول المسيحيَّة القائمة، فوجدتها مطابقة لمعظم الديانات الوثنية القديمة، ولا يكاد يوجد فرق بين هذه الديانات وبين المسيحيَّة سوى فروق شكلية بسيطة في الاسم أو الصورة».

ويقول العلامة روبرتسون في كتابه «وثنية المسيحيين»، الذي تحدث فيه مليًّا عن اقتباس عقائد النصرانيَّة من الوثنيات فيقول: «يسرني أن أسجل أن من بين المسيحيين الذين تعرضوا لكتابي هذا بالنقد والمناقشة لا يوجد واحد عارض الحقائق التي ذكرتها به، تلك التي قادتني إلى أن أقرر أن أكثر تعاليم المسيحيَّة الحالية مستعار من الوثنية».

ومما أخذت منه النصرانيَّة المحرفة غير اليهوديَّة: الفلسفة الأفلاطونية الحديثة، والفلسفة الغنوصية، والحضارات القديمة: المصريَّة، اليونانيَّة، الهندية، والديانات الوثنية: المجوسية، البوذية، الرومانية، الفرعونية، وهي على النحو التالي:

١- أساس النصرانيَّة نصوص العهد القديم، فقد انعكست الروح والتعاليم اليهوديَّة من خلاله، ذلك أن النصرانيَّة قد جاءت مكملة لليهودية، وهي خاصة بخراف بني إسرائيل الضالة، كما تذكر أناجيلهم.

٢- لقد أدخل أمنيوس ت ٢٤٢م أفكارًا وثنية إلى النصرانيَّة بعد أن اعتنقها وارتدَّ عنها إلى الوثنية الرومانية.

٣- عندما دخل الرومان في الديانة النصرانيَّة نقلوا معهم إليها أبحاثهم الفلسفية وثقافتهم الوثنية، ومزجوها بالمسيحيَّة التي صارت خليطًا من كل ذلك.

يقول ول ديورانت: «لما فتحت المسيحيَّة روما انتقل إلى الدين الجديد دماء الدين الوثني القديم: لقب الحبر الأعظم، عبادة الأم العظمى».

ويقول عند كلامه عن قسطنطين: وكان في الوقت نفسه إيذانًا باستبدال المسيحيَّة بالوثنية وجعلها المظهر الديني والعضد القوي للإمبراطوريّة الرومانية.

٤- لقد كانت فكرة التثليث التي أقرَّها مجمع نيقية ٣٢٥م انعكاسًا للأفلاطونية الحديثة التي جلبت معظم أفكارها من الفلسفة الشرقيَّة، وكان لأفلوطين المتوفى سنة ٢٧٠م أثر بارز على معتقداتها، فأفلوطين هذا تتلمذ في الإسكندرية، ثم رحل إلى فارس والهند، وعاد بعدها وفي جعبته

مزيج من ألوان الثقافات، فمن ذلك قوله بأن العالم في تدبيره وتحركه يخضع لثلاثة أمور:

١- المُنشئ الأزلي الأول.

٢- العقل.

٣- الروح التي هي مصدر تتشعب منه الأرواح جميعًا.

بذلك يضع أساسًا للتثليث؛ إذ إن المنشئ هو الله، والعقل هو الابن، والروح هو الروح القدس.

ويقول ليون جوتيه: «إن المسيحيَّة تشربت كثيرًا من الآراء والأفكار في الفلسفة اليونانيَّة، فاللاهوت المسيحي مقتبس من نفس المعين الذي صبت فيه نظرية أفلاطون الحديثة، ولذا نجد بينهما متشابهات كثيرة».

٥- تأثرت النصرانيَّة بديانة متراس التي كانت موجودة في بلاد فارس قبل الميلاد بحوالي ستة قرون التي تتضمن قصة مثيلة لقصة العشاء الرباني.

ومنه اعتقاد الفرس أن مترا تجسد لمغفرة الخطايا.

وعقيدة التثليث عند الفرس في الثالوث (أورمزد، متراس، أهرمان).

ويعتقد الفرس أن إلههم المتجسد مترا ولد في ٢٥ ديسمبر، وهو ما يقوله النصارى الأرثوذكس في تواريخهم أيضًا، وقد جرى تحديده بهذا اليوم الموافق لأعياد الوثنين عام ٥٣٠م على يد الراهب ديونيسيوس أكسيجوس، وأراد منه إبعاد المتنصرين عن احتفالات الوثنيين، وشغلهم باحتفال مسيحي، وهو ما تكرر فعله في عدة أعياد وثنية أخرى استعار النصارى منها التواريخ والطقوس.

وفكرة العشاء الرباني صنعها الفرس الذين اعتقدوا أن متراس يمنح البركة للخبز والخمر في العشاء.

ويعتقد المجوس في إلههم (زورستر) أنه قام من الأموات.

٦- في الهندوسية تثليث، وأقانيم، وتجسيد، وصلب للتكفير عن الخطيئة، وزهد ورهبنة، وتخلُّص من المال للدخول في ملكوت السموات، والإله لديهم له ثلاثة أسماء فهو فشنو؛ أي الحافظ، وسيفًا المهلك، وبرهما المُوجِد. وكل ذلك انتقل إلى النصرانيَّة بعد تحريفها.

جاء في ابتهالات التقي أتنيس: «أيها الأرباب الثلاثة. اعلموا أني أعترف بوجود إله واحد، فأخبروني أيكم الإله الحقيقي لأقرب له نذري وصلاتي؟ فظهرت الآلهة الثلاثة وقالوا له: اعلم يا أيها العابد أنه لا يوجد فرق حقيقي بيننا، وأما ما تراه من ثلاثة فما هو إلا بالشبه أو الشكل، والكائن الواحد الظاهر بالأقانيم الثلاثة هو واحد بالذات».

وقد وجد في آثار الهنود صنم له ثلاثة رءوس على جسد واحد تعبيرًا منهم عن الثالوث.

وجاء في كتب الهنود «كرشنا ابن الإله من العذراء ديفاكي، وهو الأقنوم الثاني من الثالوث

المقدس، خلق السموات والأرض بما فيها، وهو عندهم الأول والآخر».

ويقول المؤرخ ألن في كتابه «الهند»: «أما كرشنا فهو أعظم من كافة الآلهة التي تجسدت، ويمتاز عنها كثيرًا؛ لأنه لم يكن في أولئك إلا جزء قليل من الألوهية، أما هو (كرشنا) فإنه الإله فشنوَ ظهر بالناسوت».

وجاء في كتاب «بهاكافات بورون» الهندي أن كرشنا قال: «سأتجسد في متوار بيت يادوا، وأخرج من رحم ديفاكي، أولد وأموت، قد حان الوقت لإظهار قوتي، وتخليص الأرض من حملها».

وقالوا في كرشنا بقيامته من الأموات: «هوذا كرشنا صاعد إلى وطنه في السماوات».

وينقل العلامة هوك عن آلهة الهنود المتجسدة، فيقول: «يعتقد الهنود بتجسد أحد الآلهة وتقديم نفسه ذبيحة فداء عن الناس من الخطيئة».

وفي كتاب (كيتا» الهندي أن كرشنا قال: «لم يأت زمان لم أكن فيه موجودًا، أنا صنعت كل شيء، أنا الباقي والأبدي، والمبدئ والكائن قبل كل شيء، أنا الحاكم القوي على الكون، أنا الأزل ووسط وآخر كل شيء».

ومن توسلات أرجون لكرشنا: «أنت الباقي العظيم، الواجبة معرفتك، أنت القابض على الكائنات أنت الإله الكائن قبل الآلهة».

ويصفه كتاب «فشنو بوراني»: «إنه بغير ابتداء ووسط وانتهاء».

٧- انتقلت بعض معتقدات وأفكار البوذية التي سبقت النصرانيَّة بخمسة قرون إلى النصرانيَّة المحرَّفة، وإن علم مقارنة الأديان يكشف تطابقًا عجيبًا بين شخصية بوذا وشخصية المسيح عليه السلام.

يقول المؤرخ دوان عن بوذا في كتابه «خرافات التوراة والإنجيل وما يماثلها من الديانات الأخرى»: «الإله بوذا المولود من العذراء مايا الذي يعبده بوذيو الهند وغيرهم ويقولون عنه: إنه ترك الفردوس، ونزل وظهر بالناسوت رحمة بالناس كي ينقذهم من الآثام، ويرشدهم صراطًا مستقيمًا».

وكذا يقول عُبّاد بوذا بقيامته من الأموات، بأنه حزن عليه بعد موته أهل السموات والأرض «حتى إن مهاويو (الإله العظيم) حزن ونادى: قم أيها المحب المقدس، فقام كام (أي بوذا) حيًا، وبُدِّلت الأحزان والأتراح بالأفراح، وهاجت السماء، ونادت فرِحة: عاد الإله الذي ظُن أنه مات وفُقد . . .».

ويذكر المؤرخ دوان أن الأوربيين اندهشوا عندما ذهبوا إلى رأس كومورين جنوب الهند من رؤية السكان يعبدون إلهًا مخلصًا يدعونه سليفاهانا المولود من عذراء.

وينقل دوان في كتابه «خرافات التوراة والإنجيل وما يماثلها من الديانات الأخرى» تسمية الهنود لبوخص ابن المشتري بفادي الأمم.

وجاء في كتابات الهنود عن بوذا: «هو الألف والياء، ليس لوجوده ابتداء ولا انتهاء، وهو الرب المالك القادر الأبدي».

٨- من البشر الذين قيل بتجسدهم الإله فوهي في الصين، وكذا وستين نونك وهوانكتي وغيرهم، وأما الإله برومسيوس فقد قيل عنه: كان إنسانًا حقيقيًّا وإلهًا حقيقيًّا.

ويعتقد الصينيون أن الأب لم يخلق شيئًا، وأن الابن لاتوثو المولود من عذراء خلق كل شيء.

ويعتقد الصينيون في إلههم (لأوكيون) أنه قام من الأموات.

٩- خالطت عقيدة البابليين القديمة النصرانيَّة؛ إذ إن هناك محاكمة لبعل إله الشمس تُماثِل وتطابق محاكمة المسيح عليه السلام، وقد عقد «آرثر فندلاي» في كتابه «الكون المنشور» المقارنة بين ما قيل عن بعل قبل المسيحيَّة وما قيل عن المسيح في المسيحيَّة.

وقد قال البابليون بالتثليث حين قسموا الآلهة إلى ثلاثة مجموعات (إله السماء، إله الأرض، إله البحر).

وعن تموز يقول البابليون: «ثقوا أيها القديسون برجوع إلهكم، واتكلوا على ربكم الذي قام من الأموات».

١٠- في التراث المصري القديم أن الإله «أتوم» خلق كل شيء حي بواسطة الكلمة التي خلقت كل قوى الحياة، وكلما يؤكل، وكل ما يحبه أو يكرهه الإنسان.

وعقيدة التثليث في المصريَّة القديمة المتمثلة في الثالوث (أوزيريس، إيزيس، حورس).

ويقول أستاذ الحفريات جارسلاف كريني في كتابه «ديانة قدماء المصريين»: «إن التثليث دخيل على النصرانيَّة الحقة، وإنه مستورد من الوثنية الفرعونية».

وأوزوريس معبود المصريين القريب من مهد المسيحيَّة، انتشرت أسطورته في القرن الثالث قبل الميلاد. يقول المؤرخ مهامي: «إن محور التعليم الديني عند الوثنيين في مصر في القرون الخالية هو الإيمان بقيام الإله».

١١- وعقيدة التثليث أيضًا عند الإسكندنافيين في الثالوث (أووين، تورا، فري) والمكسيكيين في الثالوث (تزكتلبيوكا، اهوتزليبوشتكي، تلاكوكا)، ثم فلاسفة الإغريق الذين كانت وثنية النصارى أشبه بهم من سائر الوثنيات الأخرى، فقالوا بثالوثهم المكون من (الوجود، العلم، الحياة).

١٢- صيغة الأمانة التي انتهى إليها مجمع نيقية هي صيغة منحولة عن الوثنيات السابقة، فقد نقل المؤرخ مالفير عن كتب الهنود أنهم يقولون: "نؤمن بسافستري (الشمس) إله ضابط الكل،

خالق السماوات والأرض، وبابنه الوحيد آني (النار)، نور من نور، مولود غير مخلوق، مساوٍ للأب في الجوهر، تجسد من فايو (الروح) في بطن مايا العذراء، ونؤمن بفايو الروح المنبثق من الأب والابن الذي هو الأب، والابن يسجد له ويمجده[1].

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٥٧٧، ٥٧٨)، العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، محمد طاهر التنير، ص(١٣-٢٣، ٢٩-٣٨، ٤٧-٥٦، ١٠٥-١١٠، ١١٩-١٢١، ١٧٣)، المسيحية، أحمد شلبي، ص(٨٣، ١١٨-١٢٠، ١٥٠-١٥٢، ١٥٨)، حوار صريح بين عبد الله وعبد المسيح، عبد الودود شلبي، ص(٦٧-٧٣)، المسيحية الحقة التي جاء بها المسيح، علاء أبو بكر، ص(١٣٩، ١٩١-١٩٢)، الله واحد أو ثلاثة، د. منقذ محمود السقار.

الفصل الثالث
عقيدة ألوهية المسيح عليه السلام

ونتناول الحديث عنها من خلال النقاط الآتية:

١- أنه لا يوجد نص واحد في الكتاب المقدس يصرح فيه المسيح بألوهيته أو يطلب من الناس عبادته، كما لم يعبده أحد من معاصريه، ولم ينظر إليه هؤلاء إلا كمدع للنبوة، آمن به بعضهم، وكفر بنبوته الأكثرون من اليهود، لكن دعوى ألوهيته لا أساس لها في الكتاب المقدس، وفي هذا الصدد يتحدى ديدات كبير قساوسة السويد في مناظرتهما المتلفزة قائلًا: أضع رأسي تحت مقصلة لو أطلعتموني على نص واحد قال فيه عيسى عن نفسه: أنا إله. أو قال: اعبدوني، وهيهات أن يجدوه.

والقس فندر يقول في كتابه مفتاح الأسرار، مبررًا عدم تصريح المسيح بألوهيته في العهد الجديد: ما كان أحد يقدر على فهم هذه العلاقة والوحدانية قبل قيامه وعروجهفلو قال صراحة لفهموا أنه إله بحسب الجسم الإنساني . . . إن كبار ملة اليهود أرادوا أن يأخذوه ويرجموه، والحال أنه ما كان بيّن ألوهيته بين أيديهم إلا عن طريق الألغاز[١].

والخوف من اليهود لا يقبل نسبته إلى الإله أو حتى للمسيح الذي رأيناه يواجه اليهود مررًا فيقول في متى ٢٣/١٣- ٣٤: الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون . . أيها العميان . . . لأنكم تشبهون القبور المكلسة، أيها الحيات والأفاعي كيف تهربون من دينونة جهنم.

فكيف له بعد ذلك أن يغمض على البشرية في إظهار حقيقته، ففي ذلك إضلال وتلبيس.

٢- أن أحدًا من تلاميذ المسيح لم يكن يعتقد ألوهية المسيح، إذ لم يعبده واحد منهم، بل كلهم وجميع معاصري المسيح ما كانوا يعتقدون أكثر من نبوته.

يقول بطرس قرماج في كتابه «مروج الأخبار في تراجم الأبرار» عن بطرس ومرقس: «كانا ينكران ألوهية المسيح»، فهذا معتقد تلاميذ المسيح المقربين.

ويقول عوض سمعان: «إن المتفحصين لعلاقة الرسل والحواريين بالمسيح يجد أنهم لم ينظروا إليه إلا على أنه إنسان لأنهم كيهود كانوا يستبعدون أن يظهر الله في هيئة إنسان. نعم كانوا ينتظرون المسيّا، لكن المسيا بالنسبة إلى أفكارهم التي توارثوها عن أجدادهم لم يكن سوى رسول ممتاز يأتي من عند الله، وليس هو بذات الله».

---

(١) انظر: إظهار الحق، رحمة الله الهندي (٣/ ٧١٨-٧٢٤).

وسمعان الصفا (بطرس)، أقرب التلاميذ إلى المسيح يقول وهو ممتلئ من الروح القدس: «أيها الرجال الإسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال: يسوع الناصري رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده في وسطكم كما أنتم أيضًا تعلمون، هذا أخذتموه مسلّمًا بمشورة الله المحتومة وعلمه السابق وبأيدي أثمة صلبتموه وقتلتموه» (أعمال الرسل ٢/ ٢٢)، فلم يشر في خطبته المهمة -التي كان فيها مؤيدًا من الروح القدس- إلى شيء من الألوهية للمسيح، ولم يتحدث عن الناسوت المتأله ولا الإله المتجسد.

ولما عرض المسيح -متنكرًا بعد الصلب المزعوم- لرجلين من أصحابه قد حزنا بسبب ما تردد عن صلبه، سألهما عن سبب حزنهما فقالا: «يسوع الناصري الذي كان إنسانًا نبيًّا مقتدرًا في الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب، كيف أسلمه رؤساء الكهنة وحكامنا لقضاء الموت، وصلبوه. ونحن كنا نرجو أنه هو المزمع أن يفدي إسرائيل» (لوقا ٢٤/ ١٩-٢١)، فليس في قولهما حديث عن ناسوت مقتول، ولا عن لاهوت متجسد نجا من الموت، إن غاية ما كانوا يرقبونه فيه، أن يكون مخلص إسرائيل، أي المسيح المنتظر الذي بشرت به الأنبياء.

وأيضًا عجب منه تلاميذه لما رأوا بعض معجزاته، ولو كانوا يرونه إلهًا لما كان في معجزاته أي عجب، (متى ٢١/ ١٨-٢٢).

ويحيى المعمداني -عليه السلام- مع جلالة أمره لم يظن في المسيح أنه أكثر من النبي المنتظر الذي كانت تنتظره بنو إسرائيل، (متى ١١/ ٣-٦).

ولما جاءته المرأة السامريّة ورأت قدراته وأعاجيبه: «قالت له المرأة: يا سيد أرى أنك نبي» (يوحنا ٤/ ١٩)، وما زادت على ذلك، فما وبخها ولا صحح لها معتقدها، فكان هذا معتقدًا يعتقده عامة الناس كما اعتقده تلاميذ المسيح وحواريوه.

وهو ما قاله عنه الأعمى الذي شفاه المسيح ورأى برهان الله على نبوة هذا المبارك «فقالوا له: كيف انفتحت عيناك؟ أجاب ذاك وقال: إنسان يقال له: يسوع» (يوحنا ٩/ ١٠-١١).

وكذا الجموع التي رأته كثيرًا في أورشليم، وخرجت لاستقباله لما دخل أورشليم دخول الأبطال، هذه الجموع كانت تعتقد بشريته ونبوته «فقالت الجموع: هذا يسوع النبي» (متى ٢١/ ١١).

٣- وكذلك أعداؤه عليه السلام من اليهود يلاحقونه، ويطلبون منه آية، فأخبرهم بأنه لن تأتيهم سوى آية يونان النبي (يونس) -عليه السلام- «أجاب قوم من الكتبة والفريسيين قائلين: يا معلّم نريد أن نرى منك آية. فأجاب وقال لهم: جيل شرير وفاسق يطلب آية، ولا تعطى له آية إلا آية يونان النبي» (متى ١٢/ ٣٨-٣٩).

واليهود ولا ريب يبحثون عن آية تدل على نبوته التي يدعوهم إلى الإيمان بها، ولو كان ما يدعو إليه الألوهية لما رضوا منه بمثل آية يونان، بل ولطالبوه بآيات أعظم من آية يونان، وغيره من الأنبياء.

وفيما أحد الفريسيين يرقب المسيح متشككًا بنبوته تقدمت إليه امرأة خاطئة باكية تمسح رجليه بشعرها، تقبلهما وتدهنهما بالطيب، «فلما رأى الفريسي الذي دعاه ذلك، تكلم في نفسه قائلًا: لو كان هذا نبيًّا لعلم من هذه المرأة التي تلمسه؟ وما هي؟ إنها خاطئة» (لوقا ٧/ ٣٩). لقد استنكر في نفسه نبوة -لا ألوهية- هذا الذي يجهل حال الخاطئة، مما يؤكد أن دعواه -عليه السلام- بينهم إنما كانت النبوة فحسب.

ولما أراد اليهود قتله، كانت جريمته عندهم دعواه النبوة، لا الربوبية، فقد قالوا لنيقوديموس: «ألعلك أنت أيضًا من الجليل؟ فتّش وانظر. إنه لم يقم نبي من الجليل» (يوحنا ٧/ ٥٢)، إنهم يكذبونه في دعواه النبوة، وهو من الجليل التي لم يسبق أن أتى منها نبي.

والشيطان أيضًا لم ير في المسيح أكثر من كونه بشرًا، فاجترأ عليه محاولًا غوايته، لذلك فقد حصره في الجبل أربعين يومًا من غير طعام ولا شراب، وهو في ذلك يمتحنه ويمنيه بإعطائه الدنيا في مقابل سجدة واحدة له «أخذه أيضًا إبليس إلى جبل عال جدًّا، وأراه جميع ممالك العالم ومجدها. وقال له: أعطيك هذه جميعها، إن خررت وسجدت لي، حينئذ قال له يسوع: اذهب يا شيطان؛ لأنه مكتوب: للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد» (متى ٤/ ٩-١٠)، فهل كان الشيطان يعِد الرب العظيم -مالك كل شيء وواهبه- بالدنيا؟!!

٤- ثم إن كان المسيح إلهًا متجسدًا فكيف نفهم تبريرًا لخيانة يهوذا؟ وهل يخان الإله؟ وكيف نفهم بطرس إنكار بطرس له ثلاث مرات ولعنه في الليلة التي أراد اليهود القبض فيها على المسيح؟

بل إن كل ما قيل في سيرة المسيح يصعب فهمه مع القول بألوهيته، ويترك علامات استفهام لا إجابة عنها.

٥- والنبوءات السابقة التي يؤمن النصارى بها، ويقولون: إنها تحققت فيه عليه السلام لم تتنبأ بقيام رب أو إله، وإنما تنبأت بنبي ورسول صالح.

من ذلك ما جاء في كلام عاموس النبي «قال الرب: من أجل ذنوب إسرائيل الثلاثة والأربعة لا أرجع عنه؛ لأنهم باعوا البار بالفضة...» (عاموس ٢/ ٦)، فهو لم يقل: في بيعهم إياي، ولا بيع إله متساو معي، بل سماه بارًّا، وهو وصف يقتضي كمال العبودية لله.

٦- وشهد المسيح عليه السلام لربه بالوحدانية، ولنفسه بالرسالة، فقال: «أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يوحنا ١٧/ ٣).

ونحوه قوله عن نفسه: «فكانوا يعثرون به، وأما يسوع فقال لهم: ليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه وفي بيته» (متى ١٣/ ٥٧)، فاعتبر نفسه كسائر الأنبياء، لا يعرف أقوامهم لهم قدرهم ومنزلتهم.

ولما خوفه الفريسيون من هيرودس قال لهم: «ينبغي أن أسير اليوم وغدًا وما يليه؛ لأنه لا يمكن أن يهلك نبي خارجًا عن أورشليم. يا أورشليم يا أورشليم، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين»

(لوقا ١٣/ ٣٣-٣٤)، فشهد لنفسه بالنبوة، وخاف من مصرعه في أورشليم كما صرع فيها غيره من الأنبياء، فغادر أورشليم، وناداها: «يا قاتلة الأنبياء» ولم يقل لها: يا قاتلة الإله. فذلك أبلغ لو صح.

ولما أظهر المعجزات لقومه قرنها بدعوى نبوته قائلًا وهو يناجي الله: «ولكن أسألك من أجل هذه الجماعة، ليؤمنوا بأنك أنت أرسلتني» (يوحنا ١١/ ٢٦).

ولما أرادوا قتله قال: «تطلبون أن تقتلوني، وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله» (يوحنا ٨/ ٤٠)، فهو إنسان رسول، وهذا نص صريح بإنسانيته أنه رسول من الله.

ولما بعث تلاميذه للدعوة قال لهم: «فقال لهم يسوع أيضًا: سلام لكم، كما أرسلني الآب أرسلكم أنا» (يوحنا ٢٠/ ٢١).

وأكد رسالته بقوله: «الآب الذي أرسلني هو أعطاني وصية ماذا أقول، وبماذا أتكلم» (يوحنا ١٤/ ٢ - ٣).

وهو في كل ما يقوله عن الله معصوم؛ لأنه ينطق بالوحي، فقد قال: «الكلام الذي تسمعونه ليس لي، بل للآب الذي أرسلني» (يوحنا ١٤/ ٢٨)، وفي موضع آخر: «تعليمي ليس لي، بل للذي أرسلني» (يوحنا ٧/ ١٦). وقال: «ولا رسول أعظم من مرسله» (يوحنا ١٣/ ١٦).

٧- ونبوته عليه الصلاة والسلام هي معتقد الناس عامة فيه، وقد صرحوا بذلك أمامه فلم يخطئهم، فعندما أحيا المسيح ابن الأرملة في نايين «أخذ الجميع خوف ومجدوا الله قائلين: قد قام فينا نبي عظيم، وافتقد الله شعبه» (لوقا ٧/ ١٦).

ولما أطعم الخمسة آلاف إنسان من خمسة أرغفة قالوا: «فلما رأى الناس الآية التي صنعها يسوع قالوا: إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم» (يوحنا ٦/ ١٤).

وقد قال بولس معترفًا برسالته وبشريته: «لأنه يوجد إله واحد، ووسيط واحد بين الله والناس، الإنسان يسوع المسيح» (تيموثاوس (١) ٢/ ٥).

وقد صدق السير آرثر فندلاي في قوله في كتابه «الكون المنشور»: «لا يعتبر عيسى إلهًا أو مخلصًا، إنما هو رسول من الله خدم في حياته القصيرة في علاج المرضى وبشر بالحياة الأخرى، وعلم بأن الحياة الدنيا ما هي إلا إعداد للملكوت الإلهي بحياة أفضل لكل من عمل صالحًا».

٨- ثم إن أقوى ما يتعلق به النصارى من الدليل لا يوجد إلا في إنجيل يوحنا ورسائل بولس، بينما تخلو الأناجيل الثلاثة من دليل واضح ينهض في إثبات ألوهية المسيح.

بل إن خلو هذه الأناجيل عن الدليل المفقود هو الذي دفع يوحنا -أو كاتب يوحنا- لكتابة إنجيل عن لاهوت المسيح، فكتب ما لم يكتبه الآخرون، وجاءت كتابته مشبعة بالغموض والفلسفة الغريبة عن بيئة المسيح البسيطة التي صحبه بها العوام من أتباعه.

٩- عدم الدليل الصحيح الصريح على ألوهية المسيح جعل النصارى يحرفون في طبعات الأناجيل الجديدة، ومن ذلك إضافتهم نص التثليث الصريح الوحيد في (يوحنا (١) ٥/ ٧)، وسيأتي الكلام عنه.

ومثله وقع التحريف في قول بولس: «عظيم هو سر التقوى، الله ظهر في الجسد» (تيموثاوس (١) ٣/ ١٦)

فالفقرة كما قال المحقق كريسباخ: محرفة، إذ ليس في الأصل كلمة «الله»، بل ضمير الغائب «هو» أو «الذي».

ويقول القس جيمس أنِس مبينًا سبب وقوع هذا التحريف وتاريخه: «ومما يرجح صحة قراءة (الذي) عدم ذكر اللاهوتيين القدماء هذه الآية مع الآيات الكثيرة التي أوردوها ليثبتوا لاهوت المسيح، وهم يردون على ضلالة آريوس.

أما سبب تبديل كلمة (الذي) بكلمة (الله) في النسخ اليونانيَّة الحديثة، فهو ما بين اسم الجلالة (حيث كتبت على صورتها المختصرة بحرفين فقط) وكلمة (الذي) من المشابهة في صورة كتابتها، فليس بينهما فرق إلا في خط صغير؛ يقرب من النقطة التي تفرق بين الجيم والحاء في الكتابة العربيَّة ..

والراجح أن النساخ زادوا ذلك الخط الصغير ليوضحوا المعنى في بعض النسخ، فتحولت كلمة (الذي) إلى (الله)، ثم شاع استعماله في كل نسخ القرون المتوسطة؛ خلافًا للنسخ القديمة التي لم يُر فيها إلا كلمة (الذي)»[1].

ولو أعدنا قراءة قول بولس حسب القراءة الصحيحة وبعيدًا عن التحريف المتعمد للنُّسَّاخ؛ فإنا نجده متحدثًا عن ظهور التقوى في جسد حي، فأحالته الترجمات الحديثة إلى دليل على التجسد الإلهي في المسيح.

وفي النسخة اليسوعيَّة الكاثوليكيَّة والترجمة العربيَّة المشتركة تم إزالة التحريف وتصحيح النص، ليصبح: «عظيم سر التقوى الذي تجلى في الجسد»، واختفى منها اسم الله تبارك وتعالى، وتغير المعنى، واختفت الدلالة على ألوهية المسيح من النص.

ومثله تلاعب المترجمون برسالة يهوذا، حيث جاء في النسخة البرتستانتية الأشهر في المسيحيَّة ما يوهم أن المسيح هو «القادر أن يحفظكم غير عاثرين، ويوقفكم أمام مجده بلا عيب في الابتهاج، الإله الحكيم الوحيد، مخلّصنا، له المجد والعظمة والقدرة والسلطان الآن وإلى كل الدهور» (يهوذا ١/ ٢٤-٢٥)، والصحيح أن النص يتحدث عن الله المخلص، الذي يخلص بالمسيح، وليس عن المسيح، فهو كما في نسخة الرهبانيَّة اليسوعيَّة الكاثوليكيَّة «للإلهِ الواحد مخلصِنا -بيسوع المسيح ربنا- المجدُ والجلال والعزة والسلطان». فالنص في النسخة البرتستانتية حذف اسم المسيح، ليوهم

---

(١) علم اللاهوت النظامي، جيمس أنِس، ص(٢٠٦)، إظهار الحق (٢/ ٤٦٠).

أنه صاحب الخلاص، وليس واسطة الخلاص، وأنه «الإله الحكيم الوحيد»، بينما النص الكاثوليكي يتحدث عن الله «الإله الواحد مخلصنا».

لقد لجئوا إلى التحريف حين أعياهم أن يجدوا دليلًا صحيحًا في دلالته على ألوهية المسيح عليه الصلاة والسلام.

وثالثة الأثافي التلاعب بعبارة بولس في سفر أعمال الرسل، حيث زعموا أنه قال: «لترعوا كنيسة الله التي اقتناها بدمه» (أعمال ٢٠/ ٢٨)، وعليه فالمسيح هو الله الذي اقتنى الكنيسة بدمه، وقد قال أغناطيوس: «دعي يسوع المسيح إلهًا، وقيل في دمه: إنه دم الله»[(١)].

وهذه القراءة لا يسلم بصحتها ودقَّتها، وقد أشار إلى ذلك محققو الرهبانيَّة اليسوعيَّة في حاشية النص، فقالوا: قراءات مختلفة: «كنيسة الرب (يسوع)»، أو «(يسوع) المسيح»، أو «الرب»، أو «الرب (و) الله».

ويبينه القمص تادرس يعقوب ملطي في تفسيره بقوله: «جاء تعبير (كنيسة الله) هنا في كثير من المخطوطات، خاصة السريانيَّة: (كنيسة الرب)»[(٢)].

وهكذا ترك طابعو الكتاب تلك القراءات وما في تلك المخطوطات الكثيرة، واختاروا ما يحلو لهم، وذلك في خضم تخبطهم وبحثهم عن أدلة يسندون فيها دعواهم بألوهية المسيح.

١٠- ويرى النصارى أن بعض النصوص المقدَّسة تفيد حلولًا إلهيًا في عيسى عليه السلام، وقد تتبع المحققون هذه النصوص، فأبطلوا استدلال النصارى بها، وبينوا سوء فهمهم لها.

فأما ما جاء من ألفاظ دلت على أن المسيح قد حلّ فيه الله -على ما فهمه النصارى- فإن فهمهم لها مغلوط. ذلك أن المراد بالحلول حلول مجازي كما جاء في حق غيره بلا خلاف، ونقول مثله في مسألة الحلول في المسيح.

فالله -حسب الكتاب المقدس- يحل في كثيرين؛ أي حلول المواهب الإلهية، لا حلول ذاته العلية التي تتنزه عن الحلول في المخلوقات المحدودة، فقد جاء في رسالة يوحنا «من اعترف بأن يسوع هو ابن الله، فالله يثبت فيه، وهو في الله، ونحن قد عرفنا وصدقنا المحبة التي لله فينا، ومن يثبت في المحبة يثبت في الله، والله فيه» (يوحنا (١) ٤/ ١٥-١٦)، فحلول الله في الذين اعترفوا بالمسيح ليس بحلول ذوات، وإلا كانوا جميعًا آلهة.

ومثله فإن الله يحل مجازًا في كل من يحفظ الوصايا ولا يعني ذلك ألوهيتهم، ففي رسالة يوحنا: «ومن يحفظ وصاياه يثبت فيه، وهو فيه، وبهذا نعرف أنه يثبت فينا من الروح الذي أعطانا» (يوحنا

(١) علم اللاهوت النظامي ص(٢٠٩).
(٢) أعمال الرسل، القمص تادرس يعقوب ملطي، ص(٧٨٢).

(١) ٣/ ٢٤)، فليس المقصود تقمص الذات الإلهية لهؤلاء الصالحين، بل حلول هداية الله وتأييده عليهم.

وكذا الذين يحبون بعضهم لله فإن الله يحل فيهم برحمته، لا بذاته «إن أحب بعضنا بعضًا فالله يثبت فينا، ومحبته قد تكمَّلت فينا، بهذا نعرف أننا نثبت فيه، وهو فينا» (يوحنا (١) ٤/ ١٢-١٣).

وكما في قوله عن التلاميذ: «أنا فيهم، وأنت في» (يوحنا ١٧/ ٢٢).

ومثله يقول بولس عن المؤمنين: «فإنكم أنتم هيكل الله الحي، كما قال الله: إني سأسكن فيهم، وأسير بينهم، وأكون لهم إلهًا، وهم يكونون لي شعبًا» (كورنثوس (٢) ٦/ ١٦-١٧)، ويقول: «وأما أنتم فجسد المسيح» (كورنثوس (١) ١٢/ ٢٧)، فالحلول في كل ذلك مجازي.

فقد أفادت هذه النصوص حلولًا إلهيًّا في كل المؤمنين، وهذا الحلول هو حلول مجازي بلا خلاف، أي حلول هدايته ومواهبه وتوفيقه، ومثله الحلول في المسيح، ومن زعم الفرق وجب عليه إحضار الدليل.

كما تذكر التوراة حلول الله -وحاشاه- في بعض مخلوقاته على الحقيقة، ولا تقول النصارى بألوهية هذه الأشياء، ومن ذلك ما جاء في سفر الخروج «المكان الذي صنعته يا رب لسكنك» (الخروج ١٥/ ١٧)، فقد حل وسكن في جبل الهيكل، ولا يعبد أحد ذلك الجبل.

وفي المزامير: «لماذا أيتها الجبال المسمنة ترصدون الجبل الذي اشتهاه الله لسكنه، بل الرب يسكن فيه إلى الأبد» (المزمور ٦٨/ ١٦)[١].

---

(١) انظر: الله واحد أو ثلاثة، د. منقذ محمود السقار.

الفصل الرابع

عقيدة بنوة المسيح عليه السلام

ونتناول الحديث عنها من خلال النقاط الآتية:

١- أول ما يلفت المحققون النظر إليه أنه لم يرد عن المسيح عليه السلام في الأناجيل تسميته لنفسه بابن الله سوى مرة واحدة في يوحنا ١٠/٣٦، وفيما سوى ذلك فإن الأناجيل تذكر أن معاصريه وتلاميذه كانوا يقولون بأنه ابن الله.

لذا فإن المحققين يشككون في صدور هذه الكلمات من المسيح -عليه السلام- أو تلاميذه، يقول سنجر في كتابه «قاموس الإنجيل»: «ليس من المتيقن أن عيسى نفسه قد استخدم ذلك التعبير».

ويقول شارل جنيبر: «والنتيجة الأكيدة لدراسات الباحثين، هي: أن المسيح لم يدَّعِ قط أنه هو المسيح المنتظر، ولم يقل عن نفسه إنه ابن الله... فتلك لغة لم يبدأ في استخدامها سوى المسيحيين الذين تأثروا بالثقافة اليونانيَّة»[1].

وقد قال العالم كولمن بخصوص هذا اللقب: «إن الحواريين الذين تحدث عنهم أعمال الرسل تأسَّوا بمعلمهم الذي تحفظ على استخدام هذا اللقب ولم يرغب به، فاستنوا بسنته».

ويرى جنيبر أن المفهوم الخاطئ وصل إلى الإنجيل عبر الفهم غير الدقيق من المتنصرين الوثنيين فيقول: «مفهوم «ابن الله» نبع من عالم الفكر اليوناني».

ويرى القس السابق سليمان مفسر -ويوافقه الدكتور شارل جنيبر- أن بولس هو أول من استعمل الكلمة، وكانت حسب لغة المسيح (عبد الله) وترجمتها اليونانيَّة servant، فأبدلها بالكلمة اليونانيَّة pais بمعنى طفل أو خادم تقربًا إلى المتنصرين الجدد من الوثنيين[2].

٢- ثم هذه النصوص التي تصف المسيح -عليه السلام- أنه ابن الله معارضة بثلاثة وثمانين نصًا من النصوص التي أطلقت على المسيح لقب «ابن الإنسان»، فلئن كانت تلك التي أسمته ابن الله دالة على ألوهيته فإن هذه مؤكدة لبشريته، صارفة تلك الأخرى إلى المعنى المجازي.

ومنها قول متى ٨/ ٢٠: «قال له يسوع: للثعالب أوجرة، ولطيور السماء أوكار، وأما ابن الإنسان فليس له، أين يسند رأسه».

وأيضًا قوله في مرقس ١٤/ ٢١: «ابن الإنسان ماض كما هو مكتوب عنه».

---

(١) المسيحية، نشأتها وتطورها، شارل جنيبر ص(٥٠).

(٢) انظر: يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء، رءوف شلبي، ص(٢٦٣-٢٦٤)، عيسى رسول الإسلام، سليمان مفسر، ص(٤٤-٤٧)، المسيحية، نشأتها وتطورها، ص(٥٠).

وقد جاء في التوراة في العدد ٢٣/٩: «ليس الله إنسانًا فيكذب، ولا ابن إنسان فيندم».

فالمسيح ليس الله.

٣- ولفظ البنوة الذي أطلق على المسيح أطلق على كثيرين غيره، ولم يقتضِ ذلك ألوهيتهم، بل حملت بنوتهم على المعنى المجازي، أي المؤمنين والصالحين.

منهم آدم الذي قيل فيه: «آدم ابن الله» (لوقا ٣/ ٣٨).

ومثله قوله لداود: «أنت ابني، أنا اليوم ولدتك» (المزمور ٢/ ٧).

وسليمان أيضًا قيل: إنه ابن الله، فقد جاء في سفر الأيام عنه: «هو يبني لي بيتًا أنا أكون له أبًا، وهو يكون لي ابنًا» (الأيام (١) ١٧/ ١٢-١٣).

كما سمى لوقا الملائكة أبناء الله لشيوع مثل هذه الاستخدام في الصدر الأول للمسيحية «مثلَ الملائكةِ وهم أبناء الله» (لوقا ٢٠/ ٣٦).

وسمت النصوص أيضًا آخرين أبناء الله، أو ذكرت أن الله أبوهم، ومع ذلك لا يقول النصارى بألوهيتهم.

فالحواريون أبناء الله، كما قال المسيح عنهم: «قولي لهم: إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم» (يوحنا ٢٠/ ١٧).

وقال للتلاميذ أيضًا: «فكونوا أنتم كاملين، كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل» (متى ٥/ ٤٨).

وعلمهم المسيح أن يقولوا: «فصلوا أنتم هكذا: أبانا الذي في السموات، ليتقدس اسمك...» (متى ٦/ ٩).

وقوله: «أبوكم الذي في السموات يهب خيرات للذين يسألونه» (متى ٦/ ١١)، فكان يوحنا يقول: «انظروا أية محبة أعطانا الآب حتى ندعى أولاد الله» (يوحنا (١) ٣/ ١).

بل واليهود أيضًا كلهم أبناء الله كما يوضحه قول المسيح لليهود: «أنتم تعملون أعمال أبيكم. فقالوا له: إننا لم نولد من زنى. لنا أب واحد، وهو الله» (يوحنا ٨/ ٤١).

وفي سفر هوشع «يكون عدد بني إسرائيل كرمل البحر الذي لا يكال ولا يعدّ، ويكون عوضًا عن أن يقال لهم: لستم شعبي، يقال لهم: أبناء الله الحي» (هوشع ١/ ١٠).

ونحوه قال عنهم: «لما كان إسرائيل غلامًا أحببته، ومن مصر دعوت ابني» (هوشع ١١/ ١).

ومن ذلك أيضًا ما جاء في سفر الخروج عن جميع شعب «فتقول لفرعون: هكذا يقول الرب: إسرائيل ابني البكر. فقلت لك: أطلق ابني ليعبدني، فأبيت» (الخروج ٤/ ٢٢).

وخاطبهم داود قائلًا: «قدموا للرب يا أبناء الله، قدموا للرب مجدًا وعزًّا» (المزمور ٢٩/ ١).

ومثله قوله: «لأنه من في السماء يعادل الرب. من يشبه الرب بين أبناء الله» (المزمور ٨٩/ ٦).

وفي سفر أيوب: «كان ذات يوم أنه جاء بنو الله، ليمثلوا أمام الرب» (أيوب ١/ ٦).

وقال الإنجيل عنهم: «طوبى لصانعي السلام؛ لأنهم أبناء الله يُدعون» (متى ٥/ ٩).

وعن المؤمنين يقول بولس: «فإذ نحن ذرية الله، لا ينبغي أن نظن أن اللاهوت شبيه بذهب أو فضة أو حجر نقش صناعة واختراع إنسان» (أعمال ١٧/ ٢٩)، فوسم المؤمنين بأنهم ذرية الله، أي المحبون والمطيعون لله.

كما نرى في التوراة هذا الإطلاق على الشرفاء والأقوياء من غير أن يفهم منه النصارى أو غيرهم الألوهية الحقيقية، فقد جاء فيها: «أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات. فاتّخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا... إذ دخل بنو الله على بنات الناس، وولدن لهم أولادًا، هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم» (التكوين ٦/ ٢).

وعليه فلا يمكن النصارى أن يجعلوا من النصوص المتحدثة عن بنوة المسيح لله أدلة على ألوهيته ثم يمنعوا إطلاق حقيقة ذات اللفظ على آدم وسليمان و إلخ، وتخصيصهم المسيح بالمعنى الحقيقي يحتاج إلى مرجح لا يملكونه ولا يقدرون عليه.

٤- معنى البنوة الصحيح: والمعنى المقصود للبنوة في كل ما قيل عن المسيح عليه السلام وغيره إنما هو معنى مجازي بمعنى حبيب الله أو مطيع الله، أو المؤمن بالله.

لذلك قال مرقس وهو يحكي عبارة قائد المائة الذي شاهد المصلوب وهو يموت فقال: «حقًّا كان هذا الإنسان ابن الله» (مرقس ١٥/ ٣٩).

ولما حكى لوقا القصة نفسها أبدل العبارة بمرادفها فقال: «بالحقيقة كان هذا الإنسان بارًا» (لوقا ٢٣/ ٤٧).

ومثل هذا الاستخدام وقع من يوحنا حين تحدث عن أولاد الله المؤمنين، فقال: «وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانًا أن يصيروا أولاد الله. أي المؤمنين باسمه» (يوحنا ١/ ١٢)، ونحوه في قول بولس: «كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله» (غلاطية ٨/ ١٤).

ومثله قول يوحنا: «الذي يسمع كلام الله من الله» (يوحنا ٨/ ٤٧).

ومثل هذا الإطلاق المجازي للبنوة معهود في الكتب المقدّسة التي تحدثت عن أبناء الشيطان، وأبناء الدهر (الدنيا) (انظر يوحنا ٨/ ٤٤، لوقا ١٦/ ٨).

٥- وأما المعنى الحقيقي للبنوة فقد نطقت به الشياطين، فانتهرها المسيح، ففي إنجيل لوقا «كانت شياطين أيضًا تخرج من كثيرين، وهي تصرخ وتقول: أنت المسيح ابن الله. فانتهرهم ولم يدعهم يتكلمون؛ لأنهم عرفوه أنه المسيح» (لوقا ٤/ ٤١)، فهو المسيح فحسب، وليس ابن الله على الحقيقة.

بكورية المسيح بين الأبناء

لكن النصارى يرون تميزًا مستحقًا للمسيح في بنوته عن سائر الأبناء، فهم لا ينازعون في صحة الإطلاق المجازي عندما ترد لفظ البنوة بحق سائر المخلوقات.

لكن النزاع إنما يكمن في تلك الأوصاف التي أطلقت على المسيح ويثبتها النصارى على الحقيقة محتجين بأمور، منها: أنه قد جاء وصف المسيح بأنه الابن البكر أو الوحيد لله. (انظر عبرانيين ١/ ٦، يوحنا ٣/ ١٨) أو أنه سمي ابن الله العلي (انظر لوقا ١/ ٣٢، ٧٦)، أو أنه ابن ليس مولودًا من هذا العالم كسائر الأبناء، بل هو مولود من السماء، أو من فوق. (انظر يوحنا ١/ ١٨).

ولكن ذلك كله تثبت النصوص أمثاله لأبناء آخرين.

فالبكورية وصف بها إسرائيل: «إسرائيل ابني البكر» (الخروج ٤/ ٢٢-٢٣).

وكذا إفرايم «لأني صرت لإسرائيل أبًا، وإفرايم هو بكري» (إرميا ٣١/ ٩).

وكذا داود «هو يدعوني: أنت أبي وإلهي وصخرة خلاصي، وأنا أيضًا أجعله بكرًا، فوق ملوك الأرض عليًّا» (المزمور ٨٩/ ٢٦-٢٧).

ولئن قيل في المسيح إنه ابن الله العلي، فكذلك سائر بني إسرائيل «وبنو العلي كلكم» (المزمور ٨٢/ ٦).

وكذا تلاميذ المسيح فهم أيضًا بنو العلي «أحبوا أعداءكم فيكون أجركم عظيمًا، وتكونوا بني العلي» (لوقا ٦/ ٣٥).

الابن النازل من السماء

وتعلق مؤلهو المسيح بما ذكرته الأناجيل عن المسيح الذي أتى من فوق أو من السماء، و«الذي يأتي من فوق هو فوق الجميع» (يوحنا ٣/ ٣١)، وهم يرون صورة ألوهيته مشرقة في قوله: «أما أنا فمن فوق. أنتم من هذا العالم، أما أنا فلست من هذا العالم» (يوحنا ٨/ ٢٣)، فدل ذلك -وفق رأي النصارى- على أنه كائن إلهي فريد، وهو ابن لا كسائر الأبناء.

لكن المقصود من المجيء السماوي هو إتيان المواهب والشريعة لا إتيان الذات، وهو أمر يستوي به مع سائر الأنبياء، ومنهم يوحنا المعمدان فقد سأل المسيح اليهود: «معمودية يوحنا من أين كانت من السماء؟ أم من الناس؟ ففكروا في أنفسهم قائلين: إن قلنا من السماء، فيقولوا لنا: فلماذا لم تؤمنوا به؟ وإن قلنا: من الناس، نخاف من الشعب» (متى ٢١/ ٢٥-٢٦).

وأما النازلون على الحقيقة من السماء فهم كثر، ولا تعتبر النصارى أيا منهم آلهة، منهم الملائكة، «لأن ملاك الرب نزل من السماء» (متى ٢٨/ ٢).

وكذا صعد أخنوخ إلى السماء «وسار أخنوخ مع الله، ولم يوجد، لأن الله أخذه» (التكوين ٥/ ٢٤)، ومن المعلوم أن «ليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء، ابن الإنسان الذي

هو في السماء» (يوحنا ٣/ ١٣)، فأخنوخ مثله، ولا يقولون بألوهيته.

وكذا إيليا صعد إلى السماء «ففصلت بينهما فصعد إيليا في العاصفة إلى السماء» (الملوك (٢) ٢/ ١١).

كما تذكر الأناجيل أن التلاميذ، هم أيضًا مولودون من فوق أو من الله، أي هم مؤمنون به، ففي يوحنا: «وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانًا أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنين باسمه» (يوحنا ١/ ١٢). فالمقصود بالولاد، الولاد الروحي، بحيث يتغير قلب الإنسان الخاطئ تغيرًا عظيمًا كاملًا مستمرًا، كأنه ولد ثانية، ويحدث ذلك عند توبته وإيمانه.

والمؤمنون بالمسيح -عليه السلام- مولودون من فوق بما أعطاهم الله من الإيمان، فهم كسائر المؤمنين كما قال المسيح: «الحق الحق أقول لكم: إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله» (يوحنا ٣/ ٣).

وكذا قال: «كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح، فقد ولد من الله» (يوحنا (١) ٥/ ١).

وقال: «كل من يصنع البر مولود منه» (يوحنا (١) ٢/ ٢٩).

وقول المسيح -عليه السلام-: «أما أنا فلست من هذا العالم» ليس دليلًا على الألوهية بحال، فمراده اختلافه عن سائر البشر باستعلائه على العالم المادي، بل هو من فوق ذلك الحطام الذي يلهث وراءه سائر الناس.

وقد قال مثل هذا القول في حق تلاميذه أيضًا بعد أن لمس فيهم حب الآخرة والإعراض عن الدنيا، فقال: «لو كنتم من العالم لكان العالم يحب خاصته، لكن لأنكم لستم من العالم، بل أنا اخترتكم من العالم، لذلك يبغضكم العالم» (يوحنا ١٥/ ١٩).

وفي موضع آخر قال عنهم: «أنا قد أعطيتهم كلامك، والعالم أبغضهم؛ لأنهم ليسوا من العالم، كما أني لست من العالم» (١٧/ ١٤-١٥)، فقال في حق تلاميذه ما قاله في حق نفسه من كونهم جميعًا ليسوا من هذا العالم، فلو كان هذا على ظاهره، وكان مستلزمًا الألوهية، للزم أن يكون التلاميذ كلهم آلهة، لكن تعبيره في ذلك كله نوع من المجاز، كما يقال: فلان ليس من هذا العالم، يعني: هو لا يعيش للدنيا ولا يهتم بها، بل هَمُّهُ دومًا رضا الله والدار الآخرة»[1].

---

(١) انظر: الله واحد أو ثلاثة.

الفصل الخامس
عقيدة ألوهيَّة الروح القدس

ورد إطلاق الروح القدس في الكتاب المقدس على معان متعددة:

١- الروح الإنسانية التي يخلقها الله في الأحياء، فهي روح الله المخلوقة فيهم «وإلى أرواح أبرار مكملين» (عبرانيين ١٢/ ٢٣)، ونحوه دعاء المترنم: «تنزع أرواحها فتموت، وإلى تراب تعود، ترسِل روحك (أي يا الله) فتُخلق (أي الكائنات) وتجدد وجه الأرض» (المزمور ١٠٤/ ٢٩-٣٠)، وهذه الروح التي من الله هي النفخة التي أحيت هيكل آدم «ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفسًا حيًّا» (التكوين ٢/ ٧)، وقد سميت هذه الروح بروح من الله؛ لأنها صدرت عن الله، وإليه تعود «ترجع الروح إلى الله الذي أعطاها» (الجامعة ١٢/ ٧).

٢- الوحي الذي تأتي به الملائكة إلى الأنبياء ومنه: «داود قال بالروح القدس» (مرقس ١٢/ ٣٦)، ومثله «وامتلأ زكريا أبوه من الروح القدس» (لوقا ١/ ٦٧)، وقال بطرس: «أيها الرجال الإخوة، كان ينبغي أن يتم هذا المكتوب الذي سبق الروح القدس فقاله بفم داود» (أعمال ١/ ١٦)، وقد سمى الله الأنبياء وما يأتون به من الوحي روح القدس فقال موبخًا لبني إسرائيل: «يا قساة الرقاب وغير المختونين بالقلوب والآذان، أنتم دائمًا تقاومون الروح القدس، كما كان آباؤكم كذلك أنتم، أيُّ الأنبياء لم يضطهده آباؤكم؟!» (أعمال ٧/ ٥١).

٣- كما يطلق هذا اللفظ على ما يعطيه الله من تأييد وفهم وحكمة للأنبياء وغيرهم، وقد يكون بواسطة الملائكة وسواهم، ومنه قول المسيح -عليه السلام-: «كنت أنا بروح الله أخرج الشياطين» (متى ١٢/ ٢٨)، وقول فرعون لعبيده، وهو يبحث عن رجل حكيم: «هل نجد مثل هذا رجلًا فيه روح الله» (التكوين ٤١/ ٣٨). وكذا «كان الرجل في أورشليم اسمه سمعان، وهذا الرجل كان بارًّا تقيًّا ينتظر تعزية إسرائيل، والروح القدس كان عليه» (لوقا ٢/ ٢٥)، وكذلك أيد روح القدس التلاميذ في اليوم الخمسين «فامتلأ الجميع من الروح القدس، وابتدءوا يتكلمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا» (أعمال ٢/ ٤)، ومثله قول سفر النبي حجي: «روحي قائم في وسطكم. لا تخافوا» (حجي ٢/ ٥).

٤- الرياح الشديدة، ومنه قول التوراة وهي تصف الريح المدمرة: «يبس العشب، ذبل الزهر؛ لأن روح الرب هب عليه» (إشعيا ٤٠/ ٧)، وهو ينطبق على ما جاء في مقدمة سفر التكوين «وروح الله يرف على وجه الماء» (التكوين ١/ ١-٢)، فإن في ترجمته لبسًا أوهم هذا الخلط، فالنص كما ينقل الناقد الكبير اسبينوزا عن مفسري اليهود، يقصد منه رياح عظيمة أتت من عند الله، فبددت ظلمات الغمر.

ونسبة الروح إلى الله في هذين النصين وأمثالهما نسبة تعظيم وتشريف، لا نسبة تأليه، وهي كقوله: «جبال الله» (المزمور ٣٦/ ٦).

لكن جميع المعاني التي ذكرناها قبلُ للروح القدس غير مرادة عند مؤلهي روح القدس، الذين لا يوافقون على كونه مجرد قوة أو تأثير أو ملاك من الله، فالروح القدس وفق المفهوم النصراني إله، إنه ثالث أطراف الثالوث الأقدس، فمن هو الروح القدس وفق مفهومهم؟ وما أدلة النصارى على تأليهه؟ ومتى تمّ ذلك؟

في عام ٣٨١م وبأمر الإمبراطور تاؤديوس انعقد مجمع القسطنطينيَّة للنظر في قول الأسقف مكدونيوس أسقف القسطنطينيَّة الأريوسي، والذي كان ينكر ألوهية الروح القدس ويقول بما تقوله الأسفار عن الروح القدس: «إن الروح القدس عمل إلهي منتشر في الكون، وليس أقنومًا متميزًا عن الأب والابن»، وكان يقول عنه: إنه كسائر المخلوقات، ويراه خادمًا للابن كأحد الملائكة.

وقد حضر المجمع مائة وخمسون أسقفًا، وقرروا حرمان مكدونيوس وتجريده من وظائفه الكنسية، واتخذوا أحد أهم قرارات المجامع الكنسية، وهو تأليه الروح القدس، واعتبروه مكملًا للثالوث الأقدس، وقالوا: «ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله، وليس الله شيئًا غير حياته، فإذا قلنا إن روح القدس مخلوق فقد قلنا: إن الله مخلوق»[١].

ويقول القس ياسين منصور: «إن الروح القدس هو الله الأزلي، فهو الكائن منذ البدء قبل الخليقة، وهو الخالق لكل شيء، والقادر على كل شيء، والحاضر في كل مكان، وهو السرمدي غير المحدود».

ويقول في موضع آخر: «إن الروح القدس هو الأقنوم الثالث في اللاهوت، وهو ليس مجرد تأثير أو صفة أو قوة، بل هو ذات حقيقي، وشخص حي، وأقنوم متميز، ولكنه غير منفصل، وهو وحدة أقنومية غير أقنوم الآب، وغير أقنوم الابن، ومساوٍ لهما في السلطان والمقام، ومشترك وإياهما في جوهر واحد ولاهوت واحد»[٢].

يتعلق النصارى في تأليه الروح القدس بما جاء في إنجيل يوحنا: «إن الله روح» (يوحنا ٤/ ٢٤)، كما يرونه الروح الموجودة منذ بدء الخليقة «في البدء خلق الله السموات والأرض . . . روح الله يرف على وجه الماء» (التكوين ١/ ١-٢)، وكذا كثير من النصوص يتحدث عن الروح أو روح الله أو الروح القدس.

---

(١) انظر: يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء ص(٢١٨-٢٢١).

(٢) انظر: أقانيم النصارى، أحمد حجازي السقا، ص(٤٢-٤٤)، الله واحد أم ثالوث، محمد مجدي مرجان، ص(١١٦-١٢٥).

نقض أدلة النصارى على ألوهيَّة الروح القدس

لقد كان يكفينا ما ذكرنا من معاني الروح القدس في الكتاب المقدس لدفع هذا المعتقد الغريب عن الكتاب.

فالمعنى الذي يريده النصارى للروح القدس معدوم في كتابهم، ويتأكد غرابته عند تأملنا لعدد من الشواهد التي تحدثت عن الروح القدس.

١-فالروح القدس كائن متجسد على صور مختلفة، منها نزوله على شكل حمامة على المسيح وهو يصلي «نزل عليه الروح القدس بهيئة جسمية مثل حمامة» (لوقا ٣/ ٢٢)، فهل كانت تلك الحمامة إلهًا؟

٢- وفي مرة أخرى أتى على شكل ألسنة نارية، وذلك حين حل على التلاميذ يوم الخمسين «وصار بغتة من السماء صوت كما من هبوب ريح عاصفة، وملأ البيت حيث كانوا جالسين، وظهرت لهم ألسنة منقسمة كأنها من نار، واستقرت في كل واحد منهم، وامتلأ الجميع من الروح القدس» (أعمال ٢/ ١-٤).

٣-ولِمَ لا يكون الروح القدس جبريل -عليه السلام- أو ملاك الله كما جاء كتابهم، فقد جاء الروح إلىَ كرنيليوس وبطرس، وهو ملاك من ملائكة الله «قال له الروح: هوذا ثلاثة رجال يطلبونك. لكن قم وانزل، واذهب معهم غير مرتاب في شيء، لأني أنا قد أرسلتهم. فنزل بطرس إلى الرجال الذين أرسلوا إليه من قبل كرنيليوس .. فقالوا: إن كرنيليوس.. أوحي إليه بملاك مقدس أن يستدعيك إلى بيته، ويسمع منك كلامًا» (أعمال١٠/ ٢٠-٢٢)، فالملاك المقدس هو الروح الذي كلم بطرس، وهو الذي طلب من كرنيليوس أن يرسل رجاله إلى بطرس.

٤- وعدو بني إسرائيل من الملائكة جبريل عليه السلام، فهو الروح القدس الذي خلص بني إسرائيل مرارًا، ثم لما أصروا على كفرهم عذبهم وغضب عليهم، وتحول إلى عدو لهم، يقول إشعيا: «وملاك حضرته خلصهم، بمحبته ورأفته هو فكّهم، ورفعهم وحملهم كل الأيام القديمة، ولكنهم تمردوا وأحزنوا روح قدسه، فتحول لهم عدوًّا، وهو حاربهم» (إشعيا ٦٣/٨-١٠) فقد أحزنوا ملاك حضرته، الروح القدس فتحولت محبته لهم إلى عداوة.

٥-والروح القدس كان مع بني إسرائيل حين خرجوا من أرض مصر «ثم ذكر الأيام القديمة، موسى وشعبه. أين الذي أصعدهم من البحر مع راعي غنمه؟ أين الذي جعل في وسطهم روح قدسه... الذي شق المياه قدامهم ليصنع لنفسه اسمًا أبديًّا» (إشعيا ٦٣/ ١١)، لكنه ملاك الله، وليس أقنومًا له، فقد جاء في سفر الخروج «ها أنا مرسل ملاكًا أمام وجهك، ليحفظك في الطريق، وليجيء بك إلى المكان الذي أعددته» (الخروج ٢٣/ ٢٠-٢١)، فروح القدس هو الملاك الذي كان معهم.

٦-وروح الله ليس اسمًا خاصًا بجبريل، بل يطلق على غيره من الملائكة «ورأيت فإذا في وسط

العرش والحيوانات الأربعة، وفي وسط الشيوخ خروف قائم كأنه مذبوح، له سبعة قرون وسبع أعين هي سبعة أرواح الله، المرسلة إلى كل الأرض» (الرؤيا ٥/٦)، فالأرواح التي رآها يوحنا ليست آلهة، وإلا تحول الثالوث النصراني إلى عاشور!!

٧- وقد تكرر الحديث عن أرواح الله السبعة في سفر الرؤيا في موضعين آخرين، حيث قال: «ومن العرش يخرج بروق ورعود وأصوات، وأمام العرش سبعة مصابيح نار متّقدة، هي سبعة أرواح الله» (الرؤيا ٤/ ٥)، ويقول: «واكتب إلى ملاك الكنيسة التي في ساردس. هذا يقوله الذي له سبعة أرواح الله، والسبعة الكواكب. . .» (الرؤيا ٣/ ١).

٨- لكن أيًا كان الروح القدس فإنه ليس بإله، ولو كان إلهًا لاستقل بالفعل بنفسه، لكنه لم يكن كذلك، يقول بطرس: «الروح القدس دفع بعض الناس أن يتكلموا بكلام من عند الله» (بطرس (٢) ١/ ٢١)، فلو كان الروح القدس إلهًا أزليًا مساويًا للآب في كل شيء، لدفع الناس أن يتكلموا بكلام من عنده هو.

٩- ومما يدفع ألوهيته جهل الروح القدس -كغيره- بموعد الساعة، إذ لا يعلمه إلا الآب وحده «أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد، ولا الملائكة الذين في السماء، ولا الابن، إلا الآب» (مرقس ١٣/ ٣٢).

١٠- ومما يدفع ألوهيته أن النصوص تجعله هبة من الله يعطيها لأوليائه، كما قال المسيح عليه السلام: «فإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة، فكم بالحري الآب الذي من السماء، يعطي الروح القدس للذين يسألونه» (لوقا ١١/ ١٣)، إذ لا يعقل أن يكون الله العظيم ممثلًا بأقنومه الثالث هدية تهدي ويمتلكها بعض البشر.

١١- ولو كان الروح القدس إلهًا لوجب القول بألوهية أولئك الذين يحل عليهم، فقد حل على كثيرين، منهم داود حيث «استوت روح الرب على داود» (الملوك (١) ٦/ ١٣)، وأيضًا «سمعان عليه روح القدس» (لوقا ٢/ ٢٥)، وحل الروح القدس على مريم «وقال لها الروح القدس: يحل عليكِ، وقوة العلي تظلّلك» (لوقا ١/ ٣٥)، وأحبلها عيسى، فقد «وجدت حبلى من الروح القدس» (متى ١/ ١٨).

وكذا حل على التلاميذ «لكنكم ستنالون قوة متى حل الروح القدس عليكم، وتكونون لي شهودًا» (أعمال ١/ ٨)، فصاروا يتكلمون بالروح القدس «فمتى ساقوكم ليسلموكم، فلا تعتنوا من قبل بما تتكلمون ولا تهتموا، بل مهما أعطيتم في تلك الساعة فبذلك تكلموا، لأن لستم أنتم المتكلمين، بل الروح القدس» (مرقس ١٣/ ١١).

وأخيرًا، فقد حل على أهل كورنثوس المؤمنين ببولس، لذا يخاطبهم «أم لستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس الذي فيكم» (كورنثوس (١) ٦/ ١٩)، فهؤلاء جميعًا يستحقون العبادة لو كان الإله قد حل فيهم، وامتلئوا منه.

١٢- ومما يدل على أن الروح القدس ليس إلهًا أن الكتاب المقدس يعتبر بعضًا ممن لم يسمعوا بالروح القدس -فضلًا عن الإيمان به- مؤمنين، بل ويعتبرهم تلاميذَ رغم جهلهم بهذا الإله المزعوم، «فحدث فيما كان أبلوس في كورنثوس أن بولس بعد ما اجتاز في النواحي العالية جاء إلى أفسس، فإذ وجد تلاميذ، قال لهم: هل قبلتم الروح القدس لما آمنتم؟ قالوا له: ولا سمعنا أنه يوجد الروح القدس» (أعمال ١٩/ ١-٢).

١٣- وأما ما يتعلق به النصارى على ألوهية روح القدس في قوله: «إن الله روح» (يوحنا ٤/ ٢٤)، فهو استدلالٌ خاطئ؛ لأن النص ليس إخبارًا عن ذات الله وطبيعته، بل هو إخبار عن صفة من صفاته فحسب، كقوله: «الله محبة» (يوحنا (١) ٤/ ١٦) و«الله نور» (يوحنا (١) ١/ ٥).

ومقصود يوحنا أن الله لا يُرى، إذ ليس هو جسدًا ماديًا مكونًا من لحم وعظم، وقد ورد عن لوقا ما يؤكد صحة هذا الفهم: «والروح ليس له لحم أو عظام» (لوقا ٢٤/ ٣٩)،

وهذا المعنى يؤكده صاحبا كتاب شرح أصول الإيمان في إجابتهما على السؤال التالي: «لماذا يقال إنه تعالى روح؟»، حيث يجيبان: «يقال: إنه روح، لتنزهه عن الهيولية، وعدم قابليته للفساد»[(١)].

وهكذا يرى المحققون أن الروح القدس هو الآخر ليس بإله، وأن التثليث صياغة بشرية قامت بها المجامع بأهواء البابوات والأباطرة، من غير أن تستند إلى دليل يؤكد أصالة هذا المعتقد، الذي لم يسمع به الأنبياء ولم يذكره المسيح ولم يعرفه الحواريون.

وقد صَدُقَتْ الموسوعة الكاثوليكيَّة الحديثة حين قالت: «إن صياغة الإله الواحد في ثلاثة أشخاص لم تنشأ موطدة وممكنة في حياة المسيحيين وعقيدة إيمانهم قبل نهاية القرن الرابع»[(٢)].

---

(١) شرح أصول الإيمان، الدكتور القس أندرواس واطسون، والدكتور القس إبراهيم سعيد، ص(٢٨).

(٢) انظر: الغفران بين الإسلام والمسيحية، إبراهيم خليل أحمد، ص(٩٥)، الله واحد أو ثلاثة.

الفصل السادس
عقيدة التثليث

التصفح الدقيق لما بين دفتي الكتاب المقدس يكشف لنا غياب الدليل الصريح عن التثليث، في العهد القديم، وأيضًا في الجديد.

أولًا : النصوص التوراتية وعقيدة التثليث

تعلق النصارى ببعض النصوص التوراتية، وزعموا أنها إشارات ورموز إلهية إلى التثليث، منها استخدام بعض النصوص التوراتية صيغة الجمع العبري (ألوهيم) عند الحديث عن الله كما في مقدمة سفر التكوين «في البدء خلق الله السماء والأرض» (التكوين ١/١)، وفي النص العبري «ألوهيم» أي: (الآلهة)، ومثله في استخدام ما يدل على الجمع في أفعال منسوبة لله، كقول التوراة أن الله قال: «هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم» (التكوين ١١/٧).

ومن الإشارات التوراتية أيضًا لتثليث الأقانيم قول الملائكة: "قدوس، قدوس، قدوس، رب الجنود» (إشعيا٦/٣)، فقد كرر ذكر كلمة قدوس ثلاث مرات، ومثله قالت الحيوانات التي رآها يوحنا في رؤياه: «قدوس، قدوس، قدوس، الرب الإله القادر على كل شيء» (الرؤيا ٤/٨).

نقد النصوص التوراتية

بداية يعترف النصارى بأن ليس في هذه النصوص ما نستطيع أن نعتبره دليلًا صريحًا على التثليث الذي تنقضه النصوص التوحيدية الصريحة، كما لم يفهم سائر قراء العهد القديم -من لدن الأنبياء الأوائل لبني إسرائيل- شيئًا عن تلك التي يعتبرها النصارى إشارات على التثليث.

ويعترف بذلك القس بوطر، فيقول: «بعدما خلق الله العالم، وتوج خليقته بالإنسان لبث حينًا من الدهر لا يعلن له سوى ما يختص بالوحدانية، كما تبين ذلك من التوراة، على أنه لا يزال المدقق يرى بين سطورها إشارات وراء الوحدانية، لأنك إذ قرأت فيها بإمعان تجد هذه العبارات «كلمة الله» أو «حكمة الله» أو «روح الله» ولم يعلم من نزلت إليهم التوراة إلا في ضوء الإنجيل المعنى المراد . . . فما لمحت إليه التوراة صرح به الإنجيل»[(١)].

وهنا يتساءل المرء لم ألغز الله تثليث أقانيمه عن موسى وبني إسرائيل، ولم كان سبب ضلالهم بما أورده لهم من نصوص موحدة، جعلتهم يحاربون عقيدة التثليث ويرفضونها، وهل سيغفر لهم ولغيرهم أنهم لم يهتدوا إلى حقيقة المراد من هذه الألغاز.

---

(١) انظر: محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، ص(١٢١)، العقائد المسيحية بين القرآن والعقل، هاشم جودة، ص(١٢٩-١٣٠).

ونظر المحققون فيما أسمته النصارى إشارات التوراة، فوجدوها محض تمحل لا تقبله الأذواق السليمة، ولا ترتضيه دلالات الكلام وتناسق السياق.

إن غاية ما يمكن أن تدل عليه هذه النصوص تعدد الآلهة، من غير تحديد لها بالتثليث أو التربيع أو غيره.

والجمع الوارد في مثل قوله: (ألوهيم، هلم، ننزل، ونبلبل) هو جمع تعظيم لا يفيد الكثرة، وقد اعتادت الأمم التعبير عن عظمائها باستخدام جمع التعظيم، فيقول الواحد: نحن، ورأينا، وأمرنا، ومقصده نفسه، ولا يفهم منه مستمع أنه يتحدث عن ذاته وأقانيمه الأخرى.

واستخدام صيغة الجمع للتعظيم لا العدد معروف حتى في الكتاب المقدس، وله صور منها قصة المرأة العرافة التي رأت روح صموئيل بعد وفاته، فعبرت عنه باستخدام صيغة الجمع، تقول التوراة: «فلما رأت المرأة صموئيل صرخت بصوت عظيم .. فقالت المرأة لشاول: رأيت آلهة يصعدون من الأرض، فقال لها: ما هي صورته؟ فقالت: رجل شيخ صاعد، وهو مغطًّى بجبّة. فعلم شاول أنه صموئيل» (صموئيل (١) ٢٨/ ١٢-١٤)، فقد كانت تتحدث عن صموئيل، لقد رأته على هيئة رجل شيخ، وتستخدم مع ذلك صيغة الجمع (آلهة)، فالجمع لا يفيد العدد بالضرورة، بل هو جمع التعظيم.

وعندما عبد بنو إسرائيل العجل، وهو واحد سمته التوراة آلهة مستخدمة صيغة الجمع في ثلاثة مواضع، تقول: «فأخذ ذلك من أيديهم وصوّره بالإزميل، وصنعه عجلًا مسبوكًا، فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر ... صنعوا لهم عجلًا مسبوكًا، وسجدوا له، وذبحوا له، وقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر» (الخروج ٣٢/ ٤-٨).

ويمضي السفر ليؤكد ثالثة أصالة استعمال الجمع الذي يراد منه الواحد، فيقول: «رجع موسى إلى الرب، وقال: آه قد أخطأ هذا الشعب خطية عظيمة، وصنعوا لأنفسهم آلهة من ذهب» (الخروج ٣٢/ ٣١).

وأما التكرار ثلاث مرات في قول الملائكة أو حيوانات رؤيا يوحنا وأمثال ذلك، فلا يصلح في الدلالة في شيء. فلو اطرد الاستدلال على هذه الكيفية فلسوف نرى تربيعًا وتخميسًا وغير ذلك من التعداد للآلهة.

فلئن وردت كلمة «قدوس» مثلثة مرتين في الكتاب المقدس، فإنها وردت مفردة نحو أربعين مرة، وإنما يراد من التكرار التأكيد فحسب، كما في نصوص إنجيلية وتوراتية كثيرة، منها قول اليهود: «فصرخوا قائلين: اصلبه، اصلبه» (لوقا ٢٣/ ٢١)، ونحوه في سؤال المسيح لبطرس، فقد كرره ثلاث مرات «فبعدما تغدوا قال يسوع لسمعان بطرس: يا سمعان بن يونا أتحبني أكثر من هؤلاء؟ قال له: نعم يا رب، أنت تعلم أني أحبك ... قال له أيضًا ثانية: يا سمعان بن يونا أتحبني؟ ... قال له ثالثة: يا سمعان بن يونا أتحبني؟ فحزن بطرس لأنه قال له ثالثة: أتحبني» (يوحنا ٢١/ ١٥-١٧).

ثانيًا: النصوص الإنجيلية وعقيدة التثليث

يعتقد النصارى أن ثمة أدلة على التثليث في أسفار العهد الجديد أصرح وأوضح من تلك التي وردت في التوراة، منها أنه «لما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء، وإذا السموات قد انفتحت له، فرأى روح الله نازلًا مثل حمامة، وآتيًا عليه، وصوت من السماء قائلًا: هذا هو ابني الحبيب والروح الذي سررت به» (متى ٣/ ١٦-١٧). فقد جمع النص الآب والابن الحبيب والروح النازل مثل الحمامة.

ومثله يقول بولس: «بنعمة ربنا يسوع المسيح، ومحبة الله، وشركة الروح القدس مع جميعكم. آمين» (كورنثوس (٢) ١٣/ ١٤).

لكن المتأمل في نص متى يرى ثلاث ذوات تمايزت بالأسماء والأعمال، لكل منها وجود ذاتي يختلف عن الباقين، فأحدها الخارج من الماء بعد التعميد، وثانيها النازل على شبه هيئة حمامة، وثالثها الذي في السماء يقول: «هذا هو ابني الحبيب»، فكيف بعد ذلك يقال عنها بأنها وحدة واحدة.

ثم إن النصارى يقولون بحلول الابن في عيسى، وهنا يتحدث النص عن حلول الروح عليه، وفي مواضع أخرى أكد ذلك. (انظر لوقا ٣/ ٢٢، متى ١٢/ ١٨)، فيما جاءت مواضع أخرى تتحدث عن حلول الله الأب فيه. (انظر يوحنا ١٧/ ٢١، ١٤/ ٩-١٠)، فأي الأقانيم إذًا الحال في المسيح.

ولم يرد في الكتاب المقدس ذكر عناصر التثليث الثلاث جنبًا إلى جنب إلا في نصين فقط، وهما نص الشهود الثلاثة في رسالة يوحنا الأولى، وخاتمة إنجيل متى.

١- الاستدلال بنص الشهود الثلاثة على التثليث.

وهو أهم النصين وأصرحهما، وهو ما جاء في رسالة يوحنا الأولى في قول يوحنا: «فإن الذين يشهدون في السماء هم ثلاثة: الآب والكلمة والروح القدس. وهؤلاء الثلاثة هم الواحد» (يوحنا (١) ٥/ ٧).

فهذا النص صريح في جعل الثلاثة إلهًا واحدًا، غير أنه غير موجود في سائر المخطوطات القديمة للكتاب المقدس، بل وغير موجود حتى في أول نص مطبوع، فقد أضيف لاحقًا، وقد اعترف بإضافته علماء النصرانيَّة ومحققوها ومنهم هورن، وجامعو تفسير هنري واسكات، وآدم كلارك، وفندر، وخلت ردود القديس أكستاين (ق٤) من هذا النص على الرغم من مناظرته لفرقة إيرين المنكرة للتثليث، كما قد كتب عشر رسائل في شرح رسالة يوحنا لم يذكر في أيها هذا النص.

وقد حذفته النسخة القياسيَّة المنقحة (R S V) من نسختها الإنجليزية، كما حذفته بعض التراجم العالمية، وما يزال موجودًا في غالب التراجم، ومنها التراجم العربيَّة سوى نسخة الرهبانيَّة اليسوعيَّة والترجمة العربيَّة المشتركة؛ فإنهما حذفتاه، والنص في الأولى: «لأن الروح هو الحق، والذين يشهدون ثلاثة: الروح والدم والماء، وهؤلاء الثلاثة متفقون» (يوحنا (١) ٥/ ٦-٨)، وقد

ذكرت في مدخلها سبب حذفها لهذا النص فقالت: «لم يرد هذا النص في المخطوطات فيما قبل القرن الخامس عشر، ولا في الترجمات القديمة، ولا في أحسن أصول الترجمة اللاتينيَّة، والراجح أنه ليس سوى تعليق كتب في الهامش، ثم أقحم في النص أثناء تناقله في الغرب».

ومثله يقوله بنيامين ولسن مترجم المخطوطات اليونانيَّة: «إن هذه الآية التي تشمل على الشهادة بالألوهية غير موجودة في أي مخطوط إغريقي مكتوب قبل القرن الخامس عشر، إنها لم تذكر بواسطة أي كاتب إكليركي (إغريقي) أو أي من الآباء اللاتينيين الأولين حينما يكون الموضوع الذي يتناولونه يتطلب بطبيعته الرجوع إليها، لذلك فهي بصراحة مختلقة»[1].

٢- نقد الاستدلال بخاتمة متى على التثليث.

وأما النص الثاني فهو ما جاء في خاتمة متى من أن المسيح قبيل صعوده إلى السماء «كلمهم قائلًا: دفع إلي كل سلطان في السماء وعلى الأرض، فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمدوهم باسم الآب والابن وروح القدس، وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به، وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر. آمين» (متى ٢٨/ ١٨-٢٠).

وأول نقد يتوجه لهذه الفقرة أنها رغم أهميتها لم ترد في الأناجيل الثلاثة الأخرى التي اتفقت على إيراد قصة دخول المسيح أورشليم راكبًا على جحش. فهل كان ركوبه على جحش أهم من ذكر التثليث، فلم يذكره سوى متى؟

بل إن خاتمة إنجيل مرقس حين نقلت ذات الوصية التي أوصاها للتلاميذ لم تذكر صيغة التثليث التي انفرد بذكرها متى، حيث يقول مرقس: «وقال لهم: اذهبوا إلى العالم أجمع، واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها، من آمن واعتمد خلص، ومن لم يؤمن يدن» (مرقس ١٦/ ١٥)، وهذا دال على إلحاقية نص التثليث وعدم أصالتها.

وهذه الفقرة دخيلة بدليل قول علماء الغرب أيضًا، يقول ويلز: «ليس دليلًا على أن حواريي المسيح اعتنقوا التثليث».

ويقول أدولف هرنك: «صيغة التثليث هذه التي تتكلم عن الآب والابن والروح القدس، غريب ذكرها على لسان المسيح، ولم يكن لها وجود في عصر الرسل كذلك لم يرد إلا في الأطوار المتأخرة من التعاليم النصرانيَّة ما يتكلم به المسيح وهو يلقي مواعظ ويعطي تعليمات بعد أن أقيم من الأموات، إن بولس لا يعلم شيئًا عن هذا»[2]، إذ هو لم يستشهد بقول ينسبه إلى المسيح يحض على نشر النصرانيَّة بين الأمم.

---

(١) انظر: إظهار الحق (٢/ ٤٩٧-٥٠٤)، المسيح عليه السلام بين الحقائق والأوهام، محمد وصفي، ص(١٠٦-١٠٧)، خمسون ألف خطأ في الكتاب المقدس، أحمد ديدات، ص(١٢).

(٢) انظر: مسيحية بلا مسيح، كامل سعفان، ص(٦٦)، المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب، ص(٦١)، عقائد النصارى الموحدين بين الإسلام والمسيحية، حسني الأطير، ص(٩٢).

ويؤكد تاريخ التلاميذ عدم معرفتهم بهذا النص، إذ لم يخرجوا لدعوة الناس كما أمر المسيح في هذا النص المزعوم، بل إنه أمرهم باجتناب دعوة غير اليهود «هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع، وأوصاهم قائلًا: إلى طريق أمم لا تمضوا، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحري إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» (متى ١٠/ ٥-٦).

ويتطابق هذا مع شهادة تاريخية تعود للقرن الثاني تناقض الأمر المزعوم بدعوة الأمم وتعميدها باسم الثالوث، إذ يقول المؤرخ أبولونيوس: «إني تسلمت من الأقدمين أن المسيح قبل صعوده إلى السماء كان قد أوصى رسله ألا يبتعدوا كثيرًا عن أورشليم لمدة اثنتي عشرة سنة»[1].

وقد التزم التلاميذ بأمر المسيح عليه السلام، ولم يخرجوا من فلسطين إلا حين أجبرتهم الظروف على الخروج «وأما الذين تشتتوا من جراء الضيق الذي حصل بسبب استفانوس، فاجتازوا إلى فينيقية وقبرص وأنطاكيا، وهم لا يكلمون أحدًا بالكلمة إلا اليهود فقط» (أعمال ١١/ ١٩)، ولو كانوا سمعوا المسيح يأمرهم بدعوة الأمم باسم الآب والابن والروح القدس، لخرجوا امتثالًا لقوله، من غير إكراه، ولبشروا الأمم بدعوته.

ولما حدث أن بطرس استدعي من قبل كرنيليوس الوثني ليعرف منه دين النصرانيَّة، ثم تنصر على يديه. لما حصل ذلك لامه التلاميذ فقال لهم: «أنتم تعلمون كيف هو محرم على رجل يهودي أن يلتصق بأحد أجنبي أو يأتي إليه، وأما أنا فقد أراني الله ألا أقول عن إنسان ما أنه دنس أو نجس» (أعمال ١٠/ ٢٨)، لكنه لم يذكر أن المسيح أمرهم بذلك، بل قال: «نحن الذين أكلنا وشربنا معه بعد قيامته من الأموات، وأوصانا أن نكرز للشعب» (أعمال١٠/ ٤٢)، أي لليهود فقط.

وعليه فبطرس لا يعلم شيئًا عن نص متَّى الذي يأمر بتعميد الأمم باسم الآب والابن والروح القدس. ولذلك اتفق التلاميذ مع بولس على أن يدعو الأمميين، وهم يدعون الختان أي اليهود، يقول بولس: «رأوا أني اؤتمنت على إنجيل الغرلة (الأمم)كما بطرس على إنجيل الختان أعطوني وبرنابا يمين الشركة لنكون نحن للأمم، وأما هم فللختان» (غلاطية ٢/ ٧-٩)، فكيف لهم أن يخالفوا أمر المسيح - لو كان صحيحًا نص متى- ويقعدوا عن دعوة الأمم، ثم يتركوا ذلك لبولس وبرنابا فقط؟

فكل هذه الشواهد تكذب نص متى، وتؤكد أنه نص مختلق لا تصح نسبته إلى المسيح.

ثم عند غض الطرف عن ذلك كله، فإنه ليس في النص ما يسلم بأنه حديث عن ثالوث أقدس اجتمع في ذات واحدة، فهو يتحدث عن ثلاث ذوات متغايرة، قرن بينها بواو عاطفة دلت على المغايرة، والمعنى الصحيح لخاتمة متى : «اذهبوا باسم الله ورسوله عيسى والوحي المنزل عليه بتعاليم الله عز وجل».

---

(١) انظر: عقائد النصارى الموحدين بين الإسلام والمسيحية ص(٢٣٠)، طائفة الموحدين من المسيحيين عبر القرون، أحمد عبد الوهاب، ص(٩١-٩٤).

ولهذه الصيغة الواردة في متى مثل لا يصرفه النصارى للتثليث، فقد جاء في بعض رسالة بولس إلى تيموثاوس: «أناشدك أمام الله والرب يسوع المسيح والملائكة المختارين» (تيموثاوس (١) ٥/ ٢١) فإن أحدًا لم يفهم من النص ألوهية الملائكة أو أنهم الأقنوم الثالث، ويقال في نص متى ما يقال في نص بولس.

ويشبهه ما جاء سفر الخروج من دعوة بني إسرائيل للإيمان بالله وبموسى من غير أن يفهم تساوي المعطوفين في قوله: «فخاف الشعب الرب، وآمنوا بالرب وبعبده موسى» (الخروج ١٤/ ٣١).

نقد عقيدة التثليث

وإذا لم نجد للتثليث دليلًا صريحًا واحدًا ينهض للاستدلال، فهل ترانا نجد لنقيضه، وهو التوحيد دليلًا في ثنايا الكتاب المقدس؟

إن المتأمل في الأسفار المقدَّسة يرى بوضوح غرابة دعوة التثليث وتسطع أمامه أصالة التوحيد في النصرانيَّة وبهاؤه، فقد دلت عليه عشرات النصوص الصريحة الناصعة في وضوحها، والتي تؤكد بأن معتقد المسيح وتلاميذه، ومن قبلهم أنبياء الله هو توحيد الله عز وجل.

أولًا: النصوص الموحدة في العهد القديم

تتلألأ دعوة التوحيد في العهد القديم، وتنطق بها النبوات، وتكثر حولها وصاياهم، وتتسابق النصوص، وهي تؤكد أصالة هذا المعتقد، منها:

١- ما جاء في سفر التثنية من وصايا موسى -عليه السلام- التي كتبها الله لموسى على لوحي الحجر، وأمر بني إسرائيل بحفظها، وجاء المسيح بعده فأكد عليها "اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا واحد، فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك، ولتكن هذا الكلمات التي أوصيك بها اليوم على قلبك، وقُصَّها على أولادك، وتكلم بها حين تجلس في بيتك، وحين تمشي في الطريق وحين تنام وحين تقوم، واربطها علامة على يديك، ولتكن عصائب بين عينيك، واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك» (التثنية ٦/ ٤-٩).

٢- «أنا هو الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية. لا يكن لك آلهة أخرى أمامي» (التثنية ٥/ ٦).

٣- ومنها وصية الله لموسى -عليه السلام- وبني إسرائيل: «أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر، من بيت العبودية. لا يكن لك آلهة أخرى أمامي. لا تصنع لك تمثالًا منحوتًا، ولا صورة ما، مّما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض» (الخروج ٢٠/ ٢-٤).

٤- وفي سفر الملوك: «ليعلم كل شعوب الأرض أن الرب هو الله، وليس آخر» (الملوك (١) ٨/ ٦٠).

٥- وجاء في مزامير داود: «كل الأمم الذين صنعتهم يأتون ويسجدون أمامك يا رب ويمجدون اسمك؛ لأنك عظيم أنت، وصانع العجائب، أنت الله وحدك» (المزمور ٨٦/ ٩-١٠) هو وحده الله، وليس يشاركه في اسمه أو ألوهيته أحد، بما في ذلك المسيح عليه السلام.

٦- وجاء في إشعيا: «يقول الرب: . . . قبلي لم يصور إله، وبعدي لا يكون، أنا أنا الرب، وليس غيري مخلص، أنا أخبرت وخلصت . . .» (إشعيا ٤٣/ ١٠-١٢).

٧- «أيها الرب إلهنا خلصنا من يده، فتعلم ممالك الأرض كلها أنك أنت الرب وحدك» (إشعيا ٣٧/ ٢٠).

٨- «أنا الرب صانع كل شيء، ناشر السموات وحدي باسط الأرض، من معي؟!» (إشعيا ٤٤/ ٢٤)، فأين هذا ممن جعل الواحد ثلاثة، وأوكل الخلق إلى غيره؟

٩- «أنا الرب وليس آخر، لا إله سواي» (إشعيا ٤٥/ ٥).

١٠- وجاء في نبوة إشعيا أيضًا «يقول الرب ملك إسرائيل وفاديه رب الجنود: أنا الأول وأنا الآخر، ولا إله غيري. ومن مثلي ينادي، فليخبر به ويعرضه لي. . . هل يوجد إله غيري، ولا صخرة لا أعلم به» (إشعيا ٤٤/٦-٩).

- ومثله كثير في أسفار العهد القديم. (انظر ملاخي ٢/ ١٠، الملوك (١) ٨/ ٢٧،).

ثانيًا: النصوص الموحدة في العهد الجديد

وكذا جاءت أسفار العهد الجديد تؤكد تفرد الخالق بالألوهية والربوبية، وتذكر ذلك على لسان المسيح وحواريه.

١- يقول المسيح: «ولا تدعوا لكم أبًا على الأرض؛ لأن أباكم واحد، الذي في السموات. ولا تدعوا معلمين؛ لأن معلمكم واحد، المسيح» (متى ٢٢/ ٩-١٠).

٢- ومن ذلك أيضًا ما جاء في متى: «وإذا واحد تقدم وقال له: أيها المعلم الصالح، أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية؟ فقال له: لماذا تدعوني صالحًا، ليس أحد صالحًا إلا واحد، وهو الله» (متى ١٩/ ١٧).

٣- وكذا قول يوحنا «كلم يسوع بهذا، ورفع عينيه نحو السماء وقال: أيها الآب قد أتت الساعة، مجد ابنك ليمجدك ابنك أيضًا، إذ أعطيته سلطانًا على كل جسد، ليعطي حياة أبدية لكل من أعطيته، وهذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يوحنا ١٧/ ٢-٣)، فليس من إله على الحقيقة إلا واحد، وهو الله تعالى، سبحانه.

٤- ولما جرب الشيطان يسوع -عليه السلام- وقال له: «أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لي، حينئذ قال له يسوع: اذهب يا شيطان. لأنه مكتوب: للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد» (متى ٤/ ١٠، ومثله في لوقا ٤/ ٨).

٥- وقال المسيح -عليه السلام- لليهود: «أنتم تعملون أعمال أبيكم. فقالوا له: إننا لم نولد من زنى. لنا أب واحد، وهو الله. فقال لهم يسوع: لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني، لأني خرجت من قبل الله وأتيت؛ لأني لم آت من نفسي، بل ذاك أرسلني» (يوحنا ٨/ ٤١-٤٢).

والتوحيد معتقد تلاميذ المسيح وتلاميذهم، كما نقل عنهم ذلك العهد الجديد مرارًا.

٦- ومنه ما جاء على لسان التلميذ يعقوب: «أنت تؤمن أن الله واحد. حسنًا تفعل» (يعقوب ٢/ ١٩)، وأما القول بألوهية غير الله فليس من الحُسن في شيء.

٧- ويقول: «واحد هو واضع الناموس القادر أن يخلص ويهلك» (يعقوب ٤/ ١٢).

٨- ويقول يهوذا: «الإله الحكيم الوحيد مخلصنا» (يهوذا ٢٥).

٩- بل وحتى بولس نجد له بعض النصوص التي تعترف لله بالوحدانية، ومن ذلك قوله: «يوجد إله واحد ووسيط بين الله والناس: الإنسان يسوع المسيح» (تيموثاوس (١) ٢/ ٥) إله واحد، له رسول واحد يبلغ الله من خلاله وحيه وهديه، هذا الرسول هو الإنسان يسوع.

١٠- ويقول واصفًا الله بالوحدانية وغيرها من صفات الجلال والكمال: «المبارك العزيز الوحيد ملك الملوك ورب الأرباب، الذي وحده له عدم الموت، ساكنًا في نور، لا يدنى منه، الذي لم يره أحد من الناس، ولا يُقدر أن يراه، الذي له الكرامة والقدرة الأبدية» (تيموثاوس (١) ٦/ ١٥-١٦).

١١- ويقول: «لكن الله واحد» (غلاطية ٣/ ٢٠).

فهذه النصوص وكثير مثلها تتحدث عن الإله الواحد، وليس في واحد منها أو غيرها حديث عن الإله المتعدد الأقانيم المتوحد في الجوهر الذي يدعيه النصارى.

التثليث سر لا يطيقه العقل

وإزاء هذا التناقض بين قرارات المجامع المثلثة والنصوص الموحدة كان لا بد أن يعمل النصارى عقولهم على جمع هذه المتناقضات التي يستحيل تصورها معًا، وعلى تفهيم البشر قضية الثلاثة الذين هم واحد، والواحد الذي هو ثلاثة.

وأمام ضعف هذه العقيدة وعجز العقل البشري عن تصورها، بل رفضه لها لا يجد النصارى من سبيل إلا القول بأن تثليثهم سر من الأسرار التي لا يمكن للعقل أن يقف على كنهها، بل يعترف البعض منهم بتعارض المسيحيَّة والعقل فيقول القديس سان أوغسطين : «أنا مؤمن؛ لأن ذلك لا يتفق والعقل».

ويقول كير كجارد: «إن كل محاولة يراد بها جعل المسيحيَّة ديانة معقولة لا بد أن تؤدي إلى القضاء عليها».

و قد جاء في «التعليم المسيحي»: لا يجوز التدخل في أسرار الله؛ لأننا لا نستطيع إدراك أسرار الإيمان.

ويقول القس دي جروت في كتابه «التعاليم الكاثوليكيَّة»: «إن الثالوث الأقدس هو لغز بمعنى الكلمة، والعقل لا يستطيع أن يهضم وجود إله مثلث، ولكن هذا ما علمنا إياه الوحي».

ويقول زكي شنودة: «و هذا سر من أسرار اللاهوت الغامضة التي لا يمكن إدراك كنهها بالعقل البشري».

ويقول الأب جيمس تد: «العقيدة المسيحيَّة تعلو على فهم العقل».

ويقول القس أنيس شروش: «واحد في ثلاثة، وثلاثة في واحد، سر ليس عليكم أن تفهموه، بل عليكم أن تتقبلوه».

أما القس توفيق جيد في كتابه «سر الأزل» فإنه يجعل فهم سر التثليث من المستحيلات، التي لا طائل من محاولة فهمها، لأن «من يحاول إدراك سر الثالوث تمام الإدراك كمن يحاول وضع مياه المحيط كلها في كفة»[١].

ووراء هذه الحجب تختفي الحقيقة، وهي أن التثليث عقيدة يستحيل على العقل البشري فهمها، لا لضعف العقل البشري، بل لتناقضها مع أبسط المسلَّمات الفطرية والمعارف الإنسانية[٢].

---

(١) انظر: المسيح عليه السلام بين الحقائق والأوهام ص(١٣٩)، مناظرة العصر، أحمد ديدات، ص(١٠٥)، العقائد المسيحية بين القرآن والعقل ص(١٥٣)، دراسة عن التوراة والإنجيل، كامل سعفان، ص(٢٣٥)، مسيحية بلا مسيح ص(١٢٧).

(٢) انظر: الله واحد أو ثلاثة.

الفصل السابع

عقيدة التجسيد

يعتقد النصارى أن الله تجسد في المسيح، ويحتجون لذلك بقول يوحنا: «والكلمة صار جسدًا، وحل بيننا» (يوحنا ١/ ١٤).

ولفهم هذا النص نقرأ ما يقوله محققو الرهبانيَّة اليسوعيَّة تعليقًا على الحكمة المتجسدة المذكورة في (الأمثال ٨/ ٢٢): «إن فكرة الحكمة المجسدة، وهو مجرد فن أدبي في مثل (الأمثال ١٤/ ١)، قد تطورت في إسرائيل ابتداء من زمن الجلاء، حين لم يبق تعدد الآلهة مهددًا الدين القويم . . . ففي جميع هذه النصوص التي تجسد فيها الحكمة أو الكلمة أو الروح؛ يصعب علينا أن نميز بين ما هو فن شعري، وما هو تعبير عن مفاهيم دينية قديمة، وما هو شعور بوحي جديد».

وهكذا، فنص تجسد الكلمة يحتمل أن يكون مجرد استعارة فنية أدبية، لا تختلف عن تجسيد الحكمة، حين خرجت «الحكمة تنادي في الخارج، في الشوارع تعطي صوتها، تدعو في رءوس الأسواق» (الأمثال ١/ ٢٠-٢١)، ومثله تجسيد الجهل بامرأة صخابة خادعة (الأمثال ٩/ ١٣-١٨).

وقد تساءل المحققون -في هذا الصدد- عن سبب تجسد الابن دون الآب أو روح القدس؟ وتساءلوا لم كان التجسد الإلهي على صورة بشر؟ ما ضرورته؟ لماذا نزل الابن من عليائه ليدخل جوف امرأة ثم يخرج من فرجها؟ لم كان هذا كله؟ اجتهد رجال الكهنوت في الإجابة عن هذه الأسئلة، ولما لم يجدوا لها إجابة في ثنايا كتابهم أعملوا عقولهم، فصدرت عنهم أقوال مختلفة، كلٌّ بحسب ما أداه إليه عقله، إذ كما لم يجدوا في العهد الجديد ما يؤكد قول بولس بأن الإله قد تجسد، أيضًا لم يجدوا في هذه الأسفار تبريرًا له.

وقد انحصرت إجاباتهم في أقوال، أهمها:

أولها: أن هذا السر لا نفهمه، وينبغي أن نؤمن به.

ثانيها: أن التجسد كان لردم الهوة بين الله والبشرية وإيناسها برؤية الإله -كما سيمر معنا في كلام البابا أثناسيوس-.

ثالثها: أن التجسد كان طريقة لرد الناس لعبادة الله بعد أن عبدوا المخلوقات والمصنوعات، وتركوا الخالق وهجروا عبادته، فتجسد الله ليعبده الناس، يقول القديس أفرام: «إن الله رأى أننا (أي البشر) عبدنا المصنوعات، ولذلك لبس جسدًا مصنوعًا، ليقتنصنا به ونتعبد له».

رابعها: أن التجسد كان ضرورة للتوفيق بين عدل الله ورحمته، حيث اقتضى عدل الله موت البشرية وتسلط الموت عليها واقتضت رحمته حياتها، فكان المسيح كبش الفداء.

وفي ذلك يقول البابا أثناسيوس وهو أحد أهم رجال مجمع نيقية: «لهذا كان أمام كلمة الله أن يأتي بالإنسان الفاسد إلى عدم فساد، وفي نفس الوقت أن يؤمن مطالب الأب العادل المطالب به الجميع، وحيث إنه هو كلمة الأب ويفوق الكل، فكان هو وحده الذي يليق بطبيعته أن يجدد خلقه كل شيء وأن يتحمل الآلام عن الجميع لدى الآب لأجل ذلك نزل إلى عالمنا كلمة الله الخالي من الجسد، العديم الفساد وغير المادي وإذ لم يتحمل أن يرى الموت تصير له السيادة لئلا تفنى به الخليقة، وتذهب صنعة أبيه في البشر هباء، فقد أخذ لنفسه جسدًا لا يختلف عن جسدنا لأنه لو لم يكن الرب مخلص الجميع ابن الله قد جاء إلينا وحل بيننا ليوفي غاية الموت، لكان الجنس البشري قد هلك».

ثم ماذا بعد موت المسيح هل تغير حال البشر فلم يعد الموت متسلطًا عليهم؟

فيجيب أثناسيوس: «بحسد إبليس دخل الموت إلى العالم وعندما تم ذلك بدأ البشر يموتون، وصار عليهم من الفساد في ذلك الوقت فصاعدًا، وصار له سلطان على الجنس البشري أكثر من سلطانه الطبيعي؛ لأنه أتى نتيجة تهديد الله في حال العصيان».

لكنا لم نعرف ما هو السلطان الطبيعي للموت؟ ولا ندري ما الفرق بين موت الناس قبل المسيح وبعده كما يحق لنا أن نتساءل هنا عن سر تسلط الموت على غيرنا كأنواع الحيوانات المختلفة.

كما يذكر أثناسيوس سببًا آخر للتجسد -وهو الإيناس الذي ذكرناه قبلُ- فيقول: «عندما خلق الله الضابط للكل الجنس البشري بكلمته، ورأى ضعف طبيعتهم، وأنها لا تستطيع من نفسها أن تعرف خالقها، أو أن تكون فكرة عن الله على الإطلاق لهذا تحنن الله على الجنس البشري على قدر صلاحه ولم يتركهم خالين من معرفته، لئلا يروا أن لا منفعة على الإطلاق من وجودهم في الحياة».

لقد كان الهدف من التجسد إذًا أن تأنس البشرية برؤية ومعرفة ربها وأن تنهدم الهوة الواسعة بين الخالق والمخلوق، وهو ما عبر عنه سنوت في كتابه «المسيحيَّة الأصليَّة» حيث يقول: «توجد فقط هوة واسعة لا حد لها ولو لم يكن الله بادر وتدراك الأمر لبقيت الحالة على ما هي عليه، ولظل الإنسان بلا رجاء يتخبط في دياجير اللا إرادية، ولكن الله تكلم، ولقد بادر وأعلن عن نفسه».

وهنا يتساءل الدكتور عبد الكريم الخطيب: كيف كانت صلة الأنبياء بربهم مع هذه الهوة؟ هل عرفوا ربهم المعرفة التي تدفعهم لعبادته وطاعته؟ أم كان إيمانهم باهتًا؟ وماذا تغير في حياة البشرية بعد تجسد الإله؟ هل آمن الناس وعرفوا ربهم؟ وهل زال الإلحاد من البشرية؟ ثم أين الإيناس للبشرية في رؤيتها للرب وهو يصفع ويضرب ويجلد. إن هذا من شأنه أن يقلل من مقام الألوهية عندهم، فالنفس البشرية طلعة تتوقد أشواقها إلى المجهول، وتتحرك نزعاتها إلى عالم الغيب، فإذا انكشف لهم المجهول أو ظهر لهم ما وراء الغيب سكنت نزعاتها وبردت أشواقها نحو هذا الشيء الذي كانت تسعى إليه وتجدُّ في البحث عنه.

ثم ماذا عن باقي أجيال البشرية التي لم تأنس بمعرفة هذا المتجسد. هل من العدل أن تحرم منه؟ وكيف لها أن تعرف ربها ولِمَ تراه ؟!

ثم لِمَ كان أنسنا بالإله حال طفولته وشبابه فقط، ولم نأنس به أيضًا حال كهولته وهرمه. فلماذا؟!

وهكذا يرفض المسلمون هذه التبريرات المتهافتة التي تسيء إلى عظمة الله، وتجعله عاجزًا عن العفو والغفران، حائرًا بين عدله ورحمته، ومثل هذا لا يقع به الحكماء من الناس فضلًا عن رب العالمين، أو تظهره عاجزًا عن هداية خلقه إلى عبادته إلا بموافقتهم على ما ألفوه من صور الشرك.[1].

ويرى شارل جنيبر ضعف هذه التبريرات، ويقرر أن بولس هو الذي قرر تجسد الإله، ويوضح الأسباب التي دعته لذلك، لقد ابتكر عقيدة التجسد بعد أن أدرك «أن الأتباع الجدد من المشركين لم يكونوا ليتقبلوا كل القبول فضيحة الصلب، وأنه يجب تفسير ميتة عيسى المشينة -والتي لم يكف الأعداء بطبيعة الحال عن الرجوع إليها- تفسيرًا مرضيًّا، يجعل منها واقعة ذات مغزى ديني عميق.

وأعمل الحواري (بولس) فكره في هذه المشكلة ووضع حلًّا كان له صدى بالغ المدى قد تجاهل فكرة عيسى الناصري التي أغرم بها الاثنا عشر، ولم يتجه إلا إلى عيسى المصلوب، فتصوره شخصية إلهية تسبق العالم نفسه في الوجود، وتمثل نوعًا من التشخيص وقد عثر الحواري على العناصر الجوهرية في الأسرار، عثر عليها في غالب الظن دون أن يبحث عنها»[2].

لكن حرجًا آخر واجهه بولس وهو يضع لَمَساتِه النهائية على الإله المتجسد المصلوب، وهو كيف يقول بنهاية حياة المسيح على الصليب، والتوراة تنص على لعن كل مصلوب. (انظر التثنية ٢١/ ٢٣)، فهذا يزري بالمسيح ويجعله ملعونًا حسب شرائع اليهود.

لحل هذه القاصمة، رأى بولس أن يجعل من الملعون مثلًا أعلى في التضحية، وأن يجعل منه إلهًا نزل وتجسد ليفدي البشرية من خطاياها، فصار لعنة ليفتديهم من لعنة الناموس، وكما قال بولس: «ولكن الله من محبته لنا؛ لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا، فبالأولى كثيرًا ونحن متبررون الآن بدمه، نخلص به من الغضب، إنه وإن كنا ونحن أعداء قد صولحنا مع الله بموت ابنه...» (رومية ٥/ ٨-١٠)، لقد صار لعنة؛ لأنه حررنا من لعنة الناموس![3].

وأخيرًا، فإن هذا الذي تقوله النصارى في الرب جل وعلا من تعدد وتجسد نوع من العبث الإنساني وجرأة صارخة على مقام الرب جل وعلا وتطاول مستغرب، فإن المثَال كما يقول الأستاذ

(١) انظر: المسيح في القرآن والتوراة والإنجيل، عبد الكريم الخطيب، ص(١٣٠- ١٣٢، ١٥٨-١٧٠).
(٢) انظر: المسيحية، نشأتها وتطورها، ص(١٣٤).
(٣) يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء ص(٢٦٥).

المهتدي محمد مجدي مرجان «حين يصنع تمثالًا فإنه يستطيع أن يهدمه، ولا يتصور أحد أن يدعي التمثال أنه من جِبلة صانعه، أو أنه جزء أو عنصر من هذا الصانع.

ولكن الإنسان الضعيف -أحد مخلوقات الله- تطاول على صانعه، ثم أخذه الغي، ولعبت برأسه نشوة الضلال، فقلب الوضع وعكس الآية، فقام بإعادة تكوين وتشكيل صانعه، ثم راح يعيد تقسيم خالقه إلى أقسام ثلاثة ابتدعها خياله، جاعلًا كل قسم منها إلهًا قائمًا بذاته، محولًا الإله الواحد إلى ثلاثة ثم قام بتقسيم الأعمال والأعباء والوظائف بين آلهته الثلاثة التي صنعها عطفًا وإشفاقًا من أن يتحمل كل تلك الأعمال والأعباء والوظائف إله واحد. حقًّا ما أشقى الإنسان»[(١)].

والحق أن فكرة التجسد النصرانيَّة كانت أحد أهم أسباب انتشار الإلحاد بين المسيحين، فإن الإنسان يميل بفطرته وعقله إلى تعظيم الخالق وتنزيهه عن الشبيه والمثيل، فيما تجعله النصرانيَّة إنسانًا خرج من فرج امرأة من بني إسرائيل

يقول كيرانس ايرسولد: "أما من وجهة نظر العلم فإنني لا أستطيع أن أتصور الله تصورًا ماديًا، بحيث تستطيع أن تدركه الأبصار أو أن يحل في مكان. . .»[(٢)].

وعندئذ يخيَّر الناس بين المعتقد الخاطئ والفطرة الصحيحة المؤيدة بسلطان العقل، فلا يجد كثير منهم مفرًّا من الكفر بإله الكنيسة المصفوع والمصلوب، فيكثر الإلحاد. تعالى الله عما يقول هؤلاء علوًّا كبيرًا.

ومن الآثار السيئة التي تتركها عقيدة التجسد إضعاف المُثل والقيم التي جاء بها المسيح ودعا إليها، ثم كان بسبقهم إليها قدوة صالحة لأتباعه، لكن أثر هذا الخلق يضيع مع القول بالألوهية، إذ لن يتصور البشر إمكانية تطبيق هذه المُثُل التي سبقهم إليها إله.

هذا ما يراه كُتاب دائرة المعارف الأمريكيَّة في قولهم: «لو كان إلهًا فإن المُثل التي ضربها لنا بعيشته الفاضلة يفقد كل ذرة من القيمة، حيث إنه يمتلك قوى لا نملكها. إن الإنسان لا يستطيع تقليد الإله».

ويقول توماس أكمبسفي كتابه «على خُطَى المسيح»: «إذا كان المسيح إلهًا فإن المرء لا يستطيع اقتفاء أثره والسير على منهجه».

هل المسيح هو الله؟

وقد اهتم المحققون بمناقشة الطبيعة الواحدة للمسيح والتي تقول بها الكنيسة الأرثوذكسيَّة المصريَّة (المرقسية).

وفي بيان معتقد الكنيسة المصريَّة يقول حبيب جرجس عميد الكلية الإكليريكية بمصر موضحًا

---

(١) الله واحد أم ثالوث ص(١٢٥).

(٢) طائفة الموحدين من المسيحين عبر القرون، أحمد عبد الوهاب، ص(٣٨-٣٩، ٤٥).

عقيدة الأرثوذكس الشرقيين في مسألة الطبيعة الواحدة: «إن فادينا العظيم قد تنزل عن سماء مجده، وقبل أن يتحد بالإنسان باتخاذه جسدًا حقيقيًا بنفس عاقلة ناطقة، فحبل به بقوة الروح القدس واتحادهما بدون اختلاط ولا امتزاج، يصيران شخصًا واحدًا، ذا طبيعة واحدة صار المسيح ذاتًا واحدة جوهرًا واحدًا طبيعة واحدة، مشيئة واحدة».

ويعجب المسلمون كيف جعل أتباع هذا المذهب الله بشرًا؟ فالقديم الأزلي لا يصير محدثًا، ولا يجري عليه ما يجري على البشر من عوارض كالنوم والنسيان والأكل والشرب وكونه يرى

لكن النصوص المقدَّسة تثبت أن المسيح ليس الله، فثمة مفارقات واضحة بينهما، فالمسيح بشر، أصابته العوارض التي تصيب سائر البشر، وهي عوارض تنزه النصوص التوراتية، بل والإنجيلية الله عز وجل عنها.

فالمسيح -عليه السلام- مولود امرأة، وهيهات لمولود المرأة، ابن آدم الدود، أن يكون إلهًا، فقد جاء في التوراة «فكيف يتبرر الإنسان عند الله؟ وكيف يزكو مولود المرأة. هوذا نفس القمر لا يضيء، والكواكب غير نقية في عينيه. فكم بالحري الإنسان الرمّة وابن آدم الدود!» (أيوب ٢٥/ ٤-٥).

والمسيح إنسان، وهو ابن الإنسان «وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله» (يوحنا ٨/ ٤٠)، بينما الله «ليس الله إنسانًا فيكذب، ولا ابن إنسان فيندم» (العدد ٢٣/ ٩)

والمسيح نام في السفينة. (انظر مرقس ٤/ ٣٥-٣٨)، أما الله فهو «لا ينعس ولا ينام حافظ إسرائيل» (المزمور ١٢١/ ٤).

والمسيح -عليه السلام- كان جسدًا مرئيًا، والله لا يرى «الذي لم يره أحد من الناس، ولا يقدر أن يراه الذي له الكرامة والقدرة الأبدية» (تيموثاوس (١) ٦/ ١٦). وهو ما يقوله يوحنا: «الله لم يره أحد قط» (يوحنا ١/ ١٨).

يمضي يوحنا فيقول: «الله روح» (يوحنا ٤/ ٢٤)، أي ليس جسمًا محسوسًا، في حين كان المسيح جسمًا محسوسًا باللمس، والمسيح عن نفسه يقول: «انظروا يديَّ ورجليَّ، إني أنا هو، جسوني وانظروا، فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لي. وحين قال هذا، أراهم يديه ورجليه» (لوقا ٢٤/ ٣٧-٤١).

بل لا تقدر الأجسام أن ترى الله، ومن رآه يموت. (انظر الخروج ١٠/ ٢٨) فكيف يزعم الزاعمون بأن البشر رأوه؟

والمسيح -عليه السلام- كان صوته مسموعًا، أما الآب فالأسفار تخبر أن أحدًا لم يسمع صوته، ولم يره «والآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي. لم تسمعوا صوته قط ولا أبصرتم هيئته» (يوحنا ٥/ ٣٧).

وكيف يقول النصارى: إن جسدًا بشريًا قد اكتنفه في بطنه إلى حين ولادته، والله يستحيل عليه

ذلك، كما تخبرنا التوراة الكاثوليكيَّة حين تقول: «فقال الرب: لا تحل روحي على إنسان أبدًا، لأنه جسد» (التكوين ٦/ ٣)، فروح الله التي هي صفته لا تحل في الأجساد، فضلًا عن حلول ذاته العلية؛ لأن «العلي لا يسكن في هياكل مصنوعات الأيادي» (أعمال ٧/ ٤٨).

ومن المحال أن يكتنفه جسد أرضي مهما عظم، فالسموات والأرض لا تسعه «هل يسكن الله حقًّا على الأرض؟ هوذا السموات وسماء السموات لا تسعك، فكم بالأقل هذا البيت الذي بنيت» (الملوك (١) ٨/ ٢٧).

والمسيح صلب -كما ذكرت الأناجيل- ومات، والله عن نفسه يقول: «حي أنا إلى الأبد» (التثنية ٣٢/ ٤٠)، ويقول: «أقسم بالحي إلى أبد الآبدين» (الرؤيا ١٠/ ٦)، وهو «الذي وحده له عدم الموت ساكنًا في نور، لا يدنى» (تيموثاوس (١) ٦/ ١٦).

كما أفادت نصوص أخرى عجزًا للمسيح -عليه السلام- وقعودًا عن مرتبة الألوهية، فدل ذلك على أنه ليس الله، فقد جهل موعد الساعة «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد، ولا ملائكة السموات، إلا أبي وحده» (متى ٢٤/ ٣٦).

وقال عن نفسه: «أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئًا» (يوحنا ٥/ ٣٠).

لذا عجز أن يعد ابني زبدي بالملكوت (انظر متى ٢٠/ ٢٣)، ولما سماه أحدهم صالحًا قال: «لِمَ تدعوني صالحًا؟ ليس أحد صالحًا إلا واحد، وهو الله» (لوقا ١٨/ ١٨-٢٠).

وذكر بولس أن للمسيح شركاء «من أجل ذلك مسحك الله بزيت الابتهاج أكثر من شركائك» (عبرانيين ١/ ٨-١٠). فهل هؤلاء شركاء له حتى في الألوهية؟

كما ثمة نصوص أفادت بأن المسيح -عليه السلام- عَبَدَ إلهًا غيرَه، وهو الله، يقول لوقا: «وفي تلك الأيام خرج إلى الجبل ليصلِّي، وقضى الليل كله في الصلاة لله» (لوقا ٦/ ١٢)، وقد ذكر الإنجيليون أنه صرخ إلى ربه مستغيثًا وناداه وهو على الصليب: «إلهي إلهي لماذا تركتني» (متى ٢٧/ ٤٦).

وقال للتلاميذ عن الله: «أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم» (يوحنا ٢٠/ ١٧).

كما كان المسيح -عليه السلام- يعبد ربه ويصلي له، ومن ذلك صلاته ليلة أن جاء الجند للقبض عليه. (انظر متى ٢٦/ ٣٩)، فإذا كان هو الله فلمن كان يصلي؟ هل الله يصلي لله؟ وهل الله يدعو الله؟ ثم هل يستجيب الله لدعاء الله؟!

وقال للشيطان لما طلبه أن يسجد له: «مكتوب: للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد» (متى ٤/ ١٠)، فهل كان يتحدث عن نفسه؟

كما تثبت النصوص تغايرًا بين المسيح -عليه السلام- والله، وتذكر عشرات النصوص أن المسيح مرسل من الله والمرسَل غير المرسِل، منها «الكلام الذي تسمعونه ليس لي، بل للآب الذي

أرسلني» (يوحنا ١٤/ ٢٤)، ويقول المسيح -عليه السلام- أخرى: «أرسلتني إلى العالم ليؤمن العالم أنك أرسلتني » (يوحنا ١٧/ ٢١-٢٤)، وفي رسالة يوحنا: «الله قد أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به» (يوحنا (١) ٤/ ٩).

وأكد يوحنا المغايرة بين الآب والابن، وأنهما ليسا واحدًا في قوله على لسان المسيح : «لم أتكلم من نفسي، لكن الأب الذي أرسلني، هو أعطاني وصية ماذا أقول، وبماذا أتكلم» (يوحنا ١٢/ ٤٩)، فإذا كان الابن مساويًا للآب في كل شيء أو هو الآب نفسه، فلم كان الابن لا يتكلم من تلقاء نفسه، بل لا بد له من موافقة الآب الذي أرسله وأعطاه وأوصاه بالكلام الذي ينبغي أن يقوله.

ومن النصوص التي أفادت المغايرة قول بولس عن المسيح: «الذي أقامه من الأموات» (كولوسي ٢/ ١٢)، فالقائم من الموت غير الذي أقامه.

ويقول بولس: «نشكر الله أبا ربنا يسوع المسيح» (كولوسي ١/ ٣)، فالأب ليس الابن، بل أبوه.

ويقول المسيح: «كما أحبني الأب» (يوحنا ١٥/ ٩)، ويقول: «ليفهم العالم أني أحب الآب وكما أوصاني الآب» (يوحنا ١٤/ ٣١)، فالمحب غير المحبوب، والموصي غير الموصى.

ويقول: «ما سمعته من أبي» (يوحنا ١/ ١٥)، فالسامع ليس القائل.

ويؤكد الفرق بينه وبين الله، فيقول: «أبغضوني أنا وأبي» (يوحنا ١٥/ ٢٤).

ومما يفيد أيضًا المغايرة بين الأقانيم الثلاثة قول بطرس: «يسوع الذي من الناصرة كيف مسحه الله بالروح القدس والقوة الذي جال يصنع خيرًا» (أعمال ١٠/ ٣٨)، فالله مسح عيسى بالروح القدس، فهم ثلاث شخصيات متمايزة منفصلة.

وجاءت نصوص تقول بأن المسيح -عليه السلام- بعد القيامة «ارتفع وجلس عن يمين الله» (مرقس ١٦/ ١٩). ويقول بولس: «المسيح جالس عن يمين الله» (كولوسي ٣/ ١)، فالذي عن اليمين غير للذي عن شماله.

وقد قال لمريم المجدلية: «وقولي لهم: إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم» (يوحنا ٢٠/ ١٧)، فالصاعد غير الذي يصعد إليه.

كما أن هذه الغيرية تنطوي على عدم تساوٍ بين الله والمسيح، فقد قال المسيح: «أبي أعظم مني» (يوحنا ١٤/ ٢٨)، وقال: «أبي الذي أعطاني إياها هو أعظم من الكل» (يوحنا ١٠/ ٢٩)، وقال: «الحق الحق أقول لكم: إنه ليس عبد أعظم من سيده، ولا رسول أعظم من مرسله» (يوحنا ١٣/ ٢٦)، وقال: «الحق أقول لكم، لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئًا إلا ما ينظر الآب يعمل» (يوحنا ٥/ ١٩).

وأكد بولس خضوع المسيح في النهاية لله فقال: «ومتى أخضع له الكل، فحينئذ الابن نفسه أيضًا سيخضع للذي أخضع له الكل، (أي لله) كي يكون الله الكل في الكل» (كورنثوس (١) ١٥/ ٢٨)، فهو ولا شك دون الآب، خاضع له، وليس هو الآب، فهل هذان أقنومان متساويان أم شخصان متغايران؟

كما يتغاير الابن عن روح القدس، ولا يتساويان، لذا يقول المسيح: «ومن قال كلمة عن ابن الإنسان يغفر له، وأما من قال عن روح القدس فلن يغفر له، لا في هذا العالم، ولا في العالم الآتي» (متى ١٢/ ٣٢).

فدل النص على أن روح القدس أفضل من المسيح، وهو أيضًا مخالف لترتيب صيغة التثليث التي تقدم المسيح على الروح القدس.

ومما يؤكد المغايرة بين هذه الأقانيم وعدم تساويها تحريم الكنيسة تغيير ترتيب الثالوث كالقول باسم الروح القدس والابن والآب، إذ يعتبر هذا القول هرطقة، وقد كان قولًا شائعًا في أوربا في العصور الوسطى، وقد حاربته الكنيسة حتى اندثر؟ فمنع هذه الصيغة دال على عدم التساوي، والأمر بالمحافظة على الترتيب المشهور مشعر بأهمية بعض الأقانيم على بعض.

ويؤكد ذلك أيضًا رفض الكنيسة للقول بأن الابن أو الكلمة هو من حل على مريم وأحبلها المسيح، إذ يقول متى: «وجدت حبلى من الروح القدس» (متى ١/ ١٨)، ولئن كان الابن هو الروح القدس، وهما جوهر واحد، فعليه يصح قولنا بأن مريم وجدت حبلى من الابن أو الآب، وهو ما لا تقبله كنائس النصرانيَّة المختلفة.

وأخيرًا: الله ليس له شبيه ولا نظير، لا في السماء ولا في الأرض، لا المسيح ولا غيره «قال: أيها الرب إله إسرائيل، لا إله مثلك في السماء والأرض» (الأيام (٢) ٦/ ١٤)، وقال: «لأنه مَن في السماء يعادل الرب؟ من يشبه الرب بين أبناء الله؟» (المزامير ٨٩/ ٦)[١].

---

(١) انظر: الله واحد أو ثلاثة.

الفصل الثامن

عقيدة الصلب

النصارى يقولون بصلب المسيح، بينما يقول المسلمون بأنه لم يصلب، وأنه قد شُبه غيرُ المسيح به، ولا ينفون وقوع صلب لغيره.

إن النصارى يرون أن تجسد الإله في المسيح، هذا الحدث العظيم، إنما كان من أجل أن يصلب الإله، ويقول جوردن مولتمان في كتابه «الإله المصلوب»: (إن وفاة عيسى على الصليب هي عصب كل العقيدة المسيحيَّة، إن كل النظريات المسيحيَّة عن الله، وعن الخليقة، وعن الخطيئة، وعن الموت، تستمد محورها من المسيح المصلوب».

وهذا ما أكد عليه بولس حين ألغى دور الناموس معتمدًا على أن المسيح صلب مكفرًا بصلبه الخطيئة، فافتدانا بذلك من لعنة الناموس، فيقول: «وإن لم يكن المسيح قد قام، فباطل كرازتنا، وباطل أيضًا إيمانكم» (كورنثوس (١) ١٥/ ١٤).

ويتصور مركيون تلميذ بولس محاكمة من المسيح لخالق العالم ورب السموات والأرض، فيقول: «نزل يسوع إلى رب المخلوقات في هيئة لاهوته، ودخل معه في قصاص بسبب موته على الصليب قتلًا . . . قال له يسوع: إن الدينونة بيني وبينك، لا تدع أي شخص آخر يكون قاضيًا، إنما شرائعك ذاتها تقضي لي . . . ألم تكتب في ناموسك أن من قتل يقتل؟

وعندئذٍ أجاب (إله المخلوقات): لقد كتبت هذا . . . قال له يسوع: سلم نفسك إذًا ليدي . . . قال خالق العالم: لأني قد ذبحتك، فإني أعطيك عوضًا، كل أولئك الذين يؤمنون بك، تستطيع أن تفعل بهم ما يرضيك.

عندئذٍ تركه يسوع، وحمل بولس بعيدًا، وأراه الثمن، وأرسله ليكرز بأننا اشتُرينا بهذا الثمن، وأن كل من يؤمن بيسوع قد بيعوا عن طريق هذا الإله العادل إلى الإله الطيب»[١].

فهذا الشطط في المعتقد إفراز طبيعي متجدد. يسببه تناقض العدل والرحمة، والقول بنجاة المسيح من القتل يضع الأمور في ميزانها الصحيح، فتعبد البشرية ربها، وهي موقنة بأنها تعبد الرب العفُوّ الرحيم.

إبطال صلب المسيح

وسوف نتكلم عن إبطال صلب المسيح من خلال النقاط الآتية:

---

(١) المسيح في مصادر العقائد المسيحية ص(٢٧٩ - ٢٨٠)، نقلًا عن أدولف هنكر في كتابه تاريخ العقيدة.

أولًا: نقد الروايات الإنجيلية لحادثة الصلب.

١- إن شهود إثبات حادثة الصلب وهي الأناجيل الأربعة مطعون فيها، فإن اثنين من الشهود الأربعة لم يروا المسيح، ولم يكونوا من تلاميذه، فكيف يعتبرون شهودًا؟ وهم مرقس ولوقا.

٢- أن شهود الإثبات جميعًا لم يحضروا الواقعة التي يشهدون فيها، كما قال مرقس: «فتركه الجميع وهربوا» (مرقس ١٤/ ٥٠)، ومثل هذه القضية لو عرضت على أي محكمة متحضرة لسارعت إلى رد شهادة هؤلاء الشهود في أقل من دقيقتين.

٣- ثم هذه الشهادة مسجلة على أكثر من خمسة آلاف مخطوط يتفاخر بكثرتها النصارى، ولا يوجد منها مخطوطتان متطابقتان، ثم لو تطابقت جميعها، فإن أيًا منها لم يسجَّل بخط مؤلفه، وإن نُسب إليه.

يقول اينوك باول في كتابه «تطور الأناجيل»: قصة صلب الرومان للمسيح لم تكن موجودة في النص الأصلي للأناجيل. وقد استند في ذلك على إعادته ترجمة نسخة متى اليونانيَّة، فتبين له أن هناك أجزاء وردت مكررة في هذا الإنجيل، مما يوحي بأنه أعيدت كتابتها في مرحلة تالية[1].

٤- ومن التغيرات التي لاحظها علماء الغرب في مخطوطات الكتاب وهي تتحدث عن الصلب أنه قد تمت إضافة أجزاء للقصة حسب رؤية النساخ وتقديرهم، فقد جاء في مرقس: «وفي اليوم الأول من الفطير، حين كانوا يذبحون الفصح، قال له تلاميذه: أين تريد أن نمضي ونعد لتأكل الفصح؟ فأرسل اثنين من تلاميذه، وقال لهما: اذهبا إلى المدينة، فيلاقيكما إنسان حامل جرة ماء اتبعاه...» (مرقس ١٤/ ١٢ - ١٦).

يقول دنيس نينهام مفسر مرقس: «إن أغلب المفسرين يعتقدون أن هذه الفقرات أضيفت فيما بعد لرواية مرقس». وقد استندوا لأمرين: أولهما: أنه وصف اليوم الذي قيلت فيه القصة بأسلوب لا يستخدمه يهودي معاصر للمسيح. والثاني: أن كاتب العدد ١٧ «ولما كان المساء جاء مع الاثني عشر» (مرقس ١٤/ ١٧) يتحدث عن جلوس المسيح مع تلاميذه الاثني عشر، وهو لا يعلم شيئًا عن رحلة اثنين منهم لإعداد الفصح.

٥-ومن التلاعب الذي تعرضت له أيضًا نسخ الأناجيل: ما ذكره جورج كيرد شارح إنجيل لوقا، فقد جاء في لوقا أن المسيح قال على الصليب: «يا أبتاه اغفر لهم؛ لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون» (لوقا ٢٣/ ٣٣ - ٣٤)، ولم يذكرها غيره من الإنجيليين، كما أغفلتها بعض المخطوطات الهامة للوقا، يقول كيرد: «لقد قيل إن هذه الصلاة ربما تكون قد محيت من إحدى النسخ الأولى للإنجيل بواسطة أحد كتبة القرن الثاني، الذي ظن أنه شيء لا يمكن تصديقه أن يغفر الله لليهود،

---

(١) انظر: مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء، أحمد ديدات، ص(١٨ - ٢٠)، مخطوطات البحر الميت، أحمد عثمان، ص(١٣٩ - ١٤٤).

وبملاحظة ما حدث من تدمير مزدوج لأورشليم في عامي ٧٠م و ١٣٥م صار من المؤكد أن الله لم يغفر لهم»[(١)].

٦- تناقض واختلاف روايات الأناجيل الأربعة في حادثة الصلب والقيامة على وجه لا يمكن الجمع بينها، ولا جواب عنها إلا التسليم بكذب بعض هذه الروايات، أو تكذيب رواية متى في مسألة، وتكذيب مرقس في أخرى، وكذا لوقا ويوحنا.

وقد تقدم بيان ذلك عند الكلام عن كتابهم المقدس.

٧- وينفرد أحد الإنجيليين بذكر حوادث قد تكون مهمة، ومع ذلك أغفلها الآخرون، وقد يتبادر للذهن لأول وهلة أن ذلك يرجع لنظرية تكامل الروايات التي لا تعتبر زيادات البعض في روايتهم ضربًا من التناقض والتعارض.

وهذا ليس بصحيح، إذ معرفتنا البسيطة بتدوين الإنجيل وتاريخه تُنبئنا بأن الإنجيليين اعتمد اللاحق فيهم على السابق، فإغفال اللاحق لبعض ما ذكره سلفه، إنما يرجع لتشككه في جدوى الرواية، أو صحتها، أو تناسقها مع المعتقد، وهو ما يقال أيضًا في الإضافة التي قرر المتأخر زيادتها عن السابق.

ولعل مما يوضح الصورة ويجليها نقل مقدمة لوقا الذي يقول: «رأيت أنا أيضًا إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق. . . لتعرف صحة الكلام الذي عُلِّمتَ به» (لوقا ١/ ٣- ٤)، فهو ينقل عن السابقين له بتدقيق وإمعان في رواياتهم، وما يدعه من مروياتهم إنما تركه لعدم وثوقه بهذه الروايات.

وقد انفرد بعض الإنجيليين بذكر أحداث مهمة تثير أسئلة استفهام كبيرة، تبحث عن إجابة.

٨- وعند التأمل في الروايات الإنجيلية في جزئيات كثيرة اجتمع عليها الإنجيليون -أو بعضهم- نجد أن في الروايات خللًا وحلقات مفقودة لا يمكن تجاوزها، علاوة على ما في الروايات من تهافت في المعنى.

وفي كثير من هذه الملاحظات لا يمكن للنصارى الخروج منها، إلا بالتسليم بأن المصلوب ليس المسيح، أو بالتسليم بأن الروايات بشرية الوضع، غير محبوكة الصنعة.

منها: دور يهوذا في خيانة المسيح (يوحنا ١٣/ ٢٦ - ٢٧)، وعدم ذكر الأناجيل شيء عن موته سوى متى (متى ٢٧/ ٣-٧، وقارن مع أعمال ١/ ١٨)، وتناقض الروايتين وسكوت بقية الأناجيل يرجع لاختفاء يهوذا عن مسرح الأحداث في تلك الليلة التي قبض عليه فيها بدل المسيح.

وكيف جهل رؤساء الكهنة شخص المسيح حتى احتاجوا إلى من يدلهم عليه مقابل ثلاثين من الفضة؛ كيف ذلك وهو الذي كان في الهيكل يعلم كل يوم. (انظر: لوقا ٢٢/ ٥٢).

---

(١) انظر: المسيح في مصادر العقائد المسيحية ص(١٣٣ - ١٣٦).

ثم إن بطرس الذي يحتل في المسيحيَّة مكانًا بارزًا، وجعلت الأناجيل بيده مفاتيح السموات والأرض أنكر المسيح في تلك الليلة ثلاث مرات، وأضاف إلى الإنكار حَلفًا -المنهي عنه عندهم- ولعنًا، لم تجرؤ أقلام الإنجيليين على بيان ذاك الذي لعنه بطرس، لكن لا يحتاج القارئ إلى كثير فطنة ليدرك أنه كان يلعن المقبوض عليه، ويبرأ منه ومن معرفته، فهل كان يلعن سيده المسيح أم المصلوب الخائن؟

ولا يمكن أن يصدر هذا الحلف واللعن من بطرس، فلا يمكن أن يهون عليه نبيه ومعلمه إلى هذا الحد، ولو فعل ذلك لما كان مستحقًّا لاسم الإيمان، فضلًا عن المعجزات والخصائص المذكورة له في الأناجيل، وعليه فإن بطرس كان صادقًا محقًّا في حلفه ولعنه، إذ الملعون هو المصلوب، وهو ليس المسيح، بل غيره، وهو مستحق للإنكار واللعن.

ويذكر الإنجيليون قيامة المسيح بعد الموت، وهذه أحد أكثر موضوعات الأناجيل إثارة، لما في رواياتها من تناقض وتنافر. فلِمَ ظهر المسيح لتلاميذه ولم يظهر لأعدائه؟ فهذا أظهر لحجته، وأدعى للإيمان به، كما نتساءل عن موقف الكهنة وقد علموا من الحراس بخروج المسيح من القبر، كيف سكتوا عن ذلك، إن الأناجيل لا تذكر أنهم حركوا ساكنًا، وكأن الأمر لا يعنيهم.

ثانيًا: إبطال وقوع صلب المسيح بالدليل التاريخي.

١- إن قدماء النصارى كثر منهم منكرو صلب المسيح، وقد ذكر المؤرخون النصارى أسماء فرق مسيحية كثيرة أنكرت الصلب.

وهذه الفرق هي: الباسيليديون، والكورنثيون، والكاربوكرايتون، والساطرينوسية، والماركيونية، والبارديسيانية، والسيرنثيون، والبارسكاليونية، والبولسية والماينسية، والتايتانيسيون، والدوسيتية، والمارسيونية، والفلنطانيائية، والهرمسيون.

وبعض هذه الفرق قريبة العهد بالمسيح، إذ يرجع بعضها للقرن الميلادي الأول ففي كتابه «الهرطقات مع دحضها» ذكر القديس الفونسو ماريا دي ليكوري أن من بدع القرن الأول قول فلوري: إن المسيح قوة غير هيولية، وكان يتشح ما شاء من الهيئات، ولذا لما أراد اليهود صلبه؛ أخذ صورة سمعان القروي، وأعطاه صورته، فصلب سمعان، بينما كان يسوع يسخر باليهود، ثم عاد غير منظور، وصعد إلى السماء.

ويبدو أن هذا القول استمر في القرن الثاني، حيث يقول المفسر جون فنتون شارح متى: «إن إحدى الطوائف الغنوسطية التي عاشت في القرن الثاني قالت بأن سمعان القيرواني قد صلب بدلًا من يسوع»[١].

---

(١) انظر: أقانيم النصارى ص(٧٥)، المسيح في مصادر العقائد المسيحية ص(٢٧٣، ٢٧٤).

وقد استمر إنكار صلب المسيح، فكان من المنكرين الراهب تيودورس (٥٦٠م) والأسقف يوحنا ابن حاكم قبرص (٦١٠م) وغيرهم.

ولعل أهم هذه الفرق المنكرة لصلب المسيح الباسيليديون؛ الذين نقل عنهم سيوس في «عقيدة المسلمين في بعض مسائل النصرانيَّة» والمفسر جورج سايل القول بنجاة المسيح، وأن المصلوب هو سمعان القيرواني، وسماه بعضهم سيمون السيرناي، ولعل الاسمين لواحد.

وهذه الفرقة كانت تقول أيضًا ببشرية المسيح، يقول باسيليوس الباسليدي: «إن نفس حادثة القيامة المدعى بها بعد الصلب الموهوم هي من ضمن البراهين الدالة على عدم حصول الصلب على ذات المسيح».

ويقول جورج سايل: إن السيرنثين والكربوكراتيين، وهما من أقدم فرق النصارى، قالوا: إن المسيح نفسه لم يصلب ولم يقتل، وإنما صلب واحد من تلاميذه، يشبهه شبهًا تامًّا، وهناك الباسيليديون يعتقدون أن شخصًا آخر صلب بدلًا من المسيح.

وثمة فِرق نصرانية قالت بأن المسيح نجا من الصلب، وأنه رفع إلى السماء، ومنهم الروسيتية والمرسيونية والفلنطنيائية. وهذه الفرق الثلاث تعتقد ألوهية المسيح، ويرون القول بصلب المسيح وإهانته لا يلائم البنوة والإلهية.

كما تناقل علماء النصارى ومحققوهم إنكار صلب المسيح في كتبهم، وأهم من قال بذلك الحواري برنابا في إنجيله.

ويقول ارنست دي بوش الألماني في كتابه «الإسلام: أي النصرانيَّة الحقة» ما معناه: إن جميع ما يختص بمسائل الصلب والفداء هو من مبتكرات ومخترعات بولس، ومن شابهه من الذين لم يروا المسيح، لا في أصول النصرانيَّة الأصليَّة.

ويقول ملمن في كتابه «تاريخ الديانة النصرانيَّة»: «إن تنفيذ الحكم كان وقت الغلس، وإسدال ثوب الظلام، فيستنتج من ذلك إمكان استبدال المسيح بأحد المجرمين الذين كانوا في سجون القدس منتظرين تنفيذ حكم القتل عليهم كما اعتقد بعض الطوائف، وصدقهم القرآن»[(١)].

ومن المنكرين أيضًا صاحب كتاب «الدم المقدس، وكأس المسيح المقدس» فقد ذكر في كتابه أن السيد المسيح لم يصلب، وأنه غادر فلسطين، وتزوج مريم المجدلية، وأنهما أنجبا أولادًا، وأنه قد عثر على قبره في جنوب فرنسا، وأن أولاده سيرثون أوربا، ويصبحون ملوكًا عليها.

وذكر أيضًا أن المصلوب هو الخائن يهوذا الأسخريوطي، الذي صلب بدلًا من المسيح المرفوع[(٢)].

---

(١) انظر: الفارق بين المخلوق والخالق، عبدالرحمن باجي البغدادي، ص(٣٦٦، ٤٦٥)، قصص الأنبياء، عبدالوهاب النجار، ص(٥٠٣).

(٢) انظر: دراسة تحليلية نقدية لإنجيل مرقس، محمد عبدالحليم أبو السعد، ص(٥٣٠ - ٥٣١).

وأيضًا المؤرخ اليهودي يوسيفوس المعاصر للمسيح والذي كتب تاريخه سنة ٧١م أمام طيطوس لم يذكر شيئًا عن قتل المسيح وصلبه.

أما تلك السطور القليلة الموجودة بكتابه التي تحدثت عن قتل المسيح وصلبه، فهي إلحاقات نصرانية كما جزم بذلك المحققون وقالوا: بأنها ترجع للقرن السادس عشر، وأنها لم تكن في النسخ القديمة.

ثالثًا: إبطال صلب المسيح بنبوءات التوراة.

للأسفار التوراتية دور عظيم في قصة صلب المسيح، فقد أكثر الإنجيليون في سردهم للقصة من الإحالة إلى أسفار التوراة؛ التي يرونها تتنبأ بالمسيح المصلوب، وكانت نصف هذه الإحالات إلى المزامير المنسوبة لداود وغيره. ومجموع هذه النبوءات أربع عشرة نبوءة، ذكر متى منها ستًّا، ومرقس أربعًا، ولوقا اثنتين، بينما ذكر منها يوحنا سبع نبوءات.

ومِن جماع هذه النبوءات لا نخلص إلا بأن المزامير تنبأت بحق بأن الله مخلص مسيحه، يستجيبه من سماء قدسه، يرفعه من أبواب الموت، يرفعه فوق القائمين عليه، يرسل من العُلا فيأخذه.

أما يهوذا الإسخريوطي الذي حفر له هذه الحفرة، وأتى على رأس الجمع من جنود وخدام ليقبضوا عليه، على المسيح سيده، فإنه في الحفرة نفسها يقع، وبعمل يديه يعلق، رجع تعبه على رأسه، وعلى هامته هبط ظُلمه، صار عارًا عند البشر، فقبض عليه هو بدلًا من المسيح، وحُوكِمَ هو، وصلب بدلًا منه.

بينما لو وافقنا الرواية الإنجيلية بأن المسيح علم أنه سيصلب ثم صلب، فما فائدة تضرعه ودعائه، ولم كان جزعه يأسه وصراخه على الصليب «لماذا تركتني؟» [(١)].

رابعًا: إبطال صلب المسيح بنبوءات وأخبار الأناجيل والرسائل.

لا تخطئ عين الناظر في الأناجيل أن ترى أن الإنجيليين نقلوا عن المسيح تنبؤه بتعرضه لمؤامرة تودي به إلى الموت والصلب، فهل تصح هذه الأقوال في نسبتها إلى السيد المسيح؟

الحقيقة أن خبر تنبؤ المسيح بقتله أو صلبه (انظر متى ١٧/ ٢٢ و٢٠/١٦، ٢٦/ ٢، ٢٦/ ٢٣)، قول دخيل على الأناجيل، ملحق بها، والأدلة على ذلك تتضح باستقراء عدد من الملاحظات التي يقوي بعضها بعضًا:

١- إن العبارة في إنجيل متى والتي يخبر فيها المسيح عن مؤامرة يتعرض لها ابن الإنسان وتودي به إلى الموت وردت بلا مقدمة، ولا مناسبة، ولا تعليق عليها من قبل الحواريين، حتى وكأنها تتحدث عن حدث عادي، فلئن صحت، دل ذلك على أن ابن الإنسان المصلوب المسلّم لأيدي الخطاة، هو غير المسيح.

---

(١) انظر: دعوة الحق بين المسيحية والإسلام، منصور حسين.

٢- تتحدث المواضع الأربعة -التي ذكرت تنبؤه بالموت- عن تسليم ابن الإنسان، وقتله أو صلبه، ولا تنص على عيسى، لكن اللفظ -وإن تبادر في الذهن إلى المسيح- فإنه يصح أن يطلق على غيره، بدليل أنهم سألوه عن ابن الإنسان مَن هو بقولهم: «كيف تقول أنت: إنه ينبغي أن يرتفع ابن الإنسان؟ من هو هذا ابن الإنسان؟» (يوحنا ١٢/ ٣٤) ولو كان هذا اللقب بالمسيح خاصًّا لما كان في سؤالهم وجه.

٣- يقترن وصف الأناجيل الثلاثة لردة فعل التلاميذ حيال هذا الخبر بكثير من الغرابة، ففي متى (٢٦/١ - ٢) لم يذكر لهم حسًّا ولا خبرًا، بيد أنه في (متى ٢٦/ ٢٣) ذكر بأنهم «حزنوا جدًّا»، ويفهم منه أنهم فهموا مراده فحزنوا، لكن مرقس يقول: «وأما هم فلم يفهموا القول، وخافوا أن يسألوه» (مرقس ٩/ ٣٢)، ويؤكد لوقا هذا بقوله: «وأما هم فلم يفهموا من ذلك شيئًا، وكان هذا الأمر مخفيًّا عنهم، ولم يعلموا ما قيل».

وإضافة إلى تناقض النصوص، فإن في خوف التلاميذ من المسيح وترددهم في سؤاله ما يدعو للعجب، فقد عرف عليه السلام بدماثة خلقه، وبتحببه لهم، حتى إنه غسل أرجلهم، وكثيرًا ما كانوا يسألوه، فلِمَ لم يسألونه في هذا الأمر الخطير؟

٤- ذكر الإنجيليون الثلاثة الذين ذكروا الخبر بأن المسيح سيقوم في اليوم الثالث (انظر متى ١٧/ ٢٣، مرقس ٩/ ٣٢، لوقا ١٨/ ٣٣)، وهذا لم يحصل، بل مكث ما لا يزيد -بكل حال- عن ليلتين ويوم.

٥- ومما يدل على عدم صحة التنبؤ بالصلب والقتل: فرار التلاميذ، وفيهم بطرس الذي قال له المسيح: «طلبت من أجلك لكيلا يفنى إيمانك، وأنت متى رجعت ثبت إخوتك، فقال له: يا رب، إني مستعد أن أمضي معك، حتى إلى السجن، وإلى الموت» (لوقا ٢٢/ ٣٢ - ٣٤)، فدل هذا على معرفتهم بأن المأخوذ غيره، كما قد عرفوا ذلك فهربوا، وقد قال عنهم المسيح: «الذين أعطيتني حفظتهم، ولم يهلك منهم أحد إلا ابن الهلاك» (يوحنا ١٧/ ١٢).

ثم بعد ذلك ولأن أمر المصلوب لا يهمهم وقد عرفوا بنجاة سيدهم لم يهتموا بمتابعة المصلوب وهو على الصليب، أو في أثناء المحاكمة، إلا ما جاء عن بطرس ويوحنا وبعض النسوة.

٦- كما تذكر الأناجيل دليلًا آخر يشهد على عدم صحة هذه النبوءات المتنبئة بصلب المسيح، بل تدلل على أن المسيح تنبأ بنجاته، وأن التلاميذ فهموا منه ذلك قول مرقس أن المسيح قال لتلاميذه: «كلكم تشكون فيَّ في هذه الليلة» (مرقس ١٤/ ٢٧).

هذا ولا تذكر الأناجيل شيئًا عن شك التلاميذ، سوى ما ذكرته عن بطرس الذي أنكر المأخوذ ثلاث مرات ليلة المحاكمة، وأما الآخرون فصمت مطبق، فكيف شك التلاميذ؟

لقد شك التلاميذ في المسيح وهم يرون المأخوذ من البستان (يهوذا) وقد قبض عليه، وظنوه المسيح، فوقعوا فيما حذرهم منه المسيح، وهو الشك فيه، لقد كان أخبرهم بنجاته من المؤامرة ثم

يرون أنه قد أخذ ولم ينجُ.

فالمسيح قد تنبأ لتلاميذه بأن مؤامرة ستدبر ضده، وستُحدث له ألمًا ومعاناة، إلا أنها ستفشل، وسينقذه الله من القتل، كما في قوله: «ستطلبونني ولا تجدونني». وهذا الذي حصل ولم يشاهده التلاميذ، بل هم قد رأوا ما حسبوه وظنوه نقيضَه، فقد رأوا المسيح مأخوذًا مصلوبًا، فوقعوا في الشك فيه؛ لأن كلامه لم يتحقق، وهذا هو الصحيح.

٧- ومما يؤكد استجابة الله للمسيح بعد دعائه بالنجاة: ظهور ملاك له ليقويه (انظر لوقا ٢٢/ ٤٣) فهل كان ذلك الملاك يضحك عليه ويهزأ به، أم يعينه فينجيه؟

وهذا الأخير هو ما يليق بعدل الله ورحمته، فقد استجاب الله للمسيح فأنجاه، وصلب يهوذا الخائن، فهذا أليق بعدل الله وكرمه من القول بعدم استجابته للمسيح، وصلبه وتسليمه إلى مرام أعدائه ومبغضيه.

خامسًا: تنبوءات العهد الجديد بنجاة المسيح.

إن خبر تنبؤ المسيح بقتله وصلبه -كما يذكر الإنجيليون- معارَض بنصوص كثيرة، أخبر المسيح تلاميذه فيها بنجاته، بل أعلنها على ملأ اليهود، وتحداهم، وأخبر بأنه غلبهم، وغلب العالم.

وقد تجاهل النصارى هذه الروايات، ولم يلتفتوا إلى الأناجيل وهي تنقل -على استحياء- عن المسيح شهادته بنجاته في نصوص عديدة:

١- ومنها قوله حسب ما جاء في يوحنا: «فأرسل الفريسيون ورؤساء الكهنة خدامًا ليمسكوه، فقال لهم يسوع: أنا معكم زمانًا يسيرًا بعد، ثم أمضي إلى الذي أرسلني، ستطلبونني ولا تجدونني، وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا» فمتى حقق المسيح هذه النبوءة؟ متى بحث عنه اليهود فلم يجدوه؟ إنه ولا ريب يوم جاءوا للقبض عليه، فنجاه الله وأخذه إلى المكان الذي لا يقدرون عليه، إلى السموات العلا.

وقد فهم منه اليهود أنه أراد نجاته منهم «فقال اليهود فيما بينهم: إلى أين هذا مزمع أن يذهب حتى لا نجده نحن؟ ألعله مزمع أن يذهب إلى شتات اليونانيين، ويعلم اليونانيين؟ ما هذا القول الذي قال: ستطلبونني ولا تجدونني، وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا؟» (يوحنا ٧/ ٣٢ - ٣٦).

٢- ومرة أخرى، جاهر المسيح بنجاته منهم قائلًا: «أعلم من أين أتيت، وإلى أين أذهب، وأما أنتم، فلا تعلمون من أين آتي، ولا إلى أين أذهب ... قال لهم يسوع أيضًا: أنا أمضي، وستطلبونني وتموتون في خطيتكم، حيث أمضي أنا، لا تقدرون أنتم أن تأتوا. فقال اليهود: ألعله يقتل نفسه حتى يقول: حيث أمضي أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا. فقال لهم: أنتم من أسفل، أما أنا فمن فوق، أنتم من هذا العالم ...

فقال لهم يسوع: متى رفعتم ابن الإنسان، فحينئذ تفهمون إني أنا هو، ولست أفعل شيئًا من

نفسي، بل أتكلم بهذا كما علمني أبي، والذي أرسلني هو معي، ولم يتركني الأب وحدي، لأني في كل حين أفعل ما يرضيه» (يوحنا ٨/ ٢١ - ٢٩).

٣- ثم مرة أخرى، لما أعطى يهوذا اللقمة قال لتلاميذه: «يا أولادي أنا معكم زمانًا قليلًا بعد، ستطلبونني، وكما قلت لليهود: حيث أذهب أنا، لا تقدرون أنتم أن تأتوا، أقول لكم أنتم الآن ... قال له سمعان بطرس: يا سيد، إلى أين تذهب، أجابه يسوع: حيث أذهب لا تقدر الآن أن تتبعني، ولكنك ستتبعني أخيرًا» (يوحنا ١٣/ ٣٢ - ٣٦)، ولا يمكن أن يكون مقصوده الموت، فإنه مقدور لكل أحد.

٤- ومنها أيضًا قول المصلوب (يهوذا) وهو في المحاكمة: «من الآن يكون ابن الإنسان جالسًا عن يمين قوة الله» (لوقا ٢٢/ ٦٩) فقد رأى يهوذا نجاة المسيح بما رآه أو سمعه من المسيح عن نجاته، وما شاهده من نجاة المسيح لحظة ألقي الشبه عليه، وهو يخبر أنه في تلك اللحظة، المسيح في السماء، وقد رفع بقوة الله.

٥- ومن النصوص التي تحدثت أيضًا عن نجاة المسيح قوله: «هو ذا تأتي ساعة وقد أتت الآن، تتفرقون فيها، كل واحد إلى خاصته، وتتركونني وحدي، وأنا لست وحدي؛ لأن الآب معي، قد كلمتكم بهذا ليكون لكم فيّ سلام، في العالم سيكون لكم ضيق، ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم» (يوحنا ١٦/ ٣٢ - ٣٣)، وهكذا كان، فقد هربوا جميعًا وتركوه، لكن الله معه، لذا يطلب منهم أن يثقوا أنه غلب العالم، وأن يثقوا أنه في سلام، فأين هذا من القول بصفع المسيح وصلبه وضربه؟

٦- ومن النصوص الدالة أيضًا على نجاة المسيح قول يوحنا: «من عند الله خرج، وإلى الله يمضي» (يوحنا ١٣/ ٣) ولو كان المقصود الموت، فكل الناس إلى الله تمضي، والقول بأن مضيه إنما يكون بعد الدفن ثلاثًا، يحتاج لدليل يثبت ذلك.

٧- ومن النصوص الدالة أيضًا على نجاة المسيح ما جاء في متى «فقال لهم يسوع: هل يستطيع بنو العرس أن ينوحوا ما دام العريس معهم؛ ولكن ستأتي أيام، حين يرفع العريس عنهم، فحينئذ يصومون» (متى ٩/ ١٥)، ومقصده رفعه للسماء.

٨- ومن ذلك أيضًا: أن في أقوال بولس ما يجعل حادثة الصلب قضية غير مسلم أنها حصلت للمسيح، ويُرى ذلك بالإمعان في هذه الأقوال، يقول بولس: «أما نحن فنكرز بالمسيح مصلوبًا، شكًّا لليهود، وجهالة للأمم» (كورنثوس (١) ١/ ٢٣).

٩- ويشهد الكاتب المجهول لرسالة العبرانيين بنجاة المسيح من الصلب، حين قال في وصف ملكي صادق: «لأن ملكي صادق هذا ملك ساليم، كاهن الله العلي... بلا أب، وبلا أم، بلا نسب، لا بداءة أيام له، ولا نهاية حياة، بل هو مشبه بابن الله، هذا يبقى إلى الأبد» (عبرانيين ٧/ ١ -٣) فيفهم من قوله هذا، أن ليس للمسيح نهاية أرضية سابقة، كما هو الحال في ملكي صادق!

١٠- لكن يبقى أظهر أدلة نجاة المسيح ما قاله كاتب رسالة العبرانيين عن المسيح: «الذي في أيام

جسده، إذ قدم بصراخ شديد ودموع طلبات وتضرعات للقادر أن يخلصه من الموت، وسمع له من أجل تقواه» (عبرانيين ٥/ ٧).

فهذا النص، شهادة ناطقة، بأن الله استجاب للمسيح تضرعه في تلك الليلة التي قضاها في بستان جثماني، وصرف عنه ما كان يحذره ويخافه من الصلب والبلاء، وهذا ما تيقنه المسيح من ربه «أيها الآب أشكرك؛ لأنك سمعت لي، وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي» (يوحنا ١١/ ٤٠-٤١).

وقد رأى المحققون في هذه النصوص نبوءات تتكامل لتؤكد حقيقة واضحة تفيد بنجاة المسيح عليه السلام من يد أعدائه، وأنه سيرفع للسماء، فهو المكان الذي لا يقدرون عليه، ولا يمكن أن يكون مقصده من هذه الأقوال الموت، فإن ذلك أمر يطيقه كل أحد، كما أن أحدًا لا يتحدى أعداءه بأنه سيموت وهم لن يستطيعوه.

لقد كان المسيح يتحدى أعداءه وهو يقول: «هو ذا بيتكم، يترك لكم خرابًا، لأني أقول لكم: إنكم لا ترونني من الآن، حتى تقولوا: مبارك الآتي باسم الرب» (متى ٢٣/ ٢٨ - ٢٩).

سادسًا: إبطال صلب عيسى من حوارييه.

١- مما يؤكد نجاة المسيح وصلب غيره ما جاء في إنجيل برنابا في قصته: «فاعلم يا برنابا أنه لأجل هذا يجب عليّ التحفظ، وسيبيعني أحد تلاميذي بثلاثين قطعة نقود، وعليه فأنا على يقين من أن من يبيعني يقتل باسمي؛ لأن الله يصعدني في الأرض، وسيغير منظر الخائن، حتى يظنه كل أحد إياي، ومع ذلك لما يموت شر ميتة؛ أمكث في ذلك العار زمنًا طويلًا في العالم، ولكن متى جاء محمد رسول الله المقدس، تزال عني هذه الوصمة، وسيفعل الله هذا؛ لأني اعترفت بحقيقة مسيًا، الذي سيعطيني هذا الجزاء، أي أن أعرف أني حي، وأني بريء من وصمة تلك الميتة.

فأجاب من يكتب (أي برنابا): يا معلم. قل لي من هو ذلك التعيس؟ لأني وددت لو أميته خنقًا. أجابه يسوع: صه، فإن الله هكذا يريد، فهو لا يقدر أن يفعل غير ذلك، ولكني متى حلت هذه النازلة بأمي، فقل لها الحق، لكي تتعزى . . .

وخرج يسوع من البيت، ومال إلى البستان ليصلي، فجثا على ركبتيه مائة مرة معفرًا وجهه كعادته في الصلاة . . . ولما دنت الجنود مع يهوذا في المحل الذي كان فيه يسوع سُمع دنو جم غفير، فلذلك انسحب إلى البيت خائفًا، وكان الأحد عشر نيامًا، فلما رأى الله الخطر على عبده، أمر جبريل وميخائيل ورفائيل وأوريل سفراءه أن يأخذوا يسوع من العالم، فجاء الملائكة الأطهار، وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب، فحملوه، ووضعوه في السماء الثالثة في صحبة الملائكة التي تسبح الله إلى الأبد».

ثم يمضي برنابا هو يصور ما حصل ليهوذا الخائن، فيقول: «ودخل يهوذا إلى الغرفة، دخل يهوذا مندفعًا أمام جميع من كانوا معه إلى الحجرة التي كان فيها عيسى، ثم رفع منها إلى السماء، بينما كان التلاميذ نيامًا، على أن الله العظيم القادر على كل شيء، تصرف تصرفًا عجيبًا، فحول يهوذا إلى صورة

عيسى وهيئته وصوته وأسلوب حديثه تمامًا، حتى اعتقدنا أنه عيسى، ولما استيقظنا من النوم كان يدور ليعرف مكان المعلم، أما نحن فعجبنا للأمر، فقلنا له: إنك أنت معلمنا ومولانا، هل نسيتنا؟

فضحك يهوذا، وقال: إنكم لحمقى، ألا تعرفونني؟ أنا يهوذا الأسخريوطي، وفي هذه اللحظة دخل الجنود، ووضعوا أيديهم على يهوذا، فقد كان صورة طبق الأصل لعيسى.

ولما سمعنا نحن قول يهوذا، ورأينا كتائب الجنود هربنا واختفينا، كان يوحنا يلتف بقماش من التيل، فاستيقظ وهرب، ولما أمسك أحد الجنود بقطعة القماش، تركها له، وفر هاربًا عاري الجسد، إذ كان الله قد سمع دعوة عيسى، وبالفعل نجا التلاميذ الأحد عشر من كل شر» (برنابا ١/٢١٤ - ١٣/٢١٦).

٢-وما وجد في مخطوطات نجع حمادي في مصر؛ حيث كشف بعد الحرب العالمية الثانية عن ثلاثة وخمسين نصًا، تقع في ألف ومائة وثلاث وخمسين صفحة، ومن هذه النصوص ما تحدث عن نجاة المسيح، وأنه لم يصلب، ولم يرد في هذه المخطوطات أيُّ ذِكْرٍ لمحاكمة المسيح وصلبه.

وفي مخطوطة من هذه المخطوطات وهي كتاب «سيت الأكبر» جاء على لسان المسيح «كان شخص آخر، هو الذي شرب المرارة والخل، لم أكن أنا . . . كان آخر الذي حمل الصليب فوق كتفيه، كان آخر هو الذي وضعوا تاج الشوك على رأسه. وكنت أنا مبتهجًا في العُلا . . . أضحك لجهلهم».

وفي مخطوطة «مقالة القيامة» ما يدل على أن المسيح مات موتًا طبيعيًا، وأن روحه المقدَّسة لا يمكن أن تموت.

٣- كما تكشف لنا الكشوف الأثرية عن إنجيل اكتُشف حديثًا في نجع حمادي منسوبًا للحواري المقرب بطرس، ينكر فيه صلب المسيح، ويقول برفعه قبل إجراء الصلب.

جاء في إنجيل بطرس على لسان بطرس: «رأيته يبدو كأنهم يمسكون به، وقلت: ما هذا الذي أراه يا سيد؟ هل هو أنت حقًا من يأخذون؟ . . . أم أنهم يدقون قدميّ ويديّ شخص آخر؟ . . . قال لي المخلص: . . . من يُدخلون المسامير في يديه وقدميه هو البديل، فهم يضعون الذي بقي في شبهة في العار! انظر إليّ، وانظر إليه».

٤- ويرى المحققون أن الحواريين ما كانوا يعرفون شيئًا عن صلب المسيح، بدليل خلو رسائلهم الموجودة في العهد الجديد من الحديث عن المسيح المصلوب.

يقول المؤرخ فوتيوس: إنه قرأ كتابًا يسمى «رحلة الرسل» في أخبار بطرس ويوحنا واندراوس وتوما وبولس، ومما قرأ فيه: «إن المسيح لم يصلب، ولكن صلب غيره، وقد ضحك بذلك من صالبيه»[1].

---

(١) انظر : مسيحية بلا مسيح ص(١٥)، المسيحية الحقة التي جاء بها المسيح ص(١٤-١٦)، مخطوطات البحر الميت ص(١٣٧ - ١٣٩)، النصرانية، مصطفى شاهين، ص(٢٨٢).

وهكذا ثبت لدينا نجاة المسيح عليه السلام من الصلب كما أنبأنا بذلك أسفار العهد القديم، وكما وعد المسيح أتباعه في العهد الجديد، ورأينا مكر الله يحيق بالتلميذ الخائن الذي خان سيده، فانتشبت أرجله في الشبكة التي أخفاها، ووقع في الحفرة التي حفرها.

ورأينا ما يثبت صحة ما توصلنا إليه، فقد سجلته الدلائل المتناثرة في زوايا الكتاب المقدس، ورأينا ظلاله في تاريخ النصرانيَّة، حيث تواصل إنكار النصارى لهذا الصلب المزعوم عبر تاريخ النصرانيَّة القديم[١].

(١) انظر: هل افتدانا المسيح على الصليب، د. منقذ محمود السقار.

الفصل التاسع

عقيدة الفداء والخلاص

أثبتنا فيما سبق نجاة المسيح من الصلب، وهو أمر مبطل لكل ما يقوله النصارى عن عقيدة الفداء والخلاص.

والحديث النصراني عن المسيح المصلوب لا يلزم منه أن صلبه كان فداء للخطيئة، لكن نجاة المسيح بلا شك هدم لأساس هذا المعتقد.

وتعتبر عقيدة الفداء والخلاص مفتاح جميع العقائد النصرانيَّة، فهي أهم ما يبشر به النصارى، ولتحقيقها وضع النصارى المسيح -الذي أنجاه الله- على الصليب.

وليتحقق الفداء على صورة ترضي الإله العظيم جعلوا المصلوب إلهًا، حتى يساوي الفادي الثمن العظيم، وهو نجاة البشرية وخلاصها من الخطيئة والدينونة، وهو ما عبر عنه العهد الجديد على لسان بطرس بقوله: «عالمين أنكم افتديتم لا بأشياء تفنى: بفضة أو ذهب، من سيرتكم الباطلة التي تقلدتموها من الآباء، بل بدم كريم كما من حَمَلٍ بِلاَ عيْب، ولا دنس، دم المسيح» (بطرس (١) ١/١٨ - ١٩).

وأول ما نلحظه اختلاف النصوص الكتابية في تحديد ما يُغفر بدم المسيح، فبعضها يتحدث عن ذنب آدم فقط، وبعضها يشمل جميع الذنوب التي سبقت صلب المسيح؟ بل يمتد بعضها ليعمم الخلاص على جميع الذنوب التي يرتكبها العبد حاضرًا ومستقبلًا.

ومنهم من جعله عامًّا لكل البشر، ومنهم من خصه بالمؤمنين بقيامة المسيح، أو بالمؤمنين بأن المسيح ابن الله.

وهذا الاختلاف في النصوص الكتابية انعكس على الفرق النصرانيَّة، فاختلفت في حدود الخلاص الذي حصل بدم المسيح.

يعتقد الكاثوليك والأرثوذكس أن الخلاص لا يشمل جميع الذنوب، إنما يشمل الخطيئة الأصليَّة، وبعد الفداء عادت للبشرية حريتها وإرادتها التي سلبتها بذنب آدم، فإذا ما أتى المتعمِّد ذنبًا بعد معموديته، فسيعود مستحقًّا للعذاب الدائم إن كان الذنب كبيرًا، أما إن كان الذنب صغيرًا فيكون عذابه في «المطهر» الذي يعذب به المؤمنون ردحًا من الزمن حتى يخلصوا من القصاصات التي عليهم.

وكوسيلة للخلاص من عذاب المطهر ظهر عند الكاثوليك مبدأ الاعتراف الكنسي بين يدي الكاهن والتبرير بصكوك الغفران التي أقرت في المجمع الثاني عشر المنعقد في روما سنة ١٢١٥م، وقرر فيه المجتمعون أن «الكنيسة البابوية تملك الغفران وتمنحه لمن تشاء».

أما البروتستانت فإنهم يترددون بين شرط الإيمان للخلاص، وبين إسقاط هذا الشرط، إذ يراه بعضهم خلاصًا يشمل كل الخطايا، كما ينفع كل الناس، مؤمنهم وكافرهم.

فلسفة النصارى لمسألة الخطيئة والكفارة

- إن الله خلق الإنسان وترك فيه قوة الإرادة في حرية كاملة، وأنعم عليه، وحرم عليه تناول القمح.

لكن آدم وضع قوته الإرادية في غير موضعها عندما تناول ما حرم عليه، ولم يكن صعبًا عليه تحاشي المعصية، إذ لم يكن يعرف يومذاك عواطف الهوس والشهوة.

ذنب آدم ذنب عظيم؛ لأنه يتضمن ذنوبًا عديدة:

أولها: الكفر، إذ اختار آدم أن يعيش محكومًا بسلطته، بدل أن يعيش في ظل الحكم الإلهي.

وثانيها: كفر وإساءة أدب مع الله؛ لأن الإنسان لم يتيقن في الله.

وثالثها: قتل نفسه، إذ جعل حكمها الموت.

ورابعها: الزنى المعنوي؛ لأن إخلاص الروح الإنسانية قد ضاع من أجل التصديق بقول الحية المعسول.

وخامسها: السرقة، إذ نال ما لا يحل له.

وسادسها: الطمع.

وهكذا كانت هذه الخطيئة أمًّا لكل الأخطاء البشرية «والحق أنك مهما أمعنت في حقيقة أي إثم، فستجد له انعكاسًا في هذه الخطيئة الواحدة».

- جزاء هذه الخطيئة الشنيعة الموت الدائم، أو العذاب الدائم «لأنك يوم تأكل منها موتًا تموت»، كما سلب آدم بعدها الحرية الإرادية بعد أن هزمه الذنب، فأصبح حرًّا في إتيان الإثم، وغير حرٍّ في صنع المعروف، فالعقاب المعقول للذنب هو الذنب بعده، بعد تخلي رحمة الله عنه، وهكذا أصبحت الخطيئة مركبة من طبيعة الأبوين، وانتقلت منهما وراثة إلى سائر أبنائهما.

- إن الله رحيم، ولا يريد أن يغير قوانين المحكمة، وفيها أن الموت عقوبة عادلة لهذه الخطيئة الأصليَّة، فاتخذ حيلة ينجي بها عباده، فيموتون ثم يحيون من جديد، فتعود إليهم حريتهم بعد حياتهم الجديدة.

ولما كانت إماتة الناس جميعًا تتعارض مع قانون الطبيعة وسنن الكون، فكان لا بد من شخص معصوم من الذنب الأصلي يعاقبه الله بموته، ثم يبعثه، فيكون موته بمثابة موت البشرية وعقوبتها، وقد اختار الله ابنه لهذه المهمة[1].

---

(١) انظر: ما هي النصرانية، محمد تقي العثماني، ص(٧٨ - ٨٠).

نقض فلسفة وراثة الخطيئة الأصليّة

أولًا: وراثة الذنب ظلمًا يتنزه الله عنه، فوراثة الذنب نوعًا من الظلم لا يليق نسبته إلى الله عز وجل.

ثانيًا: جاءت نصوص التوراة تنفي وراثة الذنب، وتؤكد على مسئولية كل إنسان عن عمله، ومنها:

«النفس التي تخطئ هي تموت، الابن لا يحمل من إثم الأب، والأب لا يحمل من إثم الابن، بر البار عليه يكون، وشر الشرير عليه يكون» (حزقيال ١٨/ ٢٠ - ٢١).

«لا يقتل الآباء عن الأولاد، ولا يقتل الأولاد عن الآباء، كل إنسان بخطيئته يقتل» (التثنية ٢٤/ ١٦).

«بل كل واحد يموت بذنبه، كل إنسان يأكل الحصرم تضرس أسنانه» (إرمياء ٣١/ ٣٠).

«الذي عيناك مفتوحتان على كل طرق بني آدم لتعطي كل واحد حسب طرقه، وحسب ثمرة أعماله» (إرميا ٣٢/ ١٩).

«لا تموت الآباء لأجل البنين، ولا البنون يموتون لأجل الآباء، بل كل واحد يموت لأجل خطيته» (الأيام (٢) ٢٥/ ٤).

«فإنه لا يموت بإثم أبيه» (حزقيال ١٨/ ١٧).

«أفتهلك البار مع الأثيم، عسى أن يكون خمسون بارًا في المدينة، أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين بارًا الذين فيه، حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر: أن تميت البار مع الأثيم، فيكون البار كالأثيم. حاشا لك، أديان كل الأرض لا يصنع عدلًا» (التكوين ١٨/ ٢٣ - ٢٥).

ثالثًا: بطلان وراثة الخطيئة بإثبات براءة الكثيرين من الخطيئة الأصليّة.

تشهد الكتب المقدّسة عند النصارى لكثيرين بالخيرية، وتثني عليهم، ولو كانوا مسربلين بالخطيئة الأصليّة لما استحقوا هذا الثناء:

١- ومن هؤلاء الأطفال الذين قال فيهم المسيح في إحدى وصاياه: «الحق أقول لكم، إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات، فمن وضع نفسه مثل هذا الولد، فهو الأعظم في ملكوت السموات» (متى ١٨/ ٣ - ٤)، (وانظر مرقس ١٠/ ١٣/ ١٦).

وعندما نهر تلاميذه أطفالًا قال: «دعوا الأولاد يأتون إليّ ولا تمنعوهم؛ لأن لمثل هؤلاء ملكوت السموات» (متى ١٩/ ١٣ - ١٤) فيفهم من هذين النصين طهرة الأطفال من الخطيئة الأصليّة، لذلك جعلهم مثلًا للأبرار الذين يدخلون الجنة.

٢- والأبرار أيضًا لم يحملوا هذه الخطيئة، فهؤلاء الأبرار ذكرتهم نصوص التوراة وأثنت عليهم ولم تتحدث عن هلاكهم أو تأثرهم بالخطيئة الموروثة «كان كلام الرب إليّ قائلًا: ما لكم أنتم

تضربون هذا المثل على أرض إسرائيل قائلين: الآباء أكلوا الحصرم، وأسنان الأبناء ضرست، حي يقول السيد الرب . . . الإنسان الذي كان بارًا وفعل حقًا وعدلًا، لم يأكل على الجبال، ولم يرفع عينيه إلى أصنام بيت إسرائيل، ولم ينجس امرأة قريبه، ولم يقرب طامثًا، ولم يظلم إنسانًا . . . فهو بار، حياة يحيا يقول السيد الرب» (حزقيال ١٨/ ١٩ - ٢٣)، فكل من يعمل الصالحات يكون بارًا، ولا تؤثر فيه خطية آدم أو غيره.

٣- ومن هؤلاء الأبرار الذين لم تكبلهم الخطيئة، وأثنت عليهم التوراة، الأنبياء، ولو كانوا حاملين للخطيئة لما كانوا أهلًا لهداية الناس، فإن قيل عفي عنهم، فلم تراه لم يُعفَ عن بقية العالمين -من غير دم- كما عفي عن الأنبياء الذين اختار الله منهم كليمًا وخليلًا.

ومن الأنبياء الذين أثنت عليهم التوراة أخنوخ «وسار أخنوخ مع الله، ولم يوجد لأن الله أخذه» (التكوين ٥/ ٢٤)، وقد قال عنه بولس: «بالإيمان نقل أخنوخ لكيلا يرى الموت، ولم يوجد لأن الله نقله، إذ قبل نقله شهد له بأنه قد أرضى الله» (عبرانيين ١١/ ٥).

وأيضًا نوح عليه السلام تقول عنه التوراة: «وكان نوح رجلًا بارًا كاملًا في أجياله، وسار نوح مع الله» (التكوين ٦/ ٩).

وأيضًا إبراهيم فقد قيل له: «لا تخف يا إبرام أنا ترس لك، أجرك كثير جدًا» (التكوين ١١/ ١)، وقيل عنه: «بارك الرب إبراهيم في كل شيء» (التكوين ٢٤/ ١).

ومن هؤلاء الأبرار أيوب، وقد أخبر عن نفسه أنه بريء من كل ذنب وإثم، وأنه كان بارًا مطيعًا لأقوال الله: «قد قلتَ في مسامعي، وصوت أقوالك سمعتُ. قلت: أنا بريء بلا ذنب، زكي أنا ولا إثم لي» (أيوب ٣٣/ ٨-٩).

ورغم هذه المزايا الفريدة لأيوب، فإن يوحنا المعمدان أعظم منه، كما قال المسيح: «الحق أقول لكم: لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان» (متى ١١/ ١١)، ويقول عنه لوقا: «لأنه يكون عظيمًا أمام الرب، وخمرًا ومسكرًا لا يشرب» (لوقا ١/ ١٥)، فهؤلاء جميعًا لم يرثوا الخطيئة، ولم تؤثر فيهم مع أنهم من ذرية آدم، والكتاب يعلن صلاحهم وعدم احتياجهم إلى الخلاص بدم المسيح أو غيره. . .

٤- كما أثنت التوراة على أشخاص من غير الأنبياء ووصفتهم بالصلاح والبر، فدل ذلك على عدم حملهم للخطيئة الأصليَّة.

منهم هابيل بن آدم الذي تقبل الله منه ذبيحته لصلاحه، ولم يقبلها من أخيه، فلم تمنعه خطيئة أبيه من أن يكون عند الله مقبولًا (انظر التكوين ٤/ ٤)، وقد قال عنه الكاتب المجهول لرسالة العبرانيين: «بالإيمان قدم هابيل لله ذبيحة أفضل من قايين، فبه شهد له أنه بار، إذ شهد الله لقرابينه» (عبرانيين ١١/ ٤).

وكذلك الناجون مع نوح كانوا جميعًا أبرارًا، فأنجاهم الله من الطوفان «ورأى الله الأرض.

فإذا هي فسدت، إذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض فقال الله لنوح: نهاية كل بشر أتت أمامي . . . وتبقى نوح والذين معه في الفلك فقط» (التكوين ٦/ ١٢- ٧/ ٢٣). ولو كانت الخطيئة موروثة لكان الجميع خاطئين، ولما كان ثمة مبرر لهذا التفريق بين الناجين والمغرقين.

ومن الأبرار أيضًا لاوي بن يعقوب، والذي اختص وسبطه بالكهانة، حيث قال الله عنه: «عهدي معه للحياة والسلام، وأعطيته إياهما للتقوى، فاتقاني، ومن اسمي ارتاع هو، شريعة الحق كانت في فِيه، وإثم لم يوجد في شفتيه، سلك معي في السلام والاستقامة، وأرجع كثيرين عن الإثم؛ لأن شفتي الكاهن تحفظان معرفة، ومن فمه يطلبون الشريعة؛ لأنه رسول رب الجنود» (ملاخي ٢/ ٥-٧).

كذا خاطب الرب أورشليم محدثًا إياها عن البقية المؤمنة في بني إسرائيل، فقال: «وأبقي في وسطكِ شعبًا بائسًا ومسكينًا، فيتوكلون على اسم الرب، بقيةُ إسرائيل لا يفعلون إثمًا، ولا يتكلمون بالكذب، ولا يوجد في أفواههم لسان غش؛ لأنهم يرعون ويربضون» (صفنيا ٣/ ١٢-١٣)، فهؤلاء اليهود الباقون في أورشليم متزهون عن الإثم والخطية.

وأيضًا شهد المسيح بنجاة لعازر، وقد مات قبل الصلب المزعوم للمسيح «فمات المسكين وحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم، ومات الفتى أيضًا، ودفن، فرفع عينيه في الهاوية وهو في العذاب ورأى إبراهيم من بعيد ولعازر في حضنه، فنادى وقال: يا أبي إبراهيم، ارحمني. . .» (لوقا ١٦/ ٢١ - ٢٤)، فلعازر نجا وقد مات قبل الصلب المزعوم للمسيح.

ويجزم المسيح بخلاص العشار زكا الذي أنفق نصف ماله في سبيل الله من غير أن يحتاج لدم يخلصه أو فادٍ يصلب عنه «فوقف زكا وقال للرب: ها أنا يا رب أعطي نصف أموالي للمساكين، وإن كنت قد وشيت بأحد أرد أربعة أضعاف. فقال له يسوع: اليوم حصل خلاص لهذا البيت، إذ هو أيضًا ابن إبراهيم» (لوقا ١٩/ ٨-٩)، لقد نال الخلاص بالبر والعمل الصالح.

رابعًا: إبطال نظرية الذنب الموروث بشهادات النصارى:

ومما يبطل نظرية وراثة الخطيئة الأصليَّة الإنكار الذي صدر عن النصارى قديمًا وحديثًا، فعبروا عن رفضهم لهذا الظلم وعن تحمل تبعات خطيئة لم يرتكبوها ولم يستشاروا فيها، بل ولم يشهدوها، ومن ذلك:

١- أن مخطوطات نجع حمادي المكتشفة بعد الحرب العالمية الثانية خلت من الحديث عن الخطيئة والغفران الذي يتحدث عنه آباء الكنيسة.

٢- أن ثمة منكرون لهذه العقيدة في النصارى، ومنهم الراهبان في روما في مطلع القرن الخامس بيلاجوس وسليتوس وأصحابهما، فقد أنكروا سريان الخطيئة الأصليَّة إلى ذرية آدم، واعتبروه مما يمنع السعادة الأبدية، وقالوا بأن الإنسان موكول بأعماله.

٣- ومنهم كوائيليس شيس الذي نقلت عنه دائرة المعارف البريطانية أنه قال: «ذنب آدم لم يضر إلا آدم، ولم يكن له أي تأثير على بني النوع البشري، والأطفال الرضعاء حين تضعهم أمهاتهم

يكونون كما كان آدم قبل الذنب».

٤- ويقول الميجور جيمس براون عن فكرة وراثة الذنب الأول: «فكرة فاحشة مستقذرة، لا توجد قبيلة اعتقدت سخافة كهذه».

٥- ويقول الدكتور نظمي لوقا حيث تحدث عن الآثار السلبية التي تتركها هذه العقيدة فيقول: «الحق أنه لا يمكن أن يقدر قيمة عقيدة خالية من أعباء الخطيئة الأولى الموروثة إلا من نشأ في ظل تلك الفكرة القاتمة التي تصبغ بصبغة الخجل والتأثم لكل أفعال الفرد، فيمضي حياته مضي المريب المتردد، ولا يقبل عليها إقبال الواثق بسبب ما أنقض ظهره من الوزر الموروث.

إن تلك الفكرة القاسية تسمم ينابيع الحياة كلها، ورفعها عن كاهل الإنسان منّة عظمى، بمثابة نفخ نسمة حياة جديدة فيه، بل هو ولادة جديدة حقًّا...».

ويقول: «وإن أنسى لا أنسى ما ركبني صغيرًا من الفزع والهول من جراء تلك الخطيئة الأولى، وما سيقت فيه من سياق مروع يقترن بوصف جهنم ... جزاء وفاقًا على خطيئة آدم بإيعاز من حواء ... وإن أنسى لا أنسى القلق الذي ساورني وشغل خاطري على ملايين البشر قبل المسيح أين هم، وما ذنبهم حتى يهلكوا بغير فرصة للنجاة»[(١)].

وهكذا بطل القول بسريان الخطيئة إلى ذرية آدم، من خلال النصوص الصريحة في الكتب المقدَّسة وبشهادة العقلاء من أبناء النصرانيَّة.

نقض الخلاص عن طريق الصلب

أولًا: التوبة من الذنب كفارة له.

لقد تحدثت نصوص التوراة والإنجيل بإسهاب عن التوبة وقصصها قبول الله لها.

١- فها هو المسيح يجلس مع العشارين والخطاة، فيتذمر الفريسيون والكتبة لذلك قائلين: «هذا يقبل خطاة ويأكل معهم» (لوقا ١٥/ ٢) فأراهم المسيح حرصه على التوبة وفرحة الله بالتائب «وكلمهم بهذا المثل قائلًا: أي إنسان منكم له مائة خروف وأضاع واحدًا منها، ألا يترك التسعة والتسعين في البرية ويذهب لأجل الضال، حتى يجده، وإذا وجده يضعه على منكبيه فرحًا ويأتي إلى بيته، ويدعو الأصدقاء والجيران قائلًا لهم: افرحوا معي، لأني وجدت خروفي الضال.

أقول لكم: إنه هكذا يكون فرح في السماء بخاطئ واحد يتوب...» (لوقا ١٥/ ٣-٧)، وعليه فالتوبة مقبولة عند الله كوسيلة للخلاص من الذنب، ولا تتناقض مع قدر الله القاضي بالقصاص من العاصي.

---

(١) انظر: مخطوطات البحر الميت ص(١٥٤)، ما هي النصرانية ص(٨٨ - ٩٠)، المسيح إنسان أم إله، محمد مجدي مرجان، ص(١٣٩)، الخطيئة الأولى بين اليهودية والمسيحية والإسلام، أميمة شاهين، ص(٢٧٠)، محمد الرسالة والرسول، نظمي لوقا، ص(٧٥-٧٨).

٢- كما ضرب للتوبة وأهلها ومنزلتها مثلين آخرين، فقد شبّه الفرح بالتائب بفرح الأب بعودة ابنه الضال وبعثور صاحب الدرهم الضائع على درهمه. (انظر لوقا ٨/١٥ - ٣٢).

٣- ولقد وعد الله التائبين بالقبول ففي سفر حزقيال: «فإذا رجع الشرير عن جميع خطاياه التي فعلها، وحفظ كل فرائضي، وفعل حقًّا وعدلًا، فحياة يحيا، لا يموت، كل معاصيه التي فعلها لا تذكر عليه، بره الذي عمل يحيا، هل مسرة أسرُّ بموت الشرير» (حزقيال ١٨/ ٢١-٢٣).

٤- وفي إشعيا يؤكد الوعد فيقول: «ليترك الشرير طريقه، ورجل الإثم أفكاره، وليتب إلى الرب فيرحمه، وإلى إلهنا لأنه يكثر الغفران» (إشعيا ٥٥/ ٧)، فالرب الحليم الرحيم يعد عباده العاصين بالرحمة حال توبتهم، من غير أن يتناقض عدله مع رحمته، إذ هو يفعل ما يريد.

٥- ويقول يوحنا المعمدان مخاطبًا اليهود مذكرًا إياهم بأهمية التوبة: «يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي، فاصنعوا أثمارًا تليق بالتوبة، ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أبًا» (متى ٣/ ٧ -٩)، فالتوبة هي الطريق، وليس النسب كما ليس الفداء.

٦- تقول التوراة: «فإذا تواضع شعبي الذين دعي اسمي عليهم، وصلّوا وطلبوا وجهي، ورجعوا عن طرقهم الردية، فإنني أسمع من السماء» (الأيام (٢) ٧/ ١٤).

ثانيًا: عفو الله وغفرانه للمذنبين.

والعفو من الصفات الإلهية التي اتصف بها الرب، وطلب من عباده أن يتصفوا بها، وهو أولى بها لما فيها من كمال وحُسن، وقد عفا عن بني إسرائيل من غير كفارة ولا مصلوب «رضيت يا رب على أرضك، أرجعت سبي يعقوب، غفرت إثم شعبك، سترت كل خطيتهم، سلاه، حجزت كل رجزك، رجعت عن حمو غضبك» (المزمور ٨٥/ ١-٣).

ويقول بولس: «طوبى للذين غفرت آثامهم وسترت خطاياهم، طوبى للرجل الذي لا يحسب له الرب خطية» (رومية ٤/ ٧-٨)، فثمة أناس عفا الله عن خطاياهم وذنوبهم، وسترها عليهم، من غير دم يسفك عنهم، ولا تناقض بين عدل الله ورحمته بشأنهم.

وقد علّم المسيح تلاميذه خلق العفو، وضرب لهم مثلًا قصة العبد المديون والمدين. (انظر متى ١٨/ ٢٣ - ٣٤).

وكان بطرس قد سأل المسيح: «يا رب كم مرة يخطئ إليّ أخي وأنا أغفر له؟ هل إلى سبع مرات؟ قال له يسوع: بل إلى سبعين مرة» (متى ١٨/ ٢١ - ٢٢).

ومرة أخرى قال لهم: «أما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم وباركوا لَاعِنِيكُم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات، فإنه تشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين» (متى ٥/ ٤٤ - ٤٥).

فالعفو عن الخاطئين صفة مدح، اللهُ أولى بها من عباده، وهو أقدر منهم وأغنى جل وعز.

ولِمَ لا يكون العفو بصك غفران يمنحه الله لآدم، ويجنب المسيح ويلات الصلب وآلامه، أو لِمَ لا يجعل للمسيح فدية عن الصلب، كما جعل لإبراهيم فدية فدى بها ابنه إسماعيل.

ثالثًا: الاكتفاء بالعقوبة التي نالها الأبوان.

العقوبة المستحقة لهما قد نالوها بالفعل، فما بال الخطيئة تتوارث وعقوبتها في أبنائهم، أفليس تكرار العقوبة للعاصي صورة من صور الظلم الذي يتنزه عنه الله!

ذكر سفر التكوين أن الله توعد آدم بالموت إن هو أكل من الشجرة.

لكنه بدلًا عن أن يموت وزوجه جزاء خطيئتهما وتنطفئ الفتنة والفساد والشر في المهد، بدلًا من ذلك كثّر نسلهما، فكان ذلك حياة لهما لا موتًا، وكان سببًا في زيادة الشر والفساد على الأرض.

ثم إضافة للموت الذي لم يتحقق عاقبه بقوله: «ملعونة الأرض بسببك، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك، وشوكًا وحسكًا تنبت لك، وتأكل عشب الحقل بعرق وجهك تأكل خبزًا، حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها؛ لأنك تراب وإلى تراب تعود» (التكوين ٣/ ١٧ - ١٩)، فطرد آدم من الجنة ليعيش في الأرض ويكد فيها، فتلك عقوبته.

وكذلك فإن زوجه حواء عوقبت «تكثيرًا أكثر أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولادًا، وإلى رجلك يكون اشتياقك، وهو يسود عليك» (التكوين ٣/ ١٦).

رابعًا: مسئولية الإنسان عن عمله.

ومما يبطل نظرية وراثة الذنب أيضًا النصوص التي تحمل كل إنسان مسئولية عمله.

وقد تعاقَب الأنبياء على التذكير بهذا المعتقد في نصوص كثيرة ذكرتها التوراة والأناجيل.

١- ومنها ما جاء في التوراة «وكلم الرب موسى وهارون قائلًا: افترزا من بين هذه الجماعة، فإني أفنيهم في لحظة، فخرّا على وجهيهما وقالا: اللهمّ إله أرواح جميع البشر، هل يخطئ رجل واحد فتسخط على كل الجماعة» (العدد ٢٦/ ٢٣)، واستجاب الله لهما فعذب بني قورح فقط دون بقية إسرائيل.

٢- وجاء في سفر المزامير: «الأخ لن يفدي الإنسان فداء، ولا يعطي الله كفارة عنه» (المزمور ٤٩/ ٧).

٣- وأيضًا في التوراة: «لا تموت الآباء لأجل البنين، ولا البنون يموتون لأجل الآباء، بل كل واحد يموت لأجل خطيته» (الأيام (٢) ٢٥/ ٤).

٤- وأيضًا يقول المسيح: «فإن ابن الإنسان سوف يأتي في مجد أبيه مع ملائكته، وحينئذ يجازي كل واحد حسب عمله» (متى ١٦/ ٢٧).

٥- وهو عين كلام المسيح: «كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حسابًا يوم

الدين؛ لأنك بكلامك تبرر، وبكلامك تدان» (متى ١٢/٣٦).

٦- والعجب أنه قد ورد إثبات مسئولية الإنسان عن عمله في كلام بولس الذي ابتدع معتقد وراثة الذنب، ومنها قوله عن الله: «الذي سيجازي كل واحد حسب أعماله» (رومية ٢/٦).

خامسًا: الأعمال حسب تعليم المسيح وتلاميذه هي طريق الخلاص.

لم يذكر المسيح في نصائحه لأتباعه شيئًا عن الخلاص بغير عمل، ومن ذلك.

١- جاءه رجل: «وقال له: أيها المعلم الصالح: أية صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية؟ فقال له: لماذا تدعوني صالحًا، ليس أحد صالح إلا واحد، وهو الله، ولكن إن أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا. قال له: أية الوصايا؟ فقال يسوع: لا تقتل. لا تزن. لا تسرق. لا تشهد بالزور . . .» (متى ١٩/١٦ - ٢٠)، فلم يطلب منه المسيح الإيمان فقط، بل طالبه بالعمل بما جاء في وصايا موسى عليه السلام (انظر الخروج ٢٠/١ - ٧).

٢- وفي مرة أخرى قال المسيح لتلاميذه: «فإني أقول لكم: إن لم يزد بِركم على الكتبة والفريسيين، فلن تدخلوا ملكوت السموات» (متى ٥/ ٢٠)، فلئن كان بطرس ويوحنا محجوبين عن الملكوت إلا بعمل صالح يشفع لهما، فماذا عن مصير أولئك الذين تبعوا بولس وأبطلوا الناموس.

ويشرح العلامة ديدات النص، فيقول: «أي لا جنة لكم حتى تكونوا أفضل من اليهود. وكيف تكونون أفضل من اليهود، وأنتم لا تتبعون الناموس والوصايا؟».

٣- والذين يعملون الصالحات هم فقط الذين ينجون يوم القيامة من الدينونة، فيما يحمل الذين عملوا السيئات إلى الجحيم، من غير أن يكون لهم خلاص بالمسيح أو غيره، «تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته. فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة، والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة» (يوحنا ٥/٢٨-٢٩).

٤- وأكد المسيح على أهمية العمل الصالح والبر، فقال للتلاميذ: «ليس كل من يقول لي: يا رب يا رب، يدخل ملكوت السموات. بل الذي يفعل إرادة أبي الذي في السموات، كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم: يا رب يا رب، أليس باسمك تنبأنا، وباسمك أخرجنا شياطين، وباسمك صنعنا قوات كثيرة، فحينئذ أصرّح لهم: إني لم أعرفكم قط. اذهبوا عني يا فاعلي الإثم» (متى ٧/ ٢٠-٢١)، فهؤلاء الذين يصنعون المعجزات والقوات باسم المسيح، سيتنكر لهم ويتخلى عنهم يوم القيامة، لما ارتكبوه من الموبقات، أي لمخالفتهم ناموس الله وشريعته.

٥- وأيضًا، فإن المسيح طلب من تلاميذه -بعد القيامة- أن يكرزوا ويدعوا الناس للتوبة من ذنوبهم ليحصلوا على غفران الخطايا، فقد أمر كل واحد منهم «أن يُكرز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم» (لوقا ٢٤/٤٧)، ولو كان الخلاص متحققًا بالإيمان لكانت الدعوة إلى التوبة ضربًا من ضروب العبث وإضاعة الأوقات والتنكر للهبات.

٦- وقد ضرب المسيح عليه السلام لتلاميذه مثلًا، بيّن فيه حال العامل بالناموس فقال لهم: «لماذا تدعونني: يا رب يا رب، وأنتم لا تفعلون ما أقوله؟ كل من يأتي إلي، ويسمع كلامي، ويعمل به، أريكم من يشبه؟ يشبه إنسانًا بنى بيتًا وحفر وعمق، ووضع الأساس على الصخر، فلما حدث سيل صدم النهر ذلك البيت، فلم يقدر أن يزعزعه؛ لأنه كان مؤسسًا على الصخر.

وأما الذي يسمع ولا يعمل، فيشبه إنسانًا بنى بيته على الأرض، ومن دون أساس، فصدمه النهر حالًا، وكان خراب ذلك البيت عظيمًا» (لوقا ٦/ ٤٦ - ٤٩).

٧- ويلاحظ أدولف هرنك أن رسائل التلاميذ خلت من معتقد الخلاص بالفداء، بل إنها جعلت الخلاص بالأعمال كما جاء في رسالة يعقوب «ما المنفعة يا إخوتي إن قال أحد: إنّ له إيمانًا، ولكن ليس له أعمال، هل يقدر الإيمان أن يخلصه؟ . . . الإيمان أيضًا إن لم يكن له أعمال ميت في ذاته. . . الإيمان بدون أعمال ميت» (يعقوب ٢/ ١٤ - ٢٠).

ويقول: «كونوا عاملين بالكلمة، لا سامعين فقط، خادعين نفوسكم» (يعقوب ١/ ٢٢)، ويقول: «الديانة الطاهرة النقية عند الله الآب هي هذه: افتقاد اليتامى والأرامل في ضيقتهم، وحفظ الإنسان نفسه بلا دنس من العالم» (يعقوب ١/ ٢٧).

٨- ويقول بطرس كبير الحواريين: «بالحق أنا أجد أن الله لا يقبل الوجوه. بل في كل أمة، الذي يتقيه ويصنع البر مقبول عنده» (أعمال ١٠/ ٣٤).

سادسًا: الدينونة دليل بطلان عقيدة الخلاص.

وتتحدث النصوص المقدّسة عند النصارى عن الدينونة والجزاء الأخروي الذي يصير إليه العصاة والمذنبون من النصارى وغيرهم، وهو مبطل لمعتقدات كافة الفرق النصرانيّة في الفداء، وهو مبطل لما زعموه من نسخ الشريعة بصلب المسيح.

فلو كان الناس كلهم ينجون بالفداء كما قال البرتستانت، لما كان لهذه النصوص معنى.

ثم إن كان الفداء عامًّا لكل البشر ولكل الخطايا، فإن هذا الفداء يشمل الإباحيين الذين يرتكبون الموبقات ويملئون الأرض بالفساد، وتكون عقيدة الفداء والخلاص سُلّمًا للرذيلة ودعوة للتحلل والفساد باسم الدين.

ثم القول بفداء الجميع يجعل ضمن الناجين أعداء الأنبياء كفرعون وقارون واليهود الذين تآمروا على المسيح، كما يشمل يهوذا التلميذ الخائن الذي قال عنه المسيح: «كان خيرًا لذلك الرجل لو لم يولد» (مرقس ١٤/ ١٢)، فلماذا تركه المسيح ينتحر؟ ولماذا لم يخبره بأن خلاصه قريب جدًّا، وأن لا داعي للانتحار؟.

وهكذا وضح لنا بالأدلة المتكاثرة أن البشر بريئون مما صنعه آدم في القديم، وأن خطيئته لا تتجاوزه إلى غيره، وأن ما يزعمه النصارى من توارث الخطيئة الأولى ولزوم الفداء بكائن إلهي، إنما هو هراء تمجه العقول وتزدريه الفطر، وهو ظلم يتنزه الله عنه، وقد نقله بولس والمجتمعون بعده في

مجمع نيقية من قصص الوثنيات السابقة للنصرانية[١].

(١) انظر: هل افتدانا المسيح على الصليب.

الباب الخامس

التنصير

الفصل الأول: تعريف التنصير.

الفصل الثاني: تاريخ التنصير.

الفصل الثالث: هل يريدون تنصير العالم الإسلامي أم علمنته.

الفصل الرابع: أهداف التنصير والمنصرين.

الفصل الخامس: مؤتمرات المنصرين.

الفصل السادس: المراكز والمعاهد التنصيريَّة.

الفصل السابع: وسائل التنصير.

الفصل الثامن: التنصير والاستعمار.

الفصل التاسع: التنصير واليهود.

الفصل العاشر: إمكانات المنصِّرين.

الفصل الحادي عشر: واجب المسلمين تجاه التنصير.

الفصل الأول

تعريف التنصير

التنصير حركة دينية سياسية استعمارية، بدأت في الظهور إثر فشل الحروب الصليبية؛ بغية نشر النصرانيَّة بين الأمم المختلفة في دول العالم الثالث بعامة وبين المسلمين بخاصة بهدف إحكام السيطرة على هذه الشعوب.

ويساعدهم في ذلك ثلاثة عوامل:

١- انتشار الفقر والجهل والمرض في معظم بلدان العالم الإسلامي.

٢- النفوذ الغربي في كثير من بلدان المسلمين.

٣- ضعف بعض حكام المسلمين الذين يسكتون عنهم أو ييسرون لهم السبل رغبًا ورهبًا أو نفاقًا لهم.

والتنصير يطلق على النشاط الذي تمارسه أفراد وهيئات ومنظمات أجنبية في الأراضي الإسلاميَّة ضد العقيدة والمجتمع في الإسلام.

وقد طرحت الكلمة ترجمة للمصطلح الأوربي Missions بديلًا عن كلمة التبشير.

وهذه الترجمة يختلف بعض الباحثين معها، وذلك لأسباب عندهم تتعلق بصحة ترجمة اللفظ وبمفهومه.

أما عن مفهوم التنصير في البيئة الإسلاميَّة فقد صِيغ المفهوم وتحددت وظيفتهَ فيما يؤدي إلى إخراج المسلمين من دينهم وليس بالضرورة إدخالهم في النصرانيَّة.

وينقل عن السموأل صموئيل زويمر في هذا الصدد قوله: لقد أديتم الرسالة التي أنيطت بكم أحسن الأداء، ووفقتم لها أسمى التوفيق وإن كان يخيل إلي أنه مع إتمامكم العمل على أكمل وجه، لم يفطن بعضكم إلى الغاية الأساسية منه، إني أقركم على أن الذين أدخلوا من المسلمين في حظيرة المسيحيَّة لم يكونوا مسلمين حقيقيين، لقد كانوا، كما قلتم، أحد ثلاثة؛ إما صغير لم يكن له من أهله من يعرّفه ما هو الإسلام، وإما رجل مستخفّ بالأديان لا يبغي غير الحصول على قوته، وقد اشتد به الفقر، وعزت عليه لقمة العيش، وإما آخر يبغي الوصول إلى غاية من الغايات الشخصية. ولكن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحيَّة للقيام بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحيَّة، فإن في هذا هداية لهم وتكريما. وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها. ولذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلاميَّة. وهذا ما قمتم به خلال الأعوام المائة السالفة خير قيام. وهذا ما أهنئكم وتهنئكم دول المسيحيَّة

والمسيحيون جميعًا.

وفي الخطاب السري الذي ألقاه البابا شنودة في الكنيسة المرقصية في الإسكندرية في مارس ١٩٧٣م ذكر فيه أنه: يجب مضاعفة الجهود التبشيريَّة الحالية، على أن الخطة التبشيريَّة التي وضعت بنيت على أساس أن الهدف الذي اتفق عليه التبشير في المرحلة القادمة هو التركيز إلى التبشير بين الفئات والجماعات أكثر من التبشير بين الأفراد، وذلك لزحزحة أكبر عدد من المسلمين عن دينهم، أو التمسك به، على ألا يكون من الضروري دخولهم في المسيحيَّة. ويكون التركيز في بعض الحالات على زعزعة الدين في نفوس المسلمين، وتشكيك الجموع الغفيرة في كتابهم، وفي صدق محمد.

وإذا نجحنا في تنفيذ هذا المخطط التبشيري في المرحلة القادمة؛ فإننا نكون قد نجحنا في إزاحة هذه الفئات عن طريقنا. وحتى هذه الحالة إن لم تكن لنا فلن تكون علينا.

وفي المؤتمر التنصيري الذي عقد بجبل الزيتون في القدس في فلسطين المحتلة سنة ١٣٤٦ هـ - ١٩٢٧م، وحضرته أربعون دولة من الدول الغربية الصليبية، حيث قام أحد أقطاب هذا المؤتمر قائلًا: أتظنون أن غرض التنصير وسياسته إزاء الإسلام هو إخراج المسلمين من دينهم ليكونوا نصارى؟ إن كنتم تظنون هذا فقد جهلتم التنصير ومراميه. لقد برهن التاريخ من أبعد أزمنته على أن المسلم لا يمكن أن يكون نصرانيًا مطلقًا، والتجارب دلتنا ودلت رجال السياسة النصرانيَّة على استحالة ذلك، ولكن الغاية التي نرمي إليها هي إخراج المسلم من الإسلام فقط، ليكون مضطربًا في دينه، وعندها لا تكون له عقيدة يدين بها ويسترشد بهديها، وعندها يكون المسلم ليس له من الإسلام إلا اسم أحمد أو مصطفى، أما الهداية فينبغي البحث عنها في مكان آخر.

وبقيت الدعوة إلى إدخال غير النصارى في النصرانيَّة جزءًا من المفهوم العام للتنصير، ولم تعد هي المفهوم الطاغي على هذه الحركة، لما فيها من الضيق في الاستجابة، رغم وجود الإمكانيات المادِّيَّة والبشرية العاملة في مجال التنصير في مفهومه العام [١].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي (٢/ ٦٦٥)، الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم، د. عبد الراضي محمد عبد المحسن ص(٧، ٨)، جذور البلاء، عبد الله التل ص(٢٧٥)، ما يجب أن يعرفه المسلم من حقائق عن النصرانية والتبشير، إبراهيم السليمان الجبهان ص(٢٧)، العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، محمد طاهر التنير ص(١٨)، التنصير مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته، علي بن إبراهيم الحمد النملة.

الفصل الثاني

تاريخ التنصير

لقد بدأ التنصير وتوسع إثر الانهزامات التي مني بها الصليبيون طوال قرنين من الزمان ١٠٩٩ - ١٢٥٤م أنفقوهما في محاولة الاستيلاء على بيت المقدس وانتزاعه من أيدي المسلمين.

فعندما خابت أوربا في الحروب الصليبية الأولى عن طريق السيف، أرادت أن تثير على المسلمين حربًا صليبية جديدة عن طريق التنصير (التبشير)، وقد جاء هذا التحول بناء على وصية القديس لويس التاسع ملك فرنسا وقائد الحملة الصليبية السابقة التي انتهت بالفشل ووقوع لويس نفسه في الأسر والسجن في مدينة المنصورة بمصر.

وتلفت الوصية الأنظار إلى صعوبة قهر المسلمين عن طريق القوة بسبب روح الجهاد لديهم وتوصي بتلمس طرق الغزو الفكري الهادف إلى دحض العقائد الإسلاميَّة وتزييفها.

وأول نصراني تولَّى التبشير بعد فشل الحروب الصليبية في مهمتها هو الراهب ريموند لل الأسباني ١٢٣٥- ١٣١٥، الذي صرف حياته لمهمة تنصير المسلمين؛ إذ إنه قد تعلم اللغة العربيَّة بكل مشقة وأخذ يجول في بلاد الشام مناقشًا علماء المسلمين.

وسعى جاهدًا لتحقيق هدفه عن طريقين:

١- طريق شخصي: بتصنيف الكتب الجدلية عن الإسلام والقرآن.

٢- طريق مؤسسي: بإقناع ملك ميورقة بإنشاء كلية الثالوث المقدس لإعداد المبشرين للعمل ضد الإسلام، وفي الغرب بتقديم ثلاث عرائض إلى البابا كليمان الخامس لإنشاء كلية لدراسة العربيَّة، وعدد من كراسي تعليم اللغة العربيَّة في الجامعات المختلفة لتكون من أهم وسائل الجدال ضد الإسلام والقرآن وأفضل الوسائل لتنصير المسلمين.

وبالفعل نجحت مساعي ريموند لل المؤسسية، فقد أمر يعقوب الأول ملك ميورقة بإنشاء كلية الثالوث المقدس لإعداد المبشرين، وقام لول نفسه بإعدادهم فيها.

وقرر مجمع فيينا الكنسي ١٣١١ إنشاء خمسة كراسي لتعليم اللغة العربيَّة في أكبر خمس جامعات في أوربا: باريس، أكسفورد، بولونيا، سلمنكا، جامعة الإدارة المركزية البابوية، وعين للتدرس فيها مدرسين كاثوليكيين.

ومن المؤسسات التي أسست في سوريا أوائل القرن الثالث عشر الميلادي مدارس الفرنسيسكان المنسوبة إلى القديس فرنسيس، والدومنيكان المنسوبة إلى القديس دومنيك، وكان المنصِّر يُعَدُّ لهذه المهمة قبل أن يرسَل لمباشرتها، ومن أهم وسائل إعداده تعلُّمه اللغة العربيَّة وشيئًا من الدراسات الإسلاميَّة؛ وذلك هو الدستور الذي لا يزال سائدًا حتى الآن.

ومنذ القرن الخامس عشر بدأت الاكتشافات الجغرافية البرتغالية، التي تعد إحدى مرحلتي الاستعمار الأوربي الساعية إلى تطويق العالم الإسلامي لإضعافه تمهيدًا لضربه في الداخل، وفي أثناء هذه الكشوف دخل المبشرون الكاثوليك إلى إفريقيا، وبعد ذلك بكثير أخذت ترد الإرساليات التبشيريَّة البروتستانتيَّة إنجليزية وألمانية وفرنسية.

وممن احتك بمسلمي سواحل إفريقيا منذ وقت مبكر بيتر هلينغ.

وفي المرحلة الثانية للاستعمار الأوربي في القرن الخامس إثر الثورة الصناعية لاحتياجهم إلى المواد الخام لتشغيل مصانعهم، وإلى الأسواق التي يصرفون فيها منتجاتهم، فكان العالم الإسلامي هدفًا من أهداف هذا الاستعمار الذي ليس إلا فصلًا من فصول الحملات الصليبية على العالم الإسلامي، وهذا الاستعمار الحديث مهد له المنصِّرون والمستشرقون بدراساتهم وأبحاثهم.

ونتج عن الاستعمار بمرحلتيه آثار عظيمة لا زالت الأمة الإسلاميَّة تعاني منها إلى اليوم وكان منها ممارسة التنصير، وتبديل ثقافة الأمة بثقافة أخرى ليست لها.

ومنذ عام ١٦٦٤م حرك البارون دوبيتز ضمائر النصارى إلى تأسيس كلية تكون قاعدة لتعليم التبشير المسيحي.

وقد ظهر إبَّان القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر المستر كاري الذي فاق أسلافه في مهنة التبشير.

وكان للمبشر هنري مارتن ت ١٨١٢م يد طولى في إرسال المبشرين إلى بلاد آسيا الغربية، وقد ترجم التوراة إلى الهندية والفارسية والأرمنية.

وفي عام ١٧٩٥م تأسست جمعيَّة لندن التبشيريَّة وتبعتها أخريات في اسكوتلانده ونيويورك.

وفي سنة ١٨١٩م اتفقت جمعيَّة الكنيسة البروتستانتيَّة مع النصارى في مصر وكونت هناك إرسالية عهد إليها نشر الإنجيل في إفريقيا.

وقد اخترق أواسط إفريقيا الرحالة بريطاني دافيد ليفنستون ١٨١٣ - ١٨٧٣م، وقد كان مبشرًا قبل أن يكون مستكشفًا.

وفي سنة ١٨٤٩م أخذت ترد إرساليات التبشير إلى بلاد الشام، وقد قامت بتقسيم المناطق بينها.

ورَأَسَ الأب شانتور الكلية اليسوعيَّة في بيروت زمنًا طويلًا أيام الانتداب الفرنسي.

وفي سنة ١٨٥٥م تأسست جمعيَّة الشبان المسيحيَّة من الإنجليز والأمريكان، وقد انحصرت مهمتها في إدخال ملكوت المسيح بين الشبان كما يزعمون.

وفي سنة ١٨٩٥م تأسست جمعيَّة اتحاد الطلبة المسيحيين في العالم، وهي تهتم بدراسة أحوال التلاميذ في كل البلاد مع العمل على بث روح المحبة بينهم (المحبة تعني التبشير بالنصرانيَّة).

وقام الدكتور (لانسنج) وثلاثة من مساعديه، وهم: جيمس كانتين، وصموئيل زويمر، وفيليب فيلبس، بتشكيل مجموعة تنصيريَّة في ولاية نيوجرسي الأمريكيَّة، هدفها: نشر الدين النصراني في بعض البلدان العربيَّة، وكانت البداية في منطقة الخليج والجزيرة العربيَّة، ويذكر صموئيل زويمر السبب في هذا الاختيار بقوله: إن من الدوافع إلى العمل في المنطقة: الأسباب التاريخية؛ فللمسيح الحق في استرجاع الجزيرة العربيَّة التي أكدت الدلائل التي تجمعت لدينا في الخمسين سنةً الأخيرة، أن المسيحيَّة كانت منتشرةً فيها في بداية عهدها.

وبعد عدة سنوات من الاجتماعات وحملات التبرع بدأت الإرسالية الأمريكيَّة أولى رحلاتها إلى البصرة في العراق في عام (١٨٨٩م)، ثم تتابعت الرحلات إلى الكويت والبحرين وعمان والإمارات واليمن. . . ونحوها.

وقد نشرت مقالات ومذكرات عدد من المنصرين في هذه المنطقة في عدة كتب من أهمها: كتاب صدمة الاحتكاك.

ويعد من أكبر أعمدة التنصير في العصر الحديث صموئيل زويمر، رئيس إرسالية التبشير العربيَّة في البحرين ورئيس جمعيَّات التنصير في الشرق الأوسط، كان يتولى إدارة مجلة العالم الإسلامي الإنجليزية التي أنشأها سنة ١٩١١م وما تزال تصدر إلى الآن من هارتيفورد.

وقد دخل زويمر البحرين عام ١٨٩٠م، ومنذ عام ١٨٩٤م قدمت له الكنيسة الإصلاحية الأمريكيَّة دعمها الكامل.

وأبرز مظاهر عمل البعثة التي أسسها زويمر كان في حقل التطبيب في منطقة الخليج وتبعًا لذلك فقد افتتحت مستوصفات لها في البحرين والكويت ومسقط وعمان.

وقد أُسس معهد باسم زويمر في أمريكا لأبحاث تنصير المسلمين، وخلف صموئيل زويمر على رئاسة مجلة العالم الإسلامي كنيث كراج، وقام بالتدريس في الجامعة الأمريكيَّة بالقاهرة لفترة من الوقت، وهو رئيس قسم اللاهوت المسيحي في هارتيفورد بأمريكا، وهو معهد للمبشرين، ومن كتبه نداء المِئْذَنة صدر عام ١٩٥٦م، وكتاب القبة والصخرة.

وكان أكبر شخصية في مؤتمر لوزان التبشيري عام ١٩٧٤م دون هك كري وهو بروتستانتي، عمل مبشرًا في الباكستان لمدة عشرين سنة، وهو أحد طلبة مدرسة فلر للتبشير العالمي. وبعد مؤتمر كولورادو التبشيري عام ١٩٧٨م أصبح مديرًا لمعهد صموئيل زويمر الذي يضم إلى جانبه دارًا للنشر ولإصدار الدراسات المختصة بقضايا تنصير المسلمين ومقرها في كاليفورنيا، وهو يقوم بإعداد دورات تدريبية لإعداد المبشرين وتأهيلهم.

وقام لويس ماسينيون على رعاية التبشير والتنصير في مصر، وهو عضو مجمع اللغة العربيَّة بالقاهرة، كما أنه مستشار وزارة المستعمرات الفرنسيَّة في شئون شمال إفريقيا.

ويرى بابا الفاتيكان بعد سقوط الشيوعية أن من مصلحة الكنيسة ومصلحة رجال السياسة

توجيه عموم الشعب المسيحي نحو خصم جديد يخيفه به وتجنده ضده، والإسلام هو الذي يمكن أن يقوم بهذا الدور في المقام الأول.

ويقوم البابا بمغادرة مقره بمعدل أربع رحلات دولية لكسب الصراع مع الأيديولوجيات العالمية وعلى رأسها الإسلام.

وتوجد بلايين الدولارات تحت تصرفه للإنفاق منها على إرسال المنصرين وإجراء البحوث وعقد المؤتمرات والتخطيط لتنصير أبناء العالم الثالث وتنظيم وتنفيذ ومتابعة النشاط التنصيري في كل أنحاء العالم وتقويم نتائجه أولًا بأول[1].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٦٥- ٦٦٨)، الغارة التنصيرية على القرآن ص(٣١، ٣٢) التنصير تعريفه أهدافه وسائله حسرات المنصرين، عبد الرحمن بن عبد الله الصالح، مجلة البيان العدد ١٥٤ ص(٥٢- ٦٢).

الفصل الثالث

هل يريدون تنصير العالم الإسلامي أم علمنته؟

يبدو أنه لا فرق بين الأمرين؛ لأن الكنيسة تعلمنت، والعلمانيَّة أحست بضرورة وجود الكنيسة؛ فالصراع زال، وحل محله الوفاق ليقوم كل بدوره تجاه أبناء النصرانيَّة العلمانيين وتجاه غيرهم.

لقد ثار الغرب ثورة الحرية على الكنيسة وقيودها، وأعلن العلمانيَّة فانتهى بذلك دور الكنيسة، وتحول الغربي إلى مادي حيواني يغب في شهواته، ويشبع غرائزه ويعيش يومه ولا يفكر في غده، ولا يؤمن بالحساب، ومنذ تلك الثورة ظلت الكنيسة تغازل العلمانيَّة، وتخطب ودها بما يقدمه رجال الدين النصراني من تنازلات لإرضاء الماديين حتى خرقوا أنظمة الكهنوت، وخالفوا تعليمات أناجيلهم المحرفة، وأباحوا للناس ما أجمعت الشرائع والعقول والفطر السليمة على تحريمه من زواج الرجال بالرجال والنساء بالنساء وسائر أنواع الشذوذات، كما قالت مجموعة أبناء الرب: إن الخوف من الزنى لم يعد له مكان، وإن عمليتي اللواط والسحاق مباحتان ما دامتا تتمان في جو من الحب، وقال ديفيد جاكس المتحدث باسم هذه المجموعة: «إن تقديم العون الجنسي واجب على كل فرد، وإن أفراد المجموعة من النساء مطالبات بتقديم كل ما يمكن أن يغري أعضاءً جددًا»، وأنه لا بد من تغطية نفقات المجموعة من بيع الجنس إذا اقتضى الأمر.

ولا أدل على علمنة الكنيسة من إعلان عدد من جماعات التنصير في أمركيا، وهولندا، وإيطاليا، والسويد، وألمانيا، والدانمارك، وأسبانيا، وإنجلترا -رفضهم للوصايا العشر التي جاءت في شريعة موسى، والتي تعد أهم دعائم النصرانيَّة، واعتبر بعضهم أن هذه الوصايا انتهت وانتهى زمانها.

وفي المقابل ثبت لدى العلمانيين الغربيين حاجة الفرد إلى الكنيسة؛ لأنه مفطور على التعلق بالله سبحانه وتعالى؛ لا سيما بعد فُشُوِّ أمراض القلق والجنون والفصام وغيرها من الأمراض النفسية في الغرب، وقد أدى كثير منها إلى الانتحار، فباركت العلمانيَّة تنازلات الكنيسة، ولم تمانع من وجودها بعد فقد سلطانها لإشباعٍ روحيٍّ زائف.

عولمة التنصير

مما سبق نفهم تآزر القوى العلمانيَّة مع العصابات الكنسية في عملية التنصير الضخمة التي قد شحن الغرب إمكانياته لإنجاحها، وبات من الواضح تحول الغرب من التنصير الفردي إلى التنصير الجماعي لسببين رئيسين:

١- أن التنصير الفردي بطيء جدًا لا يتناسب وعصر السرعة، ولا يتناسب مع اتساع رقعة العمل الفسيحة أمام المنصرين الذين يمكنهم الدخول إلى أي مكان ما دامت قوى الغرب السياسية تنفرد بالقرارات وتدير المنظمات الدولية.

٢- أن التنصير الفردي يؤدي إلى اقتلاع الفرد من بيته ومجتمعه مما يجعله مشلول الإرادة، منبوذًا من قومه مما يكون سببًا في رجوعه، وإن بقي على نصرانيته يصبح عبئًا على الكنيسة التي نصّرته، ولن يستطيع التأثير فيمن حوله.

والتنصير الجماعي يعني نقل أمة من الناس قبيلة أو قرية أو مدينة كاملة من الإسلام إلى النصرانيَّة لكيلا يحس أحد منهم بالغربة، والوسيلة لتحقيق ذلك هو استغلال الأزمات والكوارث، وربما افتعالها من قِبَل مَنْ بأيديهم القرار السياسي والعسكري والاقتصادي للتدخل في بلد ما وإيجاد أزمة تخنق شعبه، ومن ثم تقوم الهيئات والمنظمات التنصيريَّة بإكمال باقي المهمة بتنصير هذا الشعب الذي يعيش الأزمة، وهذا ما نص عليه مؤتمر كولورادو التنصيري؛ إذ جاء في إحدى فقراته: (لا بد من وجود أزمات معينة ومشكلات وعوامل إعداد وتهيئة تدفع الناس أفرادًا وجماعات خارج حالة التوازن، وفي غياب مثل هذه الأوضاع المهيئة فلن تكون هناك تحولات كبيرة إلى النصرانيَّة).

وليس هذا يعني بالضرورة التنسيق الكامل بين الدوائر العلمانيَّة صاحبة القرار في الغرب وبين المنظمات التنصيريَّة حتى لا يقال: إن هذا من إفرازات فكر المؤامرة ولكنه تقاطع المصالح؛ فالقوى السياسية والعسكرية والاقتصادية في الغرب تخنق شعوب العالم الثالث لإثبات القوة والغطرسة أو لنهب ثرواتها أو لتأديب من يرفض قوانينها الجائرة، والهيئات التنصيريَّة تستغل فرص التجويع والإفقار والحصار لتقوم بأنشطتها التنصيريَّة، ومن سيمنعها من ذلك إذا كانت الدولة المُحَاصَرَة نفسها لم تستطع فك الحصار عن نفسها أو اختراقه فضلًا عن منع المنصرين من مد يد العون والمساعدة لشعبها المجوَّع المُحَاصَر؟!

ولن يتوقف النصارى عند هذا الحد؛ إذ صرحوا بلزوم التدخل في شئون الدول التي فيها أقليات نصرانية بزعم حمايتها من اضطهاد المسلمين مع أن هذه الأقليات تحظى في بلاد المسلمين بما لا يحظى به المسلمون من الرعاية والتكريم بل والذلة لهم وتنفيذ مطالبهم وإظهار شعائر شركهم تحت قيادة الحكومات العلمانيَّة، ومع ذلك لم يرتض الغرب المنتصر هذه السيرة، ولن ترضيه حتى يجعل الأقليات النصرانيَّة حاكمة على المسلمين أو تنفصل عن الدولة لتشكل دولة نصرانية كما حصل في تيمور الشرقيَّة وكما يريدون حصوله في جنوب السودان.

وفي زمن العولمة لن يستطيع أحد منعهم من التدخل في شئون الدول الداخلية؛ لأن القوة بأيديهم والمنظمات الدولية تأتمر بأمرهم، وتصدر قراراتها على ضوء توجهاتهم، ثم إذا منعتهم وصار قرارهم وتدخلهم فرديًا فمن سيعاقبهم ويحاصرهم؟!

وقد ضربت السودان وأفغانستان بقرار فردي لصرف الأنظار عن فضيحة جنسية؛ فهل عوقب الضارب؟ وهل حوصرت دولته[1]؟!

---

(١) انظر: مجلة البيان العدد ١٥٤ ص(٥٢- ٦٢).

الفصل الرابع

أهداف التنصير والمنصرين

يسعى المخطط التنصيري إلى تحقيق مجموعة من الأهداف في البلاد الإسلاميَّة؛ فالمنصِّرون يعتبرون الإسلام هو الدين الوحيد الخطر عليهم؛ فهم لا يخشون البوذية ولا الهندوكية ولا اليهوديَّة؛ إذ إنها جميعًا ديانات قومية لا تريد الامتداد خارج أقوامها وأهلها، وهي في الوقت نفسه أقل من النصرانيَّة رقيًّا.

أما الإسلام فهو كما يسمونه دين متحرك زاحف يمتد بنفسه وبلا أية قوة تساعده، وهذا هو الخطر فيه كما يقولون ومن هنا نجد أن للتنصير أهدافًا متنوعة، منها ما هو تقليدي، ومنها ما هو غير تقليدي، ومن هذه الأهداف ما هو ظاهر جليّ، ومنها ما هو باطني خفيّ، بل إن للتنصير أهدافًا بالغة الخطورة على الإسلام وعلى المسلمين، ورغم ذلك يكاد ألا يشعر بها أحدٌ من المسلمين.

ومن أهم الأهداف التي يسعى المنصرون إلى تحقيقها، في مواجهة الإسلام خاصة، وفي نشر التنصير بعامة الآتي:

١- الحيلولة دون دخول النصارى في الإسلام، وهذا الهدف موجه الجهود في المجتمعات التي يغلب عليها النصارى. ويعبّر عنه بعض المنصرين بحماية النصارى من الإسلام.

فالمنصرون يشنون هجومهم على الإسلام خوفًا على قومهم من معرفته أكثر من رغبتهم في تنصير المسلمين؛ فهم يخافون الإسلام ويرددون دائمًا أنه الدين الوحيد الخطر عليهم، ويفضل الغرب أن يظل يُنعت بالنصرانيَّة على الرغم من علمانيته وإلحاده، وعلى الرغم من تهميشه للكنيسة هناك.

ويأتي تبشير الغرب بالنصرانيَّة أو ما نسميه نحن بالتنصير مسوغًا اصطنعه ليواجه التوسع الإسلامي، وليضفي الشرعية على هذه المواجهة، ويتقاسم مع التوسع الإسلامي أسس الهداية والإيمان.

٢- الحيلولة دون دخول الأمم الأخرى -غير النصرانيَّة- في الإسلام والوقوف أمام انتشار الإسلام بإحلال النصرانيَّة مكانه، أو بالإبقاء على العقائد المحلية المتوارثة.

٣- إخراج المسلمين من الإسلام، أو إخراج جزء من المسلمين من الإسلام. وهذا من الأهداف طويلة المدى؛ لأن النتائج فيه لا تتناسب مع الجهود المبذولة له من أموال وإمكانات بشرية وماديَّة؛ ذلك لأنه يسعى إلى هدم الإسلام في قلوب المسلمين، وقطع صلتهم بالله تعالى، وجعلهم مسخًا «لا تعرف عوامل الحياة القوية التي لا تقوم إلا على العقيدة القويمة والأخلاق الفاضلة».

يقول زويمر أحد أقطاب التنصير: إن مهمة التنصير ليست هي إدخال المسلمين في المسيحيَّة (النصرانيَّة)؛ فإن هذه هداية لهم وتكريم، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله.

ويجدر بنا أن ننبه على أن هدف التنصير يختلف من منطقة إلى أخرى؛ ففي البلاد العربيَّة يكتفي بزعزعة عقيدة المسلم وإخراجه من الإسلام، وليس مهمًّا أن يدخل النصرانيَّة، أما خارج البلاد العربيَّة فيتم تنصير المسلمين فعلًا، وليس معنى هذا أن البلاد العربيَّة ذات حصانة ضد التنصير؛ فقد وقع فيها أعمال للتنصير آتت أكلها الخبيثة في أحيان كثيرة، وتنصَّر بعضٌ من الناس بالفعل في تلك البلدان، ولكن كان التنصير أكثر وقعًا في البلدان الإسلاميَّة الأخرى.

٤- بذر الاضطراب والشك في المثل والمبادئ الإسلاميَّة، لمن أصروا على التمسك بالإسلام، ولم يُجْدِ فيهم الهدف الثالث سالف الذكر.

وقد تكرر هذا الهدف في محاولات المنصر المعروف صموئيل زويمر الذي خاص تجربة التنصير في البلاد العربيَّة بعامة وركز على منطقة الخليج العربيَّة بخاصة. وقد أرسل إلى لو شاتليه رسالة في ٧ / ٨ / ١٣٢٩ هـ - ٢ / ٨ / ١٩١١ م قال فيها: «إن لنتيجة إرساليات التبشير في البلاد الإسلاميَّة مزيتين: مزية تشييد، ومزية هدم، أو بالحري مزيتي تحليل وتركيب. والأمر الذي لا مرية فيه هو أن حظ المبشرين من التغيير -الذي أخذ يدخل على عقائد الإسلام ومبادئه الخلقية في البلاد العثمانية والقطر المصري وَجِهَاتٍ أخرى- هو أكثر بكثير من حظ الحضارة الغربية منه، ولا ينبغي لنا أن نعتمد على إحصائيات التعميد في معرفة عدد الذين تنصروا رسميًا من المسلمين؛ لأننا هنا واقفون على مجرى الأمور ومتحققون من وجود مئات من الناس انتزعوا الدين الإسلامي من قلوبهم واعتنقوا النصرانيَّة من طرف خفي».

ويعقب شاتليه على رسالة زويمر بقوله: ولا شك أن إرساليات التبشير من بروتستانتيَّة وكاثوليكيَّة تعجز عن أن تزحزح العقيدة الإسلاميَّة من نفوس منتحليها، ولا يتم لها ذلك إلا ببث الأفكار التي تتسرب مع اللغات الأوربية، فبنشرها اللغات الإنجليزية والألمانيَّة والهولندية والفرنسيَّة يتحكك الإسلام بصحف أوربا، وتتمهد السبل لتقدم إسلامي مادي، وتقضي إرساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينيَّة الإسلاميَّة التي تحفظ كيانها وقوتها إلا بعزلتها وانفرادها.

٥- الإيحاء بأن المبادئ والمثل والتعاليم النصرانيَّة أفضل من أي مثل ومبادئ أخرى، لتحل هذه المثل والمبادئ النصرانيَّة محل المبادئ والمثل الإسلاميَّة.

٦- الإيحاء بأن تقدم الغربيين الذي وصلوا إليه إنما جاء بفضل تمسكهم بالنصرانيَّة، بينما يُعزى تأخر العالم الإسلامي إلى تمسكهم بالإسلام، وهذا منطق المنصرين المتمسكين بنصرانيتهم، أما العلمانيون فإنهم يقررون أن سر تقدم الغرب إنما جاء لتخليهم عن النصرانيَّة، وأن تخلف المسلمين يعود إلى إصرارهم على التمسك بدينهم.

٧- تعميق فكرة سيطرة الرجل الغربي الأبيض على بقية الأجناس البشرية الأخرى، وترسيخ مفهوم الفوقية والدونية؛ تعضيدًا للاحتلال بأنواعه والتبعية السياسية من الشعوب والحكومات الإسلاميَّة للرجل الأبيض، ومن ثَمَّ يستمر إخضاع العالم الإسلامي سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا لسيطرة الاحتلال، ويستمر التحكم في مقدراته وإمكاناته.

ومن ثَم تهيئة الأجواء لقبول ما يسمى بـ«العولمة» أو «الكوكبة» وما يتبع هذا النظام من توحيد الأيديولوجية السياسية العالمية، وإقامة هيكل اقتصادي جديد، وبث قيم اجتماعيَّة عصرية، وإزالة الحواجز الثقافية، وتذويب الفروق بين المجتمعات الإنسانية المختلفة انتهاءً برعاية الحوارات الدينيَّة والثقافية، بل والدعوة إلى ما يشبه الدين العالمي. . . إلى غير ذلك من شعارات وأهداف براقة ينخدع بها الكثيرون؛ فإن ظاهرها فيه الرحمة وباطنها فيه الخسران؛ إذ هي في حقيقتها تسعى لحصار المسلمين وفرض التبعية الغربية عليهم، وإقامة آليات السيطرة حولهم، واختراق الحضارة والهوية الإسلاميَّة خاصة بعد أن غَيَّر الغرب من أساليب السيطرة العسكرية التقليدية واستبدالها بأساليب حديثة تعطي النتائج نفسها.

٨- ترسيخ فكرة قيام دولة ووطن قومي لليهود في أي مكان أولًا، ثم في فلسطين المحتلة بعدئذ، أخذًا في الحسبان أن الإنجيل (العهد الجديد) بعد تحريفه بأيدٍ يهودية يتضمن تعاليم تدعو إلى هذه الفكرة، وأنها أضحت واجبًا مقدسًا على النصارى.

ومن ناحية أخرى التخلص من الجنس اليهودي من أوربا ثم أمريكا الشماليَّة، وتجميعهم في مكان واحد، وهذا هدف فرعي لذلك الهدف العقدي، ولم يتم هذا رغم استمرار تجمع اليهود في فلسطين المحتلة.

٩- التغريب، وذلك بالسعي إلى نقل المجتمع المسلم في سلوكياته وممارساته، بأنواعها السياسي والاقتصادي والاجتماعي والأسري والعقدي، من أصالتها الإسلاميَّة، إلى تبني الأنماط الغربية في الحياة، وهي المستمدة من خلفية دينية نصرانية أو يهودية.

وفي هذا يقول سيرج لاتوش، في كتابه تغريب العالم: إن تغريب العالم كان لمدة طويلة جدًا -ولم يكف كليا عن أن يكون- عملية تنصير: إن تكريس الغرب نفسه للتبشير بالمسيحيَّة يتضح تمامًا، قبل الحروب الصليبية الأولى، في انطلاقات التنصير قسرًا، وإن مقاومة شارل مارتل في بواتييه، وأكثر من ذلك تحويل السكسون إلى المسيحيَّة بوحشية، على يد القديس بونيفاس (٦٨٠- ٧٥٤م): ألا يشكل ذلك الحرب الصليبية الأولى، وأقصد القول بأنه شهادة لتأكيد ذاتية الغرب كقعيدة وكقوة؟

وهكذا، نجد أن ظاهرة المبشرين بالمسيحيَّة هي بالتأكيد حقيقة ثابتة للغرب، باقية في ضميره بكل محتواها الديني، يجدها الإنسان دائمًا في العمل تحت أكثر الأشكال تنوعًا، واليوم أيضًا، فإن أغلب مشروعات التنمية الأساسية في العالم الثالث تعمل بطريق مباشر أو غير مباشر تحت شارة الصليب.

١٠- الهدف الذي يذكر هنا متأخرًا قصدًا هو إدخال النصرانيَّة أو إعادتها إلى عدد كبير من البلاد الإسلاميَّة وغيرها، وبخاصّة في إفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية، وفي هذا يقول روبرت ماكس أحد المنصّرين من أمريكا الشماليَّة: «لن تتوقف جهودنا وسعينا في تنصير المسلمين حتى يرتفع الصليب في سماء مكة ويقام قُدَّاس الأحد في المدينة».

ويأتي هذا الهدف متأخرًا في الترتيب؛ لأنه قد تبين من تجارب المنصرين في المجتمعات الإسلاميَّة بخاصة، والتي وصل إليها الإسلام بعامة، أنه ليس بالضرورة أن يكون هذا الهدف هو إدخال الآخرين في النصرانيَّة، بقدر ما هو محاولة لضمان استمرار سيطرة النصرانيَّة على الأمم الأخرى.

ويمكن القول بأن هذه الأهداف المذكورة أعلاه تمثل مجمل ما يسعى المنصرون بعامة إلى تحقيقه في حملاتهم التنصيريَّة.

١١- محاربة الوحدة الإسلاميَّة: فقد قال أومسبي غو وزير المستعمرات البريطاني في تقريره لرئيس حكومته بتاريخ ٩/ ١/ ١٩٣٨: إن الحرب علَّمتنا أن الوحدة الإسلاميَّة هي الخطر الأعظم الذي ينبغي على الإمبراطورية أن تحذره وتحاربه، وليس الإمبراطورية وحدها بل فرنسا أيضًا، ولفرحتنا فقد ذهبت الخلافة، وأتمنى أن تكون إلى غير رجعة.

ويقول القس سيمون: إن الوحدة الإسلاميَّة تجمع آمال الشعوب الإسلاميَّة وتساعد على التخلص من السيطرة الأوربية، والتبشير عامل مهم في كسر شوكة هذه الحركة، من أجل ذلك يجب أن نحول بالتبشير اتجاه المسلمين عن الوحدة الإسلاميَّة.

ويقول لورنس براون: إذا اتحد المسلمون في إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرًا أو أمكن أن يصبحوا أيضًا نعمة له، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير.

ويقول مستر بلس: إن الدين الإسلامي هو العقبة القائمة في طريق تقدم التبشير بالنصرانيَّة في إفريقيا[١].

---

(١) انظر: التنصير مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته، الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٦٨).

الفصل الخامس

مؤتمرات المنصرين

لقد كان للمنصرين وما يزال الكثير من المؤتمرات الإقليمية والعالمية، فمنذ قرن من الزمان، وإلى الآن توافد إليهم المنصرون العاملون من كل مكان لتبادل الآراء والمقترحات حول أنجع الوسائل وأهم النتائج، ورسموا لذلك الخطط ووضعوا البرامج، ومن هذه المؤتمرات:

١- مؤتمر القاهرة عام ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م وقد دعا إليه زويمر بهدف عقد مؤتمر يجمع الإرساليات التبشيريَّة البروتستانتيَّة للتفكير في مسألة نشر الإنجيل بين المسلمين، وقد بلغ عدد المؤتمرين ٦٢ شخصًا بين رجال ونساء، وكان زويمر رئيسًا لهم.

٢- المؤتمر التبشيري العالمي في أدنبرة باسكوتلانده عام ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م، وقد حضره مندوبون عن ١٥٩ جمعيَّة تبشيريَّة في العالم.

٣- مؤتمر التبشير في لكهنؤ بالهند عام ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م حضره صموئيل زويمر، وبعد انفضاض المؤتمر وزعت على الأعضاء رقاع مكتوب على أحد وجهيها «تذكار لكهنؤ سنة ١٩١١م» وعلى الوجه الآخر «اللهم يا من يسجد له العالم الإسلامي خمس مرات في اليوم بخشوع انظر بشفقة إلى الشعوب الإسلاميَّة وألهمها الخلاص بيسوع المسيح».

٤- مؤتمرات التبشير في القدس:

- في عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م.
- في عام ١٩٢٨م مؤتمر تبشيري دولي.
- في عام ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م وقد كان يضم ١٢٠٠ مندوب.
- في عام ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م.

٥- مؤتمر الكنائس البروتستانتيَّة عام ١٩٧٤م في لوزان بسويسرا.

٦- وأخطر المؤتمرات مؤتمر كولورادو في ١٥ أكتوبر ١٩٧٨م تحت اسم (مؤتمر أمريكا الشماليَّة لتنصير المسلمين) حضره (١٥٠) مشتركًا يمثلون أنشط العناصر التنصيريَّة في العالم، استمر لمدة أسبوعين بشكل مغلق وقدمت فيه بحوث حول التبليغ الشامل للإنجيل. وتقديمه للمسلمين والكنائس الديناميكية في المجتمع المسلم وتجسيد المسيح وتحبيبه إلى قلب المسلم ومحاولات نصرانية جديدة لتنصير المسلمين، وتحليل مقاومة واستجابة المسلم واستخدام الغذاء والصحة كعنصرين في تنصير المسلمين، وتنشيط دور الكنائس المحلية في تنصير العالم الإسلامي.

وقد انتهى المؤتمر بوضع استراتيجيَّة بقيت سرية لخطورتها مع وضع ميزانية لهذه الخطة مقدارها ١٠٠٠ مليون دولار، وقد تم جمع هذا المبلغ فعلًا وتم إيداعه في أحد البنوك الأمريكيَّة الكبرى.

٧- المؤتمر العالمي للتنصير الذي عقد في السويد في شهر أكتوبر ١٩٨١م تحت إشراف المجلس الفيدرالي اللوثراني، والذي نوقشت فيه نتائج مؤتمري لوزان وكولورادو وخرج بدراسة مستفيضة عن التنصير لما وراء البحار بهدف التركيز على دول العالم الثالث.

٨- مؤتمر التبشير المنعقد في أكسفورد عام ١٩٨٦برئاسة كنيث كراج.

- ومن مؤتمراتهم كذلك:

١- مؤتمر إستانبول.

٢- مؤتمر حلوان بمصر.

٣- مؤتمر لبنان التبشيري.

٤- مؤتمر لبنان بغداد التبشيري.

٥- مؤتمر قسنطينة التبشيري في الجزائر وذلك قبل الاستقلال.

٦- مؤتمر شيكاغو.

٧- مؤتمر مدارس التبشيري في بلاد الهند، وكان ينعقد هذا المؤتمر كل عشر سنوات.

٨- مؤتمر بلتيمور بالولايات المتَّحدة الأمريكيَّة ١٩٤٢م وهو مؤتمر خطير جدًّا، وقد حضره من اليهود ابن غوريون.

- وبعد الحرب العالمية الثانية اتخذت النصرانيَّة نظامًا جديدًا؛ إذ ينعقد مؤتمر للكنائس مرة كل ست أو سبع سنوات متنقلًا من بلد إلى آخر.

١- مؤتمر أمستردام ١٩٤٨م - هولندا.

٢- مؤتمر إيفانستون ١٩٥٤م - أمريكا.

٣- مؤتمر نيودلهي ١٩٦١م - الهند.

٤- مؤتمر أوفتالا ١٩٦٧م - أوفتالا بأوربا.

٥- مؤتمر جاكرتا ١٩٧٥م - إندونيسيا، وقد اشترك فيه ٣٠٠٠ مبشر نصراني.

٦- عقد المؤتمر السادس لمجلس الكنائس العالمي في يوليو سنة ١٩٨٠م في كاليفورنيا بالولايات المتَّحدة وقد حث المؤتمر على ضرورة زيادة البعثات التنصيريَّة بين مسلمي الشرق الأوسط خاصة في دول الخليج العربي. (١)

انظر: الموسوعة الميسرة (٢/٦٦٩- ٦٧١).

الفصل السادس

المراكز والمعاهد التنصيريَّة

يبذل المنصِّرون جهودًا دءوبة في التعرف على أحوال العالم الإسلامي واستقصاء أخباره ومعرفة ثغراته، والتقرب إلى العناصر المشبوهة فيه، حتى يتيسر لهم التغلغل في أوساط المسلمين ونشر ضلالاتهم، واجتثاث بذور الخير والصلاح، وقطع ينابيع الخير مهما ضعفت أو توارت في الأدغال أو في جزر المحيطات، . . . ولقد رصدت دوائر التنصير بعض المناشط اليسيرة التي تخشى منها أن تسهم في نشر الإسلام والدعوة إليه كإنشاء طريق قطار يربط بين جمهورية مسلمة في روسيا ببقية الجمهوريات الأخرى، وكمجلة فصلية إسلامية في اليابان وكباخرة تنقل الحجيج من أقصى الشرق حيث يقول المنصر جاير دنر: ولا شك أن حوادث كهذه سوف تحفز المسلمين في روسيا الأوربية ومناطق الفولجا وآسيا الوسطى الروسية وربما سيبريا نفسها؛ لأن الأفكار كالكهرباء تنتقل بسرعة لا سيما إذا ما نقلتها خطوط السكك الحديدية، لذا فإن خط السكة الحديدية الذي على وشك أن يمر من التركستان الروسية إلى التركستان الصينية سينقل معه الأفكار، وعلى هذا فإن الطرق التجارية التاريخية التي تعبر قلب القارة الآسيوية ستصبح في الحال أعصابًا تربط وسط آسيا المسلم في نظام محكم لم يكن من قبل.

ونتحول إلى الصين، لو أن هناك قطرًا في العالم من المفروض يقينًا أن المسلمين فيه غير مستجيبين للتأثيرات من العالم الخارجي؛ فإن ذلك القطر هو الصين، فهم المثل القائم لأكثر الصيغ الإسلاميَّة تمسكًا بدينهم. ومع ذلك نسمع عن إرسال مبعوث تركي ليكون أول مبشر مسلم مقيم في الصين، والأكثر لفتًا للنظر، عن ثلاثين طالبًا صينيًّا مسلمًا يتشربون الأفكار الغربية في جامعة يابانية، ويحررون مجلة فصلية لتوزيعها على إخوانهم المتدينين في كل أنحاء الصين بعنوان ذي مغزى «أيها المسلمون استيقظوا». ولنتجه إلى الملايو، إن التأثير المعدل (المحور) هنا هو الباخرة التي تمكن عددًا هائلًا من اليابانيين والسومطريين ومسلمي الهند الشرقيَّة من أداء الحج في مكة وينتج عن ذلك التحام الإسلام في وحدة كاملة متضامنة صلبة في كل أنحاء ماليزيا.

ومن اطلع على الموضوعات المقدمة إلى مؤتمر القاهرة التنصيري عام ١٩٠٦م ومؤتمر كولورادو عام ١٩٧٨م يرى هذا الأمر جليًّا لا لبس فيه؛ إذ من ضمن الموضوعات المناقشة ما يلي:

الإسلام في أفريقيا. الإسلام في الصين. الإسلام في الملايو. النشرات التي ينبغي إذاعتها بين المسلمين المتنورين والمسلمين العوام، الإرسال الإذاعي الحالي الموجه إلى المسلمين. مقارنة بين وضع النصرانيَّة والإسلام في جنوب شرق آسيا، مقارنة بين وضع النصرانيَّة والإسلام في الصين، مقارنة بين وضع النصرانيَّة والإسلام في شبه القارة الهندية، مقارنة بين وضع النصرانيَّة والإسلام في إيران، مقارنة بين وضع النصرانيَّة والإسلام في تركيا، مقارنة بين وضع النصرانيَّة والإسلام في

الشرق الأوسط، تحليل المقاومة والاستجابة لدى الشعوب المسلمة.

ويشخص ماكري عجز المنصرين عن التغلغل في أوساط بعض المجتمعات الإسلاميَّة بسبب أن الجمعيَّات التنصيريَّة لم تعر الفوارق الطبقية أي اهتمام حيث يقول: إن العمل التنصيري لم يكن فعالًا بين المسلمين؛ لأنه لم يعر تلك الفوارق للطبقية أي اهتمام.

ثم يمضي متحدثًا عن جهود مراكز الدراسات التنصيريَّة في استقصاء أحوال العالم الإسلامي حيث يقول: إن موظفي مركز الدراسات والاتصالات المتقدمة لإرساليات التنصير قد قاموا بإعداد دراسات سريعة عن ٢٥٣ مجموعة عرقية بين المسلمين.

وتوجد هيئات ومراكز للبحوث والتخطيط يعمل بها نخبة ممتازة من الباحثين المؤهلين، ومن أهم هذه المراكز والمعاهد التنصيريَّة:

١- معهد صموئيل زويمر في ولاية كاليفورنيا، فقد تم إنشاؤه بناء على توصية من قرارات مؤتمر كولورادو.

٢- المركز العالمي للأبحاث والتبشير في كاليفورنيا الذي قام بتقديم الأشخاص اللازمين للإعداد لمؤتمر كولورادو مع تهيئة عوامل نجاح هذا المؤتمر.

٣- الجامعة الأمريكيَّة في بيروت (الكلية السورية الإنجيلية سابقًا) أنشئت عام ١٨٦٥م.

٤- الجامعة الأمريكيَّة في القاهرة أنشئت لتكون قريبة من الأزهر ومنافسة له.

٥- الكلية الفرنسيَّة في لاهور.

٦- جمعيَّة التبشير الكنسية الإنجليزية وهي أهم جمعيَّة بروتستانتيَّة وقد مضى على إنشائها قرابة قرنين من الزمان.

٧- إرساليات التبشير الأمريكيَّة، أهمها الجمعيَّة التبشيريَّة الأمريكيَّة والتي يرجع عهدها إلى سنة ١٨١٠م.

٨- جمعيَّة إرساليات التبشير الألمانيَّة الشرقيَّة، أسسها القسيس لبسيوس سنة ١٨٩٥م. وقد بدأ عملها فعلًا سنة ١٩٠٠م.

٩- أسس الإنجليز في سنة ١٨٠٩م الجمعيَّة اللندنية لنشر النصرانيَّة بين اليهود وبدأ عملها بأن ساقت اليهود المتفرقين في شتات الأرض إلى أرض فلسطين.

١٠- مركز البحوث التابع للفاتيكان.

١١- مركز البحوث التابع لمجلس الكنائس العالمي.

١٢- مركز البحث في كولورادو.

١٣- المركز المسيحي في نيروبي (كينيا وقد أنشئ في عام ١٤٠١هـ).

١٤- مركز المعلومات المسيحي في نيجيريا.

١٥- المركز المسيحي الدراسي في روالبندي (باكستان) وقد تأسس سنة ١٩٦٦م ويعتبر من أكبر المراكز في آسيا.

١٦- وممن يساهم في هذا المضمار مؤسسات الاستشراق العلميَّة التي تقدم دراسات عن العالم الإسلامي والعرب والشرق الأوسط[1].

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٧١، ٦٧٢)، التنصير تعريفه أهدافه وسائله حسرات المنصرين.

الفصل السابع
وسائل التنصير

التنصير ظاهرة متجددة ومتطورة في آن واحد. وتطورها يأتي في تعديل الأهداف، وفي توسيع الوسائل ومراجعتها بين حين وآخر، تبعًا لتعديل الأهداف، ومن ذلك اتخاذ الأساليب العصرية الحديثة في تحقيق الأهداف المعدلة، حسب البيئات والانتماءات التي يتوجه إليها التنصير، حتى وصلت هذه الظاهرة عند البعض، إلى أنها أضحت علمًا له مؤسساته التعليمية ومناهجه ودراساته ونظرياته.

وقبل الخوض في عدّ الوسائل لا بد من توزيعها بحسب أنواعها وأنماطها، فهناك وسائل صريحة وأخرى خفية أو مختفية، كما أن هناك وسائل تقليدية وأخرى حديثة، فرضتها الحالة التي وصل إليها العالم اليوم في تقنية الاتصال والمعلومات والمواصلات، وتنوع الوسائل وتعددها وتجددها، ولم تغفل الكتابات الأجنبية هذه الوسائل، بل أولتها اهتمامًا متوقعًا من أي جهد يراد له الخروج بنتائج تبين جدوى هذه الجهود.

وقد تنبه منظرو التنصير إلى الوسائل، وأجروا عليها تقويمات وتعديلات تتناسب مع الزمان والمكان، وقد أوصلها بعضهم إلى سبعمائة طريقة أو خطة للتنصير، وآخر يقترح تخطيطًا لجملة من الاستراتيجيات لتنصير العالم، يضمنها الوسائل والطرق التي يراها، وكما لم يغفل المخططون للتنصير الزمان، ولا سيما المستقبل، لم يغفلوا كذلك المكان، فظهرت إسهامات تتعلق بالعرب خاصة.

ومع الاهتمام بالمستقبل والتخطيط له، بما في ذلك تحديث الوسائل وتجديدها، بعد مراجعتها وتقويمها لم يغفل المنصرون جهودهم السابقة التي اتكأ عليها التنصير وإن لجئوا إلى التجديد في الأساليب والطرق والوسائل.

وأبرز الوسائل وأظهرها وأوضحها التنصير الصريح، وهو على نوعين:

١- التنصير العلمي القائم على النقاش أو على السفسطة والتشكيك على طريقة الاقتضاب.

٢- التنصير القسري ويتمثل في الحروب الصليبية، ومحاكم التفتيش واختطاف الأطفال والقرصنة البحرية وإحراق المسلمين الرافضين للتنصير والغزوات، والاحتلال [الاستعمار].

ويمكن أن يتحقق القيام بالتنصير الصريح من خلال قيام مؤسسات تنصيريَّة ترعى الحملات، وتمكن لها، وتمدها بما تحتاجه من الموارد المالية والبشرية، وتتلقى الدعم المادي والمعنوي من الحكومات الغربية، ومن المؤسسات والأفراد عن طريق المخصصات والتبرعات والهبات والأوقاف.

ومن أبرز هذه المؤسسات التنصيريَّة قيام الجمعيَّات المتعددة في أوربا وأمريكا أو في البلاد المستهدفة، وهناك موسوعة كاملة بالإنجليزية ترصد المعلومات عن معظم الجمعيَّات التنصيريَّة في العالم، وتخضع للمراجعة الدوريَّة، فتضيف جمعيَّات جديدة، وتجدد المعلومات عن جمعيَّات قائمة، وتقدم عرضًا للجهود المبذولة على مستوى حملات التنصير في العالم.

والآن إلى الوسائل التي يستخدمها المنصرون في أداء مهمتهم:

١- تقديم الخدمات الطبيَّة

اتجه التنصير إلى طرق مغلفة وأساليب غير مباشرة، ومن أخطر هذه الأساليب ما كان عبر التطبيب، وتقديم الرعاية الصحية للإنسان، وقد ساهم في تأثير هذا الأسلوب عامل الحاجة إلى العلاج، وكثرة انتشار الأوبئة والأمراض الفتاكة في البيئات الإسلاميَّة، خصوصًا مع مرور زمن فيه ندرة الأطباء المسلمين، بل فقدانهم أصلًا في بعض البلاد الإسلاميَّة.

والمنصرون يعتبرون الجراح والمآسي البوابة الذهبية للنصرانية (حيث تجد بشرًا تجد آلامًا، وحيث تكون الآلام تكون الحاجة إلى الطبيب، وحيث تكون الحاجة إلى الطبيب؛ فهناك فرصة مناسبة للتبشير).

يقول الطبيب بول هاريسون، وله كتاب الطبيب في بلاد العرب: «لقد وُجدنا نحن في بلاد العرب لنجعل رجالها ونساءها نصارى».

ويقول س.أ. موريسون محرر في مجلة العالم الإسلامي: «وحينئذٍ تكون الفرصة سانحة حتى يبشر هذا الطبيب بين أكبر عدد ممكن من المسلمين في القرى الكثيرة في طول مصر وعرضها».

وتقول المبشرة ايد هاريس تنصح الطبيب المنصر: يجب على الطبيب أن ينتهز الفرصة ليصل إلى آذان المسلمين وقلوبهم فيبشر بالإنجيل، إياك أن تضيع التطبيب في المستوصفات والمستشفيات، فإنه أثمن من ذلك.

ويقول المستر هاربر بوجوب الإكثار من الإرساليات الطبيَّة؛ لأن رجالها يحتكون دائمًا بالجمهور ويكون لهم تأثير على المسلمين أكثر مما للمبشرين الآخرين (مؤتمر القاهرة ١٩٠٦م).

ومن المبشرين الأطباء: آن أساوودج، فورست، كار نيليوسي فانديك، جورج بوست، وتشالرز كلهون، ماري أوي، الدكتور طومسون.

يقول رشتر: (في هذه المناسبات من التطبيب مستوصف أو مستشفى يمكن للطبيب أن يخاطب المسلمين بكلام كثير لو سمعوا بعضه في مكان غير المستشفى ومن شخص غير الطبيب لامتلئوا غيظًا وغضبًا).

وأقرب مثال حي على هذا جهود المنصِّرة الراحلة تيريزا، التي تدعى بالأم، والحائزة على جائزة نوبل، وما تقوم به في مجال التطبيب من أنشطة على مستوى القارة الهندية بالتركيز، وعلى مستوى

العالم الإسلامي بعامة، فقد تحركت في الآونة الأخيرة إلى شمال العراق، حيث محنة المسلمين الأكراد لا تزال قائمة وفيها من المجال الخصب لهذه الأعمال ما لا يخطر على قلب من لم يقف على المشكلة بنفسه.

وقد افتتحت الأم تريزا أربع مدارس تنصيريَّة أثناء زيارتها لمصر فضلًا عن رعايتها لكثير من الاجتماعات والاحتفالات «المقدَّسة».

وكذلك البعثات الطبيَّة في منطقة الخليج العربيَّة التي قدمت إليها منذ سنة ١٣٠٨ هـ - ١٨٩١م على يد الدكتور شارون توماس ثم الدكتور آرثر بينيت بين سنة ١٣٢٨ هـ / ١٩١٠ م وسنة ١٣٢٣ هـ / ١٩١٥ م.

وتعتمد بعثات التطبيب التنصيريَّة إلى تشغيل فتيات المجتمع ممرضات ومشرفات اجتماعيات يتمشين مع سياسة هذه المؤسسات الطبيَّة وقد يكن من بنات المجتمع المتنصرات.

وتستغل البعثات الطبيَّة التنصيريَّة -كما يقال- في إجراء التجارب حول مدى صلاحية الأدوية التي ترفض هيئات الأغذية والأدوية إجراءها على المجتمع الغربي، قبل أن تثبت فعاليتها في الأرانب أو الفئران، فيؤتى بها إلى المناطق التي تتركز فيها مستشفيات ومستوصفات ومختبرات تنصيريَّة، فتجرى فيها التجارب على البشر، ثم يكتب بها تقارير إلى هيئات الأغذية والأدوية الغربية لإقرار استخدامها لتركب وتصنع ثم تصرف للناس.

ومع أن هذا ليس هدفًا لهذه الجمعيَّات التنصيريَّة، ولم يكن في يوم من الأيام يدور في خلد المنصرين الأوائل، إلا أن بعض المنصرين المعاصرين قد لا يمانعون من مساعدة هذه الهيئات في القيام بالتجارب على البشر خارج الإطار الغربي. . . ويظهر هذا واضحًا أثناء الحروب باستغلال الأسرى لهذه التجارب.

٢- التعليم

إن المنصرين يضعون كل ثقلهم في استغلال التعليم وتوجيهه بما يخدم أهدافهم التنصيريَّة، وذلك إما بإنشاء المدارس والجامعات النصرانيَّة صراحة، أو بفتح مدارس ذات صبغة تعليمية بحتة في الظاهر، وكيد نصراني في الباطن، مما جعل فئامًا من المسلمين يلقون بأبنائهم في تلك المدارس؛ رغبة في تعلم لغة أجنبية، أو مواد خاصة أخرى، ولا تسل بعد ذلك عن حجم الفرصة التي يمنحها المسلمون للنصارى حين يهدونهم فلذات أكبادهم في سن الطفولة والمراهقة حيث الفراغ العقلي، والقابلية للتلقي، أيا كان الملقي، وأيا كان الملقى.

وفي هذا يقول زويمر في مؤتمر القدس سنة ١٩٣٥م: «لقد قبضنا أيها الإخوان في هذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلاميَّة المستقلة، أو التي تخضع للنفوذ المسيحي، أو التي يحكمها المسيحيون حكمًا مباشرًا. ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير المسيحي والكنائس والجمعيَّات، وفي المدارس الكثيرة التي تهيمن عليها الدول

الأوربية والأمريكيَّة، ولدى شخصيات لا تجوز الإشارة إليها، الأمر الذي يرجع الفضل فيه إليكم أولًا، وإلى ضروب كثيرة من التعاون بارعة باهرة النتائج...».

ومن عمل المنصرين في هذا المضمار:

١- إنشاء المدارس والكليات والجامعات والمعاهد العليا وكذلك إنشاء دور للحضانة ورياض للأطفال واستقبال الطلبة في المراحل الابتدائية والمتوسطة والثانوية.

ويتخذ التدريس وسيلة للدعوة إلى النصرانيَّة وبث سمومها في عقول الأطفال؛ فقد جاء في كتاب أصول التنصير في الخليج: (كان تعليم العلوم الحديثة وتدريسها باللغة الإنجليزية الذي قدمته البعثة كان مطلوبًا جدًا وبخاصة في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى، ولذلك كانت مدارس البعثة تجد قبولًا حسنًا في العراق والبحرين والكويت، فقد واصل الآلاف من خريجي مدرسة البصرة ليدخلوا مجالات عملية بنجاح في الأعمال والسياسة، وتزعم تقارير البعثة أن الألفي طفل الذين تخرجوا في مدرسة البعثة حتى عام ١٩٣٨م قد أصبح بعضهم أطباء، وأطباء أسنان ومدراء ورؤساء وكتاب ومترجين ومعلمين إنهم يحصلون على مرتبات جيدة، وباستثناءات قليلة جدًا، فإنهم جميعًا قد ارتقوا في السلم الاقتصادي، وكثير منهم قد أصبحوا قادة في دولهم).

وقد وصف أبو الأعلى المودودي أثر هذه المدارس التنصيريَّة فقال: «فالمؤسسات التعليمية للمبشرين تخرج طبقة جديدة من الناس، طبقة لا تتمسك بالنصرانيَّة ولا تظل على دين الإسلام، وإنما تفصل نفسها عن تراثها ولا تطبق أي تراث أخلاقي آخر، والنتيجة هي أن تصبح نموذجًا غريبًا من الجنس البشري في مواقفها الأخلاقية ومعاييرها الثقافية، وكذلك في أخلاقها وتصرفاتها، وفي لغتها وعاداتها الاجتماعيَّة».

وقال المبشر جسب: إن التعليم في مدارس الإرساليات المسيحيَّة إنما هو واسطة إلى غاية فقط، هذه الغاية هي قيادة الناس إلى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا أفرادًا مسيحيين وشعوبًا مسيحية.

٢- التداخل المباشر في المدارس الحكومية -كما كان يحدث إبان الاحتلال- وذلك من خلال تفريغ المناهج العلميَّة من مضامينها وصرفها عن وجهتها، أو من خلال تعيين المعلمين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون فقد جاء في جريدة الأهرام الصادرة في ١٧ / ٣ / ١٨٩٧ م «قضي الأمر، وصدر الأمر العالي بتعيين المستر دنلوب سكرتيرًا عامًّا لنظارة التعليم، وقد شرع المستر دنلوب بعد الاتفاق مع اللورد كرومر في هدم الدراسة الثانوية التي هي أعظم أركان المعارف».

وإليك هذه الحقيقة التي تؤكد ذلك؛ ففي عام ١٨٦٣م طرح المنصر هاملين على صديقه اليهودي الفرنسي روبرت -فكرة إنشاء مدرسة ثانوية قرب قلعة الروملي، وقال هاملين مشيرًا بيده إلى قلعة الروملي: «لقد أنشأ الأتراك هنا حصنًا لفتح إستنبول، وأنا سأنشئ هنا مدرسة لهدمهم».

وقد تحقق شيء من حلم هذا اليهودي فقد ترأس العصيان والتمرد على الدولة العثمانية في

بلغاريا أول الخريجين في هذه المدرسة، وقال بعد ذلك لقد كان د. هاملين يريد فتح مدرسة فوق أعلى برج من أبراج قلعة الروملي وذلك كي تدخل النصرانيَّة من نفس الباب الذي دخل منه الإسلام إلى إستنبول.

٣- إيجاد فرص الابتعاث لأبناء المسلمين الذين تعذرت عليهم مواصلة دراستهم في بلدانهم، ومن ثم محاولة تنصيرهم في البلاد التي يتم ابتعاثهم إليها، فإن لم يتحقق ذلك فليتحقق ما دون ذلك وهو إخراجهم من دينهم وإغراقهم بالشهوات المحرمة في تلك البلاد.

وتتعرض هذه الفئات من الطلبة إلى حملات قوية من المنصرين عن طريق مكاتب الطلبة الأجانب في الجامعات، حتى الجامعات المستقلة (غير المتمية) في الغرب تقوم بهذه الأنواع من النشاط، وتضع برامج للطلبة من زيارات للعائلات وأوجه نشاط اجتماعيَّة من حفلات ودعوات إلى الكنيسة أو ما يلحق بالكنيسة من الأفنية والملاعب.

وفي خارج المدن الجامعية يتلقف المنصرون الطلبة المسلمين بعد التعرف على عنواناتهم، والوصول إليهم، وإبداء الرغبة في خدمتهم، والوقوف إلى جانبهم والتعاطف معهم، والتعرض لألوان من المحاولات مثل إرسال المطبوعات، والاتصال بالهاتف، والرسائل الهاتفية الفاكس، والاتصال الشخصي المباشر، بموعد ودون موعد.

ويُستغل ضعف بعض الطلبة المسلمين ماديًا، حيث الكنيسة أو جمعيَّة مدعومة من الكنيسة دعم هؤلاء الضعفاء من الطلبة، وتعمل على إيجاد فجوة بين الموسرين والمعسرين من الطلبة المسلمين، تصل إلى حد الضغينة والحسد وترسيخ هذه المفهومات في الأذهان، حتى لا تقوم بين المسلمين من الطلبة رابطة قوية.

كما يستغل ضيق بعض الطلبة المسلمين لعدم قدرتهم على العودة المباشرة إلى بلادهم بسبب سوء الأحوال السياسية والاقتصادية والبحث عن إقامة نظامية في البلاد الغربية التي تتم غالبا عن طريق الزواج بمواطنة من البلد، إما أن تكون ذات ميول نصرانية قوية، أو ينشأ عندها الميول عندما تدرك أنها اقترنت برجل يختلف عنها دينا وثقافة. وتكون نتيجة هذا الزواج إنجاب الأطفال، ثم يحصل عادة فراق، فتكون رعاية الأطفال، نظامًا، لأمهم فتأخذهم إلى الكنيسة اقتناعًا أو قصدًا إلى كيد الأب ويستمر الصراع على هذه الحال.

وهذا على أفضل الأحوال. وربما يرضى الزوج بأخذ أولاده إلى الكنيسة، بل وذهابه هو معهم والانخراط في أوجه نشاطها، ولو لم يتم الإعلان الرسمي (التعميد) عن التنصير. وفي أحوال أخرى تسلم الزوجة وتستقيم الأمور، عدا المضايقات من الأهل والأقارب من جانب الزوجة على الغالب.

٤- تعليم اللغة الإنجليزية إذ تستخدم كطعم يقدم للفريسة ممزوج معه الدعوة إلى الإباحية والدعوة إلى النصرانيَّة، فقد جاء في بحث «الإرسال الإذاعي الحالي الموجه إلى المسلمين» المقدم من

فريد د. أكورود إلى مؤتمر التنصير المنعقد في كلورادو ما يلي: «إن اللغة الإنجليزية مهمة لكل عربي يرغب في متابعة دراسته، أو يود الهجرة، ولقد كتبنا إلى هيئة الإذاعة البريطانية- التي لديها سلسلة ممتازة من برامج تعليم الإنجليزية للناطقين بالعربيَّة- ولقد منحتنا السلسلة وأذنت لنا بتقديمها عبر إذاعتنا، وقد أجرينا بالفعل تعديلات على السلسلة استخدمناها «كطعم» وفي الختام كنا نتوجه بالسؤال: عما إذا كان المستمع يرغب في نسخة مجانية من كتاب يحتوي على العربيَّة والإنجليزية جنبا إلى جنب، وعندئذ نرسل له نسخة من الإنجيل بالعربيَّة والإنجليزية».

٥- التحيز ضد أبناء المسلمين، وقصر التعليم على أبناء الأقلية النصرانيَّة -في البلاد التي يوجد فيها مسلمون ونصارى- ليتحقق لهم التفوق في المجال العلمي والإداري في المناطق التي تعيش فيها الأقليات النصرانيَّة بين المسلمين، فقد شكا أبو الأعلى المودودي من ذلك بقوله: «فأسلوب العمل الذي يتبعه مبشرو الإنجيل هؤلاء شنيع للغاية، ويعتبر مصدرًا من مصادر الشقاق والخلاف، وتتمثل شكوانا في أنهم لا يقصرون نشاطاتهم على نشر الدين فحسب، ولكنهم بدلًا من ذلك يلجئون إلى أساليب وسبل لا مناص من اعتبارها وسائل للضغط السياسي والاستغلال الاقتصادي، والتخريب للأخلاق والدين، ويشهد على ذلك ما رأينا بأم أعيننا، وما يشاهد في بقية أنحاء العالم الإسلامي، فلا يمكن لأي عقل مهما كان محدودًا، ولا يليق بأي إنسان كريم أن يعتبر تلك الأساليب وسائل مناسبة ومباحة لنشر أي دين من الأديان، فقد قام هؤلاء المبشرون في مناطق شاسعة من أفريقيا بحرمان المسلمين من كافة الخدمات التعليمية وذلك بالتواطؤ مع الدول الاستعمارية وتغافلها عن جرائمهم في الوقت الذي كانوا يسيطرون فيه على تلك المناطق، فقد أوصدوا أبواب المعاهد التعليمية أمام كل شخص لا يدين بالنصرانيَّة أو على الأقل ليس لديه استعداد لتغيير اسمه الإسلامي واستبداله باسم نصراني، وبهذه الكيفية قويت شوكة الأقلية النصرانيَّة وأصبحت هي الطبقة الحاكمة، وهذه الفئة المنبتة القوية النفوذ هي التي تولت السلطات السياسية والعسكرية والاقتصادية بعد الاستقلال في كثير من الدول الأفريقية التي تعيش فيها أغلبية ساحقة من المسلمين، وهذا ظلم صارخ نزل بالمناطق الأفريقية التي تقطنها أغلبية من المسلمين».

٦- إضعاف المؤسسات التعليمية الشرعية بمصادرة أوقافها ومحاربة طلابها، وإضعاف تأثيرها وقد تحدث الفصل الرابع من كتاب: «وسائل التبشير بالنصرانيَّة بين المسلمين» الذي نشره المبشر الأمريكي «فلمنج» عن الأزهر ودوره وما اقترحه المبشرون من ضرورة إنشاء مدرسة جامعة نصرانية تقوم الكنيسة بنفقاتها وتكون مشتركة بين كل الكنائس المسيحيَّة في الدنيا على اختلاف مذاهبها، لتتمكن من مزاحمة الأزهر بسهولة. وتتكفل هذه المدرسة الجامعة بإتقان تعليم اللغة العربيَّة. ثم قال: إن في الإمكان مباشرة هذا العمل في دائرة صغيرة وهي أن تختص أولا بتعليم المسلمين المتنصرين وتربيتهم ليتمكن هؤلاء من القيام بخدم جليلة في تنصير المسلمين الآخرين.

وختم فلمنج كلامه قائلًا: «ربما كانت العزة الإلهية قد دعتنا إلى اختيار مصر مركز عمل لنا

لنسرع بإنشاء هذا المعهد المسيحي لتنصير الممالك الإسلاميَّة».

وقال جاير دنر: «إن من سداد الرأي منع جامعة الأزهر أن تنشر الطلبة المتخرجين فيها في جنوب أفريقيا؛ اتباعًا لقرار مؤتمر التبشير العام؛ لأن الإسلام ينمو بلا انقطاع في كل أفريقيا».

٧- بعثات التعليم الصناعي والتدريب المهني من خلال إنشاء المدارس ومراكز التدريب والورش للشباب والشبات تستقطب إليها الطاقات. وتخضع لبرامج نظرية فيها دروس حول الثقافة والمجتمع والدين والآداب المبسطة التي تنفذ من خلالها التعاليم النصرانيَّة.

ومن ذلك إسناد الإشراف على المراكز والمدارس المهنية المحلية إلى إيرادات أجنبية، ويقوم على التدريب فيها منصرون بلباس الفنيين والمدربين.

٨- وجود الجامعات الأمريكيَّة والفرنسيَّة التي ثبت عملها في مجالات التنصير، بين المسلمين ومجالات خدمة الوجهة الغربية، كالعمل الاستخباري لصالح الحكومات التي تدعم هذه المؤسسات التعليمية العليا. وتخرج الجامعات مجموعات كبيرة من أبناء المسلمين يكون لها زمام المبادرة في شغل المناصب العليا ذات التأثير الإداري والثقافي والأدبي والسياسي، بل والديني أحيانًا.

وتُلمِّع هذه المجموعة المتخرجة من لجامعات الأجنبية، وتُعطى الهالة الإعلامية، وتساند بعضها في المناسبات العلميَّة والثقافية والأدبية وغيرها.

وفي هذا المجال يقول بيزوز الذي تسلّم رئاسة الجامعة الأمريكيَّة في بيروت سنة ١٣٦٩ هـ - ١٩٤٨ م، وكانت تسمّي حينئذ بالكلية البروتستانتية الإنجيلية: «لقد أدى البرهان إلى أن التعليم أثمن وسيلة استغلّها المبشرون الأمريكيون في سعيهم لتنصير سورية ولبنان، ومن أجل ذلك تقرّر أن يُختار رئيس الكلية البروتستانتية الإنجيلية من مبشري الإرسالية السورية».

ولا تخفى هذه الجامعات والمعاهد العليا نزعتها التنصيريَّة، يقول دانيال بلس: إن كلية روبرت في إستانبول (الجامعة الأمريكيَّة حاليًا) كلية مسيحية غير مستترة لا في تعليمها ولا في الجو الذي تهيئه لطلابها؛ لأن الذي أنشأها مبشر، ولا تزال إلى اليوم لا يتولى رئاستها إلا مبشر.

وهذا الظهور للنزعة التنصيريَّة لا يكون في الأوقات التي تجد فيها من المصلحة أن تسير مع تيار يسيطر على الساحة، كما سارت مع تيار القومية الذي شاع ردحًا من الزمن.

وكما يتوقع لها أن تسير مع تيار الصحوة التي تسميها بالأصولية لدراستها من منظور تنصيري استشراقي، يعمد إلى تشويهها ونعت أبنائها بالتطرف والإرهاب، وإلى أفكار من يدرسها أو يعمد إلى تبني هذا التوجه.

٣- الأعمال الاجتماعيَّة والتنمويَّة

إسهام الجمعيَّات التنصيريَّة في مجالات التنمية تحت شعار: من الكنيسة إلى المجتمعات، تعد أخطر من وسائل المنصرين وفي نفس الوقت تغطية لنشاطاتهم.

وقد أنشئت لهذه الصدود لجان مثل هيئة مجلس الكنائس للإسهام في أعمال التنمية، وتعمل هذه الهيئة في حقوق التنمية المتنوعة المختلفة مثل إقامة القرى الزراعية وعقد الدورات التدريبية المهنية لمختلف التخصصات التقنية والفنية، وتقديم القروض المباشرة على الفلاحين عن طريق مؤسسات (وحدات الإقراض) ومشروعات التهجير الداخلي للسكان وغير ذلك.

وتسهم هذه الهيئات إسهامًا مباشرًا في هذه المجالات، ومن خلال هذا الإسهام تسعى الجمعيَّات إلى تحقيق بعض الأهداف. ولو لم يكن إلا الإسهام هدفًا لكان كافيًا في إشعار المجتمعات أن المنصرين إنما يسعون إلى رخاء المجتمعات وإخراجها من أسر التخلف والجهل وقلة الإمكانيات.

هذا عدا ما يصحب فترة الإسهام من اتخاذ وسائل أخرى تكون مقاومتها غير ميسورة، إذا ما أشعر الأهالي أو الحكومات أن التصدي لها فيه مدعاة إلى التخلي عن الإسهام في مجالات التنمية بمشروعاتها المختلفة.

ومن أنشطة هذه الجمعيَّات والمؤسسات أيضًا:

١- إيجاد بيوت للطلبة من الذكور والإناث.

٢- إيجاد الأندية.

٣- الاهتمام بدور الضيافة والملاجئ للكبار ودور لليتامى واللقطاء.

٤- الاعتناء بالأعمال الترفيهية وحشد المتطوعين لأمثال هذه الأعمال.

٥- إنشاء المكتبات التبشيريَّة واستغلال الصحافة بشكل واسع.

٦- إنشاء مخيمات الكشافة التي تستغل أفضل استغلال في التنصير.

٧- زيارة المسجونين والمرضى في المستشفيات وتقديم الهدايا والخدمات لهم.

٨- تكلمت المس ولسون ومس هلداي في مؤتمر القاهرة ١٩٠٦م عن دور المرأة كمبشرة لتقوم بنشر ذلك بين نساء المسلمين المسلمات.

٩- وقد كان المنصرون يعرضون على أُسَر المعتقلين في إندونيسيا استعدادهم لإعالة ذويهم وإعاشة أسرهم شريطة أن يوقعوا على صك الاعتراف بانضمامهم إلى الكنيسة.

١٠- وقد تعرّضت السودان إلى ضغوط رسمية دولية عندما سعت إلى إخراج بعض المؤسسات التنصيريَّة من السودان، وكانت الضغوط صريحة بقطع الإعانات والقروض إذا ما تم الإبعاد.

والمنصرون يسعون إلى استغلال الكوارث الطبيعية والحروب الأهلية وما ينتج عنها من دمار وخراب وأوضاع مأساوية في أغراض التنصير، فضلًا عن أوضاع المسلمين المأساوية من أيتام وأرامل، وما يحتاجون إليه من طعام وكسوة ومسكن بالإضافة إلى التعليم والعلاج مما يجعلهم فريسة سائغة لاستغلال المنصرين الذين يتظاهرون بمواساتهم ماديًا ومعنويًا، ويدّعون الاهتمام بهم صحيًا وتعليميًا، وصولًا إلى اكتساب قلوب هؤلاء المسلمين البسطاء، ومن ثم السيطرة على

عقولهم وإقناعهم بأن في النصرانيَّة خلاصهم من عذاب الآخرة وفقر الدنيا، ويشترط هؤلاء المنصرون على أولئك المسلمين الذهاب إلى الكنيسة لأداء قداس الأحد مثلًا، أو يشترطون عليهم عدم المشاركة في الأنشطة الإسلاميَّة نظير خدماتهم تلك.

لقد بلغت تقديرات نسبة اللاجئين المسلمين ٨٠% من مجموع اللاجئين في العالم كله لجئوا إلى بلدان أخرى لأسباب عديدة منها: الحروب، والكوارث، وبطش الحكومات والأنظمة المعادية للإسلام، أو خوفًا من الاضطهاد الديني والسياسي العرقي، ويعاني هؤلاء اللاجئون من تشتت الأسر وفقدان مقومات الحياة الأساسية؛ ولذلك فإنهم يمثلون مجالًا واسعًا وتربة خصبة لعمل الجمعيَّات والمنظمات التنصيريَّة.

وفيما يلي بعض هذه الأمثلة:

١- منظمة «الرؤيا العالمية» التي لها نشاط في أكثر من ٨٠ دولة وتشرف على ٨٦ ألف لاجئ مسلم صومالي توفر لهم الدواء والكساء والتعليم، وتدعوهم إلى النصرانيَّة؛ علمًا بأن نسبة المسلمين في الصومال ١٠٠%، وفي الصومال أيضًا كان الهدف الحقيقي للمشروع الألماني الوطني لمحاربة أمراض العمى هو نشر النصرانيَّة والدعوة لها، وهذا ما اعترف به مسئول المشروع د. جي ميشيل بعد إسلامه.

٢- كما أن هناك حركة تنصيريَّة قوية يشارك فيها البروتستانت والكاثوليك وسط قبائل الطوارق في شمالي نيجيريا ومالي في وقت قتل الجفاف ماشيتهم، وضربت المجاعة مناطقهم، ومات منهم المئات بسبب الفقر والجوع والمرض.

٣- في البوسنة وزعت الإرساليات التنصيريَّة ٧٠٠ ألف كتاب تنصيري، كما وزعت عدة آلاف من قصص الإنجيل على أطفال العراق مع مجموعة من الأشرطة السمعية مستغلة الحصار الدولي عليه.

٤- المرأة والنسل

يهتم المنصرون بالمرأة اهتمامًا شديدًا، إذ نصف البشرية من النساء، ولأن المرأة تتعرض للفقر والفاقة والترمل أكثر من الرجل، ولانتشار الجهل بينهن؛ ولأنها هي المحضن الذي يترعرع فيها النشء فإن كانت صالحة أنتجت ذرية صالحة كالبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه، وإن كانت غير ذلك فالذي خبث لا يخرج إلا نكدا.

فإذا تمكنت منها الجمعيَّات التنصيريَّة، أو وصلت إليها، فقد وصلت إلى الحصن الحصين والمكان الأمين، بل وصلت إلى قلب الأمة ولذا: «يصفق المنصرون باليدين لأن المرأة المسلمة قد تخطت عتبة دارها، لقد خرجت إلى الهواء، لقد نزعت عنها حجابها، ولكنهم لا يصفقون؛ لأن المرأة المسلمة قد فعلت ذلك؛ بل لأن فعلها هذا يتيح للمنصرين أن يتغلغلوا عن طريق المرأة في الأسرة المسلمة بتعاليمهم التنصيريَّة» ولا يخفي المنصرون كيدهم بالمرأة المسلمة، واعتقادهم قوة

تأثيرها على أبنائها، ورغبتهم في استغلال ذلك، إذ يقول قائلهم: «بما أن الأثر الذي تحدثه الأم في أطفالها -ذكورًا وإناثًا- حتى سن العاشرة من عمرهم بالغ الأهمية، وبما أن النساء هن العنصر المحافظ في الدفاع عن العقيدة، فإننا نعتقد أن الهيئات التبشيريَّة يجب أن تؤكد جانب العمل بين النساء المسلمات على أنه وسيلة مهمة في التعجيل بتنصير البلاد الإسلاميَّة».

ومن أجل ذلك اهتم المنصرون بالمرأة اهتمامًا شديدًا فقلما عقد مؤتمر تنصيري دون أن يكون موضوع تنصير المرأة المسلمة هو أحد الموضوعات الرئيسة لهذا المؤتمر، وكشاهد على ذلك فقد كان موضوع «المداخل النصرانيَّة للمرأة المسلمة وأسرتها» أحد الأبحاث المقدمة إلى مؤتمر التنصير المنعقد في ولاية كولورادو في أمريكا عام ١٩٧٨م.

أما مؤتمر القاهرة التنصيري المنعقد عام ١٩٠٦م فقد وجهت المنصرات المشاركات فيه النداء التالي «لا سبيل إلا بجلب النساء المسلمات إلى المسيح، إن عدد النساء المسلمات عظيم جدًّا لا يقل عن مائة مليون، فكل نشاط مجد للوصول إليهن يجب أن يكون أوسع مما بذل إلى الآن، نحن لا نقترح إيجاد منظمات جديدة، ولكن نطلب من كل هيئة تبشيريَّة أن تحمل فرعها النسائي على العمل واضعة نصب عينيها هدفًا جديدًا هو الوصول إلى نساء العالم المسلمات كلهن في هذا الجيل».

ونجد مجموعة من الجمعيَّات النسائية التي تعمل على نقل المرأة من بيئة إسلامية إلى بيئة غربية خالصة من خلال التبرج والسفور، وخوض مجالات عملية في الفن وفي الثقافة وفي الآداب، وفي الأعمال المهنية والحرفية الأخرى، مما يدخل في محاولات التغريب التي تتعرض لها المجتمعات المسلمة.

وتختلف أساليبهم ووسائلهم نحو تحقيق هذا الهدف، ولكن لا تختلف غايتهم، فغايتهم أن تتنصر المرأة المسلمة فإن لم يتيسر ذلك فلا أقل من أن تهجر دينها، وتعلن إفلاسها وكفرها، وترضى بأن تكون تابعة ذليلة للقافلة التي تولت استعبادها، وسلب دينها، ونهب خيراتها والاستحواذ عليها. ولأجل ذلك تتعالى صيحاتهم نحو تحرير المرأة المسلمة فحينا تعلن المنابر الغربية الكافرة أن المرأة المسلمة مسلوبة الحقوق، وحينا تعلن أن دينها ظلمها، وحينا تمارس تلك المنابر ضغوطًا على الدول المسلمة لإجبارها على تغريب المرأة المسلمة، ونزع لباسها إلى آخر الافتراءات التي لا تتوقف؛ رغبة في أن تفتح المرأة المسلمة لهذه الصيحات آذانها، فتكون بداية لتلقي المبادئ التنصيريَّة.

ولا تمثل الأعمال الترفيهية نسبة عالية في انخراط المرأة في حملات التنصير؛ لأن هذا أمر مكشوف ورخيص، ولكنه مع هذا يشيع في الحروب بين الجنود والأسرى المراد تنصيرهم.

والذي يمثل النسبة العالية في مجالات التنصير باستغلال المرأة هو عملها بكل جهد وقوة للدخول إلى مجالات النساء المستهدفات، فتجتمع بهن وتقدم لهن الخدمات الصحية والاجتماعيَّة والتربوية والثقافية الدقيقة والخاصة بشئون المرأة فيما يتعلق بعلاقاتها الأسرية وتربيتها لأولادها.

وهذا الاتجاه يلقي القبول ويرسخ في الأذهان. ولذا إعطاؤه الاهتمام بدلًا من أن يذهب التصور إلى استغلال المرأة في جوانب نفعية شهوانية قد لا تنقاد إليها جميع النساء كما هو سائر الآن.

كما ينبغي تعميق النظرة إلى أثر المرأة في هذه الحملات من خلال قدرتها على التأثير وقوتها فيه، وقدرتها أيضًا على التأثير بما حولها ومن حولها.

ولا تزال هذه الوسيلة من الوسائل المعتمدة في تصيد الآخرين، ليس على مستوى التنصير فحسب، بل على مستويات سياسية واستخبارية.

أما فيما يتعلق بالنسل فنجد في اجتماع البابا شنودة في ٥/ ٣/ ١٩٧٣م مع القساوسة والأثرياء في الكنيسة المرقسية بالإسكندرية طرحوا بعض المقررات وقد كان منها تحريم تحديد النسل أو تنظيمه بين شعب الكنيسة وتشجيع الإكثار من النسل بوضع الحوافز والمساعدات المادِّيَّة والمعنوية مع تشجيع الزواج المبكر بين النصارى. وبالمقابل تحديد النسل وتنظيمه بين المسلمين خاصة، علمًا بأن أكثر من ٦٥٪ من الأطباء وبعض القائمين على الخدمات الصحية هم من شعب الكنيسة.

٥- إثارة الفتن والحروب

إذ هما الوسيلة التي تشغل الأمة عن أعدائها، وتنسى فيها حراسة ثغورها، وتنهب فيها خيراتها، وتستهلك فيها طاقاتها، وتتعدد احتياجاتها ما بين جريح ويتيم وأرملة، وتتضاعف عليها الديون، وتملي عليها الشروط، وتكبل فيها بالقيود.. فإذا الأمة ميدان فسيح لكل منصر لكي يساوم على اللقمة، ويستحوذ على الأيتام والأرامل، ويفوز بالاتفاقيات التي تخوله الوصول إلى مواقع ما كان يحلم بها قبل ذلك.

١- يعملون على تشجيع الحروب والفتن وذلك لإضعاف الشعوب الإسلاميَّة، وانظر كيف دخلت الجمعيَّات التنصيريَّة إلى داخل أفغانستان والعراق والبوسنة والهرسك وألبانيا أثناء الحروب التي سفكت فيها دماء المسلمين.

ولقد تنبه المؤتمرون في مؤتمر كولورادو التنصيري إلى ضرورة وجود ظروف خاصة تدعو إلى التحول الجماعي نحو النصرانيَّة إذ يقول ديفيد أ. فريزر: «ولكي يكون تحول فلا بد من وجود أزمات معينة ومشكلات وعوامل تدفع الناس أفرادًا وجماعات خارج حالة التوازن التي اعتادوها وقد تأتي هذه الأمور على شكل عوامل طبيعية كالفقر والمرض والكوارث والحروب، وقد تكون معنوية مثل التفرقة العنصرية أو الحساسية بسبب تسامح المجتمع تجاه النفاق أو الوضع الاجتماعي المتدني».

٢- إثارة الاضطرابات المختلفة بإذكاء نار العداوة والبغضاء وإيقاظ روح القوميات الإقليمية الطائفية الضيقة كالفرعونية في مصر، والفينيقية في الشام وفلسطين ولبنان، والآشورية في العراق، والبربرية في شمال إفريقيا، واستغلال جميع ذلك في التنصير.

٣- يقول زويمر في مؤتمر التبشير في لكهنؤ بالهند ١٩١١م: «إن الانقسام السياسي الحاضر في العالم الإسلامي دليل بالغ على عمل يد الله في التاريخ واستثارة للديانة المسيحيَّة كي تقوم بعملها».

٤- تلجأ المنظمات التنصيريَّة إلى تدبير الانقلابات العسكرية والتواطؤ مع منفذيها لتحقيق أغراضها في مكان تراه منطلقًا للعمل الإسلامي، أو تعذر عليها فيه التنصير. فيبدأ التخطيط لقلب نظام الحكم في ذلك الموقع، وإحلال نظام بديل يأذن لهم. بممارسة التنصير، أو التضييق على المناشط الإسلاميَّة المتواجدة في ذلك الموقع، أو محاربة الجمعيَّات الإسلاميَّة التي تنطلق من ذلك المكان إلى أماكن أخرى. فقد جاء في إحدى النشرات التنصيريَّة بأن الأمير النيجري (أحمد بلو) رحمه الله يعتبر أكبر عقبة في شمال نيجيريا ضد التنصير، بل هو الذي يفتح الباب للإسلام في نيجيريا. وبعد ذلك كان انقلاب «أورنس» الذي تربى على أيدي المنصرين، وتولى خلال الانقلاب تلامذة المدارس التنصيريَّة المراكز القيادية هناك، كما جاء في نشرة أخرى في زمن سابق بأن السودان يتولى الحركات الإسلاميَّة في أواسط أفريقيا، وعلينا أن نشد الحزام لئلا تضيع أواسط أفريقيا فدبرت لذلك ثورة جنوب السودان.

وجاء في خطاب جاير دنر الذي ألقاه في مؤتمر القاهرة التنصيري عام ١٩١٠ م: «إن زعماء بختياري. . الذين أنجزوا الانقلاب الحالي، وأصبحوا حكام الأمر الواقع، كانوا قبل أن يصلوا إلى هذه الشهرة المروعة الأصدقاء الأوفياء لإرساليات جمعيَّة التبشير الكنسية».

٦- بث الأكاذيب والأباطيل عن الإسلام والمسلمين وإثارة الشبهات لديهم

لقد دأب المنصِّرون على بث الأكاذيب والأباطيل بين أتباعهم ليمنعوهم من دخول الإسلام وليشوهوا جمال هذا الدين وصورة الإسلام ورموزه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة؛ فكثيرًا ما يلصقون بالإسلام تهمًا كالهمجية والرجعية والإرهاب.

١- يقول هنري جسب المبشر الأمريكي: المسلمون لا يفهمون الأديان ولا يقدرونها قدرها، إنهم لصوص وقتلة ومتأخرون، وإن التبشير سيعمل على تمدينهم.

٢- ويقول لطفي ليفونيان وهو أرمني ألف بضعة كتب للنيل من الإسلام: إن تاريخ الإسلام كان سلسلة مخيفة من سفك الدماء والحروب والمذابح.

٣- ويقول أديسون: محمد لم يستطع فهم النصرانيَّة ولذلك لم يكن في خياله إلا صورة مشوهة بنى عليها دينه الذي جاء به العرب.

٤- ويزعم المبشر نلسن أن الإسلام مقلد، وأن أحسن ما فيه إنما هو مأخوذ من النصرانيَّة وسائر ما فيه أخذ من الوثنية كما هو أو مع شيء من التبديل.

٥- ويقول المبشر ف.ج هارير: إن محمدًا كان في الحقيقة عابد أصنام؛ ذلك لأن إدراكه لله في الواقع كاريكاتور.

٦- ويقول المبشر جسب: إن الإسلام مبني على الأحاديث أكثر مما هو مبني على القرآن،

ولكننا إذا حذفنا الأحاديث الكاذبة لم يبق من الإسلام شيء.

ويقول كذلك: الإسلام ناقص والمرأة في مستعبدة.

٧- ويقول المبشر جون تاكلي: يجب أن نُريَ هؤلاء الناس أن الصحيح في القرآن ليس جديدًا، وأن الجديد فيه ليس صحيحًا.

٨- أما القس صموئيل زويمر فيقول في كتابه العالم الإسلامي اليوم:

«يجب إقناع المسلمين بأن النصارى ليسوا أعداء لهم».

«يجب نشر الكتاب المقدس بلغات المسلمين؛ لأنه أهم عمل مسيحي».

«تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم؛ لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها».

«ينبغي للمبشرين ألا يقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة؛ إذ إن من المحقق أن المسلمين قد نما في قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوربيين وتحرير النساء».

- وقال صموئيل زويمر كذلك في مؤتمر القدس التنصيري عام ١٩٣٥م:

« لكن مهمة التبشير التي ندبتكم لها الدول المسيحيَّة في البلاد الإسلاميَّة ليست في إدخال المسلمين في المسيحيَّة؛ فإن في هذا هداية لهم وتكريمًا، وإنما مهمتكم هي أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله وبالتالي لا صلة له بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها».

« إنكم أعددتم نَشْئًا لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه في المسيحيَّة، وبالتالي فقد جاء النشء طبقًا لما أراده الاستعمار لا يهتم بعظائم الأمور ويحب الراحة والكسل، فإذا تعلم فللشهرة وإذا تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهرة يجود بكل شيء».

٩- وقد كتب أحد المبشرين في بداية هذا القرن الميلادي يقول: «سيظل الإسلام صخرة عاتية تتحطم عليها كل محاولات التبشير ما دام للمسلمين هذه الدعائم الأربع: القرآن، والأزهر، واجتماع الجمعة الأسبوعي، ومؤتمر الحج السنوي العام».

١٠- ذكرت الكنيسة الهولندية في تقرير مشهور لها تم توزيعه على نطاق واسع «أن الإسلام دين كاذب False Religion، وأنه خطر على العالم».

١١- نشرت إحدى المنظمات التنصيريَّة صورًا لمسجد يصلي فيه المسلمون كتب تحتها: «من أوكار الإرهاب».

١٢- قيام الحملات الإعلامية والدعايات التلفزيونية لحرب المراكز الإسلاميَّة العاملة في تلك الدول واتهامها بالعمالة لدول معادية، أو بالتخطيط للقيام بحرب دينية أو نحو ذلك، وهذا ما

حدث ضد مركز الدعوة الإسلامي العالمي الذي كان يترأسه فضيلة الشيخ أحمد ديدات رحمه الله.

١٣- قال جيري فالويل مراسل قناة cNN الأمريكيَّة عندما وقف بعد أكتوبر٢٠٠١م في مركز لتحفيظ القرآن الكريم في بيشاور: «هنا ورشة الإرهاب» وأمسك بمصحف وقال: «هذا هو إنجيل الإرهاب».

١٤- وبات روبرتسون يعمل هو الآخر في قناة CNN فقد ظهر على هذه القناة ويقول: «الآن اكتشفنا أن محمدًا زعيم من زعامات الإرهاب في التاريخ».

هذا بالإضافة إلى أن إثارة الشكوك لدى المسلم وإبعاده عن دينه يعتبر في حد ذاته هدفًا يسعى إليه المنصرون، ويقفون عنده، ويكتفون به دون أن يسعوا إلى تنصير المسلم أو حتى ترغيبه في النصرانيَّة؛ فهم يرون في أحيان كثيرة أن اعتناق المسلم للنصرانية شرف عظيم لا يستحقه المسلم.

ولعل الأمثلة الآتية توضح ذلك:

١- نشرت بعض المنظمات التنصيريَّة الإنجيل باللغة العربيَّة في عدد من الدول الإفريقية وقد كتب بطريقة «تشبه» القرآن الكريم، وفيه بعض الزخارف، ويبدأ كل فصل منه بكلمة «بسم الله الرحمن الرحيم» وتشكل الكلمات بحركات التشكيل، كما حرصوا على اختيار كلمات قرآنية كثيرة في داخل الترجمة مثل «قل يا عبادي الذين هم لربهم ينتظرون. اعملوا في سبيله واحذروه كما يحذر الخدم ساعة يرجع مولاهم فما هم بنائمين. قال الحواريين أيريدنا مولانا بهذا أم يريد الناس أجمعين؟ فضرب لهم عيسى مثلًا...» «لاحظ الأخطاء النحوية فيما سبق».

إن قيام المنصرين بكتابة الإنجيل بطريقة تحاكي القرآن كما يزعمون لَهُوَ اعتراف منهم بالإخفاق الذريع، وبأن الإنجيل بعد تحريفه وتبديله لم يعد قادرًا على هداية أتباعه فضلًا عن أعدائه.

٢- وكذلك قراءة الإنجيل بطريقة «تشبه» تلاوة القرآن الكريم.

٣- إقامة القداس الأسبوعي يوم الجمعة بدلًا من يوم الأحد، وهذا فعلوه في الكويت، بل إقامته بطريقة «تشبه» صلاة المسلمين في حركاتها.

٤- تزيي المنصرين بأزياء الدعاة والمشايخ كما حدث في بلدان إفريقية كثيرة.

٥- بناء الكنائس الجديدة بتصاميم تشبه المساجد فتقام لها قبة، وما يشبه المِئْذَنة.

٦- الموافقة على بعض المبادئ والشعائر الإسلاميَّة التي من العسير جدًّا أن يتركها من يدعونهم إلى النصرانيَّة، مثل مبدأ تعدد الزوجات، فقد وجدوا أن بعض القبائل الإفريقية قد يجمع الرجل فيها بين أكثر من زوجة وزوجتين، ويصعب على مثل هذا الرجل أن يتخلى عنهن ويقتصر على واحدة إن هو تنصر، ويفضل المنصرون أن يدخل هذا الرجل في النصرانيَّة ويظل متزوجًا بأكثر من واحدة من أن يبقى على إسلامه، وربما في مرحلة لاحقة يقنعونه بالتنازل عنهن ويختار من بينهن واحدة، ومثل ذلك أيضًا موافقتهم على الختان.

٧- يقلعون عن العبارات المثيرة لسخط المسلمين ويستبدلونها بغيرها مما تروق للمسلمين وتنال استحسانهم.

فمن تلك العبارات الشهيرة التي عادة ما كان يستخدمها المنصرون: «مليار مسلم سيذهبون إلى الجحيم ما لم يتم تنصيرهم»، ومن الكلمات الملغاة كلمة «المنصرون».

وليس الأمر عند هذا الحد، بل إن القائمين على التنصير كثيرًا ما يستخدمون أسماء وعبارات تروق للمسلمين خداعًا وتضليلًا؛ فأحد البرامج بإحدى الإذاعات التنصيريَّة اسمه «نور على نور» والقائم عليه اسمه «الشيخ عبد الله»، وإحدى المستشفيات في نيروبي تسمى بـ «اسم الله» وتسمية الكناس «بيوت الله» وأنها تقام ليذكر فيها «اسم الله».

٧- الكتب والدعاية التنصيريَّة

قام المنصرون بالدعوة إلى النصرانيَّة من خلال توزيع المطبوعات من كتب ونشرات تعرف بالنصرانيَّة، وترجمات للإنجيل، ومطبوعات للتشكيك في الإسلام، والهجوم عليه، وتشويه صورته أمام العالم، ومن هذه الكتب والنشرات والمطبوعات:

١- جمعت موضوعات مؤتمر القاهرة ١٩٠٦م في كتاب كبير اسمه وسائل التبشير بالنصرانيَّة بين المسلمين.

٢- صنف زويمر كتابًا جمع فيه بعض التقارير عن التبشير أسماه العالم الإسلامي اليوم، تحدث فيه عن الوسائل المؤدية للاحتكاك بالشعوب غير المسيحيَّة وجلبها إلى حظيرة المسيح مع بيان الخطط التي يجب على المبشر اتباعها.

٣- تاريخ التبشير: للمبشر أدوين بلس البروتستانتي.

٤- كتاب المستر فاردنر: ركز فيه حديثه عن إفريقيا وسبل نشر النصرانيَّة فيها وعوائق ذلك ومعالجاته.

٥- مجلة إرساليات التبشير البروتستانتيَّة التي تصدر في مدينة بال بسويسرا والتي تحدثت عن مؤتمر أدنبره سنة ١٩١٠م.

٦- مجلة الشرق المسيحي الألمانيَّة تصدرها جمعيَّة التبشير الألمانيَّة منذ سنة ١٩١٠م.

٧- دائرة المعارف الإسلاميَّة التي صدرت بعدة لغات حية.

٨- موجز دائرة المعارف الإسلاميَّة.

٩- طبع الإنجيل بشكل أنيق وبأعداد هائلة وتوزيعه مجانًا وإرساله بالبريد لمن يطلبه وأحيانًا لمن لا يطلبه أيضًا.

١٠- ومن أوائل المبشرين الرهبان الجدليين ضد القرآن الراهب الدومنيكاتي (ريكولدو دي مونت كروس) (١٢٤٣ . ١٣٢٠ م) الذي بعثه البابا نقولا الرابع إلى الشرق، فتجوَّل مبشرًا في

فلسطين ومجادلًا باللغة العربيَّة ضد القرآن، ثم ألّف أهم الكتب الجدلية ضد القرآن بعنوان: الجدل ضد المسلمين والقرآن.

١١- طباعة الشيكات وإعلانات الدعاية وأوراق المعاملات الرسمية وغيرها من قِبَل كثير من الشركات والمؤسسات المالية، وعليها صور نصرانية في خلفيتها، كما أنها قد تحتوي في جوانبها على كلمات من الإنجيل، وانتشرت ظاهرة: «الشركات المتدينة»، و «شيكات يحترمها الرب» في بعض دول العالم بل وفي بعض الدول الإسلاميَّة بهدف جذب أموال المستثمرين المتعصبين للنصرانية، إلى جانب دعاوى إحلال البركة على الأموال على حد زعمهم فضلًا عن نشر النصرانيَّة بين الموظفين والعملاء الذين تمر عليهم تلك الأوراق.

والجدير بالذكر أن هذه الأعمال وتلك الشركات تؤيدها الكنائس وتُشجَّع من قبل الاتجاهات السياسية اليمينية.

٨- وسائل الإعلام

من أهم وأخطر أساليب التنصير وسائل الإعلام، وذلك من خلال الإذاعات الموجهة للعالم الإسلامي، إضافة إلى طوفان البث المرئي عبر القنوات الفضائية في السنوات الأخيرة، ومن خلال السينما والمسرح الشبكة الدولية الانترنت، فضلًا عن الصحف والمجلات والنشرات الصادرة بأعداد هائلة...

إذ يتمكنون من خلال الإعلام من بث الأفكار والمعتقدات الباطلة والترويج لها، والدعوة إليها، كما يتمكنون من خلاله من اجتياز الحواجز وتخطي الحدود والوصول إلى المسلمين في بلدانهم المغلقة أمام الحملات التنصيريَّة المباشرة إذ يقول فريد أكورود: «يبدو أن الإذاعة اليوم هي إحدى الوسائل الرئيسة التي يمكن بواسطتها الوصول إلى المسلمين في بلدان الشرق الأوسط وشمال أفريقيا المغلقة، حيث إن الإذاعة يمكنها -كما نعلم- أن تخترق الحواجز الحدودية وأن تعبر البحار وتقفز الصحاري وأن تنفذ إلى مجتمعات المسلمين المغلقة».

ولا أدل من عنايتهم بذلك من هذا التدافع المحموم نحو استخدام هذه الوسائل الإعلامية، ومن مناقشة خمسة أبحاث ضمن المؤتمر التنصيري المنعقد في أمريكا ولاية كولورادو عام ١٩٧٨ م وهذه الأبحاث هي:

١ - الوضع الحالي للمطبوعات ووسائل الإعلام الموجهة للمسلمين.

٢ - الوضع الراهن لترجمات الإنجيل إلى لغات المسلمين.

٣ - الإرسال الإذاعي الحالي الموجه إلى المسلمين.

٤ - مراجع مختارة للمنصرين العاملين بين المسلمين.

٥- الحاجة إلى مجلة جديدة خاصة بالإرساليات التنصيريَّة الموجهة للمسلمين.

كما جاء ضمن الموضوعات التي نوقشت في مؤتمر القاهرة التنصيري المنعقد عام ١٩٠٦ م الموضوعات التالية:

١- النشرات التي ينبغي إذاعتها بين المسلمين المتنورين والمسلمين العوام.

٢- وسائل إسعاف المتنصرين المضطهدين.

٣- تربية المبشرين والعلاقات بينهم.

٤- كيفية التعليم في الإسلام.

وهذه الوسائل الإعلامية: المرئية، والمسموعة، والمقروءة كلها تشترك في دفع عجلة التنصير من خلال مسالك عدة:

١- الدعوة إلى النصرانيَّة بإظهار مزاياها الموهومة، والرحمة والشفقة بالعالم أجمع.

٢- إلقاء الشبهات على المسلمين في عقيدتهم وشعائرهم وعلاقاتهم الدينيَّة.

٣- نشر العري والخلاعة وتهييج الشهوات بغية الوصول إلى انحلال المشاهدين، وهدم أخلاقهم، ودك عفتهم، وذهاب حيائهم، وتحويل هؤلاء المنحلين إلى عباد شهوات، وطلاب متع رخيصة، فيسهل بعد ذلك دعوتهم إلى أي شيء، حتى لو كان إلى الردة والكفر بالله - والعياذ بالله - وذلك بعد أن خبت جذوة الإيمان في القلوب، وانهار حاجز الوازع الديني في النفوس.

وتعتمد هذه الوسائل الإعلامية طرقًا غير صريحة فتأتي ضمن المسلسلات والأفلام والبرامج الوثائقية والتعليمية، التي تطبع دائمًا بنمط العيش الغربي بما فيه من ثقافة وممارسات دينية لا تخلو منها المصطلحات والأمثال والسلوكيات. حتى أفلام الصور المتحركة (الكرتون) الموجهة للأطفال تصبغ بهذه الصبغة التي تشعر المتابع أحيانًا أنها مقصودة متعمدة. وتعمد إلى تأليف المشاهدين والمستمعين والقرّاء على الثقافة الغربية، التي لم تستطع التخلص من التأثير الديني عليها في معظم سلوكياتها ومثلها ومبادئها. بل ربما لا تريد التخلص من هذا التأثير الديني، وتسعى إلى تعميقه وترسخيه ما دام سيحقق تبعية ثقافية تقود إلى تبعيات أخرى.

والإعلام يعد من الوسائل الحديثة غير التقليدية، وبخاصة في مجالات استغلال تقنية الاتصال وتقنية المعلومات، بحيث يمكن من خلال استغلال البث المباشر بث المواعظ والخطب والبرامج التنصيريَّة الموجهة، التي يمكن تقنيًّا مشاهدتها في جميع المجتمعات التي وصلت إلى مستوى تقني متقدم.

ولا يقتصر الأمر على هذه المجتمعات التي وصلت إلى مستوى تقني متقدم. ولا يقتصر الأمر على هذه المجتمعات، بل تنقل التقنية إلى المجتمعات الأقل تقدمًا من خلال إحداث محطات محلية (إ ف. إم.) صغيرة تنصيريَّة تبث هذه البرامج الإعلامية.

وكذا الحال مع الأجهزة الشخصية العارضة للأفلام والبرامج الجاهزة كأجهزة (الفيديو)

وغيرها من الوسائل الناقلة للمعلومات، بالإضافة إلى استغلال تقنية المعلومات الحديثة مثل البريد الإلكتروني، وشبكات المعلومات القابلة للاشترك الشخصي، مثل الشبكة الدولية الإنترنت.

وقد بلغ عدد أجهزة الكمبيوتر المستخدمة لخدمة التنصير (٢٠٦٩٦١٠٠٠) جهاز عام ١٩٩٦م.

ولقد قامت شركة مايكروسوفت لبرامج الكمبيوتر العالمية بتزويد المؤسسات التنصيريَّة ببرامج مجانية بقيمة خمسة ملايين دولار خلال عام ١٩٩٣م.

وقام القس الأمريكي المشهور «بيلي جراهام» صاحب معهد خاص بتنصير المسلمين بحملة صليبية تهدف للوصول إلى ٤٠٠ مليون شخص في ٥٠٠ مدينة، عن طريق الأقمار الصناعية عبر ١٦ قرصًا للأقمار الصناعية إلى ١٧٠ دولة.

وهذه هي أكبر عملية لنشر النصرانيَّة تستخدم فيها التكنولوجيا الحديثة بهذا الزخم.

ودعت الكنيسة في إنجلترا أتباعها إلى أداء الصلاة على الإنترنت، وفتحت الكنيسة موقعًا على الشبكة تبين من خلاله كيفية أداء الصلاة بشكل بسيط، وربطت الكنيسة في الموقع نفسه بين الالتزام بالصلاة وبين التمسك بالريجيم الغذائي أو المواظبة على العناية بحديقة المنزل.

كما بدأ عرض الأفلام التنصيريَّة في القرى الإفريقية في كينيا، ووصل عدد المسلمين الذين حضروا بعض هذه العروض ٢٠٠٠ مسلم، أبدى ٦٥ مسلمًا منهم استعدادهم للتحول إلى النصرانيَّة، وما أسرع ما كانت متابعة المنصرين لهم وتقديم العون والمساعدات لهم.

وفي إحدى السنوات بمعرض القاهرة الدولي للكتاب بيعت أفلام تنصيريَّة كثيرة كفيلم يسوع Jesus الذي صور حياة المسيح ومعجزاته، وغيره من أفلام على شاكلته بيعت بأرخص الأثمان.

ووافق بابا الفاتيكان على الظهور لأول مرة في فيلم غنائي أطلق عليه: «الرجل الذي جاء من بعيد».

كما أنتجت الكنيسة البروتستانتيَّة في أمريكا فيلمًا عن حياة المسيح من وجهة نظر الكنيسة بتكلفة عدة ملايين من الدولارات، ولقد شاهد الفيلم ٥٠٣ مليون شخص منهم ٣٣ مليونًا قرروا الالتزام بالمبادئ العامة للنصرانية، وتم عرض الفيلم في ١٩٧ دولة، واستفادت منه ٣٨٠ منظمة تنصيريَّة عرضته ضمن برامج دعوتها، والفيلم موجود بـ ٢٤١ لغة مختلفة، ويتم ترجمته حاليًا إلى أكثر من ١٠٠ لغة أخرى، ويقوم بالإشراف على عرضه ٣٢٠ فريقَ عرض.

٩- رعاية ومؤازرة طلائع الفساد ورءوس الشر في البلاد الإسلاميَّة

لقيت الأمة الإسلاميَّة -على مر العصور- عنتًا شديدًا من المنافقين الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، ويصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجًا، وقد حذر الله منهم وأوجب جهادهم، والغلظة عليهم، إذ هم العدو، قاتلهم الله أنى يؤفكون.

فكم كانوا طلائع فساد في الأمة، وكم دعوا إلى إشاعة الفواحش، وكم أعانوا من أعداء، وكم فتحوا أمام الأعداء من أبواب موصدة وكم وكم... ولذا استغلت الجماعات التنصيريَّة هذا الطابور الخامس في تحقيق مآربها، وبلوغ غاياتها، يؤكد ذلك المنصر جاير دنر حيث يقول عن مؤازرتهم لهذا الطابور الخامس في بلاد فارس: «إن زعماء بختياري الذين أنجزوا الانقلاب الحالي وأصبحوا حكام الأمر الواقع، كانوا قبل أن يصلوا إلى هذه الشهرة المروعة- الأصدقاء الأوفياء لإرساليات جمعيَّة التبشير الكنسية، أو ليست هذه الحقيقة تجعل من الأهمية الحاسمة أن ندعم ونعزز أولئك العاملين من أجل البشارة في تلك البلاد ذات الأهمية الكبيرة في انشقاق الإسلام السني، وكانت الفرصة أكبر من سنين قليلة مضت عما هي عليه اليوم».

كما يوصي جاير دنر الجمعيَّات التنصيريَّة بدعم ومساندة طلائع الفساد في تركيا بقوله: «إن الاتجاه الخفي للشبان الأتراك أنفسهم نحو التسامح الديني هو في الغالب اتجاه متقدم، والحقيقة الفعلية بأن المسيحيَّة والمسيحيين في أعماق حركتهم إلى حد كبير ينبغي أن يؤدي نتائج هامة وبعيدة المدى... أو ليست هذه الحقائق دعوة للجميعات العاملة في الإمبراطورية العثمانية لتؤازر وتدعم عملها لكي تكون مستعدة لانتهاز فرصة الإفادة من الموقف المتسع».

إن هذه الجمعيَّات التنصيريَّة تدعم وتساند هؤلاء المنافقين رغبة في انتهاز الفرص المناسبة في الوقت المناسب لإشاعة الفاحشة والتبشير بالنصرانيَّة.

ومن هذا الدعم منح الجوائز التشجعية العالمية أو شبه العالمية لمن كان لهم دور بارز في خدمة قضايا التنصير أو حتى في قضايا ضد الإسلام.

فلقد منحت لجنة جائزة «أوناسيس» (الجائزة الكبرى) وقدرها ٢٥٠ ألف دولار أمريكي للأرثوذكسي بطرس غالي سكرتير عام الأمم المتَّحدة سابقًا نتيجة جهوده في التفاهم الدولي والتميز الجماعي، ويقصدون دوره الكبير في مشكلة البوسنة والهرسك، وقد أعلن عن تلك الجائزة مباشرة بعد سقوط الجيب الآمن الذي أعلنته الأمم المتَّحدة في سربنيتشا في البوسنة وقد قتل عدة آلاف من المسلمين العزل هناك.

واختارت جمعيَّة كنائس (ماترا) في فلندا الأسقف «باريد نابان» أسقف مدينة (توريت) في جنوب السودان لجائزة (السلام) التي تمنحها عادة لأولئك الذين يبذلون جهودًا كبيرة في هذا الميدان.

١٠- البعثات الدبلوماسية

البعثات الدبلوماسية في البلاد الإسلاميَّة عن طريق السفارات أو القنصليات أو الملحقيات الثقافية والتجارية والمؤسسات الأجنبية الرسمية الأخرى.

وعلى أي حال يدرّب بعض العاملين في المؤسسات الأجنبية الرسمية من سفارات وغيرها على التنصير قبل انخراطهم العملي في السلك الدبلوماسي، ويصدق هذا على العاملين النصارى.

ومثال ذلك قصة القنصل البريطاني في زنجبار جون كرك الذي دعا سنة ١٢٩٤ هـ - ١٨٧٧م الأمين العام لجمعيَّة الكنيسة التنصيريَّة هنري رايت إلى سرعة إرسال المنصرين، وأكد على أهمية ذلك الدينيَّة والسياسية للوقوف في وجه ما سماه بالامتداد المصري التركي، أي الوقوف في وجه المد الإسلامي.

ومما يدخل في أعمال الملحقيات الثقافية الأجنبية، أي غير الإسلاميَّة، في هذا المجال إنشاء المدارس الأجنبية للجاليات الأجنبية وطبعها بالطابع التنصيري في المناهج وأوجه النشاط غير المنهجية، كالثقافة التي يبدو من ظاهرها التعريف بالبلاد التي تمثلها الملحقية، وفي باطنها الدعوة المختفية إلى التنصير.

١١- المستكشفون

المستكشفون الجغرافيون يعدون نواة أو مثالًا أو نموذجًا لاستغلال الأعمال العلميَّة في تحقيق أهداف غير علمية.

والمستكشفون الجغرافيون في البلاد الإسلاميَّة وغيرها توفدهم الجامعات والجمعيَّات العلميَّة للنظر في قضايا جغرافية وطبيعية علمية تحتاج إلى الوقوف عليها من أمثال ليفنجستون، وستانلي، اللذين بعثا من الجمعيَّة الجغرافية الملكية في بريطانيا في مهمة اكتشاف منابع النيل.

وفي يوغندا وجد المستكشف ستانلي أن الملك موتيسًا وحاشيته قد اعتنقوا الإسلام منذ زمن بعيد -حيث سبق المسلمون إلى إفريقيا فانزعج ستانلي عندما علم أن الحاكم قد اعتنق الإسلام، فسارع إلى إرسال خطاب إلى جريدة الديلي تلغراف ونُشر الخطاب في ١٧ / ١ / ١٢٩٢ هـ - الموافق ١٥ / ١١ / ١٨٧٥ م، وهو يعد نقطة تحول في تاريخ الإسلام الحديث في شرق إفريقيا ووسطها.

وقد بدأ ستانلي الخطاب بذكر اعتناق الحاكم موتيسا الإسلام على يد تاجر سمّاه خميس بن عبد الله ودعا إلى سرعة إرسال المنصرين والإرساليات، وخاصة من بريطانيا. وركز على عدم تأثير الوعظ وحده فحسب على شعب يوغندا الذكي. كما ركز على أن الرجل المطلوب هو المعلم النصراني الخبير المتمرس الذي يستطيع أن يعلم أفراد الشعب كيف يصبحون نصارى، فيعالج مرضاهم ويبني لهم المساكن، ويعلم الآهلين الزراعة، ويوجه يده إلى أي شيء «كما يفعل الملاح». مثل هذا الرجل سيصبح منقذ إفريقيا من الإسلام.

وكان من تأثير هذا الخطاب أن جمعت التبرعات، ووصلت في ذلك الوقت إلى ألفين وأربعمائة [٢٤٠٠] جنيه إسترليني بعد أقل من عام على نشر الخطاب في الجريدة الديلي تلغراف. وقد وزع المبلغ على الجمعيَّات التنصيريَّة، ومنه أرسلت الإرساليات التنصيريَّة، كما كان من تأثيره قيام جمعيَّات تنصيريَّة مر ذكر شيء منها، مثل الإرسالية الجامعية لوسط إفريقيا وإرسالية كنيسة اسكوتلنده الرسمية.

وتوافد المنصرون على إفريقيا عقب بعثة ليفنجستون وستانلي سنة ١٢٩٥ هـ - ١٨٧٨م،

فاقتسموا مناطقها مع اختلاف جنسياتهم بين ألماني واسكوتلندي وإنجليزي ومورافي، وهؤلاء انتشرت إرسالياتهم دون انقطاع من شرق إفريقية إلى أوسطها حتى الخرطوم والحبشة وبلاد الجلا. وجاءت هذه الإرساليات بنتائج حسنة.

١٢- الإغاثة

بعثات الإغاثة، حيث يهب الجميع رجالًا ونساءً، صغارًا وكبارًا يجلبون معهم المؤن والملابس والخيام وغيرها، ويقدمونها على أنها نعمة من عيسى ابن مريم -عليهما السلام- سواء أكان هذا الإيحاء واضحًا بالرموز والشعارات، أم بطريق خفي يصلون إليه بحذر خوف الابتعاد عنهم.

ومعلوم الآن أن ميزانيات المنصرين في هذا المجال تخطت المائة وثمانين مليار دولار سنويًّا، ولو حصرت ميزانيات الهيئات الإغاثية الإسلاميَّة العاملة في الساحة لما وصلت إلى مليار دولار سنويًّا.

ويذكر الشيخ محمد بن صالح العثيمين في افتتاح مكتب هيئة الإغاثة الإسلاميَّة العالمية في الرياض أن المنصرين يقدمون الحلوى الطيبة النظيفة المغلفة للأطفال ويقولون هذه حلوى عيسى -عليه السلام- ويقدمون الحلوى المنتنة المكشوفة القذرة، ويقولون هذه حلوى محمد -صلى الله عليه وسلم- فيقر في ذهن الطفل ما يقر من مؤدى هذه الوسيلة المخادعة.

وبعد الحرب الأهلية في سيراليون عام ١٩٩٦م والتي قُتل فيها أكثر من عشرة آلاف شخص، وتسببت في نزوح مليون ونصف مليون شخص من منازلهم، قال «كرسبين كول» أحد قادة منظمة الإغاثة World Releif Corporation: «إن الأبواب مفتوحة أمامنا لتنصير هؤلاء المسلمين».

١٣- العاملون

استغلال العاملين النصارى في المجتمعات المسلمة على مختلف مستوياتهم العملية وتخصصاتهم من الأطباء والخبراء والممرضات والصيادلة والعمال المهنيين والحرفيين.

وتتضح هذه الوسيلة جيدًا في مجتمع الخليج العربي، حيث تفد مئات الآلاف من الطاقات البشرية الخبيرة وغير الخبيرة. ويفد مع هؤلاء المنصرون بثياب الطبيب والممرضة والفني والعامل. ويعملون على تثبيت إخوانهم النصارى و«حمايتهم» من الإسلام بإقامة الشعائر لهم، سرًّا في بعض المناطق، وعلنًا في مناطق أخرى، كما يعملون على تنصير المسلمين من الشباب والشابات ورجال الأعمال الذين يتسم بعضهم، أو جزء كبير منهم، بالأمية الثقافية وعدم القدرة على إدراك خطر هؤلاء، كما يتسم بعضهم بعدم المبالاة ما دام هؤلاء القادمون من «الخارج» يقدمون جوًّا ترفيهيًّا ينعكس إيجابيًّا على الإنتاج والعمل!!

وكانت هذه الوسيلة من الموضوعات التي ركز عليها مؤتمر المنصرين [السادس] الذي عقد في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة سنة ١٤٠٠ هـ الموافق سنة ١٩٨٠م، حيث أكد أحد رؤساء الجمعيَّات التنصيريَّة على ذلك بقوله: «إن الباب أصبح مفتوحًا لدخول النصرانيَّة إلى البلاد المغلقة، وذلك من

خلال الشركات الوطنية المتعددة، فهناك فرص لا حدود لها في هذا المجال بالنسبة للمنصرين، حيث الحاجة الملحة إلى مهماتهم لتطوير البلاد»

وبالمتابعة من قبل المعنيين بالأمر يعثر على أماكن للعبادة تُهيأ للنصارى سرًا في بعض أجزاء من منطقة الخليج العربيَّة، وعلنًا في أجزاء أخرى من المنطقة، ويعمل المخلصون على تبليغ السلطات المعنية لتتخذ الإجراءات الضرورية التي تتفق مع عقود العمل التي يوقع عليها هؤلاء.

والمسألة هذه مستمرة، إذ تعوَّد المنصرون في هذه المناطق عدم الاستسلام للجهات المتابعة أو للعقبات التي تعترض طريقهم، بل هي تعدّ مؤشرًا على أن هناك عملًا قائمًا منهم يستحق المقاومة.

وقد نقل عن السيد داريل اندرسون أحد أعضاء الكنيسة الإنجيلية الحرة في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة. وهو أيضًا من خبراء العملية التنصيريَّة قوله: نحن نتحرى المجالات التي تفتقدها الحكومات المسلمة حتى نبعث إليهم مختصين من عندنا وبعد ذلك نتحدث عن عقيدتنا بحرية في حدود القدر الذي تسمح به إيديولوجية الحكومة التي تستضيفنا.

وقول السيد داريل اندرسون هذا يتطابق مع ما ذكرته مجلة تايم الأمريكيَّة في تقرير نشرته في عددها الصادر في فبراير ٢٠٠٤م من: «أن خبراء العملية التنصيريَّة يحرصون على إيفاد منصرين إلى البلاد الإسلاميَّة المختلفة من المختصين في مجالات تحتاجها تلك البلاد وبفضل ذلك فقد استطاع نشاط المؤسسات والجمعيَّات التنصيريَّة أن يجد له موطئ قدم في بعض دول العالم الإسلامي مثل الجزائر، وبدأ يؤتي ثماره فيها حيث ذكرت صحيفة الشرق الأوسط في تقرير عن اختراق بعثات التنصير منطقة القبائل في الجزائر نشرته في عددها الصادر يوم ٢٠٠٤/٦/١٥م: إن وزارة الشئون الدينيَّة والأوقاف الجزائريَّة تجري تحقيقًا واسعًا حول الموضوع، وتخص الظاهرة ولايتي تيزي وزو وبجاية»، وقالت: «يبدو أن الظاهرة أكثر وضوحًا في (تيزي ورو) باعتبار أن فيها كنيستين وعشرات البيوت التي حوّلها أصحابها إلى كنائس» في حين كانت صحف جزائرية قد أفادت أن الكنائس تنتشر بشكل مخيف في منطقة القبائل، وأن عددها وصل إلى خمس وخمسين كنيسة في ولاية تيزي وزو وحدها.

١٤- استغلال المناصب السياسيَّة والإعلاميَّة لخدمة التنصير

فرغم أن الكنيسة ما تزال ترفع شعار الابتعاد تمامًا عن السياسة إلا أنها تدفع بالرهبان والقسس لتقلد المناصب السياسية ليتسنى لهم من خلالها خدمة التنصير.

١- ففي خمس دول إفريقية هي: توغو، بنين، الكونغو، الغابون، زائير يترأس المجالس النيابية في هذه البلاد قسس ورهبان.

٢- حَكَم (جاليوس نيريري) وهو قس سابق متعصب تنزانيا (٧٥% مسلمون) لمدة ٢٦ سنة حشد خلالها كل أجهزة الدولة ضد الإسلام، وحرم المسلمين من حق التعليم والمناصب الإدارية

وممارسة شعائر دينهم، بل من حق المواطنة، في حين قدم التسهيلات والتشجيعات للكنيسة ورجالها، ولم تخلُ خطاباته خلال حكمه من التذكير بأنه نصراني يفتخر بذلك (حتى في خطابه في جامعة القاهرة في إبريل ١٩٧٦م)، ومثله الرئيس النصراني المتشدد (دانيل آراب موي) رئيس كينيا السابق.

٣- ولا يفوتنا هنا أن نذكر الدور البارز الذي قام به مجلس الكنائس العالمي في إدارة حرب الجنوب في السودان علمًا بأن عدد النصارى هناك لا يتجاوز ٧% من تعداد السكان في الجنوب كما أن العميل جون جارانج قائد التمرد هناك كان يتخذ الكنائس مقرًّا وقاعدة للانطلاق.

١٥- توطين النصارى في مناطق الأقلية المسلمة

وتشجيعهم على ذلك لتغيير الصبغة الإسلاميَّة لتلك المناطق.

والأمثلة في ذلك كثيرة:

١- تم توطين النصارى القادمين من روسيا في تراقيا الغربية ذات الأغلبية المسلمة في اليونان.

٢- أُجبِر المسلمون البوسنيون على الهجرة من أراضيهم ليحل محلهم الصرب الأرثوذكس أو الكروات الكاثوليك، وبلغ عدد هؤلاء المسلمين المهجّرين مليونًا و ٧٣٠ ألف مسلم حتى منتصف عام ١٩٩٥م، وتكرر الأمر مرة أخرى مع مسلمي كوسوفا.

٣- ويحدث مثل ذلك أيضًا في أقاليم غرب الصين؛ حيث الأغلبية المسلمة؛ إذ بلغ عدد المسلمين في الصين ٩٣ مليونَ مسلمٍ يمثلون ١٠% من مجموع السكان، ويُعتبرون أكبر أقلية مسلمة في العالم، وقامت الحكومة الصينيّة بتهجير المسلمين من إقليم «نيتفشيا» ذي الأغلبية المسلمة وتوطين قرابة مليون شخص من غير المسلمين هناك، كما قامت بنقل ١ . ٣ مليون شخص من غير المسلمين إلى تركستان الشرقيَّة؛ وهذا كله سيخل بالتركيبة السكانية، وسيجعل الأقلية المسلمة تذوب وتندثر في أوساط غير المسلمين.

٤- نقل رئيس أساقفة الكنيسة الأرثوذكسيَّة الصربية مقر إقامته من بلجراد إلى كوسوفا إبان حملات الناتو ليقنع الصرب بالبقاء والمقاومة.

١٦- الأدب والثقافة

استغل التنصير ودعاته مجال الثقافة والأدب وسيلة لنشر أفكارهم الضالة وبث سمومهم بين المسلمين، فلم ينته الأمر بهذا المخطط الآثم إلى الاعتماد على التعليم والخدمات الاجتماعيَّة والطبيَّة والوسائل التقليدية لتنصير المسلمين وزعزعة العقيدة في نفوسهم؛ بل سعى لاستغلال الأدب والثقافة حتى تتسع دائرة نشاطه ويصل إلى أكبر عدد ممكن من المسلمين؛ فقد قام المنصِّرون بتأليف الكتب والقصص والروايات التي تدعم نشاطهم حتى اشتهر في عالم الأدب ما عرف بـ(الأدب التنصيري) وهو يتمثل في ألوان الأدب المختلفة من قصة، ومسرحية، وقصيدة، ومقالة، وخاطرة، ونصوص سينمائية، وكلها تحمل في طياتها الدعوة إلى اعتناق النصرانيَّة والتنفير من الإسلام.

ولم يكن الأدب التنصيري يسير وحده؛ فقد نسق مع جهات أخرى كثيرة تشارك معه في المصلحة والهدف وركز على منهج التربية والتعليم في البلدان التي وقعت مستسلمة تحت سيطرة الغزاة سياسيًّا وعسكريًّا وفكريًّا.

ولم يقع الأدب التنصيري في السذاجة والسطحية، بل استخدم الإمكانات الفنية المتاحة له والمجربة في بلاده بدهاء وحنكة بالغين، فمزج السم بالدسم، ولجأ إلى التلميح بدلًا من التصريح، واستخدم الرمز وألوان الإثارة والتشويق، ونأى بجانبه عن السرد الأجوف والتعبير المباشر الممل، ووظف الإيحاءات توظيفًا ماكرًا، ورسم حركة الحياة والأفراد وأنماط السلوك رسمًا يتفق ومعتقداته ويبعد بها عن النماذج الإسلاميَّة.

والواقع أن القصة كانت المجال الخصب للدعوات التنصيريَّة في كل مكان، وهذه الروايات التنصيريَّة في عمومها تتخذ منهجًا خاصًّا، يمكن إيجازه فيما يلي:

١ - تصوير القساوسة والرهبان بصورة ملائكية فريدة، يخوضون الأخطار دون خوف، ويتَّسِمون بجمال الملامح وجلال المظهر وتألق الثياب وحُسن السَّمْت.

٢ - يتصف (رجل الله) كما يسمونه بالصبر والحلم وتقديم التضحيات دون مقابل.

٣ - يعمد الكُتَّاب التنصيريون أساسًا إلى البساطة في الأسلوب مهما كان المعنى عميقًا وتجنب التعقيد والغموض.

٤ - تشويه صورة الإسلام بطريقة غير مباشرة وإظهاره بمظهر الانحراف.

٥ - الحرص على الحفاظ على القيم الجمالية للشكل الفني؛ لأنه بدون ذلك لا يمكن أن يتحقق الهدف وينجح المخطط الموضوع.

والحركة التنصيريَّة حركة معادية للإسلام تضع الأدب وفنونه في المكان الصحيح؛ تخطط له وترصد له الإمكانات الماديَّة الكافية، وتهتم بترجمته إلى عديد من اللغات حتى يؤتي أكله في كثير من مناطق العالم الإسلامي، وتتكفل بحملات إعلان عنه، وتوعز إلى النقاد بتناوله بالتقييم والتقديم، وترصد له الجوائز العالمية الكبيرة، وتجعل منه مصدرًا لأعمال سينمائية وتلفزيونية ومسرحية، وتستنهض همم كبار الكتاب للمشاركة فيه وتنعم عليهم بأرفع الأوسمة وتعرض أعمالهم بأسعار رمزية وبشتى الوسائل.

والأدب التنصيري الغربي ليس في الحقيقة مجرد تبيان لمحاسن أخلاق المنصرين والقساوسة والرهبان فحسب، ولكن هناك ما هو أخطر من هذا التصور؛ إذ يهدف هذا الأدب إلى أمرين خطيرين هما:

١- تشويه صورة الإسلام والنيل منه، وتوهين عرى الالتقاء بين المسلم وتراثه العقدي والسلوكي.

٢- التمهيد لمفاهيم غربية أشد التصاقًا بالاتجاه الديني النصراني، ولعل هذا يفسر السلوك الغربي المنافي لعقيدتنا في السهرات والاختلاط، وتجاهل القيام بالفرائض، والتخلي عن السنن والآداب الإسلاميَّة.

وقديمًا كتب كل من (إسكندر دوين) و(بريدو) و (روسّو) و(فولتير) قصصًا تنصيريَّة أوسعوا الإسلام وأشبعوه فيها سبًّا وقذفًا، ولنسمع ما قاله توفيق الحكيم عن مسرحية (محمد) التي كتبها (فولتير)؛ حيث قال: «قرأت قصة فولتير التمثيلية (محمد) فخجلت أن يكون كاتبها معدودًا من أصحاب الفكر الحرّ؛ فقد سَبَّ فيها النبي صلى الله عليه وسلم سبًّا قبيحًا عجبت له، وما أدركت له علة؛ لكن عجبي لم يطل؛ فقد رأيته يهديها إلى البابا (بنوا الرابع عشر)».

ويضيف توفيق الحكيم: «لقد قرأت فيما بعد رَدّ البابا على فولتير فألفيته ردًّا رقيقًا كيِّسًا لا يشير بكلمة واحدة إلى الدين، وكله حديث في الأدب»[(١)].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/٦٦٩، ٦٧٢- ٦٧٦)، التحذير من وسائل التنصير، اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، التنصير مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته، التنصير تعريفه أهدافه وسائله حسرات المنصرين، مجلة البيان العدد ١٥٣ ص(٤٦- ٥٨)، كيف نواجه هجمة التنصير، محمد خيس.

الفصل الثامن

التنصير والاستعمار

هذا التنصير الذي يلبس لبوس الشفقة ويظهر الرحمة، ويقدم الدواء، ويعلم الصغار القراءة والكتابة لينهلوا من كفر النصارى ومجونهم وخلاعتهم... ما هو إلا وجه من وجوه الحروب الصليبية ومظهر من مظاهرها يوضح ذلك ما وصف به الأب اليسوعي ميز سياسة فرنسا الدينيَّة في الشرق حينما قال: إن الحرب الصليبية التي بدأها مبشرونا في القرن السابع عشر لا تزال مستمرة إلى أيامنا... ولقد احتفظت فرنسا طويلًا بروح الحروب الصليبية وبالحنين إلى تلك الحروب حية في نفسها.

ويقول اليسوعيون في عرض نشاطهم التنصيري: ألم نكن نحن ورثة الصليبيين، أو لم نرجع تحت راية الصليب لنستأنف التسرب التبشيري والتمدين المسيحي.

ولقد اجتهد النصارى في فرض نصرانيتهم بالقوة في العالم الإسلامي تحت مظلة الاستعمار حينًا، وتحت مظلة الضغوط الاقتصادية والسياسية حينًا آخر، يقول القس بيرس بيفر: في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كانت الحضارة الأوربية والسيطرة السياسية والقوة العسكرية تجتاح العالم، وكانت النصرانيَّة تتسنم غارب هذا المد، وأصبحت الطريق ممهدة أمام المبشرين، فانتشرت النصرانيَّة مع اتساع السيطرة الأوربية في العالم، ولقد قام الاستعمار والسيطرة العسكرية بدورهما في نشر النصرانيَّة.

والتنصير في حقيقته هو الامتداد الحقيقي للحروب الصليبية، فلئن كانت الحروب الصليبية حروبًا وحملاتٍ عسكرية، فإن التنصير حملات صليبية سلمية تستهدف الغرض نفسه. يؤكد ذلك ما صرح به مخططو العمل التنصيري فقد أخبر المؤرخ جان دي جوانفيل -الذي رافق الملك لويس التاسع عشر ملك فرنسا في حملته الصليبية السابعة- عن ما انتهى إليه لويس التاسع عشر في خلوته في معتقله بالمنصورة التي أتاحت له فرصة هادئة ليفكر بعمق في السياسة التي كان أجدر بالغرب أن يتبعها إزاء المسلمين، وقد انتهى به التفكير إلى ما أفضى به إلى أعوانه المخلصين أثناء رحلته إلى عكا متوجهًا إليها من دمياط حيث قال: إنه لم يعد في وسع الكنيسة أو فرنسا مواجهة الإسلام، وإن هذا العبء لا بد أن تقوم به أوربا كلها لتضييق الخناق على الإسلام ثم تقضي عليه، ويتم لها التخلص من الحائل الذي يحول دون تملكها لآسيا وأفريقيا.

ويقدر رينيه جروسيه أحد المؤرخين النصارى هذا التوجه الاستراتيجي للملك لويس التاسع بقوله: إن الملك لويس التاسع كان بذلك في مقدمة كبار ساسة الغرب الذين وضعوا للغرب الخطوط الرئيسة لسياسة شملت مستقبل آسيا وأفريقيا بأسرها.

وكان من ضمن ما تضمنته خطة لويس التاسع ما يلي: تحويل الحملات الصليبية العسكرية إلى حملات صليبية سلمية تستهدف الغرض نفسه، لا فرق بين النوعين إلا من حيث نوع السلاح المستخدم في المعركة، وتجنيد المبشرين الغربيين في هذه المعركة السلمية لمحاربة الإسلام، ووقف انتشاره ثم القضاء عليه معنويًا، واعتبار هؤلاء المبشرين في تلك المعارك جنودًا للغرب.

وتبنت الدول العظمى هذه السياسة فحملت رايات التنصير؛ لأنه يحقق لها الأهداف التي تتطلع إليها سواء كانت دينية أم سياسية أم اقتصادية، إذ في عام ١٩٢٠م أصدرت لجنة التبشير الأمريكي -التي تهتم بالاستفادة من مناسبات الحروب للتنصير- كتابًا ذكرت في مطلع مقدمته ما يلي: من أبرز الأمور المتعلقة بدخول الولايات المتَّحدة في الحرب العالمية الأولى أن الآراء والمبادئ التي كانت تهدف إليها الإرساليات التبشيريَّة قد تبنتها الأمة الأمريكيَّة، ثم أعلنت أنها هي أهدافها الأخلاقية وغايتها من خوض تلك الحرب. . إن هذه المبادئ قد سميت الآن أسماء سياسية فقط.

وقد تفرض بقوة المستعمر وسطوته كما ذكر ذلك المنصر تشارلس كرافت حيث قال: إن استراتيجيَّة التنصير الأوروبية الأمريكيَّة كانت عمومًا مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالعقلية الاستعمارية ولهذا السبب كانت ناجحة كلما تعرضت الشعوب إلى التأثير القوي وحتى إلى التخويف بواسطة الإنجازات الثقافية الأوربية الأمريكيَّة، لقد كنا تمامًا مثل المهودين.

وعلاقة الاستعمار بممارسة التنصير، وتبديل ثقافة الأمة بثقافة أخرى ليست لها يتضح من خلال خطاب الوزير الفرنسي (صالغندي) الذي ألقاه عام ١٨٤٦م أمام جمع من الأطباء العسكريين في الجزائر؛ ومن قوله: «مما لا شك فيه أن الحكومة الفرنسيَّة تعترف لكم بجميل إخلاصكم في معاملتكم للجنود؛ غير أن لكم مهمة أخرى أكثر أهمية؛ أنتم مدعوون إلى القيام بها وهي مؤازرتكم بقسط كبير في العمل على إدخال حضارتنا في بيئة القبائل العربيَّة والبربرية. إن تبشيركم سيكون ولا شك القادر على النجاح خلال السنوات المقبلة؛ ومن جهتنا سنقوم بكل مجهوداتنا لنوفر لكم كل الظروف وسط المواطنين للعمل على نشر التعليم الطبي الذي سيصبح نافعًا في الوقت نفسه للإنسانية ولتثبيت قوتنا في هذا البلد».

وبقراءة هذا الخطاب يظهر أمامنا ثلاثة أمور أساسية:

١- الارتباط الوثيق بين التنصير والاستعمار، وأن للتنصير دورًا ثقافيًا إمبرياليًا.

٢- أشار الوزير إلى دور هؤلاء الأطباء في إدخال الحضارة الغربية في البنية العربيَّة ولكن بإدخال الثقافة الاستعمارية وليس إيجابيات الحضارة الغربية؛ بدليل أن الاستعمار الفرنسي للجزائر الذي زاد على ثلاثة قرون وثلث القرن لم تجنِ منه الجزائر إلا تخلف أبنائها ونهب خيراتها واستيطان أراضيها وإذلال شعبها.

٣- أن السلطات الاستعمارية كانت تدعم كل الجهود التي تساعد في التأثير الثقافي.

وحتى بعد رحيل المستعمرين عن ديار الإسلام ظل التأثير الثقافي مسلطًا على الديار التي

استعمروها عن طريق الجامعات الغربية كالجامعات الأمريكيَّة في كثير من الدول العربيَّة، والمدارس الغربية كذلك، وفي مصر وحدها أكثر من تسع مؤسسات تعليمية بين جامعة وكلية ومدرسة أمريكية وإنجليزية تمارس التنصير.

وكذلك عن طريق الأبناء العاقين لأمتهم المخلصين للغرب النصراني الذين درسوا في الغرب وتشربوا ثقافته، ثم سُلِّموا وزارات التربية والثقافة في البلاد الإسلاميَّة، وأُعطوا المنابر الإعلامية ليقوموا بتشويه الثقافة الإسلاميَّة، والدعاية لثقافة المستعمرين، والدعوة إلى الأخذ بها بخيرها وشرها، وحلوها ومرها... كما قال طه حسين، وكما قال تركي الحمد: لا يمكن أن تأخذ السيارة ولا تأخذ ثقافتها أي: ثقافة صانعها.

وعن طريق النوادي الماسونية أيضًا، والجمعيَّات الغربية من نسائية وغيرها التي أنشئت في العالم الإسلامي ويصلها كل الدعم المادي والمعنوي من المستعمرين.

وفي العراق إذ أصبح هو الآخر هدفًا لحملات التنصير وهذا ما كشف عنه التقرير الذي نشرته مجلة التايم الأمريكيَّة في عددها الصادر يوم ٢٧ فبراير ٢٠٠٤م والذي أشار بالقول: «استعدادات المنصرين الإنجيليين والكاثوليك لاجتياح العراق بعد ما انفتحت أبوابه لهم على مصاريعها في ظل الاحتلال وهو ما حدث من قبل في أفغانستان حيث هيأ الاحتلال الأمريكي فرصة مواتيه لأولئك المنصرين وقالت: «إنه بينما كانت القوات الأمريكيَّة تحتشد وتستعد لغزو العراق، كانت المنظمات التنصيريَّة تعد برامج موازية لإعداد المبشرين عن طريق تعريفهم بجغرافية العراق والعالم العربي وبظروفه الاجتماعيَّة، ثم تعريفهم بالإسلام وتلقيهم عبر مائة وخمسين محاضرة كيفية التعامل مع المسلمين والنفاذ إلى قلوبهم وعقولهم».

وذكرت مجلة نيوزويك الأمريكيَّة أن البيت الأبيض أعلن الأسبوع الماضي أنه لن يمنع ما أسماه «الجمعيَّات الخيرية المسيحيَّة» من ممارسة مهامها التنصيريَّة داخل العراق. ويدين ٩٨% من العراقيين البالغ عددهم ٢٤ مليون نسمة بالإسلام، فيما يدين ٢% فقط بالمسيحيَّة واليهوديَّة.

وقالت المجلة في عددها على الإنترنت الذي نشر الخميس ١/ ٥ / ٢٠٠٣: إن جمعيَّة الكتاب المقدس الدولي أرسلت إلى العراق ١٠ آلاف نسخة من كتيبات باللغة العربيَّة، وتحمل عنوان «المسيح جاء بالسلام».

وأضافت أن الجمعيَّة تعتزم إنتاج ما يقرب من ٤٠ ألف نسخة أخرى في شهر مايو الجاري، غير أنه لم يتم الإعداد بعد لنسخ هذه الكتيبات باللغة الإنجليزية.

ولم تنشر جمعيَّة الكتاب المقدس الدولي أسماء ما تسميهم بـ«الجماعات الخيرية» التي ستقوم بتوزيع تلك الكتيبات في العراق.

ويقول روبرت فيزرلين المتحدث باسم التحالف المسيحي المبشر -إحدى الجمعيَّات المسيحيَّة التي ستقدم على الخطوة نفسها- للمجلة: «سنكون حذرين إزاء هذه المسألة».

وأضاف موضحًا «سيتم الإشارة إلى المبشرين على أنهم عاملون تابعون لكنيسة مسيحية»، مشيرًا إلى أن كلمة التبشير أصبحت كلمة سيئة.

أما مارك كيللي المتحدث باسم مجلس التبشير الدولي، فأكد أنه سيتم إرسال أيضًا نسخ من الكتاب المقدس إلى العراق، مشيرًا إلى أن المجلس يقوم بإرسال الأطعمة في صناديق مكتوب عليها كلمات من الكتاب المقدس.

كانت منظمتان تنصيريتان أمريكيتان هما المؤتمر المعمداني الجنوبي أكبر التجمعات البروتستانتيَّة في الولايات المتَّحدة، وفرانكلين جراهام ساماريتانس بيرس -قد أعلنتا أواخر شهر مارس ٢٠٠٣ أنهما تعدان فرق عمل لدخول العراق ونشر الديانة المسيحيَّة بين مواطنيه بعد انتهاء الحرب[١].

(١) انظر: التنصير تعريفه أهدافه وسائله حسرات المنصرين، مجلة البيان العدد ١٥٤ ص(٥٢- ٦٢)، كيف نواجه هجمة التنصير.

الفصل التاسع

التنصير واليهود

عمل اليهود على مؤازرة التنصير عندما تحولت النصرانيَّة على يد شاءول أو بولس إلى خليط من الثقافات السابقة عليها، بما فيها اليهوديَّة المحرّفة، فكان هذا التآزر بين اليهوديَّة والنصرانيَّة في المجتمعات المسلمة وغير المسلمة يبرز بوضوح عندما تحتدم المشكلات المحلية أو الإقليمية، ويكون لإحدى النحلتين ضلع فيها، كما برز في الحرب الأهلية اللبنانية، وكما يبرز في حرب السودان ضد المتمردين النصارى في الجنوب، وكما برز كذلك في الحرب على المسلمين في البوسنة والهرسك، وفي كوسوفو الألبانية.

وتعمل **المؤسسات اليهوديَّة** داخل فلسطين المحتلة وخارجها على تعضيد التنصير وتحقيق بعض أهدافه التي تتفق مع المنطلقات والمصالح اليهوديَّة الراسخة في العقيدة، من أن الآخرين خدم لليهود وعالة عليهم كما هو مصرح به في بروتوكولات حكماء صهيون.

يقول عجاج نويهض مشيرًا إلى أساليب اليهود في ترسيخ وجودهم وتأثيرهم: حتى إذا انطلقوا بعد الثورة الفرنسيَّة يضعون مخططًا قائمًا على أساسين، كان هذان الأساسان هما:

١ - عقيدة أنهم شعب الله المختار.

٢ - عقيدة أن هذا الشعب المختار يستطيع أن يفسد العالم ويعطله ويخربه ليقيم على أنقاضه ملكًا يهوديًا داوديًا، يتفرد بحكم العالم بأسره، وما الأمم والشعوب إلا حيوانات متخلفة العقل والذهن والفهم...

أما عقيدتهم أنهم شعب مختار؛ فالإشارة إليها وإلى الماسونية شيء كثير في البروتوكولات.

وأما قدرتهم على أن يصلوا إلى نهاية مبتغاهم، فنحسب أن القطار قد فاتهم؛ ولكن قد يطول بالعالم الأمريكي والبريطاني الأمد وهو مخدر تخديرًا يهوديًا، وأهم عوامل هذا التخدير ليس الذهب والمرأة والجاسوسية، بل التنصير ظاهريًا والبقاء على اليهوديَّة باطنًا.

وقد أكثر اليهود من استعمال هذه الخدعة وبعد طردهم من البرتغال وإسبانيا وقيام مجلس التفتيش عليهم بالعذاب المعلوم.

وهكذا كان إسلام اليهود الذين جاءوا المملكة العثمانية بعد القرن الخامس عشر فأسلموا وسموا بالدونمة أي المهتدين.

وقد ظهر في صفوف المنصرين يهود منصرون وعمل بعضهم في المنطقة العربيَّة.

ويذكر أن صموئيل زويمر وعائلته كانوا يهودًا، وأن زويمر نفسه مات على اليهوديَّة، وهو يعد من أبرز المنصرين في المنطقة العربيَّة، ويكثر ذكر اسمه عند أي حديث عن التنصير في المجتمع

العربي. وقد آزره في هذا فريق من المنصرين الذين كانوا يعملون معه في المنطقة نفسها، وفيهم أخوه بيتر وزوجته إي. لو زويمر.

يقول عبد الله التل: وأعجب العجب أن يعلم القارئ بأن صموئيل زويمر هذا، الذي كان يرأس مؤتمرات التبشير من أدنبرة في أقصى الغرب إلى لكنوه في أقصى الشرق، والذي قاد معارك التبشير طوال ستين عامًا انتهت بهلاكه سنة ١٩٥٢، قد كشف عن يهوديته الدفنية الراسخة في أعماق نفسه، وذلك بأن طلب حاخاما يلقنه في ساعاته الأخيرة أثناء احتضاره. وقد أخبرني راهب من أصدقائي أيام معركة القدس، أن الكنيسة تحتفظ بهذا السر المذهل، ولا تبوح به، حتى لا تنكشف حيل اليهود الذين يتظاهرون باعتناق النصرانيَّة، وحتى لا يظهر إخفاق جمعيَّات التبشير التي تبذل الملايين عبثًا، وتنخدع بمكر اليهود وخططهم الخبيثة لبثِّ الفتن والبغضاء بين الإسلام والمسيحيَّة.

ويخفي اليهود انتماءاتهم اليهوديَّة وينخرطون في أعمال دينية قد تصل أحيانًا إلى التظاهر بالإسلام قصدًا إلى الإسهام في مصادرته والتظاهر بالنصرانيَّة من باب أولى، نظرًا لما للنصارى من قبول في المجتمع المسلم أكثر من قبوله لليهود.

وهذا يحقق لليهود أهدافًا أبرزها رسوخ اليهود في فلسطين المحتلة مدة أطول مما لو جابههم المسلمون بإسلامهم[1].

---

(١) انظر: التنصير مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته، بروتوكولات حكماء صهيون نصوصها، رموزها، أصولها التلمودية، عجاج نويهض ص(٢٩٦ - ٢٩٧)، جذور البلاء ص(٢٢٨).

الفصل العاشر

إمكانات المنصرين

١- في أندونيسيا يسيطرون على وسائل الإعلام، ولديهم إذاعات تبشيريَّة وصحف قومية، وإحصائية عام ١٩٧٥م تكشف بأن فيها ٨٩١٩ كنيسة لطائفة البروتستانت و٣٨٩٧ قسيسًا و٨٥٠٤ مبشرين متفرغين، ولطائفة الكاثوليك ٧٢٥٠ كنيسة و٢٦٣٠ قسيسًا و٥٣٩٣ مبشرًا متفرغًا، وقد وضعوا خطة للانتهاء من تنصيرها في عام ٢٠٠٠ ميلادية.

٢- في بنجلاديش إرساليات تبشيريَّة كثيرة لتنصير المسلمين هناك.

٣- في كينيا: يعدون لتنصيرها تمامًا في عام ٢٠٠٠ ميلادية أيضًا.

٤- إن التنصير يلقي بثقله في ماليزيا ودول الخليج وإفريقيا.

٥- ذكر في مؤتمر عدم الانحياز في كوالالمبور بأن هناك حوالي ٢٥٠٠ محطة إذاعية بـ ٦٤ لغة قومية تشن هجومًا صريحًا وضاريًا ضد الإسلام.

٦- مجموع الإرساليات الموجودة في ٣٨ بلدًا إفريقيًا يبلغ ١١١,٠٠٠ إرسالية بعضها يملك طائرات تنقل الأطباء والأدوية والممرضات لعلاج المرضى في الغابات وأحراش الجبال.

٧- يوجد الآن في العالم ما يربو على ٢٢٠ ألف مبشر، منهم ١٣٨,٠٠٠ كاثوليكي، والباقي ٨٢,٠٠٠ بروتستانتي، وفي إفريقيا وحدها ١١٩,٠٠٠ مبشر ومبشرة ينفقون بليوني دولار سنويًا.

٨- يستخدمون سفنًا معدة إعدادًا خاصًا يسمح بإقامة الحفلات على ظهرها للاستعانة بها في توزيع المطبوعات الكنسية وإقامة الحفلات التي تستغل لأهدافهم الخاصة في التنصير، ويعلنون عنها باسم إقامة معرض عائم للكتاب.

٩- يقوم مجلس الكنائس العالمي والفاتيكان وهيئات أخرى بالإشراف والتوجيه والدعم المالي لكافة الأنشطة التنصيريَّة، وتتوفر مصادر تمويل ثابتة من مختلف الحكومات والمؤسسات في الدول الغربية، وعن طريق المشروعات الاقتصادية، والأراضي الزراعية، والأرصدة في البنوك والشركات التابعة لهذه الحركات التنصيريَّة مباشرة، وحملات جمع التبرعات التي يقوم بها القساوسة من حين لآخر.

١٠- استخدام المقاييس العلميَّة والتجارب المعملية في ميدان الدعوة إلى النصرانيَّة، فقد قدم بحث إلى مؤتمر كلورادو التنصيري المنعقد عام ١٩٧٨م قارن فيه المنصر بين تجربة الأرض المزروعة وكيفية اختبار التربة وتهيئتها ومتابعة الزرع حتى الحصاد وبين طريقة المنصر في بث دعوته وتعهدها ومتابعتها.

كما قدم في هذا المؤتمر بحث بعنوان تطبيق: «مقياس إينكل» في عملية تنصير المسلمين.

١١- **مشاريع التنصير**: طبقًا لإحدى الدراسات التنصيريَّة؛ فإنه ينشط في أنحاء العالم الآن ٣٨٧ مشروعًا تنصيريًا عالميًا، و٢٥٤ مشروعًا منها تحرز التقدم والنتائج المرجوة، ويعتبر ٢٥٤ مشروعًا من هذه المشاريع مشاريع واسعة النطاق، وهي التي ينفق كل واحد منها على العمل التنصيري عشرة آلاف ساعة عمل أو أكثر من عشرة ملايين دولار سنويًا على مدى عشر سنوات.

و ٣٣ مشروعًا من هذه المشاريع هي ما توصف بـ «المشاريع الضخمة» وهي التي ينفق كل واحد منها مائة ألف ساعة عمل أو مائة مليون دولار سنويًا أو ألف مليون دولار عبر عمرها، وأكبر هذه المشاريع الضخمة ينفق الآن ٥٥٠ مليون دولار سنويًا على أنشطتها التنصيريَّة في أنحاء العالم.

١٢- **قوة المال**: استخدم المنصرون إلى جانب القهر والسلطة والسياسة، قوة المال ووسائل الدعاية، فقد بلغت الأوضاع المالية للكنائس العالمية أن المسيحيَّة العالمية المنظمة أنفقت في الثمانينيات ١٤٥بليون دولار سنويًا، ويعمل في أجهزتها ١,٤ ملايين عالم متفرغ، وهي تدير ١٣٠٠٠ مكتبة عامة كبرى، وتنشر ٢٢٠٠٠ مجلة بمختلف اللغات عبر العالم، كما تنشر ٤ بلايين نسخة من الكتب في العام الواحد، وتدير ١٨٠٠ محطة إذاعية وتليفزيونية في أنحاء العالم، وتستخدم المنظمات الكنسية ٣ ملايين جهاز كمبيوتر، ويُوصف أخصائيو الكمبيوتر المسيحيون بأنهم جيش مسيحي من نوع جديد.

أموال التنصير: من المعروف أن الكنيسة تمتعت دائمًا بمصادر ضخمة. ولكنها لم تحسن استخدامها دائمًا. ومن ذلك أن مشروعًا تنصيريًا معينًا جمع له ٣٣٦ مليون دولار سنة ١٩١٨م ولكنه انهار خلال أسبوع واحد من قيامه، كما أن مشروعًا ضخمًا آخر للتنصير جُمِعَ له مبلغ ١٥٠ مليون دولار في الولايات المتَّحدة ثم أنهار فجأة سنة ١٩٨٨م نتيجة فضيحة أخلاقية وإدارية تتعلق ببعض كبار المنصرين، والإشارة هنا إلى القسين الأمريكيين (باكير) و (جيمي سواغارت) قائدي منظمة مجالس الله.

١٣- **الإخطبوط التنصيري**: إخطبوط التبشير المسيحي بلغ في سنة ١٩٨٥م ربع مليون مبشر مسيحي غربي في آسيا وإفريقيا، يمثلون ٣,٥٠٠ منظمة وجمعة تبشيريَّة في الغرب، يساعدهم ٥,٣ مليون مبشر محلي.

وينفق الغرب أموالًا طائلة على هذا المجهود فحسب قول دافيد وارين الذي يحرر دائرة المعارف المسيحيَّة العالمية: أنفقت الإرساليات المسيحيَّة عبر العالم ٧٠ بليون دولار سنة ١٩٧٠ و١٠٠,٣ بليون دولار سنة ١٩٨٠م، وكان الرقم المتوقع لسنة ١٩٨٥م هو ١٢٧بليون دولار. وبهذه الزيادة المطردة، لا بد أن يكون إنفاق الإرساليات الحالي عبر العالم قد جاوز مائتي بليون دولار في السنة.

١٤- وفي نشرة وزعتها الندوة العالمية للشباب الإسلامي جاء فيها أن عدد النصارى في العالم يبلغ مليارًا، وسبع مائة وعشرين مليون (١٧٢١٠٠٠٠٠٠) نسمة.

ويبلغ عدد المنظمات التنصيريَّة في العالم أربعة وعشرين ألفًا وخمسمائة وثمانين (٢٤٥٨٠) منظمة.

وعدد المنظمات العاملة في مجالات الخدمة يزيد عن عشرين ألفًا وسبعمائة (٢٠٧٠٠) منظمة.

ويبلغ عدد المنظمات التي تبعث منصرين متخصصين في مجالات التنصير والإغاثة ثلاثة آلاف وثمانمائة وثمانين (٣٨٨٠) منظمة. ويزيد عدد المعاهد التنصيريَّة على ثمانية وتسعين ألفًا وسبعمائة وعشرين (٩٨٧٢٠) معهدًا تنصيريًّا.

ويبلغ عدد المنصرين المتفرغين للعمل خارج إطار المجتمع النصراني أكثر من مائتين وثلاثة وسبعين ألفًا وسبعمائة وسبعين (٢٧٣٧٧٠) منصرًا.

ويزيد عدد الكتب المؤلفة لأغراض التنصير على اثنين وعشرين ألفًا ومائة (٢٢١٠٠) كتاب في لغات ولهجات متعددة.

ويبلغ عدد النشرات والمجلات الدوريَّة المنتظمة ألفين ومائتين وسبعين (٢٢٧٠) نشرة ومجلة، توزع منها ملايين النسخ بلغات مختلفة.

ويزيد عدد محطات الإذاعات التنصيريَّة على ألف وتسعمائة (١٩٠٠) إذاعة، تبث إلى أكثر من مائة (١٠٠) دولة وبلغاتها.

وذكرت النشرة أن مجموع التبرعات التي حصل عليها المنصرون لعام واحد حوالي مائة وواحد وخمسين مليارَ (١٥١٠٠٠٠٠٠٠٠٠) دولارٍ أمريكي.

وعلى أي حال فالأرقام والإحصاءات عالية ومتغيرة بسرعة عجيبة؛ نظرًا لتطور ظاهرة التنصير وأساليبه في نشر التنصير بين الناس بعامة.

١٥- إحصائية التنصير لعام ١٩٩٩م:

عدد أعضاء كل طائفة	عام ١٩٧٠	عام ١٩٩٩	عام ٢٠٢٥
الكنيسة الإنجليزية	٤٧,٥٢٠,٠٠٠	٧٤,٥٠٠,٠٠٠	١١٠,٠٠٠,٠٠٠
الأرثوذكس	١٤٧,٣٦٩,٠٠٠	٢٢٢,١٢٠,٠٠٠	٢٧١,٧٥٥,٠٠٠
البروتستانت	٢٣٣,٨٠٠,٠٠٠	٣٢١,٣٥٨,٠٠٠	٤٦١,٨٠٨,٠٠٠
الكاثوليك	٦٧١,٤٤١,٠٠٠	١,٠٤٠,٠١٨,٠٠٠	١,٣٧٦,٢٨٢,٠٠٠
النصارى في إفريقيا	١٢٠,٢٥٧,٠٠٠	٣٣٣,٣٦٨,٠٠٠	٦٦٨,١٢٤,٠٠٠
عدد المنصرين الأجانب	٢٤٠,٠٠٠	٤١٥,٠٠٠	٥٥٠,٠٠٠
عدد المنصرين المحليين	٢,٣٥٠,٠٠٠	٤,٩١٠,٠٠٠	٦,٥٠٠,٠٠٠
التبرعات للكنيسة	٧٠ بليون دولار	١,٤٨٩بليون دولار	٢٦ بليون دولار
الجرائم المتعلقة بالكنيسة	٥ مليار دولار	١٢,٢ مليار دولار	٦٥ مليار دولار
عناوين الكتب النصرانيَّة التي تم طباعتها	١٧١٠٠	٢٤٨٠٠	٧٠,٠٠٠ عنوانًا

	عام ١٩٧٠	عام ١٩٩٩	عام ٢٠٢٥
المجلات الدوريَّة النصرانيَّة	٢٣٠٠٠	٣٣٧٠٠	١٠٠,٠٠٠
عدد الأناجيل وأجزاء الأناجيل التي تم طباعتها	٢٥١ مليونًا	٢,١٤٩,٣٤١,٠٠٠	٤,٤٣٠,٠٠٠
عدد محطات الإذاعة والتلفزيون التنصيريَّة	١٢٣٠	٣,٧٧٠	١٠ ,٠٠٠ محطة
عدد مخططات التنصير في العالم	٥١٠	١٣٤٠	٣٠٠٠ خطة

١٦- نشرت المجلة الدولية للبحوث الآثارية الأمريكيَّة Internatianal Bullettin of Missionary Research بعض الأرقام عن النشاط التنصيري لعام ١٩٩٠م:

عدد المنظمات العاملة:

٢١٠٠٠ منظمة.

عدد المعاهد التي تبعث بمنصرين:

٣٩٧٠ منظمة.

عدد المعاهد التنصيريَّة:

٩٩٢٠٠ معهد.

عدد المنصرين العاملين داخل أوطانهم:

٣٩٢٣٠٠٠ منصر.

عدد المنصرين العاملين خارج أوطانهم:

٢٨٥٢٥٠ منصر.

عدد المجلات والدوريات التنصيريَّة:

٢٣٨٠٠ مجلة دورية.

عدد نسخ الإنجيل والعهد الجديد:

١٢٩ مليون نسخة.

التبرع للكنيسة:

١٥٧ بليون دولار.

أنواع الكتيبات الجديدة:

٦٥٦٠٠ كتيب.

عدد محطات الإذاعة والتلفزيون:

٢١٦٠ محطة.

عدد المستمعين والمشاهدين شهريًا:

١٣٦٩٦٢٠٦٠٠ شخص.

ونشرت المجلة نفسها إحصائية أخرى لأعمال التنصير لعام ١٩٩٦م جاء فيها:

عدد المنظمات العاملة:

٤٥٠٠ منظمة.

عدد المنظمات التي تبعث بمنصرين:

٢٣٢٠٠ منظمة.

عدد المنصرين العاملين داخل أوطانهم:

٤٦٣٥٥٠٠ منصر.

عدد المنصرين العاملين خارج أوطانهم:

٣٩٨٠٠٠ منصر.

التبرع للكنيسة:

١٩٣ بليون دولار.

عدد أجهزة الكمبيوتر في خدمة التنصير:

٢٠٦٩٦١٠٠٠ جهاز.

أنواع المجلات والدوريات التنصيريَّة:

٣٠١٠٠ مجلة دورية.

عدد نسخ الأناجيل والعهد الجديد:

١٧٨٣١٧٠٠٠ نسخة.

عدد محطات الإذاعة والتلفزيون:

٣٢٠٠ محطة.

١٧- نماذج من الخدمات التي تقدم للمنصرين في أمريكا:

هناك أكثر من ٦٠٠ مدرسة متخصصة في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة بتدريس أبناء المنصرين الذين يعيشون في إفريقيا وآسيا وغيرها kids schools missonary.

هناك شركات كثيرة متخصصة في نقل احتياجات القسس والمنصرين إلى أي مكان في العالم بسعر زهيد.

هناك شركات متخصصة في توفير السكن للقسس والمنصرين خلال الإجازة التي يقضونها في الولايات المتَّحدة كل ٧ سنوات.

هناك شركات متخصصة في التأمين على السيارات للقسس والمنصرين الذين يقضون هذه الإجازات بسعر زهيد مقارنة بالشركات التي تطلب مبالغ كبيرة عندما لا يكون الشخص ذا خبرة في قيادة السيارة في أمريكا خلال السنوات التي قضاها في إفريقيا وآسيا أو تفرض شركات التأمين عليهم؛ لأنهم يشكلون خطرًا كبيرًا في القيادة.

هناك شركات لتزويد القسس والمنصرين بالمعدات التي لا تحتاج إلى كهرباء مثل الثلاجات وغيرها التي تعمل بطاقة بديلة مثل الكيروسين، أو حركة السي دي للمسجلات... إلخ.

هناك مستشفيات نفسية خاصة لعلاج القسس والمنصرين الذين يحتاجون للعلاج النفسي سواء في الميدان أو في شمال أمريكا.

هناك شركات متخصصة في عمل برنامج توفير مالي للمنصرين، يشارك فيه المنصر والمؤسسة التي أرسلته حتى تضمن له حياة كريمة بعد التقاعد، وشركات أخرى تهتم بتوفير مبالغ لتعليم أولاد المنصرين.

هناك شركات لتدريب المنصرين على كيفية التصرف في الأزمات مثل الانقلابات العسكرية، الاضطربات الأمنية، هجوم إرهابي... إلخ.

١٨- إحصائيَّة بالمنصرين الكاثوليك:

السنة	عدد المنصرين الأمريكان الكاثوليك من الولايات المتَّحدة إلى الخارج
١٩٦٠	٦٧٨٢
١٩٦٤	٧١٤٦
١٩٦٨	٩٦٥٥
١٩٧٢	٧٦٥٦
١٩٧٦	٧٠١٠
١٩٨٠	٦٦٠١
١٩٨٤	٦٣٩٣
١٩٨٨	٦٢٤٦
١٩٩٢	٦٠٣٧
١٩٩٦	٦٠٦٣

١٩- توزيع الأناجيل في العالم:

ازدادت كمية الأناجيل الموزعة على المستوى العالمي إلى رقم جديد لم يسبق الوصول إليه في الماضي؛ حيث بلغت النسبة ١٤٠٪ مما كانت عليه في العام الماضي وهذه الإحصائيات تشمل ما تم توزيعه عن طريق جمعيَّات الإنجيل المتَّحدة فقط كما هو مبين أدناه:

إفريقيا: ٤,٢٠٨,٥٦٨ إنجيل.

آسيا: ٢٥,٦٩٧٧,٦١١إنجيل.

الأمريكتان: ١٥,٧٦٣,٦٢إنجيل.

وقد سمحت الصين لمطبعة أميتي في نيانجنج بطباعة ١٥ مليون نسخة نقلًا عن التقرير العالمي لجمعيَّات الإنجيل المتَّحدة ١٩٧٧م.

٢٠- ٤٠٠٠ وكالة تنصيريَّة:

والعمل التنصيري الخارجي هو أهم ما يشغل الكنائس المنظمة هذه الأيام، ففي الوقت الحاضر هناك ٤٠٠٠ وكالة تنصيريَّة (أي منظمات تعمل خصيصًا في حقل التنصير) يعمل بها ٢٦٢ . ٣٠٠ منصر متفرغ، وهم يكلفون الكنائس ٨ بلايين دولار سنويًّا، وكل سنة يصدر ١٠٠٠٠ كتاب وبحث جديد حول التنصير الخارجي.

٢١- إحصائية عن المنظمات:

اسم المنظمة التنصيريَّة البروتستانتيَّة الأمريكيَّة	عدد الإرساليات الخارجية
مؤتمر المعمدانيين الجنوبيين	٣٨٣٩
شباب ذوي رسالة	٢٥٠٦
جمعيَّة ويكلف الدولية لترجمة الإنجيل	٢٢٦٩
إرسالية القبائل الجديدة	١٨٠٧
كنيسة المسيح	١٧١٧
اجتماعات الإله	١٥٣٠
كنائس المسيح	٩٨٢
اتحاد النصارى والإرساليات	٩١٧
منظمة تيم	٨٧٢
السبتيين	٨٤٢
زمالة الإنجيل المعمدانية الدولية	٧٣٤

٢٢- أكبر ١٠ منظمات تنصيريَّة بريطانية (الدخل والأوقاف):

اسم المنظمة	الدخل	الأوقاف
مجلس كنيسة إنجلترا	٢٥٧ مليون جنيه استرليني	٢٣٨١مليون جنيه إسترليني.
جمعيَّة برناردو للأطفال	٧٧,٢ مليون جنيه استرليني	١٧٤ مليون جنيه إسترليني.
العون المسيحي	٧,٤٣ مليون جنيه استرليني	١٧،٣ مليون جنيه إسترليني.
جيش الخلاص (العمل الاجتماعي)	٤٣،٣ مليون جنيه استرليني	٨٠،٣ مليون جنيه إسترليني.
جيش الخلاص (صندوق الوقف)	٣٣,١ مليون جنيه استرليني	١٦٥ مليون جنيه إسترليني.
فريق الكنيسة للإسكان	٤٠,٧ مليون جنيه استرليني	٢٨٣ مليون جنيه إسترليني.
جمعيَّة الإنجيل	٣٤,٤ مليون جنيه استرليني	٧,٨٥ مليون جنيه إسترليني.
جمعيَّة الشبان المسيحيين	٣٠,٦ مليون جنيه استرليني	٤,٩٧ مليون جنيه إسترليني.
كنيسة المسيح وقديسي اليوم الآخر	٢٥,٩ مليون جنيه استرليني	٩,٥٧ مليون جنيه إسترليني.
صندوق منظمة تير	٢٤,٧ مليون جنيه استرليني	٩,٤٥ مليون جنيه إسترليني.

٢٣- التنصير في باكستان:

سنة ١٩٩٢م كانت خصبة جدًّا للمنصرين في كراتشي؛ فقد تضاعف عدد المتنصرين خلال هذه السنة، ففي شهر ديسمبر ١٩٩٢م وحده اعتنق أكثر من ٥٠ مسلمًا النصرانيَّة في مدينة كراتشي، بينما عدد المتنصرين في المدينة خلال سنة ١٩٩٢نحو ٦٠٠ شخص، ومن أسباب هذه الزيادة أن الجهود التبشيريَّة بدأت تؤتي الآن ثمارها بعد جهد طويل. إلا أن غالبية المتنصرين كانوا من الشيعة والإسماعيلية، ولكن هناك نسبة لا بأس بها من أهل السنة الذين تنصروا لأسباب مختلفة.

يقول أحد الأساقفة: حينما أذهب إلى باكستان لأدعو إلى المسيحيَّة في إرجائها بكل حرية لا يصيبني أذى من الحكومة أو الشعب.

٢٤- قد ازداد عدد سكان بنجلاديش (١٢٠) مليون من (٧٠) مليون منذ استقلال البلاد، بينما ازداد عدد المسيحيين ليصل إلى ٣ ملايين من أصل (٢٥٠) ألف مسيحي في الوقت نفسه. هذا يعني أنه ازدادِ عدد السكان أقل من ضعفين بينما ازداد عد المسيحين أكثر من عشرة أضعاف في ثلاثين عامًا مضت في بنجلاديش.

٢٥- ذكرت نشرة صوت الشهداء التنصيريَّة The voice of the martyrs أنهم يسعون لجمع الأموال لتوزيع كتاب (معاناة فانتصار) باللغة العربيَّة على النصارى الذين يعانون تحت النظم الإسلاميَّة، الهدف من توزيع الكتاب هو رفع وتقوية معنويات النصارى المضطهدين في المنطقة.

٢٦- شهداء التنصير يصل عدد المنصرين الذين يتم التعرض لهم بصورة أو بأخرى نحو

٢٣٠٠٠٠ شخص عبر العالم سنويًا.

٢٧- أحلام التنصير: يعتقد الكُتّاب النصارى أن ٨,٥٧% من سكان الأرض سيكونون قد دخلوا حظيرة المسيح بمجيء سنة ٢١٠٠م أما في السنة ٤ بليون ميلادية فسيكون ٩٩,٩٠% من سكان الأرض مسيحيين.

٢٨- نتائج التنصير: طبقًا للمصادر التنصيريَّة؛ فقد انضم إلى حظيرة النصرانيَّة خلال العقود السبعة الأولى من هذا القرن وحده ١١٥,٩ مليون شخص عبر العالم.

٢٩- تخطيط التنصير: ولأجل تسهيل العمل التنصيري فقد قسمت الإرساليات المسيحيَّة مسلمي العالم كله بدقة إلى ٣٠٠٠ مجموعة عرقية وتتقاسم مختلف المنظمات التنصيريَّة العمل داخل هذه المجموعات؛ بحيث لا يوجد تضارب أو تناطح لاقتسام مناطق النفوذ: على عكس ما كان عليه الأمر في أوائل العهد الاستعماري.

٣٠- تم تدريب أكثر من ١٠٠٠ سوداني على تنمية قدراتهم اللغوية في مجال التنصير، والهدف من المشروع تسهيل الوصول إلى جميع طبقات وطوائف الشعب، حيث إن هناك ١١٧ لغة في السودان.

٣١- نادي ٧٠٠ (club ٧٠٠)

برنامج تلفازي تنصيري بدأ في عام ١٩٩٣م وإلى الآن يبث يوميًا إلى أكثر من (٢٧٥) محطة تلفاز داخل أمريكا، ويصل البث إلى أكثر من (٦٠) دولة أخرى.

ويقدر عدد مشاهديه يوميًا في أمريكا فقط بمليون مشاهد.

هل تعلم كيف بدأ تمويل هذا البرنامج؟ يشرف على البرنامج ويقدمه المنصر العالمي المشهور (بات رابرتسون) الذي أقنع (٧٠٠) شخص بالتبرع بمبلغ عشرة دولارات شهريًا. وذلك لتغطية كلفة إنتاج وبث البرنامج. ولهذا سمى البرنامج بهذا الاسم.

٣٢- عدد اللغات في العالم (٦٧٠٣) لغة، ترجم الإنجيل إلى (٤٧٠٠) وتبقى (٢٠٠٠) لغة والعمل القائم على ترجمة الإنجيل إلى ٩٦٥ لغة تقريبًا من اللغات المتبقة.

وقد تضمن مؤتمر التنصير المنعقد في كلورادو بحثًا بعنوان: «الوضع الراهن لترجمات الإنجيل إلى لغات المسلمين» وجاء فيه: «ونظرًا لتعدد اللهجات في اللغة العربيَّة يجري العمل على ترجمة الأناجيل الأربعة إلى اللهجة العربيَّة اللبنانية، وقد نشرت الكتب المقدَّسة أيضًا باللغات الجزائريَّة، والتشاديَّة، والمصريَّة، والفلسطينيَّة، والسودانيَّة إلا أن تلك الترجمات لم تجد قبولًا يذكر، وعلى الرغم من أن هناك دائمًا اهتمامًا ثقافيًا أو قوميًا باللهجات المحلية إلا أن سيطرة اللغة الفصحى لم تتأثر بأية محاولة في هذا الصدد».

٣٣- ذكرت مؤسسة الأبواب المفتوحة أنها أرسلت ثلاثين طنًا من الكتب والأناجيل إلى

بغداد؛ حيث إن الطلب على الإنجيل كان كبيرًا جدًّا.

٣٤- ذكرت مجلة (تايم) في عددها الصادر في ديسمبر ١٩٩٦م أنه في عام ١٩٩٥م قدم الأمريكيون ١٤٣,٩ بليون دولار للمؤسسات الخيرية، وقد كان ٧٠% من هذا المبلغ مقدمًا من أفراد[١].

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٧٥- ٦٧٧)، التنصير مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته، مجلة البيان العدد ١٥٣ ص(٣٤- ٥٨)، والعدد ١٥٤ ص(٥١، ١٠١).

الفصل الحادي عشر
واجب المسلمين تجاه التنصير

لا شك أن المسئولية كبيرة ومشتركة بين المسلمين؛ أفرادًا وجماعات، حكومات وشعوبًا للوقوف أمام هذا الزحف المسموم الذي يستهدف كل فرد من أفراد هذه الأمة المسلمة؛ كبيرًا كان أو صغيرًا، ذكرًا أو أنثى.

وحين ننطلق لمواجهة التنصير فلا بد أن نرتكز على **مسلمات هامة** في هذا الأمر:

١- مواجهة التنصير ينبغي أن تكون مواجهة علمية عملية ولا يمكن أن تقوم بأحدهما فقط.

٢- المواجهة تستلزم الدفاع والهجوم معًا ولن تنجح بغير ذلك.

٣- لن تنجح أي مواجهة مع التنصير سوى المواجهة القائمة على الالتزام بمنهج السلف في الفهم والتصور والاعتقاد والحركة.

٤- أن نفهم جيدًا أن هدف المنصرين الأساسي ليس إدخال المسلمين في النصرانيَّة ولكن إخراجهم عن الإسلام.

٥- أن العلاقة بين معركة التنصير والمعارك الأخرى الدائرة بين الإسلام وأعدائه علاقة وثيقة ومترابطة، باعتبار وحدة الصراع ووحدة القيادة في معسكر الكفر، وبغياب هذا المفهوم يصبح التنصير ثقبًا أسود يبتلع جهود المسلمين وأموالهم ليشغلهم عن المعركة الكبرى في ديارهم.

ويمكننا القول فيما يجب أداؤه على سبيل الإجمال-مع التسليم بأن لكل حال وواقع ما يناسبه من الإجراءات والتدابير الشرعية- ما يلي:

١- تأصيل العقيدة الإسلاميَّة في نفوس المسلمين من خلال مناهج التعليم، وبرامج التربية بصفة عامة، مع التركيز على ترسيخها في قلوب الناشئة خاصة، في المدارس ودور التعليم الرسمية والأهلية.

٢- بث الوعي الديني الصحيح في طبقات الأمة جميعًا، وشحن النفوس بالغيرة على الدين وحرماته ومقدساته.

٣- التأكيد على المنافذ التي يدخل منها النتاج التنصيري من أفلام ونشرات ومجلات وغيرها؛ بعدم السماح لها بالدخول، ومعاقبة كل من يخالف ذلك بالعقوبات الرادعة.

٤- تبصير الناس وتوعيتهم بمخاطر التنصير وأساليب المنصرين وطرائقهم؛ للحذر منها، وتجنب الوقوع في شباكها.

٥- الاهتمام بجميع الجوانب الأساسية في حياة الإنسان المسلم، ومنها الجانب الصحي

والتعليمي على وجه الخصوص، إذ دلت الأحداث أنهما أخطر منفذين عبر من خلالهما النصارى إلى قلوب الناس وعقولهم:

٦- أن يتمسك كل مسلم في أي مكان على وجه الأرض بدينه وعقيدته مهما كانت الظروف والأحوال، وأن يقيم شعائر الإسلام في نفسه ومن تحت يده حسب قدرته واستطاعته، وأن يكون أهل بيته محصنين تحصينا ذاتيًا لمقاومة كل غزو ضدهم يستهدف عقيدتهم وأخلاقهم.

٧- الحذر من قبل كل فرد وأسرة من السفر إلى بلاد الكفار إلا لحاجة شديدة؛ كعلاج، أو علم ضروري لا يوجد في البلاد الإسلاميَّة، مع الاستعداد لدفع الشبهات والفتنة في الدين الموجهة للمسلمين.

٨- تنشيط التكافل الاجتماعي بين المسلمين والتعاون بينهم، فيراعي الأثرياء حقوق الفقراء، ويبسطون أيديهم بالخيرات والمشاريع النافعة لسد حاجات المسلمين، حتى لا تمتد إليهم أيدي النصارى الملوثة مستغلة حاجتهم وفاقتهم.

الخطة العامة لمواجهة التنصير

تقوم الفكرة الرئيسة لهذه الخطة على عنصر الموجهة الشاملة، وذلك لأن أقوى أسلحة الدعاة في هذه المعركة هو الحق الذي تخضع له النفوس وتطمئن إليه القلوب.

وتحتاج المواجهة إلى ثلاثة عناصر أساسية هي «الكوادر»، و«الإمكانيات»، و«الوسائل».

أولًا: الكوادر:

ونقصد بها الأفراد الذين يملكون من الإمكانيات ما يؤهلهم لخوض هذا الصراع، وهذه المؤهلات تتركز في ثلاث جهات أساسية هي:

١- العلم الشرعي السلفي.

٢- العلم بالنصرانيَّة من مصادرها وكتبها.

٣- القدرة على التواصل مع العامة والحوار مع الآخرين.

والطريق المثلى لتوفير هذه الكوادر هو إقامة محاضرات ودورات تعليمية وتبصيرية بالتنصير وخطره، وكيفية مواجهته، والتدريب على إدارة الحوار مع المنصرين.

إن الغالبية من شاب الإسلام المتدين اليوم تتحرق شوقًا لخدمة دينها، ولكنها تفتقد البوصلة الموجهة والقيادة التي تستثمر جهودهم وتوجهها الوجهة الصحيحة.

١- ويقترح في هذا السياق إنشاء مراكز تدريبية وتأهيلية لتدريب الشباب على التصدي للمنصرين.

٢- استغلال مراكز الدعوة لإدخال مقاومة التنصير كمادة دراسية أساسية.

٣- إعطاء دورات علمية للخطباء وطلبة العلم حول نقد المسيحيَّة وكيفية مواجهة التنصير.

٤- إعطاء دورات علمية لشباب المناطق المنكوبة بالتنصير.

٥- إعطاء دورات علمية لشباب الجامعات والمدارس.

٦- استنفار الشباب المسلم للاهتمام بهذه القضية عبر جميع وسائل الاتصال ومراكز التجمع.

٧- تحفيز الدعاة والعلماء على استنفار طلبة العلم للتصدي للمنصرين وشبهاتهم.

٨- استنفار الطلبة بكليات الدعوة وأصول الدين ومعاونتهم في إعداد البحوث والدراسات للرد على المنصرين.

٩- استنفار الكتاب والصحفيين للتصدي للمنصرين وكشف خطرهم.

١٠- الترابط بين المهتمين بمواجهة التنصير.

١١- توجيه الشباب إلى المنتديات ومواقع التصدي للتنصير الإلكترونية للتعلم والتثقف والتدريب على مقاومة التنصير.

ثانيًا: الوسائل:

وهنا ينبغي لنا أن نرصد أساليب المنصرين ووسائلهم؛ فالتنصير يستخدم جميع الوسائل الإعلامية لنشر سمومه.

ولا يصح لنا إلا أن نستخدم الوسائل الإعلامية نفسها «مرئية ومسموعة ومقروءة» في نشر جهودنا وبصورة تناسب جميع المستويات الثقافية، وذلك لخلق ثقافة عامة لدى جميع المسلمين حول حقيقة النصرانيَّة، وتناقضاتها وتحريفها، ونقترح هنا عدة اقتراحات:

١- نشر الدراسات المتخصصة في نقد المسيحيَّة بين المسلمين، وبكل الوسائل وفي كل الأماكن، وهذا الجانب يعاني من نقص خطير على النقيض تمامًا من الجانب الآخر، حيث توجد غزارة شديدة في الكتابات النصرانيَّة التي تتناول الرد على الإسلام.

٢- نشر فضائح الكنيسة والمنصرين بين العامة لتكوين حائط سد نفسي تجاه الاجتماع بهم أو الاستماع لهم أو التعاون مع المنصرين.

٣- نشر الدراسات الإسلاميَّة الخاصة بدلائل النبوة والإعجاز العلمي في القرآن والسنة على نطاق واسع بين المسلمين.

٤- إنشاء جمعيَّات ومراكز لمتابعة التنصير والتصدي له على أن يكون مقرها الأساسي في الدول الأوربية؛ لنتحاشى الإغلاق والمصادرة الداخلية.

٥- تخصيص باب بكل جريدة أو مجلة أو موقع إسلامي للرد على المنصرين.

٦ - توجيه القنوات الفضائية الإسلاميَّة إلى الرد على المنصرين ولو بطريقة غير مباشرة.

٧- توجيه الدعاة وأصحاب المنابر الدعوة إلى الرد على المنصرين.

٨- خروج قوافل دعوية إلى المناطق المنكوبة بالتنصير ولا بد من تجهيزها بقافلة طبية واجتماعيَّة.

٩- استنفار هيئات الإغاثة والجمعيَّات الاجتماعيَّة الإسلاميَّة لمساعدة المسلمين؛ لتكثيف نشاطها في الأماكن المنكوبة بالتنصير.

١٠- استنفار التجار ورجال الأعمال والموسرين مطالبتهم بالإسهام في التصدي للتنصير ولو بكفالة أسرة واحدة، أو طباعة كتاب واحد، أو نشر شريط أو سي دي واحد.

١١- مراسلة الهيئات الإسلاميَّة الدولية حول خطر التنصير وانتشاره وتقديم اقتراحات جادة ونافعة لهم.

١٢- مراسلة الجمعيَّات الطلابية وشباب الجامعة في خطر التنصير وإمدادهم بوسائل مجابهته.

١٣- مراسلة الجامعات العلميَّة الإسلاميَّة لتخصص منح دراسية لدراسة مقارنة الأديان لأهل البلاد المنكوبين بالتنصير.

١٤- كفالة طلبة العلم والمتصدين لمقاومة التنصير وذلك لنضمن تفرغهم لهذا العمل.

١٥- دعم الأبحاث والإصدارات التي ترد على النصرانيَّة، وتكشف تحريفها وتوزيعها على أكثر عدد ممكن من المكتبات ودور العرض، وجعلها في متناول الجميع.

١٦- إقامة المسابقات بين طلبة المدارس حول الأبحاث الصغيرة في نقد النصرانيَّة وخطر التنصير ورد شبهات المنصرين.

١٧- مزاحمة المنصرين في أماكن انتشارهم كمعرض الكتاب، والتجمعات الشبابية.

١٨- تكوين المجموعات البريدية لنشر الرسائل البريدية على أكبر نطاق ممكن؛ لتحذير المسلمين وتبصيرهم بالنصرانيَّة وتحريفها والرد على شبهات المنصرين.

١٩- إنشاء خط تلفوني ساخن للرد على شبهات المنصرين وإنقاذ من ابتلي من المسلمين بهم.

ثالثًا: الإمكانيات:

تتضح حاجتنا إلى الإمكانيات من خلال إمكانيات الخصم ومن خلال الواقع على الأرض، ومن خلال احتياجاتنا التي سردناها من قبل، ولكن عدم توفر الإمكانيات كلها لا يعني أن نهمل الأمر برمته، فعلينا العمل بما هو تحت أيدينا ومحاولة الاستفادة منها إلى الحد الأقصى؛ فإن الله سبحانه تعبدنا بالاستطاعة، وأن ما نحتاجه بالدرجة الأولى هو شباب مؤمن ومضحٍّ ومستعد للبذل والتضحية للدفاع عن هذا الدين.

ماذا تفعل عندما يطرق بابَك منصِّرٌ؟

لا تظن أبدًا أنك بعيد أو شريد عن هذا الخطر؛ بل لا تظن أن أحدًا من أهل بيتك أو أقاربك أو أصدقائك بعيد عن هذا الخطر؛ وذلك لأن الحقيقة البديهية تقول: إننا نعيش بين المنصرين

ونتعامل معهم في كل لحظة؛ فالمنصرين الآن قسمان:

الأول: هو المنصر المرتبط تنظيميًّا وحركيًّا بالخلايا التنصرية النشطة في بلادنا، وهؤلاء لهم عيون ومصادر معلومات ووكلاء لاصطياد الضحايا.

والثاني: هو المسيحي العادي الذي تشبع بروح الكراهية والحقد على الإسلام من خلال ما تبثه الكنيسة والفضائيات المسيحيَّة ومواقع الإنترنت من سموم وأحقاد على المسلمين، ولهذا فهو يطرح على من يقابله من المسلمين كل ما سمعه عن الإسلام وملء عينه الشماتة والزهو بانتصار ساذج حققه على أحد المسلمين البعيدين عن العلم الشرعي.

وحدث ويحدث في كل لحظة أن يتصل بنا أحد المسلمين ليخبرنا بما وقع له مع سائق تاكسي، أو زميل عمل، أو دراسة، أو جار، أو بائع، أو مشترٍ، أو غير ذلك عبر رسائل بريدية أو الكترونية عبر الإنترنت، أو عبر القنوات الفضائية، أو غير ذلك يطلب المساعدة

ونحن هنا نضع ما يجب عليك فعله إذا حدث احتكاك مع المنصرين:

١- ينبغي عليك استحضار بعض الثوابت الفكريَّة لتضع الموقف في إطاره الصحيح ومن هذه الثوابت.

٢- هدف هذا المنصر من كلامه، بالطبع لو أراد معرفة الحق لذهب لعلماء الإسلام، ولو أراد النقاش لذهب للمتخصصين في هذا العلم، ولكنه يريدك أنت ليضعك في دائرة الشك وينسج حولك خيوطه القذرة.

٣- لا تظهر أية تفاعل مع الكلام الذي يطرحه المنصر مهما كانت قسوته، فإن انفعالك وتأثرك بالكلام هو أحد أهم ما يريده المنصر، وكل ما عليك هو أن تستمع ببرود شديد، وعدم اهتمام واضح.

٤- لا تحاول الإجابة على أسئلة المنصر أو الدخول معه في جدل ظنًّا منك أنه سيفهم أو يغير رأيه؛ فإن هدفه الأساسي ليس الوصول للحق، وإنما إثارة الشبهات والوساوس حول عقيدتك.

٥- لا تقبل أية هدية من المنصر؛ فهذا في حد ذاته مشجع قوي له على الاستمرار في عمله.

٦- لا تعطيه أي معلومات عنك أو عن غيرك، ولا تأخذ منه رقم هاتف أو عنوان أو بريد إلكتروني.

٧- يجب عليك أن تتعلم وتُعَلِّم أهلك وأصدقاءك بعض الأسئلة البسيطة التي تقلب بها الطاولة على المنصر بحيث تضعه في خندق الدفاع عن عقيدته.

٨- لا تهمل الشبهة المثارة من المنصر ولكن عليك أن تسعى إلى معرفة الرد عليها من أهل العلم الموثقين[1].

---

(١) انظر: التحذير من وسائل التنصير، تقرير مجموعة المرصد الإسلامي لمقاومة التنصير.

الباب السادس

الاستشراق

الفصل الأول: تعريف الاستشراق.
الفصل الثاني: تاريخ الاستشراق.
الفصل الثالث: أهداف ودوافع الاستشراق.
الفصل الرابع: مناهج المستشرقين.
الفصل الخامس: المستشرقون والتنصير والاستعمار.
الفصل السادس: وسائل الاستشراق.
الفصل السابع: آثار الدراسات الاستشراقية.
الفصل الثامن: مواجهة الاستشراق.

الفصل الأول

تعريف الاستشراق

الاستشراق Orientalism تعبير يدل على الاتجاه نحو الشرق، ويطلق على كل من يبحث في أمور الشرقيين وثقافتهم وتاريخهم.

ويقصد به ذلك التيار الفكري الذي يتمثل في إجراء الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، والتي تشمل حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته.

ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن الشرق عامة وعن العالم الإسلامي بصورة خاصة، معبرًا عن الخلفية الفكريَّة للصراع الحضاري بينهما.

ويرى بعض الباحثين أن ثمة تعريف آخر في اللغات الأوروبية يدل على أن المقصود بالشرق ليس الشرق الجغرافي وإنما الشرق المقترن معنى الشروق والضياء والنور والهداية؛ وذلك بالبحث في كلمة شرقORIENT في المعاجم اللغوية الأوروبية (الألمانيَّة والفرنسيَّة والإنجليزية) فوجد أنه يشار إلى منطقة الشرق المقصودة بالدراسات الشرقيَّة بكلمة: تتميز بطابع معنوي وهو Morgenland وتعني بلاد الصباح، ومعروف أن الصباح تشرق فيه الشمس، وتدل هذه الكلمة على تحول من المدلول الجغرافي الفلكي إلى التركيز على معنى الصباح الذي يتضمن معنى النور واليقظة، وفي مقابل ذلك نستخدم في اللغة كلمة Abendland وتعني بلاد المساء لتدل على الظلام والراحة.

ويرى بعض الباحثين الغربيين أن مصطلح الاستشراق ظهر في الغرب منذ قرنين من الزمان على تفاوت بسيط بالنسبة للمعاجم الأوروبية المختلفة، لكن الأمر المتيقن أن البحث في لغات الشرق وأديانه وبخاصة الإسلام قد ظهر قبل ذلك بكثير.

ويذكر بعض الباحثين احتمال أن تكون كلمة مستشرق قد ظهرت قبل مصطلح استشراق في الثقافة الغربية.

ومن تعريفات الاستشراق في الدوائر الغربية والعربيَّة الآتي:

- الاستشراق علم يختص بفقه اللغة خاصة. وأقرب شيء إليه إذًا أن نفكر في الاسم الذي أطلق عليه، كلمة استشراق مشتقة من كلمة «شرق» وكلمة شرق تعني مشرق الشمس، وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي.

- المستشرق من تبحّر في لغات الشرق وآدابه.

- إن الاستشراق ظهر للحاجة إلى إيجاد فرع متخصص من فروع المعرفة لدراسة الشرق، والحاجة كانت ماسة لوجود متخصصين للقيام على إنشاء المجلات والجمعيَّات والأقسام العلميَّة.

- إنه أسلوب في التفكير مبني على تميُّز متعلق بوجود المعرفة بين «الشرق»(معظم الوقت) وبين الغرب.

- إن الاستشراق ليس مجرد موضوع سياسي، أو حقل بحثي ينعكس سلبًا باختلاف الثقافات والدراسات أو المؤسسات، وليس تكديسًا لمجموعة كبيرة من النصوص حول المشرق ... إنه بالتالي توزيع للوعي الجغرافي إلى نصوص جمالية وعلمية واقتصادية واجتماعيَّة وفي فقه اللغة.

- إنه المجال المعرفي أو العلم الذي يُتوصل به إلى الشرق بصورة منظمة كموضوع للتعلم والاكتشاف والتطبيق.

- إنَّ الاستشراق نوع من الإسقاط الغربي على الشرق وإرادة حكم الغرب للشرق.

التعريف الشامل:

وقد قام أحد الباحثين بالجمع بين هذه التعريفات في تعريف واحد: هو دراسات «أكاديمية» يقوم بها غربيون كافرون -من أهل الكتاب بوجه خاص- للإسلام والمسلمين، من شتى الجوانب: عقيدة، وشريعة، وثقافة، وحضارة، وتاريخًا، ونظمًا، وثروات وإمكانات ... بهدف تشويه الإسلام ومحاولة تشكيك المسلمين فيه، وتضليلهم عنه، وفرض التبعية للغرب عليهم، ومحاولة تبرير هذه التبعية بدراسات ونظريات تدعي العلميَّة والموضوعية، وتزعم التفوق العنصري والثقافي للغرب المسيحي على الشرق الإسلامي.

وعرَّف آخرون الاستشراق تعريفًا مجملًا بأنه: دراسات وأبحاث قام بها غربيون تهدف إلى دراسة العالم الشرقي ولا سيما الإسلامي، دينًا وتاريخيًّا وحضارة وعادات وشعوبًا، بهدف فهم حقيقة الإسلام، وقد نشأت منذ أكثر من ألف سنة في العالم الغربي، وما زالت موجودة حتى يومنا هذا، إلا أنها في الفترات الأخيرة بدأت تأخذ أشكالًا أخرى في الظهور، باسم مستشارين اقتصاديين أو سياسيين أو لغويين يتبعون وزارات الخارجية والاقتصاد والمال والحربية في العالم الغربي، ومهمة هذه الدراسات فهم طبيعة العالم الإسلامي وتوجهات المسلمين، وذلك من أجل التعامل الغربي معهم.

وذكر أحد الباحثين الآخرين أنه من خلال متابعة للاستشراق يمكن أن نقول: إنَّ الاستشراق هو كل ما يصدر عن الغربيين من أوروبيين (شرقيين وغربيين بما في ذلك السوفيت) وأمريكيين من دراسات أكاديمية (جامعية) تتناول قضايا الإسلام والمسلمين في العقيدة، وفي الشريعة، وفي الاجتماع، وفي السياسة أو الفكر أو الفن، كما يلحق بالاستشراق كل ما تبثه وسائل الإعلام الغربية سواء بلغاتهم أو باللغة العربيَّة من إذاعات، أو تلفاز، أو أفلام سينمائية، أو رسوم متحركة، أو قنوات فضائية، أو ما تنشره صحفهم من كتابات تتناول المسلمين وقضاياهم.

كما أن من الاستشراق ما يخفى علينا مما يقرره الباحثون والسياسيون الغربيون في ندواتهم ومؤتمراتهم العلنية أو السرية.

ويمكننا أن نلحق بالاستشراق ما يكتبه النصارى العرب من أقباط ومارونيين وغيرهم ممن ينظر إلى الإسلام من خلال المنظار الغربي. ولا بد أن نلحق بالاستشراق ما ينشره الباحثون المسلمون الذين تتلمذوا على أيدي المستشرقين وتبنوا كثيرًا من أفكار المستشرقين حتى إن بعض هؤلاء التلاميذ تفوق على أساتذته في الأساليب والمناهج الاستشراقية.

ويدل على ذلك احتفال دور النشر الاستشراقية بإنتاج هؤلاء ونشره باللغات الأوربية على أنها بحوث علمية رصينة أو ما يترجمونه من كتابات بعض العرب والمسلمين إلى اللغات الأوربية.

وكان الاستشراق وما زال يهتم بالشعوب الشرقيَّة عمومًا التي تضم الهند وجنوب شرق آسيا والصين واليابان وكوريا.

وعند مراجعة النشاطات الاستشراقية نجد أن هذه المناطق نالت اهتمامًا كبيرًا في الدراسات الاستشراقية، ولكنها عندما بدأت دراسة المناطق أو الدراسات الإقليمية أصبحت تخصص بدراسات خاصة بها مثل الدراسات الصينية أو الدراسات الهندية أو الدراسات اليابانية.

أما الأصل فكانت كلها تضم تحت مصطلح واحد هو (الاستشراق).

نبذ الغرب لمصطلح الاستشراق

هناك قرار غربي بالتوقف عن استخدام مصطلح استشراق أو كما قال برنارد لويس: إن هذا المصطلح قد ألقي به في مزابل التاريخ.

فقد رأى الغرب أن هذا المصطلح ينطوي على حمولات تاريخية ودلالات سلبية وأن هذا المصطلح لم يعد يفي بوصف الباحثين المتخصصين في العالم الإسلامي.

فكان من قرارات منظمة المؤتمرات العالمية في مؤتمرها الذي عقد في باريس عام ١٩٧٣ بأن يتم الاستغناء عن هذا المصطلح، وأن يطلق على هذه المنظمة (المؤتمر العالمي للدراسات الإنسانية حول آسيا وشمال أفريقيا ICHSANA)، وعقدت المنظمة مؤتمرين تحت هذا العنوان إلى أن تم تغييره مرة ثانية إلى (المؤتمر العالمي للدراسات الآسيوية والشمال أفريقية ICANAS).

وقد عارض هذا القرار دول الكتلة الشرقيَّة (روسيا والدول التي كانت تدور في فلكها).

ومع ذلك ففي المؤتمر الدولي الخامس والثلاثين للدراسات الآسيوية والشمال أفريقية الذي عقد في بودابست بالمجر كان مصطلح استشراق ومستشرقين يستخدم دون أي تحفظات، مما يعني أن الأوربيين الغربيين والأمريكيين هم الأكثر اعتراضًا على هذا المصطلح، ولعل هذا ليفيد المغايرة بحيث يتحدثون عن المستشرقين ليثبتوا أنهم غير ذلك بل هم مستعربون Arabists، أو إسلاميون Islamists، أو باحثون في العلوم الإنسانية Humanists، أو متخصصون في الدراسات الإقليمية، أو الاجتماعيَّة، أو الاقتصادية التي تختص ببلد معين، أو منطقة جغرافية معينة.

ثم نجدهم أيضًا استبدلوا كلمة استشراق في دوائر كثيرة بمراكز المعلومات، أو دراسات الشرق

الأوسط، أو الدراسات الشرق أوسطية Middle east studies، وغيره.

أما موقفنا نحن من هذا التخصص أو التخصصات؛ فإنه يسعنا ما وسع الغربيين؛ فإنهم اختاروا أن يتركوا التسمية فلا بأس من ذلك شريطة ألا نغفل عن استمرار اهتمامهم بدراستنا، والكتابة حول قضايانا، وعقد المؤتمرات والندوات، ونشر الكتب والدوريات حول العالم الإسلامي، واستمرار أهداف الاستشراق. وألا يصرفنا تغيير الاسم عن الوعي والانتباه لما يكتبونه وينشرونه، خصوصًا أنهم في الوقت نفسه أعلنوا عن تمسكهم بمناهجهم التي اتبعوها في دراساتهم، وأنَّهم لن يتخلوا عنها لإرضاء العرب.

مع العلم بأن مصطلح استشراق ما زال قائمًا في الغرب حتى وإن تخلوا عنه رسميًّا فهذه شبكة المعلومات العالمية أو الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) تقدم آلاف المواقع المتخصصة في الاستشراق قديمًا وحديثًا.

فهم وإن تخلوا عنه في العلن؛ فإنه ما زال قائمًا في أدبياتهم وفي نشاطاتهم الفكريَّة المعاصرة[١].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي (٢/ ٦٨٧)، الاستشراق، د. مازن صلاح مطبقاني، الاستشراق ومنهجية النقد عند المسلمين المعاصرين، السيد محمد الشاهد، رؤية إسلامية للاستشراق، أحمد عبد الحميد غراب ص(٧).

الفصل الثاني

تاريخ الاستشراق

لا يعرف بالضبط من هو أول غربي عنى بالدراسات الشرقيَّة، ولا في أي وقت كان ذلك، ومن الصعب تحديد بداية للاستشراق، وقد اختلف الباحثون في ذلك، ومن أقوى هذه الآراء:

١- **يرجعه كثيرون إلى أيام الدولة الأموية في القرن الثاني الهجري**، وأنه نشط في الشام بواسطة الراهب يوحنا الدمشقي في كتابين الأول: حياة محمد. والثاني: حوار بين مسيحي ومسلم. وكان هدفه إرشاد النصارى في جدل المسلمين.

٢- **ويرجعه آخرون إلى أيام الدولة الإسلاميَّة في الأندلس**؛ وذلك أن احتكاك النصارى بالمسلمين في الأندلس كان الانطلاقة الحقيقية لمعرفة النصارى بالمسلمين والاهتمام بالعلوم الإسلاميَّة، ويميل إلى هذا الرأي بعض رواد البحث في الاستشراق من المسلمين.

ومن المؤكد أن بعض الرهبان الغربيين قصدوا الأندلس في أبان عظمتها ومجدها، وتثقفوا في مدارسها، وترجموا القرآن والكتب العربيَّة إلى لغاتهم، وتتلمذوا على علماء المسلمين في مختلف العلوم وبخاصة في الفلسفة والطب والرياضيات.

ومن أوائل هؤلاء الرهبان هربر دي أورلياك (٩٣٨ - ١٠٠٣م) من الرهبانيَّة البندكتية، قصد الأندلس، وقرأ على أساتذتها ثم انتخب -بعد عودته- حبرًا أعظم باسم سلفستر الثاني ٩٩٩-١٠٠٣م فكان بذلك أول بابا فرنسي لكنيسة روما.

- في عام ١١٣٠م قام رئيس أساقفة طليطلة بترجمة بعض الكتب العلميَّة العربيَّة.

- جيرار دي كريمونا ١١١٤ - ١١٨٧م إيطالي، قصد طليطلة وترجم ما لا يقل عن ٨٧ مصنفًا في الفلسفة والطب والفلك وضرب الرمل.

- بطرس المكرم ١٠٩٤ - ١١٥٦م فرنسي من الرهبانيَّة البندكتية، رئيس دير كلوني، قام بتشكيل جماعة من المترجين للحصول على معرفة موضوعية عن الإسلام.

وقد كان هو ذاته وراء أول ترجمة لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينيَّة ١١٤٣م التي قام بها الإنجليزي روبرت أوف كيتون.

وممن قام أيضًا بالترجمة في هذه الفترة يوحنا الإشبيلي وهو يهودي متنصر ظهر في منتصف القرن الثاني عشر وعني بعلم التنجيم، نقل إلى العربيَّة أربعة كتب لأبي معشر البلخي ١١٣٣م وقد كان ذلك بمعاونة إدلر أوف باث.

وبعد أن عاد هؤلاء الرهبان إلى بلادهم نشروا ثقافة العرب ومؤلفات أشهر علمائهم، ثم أسست المعاهد للدراسات العربيَّة أمثال مدرسة (بادوي) العربيَّة، وأخذت الأديرة والمدارس

الغربية تدرس مؤلفات العرب المترجمة إلى اللاتينيَّة وهي لغة العلم في جميع بلاد أوربا يومئذ، واستمرت الجامعات الغربية تعتمد على كتب العرب وتعتبرها المراجع الأصليَّة للدراسة قرابة ستة قرون.

ولم ينقطع منذ ذلك الوقت وجود أفراد درسوا الإسلام واللغة العربيَّة، وترجموا القرآن وبعض الكتب العربيَّة العلميَّة والأدبية.

٣- ويعود به آخرون إلى أيام الصليبيين؛ وذلك أن الحروب الصليبية هي بداية الاحتكاك الفعلي بين المسلمين والنصارى الأمر الذي دفع النصارى إلى محاولة التعرف على المسلمين. وبخاصة أنه بعد هزيمة لويس التاسع وأسره في المنصورة وما تمخض عنه تفكيره من صعوبة هزيمة المسلمين عسكريًا فلا بد من التخطيط الفكري بجانب التخطيط الحربي والسياسي؛ مما تمخض عنه بداية الدراسات الاستشراقية.

فالحروب الصليبية كانت نقطة التحول في الصراع الفكري والعقدي والسياسي بين الغرب النصراني والشرق المسلم، وهي الدافع الأساسي للنشاط الاستشراقي المكثف، ولكن اتصال الغرب بالشرق في ذلك الوقت وخلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي كان اتصالًا عدائيًا مسلحًا، متمثلًا في الحروب الطاحنة التي ظلت آثارها باقية حتى الآن.

وممن ظهر في هذه الفترة:

- روجر بيكون ١٢١٤ - ١٢٩٤م إنجليزي، تلقى علومه في أكسفورد وباريس حيث نال الدكتوراه في اللاهوت، ترجم عن العربيَّة كتاب مرآة الكيمياء نورمبرج ١٥٢١م.

- ريموند لل ١٢٣٥ - ١٣١٤م قضى تسع سنوات ١٢٦٦ - ١٢٧٥م في تعلم العربيَّة ودراسة القرآن وقصد بابا روما وطالبه بإنشاء جامعات تدّرس العربيَّة لتخريج مستشرقين قادرين على محاربة الإسلام، ووافقه البابا.

وأيًا كان الأمر فإن حركة الاستشراق قد انطلقت بباعث ديني يستهدف خدمة الاستعمار وتسهيل عمله ونشر المسيحيَّة.

وقد بدأ الاستشراق اللاهوتي بشكل رسمي حين صدور قرار مجمع فيينا الكنسي عام ١٣١٢م وذلك بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربيَّة في خمس جامعات أوربية هي: باريسُ، أكسفورد، وبولونيا بإيطاليا، وسلمنكا بأسبانيا، بالإضافة إلى جامعة البابوية في روما.

وإن كان يرى بعض الباحثين الغربيين أن القرارات الرسمية لا يتم تنفيذها بالطريقة التي أرادها صاحب القرار لذلك فإن القرار البابوي هنا لا يعد البداية الحقيقية للاستشراق.

البداية الحقيقية للاستشراق

ولا شك أن هذه البدايات لا تعد البداية الحقيقية للاستشراق الذي أصبح ينتج ألوف الكتب

سنويًا ومئات الدوريات، ويعقد المؤتمرات.

وإنما تعد هذه جميعًا من قبيل الإرهاص لها وما أتى بعدها يعد من قبيل تعميق الفكرة، والتوسع فيها وشد الانتباه إليها؛ فالبداية الحقيقية للاستشراق الذي يوجد في العالم الغربي اليوم ولا سيما بعد أن بنت أوربا نهضتها الصناعية والعلميَّة وأصبح فيها العديد من الجامعات ومراكز البحوث وأنفقت ولا تزال تنفق بسخاء على هذه البحوث قد انطلقت منذ القرن السادس عشر حيث بدأت الطباعة العربيَّة فيه بنشاط فتحركت الدوائر العلميَّة وأخذت تصدر كتابًا بعد الآخر.

ثم ازداد النشاط الاستشراقي بعد تأسيس كراسٍ للغة العربيَّة في عدد من الجامعات الأوربية مثل كرسي أكسفورد عام ١٦٣٨ وكامبريدج عام ١٦٣٢ .

وفي القرن الثامن عشر وهو العصر الذي بدأ فيه الغرب في استعمار العالم الإسلامي، والاستيلاء على ممتلكاته، فإذا بعدد من علماء الغرب ينبغون في الاستشراق، ويصدرون لذلك المجلات في جميع الممالك الغربية، ويغيرون على المخطوطات العربيَّة في البلاد العربيَّة والإسلاميَّة فيشترونها من أصحابها الجهلة، أو يسرقونها من المكتبات العامة التي كانت في نهاية الفوضى، وينقلونها إلى بلادهم ومكتباتهم، وإذا بأعداد هائلة من نوادر المخطوطات العربيَّة تنتقل إلى مكتبات أوربا وقد بلغت في أوائل القرن التاسع عشر مائتين وخمسين ألف مجلد، وما زال هذا العدد يتزايد حتى اليوم.

ويعد تأسيس الجمعيَّات العلميَّة في أوائل القرن التاسع عشر مثل الجمعيَّة الأسيوية البنغالية، والجمعيَّة الاستشراقية الأمريكيَّة، والجمعيَّة الملكية الآسيوية البريطانية وغيرها بمنزلة الانطلاقة الكبرى للاستشراق حيث تجمعت فيها العناصر العلميَّة والإدارية والمالية فأسهمت جميعها إسهامًا فعَّالًا في البحث، والاكتشاف والتعرف على عالم الشرق وحضارته فضلًا عما كان لها من أهداف استغلالية واستعمارية.

وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر بدأ عقد المؤتمرات الاستشراقية، فعقد أول مؤتمر للمستشرقين في باريس عام ١٨٧٣م، وتتالى عقد المؤتمرات التي تلقى فيها الدراسات عن الشرق وأديانه وحضاراته، وما تزال تعقد حتى هذه الأيام.

ظهور مفهوم الاستشراق عند الأوربيين

لم يظهر ويستقر مفهوم الاستشراق في أوربا إلا مع نهاية القرن الثامن عشر، فقد ظهر أولًا في إنجلترا عام ١٧٧٩م، وفي فرنسا عام ١٧٩٩م كما أدرج في قاموس الأكاديمية الفرنسيَّة عام ١٨٣٨م.

وكان من المشروعات الاستشراقية المهمة إنشاء مدرسة اللغات الشرقيَّة الحية في فرنسا برئاسة المستشرق الفرنسي سلفستر دي ساسي التي كانت تعد قبلة المستشرقين الأوربيين وساهمت في صبغ الاستشراق بالصبغة الفرنسيَّة مدة من الزمن.

وأيضًا بداية منظمة المؤتمرات العالمية للمستشرقين عام ١٨٧٣ في عقد مؤتمراته السنوية.

وقد اتسع ميدان الاستشراق، فقد بدأ كما رأينا بدراسة اللغة العربيَّة والإسلام، وانتهى بعد التوسع الاستعماري الغربي في الشرق إلى دراسة جميع ديانات الشرق وعاداته وحضاراته وجغرافيته وتقاليده وأشهر لغاته، وإن كانت العناية بالإسلام والآداب العربيَّة والحضارة الإسلاميَّة هي أهم ما يعنى به المستشرقون حتى اليوم؛ نظرًا للدوافع الدينيَّة والسياسية التي شجعت على الدراسات الشرقيَّة كما سنذكره فيما بعد.

تطور الاستشراق

طرأ تطور مهم في العقود الأخيرة، فإن ما يسمى استشراقًا أو مدرسة استشراقية ذات اهتمام علمي ثقافي في غالبه، وسياسي اجتماعي في بعض جوانبه -كما عهدناه- قد انتهت كثير من تلك الجوانب ولم تعد أولوية في الاستشراق الحديث، بل تحول اليوم إلى عمل سياسي اجتماعي متخصص يهتم بمراقبة ودراسة الأوضاع السياسية، والأشخاص، والأحزاب، والأفكار السياسية، والعوامل الاجتماعيَّة في المجتمعات الإسلاميَّة دراسة وافية، ووضع حلول لها!!

فقد قرر المستشرقون منذ قرابة عشرين عامًا أنَّ العمل العلمي الثقافي في بلاد المسلمين وتراثهم ليس بذي جدوى ولا أهمية، بل هو ضياعٌ للوقت والجهد، فليس لدى العرب والمسلمين أفكار ولا كتب ولا آداب تستحق الدراسة والجهد، والقليل الذي يحتاجون له نقلوه إلى لغاتهم -وبخاصة الإنجليزية- كتاريخ الطبري، ومقدمة ابن خلدون، ورسالة الشافعي وأعمال المتصوفة! والفلاسفة والشعراء الكبار، ونحوها. والكتاب المعاصرون العرب ليس لديهم ما يستحق القراءة، وإذا حدث فسوف يكون عمله مترجمًا بلغة غربية في زمن قياسي، والمؤلف العربي يحرص على ترجمة أعماله إلى لغات غير العربيَّة، وهذا يسهل عمل من يتابع أفكارنا منهم، وهم يترجمون ما يحتاجونه حتى بعض الأشرطة السمعية، فلماذا يضيعون وقتًا طويلًا في دراسة الكتب الإسلاميَّة القديمة مع معاناة مشكلة اللغة العربيَّة؟.

لذا، اتجهوا اتجاهًا سياسيًّا عارمًا، وقطعوا الاهتمام -أو أغلبهم- بالقضايا العلميَّة والفكريَّة إلا بمقدار ما تحقق أثرًا سياسيًّا مباشرًا.

واليوم، شخص مثل برنارد لويس اليهودي المؤرخ الشهير الذي كتب عن الشرق الأوسط، والحشاشين، والأتراك، وترجم عن العربيَّة مقتطفات تاريخية وأعمالًا عديدة ذات طابع علمي، ولّى وجهه منذ زمن نحو السياسة، وأشرف على معهد الدراسات اليهوديَّة في جامعة (برنستون)، ثم تفرغ للكتابة السياسية، ويكتب عن: العرب والإسلام، واللغة السياسية في الإسلام، والإسلام والغرب، وصياغة المشرق الإسلامي الجديد، ويعمل لإعداد جيل من السياسيين اليهود الأمريكيين ليخترق العالم العربي بشكل أكبر، ويقدم محاضرات سياسية واستشارات في الهدف نفسه متخذًا من قضية أمته وقومه اليهود قضيته، ورمى بالتاريخ إلى الوراء، ولا قيمة للتاريخ عنده إلا

دوره في الحاضر والمستقبل -وهذه أهم مهمة للتاريخ حقًّا-، وهو من أصحاب النظرية المركزية اليهوديَّة في غرب آسيا، حيث يرى أن على إسرائيل أن تحكم منطقة وسط وغرب آسيا، من الجمهوريات الإسلاميَّة إلى النصف الشرقي من البحر الأبيض المتوسط، وأن على الغرب أن يترك هذه المنطقة لها وحدها؛ فإسرائيل هي القادرة عقليًّا وسياسيًّا وماليًّا وعسكريًّا على القيام بذلك في إدارة يسندها تحالف أمريكي مباشر ويربط هذا باستراليا؛ كما شرح في مقال له شهير عن مستقبل المنطقة، ونشره في مجلة الشئون الخارجية.

ومثل آخر هو: جون إسبوزيتو، يتجه لدراسة الإسلام المعاصر والحركات الإسلاميَّة المعاصرة، ويقيم علاقات مباشرة مع الإسلاميين وجمعيَّاتهم وزعاماتهم ليدرسها عن قرب، ويقدم الكتب من أمثال التهديد الإسلامي، أسطورة أو حقيقة، وبدأت أعداد كبيرة من الشباب تهتم بهذه الموضوعات. ويقدم هؤلاء الاستشارات والتوجيهات للحكومات الغربية كما كان يفعل السابقون في زمانهم.

واليوم يطلب الأساتذة في الجامعات الغربية أن تكون الأبحاث في الجامعات عن الحركة الإسلاميَّة المعاصرة!، عن الأفكار الجديدة والمؤثرة على الشباب في العالم الإسلامي وتطلعاته.

فالاستشراق ليس تاريخًا ماضيًا، ولكنه أيضًا سياسة قائمة يومية متجددة، نجد أنفسنا وثقافتنا فيها من خلال لغاتها مباشرة، وأعمالها ومؤتمراتها وأبحاثها وقرارات الحكومات المبنية عليها[١].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٨٧، ٦٨٨)، الاستشراق للمطبقاني، الاستشراق في الأدبيات العربية، علي النملة ص(٢٣- ٣١)، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، مصطفى السباعي، نهاية الاستشراق القديم وبداية عهد جديد، محمد حامد الأحمري.

الفصل الثالث

أهداف ودوافع الاستشراق

١- الهدف الديني:

تتداخل الدوافع مع الأهداف أحيانًا؛ فإن الهدف الديني الذي أراد الاستشراق تحقيقه كان دافعه الأساس أن رجال الدين النصارى رأوا قوة الإسلام، واندفاع كثير من النصارى للدخول فيه، واستيلاء الإسلام على أراضٍ كانت النصرانيَّة هي الدين الوحيد فيها حتى أصبح النصارى قلة؛ فخاف هؤلاء على مكانتهم ومكاسبهم الدنيويَّة والدينيَّة مما أجج أحقادهم؛ فكان لا بد أن يقفوا في وجه الإسلام حيث إنه ليس في الإسلام طبقة رجال دين أو أكليروس كما في النصرانيَّة.

فغاية الهدف الديني هي معرفة الإسلام لمحاربته وتشويهه وإبعاد النصارى عنه، وقد اتخذ النصارى المعرفة بالإسلام وسيلة لحملات التنصير التي انطلقت إلى البلاد الإسلاميَّة، وكان هدفها الأول تنفير النصارى من الإسلام.

ولذلك فإن الكتابات النصرانيَّة المبكرة كانت من النوع المتعصب والحاقد جدًّا حتى إن بعض الباحثين الغربيين في العصر الحاضر كتب نقدًا عنيفًا لاستشراق العصور (الأوربية) الوسطى من أمثال نورمان دانيال في كتابه الإسلام والغرب.

فقد كتب دانيال أن أسباب حقد النصارى وسوء فهمهم للإسلام ما زال بعضه يؤثر في موقف الأوربيين من الإسلام بالرغم من التحسن العظيم الحديث في الفهم والذي أشاد به بعض المسلمين.

فهذا هو الهدف وراء نشأة الاستشراق، وقد صاحبه خلال مراحله الطويلة، فهو يتمثل في:

١- التشكيك في صحة رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، والزعم بأن الحديث النبوي إنما هو من عمل المسلمين خلال القرون الثلاثة الأولى، والهدف الخبيث من وراء ذلك هو محاربة السُّنة بهدف إسقاطها حتى يفقد المسلمون الصورة التطبيقية الحقيقية لأحكام الإسلام ولحياة الرسول صلى الله عليه وسلم، وبذلك يفقد الإسلام أكبر عناصر قوته.

٢- التشكيك في صحة القرآن والطعن فيه، حتى ينصرف المسلمون عن الالتقاء على هدف واحد يجمعهم ويكون مصدر قوتهم وتنأى بهم اللهجات القومية عن الوحي باعتباره المصدر الأساسي لهذا الدين.

٣- التقليل من قيمة الفقه الإسلامي واعتباره مستمدًا من الفقه الروماني.

٤- النيل من اللغة العربيَّة واستبعاد قدرتها على مسايرة ركب التطور وتكريس دراسة اللهجات لتحل محل العربيَّة الفصحى.

٥- إرجاع الإسلام إلى مصادر يهودية ونصرانية بدلًا من إرجاع التشابه بين الإسلام وهاتين الديانتين إلى وحدة المصدر.

٦- العمل على تنصير المسلمين، فالهدف التبشيري التنصيري لم يتناسوه في دراساتهم العلميَّة وهم قبل كل شيء رجال دين، فأخذوا يهدفون إلى تشويه سمعة الإسلام في نفوس رواد ثقافتهم من المسلمين لإدخال الوهن إلى العقيدة الإسلاميَّة، والتشكيك في التراث الإسلامي، والحضارة الإسلاميَّة، وكل ما يتصل بالإسلام من علم وأدب وتراث.

٧- الاعتماد على الأحاديث الضعيفة والأخبار الموضوعة في سبيل تدعيم آرائهم وبناء نظرياتهم.

٨- لقد كان الهدف الاستراتيجي الديني من حملة التشويه ضد الإسلام هو حماية أوربا من قبول الإسلام بعد أن عجزت عن القضاء عليه من خلال الحرب الصليبية.

٩- إفساد صورة الإسلام بطمس معالمه، وتشويه محاسنه، وتحريف حقائقه، وتقديمه للعالم على أنه دين متناقض.

١٠- إحياء النعرات القبلية، والعصبيات المذهبية، والنزعات الطائفية والعقائدية، وإثارة الخلافات، لتفريق وحدة المسلمين، وإضعاف روح الإخاء بين المسلمين، وإثارة اللهجات العامية وذلك بالتشكيك في اللغة العربيَّة ومصادرها.

١١- غرس المبادئ الغربية في نفوس المسلمين وتمجيدها، والعمل على إضعاف القيم الإسلاميَّة وتحقيرها حتى يتم لهم إفساد أبناء المسلمين، وتحللهم، ثم توجيههم لخدمة مصالحهم.

١٢- إزالة الثقة بعلماء وأعلام الأمة الإسلاميَّة؛ وذلك لقطع الصلة بين المسلمين وماضيهم، وفي المقابل تمجيد الشخصيات الغربية وتعظيمها؛ ليسهل التأثير والانقياد لهم.

٢- الهدف العلمي:

ما كان لأوربا أن تنهض نهضتها دون أن تأخذ بأسباب ذلك وهو دراسة منجزات الحضارة الإسلاميَّة في جميع المجالات العلميَّة؛ فقد رأى زعماء أوربا «أنه إذا كانت أوربا تريد النهوض الحضاري والعلمي؛ فعليها بالتوجه إلى بواطن العلم تدرس لغاته وآدابه وحضارته».

ولو رجعنا إلى قوائم الكتب التي ترجمت إلى اللغات الأوربية لعرفنا حقيقة أهمية هذا الهدف من أهداف الاستشراق؛ فالغربيين لم يتركوا مجالًا كتب فيه العلماء المسلمون حتى درسوا هذه الكتابات وترجموا عنها، وأخذوا منها.

وقد أشار رودي بارت في كتابه عن الدراسات العربيَّة الإسلاميَّة- إلى إمكانية أن تقوم الأمة الإسلاميَّة في العصر الحاضر بدراسة الغرب فيما يمكن أن يطلق عليه علم الاستغراب؛ فإن المسلمين في نهضتهم الحاضرة بحاجة إلى معرفة الإنجازات العلميَّة التي توصل إليها الغرب عبر قرون

من البحث والدراسة والاكتشافات العلميَّة والاستقرار السياسي والاقتصادي.

ومن المستشرقين نفر قليل جدًا أقبلوا على الاستشراق بدافع من حب الإطلاع على حضارات الأمم، وأديانها، وثقافاتها، ولغاتها، وهؤلاء كانوا أقل من غيرهم خطأً في فهم الإسلام وتراثه؛ لأنهم لم يكونوا يتعمدون الدس والتحريف، بل اتجهوا إلى البحث والتمحيص لمعرفة الحقيقة خالصة، فجاءت أبحاثهم أقرب إلى الحق وإلى المنهج العلمي السليم من أبحاث الجمهرة الغالبة من المستشرقين، بل إن منهم من اهتدى إلى الإسلام وآمن برسالته ودخل فيه، نذكر منهم:

١- توماس آرنولد الذي أنصف المسلمين في كتابه الدعوة إلى الإسلام.

٢- المستشرق الفرنسي رينيه فقد أسلم وعاش في الجزائر وله كتاب أشعة خاصة بنور الإسلام، وكتاب محمد رسول الله، مات في فرنسا لكنه دفن في الجزائر.

٣- موريس بوكاي وهو من كبار العلماء الفرنسيين في الطبيعيات، وقد قارن بين القرآن والإنجيل والتوراة، ولما تبين له أن الكتب السماوية المحرفة تتناقض مع العلم، وأن القرآن لا يتناقض مع أية حقيقة علمية ثابتة عندئذ أعلن تشهده وإيمانه بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وبأن القرآن كلام الله.

على أن هؤلاء لا يوجدون إلا حين يكون لهم من الموارد المالية الخاصة ما يمكنهم من الانصراف إلى الاستشراق بأمانة وإخلاص؛ لأن أبحاثهم المجردة عن الهوى لا تلقي رواجًا لا عند رجال الدين، ولا عند رجال السياسة، ولا عند عامة الباحثين، ومن ثمة فهي لا تدر عليهم ربحًا ولا مالًا، ولهذا ندر وجود هذه الفئة في أوساط المستشرقين.

٣- الهدف الاقتصادي التجاري:

لقد كانت المؤسسات والشركات الكبرى، والملوك كذلك، يدفعون المال الوفير للباحثين، من أجل معرفة البلاد الإسلاميَّة وكتابة تقارير عنها، وقد كان ذلك جليًّا في عصر ما قبل الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي في القرنين التاسع عشر والعشرين.

وعندما بدأت أوربا نهضتها العلميَّة والصناعية والحضارية وكانت في حاجة إلى المواد الأولية الخام لتغذية مصانعها، كما أنهم أصبحوا بحاجة إلى أسواق تجارية لتصريف بضائعهم كان لا بد لهم أن يتعرفوا إلى البلاد التي تمتلك الثروات الطبيعية ويمكن أن تكون أسواقًا مفتوحة لمنتجاتهم.

فكان الشرق الإسلامي والدول الأفريقية والآسيوية هي هذه البلاد فنشطوا في استكشافاتهم الجغرافية ودراساتهم الاجتماعيَّة واللغوية والثقافية وغيرها.

وهناك من يرى أن الهدف الاقتصادي كان هو الأساس في الاستشراق وقد استغل الدين والتنصير لتحقيق الأهداف الاقتصادية.

ولم يتوقف الهدف الاقتصادي عند بدايات الاستشراق فإن هذا الهدف ما زال أحد أهم

الأهداف لاستمرار الدراسات الاستشراقية.

فمصانعهم ما تزال تنتج أكثر من حاجة أسواقهم المحلية كما أنهم ما زالوا بحاجة إلى المواد الخام المتوفرة في العالم الإسلامي.

ولذلك فإن بعض أشهر البنوك الغربية (لويد وبنك سويسرا) تصدر تقارير شهرية هي في ظاهرها تقارير اقتصادية ولكنها في حقيقتها دراسات استشراقية متكاملة حيث يقدم التقرير دراسة عن الأحوال الدينيَّة والاجتماعيَّة والسياسية والثقافية للبلاد العربيَّة الإسلاميَّة ليتعرف أرباب الاقتصاد والسياسة على الكيفية التي يتعاملون بها مع العالم الإسلامي.

ومن الطريف أن شركة الخطوط الهولندية تقدم لكبار موظفيها الذين يتفاوضون مع الشركات العربيَّة الإسلاميَّة دراسات من هذا النوع حتى يتعرفوا إلى العقليات التي يتفاوضون معها وإلى خلفياتهم الاجتماعيَّة والدينيَّة والثقافية.

٤- الهدف السياسي الاستعماري:

لقد خدم الاستشراق الأهداف السياسية التوسعية للدول الغربية؛ فقد سار المستشرقون في ركاب الاحتلال -وهم كما أطلق عليهم الأستاذ محمود شاكر: حملة هموم الشمال المسيحي- فقدموا معلومات موسعة ومفصلة عن الدول التي رغبت الدول الغربية في استعمارها والاستيلاء على ثرواتها وخيراتها.

وقد اختلط الأمر في وقت من الأوقات بين المحتل والمستشرق؛ فقد كان كثير من موظفي الاحتلال على دراية بالشرق لغة وتاريخًا وسياسة واقتصادًا. وقد أصدر -على سبيل المثال- مستشرق بريطاني كتابًا من أربعة عشر مجلدًا بعنوان: (دليل الخليج: الجغرافي والتاريخي) وكان موظف الحكومات المحتلة لا يحصل على الوظيفة في إدارة الاحتلال ما لم يكن على دراية بالمنطقة التي سيعمل بها.

واستمر الارتباط بين الدراسات العربيَّة الإسلاميَّة وبين الحكومات الغربية حتى يومنا هذا بالرغم من أنه قد يوجد عدد محدد جدًّا من الباحثين الغربيين دفعهم حب العلم لدراسة الشرق أو العالم الإسلامي.

ومن الأدلة على هذا الارتباط أن تأسيس مدرسة الدراسات الشرقيَّة والأفريقية بجامعة لندن قد أُسِّسَت بناء على اقتراح من أحد النواب في البرلمان البريطاني.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية رأت الحكومة البريطانية أن نفوذها في العالم الإسلامي بدأ ينحسر فكان لا بد من الاهتمام بالدراسات العربيَّة الإسلاميَّة فكلفت الحكومة البريطانية لجنة حكومية برئاسة الإيرل سكاربورو لدراسة أوضاع الدراسات العربيَّة الإسلاميَّة في الجامعات البريطانية.

ووضعت اللجنة تقريرها حول هذه الدراسات وقدمت فيه مقترحاتها لتطوير هذه الدراسات

واستمرارها.

وفي عام ١٩٦١ كونت الحكومة البريطانية لجنة أخرى برئاسة السير وليام هايتر لدراسة هذا المجال المعرفي، وقامت اللجنة باستجواب عدد كبير من المتخصصين في هذا المجال، كما زارت أقسام الدراسات العربيَّة والإسلاميَّة في الجامعات البريطانية وفي عشر جامعات أمريكية وجامعتين كنديتين.

وكانت زيارتها للولايات المتَّحدة بقصد التعرف على التطورات التي أحدثها الأمريكيون في هذا المجال، وكان ذلك بتموين من مؤسستي روكفللر وفورد.

ومما يؤكد ارتباط الدراسات العربيَّة الإسلاميَّة بالأهداف السياسية الاحتلالية (رغم انحسار الاحتلال العسكري) أن الحكومة الأمريكيَّة موّلت عددًا من المراكز للدراسات العربيَّة الإسلاميَّة في العديد من الجامعات الأمريكيَّة، وما زالت تمول بعضها إما تمويلًا كاملًا أو تمويلًا جزئيًّا وفقا لمدى ارتباط الدراسة بأهداف الحكومة الأمريكيَّة وسياستها.

كما يستضيف الكونجرس وبخاصة لجنة الشئون الخارجية أساتذة الجامعات والباحثين المتخصصين في الدراسات العربيَّة الإسلاميَّة لتقديم نتائج بحوثهم وإلقاء محاضرات على أعضاء اللجنة، كما ينشر الكونجرس هذه المحاضرات والاستجوابات نشرًا محدودًا لفائدة رجال السياسة الأمريكيين.

ويمكن إبراز أهم أهداف الاستشراق السياسية في:

١- إضعاف روح الإخاء بين المسلمين والعمل على فرقتهم لإحكام السيطرة عليهم.

٢- العناية باللهجات العامية ودراسة العادات السائدة لتمزيق وحدة المجتمعات المسلمة.

٣- توجيه موظفيهم في هذه المستعمرات إلى تعلم لغات تلك البلاد ودراسة آدابها ودينها ليعرفوا كيف يسوسونها ويحكمونها.

٤- في كثير من الأحيان كان المستشرقون ملحقين بأجهزة الاستخبارات؛ لسبر غور حالة المسلمين، وتقديم النصائح لما ينبغي أن يفعلوه لمقاومة حركات البعث الإسلامي.

إن الاستشراق وإن كان قد بدأ حركة دينية ثم تحول إلى حركة مقترنة بالسياسية بحيث اشتغل معظم المستشرقين بل كلهم إلا اليسير في دوائر المخابرات الأجنبية، وخدموا وزارات الخارجية، وهذا معروف عن أساطينهم مما لا يولد الشك في اقترانهم بالسياسة، وأن ما يكتبونه يراد منه خدمة واقع سياسي، وأنه حتى بعد التطور الحديث من مطلع القرن العشرين وحتى الآن لا زال يواصل خطاه، وأن ما يبدو عليه من تعميق لبحوثه بالإفادة والاستثمار للعلوم الحديثة لن يخلصه من الإطار القديم المرسوم له، فأهداف طرح الشرق أمام الغرب بصورة مشوهة ثم عكس القضية لإضعاف ثقة المسلمين بأنفسهم، بدينهم، بماضيهم، هذا كله إضافة إلى زرع بذور العنصرية والتفرقة بين الأمة الإسلاميَّة بشتى الطرق.

٥- الهدف الثقافي:

من أبرز أهداف الاستشراق نشر الثقافة الغربية انطلاقًا من النظرة الاستعلائية التي ينظر بها إلى الشعوب الأخرى. ومن أبرز المجالات الثقافية نشر اللغات الأوربية ومحاربة اللغة العربيَّة. وصبغ البلاد العربيَّة والإسلاميَّة بالطابع الثقافي الغربي.

وقد نشط الاستشراق في هذا المجال أيما نشاط. فأسس المعاهد العلميَّة والتنصيريَّة في أنحاء العالم الإسلامي وسعى إلى نشر ثقافته وفكره من خلال هؤلاء التلاميذ.

وقد فكَّر نابليون في ذلك حينما طلب من خليفته على مصر أن يبعث إليه بخمسمائة من المشايخ ورؤساء القبائل ليعيشوا فترة من الزمن في فرنسا، «يشاهدون في أثنائها عظمة الأمة (الفرنسيَّة) ويعتادون على تقاليدنا ولغتنا، ولمَّا يعودون إلى مصر، يكون لنا منهم حزب يضم إليه غيرهم».

ولم يتم لنابليون ذلك ولكن لمَّا جاء محمد علي أرسل بعثة من أبناء مصر النابهين يقودهم رفاعة رافع الطهطاوي، وقد قال محمود شاكر إن هؤلاء «يكونون أشد استجابة على اعتياد لغة فرنسا وتقاليدها؛ فإذا عادوا إلى مصر كانوا حزبًا لفرنسا وعلى مر الأيام يكبرون ويتولون المناصب صغيرها وكبيرها، ويكون أثرهم أشد تأثيرًا في بناء جماهير كثيرة تبث الأفكار التي يتلقونها في صميم شعب دار الإسلام في مصر...».

وقد حرص الغرب على الغزو الثقافي من خلال التغريب الفكري بعدة طرق:

١- التعليم من حيث المنهج ومن حيث المادة العلميَّة.

٢- وفي مجال الإعلام: تُسْتَغل كل وسائل الإعلام المتاحة وخاصة أفلام السينما والتلفاز (تأثير غير مباشر).

وظهر الهدف الثقافي من خلال الدعوة إلى العامية، وإلى محاربة الفصحى، والحداثة في الأدب والفكر؛ حيث نادى البعض بتحطيم السائد والموروث وتفجير اللغة وغير ذلك من الدعوات.

وقد بلغ من ثقتهم بأنفسهم في هذا المجال أن كتب أحدهم يتوقع ألا يمر وقت طويل حتى تستبدل مصر باللغة العربيَّة اللغة الفرنسيَّة كما فعلت دول شمال أفريقيا[1].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٩١، ٦٩٢)، الاستشراق للمطبقاني، المسار الفكري للاستشراق، آصف حسين ص(٥٦٦- ٥٩٢)، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، مصطفى خالدي وعمر فروخ ص(١٦٨)، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود شاكر ص(١٠٨، ١٤١)، رحلة الفكر الإسلامي من التأثر إلى التأزم، السيد محمد الشاهد ص(١٨١)، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، موقف الاستشراق من السنة والسيرة النبوية، د. أكرم ضياء العمري.

الفصل الرابع

مناهج المستشرقين

قام المستشرقون بدراسات متعددة عن الإسلام واللغة العربيَّة والمجتمعات المسلمة، ووظفوا خلفياتهم الثقافية وتدريبهم البحثي لدراسة الحضارة الإسلاميَّة والتعرف على خباياها لتحقيق أغراض الغرب الاستعمارية والتنصيريَّة.

فالدافع الذي دفع هؤلاء المستشرقين لدراسة الإسلام هو في الحقيقة العداء السافر لهذا الدين وللرسول صلى الله عليه وسلم، هذا العداء الذي بدأ منذ فجر الإسلام، فالمستشرقون ليسوا سوى امتداد لليهود والنصارى الذين بذلوا كل ما في وسعهم لطمس دين الإسلام، وإزالة معالمه من الوجود، ولم تخفف من هذا العداء القرون المتطاولة، بل ظل يأخذ صورًا شتى وأشكالًا متنوعة، تعلن تارة وتخفي أخرى، وتظهر في ثوب الود والولاء تارة، وتكشر عن أنياب العداء أحيانًا، واشتدت هذه العداوة بعد الحروب الصليبية (١٠٩٧-١٢٩٥م) (التي كانت نقطة تحول في الصراع الفكري والعقدي والسياسي بين الغرب المسيحي وبين الشرق الإسلامي)، فقد عاش المستشرقون في هذه البيئة المفعمة ببغض الإسلام، وارتضعوا من لبانها، ولذا جاء منهجهم يحوي بين طياته كل دسيسة وشبهة تطعن في هذا الدين.

وأبرز سمات هذا المنهج الذي درسوا الإسلام على أساسه:

١- تحليل الإسلام ودراسته بعقلية أوربية، فهم حكموا على الإسلام معتمدين على القيم والمقاييس الغربية المستمدة من الفهم القاصر والمغلوط الذي يجهل حقيقة الإسلام.

٢- تبييت فكرة مسبقة ثم اللجوء إلى النصوص واصطيادها لإثبات تلك الفكرة، واستبعاد ما يخالفها، وهذا خضوع للهوى وبعد عن التجرد العلمي.

فالمستشرق يبدأ بحثه وأمامه غاية حددها، ونتيجة وصل إليها مقدمًا، ثم يحاول أن يثبتها بعد ذلك، ومن هناك يكون دأبه واستقصاؤه الذي يأخذ بأبصار بعضهم.

٣- اعتمادهم على الضعيف والشاذ من الأخبار، وغض الطرف عما هو صحيح وثابت.

وهذا الأمر مشهور إلى حد كبير؛ فهم يذهبون إلى الكتب التي تجمع الأحاديث وبخاصة مثل «كنز العمال» وغيرها من الكتب التي لا يرد فيها تصحيح أو تخريج للأحاديث، وقد كتب باحث بريطاني عن فتح المسلمين قسطنطينية بأنه وردت أحاديث عن أن الذي سيفتحها سيكون اسمه اسم نبي ثم لما لم تفتح ادعى أن الأحاديث لا تصح؛ لأن تكون مصدرًا، أما أنه لم يعرف صحة الحديث من عدمه فأمر لا يهمه وهو الذي يدعي العلميَّة والنزاهة.

٤- تحريف النصوص ونقلها نقلًا مشوهًا، وعرضها عرضًا مبتورًا، وإساءة فهم ما لا يجدون

سبيلًا لتحريفه.

قام بعض المستشرقين بتحريف كثير من الحقائق التي تخص الإسلام ورسالته وتاريخه؛ فمن ذلك مثلًا أن بعضهم أنكر عالمية الإسلام وبخاصة فيما يتعلق برسائل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والأمراء خارج جزيرة العرب، كرسائله إلى هرقل والمقوقس وكسرى، وإنكار عالمية الرسالة الإسلاميَّة يظهر فيما كتبه جوستاف لوبون في كتابه «تاريخ العرب» حيث زعم أن الرسول صلى الله عليه وسلم رأى أنه كان لليهود أنبياء، وكذلك للنصارى؛ فأراد أن يكون للعرب كتاب ونبي، وكأن الرسالة والنبوة أمر يقرره الإنسان بنفسه.

٥- التفسير بالإسقاط.

وهو إسقاط الواقع المعاصر المعاش، على الوقائع التاريخية الضاربة في أعماق التاريخ؛ فيفسرونها في ضوء خبراتهم ومشاعرهم الخاصة، وما يعرفونه من واقع حياتهم ومجتمعاتهم، وهذا خطأ منهجي.

فمثلًا واقع الغربيين يدل على تنازعهم على السلطة، وإن كان الأمر يبدو في الحاضر انتخابات وحرية اختيار، ولكن الحقيقة أن من يملك المال يستطيع أن يصل إلى الأصوات حتى صدر في أمريكا كتابًا بعنوان «بيع الرئيس» وكتابًا آخر عن «صناعة الرئيس»؛ فجاء المستشرقون إلى بيعة الصديق رضي الله عنه فصوروها على أنها اغتصاب للسلطة أو تآمر بين ثلاثة من كبار الصحابة - هم واللهِ أنقى البشر بعد الأنبياء والرسل- وهم أبو بكر، وعمر، وأبو عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنهم أجمعين؛ فزعموا أن هؤلاء الثلاثة تآمروا على أن يتولوا الخلافة الواحد تلو الآخر.

وذكرت كذلك أنهم سموا المنافقين بالمعارضة وغير ذلك من الإسقاطات التي تدل على سوء طوية وخبث وبعد عن المنهج العلمي.

وغربة المستشرقين عن العربيَّة والإسلام منحتهم عدم الدقة والفكر المستوعب في البحث الموضوعي.

٦- تحكمهم في المصادر التي ينقلون منها، فهم ينقلون مثلًا من كتب الأدب ما يحكمون به في تاريخ الحديث، ومن كتب التاريخ ما يحكمون به في تاريخ الفقه، ويصححون ما ينقله الدميري في كتاب الحيوان، ويكذبون ما يرويه مالك في الموطأ، كل ذلك انسياقًا مع الهوى، وانحرافًا عن الحق.

ومن ذلك المنهج الانتقائي، وإثارة الشكوك في معطيات السنة والتاريخ، فقد عرف عن كثير من المستشرقين في كتاباتهم حول السيرة النبوية الشريفة وحول التاريخ الإسلامي، أنهم ينتقون بعض الأحداث والقضايا ويكتبون عنها، ويهملون غيرها؛ كما أنهم يشككون في أمور من المسلمات لدينا في التاريخ الإسلامي، فقد أجهدوا أنفسهم في إثارة الشكوك، وقد أثاروا الشك حتى في اسم

الرسول صلى الله عليه وسلم، ولو تمكنوا لأثاروا الشك حتى في وجوده.

٧- إبراز الجوانب الضعيفة، والمعقدة، والمتضاربة، كالخلاف بين الفرق، وإحياء الشبه، وكل ما يثير الفرقة، وأخبار الصراعات والبحث عن الوثنيات والتاريخ السابق لبعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، وإخفاء الجوانب المشرقة والإيجابية وتجاهلها.

وقد كثرت كتابات المستشرقين عن الفرق كالشيعة، والإسماعيلية، والزنج، وغيرهم من الفرق التي ظهرت في التاريخ الإسلامي، وأعطوها من المكانة والاهتمام أكثر مما تستحق، بل إن هناك من كتب عن المنافقين في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وأطلق عليهم لقب المعارضة لإعطاء ما قاموا به من عداوة لله ولرسوله شرعيةً، وحصل بعضهم على درجة الدكتوراه في بحوث حول هذه الفرق.

٨- اعتماد مصادر غير موثوقة لدى المسلمين.

من العيوب المنهجية في الدراسات الاستشراقية، أنهم يعمدون إلى المصادر غير الموثقة عند المسلمين فيجعلونها هي المصدر الأساس لدراساتهم وبحوثهم ومن ذلك أنهم يرجعون إلى كتاب مثل كتاب «الأغاني» للأصفهاني؛ فيجعلونه مرجعًا أساسيًّا في دراساتهم للتاريخ الإسلامي وللمجتمع الإسلامي، كما يعمدون إلى المراجع التي ضعفها العلماء المسلمون أو طعنوا في أمانة أصحابها؛ فيجعلونها أساسًا لبحوثهم، أو كان أصحاب تلك المراجع منحازين إلى فئة معينة أو متعصبين.

٩- الاستنتاجات الخاطئة والوهمية، وجعلها أحكامًا ثابتة يؤكدها أحدهم المرة تلو الأخرى، ويجتمعون عليها حتى تكاد تكون يقينًا عندهم.

١٠- النظرة العقلية المادِّيَّة البحتة التي تعجز عن التعامل مع الحقائق الروحية.

تنوع المناهج:

تنوعت مناهج المستشرقين بتنوع مدارسهم والعصر الذي كتبوا فيه، ففي بدايات الاستشراق الذي كان منطلقًا من البواعث الدينيَّة التعصبية كان المنهج السائد هو المنهج القائم على الجدل والتعصب والحقد.

وقد انتقد الغربيون أنفسهم هذا المنهج ومن هؤلاء نورمان دانيال وريتشارد سوذرن.

ولعل هذه الروح العصبية الحاقدة استمرت مع عدد من المستشرقين حتى الوقت الحاضر؛ فكان من هؤلاء على سبيل المثال مارجليوث ولامانس وبرنارد لويس.

وهناك من المستشرقين من تظاهر بالموضوعية، ولكنه كان يخفي تحت ستار الموضوعية الزائفة مناهج بعيدة كل البعد عن الموضوعية.

فمن أهم شروط الموضوعية احترام مسلمات الدين الإسلامي وثوابته، وعدم استخدام منهج الإسقاط في دراسة الدين الإسلامي.

كما ظهر في الغرب النزعة المادِّيَّة وبخاصة في الدول الشيوعية -وقد تأثر بعض الباحثين في العالم الرأسمالي بها- فحاولوا تفسير الإسلام تاريخًا وعقيدة وشريعة وفق المنهج المادي الماركسي.

وعند الحديث عن مناهج المستشرقين؛ فإننا لا بد أن ندرك أن عددًا من المستشرقين عُدُّوا قريبين من الموضوعيَّة وإن كان هؤلاء قلة قليلة جدًّا بينهم.

ولكن حتى هؤلاء الذين حاولوا أن ينصفوا الإسلام وكتابه ورسوله صلى الله عليه وسلم لم يستطيعوا أن ينفكوا من تأثير ثقافاتهم وعقائدهم فصدر منهم ما لا يقبله المسلم.

وهذا يعني أن أي تصنيف للمستشرقين إلى منصفين ومتعصبين هو أمر تختلف حوله الآراء؛ فقد يصدر ممن عرف عنه الاعتدال قول أو رأي مرفوض، وقد يحصل العكس فتكون بعض آراء المتعصبين إنصافًا جميلًا للإسلام، ولهذا يتوقع أن تكون بعض الأسماء التي شملها تصنيفنا الآتي محل نظر.

مستشرقون اعتبروا منصفون

١- هادريان ريلند ت ١٧١٨م ADRIANUS REELAND

مستشرق هولندي، أستاذ اللغات الشرقيَّة في جامعة أوترشت بهولندا.

له كتاب الديانة المحمدية في جزأين باللغة اللاتينيَّة ١٧٠٥م، لكن الكنيسة في أوربا وضعت كتابه في قائمة الكتب المحرم تداولها.

والكتاب قسمان: القسم الأول: تحقيق لكتاب موجز في العقائد الإسلاميَّة لمؤلف مسلم، نشره عن مخطوط عربي وترجمه إلى اللاتينيَّة مع تعليقات وفيرة، وبهذا يعطي للقارئ الأوربي عرضًا أمينًا للعقيدة الإسلاميَّة كما يفهمها المسلمون.

والقسم الثاني: يفحص عن بعض الآراء الباطلة -المنتشرة في أوربا منذ العصر الوسيط حتى القرن السابع عشر- عن الإسلام والقرآن والسنة المحمدية، ويحاول تصحيحها استنادًا إلى القرآن والسنة ومؤلفات المسلمين.

وله من الأبحاث: بحث عن القانون الحربي عند المسلمين، وبحث عن الجواهر العربيَّة، وتحقيق وترجمة كتاب تعليم المتعلم للزرنوجي.

واهتم بالنقود والنقوش التي عثر عليها في فلسطين وكتب كتابًا في هذا الموضوع بعنوان: فلسطين موضحة بحسب الآثار القديمة ١٧٤١ .

٢- يوهان ج. ريسكه ١٧١٦ - ١٧٧٤م reiske.J.J

وهو مستشرق ألماني جدير بالذكر، يعد مؤسس الدراسات العربيَّة في ألمانيا حيث بدأ تعليم نفسه العربيَّة ثم درس في جامعة ليبزيج، وانتقل إلى جامعة ليدن لدراسة المخطوطات العربيَّة فيها كما اهتم بدراسة اللغة العربيَّة والحضارة الإسلاميَّة.

وقد اتهم بالزندقة لموقفه الإيجابي من الإسلام، عاش بائسًا ومات مسلولًا، وأبغضه وحاربه اللاهوتيون؛ لأنه مجد الإسلام.

وإليه يرجع الفضل في إيجاد مكان بارز للدراسات العربيَّة بألمانيا، والابتعاد بالدراسات العربيَّة الإسلاميَّة عن الارتباط بالدراسات اللاهوتية التي كانت تميز هذه الدراسات في القرون الوسطى (الأوربية).

٣- سلفستر دي ساسي ١٧٥٨- ١٨٣٨م Silvestre de Sacy

تعلم اللاتينيَّة واليونانيَّة ثم درس على بعض القساوسة، ثم درس العربيَّة والفارسية والتركية، وعمل في نشر المخطوطات الشرقيَّة في مكتبة باريس الوطنية، وكتب العديد من البحوث حول العرب وآدابهم وحقق عددًا من المخطوطات.

وعين أستاذًا للغة العربيَّة في مدرسة اللغات الشرقيَّة الحية عام ١٧٩٥، وأعد كتابًا في النحو ترجم إلى الإنجليزية والألمانيَّة والدنماركية، وأصبح مديرًا لهذه المدرسة عام ١٨٣٣، وعندما تأسست الجمعيَّة الأسيوية انتخب رئيسًا لها عام ١٨٢٢ .

ومن أبرز اهتماماته الدروز حيث ألف كتابًا حولهم في جزأين.

اهتم بالأدب والنحو مبتعدًا عن الخوض في الدراسات الإسلاميَّة، وإليه يرجع الفضل في جعل باريس مركزًا للدراسات العربيَّة، وكان ممن اتصل به رفاعة الطهطاوي.

وعمل دي ساسي مع الحكومة الفرنسيَّة وهو الذي ترجم البيانات التي نشرت عند احتلال الجزائر وكذلك عند احتلال مصر من قبل حملة نابليون عام ١٧٩٧ .

٤- توماس وولكر أرنولد ١٨٦٤-١٩٣٠م.

إنجليزي بدأ حياته العلميَّة في جامعة كامبردج، وانتقل للعمل باحثًا في جامعة على كرا (عليكرا) في الهند حيث أمضى هناك عشر سنوات ألف خلالها كتابه المشهور (الدعوة إلى الإسلام)، ثم عمل أستاذًا للفلسفة في جامعة لاهور، وفي عام ١٩٠٤ عاد إلى لندن ليصبح أمينًا مساعدًا لمكتبة إدارة الحكومة الهندية التابعة لوزارة الخارجية البريطانية، وعمل في الوقت نفسه أستاذًا غير متفرغ في جامعة لندن.

واختير عام ١٩٠٩ ليكون مشرفًا عامًا على الطلاب الهنود في بريطانيا. ومن المهام العلميَّة التي شارك فيها عضوية هيئة تحرير الموسوعة الإسلاميَّة التي صدرت في ليدن بهولندا في طبعتها الأولى.

والتحق بمدرسة الدراسات الشرقيَّة والأفريقية بجامعة لندن بعد تأسيسها عام ١٩١٦ . عمل أستاذًا زائرًا في الجامعة المصريَّة عام ١٩٣٠ .

وله عدة مؤلفات سوى كتابه الدعوة إلى الإسلام الذي نقل إلى التركية والأردية والعربيَّة، ومنها الخلافة، وكتاب حول العقيدة الإسلاميَّة، وشارك في تحرير كتاب تراث الإسلام في طبعته الأولى،

بالإضافة إلى العديد من البحوث في الفنون الإسلاميَّة.

وبالرغم من شهرة آرنولد بأنه من المستشرقين المعتدلين؛ فإن البحث الدقيق في كتاباته تدل على أنه يشارك غيره من المستشرقين في الطعن في الإسلام بأسلوب هادئ وبخاصة في كتابه الخلافة وفي كتابه الدعوة إلى الإسلام كما أوضح ذلك أحد الباحثين في المعهد العالي للدعوة الإسلاميَّة في المدينة المنورة.

٥- غوستاف لوبون.

مستشرق وفيلسوف مادي، لا يؤمن بالأديان مطلقًا، جاءت أبحاثه وكتبه الكثيرة متسمة بإنصاف الحضارة الإسلاميَّة مما دفع الغربيين إلى إهماله وعدم تقديره.

وله كتاب حضارة العرب تحدث فيه عن ظهور الإسلام، وحالة العرب حينذاك، ثم امتدح الفتوحات الإسلاميَّة وقال: إن العالم لم يشهد فاتحًا أرحم من العرب.

وتجد في الكتاب بعض العبارات والكلمات التي أنصفت الإسلام والمسلمين.

على الرغم من أن كتاب لوبون فيه بعض المغالطات الفكريَّة والتاريخية، والطعن على القرآن.

٦- زيجريد هونكه.

مستشرقة ألمانية اتسمت كتابتها بالإنصاف؛ وذلك بإبرازها تأثير الحضارة العربيَّة على الغرب في مؤلفها الشهير شمس العرب تَسْطُعُ على الغرب.

إذ قالت في كتابها: لقد وجدت اللغة العربيَّة تجاوبًا من الجماعات، وامتزجت بهم وطبعتهم بطابعها، وكونت تفكيرهم ومداركهم، وشكلت قيمهم وثقافتهم، وطبعت حياتهم الماديَّة والعقلية، فأعطت للأجناس المختلفة في القارات الثلاث وجهًا واحدًا مميزًا، حتى السلاجقة والأتراك والمماليك والتتار عندما وصلوا إلى الحكم ظلوا بقلوبهم رعايا مخلصين للثقافة العربيَّة وللغتها، بل ولأساليب الحياة العربيَّة وفكرها، حقًّا إن قدرة هذه العقلية العربيَّة على طبع الشعوب لرائعة.

٧- جاك واردنبرج ١٩٣٠ .

درس القانون بجامعة أمستردام، ودرس أيضًا علم اللاهوت بالجامعة نفسها. درس العربيَّة في الفترة من ١٩٥٣ إلى ١٩٥٦ بجامعة أمستردام وفي ليدن وفي مدرسة اللغات الشرقيَّة الحية في باريس.

وحصل على منحة من اليونسكو لزيارة بعض الدول العربيَّة والإسلاميَّة فزار إيران ولبنان ومصر والأردن.

كانت رسالته للدكتوراه بعنوان (الإسلام في مرآة الغرب) من جامعة أمستردام.

وعمل في معهد الدراسات الإسلاميَّة بجامعة ماقيل بكندا في الفترة من ١٩٦٢-١٩٦٣ .

وقام بزيارات علمية لإجراء بحوث حول الجامعات في العالم العربي في كل من تونس ولبنان

وسوريا والعراق والأردن.

وعمل باحثًا زائرًا في جامعة كليفورينا -لوس أنجلوس وعمل في مجال التدريس في جامعة أوترخت بهولندا (١٩٦٨-١٩٨٧) ثم انتقل إلى جامعة لوزان بسويسرا وبقي فيها حتى تقاعد عام ١٩٩٥ .

وله إنتاج غزير في مجال الدراسات الإسلاميَّة منها (الإسلام في مرآة الغرب) و(واقع الجامعات العربيَّة -مجلدان) والطرق الكلاسيكية لدراسة الدين. شارك في الكتابة في دائرة المعارف الإسلاميَّة (الطبعة الثانية) وقد كتب مادة (مستشرقون).

٨- أنَّا ماري شميل ١٩٢٢ .

من أشهر المستشرقين الألمان المعاصرين، بدأت دراسة اللغة العربيَّة في سن الخامسة عشرة، وتتقن العديد من لغات المسلمين، وهي: التركية، والفارسية، والأوردو.

درَّست في العديد من الجامعات في ألمانيا وفي الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة وفي أنقرة.

اهتمت بدراسة الإسلام، وحاولت تقديم هذه المعرفة بأسلوب علمي موضوعي لبني قومها، حتى نالت أسمى جائزة ينالها كاتب في ألمانيا تسمى جائزة السلام.

ولكن بعض الجهات المعادية للإسلام لم يرقها أن تنال هذه الباحثة المدافعة عن الإسلام في وجه الهجمات الغربية عليه -حاولوا أن يمنعوا حصولها على الجائزة.

ومتخصصة في دراسة محمد إقبال حكيم وشاعر باكستان، وترجمت إلى الألمانيَّة له ديوان (جاويد نامة) وكتاب (رسالة المشرق عن الفارسية).

أصدرت العديد من الكتب منها كتاب محمد رسول الله بسطت فيه مظاهر تعظيم وإجلال المسلمين لرسول الله.

وقد امتدحها رئيس المجلس الأعلى للمسلمين في ألمانيا بأنها ما زالت تواصل كتاباتها الموضوعية وترجماتها عن الإسلام.

٩- أ.ج. اربري ١٩٠٥- ١٩٦٩م J.A. Arberry.

ولد في مدينة بورتسموث بجنوب بريطانيا، والتحق بجامعة كامبريدج لدراسة اللغات الكلاسيكية اللاتينيَّة واليونانيَّة، وارتحل إلى مصر لمواصلة دراسته للغة العربيَّة، عاد إلى مصر ليعمل في كلية الآداب رئيسًا لقسم الدراسات القديمة (اليونانيَّة واللاتينيَّة) وزار فلسطين وسوريا ولبنان.

اهتم بالأدب العربي فترجم مسرحية مجنون ليلي لأحمد شوقي، كما حقق كتاب التعرف إلى أهل التصوف، وواصل اهتمامه بالتصوف وذلك بنشره كتاب (المواقف والمخاطبات) للنفري وترجمه إلى الإنجليزية، ومن كتبه الإسلام اليوم صدر ١٩٤٣م، وترجمة معاني القرآن الكريم.

وعمل آربري مع وزارة الحرب البريطانية في أثناء الحرب العالمية الثانية مهتمًا بشئون الإعلام

والرقابة البريدية. وأصدر كتابه المستشرقون البريطانيون سنة ١٩٤٣ .

وتولى منصب أستاذ كرسي اللغة العربيَّة في مدرسة الدراسات الشرقيَّة والأفريقية، ثم انتقل لجامعة كمبردج ليحتل منصب أستاذ كرسي اللغة العربيَّة في هذه الجامعة.

- ومنهم أيضًا: كارلايل، ورينيه جينو، والدكتور جرينيه، وجوته الألماني.

مستشرقون متعصبون

١- جولدتسيهر ١٨٥٠- ١٩٢٠م Goldizher .

ولد لأسرة يهودية، درس في بوادبست، ثم برلين، ثم انتقل إلى جامعة ليبسك، والتحق فيها بقسم الدراسات الشرقيَّة، ورحل إلى القاهرة وسوريا، وحضر بعض الدروس في الأزهر.

وعمل في جامعة بودابست في مجال الدراسات العربيَّة والإسلاميَّة.

وأصبح أستاذًا للغات السامية عام ١٨٩٤ .

وكتب كثيرًا حول الإسلام عقيدة وشريعة وتاريخًا، ومن كتبه تاريخ مذاهب التفسير الإسلامي، والعقيدة والشريعة، وكان له تأثير في الدراسات الاستشراقية حتى يومنا هذا حيث انتشرت كتبه في مختلف اللغات الأوربية، ولقد أصبح زعيم الإسلاميات في أوربا بلا منازع.

وما تزال جامعة برنستون -مثلًا- تقرر كتابه دراسات إسلامية في مناهج قسم دراسات الشرق الأدنى حيث قامت الجامعة بنشر ترجمة جديدة لهذا الكتاب مع تعليقات المستشرق برنارد لويس.

وقد رد عليه كثير من المسلمين، ومن أبرزهم الدكتور مصطفى السباعي في كتابه (السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي)، كما أعدت بعض البحوث حول الجوانب العقدية والتاريخية في كتاباته في قسم الاستشراق بكلية الدعوة بالمدينة المنورة.

٢- جون مايناردMaynard J .

أمريكي، متعصب، من محرري مجلة الدراسات الإسلاميَّة.

٣- ص م. زويمر ١٨٦٧- ١٩٥٢م M.S. Zweimer .

أمريكي مستشرق، رئيس المنصرين في المنطقة العربيَّة من الشرق، له جهود معروفة في التنصير، وله طريقته التي أملاها على من بعده من خلال المؤتمرات المتعددة التي أقامها وشارك فيها، وله آثار عدة في العلاقات بين النصرانيَّة والإسلام، امتازت بالتعصب والتضليل الشديدين، الأمر الذي أفقدها صدقها العلمي الرصين، منها: يسوع في إحياء الغزالي، وفرنسيس الأسيزي والإسلام، وتولى رئاسة تحرير مجلة العالم الإسلامي التنصيريَّة التي أنشأها مع دنكن بلاك ماكدونالد.

وله كتاب الإسلام تحدٍّ لعقيدة صدر ١٩٠٨م، وله كتاب الإسلام عبارة عن مجموعة مقالات قدمت للمؤتمر التبشيري الثاني سنة ١٩١١م في لكهنتو بالهند.

٤- غ. فون. غرونباوم ١٩٠٩- ١٩٧٢م Von Grunbaum .G.

ألماني، يهودي، ولد في فينا ودرس في جامعتها، وفي جامعة برلين، هاجر إلى الولايات المتَّحدة، والتحق بجامعة نيويورك عام ١٩٣٨، ثم جامعة شيكاغو، ودرَّس في جامعات أمريكا، ثم استقر به المقام في جامعة كاليفورنيا حيث أسهم في تأسيس مركز دراسات الشرق الأوسط الذي أطلق عليه اسمه فيما بعد.

ومن أهم كتبه الإسلام في العصر الوسيط، كما اهتم بدراسة الأدب العربي، وله إنتاج غزير في هذا المجال، منها كتاب الأعياد المحمدية ١٩٥١م، ودراسات في تاريخ الثقافة الإسلاميَّة ١٩٥٤م.

وقد امتلأت كتبه بالاعتداءات الصارخة علي الإسلام ومقدسات وقيم وتاريخ المسلمين.

٥- أ.ج. فينسينك Wensink .J.A.

عدو للإسلام، تتلمذ على يد المستشرق هوتسمان، ودي خويه، وسنوك هورخرونيه، وسخاو.

وحصل على الدكتوراه في بحثه: محمد واليهود في المدينة عام ١٩٠٨ .

وبدأ في عمل معجم مفهرس لألفاظ الحديث الشريف مستعينًا بعدد كبير من الباحثين وتمويل من أكاديمية العلوم في أمستردام ومؤسسات هولندية وأوربية أخرى.

وأصدر كتابًا في فهرسة الحديث ترجمه فؤاد عبد الباقي بعنوان (مفتاح كنوز السنة).

وأشرف على طباعة كتابات سنوك هورخرونيه في ستة مجلدات.

وله مؤلفات عديدة منها كتاب في العقيدة الإسلاميَّة نشأتها وتطورها التاريخي سنة ١٩٣٢م.

٦- كينيث كراج Gragg .K.

أمريكي معاصر، منصر صريح متعصب، خلف زويمر في نشاطه التنصيري، وهو أستاذ الدراسات الاستشراقية في أكثر من جامعة، ومنها الجامعة الأمريكيَّة ببيروت، ورأس تحرير مجلة العالم الإسلامي التنصيريَّة.

ومن أبرز آثاره: دعوة المئذنة ١٩٥٦م، وقراءات في القرآن.

٧- لوي ماسنيون ١٨٨٣- ١٩٦٢م Massingon .L.

ولد في باريس وحصل على دبلوم الدراسات العليا في بحث عن المغرب، كما حصل على دبلوم اللغة العربيَّة من مدرسة اللغات الشرقيَّة الحية (فصحى وعامية) زار كلًا من الجزائر والمغرب وفي الجزائر انعقدت الصلة بينه وبين بعض كبار المستشرقين مثل جولدتسيهر وآسين بلاثيوس وسنوك هورخرونيه ولي شاتيليه.

والتحق بالمعهد الفرنسي للآثار الشرقيَّة في القاهرة عدة أعوام (١٩٠٧-١٩٠٨)، وفي عام ١٩٠٩ عاد إلى مصر وهناك حضر بعض دروس الأزهر وكان مرتديًا الزِّيَّ الأزهري.

وزار العديد من البلاد الإسلاميَّة، منها الحجاز، والقاهرة، والقدس، ولبنان، وتركيا.

وعمل معيدًا في كرسي الاجتماع الإسلامي في معهد فرنسا (١٩١٩-١٩٢٤)، وأصبح أستاذ كرسي (١٩٢٦-١٩٥٤)، ومديرًا للدراسات في المدرسة العلميَّة العليا حتى تقاعده عام ١٩٥٤ .

ولقد اشتهر ماسنيون باهتمامه بالتصوف الإسلامي وبخاصة بالحلاج حيث حقَّق ديوان الحلاج (الطواسين) وكانت رسالته للدكتوراه بعنوان (آلام الحلاج شهيد التصوف) سنة ١٩٢٢م في جزأين وقد نشرت في كتاب تزيد صفحاته على ألف صفحة (ترجم الكتاب إلى اللغة الإنجليزية)، وله اهتمام بالشيعة والتشيع، وعرف عن لويس صلته بالحكومة الفرنسيَّة وتقديمه المشورة لها، حيث كان مستشارًا في وزارة المستعمرات الفرنسيَّة لشئون شمال أفريقيا، وكان يعمل في التبشير.

٨- د.ب. ماكدونالد ١٨٦٣- ١٩٤٣م D.B. Macdonald.

أصله إنجليزي، بدأ الدراسة في جلاسجو (اسكتلندا)، وانتقل إلى برلين للدراسة مع المستشرق زاخاو.

وانتقل إلى الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة عام ١٨٩٣م لتعليم اللغات الساميّة.

وأسس في الولايات المتَّحدة مدرسة كندي للبعثات عام ١٩١١م.

وشارك مع زويمر في السنة نفسها في تأسيس مجلة العالم الإسلامي.

وتنوع إنتاجه بين الدراسات الشرعية والدراسات اللغوية، وله كتاب تطور علم الكلام والفقه والنظرية الدستورية ١٩٣٠م، وله الموقف الديني والحياة في الإسلام ١٩٠٨م، وهو متعصب يعمل في التبشير.

٩- مايلز جرين .M. Green

سكرتير تحرير مجلة الشرق الأوسط.

١٠- د.س. مرجليوث ١٨٨٥- ١٩٤٠م D.S. Margoliouth .

إنجليزي، بدأ حياته العلميَّة بدراسة اليونانيَّة واللاتينيَّة، ثم اهتم بدراسة اللغات السامية؛ فتعلم العربيَّة، ومن أشهر مؤلفاته ما كتبه في السيرة النبوية، وكتابه عن الإسلام، وكتابه عن العلاقات بين العرب واليهود.

وله كتاب التطورات المبكرة في الإسلام صدر ١٩١٣م، وله محمد ومطلع الإسلام صدر ١٩٠٥م، وله الجامعة الإسلاميَّة صدر ١٩١٢م.

ولكن هذه الكتابات اتسمت بالتعصب والتحيز والبعد الشديد عن الموضوعية؛ كما وصفها عبد الرحمن بدوي، ومن مدرسته طه حسين وأحمد أمين.

ولكن يحسب له اهتمامه بالتراث العربي كنشره لكتاب معجم الأدباء لياقوت الحموي، ورسائل أبي العلاء المعري وغير ذلك من الأبحاث.

١١- بارون كرّادي فو ١٨٦٧- ١٩٥٣م Baron Carra de Voux.

فرنسي، متعصب، تعلم في مدرسة استانسلاس بباريس، ثم دخل كلية الهندسة سنة ١٨٨٦، وتفرغ للخدمات الاجتماعيَّة وللأشعار وللبحث التاريخي، ودرس اللغات الشرقيَّة وخصوصًا اللغة العربيَّة بالمعهد الكاثوليكي في باريس، وكان أحد مؤسسي مجلة الشرق المسيحي، وتولى تنظيم مؤتمرات علمية دولية للكاثوليك، ونشر دراسات في حوليات الفلسفة المسيحيَّة، والمجلة الآسيوية، ومجلة الكتاب المقدس.

ويعد من كبار محرري دائرة المعارف الإسلاميَّة.

وله من الكتب: عقيدة الإسلام ١٩٠٩، العبقرية السامية والعبقرية الآرية في الإسلام ١٨٩٧، ابن سينا ١٩٠٠، الغزالي ١٩٠٢ .

وله تحقيقات وترجمات إلى الفرنسيَّة منها: الحيل لأهرن السكندري، والآلات المائية لفيلون البيزنطي، والأكر السماوية للطوسي، التأليف الموسيقي لصفي الدين البغدادي، والقصيدة العينية في النفس لابن سينا، والتنبيه والإشراف للمسعودي، وعنى بدراسة الأجناس السامية في كتابه لوحة الأجناس السامية ١٩٤٤ .

١٢- هـ.أ.ر. جب ١٨٩٥- ١٩٦٥م H.A.r. Gibb .

إنجليزي، ولد في الإسكندرية وانتقل إلى اسكتلندا وهو في الخامسة من عمره للدراسة هناك، والتحق بجامعة أدنبرة لدارسة اللغات السامية.

وعمل محاضرًا في مدرسة الدراسات الشرقيَّة والأفريقية بجامعة لندن عام ١٩٢١، وتدرج في المناصب الأكاديمية حتى أصبح أستاذًا للغة العربيَّة عام ١٩٣٧، وانتخب لشغل منصب كرسي اللغة العربيَّة بجامعة أكسفورد.

انتقل إلى الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة ليعمل مديرًا لمركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة هارفارد بعد أن عمل أستاذًا للغة العربيَّة في الجامعة.

بالإضافة إلى اهتمامه اللغوي؛ فقد أضاف إلى ذلك الاهتمام بتاريخ الإسلام وانتشاره، وقد تأثر بمستشرقين كبار من أمثال تومارس آرنولد وغيره.

من أبرز إنتاجه: الفتوحات الإسلاميَّة في آسيا الوسطى ١٩٣٣، ودراسات في الأدب العربي المعاصر، وكتاب الاتجاهات الحديثة في الإسلام ١٩٤٧م، وشارك في تأليف إلى أين يتجه الإسلام.

وقد انتقل جيب من دراسة اللغة والآداب والتاريخ إلى دراسة العالم الإسلامي المعاصر، وهو ما التفت إليه الاستشراق الأمريكي حينما أنشأ الدراسات الإقليمية أو دراسات المناطق.

وله كتاب بعنوان المذهب المحمدية ١٩٤٧م، ثم أعاد نشره بعنوان الإسلام، وله كتاب عن

الرسول صلى الله عليه وسلم.

١٣- ر.أ. نيكولسون ١٨٦٨- ١٩٤٥م r.A. Nicholson .

إنجليزي، دخل جامعة أبردين، ثم كلية الثالوث في كمبريدج وصار زميلًا بها، وانتقل إلى كلية الجامعة في لندن أستاذًا للغة الفارسية، ومرة أخرى مدرسًا للفارسية في كمبريدج، ثم كرسي اللغة العربيَّة، وتقاعد في ١٩٣٣ .

وهو ينكر أن يكون الإسلام دينًا روحيًا، وينعته بالمادِّيَّة وعدم السمو الإنساني.

وإنتاجه العلمي يدور حول التصوف الإسلامي خصوصًا، وله مقالات عديدة فيه نشرها في دائرة معارف الدين والأخلاق، ودائرة معارف الأخلاق، كتاب «متصوفو الإسلام» ١٩١٠، وتحقيق ونشر تذكرة الأولياء للعطار، واللمع لأبي نصر السراج، وترجمان الأشواق لابن عربي.

وله اهتمام أيضًا بالأدب العربي والشعر الفارسي، ومن أعظم أعماله فيه نشره لديوان مثنوي معنوي للرومي مع ترجمة وشرح ١٩٢٥- ١٩٤٠، وتاريخ الأدب العربي ١٩٠٧ .

١٤- هنري لامنس ١٨٧٢- ١٩٣٧م H.Lammans.

ولد في مدينة خنت في بلجيكا، تعلم في الكلية اليسوعيَّة في بيروت، وبدأ حياة الرهبنة فيها.

يقول عنه عبد الرحمن بدوي: «بلجيكي، وراهب يسوعي، شديد التعصب ضد الإسلام، يفتقر افتقارًا تامًّا إلى النزاهة في البحث والأمانة في نقل النصوص وفهمها، ويعد نموذجًا سيئًا للباحثين في الإسلام من بين المستشرقين».

عمل معلمًا في الكلية اليسوعيَّة في بيروت حيث درّس التاريخ والجغرافيا، ثم أصبح أستاذًا للتاريخ الإسلامي في معهد الدروس الشرقيَّة في الكلية نفسها.

وتولى رئاسة تحرير مجلة الشرق، وتولى كذلك إدارة مجلة تنصيريَّة أخرى هي البشير.

له كتابات حول السيرة النبوية وحول الخلفاء الراشدين والدولة الأموية، منها كتاب الإسلام، وكتاب الطائف، وهو من محرري دائرة المعارف الإسلاميَّة.

١٥- جوزيف شاخت ١٩٠٢- ١٩٦٩م J. Schacht.

ألماني يهودي، متعصب ضد الإسلام، درس اللغات الشرقيَّة في جامعة برسلاو وليبتسك، انتدب للعمل في الجامعة المصريَّة عام ١٩٣٤ لتدريس مادة فقه اللغة العربيَّة واللغة السريانيَّة، وشارك في هيئة تحرير دائرة المعارف الإسلاميَّة في طبعتها الثانية.

عرف شاخت باهتمامه بالفقه الإسلامي ولكنه صاحب إنتاج في مجال المخطوطات، وفي علم الكلام، وفي تاريخ العلوم والفلسفة، وله كتاب أصول الفقه الإسلامي.

وقد سار على نهج أسلافه -وبخاصة أستاذه جولدتسيهر- في الحط من الشريعة الإسلاميَّة، وادعى بأن الشريعة الإسلاميَّة لا تختلف عن أعراض الجاهلية، وغير ذلك من الإدعاءات.

١٦- ريجيس بلاشير ١٩٠٠- ١٩٧٣م R.L. Blacher.

ولد في باريس وتلقى التعليم الثانوي في الدار البيضاء وتخرج باللغة العربيَّة من كلية الآداب بالجزائر، وتولى العديد من المناصب العلميَّة منها أستاذ اللغة العربيَّة في معهد مولاي يوسف بالرباط، ومدير معهد الدراسات المغربية العليا (١٩٢٤-١٩٣٥)، وأستاذ كرسي الأدب العربي في مدرسة اللغات الشرقيَّة الحية بباريس وأستاذًا محاضرًا في السوربون ثم مدير مدرسة الدراسات العليا والعلميَّة، ثم أستاذ اللغة العربيَّة وحضارتها في باريس.

من أبرز إنتاجه: ترجمته لمعاني القرآن الكريم، وكذلك كتابه تاريخ الأدب العربي في جزأين، وكتاب «أبو الطيب المتنبي: دراسة في التاريخ الأدبي»، وترجمهما إلى العربيَّة إبراهيم الكيلاني.

وكان يعمل في وزارة الخارجية الفرنسيَّة كخبير في شئون العرب والمسلمين.

١٧- ألفرد جيوم ١٨٨٨ - ١٩٦٢م A. Geom.

إنجليزي، متعصب ضد الإسلام.

له من الآثار: اليهوديَّة في الإسلام، وتعليق جديد على الطبعة المقدَّسة، وجدل بين فقهاء النصرانيَّة والإسلام، وعلم الكلام المسيحي والإسلامي بين الشهرستاني وتوما الإكويني، وفقرات من الإنجيل استعملت في المدينة سنة ٧٠٠ م، وأين كان المسجد الأقصى.

١٨- برنارد لويس.

ولد برنارد لويس سنة ١٩١٦ في لندن لأسرة يهودية، تخصص منذ التحاقه بالدراسات العليا في دراسة الشرق والإسلام بالتحديد وتاريخ الإسلام والمسلمين، وحصل على درجة البكالوريوس في التاريخ من مدرسة الدراسات الشرقيَّة والأفريقية بجامعة لندن عام ١٩٣٦، كما حصل على درجة الدكتوراه في تاريخ الإسلام من المدرسة نفسها عام ١٩٣٩، وكان موضوع رسالته عن الطائفة الإسماعيلية وجماعة الحشاشين.

وأثناء دراسته الجامعية عين مدرسًا مساعدًا بمدرسة الدراسات الشرقيَّة والأفريقية، غير أنه ترك العمل بالجامعة خلال سنوات الحرب (١٩٤٠ - ١٩٤٥) ليلتحق بخدمة المخابرات البريطانية وبعد الحرب، عاد للعمل بالجامعة حتى عام ١٩٧٤ . واستمرت صلته بالمخابرات البريطانية بعد ذلك، وظل مرجعًا مهمًّا ومستشارًا يُرجع إليه في شئون الشرق الأوسط، وبمجرد انتهاء الحرب العالمية الثانية غيّر اهتمامه من دراسة تاريخ الإسلام في العصور الماضية، إلى دراسة تاريخ الشرق الأوسط والعالم العربي خاصة في العصر الحديث.

والتحق بأمريكا سنة ١٩٧٤ ليعمل في جامعة برنستون، وظل أستاذًا للدراسات الشرقيَّة بها حتى تقاعده من العمل الأكاديمي في ١٩٨٦؛ إذ أصبح أستاذًا فخريًا، وهو مركز جعله يبقى مرجعًا فيما يتعلق بالإسلام والعرب والشرق الأوسط ليس للأكاديميين الغربيين فحسب، بل لدوائر صنع القرار الأمريكي خاصة.

ويركز برنارد لويس في كتاباته عن الإسلام والمسلمين والعرب والعالم العربي على مجموعة من الآليات الخطيرة، مثل آليات (ميكانزمات) التهويل، والبتر والتقطيع لكثير من الحقائق، وآلية التهوين (الإهمال)، فهو يهوّل ما كان هامشيًا أو عفويًا أو قليل الحضور في التاريخ الإسلامي والثقافة والحضارة الإسلاميَّة، ويهوّن (يهمل) ما كان غالبًا مهيمنًا في الحضارة والفكر الإسلامي وفي الثقافة الإسلاميَّة[(١)].

ونلاحظ من هذه الأسماء وغيرها أن اليهود لم يريدوا أن يعملوا داخل الحركة الاستشراقية بوصفهم مستشرقين يهود حتى لا يعزلوا أنفسهم. وبالتالي يقل أثرهم. ولهذا عملوا بوصفهم مستشرقين أوربيين، وبذلك كسبوا مرتين: كسبوا أولًا فرض أنفسهم على الحركة الاستشراقية كلها، وكسبوا ثانية تحقيق أهدافهم من النيل من الإسلام وهي أهداف تلتقي مع أهداف غالبية النصارى.

المستشرقون والقرآن

منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل النقاد من الكفار وغير المسلمين يكررون آراء مشركي مكة حيال القرآن، ومنذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي على الأخص، أخذ بعض علماء الغرب من المستشرقين يعيدون اعتراضات وافتراضات مماثلة حول القرآن، وذلك بحجج وادعاءات متنوعة، ورواد هؤلاء المستشرقين ألوي سبرنجر، ووليم ميوير، وثيودور نولدكة، واجناز جولدتسيهر، ودبليو فلهاوسن، وليون كايتاني، ودافيد سامويل مرجليوث.

وقد قام بتطوير آرائهم وتضخيم استنتاجاتهم آخرون تبعوهم في القرن العشرين الميلادي، وفي مقدمتهم ريتشارد بيل، وتلميذه وليم مونتغمري وات.

وجميع هؤلاء المستشرقين يسعون بشتى الأساليب إلى الاستنتاج أن القرآن الكريم من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم.

فمثلًا يقول جورج سيل في مقدمة ترجمته لمعاني القرآن ١٧٣٦م: أما إن محمدًا كان في الحقيقة مؤلف القرآن والمخترع الرئيسي له فأمر لا يقبل الجدل، وإن كان من المرجح مع ذلك أن المعاونة التي حصل عليها من غيره في خطته هذه لم تكن معاونة يسيرة، وهذا واضح في أن مواطنيه لم يتركوا الاعتراض عليه بذلك.

وفي الربع الأخير من القرن العشرين الميلادي بدأ اتجاه جديد بين الجيل الجديد من المستشرقين الذين يقترحون أن القرآن ليس بتأليف محمد صلى الله عليه وسلم فحسب، بل إنه اتخذ شكله الحالي تدريجيًا عبر تطورات وتعديلات تمت في القرنين الأول والثاني من الهجرة. والجديرون بالذكر من

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٨٨- ٦٩١)، الاستشراق للمطبقاني، المستشرقون والتنصير، علي بن إبراهيم الحمد النملة، موسوعة الاستشراق، د. عبد الرحمن بدوي، موقف الاستشراق من السنة والسيرة النبوية، للعمري.

بين هؤلاء المحدثين ج. وانسبرة، وج.أ. بيلامي، وأندرو ريبين.

وقد قام ببسط ادعاءاتهم وترويجها آخرون أمثال باتريشيا كرون، ومايكل كوك، وكينيث كراج، وتوبي ليستر.

إن الذين يذهبون إلى أن القرآن الكريم من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم يركزون على الادعاءات التالية:

إن محمدًا صلى الله عليه وسلم كان رجلًا طموحًا واتخذ خطوات مدروسة للدور الذي قام به فيما بعد.

وهو بالأخص كرس نفسه لفن الشعر ليستطيع نظم القرآن.

وإنه لم يكن رجلًا دون معرفة بالكتابة والقراءة كما يزعم المسلمون، وإن لفظ «الأمي» المنسوب إليه يعني شيئا آخر.

وإنه اقتبس الأفكار والقصص من اليهوديَّة والنصرانيَّة ثم ضمَّنها القرآن.

وإن كثيرًا من الأخطاء العلميَّة المعاصرة، خصوصًا تلك التي تتصل بالعالم والكون، معكوسة في القرآن، كما يوجد فيه العديد من العبارات والمصطلحات الجارية والمفردات الأجنبية، وكل هذه تدل على أنه من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم.

وإن كلمة «الوحي» لا تعني إلقاء النص من الله بل تعني اقتراحًا أو إشارة (suggestion) أو «التكلم الذهني» «Intellectual Locution»

وأما الذين يدعون أن القرآن قد تطور عبر القرنين الأول والثاني من الهجرة فكلامهم يدور حول المزاعم التالية:

إن المصادر التاريخية الإسلاميَّة ليست معاصرة ولا يمكن تصديقها.

إن الحفريات الأثرية في جزيرة العرب؛ خصوصًا تلك التي جرت في منطقة نجف كشفت العديد من النقوش القديمة تدل على عدم وجود القرآن في القرن الأول الهجري.

إن المخطوطات القرآنية القديمة التي عثر عليها مؤخرًا في صنعاء تشير إلى تطور القرآن خلال فترة طويلة.

وإن نقد النص القرآني يشير إلى أخطاء في نسخ القرآن.

ويتضح مما سبق أن مزاعم المستشرقين لها جوانب متنوعة وأبعاد خطيرة، وأنهم لا يكفون عن محاولات النيل من القرآن[1].

---

(١) انظر: مناقشة هذه الآراء ونقدها في كتاب مزاعم المستشرقين حول القرآن الكريم، د. محمد مهر علي، الاستشراق والإعجاز العلمي في القرآن الكريم، د. علي بن إبراهيم النملة.

- فمثلًا ريتشارد بل يزعم بأن النبي محمد صلى الله عليه وسلم قد استمد القرآن من مصادر يهودية ومن العهد القديم بشكل خاص، وكذلك من مصادر نصرانية.

- ودوزي يزعم أن القرآن الكريم ذو ذوق رديء للغاية ولا جديد فيه إلا القليل، كما يزعم أن فيه إطنابًا بالغًا ومملًا إلى حد بعيد.

- ويقول جوستاف لوبون عن القرآن: ليس في عامية القرآن ولا صوتيته أو هويته الصبيانية التي هي من صفات الأديان السماوية ما يقاس بنظريات الهندوس.

يعني لوبون يرى أن القرآن الكريم في لغته، وفي أفكاره؛ لا يرقي إلى الهندوسية، ثم ينكر شمولية القرآن، ويرى أنه مؤقت لعصره، وأنه لا يحقق حاجات الفرد في عصور لاحقة بل يجعله سبب تخلف المسلمين.

- ويقول شيلدون آموس: «إن الشرع المحمدي ليس إلا القانون الروماني للإمبراطورية الشرقيَّة معدلًا وفق الأحوال السياسية في الممتلكات العربيَّة»، ويقول كذلك: «إن القانون المحمدي ليس سوى قانون جستنيان في لباس عربي».

- وقال رينان الفرنسي: «إن الفلسفة العربيَّة هي الفلسفة اليونانيَّة مكتوبة بأحرف عربية».

- أما لويس ماسينيون فقد كان زعيم الحركة الرامية إلى الكتابة في العامية وبالحرف اللاتيني[1].

المستشرقون والسنة

لم يفرد المستشرقون القدامى السنة بدراسات مستقلة، بل ركزوا على العقيدة والقرآن والسيرة والتاريخ.

في نهاية القرن السابع عشر كتب هربلو وهو فرنسي (١٦٣٥ - ١٦٩٥ م) صاحب المكتبة الشرقيَّة، وهي دائرة معارف عن الشرق نُشرت ١٧٣٨ م - بحثًا في (حديث، قصة، خبر مسموع مقول، أحاديث الرسول، حديث عن أشياء قالها الرسول الزائف، وقد نقل من فم إلى فم، ومن شخص إلى آخر)، وخلاصة رأيه أن جملة الأحاديث التي في الكتب الستة والموطأ والدارمي والدارقطني والبيهقي والسيوطي مأخوذة إلى حد كبير من التلمود، ويلاحظ أنه يفرق بين السنة التي التزم المسلمون بتطبيق أحكامها وبين الحديث الذي هو مجرد خبر تاريخي غير موثوق!!

كذلك يلاحظ في دراسة هربلو التكذيب للرسول صلى الله عليه وسلم، واتهامه بالزيف والألقاب الأخرى الشائنة، والزعم بأن المحمدية مستقاة من التلمود، واليهود الذين دخلوا في الإسلام، مما سيتطور فيما بعد إلى الاستقاء من عدة ديانات وحضارات كانت على صلة بجزيرة العرب، وكذلك اتهام المسلمين بعدم التميز في دراسة أصول شريعتهم، مما تبناه «جولد تسيهر» و«شاخت» وهما أبرز من تناول موضوع السنة من المستشرقين، وقد جعل الزهري أول من جمع الحديث، مما يولد فجوة

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٩٤، ٦٩٥).

تاريخية بين مرحلة النطق بالأحاديث وتدوينها مما يشكك في إمكانية الثقة بها.

وفي القرن الثامن عشر قسم المستشرقون حقول الدراسات الشرقيَّة بصورة موضوعية، وفي نهاية القرن برز الأمير كايتاني (١٨٦٩ - ١٩٢٦ م)، وميور (ت ١٩٠٥ م)، وشبرنجر (ت ١٨٩٣ م) وكانوا مهتمين بتاريخ السنة، واعتقدوا الشك في صحة الأحاديث، وسعوا للكشف عما أسموه «المادة الأصليَّة للحديث»، أفاد من الثلاثة أحد المتضلعين بأصول اللغات السامية والتاريخ الإسلامي هو إجناس جولد تسيهر (١٨٥٠ - ١٩٢١ م) الذي درس بالأزهر، وهو مجري الجنسية، يهودي الديانة، وقد اعتبره المستشرقون -ومن تأثر بهم- الرائد الأول في دراسة الحديث ونقده بالاستعانة بمنهج النقد التاريخي، حيث توصل إلى فكرة تطور الأسانيد والمتون في الفكر الإسلامي، ولا شك في أهمية تأثيره على سير الدراسات الاستشراقية في حقل السنة، ويرى أن وضع الحديث بدأ في جيل الصحابة المبكر، وإن كان يثبت وجود مادة أصلية، فهو يعترف بوجود أحاديث مكتوبة في الصحف في أيدي الصحابة، لكنه رغم ذلك يرى أن التدوين للسنة لم يبدأ إلا في القرن الثاني، وأن معظم الأحاديث -في رأي جولد تسيهر- وضعتها الفرق السياسية الكلامية والمذهبية في القرنين الثاني والثالث؛ لذلك هي تعكس تطور المسلمين السياسي والفكري خلال القرنين ولا تمت غالبًا إلى القرن الأول بصلة، ويركز على الصراع بين الأمويين الذين يصورهم بصورة الطغاة الجهلة وبين العلماء الأتقياء وأنصار أهل البيت، ويتهم الزهري بوضع حديث «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد»، وقد عزا جولد تسيهر أصول الإسلام إلى اليهوديَّة والمسيحيَّة، وأكد على تأثير الهلينية في تطور الإسلام، وتأثير القانون الروماني في نمو التشريع الإسلامي.

لقد صارت دراساته دستورًا للمستشرقين من بعده، وقليل منهم انتقد بعض آرائه أو عدَّل فيها مثل فيوك (ت ١٩٣٩ م)، وهوروفتس (ت ١٩٣١ م)، أما الأكثرية الساحقة فاكتفوا بتعميق آرائه بإضافة براهين جديدة أو تعميمها على حقول جديدة مثل كيوم، ونيكلسون، وهاملتون كب، وواط، وفنسنك (ت ١٩٣٩ م).

وقد ركز فنسنك على أحاديث العقيدة في كتابه العقيدة الإسلاميَّة، في حين ركز جوزيف شاخت (ولد ١٩٠٢ م) على أحاديث الأحكام في كتابه أصول الشريعة المحمدية وكتابه الآخر مقدمة في الفقه الإسلامي -وهو يهودي الديانة بريطاني الجنسية- وقد أكد شاخت على اختلاق الأحاديث، وأثنى كيب وسافوري على كتابه، واعتبره كيب أساسًا لكافة الدراسات في الحضارة الإسلاميَّة والتشريع الإسلامي في الغرب -على الأقل- في حين عده سافوري من أكبر علماء الشريعة الإسلاميَّة في العالم.

وقد درس شاخت في مؤلفه (أصول الشريعة المحمدية) كتابي «الموطأ» لمالك، و«الأم» للشافعي، ثم عمم نتائج دراسته على كتب الحديث والفقه الأخرى، فقال بنظرية «القذف الخلفي» لتفسير تطور الأسانيد، وتتلخص آراؤه في زعمه اختلاق الجزء الأكبر من الأسانيد، واعتقاده أن أقدم الأحاديث لا يرقى إلي ما قبل سنة ١٥٠هـ، وأن الأحاديث اختلقها الفقهاء وأصحاب الفرق، وأن

الشافعي هو الذي استحدث مبدأ حجية السنة، وكان العمل قبله على السنة المذهبية، وقد كان أثره كبيرًا على جيله من المستشرقين.

لقد طعن شاخت في سند مالك عن نافع عن ابن عمر بأن نافعًا مات ومالك صغير وهذا خطأ؛ فمالك كان صاحب حلقة في مسجد المدينة في حياة نافع، وقد ردَّ رويسون على شاخت في هذا السند في مقاله «الإسناد في الحديث النبوي»، وفي هذه المقالة عدل عن آرائه التي تابع فيها شاخت عندما نشر بحثه، حيث كان يشك في جملة الأحاديث، ويرى أن ما يمكن عزوه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم هو القرآن وحده، والملاحظ أن كيوم وواط وروبسون كلهم من رجال الكنيسة.

وقد ظهر توجه نحو دراسة موارد الحديث، ونقد بعض وثائقه عند رويسون (ولد ١٨٩٠ م) الأستاذ في مانشستر منذ سنة ١٩٤٩ م، وقد أثبت أن ثمة مادة أصلية من الأحاديث خلافًا لما ذهب إليه شاخت ومن قبله جولد تسيهر، كما أنه لم يوافق كايتاني وشبرنجر (١٨١٣ - ١٨٩٣ م) في القول بأن أسانيد عروة بن الزبير (ت ٩٣ هـ) مختلقة ألصقها به المصنفون المتأخرون.

لقد أشار شبرنجر (ت ١٨٩٣ م) إلى تعاسة نظام الإسناد، وأن اعتبار الحديث شيئًا كاملًا سندًا ومتنًا قد سبَّب ضررًا كثيرًا وفوضى عظيمة، وأن أسانيد عروة مختلقة ألصقها به المصنفون المتأخرون، وكذلك مقاله «أصول تدوين الوثائق عند المسلمين»، ولكنه أثبت تدوين الحديث في عهد النبي صلى الله عليه وسلم بالاعتماد على كتاب «تقييد العلم» للخطيب، وهذا ما خالفه فيه جولد تسيهر فيما بعد.

أما ميور معاصر شبرنجر فينتقد طريقة اعتماد الأسانيد في تصحيح الحديث لاحتمال الدس في سلسلة الرواة، ورغم أنه مثل شبرنجر أقر بأن ثمة مادة أصلية في الحديث لكنه اعتبر نصف أحاديث صحيح البخاري ليست أصلية، ولا يوثق بها.

وأما كايتاني (ت ١٩٢٦ م) فقد ذكر في حولياته أن الأسانيد أضيفت إلى المتون فيما بعد بتأثير خارجي؛ لأن العرب لا يعرفون الإسناد، وأنها استعملت ما بين عروة وابن إسحاق، وأن عروة لم يستعمل الإسناد مطلقًا، وابن إسحاق استعملها بصورة ليست كاملة.

وقد أثبت هوروفتس (١٨٧٤ - ١٩٣١ م) معرفة عروة للإسناد، وأن الإسناد دخل في الحديث منذ الثلث الأخير من القرن الأول، وألمح إلى الإسناد الجمعي عند الزهري حيث يفيد وقوفه على عدة أسانيد للمتن الواحد.

ولكن هوروفتس يرى أن العرب أخذوا فكرة الإسناد عن المدارس التلمودية عند اليهود، ويرى -ويوافقه كيوم- تشابه المسلمين واليهود في نسبة شرائعهما إلى نبييهما.

ورد فيوك (ت ١٩٣٩ م) على جولد تسيهر فبرأ المحدثين والفقهاء من تهمة وضع الأحاديث، وكشف عن منهج جولد تسيهر في التعامل مع الإسلام، وأنه يستخدم المذهب المادي لنقد التاريخ، ومنهج الشك، فانتهى إلى أن كل أحاديث الأحكام تعتبر زائفة، حتى يثبت العكس.

أما مرجليوث المعاصر لجولد تسيهر (١٨٥٨ - ١٩٤٠ م) فقد تابع جولد تسيهر، بل ذهب إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يترك أوامر ولا أحكامًا سوى القرآن!!

ويرى كيوم أنه لا يمكن إثبات صحة نسبة الأحاديث في الكتب الستة إلى الصحابة، ولكن لعل بعضها تسلم نسبته، ويفسر كيوم قول الزهري: «إن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة الأحاديث» تفسيرًا خاطئًا ليدلل على وضعه للأحاديث، وهو فهم جولد تسيهر من قبله.

ويتشبث نيكلسون بقول أبي عاصم النبيل: «ما رأيت الصالح يكذب في شيء أكثر من الحديث»، فذهب إلى أن شواهده في «دراسات محمدية» لجولد تسيهر، وأن أتقى العلماء كان يستعمل الغش في الحديث لتأييد أغراض سياسية ومذهبية، وقد بين الإمام مسلم أن الكذب يجري على لسانهم ولا يتعمدونه، وقال يحيى بن سعيد القطان: «ما رأيت الكذب في أحد أكثر منه فيمن ينسب إلى الخير والزهد»، والكذب هنا على لغة أهل الحجاز وهو مطلق الخطأ.

ويرى كولسون وكيوم أن المحدثين يبحثون في الأسانيد شكليًا بدون الاهتمام بنقد المتون.

يقول كولسون: «إذا كانت سلسلة الإسناد متصلة، وكان كل فرد من أفراده عدلًا -من وجهة نظرهم- فحينئذ قبلوا الحديث، وصار شرعًا واجبًا، ولا يمكن بسبب الإيمان السؤال عن متن الحديث؛ لأنه وحي إلهي فلا يقبل أي نقد تاريخي».

ويقول كيوم: «متى اقتنع البخاري بتحديد بحثه في سلسلة الرواة في السند مفضلًا ذلك على نقد المتن، صار كل حديث مقبول الشكل حتميًا بحكم الطبع»[1].

(١) انظر: موقف الاستشراق من السنة والسيرة النبوية، للعمري.

الفصل الخامس

المستشرقون والتنصير والاستعمار

لقد كان الاستشراق وليد الاحتكاك بين الشرق الإسلامي والغرب النصراني أيام الصليبيين، وعن طريق السفارات والرحلات من عهد دولة الأندلس وفيما بعد ذلك.

ويلاحظ دائمًا أن هناك تقاربًا وتعاونًا بين الثالوث المدمر: التنصير والاستشراق والاستعمار، والمستعمرون يساندون المستشرقين والمنصرين؛ لأنهم يستفيدون منهم كثيرًا في خططهم الاستعمارية.

ويشكل الاستشراق الجذور الحقيقية التي كانت ولا تزال تقدم المدد للتنصير والاستعمار، وتغذي عملية الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، وتشكل المناخ الملائم من أجل فرض السيطرة الاستعمارية على الشرق الإسلامي وإخضاع شعوبه، فالاستشراق هو المنجم والمصنع الفكري الذي يمد المنصِّرين والمستعمرين بالمواد يسوِّقونها في العالم الإسلامي لتحطيم عقيدته، وهدم عالم أفكاره، وقد جاء هذا الغزو الثقافي ثمرة لإخفاق الغزو العسكري وسقوطه، ولتربية جيل ما بعد الاستعمار.

وقد انطلق المستشرقون في دراستهم للإسلام من منطلقين كان لهما أبلغ الأثر في توجيه الدراسات الاستشراقية:

المنطلق الأول: النزعة الصليبية التنصيريَّة التي خيمت على أذهان المستشرقين، وغطت على أفكارهم، فجاءت دراساتهم في ثوب تنصيري، فقد ارتبط الاستشراق في جميع مراحله ارتباطًا وثيقًا بالمؤسسات الكنسية التنصيريَّة.

المنطلق الثاني: النزعة الاستعمارية السياسية الماديَّة التي تهدف إلى بث النفوذ الغربي على البلدان الإسلاميَّة، ونهب خيراتها وثرواتها.

المستشرقون والتنصير

من الأهداف الدينيَّة للاستشراق الهدف التنصيري، إذ وجد جمع من المستشرقين هدفوا من دراستهم للشرق إلى تعميق فكرة التنصير في هذا المجتمع، وحاولوا بطريقتهم العلميَّة تحقيق مفهوم التنصير، مع ما تعرض له هذا المفهوم من تحوير، لا سيما عندما يكون موجهًا لمجتمع متدين كالمجتمع المسلم، وبما يحمله المفهوم من حماية النصارى من الإسلام، والحد من انتشاره بين النصارى وفي مواطنهم، ومن ثم الحد من انتشاره بين غير النصارى في مواطنهم أيضًا.

والذي يؤيد وجود هذا الهدف عدة عوامل مهمة، ومن أبرزها:

١- إن أساس العلاقة بين الشرق والغرب قد قامت على العداء الديني، ورفض الإسلام بديلًا

للنصرانية في الشرق وغيره، بما في ذلك حماية النصارى الشرقيين من الإسلام، والتأثير على الأرثوذوكس في الشرق واستقطابهم للكنيسة الكاثوليكيَّة في الغرب.

٢- وأن هذا الشعور قد ولَّد شعورًا بالاستعلاء والفوقية الغربية على بقية أمم الأرض، بما فيها المسلمون، وأن هذا الشعور بالفوقية قد انطلق من الكنيسة الغربية باحتقار كل ما هو غير بابوي النحلة والهوى. فاستمر شعورهم العميق بتفوق ما لديهم، إن حقًّا وإن باطلًا، في الوقت الذي رأوا فيه بطلان ما لدى غيرهم لعدم اتفاقه مع ما لديهم من دين وثقافة وفكر.

٣- إن طلائع المستشرقين من النصارى كانوا ذوي مناصب دينية، وأنهم قد انطلقوا من الكنائس والأديرة، ويعود هذا إلى النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، القرن العاشر الميلادي، مع أن التبادل الثقافي والعلمي بين المسلمين ونصارى أوربا قد بدأ قبل ذلك بكثير، لا سيما في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد (ت ١٨٢ هـ)، والمأمون: (ت ٢٣٠ هـ).

٤- وأن كثيرًا من المستشرقين قد بدءوا حياتهم العلميَّة بدراسة اللاهوت قبل التفرغ لميدان الدراسات الاستشراقية، وكان همهم إرساء نهضة الكنيسة وتعاليمها، لا سيما في العصور الوسطى، أي أن هدفهم كان تنصيريًّا واضحًا، فكأن الاستشراق إنما قام ليغذي التنصير بالمعلومة المنقولة بلغة المنصر، رغم محاولات تعميم اللاتينيَّة لغة للتنصير.

٥- وأن أوائل المطبوعات الغربية باللغة العربيَّة قد ركزت على الكتب الدينيَّة النصرانيَّة، وأن أول ما طبعته ليدن من الكتب كان الإنجيل (١٥٦٩ - ١٥٧٣ م) ويذكر «العقيقي» أن أول كتاب عربي طبع في هولندا كان الحروف الأبجدية والمرموز الخمسين تجربة لها (١٥٩٥ م)

٦- وأن التنصير قد اتكأ كثيرًا على الاستشراق في الحصول على المعلومات عن المجتمعات المستهدفة، لا سيما الإسلاميَّة في موضوعنا هذا، وخاصة عندما اكتسب مفهوم التنصير معنى أوسع من مجرد الإدخال في النصرانيَّة إلى تشويه الإسلام والتشكيك في الكتاب والسنة والسيرة وغيرها، فكان فرسان في هذا التطور في المفهوم هم المستشرقين.

٧- وأن من مقاصد الاستشراق الرئيسة، التي انطلق منها، التعرف على مصادر النصرانيَّة من اللغة العبريَّة، وقد ساقتهم دراسة اللغة العبريَّة إلى تعلم اللغة العربيَّة، وتعلم اللغة العربيَّة قاد إلى الاستشراق، فاللغة العربيَّة هي لغة دين وثقافة وفكر جاء ليحل محل الدين النصراني والثقافة والفكر المنبثقين عن الدين النصراني، فأوجد هذا نزعة التعصب التي قادت إلى استخدام اللغة العربيَّة والعبريَّة في هذا المنحى الاستشراقي الذي اتجه إلى الإسلام والعربيَّة، وقد قيل: إنك لا تكاد تجد مستشرقًا إلا أجاد اللغة العبريَّة والعربيَّة معا.

٨- وأن البداية الرسمية للاستشراق قد انطلقت من مجمع فينا الكنسي سنة ٧١٢ هـ ١٣١٢ م، الذي نعرف الآن أنه قد أوصى بإنشاء عدة كراسي للغات، ومنها اللغة العربيَّة، ولا سيما التشريع الحادي عشر الذي قضى فيه البابا «إكليمنس الخامس» بتأسيس كراسي لتدريس العبريَّة واليونانيَّة

والعربيَّة والكلدانية (السريانيَّة، الآراميَّة) في الجامعات الرئيسية، وكانت هذه التوصية قائمة على دعوة «ريموند لل» لإنشاء كراسي للغة العربيَّة في أماكن مختلفة.

٩- وأن الاستشراق قد استشرى ونال رعاية الكنيسة ومباركتها عندما ثبت فشل الحروب العسكرية من خلال انحسار المد الغربي الصليبي بعد جهود قرنين من الزمان، فاتجهت الكنيسة الغربية إلى التنصير من خلال الفكر والثقافة والعلم، فكان التوجه إلى ما نسميه اليوم بالغزو الفكري في تحقيق ما فشل فيه سلاح الغزو الحربي. هذا الغزو الذي اتخذ من الاستشراق منطلقًا له، سعي من خلاله إلى تشويه الإسلام بطرق شتى، لا تتعدى كونها جملة من الإسقاطات التي نالت حظًا طيبًا من النقاش والرد، في زمان إطلاقها وبعده، من كثير من المسلمين.

وكان الهدف من هذه الدعوة هو أن تؤتي محاولات التنصير ثمارها بنجاح من خلال تعلم لغات المسلمين، وقد عبر عن هذه الثمار في دعوة «لول» بارتداد العرب إلى النصرانيَّة من الإسلام، كما كان «غريغوري العاشر» يأمل في ارتداد المغول إلى النصرانيَّة، وقبله كان «الإخوة الفرنسيسكان» قد توغلوا في أعماق آسيا يدفعهم حماسهم التنصيري، ومع أن آمالهم لم تتحقق في وقتها إلا أن الروح التنصيريَّة قد تنامت منذئذ.

وهذا يعني بتعبير أوضح «إقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام، واجتذابهم إلى الدين النصراني»، وهذا مما أدى إلى الاستنتاج أن التنصير هو الأصل الحقيقي للاستشراق، كما يذهب إليه بعض الباحثين، والعكس يذهب إليه أغلب الباحثين.

وقد انتظم الاستشراق في الفاتيكان وانتشر واستمر على أيدي البابوات والأساقفة والرهبان، فكان رجال الدين النصراني -ويجمعهم الفاتيكان يومئذ- يؤلفون الطبقة المتعلمة في أوربا، ولا سبيل إلى إرساء نهضتها إلا على أساس من التراث الإنساني الذي تمثله الثقافة العربيَّة، فتعلموا العربيَّة، ثم اليونانيَّة، ثم اللغات الشرقيَّة للنفوذ منها إليه. . .، وكذلك لمقارعة فقهاء المسلمين واليهود والرد عليهم، وتدريب أدلاء يتخاطبون بالعربيَّة للقيام على خدمة مرتادي بيت المقدس من النصارى، ويطلق عليهم «الحجاج»، فأسس البابا جمعيَّة الجوالين سنة ٦٤٨ هـ - ١٢٥٠ م، وطبعت بعد ذلك أدلة الحج، وفيها الأبجدية العربيَّة وطريقة النطق بها، وخريطة لمدينة القدس، ورسوم للزِّيِّ العربي، لا سيما اللبناني، يقول نجيب العقيقي في هذا : «فكان أول ما عرفت أوربا من الطباعة العربيَّة».

وقد أضحى هذا المنحى في الرؤية إلى نشأة الاستشراق مما يتفق عليه معظم الباحثين المسلمين في ظاهرة الاستشراق، لا سيما أولئك الذين لا يسعون إلى الاعتذار للمستشرقين بخاصة، وللغرب بعامة، وقد عد الاستشراق أقرب الطرق وأسهلها للتنصير.

وفي الحقيقة عدد كبير نسبيًا من علماء الاستشراق كانوا مبشرين نصارى، ومن الأمثلة البارزة على ذلك وليم ميور الذي كان مبشرًا نشطًا، ومؤلفًا لعدة كتب عن الإسلام، وكانت كتبه متحيزة

جدًّا، ودراساته ضيقة الأفق إلا إنهم جعلوها إلى يومنا هذا مراجع للذين يريدون مهاجمة الإسلام، وينبغي ألّا نتفاجأ إذا هؤلاء النصارى كانوا مصدرًا لبعض الأكاذيب والتحريفات الأسوأ عن الإسلام، وقد كانت تحريفات النصارى والأكاذيب التامة عن الإسلام واسعة الانتشار كالمشاهد التالية:

١- بالكاد يدرس تاريخ الاستشراق دون تحيز لمصادر الإسلام خصوصًا عندما كان تحت تأثير التعصب النصراني، من التحريفات المتعصبة لجون الدمشقي إلى المعتذرين من الكتاب المتأخرين ضد الإسلام الذي أخبر مشاهديهم أن المسلمين عبدوا ثلاثة أوثان!

٢- ترجم بيتر (١٠٨٤.١١٥٦)، القرآن والذي أُستخدم خلال العصور الوسطى وشمل تسعة فصول إضافية، وهذه الترجمة السيئة المحرفة المباعة حذت حذو الترجمات السابقة، وسارت بنفس الاتجاه كما مع رودريل، وموير.

٣- وآخرون هاجموا شخص وصفات محمد صلى الله عليه وسلم.

٤- وفي أغلب الأحيان وظّفوا القصص المخترعة والروايات التي يعتبرها المسلمون ضعيفة أو مكذوبة، أو شيء آخر، فإنهم أزالوا الحقائق بادعائهم أن المسلمين حلوا في موضع ليس هم فيه أهل، أو استخدموا العادات الخاطئة الممارسة بطريق الجهل بين المسلمين كتصوير دقيق للإسلام.

وهذه النظرة أُكدت من قبل المؤرخ الشرق أوسطي المشهور بيرنارد لويس عندما كتب: «درست النصرانيَّة في القرون الوسطى الإسلام لغايات مزدوجة: لحماية النصارى من مداهنات المسلمين، وتحويل المسلمين إلى النصرانيَّة، والعلماء النصارى -معظمهم من قسيسين ورهبان- أوجدوا مجموعة مؤلفات متعلقة بالدين، ونبيه، وكتابه، بجدلية عنيفة في صميم الدين، وغالبًا بلغة بذيئة من أجل أن تحمي وتثبط بدلًا من أن تُعلم»[(١)].

المستشرقون والاستعمار

إن الاستشراق قام يوم أن قام لأهداف السيطرة والاحتلال، وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن بداية الاستشراق كانت من عهد الإسكندر المقدوني، في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد؛ فقد قام الإسكندر المقدوني باحتلال آسيا الصغرى، وبعض أواسط آسيا، واستمر في حربه حتى وصل أبواب الصين، وقد عاجلته المنية، ولم يتعد عمره ثلاثين عامًا، وتوفي عام ٣٢٣ق. م، وعندما اجتاح الإسكندر المقدوني الشرق فكّر في احتلال الجزيرة العربيَّة، بعدما تمّت له الغلبة على مصر والهلال الخصيب؛ إذ كان وقتها في بابل، فأرسل بعثة استطلاعية تتسقط له المعلومات اللازمة؛ تمهيدًا للاستيلاء على هذه الأصقاع المليئة بالغموض والأسرار الصعبة الاختراق، فَبَنى أسطولًا

---

(١) انظر: المستشرقون والتنصير، شرح موثوق، عبد الرحيم الأخضر (١/ ٦٧)، الإسلام والغرب، بيرنارد لويس ص(٨٥- ٩٥).

قويًا، واتخذ مدينة بابل قاعدة للانطلاق، وأمّر على أسطوله قائده «أرخياس» الذي عبر الخليج العربي، وصل إلى جزيرة البحرين الحالية، وكان يطلق عليها في ذلك الوقت اسم «أيلوس» وقدّمت البعثة البحرية وغيرها من البعثات الأخرى تقارير وافية عن المناطق التي وصلت إليها، تناولت السكان، والإنتاج، والمبادلات التجارية، والوصف «الطبوغرافي» للأرض، والطرق السهلة التي يمكن لجيش جرار المرور منها في صحراء قاحلة خالية من الماء، ومن كل الوسائل المريحة التي يحتاج إليها جيش مقبل على احتلال أصقاع لم يخترقها أحد قبل ذلك التاريخ، فأخذ المهتمون بهذه الحملات تسجيل العديد من المعلومات عن الأرض الشرقيّة التي احتلوها، ودوّنوا كثيرًا من الروايات الشفهية والسماعية عن أرض أخرى كان في نية الإسكندر ابتلاعها.

وعلى هذا يرى صاحب هذه الرؤية أنه منذ هذا التاريخ كان المستشرقون المهتمون بالدراسات الشرقيّة مبعث اهتمامهم بهذه الدراسات يعود في المقام الأول إلى خدمة أهداف بلادهم في السيطرة على الشرق، وعند ظهور الإسلام أضيف إلى هذا الهدف هدف آخر هو محاربة الإسلام بتشويه صورته، وصورة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم في الشرق والغرب، وتاريخ الاستشراق الطويل يشهد بهذا.

ولما انتهت الحروب الصليبية بهزيمة الصليبيين وهي حروب دينية استعمارية؛ لم ييأس الغربيون من العودة إلى احتلال بلاد العرب فبلاد الإسلام، فاتجهوا إلى دراسة هذه البلاد في كل شئونها من عقيدة، وعادات، وأخلاق، وثروات، ليتعرفوا إلى مواطن القوة فيها فيضعفوها، وإلى مواطن الضعف فيغتنموه، ولما تم لهم الاستيلاء العسكري والسيطرة السياسية كان من دوافع تشجيع الاستشراق إضعاف المقاومة الروحية والمعنوية في نفوسنا، وبث الوهن والارتباك في تفكيرنا وذلك عن طريق التشكيك بفائدة ما في أيدينا من تراث، وما عندنا من عقيدة وقيم إنسانية، فنفقد الثقة بأنفسنا، ونرتمي في أحضان الغرب نستجدي منه المقاييس الأخلاقية، والمبادئ العقائدية، وبذلك يتم لهم ما يريدون من خضوعنا لحضارتهم وثقافتهم خضوعًا لا تقوم لنا من بعده قائمة.

انظر إليهم كيف يشجعون في بلادنا القوميات التاريخية التي عفا عليها الزمن واندثرت منذ حمل العرب رسالة الإسلام، فتوحدت لغتهم، وعقيدتهم، وبلادهم، وحملوا هذه الرسالة إلى العالم فأقاموا بينهم وبين الشعوب روابط إنسانية، وتاريخية، وثقافية، ازدادوا بها قوة، وازدادت الشعوب بها رفعة وهداية، أنهم ما برحوا منذ نصف قرن يحاولون إحياء الفرعونية في مصر، والفينيقية في سوريا ولبنان وفلسطين، والآشورية في العراق، والفارسية في إيران، والقومية الطورانية في تركيا، أمّا الجزيرة العربيّة فلقد بحثوا في آثار السابقين، وأسموا دراساتهم «التاريخ الحضاري للعرب قبل الإسلام»، وذلك ليطفئوا نور الإسلام، وأنّ الإسلام ليس وحده هو الذي قدم الحضارة الإنسانية، وليقطعوا صلة الأمة الإسلاميّة بماضيها الحقيقي الذي بدأ بظهور الإسلام.

وهكذا يسعون لإحياء القوميات الجاهلية القديمة في العالم الإسلامي ليتسنى لهم تشتيت شملنا كأمة واحدة، وليعوقوا قوة الاندفاع التحررية عن عملها في قوتنا وتحررنا وسيادتنا على أرضنا وثرواتنا، وعودتنا من جديد إلى قيادة ركب الحضارة، والتقائنا مع إخوتنا في العقيدة والمثل العليا والتاريخ المشترك والمصالح المشتركة.

ومن خدمات المستشرقين للمستعمرين:

١- كارل هنيريش بيكر ١٩٣٣ مؤسس مجلة الإسلام الألمانيَّة، قام بدراسات تخدم الأهداف الاستعمارية في أفريقيا.

٢- بارتولد ١٩٣٠ مؤسس مجلة عالم الإسلام الروسية، قام ببحوث تخدم مصالح السيادة الروسية في آسيا الوسطى.

٣- الهولندي سنوك هرجرونجه ١٨٥٧- ١٩٣٦م قدم إلى مكة عام ١٨٨٤م تحت اسم عبد الغفار، ومكث مدة نصف عام، وعاد ليكتب تقارير تخدم الاستعمار في المشرق الإسلامي. وقد سبق له أن أقام في جاوه مدة ١٧ سنة وقد صدرت الصور التي أخذها لمكة والأماكن المقدَّسة في كتاب بمناسبة مرور مائة سنة على تصويرها.

٤- معهد اللغات الشرقيَّة بباريس المؤسس عام ١٨٨٥م كانت مهمته الحصول على معلومات عن البلدان الشرقيَّة وبلدان الشرق الأقصى مما يشكل أرضية تسهل عملية الاستعمار في تلك المناطق.

وهكذا نرى أن مثل هؤلاء المستشرقين جزء من مخطط كبير هو المخطط الصهيوني الصليبي لمحاربة الإسلام، ولا نستطيع أن نفهمهم على حقيقتهم إلا عندما نراهم في إطار ذلك المخطط الذي يهدف إلى تخريج أجيال لا تعرف الإسلام أو لا تعرف من الإسلام إلا الشبهات، وقد تم انتقاء أفراد من هذه الأجيال لتتبوأ أعلى المناصب ومراكز القيادة والتوجيه لتستمر في خدمة الاستعمار.

لقد كانت حركة الاستشراق مُسخَّرة في خدمة الاستعمار، وفي خدمة التنصير، وأخيرًا في خدمة اليهوديَّة والصهيونيَّة التي يهمها إضعاف الشرق الإسلامي وإحكام السيطرة عليه بشكل مباشر أو غير مباشر.

ومن ناحية أخرى فإن بدايات استشعار الغرب لقوته العسكرية والسياسية بعد أن استقرت فيه معالم نهضته الفكريَّة والحضارية عبر القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر، ثم بدأ في اكتساح العالم خلال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، **وكان هذا يقتضي أمرين:**

أن يُهيأ الرأي العام الغربي لمثل هذا العمل؛ لأن الاقتحام العسكري، والاختراق الثقافي والسياسي والاقتصادي سيكلف الغرب الكثير، وينبغي أن يضحي من أجل ذلك بقوى عسكرية، وبإمكانات اقتصادية، وبتسخير قدرة الأجهزة العلميَّة -إلى حين- لهذه المشكلة المثارة، فالمستشرقون هم الذين صوروا الشرق أمام الغرب، هم الذين قالوا: من هم المسلمون؟ ما هي

خصائصهم العقلية، ما هي ثقافتهم، ما هي أعرافهم وتقاليدهم، إلى أي شيء يدفعهم الإسلام، وكم يؤثر فيهم، في الوقت الذي توضع فيه الخطط العسكرية والاقتصادية.

هذا الأمر -تصوير الشرقيين أمام الغربيين- كان هدفًا من الأهداف الكبيرة لحركة الاستشراق؛ إذ كان المطلوب إعطاء صورة معينة تمكن من الغزو العسكري، والاقتصادي، والثقافي، وهكذا بدأت الدراسات التي اتسمت بطابع عرقي في بدايات القرن التاسع عشر الميلادي، والتي أدت أولًا إلى تقسيم البشر إلى ساميين وآريين وحاميين، وأن هؤلاء البشر يتمايزون تمايزًا عرقيًّا، وأن خصائصهم العقلية والجنسية تتباين، فالساميون لا يمتلكون القدرة على التفكير البعيد في المستقبل، وهم أيضًا لا يمتلكون القدرة الكافية على التنظير العقلي والربط بين الجزئيات، وهذا ما سماه المستشرق جب -وهو يعتبر معاصرًا لأنه إلى سنة ١٩٦٥ م كان يدير مركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة هارفارد- عقلية ذرية، تتسم بتجزئة الأشياء، وعدم القدرة على تجميعها وتركيبها والنظر إليها بصورة شاملة.

إن الدراسات ذات الطابع العرقي قام بها أولًا أرنست رينان، حيث كتب عدة مؤلفات عن أصول الساميين، وعن فقه اللغات السامية، وفقه اللغات كان يتجه نحو تكريس الفرق بين الساميين والآريين، أو بين الشرق والغرب.

ويعتبر العرب والمسلمون هم المركز الذي تدور حوله دراسات الاستشراق أكثر من بقية الأمم والشعوب، والدراسات التي تناولت الإسلام والمسلمين تختلف عن تلك الدراسات لبقية أرجاء الشرق، ولعل هذا لافت للنظر، لماذا تتسم الدراسات المتعلقة بالإسلام والمسلمين بالتحيز والتعصب والغضب؟ ولماذا لا تتسم بذلك الدراسات عن البوذية مثلًا، أو الهندوسية، أو الثقافات الأخرى أو الحضارات الأخرى كالصين مثلًا؟ ولماذا عندما تختص القضية بجانب إسلامي، أو بجانب يتصل بمجتمعات إسلامية عندئذ تظهر جذور الانفعالات المختلفة، والعصبيات المتنوعة والغيظ؟ هذه إحدى الملاحظات التي سجلها إدوارد سعيد، وهي في الحقيقة تستحق الانتباه إليها خاصة إذا راجعنا الاستشراق في بدايات نشاطه؛ لأن بداياته الأولى ترجع إلى فترات مبكرة أكثر، وترتبط بقصة الصراع بين المسلمين والغرب من خلال فتح الأندلس، ومن خلال الحروب الصليبية، ومن خلال الصراع في صقلية وجنوب أوربا، وهذا الأمر كان يجعل الإسلام يحتك بصورة مباشرة بالنصرانيَّة التي كانت مؤسساتها الكنسية تسود العالم الغربي، وكانت هي التي تتوج الأباطرة والملوك، وتتمتع بملكية أرض واسعة مما جعلها القوة الرئيسية في الغرب، وهذا كله كان يجعل الإسلام في مواجهة مع الكنيسة النصرانيَّة، ومن ثم اندفعت أعداد من القسس لدراسة الإسلام، فهذه البدايات الدينيَّة كانت تتسم بالتشنج والعاطفية، والدراسات فيها اتهامات ممجوجة، وهي من السخف بحيث إن ذكرها في مثل هذا العصر ليس له من أثر، وإنما يدل على طبيعة العلاقات المنفعلة والمتسمة بالطوابع الذاتية في تلك الدراسات الاستشراقية الأولى.

والبعض يرى أن أوربا كانت تخشى من غزو إسلامي فكري في تلك الفترة؛ لأن المسلمين نقلوا الفكر اليوناني إلى أوربا -أقصد عن طريق حفظ الكتب اليونانيَّة التي ترجمت إلى اللغات الأوربية عن العربيَّة-، هذا الجانب لا يهمنا بوصفنا الإسلامي، ولكنه حدث وحدث معه أن ذهب أوربيون ربما لطلب مثل هذه العلوم ابتداءً، ولكنهم احتكّوا ببيئة إسلامية في الأندلس، وكان البابوات يرصدون هذه الحركة، ويرون أنها خطرة على أوربا، وأنها تمثل غزوًا حضاريًا فكريًا إسلاميًا، ومن هنا أنشئت مراكز الدراسات الاستشراقية المختلفة في أوربا بإذن من البابوات، وبتنسيق المجالس الكنسية، ووضعت في كمبردج وأكسفورد وفي مراكز أخرى مثل ألمانيا.

كانت هناك قضية الصراع الفكري الديني، واستمر هذا التيار إلى أن ظهرت المرحلة الجديدة المقترنة بالتوسع الاستعماري، عندئذ صار من مهام الحكومات أن تسخر عددًا كبيرًا من الباحثين ليكتبوا عن الإسلام والمسلمين باللغات الأوربية، إذن الخطاب لم يكن موجهًا ابتداءً لناطقي العربيَّة، أو اللغات الشرقيَّة، وإلا لكانت الكتابة باللغة العربيَّة، بل كان موجهًا لأوربا، أن هذه هي صورة الإسلام فلا تتحولوا إليه، وإذا كانت هذه هي صورة المسلمين فلا تلومونا إذا اقتحمنا ديارهم، ولا تلومونا إذا استنزفنا خيراتهم، ولا تلومونا إذا تعصبنا ضدهم؛ لأن هؤلاء القوم يتسمون بخصائص عقلية وجنسية وثقافية لا تمكنهم من النهوض بأنفسهم، وهم بحاجة إلى عوننا، والدور الذي سنقوم به والذي سنحدثه إنما هو لصالح الحضارة الإنسانية، ويستمر هذا الخطاب عبر قرن من الزمان وهو القرن التاسع عشر، وهو القرن الذي اشتد فيه الاستشراق، واشتدت فيه مؤسساته، وأوزرت من قبل الحكومات المختلفة الأوربية.

ومنذ مطلع القرن العشرين وإلى الوقت الحاضر نعلم كيف برزت منطقة الشرق الأوسط، وأهمية هذه المنطقة استراتيجيًا واقتصاديًا، وبالتالي فإن الدراسات الاستشراقية استمرت واتصلت، كما أن مؤتمرات المستشرقين واصلت طريقها بدعم من الحكومات، ومن المؤسسات، ومن الأغنياء (الأفراد) من الأمريكيين والأوربيين، ونجد أن الاستشراق الروسي يبرز بشكل أقوى منذ الثورة البلشفية سنة ١٩١٧ م؛ إذ لا بد من دراسة القوم الذين يراد لهم أن يُستعمروا، ولا بد أن يعتقد الغربي أن العمل إنساني وحضاري، وكيف مُثِّل الإسلام أمام الغرب؟

لا وجود حقيقي للإسلام في الغرب لعدم وجود المؤسسات القوية القادرة على تمثيله، وهذا ولَّد فراغًا، ومكَّن المؤسسات الاستشراقية ومن ورائها عدد كبير من الدارسين الغربيين الذين لا يعرفون العربيَّة ولكنهم يتلقون الصورة من خلال المؤلفات الاستشراقية[(١)].

الاستشراق الأمريكي الاستعماري

من المعروف أنَّ المستشرقين المعاصرين في الولايات المتَّحدة قد أولوا عناية فائقة بدراسة

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٩٣، ٦٩٤)، موقف الاستشراق من السنة والسيرة النبوية، للعمري.

الأوضاع القائمة في المنطقة العربيَّة منذ قيام إسرائيل وحتى الآن، وذلك في إطار تجنيد هؤلاء المستشرقين والعملية الاستشراقية الأمريكيَّة إجمالًا لتلبية احتياجات وتطلعات السياسة الأمريكيَّة في هذه المنطقة، واحتل الاهتمام بإسرائيل مكانة خاصة في الاستشراق الأمريكي المعاصر، انطلاقًا من الدور الوظيفي الذي تؤديه إسرائيل في تنفيذ الاستراتيجيَّة الأمريكيَّة، فانصبت غالبية نشاطات المستشرقين الأمريكان في مجالات الأبحاث الصراعية باتجاه تعزيز المواقع الإسرائيلية على جبهة المواجهة مع العرب، ومن المستشرقين الأمريكان الذين يسعون لخدمة الصهيونيَّة «برنارد لويس» وهو يهودي بريطاني الأصل، ومنذ سنة ١٩٧٣م انتقل إلى الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة؛ إذ أصبح عضوًا دائمًا في معهد الدراسات المتقدمة، وفي الجمعيَّة الفلسفية الأمريكيَّة، وشغل منصب أستاذ الدراسات الشرق أوسطية في جامعة برنستون، وانتقال «برنارد لويس» إلى الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة منذ سنة ١٩٧٣م يبين لنا أنَّ هذا المستشرق انتقل إلى الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة لهدف يسعى إلى تحقيقه من خلال الدور الأمريكي في الدعم الصهيوني، خاصة بعد حرب أكتوبر عام ١٩٧٣م التي قلبت موازين الاستراتيجيَّة الصهيونيَّة والأمريكيَّة، إضافة إلى إدراكه أنَّ الدور البريطاني في الدعم الصهيوني قد ضعف أمام قوة الاستراتيجيَّة الأمريكيَّة، وأنَّ الصهيونيَّة قد حصلت من بريطانيا ما تريده منها، فلقد أدت بريطانيا دورها، والدور الآن على الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة لتحقيق بقية الحلم الصهيوني باعتبارها أكبر دولة في العالم، وإسرائيل هي الدولة المدللة لديها.

ولم يتوقف الاستشراق الأمريكي على خدمة الأهداف الصهيونيَّة، بل نجده قد تعاون مع المخابرات المركزية الأمريكيَّة لخدمة مصالح أمريكا في الشرق الأوسط، وذلك من خلال «مركز دراسات الشرق الأوسط» في جامعة هارفارد، ومن المستشرقين اليهود الأمريكان الذين تعاونوا مع جهاز المخابرات الأمريكيَّة «ندَّاف سفران» الذي عمل مديرًا لمركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة «هارفارد» حتى إقالته عام ١٩٨٥م حيث تمَّ كشف النقاب عن تعاون «ندَّاف سفران» مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكيَّة، وكان هذا الكشف فضيحة في الأوساط الأكاديمية حيث قبض سفران مبلغًا وقدره ٤٥ ألف دولار من المخابرات الأمريكيَّة لتمويل ندوة في جامعة هارفارد حول «نمو المشاعر الإسلاميَّة في الشرق الأوسط»، وتبين كذلك أنَّ المخابرات الأمريكيَّة قد دفعت ١٠٧ ألف دولار مقابل قيام سفران بتأليف كتاب عن المملكة العربيَّة السعودية، ويتضمن هذا الكتاب الذي تعهد سفران بتنفيذه دراسة عن حجم القوى الإسلاميَّة في هذا البلد بهدف الإجابة عن سؤال مهم هو: كيف يمكن السيطرة على هذه القوى؟ وكيف يمكن أو هل يمكن لهذه القوى أن تسيطر على زمام الحكم هناك؟

وقد كلف «سفران» أحد أساتذة الجامعة العبريَّة في القدس «البروفسور آفير» بإجراء بحوث ميدانية بالتعاون مع الطلبة العرب، ودراسة الصحف الصادرة في البلد المعنية بالدراسة المتوفرة في معهد «ترومان» لأبحاث الشرق الأوسط التابع للجامعة العبريَّة، إلاَّ أنَّ الطلاب العرب في الجامعة

المذكورة رفضوا التعاون مع البروفسور الإسرائيلي، وبعد افتضاح الأمر أجرت جامعة «هارفارد» تحقيقات مع «سفران»، وأقيل على إثرها، لكن «سفران» ادعى أنّه هو الذي قدَّم استقالته بسبب الحساسية التي سببتها تحقيقات الجامعة معه، وأخذ يدافع عن ارتباطه بوكالة المخابرات المركزية مؤكدًا أنَّ علماء كثيرين جدًّا يعملون في جامعة هارفارد، ويقيمون علاقات وطيدة مع الوكالة يتلقون منها المساعدات المالية، وأنَّ الجامعة لا تكتفي بإجازة هذه العلاقات بل تشجعها، ولم تنف جامعة هارفارد هذا الأمر.

وفي القارة الأمريكيَّة وحدها حوالي تسعة آلاف مركز للبحوث والدراسات، منها حوالي خمسين مركزًا مختصًا بالعالم الإسلامي، ووظيفة هذه المراكز تتبع ورصد كل ما يجري في العالم، ثم دراسته وتحليله مقارنًا مع أصوله التاريخية ومنابعه العقائدية، ثم مناقشة ذلك مع صانعي القرار السياسي، ومن ثم تُبنى على أساس ذلك الخطط والاستراتيجيات، وتحدد وسائل التنفيذ[١].

الاستشراق الصهيوني

كانت بداية الاستشراق اليهودي على موائد الاستشراق الأوربي، والذي ساهم في خلق المفاهيم والرؤى السلبية تجاه المنطقة العربيَّة والإسلاميَّة، وبهذه الرؤية السلبية انطلق اليهود في استشراقهم، وتميزوا عن الاستشراق الأوربي في طبيعة عملهم، فكانت محاولات المستشرقين اليهود التركيز على ما يسمى بـ «الإرث العبري» ومحاولة نقل هذه الفكرة إلى داخل العقلية الأوربية على اعتبار أن اليهود هم جزء من الشرق، وأن إعادتهم إليه مسألة أخلاقية، ولا توجد فيها دوافع استعمارية، خصوصًا مع بروز التيار البروتستانتي، ومحاولات تأكيد الرؤية التوراتية للمنطقة.

لذلك كانت الأبحاث الاستشراقية اليهوديَّة في تاريخ العرب وجغرافيتهم هي مهمة ذات بعد صراعي يُستخدم فيها التاريخ بمدلولاته، وتستخدم الدراسات -بعد تزييفها في معظم الأحيان- كأداة لبناء منظومة من الرؤى والمفاهيم، ومحاولة تصديرها على أنها حقائق تاريخية ثابتة.

لذلك سعى المستشرقون اليهود إلى فكرة ربط اليهود بالمنطقة العربيَّة وتحديدًا فلسطين، فعمل المستشرقون اليهود على توجيه الاستشراق الغربي نحو هذا الهدف من خلال رسم هيكلية المنطقة العربيَّة والإسلاميَّة وفق المنظور الاستشراقي اليهودي، رغبة منهم في أن يسير الاستشراق الغربي على خطى الاستشراق اليهودي، حيث عمل المستشرقون اليهود على استحضار عوامل صراع شرقي غربي بغية حشد الغرب في خندقهم، واستخدمت في ذلك آلاف المطبوعات الصادرة باللغتين الإنجليزية والفرنسيَّة، وخصوصًا في السنوات الأخيرة، والتي تصل بسهولة ويسر للباحثين الغربيين في سنوات دراستهم الأولى، مما يجعل التحرر من هذه الأفكار أمرًا صعبًا.

---

(١) انظر: الاستشراق، إدوارد سعيد ص(١٠٠)، الاستشراق الجديد، سهيلة زين العابدين حمّاد، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د. محمود حمدي زقزوق.

لذلك يأتي الاستشراق اليهودي ليكون مكملًا لما بدأ به الاستشراق الغربي، ثم ليعمل على إدماج النتائج المعرفية في شئون العرب والمسلمين وفق مسار محدد، يراد من خلاله المنطقة برمتها، وجعلها في أذهان الأوربيين والغرب عمومًا خلاف ما هي عليه في محاولة إثبات ما يسمى استمرارية «التاريخ اليهودي» في فلسطين وحولها تحديدًا.

لذلك جاءت محاولات كتابة ما يسمى «التاريخ اليهودي» خلال الحملات الصليبية، فأظهرتهم تارة محاربين -وهو أمر ينافيه العقل- فقد كانوا يدفعون الجزية وهذا ثابت في كل الكتابات التاريخية، فكيف يمكن لهم أن يكونوا محاربين، ثم تأتي محاولات إلصاقهم بالأرض من خلال وصفهم كمزارعين، إضافة إلى نفي الهوية الواحدة لعرب فلسطين، وجعل الهوية اليهوديَّة لفلسطين هي المسألة المركزية في أذهان الغرب.

فالاستشراق الصهيوني نظام فكري من طراز فريد، فإن الصراع التأريخي الذي يدور بيننا وبينه ليس كمثل الصراعات الدائرة في أماكن أخرى من عالمنا المعاصر كالصراع على تاريخ الهند مثلًا بين المؤرخين الهنود والبريطانيين، أو على تاريخ أفريقيا بين المؤرخين الأفارقة والأوربيين، بل هو صراع يرتبط ارتباطًا وثيقًا بمصير أرض يجري تغيير ملامحها ساعة بعد ساعة، إن هذا الاستشراق يسعى إلى تثبيت تاريخه هو ونفي تاريخنا نحن جملًا وتفصيلًا، ومن أبرز مقولات هذا الاستشراق فيما يتعلق بتاريخ القدس العربي المبكر كما نلمحها في الكتب والمجلات التي يستخدمها هذا الاستشراق في سبيل الوصول إلى غاياته تحت ستار مما يشبه البحث العملي، الآتي:

أولًا: يقول لنا هذا الاستشراق إن المصادر العربيَّة الإسلاميَّة حول تاريخ القدس في الفترة الأولى التي تلت الفتح متناقضة متضاربة ومنمطة؛ أي أنها على شكل نماذج من القصص الشعبية التي أخذها الإسلام إما من الأديان الأخرى -وخصوصًا اليهوديَّة- أو الذي اتخذ شكل النمط والنموذج الذي مثيله الأقرب هو الأدبيات والأساطير الشعبية.

من هنا فالوصول إلى أية حقيقة تاريخية استنادًا إلى هذه المصادر أمر شبه مستحيل، وليس بالإمكان أكثر من أن يكتشف المؤرخ النية من وراء هذه القصص، وهي في الأغلب تعكس رغبات أجيال من المؤرخين العرب المسلمين عاشت بعد الأحداث بمئات السنين، وحاولت خلق تاريخ ملائم للقدس.

ثانيًا: يقول الاستشراق أيضًا إن دخول عمر بن الخطاب إلى القدس، ولقاءه البطريرك صفرونيوس هو وهم ومجرد أسطورة الغاية منها إضفاء الاحترام والإجلال على القدس، وكلها قصص ابتدعها خيال جيل لاحق من المؤرخين العرب، ولربما في أيام الحروب الصليبية مثلما يقول بعض المستشرقين.

ثالثًا: إن الإشارة الواردة في القرآن الكريم إلى الإسراء والمعراج لا تدل على القدس تحديدًا، أما أحاديث الإسراء فتنتمي إلى عصور متأخرة أراد فيها المسلمون التأكيد على أهمية القدس لأسباب

سياسية؛ إذ لا ترد أية إشارة إلى الإسراء والمعراج في الآيات والكتابات الواردة على جدران قبة الصخرة مثلًا، وهو أمر متوقع فيما لو كانت القدس هي المقصودة في الآيات القرآنية.

رابعًا: إن القدس لم تتمتع بأية مكانة خاصة لا على المستوى الديني، ولا على المستوى السياسي في العصور العربيَّة الإسلاميَّة الأولى، ولم تكتسب القدس مكانتها سوى بعد مضي قرون عديدة، أما في العصور الأولى فقد كانت مدينة هامشية دينيًّا وسياسيًّا، ورغم أهمية قبة الصخرة والمسجد الأقصى في ميدان العمارة، فإن هذين البناءين لا يدلان بوضوح على أية أهمية خاصة ترتبط بمكانة القدس.

تطور الاستشراق اليهودي

بعد نكبة عام ١٩٤٨تطور الاستشراق اليهودي تطورًا كبيرًا، فلم تعد الأهداف الصهيونيَّة محاولة إثبات ما يسمى «التاريخ اليهودي» فحسب بل تعدى ذلك إلى دراسة التاريخ والجغرافيا، والعادات والتقاليد وكل ما أمكن عن المنطقة.

من هنا إن كان الاستشراق الغربي قد تركز حول مساعدة المؤسسات الغربية على تحقيق طموحاتها وتطلعاتها في الهيمنة، فإن الاستشراق اليهودي تجاوز ذلك ليجعل المنطقة برمتها تحت أنظاره، فالاستشراق الصهيوني اليوم يدرس أحوال المسلمين من ماليزيا وحتى تركيا وأفريقيا، ناهيك عن أحوال العرب المسلمين.

والاستشراق اليهودي الجديد يزحف ليحل محل الاستشراق التقليدي من خلال تحويل الاستشراق ذاته إلى استخبارات في الميادين الاستراتيجيَّة كافة، لتمكين هذا الكيان من الاستمرار في تحقيق التفوق، وإنما يعكس ذلك الطبيعة العنصرية لهذا الكيان، من خلال استخدام الجوانب المعرفية بغية تحقيق السيطرة، والهيمنة على المنطقة برمتها.

اهتمام بحثي

عندما نعلم أن الجامعة العبريَّة تخصص قرابة نصف ميزانيتها للمشاريع البحثية ندرك أهمية الأبحاث في العقلية الصهيونيَّة المعاصرة، فيكون الباحثون أشبه بأداة استشعار عن بعد، ترصد المخاطر التي تواجه المشروع الصهيوني في بلادنا، فلقد سبق مشروع بناء الجامعة العبريَّة في القدس والذي جاء عام ١٩١٨ بمساعدة بريطانيا، سبق نشأة هذا الكيان، وكانت خطط بنائها قد وضعت في نهايات القرن التاسع عشر، وهي منذ تشكلها تحث الباحثين اليهود على دراسة الشئون العربيَّة كافة، ويتم تقديمهم في المجتمع الصهيوني على أنهم «خبراء الشئون العربيَّة»، حيث يعمل الكثير منهم مستشارين سياسيين وأمنيين لدى القادة العسكريين.

فالصهيونيَّة التي وضعت نفسها وسط تشكل عربي وإسلامي، بدأت بدراسات مفصلة للتعرف على مكامن القوة والضعف، لامتلاك مصدر معرفي يساعدها في تعميق التناقضات، وصياغة خطاب وبرنامج ميداني للتعامل مع العرب وفق توالي الظروف السياسية وغيرها.

لذلك فالاستشراق اليهودي ليس ترفًا فكريًا، ولا ينبع من حاجات الإنسان إلى ثقافة محددة، إنما عليه أن يستطلع أحوال العرب والمسلمين من ماليزيا وحتى ساحل العاج، وبالمقابل فإن أمامه مهمة أخرى، وهي تعزيز الانتماء لليهود القادمين من الخارج من أجل التحفيز على الاستمرارية في بناء المشروع الصهيوني، ولا يتم ذلك إلا بإقامة عشرات المؤسسات البحثية، والعمل على صناعة الباحثين وصياغتهم من خلال مؤسسات الاستيعاب، فتجد الباحث الصهيوني والذي يريد دراسة أي من القضايا العربيَّة يحصل على امتيازات خاصة، وتوضع أمامه إمكانات كبيرة لإنجاز مهمته.

دراسة وتعبئة

فالحروب في الاستشراق اليهودي تشكل مادة بحثية أساسية، وتأتي دراستها وتحليل دورها في السياق العام للسياسة الصهيونيَّة، والوقوف على النتائج والاستخلاصات التي أفضت إليها تلك الحروب بغية إدماجها في رؤية مستقبلية للصراع لتحاشي التقصير، وتشغل معركة حطين الباحث الصهيوني ليس من خلال دلالاتها العسكرية فحسب بل ومن خلال دراسة الظروف التاريخية التي سبقت هذه المعركة، والعمل على منع تكرارها من جديد، بما يشكل ذلك مصدرًا للرعب لدى الكيان الصهيوني.

ففي عام ١٩٨٧ وعلى إثر انطلاق الانتفاضة الأولى أقام الكيان الصهيوني مؤتمرًا أعقبته العديد من الندوات، وذلك في ذكرى مرور ٨٠٠ عام على معركة حطين، وحاول الباحثون الصهاينة من خلال ذلك التذكير من جديد باختلاف التجربة بين الحملات الصليبية وبين الصهيونيَّة.

وبكل تأكيد إن أعمال هذا المؤتمر لم تكن موجهة لغايات بحثية أكاديمية، وإنما جاءت موجهة إلى صميم المجتمع الصهيوني الداخلي، والذي بدأ يرى مع الانتفاضة صورته الغريبة عن المنطقة، ومن خلال التعاطف العربي الشعبي والإسلامي بدأ يلمس من جديد الظروف التاريخية التي سبقت معركة حطين، بما يشكله ذلك من هاجس يؤرق سريرة الصهاينة.

وهنا نلاحظ مهمة جديدة للاستشراق اليهودي أنه أخذ يخاطب المجتمع الصهيوني من الداخل بغية جعل المجتمع الصهيوني في حالة توحد مع المؤسسة العسكرية والتي لها مفهومها الخاص للأمن، فمفهوم الأمن لأي دولة يعني حماية الحدود، إلا أن هذا الكيان يرى أن مفهوم الأمن بالنسبة إليه يعني «الوجود ذاته» لذلك مع انطلاق الانتفاضة المباركة لم يعد مفهوم الردع للأنظمة العربيَّة يعني له الكثير بسبب التماس المباشر بينه وبين أصحاب الأرض.

ومن هنا نجد مفهوم الأمن إنما يستند على رؤية استشراقية من صميم الدراسات التاريخية استخلصها الباحث الصهيوني دان هورو فيتش وهو أستاذ العلوم السياسية في الجامعة العبريَّة، حيث يقول «هنا تكمن فرصتنا الأخيرة، فإما الوجود والاستمرار بأي ثمن، وإلا فإن أمامنا الفناء النهائي».

رعب دائم

ما جرى للصليبيين في بلادنا من الطبيعي أن يشكل حالة قلق مستمرة للصهاينة في بلادنا، فهناك مسألة لا شعورية داخلية تقود الصهاينة لدراسة هذا التاريخ للوصول إلى حالة من الاطمئنان الداخلي، فعليهم اختراع الكثير من الأوهام، وتزييف العديد من الحقائق، مع انهيار أسطورة الجندي الذي لا يقهر.

ففي عام ١٩٦٩ حصل الباحث الصهيوني «يهوشع براور» على جائزة «الدولة» لقيامه بإنجاز دراسة استنتج بموجبها أن ما جرى للصليبيين في فلسطين لن يتكرر مع الكيان الصهيوني مجددًا في بلادنا، وفي واقع الأمر لم تكن تلك الجائزة في ذلك الوقت بالتحديد -والذي شهد تحولات فلسطينية وعربية كثيرة- لم تكن أمرًا عرضيًّا، أو أمرًا أكاديميًّا صرفًا؛ بل كان الكيان الصهيوني بتلك الجائزة يحاول طمأنة نفسه، وطمأنة اليهود الوافدين أن مستقبلهم لن يكون إلى البحر كأسلافهم الصليبيين، وكما يقول «يوري أفنيري»: «إن الصليبيين حاربوا طيلة ثمانية أجيال ليجدوا أنفسهم وقد ألقوا إلى البحر، ومن هنا يتوجس اليهود من أن يصل التشابه إلى هذا المستوى».

ففي هذه العبارة الصريحة يُعبِّر «أفنيري» عن الهاجس الذي يشغل اليهود خصوصًا وأنهم أنشئوا كيانهم في ظرف استثنائي ناتج عن الشرذمة التي تعانيها الأمة العربيَّة والإسلاميَّة، وهي حالة شبيهة بالحالة التي نشأت فيها مملكة بيت المقدس اللاتينيَّة، في ظل ظروف مماثلة عاشتها المنطقة لحظة بدء الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي.

فالخوف من ملاقاة ذات المصير دفع باليهود إلى قراءة المنطقة العربيَّة والإسلاميَّة قراءة ذات بعد استراتيجي بغية إدراك مواطن الضعف، والعمل على استمرارها، واكتشاف مواطن القوة وكيفية التعامل معها، لإدراك هذا الكيان أنه كيان غريب لا ينتمي لجغرافية المنطقة، وبالتالي لا يمتلك ما يلغي لديه المخاوف الأمنية التي تبقى شغله الشاغل(١).

(١) انظر: الاستشراق اليهودي وهواجس الرعب، أيمن خالد، تفكيك مقولات الاستشراق، د. طريف الخالدي.

الفصل السادس
وسائل الاستشراق

لقد سعى المستشرقون إلى تحقيق أهدافهم من خلال العديد من الوسائل والأساليب. وحيث إن المستشرقين جزء من مجتمعاتهم فإنهم سوف يستخدمون بلا شك الوسائل والأساليب الشائعة في مجتمعاتهم، وإن كان مجال عملهم في الاستشراق سيتطلب في بعض الأحيان استخدام وسائل وأساليب تناسب مجال عملهم وتناسب أهدافهم ودوافعهم.

ولم يترك المستشرقون مجالًا من مجالات الأنشطة المعرفية والتوجيهية العليا إلّا تخصصوا فيها، ومنها التعليم الجامعي، وإنشاء المؤسسات العالمية لتوجيه التعليم والتثقيف، وعقد المؤتمرات والندوات ولقاءات التحاور، وإصدار المجلات، ونشر المقالات، وجمع المخطوطات العربيَّة، والتحقيق والنشر وتأليف الكتب، ودس السموم الفكريَّة فيها بصورة خفية ومتدرجة، وإنشاء الموسوعات العلميَّة الإسلاميَّة، والعناية العظمى لإفساد المرأة المسلمة، وتزيين الكتابة باللغة العامية.

هذه بصفة عامة الوسائل التي اتخذها المستشرقون لتحقيق أهدافهم، وفيما يأتي توضيح هذه الوسائل والأساليب:

التعليم الجامعي والبحث العلمي

منذ أن استقر الاستشراق كفرع معرفي له أقسامه العلميَّة ومراكز البحوث الخاصة به، أخذت هذه الأقسام تستقبل الطلاب من جميع أنحاء العالم، فالأوربيون الذين يدرسون هذه المجالات يتخصصون فيها لأهداف تخصهم فقد جاء في تقرير سكاربور Scarbrough وتقرير هايتر Hayter البريطانيين الجهات التي تحتاج هذه التخصصات ابتداءً من وزارة المستعمرات (حين كانت موجودة)، ووزارة الخارجية، والاستخبارات، والتجارة، والاقتصاد، والإذاعة البريطانية وغيرها من الجهات، أما الطلاب العرب والمسلمون فقد جاءوا في بعثات دراسية إما على حساب دولهم، أو على حسابهم الخاص، أو بمنح من الجامعات الغربية التي استهوتهم لأسباب منها السمعة العلميَّة العالية التي تتمتع بها هذه الجامعات في دول العالم الثالث (حتى وإن كان بعضها متواضع المستوى)، وثانيًا لرغبة الجامعات الغربية الإفادة من هؤلاء الطلاب في مجال البحث العلمي، بالإضافة إلى الهدف الاستشراقي القديم من التأثير في طبقة من أبناء الأمة المسلمة من المتوقع أن تتسم منابر التوجيه وقيادة الرأي في بلادها.

وقد يكون أحد هذه الأسباب المرونة التي تتمتع بها هذه الجامعات في مجال الدراسات العليا وبعدها عن التعقيدات والمشكلات والقيود التي يواجهها الطلاب في الجامعات العربيَّة والإسلاميَّة.

وقد أصبحت هذه الأقسام العلميَّة تعد بالآلاف في أنحاء أوربا وأمريكا، ولما تخلص الأوربيون والأمريكيون من مصطلح الاستشراق أصبحت أقسام الدراسات الشرق أوسطية أقسام دراسات المناطق هي التي يدرس فيها هؤلاء الطلاب، ولكن هذه الأقسام لم تعد كافية لدراسة كل ما يخص العالم الإسلامي والعربي فأضيف إليها الدراسة في أقسام الجامعة الأخرى مثل: علم الاجتماع، وعلم الإنسان، وعلم النفس، وقسم الاقتصاد والعلوم السياسية ومختلف العلوم التي يتم التنسيق بينها جميعًا من خلال معهد الشرق الأوسط كما في جامعة كولمبيا في نيويورك، أو مركز دراسات الشرق الأوسط كما في جامعة كاليفورنيا بمدينة بيركلي.

وتسهم هذه الأقسام من خلال المواد الدراسية في تكوين عقلية الطالب وفهمه وإدراكه للقضايا التي تخص الإسلام والمسلمين؛ حيث إن طريقة التدريس والمراجع المقررة وتوجهات الأساتذة لها دور كبير في الدراسة الجامعية أو الدراسات العليا (وبخاصة في أمريكا حيث إن طالب الماجستير أو الدكتوراه يكلف بدراسة عدد محدد من الساعات).

ولا شك أن بعض أبناء العرب والمسلمين يتأثرون بأساتذتهم فكريًّا وأخلاقيًّا وسلوكيًّا، ولذلك نجد التركيز في التراجم الإسلاميَّة السؤال عن الشيوخ، ولذلك من المهم معرفة شيوخ العلماء المعاصرين من أبناء الأمة الإسلاميَّة الذين تتلمذوا على المستشرقين.

ومهما كانت قوة العقيدة والإيمان لدى معظم الطلاب العرب والمسلمين؛ فإن بعضهم يتأثر بشيوخه من المستشرقين وبخاصة أن بعض هؤلاء قد بلغوا درجة عالية من العلم والخبرة ومعرفة نفسية الطلاب العرب والمسلمين.

كما أن بعض الأساتذة في الجامعات الغربية يكونون من القساوسة والرهبان، وبعضهم من اليهود فيحرصون على التأثير في طلابهم بأسلوب غير مباشر، ولو أن يدخلوا أدنى درجة من الشك في قلوب هؤلاء التلاميذ.

الجامعات الغربية في البلاد العربية

وبالإضافة إلى أقسام دراسات الشرق الأوسط والدراسات الإسلاميَّة في الجامعات الغربية (أوربا وأمريكا)؛ فإن الغرب حرص على فتح جامعات أوربية وأمريكية في البلاد العربيَّة الإسلاميَّة.

ومن أبرز هذه الجامعات الجامعة الأمريكيَّة التي أصبح لها العديد من الفروع في القاهرة، وفي بيروت، وفي دبي، وفي الشارقة، وفي إسطنبول، وغيرها.

والكلية الأمريكيَّة ببيروت -وهي مدرسة ثانوية درس فيها بعض كبار المسئولين في العالم العربي، ومدرسة الدراسات الشرقيَّة الأمريكيَّة بالقدس، والمدرسة الأمريكيَّة للأبحاث الشرقيَّة ببغداد، ومعهد الدراسات اليمنية في صنعاء باليمن.

وقد قامت الجامعات الفرنسيَّة بافتتاح معاهد لها في عدد من الدول العربيَّة، كالمعهد الفرنسي

للآثار الشرقيَّة في القاهرة ١٨٨٠، ومعهد الدراسات العليا في تونس ١٩٤٥، ومعهد الدراسات المغربية في الرباط ١٩٣١، والمعهد الفرنسي للدراسات العربيَّة في دمشق ١٩٣٠ .

وقامت بريطانيا بافتتاح عدد من الكليات والمراكز، منها: مركز الدراسات العربيَّة في الشرق الأوسط شملان بلبنان، وكلية دلهي ١٧٩٢- ١٨٨٧، وكلية فورت-وليام بكلكتا بالهند ١٧٩٩-١٨٣٦، وكلية الملكة فيكتوريا وهي مدرسة ثانوية بمصر ودرس بها كثير من أبناء الطبقة الثرية في أنحاء العالم العربي، والتعليم فيها باللغة الإنجليزية.

كما أن لهولندا معهدًا في مصر.

كذلك تقوم الحكومة الألمانيَّة بافتتاح جامعة في مصر بعد أن كانت نواة هذه الجامعة قد أسست منذ سنوات، وقد ذكر خبر نشر في إحدى الصحف أن حجر الأساس لأول جامعة ألمانية سيوضع بتمويل من عدة جهات منها السفارة الألمانيَّة في القاهرة (يعني الخارجية الألمانيَّة) وجامعتين ألمانيتين بالتعاون مع الغرفة التجارية العربيَّة الألمانيَّة للتجارة والصناعة.

كما تم فتح مركز غوتة الألماني في لبنان.

وقد أعلنت وزارة الخارجية السويدية قبل عدة أعوام عن إنشاء مركز بحوث سويدي في الإسكندرية، وعقد هذا المعهد مؤتمرًا عن الشباب العربي المسلم في مدينة الإسكندرية بمصر في شهر فبراير ٢٠٠٣م.

كما أن كثيرًا من الجامعات أفردت أقسامًا للاستشراق كقسم الدراسات الشرق أوسطية في الجامعة الأمريكيَّة في بيروت.

- أما كيف تكون الجامعات والتعليم العالي وسيلة من وسائل الاستشراق؟ فنحن لا نتحدث عن أقسام الهندسة والكيمياء والطب والرياضيات (وإن كان يحدث فيها تأثير استشراقي) ولكن الحديث عن أقسام الدراسات الإسلاميَّة والعربيَّة والتاريخ والجغرافيا وعلم النفس وعلم الاجتماع والتربية وغيرها من الدراسات الأدبية والنظرية؛ فمن التأثر أولًا بالمجتمع الغربي (وهي قضية بدأت مع البعثات قبل أكثر من قرنين) إلى التأثر بالأستاذ في طباعه وأخلاقه وسلوكه، ثم في اختيار موضوع البحث وبخاصة في مجال الدراسات العليا؛ فإن الأمة قد أوفدت أنبه أبنائها (بخاصة المبتعثين، الذين حصلوا على البعثات بجدارة) للدراسة في الخارج فحين يكون اختيار الموضوع سيئًا أو موجهًا فقد يجد الطالب نفسه أسير ذلك الموضوع حتى نهاية حياته العلميَّة وقل أن يتخلص من هذا الأسر، فيسهم الأستاذ المشرف في اختيار الموضوع وتوجيه الطالب للاهتمام بقضايا بعينها، ومن الأمثلة توجيه الطالب لاختيار كتاب الأغاني مثلًا ليكون مصدرًا لدراسة التاريخ الإسلامي أو المجتمع الإسلامي. وهو أمر خطير فكيف يكون كتاب مجون وخلاعة مصدر لدراسة تاريخ أمة هي أعظم الأمم على وجه الأرض.

كما يوجه الأساتذة طلابهم للبحث في موضوعات يريد الغربيون معرفة تفاصيلها الدقيقة وهم

لا يستطيعون الوصول إلى هذه المعلومات فيكلفون طلابهم الذين يريدون الحصول على الدرجات العليا، كما أن مثل هذه الدراسة تتيح لهم الفرصة للعودة إلى بلادهم في رحلات علمية لجمع المادة العلميَّة وتقديم الاستمارات والاستبيانات وغيرها من وسائل جمع المادة العلميَّة التي يصعب على الأستاذ أو الجهات الخارجية الوصول إليها.

وتسعى الجامعات ومراكز البحوث أن تستقطب بعض أبناء الأمة الإسلاميَّة لقضاء سنوات التفرغ بالنسبة للأساتذة الجامعيين أو العمل باحثين في هذه المراكز، وإن كان الغالب أن الجامعات الغربية ومراكز البحوث هناك تستقطب نماذج معينة من الباحثين العرب والمسلمين المتأثرين بالفكر الغربي، لكن هذا لا يمنع أن يشارك في العمل في بعض الجامعات الغربية بعض الباحثين المعتزين بدينهم وبأمتهم وبتراثهم الحضاري وينافحون عن الإسلام بكل ما أوتوا من قوة، ولكنهم يبقون الاستثناء الذي يثبت صحة القاعدة كما يقولون.

الكتب

حرص الاستشراق منذ بدايته على نشر الكتب التي تتناول الإسلام من جميع جوانبه عقيدة وشريعة وتاريخًا وسيرة، وتناولت هذه الكتب الأحوال الاجتماعيَّة في العالم الإسلامي في مختلف العصور.

١- ففي مجال العقيدة كتبوا كثيرًا ومن ذلك ما نشره المستشرق اليهودي المجري بعنوان دراسات إسلامية كما ألف في مذاهب التفسير الإسلاميَّة.

٢- ونشر المستشرق دنكان بلاك ماكدونالد كتابًا بعنوان تطور العقيدة الإسلاميَّة، وقد انطلى على بعض المسلمين أنه كتاب علمي فقُرر تدريسه في أقسام الدراسات الإسلاميَّة.

٣- وألف كولسون في التشريع الإسلامي.

٤- كتاب كارل بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلاميَّة، وقد عده بعضهم من المراجع الأساسية في دراسة التاريخ الإسلامي.

٥- تاريخ الأدب العربي: كارل بروكلمان ت١٩٥٦م.

٦- دائرة المعارف الإسلاميَّة: ظهرت الطبعة الأولى بالإنجليزية والفرنسيَّة والألمانيَّة وقد صدرت في الفترة ١٩١٣-١٩٣٨م. غير أن الطبعة الجديدة قد ظهرت بالإنجليزية والفرنسيَّة فقط من عام ١٩٤٥م وحتى عام ١٩٧٧م.

٧- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف والذي يشمل الكتب الستة المشهورة بالإضافة إلى مسند الدارمي، وموطأ مالك، ومسند أحمد بن حنبل وقد وضع في سبعة مجلدات نشرت ابتداءً من عام ١٩٣٦م.

٨- كتاب برنارد لويس تاريخ العرب عدّه بعض الأساتذة المتأثرين بالاستشراق من أهم الكتب في بابه.

ولقد بلغ ما ألفوه عن الشرق في قرن ونصف قرن (منذ أوائل القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين) ستين ألف كتاب.

أما أبرز الجهات الاستشراقية التي تنشر الكتب فإن الجامعات الغربية لها دور نشر خاصة بها، ولعل من أشهر دور النشر هذه على سبيل المثال جامعة أكسفورد التي تطبع مئات الكتب كل عام حول العالم الإسلامي وقضاياه المختلفة، كما أن الجامعات الأوربية والأمريكيَّة لها دور نشر نشطة، تقوم بجهد يوازي إن لم يتفوق على نشاط دور النشر التجارية البحتة (قارن بينها وبين دور النشر في الجامعات العربيَّة والإسلاميَّة- دور نشر للمجاملة وللتوزيع المحدود ولا تطبع دار النشر الجامعية أكثر من عشرة عناوين سنويًا).

ففي موقع دار جامعة أكسفورد للنشر مئات الكتب التي تهتم بالإسلام والعالم الإسلامي، ومنها موسوعة أكسفورد للعالم الإسلامي الحديث، وتتكون من أربعة مجلدات تتألف من ١٨٤٠ صفحة، وتهتم بموضوعات لم تكن لتهتم بها الكتب حول الإسلام، ومن هذه الموضوعات: الإرهاب والتطرف، وحقوق الإنسان، ومكانة المرأة في العالم الإسلامي وفي الإسلام. وتزعم الموسوعة لنفسها أنها متخصصة، وتقدم معلومات دقيقة وموثقة حول القضايا التي تتناولها.

ويمكن التعرف إلى مدى انتشار الكتب حول الإسلام والعالم العربي والشرق الأوسط من خلال شركة أمازون لتوزيع الكتب؛ فيكفي أن تضع كلمة الإسلام أو العرب أو الشرق الأوسط لتمدك الشركة بسيل من الكتب؛ فتحت عنوان إسلام وجدت أنه ثمة ثمانية آلاف وثمانمائة وإحدى عشر كتابًا.

المجلات والدوريات

أما المجلات والدوريات فتعد بالمئات من مختلف أنحاء أوربا وأمريكا، وبمختلف اللغات، فلا يكاد قسم من أقسام دراسات الشرق الأوسط الكبيرة في الجامعات الغربية إلا وله مجلة أو دورية، كما أن الجمعيَّات الاستشراقية لها أيضًا إصداراتها من الدوريات والمجلات.

فللمستشرقين اليوم من المجلات والدوريات عدد هائل يزيد على ثلاثمائة مجلة متنوعة نذكر منها على سبيل المثال:

١- مجلة العالم الإسلامي The Muslim World أنشأها صمويل زويمر ت١٩٥٢م في بريطانيا سنة ١٩١١م وقد كان زويمر هذا رئيس المبشرين في الشرق الأوسط.

٢- مجلة عالم الإسلام Mir Islama ظهرت في بطرسبرج عام ١٩١٢م لكنها لم تعمر طويلًا.

٣- مجلة ينابيع الشرق أصدرها هامر برجشتال في فيينا من ١٨٠٩ إلى ١٨١٨م.

٤- مجلة الإسلام ظهرت في باريس عام ١٨٩٥م ثم خلفتها عام ١٩٠٦م مجلة العالم الإسلامي التي صدرت عن البعثة العلميَّة الفرنسيَّة في المغرب وقد تحولت بعد ذلك إلى مجلة الدراسات الإسلاميَّة.

٥- في عام ١٩١٠م ظهرت مجلة الإسلام Der Islam.

ونذكر على سبيل المثال الجامعات الآتية التي لها دوريات مشهورة.

١- دورية مدرسة الدراسات الشرقيَّة والأفريقية بجامعة لندن.

٢- دورية جسور تصدر عن مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة كاليفورنيا بمدينة لوس أنجلوس.

٣- مجلة العالم الإسلامي من معهد هارتفورد اللاهوتي بالولايات المتَّحدة الأمريكيَّة.

٤- مجلة العلاقات النصرانيَّة الإسلاميَّة عن معهد العلاقات النصرانيَّة الإسلاميَّة بجامعة بيرمنجهام ببريطانيا.

المؤتمرات

دأب المستشرقون منذ بداية عهدهم بالدراسات العربيَّة والإسلاميَّة على الاتصال بعضهم ببعض عن طريق المراسلات والرحلة، ففي وقت من الأوقات قيل إن باريس كانت كعبة الاستشراق حين كان سيلفيستر دو ساسي يترأس معهد اللغات الشرقيَّة الحية في باريس (١٧٩٥م وما بعدها). وكان الحال كذلك مع العواصم الأخرى حين يذيع صيت أحد المستشرقين فيسعون إليه للتلقي عنه أو يسعون إلى استضافته أستاذًا زائرًا. ولكن كان لا بد من طريقة أخرى يتوصلون إلى التبادل العلمي والثقافي؛ فكانت الندوات المحلية والإقليمية ثم الدولية وسيلة من وسائل الصلة بين المستشرقين.

وكانت مؤتمرات المستشرقين في غالبيتها عبارة عن لقاء مجموعة من الباحثين والعلماء لتقديم بحوث وأوراق عمل ونقاشات ومناسبات اجتماعيَّة على هامش المؤتمرات؟ ولم تكن في يوم من الأيام للتسلية والوجاهة والحصول على الامتيازات الماديَّة من انتدابات وبدلات وغيرها كما يحدث في دول العالم النامي، فهي بالتالي وسيلة عمل وتخطيط ودراسة؟

بدأ الأوربيون بمبادرة فرنسية -ما زال الفرنسيون يفخرون بها- منذ أكثر من قرن وربع في عقد مؤتمر دولي كل عدة سنوات -لا تتجاوز خمسًا- للبحث في مجال الدراسات الاستشراقية التي تضم الهند والصين وجنوب شرق آسيا وكذلك تركيا ودول وسط آسيا (الجمهوريات التي كانت تتبع الاتحاد السوفيتي سابقًا) وشمال أفريقيا، ولكن الدراسات الإسلاميَّة كانت وما تزال المحور الأساس لهذه المؤتمرات.

وقد عقد المؤتمر الأول عام ١٨٧٣ في باريس، وبلغت حتى الآن ستًّا وثلاثين مؤتمرًا دوليًّا، وكان المؤتمر قبل الأخير قد عقد في بودابست بالمجر في الفترة من ٣-٨ربيع الأول الموافق ٧-١٢يوليو ١٩٩٧م. وقد قدم فيه ما يزيد على ألف بحث.

هذا فضلًا عن الندوات واللقاءات الإقليمية الكثيرة الخاصة بكل دولة من الدول كمؤتمر

المستشرقين الألمان الذي عقد في مدينة درسدن بألمانيا عام ١٨٤٩م، ولا تزال تنعقد مثل هذه المؤتمرات باستمرار حتى الآن.

ويحضر هذه المؤتمرات مئات من العلماء المستشرقين، حيث حضر مؤتمر أكسفورد تسعمائة ٩٠٠ عالم من خمس وعشرين دولة وثمانين جامعة وتسع وستين جمعيَّة علمية.

المحاضرات العامة والدورات

أما المحاضرات العامة والدورات فهي أكثر من أن تحصى، ويكفي لمعرفة مدى سعة وعمق هذه النشاطات الاطلاع على مواقع الإنترنت لمراكز البحوث وأقسام دراسات الشرق الأوسط (قبل الإنترنت مثلًا كانت جامعة هارفرد تنشر نشرة نصف شهرية تزدحم فيها النشاطات)، ومن الأمثلة على هذه النشاطات أن معظم أقسام دراسات الشرق الأوسط لها لقاء أسبوعي مع محاضرة موجزة بالإضافة إلى محاضرات الأساتذة الزائرين، ومن يتابع ما يدور في هذه الجامعات ويقارن بينها وبين ما يدور في الجامعات العربيَّة الإسلاميَّة -يصاب بالذهول فكأن هذه مدراس ابتدائية مقارنة مع تلك.

الجمعيَّات

هناك العديد من الجمعيَّات الاستشراقية كالجمعيَّة الآسيوية في باريس تأسست عام ١٨٢٢م، والجمعيَّة الملكية الآسيوية في بريطانيا وأيرلندا عام ١٨٢٣م، والجمعيَّة الشرقيَّة الأمريكيَّة عام ١٨٤٢م، والجمعيَّة الشرقيَّة الألمانيَّة عام ١٨٤٥م.

التقارير السياسية

لما كانت الحكومات الغربية تدرك أهمية العلم والمتعلمين فقد سعت إلى الباحثين المتخصصين في دراسات الشرق الأوسط فطلبت إليهم تقديم نتائج بحوثهم ودراساتهم واستشارتهم في اتخاذ القرارات السياسية، وهو ما يعرف في الفكر السياسي من تقارب بين العلماء والساسة. فلا تكاد قاعات وزارات الخارجية الغربية ومجالس النواب فيها واللجان المتخصصة تخلو من الباحثين المستشرقين يقدمون عصارة فكرهم لمصلحة بلادهم وأمتهم.

ومن الأمثلة على ذلك ما نشره مجلس النواب الأمريكي (الكونجرس) عام ١٩٨٥ من تقرير وصل عدد صفحاته إلى اثنتين وأربعين وأربعمائة ضمت العديد من الدراسات والمعلومات القيمة حول ما أطلق عليه في الغرب ظاهرة الأصولية الإسلاميَّة.

وقد كان من المشهور سابقًا ألا يكون للحكومات تأثير في النشاط العلمي للجامعات حتى إن جامعة هارفرد قامت بإلغاء مؤتمر كان من المقرر عقده حول الحركات الإسلاميَّة في العالم العربي عندما علمت بأن وكالة الاستخبارات المركزية ساهمت في تمويل المؤتمر، ثم أصبح من المعتاد أن تهتم الوكالة نفسها بهذه القضايا وتجند لها أساتذة الجامعات والمتخصصين في الدراسات الإسلاميَّة والعربيَّة والدراسات الشرق أوسطية.

الإعلام

يظن الكثيرون أن ثمة فرقًا بين الإعلام والاستشراق؛ فالإعلام يقوم عليه قوم متخصصون في مجالات الإعلام المختلفة، بينما الاستشراق جهد وعمل أكاديمي تخصص فيه نفر من الغربيين الذين يعيشون في أبراجهم العاجية، لا شأن لهم بالإعلام، ربما يكون هذا الأمر صحيحًا قبل أكثر من مائة سنة حينما كان الإعلام في بداياته، أما وقد أصبحت للإعلام قوة عجيبة اليوم فأضحى التداخل كبيرًا بين الإعلام والاستشراق، وإليك تفصيل ذلك:

في بريطانيا مجلة اسمها (المستمع العربي) كانت تصدر عن هيئة الإذاعة البريطانية في أثناء الحرب العالمية الثانية، وفي هذه المجلة وجدت العديد من المستشرقين البريطانيين قد كتبوا العديد من المقالات والدراسات عن العلاقات البريطانية العربيَّة، بل إن بعض كبار المستشرقين من أمثال آربري وبرنارد لويس قد كتب كل واحد منهما عن الجهود البريطانية في الدراسات العربيَّة الإسلاميَّة.

وكتب غيرهما من المستشرقين عن الحضارة الإسلاميَّة، وربما كتب مونتجمري وات عن أثر الحضارة الإسلاميَّة في الحضارة الغربية، ومثل هذه المقالات إن لم تكن علمية بحتة ففيها قدر كبير من الدعاية، ومحاولة لتقوية العلاقات العربيَّة البريطانية في وقت تحتاج فيه بريطانيا للعالم العربي ليقف معها ضد دول المحور.

وانتهت الحرب الأوربية (تسمى خطأ عالمية) فهل انقطعت الصلة بين الاستشراق والإعلام؟ بالطبع لا؛ فهذه بريطانيا ترسل أحد كبار المستشرقين، ورئيس قسم التاريخ بمدرسة الدراسات الشرقيَّة والأفريقية ليقوم بجولة في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة للاتصال بوسائل الإعلام الأمريكيَّة المختلفة من إذاعة وتلفاز وصحافة ليقدم وجهة نظر الحكومة البريطانية في أحداث العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ .

وتصدر الإذاعة البريطانية مجلتها التالية باسم (هنا لندن)، ويستمر المستشرقون في الكتابة فيها، ومن بين الموضوعات التي كتب فيها المستشرقون في المجلة باب (السياسة بين السائل والمجيب)، وقد صدرت عدة كتيبات مستقلة فيها إجابات على أسئلة كثيرة حول أوضاع العالم العربي، ولا شك أن بعض هذه الأسئلة حقيقية ولكن بعضها أيضًا مفتعل لتروج الإذاعة لمواقف أو أفكار معينة.

وتقدم الإذاعة البريطانية أيضًا برامج منوعة منها عروض الكتب التي تصدر في بريطانيا أو الكتب العربيَّة، وتأتي اختيارات هذه الإذاعة بإيحاء استشراقي واضح، فتهتم الإذاعة مثلًا بكتب أحمد أمين (فجر الإسلام) و(ضحى الإسلام) و(ظهر الإسلام)، وتهتم بكتاب علي عبد الرزاق مثلًا (الإسلام وأصول الحكم)، وتهتم بكتب طه حسين، ولعل إذاعة لندن هي من أطلقت عليه (عميد الأدب العربي)، وهي من أطلقت على لطفي السيد (أستاذ الجيل).

وفي أسبوع واحد عرضت الإذاعة لكتب المستشار محمد سعيد العشماوي التي يطعن فيها بالإسلام، ويشوه صورته، وينفي العلاقة بين الدين والسياسة، وتأتي مجلة عربية تصدر من لندن وتقدم لقاءً من ست صفحات مع العشماوي، فهل هناك اتفاق بين الجهتين؟

وتستمر الصلة بين الإعلام والاستشراق، وأبرز الأمثلة على هذه الصلة أن العديد من المجلات الأمريكيَّة تستكتب عددًا من المستشرقين، ومن هذه المجلات مجلة (ال نيو ربلك) New republic، ومجلة اتلانتك الشهرية Atlantic Monthly، وقبلهما مجلة كومنتري Commentary، ونشرة جريدة نيويورك تايمز لعرض الكتب New York Timesr eview of Books، فهذه المجلات تنشر الكثير من المقالات لأبرز المستشرقين الأمريكيين، ومن هؤلاء على سبيل المثال برنارد لويس، وقد دار سجال كبير بينه وبين إدوارد سعيد على صفحات هذه النشرة الأخيرة نيويورك رفيو اوف بكس.

وقد انساقت بعض المجلات التي لم يعرف عنها تناول القضايا الجدلية مثل مجلة المختار reader's Digest فنشرت مقالات تحمل طابع الكتابات الاستشراقية التي تهاجم الإسلام، وتشوه صورته، وتقدمه في صورة سلبية.

ولم يتوقف الأمر عند الصحافة، فالتلفاز والقنوات الفضائية والإذاعات ترجع إلى المستشرقين كثيرًا في أخذ رأيهم في القضايا التي تهم العالم الإسلامي، فهذه المحطات الفضائية الأوربية والأمريكيَّة وحتى العربيَّة الإسلاميَّة تستضيف ريتشارد بوليت من جامعة كولومبيا، وتستضيف فؤاد عجمي -وهو لبناني من الجنوب، ويعمل في أمريكا منذ عشرات السنين، وله آراء أخطر من كثير من المستشرقين- وتستضيف برنارد لويس، وريتشارد لت، ودانيال بايبس، وفيتالي نومكن وغيرهم كثير.

وجاء دور الإنترنت فكلمة استشراق تجدها في عشرات الألوف من الصفحات، وتحمل الآلاف من المقالات التي كتبها المستشرقون، فهناك مواقع متخصصة في الاستشراق، وأخرى تابعة لمؤسسات ومراكز بحوث ومعاهد متخصصة في دراسات الشرق الأوسط أو الشئون الدولية أو الدراسات الاستراتيجيَّة، ومن الأمثلة على النشر الإنترنتي اللقاء الذي أجراه أحد الباحثين في معهد الدراسات الدولية التابع لجامعة كاليفورنيا بمدينة بيركلي مع فيتالي نومكن، ومن الموضوعات التي تناولها اللقاء: موقف الروس من الإسلام، وموضوع العراق، والاهتمام الروسي بالدراسات العربيَّة الإسلاميَّة.

ولم يبتعد الاستشراق عن السينما، أو لم تبتعد السينما عن الاستشراق، فهناك الكثير من الأفلام التي استمدت رؤيتها للإسلام والمسلمين من كتابات المستشرقين وتراثهم الضخم في تشويه صورة العالم العربي الإسلامي، وتنميط العرب والمسلمين في السينما الأمريكيَّة معروف جدًّا، وقد كتب عنه الباحث العربي الأمريكي جاك شاهين العديد من الكتب.

إن كثيرًا من الإعلاميين من صحفيين ومخرجين ومقدمي برامج إذاعية وتلفازية عندما يريدون إعداد برنامج عن العرب والمسلمين؛ فإنهم يلجئون إلى كتابات المستشرقين القديمة والحديثة يستندون إليها، ويستمدون منها معلوماتهم.

وتبقى مسئوليتنا نحن في العالم العربي الإسلامي نترك للإعلام الغربي بشتى أشكاله أن يقدم الصورة التي يريد لنا دون أن نحرك ساكنًا، أو ننبس ببنت شفة، بل إننا نقوم في أحيان كثيرة بترجمة ما يكتبونه عنا من شتم وسب، ونقوم بتوزيعه ونشره، وهو ما فعلته إحدى الشركات في الجزيرة العربيَّة من اتفاق مع شركة ديزني لاند لترجمة العديد من مجلات الأطفال إلى اللغة العربيَّة، وهي الشركة التي كان ينبغي علينا أن نقاطعها منذ زمن طويل لما قدمته وتقدمه من أفلام تسيء إلى صورة العرب والمسلمين، وتشوه العقيدة الإسلاميَّة، والشخصية الإسلاميَّة.

إحصائيات

منذ مائة وخمسين سنة وحتى الوقت الحاضر يصدر في أوربا بلغاتها المختلفة كتاب كل يوم عن الإسلام، هذه الإحصائية التي ننتهي إليها عندما نعرف أن ستين ألف كتاب قد صدرت بين ١٨٠٠ - ١٩٥٠ م أي عبر قرن ونصف، وعندما نعرف أن في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة وحدها يوجد حوالي خمسين مركزًا مختصًا بالعالم الإسلامي، وأن المستشرقين يصدرون الآن ثلاثمائة مجلة متنوعة بمختلف اللغات كما قرر ذلك بوزورث في (تراث الإسلام)، وأن المستشرقين عقدوا مؤتمرات دورية خلال قرن واحد -هو المائة سنة الأخيرة- ثلاثين مؤتمرًا، هذا سوى المؤتمرات الإقليمية، وسوى الندوات، وبعض هذه المؤتمرات مثل مؤتمر أكسفورد ضم قرابة تسعمائة عالم[1].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٩٢، ٦٩٣)، الاستشراق، الإعلام والاستشراق، د. مازن مطبقاني، موقف الاستشراق من السنة والسيرة النبوية، للعمري.

الفصل السابع

آثار الدراسات الاستشراقيَّة

قدَّم الاستشراق خدمات كبيرة للغرب النصراني في خدمة أهدافه التي قام من أجلها من أهداف دينية وسياسية واقتصادية واستعمارية وثقافية. وحتى عندما استغنى الغرب عن مصطلح الاستشراق وأنشأ أقسام دراسات الشرق الأوسط أو الشرق الأدنى أو مراكز البحوث المختلفة؛ فما زالت الأهداف القديمة موجودة.

ولكنه في الوقت نفسه أثر تأثيرات سلبية في العالم الإسلامي في المجالات العقدية، والتشريعية، والسياسية والاقتصادية، والثقافية.

وفيما يأتي أبرز هذه الآثار:

١- الآثار العقدية:

من أبرز الآثار العقدية للاستشراق في العالم الإسلامي، ظهور تيار من المفكرين، والعلماء، والسياسيين، وحتى الناس العاديين، أو العامة الذين نادوا بفصل الدين عن الحياة، أو ما يطلق عليه العلمانيَّة.

فالعقيدة الإسلاميَّة تربط كل مجالات الحياة بالإيمان بالله عز وجل وبالتصور العام الذي جاء به الإسلام للخالق سبحانه وتعالى والكون والإنسان.

فلمّا كانت أوربا قد وجدت الديانة النصرانيَّة المحرفة تعيق تقدمها ونهضتها، ظهر فيها التيار الذي أطلق عليه التنوير مناديًا بفصل الدين عن الحياة، أو قصر الدين على الشعائر التعبدية والعلاقة بين الله والإنسان. أما شئون الحياة الأخرى من سياسة واقتصاد واجتماع فلا علاقة للدين به.

ونظرًا لأن أوربا لم تعرف النصرانيَّة الحقيقية أو الدين الذي جاء به عيسى عليه السلام بما أحدثه بولس فيها من تحريفات؛ فإن ما ينطبق على أوربا لا يمكن أن ينطبق على الإسلام.

ونهضت أوربا نهضتها بمحاربة الدين والكنيسة، وبلغت الذروة في هذه الحرب في الثورة الفرنسيَّة.

وقد أثر الاستشراق في هذا المجال عن طريق البعثات العلميَّة التي انطلقت من العالم الإسلامي إلى فرنسا كما يقول الشيخ محمد الصبّاغ: «إنّ إفساد الطلبة المبعوثين لم يكن ليتحقق في بلد من البلاد الأوربية كما كان يمكن أن يتحقق في فرنسا التي خرجت من الثورة الفرنسيَّة وهي تسبح في بحور من الفوضى الخلقية والفكريَّة والاجتماعيَّة ... من أجل ذلك كانت فرنسا محل البعثات».

فانطلقت هذه البعثات من تركيا، ومن مصر، ومن إيران، ومن المغرب؛ وكانت هذه البعثات

تحت إشراف مستشرقين فرنسيين؛ فمثلًا كانت البعثة المصريَّة تحت إشراف جونار.

ويقول أحد المستشرقين عن البعثات الأولى: إنها كانت لدراسة الهندسة والفنون الحربية، ولكن المعلمين الفرنسيين كانوا حريصين على أن ينقلوا إلى الطلاب المسلمين الآداب الفرنسيَّة والثقافة الفرنسيَّة.

وأيضًا فإن مثقفي التغريب من العرب والمسلمين قد رددوا مقولات استشراقية دون وعي وإدراك؛ لأنهم قد انبهروا بالغرب، ومنهجه، وثقافته، وتقدمه التكنولوجي إلى درجة أفقدتهم مصداقيتهم، وموضوعيتهم، ومنهجيتهم، وكانوا بحق أذرع الغرب في المجتمع الإسلامي، يحاولون إنجاح ما عجز عنه المستشرقون، وتهيئة الأرضية ليسهل تشويه الإسلام، الذي يعد أكبر خطر تواجهه أوربا قديمًا وحديثًا.

ومن تأثير الاستشراق في المجال العقدي الاهتمام المبالغ فيه بالصوفيَّة وبخاصة تلك التي ابتعدت عن الكتاب والسنّة؛ فتجدهم يجعلون لابن عربي مكانة خاصة في النشاطات الاستشراقية، ويجذبون أبناء المسلمين لمثل هذه الاهتمامات.

كما أن من اهتمامات الاستشراق التي تدعو إلى الشكوك في نياتهم الاهتمام بالفرق المنحرفة كالرافضة والإسماعيلية وغيرها من الفرق، فيعطونها من وقتهم ومن دراساتهم ما تجعل الغريب عن الإسلام يظن أن هذا هو الإسلام.

وقد حرص الاستشراق والتنصير على إنشاء المدارس والجامعات الغربية في العالم الإسلامي، فمن ذلك الكلية الإنجيلية التي تحولت إلى الجامعة الأمريكيَّة التي لها فروع في كل من القاهرة، وبيروت، وإسطنبول، ودبي.

بالإضافة إلى كلية فيكتوريا (مدرسة ثانوية، وقد أصبحت منذ أكثر من عشرين سنة تضم المراحل الدراسية كلها) والكلية الأمريكيَّة في بيروت (مدرسة ثانوية)، وقد زعم كرومر في احتفال بمدرسة فيكتوريا بأن الهدف من هذه المدرسة وشبيهاتها تنشئة أجيال من أبناء المسلمين يكونون جسرًا بين الثقافة الغربية ومواطنيهم المسلمين، ولعلها عبارة ملطّفة لتكوين جيل ممسوخ لا يعرف ثقافته ولا عقيدته.

وقد وصف الشيخ سعيد الزاهري التلاميذ الجزائريين الذين درسوا في المدارس الفرنسيَّة في الجزائر -أطلق عليها خداعًا المدارس العربيَّة- بأنهم لا يصلون، ولا يصومون، ولا يتحدثون اللغة العربيَّة فيما بينهم، ولا يؤمنون بأن القرآن الكريم وحي من الله.

٢- الآثار الاجتماعيَّة:

تعد الآثار الاجتماعيَّة من أخطر الآثار التي ما زال الاستشراق حريصًا على تحقيقها في العالم الإسلامي؛ فقد اهتم المستشرقون بدراسة المجتمعات الإسلاميَّة ومعرفتها معرفة وثيقة حتى يمكنهم أن يؤثروا فيها بنجاح.

وإن دوافعهم لهذا تنطلق من النظرة الاستعلائية الغربية بأن المجتمعات الغربية وما ساد فيها من فلسفات ونظريات هي المجتمعات الأرقى في العالم، وقد تمكن الاحتلال بالتعاون مع الاستشراق في إحداث تغيرات اجتماعيَّة كبيرة في البلاد التي وقعت تحت الاحتلال الغربي.

ففي الجزائر مثلًا حطم الاستعمار الملكيات الجماعية أو المشاعة للأرض وذلك لتمزيق شمل القبائل التي كانت تعيش في جو من الانسجام والوئام.

وقد تعاون الاستشراق والاحتلال على إحداث النزاعات بين أبناء البلاد الإسلاميَّة بتشجيع النزعات الانفصالية، كما حدث في المغرب العربي أيضًا بتقسيم الشعب المغربي إلى عرب وبربر، والتركيز على فرنسة البربر وتعليمهم اللغة الفرنسيَّة ونشر الحملات التنصيريَّة في ديارهم، وقد أنشأت الحكومة الفرنسيَّة الأكاديمية البربرية في فرنسا لتشجيع هذه النزعة.

ومن الجوانب الاجتماعيَّة التي عمل فيها الاستشراق على التأثير في المجتمعات الإسلاميَّة البنية الاجتماعيَّة، وبناء الأسرة والعلاقة بين الرجل والمرأة في المجتمعات الإسلاميَّة؛ فقد اهتم الاستشراق بتشويه مكانة المرأة في الإسلام، ونشر المزاعم عن اضطهاد الإسلام للمرأة وشجع الدعوات إلى التحرير المزعوم للمرأة التي ظهرت في كتابات قاسم أمين، والطاهر الحداد، ونوال السعداوي، وهدى الشعراوي، وغيرهم.

ويرى الدكتور محمد خليفة أن موقف الاستشراق من المرأة المسلمة نابع من وقوعه «تحت تأثير وضع المرأة الغربية أنها نموذج يجب أن يحتذى به، وأن ما حققته من مساواة -في نظرهم- وحقوق يجب أن يتسع ليشمل المرأة المسلمة والمرأة الشرقيَّة العامة ...» ويضيف خليفة بأن الاستشراق يسعى «إلى تقويض وضع المرأة المسلمة داخل الأسرة على التمرد على النظام، والخروج باسم الحرية، وتصوير وضع المرأة المسلمة تصويرًا مزيفًا لا يعكس الحقيقة».

وقد أنشئت رابطة دراسات المرأة في الشرق الأوسط ضمن تنظيم رابطة دراسات الشرق الأوسط الأمريكيَّة، وهي التي تهتم بأوضاع المرأة المسلمة، وتشجع اتجاهات التغريب من خلال مجلتها ربع السنوية واجتماعاتها في إطار المؤتمر السنوي لرابطة دراسات الشرق الأوسط، وذلك بدعوة الباحثات المسلمات اللاتي يتبنين الأفكار الغربية من أمثال نوال السعداوي، وفاطمة المرنيسي، وحنان الشيخ، وغيرهن، ومن خلال تنظيم الندوات حول وضع المرأة المسلمة في المجتمعات الإسلاميَّة.

و يقوم الاستشراق الإعلامي بدور بارز في الترويج للفكر الغربي في مجال المرأة، ومن ذلك الصحافة الغربية والإذاعات الموجهة.

فمن الكتب التي قدمت هيئة الإذاعة البريطانية عروضًا لها كتاب (ثمن الشرف) للكاتبة البريطانية الأصل جان جودون التي تناولت فيه دراسة أوضاع المرأة في خمس دول إسلامية هي الباكستان، وأفغانستان، والكويت، ومصر، والمملكة العربيَّة السعودية. وقد خلطت الكاتبة فيه

بين موقف الإسلام من المرأة وبعض التطبيقات الخاطئة في هذه الدول.

ومن المعروف أن الإسلام حَكَمٌ على أهله، وليس سلوك المسلمين حجة على الإسلام.

وقد قدمت إذاعة لندن في شهر جمادى الأولى تقريرًا عن ندوة تعقد في إحدى الدول العربيَّة حول موضوع المرأة، وقدمت تصريحًا لمسئول في تلك الدولة يزعم فيه أن بلاده وتركيا هما الدولتان الوحيدتان اللتان أصدرتا قوانين تحرِّم تعدد الزوجات، وتعطي المرأة كثيرًا من الحقوق لمساواتها بالرجل.

وإن التوازن في عرض وجهات النظر يقتضي أن تقدم الإذاعة من يتناول وجهة النظر الأخرى لمثل هذه التصريحات.

وكانت الإذاعة قد قدمت تقريرًا عن مؤتمر عقد في قطر للمرأة المسلمة، وعرضت أخبار هذه الندوة بكثير من السخرية، ومن ذلك وصفها لانتقال النساء في حافلات ذات ستائر غامقة اللون حتى لا يراهن أحد، بالإضافة إلى عبارات أخرى مليئة بالاستهزاء من موقف الإسلام من المرأة.

٣- الآثار السياسية والاقتصادية:

يزعم الغربيون أن الديموقراطية الغربية هي أفضل نظام توصل إليه البشر حتى الآن، ولذلك فهم يسعون إلى أن يسود هذا النظام العالم أجمع، ومن بين الدول التي يريدون لنظامهم أن يسودها البلاد الإسلاميَّة.

وقد سعوا إلى هذا من خلال عدة سبل، وأبرزها هو انتقاد النظام السياسي الإسلامي، وقد ظهرت كتب كثيرة عن نظام الخلافة الإسلامي وافتروا على الخلفاء الراشدين بزعمهم أن وصول الصديق وعمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) إلى الخلافة كان نتيجة لمؤامرة بين الاثنين.

وكتب مستشرقون آخرون زاعمين أن النظام السياسي الإسلامي نظام قائم على الاستبداد، وفرض الخضوع والمذلة على الشعوب الإسلاميَّة؛ بل بالغ لويس في جعل النظام السياسي الإسلامي يشبه النظام الشيوعي في استبداده وطغيانه.

وقد تأثرت بعض الدول العربيَّة التي خضعت للاحتلال الغربي بالفكر السياسي الغربي؛ بأن قامت باستيراد النظام البرلماني دون أن يتم إعداد الشعوب العربيَّة لمثل هذه الأنظمة؛ فكانت كما قال أحد المستشرقين بأن العرب استوردوا برلمانات معلبّة دون ورقة التعليمات.

وما زالت هذه البرلمانات في البلاد العربيَّة يتحكم فيها الحزب الحاكم الذي لا بد أن يفوز بأغلبية المقاعد بأية طريقة كانت.

ومع ذلك فما زال الغرب حريص على نشر الديموقراطية، وقد كانت تصريحات الساسة الغربيين بأن (حرب الخليج الثانية) ستكون مناسبة لفرض الديموقراطية في العالم العربي، وستكون البداية في الكويت.

ومن الحقائق المثيرة للانتباه أن تركيا (كما رأينا) كانت من أقدم الدول الإسلاميَّة تغربًا وتطبيقًا للنظام الديموقراطي، ولكن عندما وصل الإسلاميون للحكم وانقلب السحر على الساحر-كما يقال- قلبت الدول الغربية لنظامهم الديموقراطي ظهر المجن وسعوا إلى تأييد العسكر في كبت الحريات ومصادرة الديموقراطية.

ويمكن أن يضاف إلى هذا ما حدث في الجزائر حيث كاد الإسلاميون (جبهة الإنقاذ) أن تصل إلى الحكم عن طريق صناديق الاقتراع والديموقراطية بأسلوبها الغربي ولكن تكالبت الدول الغربية وغيرها على إجهاض هذه التجربة وحرمان الإسلاميين من حقهم في الوصول إلى الحكم.

أما في المجال الاقتصادي؛ فإن الغرب سعى إلى نشر الفكر الاقتصادي الغربي الاشتراكي والرأسمالي وذلك بمحاربة النظام الاقتصادي الإسلامي، وكما يقول محمد خليفة: «إنَّ المستشرقين في سعيهم للترويج للفكر الاقتصادي الغربي قاموا بإعادة تفسير التاريخ الاقتصادي الإسلامي من وجهة نظر الرأسمالية والشيوعية كنوع من التأصيل للنظريتين وتقديمهما على أنهما لا يمثلان خروجًا عن النظام الاقتصادي الإسلامي».

وكان من نتائج الترويج للاشتراكية والرأسمالية في العالم الإسلامي؛ أن انقسم العالم الإسلامي على نفسه، فأصبح قسم منه يدور في الفلك الشيوعي، والقسم الآخر في الفلك الرأسمالي.

ولعل من طرائف المواقف الاستشراقية أن تسعى الدول الغربية إلى بث النظام الاشتراكي في بعض الدول العربيَّة بتدريس الاقتصاد الاشتراكي، والترويج بأن التنمية الحقيقية في العالم العربي تتطلب تأميم وسائل الإنتاج، وأن الحرية الاقتصادية الغربية لا تناسب مراحل التنمية الأولى.

ولا شك أن سعيهم إلى بث هذا الفكر أن يبعدوا الإسلام عن العودة إلى حياة المسلمين سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا.

وكان من تأثير الاستشراق أيضًا تشجيع الصناعة في البلاد الإسلاميَّة دون الاستعداد الكافي لها، وإهمال قطاع الزراعة فقد اقتنع العالم العربي بأن النهضة الحقيقية إنما تكون في الصناعة، ولذلك أهملت الزراعة إهمالًا شبه كلي، مع أن نهضة الغرب الصناعية بدأت بالاهتمام بالزراعة وما زال الغرب يسيطر على إنتاج الحبوب والمواد الغذائية الأساسية في العالم.

ومن الأمثلة على هذا ما حدث في مصر في عهد الرئيس عبد الناصر؛ حيث تم التوسع في مشروعات صناعية (خيالية) مع إهمال شبه تام للزراعة حتى أصبحت البلاد عالة على الدقيق الأمريكي والأسترالي وغيرهما.

وقد حدث مثل هذا في الجزائر، وإن كنّا في الحقيقة لم نتقدم لا في الزراعة ولا في الصناعة.

٤- الآثار الثقافية والفكريَّة:

حقق الاستشراق نجاحًا كبيرًا في التأثير في الحياة الثقافية والفكريَّة في العالم الإسلامي؛ فبعد أن كان القرآن الكريم والسنّة المطهرة وتراث علماء الأمة الذين فهموا هذين المصدرين فهمًا جيدًا،

وعاش المسلمون على هدي من هذه المصادر في جميع مجالات الحياة -أصبحت المصادر الغربية تدخل في التكوين الفكري والثقافي لهذه الأمة؛ سواء أكان في نظرتها لكتاب ربها سبحانه وتعالى ولسنة نبيها، أو للفقه، أو للعلوم الشرعية الأخرى، أو في منهجية فهم هذه المصادر ومنهجية التعامل معها، كما أثر الفكر الغربي في المجالات الفكريَّة الأخرى كالتاريخ، أو علم الاجتماع، أو علم النفس، أو علم الإنسان، أو غيره من العلوم.

وقد استطاع الاستشراق تحقيق هذا النجاح بما توفر له من السيطرة على منابر الرأي في العالم الإسلامي؛ فقد أنشأ الغرب العديد من المدارس كما أن العديد من أبناء الأمة الإسلاميَّة تلقوا تعليمهم على أيدي المستشرقين في الجامعات الغربية (الأوربية والأمريكيَّة).

ولمَّا كانت بعض البلاد العربيَّة والإسلاميَّة خاضعة للاحتلال الأجنبي فقد مكّن لهؤلاء الذين تعلموا في مدارسه؛ فما زالت الصلة قوية فيما بين الطلبة الذين تخرجوا في كلية فيكتوريا بعد أن تسلم كثير منهم مناصب حسّاسة في بلادهم.

ومن المنابر التي استطاع الغرب أن ينشر من خلالها الثقافة والفكر الغربيين وسائل الإعلام المختلفة من صحافة، وإذاعة، وتلفاز، ونشر بأشكاله المتعددة؛ فقد أنشئت الصحف والمجلات التي تولى رئاسة تحريرها أو عملية الكتابة فيها كثير من الذين تشبعوا بالثقافة الغربية، وقد بذلوا جهودًا كبيرة للرفع من شأن تلاميذهم فهذا يطلق عليه (عميد الأدب العربي)، وآخر يطلق عليه (أستاذ الجيل)، وثالث يطلق عليه (الزعيم الوطني).

ومن هذه الصحف الأهرام، ومجلات المقتطف وغيرهما من الصحف والمجلات؛ كما أنشئوا المسارح والسينما، وأدخلوا إلى حياة الشعوب العربيَّة الإسلاميَّة فنون اللهو غير المباح من مراقص وغناء وغير ذلك.

وكان للاستشراق دوره في مجال الأدب شعرًا ونثرًا وقصة. فقد استغلت هذه الوسائل في نشر الفكر الغربي العلماني وبخاصة عن طريق ما سمي (الحداثة) التي تدعو إلى تحطيم السائد والموروث، وتفجير اللغة، وتجاوز المقدس ونقد النصوص المقدَّسة.

وقد استولى هؤلاء على العديد من المنابر العامة ولم يتيحوا لأحد سواهم أن يقدم وجهة نظر تخالفهم وإلا نعتوه بالتخلف، والرجعية، والتقليدية، وغير ذلك من النعوت الجاهزة.

وقد انتشرت في البلاد العربيَّة الإسلاميَّة المذاهب الفكريَّة الغربية في جميع مجالات الحياة: في السياسة، والاقتصاد، وفي الأدب، وفي الاجتماع.

ففي السياسة: ظهر من ينادي بالديموقراطية، ويحارب الإسلام، وفي الاقتصاد: ظهر من تبنى الفكر الشيوعي، والاشتراكي، وفي الأدب: ظهر من نادى بالنظريات الغربية في دراسة اللغة، وفي الأدب، وفي النقد الأدبي؟ وأخذ كثيرون بالنظريات الغربية في علم الاجتماع، وفي التاريخ، وفي علم النفس، وفي علم الإنسان، وغير ذلك من العلوم.

وقد دخل المستشرقون إلى مجامع اللغة، وحولوا أهدافهم إلى مناهج براقة سواء في أحياء العاميات، أو الدعوة إلى تعديل النحو، أو اللغة الوسطى، أو الكتابة العربيَّة المعاصرة، وكلها محاولات ترمي إلى إيجاد فجوة بين لغة القرآن ولغة الكتابة.

ومن قبل ذلك تسللوا للبحث عن العاميات، ولبسوا ملابس التجار والدبلوماسيين، وصاروا يعملون بشتى الوسائل لجمع الأمثال العامية والمواويل بهدف مسموم هو القول بأن العامية لغة لها تراث.

وقد أولوا اهتمامًا شديدًا لدراسة اللهجات في البلاد العربيَّة، وعقدوا مؤتمرًا خاصًا لذلك في مدينة ميونخ بألمانيا ١٩٥٧ م، وكتب المستشرقون في ذلك كتبًا منها: كتاب في لغة الغجر في البلاد العربيَّة، ودراسات في اللهجات الأمهرية؛ السحرية والقطرية وغيرها من اللهجات المستعملة في جنوب الجزيرة العربيَّة وعلى أطرافها.

والهدف من التركيز على اللهجات العامية واضح؛ فهم الذين قدموا تلك الفلسفة الضالة التي تقول: إن العامية أقدر على تصوير المشاعر، مع أن هذه المشاعر التي تصورها العامية هي المشاعر الساذجة، ومشاعر طفولة البشرية أين منها ذلك الشعر الرصين، والبيان العربي الذي يحمل صور المجتمع الإسلامي، والنفس الإسلاميَّة في مراحل الرشد الفكري؟! والهدف هو إضعاف لغة القرآن وتمييعها بالتحريض على استعمال اللهجات، وتحطيم قواعد اللغة باسم التيسير[1].

---

(١) انظر: الاستشراق للمطبقاني، الابتعاث ومخاطره، محمد الصباغ ص(٢٩، ٣٠)، الإسلام والحضارة الغربية، محمد محمد حسين ص(٤٦)، الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير، محمد السعيد الزاهري س(١٠٨)، المنهج الاستشراقي عند المتغربين فكريًا، قاسم خضير عباس.

الفصل الثامن

مواجهة الاستشراق

١- علينا أن نمثل أنفسنا أمام أنفسنا وأمام غيرنا، بأن تقوم مؤسساتنا العلميَّة برسم الصورة الثقافية، والتاريخية، والعقدية لأمة الإسلام دون أن تخضع للأفكار المسبقة التي رسمها المستشرقون، وهذا يعني أن يقوم الدعاة والعلماء المسلمون بواجب الدعوة بنشر كل ما يتعلق بالإسلام في شتى جوانب الحياة، وأن نسعى إلى تطبيق الإسلام التطبيق الصحيح الذي كان عليه سلف الأمة الصالح؛ فإننا متى ما عرفنا الإسلام فمن السهل أن نتعرف إلى الشبهات التي يثيرها الاستشراق، ونستطيع أن نرد عليها.

وينبغي أن نلاحظ أن تمثيل الاستشراق للإسلام وللمسلمين بالنسبة للغرب ينعكس على قضايانا السياسية، وعلى علاقاتنا مع الغرب، حيث يتصور الرأي العام الغربي أننا أمة همجية، وأننا برابرة كما تزعم كثير من الدراسات، وأننا لا نمتلك مقومات حضارية، ولا نمتلك عقلية منطقية، ولا نفكر في المستقبل، هذا كله يمكن أن يؤدي إلى مشكلة في نطاق العلاقات السياسية، والاقتصادية، والعسكرية، والصراع بين الشرق والغرب؛ لذلك فإن قيامنا بتمثيل أنفسنا هو الحل الأمثل، نحن الذين نطرح فكرنا وديننا وعاداتنا، لكنه ينبغي أن نعترف أننا حتى الآن لم نمثل أنفسنا أمام أنفسنا، أقصد لا زلنا ندرس الإسلام، ولا زلنا ندرس أوضاع المسلمين، وندرس شرائح كثيرة تاريخية، وجغرافية، واقتصادية، واجتماعيَّة، وثقافية؛ من خلال الدراسات الغربية والاستشراقية، وأن مناهج جامعاتنا في أرجاء العالم الإسلامي مليئة بمثل هذه الكتب، وحتى تلك الكتب التي ألفها عرب لو قرأناها بدقة؛ فإننا سنجد أن كثيرًا من الأفكار مترجمة دون عزو عن الاستشراق.

فلا بد إذًا من أن نبني صرحنا الثقافي الفكري الديني بأنفسنا، وأن تكون دراستنا مستقلة ذات مناهج مستقلة، ورؤى مستقلة، وأن هذا الذي يطرح لا يكون متأثرًا وغارقًا في بؤرة الاستشراق، أن نمثل أنفسنا أولًا عن طريق بناء الصرح العلمي والرؤى الإسلاميَّة الخالصة المنبثقة عن كتاب الله -تعالى- وسنة محمد صلى الله عليه وسلم، ثم أن نعكس هذا على الغرب بترجمات إلى اللغات العالمية المختلفة.

٢- وثمة جانب آخر لمواجهة الاستشراق، وهو أن ندرس الاستشراق من خلال دراسة الفكر الغربي عامة؛ فكما قيل: خير وسائل الدفاع الهجوم، فعلينا أن نخرج من دائرة الدفاع التبريري إلى الهجوم، وهذا منهج قرآني في الجدال مع الأمم الأخرى والعقائد الأخرى؛ فقد فنَّد عقائد النصارى واليهود وأوضح الانحرافات العقدية، والفكريَّة، والاجتماعيَّة التي كانوا يمارسونها، كما أوضح انحرافات الجاهلية في الاعتقاد، وفي الاجتماع، وفي الاقتصاد، وفي الأخلاق.

وأيضًا علينا أن نتقل من كوننا ذاتًا مدروسة إلى ذات دارسة، ومن ذات موضع الدراسة إلى ذات تجعل غيرها موضع الدرس، وأن نتخلص من عقد النقص التي فينا، وأن نقضي على عقدة الاستعلاء لدى عدونا، وهو ما يمكن أن نفعله حين نهيئ عددًا من أبنائنا المقيمين في الخارج لدراسة أوضاع المجتمعات الغربية.

وأمر آخر اقترحه بعض الباحثين ينبغي فعله في إطار مناهضة الاستشراق وهو إنشاء علم (الاستغراب) في جامعاتنا ومعاهدنا المتخصصة بغية استيعاب الغرب، واحتواء توجهاته، وميوله الفكريَّة، وكذلك كشف البنية التحتية للعقلية الغربية؛ حتى تكون مناهضتنا للغرب والاستشراق الغربي متسمة بالدقة والإتقان، ويكون خطابنا وردودنا نابعة عن موقف المسئولية العقلية والنضج الثقافي، وعلى مستوى الوعي الغربي والعقلية الغربية، ولعل إدوارد سعيد يمثل معلمًا رائعًا في هذا الطريق. . . فالرجل عربي فلسطيني حاول استيعاب الغرب وتوجهاته الاستشراقية استيعابًا أقل ما يمكن وصفه بأنه يتصف بكثير من الجدية والإتقان، ثم هو بحكم معايشته الغربيين لمدة طويلة أتقن أسلوب مخاطبة العقلية الغربية مما جعل كتابه الذي أصدره عام ١٩٧٨ ميلادي (بالإنجليزية) متناولًا فيه موضوع الاستشراق يحدث دويًّا كبيرًا في الساحة الثقافية الغربية بصورة عامة، وفي محيط الاستشراق بصورة خاصة؛ فأننا لو سرنا على خطى إدوارد سعيد وأسسنا دوائر متخصصة لإنجاز مثل هذه الأعمال؛ فإننا سنحقق الكثير في سبيل الرد على التحدي الاستشراقي بجدارة وإتقان.

٣- لا بد أن نتعرف على الاستشراق معرفة دقيقة منذ نشأته وحتى اليوم، وهذه المعرفة لا تتطلب أن نعرف كل ما كتب وما يكتب في مجال الدراسات العربيَّة والإسلاميَّة في الغرب؛ بل نعرف القضايا الكبرى التي يتبناها المستشرقون؛ لأننا لو أردنا أن نرد على كل كلمة لما وسعنا الوقت والجهد، وإنهم ليفرحون بأن ننشغل بمثل هذا الأمر.

٤- ولمَّا كانت الفرصة قد أتيحت للعلماء المسلمين أن يشاركوا في الندوات والمؤتمرات الاستشراقية؛ فإن عليهم أن ينتهزوا هذه الفرصة بالحضور، والمشاركة، وإلقاء المحاضرات، ونشر الكتب والبحوث باللغات الأوربية المختلفة حرصًا على أن يصل صوت الإسلام إلى العالم أجمع؛ فقد آن الأوان أن يعرف العالمُ الإسلامَ من أبنائه المؤمنين به لا من أعدائه المحاربين له.

٥- وعلينا أن نسعى إلى تشجيع الغربيين الذين يظهر في دراساتهم بعض التوازن والاعتدال بالمساهمة في نشر إنتاجهم والترويج له، واستضافتهم في العالم الإسلامي في المنتديات الثقافية والفكريَّة.

٦- ومواجهة الاستشراق تحتاج إلى مؤسسات ذات إمكانات كبيرة؛ فعلى أصحاب الأموال والأثرياء من العالم الإسلامي أن يسهموا في هذا النشاط العلمي، فكما هبَّ العالم لمواجهة الشيوعية؛ فكونت اللجان، وعقدت المؤتمرات، ونشرت الكتب؛ فلماذا السكوت على

الاستشراق أو الفكر الغربي الوافد الذي يملك الوسائل الضخمة لنشر فكره ومبادئه وآرائه؟!

٧- ومن أساليب هذه المواجهة محاولة السيطرة على وسائل الإعلام بما تبثه من فكر مخالف للإسلام، وتشجيع العلماء والأدباء المسلمين على ممارسة دورهم في هذا الجانب.

٨- كما علينا أن نكون أشد حزمًا في التعامل مع من يحارب الإسلام والمسلمين في شتى المجالات.

٩- تنقية الذاكرة الغربية من مخلفات استشراق القرون الوسطى، والتي تثبط همم الغربيين عن دراسة الإسلام ومبادئه.

وهذا الأمر لا يكفي فيه مجرد الردود الكتابية؛ إذ إن مثل هذه الردود بذل الكثيرون فيها إلى اليوم مجهودًا مشكورًا، ولكن رغم ذلك لا زالت آثار الموقف المجافي للحقيقة، والذي ولدته كتابات العصور الوسطى في أوربا قائمة.

أما السبب في هذا الإخفاق في إزالة المفتريات الاستشراقية؛ فقد يكمن في عزوف الإنسان الغربي عن قراءة الموضوعات الدينيَّة، وعن الاهتمام بكل ما هو ميتافيزيقي، بعد انتشار الفكر الإلحادي الذي ألقى الأديان كلها -من غير استثناء- في سلة المهملات؛ فالبحوث الدينيَّة التي ألفت في هذه الفترة، سواء أكانت تتعلق بالإسلام أم المسيحيَّة أم غيرهما من الأديان لم تلق آذانًا مُصْغِية في المجتمع الغربي، فلم يقرأها إلا العدد القليل؛ مما جعل الرؤى الاستشراقية عن الإسلام تظل باقية كعادتها في عقول الغالبية العظمى من الأوربيين الذين يرثون تلك الرؤى خلفًا عن سلف.

بل الحل يكمن -بالإضافة إلى إعداد كتب جيدة تعرض الإسلام بصورة موضوعية وتناقش المفتريات الاستشراقية بصورة علمية رصينة- في تحريك العمل الدعوى في العالم الغربي على نطاق أوسع؛ بحيث لا يبقى بيت مدر، ولا وبر إلا وقد طرقنا بابه، ووضحنا لأصحابه حقيقة الإسلام والصورة الصحيحة التي كانت عليها حياة نبي الإسلام، وقبل هذا وذاك أن نخلق في الوعي الغربي أهمية التدين الصحيح بإزالة ما به من شبهات إلحادية، وتساؤلات لا دينية وذلك حتى ينصت الغربيون إلينا فيستمعوا إلى ما نود قوله بقلوب يقظة وعقول منتبهة.

١٠- مناهضة المستشرقين وهدم بنيان أفكارهم، فينبغي علينا أن نضع في الاعتبار بأن أزمة الاستشراق هي أزمة المناهج، وليست أزمة التطبيق، أي أن المستشرقين بعد عصر النهضة بدءوا يخضعون مصادر الإسلام لقواعد المنهج الفيولوجي والتاريخي وعلوم الإنسان الاجتماع وكلها بمفاهيم غربية، مما جعل حقائق الإسلام تظهر في غير ثوبها بل تصبح مشوهة المظهر، مبتورة الأطراف.

فالخطأ إذًا، يكمن في مناهج البحث أو في طريقة توظيف تلك المناهج في سبيل الوصول، إلى أهداف معينة، مما يحتم علينا إذا أردنا مناهضة الاستشراق حقًا وحقيقة أن نغربل تلك المناهج

غربلة دقيقة، وأن نشير إلى مكامن الخطأ فيها، وأن نبرز كيف أن تلك المناهج استغلت استغلالًا مجحفًا في سبيل الوصول إلى مآرب معينة، فعلى سبيل المثال استغل طه حسين المنهج التاريخي والفيلولوجي في إبطال صحة الشعر الجاهلي، بينما أثبت ناصر الدين الأسد، وباستخدام المناهج عينها صحة الشعر الجاهلي، مما يدل على أن الخطأ قد يكمن في طريقة توظيف واستغلال منهج ما وليس في المنهج عينه.

وإبراز أخطاء المستشرقين في استخدام المناهج ثم إظهار الفكر الإسلامي وفقًا لمعايير المناهج المتقدمة ليس من الأمر المستحيل، غير أنه يبدو أننا في حين معارضة الاستشراق قد صرفنا معظم طاقاتنا في نقد التطبيقات الاستشراقية واكتفينا في حين تقديم الإسلام بالتزمت عند مناهج ينظر إليها المستشرقون نظرة الازدراء، ويطلقون عليها بأنها (بالية) و(لا تاريخية)، وهناك بعض المستشرقين ممن لا يكتفون بهذا فقط بل يذهبون إلى أبعد من ذلك فيرفضون أن تكون لدينا مناهج معاصرة أصلًا، فهذا المستشرق المعاصر «فرنسيسكو غابريلي» يقول -بعد أن تبجح بما لديهم من المنهجيات والأدوات-: «لا ينبغي على أصدقائنا الشرقيين أن يطلبوا منا دراسة ماضيهم وحاضرهم على ضوء علم التاريخ الحديث الشرقي، أو الفلسفة الحديثة الشرقيَّة، أو علم الجمال، أو علم الاقتصاد الشرقي، لماذا؟ لسبب بسيط هو أن ذلك غير موجود حتى الآن»!!

تطوير مناهج البحث

فنحن، إذًا، بحاجة إلى تطوير المناهج الموجودة أصلًا في تراثنا الغني، وكل ما نحتاج إليه هو إعادة إبراز تلك المناهج بقوالب معاصرة، وخلع الهيبة الأكاديمية الحديثة عليها، فما يتبجح به الغربيون من المناهج ليس إلا اقتباسات مما أبدعه العلماء العرب والمسلمون من المناهج في عصور الازدهار العلمي الإسلامي، فكل ما فعلوه هو تطوير تلك المناهج وإحداث بعض تعديلات طفيفة حتى يتساوق مع النسق الغربي في التفكير والتأمل، ثم تجربة تلك المناهج في مجالات أوسع كما اقتضته طبيعة العصر.

فمسألة تطوير المناهج لكي تواكب مصطلحات العصر ليس من الأمر المستحيل، وأقل ما يمكن فعله في هذا الإطار هو القيام بعملية الغربلة والانتقاء، وإعادة صياغة ما يتوافر لدى الغرب من مناهج البحث والتفكير وفقًا للتوجهات والمفاهيم الإسلاميَّة ثم قولبة الفكر الإسلامي وفقًا لخطوات ومصطلحات تلك المناهج الحديثة، وبهذه الصورة نستطيع أن نقف في وجه المستشرقين، ونبطل ما يبدونه من عنهجية، ويمارسونه من تطفل وتشويش على الفكر الإسلامي النقي الذي هم بعيدون عن كل البعد، قلبًا وقالبًا.

ونحن بحاجة أيضًا إلى إعادة الأمور إلى نصابها بأخذ زمام المبادرة من المستشرقين، وإعادة دراسة التراث ذاته من الداخل على أيد عربية إسلامية، ذات كفاية وخبرة ودراية، وأن تتم معالجة التراث كوحدة ضمن سياقة التاريخ الطبيعي، متسلحين برؤية تاريخية واعية، متطلعين إلى بناء المستقبل

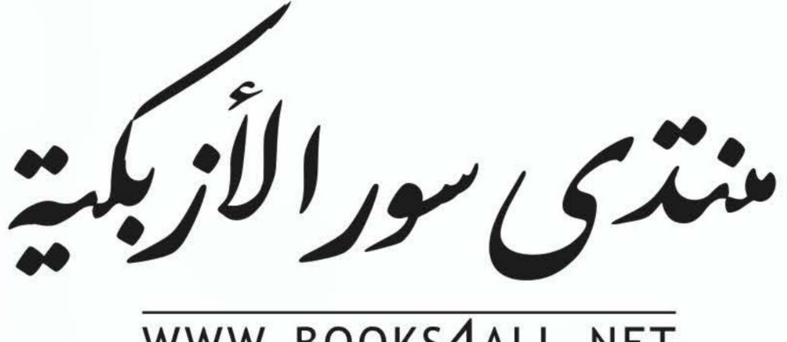
انطلاقًا من معطيات واقعنا وخصوصيتنا ومقومات شخصيتنا، وحتى يصبح التراث معاصرًا لذاته ومعاصرًا لنا في آن[١].

(١) انظر: الاستشراق للمطبقاني، موقف الاستشراق من السيرة والسنّة النبوية، للعمري، مناهضة الفكر الاستشراقي، محمد شمس الحق، الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٩٥)، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، الاستشراق، أنور الجندي، الفكر الاستشراقي وأثره على الدعوة، محمد شمس الحق.

القسم الثالث

الملل

الباب الأول: أديان الفرس.
الباب الثاني: أديان الهند.
الباب الثالث: أديان الصين.
الباب الرابع: أديان اليابان.
الباب الخامس: الصَّابئة المندائيُّون.
الباب السادس: الدِّيانة المصريَّة القديمة.
الباب السابع: وثنية اليونان.
الباب الثامن: وثنية الرومان.


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

الباب الأول
أديان الفرس
الفصل الأول
المجوس

التعريف:

المجوس Magi كلمة يونانيَّة الأصل Magos، أطلقها اليونانيون على كهنة زرادشت، عندما دخلوا فارس بقيادة الإسكندر الأكبر، ومعناها العظيم، أو الهائل، وذلك لأنَّهم برعوا في السحر Magic، ولهذا اشتقت الكلمة الأوربيَّة التي تعني السحر من اسمهم.

والمجوس أثبتوا أصلين اثنين مدبرين قديمين يقتسمان الخير والشر والنفع والضر والصلاح والفساد يسمون، أحدهما: النور، والآخر: الظلمة. وبالفارسيَّة: يزدان وأهرمن، ولهم في ذلك تفصيل.

ومذهب ومسائل المجوس كلُّها تدور على قاعدتين اثنتين:

إحداهما: بيان سبب امتزاج النور بالظلمة.

والثانية: بيان سبب خلاص النور من الظلمة، وجعلوا الامتزاج مبدًا والخلاص معادًا.

إلَّا أنَّ المجوس الأصليَّة زعموا أنَّ الأصلين لا يجوز أن يكونا قديمين أزليين، بل النور أزليٌّ والظلمة محدثة، ثم لهم اختلاف في سبب حدوثها: أمن النور حدثت والنور لا يحدث شرًّا جزئيًّا فكيف يحدث أصل الشر؟ أم من شيء آخر ولا شيء يشرك النور في الأحداث والقدم.

وهؤلاء يقولون: المبدأ الأول من الأشخاص كيومرث، وربَّما يقولون: زروان الكبير والنبي الثاني زرادشت.

والكيومرثيَّة يقولون: كيومرث هو آدم عليه السلام، وتفسير كيومرث هو الحي الناطق.

تاريخ الفرس

يبدأ تاريخ الفرس على الأرجح قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة، وقيل: بأربعة آلاف سنة، وذلك من بدء أول ملوكهم المسمَّى كيومرث وهو أبو الفرس.

والفرس من بدء الدهر إلى أن دخلها الإسلام أربعة أجناس:

الصنف الأول: يُقال له الخداهان، وهم الأرباب، كما يُقال: رب المتاع، ورب الدار، وذلك من كيومرث إلى أفريدون أو كرساسب.

الصنف الثاني: الكيان، وهم من أفريدون إلى دارا بن دارا.

الصنف الثالث: الأشغان، وهم ملوك الطوائف بعد الإسكندر.

الصنف الرابع: الساسان، وهم ملوك الاجتماع.

وينقسم تاريخ الفرس بحسب الملوك الذين تملكوا عليهم إلى ثلاثة عصور رئيسيَّة: عصر الفرس الأولى، وعصر الطوائف، وعصر الفرس الثانية.

الفرس الأولى:

وهم الأسكيان، وهذا العصر من أول ملوك الفرس كيومرث بن لاوذ إلى دارا بن دارا، وعدد الملوك فيه تسعة عشر ملكًا، منهم امرأة وتركي. والفترة الزمنيَّة لهذا العصر حوالي سبعة وعشرين قرنًا، من القرن الواحد والثلاثين قبل الميلاد إلى القرن الرابع قبل الميلاد.

وللمجوس في كيومرث هذا خطب طويل في أنَّه مبدأ النسل وينبوع النَّزْء، وأنَّه نبت من نبات الأرض، وهو الريباس، هو وزوجته، وهما شابة ومنشابة، وما كان من خبره مع إبليس، وقتله إياه، ومنهم من زعم أنَّه ابن آدم الأكبر، وذهبت طائفة منهم إلى أنَّ كيومرث هو أميم بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح. وكان ينزل إِصْطَخْرَ فارس.

ثم ملك بعده أوشهنج من ولد كيومرث الملك، وقيل: إنَّه أخ لكيومرث بن آدم. ثم ملك بعده طهمورث وظهر في عهده رجل يقال له بوداسف أحدث مذاهب الصابئة.

ثم ملك بعده أخوه جمشيد وهو ممن أشتهر بعلم فارس وأخبار ملوكها حتَّى لقِّب بعمر كسرى، وأحدث ورسم في عهده النيروز، وأحدث الصناعات والأبنية والمهن وادعى الإلهيَّة.

ثم ملك بعده بيوارسب فبغى وتمرد في الأرض، حتى تغلَّب عليه أفريدون من ولد جمشيد وقيَّده في جبل وجعل اليوم الذي قيَّده فيه عيدًا وسمَّاه المهرجان، وكانت دار مملكته بلاد بابل. ثم أضيفت بلاد بابل إلى ولد أفريدون وهو إيراج، وأسقطت الجيم من اسمه، وجُعلت النون بدلًا منها، فقالوا: إيران شهر، والشهر: الملك.

ثم ملك بعده منوجهر بن إيران بن أفريدون، وقد قيل: كان في زمانه موسى بن عمران، ويوشع بن نون عليهما السلام.

وفي أول القرن السادس قبل الميلاد في عهد الملك بهراسف أرسل قائدَه بختنصر إلى الشام وفتح بيت المقدس وسبى بني إسرائيل إلى المشرق.

ثم ملك بعده ابنه يستاسف وفي عهده ظهر زرادشت بن أسبيمان نبي المجوس الذي أتاهم بالكتاب المعروف بالزمزمة عند عوام الناس، واسمه عند المجوس بستاه، وتمجس هذا الملك.

ثم ملك بعده بهمن بن إسفنديار، وفي ملكه رَدّ بقايا بني إسرائيل إلى بيت المقدس، فكان مُقَامهم ببابل إلى أن رجعوا إلى بيت المقدس حوالي سبعين سنة، وذلك في أيام قورش الفارسي الملك على

العراق من قِبل بهمن، وقيل: إنَّ قورش كان ملكًا برأسه بعد انقضاء ملك بهمن.

وآخر ملوك الفرس الأولى دارا بن دارا بن بهمن، والفرس تسميه باللغة الأولى من لغاتهم داريوس، وهو الذي قتله الإسكندر بن فليبس المقدوني، ثم تغَلَّبَ كل رئيس ناحية على ناحيته وبدأ عصر ملوك الطوائف.

ملوك الطوائف:

وهم الأشغانيون أو الأردوان، وهو من مقتل دارا على يد الإسكندر بن فليبس المقدوني إلى أن ظهر أردشير بن بابك، وعدد الملوك فيه أحد عشر ملكًا. والفترة الزمنيَّة لهذا العصر أكثر من خمسمائة سنة بقليل، من حوالي سنة ٣٣٤ قبل الميلاد إلى آخر القرن الثاني الميلادي.

وهؤلاء الملوك من نسل أردوان بن أشغان بن آس الجبار، وفي عهد أحد أولاده وهو سابور بن أشك ظهر المسيح عليه السلام ببلاد فلسطين.

وآخر ملوك الطوائف أردوان بن بلاس الذي قتله أردشير بن بابك بن ساسان بالعراق في مبارزة على شاطئ دجلة، ووضع تاج أردوان على رأسه، وتمهدت له البلاد، فمن ملوك الطوائف مَنْ قتلَه أردشير، ومنهم مَنْ انقاد إلى ملكه وأجاب دعوته.

الفرس الثانية:

وهم الساسانيَّة، نسبة إلى ساسان، وهو جد أردشير بن بابك، ولم يلِ الفرس الثانية أحد إلا من ولد أردشير بن بابك هذا، وعدد الملوك فيه ثلاثون ملكًا، منهم امرأتان، وقيل: اثنان وثلاثون ملكًا.

الفترة الزمنيَّة لهذا العصر أكثر من أربعمائة سنة، من أول القرن الثالث الميلادي إلى سنة ٦٥٢م.

وأوَّل ملوكهم أردشير بن بابك هو أوَّل من رتَّب طبقات خاصته، فجعلها ثلاث:

الأولى: الأساورة وأبناء الملوك، وهم بطانة الملك وندماؤه ومحدثوه من أهل الشرف والعلم.

الثانية: المَرَازبة (قواد الجيوش)، وملوك الكورا (ملوك البلاد)، والمقيمون بباب أردشير.

الثالثة: المضحكون وأهل البطالة والهزل.

ثم ملك بعده ابنه سابور، وفي أيامه ظهر ماني، وقال بالاثنين، فرجع سابور عن المجوسيَّة إلى مذهب ماني، ثم عاد بعد ذلك إلى دين المجوسيَّة، ولحق ماني بأرض الهند. ثم ملك بعده ابنه هرمز، وبنى مدينة رامهرمز من بلاد الأهواز.

ثم ملك بعده ابنه بهرام، وقد أتاه ماني بن يزيد تلميذ قاردون فعرض عليه مذاهب الثنويَّة فأجابه احتيالًا منه عليه إلى أن أحضر دعاته المتفرِّقين في البلاد من أصحابه الذين يَدْعُون الناس إلى مذاهب الثنويَّة فقتله، وقتل الرؤساء من أصحابه، وفي أيَّام ماني هذا ظهر اسم الزندقة الذي إليه

أضيف الزنادقة.

وجاء من بعد ذلك سابور ذو الأكتاف الذي أهلك كثيرًا من العرب بالعراق بعد تغلُّبهم عليها، وفتح مدن الشام وقتل خلائق من الروم، وسكن في الجانب الشرقي من المدائن، وبنى هناك الإيوان المعروف بإيوان كسرى، وبنى مدينة نيسابور ببلاد خراسان وغيرها بفارس والعراق، وهلك سنة ٣٧٩م.

وجاء من بعد ذلك قباذ بن فيروز، وفي أيامه ظهر مزدك الزنديق، وإليه تضاف المزدكيَّة، وله أخبار مع قباذ. وملك من بعده ابنه أنوشروان الذي قتل مزدك وأتبعه بثمانين ألفًا من أصحابه، وجمع أهل مملكته على دين المجوسيَّة، ومنعهم النظر والخلاف والحجاج في الملل.

وفي أواخر القرن السادس الميلادي ملك أبرويز بن هرمز بن أنوشروان، وكانت حروب ذي قار بين الفرس والعرب، وهو أوَّل يوم انتصرت فيه العرب على العجم، وهو بعد ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم، وقيل: قبل النبوَّة بقليل، وقيل: بعد النبوَّة بقليل، وقيل: بعد الهجرة، وقيل: بعد بدر، وقيل غير ذلك.

وفي سنة ٦١٤م نهبت جيوش أبرويز أورشليم وقتلت ٩٠ ألفًا من النصارى وأحرقت كثيرًا من كنائسها ومن بينها كنيسة الضريح المقدس وأخذت الصليب الحقّ وهو أعزُّ أثر على النصارى.

ثم قَتل أبرويز ابنُه شيرويه، وملك بعده فترة قصيرة وفي أيَّامه كان الطاعون بالعراق وغيرها من الأقاليم. ثم ملكت بوران ومن بعدها أرزمي ابنتا كسرى أبرويز.

ثم ملك يزدجرد بن شهريار بن أبرويز، وهو آخر ملوك الساسانيَّة، إلى أن قتل بمرو من بلاد خراسان، وذلك لسبع سنين ونصف خلت من خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهي سنة إحدى وثلاثين من الهجرة، وقيل غير ذلك[١].

معتقدات وأفكار المجوس

- يؤلِّفون جماعة لا يدخل فيها أحد.
- تبيح الزواج بالأقارب المقربين.
- عقيدتهم عن الكون مبدآن: مبدأ الخير ومبدأ الشر.
- يستخدمون السحر والتعاويذ في دفع الشرور عن البشر، وقمع الشياطين الشريرة الكامنة في أجسام الموتى، ولذلك كانوا يعدون أجسام الموتى في أعلى المواضع حتى تأكلها الوحوش والطيور الجارحة، وبعد تخليص العظام من اللحم الدنس تؤخذ وتوضع في صندوق صغير مثقوب، ليستطيع الميت رؤية الشمس.

---

(١) انظر: مروج الذهب للمسعودي، الملل والنحل للشهرستاني (١/ ٢٣٢).

- يتحدث نص بهلوي عن حساب الموتى فيقول: تجلس الروح ثلاثة أيَّام وثلاث ليال جانب وسادة الجسد وفي فجر اليوم الرابع إلى البرزخ الرفيع المخيف -جسر تشينفات- حيث يتحتم أن يذهب كل إنسان تنقذ روحه وكل إنسان تلعن روحه . . . وسوف تخضع الحاجات لوزن أعماله على يد (راشن) وحين تمضي روح المستنقذ على هذا البرزخ إذا بعرض هذا البرزخ يبدو كأنَّه عرض فرسخ وتأتي أعماله الصالحة للقائه في هيئة فتاة أجمل وأنصع من أي فتاة في الأرض ثم إذا هو بخطوته الأولى يبلغ السماء بالأفكار الطيبة وبالثانية بالكلمات الطيبة وبالثالثة بالأعمال الطيبة وبخطوته يصل إلى النور اللانهائي الذي هو النعيم كله. . . ويسكن إلى الأبد مع الآلهة الروحانيين في النعيم إلى غير نهاية. . . أمَّا في حالة روح الملعون فإنَّ جسده بعد ثلاثة أيام وثلاث ليال يحمل ويجر إلى جسر تشِينْفَات على يد مارد ومن ثم إلى الجحيم وتتلقاه فتاة ليس فيها شبه بفتاة فيمر في جهنمات ثلاث وهي: الأفكار الشريرة، والكلمات الشريرة، والأفعال الشريرة. وينتهي بخطوته الرابعة إلى حضرة أهرمن والمردة الأخرى.

- يعتقدون أن قرارات الملك وأحكامه من وحي الإله أهورامزدا نفسه وكان -أي خروجه على هذه القرارات- خروجًا على إرادة الله ومشيئته. وكان الملك صاحب السلطة القضائيَّة العليا، لكنَّه في العادة يعهد بهذا العمل إلى أحد الكهان من أتباعه وهم الذين يضعون القوانين بتوجيه من الملك.

- حكى أبو حامد الزوزني أنَّ المجوس زعمت أنَّ إبليس كان لم يزل في الظلمة والجو خلاء بمعزل عن سلطان الله، ثم لم يزل يزحف ويقرب بحيله حتى رأى النور فوثب وثبة فصار في سلطان الله في النور، وأدخل معه هذه الآفات والشرور فخلق الله تعالى هذا العالم شبكة فوقع فيها وصار متعلِّقًا بها لا يمكنه الرجوع إلى سلطانه فهو محبوس في هذا العالم مضطرب في الحبس يرمي بالآفات والمحن والفتن إلى خلق الله تعالى فمن أحياه الله رماه بالموت، ومن أصحَّه رماه بالسقم، ومن سره رماه بالحزن، فلا يزال كذلك إلى يوم القيامة.

وفي كل يوم ينقص سلطانه حتى لا تبقى له قوة فإذا كانت القيامة، ذهب سلطانه، وخمدت نيرانه، وزالت قوته، واضمحلت قدرته؛ فيطرحه في الجو والجو ظلمة ليس لها حد ولا منتهى، ثم يجمع الله تعالى أهل الأديان فيحاسبهم ويجازيهم على طاعة الشيطان وعصيانه.

- لهم كتاب اسمه السكيكين، ترجمه ابن المقفع من الفارسيَّة الأولى إلى العربيَّة، وهذا الكتاب تعظِّمه الفرس، لما قد تضمن من خبر أسلافهم وسير ملوكهم.

- من المجوس طائفة تسمَّى المسخيَّة قالت: إنَّ النور كان وحده نورًا محضًا ثم انمسخ بعضه فصار ظلمة.

ومنهم كذلك الخرمدينيَّة قالوا بأصلين ولهم ميل إلى التناسخ والحلول، وهم لا يقولون بأحكام وحلال وحرام.

آلهة المجوس

يعبدون آلهة الطبيعة المختلفة التي جسّموها وشخّصوها على هيئة آلهة، فعبدوا:

- الشمس بهيئة إله سمّوه مِثْرا Mithras، المقرون بأنّه إله العدل والخلاص، وهو من الآلهة الإيرانيّة القديمة.

ومثرا أكبر الآلهة في الدين السابق على الدين الزرادشتي، إنّه إله الشمس، ومع هذا فكلُّ المعالم الخاصة بولادة المسيح نسبت إلى مثرا، حتى تاريخ ميلاده في ٢٥ ديسمبر، ثم أعيد نسبتها إلى زرادشت، مع قدر من التطور الفكري.

وكان مثرا يعبد في إيران كإله للعقود والاتفاقيّات، وهو يحفظ الحق والنظام ويقضي على القوى المفرقة قوى الشر والغضب والجشع والتكبر والمماطلة وجميع الأشرار من الآلهة والبشر وهو يوصف بأنّه محارب قوي جبّار، وهو الذي يتعبّد له المحاربون وهم على ظهور جيادهم قبل الذهاب إلى المعركة.

وبوصفه حارسًا للحقيقة فهو قاضي الأرواح بعد الموت وبوصفه الحافظ للاتفاقات والعقود فهو الذي يحدد متى تنتهي فترة حكم الشيطان وينتظر قدومه -وسط مظاهر من الخنوع والذل- في أيّام النصر.

وتتنبأ عرافة مثرا بمقدم الإله في نهاية العالم لتدمير الأشرار بالنار ولإنقاذ الأبرار. فصار مثرا بذلك إلهًا مطلقًا في الدنيا والآخرة.

ويوصف مثرا بأنّه ذو الأحاسيس الألف الذي يحكم كسلطان عليم بكلِّ شيء له ألف أذن وعشرة آلاف عين لا ينام يقظ دائمًا ذو الجواسيس العشرة الآلاف أول إله يقترب بين يدي الشمس الخالدة ذات الحصان السريع لا سبيل إلى تسويته بالشمس.

فهو في الديانة المثرية إله الشمس ورب الكون وخالق الإنسان وقاهر أهرمن بعد جلاد طويل، ولا يسبقه في الوجود شيء غير الأبد أو الزمان أبي الأرباب عندهم وأبي الوجود.

ويمثلون مثرا حين تجسّد على الأرض مولودًا من صخرة نائية في مكان منفردٍ لم يعلم بمولده أحد غير طائفة من الرعاة ألهموا معرفته، فتقدّموا إليه بالهدايا والقرابين ومضى بعد مولده فستر عريه بورق من شجرة التين، وتغذّى بثمرها حتى جاوز سن الرضاع.

وكان أهرمن يحاربه ويتعقبه بالكيد، ويحبط كلّ عمل له من أعمال الخير والفلاح، فأرسل مثرا على الأرض طوفانًا أغرقها ولم ينج معه إلا رجلٌ واحدٌ حمل آله وأنعامه في زورق صغير وجدد على الأرض بعد ذلك حياة الإنسان والحيوان، ثم طهّر الأرض بالنار، وتناول مع الملائكة طعام الوداع وصعد إلى السماء حيث يقيم يتولى الأبرار بالهداية ويعينهم إلى النجاة من حبائل الشيطان.

وكان أتباعه يفردون لعبادته يوم الشمس أو يوم الأحد، ويحتفلون بمولده في الخامس والعشرين

من ديسمبر؛ لأنَّه موعد انتقال الشمس وتطاول ساعات النهار ويقيمون له عيدًا سنويًّا في اليوم السادس عشر من الشهر السابع في تقويم الفرس القديم.

- والقمر باسم ماه Mah
- والأرض باسم زام Zam
- والنار باسم أتار Atar
- والماء باسم أفام نفت Apam Napat
- والريح باسم واهيو Vahyu
- إلهة الحياة والخصب والإنتاج باسم أناهيتا Anahita، وهي إلهة المياه المقدَّسة، تتَّخذ سكناها بين النجوم تتقدم على عجلة ذات أربعة جياد وتسحقُ المردة الطغاة وكل الكائنات المؤذية. وكان أهورامزدا قد عهد إليها بالإشراف على الخلق فضمنت خصب الطبيعة ومدت حمايتها إلى القطعان والمراعي.

واسمها لا يظهر في نقوش الملوك الأخمايعنيين حتى النصف الأول من القرن الرابع ق. م، حتى يذكرها أرتكسركسيس مينمون ٤٠٥- ٣٥٩ق.م، وذلك في الجملة التي تقول: باسم أوهرمزد وكل الآلهة وأناهيت السيدة.

- الإله زورفان (زروان): الذي ظلَّ ألف عام يقدِّم الأضاحي عسى أن يكون له ولد يكون اسمه أهورامزدا يخلق السماء والأرض وكل ما فيهما، وبعد أن ضحَّى هذا ألف سنة بدأ يفكر هل هذه الأضاحي التي أتقدم بها ذات فائدة وهل يكون لي ولد أم أني أحاول عبثًا؟ وحين كان يفكر حبل بكل من أهورامزدا -إذ كان يعتبر ذا طبيعة مزدوجة خنثى- فأصدر يمينًا من يخرج إلى محضره أولًا يتقلَّد الملك منه، فمزَّق أهرمن الرحم وتقدم إلى أبيه وقال: إنني ابنك أهورامزدا، لكن زورفان أنكره لأنَّه كان ينتمي إلى الظلام يفوح بالرائحة الكريهة ويحبُّ الأذى وبينما كان يتحدث إلى أهرمن ولد أهورامزدا ناصبًا طيب الرائحة فعرف زورفان أنَّه أهورامزدا فاقترب أهرمن من أبيه وذكره بيمينه: انتبه ألم تحلف بذلك اليمين لأوَّل من يأتي سوف أعطي الملك؟ فأجاب زورفان: اغرب أيها الشيطان لقد جعلتك ملكًا تسعة آلاف سنة وجعلت أهورامزدا يحكم فوقك وبعد آلاف السنين التسعة سوف يملك أهورامزدا ويأتمر كل شيء بإرادته[1].

عبادة المجوس النار

يزعم المجوس أنهم يعظِّمون النار لمعانٍ فيها:

منها أنَّها جوهر شريف علوي.

---

(١) انظر: معتقدات آسيوية ص(٩٠- ١٠١).

ومنها أنَّها ما أحرقت الخليل إبراهيم عليه السلام.

ومنها ظنهم أنَّ التعظيم لها ينجيهم في المعاد من عذاب النار.

وبالجملة هي قبلة لهم ووسيلة وإشارة.

بيوت النيران للمجوس

أول بيت بناه أفريدون بيت نار بطوس. وآخر بمدينة بخارى هو بردسون. واتخذ بهمن بيتًا بسجستان يدعى كركو. ولهم بيت نار آخر في نواحي بخارى يدعى قباذان. وبيت نار يسمَّى كويسه بين فارس وأصبهان بناه كيخسرو. وآخر بقومس يسمَّى جرير. وبيت نار يسمَّى كنكدر بناه سياوش في مشرق الصين. وآخر بأرجان من فارس اتخذه أرجان جد كشتاسب. وهذه البيوت كانت قبل زردشت. ثم جدد بيت نار بنيسابور. وآخر بنسا. وأمر كشتاسب أن يطلب نارًا كان يعظِّمها جم (جمشيد) فوجدها بمدينة خوارزم فنقلها إلى دار بجرد وتسمَّى آذرخره والمجوس يعظِّمونها أكثر من غيرها وكيخسرو لما خرج إلى غزو أفراسياب عظَّمها وسجد لها. ويقال: إنَّ أنوشروان هو الذي نقلها إلى كآريان فتركوا بعضها وحملوا بعضها إلى نسا. وفي بلاد الروم على أبواب قسطنطينية بيت نار اتخذه سابور بن أردشير فلم يزل كذلك إلى أيَّام المهدي. وبيت نار بإستينيا على قرب مدينة السلام لبوران بنت كسرى. وكذلك بالهند والصين بيوت نيران[1].

---

(١) انظر: الملل والنحل (١/ ٢٥٣، ٢٥٤).

الفصل الثاني

الكيومرثيَّة

هم أصحاب المقدم الأول كيومرث، أثبتوا أصلين: يزدان وأهرمن.

وقالوا: يزدان أزلي قديم وأهرمن محدث مخلوق.

وقالوا: إن سبب خلق أهرمن أن يزدان فكَّر في نفسه أنَّه لو كان لي منازع كيف يكون وهذه الفكرة كانت رديئة غير مناسبة لطبيعة النور فحدث الظلام من هذه الفكرة وسُمِّي أهرمن وكان مطبوعًا على الشرِّ والفتنة والفساد والفسق والضرر والإضرار فخرج على النور وخالفه طبيعة وفعلًا وجرت محاربة بين عسكر النور وعسكر الظلمة.

ثم إنَّ الملائكة توسَّطوا فصالحوا على أن يكون العالم السفلي خالصًا لأهرمن سبعة آلاف سنة، ثم يخلِّي العالم ويسلمه إلى النور.

والذين كانوا في الدنيا قبل الصلح أبادهم وأهلكهم ثم بدأ برجل يقال له: كيومرث، وحيوان يقال له: ثور فقتلهما.

فنبت من مسقط ذلك الرجل ريباس وخرج من أصل ريباس رجل يسمى ميشة وامرأة تسمَّى ميشانة وهما أبو البشر.

ونبت من مسقط الثور الأنعام وسائر الحيوانات.

وزعموا أنَّ النور خيَّر الناس وهم أرواح بلا أجساد: بين أن يرفعهم عن مواضع أهرمن وبين أن يلبسهم الأجساد فيحاربون أهرمن فاختاروا لبس الأجساد ومحاربة أهرمن على أن تكون لهم النصرة من عند النور والظفر بجنود أهرمن وحسن العاقبة وعند الظفر به وإهلاك جنوده تكون القيامة.

فذاك سبب الامتزاج وهذا سبب الخلاص[1].

---

(١) انظر: الملل والنحل (١/ ٢٣٢، ٢٣٣).

الفصل الثالث

الزروانيَّة

قالوا: إنَّ النور أبدع أشخاصًا من نور كلُّها روحانيَّة نورانيَّة ربانيَّة، ولكنَّ الشخص الأعظم الذي اسمه زروان شكَّ في شيء من الأشياء فحدث أهرمن الشيطان يعني إبليس من ذلك الشك.

وقال بعضهم: لا بل إنَّ زروان الكبير قام فزمزم تسعة آلاف وتسعمائة وتسعًا وتسعين سنة ليكون له ابن فلم يكن ثم حدث نفسه، وفكر وقال: لعلَّ هذا العلم ليس بشيء فحدث أهرمن من ذلك الهم الواحد، وحدث هرمز من ذلك العلم فكانا جميعًا في بطن واحد، وكان هرمز أقرب من باب الخروج فاحتال أهرمن الشيطان حتى شق بطن أمه فخرج قبله وأخذ الدنيا.

وقيل: إنَّه لما مثَّل بين يدي زروان فأبصر ورأى ما فيه من الخبث والشرارة والفساد أبغضه ولعنه وطرده فمضى واستولى على الدنيا.

وأما هرمز فبقي زمانًا لا يد له عليه وهو الذي اتخذه قوم ربًّا وعبدوه لما وجدوا فيه من الخير والطهارة والصلاح وحسن الخلق.

وزعم بعض الزروانيَّة أنَّه لم يزل كان مع الله شيء رديء: إمَّا فكرة رديئة، وإمَّا عفونة رديئة، وذلك هو مصدر الشيطان.

وزعموا أنَّ الدنيا كانت سليمة من الشرور والآفات والفتن وكان أهلها في خير محض ونعيم خالص، فلمَّا حدث أهرمن حدثت الشرور والآفات والفتن والمحن، وكان بمعزل عن السماء فاحتال حتى خرق السماء وصعد.

وقال بعضهم: كان هو في السماء، والأرض خالية عنه فاحتال حتى خرق السماء ونزل إلى الأرض بجنوده كلُّها فهرب النور بملائكته واتبعه الشيطان حتى حاصره في جنته وحاربه ثلاثة آلاف سنة لا يصل الشيطان إلى الربِّ تعالى ثم توسَّط الملائكة وتصالحا على أن يكون إبليس وجنوده في قرار الأرض تسعة آلاف سنة بالثلاثة آلاف التي قاتله فيها ثم يخرج إلى موضعه.

ورأى الرب -تعالى عن قولهم- الصلاح في احتمال المكروه من إبليس وجنوده وألَّا ينقض الشرط حتى تنقضي المدة المضروبة للصلح فالناس في البلايا والفتن والخزايا والمحن إلى انقضاء المدة ثم يعودون إلى النعيم الأوَّل.

وشرط إبليس عليه أن يمكنه من أشياء يفعلها ويطلقه في أفعال رديئة يباشرها فلما فرغا من الشرط أشهد عليهما عدلين ودفعا سيفيهما إليهما وقالا لهما: من نكث فاقتلاه بهذا السيف[1].

---

(١) انظر: الملل والنحل (١/ ٢٣٣- ٢٣٥).

الفصل الرابع
الزرادشتيَّة

التعريف:

أصحاب زرادشت بن يورشب (أو بورشف)، وقيل: إنَّه زرادشت بن أسبيمان، الذي ظهر في زمان كشتاسب بن لهراسب (أو يستاسف بن بهراسف) الملك، وأبوه كان من أذربيجان وأمُّه من الري واسمها دغدويَّة.

وزعموا أنَّ لهم أنبياء وملوكًا أولهم كيومرث وكان أول من ملك الأرض وكان مقامه بإصطخر، وبعده أوشنهج بن فراول ونزل أرض الهند وكانت له دعوة ثمة، وبعده طهمورث وظهرت الصابئة في أول سنة من ملكه، وبعده أخوه جم الملك. ثم بعده أنبياء وملوك، منهم منوجهر ونزل بابل وأقام بها، وزعموا أن موسى عليه السلام ظهر في زمانه، حتى انتهى الملك إلى كشتاسف بن لهراسب وظهر في زمانه زرادشت الحكيم.

تاريخ الزرادشتيَّة

زعموا أن الله عزَّ وجلَّ خلق من وقت ما في الصحف الأولى والكتاب الأعلى من ملكوته خلقًا روحانيًا فلمَّا مضت ثلاثة آلاف سنة أنفذ مشيئته في صورة من نور متلألئ على تركيب صورة الإنسان وأحف به سبعين من الملائكة المكرَّمين وخلق الشمس والقمر والكواكب والأرض وبني آدم غير متحركة ثلاثة آلاف سنة.

ثم جعل روح زرادشت في شجرة أنشأها في أعلى عليين وأحف بها سبعين من الملائكة المكرمين وغرسها في قلَّة جبل من جبال أذربيجان يعرف باسم يذخر ثم مازج شبح زرادشت بلبن بقرة فشربه أبو زرادشت فصار نطفة ثم مضغة في رحم أمِّه فقصدها الشيطان وعيرها فسمعت أمه نداء من السماء فيه دلالة على برئها فبرئت.

ثم لما ولد ضحك ضحكة تبينها من حضر فاحتالوا على زرادشت حتى وضعوه بين مدرجة البقر ومدرجة الخيل ومدرجة الذئب فكان ينهض كل واحد منهم لحمايته من جنسه.

وعندما بلغ زرادشت السابعة من عمره أرسل بعيدًا ليدرس مع بورزين- كوروس الذي امتدت شهرته بالحكمة في جميع أنحاء إيران، وظل ثمانية أعوام مع الحكيم بورزين يدرس معه العقيدة ويعمل في الزراعة وتربية الماشية وعلاج المرضى.

وفي الخامسة عشرة من عمره وقعت الحرب بين الفرس والتورانيين، وانتشرت المجاعة واشتد المرض وازدادت الفاقة في جميع أنحاء فارس، فتطوع زرادشت لمعالجة المرضى والجرحى من الجنود، وقضى في ذلك نحو خمسة أعوام ثم عاد إلى وطنه، وتزوج من هافريه، ورفض رغبة أبيه في أن يستقرَّ

ويعمل معه فلاحًا ومربي ماشية وواصل عمله في تخفيف آلام الآخرين.

واستحوذت فكرة معرفة مصدر الخير والشر على عقل زرادشت، فقرر اعتزال الناس إلى جبل سابلان، وبينما هو واقف على الجبل يفكر إذ أحس بنشوة روحانيَّة تجلَّى فيها كبير الملائكة فاهومانا واصطحبه في رحلة سماويَّة مثل فيها أمام رب السماء نفسه، وتلقَّى منه كلمات الحقِّ والحقيقة وتعلَّم أسرار الوحي وأمر النبوة.

نزل بعد ذلك من الجبل ليصدع بأمر ربِّه فأنكر تعدد الآلهة وعبادة الأصنام وجعل الخير المحض من صفات الله وبشر بالثواب وأنذر بالعقاب، وقال: إنَّ خلق الروح سابق على الجسد.

ولم يصغ أهل فارس لتعاليمه ومرت عشرة أعوام يأمل في أن يجد من يؤمن بما يبشر به دون جدوى، ولما بلغ زرادشت مبلغ الكمال بأربعين سنة وتمت له المخاطبات في سبع عودات إلى أورمزد (أهورامزدا أو يزدان) وأكمل فيها معرفة شرائع دين الله وفرائضه وسننه أمره الله بالمسير إلى كشتاسب الملك وإظهار ذكر الله واسمه.

فنفذ لأمر الله ودعا ملكين كانا بذلك الصقع يقال لهما: فوربماراي وبيويدست فدعاهما إلى دين الله والكفر بالشيطان وفعل الخير واجتناب الشر فلم يقبلا قوله وأخذتهما العزَّة بالإثم فجاءتهما ريح فحملتها من الأرض ووقفت بهما في الهواء واجتمع الناس ينظرون إليهما فغشيهما الطير من كل ناحية وأتوا على لحومهما وسقطت عظامهما على الأرض.

ولما بلغ كشتاسب لقي منه كل ما أنبأه به أورمزد من الحبس والبلاء حتى حدث أمر الفَرس الذي دخلت قوائمه في باطن بدنه حتى لم ير أثرها في جسده واستبهم حاله على الناس وتحيَّروا وأخرجه كشتاسب من الحبس وسأله الحال. فقال: تلك آية من آيات صدقي الذي أخبرني به إلهي وخالقي وشارطهم على الإيمان به إن هو دعا وأخرج قوائم الفرس، وشرطوا ودعا باسم الله فخرجت قوائم الفرس كما كانت.

فآمن به كشتاسب وأمر بجمع علماء أهل زمانه من بابل وإيران شهر وأمرهم بمحاورة زرادشت فناظروه فاعترفوا له بالفضيلة.

وأعلن كشتاسب أنَّ زرادشت هو النبيُّ الحق لهذه العقيدة الجديدة، وأصدرَ أمرًا بكتابة تعاليمه بحروف الذهب وسميت أفستا، وعيَّنَ زاردشت كبيرًا لكهنة في بلاطه، وبنى للنار بيوتًا كثيرة، وبهذا انتشرت الديانة في أنحاء المملكة ثم أرسل الملك رسلًا مبشرين بالديانة الجديدة خارج البلاد حتى وصلت توران والهند واليونان.

وكانت مدَّة نبوة زرادشت فيهم خمسًا وثلاثين سنة، وهلك وهو ابن سبع وسبعين سنة.

ولما هلك زرادشت ولي مكانه خاناس العالم، وكان من أهل أذربيجان وهذا أول موبذ قام فيهم بعد زرادشت، نصبه لهم كشتاسب الملك.

وأعلن أتباع زرادشت أن زرادشت لم يمت كما رأى الناس في الظاهر وإنَّما نزلت بذرته الخصبة

في البحيرة المقدَّسة، وستظل فيها تغدو وتروح حتى قبيل نهاية العالم، فإذا حان هذا الوقت المضروب نزلت إلى هذه البحيرة فتاة عذراء طاهرة لتغتسل فيها، وإذ ذاك تتغلغل هذه البذرة إلى رحم العذراء فتحمل لساعتها بمنجي العالم، وعلى يديه ستكون نهايته، فإذا ولد وشب أخذ يدعو إلى دينه واصطفى من التلاميذ خمسة عشر رجلًا وخمس عشرة امرأة ليعاونوه على تأدية رسالته، إلى أن ينتهي أجله المحدد بسبع وخمسين سنة فينتهي بانتهائه الكون[(١)].

مقالة زرادشت في المبادئ

أورد الجيهاني إحدى مقالات زرادشت في المبادئ وهي:

إنَّ دين زرادشت هو الدعوة إلى دين مارسيان وإنَّ معبوده أورمزد (أهورامزدا).

والملائكة المتوسطون في رسالاته إليه: بهمن وأرديبهشت وشهريور وأسفندارمز وخرداد ومرداد، وقد رآهم زرادشت واستفاد منهم العلوم.

وجرت مساءلات بينه وبين أورمزد من غير توسط:

أولها: قال زرادشت: ما الشيء الذي كان ويكون وهو الآن موجود؟

قال أورمزد: أنا والدين والكلام. أما الدين: فعمل أورمزد وكلامه وإيمانه. وأما الكلام: فكلامه. والدين أفضل من الكلام إذ العمل أفضل من القول.

وأول من أبدع من الملائكة بهمن وعلمه الدين وخصه بموضع النور مكانًا وأقنعه بذاته ذاتًا فالمبادئ على هذا الرأي ثلاثة.

السؤال الثاني: قال: لِمَ لم تخلق الأشياء كلَّها في زمان غير متناه؛ إذ قد جعلت الزمان نصفين نصفه متناه ونصفه غير متناه، فلو خلقتها في زمان غير متناه كان لا يستحيل شيء منها؟

قال أورمزد: فإن كان لا يمكن أن تفنى ثم آفات الأثيم إبليس.

السؤال الثالث: قال مماذا خلقت هذا العالم؟

قال أورمزد: خلقت جميع هذا العالم من نفسي. أمَّا أنفس الأبرار فمن شعر رأسي. وأمَّا السماء فمن أم رأسي. والظفر والمعاضد فمن جبهتي. والشمس فمن عيني. والقمر فمن أنفي. والكواكب فمن لساني. وسروس وسائر الملائكة فمن أذني. والأرض فمن عصب رجلي. وأريت هذا الدين أولًا كيومرث فشعر به وحفظه من غير تعلم ولا مدارسة.

قال زرادشت: فلماذا أريت هذا الدين كيومرث بالوهم وألقيته إلي بالقول؟

قال أورمزد: لأنَّك تحتاج أن تتعلم هذا الدين وتعلمه غيرك، وكيومرث لم يجد من يقبله فأمسك عن التكلم وهذا خير لك؛ لأني أقول وأنت تسمع وأنت تقول والناس يسمعون ويقبلون.

---

(١) انظر: الملل والنحل (١/ ٢٣٥- ٢٤١)، معتقدات آسيوية ص(١٠٤- ١٠٦، ١١١).

فقال زرادشت لأورمزد: هل أريت هذا الدين أحدا قبلي غير كيومرث؟

قال: بلى، أريت هذا الدين جم خمسين نجمًا مخمسًا من أجل إنكاره الضحاك.

قال: إذا كنت عالمًا أنَّه لا يقبله فلماذا أريته؟

قال: لو لم أره لما صار إليك وقد أريته أيضًا أفريدون وكيكاوس وكيقباد وكشتاسب.

قال زرادشت: خلقك العالم وترويجك الدين لأي شيء؟

قال: لأن فناء العفريت الأثيم لا يمكن إلا بخلق العالم وترويج الدين ولو لم يتروج أمر الدين لما أمكن أن تتروج أمور العالم.

فلما أخذ زرادشت الدين من أورمزد الوهاب، واستحكمه وعمل به، وزمزم في بيت أبيه عليه -غاظ ذلك كون الأثيم وأقلقه إذ كان شريرًا ممتلئًا موتًا وظلمةً وبلاء ومحنة فدعا بشياطينه وأسماؤهم: بري ديوانياخ، ودويهمان زوش، ونومربفنارديو، وأمرهم جميعًا بالمسير إلى زرادشت وقتله.

فعلم زرادشت بذلك فقرأ وزمزم وأراق الماء على يدي مارسيان فانهزموا عنه مقهورين.

وجرت محاربات أخرى فهزمهم زرادشت بإحدى وعشرين آية من كتابه أوستا، وتوارت الشياطين عن الناس.

معتقدات الزرادشتيَّة

- قال الشهرستاني: وكان دينه عبادة الله، والكفر بالشيطان، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، واجتناب الخبائث.

- قال زرادشت: النور والظلمة أصلان متضادان وكذلك يزدان وأهرمن وهما مبدأ موجودات العالم وحصلت التراكيب من امتزاجهما وحدثت الصور من التراكيب المختلفة.

والباري تعالى خالق النور والظلمة ومبدعهما وهو واحد لا شريك له، ولا ضد ولا ند، ولا يجوز أن ينسب إليه وجود الظلمة كما قالت الزروانيَّة لكن الخير والشر والصلاح والفساد والطهارة والخبث إنَّما حصلت من امتزاج النور والظلمة ولو لم يمتزجا لما كان وجود العالم وهمَا يتقاومان ويتغالبان إلى أن يغلب النور الظلمة والخير الشر، ثم يتخلص الخير إلى عالمه والشر ينحط إلى عالمه وذلك هو سبب الخلاص.

والباري تعالى هو الذي مزجهما وخلطهما لحكمة رآها في التراكيب وربَّما جعل النور أصلًا. وقال: وجوده وجود حقيقي وأما الظلمة فتبع كالظل بالنسبة إلى الشخص فإنَّه يرى أنَّه موجود وليس بموجود حقيقة فأبدع النور وحصل الظلام تبعًا؛ لأنَّ من ضرورة الوجود التضاد فوجوده ضروري واقع في الخلق لا بالقصد الأول كما ذكرنا في الشخص والظل.

- ومما جاء به زرادشت من دين مارسيان: أنَّ إلهه أورمزد لم يزل ولم يزل معه شيء سمَّاه أسنى

أسنه وهو شيء مضيء حوله وهو فوق، وأنَّ إبليس لم يزل معه شيء سَمَّاه: أستاه أستاه وهو مظلم حوله وهو أسفل.

وأول ما خلق الله من الملائكة بهمن، ثم أرديبهشت، ثم شهريور، ثم أسفندارمز، ثم خرداد، ثم مرداد، وخلق بعضهم من بعض كما يؤخذ السراج من السراج من غير أنَّ ينقص من الأول شيء.

وقال لهم: من ربكم وخالقكم؟

فقالوا : أنت ربُّنا وخالقنا.

وعلم أورمزد أن إبليس سيتحرك من ظلمته فأعلم بذلك الملائكة وبدأ بإعداد ما يورطه ويدفع شره وأذاه عن عالمه ويبطل إرادته، فخلق السماء في خمسة وأربعين يومًا وسَمَّى كاهينازي شورم ومعناه ظهور ضمائر أهل الدنيا إلى سائر الكاهينازات المذكورات عندهم وخلق الأرض في خمسة وأربعين يومًا.

وأول من ابتعثه أورمزد إلى الأرض كيومرث وقد كان يستنشق النسيم ثلاثة آلاف سنة ثم أخرجه في قامة ثلاثة رجال.

ولمَّا أن جاء وقت تحريك إبليس في ظلمته ارتفع ورأى النور وطمع في الاستيلاء على أسنى أورمزد وتصييره مظلمًا ودخل السماء يكيد ثم لكيومرث ثلاثين سنة وصارت نطفته ثلاثة أقسام قسم أمر الله الأرض أن تحفظه وقسم أمر سروس الملك أن يحفظه وثلث اختطفته الشياطين.

وأمر أورمزد بسد الثقوب التي صعد منها إبليس فبقي داخل السماء منقطعا عن أصله وقوته فانتصب لمنابذة أورمزد ورام الصعود إلى الجنان فدفعه عن ذلك قدر ثلاثة آلاف سنة ثم أعلمه أنَّه يسعى في الباطل والخسار ويروم ما لا يقدر عليه.

واتفق الأمر بينهما على أن يبقى إبليس وجنوده في قرار الضوء تسعة آلاف سنة ويروى سبعة آلاف سنة، ثم يبطل ويحتمل خلقه الأذى في هذه السنين، ويصبرون عليه وعلى ما ينالهم من الفقر والبلاء والموت وسائر الآفات ليعوضهم منها الحياة الدائمة في الجنان.

واشترط إبليس لنفسه وشياطينه ثمانية عشر شرطًا:

الأوَّل منها: أن تصير معيشة خلقه من خلق الله.

والثاني: أن يكون ممن خلقه على خلق الله.

والثالث: أن يسلط خلقه على خلق الله.

والرابع: أن يخلط جوهر خلقه بجوهر خلق الله.

والخامس: أن يصير له السبيل إلى أن يأخذ الطين الذي في خلق الله.

والسادس: أن يصير له من النور الذي في خلق الله ما يريد.

والسابع: أن يصير له من الرياح التي في خلق الله حاجته.

والثامن: أن يصير له من الرطوبة التي في خلق الله.

والتاسع: أن يصير له من النار التي في خلق الله.

والعاشر: أن يصير له من المودَّة والمصاهرة التي في خلق الله ليخلط الأشرار بالأخيار.

والحادي عشر: أن يصير له من العقل والبصر الذي في خلق الله ليعرف خلقه مسالك المنافع والمضار.

والثاني عشر: أن يصير له من العدل الذي في خلق الله ليجعل للأشرار فيه نصيبًا.

والثالث عشر: أن تخفى على الناس معرفة عمل الصالحين والأشرار إلى يوم القيامة والحساب.

والرابع عشر: أن يصير له السبيل إلى أن يبلغ بأهل بيت الشرارة والخبث غاية الغنى والدرجات، ويصيرهم عند الناس صالحين.

والخامس عشر: أن يصير له السبيل إلى أن يجعل كذب الأشرار مقبولًا على الأخيار.

والسادس عشر: أن يصير له السبيل إلى أن يعمر من أهل الدنيا من أراد من خلقه ألف سنة أو ثلاثة آلاف سنة، ويصيرهم أغنياء أقوياء قادرين على ما يريدون، وأن يلهم الناس حتى يكونوا بإعطاء الأشرار أسخى منهم بإعطاء الأخيار وأطيب نفسًا.

والسابع عشر: أن يصير له السبيل إلى إفناء أهل بيت الصالحين حتى لا يُعرف منهم أحد بعد ثلاثمائة وخمسين سنة.

والثامن عشر: أن يملك أمر من يحيي الأموات، ويُبقي الأخيار، وينفي الأشرار إلى يوم القيامة.

فتمت البيعة أقاما عليها ودفعا سيفيهما إلى عدلين على أن يقتلا من رجع عن شرطه.

وأمر الله تعالى الشمس والقمر والكواكب أن تجري لمعرفة الأيَّام والشهور والأعوام التي جعلها عدة الإنظار والإمهال.

– ومما نصَّ عليه زرادشت: أنَّ للعالم قوةً إلهيَّةً هي المدبِّرة لجميع ما في العالم المنتهية مبادئها إلى كمالاتها، وهذه القوة تسمَّى مشاسبند، وهي:

على لسان الصابئة: المدبر الأقرب.

وعلى لسان الفلاسفة: العقل الفعال، ومنه الفيض الإلهي والعناية الربانيَّة.

وعلى لسان المانوية: الأرواح الطيبة.

وعلى لسان العرب: الملائكة.

وعلى لسان الشرع والكتاب الإلهي: الروح.

وأثبت غيره منشاه ومنشايه ويعني بهما آدم وحواء في العالم الجسماني والعقل والنفس في العالم الروحاني.

- وصف زرادشت أهورامزدا بأنَّ له سبعةَ مظاهر أو سبعَ صفات هي: النور، والعقل، والطيب، والحق، والسلطان، والتقوى، والخير، والخلود.

- ذهب بعض الكُتَّاب إلى أن زرادشت كان نبيًّا، وأن دينه كان دينا صحيحا إلهيًّا.

- يذكر بعض الكُتَّاب أن زرادشت قد أبطل معتقدات موغوش أي المجوس القدماء قائلًا: ليس هناك قوى روحيَّة كثيرة ولا عفاريت كثيرة للشر، إنَّما هو إله واحد اسمه أهورامزدا الذي ليس كمثله شيء، وهو الواحد الأحد القدوس الصمد، وهو الحق والنور، وهو الحكيم القادر الخالق الذي لا يشاركه في ملكه وربوبيته شيء وإن القوى الروحيَّة التي زعموها خالقة للخير ليست بخالقة بل هي نفسها من خلق أهورامزدا.

وكذلك صرح زرادشت بأنَّه ليس للشرِّ إله بل الذي يأمر بالشرِّ هو الشيطان انغرامي ينوش الذي حُرِّف إلى أهرمن.

- الاعتقاد بالحياة الأخرويَّة، فهو يقول: لا تنتهي حياة الإنسان بموته في هذا العالم المادي بل له حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا فالذين عملوا الصالحات في حياتهم الدنيا يدخلون عالم السعادة، والذين دنسوا نفوسهم بالشرور يدخلون عالم الشقاء.

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن هذه العقيدة قد أخذت من الديانة المصريَّة القديمة.

- الاعتقاد ببقاء الأرواح، فيقول زرادشت بفناء الجسم وأما الروح فيبقى ويلاقي جزاءه.

- قانونه الأخلاقي الذي يتلخص في صدق النية وصدق القول وصدق العمل.

- الزرادشتيون قاموا بتشجيع الزواج وإنجاب الأطفال ونعتوهما بالفضيلة.

- ذهبوا إلى أنَّ الصوم يؤدِّي إلى الضعف فيقلل من قدرة المرء على صراع الشرور وعلى فعل الخيرات كما أنَّه لا يعين على التمتع بما يسَّر الله من نعم.

- يتخذ الزرادشتيون النار نفسها إلهًا يعبدونه ويسمونها أنار، ويعتقدون أنَّها ابن إله النور وكانت كل أسرة تجتمع حول موقدها وتعمل على أن تظلّ نار بيتها متقدة لا تنطفئ أبدًا. وكانت الشمس نار السموات الخالد تعبد بوصفها أقصى ما يتمثل فيها أهورامزدا أو مثرا.

وكانوا يقربون إلى الشمس وإلى النار وإلى أهورامزدا القرابين من الأزهار والخبز والفاكهة والعطور والثيران والضأن والجمال والخيل والحمير وذكور الوعول . . . ولم يكن ينال الآلهة من هذه القرابين إلا رائحتها، أمَّا الكهنة والمتعبدون فهم المستفيدون الحقيقيُّون؛ لأنَّ الآلهة على حد قول الكهنة ليست في حاجة إلى أكثر من روح القربان.

- من تعاليم زرادشت أنَّ للناس حريةَ الاختيار والكفاح في سبيل الخير أو الخضوع لمغريات

الشرّ. وقد شاع مذهب الجبريَّة بينهم نتيجة للكوارث السياسيَّة التي وقعت للفرس من ناحية، ونتيجة لانتشار التنجيم من ناحية أخرى، وفي هذا يقولون: القدر هو الغالب لكلِّ شيءٍ والمسيطر على كلِّ فرد[1].

كتاب زرادشت (الأبستاق)

له كتاب قد صنفه، وقيل: إنَّ ذلك أنزل عليه، اسمه: البستاه أو البثناه أو أوستا أو الأفستا، باللغة الفارسيَّة الأولى، ومعجم هذا الكتاب يدور على ستين حرفًا من أحرف المعجم، وليس في سائر اللغات أكثر حروفًا من هذا، وكتب هذا الكتاب في اثني عشر ألف مجلدٍ بالذهب، وفيه وعد ووعيد، وأمر ونهي، وغير ذلك من الشرائع والعبادات.

وقد عمل زرادشت تفسيرًا عند عجزهم عن فهمه، وسمّوا التفسير زند، ثم عمل للتفسير تفسيرًا وسمَّاه بازند، ثم عمل علماؤهم بعد وفاة زرادشت تفسيرًا لتفسير التفسير وشرحًا لسائر ما ذكرنا، وسمّوا هذا التفسير يارده، وكان المجوس يعجزون عن حفظ كتابهم، فصار علماؤهم وَمَوَابذتهم يأخذون كثيرًا منهم بحفظ أسباع من هذا الكتاب وأرباع وأثلاث، فيبتدئ كل واحد بما حفظ من جزئه فيتلوه، ويبتدئ الثاني منهم فيتلو جزأ آخر، والثالث كذلك، إلى أن يأتي الجميع على قراءة سائر الكتاب لعجز الواحد منهم عن حفظه على الكمال.

وهو يقسِّم العالم قسمين: مينة وكيتي، يعني: الروحاني والجسماني، أو الروح والشخص.

وكما قسَّم الخلق إلى عالمين يقول: إنَّ ما في العالم ينقسم قسمين: بخشش وكنش، يريد به التقدير والفعل وكل واحد مقدر على الثاني.

ثم يتكلَّم في موارد التكليف وهي حركات الإنسان فيقسمها ثلاثة أقسام: منش وكويش وكنش، يعني بذلك: الاعتقاد والقول والعمل، وبالثلاثة يتم التكليف فإذا قصر الإنسان فيها خرج عن الدين والطاعة، وإذا جرى في هذه الحركات على مقتضى الأمر والشريعة فاز الفوز الأكبر.

- وذكر بعض الباحثين أنَّ الأبستاق يتكون من خمسة أجزاء، هي: يسنا، وبسبرد، ونديداد، ويشتها، وخرده أفستا.

يسنا: أهم الأجزاء، ومعناه: العبادة والتسبيح والصلاة والعيد، ويتلى من اليسنا وقت إجراء المراسم المذهبية.

بسبرد: معناه كل السراة، وهو من ملحقات اليسنا، ولا يتلى في المراسم المذهبية.

نديداد: معناه قانون ضد الشياطين وهو لا يتلى في المراسم الدينيَّة وعدد فصوله ٢٢ فصلًا.

---

(١) انظر: الملل والنحل (١/٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣).

يشتها: معناه العبادة والزمزمة على الطعام والتسبيح فهي تسابيح للخالق وملائكته.

خرده أفستا: أي الأبستاق الصغرى أو مختصر الأبستاق وهو كتاب للصلاة والأدعية الخاصة بكلٍّ وقتٍ من اليوم والأيَّام المباركة من الشهر والأعياد الدينيَّة في العالم وأوقات الصحَّة والمرض التي تعرض في الحياة.

- والأبستاق Avesta تم تدوينه على الأرجح قبل القرن الخامس الميلادي، وإن كانت مادته قد تمتد إلى ما قبل غزو الإسكندر لفارس عام ٣٣٠ق.م تقريبًا، وكان أن فقدت جميع نسخه وفقدت معها تفاسيره والمؤلفات التي كانت تشتمل على شيء منه، ثم بدأ ملوك فارس في تدوينه منذ القرن الأول الميلادي حتى القرن الخامس، فكانت إعادة التدوين من الذاكرة ومن الثقافات المحيطة ومن الأساطير الشائعة.

وقد حفظت الأبستاق أسماء أبطال كانوا من قوى الخير والشر في الدين الآري القديم الذي قام على عبادة الطبيعة، ولهذا قيل: إنَّ الأبستاق مأخوذة من كتب الفيدا التي تبلغ اليوم مائة مجلد، يدل على هذا ما هو مشترك من آلهة وأمراء ومن كلمات وتراكيب، وثمة احتمال أن يكون الأصل الآري هو المصدر الأساسي لما جاء في كل من الفيدا والأفستا.

وقد ظلت ملوك الفرس تعمل بما في الأبستاق إلى عهد الِإسكندر، ثم ضاع الأبستاق وضاع ما كان من ذكريات الملوك القدماء في القرون الخمسة التي مضت بين الإسكندر وأردشير مؤسس الدولة الساسانيَّة، ثم صار الملك بعد الطوائف إلى أردشير فأحيا دين زرادشت وترجم الأبستاق إلى الفهلويَّة، وجمع الفرس على قراءة سورة منه يقال لها إسناد، وخلط الأبستاق بالبقية القليلة التي علقت بالذاكرة عن الملوك القدماء وبما عرف من تاريخ الأشكانيين، وأضيف إلى هذا ما عرفه الفرس عن حروب الآشوريين والعرب والتورانيين من أساطير قديمة ردوها إلى عهد قديم، وزيد على هذا وذاك ما اخترعته خيالات الجماهير، فصار هذا كلُّه قصة حماسيَّة احتفظ بها الدهاقين وحدثوا بها وأنشدها الناس في محافلهم وأعيادهم.

وفي القرن التاسع الميلادي تم تدوين عدد من الكتب الزرادشتيَّة تدافع عن (ديانة الخير) ضد الدعاية النصرانيَّة والإسلاميَّة وتقرب أفكار المذهب من رجل الشارع[(١)].

نبوءة لزرادشت

ومما أخبر به زرادشت في كتاب زند أوستا، أنَّه قال: سيظهر في آخر الزمان رجل اسمه أشيزريكا ومعناه الرجل العالم، يزين العالم بالدين والعدل ثم يظهر في زمانه بتياره فيوقع الآفة في أمره وملكه عشرين سنة.

---

(١) انظر: مروج الذهب، الملل والنحل (١/ ٢٣٧)، معتقدات آسيوية ص(١١٢- ١٢٢).

ثم يظهر بعد ذلك أشيزريكا على أهل العلم ويحيي العدل ويميت الجور ويرد السنن المغيرة إلى أوضاعها الأول وتنقاد له الملوك وتتيسر له الأمور وينصر الدين والحق ويحصل في زمانه الأمن والدعة وسكون الفتن وزوال المحن(١).

السيسانيَّة من الزرادشتيَّة

ومن المجوس الزرادشتيَّة صنف يقال لهم السيسانيَّة والبهافريديَّة رئيسهم رجل يقال له سيسان من رستاق نيسابور من ناحية يقال لها خواف.

خرج في أيام أبي مسلم صاحب الدولة وكان زمزميا في الأصل يعبد النيران ثم ترك ذلك ودعا المجوس إلى ترك الزمزمة ورفض عبادة النيران ووضع لهم كتابًا أمرهم فيه بإرسال الشعور.

وحرم عليهم الأمهات والبنات والأخوات وحرم عليهم الخمر.

وأمرهم باستقبال الشمس عند السجود على ركبة واحدة.

وهم يتخذون الرباطات ويتباذلون الأموال ولا يأكلون الميتة ولا يذبحون الحيوان حتى يهرم.

وهم أعدى خلق الله للمجوس الزمازمة ثم إن موبذ المجوس رفعه إلى أبي مسلم فقتله على باب الجامع بنيسابور.

وقال أصحابه: إنَّه صعد إلى السماء على برذون أصفر وأنَّه سينزل على البرذون فينتقم من أعدائه

وهؤلاء قد أقروا بنبوة زرادشت وعظموا الملوك الذين يعظمهم زرادشت(٢).

الأعداد وأماكن التواجد

الزرادشتيون (البارسيون) اليوم يصل عددهم في الهند إلى مائتي ألف يكونون أكثر الأقليَّات نشاطًا وقدرة على العمل منهم المهندسون والموظفون ورجال البنوك ومديرو مصانع الغزل وشركات السكك الحديديَّة.

والبارسيون يعبدون النار ويقدِّسون عناصر الطبيعة ويحرصون على عدم تدنيس هذه العناصر: الأرض والنار والماء، ومن ثم لا يدفنون موتاهم في باطن الأرض أو يلقونها في البحر أو يحرقونها كالهندوك بل يضعون الميت بعد تكفينه على سطح برج عال (برج الصمت) لتكون طعامًا للكواسر فلا يبقى إلا الهيكل العظمي الذي يمكن حرقه بعد جفافه ويمكن دفن عظامه(٣).

---

(١) انظر: الملل والنحل (١/٢٣٨).

(٢) انظر: الملل والنحل (١/٢٣٧، ٢٣٨).

(٣) انظر: معتقدات آسيوية ص(١٢٩، ١٣٠).

الفصل الخامس

الثنويَّة

هؤلاء هم أصحاب الاثنين الأزليين.

يزعمون أن النور والظلمة أزليَّان قديمان، بخلاف المجوس فإنَّهم قالوا بحدوث الظلام وذكروا سبب حدوثه.

وهؤلاء قالوا بتساويها في القدم واختلافهما في: الجوهر، والطبع، والفعل، والحيز، والمكان، والأجناس، والأبدان، والأرواح.

وحكي عن قوم من الثنويَّة أن النور والظلمة لم يزالا حيين، إلَّا أن النور حساس عالم، والظلام جاهل أعمى.

والنور يتحرك حركة مستوية مستقيمة، والظلام يتحرك حركة عجرفيَّة خرقاء معوجة.

فبينا هما كذلك، إذ هجم بعض هامات الظلام على حاشية من حواشي النور فابتلع النور منه قطعة على الجهل لا على القصد والعلم، وذلك كالطفل الذي لا يفصل بين الجمرة والتمرة، وكان ذلك سبب المزاج.

ثم إنَّ النور الأعظم دبر في الخلاص، فبنى هذا العالم؛ ليستخلص ما امتزج به من النور، ولم يمكنه استخلاصه إلا بهذا التدبير[١].

الكينويَّة

حكى جماعة من المتكلِّمين أنَّ الكينوية زعموا أن الأصول ثلاثة: النار والأرض والماء.

وإنَّما حدثت هذه الموجودات من هذه الأصول، دون الأصلين اللذين أثبتهما الثنويَّة.

قالوا: والنار بطبعها خيرة نورانيَّة.

والماء ضدها في الطبع.

فما كان من خير في هذا العالم فمن النار، وما كان من شرٍّ فمن الماء.

والأرض متوسطة.

وهؤلاء يتعصبون للنار شديدًا، من حيث إنَّها علوية نورانيَّة لطيفة، لا وجود إلا بها، ولا بقاء إلا بإمدادها.

---

(١) انظر: الملل والنحل (١/ ٢٤٣).

والماء يخالفها في الطبع، فيخالفها في الفعل.

والأرض متوسطة بينهما.

فتركيب العالم من هذه الأصول[١].

الصياميَّة

الصياميَّة منهم أمسكوا عن طيبات الرزق، وتجرَّدوا لعبادة الله، وتوجَّهوا في عباداتهم إلى النيران تعظيمًا لها.

وأمسكوا أيضًا عن النكاح والذبائح[٢].

التناسخيَّة

والتناسخيَّة منهم قالوا بتناسخ الأرواح في الأجساد، والانتقال من شخص إلى شخص، وما يلقى الإنسان من الراحة والتعب والدعة والنصب فمرتب على ما أسلفه من قبل وهو في بدن آخر جزاء على ذلك.

والإنسان أبدًا في أحد أمرين: إمَّا في فعل، وإمَّا في جزاء.

وما هو فيه فإمَّا مكافأة على عمل قدَّمه، وإمَّا عمل ينتظر المكافأة عليه.

والجنَّة والنار في هذه الأبدان، وأعلى عليين درجة النبوة، وأسفل السافلين دركة الحية، فلا وجود أعلى من درجة الرسالة، ولا وجود أسفل من دركة الحية.

ومنهم من يقول: الدرجة الأعلى درجة الملائكة، والأسفل دركة الشياطين.

ويخالفون بهذا المذهب سائر الثنويَّة، فإنَّهم يعنون بأيَّام الخلاص رجوع أجزاء النور إلى عالمه الشريف الحميد، وبقاء أجزاء الظلام في عالمه الخسيس الذميم[٣].

---

(١) انظر: الملل والنحل (١/ ٢٥٢).

(٢) انظر: الملل والنحل (١/ ٢٥٢).

(٣) انظر: الملل والنحل (١/ ٢٥٢، ٢٥٣).

الفصل السادس

المانويَّة

التعريف:

المانويَّة أصحاب ماني بن فاتك الحكيم، الذي ظهر في زمان سابور بن أردشير، وقتله بهرام بن هرمز بن سابور، وذلك بعد عيسى ابن مريم عليه السلام، وقد أحدث دينًا بين المجوسيَّة والنصرانيَّة.

ومعنى كلمة ماني في الفارسيَّة الفريد النادر.

تاريخ المانويَّة

ماني من أسرة بارثيَّة ملكيَّة، كان والده فاتك من رجال همدان، هاجر إلى بابل حيث وُلد ابنه بمدينة إكباتانا العاصمة الميدية القديمة سنة ٢١٦م، وتلقَّى تعليمه في طيفسون.

وكان والده فاتك ناسكًا ينتمي إلى إحدى الطوائف الدينيَّة، فتربَّى ماني في جوٍّ من البحث والدراسات الدينيَّة، وانتهى به الأمر إلى الاقتناع بأنَّه أصبح صاحب النور الكامل، الذي هو القوَّة المحركة لكلِّ صاحب رسالة دينيَّة.

وبعد أن اطلع ماني على الأديان الأخرى ادَّعى النبوة وهو في سن العشرين، وسمَّى نفسه فارقليط الذي أخبر عنه المسيح عليه السلام.

وكان فصيح اللسان، وله حريَّة الدخول إلى البلاط الملكي، وقد استطاع أن يقنع عددًا من القادة المؤثرين بالدخول في دينه، واستطاع أن ينال حظوة لدى الملك الساساني شابور الأول (ت ٢٧٢م)، الذي رافقه في حروبه مع الدولة الرومانيَّة وتجددت الحُظوة مع الملك بهرام الأوَّل حتَّى أيَّامه الأخيرة.

أعلم ماني أنه هو الذي جاء ليتم عمل زرادشت وبوذا والمسيح، فهؤلاء جميعًا شذرات من الحقيقة وإن كانت هذه الشذرات قد فسدت بفساد الأتباع، يقول ماني: والآن أرسلني الله لنشر دين الحقِّ... أرسلني الله من بابل حتَّى تصل دعوتي إلى العالم أجمع.

ودعا ماني إلى دين يجمع بين الأديان جميعًا، فزعم أنَّ مؤسس الأديان من قبله كانوا جميعًا على صواب، فقد كان بوذا وزرادشت وموسى والمسيح أنبياء صادقين، وزعم أنَّه قد وكِّل إليه أن يوضح تعاليمهم التي أصابها الأتباع بالنقض والاضطراب، وكان عليه أن يتوجها جميعًا بروح من زرادشت وأسلوبه وأن يفسر ما في الحياة من اضطراب وتناقض بأنَّه صراع بين النور والظلمة، بين أهورامزدا الإله وأهرمن الشيطان.

ولم يكتفِ ماني بالطواف في إيران مبشِّرًا بأفكاره الجديدة، بل دخل التركستان، وهبط إلى

الهند، وعبر الممرات الصينيَّة.

وقد انتشرت أفكاره شرقًا وغربًا في سرعة مثيرة، وظلت تمد العالم النصراني بأسره بالهرطقات طوال ما يقارب ألف سنة.

وعاد ماني إلى طيسفون حوالي سنة ٢٧٠م وانضمَّ إليه أنصار كثيرون، فتآمر عليه كهنة زرادشت وضيَّقوا عليه الخناق، وذكرت الشهنامة أنَّ الملك أحضر الموابذة وقال: انظروا في أمر هذا المصور فإني قد وقعت من شأنه في شكٍّ، فناظروه وباحثوه، فانقطع المصور المزور، وظهر للملك أنَّه من حيلة الصدق عاطل، وأنَّ كلامه زور وباطل.

وفي سنة ٢٧٧م أمر به الملك بهرام فصلب وسلخ، واتخذ أتباعه عيدًا لهم أسموه: بيما، ذكرى لمقتل نبيهم الشهيد، واستمرت الدعوة بشكل سريٍّ بعد اضطهاد الزردشتين لهم، ومع ذلك ظلَّت المانويَّة في فارس عدة قرون.

آلهة المانويَّة

وحَّد ماني آلهته -بوصفه رسول النور- مع آلهة المستمعين إليه، فإذا ما وجَّه خطابه إلى النصارى كان المخلِّص يسوع، وإلى الزرادشتيين كان الكائن الأول أهورامزدا. . . ، أما إله العهد القديم (يهوه) فكان ماني يبغضه لعنفه وشدة بطشه وكثرة جرائمه.

وبهذا تمكَّن المانويُّون في عصور الاضطهاد من أن يلبسوا لكل حالة لبوسها، فهم نصارى أو يهود أو بوذيون أو زرادشتيون ما دام هذا التحول يفسح لهم طريق النجاة.

معتقدات وأفكار المانويَّة

- ذكر الشهرستاني أن ماني كان يقول بنبوة المسيح عليه السلام، ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام.

- حكى محمَّد بن هارون المعروف بأبي عيسى الوراق، وكان في الأصل مجوسيًّا عارفًا بمذاهب القوم: إنَّ الحكيم ماني زعم أن العالم مصنوع مركَّب من أصلين قديمين: أحدهما نور، والآخر ظلمة، وأنهما أزليَّان لم يزالا ولن يزالا، وأنكر وجود شيء إلا من أصل قديم.

وزعم أنَّهما لم يزالا قويين، حساسين، دراكين، سميعين، بصيرين، وهما مع ذلك في النفس والصورة والفعل والتدبير متضادان، وفى الحيز متحاذيان تحاذي الشخص والظل.

وإنما تتبين جواهرهما وأفعالهما فيما يلي:

النور	الظلمة

الجوهر

جوهره: حسن، فاضل، كريم، صافٍ، تقيٌّ، طيب الريح، حسن المنظر.

جوهرها: قبيح، ناقص، لئيم، كدر، خبيث، منتن الريح، قبيح المنظر.

النفس

نفسه: خيرة، كريمة، حكيمة، نافعة، عالمة.

نفسها: شريرة، لئيمة، سفيهة، ضارة، جاهلة.

الفعل

فعله: الخير، والصلاح، والنفع، والسرور، والترتيب، والنظام، والاتفاق.

فعلها: الشر، والفساد، والضرر، والغم، والتشويش، والتبتير، والاختلاف.

الحيز

جهته: جهة فوق وأكثرهم على أنَّه مرتفع ناحية الشمال.

وزعم بعضهم أنَّه يجنب الظلمة.

جهتها: جهة تحت وأكثرهم على أنَّها منحطة من ناحية الجنوب.

وزعم بعضهم أنَّها بجنب النور.

الأجناس

أجناسه خمسة: أربعة منها أبدان والخامس روحه.

فالأبدان هي: النار والنور والريح والماء.

وروحها: النسيم وهي تتحرك في هذه الأبدان.

أجناسها خمسة: أربعة منها أبدان والخامس روحها.

فالأبدان هي: الحريق والظلمة والسموم والضباب.

وروحها: الدخان وتدعى الهامَّة وهي تتحرك في هذه الأبدان.

الصفات

الصفات: حيَّة خيرة طاهرة زكيَّة.

وقال بعضهم: كون النور لم يزل على مثال هذا العالم له أرض وجو.

فأرض النور: لم تزل لطيفة على غير صورة هذه الأرض بل هي على صورة جرم الشمس وشعاعها شعاع الشمس ورائحتها أطيب رائحة وألوانها ألوان قوس قزح.

وقال بعضهم: لا شيء إلا الجسم والأجسام على ثلاثة أنواع:

أرض النور: وهي خمسة

وهناك جسم آخر ألطف منه وهو الجو وهو نفس النور.

جسم آخر ألطف منه وهو النسيم وهو روح النور.

قال: ولم يزل يولد النور ملائكة وآلهة وأولياء لا على سبيل المناكحة بل كما تتولد الحكمة من الحكيم والمنطق الطيب من الناطق.

قال: وملك ذلك العالم هو روحه ويجمع عالمه: الخير والحمد والنور.

الصفات: ميتة شريرة نجسة دنسة.

وقال بعضهم: كون الظلمة لم تزل على مثال هذا العالم لها أرض وجو.

فأرض الظلمة لم تزل كثيفة على غير صورة هذه الأرض بل هي أكثف وأصلب ورائحتها كريهة أنتن الروائح وألوانها ألوان السواد.

وقال بعضهم: لا شيء إلّا الجسم والأجسام على ثلاثة أنواع:

أرض الظلمة.

وجسم آخر أظلم منه وهو الجو.

وجسم آخر أظلم منه وهو السموم.

قال: ولم تزل تولد الظلمة شياطين وأراكنة وعفاريت لا على سبيل المناكحة بل كما تتولد الحشرات من العفونات القذرة.

قال: وملك ذلك العالم هو روحه ويجمع عالمه: الشر والذميمة والظلمة.

- ثم اختلفت المانويّة في المزاج وسببه والخلاص وسببه:

قال بعضهم: إنَّ النور والظلام امتزجا بالخبط والاتفاق لا بالقصد والاختيار.

وقال أكثرهم: إن سبب المزاج أنَّ أبدان الظلمة تشاغلت عن روحها بعض التشاغل فنظرت الروح فرأت النور، فبعثت الأبدان على ممازجة النور فأجابتها لإسراعها إلى الشرِّ، فلمّا رأى ذلك ملك النور وجه إليها ملكًا من ملائكته في خمسة أجناس من أجناسها الخمسة، فاختلطت الخمسة النوريّة بالخمسة الظلاميَّة، فخالط الدخان النسيم، وإنَّما الحياة والروح في هذا العالم من النسيم، والهلاك والآفات من الدخان. وخالط الحريق النار، والنور الظلمة، والسموم الريح، والضباب الماء.

فما في العالم من منفعة وخير وبركة فمن أجناس النور، وما فيه من مضرَّة وشرٍّ وفساد فمن أجناس الظلمة.

فلما رأى ملك النور هذا الامتزاج أمر ملكًا من ملائكته فخلق هذا العالم على هذه الهيئة

لتخلص أجناس النور من أجناس الظلمة.

وإنّما سارت الشمس والقمر وسائر النجوم والكواكب لاستصفاء أجزاء النور من أجزاء الظلمة.

فالشمس تستصفي النور الذي امتزج بشياطين الحر، والقمر يستصفي النور الذي امتزج بشياطين البرد، والنسيم الذي في الأرض لا يزال يرتفع لأنَّ من شأنها الارتفاع إلى عالمها، وكذلك جميع أجزاء النور أبدًا في الصعود والارتفاع، وأجزاء الظلمة أبدًا في النزول والتسفل حتَّى تتخلص الأجزاء من الأجزاء، ويبطل الامتزاج، وتنحل التراكيب، ويصل كل إلى كله وعالمه، وذلك هو القيامة والمعاد.

قال: ومما يعين في التخليص والتميز ورفع أجزاء النور التسبيح، والتقديس، والكلام الطيب، وأعمال البر، فترتفع بذلك الأجزاء النوريَّة في عمود الصبح إلى فلك القمر، ولا يزال القمر يقبل ذلك من أول الشهر إلى نصفه، فيمتلئ فيصير بدرًا، ثم يؤدِّي إلى الشمس إلى آخر الشهر.

وتدفع الشمس إلى نور فوقها فيسري ذلك العالم إلى أن يصل إلى النور الأعلى الخالص، ولا يزال يفعل ذلك حتَّى لا يبقى من أجزاء النور شيء في هذا العالم إلا قدر يسير منعقد لا تقدر الشمس والقمر على استصفائه، فعند ذلك يرتفع الملك الذي يحمل الأرض، ويدع الملك الذي يجذب السموات فيسقط الأعلى على الأسفل، ثم توقد نار حتى يضطرم الأعلى والأسفل، ولا تزال تضطرم حتَّى يتحلل ما فيها من النور، وتكون مدَّة الاضطرام ألفًا وأربعمائة وثمانيًا وستين سنة.

وذكر الحكيم ماني في باب الألف من الجبلة الأولى، وفي أول الشابرقان: إنَّ ملك عالم النور في كل أرضه لا يخلو منه شيء، وأنَّه ظاهر باطن، وأنَّه لا نهاية له إلا من حيث تناهي أرضه إلى أرض عدوه.

وقال أيضًا: إنَّ ملك عالم النور في سرة أرضه.

وذكر أنَّ المزاج القديم هو: امتزاج الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، والمزاج المحدث هو: الخير والشر.

- فرض ماني على أصحابه العِشْر في الأموال كلِّها، والصلوات الأربع في اليوم والليلة، والدعاء إلى الحقِّ، وترك الكذب والقتل والسرقة والزنى والبخل والسحر وعبادة الأوثان، وأن يأتي على ذي روح ما يكره أن يؤتى إليه بمثله.

- اعتقاد ماني في الشرائع والأنبياء: أنَّ أوَّل من بعث الله تعالى بالعلم والحكمة آدم أبو البشر، ثم بعث شيثًا بعده، ثم نوحًا بعده، ثم إبراهيم بعده، عليهم الصلاة والسلام، ثم بعث بالبددة إلى أرض الهند، وزردشت إلى أرض فارس، والمسيح كلمة الله وروحه إلى أرض الروم والمغرب، وبولس بعد المسيح إليهم، ثم يأتي خاتم النبيِّين إلى أرض العرب.

- زعم أبو سعيد المانوي وهو رئيس من رؤسائهم أنَّ الذي مضى من المزاج إلى الوقت الذي هو فيه -وهو سنة إحدى وسبعين ومائتين من الهجرة- أحد عشر ألفًا وسبعمائة سنة، وأنَّ الذي بقي إلى وقت الخلاص ثلاثمائة سنة.

قال الشهرستاني: وعلى مذهبه: مدة المزاج اثنا عشر ألف سنة، فيكون قد بقي من المدة خمسون سنة في زماننا هذا، وهو إحدى وعشرون وخمسمائة هجريَّة، فنحن في آخر المزاج وبدء الخلاص، فإلى الخلاص الكلي وانحلال التراكيب خمسون سنة.

- زعم ماني أنَّه يؤمن بالقيمة التربويَّة للفن، فقرر تجليد الكتب تجليدًا فاخرًا، وأن تزين بالرسوم، وأن تصاحب الطقوس تراتيل وموسيقى جميلة.

- أتباع الديانة ينقسمون إلى طائفتين:

١- المقربين المصطفين: وهؤلاء يدخل فيهم الكهنة، وقد فرضت عليهم العزوبة، وحرم عليهم أكل الحيوان، وزعموا أنَّهم قد طهرت نفوسهم من الغلِّ والحسد والكذب.

٢- السامعين المطيعين: وهؤلاء قد سمح لهم بالزواج.

- مارست المانويَّة ما يشبه بعض الأسرار النصرانيَّة؛ كالتعميد، والتوبة، والقداس الإلهي، والغفران من الذنوب عند الاحتضار...، وتأثرت بالغنوصيَّة في العقائد الميتافيزيقيَّة في بدء الكون وأصل الأشياء ...، واشتقت أسماء الملائكة من المصادر السريانيَّة ...، وتأثرت بالبوذيَّة في الاعتقاد بتقمص الأرواح للأجساد وتناسخها ...، كما تأثرت بالمبادئ الزرادشتيَّة، كما أن الطقوس والعبادات التي فرضها ماني مشتقة من عبادات بابل وإيران القديمة[1].

---

(١) انظر: الملل والنحل (١/ ٢٤٤- ٢٤٨)، معتقدات آسيوية ص(١٣٨- ١٤١).

الفصل السابع
المزدكيَّة

التعريف:

المزدكيَّة أصحاب مزدك بن بامداد، الذي ظهر في أيام قباذ والد كسرى أنوشروان في فارس عام ٤٨٧م، ودعا قباذ إلى مذهبه فأجابه واطلع أنوشروان على خزيه وافترائه فطلبه فوجده فقتله.

تاريخ المزدكيَّة

في عهد قباذ الأول (٤٨٨- ٥٣١م) نشب نزاع حاد بين جماهير الشعوب والطبقات النبيلة، وقد اتبعت الجماهير حركة دينيَّة اجتماعيَّة تدعو إلى التساوي العادل في توزيع الملكيَّة، واقتسام أموال الأغنياء، والمشاركة في النساء، وتنسب هذه الحركة إلى مزدك.

والمزدكيَّة مستقاة من تعاليم ماني ولها قواعد خاصة بالسلوك، إذ كانت تتطلب من أتباعها الامتناع التامّ عن النزاع والبغضاء والحسد والتكالب على جمع المال، ولأنَّها تناهض سطوة الأغنياء والنبلاء فقد أيدها قباذ ليخضد شوكة هؤلاء الذين كانوا ينازعون سلطانه، وأدخل عدة تشريعات يتعلق بعضها بمكانة النساء، فنشبت ثورة خلعته عن العرش وحاكمته وسجنته، ونُصِّب أخوه جماسب، لكن قباذ هرب من سجنه، ولجأ إلى الإفثلاطيين (قبائل طورانيَّة وتركيَّة وراء نهر جيحون)، وعاد في سنة ٤٩٩م مع جيش منهم، فخلع أخاه، واستعاد عرشه.

وتحكي الشهنامة ٢/ ١١٨ علاقة قباذ بمزدك فتقول: اتصلٌ بقباذ رجل فصيح اللسان، غزير العلم، ذو رأي وعقل، يسمى مزدك، فقبله قباذ، وأقبل عليه، حتى اتخذه دستورًا وخازنًا، فاتفق أن أصاب الناس في ذلك العهد لَزْبة شديدة، احتبس فيها القطر، وهلك الزرع، فاجتمع أكابر إيران على باب قباذ، وضجوا بما هم فيه من الضيق والشدة وعدم الأقوات، فقال لهم مزدك: إنَّ الملك سيزيل ظلامتكم، ويحقق طلبتكم، ودخل على الملك، وقال: إني سائلك من مسألة، فأجبني عنها، فقال: هاتها، قال: ماذا تقول في رجل معه جملة من الترياق المجرب، وعنده رجل قد لدغته الحيَّة، وهو على شرف الموت، وصاحب الترياق يمنعه عنه، ويضن به عليه، ويدعه حتى يموت؟ قال الملك: إنَّ صاحب الترياق مأخوذ بدم هذا اللديغ، وينبغي أن يقتل به، فقام مزدك وخرج، وقال للمتظلمين: إني فاوضت الملك في أمركم، فانصرفوا الآن، وعاودوا الدركاء غدًا، فانصرفوا وعادوا بكرة، فدخل مزدك على الملك، ودعا له، وأثنى عليه، ثم قال: لقد أجبتني أمس عن مسألتي، وأريد الآن أن تجيبني على مسألة أخرى، فقال: سل، قال: مزدك: ماذا تقول فيمن حبس رجلًا وقيده ومنعه الطعام والشراب، حتى مات؟ قال: هذا المسكين متقلد دم يسفكه، فخرج مزدك وقال لمن حضر بالباب من المتظلمين: إن الملك قد أباحكم ما في الأهراء من

الغلات، فابسطوا أيديكم، وأينما وجدتم منها شيئًا فاستبيحوه، ففعلوا ذلك، وطنت المدينة، وماجت بالعامة الذين أخرجتهم المجاعة، وانتهت غلات الملك وغيره.

وبلغ الملك ما حدث، وأن مزدك هو الذي رخَّص في ذلك، فاستحضره، وسأله عمَّا حمله على ذلك، فقال: إنَّ الجائع هو اللديغ، والطعام هو الترياق، وقد أباح الملك دم صاحب الترياق، إذا لم يتدارك حشاشة اللديغ المشرف على الموت، وقد رأيت الناس يموتون جوعًا، ولا خير عند أرباب الغلات المدخرة، فأبحتهم إيَّاها، على مقتضى حكم الملك وقوله، فسكت قباذ.

استعلى أمر مزدك، وطالت ذراعه، واتسع باعه، وكثرت أشياعه وأتباعه، وخالف الأنبياء في مللهم، وباين العلماء في طرقهم، وكان يقول: ينبغي أن تكون أمور العالم على السواء، ولا يقع تفاوت في نعم الله بين الأغنياء والفقراء، ويكون الغني كالسَّدى، والفقير كاللُّحمة، فشرع مذهب الإباحة على هذه الصفة، ولم يزل أمره يقوى إلى أن آمن به قباذ، ودخل في دينه، وشاع هذا المذهب في أطراف الدنيا، وصار بحيث لا يتجاسر أحد على مخالفته.

واتفق أن دخل على الملك وقال له: إنَّ على الباب جماعة من أهل ديننا ومتبعي ملتنا، فأذن لهم قباذ في الدخول، فقال مزدك: إنَّ هذا المكان ضيق لا يسعهم، فإن رأى الملك خرج لأجلهم إلى الصحراء، فأمر بإخراج تخته إلى الصحراء، وخرج، فاجتمع عليه نحو مائة ألف نفس من المزدكيَّة، فقال مزدك لقباذ: اعلم أن ابنك كسرى ليس على ديننا، ولا ينبغي أن يخالف مذهب الحق، والرأي أن نأخذ خطه بمتابعتنا، وترك ما هو عليه من الضلالة والجهالة، ثم قال: والذي يمنع الناس عن سلوك طريق السداد منحصر في خمسة أشياء لا غير، وهي الغيرة والحقد والغضب والحرص والفقر، وإذا قمعت هذه الأخلاق الشيطانيَّة استقام لك طريق الحق، ومنشؤها كلُّها من شيئين: المال والنساء، فينبغي أن يجعلا على الإباحة من الخلق أجمعين، حتى نأمن من الآفات الخمس، فأمر قباذ ابنه كسرى بالدخول في دينه، فاستمهله خمسة أشهر، على أنَّه إذا لم يظهر بطلان دينه في هذه المدة يدين معه، فرضي منه قباذ ذلك، وتفرق الناس عن ذلك المجمع، فنفَّذ كسرى كتبه إلى بلاد فارس يستدعي العلماء، فجاء مويذ من أرض أردشيرخُرّه، يسمى مِهرادز، في ثلاثين مويذا، وتفاوضوا عند كسرى في حديث مزدك، وما جاء به من الملة المدخولة، فكثرت بينهم المباحث والمناظرات حتى اتضح لهم بطلان دينه، وتقرر بينهم إدحاض حجته، وأوضحوا ذلك لكسرى فدخل على أبيه وقال: إن ظهرت حقيقة دين مزدك وبطلان دين زرادشت تبعتك، وإن ظهر بطلانه ينبغي لك أن تتبرأ منهن وتمكنني منه ومن أتباعه حتى أرى فيهم رأيي وأنفذ فيهم حكمي، فوافقه قباذ على ذلك، فأشهد به على نفسه زرمهر وجميع من حضر من العلماء والموابذة، فقام كسرى إلى إيوانه، ولما أصبح ركب ومعه الموابذة، وقال: أيها الرجل قد أتيت بدين جديد أبحت فيه النساء والأموال، ويلزم من ذلك ألا يعرف الوالد ولده، ولا الولد والده، وإذا مات الإنسان لا يدري من يرث طارفه وتليده، وإذا اختلط الناس فمن أين يعرف الكبير من الصغير والوضيع من الشريف؟ وإذا استووا فمن يتعين للرياسة ويترشح للسياسة؟

وأخذوا في المناظرة والمباحثة حتى انقطع مزدك، وظهر لقباذ أنَّه عن حلية الدين عاطل، وأنَّ كلامه باطل، ليس وراءه طائل، فرجع عن دينه، وندم على تقديمه، فسلَّمه إلى كسرى، وسلطه عليه وعلى أصحابه، وقال له: إن على الباب ثلاثة آلاف نفس من رؤساء المزدكيَّة، فنكّل بهم أولًا، ثم افعل ما شئت بمزدك ثانيًا، فقبض كسرى عليهم أجمعين وطمرت رءوسهم إلى خصورهم في التراب، وتركت أرجلهم منتصبة بادية للأبصار، كأنَّهم غرسوا غرس الأشجار، ثم استحضر مزدك وقال له: ادخل إلى البستان وانظر فيه إلى شجر لم ير مثله ذو بصر، فدخل البستان ولما شاهد ذلك غُشي عليه، فأمر به فصلب ورشق بالسهام حتى مات، بل نفق وتبدد شمل دينه بعدما اتسق.

وهناك من زعم أن مزدك طلب من قباذ أن يبعث بامرأته ليتمتع بها المزدكيُّون، فكان هذا سبب القضاء عليهم.

وبعد كسرى عاشت المزدكيَّة فرقة سريَّة... عاشت على هذا النحو أيَّام الدولة الساسانيَّة، ثم عادت إلى الظهور من جديد في بداية العصور الإسلاميَّة.

معتقدات وأفكار المزدكيَّة

- حكى الوراق أنَّ قول المزدكيَّة كقول كثير من المانوية في الكونين والأصلين، إلا أنَّ مزدك كان يقول: إنَّ النور يفعل بالقصد والاختيار، والظلمة تفعل على الخبط والاتفاق.

والنور عالم حساس، والظلام جاهل أمي.

وأنَّ المزاج كان على الاتفاق والخبط، لا بالقصد والاختيار، وكذلك الخلاص إنَّما يقع بالاتفاق دون الاختيار.

- وكان مزدك ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال، ولما كان أكثر ذلك إنَّما يقع بسبب النساء والأموال أحلَّ النساء وأباح الأموال، وجعل الناس شركة فيهما، كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ.

- وحكي عنه أنَّه أمر بقتل الأنفس ليخلصها من الشر ومزاج الظلمة.

- ومذهبه في الأصول والأركان أنَّها ثلاثة: الماء والأرض والنار.

ولمَّا اختلطت حدث عنها مدبر الخير ومدبر الشر، فما كان من صفوها فهو مدبر الخير، وما كان من كدرها فهو مدبر الشرِّ.

- وروي عنه أن معبوده قاعد على كرسيه في العالم الأعلى، على هيئة قعود خسرو في العالم الأسفل، وبين يديه أربع قوى: قوة التميز، والفهم، والحفظ، والسرور.

كما بين يدي خسرو أربعة أشخاص موبذان: موبذ، والهربذ الأكبر، والأصبهبد، والرامشكر.

وتلك الأربع يدبرون أمر العالم بسبعة من وزرائهم: سالار، وبيشكار، وبالون، وبروان،

وكازران، ودستور، وكوذك.

وهذه السبعة تدور في اثني عشر روحانيًّا: خواننده، ودهنده، وستاننده، وبرنده، وخورننده، ودونده، وخيزنده، وكشنده، وزننده، وكننده، وأبنده، وشونده، وباينده.

وكلُّ إنسان اجتمعت له هذه القوى الأربع والسبع والاثنا عشر صار ربانيًّا في العالم السفلي، وارتفع عنه التكليف.

- قال: وإن خسرو العالم الأعلى إنَّما يدبر بالحروف التي مجموعها الاسم الأعظم، ومن تصور من تلك الحروف شيئًا انفتح له السرُّ الأكبر، ومن حرم ذلك بقي في عمًى الجهل والنسيان والبلادة والغم في مقابلة القوى الأربع الروحانيَّة.

فرق المزدكيَّة

من فرق المزدكيَّة: الكوذيَّة، وأبو مسلمية، والماهانيَّة، والاسبيدخامكيَّة. والكوذيَّة بنواحي الأهواز وفارس وشهرزور، والأُخَر بنواحي سغد سمرقند والشاش وإيلاق[1].

---

(١) انظر: الملل والنحل (١/ ٢٤٨، ٢٤٩)، معتقدات آسيوية ص(١٤٢- ١٤٥).

الفصل الثامن

الديصانيَّة

أصحاب ديصان.

أثبتوا أصلين: نورًا وظلامًا.

فالنور: يفعل الخير قصدًا واختيارًا.

والظلام: يفعل الشَّرَّ طبعًا واضطرارًا.

فما كان من خير ونفع وطيب وحسن فمن النور.

وما كان من شر وضرر ونتن وقبح فمن الظلام.

وزعموا أنَّ النور: حيٌّ، عالم، قادر، حساس، دراك، ومنه تكون الحركة والحياة.

والظلام: ميت، جاهل، عاجز، جماد، موات، لا فعل له ولا تمييز.

وزعموا أنَّ الشَّرَّ يقع منه طباعًا وخرقًا.

وزعموا أنَّ النور جنس واحد، وكذلك الظلام جنس واحد.

وإنَّ إدراك النور إدراك متفق، فإنَّ سمعه وبصره وسائر حواسه شيء واحد، فسمعه هو بصره، وبصره هو حواسه، وإنَّما قيل: سميع بصير لاختلاف التركيب، لا لأنَّهما في نفسهما شيئان مختلفان.

وزعموا أنَّ اللون هو الطعم، وهو الرائحة، وهو المحسة، وإنَّما وجدوه لونًا؛ لأنَّ الظلمة خالطته ضربًا من المخالطة، ووجده طعمًا لأنَّها خالطته بخلاف ذلك الضرب، وكذلك القول في لون الظلمة وطعمها ورائحتها ومحستها.

وزعموا أنَّ النور بياض كلُّه، وأنَّ الظلام سواد كلُّه.

وزعموا أنَّ النور لم يزل يلقى الظلمة بأسفل صفحة منه، وأنَّ الظلمة لم تزل تلقاه بأعلى صفحة منها.

واختلفوا في المزاج والخلاص:

فزعم بعضهم أنَّ النور داخل الظلمة، والظلمة تلقاه بخشونة وغلظ، فتأذَّى بها، وأحب أن يرقصها ويلينها، ثم يتخلَّص منها، وليس ذلك لاختلاف جنسهما، ولكن كما أنَّ المنشار جنسه حديد، وصفحته لينه، وأسنانه خشنة، فاللين في النور، والخشونة في الظلمة، وهما جنس واحد، فتلطف النور بلينه، حتى يدخل تلك الفرج، فما أمكنه إلا بتلك الخشونة، فلا يتصور الوصول إلى كمال وجود إلا بلين وخشونة.

وقال بعضهم: بل الظلام لما احتال حتى تشبث بالنور من أسفل صفحته فاجتهد النور حتى يتخلَّص منه، ويدفعه عن نفسه، فاعتمد عليه فلجج فيه، وذلك بمنزلة الإنسان الذي يريد الخروج من وحل وقع فيه فيعتمد على رجله ليخرج، فيزداد لجوجًا فيه، فاحتاج النور إلى زمان ليعالج التخلُّص منه والتفرد بعالمه.

وقال بعضهم: إنَّ النور إنَّما دخل أجزاء الظلام اختيارًا ليصلحها، ويستخرج منها أجزاء صالحة لعالمه، فلما دخل تشبثت به زمانًا، فصار يفعل الجور والقبيح اضطرارًا لا اختيارًا، ولو انفرد في عالمه ما كان يحصل منه إلا الخير المحض والحسن البحت. وفرق بين الفعل الاضطراري وبين الفعل الاختياري[1].

(١) انظر: الملل والنحل (١/٢٤٩، ٢٥٠).

الفصل التاسع

المرقيونيَّة

أصحاب مرقيون.

أثبتوا أصلين قديمين متضادين: أحدهما النور، والثاني الظلمة.

وأثبتوا أصلًا ثالثًا هو المعدل الجامع، وهو سبب المزاج، فإنَّ المتنافرين المتضادين لا يمتزجان إلا بجامع.

وقالوا: إنَّ الجامع دون النور في المرتبة، وفوق الظلمة، وحصل من الاجتماع والامتزاج هذا العالم.

ومنهم من يقول: الامتزاج إنَّما حصل بين الظلمة والمعدل، إذ هو أقرب منها، فامتزجت به لتطيب به وتلتذ بملاذه، فبعث النور إلى العالم الممتزج روحًا مسيحيَّة، وهو روح الله وابنه، تحننًا على المعدل الجامع السليم الواقع في شبكة الظلام الرجيم، حتى يخلصه من حبائل الشياطين، فمن اتبعه فلم يلامس النساء ولم يقرب الزهومات أفلت ونجا، ومن خالفه خسر وهلك.

قالوا: وإنما أثبتنا المعدل؛ لأنَّ النور الذي هو الله تعالى لا يجوز عليه مخالطة الشياطين، وأيضًا فإنَّ الضدين يتنافران طبعًا، ويتمانعان ذاتًا ونفسًا، فكيف يجوز اجتماعهما وامتزاجهما؟ فلا بدَّ من معدل يكون بمنزلة دون النور، وفوق الظلام، فيقع الامتزاج منه.

وهذا على خلاف ما قالته المانويَّة، وإن كان ديصان أقدم، وإنَّما أخذ ماني منه مذهبه وخالفه في المعدل، كالحاكم على الخصمين، الجامع بين المتضادين، لا يجوز أن يكون طبعه وجوهره من أحد الضدين، وهو الله الذي لا ضدَّ له ولا ندَّ.

وحكى محمد بن شبيب عن الديصانيَّة أنَّهم زعموا أنَّ المعدل هو الإنسان الحساس الدراك، إذ هو ليس بنور محض ولا ظلام محض.

وحكي عنهم أنَّهم يرون المناكحة وكل ما فيه منفعة لبدنه وروحه حرامًا، ويحترزون عن ذبح الحيوان لما فيه من الألم[1].

---

(١) انظر: الملل والنحل (١/ ٢٥١، ٢٥٢).

الباب الثاني

أديان الهند

الفصل الأول

الهندوسيَّة

التعريف:

الهندوسيَّة -ويطلق عليها أيضًا البرهميَّة- ديانة وثنيَّة، يعتنقها معظم أهل الهند، وهي مجموعة من العقائد والعادات والتقاليد التي تشكلت عبر مسيرة طويلة من القرن الخامس عشر قبل الميلاد إلى وقتنا الحاضر.

إنَّها ديانة تضمُّ القيمَ الروحيَّة والخلقيَّة إلى جانب المبادئ القانونيَّة والتنظيميَّة متخذةً عدةَ آلهةٍ بحسب الأعمال المتعلقة بها، فلكلٍّ منطقة إله، ولكلٍّ عملٍ أو ظاهرة إله.

تاريخ الهندوسيَّة

يعتقد الباحثون أنَّ الهند كان بها حضارة قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة، لكن لا يوجد عنها معلومات كافية، وعُرف سكان الهند في تلك الفترة باسم الدَّرَافِيدْ وهم مزيج من الكول وهم البدو المتنقلون والمستوطنون في الغابات والجبال وعلى شواطئ الأنهار، والتورانيين الذين كان مسكنهم تركستان ثم نزحوا إلى بلاد الهند وأخضعوا الشعب الكولي، وبمرور الزمن اتحد العرقان -التوراني والكولي- ونتج شعب الدارفيد الذين كانوا قصار القامة وأقرب إلى الزنوج بلون بشرتهم.

وفي القرن الخامس عشر قبل الميلاد جاء الغزاة الآريون -وقد اختلف في أصلهم: فيرى بعض الباحثين أنهم قادمون من الدانوب بأوربا، ويرى آخرون أنهم من وسط آسيا في بلاد التركستان، ويرى آخرون أنهم من إيران (الفرس) نفسها- مارِّين في طريقهم بالإيرانيين فتأثرت معتقداتهم بالبلاد التي مروا بها، وحاربوا أهل الهند الأصليين مدة ألف عام تقريبًا، ولما استقرُّوا في الهند حصل تمازج بين المعتقدات تولدت عنه الهندوسيَّة كدين فيه أفكار بدائيَّة من عبادة الطبيعة والأجداد والبقر بشكل خاصٍّ.

وفي القرن الثامن قبل الميلاد تطورت الهندوسيَّة على أيدي الكهنة البراهمة الذين يزعمون أن في طبائعهم عنصرًا إلهيًّا. فوُضع مذهب البرهمية وقالوا بعبادة براهما.

وفي القرن السادس قبل الميلاد بدأت أفكار جديدة تَرِدُ إلى الهند من اليونان ومصر وبابل والصين، فانقسم علماء الآريين إلى قسمين: قسم يحارب هذه الأفكار الجديدة، وقسم ينقِّح ويهذِّب أفكارهم على ضوء العلوم الجديدة، فبدأ الدين الهندوسيُّ يتجه إلى الفلسفة وينهج منهجها،

وألفت في هذا العهد أهم كتب الهندوسيَّة.

ثم تطوَّرت مرةً أخرى في القرن الثالث قبل الميلاد عن طريق قوانين منوشاستر، فأعادت إليها القوَّة.

الطَّبقات في المجتمع الهندوسيّ

منذ أن وصل الآريون إلى الهند شكَّلوا طبقاتٍ ما تزال قائمةً إلى الآن، ولا طريق لإزالتها؛ لأنَّهم يعتقدون أنها تقسيمات أبدية من خلق الله.

والمصدر الأساسيُّ لهذه الطبقات هو كتابهم المقدَّس رج فيدا إذ يقول: خلق الله طائفة البراهمة من فمه، والكَشْتَري من عضده، والوَيْش من فخذه، والشُّودرا من رجله. وتلي ذلك قوانين منو لوضع التفاصيل الدقيقة وتوزيع وظائف كلِّ طبقةٍ منها على النحو التالي:

١- **البراهمة**: ومعناه العارف بالله وحامل العلم والمعرفة، منهم المعلم والكاهن، والقاضي، ولهم يلجأ الجميع في حالات الزواج والوفاة، ولا يجوز تقديم القرابين إلا في حضرتهم.

٢- **الكشتري**: ومعناه الشُّجاع صاحب السُّلْطة، يتعلمون ويقدمون القرابين ويحملون السِّلاح للدفاع.

٣- **الويش**: ومعناه الزُّرَّاع والتُّجَّار، يزرعون ويتاجرون ويجمعون المال، وينفقون على المعاهد الدينيَّة.

٤- **الشُّوَدَرا**: ومعناه الذَّليل والمهين، وهم مع الزنوج الأصليِّين يشكلون طبقة المنبوذين، وعملهم مقصور على خدمة الطوائف الثلاث السابقة الشريفة ويمتهنون المهن الحقيرة والقذرة.

- يلتقي الجميع على الخضوع لهذا النِّظَام الطبقيِّ بدافع دينيٍّ.

- يجوز للرجل أن يتزوج من طبقة أعلى من طبقته ويجوز أن يتزوج من طبقة أدنى على ألا تكون الزوجة من طبقة الشُّودرا الرابعة ولا يجوز للرجل من طبقة الشُّودرا أن يتزوج من طبقة أعلى من طبقته بحال من الأحوال.

- البراهمة هم صفوة الخلق، وقد ألحقوا بالآلهة، ولهم أن يأخذوا من أموال عبيدهم «شودرا» ما يشاءون.

- البرهميُّ الذي يكتب الكتاب المقدَّس هو رجلٍ مغفور له ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه.

- لا يجوز للملك -مهما اشتدت الظُّروف- أن يأخذ جباية أو إتاوة من البرهمي.

- إن استحقَّ البرهمي القتل لم يجزْ للحاكم إلا أن يحلق رأسَه، أما غيره فيقتل.

- البرهمي الَّذي هو في العاشرة من عمره يفوق الشُّودراي الَّذي ناهز المائة كما يفوق الوالد ولده.

- لا يصحُّ لبرهمي أن يموت جوعًا في بلاده.

- المنبوذون أحطُّ من البهائم وأذلُّ من الكلاب بحسب قانون منو.

- من سعادة المنبوذين أن يخدموا البراهمة وليس لهم أجر أو ثواب.

- إذا مدّ أحد المنبوذين إلى برهمي يدًا أو عصًا ليبطش به قطعت يده، وإذا رفسه قُدِعت رجله.

- إذا هَمَّ أحد من المنبوذين بمجالسة برهميٍّ فعلى الملك أن يكوي استه وينفيه من البلاد.

- إذا ادَّعى أحد المنبوذين أنه يعلِّم برهميًا فإنه يسقى زيتًا مغليًا.

- كفارة قتل الكلب والقطَّة والضفدعة والوزغ والغراب والبومة ورجل من الطبقة المنبوذة سواء.

- ظهر مؤخرًا بعض التحسن البسيط في أحوال المنبوذين خوفًا من استغلال أوضاعهم ودخولهم في أديان أخرى لا سيما النصرانيَّة التي تغزوهم أو الشيوعيَّة التي تدعوهم من خلال فكرة صراع الطبقات.

- ولكن كثيرًا من المنبوذين وجدوا العزة والمساواة في الإسلام فاعتنقوه.

- يلاحظ هبوط المستوى الاقتصاديّ لمعتنقي الهندوسيَّة؛ لأن بعض الطبقات لا تعمل؛ ذلك لأن العمل لا يليق بمكانتها السامية كطبقة البراهمة مثلًا.

- ونظام الطبقات يعطِّل مبدأ تكافؤ الفرص.

- حاول الزعيم الهندي (غاندي) تقليص الحدة بين الطبقات وبين المنبوذين ولكن محاولاته ذهبت أدراج الرِّياح، بل كان هو ذاته ضحية لهذه المحاولة.

كتب الهندوسيَّة

للهندوسيَّة عدد هائل من الكتب عسيرة الفهم غريبة اللغة وقد أُلِّفت كتب كثيرة لشرحها وأخرى لاختصار تلك الشروح، وكلُّها مقدَّسة وأهمُّها:

١- الفيدا veda : وهي مشتقَّة من كلمة ود ومعناها باللغة السنسكريتيَّة الحكمة والمعرفة، وهو ليس مؤلَّف على الأبواب والفصول إنما هو مجموعة من الأجزاء المنتشرة من تعليمات الزُّهَّاد والنُّسَّاك في القرون المظلمة قبل الميلاد والتي كان يحفظها ما يسمون: شاستري، ثم أملوها على تلاميذهم وقيَّدوها على اللوحات الحجريَّة والجلديَّة.

ويدعي الهندوس أن الفيدا أزليٌّ وقديمٌ كقدم العالم، ألهمه رجل يسمونه: منو، وهو يصوِّر حياة الآريين النازحين إلى الهند، ومدارج الارتقاء للحياة العقليَّة من السَّذاجة إلى الشعور الفلسفيّ، وفيه أدعية تنتهي بالشكِّ والارتيابِ كما أن فيه تأليهًا يرتقي إلى وحدة الوجودِ، والفيدا تتألف من أربعة كتب هي:

١- رج فيدا Rig veda، أي الفيدا الملكيَّة، ومعناه الدُّعاء والثَّناء، أو معرفة الترانيم، وترجع إلى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد. وفيها ذكر أكثر من مائة وخمسين إلهًا، أشهرهم: إله الآلهة

(إندار)، إله النار (أغني)، إله الهواء (فَايو)، إله سُوَرَيا (إله الشمس). وهي تصف الحياة الاجتماعيَّة الأولى لطائفة الآريين الهنود وحياتهم البدويَّة وآراءهم البسيطة في الله وفي الكون والإنسان.

٢- ياجور فيدا Yajur veda أي معرفة الصيغ الخاصَّةِ بالقرابين، ويتلوها الرُّهبان عند تقديم القرابين.

وهي تصوُّر الحياة المتطوِّرة للآريين بعد نضوجهم الفكريِّ وبعد أن حدثت تغيرات شتَّى في حياته البسيطة.

٣- ساما فيدا Sama veda أي معرفة الأنغام، وقد أُلِّف لأداء المراسيم الدينيَّة، وفيه نجد أغاني كثيرةً تؤدَّى بنغمات مختلفة، كذلك نجد فيه إشاراتٍ إلى أهمِّيَّة الرقصِ.

٤- أثروا فيدا Atharva veda: عبارة عن مقالات من الرقى والتَّمائم لدفع السحر والتَّوهم والخرافة والأساطير والشَّياطين والحيوانات المفترسة، كما أنَّ فيه أدعيةً لحصولَ الرَّاحة والأمن والربح.

وكل واحد من هذه الفيدات يشتمل على أربعة أجزاء هي:-

أ- سَمْهِتا: تمثل مذهب الفطرة، وأدعيته كان يقدِّمها سكانُ الهند الأقدمون لآلهتهم قبل زحف الآريين.

ب- البراهمانا: يقدِّمُها البراهمة للمقيمين في بلادهم مبينة أنواع القرابين.

ج- آرانياك: وهي الصلوات والأدعية التي يتقدَّم بها الشيوخ أثناء إقامتهم في الكهوف والمغاور وبين الأحراش والغابات.

د- أبانيشاد: وهي الأسرار والمشاهدات النفسيَّة للعرفاء من الصوفيَّة، فجميع أحكام التَّصوُّف دُوِّنَت في هذه الكتب، وقد لخص جوستاف لوبون المعتقدات الواردة فيها، كما يأتي:

- عبادة القوى الطبيعيَّة.
- تشخيص هذه القوى بأسماء آلهة.
- اعتقاد خلود الروح (على أساس التناسخ).
- عبادة الأجداد.
- الميل إلى إخضاع الناس والطبيعة والآلهة لإله واحد أقوى منها، وهو الإله إندرا.
- تنحصر حقيقة الدين في تناول القرابين وتقديم الفواكه باليسر والمطر المبارك والصحة والكنوز.

٢- البُرَانا PURAN: وهو يعتبر عند جماهير الهندوس الفيدا الخامس؛ لأنَّ فهم الفيدا موقوفٌ عليه، وهو يتحدث عن أساطير الأولين، ويشتمل على: علم الكائنات وسعة الكائنات

وعهود منو أي الرسل، وأحوال ملوك سوريا بنسي وجندرا بنسي. والمقاصد الكبرى له إثبات عقيدة نزول الإله إلى الأرض بصورة البشر.

٣- **قوانين منو:** وضعت في القرن الثالث قبل الميلاد في العصر الويدي الثّاني، عصر انتصار الهندوسيَّة على الإلحاد الَّذي تمثل في (الجينيَّة والبوذيَّة). وهذه القوانين عبارة عن شرح للويدات بين معالم الهندوسيَّة ومبادئها وأسسها.

٤- **دهرم شاسْتَرا:** وهي مجموعة من الكتب الفقهيَّة للدِّيانة الهندوسيَّة، وهي تحتوي على ثلاثةِ عناوين رئيسة: الأحكام لأدوار حياة الإنسان، الحدود والجنايات، العقاب الَّذي يلحق الهندوسيَّ إذا لم يخضع لقوانين وأحكام الشريعة.

٥ - **مها بهارتا:** ملحمة هنديَّة تشبه الإلياذة والأوديسة عند اليونان ومؤلفها (وياس) ابن العارف (بوسرا) الَّذي وضعها سنة ٩٥٠ ق.م، واشترك في تأليفه أيضًا: ويشمبايان، وسوتي، وهي تصف حربًا بين أمراء من الأسر المالكة، وقد اشتركت الآلهة في هذه الحرب. والقصَّة تتخلَّلها الأفكار الفلسفيَّة في الدِّين والسّلوك على لسان أحد الأبطال وهو كرشنا.

٦- **كيتا:** تصف حربًا بين أمراء من أسرةٍ ملكيَّةٍ واحدةٍ، وينسب إلى كرشنا فيها نظراتٌ فلسفيَّة واجتماعيَّة، ومنها ذكر وظائف الجيش وهي الدِّفَاع عن الوطن، وفيه تعليمات لحصول النَّجاة بالطرق الثلاث: العلم، التعبُّد، العمل، وهذه التعليمات وغيرها في هذا الكتاب ذات اتجاه صوفيٍّ، وفي الحقيقة أنَّ كيتا جزءٌ من كتاب مها بهارتا.

٧- **يوجا فَاسِشْتَا:** تحتوي على أربعةٍ وستين ألفَ بيتٍ، أُلِّفَت ابتداء من القرن السادس عبر مرحلة طويلة على أيدي مجموعة من الناس، فيها أمور فلسفيَّةٌ ولاهوتيَّةٌ. وفي هذا الكتاب ثلاث طرقٍ لليوجا: الاعتقاد بالوحدة وهو أن يرى برهما هو وحده في العالم، طمأنينة القلب وهو أن يقهرَ نفسَه حتى تكون تابعةً له، مخالفةُ النفس.

٨- **رامايانا:** يعتني هذا الكتاب بالأفكار السياسيَّة والدّستوريَّة، وفيه خطب لملك اسمه (راما) في حربه لملك سيلان اسمه رافان، والقصة تشير إلى الحرب بين الخير والشرِّ.

٩- **الفِيدَانت:** معناه زبدة الفيدا، ويعتبر من الكتب الفلسفيَّة والأخلاقيَّة لدى الهندوس، وهو أصغر حجمًا وأكبر تأثيرًا على الفكر الهنديِّ الفلسفيِّ والصوفيِّ من أي كتاب آخر من الكتب الهندوسيَّة، ويقال له أيضًا: برهما سوترا، وهو يشتمل على عشر مقالات مهمَّة: معرفة الإله، الرُّوح، جولان الرُّوح، الأحوال بعد الممات، قانون الجزاء، العبوديَّة المطلقة، العلم الإلهيّ، المغريات، النَّجاة.

نظرة الهندوسيَّة إلى الآلهة

١- **التَّوحيد:** لا يوجد عندهم توحيد، لكنهم إذا أقبلوا على إله من الآلهة أقبلوا عليه بكل جوارحهم حتى تختفي عن أعينهم كلُّ الآلهة الأخرى، وعندها يخاطبونه برب الأرباب أو إله الآلهة.

٢- **التَّعدُّد**: يقولون بأنَّ لكلِّ طبيعة نافعة أو ضارَّة إلهًا يُعبد: كالماء والهواء والأنهار والجبال... وهي آلهة كثيرة يتقربون إليها بالعبادة والقرابين.

٣- **التثليث**: في القرن التاسع قبل الميلاد جمع الكهنة الآلهة في إله واحدٍ أخرج العالم من ذاته وهو الَّذي أسموه:

أ- **براهما**: من حيث هو موجود.

ب- **فشنو**: من حيث هو حافظ.

ج- **سيفا**: من حيث هو مهلك.

فمن يعبد أحد الآلهة الثلاثة فقد عبدها جميعًا أو عبد الواحد الأعلى ولا يوجد أي فارقٍ بينها. وهم بذلك قد فتحوا الباب أمام النصارى للقول بالتثليثِ.

٤- **يلتقي الهندوس على تقديس**: البقرة، وأنواع من الزواحف كالأفاعي، وأنواع من الحيوان كالقردة؛ ولكن تتمتع البقرة من بينها جميعًا بقداسة تعلو على أي قداسة، ولها تماثيل في المعابد والمنازل والميادين، ولها حقُّ الانتقال إلى أي مكان ولا يجوز للهندوكي أن يمسَّها بأذًى أو بذبحها وإذا ماتت دفنت بطقوس دينيَّة.

وكان غاندي من أكبر الدُّعاة إلى عبادة البقرة وتقديسها، وكان يقول: الدِّيانة الهندوسيَّة ستبقى على وجه الأرض ما دام الهندوس يحافظون على البقرة. وجعل البقرة أفضل من أمِّه الحقيقيَّة من عدة وجوه.

٥- **عقيدة أَفْتَارَ**: وهي نزول الربِّ إلى الأرض لإصلاح الناس بصورة البشر، وله أربعة أقسام:

أ- **بُورَن أفتار**: يعنون به النُّزول الكامل، مثل أفتار راما وأفتار كرشنا. فيعتقد الهندوس بأن آلهتهم قد حلَّت في إنسان اسمه كرشنا وقد التقى فيه الإله بالإنسان أو حلَّ اللاهوت في الناسوت، وهم يتحدثون عن كرشنا كما يتحدث النصارى عن المسيح.

ب- **أنْشَان أفتار**: أي الَّذي يرسل لغرض خاصٍّ دون الأوَّل، مثل أفتار نرسنغ.

ج- **كَلَا أفتار**: الَّذي يكون أدنى من أنشان أفتار، مثل منو كَشِيب.

د- **اذهَيا كَاري أفتار**: الَّذي يعطي قوة كقوة برهما ثم تزول عنه، مثل ويد وياس عند تأليفه الفيدات.

٦- **عبادة الأصنام**: وجد علماء الآثار مجموعةً كبيرةً من الأصنام، أكثرها عارية من اللباس، وأخرى مزينة بالألوان ومحلاة بالحلي والملابس، وأصنام على شكل الذَّكَر والفَرْج (لِنج ويوني)، وأصنام أرضِ الوطنِ، ومجموعة من أصنام سيفا.

معتقدات الهندوسيَّة

الديانة الهندوسيَّة خالية من العقيدة الرئيسيَّة، وعلماء الهند يشعرون ويفتخرون بذلك، ولذا نجدهم يقدِّسون كلَّ جديدٍ، ويظنُّون أنَّ ذلك هو المطلوب والمقصود، ويعتبرون كلَّ مصلحٍ رسولًا منزلًا من السماء وإلهًا بصورة البشر ولو خرج عن بعضِ معتقداتهم إذا بقي في الإطار الهندوسيِّ ولم يعلن صراحةً خروجه من الهندوسيَّة إلى الإسلام أو النصرانيَّة، فمن ينتمي إلى الهندوسيَّة فهو هندوسيٌّ إلى الأبدِ. فالتَّعريف الصحيح للهندوسيِّ: هو الذي وُلِد بين أبوين هندوسيَّين بغضِّ النَّظر عن العادات والتَّقاليد والعِبَادات.

وتظهر معتقدات شبه مجمعٍ عليها فيما بينهم، من أهمها الآتي:

١- خلق الكائنات: لهم في ذلك رواياتٌ وقصصٌ مختلفةٌ كثيرةٌ وقعت بين كتبهم الأساسيَّة وهو كافٍ لدلالة على التَّناقضِ والتضادِّ في مسائلَ أساسيَّة كهذه في الدِّيَانة الهندوسيَّةِ.

٢- عقيدة التناسخ أو جولان الرُّوح: إذا مات الإنسان يفنى منه الجسد وتنطلق منه الروح لتتقمَّص وتحلَّ في جسدٍ آخرَ بحسبِ ما قدَّم من عملٍ في حياته الأولى، وتبدأ الرُّوح في ذلك دورةً جديدةً، وهذا مبنيٌّ على أصلٍ عندهم وهو أزليَّة الروحِ.

٣- عقيدة الكارما: قانون الجزاءِ الَّذي يقرِّر إنْ كان الإنسان صالحًا في واحدةٍ من دورات حياته الحلوليَّة؛ فإنَّه سيَلْقَى جزاءَ ذلك في الدَّورةِ الثَّانية، وإن كان طالحًا فإنه سيَلْقَى جزاءَه في الدورة الثانية أيضًا. والكارما هو أساس التَّناسخ.

٤- عقيدة النِرفَانا، أو الانطلاق: وهي حالة الروح التي بقيت صالحةً في دورات تناسخيَّة متعاقبة ولم تعد تحتاج إلى تناسخ جديدٍ فيحصل له النرفانا (النجاة) من الجولان وتتحد الروح بالخالق. فمن لم يرغب في شيءٍ ولن يرغبَ في شيءٍ وتحرر من رقِّ الأهواء، واطمأنت نفسه، فإنَّه لا يعاد إلى حواسِّه بل تنطلق روحه لتتحد بالبراهما. والنرفانا هي أعلى درجاتٍ وأسمى غاياتٍ لكلِّ هندوسيٍّ.

٥- وحدة الوجود: التَّجريد الفلسفيُّ ارتقى بالهنادكة إلى أنَّ الإنسانَ يستطيع خلق الأفكار والأنظمة والمؤسسات كما يستطيع المحافظة عليها أو تدميرها، وبهذا يتَّحد الإنسان مع الآلهة وتصير النفس هي عين القوة الخالقة.

أ - الروح كالآلهة أزليَّة سرمديَّةٌ، مستمرَّةٌ، غير مخلوقة.

ب - العلاقة بين الإنسان وبين الآلهة كالعلاقة بين شرارة النار والنار ذاتها، وكالعلاقة بين البذرة وبين الشجرة.

ج- هذا الكون كلُّه ليس إلا ظهورًا للوجود الحقيقيِّ، والروح الإنسانيَّة جزء من الروح العليا.

- وقد انتقلت فكر التناسخ والحلول ووحدة الوجود إلى بعض المسلمين الذين ضلُّوا فظهرت

هذه العقائد عند بعض المتصوِّفَة، وكذلك ظهرت عند الإسماعيليَّة وعند الفرق الضَّالَّة كالأحمديَّة والأكبريَّة وغيرهما.

٦- الأجساد تحرق بعد الموت؛ لأن ذلك يسمح بأن تتجه الروح إلى أعلى وبشكل عموديٍّ لتصلَ إلى الملكوت الأعلى في أقرب زمن، كما أن الاحتراق هو تخليص للروح من غلاف الجسم تخليصًا تامًّا.

وعندما تتخلص الروح وتصعد، يكون أمامها ثلاثة عوالم:

١- إما العالم الأعلى: عالم الملائكة.

٢- وإما عالم الناس: مقرُّ الآدميين بالحلول.

٣- وإما عالم جهنَّم: وهذا لمرتكبي الخطايا والذُّنوب.

وليس هناك جهنم واحدة، بل لكلِّ أصحاب ذنبٍ جهنَّم خاصَّة بهم.

والبعث في العالم الآخر إنما هو للأرواح لا للأجساد.

٧- يترقى البرهمي في أربعِ درجاتٍ:

١- التلميذ وهو صغير.

٢- ربُّ الأسرة.

٣- الناسك ويقوم بالعبادة في الغابات إذا تقدَّم به السنُّ.

٤- الفقير: الذي يخرج من حكم الجسد وتتحكم فيه الروح ويقترب من الآلهة.

٨- المرأة التي يموت عنها زوجها لا تتزوج بعده، بل تعيش في شقاءٍ دائمٍ، وتكون موضعًا للإهانات والتَّجريح، وتكون في مرتبة أقل من مرتبة الخادم.

وقد تحرق المرأة نفسها إثر وفاة زوجها تفاديًا للعذاب المتوقع الذي ستعيش فيه، وقد حرم القانون هذا الإجراء في الهند الحديثة.

٩- الدِّيانة الهندوسيَّة تجيز عقد القِرَانِ للأطفال وهم يَحْبُون، ويحدث أن يموت الولد فتشب البنت أرملةً ابتداءً، ولكنَّ القانونَ الهنديَّ الحديثَ حَرَّم ذلك ومنع عقد القِرَان إلا في سنِّ الشباب.

١٠- ليس للفرد أهميَّة إلا إذا كان عضوًا في جماعة، وتكون هذه الجماعة عضوًا في جماعةٍ أكبر؛ ذلك لأنَّ العناية للجماعة لا للفرد.

١١- رفضت الهندوسيَّة حركة الإصلاح الداخليِّ المتمثِّلة في الإسلام وقاومتها محتفظة بتعليماتها ومعتقداتها.

١٢- يعتقد الهندوس أن الهندوسيَّة جاءت عن طريق الوحي، ولو صحَّ هذا لكان لا بدَّ أنَّه قد

حصل لها الكثير من التحريف والتَّبديل حتى أصبحت أسلوبًا في الحياة أكثر مما هي عقيدة واضحة المعالم.

١٣- وتشمل الهندوسيَّة من العقائد ما يهبط إلى عبادة الأشجار والأحجار والقرود والأبقار... إلى غير ذلك من أنواع الوثنيَّة الَّتي تتنافى مع أبسط قواعد التوحيد.

كما أنَّ التقسيمَ الطبقيَّ فيها يتعارض مع كرامةِ الإنسان ويجعلها بعيدةً عن الوحيِ الربَّانِيِّ.

وقد عصفت بالدِّيَانة الهندوسيَّة حركتان قويتان هما الجينيَّة والبوذيَّة.

الانتشار ومواقع النفوذ

كانت الديانة الهندوسيَّة، تحكم شبهَ القارة الهنديَّة وتنتشر فيها على اختلاف في التركيز، ولكنَّ البونَ الشاسعَ بين المسلمين والهندوس في نظرتيهما إلى الكون والحياة وإلى البقرة التي يعبدها الهندوس ويذبحها المسلمون ويأكلون لحمها؛ كان ذلك سببًا في حدوث التقسيم إذ أُعلن عن قيام دولة الباكستان بجزأيها الشرقيِّ والغربيِّ والتي معظمها من المسلمين، وبقاء دولة هنديَّة معظم سكانها هندوس والمسلمون فيها أقلية كبيرة.

واشتهر عن الهندوس تعصبهم ضد المسلمين، والتفنن في ظلمهم، وتعتبر قضية «مسجد بابري» إحدى القضايا التي فتحت عيون العالم على مأساة الأقلية المسلمة في الهند على يد الهندوس، ففي ٦ ديسمبر/ كانون الأول عام ١٩٩٢ قام ١٥ ألف هندوسيٍّ متعصبٍ بهدم المسجد أمام أنظار العالم، وقتلوا في هذا العدوان أكثر من ألفي مسلم، بزعم أن المسجد، الذي بناه الحاكم المغولي المسلم ظهر الدين بابر، في القرن السادس عشر الميلاديِّ، بُني على أنقاض معبد لهم، وُلد فيه أحد آلهتهم، واسمه «راما»، وهو الأمر الذي لم يستطع علماء التاريخ الهنود إثباته، بل أثبتت الدراسات الهنديَّة الأخيرة أن المسجد قد بني على أنقاض مسجد آخر.

ولم تنتهِ مأساة المسجد والمسلمين بهدمه، فالهندوس وبتأييد من رئيس الوزراء الهنديِّ السابق، آتال بيهارى فاجبايي، (المنتمي لحزب باهاراتيا جاناتا بارتي، الهندوسيِّ المتعصبِ والذي وصل لحكم الهند سنة ١٩٩٨) ظلوا متمسكين بإقامة معبد على أنقاض المسجد، وفي عام ٢٠٠٣ قدم أكثر من ١٢٠ عضوًا في البرلمان الهنديِّ اقتراح مشروع قانون يسمح بإنشاء معبدٍ هندوسيٍّ على أنقاض المسجد[١].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي (٢/ ٧٢٤- ٧٣٠)، دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند، د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي ص(٥١٥- ٦٣٣)، الديانات القديمة، محمد أبو زهرة ص(٢١- ٥٢)، معتقدات آسيوية، د. كامل سعفان ص(١٤٧- ١٩١)، مجلة الراصد.

الفصل الثاني
البوذيَّة

التعريف:

هي فلسفةٌ وضعيَّة انتحلت الصبغة الدينيَّة، وقد ظهرت في الهند بعد الديانة البرهميَّة الهندوسيَّة في القرن الخامس قبل الميلاد. وكانت في البداية تناهض الهندوسيَّةَ وتتجه إلى العناية بالإنسان، كما أنَّ فيها دعوةً إلى التصوف والخشونة، ونبذ الترف، والمناداة بالمحبَّة والتَّسامح، وفعل الخير، وهي تعيش في الخيالات والأوهام ولا تواجه مشاكل الحياة وصعابها.

وبعد موت مؤسسها تحولت إلى معتقداتٍ باطلةٍ، ذات طابعٍ وثنيٍّ، ولقد غالى أتباعها في مؤسسها حتى ألَّهوه.

وهي تعتبر نظامًا أخلاقيًا ومذهبًا فكريًّا مبنيًّا على نظريات فلسفيَّة، وتعاليمها ليست وحيًا، وإنما هي آراء وعقائد في إطار دينيٍّ.

وتختلف البوذيَّة القديمة عن البوذيَّة الجديدة في أن الأولى صبغته أخلاقيَّة، في حين أن البوذيَّة الجديدة هي تعاليم بوذا مختلطة بآراء فلسفيَّة وقياسات عقليَّة عن الكون والحياة.

تاريخ البوذيَّة

أسسها سدهارتا جوتاما الملقَّب ببوذا ٥٦٠ - ٤٨٠ ق.م وبوذا تعني العالم ويلقَّب أيضًا بسكيا موني ومعناه المعتكف. وتذكر القصص البوذيَّة أن بوذا نشأ في بلدةٍ على حدود نيبال، وكان أميرًا فشبَّ مترفًا في النعيم وتزوَّج في التاسعة عشرة من عمره ولما بلغ التاسعة والعشرين هجر زوجته منصرفًا إلى الزُّهد والتَّقشُّف والخشونة في المعيشة والتأمُّل في الكون ورياضة النفس فخرج إلى الصحاري والغابات حتى يَئِسَ من مطلبه فرجع إلى ملكه ليبدأ من جديد حياة رغدة حزينا على ما فاته، ثم حصل له علم كلِّ شيءٍ وادَّعى أنَّه علم إلهي، فبدأ ينشط من جديد وعزم على أن يعمل على تخليص الإنسان من آلامه التي منبعها الشهوات ثم دعا إلى تبني وجهة نظره حيث تبعه أناس كثيرون.

ثم انعقد بعد موته أربعة مجالس للبوذيين:

المجلس الأول: اجتمع أتباع بوذا بفور وفاته في مؤتمر كبير في قرية راجاجراها لإزالة الخلاف بين أتباع المذهب ولتدوين تعاليم بوذا خشية ضياع أصولها وعهدوا بذلك إلى ثلاثة رهبان هم:

١- كاشيابا: وقد اهتمَّ بالمسائل العقليَّة.

٢- أوپالي: وقد اهتمَّ بقواعد تطهير النفس ونظام الحياة للرهبان.

٣- أناندا: وقد دوَّن جميع الأمثال والمحاورات لبوذا.

المجلس الثاني: بعد مائة سنة من وفاة بوذا وكان الغرض الأساسيُّ منه تنقية تعليمات بوذا من الطقوس والرسومات التي سيطرت على البوذيين.

المجلس الثالث: انعقد في حدود سنة ٢٢٤ قبل الميلاد في عهد الملك أشوكا وكان الغرض منه إزالة الاختلافات التي وقعت بين البوذيين في كثير من المسائل، وبعد انتهاء المجلس أرسل الدُّعاة والمبلغين في أرجاء الهند وخارجها.

المجلس الرابع: انعقد في نهاية القرن الأول الميلادي في عهد الملك كنشك وكان الغرض منه تفسير تعليمات بوذا بعيدا عن التأويلات.

أقسام البوذيِّين

ينقسم البوذيُّون إلى قسمين:

١- البوذيُّون المتدينون: وهؤلاء يأخذون بكل تعاليم بوذا وتوصياته.

٢- البوذيُّون المدنيون: هؤلاء يقتصرون على بعض التعاليم والوصايا فقط.

- الناس في نظر بوذا سواسية لا فضلَ لأحدٍ إلا بالمعرفة والسَّيطرة على الشهوات.

- وقد احتفظت البوذيَّة ببعض صورها الأولى في منطقة جنوب آسيا وخاصة في سيلان وبورما، أما في الشمال وعلى الأخص في الصين واليابان فقد ازدادت تعقيدًا وانقسمت إلى فرقتين هما:

الفرقة الأولى: ماهايان (يعني العربة الكبيرة): ويقصدون بها أن من انضمَّ إلى هذه الفرقة وركب على العربة الكبيرة مع البهكشو يحصل على النرفانا، وتؤمن هذه الفرقة بأن بوذا ليس له جسم بل إنَّه نور مجسم وظلٌّ ظهر في الدنيا وهو الإله الأكبر والأزليُّ، وهذه الفرقة غرقت في بحور الشرك فاتخذت من كلِّ راهبٍ إلهًا من دون الله واخترعت كثيرًا من الرسوم والطقوس وتفلسفت في العبادات وطريق النَّجاة. والغالب أنها أُسِّسَت في عهد الملك كنشك ووُضِعَت ضوابطها في المجلس الرابع.

وانتشرت في الأرجاء الشماليَّة من الهند والتبت ومنغوليا والصين واليابان ونيبال وسومطره وأخذت كثيرًا من معتقدات هذه البلدان، وأكثر كتبها باللغة السنسكريتيَّة والصِّينيَّة والتبتيَّة واليابانيَّة، وأشهرها دبموند سوترا.

الفرقة الثانية: هنايان (يعني العربة الصغيرة): تنكر هذه الفرقة وجود الله تعالى والروح والإلهام كما تؤمن بناسوتيَّة بوذا وأنَّه إنسان ولد من أبٍ وأم وعاش كغيره من الناس ومات إلا أنه حصل له صفات عالية، وهو وصل إلى مرتبة قديس واستحق أن يلقب بآجاريا منش. واتخذت هذه الفرقة قول بوذا: لا تطلب من غيرك ملاذًا، قاعدة أساسية لحصول النرفانا. كما أنها تعتمد على قرارات المجلس الثالث.

وانتشرت هذه الفرقة في جنوب الهند وجزيرة سيلان بورما وسيام، وكتبها باللغة البالية

وأشهرها تري بتاكا وهي مجموعة من ثلاثة كتب، وقد تأخر تدوينها أربعة قرون تقريبًا بعد بوذا.

وقد عبروا عن بلوغ النفس الكمال الأسمى والسعادة القصوى وانطلاقها من أسر المادة، وانعتاقِها من ضرورة التناسخ بالنرفانا وتعني الخلاص من أسْرِ المعاناة والرغبة، واكتساب صفاء الدين والرُّوح، والتَّحرُّر من أسْر العبوديَّة واللَّذَّةِ، وانبثاق نور المعرفة عن طريق تعذيب النفس ومقاومة النزعات، مع بذل الجهد والتأمُّل والتركيز الفكريِّ والرُّوحيِّ، وهو هدف البوذيَّة الأسمى.

كتب البوذيَّة

كتبهم ليست منزلة ولا هم يدَّعون ذلك بل هي عباراتٌ منسوبة إلى بوذا أو حكاية لأفعاله سجلها بعض أتباعه، ونصوص تلك الكتب تختلف بسبب انقسام البوذيين، فبوذيو الشمال اشتملت كتبهم على أوهام كثيرة تتعلق ببوذا أما كتب الجنوب فهي أبعد قليلًا عن الخرافات.

- تنقسم كتبهم إلى ثلاثة أقسام:

١- مجموعة قوانين البوذيَّة ومسالكها.

٢- مجموعة الخطب التي ألقاها بوذا.

٣- الكتاب الذي يحوي أصل المذهب والفكرة التي نبع منها.

- وتعتمد جميع كتبهم على الآراء الفلسفيَّة ومخاطبة الخيال وتختلف في الصِّين عنها في الهند؛ لأنَّها تخضع لتغيرات الفلاسفة.

- شعار البوذيَّة عبارة عن قوسٍ نصف دائريٍّ وفي وسطه قائم ثالث على رأسه ما يشبه الوردة وأمام هذا التمثال صورة مجسمة لجرة الماء وبجوارها فيل يتربع عليه بوذا في لباسه التقليديِّ.

أفكار ومعتقدات البوذيَّة

كان بوذا في أول الأمر يتحاشى الدخول في مباحث الألوهيَّة؛ خوفًا من أن يقع في المتناقضات ويترك الناس حيارى، ومن هنا تشكَّك الناس كثيرًا في البوذيَّة وكونها دينًا، فإن معرفة الربِّ والخالق أساس الأديان والملل في العالم. فقال جمع من المحققين: إن البوذيَّة ليست بدين بل هي حركة عكسيَّة قامت تعاند الأفكار الهندوسيَّة بما طرأ عليها من الخرافات والبِدَعِ وخاصَّةً لمحاربة الطبقات المعروفة في الهندوسيَّة.

ومن عقائد البوذيِّين:

- يعتقد البوذيون أنَّ بوذا هو ابن الله، وهو المخلِّص للبشريَّة من مآسيها وآلامها، وأنَّه يتحمل عنهم جميع خطاياهم.

- يعتقدون أنَّ تَجَسُّدَ بوذا قد تمَّ بواسطة حلول روح القدس على العذراء مايا.

- ويقولون إنَّه قد دلَّ على ولادة بوذا نَجْمٌ ظَهَرَ في أفق السماء ويدعونه نَجم بوذا.

- ويقولون أيضًا: إنَّه لما ولد بوذا فرحت جنود السماء ورتلت الملائكة أناشيد المحبَّة للمولود المبارك.

- وقد قالوا: لقد عرف الحكماء بوذا وأدركوا أسرار لاهوته. ولم يمضِ يومٌ واحدٌ على ولادته حتى حيَّاهُ الناس، وقد قال بوذا لأمِّه وهو طفل إنه أعظم الناس جميعًا.

- وقالوا: دخل بوذا مرة أحد الهياكل فسجدت له الأصنام. وقد حاول الشيطان إغواءه فلم يفلح.

- ويعتقد البوذيُّون أن هيئة بوذا قد تغيَّرت في آخر أيَّامه، وقد نزل عليه نور أحاط برأسه. وأضاء من جسده نور عظيم فقال الذين رأوه: ما هذا بشرًا إن هو إلا إله عظيم.

- يصلي البوذيُّون لبوذا ويعتقدون أنَّه سيدخلهم الجنة. والصلاة عندهم تؤدَّى في اجتماعاتٍ يحضرها عدد كبر من الأتباع.

- لما مات بوذا قال أتباعه: صعد إلى السماء بجسده بعد أن أكمل مهمَّتَه على الأرض.

- يؤمنون برجعة بوذا ثانيةً إلى الأرض ليعيد السلامَ والبركةَ إليها.

- يعتقدون أنَّ بوذا هو الكائن العظيم الواحد الأزليُّ وهو عندهم ذاتٌ من نور غير طبيعيَّة، وأنه سيحاسب الأموات على أعمالهم.

- يعتقدون أنَّ بوذا ترك فرائض ملزمة للبشر إلى يوم القيامة، ويقولون: إنَّ بوذا أسس مملكة دينيَّة على الأرض.

- قال بعض الباحثين إن بوذا أنكر الألوهيَّة والنَّفْسَ الإنسانيَّة وأنه كان يقول بالتَّناسخ.

- من عقيدة بوذا أنَّ الألمَ أرجح كفةً من اللَّذَّةِ فخير للإنسان ألا يولد كما استنتج بعض العلماء من تعاليم بوذا أنَّه يجيز الانتحار؛ لأنَّ البقاء سبب للآلام. والبوذيُّون لا يرغبون في التَّناسل ولذا يحرم على الرهبان أن يتزوجوا حتى لا يكونوا سببًا للولادة.

الجانب الأخلاقيُّ في الدِّيانة البوذيَّةِ

- في تعاليم بوذا دعوة إلى المحبَّة والتسامح، والتعامل بالحسنى، والتصدق على الفقراء، وترك الغنى والترف، وحمل النفس على التقشُّف والخشونة، وفيها تحذير من النساء والمال، وترغيب في البعد عن الزواج.

- الحقائق الأربعة المقدَّسة عند البوذيين:

١- وجود الحزن في: الولادة، والكهولة، والمرض، والموت، وعدم الوصول إلى المحبوب.

٢- أسباب وجود الحزن: وهي الأمْنِيَّة الكاذبة، والشهوات المهلكة التي تؤدي إلى الولادة من جديد.

٣- القضاء على الآلام والأحزان: بإماتة الرغبات والشهوات، وقطع العلاقات والعزلة التامَّةِ.

٤- الأعمال التي تساعد على القضاء على الآلام والأحزان وهي الأصول الثمانية.

- يجب على البوذيِّ التقيد بثمانية أمور حتى يتمكَّنَ من الانتصار على نفسه وشهواته:

١- الاتجاه الصحيح المستقيم الخالي من سلطان الشهوة واللَّذَّة وذلك عند الإقدام على أي عملٍ.

٢- التفكير الصحيح المستقيم الذي لا يتأثر بالأهواء.

٣- الإشراق الصحيح المستقيم.

٤- الاعتقاد المستقيم الذي يصحبه ارتياح واطمئنان إلى ما يقوم به.

٥- مطابقة اللِّسان لما في القلب.

٦- مطابقة السلوك للقلب واللسان.

٧- الحياة الصحيحة التي يكون قوامها هجر اللَّذَّات.

٨- الجهد الصحيح المتجه نحو استقامة الحياة على العلم والحقِّ وترك الملاذ.

- في تعاليم بوذا أن الرَّذَائل ترجع إلى أصول ثلاثة:

١- الاستسلام للملاذِّ والشهوات.

٢- سوء النيَّة في طلب الأشياء.

٣- الغباء وعدم إدراك الأمور على وجهها الصحيح.

- ومن تعاليم بوذا أنه لا يقر بوجود الطبقات الموجودة في الهندوسيَّة بل سوى بين الناس جميعًا، وأنَّ التفريقَ الذي دعا إليه الهندوس ليس هو الأساس بل الأساس في التفريق صلاحيَّة الفرد وعدمه وأعماله في الحياة الماضية، ويضيف إلى هذا بأن النجاة قد تحصل لفرد من أدنى الطبقات إذا سلك طريق العشق والمحبَّة والمراقبة. وهذا كان من أعظم المرغبات للمنبوذين في الهندوسيَّة للدخول في البوديَّة.

- من وصايا بوذا: لا تقضِ على حياة حيٍّ، لا تسرقْ ولا تغتصبْ، لا تكذبْ، لا تتناول مُسْكِرًا، لا تزنِ، لا تأكلْ طعامًا نَضِجَ في غير أوانه، لا ترقصْ ولا تحضرْ مرقصًا ولا حفلَ غناءٍ، لا تتخذْ طيبًا، لا تقتنِ فراشًا وثيرًا، لا تأخذْ ذهبًا ولا فضةً. وهذه هي المحرمات العشرة المعروفة للرهبان البوذيين.

- البوذيُّ لا يحصل على النرفانا إلا بعد اقتلاع شهواته الجسديَّة اقتلاعًا تامًّا، فيقولون: إنَّ من مكونات النرفانا: السيطرة على النفس، والبحث عن الحقيقة، والنشاط، والهدوء، والغبطة، والتركز، وعلوّ النفس.

- والخلاف الشديد بينهم في وجود الله وصفاته يجعل الرجل المفكر المتدين لا يقبل آراء بوذا في

تخليص الإنسان من المصائب والآلام وهو لا يعترف في أيِّ مرحلة من مراحل التخليص بوجود الله وقدرته ثم يدعي لنفسه أنه قد حصل له النرفانا، فالرجل المفكر يرى بين الأمرين تناقضًا وتضاريًا، وهذا التَّناقض من أحد الأسباب الأساسيَّة لفشل هذه الحركة في مولدها ونشأتها.

الانتشار ومواقع النفوذ

الدِّيانة البوذيَّة منتشرة بين عدد كبير من الشعوب الآسيويَّة؛ إذ يدين بها أكثر من ستمائة مليون نسمة، ولهم معبدٌ ضخمٌ في كاتمندو بالنيبال، وهو عبارة عن مبنى دائريِّ الشكلِ وتتوسطه قبة كبيرة وعالية وبها رسم لعينين مفتوحتين وجزء من الوجه، ويبلغ قطر المبنى ٤٠ مترًا، أما الارتفاع فيزيد عن خمسة أدوار مقارنة بالمباني ذات الأدوار.

ويمكن تقسيم انتشار البوذية إلى خمس مراحل:

١- من مطلع البوذيَّة حتى القرن الأول الميلاديِّ وقد اعتنقها الملك آشوكا وجعلها دينا رسميًّا للبلاد، ودفع بها خارج حدود الهند وسيلان.

٢- من القرن الأول حتى القرن الخامس الميلاديِّ وفيها أخذت البوذيَّة في الانتشار نحو الشرق إلى البنغال، ونحو الجنوب الشرقيِّ إلى كمبوديا وفيتنام، ونحو الشمال الغربيِّ إلى كشمير وفي القرن الثالث اتَّخذت طريقها إلى الصين وأواسط آسيا ومن الصين إلى كوريا.

٣- من القرن السادس حتى القرن العاشر الميلاديِّ وفيه انتشرت في اليابان ونيبال والتبت وتعد من أزهى مراحل انتشار البوذيَّةِ.

٤- من القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر وفيها ضَعُفَت البوذيَّة واختفى كثير من آثارها؛ لعودة النشاط الهندوسيِّ وظهور الإسلام في الهند فاتجهت البوذيَّة إلى لاوس ومنغوليا وبورما وسيام.

٥- من القرن السادس عشر حتى الآن وفيه تواجه البوذيَّة الفكرَ الغربيَّ بعد انتشار الاستعمار الأوربيِّ وقد اصطدمت البوذيَّة في هذه الفترة بالمسيحيَّة، ثم بالشيوعيَّة بعد أن صار الحكم في أيدي الحكومات الشيوعيَّةِ.

وتعتبر تايلند الآن أكثر دولة من حيث نسبة البوذيين فيها حيث تصل إلى حوالي ٩٥ % تليها كمبوديا بنسبة تصل إلى ٩٠ %.

من الشخصيات البوذيَّةِ المعاصرةِ:

١- الدلاي لاما الرابع عشر: الزعيم الروحيُّ لإقليم التبت (واسمه الأصلي تينزين جياتسو)، وهو من مواليد عام ١٩٣٥م، تسلم القيادة الدينيَّة لشعب التبت في عام في سنة ١٩٥٠ حين كان في الخامسة عشرة من العُمُر، وهو نفس العام الَّذي بدأ فيه الاحتلال العسكريُّ الصينيُّ، ثم تبع ذلك أحداث مأساويَّة بحقِّ التبتيين، الأمر الذي جعله يفر مع عدد كبير من أتباعه إلى شمال الهند، التي

صارت لهم مقرًّا ومركزًا.

يرأس الدلاي لاما الآن حكومةَ التبت في المنفى من مدينة دارامسالا الهنديَّة. ويحتفظ الدلاي لاما بعلاقاتٍ جيِّدةٍ مع القادة والمسئولين الغربيين الذين يسعون لاستغلال هذه العلاقات ضدّ الصين.

٢- **كارمابا لاما**: خليفة الدلاي لاما، وهو الآن شابٌّ صغيرٌ، حيث جرت العادة عند بوذيي التبت أن يتم البحث عن طفلٍ صغيرٍ وإعداده ليكون «الدلاي لاما» القادم. استطاع كارمابا لاما في عام ١٩٩٩ من الهرب من التبت إلى شمال الهند فرارًا من السلطات الصينية، لكن الهند تحدّ من تحركاته أحيانًا تجنبًا لإغضاب الصين.

٣- **كيومي انشينجو**: رئيس المؤتمر البوذيِّ العالميِّ، الذي يعنى بتنظيم مؤتمرات قمم الدول البوذيَّة، التي بدأ انعقادها في عام ١٩٩٨ في اليابان، ثم استضافت تايلند المؤتمر الثاني عام ٢٠٠٠، وانعقد الثالث منها في كمبوديا في عام ٢٠٠٢، والرابع في تايلند في ٢٠٠٥، بينما استضافت اليابان القمَّةَ الخامسة في عام ٢٠٠٨، وستحتضن فيتنام المؤتمر السادس المقرر في عام ٢٠١٠ .

٤- **نورودوم سيهانوك**: ملك كمبوديا السابق الَّذي تولى الحكم للمرة الأولى في عام ١٩٤١، وتنازل عن العرش عدة مرات[١] .

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٧٥٨- ٧٦٣)، دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص(٦٣٧- ٦٥٧)، الديانات القديمة ص(٥٣- ٧٩)، دراسات آسيوية ص(١٩٩- ٢١٨)، مجلة الراصد، البوذية تاريخها وعقائدها وعلاقة الصوفية بها، د. عبد الله مصطفى نومسوك.

الفصل الثالث

الجَيْنِيَّة

التعريف:

الجينيَّة ديانة منشقَّةٌ عن الهندوسيَّة، ظهرت في القرن السادس قبل الميلاد على يدي مؤسسها مَهَابير سوامي، ولا تزال إلى يومنا هذا. إنها مبنية على أساس الخوف من تكرار المولد، داعية إلى التحرر من كل قيود الحياة والعيش بعيدًا عن الشعور بالقيم كالعيب والإثم والخير والشر. وهي تقوم على رياضات بدنية رهيبة وتأملات نفسية عميقة بغية إخماد شعلة الحياة في نفوس معتنقيها.

فمنشؤها الزُّهد والتَّقشف، وطريقتها الرِّياضة الشَّاقَّة، ومظهرها الرهبانيَّة، ويعيشون شبه عراةٍ، معرضين أجسامهم لظواهر الطبيعة، وأحيانًا يلجئون إلى قطع الروابط بالحياة عن طريق الانتحار، ويعتبرونه غاية لا تتاح إلا للخاصة من الرهبان.

تاريخ الجينيَّة

يعتقد الجينيُّون أنَّ ديانتهم ساهم في تأسيسها ٢٤ ترنكارا أو جينا، إذ يظهر كلٌّ منهم في نصف دورةٍ زمنيَّةٍ بدأت منذ الأزل. وسوف تستمر إلى ما لا نهاية. كان أول هؤلاء هو ريشابها أو أديناثا. ويعتبر وجود هؤلاء الجينيات من قبيل الأساطير التي لم تثبت تاريخيًّا.

ونيميناثا أو أريشتمانيمي: هو الجينيُّ الثاني والعشرون ويعتبرونه ابن عم كرشنا، ووصل إلى مرحلة النرفانا (الخلاص) في مدينة سوراسترا في ولاية كوجرات.

وبرشفا ابن ملك فاراناس يعتبر الجينيَّ الثالث والعشرين، وهو أول الشخصيات التاريخية. عاش في القرن الثامن قبل الميلاد.

ويعتبر مَهَابير سوامي المؤسسَ الحقيقيَّ للجينيَّة، وقد ولد عام ٥٩٩ ق.م وترهبن في سنِّ الثلاثين، وعلى يديه تبلورت معتقداتها التي لا تزال قائمة إلى يومنا هذا.

ويعتبر الجينيُّون دينَهم أزليًا لا بدايةَ له ولا نهايةَ، وأنَّه يرجع إلى بلايين بلايين السنين، وأنها ترجع إلى ثلاثة وعشرين جينيًا، ومهابير هو الجينيُّ الرابع والعشرون، وأنَّه الذي جدد أصولها ونشرها.

وينحدر مهابير من أسرة من طبقة الكشتري المختصة بشئون السياسة والحرب. وأبوه سدهارتها أمير مدينة في ولاية بيهار، ومهابير هو الابنُ الثاني له.

وقد عاش حياته الأولى في كنف والديه متمتعًا بالخدم والملذَّات العاديَّة، وكان شديد التقدير والاحترام لوالديه، تزوج ورزق بابنة.

ولما توفي والده، استأذن أخاه في التَّخلِّي عن ولاية العهد والتَّنازل عن الملك والألقاب.

وحلق رأسه ونزع حُليَّه، وخلع ملابسه الفاخرة، وبدأ مرحلة الزهد والخلوة والتَّبتُّل، وكانت سنُّه آنذاك ثلاثين عامًا.

وصام يومين ونصف يوم، ونتف شعر جسده، وهام في البلاد عاريًا مهتمًّا بالرياضات الصعبة والتأمُّلات العميقةِ.

واسمه الأصلي فردهامانا لكن أتباعه يسمونه مهابير ويزعمون أنَّ هذا الاسم من اختيار الآلهة له ومعناه البطل العظيم، ويطلقون عليه كذلك جينا أي القاهر لشهواته والمتغلب على رغباته المادِّيَّة.

وقد غرق في تأمُّلاته ورهبانيَّته وعرَّى جسدَه هائمًا في البلاد لمدة ثلاثة عشر شهرًا مداومًا على مراقبة نفسه في صمت مطبق، يعيش على الصدقات التي تُقَدَّمُ إليه. حصل بعدها على الدَّرجة الرابعة مباشرة؛ إذ كان مزودًا بثلاثة منها أصلًا كما يقولون.

وتابع بعد ذلك رحلة عدم الإحساس حتى حصل على الدرجة الخامسة وهي كما يزعمون درجة العلم المطلق ووصوله إلى مرحلة النَّجَاة.

وبعد سنة من الصراع والتهذيب النفسيِّ فاز بدرجة المرشد، وبدأ بذلك مرحلة الدعوة لمعتقده، فدعا أسرته ثم عشيرته، ثم أهل مدينته، ومن ثم دعا الملوك والقواد، فوافقه كثير منهم لما في دعوته من ثورة على البراهمة.

وقد استمر في دعوته حتى بلغ الثانية والسبعين حيث توفي سنة ٥٢٧ ق.م. مخلفًا وراءه خطبًا وأتباعًا ومذهبًا.

وأرياشاما: عاش في القرن الرابع بعد مهابير.

وكونداكاوندا أكياريا: تقدره فرقة الديجامبرا وكتب بعض الكتب والشروح، عاش في القرون المسيحيَّة الأولى.

- وقد انقسمت الجينيَّةُ بعده إلى عدَّة أقسامٍ وصلت إلى ثمان فرقٍ أو أكثر، أهمُّها الآن:

١- ديجامبرا: أي أصحاب الزِّيِّ السماويِّ العراة، وهم طبقة الخاصَّة الذين يميلون إلى التقشُّف والزُّهد ومعظمهم من الكهَّان والرهبان والمتنسِّكين الذين يتَّخذون من حياة مهابير قدوةً لهم، وقد انقسموا مؤخرًا إلى عدد من الفرق.

٢- سويتامبرا: أي أصحاب الزِّيِّ الأبيض، وهم طبقة العامة المعتدلون الذين يتَّخذون من حياة مهابير الأولى في رعاية والديه نبراسًا لهم إذ كان يتمتع حينها بالخدم والملذَّات، إذ يفعلون كلَّ أمرٍ فيه خير ويبتعدون عن كلِّ أمرٍ فيه شرٌّ أو إزهاق لأرواح كلِّ ذي حياة، يلبسون الثياب، ويطبقون مبادئ الجينيَّة العامَّة على أنفسهم.

وقد أقبل الملوك والحكام في الهند على اعتناق الجينيَّة مما سجل انتصارًا على العصر الويدي الهندوسيِّ الأول، ذلك أنها تدعو إلى عدم إيقاع الأذى بذي روح مطلقًا، كما توجب أن يطيع

الشعب حاكمه، وتقضي بذبح من يتمرد على الحاكم أو يعصي أوامره، فصار لهم نفوذ كبير في بلاط كثير من الملوك والحكام في العصور الوسطى.

وقد نالوا كثيرًا من الاحترام والتَّقدير أيَّام الحكم الإسلاميِّ للهند، وقد بلغ الأمر بالإمبراطور أكبر الذي حكم الهند من ١٥٥٦ - ١٦٠٥م أن ارتدَّ عن الإسلام واعتنق بعض معتقدات الجينيَّة واحتضن معلم الجينيَّة هيراويجيا مطلقًا عليه لقب معلم الدنيا.

طبقات الرجال عند الجينيين

يقسمون رجالهم إلى خمس طبقات:

١- أرهت: هي الأرواح الناجية التي حصلت لها علم كامل ومعرفة تامَّةَ فوصلت إلى درجة المعبود في الحياة الدنيا قبل موتها وهم أربعة وعشرون.

٢- سدها: الأرواح التي نجت من تكرار العودة إلى الدنيا ووصلت إلى مقام النَّجاة بعد موتها الطبيعيِّ وهم أيضًا أربعة وعشرون.

٣- آجاريا: هو رئيس الرهبان وقرب إلى النجاة.

٤- أباديا: هو الراهب المرشد يتجول في البلاد ويكون تابعًا لآجاريا.

٥- سادو: هو الراهب والناسك العاديُّ الذي ابتدأ بحياته الجينية.

كتب الجينية

نزل مهابير قبل موته في مدينة بنابوري في ولاية تَبْنا وألقى خمسًا وخمسين خطبة، وأجاب عن ستة وثلاثين سؤالًا. فهذه الخطب وتلك الأسئلة أصبحت كتابهم المقدس.

يضاف إلى ذلك الخطب والوصايا المنسوبة للمريدين والرُّهبان والنُّسَّاك الجينين، وقد انتقل تراثهم مشافهةً، وقد حاولوا تدوينه في القرن الرابع قبل الميلاد لكنهم فشلوا في جمع كلمة الناس حول ما كتبوه، فتأجلت كتابته إلى سنة ٥٧م.

وفي القرن الخامس الميلادي اجتمع كبار الجينيين في مدينة ويلابهي وقاموا بتدوين التراث الجيني باللغة السنسكريتية في حين أنَّ لغته الأصليَّة كانت أردها مجدى.

ويوجد الآن عدد من الكتب والشروح والأساطير الكثيرة يختلف الاعتراف بها من طائفة إلى أخرى.

الإله عند الجينيَّة

- الجينيَّة في الأصل ثورة على البراهمة؛ لذا فإنَّهم لا يعترفون بآلهة الهندوس وبالذات الآلهة الثلاثة (برهما -فشنو - سيفا)، ومن هنا سميت حركتهم بالحركة الإلحاديَّة.

- لا تعترف الجينيَّةُ بالروح الأكبر أو بالخالق الأعظم لهذا الكون، لكنَّها تعترف بوجود أرواح خالدة.

- كلُّ روح مِن الأرواح الخالدة مستقلة عن الأخرى، ويجري عليها التناسخ.

- لم يستطيعوا أن يتحرروا تحرُّرًا كاملًا من فكرة الألوهيَّة، فاتَّخذوا من مهابير معبودًا لهم وقرنوا به الجينيات الثلاثة والعشرين الآخرين؛ لتكمل في أذهانهم صورة الدين، وليسدوا الفراغ الذي أحدثه عدم اعترافهم بالإله الأوحد.

- خلق المسالمة والمجاملة دفعهم إلى الاعتراف بآلهة الهندوس (عدا الآلهة الثلاثة) ثم أخذوا يجلّونها، لكنَّهم لم يصلوا بها إلى درجة تقديس البراهمة لها، ودعوا كذلك إلى احترام براهمة الهندوس باعتبارهم طائفة لها مكانتها في الدين الهندوسي.

- لا توجد لديهم صلاة، ولا تقديم قرابين، ولا يعترفون بالطبقات، بل هم ثورة عليها، إذ ليس لديهم سوى طبقتي الخاصَّة والعامَّة. ولم يجعلوا لخاصتهم من الرُّهبان أية امتيازات مما جعل الرهبنة ذات مشقَّةٍ وتضحيةٍ وتكليف ذاتيٍّ.

معتقدات الجينيَّة

١- الكارما: لديهم كائن ماديٌّ يخالط الروح ويحيط بها، ولا سبيل لتحرير الروح منها إلا بشدة التقشُّف والحرمان من الملذَّات.

ويظلُّ الإنسان يولد ويموت ما دامت الكارما متعلقة بروحه ولا تطهر نفسه حتى تتخلص من الكارما إذ تنتهي رغباته وعندها يبقى حيًّا خالدًا في نعيم النجاة. وهي مرحلة النرفانا أو الخلاص التي قد تحصل في الدنيا بالتدريب والرياضة أو بالموت.

٢- النَّجَاة: إنها تعني الفوز بالسرور الخالد الخالي من الحزن والألم والهموم، وتعني التطهُّر من أدران الحيوانيَّة المادِّيَّة، إنَّها ترمي إلى التخلُّص من تكرار المولد والموت والتناسخ.

وطريق الوصول إلى النجاة يكون بالتمسُّك بالخير والابتعاد عن الشرور والذنوب والآثام، ولا يصل إليها الإنسان إلا بعد تجاوز عوائق ومتاعب الحياة البشريَّة بقتل عواطفه وشهواته.

والشخص الناجي مكانه فوق الخلاء الكونيِّ، إنها نجاة أبديَّةٌ سرمديَّةٌ.

٣- تقديس كل ذي روح:

- يقدِّسون كلَّ ما فيه روح تقديسًا عجيبًا.

- يمسك بعض الرهبان بمكنسة ينظف بها طريقه أو مجلسه؛ خشيةَ أن يطأ شيئًا فيه روح.

- يضع بعضهم غشاءً على وجهه يتنفس من خلاله خوفًا من استنشاق أي كائن حيٍّ من الهوام العالقة في الهواء.

- لا يعملون في الزراعة حذرًا من قتل الديدان والحشرات الصغيرة الموجودة في التربة.

- لا يذبحون الحيوانات، ولا يأكلون لحومها وهم نباتيون.

- لا يشتركون في معركة ولا يدخلون في قتال خوفًا من إراقة الدماء وقتل الأحياء من البشر

فهم مسالمون بعيدون عن كل مظاهر العنف.

٤- العواطف: يجب قهر العواطف والمشاعر جميعًا، حتى لا يشعر الراهب بحبٍّ أو كره، بحزن أو سرور، بحرٍّ أو برد، بخوف أو حياء، بخير أو شرٍّ، بجوع أو عطش، فيجب أن يصل إلى درجة الخمود والجمود والذهول بحيث تقتل في نفسه جميع العواطف البشريَّة.

وترى أحدهم ينتف شعر جسده دون أن يشعر بأي ألم في ذلك.

٥- العُرِي: قمَّة قتل العواطف هي الوصول إلى مرحلة العريِّ الذي يعد أبرز مظاهر الجينيَّة إذ يمشي الشخص في الشوارع بدون كساء يستر جسده من غير شعور بالحرج أو الحياء أو الخجل. وهذا تطبقه فرقة ديجامبرا من الجينية.

- الرهبان يعيشون عُرَاةً، وذلك نابع من فكرة نسيان العار أو الحياء مما يمكنه من اجتياز الحياة إلى مرحلة النجاة والخلود.

- إذا تذكر الإنسان العاري الحياة والحسن والقبح فذلك يعني أنه ما زال متعلقًا بالدنيا مما يحجبه عن الفوز والنجاة.

- الشعور بالحياء يتضمن تصور الإثم، وعدم الشعور بالحياء معناه عدم تصور الإثم. فمن أراد الحياة البريئة البعيدة عن الشعور بالآلام فما عليه إلا أن يعيش عاريًا متَّخذًا من السماء والهواء كساءً له.

الانتشار ومواقع النفوذ

لم تخرج الجينيَّة من الهند، فمعابدهم منتشرة في كلكتا ودلوارا، ولهم معابد في كهجورا وجبل آبو، وهي تعدُّ من عجائب الدنيا زينةً وزخرفةً، وفي القرن الثاني قبل الميلاد نحتوا كهفهم العظيم المسمى هاتي كنبا في منطقة إدريسه ولهم كهوف أخرى منتشرة في أنحاء الهند مما يدل على براعتهم في نحت التماثيل، ورسوخ قدمهم في فن معمار المعابد وزخرفتها وتزيينها بالنُّقوش العجيبة.

ويعتقد أن تعدادهم الحالي حوالي ٣- ٤ ملايين نسمة يعملون في التجارة وإقراض البنوك، فمعظمهم من الأغنياء مما ساعدهم على نشر الكتب والتأثير على الثقافة الهنديَّة[١].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٧٤١- ٧٤٧)، دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص(٦٦١- ٦٧١)، دراسات آسيوية ص(١٩٢- ١٩٨)، مجلة الراصد.

الفصل الرابع
السيخيَّة

التعريف:

السيخ جماعة دينيَّة من الهنود الذين ظهروا في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلاديين داعين إلى دين جديد زعموا أن فيه شيئًا من الديانتين الإسلاميَّة والهندوسيَّة تحت شعار «لا هندوس ولا مسلمون».

وقد عادَوا المسلمين خلال تاريخهم، وبشكل عنيفٍ، كما عادَوا الهندوس بهدف الحصول على وطنٍ خاصٍّ بهم، وذلك مع الاحتفاظ بالولاء الشديد للبريطانيين خلال فترة استعمار الهند.

وكلمة سيخ Sikh كلمة سنسكريتيَّة تعني المريد أو التابع.

تاريخ السيخيَّة

ترجع حركتهم في الأصل إلى ظهور حركة فيسنافا باختي التي بدأت في الظهور بين الهندوس في منطقة التامل، ووصلت إلى الشمال على يد رامانوجا ١٠٥٠ - ١١٣٧م.

وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وبعد الاحتكاك بالمسلمين، انتشرت هذه الحركة في سهل الغانج.

ثم ظهر صوفيٌّ اسمه كابير ولد من أبوين هندوسيين في بنارس ١٤٤٠ - ١٥١٨م، عرف عنه نقده لديانة آبائه الهندوسية، ودرس الدين الإسلامي والهندوكي وكان حركة اتصال بين الدينين إذ أراد أن يؤلف بينهما عن طريق التوجيه والتأمل الصوفي.

كان كابير هذا يتساهل في قبول كثير من العقائد الهندوكيَّة ويضمها إلى الإسلام شريطة بقاء التوحيد أساسًا، لكنه لم يفلح إذ انقرض مذهبه بموته مخلفًا مجموعة أشعار باللغة البنجابيَّة تُظهر تمازج العقيدتين المختلفتين الهندوسيَّة والإسلاميَّة مرتبطتين برباط صوفيٍّ يجمع بينهما.

ثم ظهر مؤسس السيخيَّة وهو ناناك Nanak ويدعى غورو أي المعلم، ولد سنة ١٤٦٩م في قرية ري بوي دي تلفندي التي تَبْعُد ٤٠ ميلًا عن لاهور، كانت نشأته هندوسيَّة تقليديَّة من طبقة الكشتري، وكان من صغره محبًّا للخلوة والعزلة.

لما شب عمل محاسبًا لزعيم أفغاني في سلطانبور، وهناك تعرف على عائلة مسلمةٍ ماردانا كانت تخدم هذا الزعيم. وقد أخذ ينظم الأناشيد الدينيَّة، كما نظَّم مقصفًا ليتناول المسلمون والهندوس الطعام فيه.

درس عُلوم الدين، وتنقل في البلاد، كما قام بزيارة مكة والمدينة، وزار أنحاء العالم المعروفة لديه وتعلم الهنديَّة والسنسكريتيَّة والفارسيَّة.

وتأثر بالشاعر الصوفي كابير كما تأثر بغيره من المتصوِّفة أمثال: حسين درويش وإسماعيل البخاري وعلي هجويري وبابا فريد كنج.

ادَّعى أنه رأى الربَّ حيث أمره بدعوة البشر، ثم اختفى أثناء استحمامه في أحد الجداول في عام ١٥٠٠م، وغاب لمدة ثلاثة أيام ظهر بعدها معلنًا أنه خلال غيابه انتقل إلى الحضرة الإلهية، وأن الله أعطاه كوبًا من الرحيق الإلهي، أو الشراب المقدس (أمريت).

وبدأ ناناك دعوته برفع شعار «لا هندوس ولا مسلمون». إذ كان يرغب بعمل توليفة من هذين الدينين، فانتهى الأمر به إلى إنشاء دين ثالث، مزج عقائد الهندوسية بالإسلام وبغيرهما من الديانات الموجودة في الهند، كالنصرانيَّة، وبعض الدارسين ينظرون إليه على أنه كان مسلمًا في الأصل ثم ابتدع مذهبه هذا.

أنشأ المعبد الأول للسيخ في كارتاربور بالباكستان حاليًا وقبل وفاته عام ١٥٣٩م عيّن أحد أتباعه خليفة له، وقد دفن في بلدة ديرة باباناناك من أعمال البنجاب الهنديَّة الآن، ولا يزال له ثوب محفوظ فيه مكتوب عليه سورة الفاتحة وبعض السور القصيرة من القرآن.

وقد خلفه من بعده تسعة خلفاء معلمون حمل كل واحد منهم لقب غورو، آخرهم غوبند سنغ ١٦٧٥ - ١٧٠٨م الذي أعلن أنه آخر معلم وبه يكون انتهاء سلسلة المعلمين، وطلب من السيخ اتِّباع كتابهم المقدس واعتباره الغورو من بعده، وأوجد ذلك القرار الخلافات بين السيخ، بين من التزم بوصية الغورو، وبين من أباح استمرار المعلميَّة.

وصار زعماؤهم بعد ذلك يعرفون باسم المهراجا ومنهم المهراجا رانجيت سنغ المتوفى سنة ١٨٣٩م.

خالصادال (الباختا)

تعرض السيخ لاضطهاد المغول الذين أعدموا اثنين من معلميهم، وقد كان أشدّ المغولِ عليهم نادر شاه ١٧٣٨ - ١٨٣٩م الذي هاجمهم مما اضطرهم إلى اللجوء إلى الجبال والشِّعاب.

فقام غوبند سنغ وهو المعلم العاشر بإنشاء منظمة الباختا أي خالصادال التي سمى رجالها «أسودًا» ونساءها «البؤات».

وكان هدف شباب السيخ أن يصبحوا مؤهلين لأن يكونوا من رجال الخالصادال ويطلعوا على تعاليمها.

إن الخالصادال مجموعة من الشباب الذين يرتبطون بنظام سلوكيٍّ دينيٍّ قاسٍ، حيث ينصرفون إلى الصلاة والقتال من أجل الحقِّ والعدل الذي يعتقدون به ممتنعين عن المخدرات والمسكرات والتبغ.

وقد صاروا بعد عام ١٧٦١م حكامًا للبنجاب وذلك بعد ضعف المغول، حيث احتلوا لاهور عام ١٧٩٩م. وفي عام ١٨١٩م امتدت دولتهم إلى بلاد الباتان، وقد وصلت إلى ممر خيبر في عهد

المهراجا رانجيت سنغ (١٨٣٩م) متغلبين على الأفغان.

وعندما وصل الإنجليز حصلت مصادمات بينهم وبين السيخ واضطروهم لأن يتراجعوا ويتوقفوا عند نهر سوتلج واعتبار ذلك حدودًا لدولة السيخ من الناحية الجنوبيَّة الشرقيَّة.

وقد انكسروا بعد ذلك وتراجعوا أكثر، وأجبرهم البريطانيون على دفع غرامة كبيرة وتسليم جامو وكشمير، كما عينوا في لاهور مقيمًا بريطانيًا يدير بقية مملكة السيخ.

ثم صاروا بعد ذلك شديدي الولاء للإنجليز، بل ساعدوهم على احتلال البنجاب.

وتحول السيخ إلى أداة في أيدي الإنجليز يضطهدون بهم حركات التمرد ١٨٥٧م.

وحصلوا من الإنجليز على امتيازاتٍ كثيرةٍ، منها منحهم أراضٍ زراعيَّة وإيصال الماء إليها عبر قنواتٍ، مما جعلهم في رخاء ماديٍّ يمتازون به عن جميع المقيمين في المنطقة.

وفي الحرب العالميَّة الأولى كانوا يشكلون أكثر من ٢٠٪ من الجيش الهنديِّ البريطانيِّ.

ثم انضموا إلى حركة غاندي في طلب الحرية وذلك إثر قيام مشكلات بينهم وبين الإنجليز.

وبعد عام ١٩٤٧م صاروا مقسمين بين دولتين: الهند والباكستان، ثم اضطر مليونان ونصف المليون منهم أن يغادروا باكستان إلى الهند إثر صدامات بينهم وبين المسلمين.

وقد ألغت الحكومة الهنديَّة الامتيازات التي حصل عليها السيخ من الإنجليز مما دفعهم إلى المطالبة بولاية البنجاب وطنًا لهم.

وعلى إثر المصادمات المستمرَّة بين الهندوس والسيخ أمرت أنديرا غاندي رئيسة وزراء الهند في شهر يونيو ١٩٨٤م باقتحام المعبد الذهبي في أمرتيسار، إذ اشتبك الطرفان وقتل فيه حوالي ١٥٠٠ شخص من السيخ و٥٠٠ شخص من الجيش الهنديِّ.

وفي يوم ٣١ أكتوبر ١٩٨٤م أقدم السيخ على قتل رئيسة الوزراء هذه انتقامًا لاقتحام المعبد، وقد حصلت مصادمات بين الطرفين عقب الاغتيال قتل بسببها عدة آلاف من السيخ يقدرها بعضهم بحوالي خمسة آلاف شخصٍ.

وقد توترت علاقة السيخ بالمسلمين في فترات كثيرة، واستطاع السيخ أن ينتصروا في بعض الحروب، حيث قاموا في عام ١٧١٠م بمهاجمة مدينة سرهند، وقتل الآلاف من أهلها المسلمين، وتقويض الحكم الإسلامي في الهند. كما تكررت اعتداءاتهم على المسلمين.

وقد اشتهر السيخ خلال حكمهم بالعسف والظلم والجور والغلظة على المسلمين، من مثل منعهم من أداء الفرائض الدينيَّة والأذان وبناء المساجد في القرى التي يكونون فيها أكثريَّة، وذلك فضلًا عن المصادمات المسلحة بينهما والتي يقتل فيها كثير من المسلمين الأبرياء، ومن الذين قُتل على أيديهم العالم القائد شاه محمد إسماعيل الدهلوي، وهو المعروف بـ «إسماعيل الشهيد»، وذلك في معركة «بالاكوت» سنة ١٢٤٦هـ (١٨٣١ م)، رحمه الله.

أفكار ومعتقدات السيخ

- يدعون إلى الاعتقاد بخالقٍ واحدٍ، ويقولون بتحريم عبادة الأصنام، وينادَوْن بالمساواة بين الناس.

ويؤكدون على وحدانية الخالق الحيّ الَّذي لا يموت، والذي ليس له شكل، ويتعدى أفهام البشر، كما يستعملون عدة أسماء للإله منها: واه غورو والجاب، وأفضلها عند ناناك «الخالق الحقّ» وكل ما عداه وَهْمٌ (مايا).

ولكن حقيقة أمرهم هو الشرك وأساطير الهناد، يقول ناناك في فاتح الكتاب المقدس عند السيخيين الذي يرتلونه كل صباح ومساء: هو: وشنو، هو: شيو، هو: برهما، هو: باربتي، هو: لكشمي، فالذي يرد أنْ يعبّرَ عن الربّ يصمت ويبكم، لعدم معرفته به، وبهذا يشهد البران وكرشنا والبوذيُّون والرهبان وأنَّ دهرما دايوا يحمدك ويثني عليك . . .

- يمنعون تمثيل الإله في صورٍ، ولا يقرُّون بعبادة الشمس والأنهار والأشجار التي يعبدها الهندوس، كما لا يهتمُّون بالتطهُّر والحجِّ إلى نهر الغانج، وقد انفصلوا تدريجيًّا عن المجتمع الهندوسيّ حتى صارت لهم شخصيَّة دينيَّة متميِّزة.

- يدعون إلى وحدة الأديان فلا يرفضون أي شخصٍ سواء كان هندوسيًّا أو بوذيًّا أو جينيًّا أو سيخيًّا أو مسلمًا أو نصرانيًّا إذا قبل بأفكارهم، وفلا فرق عندهم بين معبد الهنادك ومسجد المسلمين وبين عبادة الهنادك وصلاة المسلمين.

- يعتقدون بالحلول والاتحاد المأخوذ من الهندوس، يقول ناناك: أنت القلم، وأنت الخطُّ، وأنت الحبر، وأنت الطاولة. ويقول: فقط أنت لا غيرك. ويقول: أنت السمك، وأنت الشبك، وأنت الصياد، وأنت فقط، أنت لا غيرك.

- أباح ناناك الخمر، وأكل لحم الخنزير، وقد حرم لحم البقر مجاراة للهنادكة.

- أصول الدين لديهم خمسة بانج كهكها؛ أي: الكافات الخمس ذلك أنها تبدأ بحرف الكاف باللغة الكورمكيَّة، وهي:

١- الكيشو: وهو ترك الشعر مرسلًا بدون قص من المهد إلى اللحد، وذلك لمنع دخول الغرباء بينهم بقصد التجسس.

٢- الكارا: وهو سوار حديد يلبسه السيخيّ في معصميه بقصد التَّذلل والإقتداء بالدراويش.

٣- الكانشا: وهو سروال قصير لا يتجاوز الركبة، يرمز إلى أن الإنسان يكون مستعدًّا لأجل العمل.

٤- الكانغا: وهو مشط صغير يضعه السيخيّ في شعر رأسه، وذلك لتمشيط الشعر وترجيله وتهذيبه.

٥- الكربال: وهو خنجر من الفولاذ، يتمنطق به كلُّ رجلٍ من السيخ، كوسيلة للدفاع عن النفس، ومحارب أعدائه، ومنحه قوة واعتدادًا.

ويُعتقد بأن هذه الأمور ليست من وضع ناناك بل هي من وضع الخليفة العاشر غوبند سنغ الذي حرَّم أيضًا التَّدخين على أتباعه، ويقصد بهذه الأمور التميز عن جميع الناس.

- تأثر دين السيخ بالهندوسيَّة في التديُّن بالموسيقى والغناء، فقد كان ناناك يجيد الموسيقى واتَّخذها وسيلة لنشر مبادئه حتى رتب كتابه: كرو كرنتها صاحب على ترتيب الألحان الغنائيَّة التي بلغت واحدًا وثلاثين لحنًا، وفي آخر الكتاب فهرس طويل لهذه الألحان ولكلِّ لحن خمسة فروع وثمانية أصوات.

- معلمو السيخ ينكرون المعجزات والقصص والخرافات ذات الأساطير، إلا أنه على الرغم من ذلك فقد خلَّد السيخ معابد لهم غور دوارا مبنية على قصص تتحدث عن معجزات وقعت.

- للمعلم ويسمي عندهم غورو درجة دينيَّة تأتي بعد مرحلة الربِّ، فهو الذي يدل -في نظرهم- على الحقِّ والصدق، كما أنهم يتعبدون الإله بإنشاد الأناشيد الدينيَّة التي نظمها المعلمون.

وتوجيه المعلم غورو أساسي للوصول إلى مرحلة الانعتاق موكا.

- يعتقدون بأن ترديد أسماء الإله الناما يطهر المرء من الذنوب ويقضي على مصادر الشرّ في النفوس، وإنشاد الأناشيد كيرتا والتأمل بتوجيه من معلم غورو كل هذا يؤدي إلى الاتصال بالإله.

- يعتقدون بأن روح كلِّ واحدٍ من المعلمين تنتقل منه إلى المعلم التالي له.

- هناك بعض التنبُّؤات وأسمها ساوساكيّ المائة قصة والمنسوبة إلى المعلم غوبند سنغ والتي تدور حول الانقلابات في الحكم القائم ومجيء مخلِّص ينشر السيخيَّة في جميع أنحاء العالم.

- يؤمنون بولادة الإنسان وموته ثم إعادة ولادته كارما بحيث تتقرر حياة الإنسان المستقبليَّة على ضوء حياته السابقة، ويتوقف خلاصه على هذه المرحلة.

- يقدِّسون العدد خمسة الذي له معنًى صوفيٌّ في أرض البنجاب أي الأنهار الخمسة.

- الخلافات الدينيَّة يحلها مجلس دينيٌّ يعقد في أمر تيسار وقرارات هذا المجلس لها قوة روحيَّة.

- ليس لديهم طبقة دينية مشابهة للبراهمة الهندوس، إذ إنَّهم -عمومًا- يرفضون مبدأ الطبقات الهندوسيُّ كما يعارضون احتكار طبقة البراهمة للتَّعاليم الدينيَّة.

- يقسمون أنفسهم على أساس عرقي؛ منهم الجات (قبائل زراعيَّة) وغير الجات، والمذاهبي، وهم المنبوذون، لكن وضعهم أفضل بكثير من وضع المنبوذين لدى الهندوس.

- يتزوجون من زوجة واحدة فقط.

- أعياد السيخ هي نفس أعياد هندوس الشمال في الهند بالإضافة إلى عيد مولد أول وآخر غورو وعيد ذكرى استشهاد الغورو الخامس والتاسع.

- السيخيَّة تحرم الرهبانيَّة وتحظر على أتباعها الخروج من الدنيا وتركها كليًّا بل تحث النَّاس على الاشتغال بكسب الرزق بخلاف فقراء الهنادك والبوذيين والجينيين الذين يرون الدنيا هي مصدر الشرّ.

- السيخيَّة لا تقدس لغةً من اللغات المختلفة بل عندها جميع اللغات على سواء.

- السيخيَّة تعارض فكرة الأفتار وهي أن ينزل الربُّ بصورة البشر لإنقاذ عباده الصالحين، وتؤيد عقيدة الرسالة والنبوة التي أقرها الإسلام، إلا أن السيخين لم يستقروا طويلًا على هذه العقيدة بعد وفاة مصلحهم بل سرعان ما ألَّهوا أستاذتهم ومصلحيهم فبدءوا يعبدونهم من دون الله.

- أصل نظريتهم عن الكون مستمدة من النصوص الهندوسيَّة.

- يحرقون موتاهم كالهندوس.

- تأثر ناناك بالإسلام إلا أنه اختلط عليه بعض العقائد الوثنيَّة فلم يستطع التخلص منها وفشل في محاولته التوفيق بين الملل والنحل فإن كتابه الذي نال منزلة التقديس عند السيخين مجمع للأفكار المتضاربة والأديان المختلفة والملل المتفرقة، ودعاة السيخين يفتخرون بهذا التجمع الفكري بدون نظر إلى المتناقضات الموجودة فيه وما حدث من أجله من البلايا والمشاكل في فهم أصل الفكرة السيخيَّة.

كتب السيخ

١- كتاب آدي غرانت وهو مجموعة أناشيد دينية ألفها المعلمون الخمسة الأوائل، وتبلغ نحوًا من ٦٠٠٠ نشيد دينيٍّ، كما ضم إليها المعلم الأخير غوبند سنغ ١١٥ نشيدًا نظمها أبوه تيغ بهادور كما تحتوي على أناشيد نظمها شيوخ من الخالصادال الباختا وبعض رجال الصوفيَّة المسلمين من مثل ابن الفارض على وجه الخصوص وبعض شعراء بلاط غورو، وهذا الكتاب هو الكتاب المقدس الذي يعتبر أساس السلطة الروحيَّة لديهم.

٢- أقدم مصدر عن حياة ناناك كتب بعد وفاته بخمسين إلى ثمانين عامًا، ومعظم علماء السيخ يرفضون عددًا من القصص الواردة فيه.

٣- هناك كتابات تاريخيَّة سيخية ترجع إلى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

٤- كتاب راحت ناما يحتوي على تقاليد الخالصادال وتعاليمهم.

٥- لهم كتاب مقدس مكتوب باللغة الكورمكيَّة يسمونه كرانته صاحب.

الانتشار ومواقع النفوذ

لهم بلدٌ مقدَّس يعقدون فيه اجتماعاتهم المهمَّة، وهي مدينة أمرتيسار من أعمال البنجاب وقد دخلت عند التَّقسيم في أرضِ الهند.

وهناك أربعة عروش تتمتع بالقداسة: عقل تخت وهي في أمرتيسار، وأناندبور، وباتنا، وباندد.

ولهم في مدينة أمرتيسار أكبر معبد يحجُّون إليه ويسمى دربار صاحب أي مركز ديوان السيد الملك، وأما سائر المعابد فتسمى كرو داوره أي مركز الأستاذ.

وأكثرية السيخ وهم الأقلِّيَّة الثالثة بعد الإسلام والمسيحيَّة تقطن البنجاب، إذ يعيش فيها ٨٥% منهم، فيما تجد الباقي في ولاية هاريانا، وفي دلهي، وفي أنحاء متفرقة من الهند، وقد استقرَّ بعضهم في ماليزيا وسنغافورة وشرق إفريقيا وإنجلترا والولايات المتَّحدة وكندا، ورحل بعضهم إلى دول الخليج العربي بقصد العمل. وتركّزهم في البنجاب هو الذي يجعلهم يفكرون من حين لآخر بالانفصال عن الهند، وجعْل البنجاب دولة مستقلَّةً.

ولهم لجنة تجتمع كل عام منذ سنة ١٩٠٨م، تنشئ المدارس وتعمل على إنشاء كراسي في الجامعات لتدريس ديانة السيخ ونشر تاريخها.

وقد انشق قسم من السيخ عن الاتجاه العام متبعين ابن ناناك الأكبر وسموا أدواسي إذ يتجه هؤلاء نحو التصوُّف، أما الخالصادال فلا يؤمنون بانتهاء سلالة الغورو غوبند سنغ العاشر، بل يعتقدون بأن هنالك معلمًا حيًّا بين الناس لا يزال موجودًا.

ولديهم اعتقاد راسخ بضرورة إيجاد دولة لهم وأن ذلك أحد أركان الإيمان لديهم إذ ينشدون في نهاية كل عبادة نشيدًا يقولون فيه: «سيحكم رجال الخالصادال» كما يحلمون بأن تكون عاصمتهم في شانديغار.

ويقدر عدد السيخ حاليًّا بحوالي ٢٠ مليون نسمة داخل الهند وخارجها[١].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٧٦٤- ٧٧٠)، دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ص(٦٧٥- ٧٠٠)، دراسات آسيوية ص(٢٣٦- ٢٣٩)، مجلة الراصد.

الفصل الخامس

المهاريشيَّة

التعريف:

المهاريشية نحلة هندوسيَّة دهريَّة ملحدة مصبوغة بصبغة عصريَّة جديدة من الحريَّة والانطلاق، فهي مزيج من اليوغا ومن الرياضات المعروفة عند الهندوس ومن طقوس صوفيَّة بوذيَّة هنديَّة.

انتقلت إلى أمريكا وأوربا متَّخِذَةً ثوبًا عصريًا من الأفكار التي لم تخف حقيقتها الأصليَّة، وهي تدعو إلى طقوس كهنوتيَّة من التأمُّل التصاعديّ (التجاوزيّ)؛ بغية تحصيل السعادة الرُّوحية، وهناك دلائل تشير إلى صلتها بالماسونيَّة والصهيونيَّة التي تسعى إلى تحطيم القيم والمثل الدينيَّة، وإشاعة الفوضى الفكريَّة والعقائديَّة والأخلاقيَّة بين الناس.

تاريخ المهاريشيَّة

مؤسسها فقير هندوسي لمع نجمه في الستينات واسمه مهاريشي - ماهيش - يوجي لم يجد له مكانًا في الهند لمضايقة الهندوس له لخوفهم من استقطابه الأتباع بسبب إتباعه سياسة الانفتاح الجنسيّ، من ثم انتقل من الهند ليعيش في أمريكا ناشرًا أفكاره بين الشباب الضائع الذي يبحث عن المتعة الروحيَّة بعد أن أنهكته الحياة المادِّيَّة الصاخبة.

فانتقل إلى أمريكا وأنشأ جامعة في كاليفورنيا، وبقي فيها ١٣ سنة حيث التحق بركب نحلته الكثيرون، ومن ثم انتقل إلى أوربا وصار له أتباع فيها، ورحل بحركته إلى أفريقيا ليقيم لها أرضية في ساليسبورغ، ووصلت دعوته إلى الخليج العربي ومصر، إذ يزرع الأتباع هنا وهناك ويتحرك فوق ثروة مالية هائلة.

وتملك المهاريشيَّة إمكانيات مادِّيَّة رهيبة تدعو إلى التَّساؤل والاستغراب، وتشير إلى الأيدي الصهيونيَّة والماسونيَّة التي تقف وراءها مستفيدة من تدميرها لأخلاق وقيم الأمم.

وفي عام ١٩٧١م أنشأ زعيمهم جامعة كبيرة في كاليفورنيا سماها (جامعة المهاريش العالميَّة). ويقول بأنه فعل ذلك بعد أن أحس بتقبل مذهبه في أكثر من ٦٠٠ كلِّيَّة وجامعة في أنحاء العالم.

وفي عام ١٩٧٤م أعلن عن قيام الحكومة العالميَّة لعصر الانبثاق برئاسة مهاريشي - ماهيشي - يوجي ومقرُّها سويسرا، كما أنَّ لهذه الدولة دستورًا ووزراء وأتباعًا وثروةً طائلةً واستثماراتٍ في مختلف أنحاء العالم.

وفي كانون الأول ١٩٧٨م ادعوا بأن حكومتهم المهاريشيَّة قد أرسلت إلى إسرائيل بعثة من ٤٠٠ محافظ ليقيموا دورة هناك لثلاثمائة رجل حتى تجعل الشعب أكثر اجتماعيَّة وأقل حدةً وتوترًا.

ويعد عام ١٩٧٨م عام السلام لديهم حيث إنهم قد أعلنوا أنه لن تقهر أمة في العالم بعد ذلك.

وقد دعوا في ذلك العام إلى عقد مؤتمر في ساليسبورغ لتكوين نظام عدم القهر لأية أمة، كما أسس فيه المجلس النيابي لعصر الانبثاق.

وفي عام ١٩٨١م انتسب إلى هذه الفرقة ابن روكفلر عمدة نيويورك السابق وخصص لها جزءًا من أمواله يدفعها سنويًا لهذه الحركة، ومعروف انتماء هذه الأسرة اليهوديَّة إلى الحركة الصهيونيَّة والمؤسسات الماسونيَّة.

إنَّ اليهوديَّة قد وجدت فيها خير وسيلة لنشر الانحلال والفوضى بين البشر فتبنتها ووقفت وراءها مسخَّرة لها الأموال والصحافة، وعقدت لها المناقشات لطرح نظريتها والدعوة إليها.

ولا يستبعد أن تكون ذراعًا جديدًا للماسونيَّة، ويرى الكثيرون في ماهيش يوغي مؤسس المهاريشيَّةَ أنه راسبوتين العصر، لطابع الدَّجل والاستغلال والانحراف الذي يتحلَّى به.

فيخدم مع المهاريشيِّ سبعة آلاف خبير، ويشتري هذا المهاريشيُّ، الفقير أصلًا، عشرات القصور الفارهة فمن أين له ذلك؟

وكتبهم ومطبوعاتهم تكتب بماء الذَّهب، وهم يمتلكون أكبر المصانع والعقارات في أوربا، وقد اشتروا قصر برج مونتمور في بريطانيا لتأسيس عاصمتهم الجديدة هناك.

ويحرصون دائمًا على اعتبار مؤسستهم مؤسسة خيريَّة معفاة من الضرائب على الرغم من غناهم الفاحش.

أفكار ومعتقدات المهاريشيَّة

- لا يؤمن أفراد هذه النحلة بالله سبحانه وتعالى، ولا يعرفون إلا المهاريشيّ إلهًا وسيدًا للعالم.

- لا يؤمنون بدين من الأديان السماويَّة، ويكفرون بجميع العقائد والمذاهب، ويدعون إلى إلغاء كافَّة العقائد والأديان السابقة، ولا يعرفون التزامًا بعقيدة إلا بالمهاريشيَّة التي تمنحهم الطاقة الروحيَّة -على حد زعمهم- وهم يرددون: لا رب . . . لا دين.

- لا يؤمنون بشيء اسمه الآخرة أو الجنة أو النار أو الحساب. . . ولا يهمهم أن يعرفوا مصيرهم بعد الموت؛ لأنهم يقفون عند حدود متع الحياة الدنيا لا غير.

- حقيقتهم الإلحاد، لكنهم يظهرون للناس أهدافًا براقة لتكون ستارًا يخفون بها تلك الحقيقة.

فمن ذلك أنَّهم يدعون إلى التَّحالف من أجل المعرفة أو علم الذكاء الخلَّاق، ويفسرون ذلك على النحو التالي:

علم: من حيث دعوتهم إلى البحث المنهجيِّ التجريبيِّ.

الذَّكاء: من حيث الصفة الأساسيَّة للوجود متمثلًا في هدف ونظام للتغيير.

الخلَّاق: من حيث الوسائل القويَّة القادرة على إحداث التغييرات في كل زمان ومكان.

وهم يصلون إلى ذلك عن طريق (التأمُّل التجاوزيّ) الذي يأخذ بأيديهم -كما يعتقدون- إلى

إدراك غير محدود.

(التأمُّلات التجاوزيَّة) تتحقق عن طريق الاسترخاء، وإطلاق عنان الفكر والضمير والوجدان حتى يشعر الإنسان منهم براحة عميقة تنساب داخله، ويستمر في حالته الصامتة تلك حتى يجد حلًّا للعقبات والمشكلات التي تعترض طريقه، وليحقق بذلك السعادة المنشودة.

يخضع المنتسب للتدريب على هذه التأملات التصاعدية خلال أربع جلسات موزعًا على أربعة أيام، وكل جلسة مدتها نصف ساعة.

ينطلق الشخص بعد ذلك ليمارس تأملاته بمفرده على أن لا تقل كل جلسة عن عشرين دقيقة صباحًا ومثلها مساءً كل يوم وبانتظام.

من الممكن أن يقوموا بذلك بشكل جماعي، ومن الممكن أن يقوم به عمال في مصنع رغبةً في تجاوز إرهاقات العمل وزيادة الإنتاج.

يحيطون تأمُّلاتهم بجو من الطقوس الكهنوتيَّة مما يجعلها جذابة للشباب الغربي الغارق في المادة والذي يبحث عما يلبي له أشواقه الروحيَّة.

ينطلقون في الشوارع يقرعون الطبول، وينشدون، دون إحساس بشيء اسمه الخجل أو العيب أو القيم، ويرسلون شعورهم ولحاهم، ولعلَّ بعضَهم يكون حليق الرأس على نحو شاذٍّ، وهيئتهم رثَّة، كل ذلك جذبًا للأنظار، وتعبيرًا عن تحللهم من كل القيود.

استعاض المهاريشيَّة عن النبوة والوحي بتأمُّلاتهم الذَّاتيَّة، واستعاضوا عن الله بالراحة النفسيَّة التي يجدونها، وبذلك أسقطوا عن اعتبارهم مدلولات النبوة والوحي والألوهيَّة.

وهذا من تأثر مذهبهم بنظرية أفلوطين الإسكندري في الفلسفة الإشراقيَّة.

واستشراف الحقّ عن طريق التأمُّل الذاتيّ نظريَّة قديمة في الفلسفة اليونانيَّة وقد بعثت هذه النظريَّة من جديد على يد ماكس ميلر، وهربرت سبنسر، وبرجسون، وديكارت، وجيفونس، وأوجست، وغيرهم.

- يطلقون العنان لشبابهم وشاباتهم لممارسة كل أنواع الميول الجنسيَّة الشاذَّة والمنحرفة، إذ إن ذلك -كما يعتقدون- يحقِّق لهم أعلى مستوى من السعادة. وقد وجد بينهم ما يسمى بالبانكرز وما يسمى بالجنس الثالث.

وهذا من تأثير فلسفة فرويد ونظريته في التحليل النفسيّ ولآرائه في الكبت وطرق التخلُّص منه في معتقدات هذه النِّحلة التي راحت تبحث عن سعادتها عن طريق الإرواء الجنسيّ بشتى صوره.

- يدعون شبابهم إلى عدم العمل، وإلى ترك الدراسة، وإلى التخلِّي عن الارتباط بأرضٍ أو وطنٍ، فلا يوجد لديهم إلا عقيدة المهاريشيِّ، فهي العمل وهي الدراسة وهي الأرض وهي الوطن.

- عدم إلزام النفس بأي قيد يحول بينها وبين ممارسة نوازعها الحيوانيَّة الطبيعيَّة.

- يحثون شبابهم على استخدام المخدرات كالماريجوانا والأفيون حتى تنطلق نفوسهم من عقالها سابحة في بحر من السَّعادة الموهومة.

- يلزمون أتباعهم بالطَّاعة العمياء للمهاريشيِّ وعدم الخضوع إلَّا له؛ إذ إنه هو الوحيد الذي يمكنه أن يفعل أي شيء.

- يلخصون أهدافهم ومجالات عملهم بسبع نقاط براقة تضفي على حركتهم جوًّا من الروح العلميَّة الإنسانيَّة العالميَّة، وهي أهداف لا يكاد يكون لها وجود في أرض الواقع وهي:

١- تطوير كل إمكانات الفرد.

٢- تحسين الإنجازات الحكومية.

٣- تحقيق أعلى مستوى تعليمي.

٤- التخلُّص من كل المشكلات القديمة للجريمة والشرِّ، ومن كلِّ سلوكٍ يؤدي إلى تعاسة الإنسانيَّةِ.

٥- زيادة الاستغلال الذَّكي للبيئة.

٦- تحقيق الطموحات الاقتصاديَّة للفرد والمجتمع.

٧- إحراز هدف روحي للإنسانيَّة.

وسائل المهاريشيَّة

وسائلهم المعتمدة لتحقيق هذه الأفكار هي:

١- افتتاح الجامعات في الأرياف والمدن.

٢- نشر دراسات عن علم الذَّكاء الخلَّاق، والدَّعوة إلى تطبيقها على المستوى الفرديِّ والحكوميِّ والتعليميِّ والاجتماعيِّ وفي مختلف البيئات.

٣- إيجاد تلفزيون ملون عالمي لبث التعاليم من عدة مراكز في العالم.

الانتشار ومواقع النفوذ

الحقيقة أن المهاريشيَّة ما هي إلا ضلالة جديدة انتهزت فرصة إخفاق النصرانيَّة في احتواء الشباب، وظهور صرعات الهيبيز والخنافس وأبناء الزهور، فتقدمت لتملأ الفراغ، تحت وهم جلب الراحة النفسيَّة ومطاردة موجات القلق والاضطراب، عن طريق الرياضات الروحيَّة، بعيدًا عن طريق الوحي والنبُّوات، فلذلك انتشرت في أمريكا والدول الأوربيَّة.

وقد وصل بعضهم إلى دبي وعقدوا اجتماعًا في فندق حياة ريجنسي، يدعون فيها علانية لمذهبهم وقد ألقي القبض على هؤلاء الأشخاص الأربعة الذين قدموا إليها بتأشيرة سياحيَّة ثم أبعدوا عن البلاد.

ووصل بعضهم إلى الكويت وتقدموا بطلب للحصول على ترخيص لهم باعتبارهم مؤسسة خيريَّة غير تجاريَّة، وقد نشروا في الصحافة الكويتيَّة أكثر من مقالٍ، وبث لهم التلفزيون الكويتي بعض المقابلات قبل أن تتضح أهدافهم الحقيقية.

وقد نظموا دورة لموظفي وزارة المواصلات في الكويت في فندق هيلتون وقد دعوا الموظفين أثناء الدورة إلى مراجعة مواريثهم العقائديَّة والفكريَّة.

وقد طُرد المهاريشيّ من ألمانيا بعد أن ظهر أثره السيئ على الشباب.

وقد نشرت رابطة العالم الإسلامي في مكَّة بيانًا أوضحت فيه خطر هذا المذهب على الإسلام والمسلمين، مؤكدة ارتباطه بالدَّوائر الماسونيَّة والصهيونيَّة[1].

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٧٧١- ٧٧٦).

الباب الثالث

اديان الصين

الفصل الأول

الطّاوية

التعريف:

الطاوية إحدى أكبر الديانات الصينيَّة القديمة التي لا تزال حيةً إلى اليوم، إذ ترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد، تقوم في جوهر فكرتها على العودة إلى الحياة الطبيعيَّة والوقوف موقفًا سلبيًا من الحضارة والمدنية. كان لها دور هامٌ في تطوير علم الكيمياء منذ آلاف السنين وذلك من خلال مسيرتها في البحث في إكسير الحياة ومعرفة سر الخلود.

تاريخ الطاوية

يُعتقد بأن لوتس Laotse الذي كان ميلاده عام ٥٠٧ ق.م هو صاحب مذهب الطاوية التي تُرجع بعض معتقداتها إلى زمن سحيق.

وكان لوتس أمينًا للمكتبة الملكية في مقاطعة هونان في عهد أسرة تشاو، ولما عاين بداية انهيار الدولة هاجر إلى جنوب الصين حيث كانت النفوس تنزع إلى التصوف ولا تتقبل النزعة العقلية الجامدة.

ثم خرج إلى النَّاس بدعوة تقوم على إظهار جمال الفعل البشري والفضائل، والدعوة إلى التوحد مع المنهج الداخلي للكون وتطوير الإنسانية من خلال السلوك القويم.

وقد وضع كتابه طاو - تي - تشينغ Tao - te - ching أي كتاب طريق القوة. وتعتبر الطاوية سلوكًا معيشيًا لا يخضع للربح والخسارة، للنصر والهزيمة، للقوة الضعف، للخير والشر... ولكنه الحياة المثاليَّة؛ البسيطة المتناسقة التي تقوم على كبح الرغبات والتعالي على الشهوات، وهي وحدة الإنسانية والطبيعة.

وبقيت الطاوية خلال أكثر من ألفي سنة تؤثر في الفكر الصيني وفي التغيرات التاريخية الصينية.

ثم ظهر شوانغ تسو الذي يرجع إلى القرن الرابع والثالث قبل الميلاد زاعمًا بأن لوتس كان أحد المعلمين السماويين، كما قام بشرح كتاب معلمه لوتس مضيفًا إليه شيئًا من فلسفته.

لقد نمت الطاوية المنظمة في منطقة جبال شي شوان قبل غيرها.

وفي عام ١٤٢م زعم شانغ طاولينغ أنه قد جاءه الوحي من الربِّ تعالى بأن يتحمل تبعات إصلاح الدين الطاوي، وأنه قد ارتقى وسمي المعلم السماويّ. وقاد ذلك التنظيم الذي صار تبعًا

لسلالته الذين عرفوا بالمعلمين السماويين.

وفي القرن الثاني الميلادي انتشرت الطاوية الشعبيَّة بفضل حركة السلم الكبير ping-Tai وقد كان للمعلمين السماويين دور كبير في نشرها.

وفي عام ٢٢٠م زالت أسرة هان مما أدى إلى انقسام الصينيين إلى ثلاثة أقسام، وهذا ما ترك أثره على الاختلافات الدينيَّة الإقليمية فيما بينهم.

وعقب سقوط أسرة هان، وفي القرنين الثالث والرابع الميلاديين ظهرت الطاوية الجديدة.

وفي عام ٤٠٦- ٤٧٧م ظهر المصلح لوهيوشنغ الذي يرجع إليه مفهوم القانون الكنسي لجميع الكتب المقدَّسة الطاوية.

ومؤسسو أسرتي تانغ ٦١٨ - ٩٠٧م ومينغ ١٣٦٨ - ١٦٤٤م قد استخدموا التنبُّؤات الطَّاوية والسحر لكسب التأييد الشعبيّ.

وتدَّعي عائلة شانغ الحالية للمعلمين السماويين بأنَّها من سلالة شانغ طاو لينغ المعلم السماويّ الأول الذي ظهر أيام أسرة هان.

كتب الطاوية

١- كتاب لوتس المسمى طاو - تي تشينغ لم يكن ليكتب لولا رجاء حارس الممر ين شي الذي طلب من المعلم الشيخ أن يدون أفكاره. وهذا الكتاب مجموعة قطع أدبيَّة تحيط بطبيعة طاو كما تشمل قواعد عامَّة وأمثلة للحاكم الذي يمتلك زمام أمر الطاو، وهو كتاب غامضٌ في كثير من عباراته؛ إذ إن ذلك الغموض مقصود لذاته.

٢- شوانغ تسو: بحث في النَّظْرة الطَّاوية الفلسفية، كما أجرى مقابلة بين السماء والبشر، وبين الطبيعة والمجتمع، طالبًا من الطاويين طرح كل الحيل المصطنعة، وفيه قصص عن بشر كاملين يستطيعون الطيران هم الخالدون الذين لا يتأثرون بالعناصر الطبيعية ولا يمسهم حرٌّ ولا قرٌّ، أصحاب أرواح تمتاز بحرية في تصرفها.

٣- كتاب هوانغ - تي - ني - تشينغ وهو من القرن الثالث قبل الميلاد، فيه تجارب على بعض المعادن والنباتات والمواد الحيوانيَّة وذلك انطلاقًا من اهتمامهم بالمحافظة على الصحة وإطالة الحياة.

٤- كتاب باو - بو - تسو الذي انتهوا من تأليفه عام ٣١٧م يبحث في علوم الكيمياء القديمة وفيه محاولات لتحويل المعادن إلى ذهب، وإطالة الحياة بواسطة بعض الأكاسير.

٥- لهم أدب فلسفيٌّ ودينيٌّ سريٌّ، قسم منه يعود إلى القرن الرابع والقرن الثاني قبل الميلاد ويركز على إقناع الحكام، وقسم يبدأ منذ نهاية القرن الثاني الميلادي وهو يمثل حركات دينية منظمة وينتقل من الشيخ إلى تلاميذه من أداء القسم للمحافظة على سريته.

عقيدة الطاوية

- الإله لديهم ليس بصوت، ولا صورة، أبدي لا يفنى، وجوده سابق وجود غيره وهو أصل الموجودات، وروحه تجري فيها.

- إن طاو هو المطلق الكائن، وهو مراد الكون، إنه ليس منفصلًا عن الكون بل هو داخل فيه دخولًا جوهريًا، انبثقت عنه جميع الموجودات.

- إنهم يؤمنون بوحدة الوجود؛ إذ إن الخالق والمخلوق شيءٌ واحدٌ لا تنفصل أجزاؤه وإلا لاق الفناء.

- إن نظرتهم إلى الإله قريبة جدًا من مذهب الحلوليَّة الذي يذهب إلى أن الخالق حالٌّ في كل الموجودات، كما أن الخالق لا يستطيع أن يتصرف أو يعمل إلا بحلوله في الأشياء.

- يؤمنون بالقانون السماويِّ الأعظم الَّذي هو أصل الحياة والنَّشاط والحركة لجميع الموجودات في السماء والأرض.

- يرى شونغ تسي بأن الإنسان قد جاء إلى الوجود مع الكون، فهو يحبُّ الله ولكنَّه يحبُّ المصدر الذي جاء منه الله أكثر من حبِّه الله، فهو تصور يدل على أنهم يعتقدون بأن هناك مُبْدِئًا قبل الله - تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا-

- يذكر دوان في كتابه خرافات التوراة وما يماثلها في الديانات الأخرى (ص١٧٢)، بأن في الطاوية تثليثًا، فطاو هو العقل الأزليُّ الأوَّل، انبثق من واحد، ومن هذا انبثق ثالث كان مصدر كل شيء.

- شاع بينهم الاعتراف بثنائية الوجود، يعبر عنها المصطلحان: المبدأ الأنثوي (ين)، والمبدأ الذكوريّ (يانج)، وين يمثل حالة التلقي والاستيعاب والسلبية النسبية، ويانج يمثل الناحية الإسقاطيَّة الإيجابيَّة النشطة، ويكمل كل منهما الآخر، ومن هنا كان التنظيم والترتيب والاتزان في الخضوع للإيقاع العام.

- ظلَّ الشعب الصينيُّ بأسره تقريبًا يمارس على مدى تاريخه كلِّه عبادة الأجداد.

- هناك عوامل تأثر وتأثير بين الطاوية والكنفوشيوسيَّة والبوذيَّة بسبب توطُّن هذه الديانات في منطقة واحدة متجاورة، حيث يمكن ملاحظة فكرة التصوف التي يعبر عنها بأساليب مختلفة ولكن في مضمون واحد.

- الطاوية أقرب إلى الكنفوشيوسيَّة منها إلى البوذيَّة.

- أخذ الطاويون عن البوذيِّين بناءَ الأديرة وتقريرَ الرهبنة والعزوبيَّة.

الاحتفالات الدينيَّة والطَّقوس الطَّاوية

- هناك طقس شيو Chioo وهو أقدم الطقوس؛ إذ هو تجديد لعلاقة الجماعة بالآلهة، ولا

يزال هذا الطقس موجودًا في تايوان إلى اليوم.

- هناك طقوس لتنصيب الكهنة، وأخرى عند ميلاد الآلهة.

- بعض الكهنة يمارسون طقوسًا معينة في مناسبات الدَّفن والزواج والولادة.

- من طقوسهم معالجة المريض وذلك بإدخاله إلى غرفة هادئة يقضي فيها بعض الوقت متأملًا منشغلًا بذنوبه، كما يقوم بعضهم باستعمال الوسطاء الذين يسترخون في سبات ويزعمون أنهم يقومون بنقل آراء الآلهة أو الأموات أو الأقارب.

- حرق البخور موضوع أساسيٌّ لكلِّ عبادةٍ طاوية فضلًا عن استعمال الخناجر والماء المسحور والموسيقى، والأقنعة والكُتب المقدَّسة.

الصوفيَّة الطاوية

- إنَّهم متصوفة؛ إذ إنه يجب على الطاوي أن ينظِّف نفسَه من جميع المشاغل والشوائب ليُوجِدَ في داخله فراغًا هو في الحقيقة الامتلاء نفسه، وذلك بالوصول إلى الحقائق المجرَّدة، ويتم ذلك عن طريق التَّجرُّد من الماديَّات ليصبح الإنسان روحًا خالصًا.

- أعلى مراتب التصوف هي مرحلة الوحدة التَّامَّة بين الفرد والقانون الأعظم؛ وذلك بحصول اندماج بين المتصوف والذات العليا لتصيرا شخصيةً واحدةً.

- إذا ارتقى الإنسان إلى المعرفة الحقَّةِ عندها يستطيع أن يصل إلى الحالة الأثيريَّة حيث لا موت ولا حياة.

- إن الطاوية تتجه اتجاهًا سلبيًا -على عكس الكونفوشيوسيَّة- ذلك لأن الفضيلة لديهم تكمن في عدم العمل والاقتصار على التأمُّل داعين إلى الحياة على الجبال المقدَّسة وقرب الجزر النائية.

- إنهم يهاجمون الشرائع والقوانين والعلم وما إلى ذلك من مظاهر المدنية التي عملت على إفساد فطرة الإنسان الذي ولد خَيِّرًا. إن مثلهم الأعلى في ذلك هو في العودة إلى النِّظام الطبيعيِّ المتميز بنقاء الفطرة وسلامتها.

- اهتم الطاويون بطول العُمُرِ، ويعدُّ التَّقدُّم في السنِّ دليلًا على القداسة حتى صار من أهداف التصوف الطاوي السعي لإطالة العمر والخلود، وقد ذهب بعضهم إلى ادِّعاء إمكانية إطالة العمر مئات السنين. وأفضل الخالدين -في نظرهم- هم الذين يصعدون إلى السماء في وضح النهار، هذا الخلود الذي من الممكن أن يتم بواسطة تدريبات ورياضات خاصة جسديَّة وروحيَّة كما يزعمون.

- هذا الاهتمام في البحث عن إكسير الحياة كان عاملًا مهمًّا في تقدُّم الطِّبِّ والكيمياء على أيديهم فضلًا عن السحر والشَّعْوذة والدَّجل مما أدى إلى ثراء الكهنة ثراءً فاحشًا.

- إنهم يؤكدون حرصهم على التعاليم الأخلاقيَّة وعلى ضرورة المشاركة في الاحتفالات الجماعيَّة الموسميَّة.

- ليس لديهم بعثٌ ولا حسابٌ، إنما يكافأ المحسن بالصّحَّةِ وبطول العُمُرِ بينما يجازى المسيء بالمرض وبالموت المبكر.

- مؤسسها الفيلسوف لوتس يرى أن الخير في الزهادة والاعتزال والعفو والتسامح مع الناس وعدم مقابلة السيئة بالسيئة.

الانتشار ومواقع النفوذ

- في عام ١٩٥٨م أعلن أن ثلاثين ألفًا من الكهنة الطاويين لا يزالون ناشطين في مختلف أنحاء الصين. ومعلوم أن الثقافة الصينية التقليدية ما تزال الطاوية حيَّة فيها.

- في عام ١٩٤٩م هرب آخر المعلمين السماويين شانغ اين بو إلى تايوان، وفي عام ١٩٦٠م انبعثت هذه الديانة من جديد وظهرت المعابد الطاوية الضخْمة كمعبد شهنان قرب تايبيه والذي يضمُّ تمثالَ لو يونغ ين الذي تقمصته روح إله الطاو كما يزعمون، وفي عام ١٩٧٠ مات هذا المعلم السماوي ليخلفه ابنه شانغ يوان هسين.

- توجد فئات طاوية في بعض نواحي ماليزيا وبينيانغ وسنغافورة وبانكوك.

- تعتبر اليابان من أوسع البلاد علمًا بالطاوية في أيامنا الحالية.

- أما تايوان فهي أهم ملجأ للطاوية في القرن العشرين بسبب الهجرة الطاوية إليها في القرنين السابع عشر والثامن عشر[١].

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٧٣٥- ٧٣٩)، معتقدات آسيوية ص(٢٨٨- ٢٩٧).

الفصل الثاني

الكونفوشيوسيَّة

التعريف:

الكونفوشيوسيَّة ديانة أهل الصّين، وهي ترجع إلى الفيلسوف كونفوشيوس الذي ظهر في القرن السادس قبل الميلاد داعيًا إلى إحياء الطّقوس والعادات والتّقاليد الدينيَّة التي ورثها الصّينيُّون عن أجدادهم مضيفًا إليها جانبًا من فلسفته وآرائه في الأخلاق والمعاملات والسلوك القويم.

وهي تقوم على عبادة إله السماء أو الإله الأعظم، وتقديس الملائكة، وعبادة أرواح الآباء والأجداد.

تاريخ الكونفوشيوسيَّة

ترجع الكونفوشيوسيَّة إلى معتقدات الصّينيِّين القدماء، تلك المعتقدات التي ترجع إلى ٢٦٠٠ سنة قبل الميلاد. وقد قبلها كونفوشيوس أولًا، والكونفوشيوسيُّون ثانيًا، دون مناقشة أو جدال أو تمحيص.

يعتبر كونفوشيوس المؤسس الحقيقيّ لهذه العقيدة الصّينيَّة، وقد ولد سنة ٥٥١ ق.م في مدينة تسو Tsou وهي إحدى مدن مقاطعة لو Lu.

واسمه المشهور به في الصّين هو كونج فوتس، وكونج Kung اسم القبيلة التي ينتمي إليها، وفوتس Futze معناه الرئيس أو الفيلسوف، فهو بذلك رئيس كونج أو فيلسوفها.

وهو ينتسب إلى أسرة عريقة تمُتُّ في نسبها إلى فرعٍ ملكيٍّ، فجدّه كان واليًا على تلك الولاية، ووالده كان ضابطًا حربيًّا ممتازًا، وكان هو ثمرة لزواجٍ غيرِ شرعيٍّ، توفي والده وله من العمر ثلاث سنوات.

وعاش كونفوشيوس يتيمًا، فعمل في الرعي، وتزوج في مقتبل عمره قبل العشرين، ورزق بولد وبنت، لكنه فارق زوجته بعد سنتين من الزواج لعدم استطاعتها تحمل دقته الشديدة في المأكل والملبس والمشرب.

وقد تلقى علومه الفلسفيَّة على يدي أستاذه الفيلسوف لوتس Laotse صاحب النِّحلة الطاوية؛ إذ كان يدعو إلى القناعة والتسامح المطلق، ولكن كونفوشيوس خالفه فيما بعد داعيًا إلى معاملة المسيء بالعدل وليس من العدل العفو عن سيئته بل أخذه بجريرة عمله، فالمسيء لا يعفى عنه ولكن يعدل معه لا يظلم ولا يظلم. وخالفه أيضًا في التّعامل مع طريقة الآخرين فبينما يرى لوتس أن الخير كل الخير في الزهادة والانعزال بينا يرى كونفوشيوس أن الخير في إصلاح المجتمع الفاسد بالعمل والنشاط والدعوة والتربية.

وعندما بلغ الثانية والعشرين من عمره أنشأ مدرسةً لدراسة أصول الفلسفة، تكاثر تلاميذه حتى بلغوا ثلاثة آلاف تلميذ، بينهم حوالي ثمانين شخصًا عليهم أمارات النَّجَابة والذَّكاء.

وتنقل في عدد من الوظائف فقد عمل مستشارًا للأمراء والولاة، وعيّن قاضيًا وحاكمًا، ووزيرًا للعمل، ووزيرًا للعدل ورئيسًا للوزراء في سنة ٤٩٦ ق.م حيث أقدم حينها على إعدام بعض الوزراء السابقين وعددًا من رجال السياسة وأصحاب الشغب حتى صارت مقاطعة لو نموذجيَّة في تطبيق الآراء والمبادئ الفلسفيَّة المثاليَّة التي ينادي بها.

ثم رحل بعد ذلك وتنقل بين كثير من البلدان ينصح الحكام ويرشدهم ويتصل بالناس يبث بينهم تعاليمه حاثًا لهم على الأخلاق القويمة.

وأخيرًا عاد إلى مقاطعة لو فتفرغ لتدريس أصدقائه ومحبيه منكبًا على كتب الأقدمين يلخّصها، ويرتبها، ويضمنها بعض أفكاره، وحدث أن مات وحيده الذي بلغ الخمسين من عمره، وفقد كذلك تلميذه المحبّب إليه هووي فبكى عليه بكاءً مرًّا.

ومات في سنة ٤٧٩ ق.م بعد أن ترك مذهبًا رسميًّا وشعبيًّا استمرَّ حتى منتصف القرن العشرين الحالي.

- وقد اتصف كونفوشيوس بصفات جعلت من مذهبه وطريقته مذهبًا خُلقيًّا سلوكيًّا بين النَّاس، ومن هذه الصفات أنه كان دمثًا، مرحًا، مؤدّبًا، يحبُّ النكتة، يتأثر لبكاء الآخرين، يبدو قاسيًا وغليظًا في بعض الأحيان، طويلًا، دقيقًا في المأكل والملبس والمشرب، مولعًا بالقراءة والبحث والتعلم والتعليم والمعرفة والآداب.

وقد كان مغرمًا بالبحث عن منصب سياسيٍّ بغيةَ تطبيقِ مبادئِه السياسيَّة والأخلاقيَّة لتحقيقِ المدينة الفاضلة التي يدعو إليها.

وكان خطيبًا بارعًا، ومتكلّمًا مفوّهًا، لا يميل إلى الثرثرة، وعباراته موجزة تجري مجرى الأمثال القصيرة والحكم البليغة.

وكان لديه شعورٌ دينيٌّ، يحترم الآلهةَ التي كانت معبودة في زمانه، ويداوم على تأدية الشعائر الدينيَّة، يتوجَّه في عباداته إلى الإله الأعظم أو إله السماء، يُصَلِّي صامتًا، ويكره أن يرجو الإله النِّعمة أو الغفران؛ إذ إن الصلاة لديه ليست إلا وسيلة لتنظيم سلوك الأفراد، والدِّين -في نظره- أداة لتحقيق التآلف بين الناس.

وكان يغني، وينشد، ويعزف الموسيقى، وقد ترك كتاب الأغاني كما أنه كان مغرمًا بالحفلات والطقوس، إلى جانب اهتمامه بالرِّمَاية وقيادة العربات والقراءة والرياضة (الحساب) ودراسة التاريخ.

- وقد انقسمت الكونفوشيوسيَّة إلى اتجاهين:

١- مذهب متشدِّدٌ حرفيٌ ويمثله منسيوس؛ إذ يدعو إلى الاحتفاظ بحرفيَّة آراء كونفوشيوس وتطبيقها بكل دقَّةٍ، ومنسيوس هذا تلميذ روحيٌّ لكونفوشيوس؛ إذ إنه لم يتلقَّ علومَه مباشرةً عنه بل إنه أخذها عن حفيده وهو Tsesze الذي قام بتأليف كتاب الانسجام المركزي.

٢- والمذهبُ التحليليُّ، ويمثله هزنتسي ويانجتسي؛ إذ يقوم مذهبهما على أساسِ تحليلِ وتفسيرِ آراءِ المعلمِ واستنباط الأفكارِ باستلهام روح النصِّ الكونفوشيوسيِّ.

- ومن أبرز الشخصيات إضافة إلى من سبق:

١- تسي كنج ولد سنة ٥٢٠م وأصبح من أعظم رجال السلك السياسيِّ الصِّينيِّ.

٢- تسي هسيا ولد سنة ٥٠٧م وأصبح من كبار المتفقهين في الدين الكونفوشيوسيِّ.

٣- تسينكتنز كان أستاذًا لحفيد كونفوشيوس، ويأتي ترتيبه الثاني بعد منسيوس من حيث الأهمِّيَّةِ.

٤- تشي هزيوان عاش في عصر أسرة هان ١٢٧ -٢٠٠ ميلادية.

٥- تشو هزي ١١٣٠- ١٢٠٠ ميلاديَّة قام بنشر الكتب الأربعة التي كانت تدرَّس في المدارس الأوَّليَّة والابتدائيَّة في الصِّينِ، ويُعدُّ الحجة الوحيدة.

٦- الفيلسوف موتزي ٤٧٠- ٣٨١ ق.م أضاف فكرةً جديدةً وهي تشخيص إله السماء بشخصٍ عظيمٍ يشبه الآدميين.

وفي سنة ٤٢٢م أقيم معبد لكونفوشيوس في Chufu حيث قبره.

وفي سنة ٥٠٥ م أقيم معبد آخر في العاصمة، وأصبحت كتبه تدرس في المدارس على أنها كتب مقدسة.

وفي سنة ٦٣٠م أمر أحد الأباطرة ببناء معابد مزودة بتماثيل لكونفوشيوس في جميع أنحاء الإمبراطوريَّة، كما أمر بإنشاء كليَّات لتعليم آراء كونفوشيوس الذي أصبح رمزًا للوحدتين السياسيَّة والدينيَّة.

وفي سنة ٧٣٥م مُنِحَ كونفوشيوس لقب ملك.

وفي سنة ١٠١٣م مَنِحَ لقب القديس الأعظم.

وفي سنة ١٣٣٠م مَنِحَ الأفراد المنحدرون من سلالته رتبة الشرف وصاروا يُعدُّون من طبقة النبلاء.

وفي سنة ١٥٣٠م بُدِّلَت التماثيل الموجودة في المعابد بصور ولوحات حتى لا تختلط الكونفوشيوسيَّة بالوثنيَّة.

وفي سنة ١٩٠٥م بدأ نَجْمُ الكونفوشيوسيَّة بالأفول، حيث أُلغي الامتحان الدينيُّ الذي كان يُعدُّ ضروريًا للتَّعيين في الوظائف.

وفي سنة ١٩١٠م ظهر مذنب هالي Halley في الأجواء الصينية فاعتبر ذلك استياء من الآلهة على أسرة مانتشو التي بلغ الفساد في عهدها قمته مما أدى إلى ثورة شعبية انتهت بتنازل الإمبراطور عن العرش سنة ١٩١٢م وتحول الصّين إلى النِّظام الجمهوريِّ مما أدى إلى اختفاء الكونفوشيوسيَّة من الحياة الدينيَّة والسياسيَّة، لكنها بقيت ماثلة في الأخلاق والتقاليد الصّينيَّة.

وفي سنة ١٩٢٨م صدر قرار بتحريم تقديم القرابين لكونفوشيوس ومنع إقامة الطقوس الدينيَّة له.

وعندما استولى اليابانيون على منشوريا عادت الصين إلى استنهاض الهمم بالعودة إلى الكونفوشيوسيَّة وعاد الناس في عام ١٩٣٠ - ١٩٣٤م إلى تقديم القرابين مرةً ثانيةً، كما أعيد تدريس الكونفوشيوسيَّة في كلِّ مكانٍ؛ لاعتقادهم بأن نكبتهم ترجع إلى إهمالهم تعاليم المعلم الأكبر، وسادت حركة إحياء جديدة بزعامة تشانج كاي شيك، وقد استمرت هذه الحركة إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية.

وفي عام ١٩٤٩م سيطرت الشيوعيَّة على الصّينِ، ولكنَّ شيئًا فشيئًا بدأت الخلافات بين الصّين والاتِّحاد السوفيتيِّ بالظهور مما أوجد تباينًا بين كلٍّ منهما، وبعد موت الزعيم الصّينيِّ الشيوعيِّ الشهيرِ ماو تسي تونج بدأ التراجع عن الشيوعيَّة في الصّين، وبدأت رياح الغرب تهبُّ عليها.

• ويعتقد الباحثون بأن الروح الكونفوشيوسيَّة ستعمل على تغيير معالم الشيوعيَّة مما يجعلها أبعد ما تكون عن الشيوعيَّة الروسيَّة التي انهارت، لما للكونفوشيوسيَّة من سيطرةٍ روحيَّة على الشعب الصينيِّ.

كتب الكونفوشيوسيَّة

لم تكن لكونفوشيوس عناية كبرى متَّجهة إلى تأليف كتب، ولكن عنايته كانت متَّجهة إلى تكوين نفوس وإلى تربية طائفة من التلاميذ يكونون نواة لتربية جيلٍ وبذلك تتوارث آراءه الأجيال.

ولقد دون تلاميذه آراءه، وما أَلَّفه عبارة عن تلخيصات وشروح للكتب المقدَّسة القديمة التي نسخها وشرحها وعلَّق عليها إحياء لآداب القدماء الصينيِّين، وقد كانت شروحه وتعليقاته متضمنة منهجه وآراءه في الدين والأخلاق والسلوك القويم.

وهناك مجموعتان أساسيَّتان تمثلان الفكر الكونفوشيوسيّ فضلًا عن كثير من الشروح والتعليقات والتلخيصات، المجموعة الأولى تسمى الكتب الخمسة، والثانية تسمى الكتب الأربعة.

- **الكتب الخمسة**: وهي الكتب التي قام كونفوشيوس ذاته بنقلها عن كتب الأقدمين وهي:

١- **كتاب الأغاني أو الشعر**: فيه ٣٥٠ أغنيةً إلى جانب ستة تواشيحِ دينيَّة تغنى بمصاحبة الموسيقى.

٢- كتاب التاريخ: فيه وثائق تاريخيَّة تعود إلى التَّاريخ الصينيِّ السحيق.

٣-كتاب التغييرات: فيه فلسفة تطور الحوادث الإنسانيَّة، وقد حوَّله كونفوشيوس إلى كتاب علميٍّ لدراسة السلوك الإنسانيِّ.

٤- كتاب الربيع والخريف: كتاب تاريخيٌّ يؤرخ للفترة الواقعة بين ٧٢٢ - ٤٨١ ق.م.

٥- كتاب الطقوس: فيه وصف للطّقوس الدينيَّة الصّينيَّة القديمة مع معالجة النُّظام الأساسيِّ لأسرة تشو تلك الأسرة التي لعبت دورًا هامًّا في التاريخ الصينيِّ البعيدِ.

- الكتب الأربعة: وهي الكتب التي ألفها كونفوشيوس وأتباعه مدوِّنين فيها أقوال أستاذهم مع التفسير تارةً والتعليق أخرى، إنها تمثل فلسفة كونفوشيوس ذاته وهي:

١- كتاب الأخلاق والسياسة.

٢- كتاب الانسجام المركزي Central Harmony.

٣- كتاب المنتجات Analects ويطلق عليه اسم إنجيل كونفوشيوس.

٤- كتاب منسيوس: وهو يتألَّف من سبعةِ كتبٍ، ومن المحتمل أن يكون مؤلِّفها منسيوس نفسه.

المعتقدات الأساسيَّة

- تتمثل المعتقدات الأساسيَّة لديهم في عبادة ثلاثة أشياء: الإله أو إله السماء، والملائكة، وأرواح الأجداد.

١- الإله: يعتقدون في الإله الأعظم أو إله السماء ويتوجهون إليه بالعبادة، كما أن عبادته وتقديم القرابين إليه مخصوصة بالملك، أو بأمراء المقاطعات.

وللأرض إله، وهو إله الأرض، ويعبده عامَّةُ الصّينيِّين.

والشمس والقمر، والكواكب، والسحاب، والجبال. لكلٍّ منها إله وعبادتها وتقديم القرابين إليها مخصوصة بالأمراء.

٢- الملائكة: إنهم يُقَدِّسُون الملائكة ويقدمون إليها القرابين.

٣- أرواح الأجداد: يقدس الصّينيُّون أرواحَ أجدادِهم الأقدمين، ويعتقدون ببقاء الأرواح مع أسرتهم، ولذلك يعبدون أرواح الآباء وفاءً لعهودهم وشكرًا لهم على ما أسدوا من نعم لأبنائهم، ويقدِّمون لهم القرابين، وهي عبارة عن موائد يدخلون بها السرور على تلك الأرواح بأنواع الموسيقى، ويوجد في كلِّ بيتٍ معبد لأرواح الأموات ولآلهة المنزل.

معتقدات وأفكار أخرى

- لم يكن كونفوشيوس نبيًّا، ولم يدَّعِ هو ذلك، بل يعتقدون أنه من الذين وُهِبُوا تفويض السماء

لهم ليقوموا بإرشاد الناس وهدايتهم إلى السلوك المستقيم، فقد كان مداومًا على إقامة الشعائر والطّقوس الدينيَّة، وكان يعبد الإله الأعظم والآلهة الأخرى على غير معرفة بهم ودون تثبُّتٍ من حقيقة الآراء الدينيَّة تلك.

فكان في الناحية الدينيَّة ساذجًا يتشاءم من الرَّعْد، ويرتجف وترتعد فرائصه عندما يسمعه، ويقرأ التعاويذ لطرد الأرواح الشريرة من بيته. وفي الجملة كانت عقيدته ساذجَةً وعقله في هذه الناحية كان عشًّا للخرافات والأوهام، وفيه موضع لأساطير الأولين التي اكتتبها وحفظها، ولكن عبقريَّته وقوة إرادته باديتان في آرائه في السلوك الإنسانيِّ والخلق القويم ورياضة النفس عليه.

- كان كونفوشيوس مغرمًا بالسعي لتحقيق المدينة الفاضلة التي يدعو إليها وهي مدينة مثاليَّة لكنها تختلف عن مدينة أرسطو الفاضلة؛ إذ إنَّ مدينة كونفوشيوس مثاليَّة في حدود واقعٍ ممكن التحقيق والتطبيق، بينما مدينة أرسطو تجنح إلى مثاليَّةٍ خياليَّةٍ بعيدةٍ عن مستوى التطبيق البشري القاصر. وكلا الفيلسوفين متعاصران.

- الجنة والنار: لا يعتقدون بهما، ولا يعتقدون بالبعث أصلًا؛ إذ إنَّ همَّهم منصبٌّ على إصلاح الحياة الدنيا، ولا يسألون عن مصير الأرواح بعد خروجها من الأجساد. وقد سأل تلميذٌ أستاذَه كونفوشيوس عن الموت، فقال: «إننا لم ندرس الحياة بعد، فكيف نستطيع أن ندرس الموت».

- الجزاء والثواب: إنما يكونان في الدنيا، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ.

- القضاء والقدر: يعتقدون بذلك، فيقولون: إن كلَّ الحوادثِ مقدرة في السماء معروفة، وإن تكاثرت الآثام والذُّنوب كان عقاب السماء لهم بالزلازل والبراكين.

- الحاكم ابنٌ للسماء: فإذا ما قسا وظلم وجانب العدل؛ فإن السماء تسلّط عليه من رعيته من يخلعه ليحلَّ محلَّه شخصٌ آخرُ عادلٌ.

- في القرن الرابع قبل الميلاد حدثت إضافة جديدة وهي عبادة النَّجمة القطبيَّة لاعتقادهم بأنها المحور الذي تدور السماء حوله، ويعتقد الباحثون بأن هذه النزعة قد وفدت إليهم من ديانة بعض سكان حوض البحر المتوسط.

الأخلاق في الكونفوشيوسيَّة

الأخلاق هي الأمر الأساسيُّ الذي تدعو إليه الكونفوشيوسيَّة، وهي محور الفلسفة وأساس الدين، وهي تسعى إليه بتربية الوازع الداخليِّ لدى الفرد ليشعر بالانسجام الذي يسيطر على حياته النفسيَّة مما يخضعها للقوانين الاجتماعيَّة بشكل تلقائيٍّ.

وآراء كونفوشيوس في الأخلاق تتجه إلى ثلاث نواحٍ:

الأولى: في بيان الأصل الخُلُقِي الذي تقوم عليه الفضائل.

والثانية: إصلاح المجتمع وحمله على السلوك القويم.

والثالثة: إصلاح نظام الحكم وتقييده بالفضيلة.

- **وتظهر الأخلاق في:**

١- إطاعة الوالد والخضوع له.

٢- إطاعة الأخ الأصغر لأخيه الأكبر.

٣- إطاعة الحاكم والانقياد إليه.

٤- إخلاص الصديق لأصدقائه.

٥- عدم جرح الآخرين بالكلام أثناء محادثتهم.

٦- أن تكون الأقوال على قدر الأفعال، وكراهية ظهور الشخص بمظهر لا يتفق مع مركزه وحاله.

٧- البعد عن المحسوبيَّة في الوساطة أو المحاباة.

- **وتظهر أخلاق الحاكم في:**

١- احترام الأفراد الجديرين باحترامه.

٢- التودُّد إلى من تربطهم به صلة قربى وقيامه بالتزاماته حيالهم.

٣- معاملة وزرائه وموظفيه بالحسنى.

٤- اهتمامه بالصالح العامِّ، وأن يجعل من نفسه أبا للشعب.

٥- العطف على رعايا الدُول الأخرى المقيمين في دولته.

٦- تحقيق الرفاهية لأمراء الإمبراطورية ولعامة أفرادها.

٧- العمل على تشجيع الحرف والصناعات والفنون والنهوض بها.

- تحترم الكونفوشيوسيَّة العادات والتقاليد الموروثة، فهم محافظون إلى أبعد الحدود، فيقدِّسون العلم والأمانة، ويحترمون المعاملة اللَّيِّنة من غير خضوع ولا استجداء لجبروت.

- يقوم المجتمع الكونفوشيوسيُّ على أساس احترام المِلْكية الفرديَّة مع ضرورة رسم برنامجٍ إصلاحيٍّ يؤدِّي إلى تنمية روح المحبَّة بين الأغنياء والفقراء.

- يعترفون بالفوارق بين الطَّبقات، ويظهر هذا جليًّا حين تأدية الطقوس الدينيَّة وفي الأعياد الرسميَّة وعند تقديم القرابين.

- النِّظام الطبقِي لديهم نظام مفتوح، إذ بإمكان أيِّ شخصٍ أن ينتقل من طبقته إلى أيةِ طبقةٍ اجتماعيَّة أخرى إذا كانت لديه إمكاناته تؤهله لذلك.

- ليس الإنسان إلا نتيجة لتزاوج القوى السماويَّة مع القوى الأرضيَّة أي لتقمص الأرواح السماويَّة في جواهر العناصر الأرضيَّة الخمسة. ومن هنا وجب على الإنسان أن يتمتع بكلِّ شيءٍ في

حدودِ الأخلاق الإنسانيَّةِ القويمة.

- يبنون تفكيرهم على فكرة «العناصر الخمسة» وهي:

١- فتركيب الأشياء: معدن - خشب - ماء - نار - تراب.

٢- الأضاحي والقرابين خمسة.

٣- الموسيقى لها خمسة مفاتيح، والألوان الأساسيَّة خمسة.

٤- الجهات خمس: شرق، وغرب، وشمال، وجنوب، ووسط.

٥- درجات القرابة خمس: أبوّة - أمومة - زوجية - بنوّة - أخوّة.

- تلعب الموسيقى دورًا هامًّا في حياة الناس الاجتماعيَّة، وتسهم في تنظيم سلوك الأفراد وتعمل على تعويدهم الطاعة والنظام، وتؤدي إلى الانسجام والألفة والإيثار.

وعبادات الصينيين غناء ورقص وموسيقى، وكأنهم بهذه الأعمال يشركون آلهتهم معهم في سرورهم وأفراحهم وأغانيهم وموسيقاهم.

- الرجل الفاضل هو الَّذي يقف موقفًا وسطًا بين ذاته المركزيَّة وبين انفعالاته ليصلَ إلى درجة الاستقرار الكامل.

الانتشار ومواقع النفوذ

- انتشرت الكونفوشيوسيَّة في الصين.

- منذ عام ١٩٤٩م أبعدت الكونفوشيوسيَّة عن المسرحين السياسيِّ والدينيِّ لكنها ما تزال كامنة في روح الشعب الصينيِّ، وهذا ما يؤمل أن يؤدي إلى تغيير ملامح الشيوعيَّة الماركسيَّة في الصين.

- استطاعت الكونفوشيوسيَّة أن تصهر البوذيَّة في القالب الكونفوشيوسيِّ الصينيِّ، وتُنْتِجَ بوذيَّةً صينيَّةً خاصَّةً متميِّزةً عن البوذيَّةِ الهنديَّةِ الأصليَّة.

- ما تزال الكونفوشيوسيَّة ماثلةً في النُّظُم الاجتماعيَّة في فرموزا أو (الصين الوطنية).

- انتشرت كذلك في كوريا وفي اليابان إذ درست في الجامعات اليابانيَّة، وهي من الأسس الرئيسيَّة التي تشكل الأخلاق في معظم دول شرق آسيا وجنوبها الشرقيِّ في العصرين الوسيط والحديث.

- حظيت الكونفوشيوسيَّة بتقديرِ بعضِ الفلاسفة الغربيِّين كالفيلسوف ليبنتز (١٦٤٦ - ١٧١٦م) وبيتر نويل الَّذي نشر كتاب كلاسيكيات كونفوشيوس سنة ١٧١١م كما ترجمت كتب الكونفوشيوسيَّة إلى معظم اللُّغات الأوربيَّة[١].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/٧٤٨- ٧٥٦)، الديانات القديمة ص(٨٠- ١١١)، معتقدات آسيوية ص(٢٤٥- ٢٨٧).

الباب الرابع

اديان اليابان

الفصل الأول

الشنتويّة

التعريف:

الشنتويَّة ديانة وضعيَّة اجتماعيَّة ظهرت في اليابان منذ قرون طويلةٍ، وما زالت الدين الأصيل فيها، وقد بدأت بعبادة الأرواح، ثم قُوى الطبيعة... ثم تطوَّر احترام الأجداد والزعماء والأبطال إلى عبادة الإمبراطور الميكادو الذي يُعَدُّ من نسل الآلهة، كما يزعمون.

تاريخ الشنتويَّة

لا تنتسب الشنتويَّة إلى شخص معين بل هي دين اجتماعيٌّ مرَّ بأدوارٍ.

فقد كان من أثر وصول الصِّينيِّين إلى اليابان واستقرارهم هناك وإسهامهم في تركيبتها السُّكَّانيَّة وفنونها -أن يتتلمذَ اليابانيُّون على الفكر الصِّينيِّ.

بالإضافة إلى أن الهواجس التي بعثها الخوف من الزَّلازِل والبراكين والعواصف والأعاصير ومياه المحيط وأسماكه المتوحشة التي كثيرًا ما تبتلع الخارجين في طلب الرِّزْقِ -كانت سببًا في ظهور اعتقادهم في أن الأرواح سارية في كواكب السماء ونجومها، وفي نباتات الحقول وحشراتها، في الأشجار والحيوان والإنسان، واعتقاد أن عددًا لا يحصى من الآلهة يحوم حول الدار وساكنيها مع ضوء الصبح ووهجه.

وكان التقرُّب إلى هذه الآلهة الكثيرة العاتية؛ خوفًا وتَقَرُّبًا إليها، أو طلبًا للمعونة والمعرفة منها -هو الذي طغى عليهم للخواء الدينيِّ الذي تتطلب الفطرة شغله. مع وجود الإجلال لكلِّ شيءٍ ذي قوةٍ أو جمالٍ، أو ذي شكلٍ يفوق المعتاد.

وكان يحدث أحيانًا أن يدفن الأتباع مع سيدهم الذي مات ليدافعوا عنه في أول مراحل حياته الآخرة وكان فيه ظهور لعبادة الأسلاف التي نشأت منها طريق الآلهة (الشنتو).

وكانت عبادة أسلاف القبائل الذائعة في اليابان قبل إخضاع أسرة يماتو لها دور ممهد لهذه العقيدة الجديدة، وفعل رجال يماتو الكثير لتبسيطها وتقريبها إلى أذهان العامة بأن أدخلوا عليها آلهةً صغرى هم زعماء القبائل التي دانت بالطاعة والولاء لحكم الأسرة الغالبة، وكان لهذا الجمع بين الآراء السياسيَّة والدينيَّة أثره الكبير في وجود توقير يكاد يبلغ حد العبادة لشخص الإمبراطور (الميكادو).

وبعد انهزام اليابان في الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ - ١٩٤٥م عملت السياسة الأمريكيَّة على إبطال عبادة الإمبراطور، وحاولت القضاء على الوطنية الفائقة التي تغرسها الشنتويَّة في النفس اليابانيَّة، التي أفرزت أثناء الحرب العالمية الفرق الانتحاريَّة التي أنهكت الأسطول الأمريكيَّ.

أفكار ومعتقدات الشنتويَّة

١- تشيع في الشنتويَّة الحالية عبادة الطبيعة وقواها المنتجة، وهي من خصائص الأديان الوثنيَّة، لذلك فإن الناس يعظمون الشَّمسَ وكذلك الأرزَ -الغذاء الرئيسيُّ لهم- والذي تكثر معابده في الأقاليم الزراعيَّة.

فهم يتجهون إلى عبادة روح الطبيعة القادرة في جميع مظاهرها، سواء في الإنسان أو الحيوان أو الجماد، فالأباطرة العظام لهم معابد تعبد فيها أرواحه، كذلك الأبطال، كما توجد معابد فيها السيوف التي خاض بها أصحابها معارك وحققوا انتصارًا، وهناك معابد للجبال ذات الشكل المتميز مثل جبل فوجي، وثمة أشجار مقدسة وملابس... وتعتبر المرآة مقدَّسة؛ لأنَّها تعكس الشمس جدة العائلة الإمبراطورية.

٢- يطلق الشنتويُّون لفظ كامي على كلِّ إلهٍ أو شيءٍ يسمو فوق الإنسانِ كالسماء أو السلطان.

وهو في العقيدة الشنتويَّة يجسِّد الاستقامة والأمانة الجوهريتين ومن ثم فهو تقدير سماويٌّ يجعلهم يعتقدون أنَّهم يعيشون حياةً سعيدةً وأمينةً تنسجم مع إرادة الكامي، الروح في الطبيعة، والإخلاص في الإنسان، والفضيلة الرئيسيَّة في فكر الشنتو.

٣- وفي الشنتويَّة يوقر الناس الأجداد والأسلاف من الزعماء والأبطال والملوك... وهناك فرق بين عبادة الأسلاف في الصِّين وبين توقير اليابانيِّين واحترامهم لأجدادهم.

٤- تطورت الشنتويَّة من احترام وتوقير الأسلاف من زعماء القبائل أو الأبطال إلى عبادتهم.

وكان رجال قبيلة يماتو أشدَّ النَّاسِ إحياءً لتوقير السلف من القبائل، وهم الذين صاروا سادةَ اليابان فيما بعدُ، وكان زعيمهم المعروف بالميكادو مركزَ دينهم وعبادتهم.

ثم زعموا أن الشمس تمتُّ إليهم بصلةِ القربى، ومنها تحدد الميكادو فحسبوه ممثل الشمس وآلهة السماء على الأرض.

فالإمبراطور الميكادو هو الخالد في نظرهم، المنزَّه عن العيوبِ والنقائص، والسمو به إلى درجة لا يشاركه فيها سواه.

وقد جاء في منشور صدر عن وزارة المعارف اليابانيَّة عام ١٩٣٧م «إنَّ أرضَنا بلدٌ إلهيةٌ يحكمها الإمبراطور وهو إله». ولا ندري كيف يجتمع هذا السخف مع التَّقدُّمِ العلميِّ في اليابانِ الحديثةِ.

٥- الإمبراطور والدَّولة هما كلُّ شيءٍ، ولا قيمة للفرد في الديانة الشنتويَّة لذلك تُعَدُّ التضحية به شرف عظيم له.

٦- يُعَدُّ الاهتمام بالنظافة أمرًا مقدَّسًا، ويكره أتباع الشنتويَّة كلَّ شيءٍ يُدَنِّسُ الجسدَ أو الثوبَ.

٧- أكثر الرموز شيوعًا في الشنتو ثلاثة:

المرآة: التي تربط الأساطير بينها وبين الإلهة أماترسو إله الشمس.

السيف والجوهرة: اللَّذان وهبتهما أماترسو لحفيدها عندما هبط إلى الأرض.

الطّقوس التَّعبُّديَّة عند الشنتويَّة

كان على الكهنة في كلِّ هيكلٍ إعداد صلوات يرونها ملائمة لكلِّ مناسبةٍ، وظلَّت هذه العادة قائمة حتى عصر ميجي (١٨٦٨- ١٩١٢م) الذي قام بتحديث البلاد وإضفاء الطَّابَع الغربيِّ عليها، ومنذ سنة ١٨٧٥م قدَّمت الدولة صلواتٍ رسميةً تؤدَّى في الأعياد والطّقوس المقرَّرة، ومنذ سنة ١٩٤٦م بدأت جمعيَّة هياكل الشنتو التي يرتبط بها أكثر من ثمانين ألفَ هيكلٍ في إعداد الصلوات وإن تركت للكهنة حرِّيَّة تأليف صلواتهم الخاصة بهم إذا رغبوا في ذلك.

ودخلت عبادة الشنتو المنزل من خلال هيكلِ المنزل، وكان من المألوف أن توجد فيه تمائم مجلوبة من هيكل آيس وهو الهيكل الذي اصطبغ بصيغة قوميَّة مع توحد الأمَّة بوصفها أسرة واحدة مع الإمبراطور الذي يقوم بدور الأب، ومن هنا سمي هيكل العِشرة، أو الهيكل المحليّ، ولا بد من تقديم القرابين كلَّ صباحٍ وكلَّ مساءٍ لألواح الهياكل وألواح الأسلافِ في آنٍ واحدٍ، ولا بدَّ للمتعبِّد الورع أن ينحني بعد مراسم الطهارة أمام الهيكل ويصفق بيديه مرتين، ثم ينحني مرة أخرى في صمت لمدة دقيقة.

كتب الشنتويَّة

إنَّ جملةَ الأساطير اليابانيَّة الأولى جمعت في بداية القرن الثامنِ الميلاديِّ في مجموعتين:

١- الكوجيكي (سجلات الأمور القديمة) سنة ٧١٢م.

٢- النيهونجي (حوليات اليابان) سنة ٧٢٠م.

وقد كُتِبَ كلٌّ من المجلدين بالصِّينيَّة، مما يفيد قوة الوجود الصينيِّ في العروق اليابانيَّة وفي ثقافتها حتى هذا الزَّمَنِ المتأخرِ(١).

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٧٣٢، ٧٣٣)، معتقدات آسيوية ص(٣٢١- ٣٢٧).

الفصل الثاني
البوذيَّة اليابانيَّة

التعريف:

البوذيَّة اليابانيَّة هي البوذيَّة الهنديَّة والصينيَّة بعد أن تم مزجها بالمعتقدات والعادات اليابانيَّة، والبوذيَّة دخلت اليابانَ ولم تخرجْ منه، إلَّا أنَّ البوذيَّة اليابانيَّة تختلف عن البوذيَّة الهنديَّة والصِّينيَّة في كثير من التَّعَاليم.

والتَّسامحَ سائدٌ بين البوذيَّة اليابانيَّة والشنتويَّة، فنرى الناس في اليابانِ يتقلون من هيكلٍ بوذيٍّ إلى معبدٍ شنتويٍّ دونَ حرجٍ، والعقائد التي يعتنقها الفرد اليابانيُّ العاديُّ مزيجٌ من الشنتويَّة والكونفشيوسيَّة والبوذيَّة.

وفي العصر الحديث حينما استيقظ الشُّعور القوميُّ في اليابان، وبلغ ذروتَه في ثورة ١٨٦٨م، نفر الشَّعب من كلِّ ما هو أجنبيٌّ، ومنه البوذيَّة فأزيلت تماثيل بوذا من المعابد، وأوقف الكهنة البوذيُّون عن ممارسة وظائفهم وعادت الشنتويَّة دينًا قوميًّا. وكانت الحكومة اليابانيَّة تعمل على توطيد الشنتويَّة في البلاد للاحتفاظ بعبادة الإمبراطور الميكادو.

تاريخ البوذيَّة في اليابان

دخلت البوذيَّة اليابان حوالي سنة ٥٣٩م، عندما عقد حاكم مملكة كوريَّة صغيرة تحالفًا مع حاكم ياماتو، ولكي يرضيه أرسل إليه تمثالًا صغيرًا لبوذا وبعض النصوص البوذيَّة (سوترا Sutra) التي وصفها بأنَّها أعظم كنوز يمكن أن يرسلها إليه.

وكانت اليابان متأثرة إلى حد كبير بالفكر والثقافة الصينيَّة وبخاصَّة من خلال إدخال النظام الصيني في الكتابة سنة ٤٠٥م، كما أن عبادة الأسلاف الصينيَّة قد أثرت أيضًا على موقف اليابانيين من الماضي واتحدت مع عناصر السحر التاوي، التنبؤ بالغيب في معتقدات شنتو الوطنيَّة.

ومع أنَّ دخول البوذيَّة جاء عن طريق كوريا فإنَّ استمرار الاتصال كان مع الصين حيث تكيف البوذيَّة بالفعل مع صور من الفكر الكونفوشي والتاوي، ومن ثم كان من الطبيعي أن تدخل الصورة الصينيَّة للبوذيَّة إلى اليابان، وهي بوذيَّة (المهايانا) مع قدر من التأثر بتعاليم (المهايانا).

وقد عارضت في البداية الكهانة الشنتويَّة بشدة الديانة الجديدة، وعندما انتشر الطاعون نسب الكهنة انتشاره إلى أن العبادة اتجهت إلى (كامي) أجنبي، وأدَّى هذا الاتهام إلى حرق المعابد البوذيَّة وتحطيم تماثيل بوذا.

غير أنَّ الديانة الجديدة لقيت دعمًا من دوائر البلاط فقد أدخل أحد القادة المرموقين في الثورة الثقافيَّة والدينيَّة وهو -الأمير شوتوكو (٥٩٣- ٦٢٢ تقريبًا) الذي كان وصيًّا على العرش الذي

كانت تجلس عليه عمته- دستورًا جديدًا يقوم على مبادئ البوذيَّة، فأصبحت البوذيَّة بهذا الدستور ديانة تعترف بها الدولة، وظهر في ذلك الحين أو بعده ميل إلى التوحيد بين البوذيَّة والقوانين الوطنيَّة مما جعل الدولة تتكفل بحماية الدين وتنال حقّ التصديق الديني في وقت واحد.

وقد بنى الأمير شوتوكو المعابد والأديرة، بوصفه بوذيًا ورعًا ومن بينها معبد هوريوجي القريب من مدينة (نارا)، ويعد من أقدم المباني الخشبيَّة في العالم. وقد خلف شوتوكو وراءه ثروة من اللوحات البوذيَّة التي كانت بمثابة الوثائق التاريخيَّة لذلك العصر، وقد أرسل الأمير بعثات إلى الصين لتلقي التعليم مباشرة من منبع هذه الثقافة الرفيعة، وأخذ ينقل عن الصين نظام مؤسساتها السياسيَّة.

وقد أظهر شوتوكو سعة اطلاع وقدرة على البحث عندما نشر شروحًا على بعض النصوص المقدَّسة (Sutra) وساعد على إلحاق مستوصفات للإنسان والحيوان بالأديرة ونزل للمرضى واليتامى والمسنين.

واحتاج الأمر إلى وقت طويل حتَّى يستوعب الناس تعاليم البوذيَّة، فلا تظهر بمظهر الديانة الأجنبيَّة، وكان أيسر على الغالبيَّة العظمى فهم الجوانب الثقافيَّة للبوذية أكثر من فهمهم الجوانب المذهبيَّة والميتافيزيقيَّة الأكثر صعوبة.

وصار المعبد الرسمي إنجرياكوجي مركزًا للنشاط البوذي في اليابان لمدة ثمانمائة سنة تقريبًا وفي هذه الأثناء امتلأ منحدر الجبل بالمعابد والرهبان الذين كان بوسعهم غزو العاصمة عن طريق تشكيلات مسلحة.

ولم يتعذر على البوذيَّة أن تخلي من نفسها مكانًا في لاهوتها وفي عداد آلهتها لمذاهب شنتو وآلهتها فاندمج بوذا عندهم بـ(أمانيراسو) وخصص مكان متواضع في المعابد البوذيَّة لضريح شنتو.

وشهد القرنان الحادي عشر والثاني عشر تطورًا جديدًا هامًّا تمثل في اهتمام عامة الشعب الياباني بالمعتقدات البوذيَّة ومن أهمها خلاص الروح ودخولها الجنَّة بالإيمان البسيط بضرورة الاعتماد على إله من الآلهة البوذيَّة العديدة ولم تكن تلك المعتقدات سوى انعكاس كامل لجوهر العقيدة البوذيَّة القائلة باتحاد الذات الإنسانيَّة في الكون عن طريق التدريب القاسي للنفس وصولًا إلى مرحلة الاستنارة.

مذهب زن

نتج من تلك الأفكار ظهور حركات مذهبيَّة جديدة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . . . أمَّا الفرسان فقد فضلوا من بين مذاهب الديانة البوذيَّة مذهبًا آخر عرف باسم زن Zen نقل عن الصين في أوائل عهد نظام (كاما كورا).

ويركز مذهب زن على فلسفة التأمل والبساطة والالتصاق بالطبيعة وينادي بتقشف الفرسان والانضباط النفسي الصارم من أجل ممارسة فلسفة زن في التأمل كوسيلة لتنمية إرادة التحكم في

النفس والوصول إلى الشخصيَّة الحازمة وهو الهدف من الحياة.

وقد اتخذ أباطرة أسرة آشيكاجا من رهبان زن مستشارين لهم، خصوصًا فيما يتعلق بعلاقاتهم واتصالاتهم بالصين ومن خلال هؤلاء الرهبان شهدت اليابان نهضة كبيرة في مجال العلوم والآداب الصينيَّة.

وفي أواخر العصور الوسطى وضع رهبان (زن) نظامًا جماليًّا متكاملًا أصبح فيما بعد من العناصر الدائمة في الثقافة اليابانيَّة، ارتكز هذا النظام على الاهتمام بقيمة أي عنصر بسيط طبيعي، وغير منسق أيضًا أكثر من اهتمامه بالعناصر المصنوعة الفخمة المتناسقة، وكانت التشكيلات الطبيعيَّة الخشبيَّة وجذوع الأشجار الدائريَّة ذات قيمة كبيرة بالنسبة لهم أكثر من قطع الخشب محددة التشكيل والمطلية بالألوان. . . وكانوا يفضلون التشكيلات المعماريَّة البسيطة غير المتظمة، والتي لاءمت مستويات الأرض المختلفة أكثر من الطراز المعماري الصيني الثابت المتوازن المتسم بالأبهة والفخامة، وفي مجال الحدائق صمموا نماذج للحدائق الصغيرة التي تعبر عن روعة الطبيعة الوحشيَّة في صورة مصغرة، وهو اتجاه يتناقض تناقضًا شديدًا مع ولع الغربيين بأنماط الحدائق الكبيرة ذات التنسيق الهندسي، ولعل أبرز مثال لهذا الاتجاه هو حديقة الصخرة الشهيرة المعروفة باسم (رويوانجي) في مدينة كيوتو، والتي تمثل بحقٍّ المذهب الياباني.

وشهدت القرن الثالث عشر نهضة زاهرة في فن النحت، وظل تمثال بوذا العظيم القائم في مدينة كاماكورا رمزًا لذلك العصر، وهو من أكبر التماثيل البرونزيَّة في العالم.

الطقوس التعبديَّة

عرف المعبد البوذي بأنَّه بناء يحيط به سياج، وقد يشكل البناء أكثر من معبد، ويزعمون أنَّه يحرس مدخل المعبد تماثيل منفردة ذات وجوه عابسة، حتى تمنع الشرور، وتغطي المعابد عادة بالورق؛ لأنَّ المتعبدين يكتبون التماساتهم على قصاصات من ورق يقذفون بها إلى التماثيل، وبعد أن يلوكوها بأفواههم، وإذا التصقت بالتماثيل وثق المرء من إجابة التماسه، وكثيرًا ما يحتوي المعبد على (باغوادا pagoda) ترتفع من ثلاثة إلى أربعة طوابق مزخرفة ومنمقة في العادة، ويحتوي المحراب الرئيسي على مذبح به شموع مضاءة مع تماثيل لبواذا، والبوذات المنتظرين (بوذا ساتفا)، وآلهة الهند (ديفا)، وحول المذبح صناديق تشتمل على السوترا (النصوص). . . ولا تحصل فرقة واحدة على الشريعة (الصينية) كلها، بل يكون لكلِّ فرقةٍ أن تنتقي من النصوص ما تعتقد أنَّه النصوص المعتمدة، وتختلف الصورة المركزيَّة فوق المذبح تبعًا لكل فرقة.

ويقوم الكهنة بإنشاد النصوص، وتلاوة الصلوات، بمصاحبة الطبول والأجراس، وحرق البخور، ونادرًا ما يحضر المؤمنون العاديُّون هذه الصلوات، فعبادة هؤلاء شخصيَّة إلى حدٍّ كبيرٍ، وهي تنحصر -في كثير من الأحيان- في مذبح الأسرة بالمنزل، وهو صورة مصغرة مما يوجد في المعبد.

وتقدم كثير من المعابد -بصورة أساسيَّة- وجبات، وفقًا لحاجة الناس، كما تزودهم بتذكارات، وتنقش أسماء المساهمين في موارد المعبد الماليَّة على بعض الأشياء المقدَّسة، أو الزخارف التي يمكن وضعها في مذبح الأسرة في المنزل.

ويتأكد الجو الصوفي الغامض للمعبد بتوزيع التمائم والرق، ومع شيءٍ خاص بالمعبد البوذي، هو ميدالية تشبه القديس كريستوفر الذي يزعم أنَّه (كان يرعى المسافرين في القرن الثالث الميلادي، وفي القرن العشرين يرعى ركاب السيارات وسائقيها).

وتباع هذه الميدالية لسائقي سيارات الأجرة في طوكيو، أما الكهنة في معظم المعابد فهم على استعداد لتأدية الطقوس العامَّة، والشعائر الخاصَّة، التي تنحو نحو التوسل أكثر من التوقير الخرافي لصحة النصوص الدينيَّة.

وقوة عبادة الأسلاف -كما تمثل في القيام بالطقوس الجنائزيَّة والتذكاريَّة للمتوفى- فإنَّها تشغل الكاهن أكثر مما يشغله التعليم المنتظم للبوذيَّة.

ولقد ظهرت لوحات الأسلاف في مذبح الأسرة، ووجدت لها مكانًا فيه، ابتداء من القرن الثالث عشر الميلادي، فأصبحت تعبد جنبًا إلى جنب مع التماثيل الصغيرة لبوذا، ونسخ من النصوص المقدَّسة، والمتعبد الشنتوي يتطلع إلى أن يُصبح روحًا (karma) عندما يموت، كما أنَّ البوذي ينتظر أن يصبح بوذا (مستنيرًا)، وليس ثمة فرق بين التصورين؛ لأنَّهما تغذيا من ثدي واحد.

أما قرابين النذور، فهناك فارق على المستوى الشعبي بين ممارسي الشنتويَّة، فهناك نذور للشفاء من المرض، ونذور للحمل السهل، أو الولادة الآمنة للطفل، كما يقدم نموذج للثدي قربانًا أثناء الصلاة، ليكون لبن الأمن غزيرًا، وتقدم مغرفة للطفل أثناء الصلاة، لكن إذا كان قاع المغرفة غير صالح فإنَّ الإجهاض يكون موضوع التوسل، وتقدم شخصيات الدهارما dharma (المؤسس المزعوم لبوذيَّة زن، أو الجوهر الأزلي الذي يحرك العالم) بغير عيون، حتى يستجاب الطلب.

وإذا كانت زيادة الهيكل خاصَّة سار المتعبد على قدميه حافيًا بمجرد أن يتخطَّى البوابة الأولى، ولا بدَّ أن يغسل يديه وفمه من نبع طبيعي في مجمع الهيكل، ثم يصفق المتعبد -ذكرا أو أنثى- وهو يحنى الرأس إجلالًا، أثناء توسلاته، غير أنَّ التَّوسل يمكن أن يكتب في ورقٍ، ويعلق على إحدى أشجار السكاكي sakaki المقدَّسة.

وتتضمن العبادة الرسمية أربعة عناصر، وهي:

١- فعل التطهير بالإضافة إلى الاغتسال، عندما يلوح الكاهن بفرع من شجرة السكاكي على المتعبد.

٢- القربان الذي يكون رمزيًا في صورة غصنٍ من شجرة السكاكي، كما يكون من الحبوب والشراب ومن المال.

٣- طقوس الصلاة.

٤- الوليمة الرمزيَّة، دلالة على تناول الطعام مع (كامي)، وكثيرًا ما يشمل هذا العنصر رشف قطرات من خمر الأرز المقدس الذي يقدمه الكاهن، ويمكن لجماعة المتعبِّدين أن تطلب أيضًا تأدية الرقصة المقدَّسة للمعبد، التي يوجد منها خمس وثلاثون رقصة تعبر عن الأساطير القديمة.

وثمة صلاة ضارعة للكامي من أجل محصول وفير: (ليت الحبة الأخيرة من الأرز التي ستحصد بحبات العرق من سواعدهم وتشد من الوحل العالق بالفخذين -ليت هذه الحبَّة تزدهر بفضلك أنت وتتفتح سنابل الأرز التي تتوق إليها الأيدي الكثيرة فتكون أولى الثمرات في الشراب وأعواد النبات).

النُّسَّاك البوذيُّون

سعى رجال من خارج المؤسسات الدينيَّة الرسميَّة إلى تقديم الحياة الدينيَّة لعامة الناس ويسمَّى هؤلاء الرجال Hijivi وهم يركزون كثيرًا على التقوى الفرديَّة، وقد سار كثير منهم على نهج النُّساك البوذيِّين. وكان الاعتقاد السائد أنَّ الناسك يستطيع أن يبلغ قوة سحريَّة تفوق قوة البشر نتيجة الميزة التي حصل عليها من خلال ممارساته الدينيَّة الصارمة.

وكان بعض النساك ينتقلون من قرية إلى قرية ويعملون (كشامانيين) لهم قدرة خارقة على شفاء المرضى والاتصال بالعالم العلوي وارتبطت طريقة النُّسَّاك بعبادة الجبال الشنتويَّة البدائيَّة ولا يزال متسلقو الجبال هم السحرة الذين يسعون إلى حالة الإلهام أو الوجد الصوفي أثناء تسلقهم . . . وقد جاء في الفكر البوذي أن صعود الجبال يوازي الصعود في الطريق ذات الشعب الثماني التي تؤدي إلى الاستنارة.

وكان جيوجي (٦٧٠- ٧٤٩م) واحدًا م النُّسَّاك المبكرين غير التقليديِّين ثم أصبح بوذيًّا بدرجة تعادل درجة المطران، وقد نظر إليه أثناء حياته على أنَّه بوذا المنتظر وارتبطت صور الشنتو الأقدم عهدًا مع خلفائه بطقوس السحر البوذيَّة وشعائرها وبالخرافات الشعبيَّة التاوية.

وترددت في تراث الرجال المقدسين أفكار الاستحواذ على كامي أو على بوذا كما أنَّ الرجال الأفذاذ الملهمين ينتقلون في بعض الحالات من جيل إلى جيل داخل الأسر، كما هو الحال مع يامابوشي (الإله المقدَّس الذي كان يعمل مرشدًا للحجاج الذين يقومون بزيارة الجبال المقدَّسة التي تسكنها آلهة الشنتو) أو كما هو الحال مع (ميكو) كاهنة هيكل الشنتو وقد يعملون وسطاء بفضل موهبة خاصَّة لديهم.

الكهنة البوذيُّون

كان الكهنة البوذيُّون الذين ظهروا في القرون الأولى يتمثل فيهم الولاء كما يتمثل العلم والرحمة وكان لهم أثر عميق في تقدم الآداب والفنون في اليابان حتى كان منهم رسَّامون أو نحَّاتون من الطراز الأول كما كان منهم علماء أخذوا على أنفسهم ترجمة الأدب البوذي والصيني.

وقد أكد الكهنة للعباد المؤمنين بأنَّ الرجل في سنة الأربعين يمكنه أن يشتري عقدًا آخر من السنين يضيفه إلى حياته إذا هو دفع رسومًا لأربعين معبدًا تدعو له بذلك، ويمكن للرجل في سن الخمسين أن يشتري عشر سنين أخرى إذا دفع الرسوم لخمسين معبدًا تدعو له، وفي سن الستين يستأجر ستين معبدًا وهكذا حتى يموت بسبب ما قد يكون في تقاه من نقص.

وكان الرهبان في عهد توكوجاوا يشربون الخمر إلى درجة الإسراف، ويحيط بهم الغانيات صراحة ويمارسون اللواط ويبيعون أحسن مناصب الدين إلى من يدفع ثمنًا أعلى.

يقول مردوخ: كان الرهبان في دير كيوتو ونارا العظيمين يبلغون ذروة مجدهم المادي في الأوقات التي كان الشعب يتضور فيها جوعًا بل يموت عشرات الآلاف من الوباء لأنَّ المؤمنين بالدين يسخون في هداياهم وعطاياهم أعظم سخاء في أمثال هذه الأوقات.

ويقول مردوخ: في سنة ١٤٥٤م كان الصِّبية يباعون للكهنة وكان الكهنة يحلقون لهم حواجبهم ويزينون وجوههم بالمساحيق ويلبسونهم أردية النساء ويستعملون أسفل ضروب الاستعمال؛ لأنه من عهد يوشيمتسو الذي ضرب مثلًا سيئًا في هذا الصدد، وفي كثير غيره من الأمور، واللواط يزداد شيوعًا وخاصة في الأديرة ولو أنَّه لم يكن مقصورًا على الأديرة وحدها.

ومع هذا الفساد المتفشي في القمم الدينيَّة فقد كان ثمة محاولات لاقتحام هذا السد الصفيق العتيق.

يقول كيوسو: لا تظنوا أنَّ الله بعيد عنكم ابحثوا عنه في قلوبكم لأنَّ القلب هو مقرُّ الله.

ويقول إكن: إنَّ حمقى الناس يؤدون صلواتهم لآلهة مشكوك في وجودها وطلبًا لسعادة أنفسهم في الوقت الذي تراهم فيه يقترفون الموبقات.

ويقول ناكايي توجو: إنَّ عقل الإنسان هو عقل العالم الذي يخضع في سيره لمنطق العقل لكن هناك عقلًا آخر يسمى الضمير وهذا هو الجانب الذي لا ينتمي إلى عالم الأشياء بل هو لا نهائي وأبدي لأنَّه لما كان الضمير فينا هو نفسه العقل الإلهي أو الكوني كان بغير بداية أو نهاية فإذا ما سلكنا في أفعالنا مهتدين بهذا الجانب من العقل أي بالضمير كنَّا بمثابة التجسيد اللانهائي والأبدي وكانت لنا حياة خالدة إلى الأبد.

ولأن هذا الفكر لم يتطور حتى مع الصحوة اليابانيَّة في نهاية القرن التاسع عشر إذ كانت الصحوة مسوقة سوقًا ماديًا قال ول ديورانت: إنَّها الحكمة التي أسماها موليير: الفضائل التي تجلب النعاس.

ديانة سيكاكيسكو (إنقاذ العالم)

تأسست في اليابان ديانة سيكاكيسكو (ديانة إنقاذ العالم، أو العالم المنتظر) على يد أوكاداموكيشي (١٨٨٢/ ١٩٥٥) عندما انشق عن فرقة أموتو، وقد اعتقد أنَّه وهب القدرة، على الأعمال الخارقة، وهي قدرة كانون kannon (بوذا المنتظر، صاحب الرحمة)، وتذهب إحدى القصص

التي تروى عنه إلى أنَّ هذه القدرة تتضمنها لؤلؤة صغيرة داخل جسمه، ويشع نور من هذه اللؤلؤة يقتل البكتريا، كما يعتقد أنَّ لديه القدرة على شفاء الأمراض، وإثراء المحاصيل، وبسبب ذلك سمي هيكارى -سان، أي رجل النور، ويزعمون أن لديه القدرة على تحويل القوة الشافية إلى قصاصات من ورق، تكتب عليها العلامة اللغوية الدالة على النور، وهنالك محاولة داخل مراكز هذا الدين لإقامة (المملكة)، فالشغل الشاغل لهذه الفرقة هو (إزالة المرض، والفقر، والحرب، من هذا العالم، تحويله إلى جنة أرضية).

ويسمى الإله باسم ميروكو miroku (بوذا المنتظر)، كما يقال: إنَّ الصحة والثراء والسلام هي عناصر مملكته، وتقول إحدى الترانيم: (تعال يا ميروكو، يأيها الإله العظيم، مزودًا بقوة عظمى قوة الثلاثة في واحد: النار والماء والتراب، ميروكو، يأيها الإله العظيم، حتى عندما يتسلل لص، فإنَّك تكون قد ولدت تحته بطريقة خفية، تاركًا خلفك العرش الممجد الرفيع، فأنت دائمًا تولد تحته لكي تجلب الخلاص) [1].

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٧٣٣، ٧٣٤)، معتقدات آسيوية ص(٣٢٨- ٣٣٦).

الباب الخامس

الصَّابئة المندائيُّون

التعريف:

الصابئة المندائيَّة هي طائفة الصَّابئة الوحيدة الباقية إلى اليوم والتي تعد يحيى عليه السلام نبيًّا لها، يقدِّس أصحابها الكواكبَ والنُّجومَ ويعظِّمونها، ويعد الاتِّجاه نحو نَجْم القطب الشماليِّ وكذلك التَّعمِيد في المياه الجارية من أهمِّ معالم هذه الدِّيانة التي يجيز أغلب فقهاء المسلمين أخذ الجِزْية من معتنقيها أسوةً بالكتابيِّين من اليهود والنصارى.

ويعتقد أن كلمة المندائيِّين اشتقت من الجذر (مندا) والذي يعني باللُّغة المندائيَّة -التي هي فرع من اللُّغة السريانيَّة القديمة- المعرفة أو العلم. أما كلمة الصَّابئة فهي مشتقَّةٌ من الجذر (صبا) ويعني بالمندائيَّة اصطبغ، تعمَّد، أو غطس في الماء، وهي من أهمِّ شعائرهم الدينيَّة. وبذلك يكون معنى الصَّابئة المندائيّين المصطبغين أو المتعمدين العارفين لدين الحقِّ.

واختلف بعض علماء اللُّغة في أصل كلمة الصَّابئة وأرجعها البعضُ إلى الجذر العربيِّ (صبأ) والَّذي يعني خرج وغيَّر حالته. ويعتقد بعض المسلمين أن سبب تسميتهم بالصَّابئة أنهم «صبئوا» عن الدِّين الإسلامي. في حين يعتقد بعض النَّصارى أن الصَّابئة «مارقون على المسيحيَّة»؛ لذلك أصبحوا منذ منتصف القرن السَّادس عشر الميلاديِّ هدفًا لضغط المُنَصِّرين لإعادتهم إلى صفوف المسيحيَّة، حسب اعتقاد المُنَصِّرين.

والصائبة المندائيُّون غير صابئة حرَّان الَّذين كانوا يعبدون النُّجوم وانقرضوا حاليًا، كما أنَّ الصَّابئة لا يعرفون أنفسهم بهذا الاسم بل بأنهم مندائيُّون.

تاريخ الصَّابئة المندائيِّين

- يدّعي الصابئة المندائيُّون بأن دينَهم يرجع إلى عهد آدم عليه السلام.
- ينتسبون إلى سامٍ بن نوح عليه السلام، فهم ساميُّون.
- يزعمون أن يحيى عليه السلام هو نبيُّهم الَّذي أرسل إليهم.
- كانوا يقيمون في القدس، وبعد الميلاد طردوا من فلسطين فهاجروا إلى مدينة حرَّان فتأثروا هناك بمن حولهم وتأثروا بعبادة الكواكب والنُّجوم من الصَّابئة الحرَّانيِّين، أو على الأقل تقديس هذه الكواكب وتعظيمها، وتأثروا بهم في إتقان علم الفلك وحسابات النُّجوم.
- ومن حرَّان هاجروا إلى موطنهم الحالي في جنوبي العراق وإيران وما يزالون فيه، إذ يعرفون بصابئة البطائح.
- وقد تأثر الصَّابئة بكثير من الدِّيَانات والمعتقدات التي احتكوا بها، فقد تأثروا باليهوديَّة،

وبالمسيحيَّة، وبالمجوسيَّة لمجاورتهم لهم.

وتأثروا بالفلسفة الدينيَّة التي ظهرت أيام إبراهيم الخليل عليه السلام، فقد كان الناس حينها يعتقدون بقدرة الكواكب والنُّجوم على التأثير في حياة الناس.

وتأثروا بالفلسفة اليونانيَّة التي استقلَّت عن الدِّين، ويلاحظ أثر هذه الفلسفة اليونانيَّة في كتبِهم.

وتأثروا بالأفلاطونيَّة الحديثة التي استقرت فلسفتها في سوريا مثل الاعتقاد بالفيض الرُّوحي على العالم المادِّيّ.

- وأشهر فرق الصَّابئة قديمًا أربعة هي: أصحاب الروحانيَّات، وأصحاب الهياكل، وأصحاب الأشخاص، والحلوليَّة.

- ولقد ورد ذكرهم في القرآن مقترنًا باليهود والنَّصارى والمجوس والمشركين (انظر الآيات٦٢/ البقرة - ٦٩/ المائدة، ١٧/الحج)، ولهم أحكامٌ خاصَّة بهم من حيث جواز أخذ الجزية منهم أو عدمها أسوة بالكتابيِّين من اليهود والنصارى.

كتب الصَّابئة المندائيِّين

لديهم عدد من الكتب المقدَّسة مكتوبة بلغة سامية قريبة من السريانيَّة وهي:

١- **الكنزاربّا**: أي الكنز العظيم، أو الكتاب العظيم، ويقال له: سدرا- آدم: أي صحف آدم، ولا يمكن اعتبار الكتاب متجانسًا، فهو مجموعة فقرات غالبًا ما تتناقض. وهو قسمان:

الأول: ويتضمن سفر التَّكوين، وتعاليم الحيِّ العظيم، والصراع الدائر بين الخير والشرِّ والنُّور والظَّلام، وكذلك هبوط النفس في جسد آدم، ويتضمن كذلك تسبيحًا للخالق وأحكام فقهيَّة ودينيَّة.

والثاني: يتناول قضايا النَّفس وما يلحقها من عقاب وثواب.

وتوجد في خزانة المُتحَف العراقي نسخة كاملة منه، وطبع في كوبنهاجن سنة ١٨١٥م، وطبع في لايبزيغ سنة ١٨٦٧م.

٢- **دراشة إديهيا**: أي تعاليم يحيى، وفيه تعاليم وحياة النبي يحيى عليه السلام، وهو أحدث تأريخًا من الكتاب الأول.

٣- **الفلستا**: أي كتاب عقد الزواج، ويتعلق بالاحتفالات والنكاح الشرعيِّ والخطبة.

٤- **سدرة إدنشاماثا**: يدور حول التَّعميد والدَّفن والحداد، وانتقال الرُّوح من الجسد إلى الأرض ومن ثمَّ إلى عالم الأنوار، وفي خزانة المُتحَف العراقي نسخة حديثة منه مكتوبة باللُّغة المندائيَّة.

٥- **كتاب الديونان**: فيه قصص وسير بعض الروحانيِّين مع صور لهم.

٦- **كتاب إسفر ملواشه**: أي سفر البروج لمعرفة حوادث السنة المقبلة عن طريق علم الفلك والتَّنجيم.

٧- كتاب النِّياني: أي الأناشيد والأذكار الدينيَّة، وتوجد نسخة منه في المُتَحَف العراقي.

٨- كتاب قماها ذهيقل زيوا: ويتألف من ٢٠٠ سطرٍ وهو عبارة عن حجابٍ يعتقدون بأنَّ من يحمله لا يؤثر فيه سلاح أو نارٍ.

٩- تفسير بغره: يختصُّ في علم تشريح جسم الإنسان وتركيبه والأطعِمة المناسبة لكلِّ طقسٍ مما يجوز لأبناء الطائفة تناوله.

١٠- كتاب ترسسر ألَّف شياله: أي كتاب الاثني عشر ألف سؤالٍ.

١١- ديوان طقوس التَّطهير: وهو كتاب يبين طرق التَّعميد بأنواعه على شكل ديوان.

١٢- كتاب كداواكدفيانا: أي كتاب العوذ.

طبقات رجال الدِّين

يشترط عندهم في رجل الدِّين أن يكون سليم الجسم، صحيح الحواسِّ، متزوجًا منجبًا، غير مختون، وله كلمة نافذة في شئون الطائفة كحالات الولادة والتَّسمية والتَّعميد والزَّواج والصَّلاة والذَّبح والجنازة، ورتبهم على النَّحو التالي:

١- الحلالي: ويسمى «الشماس» يسير في الجنازات، ويقيم سنن الذَّبح للعامَّة، ولا يتزوج إلا بكرًا، فإذا تزوج ثيبًا سقطت مرتبته، ومنع من وظيفته إلا إذا تعمد هو وزوجته ٣٦٠ مرة في ماء النهر الجاري.

٢- شكندا: ويقوم بمساعدة رجال الدين في ممارسة الطقوس الدينيَّة كالتَّعميد والزَّواج والذَّبح.

٣- شواليا: رجل الدين المرشح الكهانة.

٤- الترميدة: إذا فقه الحلالي الكتابين المقدَّسين سدره إنشماثا والنياني أي كتابَيْ التعميد والأذكار فإنه يتعمد بالارتماس في الماء الموجود في المندي ويبقى بعدها سبعة أيام مستيقظًا لا تغمض له عين حتى لا يحتلم، ويترقى بعدها هذا الحلالي إلى ترميدة، وتنحصر وظيفته في العقد على البنات الأبكار.

٥- الأبيسق: الترميدة الذي يختص في العقد على الأرامل يتحوَّل إلى أبيسق ولا ينتقل من مرتبته هذه.

٦- الكنزبرا: الترميدة الفاضل الَّذي لم يعقد على الثيبات مطلقًا يمكنه أن ينتقل إلى كنزبرا وذلك إذا حفظ كتاب الكنزاربّا فيصبح حينئذٍ مفسرًا له، ويجوز له ما لا يجوز لغيره، فلو قتل واحدًا من أفراد الطائفة لا يقتص منه؛ لأنه وكيل الرئيس الإلهي عليها.

٧- الريش أمه: أي رئيس الأمَّة، وصاحب الكلمة النافذة فيها ولا يوجد بين صابئة اليوم من بلغ هذه الدرجة؛ لأنها تحتاج إلى علمٍ وفيرٍ وقدرةٍ فائقةٍ.

٨- الربَّانيُّ: وفق هذه الدِّيانة لم يصل إلى هذه الدَّرجة إلا يحيي بن زكريا عليهما السلام كما أنه

لا يجوز أن يوجد شخصان من هذه الدَّرجة في وقتٍ واحدٍ. والربَّانيُّ يرتفع ليسكن في عالم الأنوار وينزل ليبلغ طائفته تعاليم الدين ثم يرتفع كرة أخرى إلى عالمه الرَّبَّانيِّ النورانيِّ.

معتقدات الصابئة المندائيّين

١- الإله

يعتقدون -من حيث المبدأ- بوجود الإله الخالق الواحد الأزليِّ الذي لا تناله الحواسُّ ولا يفضي إليه مخلوق، ولكنَّهم يجعلون بعد هذا الإله ٣٦٠ شخصًا خلقوا ليفعلوا أفعال الإله، وهؤلاء الأشخاص ليسوا بآلهة ولا ملائكة، يعملون كلَّ شيءٍ من رعدٍ وبرقٍ ومطرٍ وشمسٍ وليلٍ ونهارٍ وهؤلاء يعرفون الغيب، ولكلٍّ منهم مملكته في عالم الأنوار.

وهؤلاء الأشخاص الـ ٣٦٠ ليسوا مخلوقين كبقية الكائنات الحيَّة، ولكن الله ناداهم بأسمائهم فخلقوا وتزوجوا بنساء من صنفهم، ويتناسلون بأن يلفظ أحدهم كلمة فتحمل امرأته فورًا وتلد واحدًا منهم.

ويعتقدون بأن الكواكب مسكن للملائكة، ولذلك يعظِّمونها ويقدِّسونها.

٢- المندي

هو معبد الصَّابئة، وفيه كتبهم المقدَّسة، ويجري فيه تعميد رجال الدِّين، يقام على الضِّفَاف اليمنى من الأنهر الجارية، له باب واحد يقابل الجنوب بحيث يستقبل الدَّاخل إليه نَجْم القطب الشماليِّ، ولا بدَّ من وجود قناة فيه متَّصلة بماء النهر، ولا يجوز دخوله من قبل النِّساء، ولا بدَّ من وجود علم يحيى فوقه في ساعات العمل.

٣- الصلاة

يعتقدون إنَّ الصَّلاة كانت في عهد آدم سبع صلوات، وهي: الصُّبح والظُّهر والعصر والمساء والعشاء، وصلاتين فيما بينهما، إلا أن يوحنا المعمدان خفَّف عنهم الصلوات وجعلها في ثلاثة أوقات: قبيل الشروق، وعند الزَّوال، وقبيل الغروب، وتستحبُّ أن تكون جماعة في أيام الآحاد والأعياد، فيها وقوف وركوع وجلوس على الأرض من غير سجود، وهي تستغرق ساعة وربع الساعة تقريبًا.

ويتوجه المصلي خلالها إلى الجدي بلباسه الطاهر، حافي القدمين، يتلو سبع قراءات يمجد فيها الربَّ مستمدًا منه العون طالبًا منه تيسير اتصاله بعالم الأنوار.

٤- الصوم

صابئة اليوم يحرِّمون الصوم؛ لأنه من باب تحريم ما أحلَّ الله.

وقد كان الصوم عند الصابئة على نوعين:

الصوم الكبير (صوم ربا): ويشمل الصَّوم عن كبائر الذُّنوب والأخلاق الرديئة.

والصوم الصغير: الذي يمتنعون فيه عن أكل اللّحوم المباحة لهم لمدة ٣٢ يومًا متفرقة على طول أيام السنَّة.

وينصُّ ابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥هـ في فهرسته، وابن العبري المتوفى سنة ٦٨٥هـ في تاريخ مختصر الدُّول على أن الصيام كان مفروضًا عليهم لمدة ثلاثين يومًا من كل سنة.

٥- الطَّهارة

- الطَّهارة مفروضة على الذَّكر والأنثى سواء بلا تميز.

- تكون الطَّهارة في الماء الحي غير المنقطع عن مجراه الطبيعي.

- الجنابة تحتاج إلى طهارة وذلك بالارتماس في الماء ثلاث دفعات مع استحضار نيَّة الاغتسال من غير قراءة؛ لأنَّها لا تجوز على جنبٍ.

- عقب الارتماس في الماء يجب الوضوء، وهو واجب لكل صلاة، حيث يتوضَّأ الشخص وهو متَّجه إلى نجم القطب، فيؤديه على هيئة تشبه وضوء المسلمين مصحوبًا بأدعيَّةٍ خاصَّةٍ.

- مفسدات الوضوء: البول، الغائط، الريح، لمس الحائض والنفساء.

٦- التعميد وأنواعه

- يعتبر التعميد من أبرز معالم هذه الدِّيانَّة ولا يكون إلا في الماء الحي، ولا تتم الطقوس إلا بالارتماس في الماء سواء أكان الوقت صيفًا أم شتاءً، وقد أجاز لهم رجال دينهم مؤخرًا الاغتسال في الحمَّامات وأجازوا لهم كذلك ماء العيون النابعة لتحقيق الطهارة.

- يجب أن يتم التَّعميد على أيدي رجال الدِّين.

- يكون العماد في حالات: الولادة، والزواج، وعماد الجماعة، وعماد الأعياد وهي على النحو التالي:

١- **عِماد الولادة**: يعمد المولود بعد ٤٥ يومًا ليصبح طاهرًا من دنس الولادة إذ يُدخل هذا الوليد في الماء الجاري إلى ركبتيه مع الاتِّجاه جهة نجم القطب، ويوضع في يده خاتم أخضر من الآس.

٢- **عِماد الزَّواج**: يتمّ في يوم الأحد وبحضور ترميدة وكنزبرا، يتم بثلاث دفعات في الماء مع قراءة من كتاب الفلستا وبلباس خاصٍّ، ثم يشربان من قنينة ملئت بماء أُخذ من النهر يسمى (ممبوهة) ثم يطعمان (البهثة) ويدهن جبينهما بدهن السمسم، ويكون ذلك لكلا العروسين لكلٍّ واحد منهما على حدةٍ، بعد ذلك لا يُلمسان لمدة سبعة أيام إذ يكونان نجسين وبعد الأيام السبعة من الزَّواج يعمدان من جديد، وتعمد معهما جميع القدور والأواني التي أكلا فيها أو شربا منها.

٣- **عِماد الجماعة**: يكون في كل عيد (بنجة) من كل سنة كبيسة لمدة خمسة أيام ويشمل أبناء الطائفة كافَّة رجالًا ونساءً كبارًا وصغارًا، وذلك بالارتماس في الماء الجاري ثلاث دفعات قبل

تناول الطَّعام في كل يوم من الأيام الخمسة. والمقصود منه هو التكفير عن الخطايا والذُّنوب المرتكبة في بحر السَّنة الماضية، كما يجوز التَّعميد في أيام البنجة ليلًا ونهارًا على حين أن التَّعميد في سائر المواسم لا يجوز إلا نهارًا وفي أيام الآحاد فقط.

٤- عِماد الأعياد: وهي:

أ- العيد الكبير: في الأوَّل من شهر شباط (دولا) المندائي، وهو رأس السَّنة الجديدة عندهم والَّذي يسمى أيضًا بداية البناء، وعيد ملك الأنوار، وفيه يعتكفون في بيوتهم ٣٦ ساعة متتالية لا تغمض لهم عين خشية أن يتطرق الشيطان إليهم؛ لأنَّ الاحتلام يفسد فرحتهم، وبعد الاعتكاف مباشرة يرتسمون، ومدة العيد أربعة أيَّام، تنحر فيه الخراف ويذبح فيه الدَّجاج ولا يقومون خلاله بأي عمل دنيويٍّ.

ب- العيد الصغير: يوم واحد شرعًا، وقد يمتد لثلاثة أيَّام من أجل التَّزاور، ويكون بعد العيد الكبير بمائة وثمانية عشر يومًا.

ج- عيد البنجة: أو الخليقة، وهو خمسة أيام تكبس بها السَّنة، ويأتي بعد العيد الصَّغير بأربعةِ أشهرٍ.

د- عيد يحيى: يومٌ واحدٌ من أقدس الأيَّام، يأتي بعد عيد البنجة بستين يومًا ويزعمون أنَّ فيه كانت ولادة النبيِّ يحيى عليه السلام الذي يعتبرونه نبيًّا خاصًّا بهم، والَّذي جاء ليعيد إلى دين آدم صفاءه بعد أن دخله الانحراف بسبب تقادم الزَّمان.

ومن أعيادهم أيضًا: عيد شيشان، وعيد الفل، والعاشوريَّة.

٥- تعميد المحتضر ودفنه

أ- عندما يحتضر الصابئ يجب أن يؤخذ -وقبل زهوق روحه- إلى الماء الجاري ليتمَّ تعميده.

ب- من مات من دون عماد نجس ويحرم لمسه.

ج- أثناء العماد يغسلونه متَّجهًا إلى نجم القطب الشمالي، ثم يعيدونه إلى بيته ويجلسونه في فراشه بحيث يواجه نجم القطب أيضًا حتى يوافيه الأجل.

د- بعد ثلاث ساعات من موته يغسَّل ويكفَّن ويدفن حيث يموت إذ لا يجوز نقله مطلقًا من بلدٍ إلى بلدٍ آخر.

هـ- من مات غيلة أو فجأة، فإنَّه لا يغسل ولا يلمس، ويقوم الكنزبرا بواجب العماد عنه.

و- يدفن الصابئ بحيث يكون مستلقيًا على ظهره ووجهه ورجلاه متَّجهة نحو الجدي حتى إذا بعث واجه الكوكب الثابت بالذَّات.

ز- يضعون في فمِّ الميت قليلًا من تراب أول حفرة تحفر لقبره فيها.

ح- يحرم على أهل الميت النَّدب والبكاء والعويل، والموت عندهم مدعاة للسرور، ويوم المأتم

من أكثر الأيَّام فرحًا حسب وصية يحيى لزوجته.

ط- لا يوجد لديهم خلود في الجحيم، بل عندما يموت الإنسان إما أن ينتقل إلى الجنَّة أو المطهر، حيث يعذب بدرجات متفاوتة حتى يطهَّرَ فتنتقل روحه بعدها إلى الملأ الأعلى، فالرُّوح خالدة والجسد فانٍ.

٦- البكارة: تقوم والدة الكنزبرا أو زوجته بفحص كلِّ فتاة عذراء بعد تعميدها وقبل تسليمها لعريسها وذلك بغية التأكد من سلامة بكارتها.

٧- الخطيئة: إذا وقعت الفتاة أو المرأة في جريمة الزنى فإنها لا تقتل، بل تهجر، وبإمكانها أن تكفر عن خطيئتها بالارتماس في الماء الجاري.

٨- الطلاق: لا يعترف دينهم بالطَّلاق إلا إذا كانت هناك انحرافات أخلاقيَّة خطيرة فيتمّ التفريق عن طريق الكنزبرا.

٩- السنة المندائيّة: تبدأ بشهر شباط / فبراير وهي ٣٦٠ يومًا، في ١٢ شهرًا، وفي كل شهر ثلاثون يومًا مع خمسة أيام كبيسة يقام فيها عيد البنجة.

١٠- يعتقدون في صحَّة التَّاريخ الهجريّ ويستعملونه، وذلك بسبب اختلاطهم بالمسلمين؛ ولأنَّ ظهور النبيِّ محمد صلى الله عليه وسلم كان مذكورًا في الكتب المقدَّسة الموجودة لديهم.

١١- يعظِّمون يوم الأحد كالنَّصارى ويقدِّسونه ولا يعملون فيه أي شيء على الإطلاق.

١٢- ينفرون من اللون الأزرق النيلي ولا يلامسونه مطلقًا.

١٣- ليس للرجل غير المتزوج من جنَّة لا في الدنيا ولا في الآخرة.

١٤- يتنبَّئون بحوادث المستقبل عن طريق التَّأمُّل في السماء والنُّجوم وبعض الحسابات الفلكية.

١٥- لكلِّ مناسبةٍ دينيَّة ألبسةٌ خاصَّةٌ بها، ولكلِّ مرتبةٍ دينيَّة لباس خاصٌّ بها يميزها عن غيرها.

١٦- إذا توفي شخص دون أن ينجب أولادًا؛ فإنه يمرُّ بالمطهر ليعود بعد إقامته في العالم الآخر إلى عالم الأنوار، ثم يعود إلى حالته البدنيَّة مرة أخرى إذ تتلبس روحه في جسم روحانيٍّ فيتزوج وينجب أطفالًا.

١٧- يؤمنون بالتَّناسخ ويعتقدون بتطبيقاته في بعض جوانب عقيدتهم.

١٨- للرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء على قدر ما تسمح له به ظروفه.

١٩- يرفضون شرب الدواء، ولا يعترضون على الدُّهون والحقن الجلديَّة.

٢٠- الشباب والشابات يأتون إلى الكهان ليخبروهم عن اليوم السعيد الذي يمكنهم أن يتزوجوا فيه، وكذلك يخبرون السائلين عن الوقت المناسب للتِّجارة أو السفر، وذلك عن طريق علم النُّجوم.

٢١- لا توكل الذبيحة إلا أن تذبح بيدي رجال الدين وبحضور الشهود، ويقوم الذابح -بعد أن يتوضأ- بغمسها في الماء الجاري ثلاث مرات ثم يقرأ عليها أذكارًا دينيَّةً خاصَّةً ثم يذبحها مستقبلًا الشمال، ويستنزف دمها حتى آخر قطرةٍ، ويحرم الذَّبح بعد غروبِ الشمس أو قبل شروقها إلا في عيد البنجة.

٢٢- تنصُّ عقيدتهم على أن يكون الميراث محصورًا في الابن الأكبر، لكنَّهم لمجاورتهم المسلمين فقد أخذوا بقانون المواريث الإسلامي.

٢٣- بعض المحرَّمات عندهم:

أ- تلويث الطبيعة والأنهار.

ب- إعطاء كتبهم المقدَّسة للآخرين ويقول أحد شيوخهم: لقد بذل عدد كبير من المستشرقين جهودًا كبيرةً وأموالًا طائلةً في سبيل الحصول على كتبنا الدينيَّة فأخفق أكثرهم.

ج- أكل الميتة والدم والحامل والجارح والكاسر من الحيوانات والَّذي هاجمه حيوان مفترس.

د- الانتحار وإنهاء الحياة والإجهاض والرهبنة.

أماكن تواجدهم وأعدادهم

الصابئة المندائيُّون الحاليون يعيشون بشكل رئيسيٍّ في العراق وجنوب إيران، وعددهم الآن يقارب مائة ألف نسمة منهم ستون ألفًا في العراق. ويتواجدون بشكل أساسيٍّ على الضفاف السفلى من نهري دجلة والفرات، ويسكنون في منطقة الأهواز وشط العرب، ويكثرون في مدن العمارة والناصرية والبصرة -التي يسيطرون على سوق الذهب فيها- وقلعة صالح والحلفاية والزكيَّة وسوق الشيوخ والقرنة، وهي موضع اقتران دجلة بالفرات، وهم موزعون على عدد من الألويَّة مثل لواء بغداد، والحلة، والديوانيَّة والكوت وكركوك والموصل. كما يوجد أعداد مختلفة منهم في ناصريَّة المنتفق والشرش ونهر صالح والجبايش والسليمانيَّة، ويقدر عددهم في العراق بستين ألفًا.

وكذلك ينتشرون في إيران، وتحديدًا على ضفاف نهر الكارون والدُّز ويسكنون في مدن إيران الساحليَّة، كالمحمرة، وناصريَّة الأهواز وششتر ودزبول.

وفي الأردن يقدر عددهم بـ ٥٠٠ شخصٍ يتوجهون إلى منطقة وادي شعيب حيث المياه الجارية.

وهناك جاليات منهم في أوربا وأمريكا وكندا واستراليا.

وقد تهدمت معابدهم في العراق، ولم يبق لهم إلا معبدان في قلعة صالح، وقد بنوا معبدًا منديًا بجوار المصافي في بغداد، وذلك لكثرة الصابئين النازحين إلى هناك من أجل العمل.

المهن الَّتي يمارسونها

يعمل معظمهم في صياغة معدن الفضة لتزيين الحلي والأواني والساعات وتكاد هذه الصناعة تنحصر فيهم؛ لأنَّهم يحرصون على حفظ أسرارها كما يجيدون صناعة القوارب الخشبية والحدادة

وصناعة الخناجر.

ومهاراتهم في صياغة الفِضَّة دفعتهم إلى الرحيل للعمل في بيروت ودمشق والإسكندرية ووصل بعضهم إلى إيطاليا وفرنسا وأمريكا.

حياتهم السياسيَّة

منذ سنوات مضت، لم يكن للصابئة في العراق نفس الدَّرجة من الطموح السياسيِّ الذي تسعى إليه الأقلِّيَّات الأخرى، إلاّ أنهم حاليًا يبذلون الجهود لتعزيز وضع طائفتهم وإنشاء الهيئات والمؤسسات في العراق وخارجها، مستفيدين من الظروف الحالية في العراق، والتَّوجُّه العالمي لتعزيز دور الأقلِّيَّات، وهم يلجئون في سبيل ذلك أحيانًا إلى التَّقرُّب إلى أصحاب الدِّيانات الأخرى بنقاط التَّشابه الموجودة بينهم وبين الآخرين، ومن تلك الأنشطة:

١- سعي شيخ الطائفة السابق دخيل بن عيدان لاعتماده رسميًا من قبل السلطات البريطانيَّة، والعهد الملكي، إذ صدر اعتراف رسميّ بالطائفة خلال الاحتلال البريطانيِّ للعراق، وأصدر المرسوم حاكم القرنة الميجر براون، وحاكم العمارة الميجر مارك، وحاكم الناصريَّة الميجر دكسن، وجاء فيه: «صدر أمر بتنظيم وترتيب أمور عمل رؤساء الدِّين، وتعيين الشيخ دخيل رئيسًا على ملَّة الصابئة، وهو بدرجة (كنزفرا)، وبمساعدة الترميذا الشيخ زهرون والشيخ عبد، مع كيفية تنظيم رواتب لرجال الدين، والطلب من رجال الدِّين بإقامة مندي (معبد) في كلِّ مكانٍ يتواجد فيه الصابئة...».

٢- زيارة وفد من رؤساء الصابئة برئاسة الشيخ عبد الله بن نجم سنة ١٩٩٠ للفاتيكان ولقائهم البابا، لمد جسور التَّواصل مع المسيحيين، وفي اللِّقاء خاطب الشيخ عبد الله بابا الفاتيكان قائلًا: «منذ ألفي عام عمّد يوحنا المعمدان السيد المسيح، وبعد ألفي عام يقلد رئيسُ طائفة المندائيِّين البابا الدرفش (راية السلام المندائية)». فأجابه بابا الفاتيكان قائلًا: «بكثير من الغبطة أرحب برجل الدِّين الشيخ عبد الله الشيخ نجم، والأعضاء الآخرين في المجلس الرّوحاني الأعلى للديانة المندائيَّة، في زيارتهم الأولى هذه للمقرِّ البابوي المقدس، وهناك الكثير من نقاط الالتقاء بين دينكم والدِّيانة المسيحيَّة، فأنتم تؤمنون بالربِّ الواحدِ، خالق الكون، وأنَّ التقدير الكبير الَّذي تكنونه ليوحنا المعمدان، والشرف الذي تتمسَّكون به لشخصية المسيح، ابن خالة يوحنا المعمدان، هو سبب سروركم بأن تدعونا أبناء خالة، إذ أنتم أقارب البابا...».

٣- زيارة رئيس الطائفة الكنزابرا ستار جبار حلو المطران فرناندو فيلوني السفير البابوي في بغداد يوم الجمعة ٢١/ ٥/ ٢٠٠٤م ،حيث أعرب الطَّرفان عن أمنياتهما بتعزيز العلاقات معتبرين أنها امتداد للعلاقة الرّوحيَّة بين النبيِّ يحيى والنبيِّ عيسى.

وفي اللِّقاء قدَّم رئيس اتحاد الجمعيَّات المندائيَّة في المهجر شرحًا عن الجمعيَّات المندائيَّة في المهجر وحال أبناء الطائفة هناك وأعرب عن الرغبة في وجود عضو ارتباط مع الفاتيكان بروما انطلاقًا من

فكرة مد أواصر التَّعاون بين الطرفين.

٤- دخول بعض أفرادهم إلى القوائم الانتخابية للانتخابات التَّشريعيَّة والبلديَّة العراقيَّة التي جرت في يناير ٢٠٠٥، وقد قتل أحد هؤلاء المرشحين وهو: (رياض راضي حبيب)، المرشح لمجلس محافظة البصرة ضمن قائمة حركة الوفاق التي يتزعمها إياد علاّوي، في مدينة البصرة، قبل إجراء الانتخابات بحوالي أسبوعين.

٥- التحذير من دستور العراق الجديد، وأثره «السلبي» على الصابئة وبقية الأقلّيَّات، فقد كتب المستشار القانوني لطائفة الصابئة المندائيِّين في العراق (سابقًا) والمستشار القانوني لاتحاد الجمعيَّات المندائيَّة في المهجر عربي الخميس مقالًا في (موسوعة صوت العراق ٩/ ٣/ ٢٠٠٤) مقالًا بعنوان: «ويل لمستقبل طائفة الصابئة المندائيِّين من دستور تفرضه لأكثريَّة» اعتبر فيه من أن عبارة «دين الدولة الرسمي هو الإسلام» معناها أن الصابئة قوم ملحدون كفار يباح قتلهم، وقال: إن الدستور لم يعترف بطائفة الصابئة كطائفة دينيَّة موحِّدة تؤمن بالله واليوم الآخر -على حد قوله-.

٦- إقامة عدد من المؤتمرات العالميَّة لتدارس أمر الطائفة، وعادة ما تعقد هذه المؤتمرات في العاصمة السويديَّة استوكهولم. وقد عقد المؤتمر الثاني في آب أغسطس سنة ٢٠٠٢، فيما عقد المؤتمر الثالث في الشهر نفسه حتى عام ٢٠٠٣ .

٧- إقامة شيخ الطائفة في البصرة احتفالًا تأبينيًا في محرم من كل عامٍ بمناسبة عاشوراء فيما يبدو أنه تودُّد للشيعة هناك، ومع ذلك يشتكي الصَّابئة في البصرة من ممارسات أنصار مقتدى الصدر ضدهم.

٨- تعالي أصوات بعضِ قياداتهم ومثقَّفيهم على شبكة الإنترنت بالاهتمام باللُّغةِ المندائيَّة والسعي لتيسير الطُّقوس الدينيَّة، وإجرائها دون حياءٍ أو خجلٍ، والعمل على إيصال متطلبات إجراء هذه الطقوس إلى كلِّ بيت مندائي.

ويرى هؤلاء ضرورة توجيه الإعلام المندائي بشكلٍ مدروسٍ من خلال تشجيع كتابة القصصِ والذكريات وإبراز الأساطير التي تحرك الوجدان المندائي وتبنيه، وإبراز المناسبات الدينيَّة وإجراءاتها التراثيَّة الفلكلوريَّة والدِّفاع عنها، وتشجيع الممارسات الدينيَّة الجماعيَّة التي تبعد التحسس من «تخلف الطقوس». ويحثّون على إقامة المخيمات المندائيَّة والحرص الدَّائم على إقامة الاحتفاليَّات في المناسبات الدينيَّة[1].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٧١٤- ٧٢٢)، مجلة الراصد العدد ٢٢، ص(٧- ٢٢)، موسوعة الأديان (الميسرة)، مجموعة مؤلفين، الأديان والمذاهب بالعراق، رشيد الخيون، مندائي أو الصابئة الأقدمون، عبد الحميد أفندي عبادة.

الباب السادس

الدِّيانة المصريَّة القديمة

إنَّ أشد الأمم تدُّينًا المصريُّون القدماء حتَّى قال هيرودوت: إنَّ المصريين أشدُّ البشرِ تدينًا، ولا يعرف شعب بلغ في التديُّنِ درجتهم فيه، فإنَّ صورَهم بجملتها تمثِّل أناسًا يصلون أمام إله وكتبهم في الجملة أسفار عبادة ونسك.

كانت شدة تدينهم سببًا في أن دخل الدين عنصرًا عاملًا قويًا في كلِّ أعمالهم الخاصَّة والعامَّة فالدين مسيطر حتَّى في الكتابة في الحاجات الخاصَّة وفي الإرشادات الصحِّيَّة، وفي أوامر الشرطة وسلطان الحكم، ولقد تعددت بسبب ذلك الكائنات المقدَّسة، والأشياء التي يعتبر احترامها من احترامهم آلهتهم أو هي بذاتها تبلغ رتبة الآلهة وتصل إلى مكانها في التقديس والعبادة.

عقيدة التوحيد عند قدماء المصرِيِّين

لشدة هذا التَّديُّن المشار إليه زعم بعض العلماء ومنهم ماسبيرو أنَّ قدماء المصريين كانوا موحدين، فقال ماسبيرو: إنَّ إله المصرِيِّين واحدًا فردًا كاملًا عالمًا بصيرًا -لا يدرك بالحس قائمًا بنفسه حيًّا له الملك في السموات والأرض، لا يحتويه شيءٌ فهو أب الآباء، وأم الأمهات، لا يفنى ولا يغيب، يملأ الدُّنْيَا ليس كمثله شيء، ويوجد في كلِّ مكان.

وهذا الكلام ليس من الحقِّ في شيءٍ؛ لأنَّ المصرِيِّين لم يكونوا موحِّدين، ولذا أدرك هذا المؤلف خطأه فكتب في طبعة ثانية من كتابه ما نصُّه: تدلنا الآثار على أنَّه كان لكلِّ من الرهبان منذ أزمان الأسرة الأولى آلهته الخاصَّة، وهذه الآلهة مقسَّمة إلى ثلاثة فرق متباينة الأصول: آلهة الموتى، وآلهة العناصر، والآلهة الشمسيَّة.

إنَّ مدنية المصريين القدماء مكثت خمسة آلاف سنة، فسار على ديانة أهلها قوانين التحول والتدرج والانتقال من حال إلى حال، ومن صورة إلى صورة، ومن غاية إلى غاية، خاصَّة أنَّها ديانة غير سماويَّة، بل إنَّ الدِّيانَات السماويَّة التي قبل الإسلام كان يعروها التحريف والتغيير والتبديل.

إنَّ عقائد المصرِيِّين كانت تتخالف بتخالف الأقاليم نفسها، وكانت آلهتهم محليَّة، فكلُّ مدينة كانت لها آلهتها.

فكان موطن أوزيريس في أبيدوس، وفتاح في ممفيس، وأمون في طيبة، وهورس في دفو، وهاتور في دندرة، ... إلخ.

ومكانة الإله تتبع مكانة المدينة التي يعبد فيها.

وللآلهة مراتب بعضها فوق بعض، فكانت سلسلة مراتب إلهيَّة تتبع مراتب المقاطعات السياسيَّة.

ومن هذا يفهم أنَّه لم يعرف المصريُّون حتَّى التوحيد الإقليمي بأن يجتمعوا على آلهة واحدة في كلِّ إقليم ويتفقوا عليهم مهمًّا تتباين جهة إقامتهم، بل كانت آلهتهم محليَّة كلّ إقليمٍ له آلهة خاصة به.

ولكن في خمسة آلاف سنة قد وردت على المصريِّين دعوة من دعوات التوحيد الخالص بدعوة من رسول مبين، خصوصًا أنَّه قد جاء في القرآن الكريم ما يفيد أنَّ يوسف عليه السلام وهو نبي كريم من أنبياء الله قد دعاهم إلى عبادة الواحد القهار.

لقد كانت دعوة يوسف عليه السلام إلى التوحيد لها أثرها ولكن المصريِّين ألفوا عبادة ما أنتجه خيالهم من ألوهيَّة زعموها لبعض الأشياء والحيوان، فلما جاءتهم دعوة إلى التوحيد صريحة قويَّة بما تستمده من بيِّناتٍ عقليَّة وأدلةٍ منطقيَّةٍ تستقيم مع قضايا الفكر آمن من آمن، ومن لم يكن نافذ البصيرة قوي المدارك وقع في حيرة بين قديم قد ألفه وتغلغل في مكنون قلبه واستولى على أهوائه ومشاعره، وجديد قد عرفه ورأى فيه استقامة في الفكرة وقوة في الاستدلال فكان في شكٍّ ومريةٍ.

ثم جاء موسى عيه السلام بعد ذلك بدعوة التوحيد أيضًا.

ثم إنَّ الهكسوس الذين جاءوا إلى مصر وحكموها أمدًا غير قصير لا يمكن أن يكون مجيئهم قد خلا من دعوات دينيَّة، وخصوصًا أنَّه ورد في بعض الآثار أنَّ إبراهيم عليه السلام قد زار مصر، فلا بدَّ أن يكون التوحيد قد كان موضع دعاية له، وإن لم يكن موضع إجابة منهم.

وإنَّ احتكاك المصريِّين بالأسيويين في الحروب الدائبة المستمرة لا بدَّ أن يكون هو أيضًا قد أطلع الغزاة والفاتحين على ما في آسيا من ديانات وآثار النبيِّين من شرائع وعقائد وأحكام، وكلُّ ذلك لا بدَّ أن ينال شيئًا من النفس المصريَّة وإن لم ينل القلوب ويستولي عليها استيلاء تامًّا.

ولكن تلك الأغذية الدينيَّة وتلك الدعوات التوحيديَّة التي كانت تجيء إليهم الحقبة بعد الحقبة لم ترفع المصرين إلى مرتبة الموحدين بل يسود عقائدهم التعدد في جملة تاريخهم، بل إنَّهم لم يصلوا إلى التوحيد المحلي بأن يجمع المصرِيُّون على آلهة واحدة، بل تعددت الآلهة بتعدد الأقاليم.

العقيدة الرسميَّة عند قدماء المصرِيِّين

تعتمد العقيدة الرسميَّة عند قدماء المصرِيِّين على أسطورة قديمة، ترجع إلى ما قبل التاريخ في نسبتها، وهي أنَّ إله الإنبات والخصوبة أو إله النيل واسمه أوزيريس قد عمل على تكوين مملكة إلهيَّة مكوَّنة من أخته وزوجته إلهة الحكمة والتشريع والسحر واسمها إيزيس، ووزيره إله التدبير والعلم واسمه توت وغيرهم من الآلهة، ولكن أخا أوزيريس واسمه سيت -وهو إله الشر والقحط- نفس على أخيه ما ناله من مكانة وإجلال، ودفعه الحقد إلى إيذائه فغدر به، واحتال عليه حتى وضعه في تابوت، ثم أقفله عليه وألقى به في اليم، فلما تفقدته زوجته ولم تجده أخذت تنقب عنه حتَّى عثرت عليه ولكن قبل أن تتمكن من فتح التابوت هاجمها سيت وأخذ التابوت منها عنوة، ومزق أخاه اثنين وسبعين شلوًا بعدد مقاطعات مصر إذ ذاك، ونثر هذه الأجزاء في المقاطعات في كلِّ مقاطعة شلوًا، ولكن مع ذلك لم تستيئس زوجته بل ألقى الوفاء في قلبها شجاعة لا يأس معها،

وبجد ودأب جمعت الأشلاء من كل مكان وألقت كل جزء في موضعه من الجسم، وقرأت عليه بعضا من التعاويذ والرقى السحريَّة فعاد إلى الحياة، ولكنَّها حياة قصيرة كانت بقدر ما أنسل ابنه هوروس، ثم غادر هذه الحياة إلى الحياة الأخرى ليقوم بالحساب والميزان لأهل الدنيا.

وهنا تكون المعركة بين هوروس وعمه سيت إذ ينكر نسب ابن أخيه ويدَّعي أنَّه الوريث الوحيد لعرش أخيه في المملكة الإلهيَّة، ويرفع في سبيل ذلك دعوى إلى محكمة الآلهة، فتهب إيزيس مدافعة عن ابنها وشرفها فتقضي المحكمة بثبوت النسب بشهادة توت، ولكن النزاع لا ينتهي بذلك بل يأخذ كل يعمل على إفساد أعمال الآخر في الكون، وتكون دائرة هوروس في الإنتاج والعمارة ودائرة سيت في الإفساد والتدمير.

وكان من آثار ذلك التناحر ما كان بين الوجه القبلي والوجه البحري من حروب مستمرة بل قد صار كل رئيسٍ من رئيسي الوجه القبلي والوجه البحري أحد هذين الإلهين.

واستمر الحال على ذلك حتى جاء مينا الأول فجمع سلطانه حكم مصر العليا والسفلى وأعلن أنَّ الإلهين قد حلا في جسده ومن ثم ابتدأت عقيدة تأليه الملك، أو حلول روح الإله فيه.

ولقد أخذت الفلسفة الدينيَّة من ذلك الحين تعمل على التوفيق بين خلود الألوهيَّة وفناء الجثمانيَّة؛ لأنَّ فرعون يموت كما يموت سائر الناس، والإله باقٍ فكيف يحلُّ الباقي في الفاني، ثم كيف يموت من ارتفع إلى مرتبة الألوهيَّة، إنَّ الحس يؤكد الموت وعقائدهم تنافيه.

ولقد دفعتهم الرغبة الملحَّة بين التوفيق بين ما يحسون وما يعتقدون إلى أن قالوا: إن روح الإله هوروس ذات ثلاث شعب أولاها الروح الدنيا وهي التي تحلُّ في فرعون الزمان، ثم تنتقل إلى من يليه وتفيض عليه بقدسيتها، والثانية الروح العليا الحاكمة في السموات والأرضين، والثالثة روح تبقى في جسد فرعون الميت وتقوم بالنصح لفرعون الحي، ولا تبقى هذه الروح إلا إذا بقي الجسم متماسكا ولذا أعملوا الحيلة لذلك وبنوا الأهرام وشيَّدوها لتكون حفاظًا للجسم.

ولم يستمر فرعون موضع القداسة لحلول هوروس خليفة أوزيريس في الألوهيَّة بل ارتقى وصار يحلُّ فيه رع كبير الآلهة، وعلا عن سلطان أوزيريس عندما حالت العقيدة من ثالوث إلى تاسوع؛ وذلك لأنَّ العقيدة المصريَّة كانت قائمة على تقديس ثالوث مكون من أوزيريس الآب، وهوروس الابن، وإيزيس الأم، والجميع يرجع إلى واحد، ولكن لم تستمر العقيدة على التثليث بل انتقلت إلى تقديس تاسوع بدل ثالوث؛ وذلك التاسوع يرجع إلى قوى الطبيعة الظاهرة المؤثرة في تحولات الأشياء ظاهرًا.

فقد فرضوا أن العنصر الأول الذي تكونت منه الأشياء هو الماء، وأول ما ظهر من الماء هو رع (الشمس) ومنه ظهر الهواء (سرا) والفراغ (تيفينه) ومن اجتماعهما كانت الأرض (جيب) والسماء (توت) ومن اجتماع الأخيرين نشأ النيل (أوزيريس) والأرض الخصبة (إيزيس) والصحراء (سيت) والأرض القاحلة (نيفتيس).

وقد أعطى المصريُّون هذه الأشياء صفة الألوهيَّة وأضفوا عليها صفات التقديس ولم تكن هذه هي الآلهة وحدها بل هناك رب الأرباب وأطلقوا عليه اسم (توم) وهناك آلهة أخرى منها (مآت) ابنة رع (وهي إلهة الحقيقة والعدل).

تقديس الحيوان عند قدماء المصريِّين

اتفق المؤرخون على أنَّ المصريِّين كانوا يعبدون الحيوان وتضافرت على ذلك الأخبار، وبلغت حدًّا استفاضت معه، ولقد كانوا يتحمَّسون في عبادتهم للحيوان إلى حدٍّ لا يحفلون معه بقوى مهمًّا تكن رهبته أن يمس ذلك الحيوان بسوء.

يروى أنَّه إبان سلطان الرومان على مصر قتل أحدهم قطًّا وقد كان موضع عبادة في ذاك الوقت فهاجم القاتل جمهور من الشعب، وفتكوا به، ولم ينجِّه من صاب نقمتهم أن أرسل الملك إليهم شفاعته فيه على لسان أحد قضاته، فما قبلوا شفاعته وهم الذين اشتهروا أمام الرومان بالضراعة.

ويحكي بعض المؤرخين أنَّه رأى في أثناء زيارته لمصر في حوالي عصورها تمساحًا مقدَّسًا في طيبة فيقول: كان هذا الحيوان رابضًا على سيف غدير فاقترب منه الكهنة، وتقدَّم اثنان ففتحا فاه وحشاه ثالث حلوى وسمكًا مشويًّا وعسلًا مصفًّى.

ولقد قال أحد الكتَّاب في هذه العبادة: على هياكل المعابد سجف منسوجة بالحرير فإذا ما تقدمت إلى نهاية المعبد لترى التمثال تقدم إليك كاهن في سكينة ووقار، وهو يرتل مزاميره فيزيح قليلًا من الستار ليريك الإله فلا ترى إلا قطًّا أو تمساحًا أو ثعبانًا أو حيوانًا مؤذيًا فكأنَّ إله المصريِّين دابة ملونة على بساط أرجواني.

ويحكي هيرودوت أنَّه شاهد يرانا قد شبت في مصر فوجد السكان جميعًا قد اتجهوا إلى إنقاذ القطط قبل أن يتجهوا إلى إطفاء النيران، وذلك لكيلا يمس معبودهم بأي أذًى.

الحياة الآخرة والنفس عند قدماء المصريِّين

اعتقد قدماء المصريِّين الحياة الآخرة، وأنَّها الباقية بعد هذه الدنيا الفانية، وقد قام اعتقادهم بالحياة الآجلة بعد هذه العاجلة على أساسين:

أحدهما: أنَّ هذه الدنيا معترك يتنازع فيه الشرُّ والخير والبر والفاجر، وكثيرًا ما نرى في هذا المعترك الشر ينتصر على الخير والفساق على الأبرار، فلو لم يكن هناك يوم كلُّه للخير وكلُّه على الشرِّ، يحاسب المسيء على إساءته، ويكافئ المحسن بإحسانه ما استقام العدل الإلهي، فمن العدالة الإلهيَّة إذًا أن يكون يوم آخر للأبرار على الفجار وللأطهار لا للأشرار، وأن تكون الحياة الباقية لينتصر فيها الخير وينتصف فيها من الشرِّ.

ثانيهما: اعتقادهم في النفس الإنسانيَّة فهم يعتقدون وجود نفس تنفصل عن الجسم وإن كانت تحلّ فيه وأن تلك النفس ذات أربع شعب: إحداها الروح، وهي أساس القوى في الإنسان، والثانية العقل والإرادة، والثالثة صورة من الأثير أو مادة أدق منه على هيئة الجسم تمامًا، والرابعة

الجوهر الخالد السامي الذي يشترك فيه الإنسان مع الآلهة وهو سرّ الوجود رالعلو، وهذه الشعبة من النفس متصلة بعالم الآلهة ما دام الإنسان على قيد الحياة، فإذا مات اتصلت به اتصالًا وثيقًا، فأمَّا الروح فهي التي تظلُّ تتردد على الإنسان في قبره إلى أن يجتاز الحساب ويصل إلى مرتبة الثواب، وعندئذٍ تعود إليه فيشعر به الأحياء.

ولقد كانوا يعتقدون أنَّ النفسَ لا تعيش إلا إذا كان الجسم سليمًا وسلامته هي التي تجعله صالحًا لعودة الروح إليه بعد أن فارقته بالموت، ولذا بذلوا أقصى الجهد في سبيل المحافظة على الجسم وجعله صالحًا لحلول النفس فيه بعد الموت، وقد بعث ذلك فيهم الحيلة لأنَّ يخترعوا تحنيط الموتى، وبقاء المومياء على هيئة من التماسك وعدم التحلل لكي تعود النفس إلى غلافها.

وقد اجتهدوا مع ذلك في إقامة تماثيل للموتى تشبه أجسامهم تمامَ الشبهِ لكي تحلَّ فيها النفس إن كان الجسم غير صالح، وقد عددوا التماثيل للميت الواحد؛ لأنَّه عسى أن يكون أحدهما غير صالح فيكون الآخر صالحًا، ولكي تكون الروح في فسحة من الأماكن، فتنتقل من هذا إلى ذاك.

وكانوا يعتقدون أيضًا أن الميت أو روحه في العالم الآخر يحتاج إلى ما يحتاج إليه الأحياء في هذه الدنيا من طعام وشراب، وأن يقدم من ذلك في الدنيا قربانًا على أرواح الأموات يفيدهم في الآخرة، ولذلك تكون روح الميت في أشد الألم إذا لم تقدم القرابين من طعام وشراب وما إلى ذلك من مطاعم الأحياء في الدنيا.

واعتقدوا أنَّه قبل أن يصل الميت إلى الثواب أو العقاب لا بدَّ من الحساب، والحساب يكون أمام محكمة تتألف من اثنين وأربعين قاضيا يرأسها أوزيريس نفسه، وتسأل المحكمة الشخص عمَّا قدم من خيرٍ ومن شرٍّ.

فإذا انتهى الحساب أمر المحاسب أن يمر على الصراط، وهو طريق ممدود فوق الجحيم فإذا اجتازه الشخص نجا وارتقى إلى مرتبة الآلهة، وإذا سقط من فوقه انتهى إلى وادٍ فيه الأفاعي والحيَّات التي تتولى عقابه بقسوة حتى ينال الجزاء الأوفى على ما قدَّمت يداه.

وترى من هذا أن الأبرار من الأموات يرتفعون إلى مرتبة الآلهة، ولهذا سرى عندهم عبادة الموتى وأضافوا إليهم صفات الألوهيَّة وخواصها في نظرهم بل إنَّهم كانوا يعتقدون أن أرواح موتاهم تتصل بعالم الأحياء وتنبئهم بأسرار المستقبل، فتحذرهم مما عساه يكون في سبيلهم من أخطار وتبشرهم بما عساه ينالهم من خير، وقد ملئت أساطيرهم بشيء كثير مما يؤيد اعتقادهم فيما يزعمون[(١)].

---

(١) الديانات القديمة، محمد أبو زهرة، ص(٥- ٢٠).

الباب السابع
وثنية اليونان

اليونان الأقدمون كانوا يؤلِّهون ظواهر الطبيعة ويعبدونها كما فعل المصريُّون وغيرهم من قبل، وذلك ظاهر في آلهتهم الأولى فإنَّهم ألَّهوا السماء والأرض والبحر والشمس والزمن، ولكنَّهم لم يقفوا عند هذا الحدِّ بل لحظوا بعد ذلك الصفات الأدبيَّة في الأحياء وفنونهم وما يؤثر فيهم فجعلوا لكلِّ واحدٍ منها إلهًا أو إلهة.

ومن هذه الآلهة هيرا ربَّة القوة المنتجة في الطبيعة، وآريس أو المريخ إله الحرب، وأبولون إله الموسيقى والنور، وهراميس رسول الآلهة، وربُّ الفصاحة والبيان، وأثينا ربَّة الحكمة، وأفروديت ربَّة الحب الجميل، وديونيسوس ربُّ الخمر والتمثيل، ولتيراجيني أو المحزن.

- وكان لكلِّ مدينة أربابها الخاصَّة بها، ومعبودات لها كثيرة، وإن اتحدت في الاسم مع أرباب المدينة الأخرى فالمسمَّى يختلف.

فأبولون في مدينة ليس هو أبولون في مدينة أخرى، وإن اتَّحد الاسم، ولكن مع هذا الاختلاف كانت هناك أرباب كثيرة أجمع اليونان في الجملة على عبادتها وتقديسها كالسماء والأرض والبحر ولها في كلِّ مكان معبد خاصٌّ بها، أو مزار يتقرب فيه إليها، وإن الأرباب التي يشترك اليونان في تقديسها كثيرة جدًّا، وكلُّها يمثل أعظم القوى الطبيعيَّة تأثيرًا في الكون ومن هذه زيوس المشترى، وهيرا وأثينا وارتيمس وهرميس (عطارد) وأريس (المريخ) وأفروديت (الزهرة) وكرونوس (زحل) وهكذا.

- وأرباب اليونان يزعمون لها التجسد ويتصورون لها حياة كحياة الإنسان وعلى أكمل وجه من أوجه الحياة الإنسانيَّة الجسديَّة والشهوانيَّة والنفسيَّة فيصورون إلههم كائنا حيًا في أبهى مظاهر الحياة من الصور البشريَّة، ويتمثلون المعبود أو المعبودة على صورة رجل جميل الطلعة أو امرأة وسيمة المحيا واتشاح بالثياب الجميلة وتحل بالذهب والفضة.

وهذا هو ميروس في إحدى قصائده يقول عن بعض الآلهة: أنداريس وأثينا كانا يقودان الجيش وكلاهما متشح بالذهب، وكانا من الجمال والاعتدال على صورة تليق بالأرباب إذ البشر أقزام قصار القامات.

ولكلِّ ربٍّ من أربابهم هيئته وهندامه وخصائصه، فالربَّة أثينا ربَّة الحكمة عندهم مثلًا على صورة عذراء ذات عينين براقتين تحمل رمحًا وعلى رأسها خوذة وعلى صدرها سلاح لامع.

وللأرباب كما للبشر أقرباء وأولاد وأسر، فأمهم ربَّة وأختهم أرباب أو نصف أرباب، وللأرباب تاريخ وحوادث وقصص، فالربُّ (أبولون) له ولد مثلا ولد في جزيرة ديلوس، وكانت

لجأت إليها أمّه.

ولقد صوروا لكلّ ربٍّ من هذه الأرباب تمثالًا يعبد ولقد كان للتماثيل الكبيرة محال خاصّة بها يزعمون أنَّ الآلهة توحي إليهم فيها على لسان الكهنة، ويتقرَّبون في تلك المحال للآلهة بالقرابين والنذور، وأشهرها معبد (دلفي) لأبولون بمدينة (فوكيس).

وقد بقيت تلك الديانة حتَّى ظهرت النصرانيَّة فغالبتها حينًا من الزمن وقضت عليها، ولكن بعد أن أثَّرت أبلغ الأثر في النصرانيَّة فلسفة الإغريق وفنونهم(١).

(١) الديانات القديمة، محمد أبو زهرة، ص(١١٢، ١١٣).

الباب الثامن

وثنية الرومان

اعتقد الرومان كما اعتقد اليونان من قبل بأنَّ كلَّ ما يحدث في هذا العالم هو مما قضت به إرادة خالق ما، ولكنَّهم لم يعتقدوا بوحدانيَّة الخالق بل عددوا أربابهم بتعدد مظاهر الطبيعة التي تتجلَّى فيها أوامر آلهتهم ونواهيها.

فهناك رب ينبت البذر، وآخر يحمي الحقل، وثالث يحرس الثمار، وهكذا.

ولكلِّ ربٍّ اسمه وجنسه وعمله، فعندهم للسماء إله وللحرب إله، وللشجاعة إله، كما عند اليونان، وسمّوا إله السماء جوبتر، وإله الحرب مارس، وإله الشجاعة هركوليس، وهو ما يسمى عند اليونان هركليس، وقد قبسوا أيضًا بعض أسماء آلهتهم وخواصها من المصريين القدماء؛ فعندهم إيزيس إلهة القمر، وأوزيريس إله الزراعة، ومراميس إله الشتاء، وكلُّها أسماء مصريَّة لآلهة مصريَّة.

وإنَّ الأرباب قد تعددت عند الرومان جدًّا فلكلِّ مظهر من مظاهر الحياة ربٌّ، ولكلِّ قوَّة في الإنسان ربٌّ، فعندما يولد الطفل يأتيه ربٌّ يعلمه النطق، وربَّة تعلمه الشرب، وأخرى تقوِّي عظامه، وربان يرافقانه إلى المدرسة، وآخران يرجعان به.

ويعتقدون أنَّ هناك أربابًا للمدينة، وللكتابة، وللجبل، ولكلِّ نهرٍ، ولكلِّ نبع، ولكلِّ شجرة ربٌّ خاصٌّ، ولقد قال الكاتب اللاتيني بترون في إحدى قصصه على لسان امرأة صالحة: إنَّ بلادنا غاصة بالأرباب، بحيث يسهل عليك أن تُلقي فيها ربًّا من أن تصادف رجلًا.

- ولقد أتى عهد على الرومان كانوا يعبدون فيه تلك الآلهة المتعددة من غير أن يتخذوا لها تماثيل، بل كانوا يعبدونها من غير تماثيل خاصَّة لكلِّ إله، فلم يكن في روميَّة في ذلك العهد صنم، ثم اتَّخذوا بعد ذلك الأصنام من الخشب أولًا، ثم اتخذوها من الرخام على مثال أصنام اليونان.

ولم تكن آلهتهم على صورة حيَّة من البشريَّة كآلهة اليونان فلم يصفوها بما يتَّصف به البشر من تحابٍ وتباغضٍ وتقاتل كاليونان.

ولم يفرضوا أن بين الأرباب صهرًا أو نسبًا وأنَّ لكلِّ إله تاريخًا يبتدئ من مولده بل كلّ ما ينحلونه للربِّ من أربابهم أنَّه يسيطر على قوَّةٍ من قوى الطبيعة، ويعمل للناس الخير والشرَّ على ما يحبُّ ويريد.

- ولقد كان الرومان يؤمنون بالطيرة أو الفأل فيذهبون إلى أن الأرباب يعرفون ويرسلون للناس آيات يدركونها فيستنصح الروماني الأرباب قبل أن يشرع في عمل، فإذا أراد الحاكم عملًا يجمع لديه مجلسًا ينظر إلى الطيور السائرة فإذا كانت فيها إشارة موافقة يدركون أن الأرباب استحسنت

المشروع، وإلا كان معناه أنَّهم غير راضين عنه.

ويزعمون أنَّه كثيرًا ما يرسل الأرباب آياتهم من غير أن يسألوا، ويزعمون أنَّه قد ظهر نجمٌ ذو ذنب يوم موت قيصر فكان إشارة نعيه.

ولقد كان الرومان يقدِّسون الأمبراطرة، ويقيمون المحاريب[1].

(١) الديانات القديمة ص(١١٤، ١١٥).

القسم الرابع

المذاهب الفكريَّة المعاصرة

العلمانيَّة

التعريف:

العلمانيَّة: ترجمة لكلمة SECULARISM الإنجليزية، أو Secularit الفرنسيَّة، وهي مشتقة من الكلمة اللاتينيَّة Saeculum.

وترجمتها الصحيحة: اللادينية أو الدنيويَّة، وهي دعوة إلى إقامة الحياة على العلم الوضعي والعقل ومراعاة المصلحة بعيدًا عن الدين، سواء بالنسبة للأمة أو للفرد،

وتعني في جانبها السياسي بالذات اللادينية في الحكم.

وهي اصطلاح لا صلة له بكلمة العِلم SCIENCE، وقد اختيرت كلمة علمانيَّة؛ لأنها أقل إثارة من كلمة لادينية، ومدلول العلمانيَّة المتفق عليه يعني عزل الدين عن الدولة وحياة المجتمع، وإبقاءه حبيسًا في ضمير الفرد لا يتجاوز العلاقة الخاصة بينه وبين ربه؛ فإن سمح له بالتعبير عن نفسه، ففي الشعائر التعبدية والمراسم المتعلقة بالزواج والوفاة ونحوهما.

العلمانيَّة في المعاجم الأوربية:

- في معجم اللغة البريطانية عن مادة «علمانيَّة» ما يلي:

١ . علمانيَّة secularism ما يهتم بالدنيوي أو العالمي كمعارض للأمور الروحية، وبالتحديد هي الاعتقاد بالدنيويات.

٢ . العلماني secularist وهو ذلك الشخص الذي يؤسس سعادة الجنس البشري في هذا العالم دون اعتبار للنظم الدينيَّة أو أشكال العبادة.

٣ . علمانيَّة secularity، أو secularism؛ أي محبة هذا العالم، أو ممارسة، أو مصلحة تختص على الإطلاق بالحياة الحاضرة.

٤ . يعلمن seculariye يجعله علمانيًا، يحوّله من مقدس إلى دنيوي، أو من راهب إلى دنيوي.

٥ . علماني secular ما يختص بهذا العالم أو بالحياة الحاضرة، زمني أو عالمي أو ما يناقض كل ما هو ديني أو روحاني، أو ما لا يخضع لسلطة الكنيسة، مدني أو غير روحاني، أو ما لا يهتم بالدين، أو ما ليس بمقدس.

- وفي معجم أكسفورد بيان معنى كلمة secular كما يلي:

١ . دنيوي أو مادي، ليس دينيًا ولا روحيًا، مثل التربية اللادينية، والفن والتربية الموسيقى اللادينية والسلطة اللادينية، والحكومة المناهضة للكنيسة.

٢ . الرأي الذي يقول: إنه لا ينبغي أن يكون الدين أساسًا للأخلاق والتربية.

- ويطرح معجم ويبستر:

علماني: دنيوي، ومن معانيه الشيء الذي يحدث مرة واحدة في عصره أو جيل، أو شيء وثيق الارتباط بالحياة المعاصرة، وأشهر معانيه الآن: الأشياء الدنيويَّة المتمايزة عن الأشياء الروحية غير العقدية، وغير التي لها صفة الخلود.

والعلمانيَّة هي النظام السياسي والاجتماعي الذي ينبذ كل أشكال العقيدة الدينيَّة أو العبادة.

وفي تعريف آخر: فالعلمانيَّة هي النظرة التي تقول بأن أمور التعليم والأخلاق والمعاملات يجب أن تجري بدون أي اعتبارات أو تأثيرات دينية.

- أما المعجم الدولي الثالث الجديد فيعرف بمادة secularism كما يلي: اتجاه في الحياة، أو في أي شأن خاص يقوم على مبدأ أن الدين أو الاعتبارات الدينيَّة يجب ألا تتدخل في الحكومة، أو استبعاد هذه الاعتبارات استبعادًا مقصودًا؛ فهي تعني مثلًا: السياسة اللادينية البحتة في الحكومة، وهي نظام اجتماعي في الأخلاق مؤسس على فكرة وجوب قيام القيم السلوكية والخلقية على اعتبارات الحياة المعاصرة، والتضامن الاجتماعي دون النظر إلى الدين.

- تقول دائرة المعارف البريطانية في تعريف كلمة secularism إنها: حركة اجتماعيَّة تهدف إلى صرف الناس وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها، ذلك أنه كان لدى الناس في العصور الوسطى رغبة شديدة في العزوف عن الدنيا، والتأمل في الله [عز وجل] واليوم الآخر، وفي مقاومة هذه الرغبة طفقت تعرض نفسها من خلال تنمية النزعة الإنسانية، حيث بدأ الناس في عصر النهضة يظهرون تعلقهم الشديد بالإنجازات الثقافية والبشرية، وبإمكانية تحقيق مطامحهم في هذه الدنيا القريبة، وظل الاتجاه إلى secularism يتطور باستمرار خلال التاريخ الحديث كله، باعتبارها حركة مضادة للدين، ومضادة للمسيحية.

ودائرة المعارف البريطانية حينما تحدثت عن العلمانيَّة، تحدثت عنها ضمن حديثها عن الإلحاد، وقد قسمت دائرة المعارف الإلحاد إلى قسمين: إلحاد نظري، وإلحاد عملي، وجعلت العلمانيَّة ضمن الإلحاد العملي.

- وفي دائرة المعارف الأمريكيَّة: العلمانيَّة نظام أخلاقي مستقل مؤسس على مبادئ من الخلق الطبيعي، مستقل عن المظهر الديني أو الفوق طبيعي، إنها عرضت لأول مرة في شكل نظام فلسفي بواسطة جورج جاكوب هوليوك حوالي سنة ١٨٤٦م في إنكلترة، إنها سلمت لأول مرة بحرية الفكر، وبأن من الحق لكل إنسان أن يعتقد بنفسه ما يريد، وطبقًا لهذا التسليم، وكتتمة ضرورية له يكون من الحق أن يكون هناك اختلاف في الرأي حول كل الموضوعات العقائدية، هذا الحق في اختلاف الرأي لا يتفق بدون حق تبرير ومناقشة ذلك الاختلاف.

أخيرًا: العلمانيَّة تؤكد الحق في مناقشة ومجادلة كل الأسئلة الحيوية مثل المعتقدات المعتبرة أسس الالتزام الأخلاقي، مثل: وجود الله [عز وجل] وخلود الروح، وسلطة الضمير. العلمانيَّة: لا

تعني أنه لا يوجد خير آخر، لكن الخير في الحياة الحاضرة، إنها تعني أن الخير في الحياة الحاضرة هو الخير الحقيقي، ويُبحث عنه لأنه الخير، إنها تهدف إلى إيجاد وضع مادي يكون فيه من المستحيل أن يوجد معدم أو فقير، إنها تؤكد القوى الماديَّة في هذه الحياة، التي لا يمكن إهمالها دون الوقوع في حماقة أو مضرة، ومن الحكمة والرحمة والواجب الاعتناء بها، إنها لا تمانع المعتقدات المسيحيَّة، إنها تقول: إنه لا يوجد هاد أو منقذ في هذه الطبيعة بالأحرى إنها تعني: أن الرشد أو المنقذ يوجد في الحقيقة العلمانيَّة التي تملك من المصادفات والتجارب ما يجعلها مستقلة، فالسلوك الإنساني مستقل إلى الأبد.

العلمانيَّة في المعاجم العربيَّة:

- أول معجم عربي يورد الكلمة هو المعجم الوسيط، فقد جاء في طبعته الأولى سنة ١٩٦٠م: (العلماني): نسبة إلى العَلْم، بمعنى العالم، وهو خلاف الديني، أو (الكهنوتي)، وبقي الأمر كذلك في الطبعة الثانية الصادرة سنة ١٩٧٩م، أما في الطبعة الثالثة، التي صدرت سنة ١٩٨٥م، فقد وردت الكلمة فيه مكسورة العين، بعد أن ظلت مفتوحة في الطبعتين الماضيتين.

- وأول معجم ثنائي اللغة قدم ترجمة للكلمة هو قاموس «عربي فرنسي» أنجزه لويس بقطر المصري عام ١٨٢٨ م وهو من الجيل الذي ينتمي للحملة الفرنسيَّة، وقد كان متعاونًا مع الفرنسيين، ورحل معهم إلى باريس، وعاش هناك، وكانت ترجمته لكلمة: secularite = عالماني، seculier = علماني، عالماني.

- وفي قاموس المورد لمنير البعلبكي: العلمانيَّة تعني حرفيًا: الدنيويَّة، أو: المذهب الدنيوي.

تاريخ مصطلح العلمانيَّة:

في القرن السابع عشر استخدم مصطلح «سيكولار Secular» لأول مرة مع نهاية حرب الثلاثين عامًا سنة ١٦٤٨ م، عند توقيع صلح «وستفاليا» -الذي أنهى أتون الحروب الدينيَّة المندلعة في أوربا- وبداية ظهور الدولة القومية الحديثة، وهو التاريخ الذي يعتمده كثير من المؤرخين بداية لمولد ظاهرة العلمانيَّة في الغرب.

وفيه تمت الإشارة إلى علمنة ممتلكات الكنيسة وحسب، بمعنى نقلها إلى سلطات غير دينية، أي إلى سلطة الدولة أو الدول التي لا تخضع لسلطة الكنيسة.

وفي فرنسا في القرن الثامن عشر أصبحت الكلمة تعني من وجهة نظر الكنيسة الكاثوليكيَّة: «المصادرة غير الشرعية لممتلكات الكنيسة»، أما من وجهة نظر المستنيرين فإن الكلمة تعني: «المصادرة الشرعية لممتلكات الكنيسة لصالح الدولة».

وفي القرن التاسع عشر اتسع المجال الدلالي للكلمة وبدأت الكلمة تتجه نحو مزيد من التركيب والإبهام على يد جون هوليوك ١٨١٧ - ١٩٠٦م الذي يعتبر أول من صاغ المصطلح بمعناه المعاصر، وجعله يتضمن أبعادًا سياسية واجتماعيَّة وفلسفية، وأراد هوليوك أن يُجنب المصطلح

مصادمة الأديان فعرَّف العلمانيَّة بما يشير إلى الرغبة في الحياد فقال: العلمانيَّة: هي الإيمان بإمكانية إصلاح حال الإنسان من خلال الطرق الماديَّة، دون التصدي لقضية الإيمان سواء بالقبول أو الرفض.

وهوليوك كان ينفي عن نفسه تهمة الإلحاد، ولكنه في نفس الوقت يعترف بعدم وجود أدلة كافية للإيمان بالله، ويجهر أحيانًا بأن الإله إنما هو: الحاضر المعيش.

ويرجع أول استخدام لكلمة علمانيَّة عند هوليوك إلى شهر ديسمبر سنة ١٨٤٦ م عندما أوردها في مقال نشره في مجلة «ذي ريزونور»؛ أي «المجادل العقلاني»، والسبب أنه شعر مع بعض زملائه وأسلافه مثل «توماس بين» و«ريتشارد كارليل» و«روبرت تيلور» أن المسيحيَّة لم تعد مقبولة لدى أكثر فئات المجتمع، وقد مست الحاجة إلى استبدالها بمبدأ حديث فكان هو «العلمانيَّة»، وقد سماها أتباع روبرت أدين بـ«الدين العقلاني».

وأسس هوليوك في عام ١٨٥٥ م «جمعيَّة لندن العلمانيَّة»، وفي ديسمبر من نفس العام تحولت الحركة العلمانيَّة إلى تيار واسع النطاق، وتزايد انتشارها بين عامي ١٨٥٣ - ١٨٥٤ م، مما دفع القس بردين جرانت إلى التصدي لها في كل أنحاء إنكلترة مفندًا ومجادلًا.

ولكن ازداد توزيع مجلة «الريزونور» العلمانيَّة إلى خمسة آلاف نسخة، وانتشرت الجمعيَّات العلمانيَّة في جميع أنحاء بريطانيا ومن أبرزها «جمعيَّة لستر العلمانيَّة» و«جمعيَّة بولتون العلمانيَّة» وجمعيَّات أخرى في سائر أنحاء البلاد.

وكان لجهود تشارلس برادلاف ١٨٣٣ - ١٨٩٤ م دورًا كبيرًا في ترسيخ المبادئ العلمانيَّة الجديدة، وإضفاء طابع الإلحاد عليها، وذلك عندما استلم رئاسة جمعيَّة لندن العلمانيَّة سنة ١٨٥٨ م بدلًا من هوليوك، واشترك سنة ١٨٦٠ م في تحرير مجلة «المصلح القومي» التي حلت محل سابقتها «الريزونور» وأسس الجمعيَّة العلمانيَّة القومية سنة ١٨٦٦ م.

اندثرت مجلة «المصلح القومي» سنة ١٨٨١ م لتحل محلها مجلة «المفكر الحر» التي زادت من جرعتها الإلحادية، فكانت لا تكف عن الاستهزاء بالأناجيل، والسخرية من الذات الإلهية، إلى درجة أنها طالبت بمحاكمة أصحاب الأناجيل الأربعة؛ لأنهم يجدفون على الله فهم يقولون بأن الله، ضاجع عذراء يهودية وأنجب منها طفلًا غير شرعي أسماه المسيح.

العَلمانيَّة والعِلمانيَّة:

إن العَلمانيَّة -بالفتح- والعِلمانيَّة -بالكسر- ظاهرتان بارزتان في الفكر الغربي، وإحداهما تكمل الأخرى.

فالعَلمانيَّة -بالفتح- المراد بها المعنى المتقدم، وهي ظاهرة قديمة وممتدة في عمق التاريخ، وتغلغلت في كافة الحضارات.

أما العِلمانيَّة -بالكسر- فهي احتكام لمنطق العلم دون سواه في تأويل الأشياء المتصلة بمختلف

أوجه النشاط البشري.

وقد ظهرت لفظة العِلمانيَّة -بالكسر- في بدايات القرن العشرين تقريبًا سنة ١٩١١م تيارًا ذهنيًّا يقوم على حل المشاكل الذهنية بواسطة العلوم، فهي تنطلق من الإيمان بأن للعلم قدرة فائقة على إعطاء تفسير علمي للأشياء، أو كما قال جون فيول: الاعتقاد في القدرة الفائقة للعلم الوضعي حتى في المجال الديني.

وفي القاموس الإنجليزي الجديد: العلمانيَّة -بالكسر- تعني العادات وطريقة التعبير لدى رجل العلم.

ويرى فريدريك فون هايك صاحب كتاب العلمانيَّة وعلم الاجتماع أن هذا المفهوم: تبلور معناه واكتمل مدلوله عندما تكونت الجمعيَّة البريطانية للتطور العلمي.

وعلى هذا نقول: إن العِلمانيَّة -بالكسر- مشتقة من العِلم وتدعو إلى الاحتكام إلى العلم، وهي ظاهرة جديثة وظفتها العَلمانيَّة -بالفتح- توظيفًا خاطئًا وخطيرًا على البشرية والإنسانية جمعاء.

فالعلم عند الغربيين الطبيعيين لا يتناول إلا المحسوسات والمشاهدات، فهو العلم الطبيعي والرياضي فقط، ولا صلة له بالميتافيزيقا أو بالأسئلة الكبرى المتعلقة بمصير الإنسان.

فهي تقوم على عقلانيَّة ماديَّة وضعيَّة اجتماعيَّة وتطرح مفهومًا جديدًا للعلم يحيد التفكير الميتافيزيقي عن ساحته.

فالفهم العلمي العِلماني إذن يتنافى مع الإيمان بالوحي الإلهي وهكذا تعود العلمانيَّة فتنقلب إلى علمانيَّة.

فالحاصل أن لفظتي علمانيَّة -بالفتح- وعلمانيَّة -بالكسر- تصلحان تعبيرًا عن الظاهرة الماديَّة التي تستولي اليوم على مجتمعاتنا الإسلاميَّة، وذلك لأن الكلمتين متكاملتان متفاعلتان من حيث المفهوم، فالعلمانيَّة هي تكريس للدنيويَّة، والعلمانيَّة أساس هذا التكريس؛ لأن العلم بمفهومها هو العلم المادي والتجريبي والطبيعي -أي الدنيوي فقط- ولا تعترف بعلوم غيبية ميتافيزيقية أخرى.

فالعلمانيَّة وإن لم ترتبط بالعلم من حيث الاشتقاق ولكنها لا تنفك عنه إذ هي ارتبطت تاريخيًا بتعلم العلوم العقلية والطبيعية والتجريبية.

نهاية العلمانيَّة

تبلور مؤخرًا مفهوم «ما بعد العلمانيَّة» (بالإنجليزية: بوست سيكولاريزم -Post-secularism) وصاغه البروفسير جون كين، و«ما بعد» هنا تعني في واقع الأمر «نهاية»، وتشير إلى أن النموذج المهيمن قد فقد فعاليته، ولكن النموذج الجديد لم يحل محله بعد، حيث يرى أن العلمانيَّة لم تف بوعودها بشأن الحرية والمساواة (حيث تنتشر العنصرية والجريمة والنسبية الفلسفية)

وأخفقت في العالم الثالث (حيث تحالفت الأنظمة العلمانيَّة مع الاستبداد والتوى العسكرية)، ولم تؤدِ إلى الجنة العلمانيَّة الموعودة، ذلك في حين ظلت المؤسسات الدينيَّة والنيم المطلقة فاعلة على مستوى المجتمع وحياة الناس اليومية، في معظم بلدان العالم الثالث[1].

تاريخ العلمانيَّة

ظهرت هذه الدعوة في أوربا في القرن السابع عشر، وانتشرت فيها، وعمت أقطار العالم بحكم النفوذ الغربي والتغلغل الشيوعي.

وقد أدت ظروف كثيرة قبل الثورة الفرنسيَّة وبعدها إلى انتشارها الواسع وتبلور منهجها وأفكارها، وقد تطورت الأحداث وفق الترتيب التالي:

وضع النصرانيَّة والكنيسة في أوربا:

١- انحرافات جذرية في عقيدة النصارى: لم تعرف أوربا دين الله الحقيقي الذي أنزل على عيسى ابن مريم عليه السلام، إنما عرفت صورة محرفة عنه، هي التي أذاعها بولس ونشرها في ربوع الأرض، وبخاصة في أوربا، وقد كان بولس صاحب نظرية دينية ومعلمًا يعلم الناس قبل أن يسمع يسوع الناصري بزمن طويل، ومن تأثره بالفلسفات السابقة على المسيحيَّة فقد كان ذهنه مشبعًا بفكرة الشخص الضحية الذي يقدم قربانا لله، كفارة عن الخطيئة.

فما علمه بولس هو الديانة القديمة، ديانة الكاهن والمذبح، وسفك الدماء لاسترضاء الإله، وهي العناصر التي أتى بها وخاصة الميثرائية التي أتى بها من ديانات فارس، والديانة الهلنستية التي جاء بها من الإغريق، والتثليث الذي استوحاه من الديانة المصريَّة القديمة.

ويقول الفيلسوف الفرنسي رينان: «إنه ينبغي لفهم تعليم يسوع المسيح الحقيقي كما كان يفهمه هو أن نبحث في تلك التفاسير والشروح الكاذبة التي شوهت وجه التعليم المسيحي حتى أخفته عن الأبصار تحت طبقة كثيفة من الظلام، ويرجع بحثنا إلى أيام بولس الذي لم يفهم تعليم المسيح بل حمله على محمل آخر، ثم مزجه بكثير من تقاليد الفريسيين وتعاليم العهد القديم».

ثم لماذا يحمل الإنسان عبء عقيدة الخطيئة الأولى، وأنه يميل ميلًا فطريًّا إلى الشر؟

وهذا القيد الأبدي في علاقات الزواج غير المحتملة، وتحريم الطلاق مهما كانت دوافعه التي لا تطاق، وهو الأمر الذي دعا (مارتن لوثر) نفسه إلى القول بهذه الشناعة: «أي امرأة تتزوج من

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة، الندوة العالمية للشباب المسلم (٢/ ٦٧٩)، العلمانية في المصادر الغربية، والعَلمانية والعِلمانية، د. أحمد إدريس الطعان، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٦٢٤، قاموس المورد، منير البعلبكي ص(٥١٠، ٥١٧، ٥١٨، ٥٢٧)، معجم أكسفورد ص(٨٤٩، ٨٥٠)، معجم اللغة البريطانية العالمية (٣/ ١١٣٨)، معجم ويبستر ص(٢٠٥٣)، دائرة المعارف البريطانية (١٠/ ٥٩٤)، دائرة المعارف الأمريكية (٢٤/ ٥١٠، ٥١١).

رجل عِنِّين يجب أن يُسمح لها -إذا وافق زوجها- بأن تضاجع رجلًا آخر لكي تنجب منه طفلًا، ويجب أن يُسمح لها بأن تدعي أن الطفل هو ابن زوجها».

ومن ناحية أخرى «فقد أوضح العقل أن من غير الطبيعي تمامًا أن يمسك الأصحاء عن ممارسة الجنس باسم الرهبنة، ويحرِّمونه على أنفسهم نهائيًّا، وأن التبرير اللاهوتي لمثل هذا الضرب من السلوك غير الطبيعي هراء».

بل إن مسألة السعادة نفسها كانت كما قال (القديس جوست) أمام الجمعيَّة العامة الفرنسيَّة: «فكرة جديدة على أوربا».

أضف إلى ذلك وضع (النبالة الموروثة) بمعنى أفضلية طبقة محددة بامتيازات خاصة متوارثة. هل هذا أمر يخضع للمعقولية؟

٢- فصل العقيدة عن الشريعة وتقديم الدين للناس كأنه عقيدة فقط بغير تشريع تحت شعار «أدِّ ما لقيصر لقيصر وما لله لله!».

وأصبح الدين النصراني دين يهمل الحياة الدنيا بدعوى تفاهتها وحقارتها وعدم جدارتها بالاهتمام، وبدعوى أن الإنسان خاطئ بطبعه، ولا سبيل إلى إصلاحه في الحياة الدنيا وكفه عن الخطيئة إلا بكفه عن ممارسة الحياة ذاتها.

دين يحتقر الجسد ويشمئز من نشاطه الفطري؛ لأن هذا النشاط هو الذي يوقع الناس في الخطيئة، وما دفع إلى الخطيئة فهو ذاته خطيئة! وعلاجه الوحيد هو الكبت والقهر.

دين يحقِّر الإنسان ليمجد الرب... كأنما لا يتحقق تمجيد الرب إلا بتحقير الإنسان... و ذلك بدعوى أن الإنسان إذا اتجه لتحقيق وجوده تمرد على الرب، فلا بد من سحقه، وإذلاله، وتحقيره لكي يتمجد الرب في قلبه، فيحصل على الخلاص.

دين يصرف الناس عن عمارة الأرض، وعن ترقية الحياة وتنميتها، بدعوى أن ذلك سيصرف الناس عن التوجه إلى الآخرة، وسيحرك شهواتهم التي لا بد أن تكبت، ومن ثم يوقعهم في الخطيئة الواقفة للإنسان بالمرصاد.

٣- سلطوية الكنيسة: تم ابتداع فكرة الكنيسة والتي لا سند لها إلا ذلك القول المنسوب إلى المسيح في إنجيل متى: أنت بطرس، وعلى هذه الصخرة ابْنِ كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها، وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات، فكل ما تربطه في الأرض يكون مربوطًا في السموات، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولًا في السموات.

فنشأت الكنيسة واستمدت سلطانها الزائف من تلك الأسطورة المنسوبة للمسيح، وهي التي أعطت حق الحل والربط لحواريِّه بطرس، وهذا أعطاه بدوره لآباء الكنيسة من بعده، فما ربطه بطرس وخلفاؤه من بعده في الأرض لا يحل في السماء، وما حله في الأرض لا يربط في السماء؛ أي إنهم زعموا أن الأرض تحكم السماء، وأن البشر يحكمون قدر الله ومشيئته.

وقد اكتفت الكنيسة الأوربية بسلطانها الروحي على قلوب تابعيها، غير أن ذلك لم يستمر إلا في وقت استضعافها في القرون الثلاثة الأولى، حيث كان النصارى مضطهدين في عهد القياصرة الوثنيين، ولكنها استأسدت بعد ذلك في القرن الرابع حين دخل قسطنطين في النصرانيّة، ومكن للكنيسة ورجالها، بعد أن أفلح في مزج دينها بأساطير الوثنية، وأرضى بذلك النصارى والوثنيين معًا، وأمَّن سلطانه على الإمبراطورية التي كان النزاع الديني قد أوشك على القضاء عليها!

وحين أصبح للكنيسة سلطان سياسي إلى جانب السلطان الروحي بدأ الطغيان، وفي بيان للبابا نقولا الأول ورد في كتاب قصة الحضارة للكاتب ول ديورانت، يقول «إن ابن الله أنشأ الكنيسة بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها، وإن أساقفة روما قد ورثوا سلطات بطرس في تسلسل مستمر متصل، ولذلك فإن البابا ممثل الله على ظهر الأرض يجب أن تكون له السيادة والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين حكامًا كانوا أو محكومين».

٤- فساد رجال الدين وجهالتهم، فقد تحول رجال الدين إلى طواغيت ومحترفين سياسيين ومستبدين تحت ستار الإكليروس، والرهبانيَّة، والعشاء الرباني، وبيع صكوك الغفران.

فرضوا سلطانًا فكريًّا رهيبًا يحجر على العقول أن تفكر إلا بإذن الكنيسة، وفي الحدود التي تسمح بها الكنيسة، وقد كان هذا ضرورة لازمة منطقية مع التحريف الذي حدث في الدين، خاصة فيما يتعلق بذات الإله والعشاء الرباني، وقدرات الكهنة المتمثلة في كراسي الاعتراف وصكوك الغفران التي تدخل الجنة وغير ذلك من أمثال تلك الأسرار... كلها أمور لا يستطيع العقل أن يدركها ولا أن يتدبرها... فماذا لو أعمل الناس عقولهم، فاكتشفوا أن يقال لهم باسم العقيدة كلام لا يثبت للتمحيص؟، ماذا يبقى للكنيسة عندئذ من سلطان على الناس؟، فالحل الأمثل لهذه الحال إذن أن تحجر الكنيسة على العقل، وأن يعتبر التفكير هرطقة تفضي إلى إهدار الدم في الدنيا، والحرمان من الغفران.

٥- الصراع الذي نشأ بين الكنيسة والكشوف العلميَّة في جوانب الحياة المختلفة، فعلى الرغم من أن الديانة النصرانيَّة ديانة روحية صرفة إلا أن المؤسسة الكنسية تبنت بعض النظريات العلميَّة القديمة في بعض العلوم، ثم بمرور الزمن جعلتها جزءًا من الدين يحكم على كل من يخالفها بالردة والمروق والهرطقة، وحين تطورت العلوم الطبيعية، وبدأت تتسرب إلى أوربا من العالم الإسلامي عن طريق الترجمة التي حدثت في الأندلس، وكذلك عقب الحروب الصليبية، تبين أن الكثير من تلك النظريات كانت خاطئة وخلاف الصواب والحقيقة، وانبرت الكنيسة تدافع عن تلك الأخطاء باعتبارها من الدين، واشتعلت الحرب، وسقط ضحايا التزمت الخرافي والتعصب الأعمى غير المبرر من علماء الطبيعة ما بين مقتول ومحروق ومشنوق، ومارست الكنيسة أقصى درجات القمع الفكري والبدني على معارضيها بزعمها.

وهكذا وقفت الكنيسة ضد العلم وهيمنت على الفكر وشكلت محاكم التفتيش واتهمت العلماء

بالهرطقة، مثل:

- كوبرنيكوس: نشر سنة ١٥٤٣م كتاب حركات الأجرام السماوية، وخالف فيه ما كانت الكنيسة تعتقده من أن الأرض مركز الكون، وأن الأجرام السماوية كافة تدور حولها، وقد حرمت الكنيسة هذا الكتاب.

- وجاء بعده برونو بتأكيد نفس النظرية، فسجنته الكنيسة فأصر على رأيه فأحرقته.

- جاليليوجاليلي: أيد النظرية فلقي في السجن العذابَ والمهانةَ، وكاد أن يلقى نفس مصير برونو لولا أنه خشي على حياته فأعلن ارتداده عن أفكاره، وصنع التلسكوب فعُذب عذابًا شديدًا وعمره سبعون سنة وتوفي سنة ١٦٤٢م.

- وأهدرت الكنيسة دم كل من يقول يومئذ بكروية الأرض، أو أنها ليست مركز الكون.

- ديكارت: فدعا إلى تطبيق المنهج العقلي في الفكر والحياة، واستثنى الدين تحت الرهبة من الكنيسة التي لم يزل لها نفوذ وسطوة.

- بيكون: أظهر المنهج التجريبي والازدواجية في الفلسفة والنظر العلمي، والفصل بين العلم البشري والوحي الإلهي، الذي كان يمثل مرحلة طبيعية في سلم التدرج من الإيمان المطلق بالوحي إلى الإنكار المطلق له.

- سبينوزا: صاحب مدرسة النقد التاريخي وقد كان مصيره الموت مسلولًا، وله رسالة في اللاهوت والسياسة، وكان يرى «أن الكتب المقدَّسة ليست مصادر للحقيقة النظرية، وما الأديان الكبرى إلا أدوات للتنظيم الاجتماعي، وللأخلاقية العملية أولًا وقبل كل شيء».

- جون لوك: طالب بإخضاع الوحي للعقل عند التعارض.

- ثم جاء نيوتن: وظهرت نظريات علمية هزت الكنيسة وأثارتها، كان من هذه النظريات القول بأن من الممكن تفسير ظواهر الطبيعة بربط بعضها ببعض دون حاجة إلى تدخل قوى خارجية عنها، وكانت هذه النظرية بمثابة النواة للمذهب الطبيعي، والنظرية الميكانيكية.

٦- وكان الناتج لهذا كله أن (رجال الدين) النصارى أنفسهم كانوا يدركون أن الديانة التي يحملون مسئوليتها لا تحتمل على وجه من الوجوه أي إعمال للعقل، وهو الأمر الذي يعني أن استمرار وجودها ومن ثم استمرار مسئولياتهم وامتيازاتهم رهين بضرب حجاب كثيف على العقل لإعاقة قدرته على العمل، وهو الأمر الذي تمثل في مقولة القديس (أوغسطين) الذي سادت أفكاره القرون الوسطى الأوربية: «لست أسعى للفهم لكي أعتقد، بل إنني أعتقد كي أفهم».

بل إن (مارتن لوثر) نفسه الذي جاء بعده بعشرة قرون قرر بكل وضوح: «لا تستطيع أن تقبل كُلًا من الإنجيل والعقل معًا؛ فأحدهما لا يفسح الطريق للآخر... إن العقل عندهم هو أكبر عدو للإيمان». ولأن إلغاء العقل هو في ذاته أمر غير معقول ولا يتفق مع الطبيعة الإنسانية؛ فقد جاء

التمرد من جانب العقول المفكرة في أوربا، حيث مُورِسَتْ أبشع الوسائل الوحشية في مواجهة الخصوم الداعين إلى الحرية والفكر مما لا نظير له في التاريخ على امتداد قرون عصر النهضة الغربية أي منذ نهايات القرن الثاني عشر إلى نهايات القرن السابع عشر، وكان رد الفعل هو نبذ هذا الدين، والتحرر من سجنه، فكانت الأفكار والفلسفات التي تهرول في الاتجاه الآخر، بعيدًا عن كل ما فيه أثر من ذلك السلطان الكنسي، وكانت العلمانيَّة.

إرهاصات الثورة الفرنسيَّة:

ما أن بدأ القرن الثامن عشر حتى أصبح الانحلال طاغيًا، والإلحاد هو المذهب السائد، وكما يقول (ول ديورانت) عن صورة ذلك في فرنسا: «أصبح التحلل من الأخلاق شارة التحرر ورقي الثقافة»، وكانت النصرانيَّة قد أخذت في الاضمحلال قبل أن يصوِّب لها (فولتير) سهام قلمه حتى قال ماسينين في ١٧١٨م: «يكاد الكفر اليوم يضفي على أصحابه مظهر التميز والفخار؛ إنه فضيلة توصل إلى العظماء... وتجلب للمغمورين شرف الألفة بأمير الشعب».

- ظهور مبدأ العقل والطبيعة: فقد أخذ العلمانيون يدعون إلى تحرر العقل وإضفاء صفات الإله على الطبيعة.

- جان جاك روسو سنة ١٧٧٨م له كتاب العقد الاجتماعي الذي يعد إنجيل الثورة، وينادي بالعودة إلى الطبيعة إلا أنه اضطر إلى استبدال حالة الطبيعة بحالة الحضارة.

وإذا كان الإنسان في حالة الطبيعة لا يطيع أحدًا؛ فإنه لزامًا عليه في حالة الحضارة أن يطيع أوامر يعرف أنها لم تنبع من ذاته مباشرة، وإنما أملتها إرادة شارك فيها هو وغيره حتى غدت (إرادة عامة) صنعها «العقد الاجتماعي».

- ومونتسكيو له روح القوانين، أقام فلسفة التاريخ في كتابه هذا اعتمادًا على التأثيرات المختلفة لتغيرات المناخ بين الأقاليم، وأن تلك التأثرات هي التي تصنع العادات والتقاليد التي تكون ملائمة لكل إقليم عن الآخر.

- فولتير صاحب القانون الطبيعي، كان له: الدين في حدود العقل وحده، سنة ١٨٠٤م.

يقول فولتير في مقال المتناقضات: «مَنْ خوّل الكنيسة سلطة الحكم بأن تقول إن أربعة فقط من الخمسين إنجيلًا التي دونت في القرن الذي تلا موت المسيح هي وحدها -أي الأناجيل الأربعة- معتمدة، أي موحى بها من عند الله؟ وأي سهو فاضح أن يتحدث الكتاب عن مولد المسيح من مريم العذراء، ثم يتعقب نسبه إلى داود (...) عن طريق يوسف المزعوم الخامل؟ ولماذا نبذت المسيحيَّة شريعة موسى على الرغم من تكرار توكيد المسيح عليها؟ وهل كان بولس الذي نبذ هذه الشريعة (من أجل قطعة صغيرة من الجلد) سلطة أو مرجعًا أقوى من المسيح؟».

ويقول فولتير: «إن لديَّ مائتي مجلد في اللاهوت النصراني، والأدهى من ذلك أني قرأتها وكأني أتجول في مستشفى للأمراض العقلية...».

وقد رأى فولتير في تاريخ النصرانيَّة «شقاء بالغًا للجنس البشري؛ فصوفية بولس، وخرافات الأناجيل المعترف بها أو المشكوك في صحتها، وأساطير الشهداء والمعجزات، وبراعة الكهنة في التخطيط والتدبير تضافرت كلها مع السذاجة المتغلغلة بأهداب الأمل عند الفقراء لإيجاد الكنيسة النصرانيَّة».

- وهيوم ١٧٧٦م التجريبي المتشكك في كل شيء، حتى تجريبيته؛ فقد حدد الدين الحق بأنه فلسفته الخاصة عن الدين، والتي ترجع ضرورة الاعتقاد في الله إلى الميل الذاتي في طبيعتها، وليس إلى أي دليل آخر ودون أن يؤدي ذلك إلى أية عقائد دينية.

- وليم جودين ١٧٩٣م له العدالة السياسية ودعوته فيه دعوة علمانيَّة صريحة.

- ميرابو الذي يعد خطيب وزعيم وفيلسوف الثورة الفرنسيَّة.

والواقع التاريخي يؤكد أن جميع الفلاسفة المرموقين كانوا معارضين للثورة على حكومات أوربا القائمة آنذاك، ويذكر ول ديورانت «أن منهم من وضعوا إيمانهم في الملوك؛ لأنهم أكثر أدوات الإصلاح عملية، واحتفظ فولتير وديدرو وجريم بعلاقات صداقة إن لم تكن إعجابًا شديدًا بواحد أو آخر من أشد الحكام المعاصرين استبدادًا (فردريك الثاني -كاترين الثانية- جوستاف الثالث).

ومع ذلك فإنه يمكن القول إنهم قدَّموا التمهيد الطبيعي للثورة بتوفير الإعداد الأيديولوجي لها. وقد يكون الخلاف كبيرًا حول العامل الأساسي للثورة: هل هو العامل السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي؟ ومع ذلك يظل الوقود الدافع لهذا الانقلاب الرهيب الذي حدث في فرنسا هو الرغبة في التخلص من كل الميراث الكهنوتي الرهيب المتحالف مع الملوك والإقطاع والطبقات الأرستقراطية.

وقد ذهب توكفيل إلى أن «سوء السمعة العام الذي انحدر إليه الإيمان الديني كله في نهاية القرن الثامن عشر كان له ولا ريب أعظم الأثر في سير الثورة برمته».

الثورة الفرنسيَّة:

نتيجة لهذا الصراع بين الكنيسة من جهة وبين الحركة الجديدة من جهة أخرى، وبلوغ الفساد السياسي والتدهور الاقتصادي أقصاه، ونفاد صبر الشعب ممثلًا في الفلاحين والمهنيين الذي أنهكته المجاعة، بينما كانت هناك طبقتان منغمستان في التنعم والترف يمثلهما رجال الدين والنبلاء.

فكانت ولادة الحكومة الفرنسيَّة سنة ١٧٨٩م وهي أول حكومة لا دينية تحكم باسم الشعب، وتقوم على حرية التدين، بدلًا من الكثلكة، وعلى الحرية الشخصية بدلًا من التقيد بالأخلاق الدينيَّة، وعلى دستور وضعي بدلًا من قرارات الكنيسة.

وهناك من يرى أن الماسون استغلوا أخطاء الكنيسة والحكومة الفرنسيَّة وركبوا موجة الثورة لتحقيق ما يمكن تحقيقه من أهدافهم.

وعندما سارت الجموع الغوغائية لهدم الباستيل رمز العبودية والاستبداد وكان شعارها الخبز ثم تحول شعارها إلى (الحرية والمساواة والإخاء) وهو شعار ماسوني، وشعار «التسقط الرجعية» وهي كلمة ملتوية تعني الدين، وقد تغلغل اليهود بهذا الشعار لكسر الحواجز بينهم وبين أجهزة الدولة وإذابة الفوارق الدينيَّة، وتحولت الثورة من ثورة على مظالم رجال الدين إلى ثورة على الدين نفسه.

الثورة الأمريكيَّة:

يذهب (ول ديورانت) إلى أن الفلسفة اتفقت مع الدبلوماسية في المساندة الفرنسيَّة للثورة الأمريكيَّة «فمؤلفات فولتير، وروسو، وديدرو، ورينال، وعشرات غيرهم أعدت الذهن الفرنسي لمناصرة تحرير المستعمرات كما ناصرت التحرير الفكري، وكان الكثيرون من الزعماء الأمريكيين -كواشنطن وفرانكلين وجيفرسون- أبناء التنوير الفرنسي؛ ومن ثم فحين قَدِمَ (سيلاس دين) إلى فرنسا (مارس ١٧٧٦م) ملتمسًا قرضًا للمستعمرات الثائرة كان الرأي العام الفرنسي شديد التعاطف معه».

ومن الصعب القول بأن الشخص العادي الذي كان يعمل بالمستعمرات كان يتبع الحركة التنويرية الأوربية، ومع ذلك فقد توافرت للأسرة الميسورة الحال نسبيًّا كل من الموارد والوقت اللازمين للمشاركة في التنوير الأوربي.

«ولقد كوَّن العديد من الصفوة التي تبنت الآراء التنويرية رؤية غير تقليدية للدين؛ فالدين نفسه كان يجري تحليله بطريقة عقلانيَّة»، وإذا كان رجال الثورة الأمريكيَّة استعاروا من مونتسكيو نظرية الفصل بين السلطات؛ فإن جيفرسون قد استعار الكثير من جون لوك حين كتب نظريته السياسية كما جاءت في الفقرة الثانية من دستور الثورة.

الحركات الفكريَّة:

في القرن التاسع عشر قامت في الغرب حركة اجتماعيَّة فكرية سياسية شاملة نفضت غبار الماضي، وثارت على كل قديم، واحتدمت نيران الصراع بين القوى الاجتماعيَّة والسياسية الجديدة والقوى القديمة التي يمثلها الإقطاع وطبقات النبلاء، وانحازت الكنيسة أيضًا للقوى القديمة، بينما كانت القوى الجديدة تطالب بالحريات المساواة، وترفع شعار حقوق الإنسان، ويدعمها العلم وحقائقه، وتطور الحياة وسنتها... فالتفت الشعوب والجماهير حول القوى الجديدة الداعية إلى التقدم الاجتماعي والتطور الفكري والسياسي، وكان يدعم هذا التوجه ما عاشته الشعوب من ظلم واستغلال بشع في ظل الإقطاع والكنيسة، وكانت العلمانيَّة اللادينية هي اللافتة والراية التي اجتمعت القوى الجديدة تحتها، وبانتصار هذه القوى انتصرت العلمانيَّة، واندحرت النصرانيَّة وأخذت القوى الجديدة تبشر بعصر جديد يسعد فيه الإنسان، وتحل جميع مشكلاته، ويعم السلام والرفاهية والرخاء جميع الشعوب، وهو ما لم يتحقق إلا بعضه.

ومن هذه المذاهب الفكريَّة الشهيرة:

١- نظرية التطور: ظهر كتاب أصل الأنواع سنة ١٨٥٩م لتشارلز دارون الذي يركز على قانون الانتقاء الطبيعي وبقاء الأنسب، وقد جعلت الجد الحقيقي للإنسان جرثومة صغيرة ذات خلية واحدة عاشت في مستنقع راكد قبل ملايين السنين، والقرد مرحلة من مراحل التطور التي كان الإنسان آخرها.

وقد حكم اثنان من علماء الأحياء في القرن الماضي هما «أوين» في إنجلترا، و«أجاسيز» في أمريكا على تلك النظرية بأنها مجرد خرافة علمية، وأنها سوف تنسى بسرعة.

كما انتقدها العالم الفلكي الشهير «هرشل» بل وسائر أساتذة الجامعات، ومع ذلك تشبث بعض علماء الغرب بها؛ وذلك لأن هذه النظرية أدت إلى انهيار العقيدة الدينيَّة ونشر الإلحاد، يقول السير آثر كيت: إن نظرية النشوء لا زالت حتى الآن بدون براهين، وستظل كذلك، والسبب الوحيد في أننا نؤمن بها، هو أن البديل الوحيد الممكن لها هو الإيمان بالخلق المباشر، وهذا غير وارد على الإطلاق.

٢- ظهور نيتشه (اليهودي): وفلسفته التي تزعم بأن الإله قد مات، وأن الإنسان الأعلى (السوبر مان) ينبغي أن يحل محله.

٣- دوركايم (اليهودي): جمع بين حيوانية الإنسان وماديته بنظرية العقل الجمعي، الذي تقول: إن الإنسان حيوان خاضع «لجبرية اجتماعيَّة».

٤- فرويد (اليهودي): صاحب نظرية التحليل النفسي الذي اعتمد الدافع الجنسي مفسرًا لكل الظواهر، والإنسان في نظره حيوان جنسي يتعامل مع كل شيء بناء على هذا الدافع.

٥- كارل ماركس (اليهودي): صاحب التفسير المادي للتاريخ الذي يؤمن بالتطور الحتمي وهو داعية الشيوعية ومؤسسها الأول الذي اعتبر الدين أفيون الشعوب.

٦- جان بول سارتر في الوجودية، وكولن ولسون في اللامنتمي: يدعوان إلى الوجودية والإلحاد.

٨- والوضعيَّة المنطقية والعلمانيَّة التحليلية والبرجماتية: حتى بلغ مرحلة الإجهاد التام في الفكر الحداثي وما بعد الحداثي من المذاهب الغربية؛ لأنها تمثل التيار العام الذي تولدت عنه مختلف هذه المذاهب.

الدور الماسوني اليهودي:

لليهود دور بارز في ترسيخ العلمانيَّة من أجل إزالة الحاجز الديني الذي يقف أمام اليهود حائلًا بينهم وبين أمم الأرض.

فليس غريبًا أن يكون اليهود وراء فصل الدين عن الدولة، كما صرح بذلك الكاتب الأمريكي

وليام غاي كار في كتابه (أحجار الشطرنج)؛ «بغية القضاء على الدين الذي حرَّفوه، بتعطيله عن المجتمع داخل جدران الكنيسة»؛ لأنّ العلمانيَّة تذيب الفوارق الدينيَّة الهائلة بين اليهود وغيرهم من الشعوب والأمم.

ولا يخفى هاهنا دور أدبيات المفكرين اللادينيين من اليهود السابق ذكرهم وغيرهم.

ويذكر مرفين جونز أن «ديدرو كان قوميًا في نظرته الفلسفية، ومتطرفًا، في السياسة والدين، وكان أيضًا ماسونيًا هو وعدد ممن كانوا سيقومون بالعمل في موسوعة التنوير (رغم أن هذه الحقيقة موضع شك في حالات عدة) وكتب ديدرو نفسه أقسامًا كبيرة من الموسوعة، وشارك بأقسام أخرى أناس كانوا يسمون فلاسفة التنوير أمثال فولتير وروسو ومونتسيكو ودولباش ودالمبير، وكانت الموسوعة مثلها مثل الماسونية تعبيرًا عن الإنسانية الجديدة والكونية والعقلانيَّة»

وهذا الذي قرره جونز بقدر من الشك يؤكده ول ديورانت إلى درجة أنه يذكر عن فولتير في آخر حياته «في ٧/ ٤/ ١٧٧٨م أخذ فولتير إلى محفل «الأخوات التسع» الماسوني فقُبل عضوًا دون أن يُلزَم باجتياز المراحل التمهيدية المألوفة. وكلل رأسه بإكليل من الغار، وألقى رئيس المحفل خطابًا قال فيه: «إننا نقسم بأن نساعد إخوتنا، ولكنك كنت المؤسس لمستعمرة كاملة تعبدك وتفيض بإحسانك... لقد كنت أيها الأخ المحبوب جدًا ماسونيًا قبل أن تنال الرتبة، وقد حققت التزامات عضو الماسونية قبل أن تتعهد بالوفاء بها».

ويذكر جونز عن التنويريين الأمريكيين «أن بنيامين فرانكلين الذي تبنت جمعيته الفلسفية النظرة العقلانيَّة أصبح ماسونيًا عام ١٧٣١م، وسرعان ما صار رئيسًا أعظم لدولة بنسلفانيا، ومن بين الشخصيات الأمريكيَّة الماسونية الشهيرة في تلك الفترة جورج واشنطون الذي كان رئيس ميثاق محفل الإسكندرية، والجزندر هيلتون، وأبطال ثوريون من أمثال بول ريفير والأميرالاي جون بول جونز» (١).

رأي آخر في نشأة العلمانيَّة:

يذهب بعض الباحثين إلى أن نشأة العلمانيَّة كانت في الحضارة الإغريقية في أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد (١١٠٤ق. م)، وذلك أن التراث الديني الذي عاشت عليه هو الملاحم التي تنسب إلى (هوميروس) ومجمع الآلهة في جبل الأولمب وكل هذا من الأساطير والخرافات، فطفق فلاسفتها -الذين وضعوا أسس الحضارة في التفكير الغربي مثل ديمقريطس وأرسطو وأبيقور- يبحثون عن مصدر آخر للحقيقة بعيدًا عن هذا الجو الأسطوري الدنس، وما كان للفلاسفة سوى أن يعتمدوا

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٧٩- ٦٨١)، ما هي هذه العلمانية، مجدي هلال، العلمانية التاريخ والفكرة، د. عوض محمد القرني، العلمانية النبتة الغربية عن الحضارة الإسلامية، د. محمد عمر دولة، حقيقة التنوير، محمد إبراهيم مبروك، العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، د. سفر الحوالي.

على عقولهم وخبراتهم الواقعية في العمل على إدراك حقائق الوجود، وإدراك حقيقة الدين نفسه.

فكانت السمة الرئيسية التي تحكم الطريقة الإغريقية في التفكير الاقتصار على العقل البشري وخبراته فقط في معرفة الحقيقة وتجريد الوعي البشري من أي معرفة دينية للحقيقة أو بقول آخر البحث عن ثمار الحقيقة في غير شجرة الدين تمامًا إلى الأبد.

وهذا هو المعنى الحقيقي للعلمانيَّة الذي لا يسمح لشيء آخر غير العقل أن يتدخل أدنى تدخل في حياة الإنسان وتصوراته، ولا يترك حتى للدين نفسه أن يحدد موقعه من تلك الحياة، بل هي -لو أرادت- التي تسمح بهذا التدخل الذي تقوم بتحديد نطاقه الضيق للدين؛ بحيث يتحتم عليه عدم الخروج منه.

وعلى هذا تكون العلمانيَّة هي طريقة التفكير التي كان ينتهجها التيار الأساسي في الفكر الإغريقي الذي يعد الفكر الغربي بوجه عام امتدادًا طبيعيًا له، ولم تنشأ كما هو سائد رد فعل لجمود الكنيسة الغربية واضطهادها للعلماء والمفكرين في عصر النهضة. وإن غاية ما حدث في ذلك أن هؤلاء العلماء والمفكرين استعانوا بها مرة أخرى في مواجهة كهنوت الكنيسة واضطهادها حتى سادت تمامًا واستمرت في الغرب حتى الآن[1].

الاتجاهات العلمانيَّة في العالم العربي والإسلامي

بسبب انحراف المسلمين عن مفاهيم الدين الصحيحة والمتمثل في مفهوم الألوهية ومفهوم الإيمان بالقدر، وبسبب التخطيط اليهودي الصليبي ظهرت الاتجاهات العلمانيَّة في العالم العربي والإسلامي، نذكر نماذج منها:

١- في مصر: دخلت العلمانيَّة مصر مع حملة نابليون بونابرت، وقد أشار إليها الجبرتي في تاريخه -الجزء المخصص للحملة الفرنسيَّة على مصر وأحداثها- بعبارات تدور حول معنى العلمانيَّة وإن لم تذكر اللفظة صراحة.

وأدخل الخديوي إسماعيل القانون الفرنسي سنة ١٨٨٣م، وكان هذا الخديوي مفتونًا بالغرب، وكان أمله أن يجعل من مصر قطعة من أوربا.

٢- الهند: حتى سنة ١٧٩١م كانت الأحكام وفق الشريعة الإسلاميَّة ثم بدأ التدرج من هذا التاريخ لإلغاء الشريعة بتدبير الإنجليز، وانتهت تمامًا في أواسط القرن التاسع عشر.

٣- الجزائر: إلغاء الشريعة الإسلاميَّة عقب الاحتلال الفرنسي سنة ١٨٣٠م.

٤- تونس: أدخل القانون الفرنسي فيها سنة ١٩٠٦م.

٥- المغرب: أدخل القانون الفرنسي فيها سنة ١٩١٣م.

---

(١) انظر: العلمانية، محمد إبراهيم مبروك.

٦- **تركيا:** لبست ثوب العلمانيَّة عقب إلغاء الخلافة، واستقرار الأمور تحت سيطرة مصطفى كمال أتاتورك، وإن كانت قد وجدت هناك إرهاصات ومقدمات سابقة.

٧- **العراق والشام:** ألغيت الشريعة أيام إلغاء الخلافة العثمانية، وتم تثبيت أقدام الإنجليز والفرنسيين فيهما.

٨- **معظم أفريقيا:** فيها حكومات نصرانية امتلكت السلطة بعد رحيل الاستعمار.

٩- **أندونيسيا ومعظم بلاد جنوب شرقي آسيا:** دول علمانيَّة.

١٠- **انتشار الأحزاب العلمانيَّة والنزعات القومية:** حزب البعث، الحزب القومي السوري، النزعة الفرعونية، النزعة الطورانية، القومية العربيَّة.

١١- **من أشهر دعاة العلمانيَّة في العالم العربي والإسلامي:** أحمد لطفي السيد، إسماعيل مظهر، قاسم أمين، طه حسين، عبد العزيز فهمي، ميشيل عفلق، أنطون سعادة، سوكارنو، سوهارتو، نهرو، مصطفى كمال أتاتورك، جمال عبد الناصر، أنور السادات صاحب شعار «لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين»، فؤاد زكريا، فرج فودة، وغيرهم[(١)].

منظّرو العلمنة في البلاد العربيَّة

العلمانيون في العالم العربي والإسلامي كثيرون منهم كثير من الكتاب والأدباء والصحفيين، ومنهم كثير ممن يسمونهم بالمفكرين، ومنهم أساتذة في الجامعات، ومنهم جمهرة غفيرة منتشرة في وسائل الإعلام المختلفة، وتسيطر عليها، ومنهم غير ذلك.

وكل هذه الطبقات تتعاون فيما بينها، وتستغل أقصى ما لديها من إمكانات لنشر العلمانيَّة بين الناس، حتى غدت العلمانيَّة متفشية في جل جوانب حياة المسلمين، نسأل الله السلامة والعافية.

وينبوع العلمانيَّة اللادينية: ميكافيللي، كالفن، توماس هوبز، جون لوك، جون ستيوارت، هولباخ، فولتير، ديكارت، مونتسكيو، جان جاك روسو، ثم الطبقة التي تليها هم: هيغل، كيجارد، كارلايل، داروين، انجلز، ماركس، نيتشه، فرويد، دركهايم، لينين، تروتسكي، جون ديوي، هيدجر، رسل، سارتر، وغيرهم كثير من المستشرقين والمفكرين والكتاب والفلاسفة.

هؤلاء كان لكتاباتهم الأثر الأكبر في تخريج هذه الطبقة في بلادنا العربيَّة: وهي: ألبرت حوراني، ماجد فخري، عبد الرحمن بدوي، عبد العزيز الدوري، ساطع الحصري، البستاني، عثمان أمين، محمد لطفي، زكريا إبراهيم، أنطون سعادة، شبلي شميل، فيليب حتي، سليم خياطة، رئيف خوري، جميل صليبا، حسين مروة، جورج طرابيشي، مصطفى حجازي، لطفي السيد، عبد العزيز فهمي، إسماعيل مظهر، جورجي زيدان، طه حسين، سلامة موسى، وبين تواريخ

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٨١، ٦٨٢).

وفياتهم بعض التقديم والتأخير، ومن النساء: صفية زغلول، وهدى شعراوي.

وهنا تأتي طبقة تواكب وبعضها يسبق من تقدم، لكنها تنتسب إلى الدين نوع انتساب، أو تظهر شيئًا من ذلك، مثل: رفاعة الطهطاوي، ومحمد عبده، وتأثر به سعد زغلول وأحمد لطفي السيد، وإن لم يكونوا منتسبين إلى الدين.

وكان كرومر يقول: أسميهم حبًا في الاختصار أتباع المرحوم المفتي السابق الشيخ محمد عبده.

وقد تأثر به قاسم أمين أيضًا وكان يقول: إنه استقى كتابه عن تحرير المرأة من توجيهات محمد عبده، وذكر لطفي السيد في كتابه قصة حياتي أن قاسم أمين قرأ عليه وعلى محمد عبده كتاب تحرير المرأة في جنيف قبل نشره، وعبد الله النديم يلحق بتلاميذ محمد عبده.

ثم من المنتسبين إلى الدين: الكواكبي، وطه حسين في بعض كتاباته، ويأتي في هذا الدور علي عبد الرازق، وقد ساهم هؤلاء بدور فعال في ترويج العلمنة بالقيام بدور خاص له طبيعة خاصة.

غير أن أشدهم في الدعوة إلي العلمنة والغارة على الإسلام لطفي السيد، وعبد العزيز فهمي، وإسماعيل مظهر، وكان من أشد القائمين بهذا الدور بنوع من التلبيس والتخفي في بعض كتاباته، صديق إسماعيل مظهر الحميم طه حسين.

ثم جاءت طبقة أخرى أحدث: زكي نجيب محمود، فؤاد زكريا، غالي شكري، تيزيني، العروي، الجابري، مقالح، أركون، علي زيعور، سعد الدين إبراهيم، ناجي علوش، العروي، حسين قبيصي، نديم البيطار، خليل أحمد، صلاح قنصوه، عادل ظاهر، مطاع صفوري.

ويذكر أيضا محمود أمين العالم، أدونيس (على أحمد سعيد)، فرج فودة، نور فرحات، خلف الله.

وأما محمد عمارة، عادل حسين، وطارق البشري، وكمال أبو المجد، فهمي هويدي، فهم برزخ بين السلفية (بمعناها العام أي رفض الفصل بين الدين والحياة) والعلمنة.

مع أن الغالين في العلمنة يسمون هؤلاء (السلفيون الجدد)، ويجعلون منهم حسن حنفي!! ولهؤلاء دور يشبه إلى حد ما دور من أشير إليهم من المتقدمين المنتسبين إلى الدين في تسهيل تغلغل العلمنة في المجتمعات الإسلاميَّة، وتراهم معجبين بكتابات الكواكبي، ومحمد عبده، والأفغاني أيما إعجاب، ومنهم من يرى في أفكار هؤلاء هي سبيل الهدى والرشاد.

هؤلاء كلهم بغض النظر عن عدم الدقة في تواريخ الوفيات، هم منظرو العلمنة في بلادنا العربيَّة، على اختلاف تياراتها بين ماركسية شرقية -التي ولت الآن بعد ما سقط صنمها- وليبرالية غربية، والقومية العربيَّة كانت تتركب مع أحد التيارين، وقد تراجعت أيضًا، مع تيار العولمة الجارف، وهيمنة الغرب على العالم، وسيطرته بنظام أحادي القطبية.

وعلى اختلاف أيضًا داخل كل تيار من جهتين:

الأولى: نوع مدرسة المفكر (أو المفكرين) الغربيين أو الشرقيين الذين تأثر بهم المفكر العربي،

سواء كان الخلاف داخل الليبرالية (الهيجلية، والظاهراتية، والبنيوية، والفرويدية، والوضعيَّة المنطقية. . .إلخ)، وهي داخل الليبرالية العلمانيَّة كإطار عام، أو كان داخل الماركسية التي شأنها شأن الليبرالية كذلك في اختلافه الداخلي.

والثانية: درجة الحماسة أو الغلو في تبني العلمنة أو معاداة الدين والتراث.

ومن هذه السلسلة انحدرت العلمانيَّة الخليجية على اختلاف توجهاتها، والتي لا تعتبر توجهات جماعية من الناحية الفكريَّة إن صح التعبير، بقدر ما هي توجهات فردية، ليس بينها رابط فلسفي يشكل مدرسة ذات أصول فكرية واحدة أو عقل جمعي بشكل ما.

وهي كذلك ليست ذات عمق وتوغل في النواحي الفكريَّة والفلسفية في المدرسة التي تتأثر بها، وليس لأكثرهم إن لم يكن كلهم، إضافات أو حتى تحليل نقدي ذي قيمة فلسفية إن كانت الفلسفة لها قيمة حقيقية، والحق عن هذا بمعزل، وهم كتاب صحفيون في الغالب أكثر من كونهم مفكرين إلا النفر اليسير جدًا يعدون على أصابع اليد الواحدة، مع أنهم كذلك ليسوا مفكرين، لأنهم لو كانوا يفكرون بطريقة صحيحة، لما عدلوا عن الحق الذي جاء به الإسلام.

ثم تنحدر هذه السلسلة إلى من نعيش معهم الصراع اليوم على جميع الأصعدة، في صناعة العقل العربي، وفي التأثير في واقع العالم العربي، في الإعلام، والتعليم، والتشريع، والفكر، والثقافة، والحكم، والدولة، وحتى الفن، يعيش السلفيون (بالنسبة الشرعية الأصولية لا الحزبية) الصراع معهم على هذه المستويات من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب في بلادنا العربيَّة.

بعض طرح للعلمانيين:

قد كان من أوائل مهندسي موقع العدو في أوائل أيام المعركة، هو (كرومر) وقد تخرج على يده تلامذة على صنفين، صنف يقاتل الإسلام علنًا، وصنف يلبس هذه الحرب لباس الدين ليزين العلمنة للمسلمين.

وأُلِّفت كتب خطيرة في ترويج العلمنة وتلبيسها لباس الإسلام؛ فمحمد عبده لم يكن يرى حرجًا من اقتباس القوانين التشريعية الغربية، ما دام ذلك يحقق (الإصلاح في نظره)، بل يقول العقاد وهو من المعجبين به: إنه علم أن المراجع العربيَّة لهذه القوانين لا تعطيه الإحاطة الواجبة بتلك المبادئ في أصولها المأثورة عند فلاسفة التشريع الغربيين، فشرع في تعلم اللغة الفرنسيَّة كما أن إعجابه بالثقافة الغربية هو الذي جعله يبالغ في انتقاص الأزهر مطلقًا عليه لفظ الإصطبل، أو المارستان، أو المخروب، ويحاول إصلاحه وإصلاح التعليم كله على الطريقة الغربية، ويقول: إن كان لي حظ من العلم الصحيح. . . فإنني لم أحصله إلا بعد أن مكثت عشر سنين أكنس من دماغي ما علق فيه من وساخة الأزهر وهو إلى الآن لم يبلغ ما أريد له من النظافة.

وكان من أعظم خطط الإنجليز للقضاء على الشريعة الإسلاميَّة إنشاء مجلس شورى القوانين الذي كانوا يحكمون مصر من خلاله، والذي قدم الشيخ له خدمات جليلة مما دفع المستشار

القضائي الإنجليزي إلى رثائه في تقريره عن المحاكم لعام ١٩٠٥ قائلًا: ولا يسعني ختم ملاحظاتي على سير المحاكم الشرعية في العام الماضي بغير أن أتكلم عن وفاة مفتي الديار المصريَّة الجليل المرحوم الشيخ محمد عبده في شهر يوليه الفائت، وأن أبدي أسفي الشديد على الخسارة التي أصابت هذه النظارة بفقده. . .

إلى أن يقول: وفوق ذلك فقد قام لنا بخدمة جزيلة لا تقدر في مجلس شورى القوانين في معظم ما أحدثناه أخيرًا من الإصلاحات المتعلقة بالمواد الجنائية وغيرها من الإصلاحات القضائية، إذ كان يشرح للمجلس آراء النظارة ونياتها، ويناضل عنها، ويبحث عن حل يرضي الفريقين كلما اقتضى الحال ذلك (!)، وإنه ليصعب تعويض ما خسرناه بموته نظرًا لسمو مداركه، وسعة إطلاعه، وميله لكل ضروب الإصلاح والخبرة الخصوصية التي اكتسبها أثناء توظفه في محكمة الاستئناف، وسياحاته إلى مدن أوربا (!) ومعاهد العلم. . .

وقد عاصر محمد عبده رجلٌ آخر من دعاة الإصلاح أيضًا هو عبد الرحمن الكواكبي (ت١٩٠٢) يحق لنا أن نقول: إنه أول من نادى بفكرة العلمانيَّة حسب مفهومها الأوربي الصريح فهو يقول: يا قوم -وأعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين- أدعوكم إلى تناسي الإساءات والأحقاد، وما جناه الآباء والأجداد، فقد كفى ما فعل ذلك على أيدي المثيرين، وأجلكم من ألا تهتدوا لوسائل الاتحاد وأنتم المتنورون السابقون، فهذه أمم أوربا وأمريكا قد هداها العلم لطرائق الاتحاد الوطني دون الديني، والوفاق الجنسي دون المذهبي، والارتباط السياسي دون الإداري. . .

دعونا ندبر حياتنا الدنيا، ونجعل الأديان تحكم الأخرى فقط (!) دعونا نجتمع على كلمات سواء، ألا وهي فلتحيا الأمة، فليحيا الوطن، فلنحيا طلقاء أعزاء.

ومن هذه الكتب (الإسلام وأصول الحكم) لعلي عبد الرازق في ناحية التشريع الإسلامي وحاصله أن الحكم بما أنزل الله تعالى ليس من مهمات الدين، ولا يجب الالتزام بها دينًا وشرعًا في كل شيء، وإنما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم من باب السياسية التي ناسبت زمانه، لا من باب النبوة والوحي الملزم.

وقد جمع عبد الرازق في كتابه بين أسلوب المستشرقين في تحوير الفكرة واقتطاع النصوص وتلفيق الواهيات، وبين طريقة الباطنية في التأويل البعيد، وسرد نبذًا من سير الطواغيت ونتفًا من أقوال متملقيهم، وعمد إلى مغالطات عجيبة -كل ذلك ليدلل على أن الإسلام كالمسيحيَّة المحرفة علاقة روحية بين العبد والرب لا صلة لها بواقع الحياة.

ولم يفت الشيخ أن يدلنا على أحد مراجعه الرئيسية لنستكمل ما قد يكون فضيلته عجز عن بيانه فهو يقول في الكتاب نفسه: وإذ أردت مزيدًا في البحث فارجع إلى كتاب الخلافة للعلامة السير تومس آرنولد؛ ففي الباب الثاني والثالث منه بيان ممتع ومقنع، ثم يقول: تكلم عيسى ابن مريم عليه السلام عن حكومة القياصرة، وأمر بأن يعطي ما لقيصر لقيصر. . . وكان ما جرى في

أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام من ذكر الإمامة والخلافة والبيعة. . .إلخ لا يدل على شيء أكثر مما دل عليه المسيح حينما ذكر بعض الأحكام الشرعية عن حكومة قيصر.

ويقول: إن يكن الفقهاء أرادوا بالإمامة والخلافة ذلك الذي يريده علماء السياسة بالحكومات كان صحيحًا ما يقولون من أن إقامة الشعائر الدينيَّة (الشعائر فقط) وصلاح الرعية يتوقفان على الخلافة بمعنى الحكومة في أي صورة كانت الحكومة، ومن أي نوع، مطلقة أو مقيدة، فردية أو جمهورية، استبدادية أو دستورية أو شورية، ديمقراطية أو إشتراكية أو بلشفية، لا ينتج لهم الدليل أبعد من ذلك، أما إن أرادوا بالخلافة ذلك النوع الخاص من الحكم (يعني الحكم الإسلامي!) فدليلهم أقصر من دعواهم، وحجتهم غير ناهضة.

ومن بين هؤلاء: خالد محمد خالد الذي كتب كتابه من هنا نبدأ هادفًا إلى ما قصده علي عبد الرزاق من قبل، ولكن بأسلوب أذكى وأحدث.

ومن قبله كان الشيخ عبد المتعال الصعيدي يحاول هدم الحدود الإسلاميَّة المستقرة في الكتاب والسنة زاعمًا أن الأمر بها للندب لا للوجوب، وأن الأمر لا يقتضي التكرار الدائم، إلى آخر هذا اللغو المتهافت.

ومنها (في الشعر الجاهلي) (ومستقبل الثقافة في مصر) لطه حسين، وحاصل ما كان يحوم حوله في هذين الكتابين، أن الثقافة الإسلاميَّة، وإن استندت في ناحية منها إلى الوحي، حتى لو كان القرآن؛ فإن شأنها شأن غيرها من الثقافات، يجب أن تخضع لمعايير العلوم الحديثة.

ومنها كتاب (تحرير المرأة) وحاصله تغريب حياة المرأة، وقد فتح الباب لهذا الشر فدخل منه العجب العجاب، ومنها كتاب (اليوم والغد) لسلامة موسى، وكان هذا المخذول، صريحًا جريئًا على الله ودينه، يشن غارته على الإسلام في وضح النهار جهارًا.

ومنها كتاب (اليوم والغد) لسلامة موسى الذي يدعو فيه صراحة إلى (أن يكون التعليم أوربيًا لا سلطان للذين عليه) بل يدعوا إلى اقتلاع ما في ثقافتنا من (آثار العبودية والذل والتوكل على الآلهة) كما زعم، في هجوم صريح على الدين.

وكثير من أبناء العرب من ترك طيب الثمرات في عالي الأفنان، وأتى مزابل هؤلاء العلمانيين يبتغي فضلاتهم، وجندوا أنفسهم للانتصار للفكر العلماني، وصارت هذه القضية هي أكبر معارك الثقافة والسياسة والإعلام والتعليم. . . إلخ، نعيشها كل يوم بل كل ساعة.

وهي من أكبر قضايا العصر الذي نعيشه، وهي أكبر أزمات الأمة في الوقت الراهن، ومنها تتفرع كل الأزمات، من التحاكم إلى غير شريعة رب العالمين، وتقديم تصورات البشر وأفكارهم وفلسفاتهم على الوحي الهادي الذي جاءت به الأنبياء(١).

(١) انظر: اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو العلمانية اللادينية، حامد عبد الله العلي، العلمانية نشأتها وتطورها.

وسائل وطرق العلمانيَّة من الغرب للشرق

لقد بزغ نجم العلمانيَّة وعلا شأنه في الغرب في ظل الظروف التي أشرنا إليها، وقد صاحب ظهورها في الغرب انحطاط وتخلف وهزائم في الشرق، مما أتاح للغرب أن يستلم زمام قيادة ركب الحضارة البشرية بما أبدعه من علم وحضارة، وما بذله من جهد وتضحية، فكان أمرًا طبيعيًّا أن يسعى الغرب لسيادة نموذجه الحضاري الذي يعيشه وأن يسوقه بين أمم الأرض؛ لأنه بضاعته التي لا يملك غيرها، ولأنه أيضا الضمانة الكبرى لبقاء الأمم الأخرى تدور في فلك التبعية له وتكدح في سبيل مدنيته وازدهار حضارته، وكان تسويق الغرب للعلمانيَّة في الشرق الإسلامي من خلال الوسائل والطرق الآتية:

١- من خلال الاحتلال العسكري الاستعماري:

لئن كانت العلمانيَّة في الغرب نتائج ظروف ومعطيات محلية متدرجة عبر أزمنة متطاولة، فقد ظهرت في الشرق وافدًا أجنبيًّا متكامل الرؤى والإيديولوجيات والبرامج، يطبق تحت تهديد السلاح وبالقسر والإكراه، كمن يصرّ على استنبات نبات القطب الجليدي في المناطق الاستوائية، وفي هذا من المصادمة لسنن الله في الحياة ما يقطع بفشل التجربة قبل تطبيقها؛ لأن الظروف التي نشأت فيها العلمانيَّة وتكامل مفهومها عبر السنين تختلف اختلافًا جذريًّا عن ظروف البلدان التي جلبت إليها جاهزة متكاملة في الجوانب الدينيَّة، والأخلاقية، والاجتماعيَّة، والتاريخية، والحضارية، فالشرط الحضاري الاجتماعي التاريخي الذي أدى إلى نجاح العلمانيَّة في الغرب مفقود في الشرق بل في الشرق الإسلامي نقيضه تمامًا.

وابتدأت دوائر الاستعمار تنفذ مخططها المرسوم، وتتلخص جهود هذا النجاح فيما يلي:

أ- القضاء على الحركات الإسلاميَّة الجهادية.

ب- إلغاء المحاكم الشرعية وإحلال القوانين الوضعيَّة محلها.

ج- القضاء على التعليم الإسلامي والأوقاف الإسلاميَّة.

د- استخدام الطوائف غير الإسلاميَّة وإحياؤها.

هـ- اصطناع العملاء من أبناء المسلمين.

و- تنفيذ توصيات المستشرقين والمبشرين، والإشراف على إنجاح مهامهم، وتذليل العقبات التي قد تعترض جهودهم.

وحين نشأت الدولة العربيَّة الحديثة كانت عالة على الغربيين الذين كانوا حاضرين خلال الهيمنة الغربية في المنطقة ومن خلال المستشارين الغربيين أو من درسوا في الغرب واعتنقوا العلمانيَّة، فكانت العلمانيَّة في أحسن الأحوال أحد المكونات الرئيسية للإدارة في مرحلة تأسيسها وهكذا

بذرت بذور العلمانيَّة على المستوى الرسمي قبل جلاء جيوش الاستعمار عن البلاد التي ابتليت بها.

٢- **من خلال البعثات التي ذهبت من الشرق إلى الغرب لطلب العلم والتقدم**: فعاد الكثير منها بالعلمانيَّة لا بالعلم، ذهبوا لدراسة الفيزياء والأحياء والكيمياء والجيولوجيا والفلك والرياضيات؛ فعادوا بالأدب واللغات والاقتصاد والسياسة والعلوم الاجتماعيَّة والنفسية، بل وبدراسة الأديان وبالأخص الدين الإسلامي في الجامعات الغربية، ولك أن تتصور حال شاب مراهق ذهب يحمل الشهادة الثانوية ويلقى به بين أساطين الفكر العلماني الغربي على اختلاف مدارسه، بعد أن يكون قد سقط إلى شحمة أذنيه في حمأة الإباحية والتحلل الأخلاقي، وما أوجد كل ذلك لديه من صدمة نفسية واضطراب فكري، ليعود بعد عقد من السنين بأعلى الألقاب الأكاديمية، وفي أهم المراكز العلميَّة بل والقيادية في وسط أمة أصبح ينظر إليها بازدراء، وإلى تاريخها بريبة واحتقار، وإلى قيمها ومعتقداتها وأخلاقها -في أحسن الأحوال- بشفقة ورثاء، إنه لن يكون بالضرورة إلا وكيلًا تجاريًا لمن علَّموه وثقَّفوه ومدَّنوه، وهو لا يملك غير ذلك.

ولئن كان هذا التوصيف للبعثات الدراسية ليس عامًّا، فإنه الأغلب وبالذات في أوائل عصر البعثات، وما «طه حسين» و«رفاعة الطهطاوي» إلا أمثلة خجلى أمام غيرهم من الأمثلة الصارخة الفاقعة اللون مثل «زكي نجيب محمود» و«محمود أمين العالم» و«فؤاد زكريا» و«عبد الرحمن بدوي» وغيرهم الكثير...

ولئن كان هذا الدور للبعثات العلميَّة تم ابتداءً من خلال الابتعاث لعواصم الغرب فإن الحواضر العربيَّة الكبرى مثل «القاهرة - بغداد - دمشق» أصبحت بعد ذلك من مراكز التصدير العلماني للبلاد العربيَّة الأخرى، من خلال جامعاتها وتنظيماتها وأحزابها، وقلّ من يسلم من تلك اللوثات الفكريَّة العلمانيَّة، حتى أصبح في داخل الأمة طابور خامس، وجهته غير وجهتها وقبلته غير قبلتها، وإنهم لأكبر مشكلة تواجه الأمة لفترة من الزمن ليست بالقليلة.

٣- **من خلال البعثات التبشيريَّة**:

المنظمات التبشيريَّة النصرانيَّة التي جابت العالم الإسلامي شرقًا وغربًا من شتى الفرق والمذاهب النصرانيَّة جعلت هدفها الأول زعزعة ثقة المسلمين في دينهم، وإخراجهم منه، وتشكيكهم فيه، حتى وإن لم يعتنقوا النصرانيَّة، وليس أجدى من العلمانيَّة وسيلة لهذا الغرض.

وهؤلاء المبشرين: إما من الغربيين مثل «زويمر» و«دنلوب»، وإما من نصارى العرب مثل «أديب إسحاق» و«شبلي شميل» و«سلامة موسى» و«جرجي زيدان» وأضرابهم...، ومنهم من كان يعلن هويته التبشيريَّة ويمارس علمنة أبناء المسلمين؛ مثل «زويمر»، ومنهم من كان يعلن علمانيته فقط، ويبذل جهده في ذلك، مثل «سلامة موسى» و«شبلي شميل».

ولم يتوانَ المُرسَلُون في إطار التوسع وتكريس الهيمنة عن تدعيم خليط من رجال الأعمال والمغامرين السياسيين والمستعمرين والمستشرقين في عملياتهم التوسعية، التي تهدف إلى استطلاع

المنطقة، وترسيخ دعائم السيطرة الأوربية في أذهان الأهالي، ومحاولة احتواء الثوابت الدينيَّة والمذهبية عندهم.

٤- من خلال المدارس والجامعات الأجنبية:

في أواخر الدولة العثمانية وحين سيطر الماسونيون العلمانيون على مقاليد الأمر سمح للبعثات التبشيريَّة والسفارات الغربية بإنشاء المدارس والكليات، وانتشرت في بلاد الشام والأناضول انتشار النار في الهشيم، وخرجت أجيال من أبناء وبنات المسلمين أصبحوا بعد ذلك قادة الفكر والثقافة ودعاة التحرير والانحلال.

ومن الأمثلة على ذلك الجامعة الأمريكيَّة في بيروت، والتي في أحضانها نشأت العديد من الحركات والجمعيَّات العلمانيَّة، وقد سرت العدوى بعد ذلك إلى الكثير من الجامعات والمؤسسات التعليمية الرسمية في العديد من البلاد العربيَّة والإسلاميَّة، وقد قام خريجو هذه المدارس والجامعات بممارسة الدور نفسه حين عادوا لبلدانهم أو ابتعثوا للتدريس في بعض البلدان الأخرى.

٥- من خلال الجمعيَّات والمنظمات والأحزاب العلمانيَّة:

التي انتشرت في الأقطار العربيَّة والإسلاميَّة، ما بين يسارية، وليبرالية، وقومية، وأممية، وسياسية، واجتماعيَّة، وثقافية، وأدبية، بجميع الألوان والأطياف وفي جميع البلدان، حيث إن النخب الثقافية في غالب الأحيان كانوا إما من خريجي الجامعات الغربية أو الجامعات السائرة على النهج ذاته في الشرق، وبعد أن تكاثروا في المجتمع عمدوا إلى إنشاء الأحزاب. القومية أو الشيوعية أو الليبرالية، وجميعها تتفق في الطرح العلماني، وكذلك أقاموا الجمعيَّات الأدبية والمنظمات الإقليمية أو المهنية، وقد تختلف هذه التجمعات في أي شيء إلا في تبني العلمانيَّة، والسعي لعلمنة الأمة كل من زاوية اهتمامه، والجانب الذي يعمل من خلاله.

ومن الأمور اللافتة للنظر أن أشهر الأحزاب العلمانيَّة القومية العربيَّة إنما أسسها نصارى بعضهم ليسوا من أصول عربية، أمثال «ميشيل عفلق» و«جورج حبش»، والكثرة الساحقة من الأحزاب الشيوعية العلمانيَّة إنما أسسها يهود مليونيرات أمثال «كوريل».

٦- من خلال البعثات الدبلوماسية:

سواء كانت بعثات للدول الغربية في الشرق، أو للدول الشرقيَّة في الغرب، فقد أصبحت في الأعم الأغلب جسورًا تمر خلالها علمانيَّة الغرب الأقوى إلى الشرق الأضعف من خلال الإيفاد، ومن خلال المنح الدراسية وحلقات البحث العلمي، والتواصل الاجتماعي، والمناسبات والحفلات، ومن خلال الضغوط الدبلوماسية والابتزاز الاقتصادي.

٧- من خلال وسائل الإعلام المختلفة:

من مسموعة أو مرئية أو مقروءة؛ لأن هذه الوسائل كانت من الناحية الشكلية من منتجات الحضارة الغربية -صحافة أو إذاعة أو تلفزة- فاستقبلها الشرق واستقبل معها فلسفتها ومضمون

رسالتها، وكان الرواد في تسويق هذه الرسائل وتشغيلها والاستفادة منها إما من النصارى أو من العلمانيين من أبناء المسلمين، فكان لها الدور الأكبر في الوصول لجميع طبقات الأمة، ونشر مبادئ وأفكار وقيم العلمانيَّة، وبالذات من خلال الفن، وفي الجانب الاجتماعي بصورة أكبر.

٨- من خلال التأليف والنشر في فنون شتى من العلوم وبالأخص في الفكر والأدب:

جاءت العلمانيَّة وافدة في كثير من الأحيان تحت شعارات المدارس الأدبية المختلفة، متدثرة بدعوى رداء التجديد والحداثة، معلنة الإقصاء والإلغاء والنبذ والإبعاد لكل قديم في الشكل والمضمون وفي الأسلوب والمحتوى، ومثل ذلك في الدراسات الفكريَّة المختلفة في علوم الاجتماع والنفس والعلوم الإنسانية المختلفة، حيث قدمت لنا نتائج كبار ملاحدة الغرب وعلمانييه على أنه الحق المطلق، بل العلم الأوحد ولا علم سواه في هذه الفنون.

وتجاوز الأمر التأليف والنشر إلى الكثير من الكليات والجامعات والأقسام العلميَّة التي تنتسب لأمتنا اسمًا ولغيرها حقيقة، وإن كان الأمر في أقسام العلوم الأخرى من طب وهندسة ورياضيات وفيزياء وكيمياء وأمثالها يختلف كثيرًا ولله الحمد والمنة، وهي الأقسام التي وجهها أبناء الأمة الأصلاء ممن لم يتلوثوا بلوثات العلمانيَّة، فحاولوا أن ينقلوا للأمة ما يمكن أن تستفيد منه من منجزات التقدم الغربي مع الحفاظ على هويتها وأصالتها وقيمها.

٩- من خلال الشركات الغربية الكبرى التي وفدت لبلاد المسلمين مستثمرة في الجانب الاقتصادي:

لكنها لم تستطع أن تتخلى عن توجهاتها الفكريَّة، وقيمها وأنماط حياتها الاجتماعيَّة، وهذا أمر طبيعي، فكانت من خلال ما جلبته من قيادات إدارية وعمالة فنية احتكت بالشعوب الإسلاميَّة - سببًا مهمًّا في نشر الفكر العلماني وقيمه الاجتماعيَّة وانعكاساته الأخلاقية والسلوكية، ولعل من المفارقات الجديرة بالتأمل، أن بعض البلدان التي كانت تعمل فيها بعض الشركات الغربية الكبرى من أمريكية وبريطانية لم تبتلَ بالتنظيمات اليسارية، ولم تنشأ إلا في هذه الشركات في أوج اشتعال الصراع بين المعسكر الشيوعي والمعسكر الغربي.

١٠- كان للنصارى العرب المقيمين في بلاد المسلمين دورٌ كبيرٌ، وأثرٌ خطيرٌ، في نقل الفكر العلماني إلى ديار المسلمين، والترويج له، والمساهمة في نشره عن طريق وسائل الإعلام المختلفة.

وجهود نصارى الشرق في هذا المضمار كثيرة يمكن تقسيمها قسمين:

أ- الأعمال السياسية: فقد كانوا على صلة وثيقة بالجمعيَّات الهدامة في الغرب وشبكات الجاسوسية العالمية؛ ولذلك كونوا الجمعيَّات السرية التي تناهض الخلافة الإسلاميَّة، وتدعو إلى حكومة لا دينية وطنية أو قومية، ومن هذه الجمعيَّات: جمعيَّة بيروت فارس نمر، وجامعة الوطن العربي (نجيب عازوري) والجمعيَّة القحطانية، وجمعيَّة العربيَّة الفتاة، ثم الحزب القومي السوري (أنطوان سعادة) -وأخيرًا- حزب البعث (ميشيل عفلق).

ب- الأعمال الفكريَّة: كان هؤلاء أول من نشر الثقافة والفكر الغربيين مستخدمين الوسائل الحديثة لاسيما الصحافة، فأصدروا صحفًا كثيرة منها: الجنان والمقتطف والهلال، وكان محرورها أمثال نصيف اليازجي ويعقوب صروف وجرجي زيدان يمثلون طلائع اللادينية في الشرق الإسلامي.

واتجه قسم منهم إلى التراث والتأليف الموسوعي اتجاهًا يشابه طريقة المستشرقين، فألفوا المعاجم اللغوية والقواميس للترجمة وبعض الموسوعات والبحوث، ومن هؤلاء أحمد فارس الشدياق وبطرس البستاني ولويس شيخو.

وبعضهم انكب على الفلسفات العربيَّة فنشر مؤلفاتها، ومجد زعمائها، ودعا العرب إلى اعتناقها، وإقامة حياتهم على أسسها، من هؤلاء شبلي شميل الداروسي وسلامة موسى.

كما ظهر منهم شعراء أذكوا بشعرهم الحماسي القومي ضد الإسلام مثل: إبراهيم اليازجي، وبشارة الخوري، والشاعر القروي، وشعراء المهجر.

ويعترف ألبرت حوراني بأنه قد نادى بفكرة مجتمع قومي علماني فريق من الكتاب المسيحين السوريين، وينقل عن أحدهم شبلي شميل قوله: «ليس الحكم الديني والحكم الاستبدادي فاسدين فحسب، بل هما غير طبيعيين وغير صحيحين، فالحكم الديني يرفع بعض الناس فوق سواهم، ويستخدم السلطة لمنع نمو العقل البشرى نموًّا صحيحًا... وهما يشجعان العقل على البقاء في حالة الجمود، وبذلك يعرقلان التقدم التدريجي الذي هو ناموس الكون، لكن بالإمكان تصور نظام للشرائع والحكم يقوم على نواميس الكون، ويسمح بالتالي لتطور النمو الكوني أن يستمر، وللإنسان أن يعيش وفقًا لطبيعت» إلى أن يقول: «والأمم تقوى بمقدار ما يضعف الدين، فهذه أوربا لم تصبح قوية ومتمدنة فعلًا إلا عندما حطم الإصلاح والثورة الفرنسيَّة سلطة الإكليروس على المجتمع وهذا يصح أيضًا على المجتمعات الإسلاميَّة».

وينقل عن فرح أنطوان قوله: «إن العالم قد تغير، فالدول الحديثة لم تعد قائمة على الدين، بل على أمرين: الوحدة الوطنية وتقنيات العلم الحديث». وقوله: «أما في العصر الحديث فالوحدة تتم بخلق الولاء القومي، والفصل بين السلطة الدينيَّة والسلطة المدنية».

وصدر مثل هذه الدعاوى عن معظم الكتاب والصحفيين النصارى، وبإمكان المرء أن يلمس شيئًا من ذلك في أي كتاب لسلامة موسى، أو مقال لأمير قطر مثلًا.

أما الجمعيَّات والأحزاب السياسية فغير خافٍ ما تقوم عليه أسسها وشعاراتها من تنكر للإسلام، ودعوة صريحة إلى اللادينية.

وقد اتخذت المنظمات المعادية للإسلام من الأقليات النصرانيَّة ذريعة لرفع الشعار العلماني «الدين لله والوطن للجميع»، ومنع تطبيق الشريعة الإسلاميَّة.

١١- من خلال المناهج العلميَّة: وذلك بإدخال النظريات الباطلة، وطمس الحقائق، وتزييف

المناهج، واللعب في المناهج الإسلاميَّة باسم التطوير.

١٢- نشر الاختلاط بين الجنسين: والذي أدى إلى اختلال قيمة الغيرة، وأدى إلى تطور أنماط العلاقة بين الشباب مع وضعهم في حالة إثارة مستمرة مع القضاء شبه التام على مصطلح «الأجنبي» بين الشباب داخل أسوار الجامعة وخارجها في أحيان كثيرة.

١٣- من خلال عقلية الاستتباع: التي ارتضاها نخبة من ذوي الانبهار بقدرات الاستكبار الغربي ومن فيهم (قابلية الاستعمار)، بتعبير مالك بن نبي، ومن قَبْلِه علّامة الاجتماع عبد الرحمن بن خلدون القائل: «إنّ المغلوب مُولعٌ بتقليد الغالب». فقد عاش بعض (المُتَعَالِمِين) من العالم الإسلامي اغترابًا كاملًا عن المقوّم الحضاري، واستجابةً عارمةً للنداء الاستكباري؛ حيث صدّق عليهم الاستعمار ظنه فاتبعوه، واستخفّهم ببُنَاه المعرفية وفلسفته الماديَّة فأطاعوه؛ وصاروا معاولَ هدم في صرح الثقافة الإسلاميَّة -كما تراه في كتابات (طه حسين)، و(أحمد أمين)، و(علي عبد الرازق)- وعواملَ نقضٍ لمقوّمات الهويّة والذاتيّة الحضاريّة؛ فقد صنع الاستعمار هذه النُّخَب على عينه، وربّى عقولها ووجداناتها وتوجّهاتها وِفق فلسفات مرجعيّته الفكريَّة؛ حتى غدَوْا متنكّرين لِقِيَمهم الدينيَّة، مستكبرين على ثقافتهم الذاتيّة.

ويكفي في بيان استضعاف هذه النخبة وانهزامها واستتباعها ما كتبه أحد روادّها (د. طه حسين): «لقد التزمنا أمام أوربا أن نذهب مذهبها في الحكم، ونسير سيرتها في الإدارة، ونسلك طريقها في التشريع، التزمنا هذا كلّه أمام أوربا، وهل كان إمضاء معاهدة الاستقلال ومعاهدة إلغاء الامتيازات إلا التزامًا صريحًا قاطعًا أمام العالم المتحضر بأن نسير مسيرة الأوربيين في الحكم والإدارة والتشريع؟ فلو أننا هممنا الآن أن نعود أدراجنا، وأن نحيي النظم العتيقة لما وجدنا إلى ذلك سبيلًا ولوجدنا أن أمامنا عقابًا لا تُجاز ولا تُذلّل، عِقابًا نقيمها نحن، وعِقابًا تقيمها أوربا؛ لأننا عاهدناها أن نسايرها ونجاريها في طريق الحضارة الحديثة».

١٤- من خلال إغراء بعض ذوي النفوس الضعيفة والإيمان المزعزع بمغريات الدنيا من المال والمناصب، أو النساء لكي يرددوا دعاوي العلمانيَّة على مسامع الناس، لكنه قبل ذلك يُقام لهؤلاء الأشخاص دعاية مكثفة في وسائل الإعلام التي يسيطر عليها العلمانيون لكي يظهروهم في ثوب العلماء والمفكرين وأصحاب الخبرات الواسعة، حتى يكون كلامهم مقبولًا لدى قطاع كبير من الناس، وبذلك يتمكنون من التلبيس على كثير من الناس.

١٥- تجزيء الدين والإكثار من الكلام والحديث والكتابة عن بعض القضايا الفرعية، وإشغال الناس بذلك، والدخول في معارك وهمية حول هذه القضايا مع العلماء وطلاب العلم والدعاة لإشغالهم وصرفهم عن القيام بدورهم في التوجيه، والتصدي لما هو أهم وأخطر من ذلك بكثير.

١٦- تصوير العلماء وطلاب العلم والدعاة إلى الله في كثير من وسائل الإسلام المقروءة والمسموعة والمرئية على أنهم طبقة منحرفة خلقيًّا، وأنهم طلاب دنيا من مال ومناصب ونساء حتى

لا يستمع الناس إليهم، ولا يثقوا في كلامهم، وبذلك تخلو الساحة للعلمانيين في بث دعواهم.

١٧- الحديث بكثرة عن المسائل الخلافية، واختلاف العلماء وتضخيم ذلك الأمر، حتى يخيل للناس أن الدين كله اختلافات، وأنه لا اتفاق على شيء حتى بين العلماء بالدين، مما يوقع في النفس أن الدين لا شيء فيه يقيني مجزوم به، وإلا لما وقع هذا الخلاف، مما يعني انصراف الناس عن الدين.

١٨- الاتكاء على بعض القواعد الشرعية والمنضبطة بقواعد وضوابط الشريعة، الاتكاء عليها بقوة في غير محلها وبغير مراعاة هذه الضوابط، ومن خلال هذا الاتكاء الضال والمنحرف يحاولون ترويج كل قضايا الفكر العلماني أو جُلّها.

فمن ذلك مثلًا قاعدة المصالح المرسلة يفهمونها على غير حقيقتها ويطبقونها في غير موضعها، ويجعلونها حجة في رفض كل ما لا يحبون من شرائع الإسلام، وإثبات كل ما يرغبون من الأمور التي تقوي العلمانيَّة وترّسخ دعائمها في بلاد المسلمين.

وكذلك قاعدة ارتكاب أخف الضررين واحتمال أدنى المفسدتين وقاعدة الضرورات تبيح المحظورات، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح، وصلاحية الإسلام لكل زمان، واختلاف الفتوى باختلاف الأحوال، يتخذون من هذه القواعد وأشباهها تُكأة في تذويب الإسلام في النحل والملل الأخرى، وتمييعه في نفوس المسلمين.

كما يتخذون هذه القواعد أيضًا منطلقًا لنقل كل النظم الاقتصادية، والسياسية السائدة في عالم الكفار إلى بلاد المسلمين، من غير أن يتفطن أكثر الناس إلى حقيقة هذه الأمور.

وهذا المسلك من أخطر المسالك وأشدها ضررًا لما فيه من شبهة وتلبيس على الناس أن هذه الأمور إنما هي مرتكزة على قواعد شرعية معترف بها، مع أن اعتمادهم على هذه القواعد أو غيرها ليس لإيمانهم بها، وليس لإيمانهم بعموم وشمول وكمال الدين الذي انبثقت منه هذه القواعد، وإنما هي عندهم مجرد أداة يتوصلون بها إلى تحقيق غاياتهم الضالة المنحرفة[(١)].

آثار العلمانيَّة

١- رفض الحكم بما أنزل الله سبحانه وتعالى؛ وإقصاء الشريعة عن كافة مجالات الحياة، والاستعاضة عن الوحي الإلهي المُنَزَّل بالقوانين الوضعيَّة التي اقتبسوها عن الكفار المحاربين لله ورسوله، واعتبار الدعوة إلى العودة إلى الحكم بما أنزل الله وهجر القوانين الوضعيَّة تخلفًا ورجعية

(١) انظر: العلمانية التاريخ والفكرة، العلمانيون وفكرهم وممارساتهم، سعيد ناصر الغامدي، العلمانية وثمارها الخبيثة، محمد شاكر الشريف، العلمانية النبتة الغريبة عن الحضارة الإسلامية، العنمانية نشأتها وتطورها، العلمانية الانحلالية ومنظومة القيم الإسلامية، الهيثم الزعفان.

وردّة عن التقدم والحضارة، وسببًا في السخرية من أصحاب هذه الدعوة واحتقارهم، وإبعادهم عن تولي الوظائف التي تستلزم الاحتكاك بالشعب والشباب، حتى لا يؤثروا فيهم.

٢- تحريف التاريخ الإسلامي وتزييفه، وتصوير العصور الذهبية لحركة الفتوح الإسلاميَّة، على أنها عصور همجية تسودها الفوضى، والمطامع الشخصية.

٣ - إفساد التعليم وجعله خادمًا لنشر الفكر العلماني وذلك عن طريق:

أ - بث الأفكار العلمانيَّة في ثنايا المواد الدراسية بالنسبة للتلاميذ، والطلاب في مختلف مراحل التعليم.

ب- تقليص الفترة الزمنية المتاحة للمادة الدينيَّة إلى أقصى حد ممكن.

ج- منع تدريس نصوص معينة؛ لأنها واضحة صريحة في كشف باطلهم.

د - تحريف النصوص الشرعية عن طريق تقديم شروح مقتضبة ومبتورة لها، بحيث تبدو وكأنها تؤيد الفكر العلماني، أو على الأقل أنها لا تعارضه.

هـ - إبعاد الأساتذة المتمسكين بدينهم عن التدريس، ومنعهم من الاختلاط بالطلاب، وذلك عن طريق تحويلهم إلى وظائف إدارية، أو عن طريق إحالتهم إلى المعاش.

و- جعل مادة الدين مادة هامشية حيث يكون موضعها في آخر اليوم الدراسي، وهي في الوقت نفسه لا تؤثر في تقديرات الطلاب.

٤- إذابة الفوارق بين حملة الرسالة الصحيحة، وهم المسلمون، وبين أهل التحريف والتبديل والإلحاد، وصهر الجميع في إطار واحد، وجعلهم جميعًا بمنزلة واحدة من حيث الظاهر، وإن كان في الحقيقة يتم تفضيل أهل الكفر والإلحاد والفسوق والعصيان على أهل التوحيد والطاعة والإيمان.

فالمسلم والنصراني واليهودي والشيوعي والمجوسي والبرهمي كل هؤلاء وغيرهم، في ظل هذا الفكر بمنزلة واحدة يتساوون أمام القانون، لا فضل لأحد على الآخر إلا بمقدار الاستجابة لهذا الفكر العلماني.

وفي ظل هذا الفكر يكون زواج النصراني أو اليهودي أو البوذي أو الشيوعي بالمسلمة أمرًا لا غبار عليه، ولا حرج فيه، كذلك لا حرج عندهم أن يكون اليهودي أو النصراني أو غير ذلك من النحل الكافرة حاكمًا على بلاد المسلمين، وهم يحاولون ترويج ذلك في بلاد المسلمين تحت ما أسموه بـ «الوحدة الوطنية». بل جعلوا «الوحدة الوطنية» هي الأصل والعصام، وكل ما خالفها من كتاب الله أو سنة رسول صلى الله عليه وسلم، طرحوه ورفضوه، وقالوا: «هذا يعرّض الوحدة الوطنية للخطر!!».

٥- نشر الإباحية والفوضى الأخلاقية، وتهديم بنيان الأسرة باعتبارها النواة الأولى في البنية

الاجتماعيَّة وتشجيع ذلك والحض عليه: وذلك عن طريق:

أ - القوانين التي تبيح الرذيلة ولا تعاقب عليها، وتعتبر ممارسة الزنى والشذوذ من باب الحرية الشخصية التي يجب أن تكون مكفولة ومصونة.

ب - وسائل الإعلام المختلفة من صحف ومجلات وإذاعة وتلفاز التي لا تكلُّ ولا تملُ من محاربة الفضيلة، ونشر الرذيلة بالتلميح مرة، وبالتصريح أخرى ليلًا ونهارًا.

ج - محاربة الحجاب، وفرض السفور والاختلاط في المدارس والجامعات والمصالح والهيئات.

٦- محاربة الدعوة الإسلاميَّة عن طريق:

أ - تضييق الخناق على نشر الكتاب الإسلامي، مع إفساح المجال للكتب الضالة المنحرفة التي تشكك في العقيدة الإسلاميَّة، والشريعة الإسلاميَّة.

ب - إفساح المجال في وسائل الإعلام المختلفة للعلمانيين المنحرفين لمخاطبة أكبر عدد من الناس لنشر الفكر الضال المنحرف، ولتحريف معاني النصوص الشرعية، مع إغلاق وسائل الإعلام في وجه علماء المسلمين الذين يُبصرّوُن الناس بحقيقة الدين.

٧ - مطاردة الدعاة إلى الله، ومحاربتهم، وإلصاق التهم الباطلة بهم، ونعتهم بالأوصاف الذميمة، وتصويرهم على أنهم جماعة متخلفة فكريًا، ومتحجرة عقليًا، وأنهم رجعيون، يحاربون كل مخترعات العلم الحديث النافعة، وأنهم متطرفون متعصبون لا يفقهون حقيقة الأمور، بل يتمسكون بالقشور ويدعون الأصول.

٨ - التخلص من المسلمين الذين لا يهادنون العلمانيَّة، وذلك عن طريق النفي أو السجن أو القتل.

٩ - إنكار فريضة الجهاد في سبيل الله، ومهاجمتها، واعتبارها نوعًا من أنواع الهمجية وقطع الطريق. والقتال المشروع عند العلمانيين وأذنابهم إنما هو القتال للدفاع عن المال أو الأرض، أما الدفاع عن الدين والعمل على نشره والقتال في سبيله، فهذا عندهم عمل من أعمال العدوان والهمجية التي تأباها الإنسانية المتمدنة؟!

١٠- الدعوة إلى القومية أو الوطنية، وهي دعوة تعمل على تجميع الناس تحت جامع وهمي من الجنس أو اللغة أو المكان أو المصالح، على ألا يكون الدين عاملًا من عوامل التجميع، بل الدين من منظار هذه الدعوة يُعدّ عاملًا من أكبر عوامل التفرّق والشقاق، حتى قال قائل منهم: «والتجربة الإنسانية عبر القرون الدامية، دلّت على أن الدين -وهو سبيل الناس لتأمين ما بعد الحياة- ذهب بأمن الحياة ذاتها».

١١- الدعوة إلى الارتماء في أحضان الغرب، وأخذ حضارته دون وعي ولا تميز؛ فقد قام بهذه الفكرة كثير من دعاة التضليل للأمة الإسلاميَّة عند ضعف المسلمين وتفرقهم، حيث زعموا أن

سبيل التقدم والنهضة، هو السير خلف ركاب الغربيين، والأخذ بمنهجهم وطريقتهم في كل شيء، حتى نكون مثلهم في الحضارة الحديثة، بخيرها وشرها، وما يحمد منها وما يُعاب.

ومن آثار العلمانيَّة في مجال السياسة:

١- استخدام المبدأ الميكافيلي «الغاية تبرر الوسيلة» من قبل الحكام، مما جرد السياسة من الأخلاق وأبعد عنها الدين، فأصبح استخدام كل وسيلة حلالًا كانت أو حرامًا؛ أمرًا عاديًا، بل لم يكن سياسيًّا بارعًا من لم يفعل ذلك!!

٢- استغلال الناس للوصول إلى الحكم، عن طريق الديمقراطية المزعومة، ثم تسليط السلطة على نفي الناس وظلمهم.

٣- إبعاد الناس عن الحياة واستثناء النهج الإسلامي ذي التوجه الرباني من الوصول للحكم، بل ومحاربته والتنكيل بأنصاره، واتهامهم بالتطرف والإرهاب.

٤- نشأة التيارات المغالية التي كانت ردة فعل للأنظمة العلمانيَّة بظلمها وفسادها.

٥- ولاء الأنظمة السياسية في بلاد المسلمين لدول الكفر، ولاءً كاملًا على حساب الإسلام والمسلمين.

ومن آثار العلمانيَّة في الاقتصاد:

١- ترويج سلع العدو في بلاد المسلمين بما يقوي اقتصاده ويضعف المسلمين.

٢- أصبحت الثروة دُولةً بين عدد محدود من الأغنياء الذين لا تستفيد منه بلاد المسلمين كثيرًا.

٣- أصبح المسلمون عالةً على غيرهم، معتمدين على عدوهم في كل شيء.

ومن آثار العلمانيَّة في الاجتماع والأخلاق:

١- تحرير المرأة وتحللها من كل القيود التي تعصمها وتحفظ كرامتها.

٢- تفكك الأسر وضياع أفرادها.

٣- انتشار جرائم الأطفال وفسادهم.

٤- انتشار الخيانات الزوجية، وكثرة أبناء الزنى.

٥- الترويج للشذوذ الجنسي.

٦- ضعف الروابط بين الأقارب والأرحام؛ بسبب التركيز على الجانب المصلحي في الحياة والعلاقات بين الناس.

٧- انتشار ثقافة التحلل والتفسُّخ والشهوة، مما أدى إلى كثرة الفساد الأخلاقي، وانتشار الأمراض الفتاكة.

ومن آثار العلمانيَّة في التربية والثقافة:

١- تفسير الدين تفسيرًا ضيقًا، وتحديد علومه تحديدًا قاصرًا.

٢- التفريق بين نظام تعليم رسمي حكومي، ونظام تعليم أهلي ديني؛ مع إهمال الأول والاهتمام بالأخير.

٣- إهمال اللغة العربيَّة والتربية الإسلاميَّة، مع إظهار الاهتمام بغيرهما من المواد العلميَّة والعصرية.

٤- بث السموم والطعن في المقررات والمناهج الدراسية ضد الإسلام، مع الاهتمام بالثقافة الأوربية.

٥- انتشار ترجمات الكتب الغربية في بلاد المسلمين، بل وكذلك الكتب الغربية بلغاتها الأصليَّة؛ تحت اسم الثقافة ودراسة الأدب... إلخ.

٦- عودة كثير من أبناء المسلمين الذين درسوا وتربوا على مائدة الغرب ليساهموا في نشر ثقافته وفكره وينافحوا عنها.

٧- الفصل بين ما هو ديني وما هو غير ديني في الصحف والمجلات: مجلة دينية، صحيفة دينية، صفحة دينية، برنامج ديني... إلخ.

٨- انتشار الاختلاط في المؤسسات التعليمية؛ حتى أصبح أصلًا، ومن ينادي بفصل الجنسين يصبح شاذًّا!

٩- حصر مفهوم الثقافة في أدب اللهو والمجون، والطرب والغناء[1].

العقلانيَّة

التعريف.

العقلانيَّة مذهب فكري يزعم أنَّه يمكن الوصول إلى معرفة طبيعة الكون والوجود عن طريق الاستدلال العقلي بدون الاستناد إلى الوحي الإلهي أو التجربة البشريَّة، وكذلك يرى إخضاع كلّ شيء في الوجود للعقل لإثباته أو نفيه أو تحديد خصائصه.

ويحاول المذهب إثبات وجود الأفكار في عقل الإنسان قبل أن يستمدها من التجربة العمليَّة الحياتيَّة أي أن الإدراك العقلي المجرد سابق على الإدراك المادي المجسد.

تاريخ مذهب العقلانيَّة

العقلانيَّة مذهب قديم جديد في نفس الوقت.

---

(١) انظر: العلمانية وثمارها الخبيثة، نبذة عن العلمانية، د. إسماعيل محمد حنفي، العلمانية، عطية صقر.

فقد برز في الفلسفة الإغريقيَّة (اليونانيَّة) على يد سقراط وأرسطو، فقد كانت العقلانيَّة الإغريقيَّة لونًا من عبادة العقل وتألِهيه، وإعطائه حجمًا مزيَّفًا أكبر بكثير من حقيقته، كما كانت في الوقت نفسه لونًا من تحويل الوجود كلّه إلي قضايا تجريديَّة.

فقد جعلوا القضايا تعالَج معالجة كاملة في الذهن بصرف النظر عن وجودها الواقعي، وعن مدى قبول الواقع لهذا التفسير العقلاني أم لا، وكان أشد ما يبدو فيه هذا الانحراف معالجة تلك الفلسفة لقضية الألوهيَّة وقضية الكون المادِّيّ وما بينهما من علاقة ويتشعب هذا الانحراف شعبًا كثيرة في وقت واحد.

وفي القرون الوسطى سيطرت الكنيسة على الفلسفة الأوربيَّة، حيث سخَّرت العقل لإخراج تحريفها للوحي الإلهي في فلسفة عقليَّة مسلَّمة لا يقبل مناقشتها، ومحاولة تقديمه في ثوب معقول، مثل أن يتصوَّر ثلاثة أشياء هي ثلاثة وهي واحد في ذات الوقت، وما يمكن أن يتصوَّر أنَّ الله سبحانه وتعالي ظلَّ متفردًا بالألوهيَّة وتدبير شأن هذا الكون ما لا يحصي من الزمان، ثم إذا هو - فجأة- يوجد كائنا آخر ليكون شريكًا له في الألوهيَّة ومعينًا له في تدبير الكون.

وفي ظلِّ الإرهاب الفكريِّ الذي مارسته الكنيسة انكمش نشاط العقل الأوربيِّ، وانحصر فيما تمليه الكنيسة والمجامع المقدَّسة، ومحاولة التوفيق بينه وبين مقتضيات التفكير السليم، في مغالطات فلسفيَّة هي أقرب إلي التلفيق منها إلي التوفيق، واستمرت على ذلك عشرة قرون.

وفي عصر النهضة، ونتيجة احتكاك أوربا بالمسلمين -في الحروب الصليبيَّة والاتصال بمراكز الثقافة في الأندلس وصقلية والشمال الإفريقيِّ- أصبح العقل الأوربيُّ في شوق شديد لاسترداد حريته في التفكير، ولكنَّه عاد إلى الجاهليَّة الإغريقيَّة ونفر من الدين الكنسيِّ، وسخَّر العقل للبعد عن الله، وأصبح التفكير الحرّ معناه الإلحاد، وذلك أنَّ التفكير الديني معناه عندهم الخضوع للقيد الذي قيدت به الكنيسة العقل، وحجرت عليه أن يفكِّر، وأصبح معني الحرية الفكريَّة هو تحطيم ذلك القيد الذي يغل العقل من التفكير.

وبرز فكر العقلانيَّة في الفلسفة الحديثة والمعاصرة على أيدي فلاسفة، أثَّروا كثيرًا في الفكر البشري أمثال: ديكارت وليبنتز وسبينوزا وغيرهم.

فرينيه ديكارت ١٥٩٦ - ١٦٥٠م فيلسوف فرنسي اعتمد المنهج العقلي لإثبات الوجود عامَّة ووجود الله على وجه أخص، وذلك من مقدمة واحدة عُدت من الناحية العقليَّة غير قابلة للشكّ وهي: «أنا أفكر فأنا إذن موجود».

وليبنتز: ١٦٤٦ - ١٧١٦م فيلسوف ألماني، قال بأنَّ كلَّ موجود حيٌّ وليس بين الموجودات مِنْ تفاوتٍ في الحياة إلا بالدرجة -درجة تميز الإدراك- والدرجات أربع: مطلق الحيِّ أي ما يسمى جمادًا، والنبات فالحيوان فالإنسان.

ويُقِرُّ سارتر اليهودي بأنَّ اليهود هم الذين قاموا بنشر العقلانيَّة المضادة للإلهام الدينيِّ، ويقدم

عذرهم في ذلك وهو أنَّه طالما كان البشر يؤمنون بالدين، فيسظلُّ يقع علي اليهود تميز مجحف على اعتبار أنَّهم يهود، أمَّا إذا زال الدين من الأرض، وتعامل البشر بعقولهم، فعقل اليهوديِّ كعقل غير اليهوديِّ، ويومئذ لن يتميز اليهود بكونهم يهودًا، ولن يقع عليهم التميز المجحف، وسيعيشون في سلام مع غير اليهود، أي بعد أن يغطُّوا علي حقيقتهم ويندسُّوا في وسط البشريَّة مبهمين بين الجموع.

- وفي مجتمع المسلمين نجد المعتزلة تقترب من العقلانيَّة جزئيًا، إذ اعتمدوا على العقل وجعلوه أساس تفكيرهم ودفعهم هذا المنهج إلى تأويل النصوص من الكتاب والسُّنَّة التي تخالف رأيهم. ولعلَّ أهمَّ مقولة لهم قولهم بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح، ولو لم يرد بها شيء. ونقل المعتزلة الدين إلى مجموعة من القضايا العقليَّة والبراهين المنطقيَّة وذلك لتأثرهم بالفلسفة اليونانيَّة.

وقد فنَّد علماء الإسلام آراء المعتزلة في عصرهم، ومنهم الإمام أحمد بن حنبل ثم جاء بعد ذلك ابن تيمية وردَّ عليهم ردًّا قويًّا في كتابه درء تعارض العقل والنقل وبيَّن أنَّ صريح العقل لا يمكن أن يكون مخالفًا لصحيح النقل.

وهناك من يحاول اليوم إحياء فكر المعتزلة إذ يعدونهم أهل الحرية الفكريَّة في الإسلام، ولا يخفى ما وراء هذه الدعوة من حرب على العقيدة الإسلاميَّة الصحيحة، وإن لبست ثوب التجديد في الإسلام أحيانًا.

العقائد والأفكار

- تعتمد العقلانيَّة على عدد من المبادئ الأساسيَّة هي:

١- العقل لا الوحي هو المرجع الوحيد في تفسير كلِّ شيء في الوجود.

٢- يمكن الوصول إلى المعرفة عن طريق الاستدلال العقليِّ، وبدون لجوء إلى أية مقدِّمات تجريبيَّة.

٣- عدم الإيمان بالمعجزات أو خوارق العادات.

٤- العقائد الدينيَّة ينبغي أن تختبر بمعيار عقلي.

موقف الإسلام من العقلانيَّة

الإسلام يقدر العقل باعتباره من أكبر النعم التي أنعم بها الله علي الإنسان، ولكنَّه لا يبالغ في تقدير قيمة العقل كما كانت تفعل العقلانيَّة الإغريقيَّة ومن ورثها من بعد، بحيث يجعله هو المحكم في كلِّ شيء، وهو المرجع الأخير لكلِّ شيء.

فهناك أمور لا يستطيع العقل من ذات نفسه أن يصل إليها؛ لأنَّها ليست في محيط تجربته، ولا تستطيع الأدوات التي يحصل بها المعرفة وهي أدوات الحسِّ أن تصل إليها؛ لأنَّها خارجة عن نطاق

المحسوس، وإن كان في إمكان العقل أن يعقلها حين تبين له؛ فهذه تلقن للعقل تلقينًا عن طريق الوحي، ويكون دور العقل فيها أن يعقلها لا بطريق التجربة المباشرة ولا بطريق الحسّ، ولكن عن طريق التيقُّن من صدق الخبر وصدق المخبر، وهو مدعو إلى القيام بعملية التيقُّن هذه بكلِّ الوسائل التي يملكها، وهي مؤدِّية إلى الغاية الصحيحة حين يستقيم العقل على الطريق. كما يحث الإسلام العقل على مزاولة نشاطه في ميادينه الطبيعيَّة التي يصلح لها ويحسن العمل فيها.

فعقلانيَّة الإسلام تكل إلى العقل مهامًّا خطيرة وواسعة، تكل إليها مهمة حراسة الوحي الذي تكفل بحفظه الله من كلِّ تأويل فاسد مضلٍّ، وحراسة أحكام الله من الانحراف بها عن مقاصد الشريعة وحراسة المجتمع من الآفات الاجتماعيَّة والسياسيَّة والفكريَّة والخلقيَّة التي تؤدِّي إلي تدميره، كما تكل إليه مهمة التقدُّم العلميِّ والبحث التجريبيِّ وعمارة الأرض.

ولكنَّها لا تكل إليه ولا تسمح له إن يحيد عن الوحيِّ الربانيِّ والمنهج الربانيِّ، ولا أن يجتهد من عنده ما لم يأذن به الله؛ لأنَّه عندئذ يجانب الصواب، ويحيد عن الخير، ويمكن للفساد، وتلك هي العقلانيَّة المتوازنة[١].

التغريب

التعريف:

التغريب تيَّار فكريٌّ كبيرٌ ذو أبعاد سياسيَّةٍ واجتماعيَّة وثقافيَّةٍ وفنيَّةْ، يرمي إلى صبْغ حياة الأمم بعامة، والمسلمين بخاصَّة، بالأسلوب الغربي، وذلك بهدف إلغاء شخصيتهم المستقلَّة، وخصائصهم المتفردة وجعلهم أسرى التبعيَّة الكاملة للحضارة الغربيَّة.

وقد استطاع هذا التيَّار استقطاب كثير من المفكرين العرب، فمسخوا هويتهم، وحاولوا قطع صلتهم بدينهم، والذهاب بولائهم وانتمائهم لأمَّتهم الإسلاميَّة، من خلال موالاة الغرب والزهو بكلِّ ما هو غربيٌّ، وهي أمور ذات خطر عظيمٍ على الشباب المسلم.

إنَّ التغريب هجمة نصرانيَّة، صهيونيَّة، استعماريَّة، في آنٍ واحدٍ، التقت على هدفٍ مشترك بينها وهو طبع العالم الإسلامي بالطابع الغربي تمهيدًا لمحو الطابع المميز للشخصية الإسلاميَّة.

تاريخ التغريب

لقد ارتدت الحملة الصليبيَّة مهزومة بعد حطين، وفتح العثمانيُّون عاصمة الدولة البيزنطيَّة ومقرّ كنيستهم عام ١٤٥٣م، واتَّخذوها عاصمةً لهم وغيَّروا اسمها إلى إسلامبول أي دار الإسلام، كما أنَّ جيوش العثمانيِّين قد وصلت إلى أوربا وهددت فيينا سنة ١٥٢٩م وقد ظلَّ هذا التهديد قائمًا حتَّى سنة ١٦٨٣م.

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/٧٩٦- ٧٩٨)، مذاهب فكرية معاصرة.

وسبق ذلك كلّه سقوط الأندلس التي كانت مقرًّا للخلافة الأمويَّة، كل ذلك كان مدعاة للتفكير بالتغريب، والتبشير فرع منه، ليكون السلاح الذي يحطّم العالم الإسلاميّ من داخله.

فبدأ الحكّام المتغرّبون في العالم الإسلاميّ مع نهاية القرن الثامن عشر ومطلع التاسع عشر بتحديث جيوشهم وتعزيزها عن طريق إرسال بعثات إلى البلاد الأوربيَّة أو باستقدام الخبراء الغربيِّين للتدريس والتخطيط للنهضة الحديثة، وذلك لمواجهة تطلّع الغربيِّين إلى بسط نفوذهم الاستعماري إثر بدء عهد النهضة الأوربيَّة.

ولما قضى السلطان محمود الثاني على الإنكشاريَّة العثمانيَّة سنة ١٨٢٦م أمر باتخاذ الزيّ الأوربي الذي فرضه على العسكريين والمدنيين على حد سواء.

وأصدر السلطان العثماني عبد المجيد منشورًا ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م يسمح فيه لغير المسلمين بأن يلتحقوا بالخدمة العسكريَّة.

واستقدم السلطان سليم الثالث المهندسين من السويد وفرنسا والمجر وانجلترا وذلك لإنشاء المدارس الحربيَّة والبحريَّة.

وقد قام محمد علي والي مصر، والذي تولى سنة ١٨٠٥م، ببناء جيش على النظام الأوربي، كما عمد إلى ابتعاث خريجي الأزهر من أجل التخصص في أوربا.

وأنشأ أحمد باشا باي الأول في تونس جيشًا نظاميًّا، وافتتح مدرسة للعلوم الحربيَّة فيها ضباط وأساتذة فرنسيُّون وإيطاليُّون وإنجليز.

وافتتحت أسرة القاجار التي حكمت إيران كلِّيَّة للعلوم والفنون على أساس غربيّ سنة ١٨٥٢م.

ومنذ عام ١٨٦٠م بدأت حركة التغريب عملها في لبنان عن طريق الإرساليات، ومنها امتدت إلى مصر في ظل الخديوي إسماعيل الذي كان هدفه أن يجعل مصر قطعة من أوربا.

والتقى الخديوي إسماعيل في باريس مع السلطان العثماني عبد العزيز ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م حينما لبَّيا دعوة الإمبراطور نابليون الثالث لحضور المَعْرِض الفرنسي العام، وقد كانا يسيران في تيَّار الحضارة الغربيَّة.

وابتعث رفاعة الطهطاوي إلى باريس وأقام فيها خمس سنوات ١٨٢٦ - ١٨٣١م، وكذلك ابتعث خير الدين التونسي إليها، وأقام فيها أربع سنوات ١٨٥٢ - ١٨٥٦م، وقد عاد كلٌّ منهما محمَّلًا بأفكار تدعو إلى تنظيم المجتمع على أساس علمانيّ عقلانيّ.

ومنذ ١٨٣٠م بدأ المبتَعَثون العائدون من أوربا بترجمة كتب فولتير وروسو ومونتسكيو في محاولة منهم لنشر الفكر الأوربيّ الذي ثار ضد الدين والذي ظهر في القرن الثامن عشر.

وجاء «كرومر» إلى مصر كأوَّل معتمدٍ بريطانيٍّ فيها قال: إنَّ مهمَّة الرجل الأبيض الذي وضعته العناية الإلهية في هذه البلاد -مصر- هو تثبيت دعائم الحضارة المسيحيَّة إلى أقصى حدٍّ ممكن.

واختار للتعليم قسيسًا على درجة عالية من الذكاء يدعى دنلوب، وولّاه كرومر منصب مستشار وزارة المعارف المصريَّة، وجعل في يده كل السلطات الفعاليّة لوزارة المعارف.

وضع دنلوب عينه على الأستاذ والتلميذ، وكانت عيون المراقبة التي وضعها «دنلوب» تنتقل من المدرس العادي إلى المدرس الممتاز لترى أثره في تطبيق أهداف التغريب فيكافأ على ذلك بإرساله إلى إنجلترا ليزداد صقله، وليُصاغ من جديد صياغة أدق وأشمل، ليستفاد منه على نطاق أخطر، فإذا ما عادوا يوضعون في مراكز التوجيه ليكون أثرهم في أشمل وأوسع، حتى إذا صار أحدهم في نهاية المطاف وزيرًا للمعارف حطّم من مقدَّسات قومه ما لم يكن يجرؤ «دنلوب» على فعله.

وقد أنشأ كرومر كلية فيكتوريا بالإسكندريَّة لتربيَّة جيل من أبناء الحكام والزعماء والوجهاء في محيط إنجليزيٍّ ليكونوا أداة المستقبل في نقل ونشر الحضارة الغربيَّة.

قال اللورد لويد (المندوب السامي البريطاني في مصر) حينما افتتح هذه الكلّيَّة سنة ١٩٣٦م: «كل هؤلاء لن يمضي عليهم وقت طويل حتى يتشبَّعوا بوجهة النظر البريطانيَّة بفضل العشرة الوثيقة بين المعلمين والتلاميذ».

وكان نصارى الشام من أوَّل من اتَّصل بالبعثات التبشيريَّة وبالإرساليات ومن المسارعين في تلقِّي الثقافة الفرنسيَّة والإنجليزيَّة، كما كانوا يشجعون العلمانيَّة التحرريَّة وذلك لعدم إحساسهم بالولاء تجاه الدولة العثمانيَّة، فبالغوا في إظهار إعجابهم بالغرب ودعوا إلى الاقتداء به وتتبع طريقه، وقد ظهر ذلك جليًّا في الصحف التي أسَّسوها وعملوا فيها.

وكان ناصيف اليازجي ١٨٠٠ - ١٨٧١م وابنه إبراهيم اليازجي ١٨٤٧-١٩٠٦م على صلة وثيقة بالإرساليَّات الأمريكيَّة الإنجيليَّة.

وأسس بطرس البستاني ١٨١٩ - ١٨٨٣م في عام ١٨٦٣م مدرسة لتدريس اللغة العربيَّة والعلوم الحديثة، فكان بذلك أوَّل نصرانيٍّ يدعو إلى العروبة والوطنيَّة إذ كان شعاره «حبُّ الوطن من الإيمان»، كما أصدر صحيفة الجنان سنة ١٨٧٠م التي استمرَّت ستَّ عشرة سنة. وقد تولَّى منصب الترجمة في قنصليَّة أمريكا ببيروت مشاركًا في التَّرجمة البروتستانتيَّة للتوراة مع الأمريكيَّيْن سميث وفانديك.

وأنشأ جورجي زيدان ١٨٦١ - ١٩١٤م مجلة الهلال في مصر وذلك في سنة ١٨٩٢م، وقد كان على صلة بالمبعوثين الأمريكان، كما كانت له سلسلة من القصص التاريخيَّة التي حشاها بالافتراءات على الإسلام والمسلمين.

وأسس سليم تقلا صحيفة الأهرام في مصر، وقد سبق له أن تلقَّى علومه في مدرسة عربيَّة بلبنان، والتي أنشأها المبشر الأمريكي فانديك.

وأصدر سليم النقَّاش صحيفة المقتطف التي عاشت ثمانية أعوام في لبنان، انتقلت بعدها إلى مصر في سنة ١٨٨٤م.

وتجوّل جمال الدين الأفغاني ١٨٣٨-١٨٩٧م كثيرًا في العالم الإسلامي شرقًا وغربًا، وقد أدخل نظام الجمعيَّات السريَّة في العصر الحديث إلى مصر، كما يقال بأنَّه انضمَّ إلى المحافل الماسونيَّة، وكان على صلة بالمستر بلنت البريطانيٍّ.

وكان الشيخ محمَّد عبده ١٨٤٩-١٩٠٥م من أبرز تلاميذ الأفغاني، وشريكه في إنشاء مجلة العروة الوثقى، وكانت له صداقة مع اللورد كرومر والمستر بلنت، ولقد كانت مدرسته -ومنها رشيد رضا- تدعو إلى مهاجمة التقاليد، كما ظهرت لهم فتاوى تعتمد على أقصى ما تسمح به النصوص من تأويل بغية إظهار الإسلام بمظهر المتقبل لحضارة الغرب، كما دعا الشيخ محمد عبده إلى إدخال العلوم العصريَّة إلى الأزهر لتطويره وتحديثه.

وكان المستشرق مستر بلنت يطوف هو وزوجته مرتديًا الزي العربي، داعيًا إلى القوميَّة العربيَّة وإلى إنشاء خلافة عربيَّة بغية تحطيم الرابطة الإسلاميَّة.

وقد قاد قاسم أمين ١٨٦٥ - ١٩٠٨م وهو تلميذ محمَّد عبده، الدعوة إلى تحرير المرأة وتمكينها من العمل في الوظائف والأعمال العامة. وقد كتب تحرير المرأة ١٨٩٩م والمرأة الجديدة ١٩٠٠م.

وكان سعد زغلول الذي عينه كرومر وزيرًا للمعارف سنة ١٩٠٦م مكافأة له على خدماته، ويَذكر عن كرومر أنه: كان يجلس معي الساعة والساعتين ويحدثني في مسائل شتى كي أتنور منها في حياتي السياسية. وكان يصفه بأن: صفاته قد اتفق الكل على كمالها. وقد نفذ سعد فكرة كرومر القديمة والداعية إلى إنشاء مدرسة للقضاء الشرعيِّ بقصد تطوير الفكر الإسلاميِّ من خلال مؤسسة غير أزهريَّة منافسة له. وكان شديد التأثر بآراء محمَّد عبده. واتصل برجال تركيا الفتاة الذين قضوا على الخلافة الإسلامية في تركيا. ونشر بعد موته حداد الماسونية على فقيد البلاد الأعظم.

وكان أحمد لطفي السيد ١٨٧٢ - ١٩٦٣م من أكبر مؤسسي حزب الأحرار الدستوريين الذين انشقوا عن سعد زغلول سياسيًّا، وكان يدعو إلى الإقليميَّة الضيِّقة وهو صاحب العبارة المشهورة التي أطلقها عام ١٩٠٧م وهي «مصر للمصريين». ومن مواقفه الشهيرة أنه مجّد اللورد كرومر ووصفه بأنه: من أعظم عظماء الرجال ويندر أن نجد في تاريخ عصرنا نداً له يضارعه في عظائم الأعمال. ونُشر عنه هذا الكلام في نفس اليوم الذي ألقى فيه كرومر خطاب الوداع فسبّ المصريين جميعًا.

وقد تولى شئون الجامعة المصريَّة منذ تسلَّمتها الحكومة المصريَّة عام ١٩١٦م وحتى ١٩٤١م تقريبًا. وقد رسم منهجاً للحياة الاجتماعية والسياسية والتربوية والاقتصادية في مصر يقوم على التبعية العامة للنفوذ الأجنبي والاحتلال البريطاني والفكر الغربي.

وكان طه حسين ١٨٨٩- ١٩٧٣م من أبرز دعاة التغريب في العالم الإسلامي، إذ تلقى علومه على يد المستشرق دوركايم، وقد نشر أخطر آرائه في كتابيه «الشعر الجاهلي» و«مستقبل الثقافة في مصر». يقول في كتابه الشعر الجاهلي ص ٢٦: للتوراة أن تحدِّثنا عن إبراهيم وإسماعيل وللقرآن أن

يحدثنا أيضًا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي.

ويقول بعد ذلك: وقد كانت قريش مستعدَّة كل الاستعداد لقبول هذه الأسطورة في القرن السابع للمسيح. كما أنَّه ينفي فيه نسب النبيِّ صلى الله عليه وسلم إلى أشراف قريش.

لقد بدأ طه حسين محاضرة له في اللغة والأدب بحمد الله والصلاة على نبيه ثم قال: سيضحك مني بعض الحاضرين إذا سمعني أبدأ هذه المحاضرة بحمد الله والصلاة على نبيِّه لأنَّ ذلك يخالف عادة العصر. (مجلة الهلال، عدد أكتوبر ونوفمبر ١٩١١م).

وقد ازدهرت حركة التغريب بعد سيطرة الاتحاديين عام ١٩٠٨م على الحكم في الدولة العثمانية وسقوط السلطان عبد الحميد.

وفي سنة ١٩٢٤م ألغت حكومة مصطفى كمال أتاتورك الخلافة العثمانيَّة مما مهد لانضمام تركيا إلى الركب العلمانيِّ الحديث، وفرض عليها التغريب بأقصى صورة وأعنفها.

ونشر علي عبد الرزاق سنة ١٩٢٥م كتابه الإسلام وأصول الحكم الذي ترجم إلى الإنجليزيَّة والأرديَّة. يحاول فيه المؤلف أن يقنع القارئ بأنَّ الإسلام دين فقط وليس دينًا ودولة. وقد ضرب سميث مثلًا به عندما أشار إلى أنَّ التحرريَّة العلمانيَّة والعالميَّة لا تروج في العالم الإسلامي إلا إذا فسرت تفسيرًا إسلاميًّا مقبولًا، وقد حوكم الكتاب والمؤلف من قبل هيئة العلماء بالأزهر في ١٢/ ٨/ ١٩٢٥م وصدرت ضده إدانة أخرجته من زمرة العلماء. وكان يشرف على مجلة الرابطة الشرقيَّة، كما أقام حفل تكريم لأرنست رينان ١٨٢٣- ١٨٩٢م في الجامعة المصريَّة بمناسبة مرور مائة سنة على وفاة هذا المستشرق الذي لم يدخر وسعًا في مهاجمة العرب والمسلمين.

وكان محمود عزمي من أكبر دعاة الفرعونيَّة في مصر، درس على أستاذه دوركايم الذي كان يقول له: إذا ذكرت الاقتصاد فلا تذكر الشريعة، وإذا ذكرت الشريعة فلا تذكر الاقتصاد.

وسبق أن قدَّم منصور فهمي ١٨٨٦-١٩٥٩م: أول أطروحة للدكتوراه على أستاذه ليفي بريل مهاجمًا نظام الزواج في الإسلام، والتي موضوعها حالة المرأة في التقاليد الإسلاميَّة وتطوراتها. وفي هذه الرسالة يقول: محمد يشرع لجميع الناس ويستثني نفسه، ويقول: إلا أنَّه أعفى نفسه من المهر والشهود. لكنه انتقد بعد ذلك حركة التغريب في سنة ١٩١٥م وجاهر بآرائه في الأخطاء التي حملها طه حسين ومدرسته.

ويعد إسماعيل مظهر من أئمة مدرسة التغريب لكنه لم يلبث أن تحول عنها إبان عصر النهضة الحديثة.

وكان زكي مبارك في مقدمة تلاميذ طه حسين. درس على أيدي المستشرقين، وسبق له أن قدَّم أطروحة للدكتوراه في الغزالي والمأمون مهاجمًا الغزالي هجومًا عنيفًا، لكنه رجع عن ذلك فيما بعد وكتب مقاله المعروف: إليك أعتذر أيها الغزالي.

ويعتبر محمد حسين هيكل ١٨٨٨ - ١٩٥٦م رئيس تحرير جريدة السياسة في الفترة الأولى من

حياته من أبرز المستغربين، وقد أنكر الإسراء بالروح والجسد معًا انطلاقًا من نظرة عقلانيَّة (حياة محمد).

لكنه عدل عن ذلك وكتب معبرًا عن توجهه الجديد في مقدمة كتابه في منزل الوحي.

وكان الشيخ أمين الخولي وهو من مدرسي مادتي التفسير والبلاغة بالجامعة المصريَّة، يروج لأفكار طه حسين في الدعوة إلى دراسة القرآن دراسة فنية بغض النظر عن مكانته الدينيَّة، وقد استمر في ذلك حتى كشفه الشيخ محمود شلتوت سنة ١٩٤٧م.

وقاد شبلي شميل ١٨٦٠ - ١٩١٧م الدعوة إلى العلمانيَّة ومهاجمة قيم الأديان والأخلاق.

لقد استطاعت حركة التغريب أن تتغلغل في كلِّ بلاد العالم الإسلامي، وإلى كلِّ البلاد المشرقيَّة على أمل بسط بصمات الحضارة الغربيَّة المادِّيَّة الحديثة على هذه البلاد وربطها بالغرب فكرًا وسلوكًا.

لقد تفاوت تأثير حركة التغريب؛ إذ إنَّه قد ظهر بوضوح في مصر، وبلاد الشام، وتركيا، وأندونيسيا والمغرب العربي، وتتدرج بعد ذلك في البلاد الإسلاميَّة الأقل فالأقل، ولم يخلُ بلد إسلاميٌّ أو مشرقيٌّ من آثار وبصمات هذه الحركة.

وسائل التغريب

١- المستشرق الإنجليزي جب ألَّف كتاب «إلى أين يتجه الإسلام»، الذي نشر بلبنان سنة ١٩٣٢م وكان قد ألَّفه مع جماعة من المستشرقين، وهو يبحث في أسباب تعثر عمليَّة التغريب في العالم الإسلاميِّ ووسائل تقدُّمها وتطوُّرها، يقول فيه: من أهم مظاهر سياسة التغريب في العالم الإسلامي تنمية الاهتمام ببعث الحضارات القديمة التي ازدهرت في البلاد المختلفة التي يشغلها المسلمون الآن.

٢- تشجيع فكرة إيجاد فكر إسلامي متطور يبرر الأنماط الغربيَّة ومحو الطابع المميز للشخصيَّة الإسلاميَّة بغية إيجاد علائق مستقرَّة بين الغرب وبين العالم الإسلامي خدمة لمصالحه.

٣- الدعوة إلى الوطنيَّة ودراسة التاريخ القديم والدعوة إلى الحرية، باعتبارها أساس نهضة الأمَّة مع عرض النظم الاقتصاديَّة الغربيَّة عرضًا مصحوبًا بالإعجاب، وتكرار الكلام حول تعدد الزوجات في الإسلام وتحديد الطلاق واختلاط الجنسين.

٤- نشر فكرة العالميَّة والإنسانيَّة التي يزعم أصحابها بأنَّ ذلك هو السبيل إلى جمع الناس على مذهب واحد تزول معه الخلافات الدينيَّة والعنصريَّة لإحلال السلام في العالم، ولتصبح الأرض وطنًا واحدًا يدين بدين واحد ويتكلم بلغة واحدة وثقافة مشتركة، بغية تذويب الفكر الإسلامي واحتوائه في بوتقة الأقوياء المسيطرين أصحاب النفوذ العالمي.

٥- إنَّ نشر الفكر القوميِّ كان خطوة على طريق التغريب في القرن التاسع عشر وقد انتقل من

أوربا إلى العرب والإيرانيين والترك والأندونيسيين والهنود، بغية تمزيق الكتل الكبيرة إلى كيانات جزئيَّة تقوم على رابط جغرافيٍّ يجمع أناسًا ينتمون إلى أصولٍ عرقيةٍ مشتركةٍ.

٦- عرض روكفلر الصهيوني المتعصب تبرعه بعشرة ملايين دولار لإنشاء مُتْحَفٍ للآثار الفرعونيَّة في مصر وملحق به معهد لتخريج المتخصصين في هذا الفن.

٧- إن كلًّا من الاستعمار، والاستشراق، والشيوعيَّة، والماسونيَّة وفروعها، والصهيونيَّة، ودعاة التوفيق بين الأديان (وحدة الأديان)، قد تآزروا جميعًا في دعم حركة التغريب وتأييدها بهدف تطويق العالم الإسلامي وتطويعه ليكون أداةً لينةً بأيديهم.

٨- نشر المذاهب الهدَّامة كالفرويديَّة، والداروينيَّة، والماركسيَّة، والقول بتطور الأخلاق (ليفي بريل) وبتطور المجتمع (دوركايم) والتركيز على الفكر الوجوديِّ والعلمانيِّ، والتحرريِّ، والدراسات عن التصوُّف الإسلاميِّ، والدعوة إلى القوميَّة والأقليميَّة والوطنيَّة، والفصل بين الدين والمجتمع، وحملة الانتقاص من الدين، ومهاجمة القرآن والنبوة والوحي والتاريخ الإسلاميِّ، والتشكيك في القيم الإسلاميَّة، والدعوة إلى التخلي عن الأصالة والتميز، والتخويف من الموت أو الفقر وذلك لإقعاد المسلمين عن فكرة الجهاد، وإشاعة فكرة أنَّ سبب تأخر العرب والمسلمين إنَّما هو الإسلام.

٩- اعتبار القرآن فيضًا من العقل الباطن مع الإشادة بعبقريَّة النبيِّ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلم وألمعيته وصفاء ذهنه ووصف ذلك بالإشراق الروحي تمهيدًا لإزالة صفة النبوَّة عنه.

١٠- نشر الإعلام الغربي واختراق الإعلام العربي، ويظهر ذلك فيه من خلال: عرضه للفارق بين واقع المسلم وواقع المواطن الغربي من جميع النواحي، توظيف السينما والتلفزة والكثير من الكتاب والمؤلفين لبث ما يكون فيه تشويه صورة الإسلام والمسلمين، تشجيع الخلافات المذهبيَّة بين المسلمين وتعميقها ثم إبرازها للمسلمين عبر الأقنية الإعلاميَّة على أنَّها تمثل الإسلام.

١١- نصارى العرب الذين يمثلون نسبة لا تعكس كونهم أقلية من ناحية العدد، ولكنهم من جانب آخر نصارى، كما هي عقيدة الغرب الدينيَّة.

المؤتمرات التغريبيَّة

١- عقد مؤتمر في بلتيمور عام ١٩٤٢م وهو يدعو إلى دراسة وابتعاث الحركات السريَّة في الإسلام.

٢- في عام ١٩٤٧م عقد في جامعة برنستون بأمريكا مؤتمر لدراسة (الشئون الثقافيَّة والاجتماعيَّة في الشرق الأدنى) وقد ترجمت بحوث هذا المؤتمر إلى العربيَّة تحت رقم ١١٦ من مشروع الألف كتاب في مصر. شارك فيه كويلر يونغ وحبيب كوراني وعبد الحق أديوار ولويس توماس.

٣- عقد مؤتمر (الثقافة الإسلاميَّة والحياة المعاصرة) في صيف عام ١٩٥٣م في جامعة برنستون وشارك فيه كبار المفكِّرين من مثل ميل بروز، وهارولد سميث، وروفائيل باتاي، وهارولد ألن،

وجون كرسويل، والشيخ مصطفى الزرقا، وكنت كراج، واشتياق حسين، وفضل الرحمن الهندي.

٤- وفي عام ١٩٥٥م عقد في لاهور بالباكستان مؤتمر ثالث لكنَّه فشل وظهرت خطتهم بمحاولتهم إشراك باحثين من المسلمين والمستشرقين في توجيه الدراسات الإسلاميَّة.

٥- انعقد مؤتمر للتأليف بين الإسلام والمسيحيَّة في بيروت ١٩٥٣م، ثم في الإسكندريَّة ١٩٥٤م وتتالت بعد ذلك اللقاءات والمؤتمرات في روما وغيرها من البلدان لنفس الغرض.

٦- في سبتمبر ١٩٩٤م عقد بالقاهرة مؤتمر السُّكَّان والتنمية بهدف نشر أفكار التحلل الجنسي «الغربيَّة» بين المسلمين -من إتاحة للاتصالات غير المشروعة بين المراهقين والإجهاض والزواج الحرّ والسفاح والتدريب على موانع الحمل، وقد أصدرت هيئة كبار العلماء بالمملكة العربيَّة السعوديَّة فتوى بضرورة مقاطعته والحذر من توصياته وأهدافه.

مظاهر التغريب في بلاد المسلمين

١- إعطاء أسماء أجنبيَّة للمحال التجاريَّة: فالسائر في الشارع يهوله هذا الكم الخطير من الإعلانات التي تحمل أسماء أجنبيَّة، إما مكتوبة باللغة العربيَّة أو -وهو الأمرّ- مكتوبة باللغة الإنجليزيَّة.

٢- ومن مظاهر التغريب التي تصدمك في الشارع، تقليد سلوكيات الغرب وعاداتهم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع.

٣- وفي أسلوب الحوار، تجدهم يحاولون إقحام كلمة باللغة الإنجليزية أثناء الحديث، حتى يبدو المتكلم وكأنَّه مثقف.

٤- وفي أوقات الفراغ تجدهم أمام شاشات التلفاز يشاهدون المسلسلات أو الأفلام التي تبث القيم الغربيَّة البعيدة أو المنافية للإسلام.

٥- وفي التفكير والسلوك، هيمن النمط الغربي للسلوك على أفراد أمَّة الإسلام.

٦- وفي المأكل والمشرب انتشرت في شوارعنا ثقافة محلات تقديم الوجبات السريعة والسندوتشات والتي يمشي الناس يأكلونها في الشارع، أو يجلسون في تلك المحال فيأكلون على أنغام الموسيقى الصاخبة والأغاني الهابطة[١].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٦٩٨- ٧٠٥)، الحصاد المر، محمود شنب، المسلمون في مواجهة الغزو الثقافي المعادي، عبد الرحمن حمادي، جناية الاستغراب على الأدب العربي، خميس بن عاشور.

القوميَّة

التعريف:

القوميَّة حركة سياسيَّة فكريَّة تدعو إلى ضرورة أن يكون أبناء الأصل الواحد واللغة الواحدة ولاءهم واحدًا، وإن تعددت أرضهم وتفرقت أوطانهم.

فالقوميَّة العربيَّة حركة سياسيَّة فكريَّة متعصِّبة تدعو إلى تمجيد العرب، وإقامة دولة موحدة لهم، على أساس من رابطة الدم والقربى واللغة والتاريخ، وإحلالها محل رابطة الدين.

والعلاقة بين القوميَّة والوطنيَّة: أنَّ القوميَّة من معناها أيضًا السعي في النهاية إلى توحيد الوطن بحيث تجتمع القوميَّة الواحدة في وطنٍ شاملٍ، فيكون الولاء للقوميَّة مصحوبًا بالولاء للأرض، ولكن الولاء للقوميَّة يظل هو الأصل ولو لَم تتحقق وحدة الأرض.

تاريخ القومية

الدعوة القوميَّة ظهرت في أوربَّا، فقد كانت أوربَّا في وقت من الأوقات وحدة سياسيَّة تجمع قوميَّات ولغات وأجناسًا شتَّى، في ظلِّ الإمبراطوريَّة الرومانيَّة، ولم يكن هذا التَّجمع يشكل أمَّةً بالمعنى الحقيقيِّ، فقد كانت الدولة الأمّ هي الأمَّة في نظر نفسها وفي نظر المستعمرات التي استولت عليها وألحقتها بالإمبراطوريَّة، كما كانت الدولة الأم هي السيدة والمستعمرات هي العبيد، فلم تمتزج شعوب أوربَّا قط في وحدة حقيقيَّة في تاريخها كلِّه، حتَّى بعد أن اعتنق الإمبراطور قسطنطين النصرانيَّة وفرضها على الإمبراطوريَّة كلِّها عام ٣٢٥م، وإن كان اعتناقه قد أنشأ لفترة من الوقت لونًا من التجمع الشعوري، وكان هذا هو هدف قسطنطين الحقيقي من دخوله النصرانيَّة أن توحد الإمبراطورية التي كانت توشك على التمزق والافتراق.

وأوجدت عقيدة النصارى والكنيسة البابويَّة لونًا من التجمع والوحدة، ولكنَّ طغيان الكنيسة ما لبث أن عمل على تقويض ذلك التجمع من أكثر من باب، وأدَّى إلى الرغبة في تحطيم نفوذ الكنيسة والتفلُّت منها والنفور والانسلاخ من الدين ذاته، مما أدَّى إلى تمرد الملوك بل ورجال الدين أنفسهم على الكنيسة وسلطانها، ومن ثم ظهور حركات الانفصال -وساعد عليه اليهود انتقامًا للاضطهاد والذي لا قوة من النصارى قبل ذلك- التي كانت البداية لظهور القوميَّات في أوربَّا التي تخلَّت عن الدين وأصحابه إن لم تطردهم وتلقيهم في غياهب السجون.

وأول ما اتجهت إليه القوميَّات هو السعي إلى توسيع رقعتها على حساب قوميَّة أخرى أضعف منها، فنشب صراع عنيف داخل أوربَّا بين هذه القوميَّات الناشئة بعضها وبعض، ومنها الحروب الإيطاليَّة بين فرنسا وأسبانيا، وحروب نابليون ... وغيرهما.

ثم مع الثورة الصناعيَّة ظهرت الأخلاق اليهوديَّة المادِّيَّة فاتجهت القوميَّات إلى تحقيق المصالح

القوميَّة بصرف النظر تمامًا عن المصالح الإنسانيَّة، وتتضاعف الصراعات بصورة ماديَّة بحتة، قامت على الرأسماليَّة المتذرعة بمقولة الداروينيَّة: البقاء للأصلح؛ ولمَّا كانت كلُّ قوميَّة تزعم لنفسها أنَّها هي الأجدر بالبقاء، وتريد أن تثبت ذلك بالفعل، فوصل الصراع إلى حدِّ الوحشيَّة، وماتت في دوامته كل المعاني الإنسانيَّة.

ومع الثورة الصناعيَّة الرأسمالية المتلبسة في ذات الوقت بالقوميَّة اتسعت رقعة الاستعمار الأوربيَّة المشبع بالروح الصليبية، والمتسم بالصبغة الاقتصاديَّة، الباحث عن الموارد الرخيصة، وعن الأسواق المضمونة لتوزيع فائض الإنتاج.

ونشبت الحروب بين القوميَّات المختلفة أبشع ما تكون وصارت نهاية الأمر حروبًا عالميَّة تشترك فيها كل القوميَّات ويصلاها العالم كله بذنب وبغير ذنب، وأفرزت الحرب العالميَّة الثانية معسكرين؛ المعسكر الشيوعي والمعسكر الرأسماليان اللذان يجتمعان ويختصمان على مبدأ التوسع والسيطرة والسلطان وتوزيع مناطق النفوذ في العالم دون أي اعتبار لمبادئ أخرى.

وهكذا صارت المصالح القوميَّة هي الأصل المعترف به في حياة الناس -الأوربيِّين-، وعلى حساب القيم والمبادئ وكل ومعنى من معاني الإنسانيَّة عرفته البشريَّة في يوم من الأيَّام.

وتم تصدير دعاوى القوميَّة والوطنيَّة إلى الشرق الإسلامي من بين وسائل الغزو الفكري الذي استخدمه الصليبيُّون المحدَثون في غزو العالم الإسلامي، والهادف إلى اقتلاع العقيدة الإسلاميَّة واستبدال غيرها بها.

وفي مطلع أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين طلب اليهود من السلطان عبد الحميد منحهم وطنًا قوميًّا في فلسطين في مقابل مغريات كبيرة، فلما رفض دبَّروا لخلعه ثم لإزالة الخلافة كلِّها على يد كمال أتاتورك، وكان هذا عن طريق القوميَّة.

فيهود الدونما كانوا هم المنظمين الحقيقيين لحزب الاتحاد والترقي، الذي نادى بالقوميَّة الطورانيَّة، (وهي قوميَّة الأتراك في جاهليتهم قبل دخولهم في الإسلام)، ورفع شعار الذنب الأغبر (وهو معبود الأتراك في جاهليتهم)، كما نادى بضرورة تتريك الدولة، أي جعل المناصب فيها وقفًا على الأتراك وحدهم، ومعنى ذلك -كما حدث بالفعل- أن يحس العرب أنَّهم مظلومون في ظلِّ الحكم التركي وأنَّهم مهضومو الحقوق، عندئذ تلقفتهم الصليبيَّة -حليفة اليهوديَّة في الحرب ضد الإ سلام- فأرسلت إليهم «لورنس» ليؤجج فيهم روح القوميَّة العربيَّة، ردًّا على القوميَّة الطورانيَّة، ويؤلف الثورة العربيَّة الكبرى ضد دولة الخلافة.

فنشط نصارى بلاد الشام وخاصة لبنان في الدعوة إلى القوميَّة العربيَّة، وكان هذا الفكر يعمق العداوة مع الدولة العثمانيَّة المسلمة التي يكرهونها، وينبه في العرب جانبًا من شخصيتهم غير الدينيَّة، مما يبعد بهم عن العثمانيِّين.

وانضم إليهم المسلمون الذين تربوا في مدارس التبشير، ثم انضم إليهم المستغفلون من المسلمين

الذين لم يجدوا تعارضًا بين الإسلام والعروبة على أساس أنَّ العروبة هي عصب الإسلام، وأنَّ العرب هم الذين حملوا الإسلام إلى كلِّ البشريَّة.

وظهرت الحركات السريَّة وتألفت من أجلها الجمعيَّات والخلايا التي تنادي بالعروبة والقوميَّة العربيَّة، ثم في حركة علنية في جمعيَّات أدبيَّة تتخذ من دمشق وبيروت مقرًّا لها، ثم في حركة سياسيَّة واضحة المعالم في المؤتمر العربيّ الأول الذي عقد في باريس سنة ١٩١٢م.

وفيما يلي إشارة إلى أهمِّ الجمعيَّات ذات التوجُّه القوميّ حسب التسلسل التاريخي:

- الجمعيَّة السوريَّة: أسسها نصارى منهم: بطرس البستاني وناصيف اليازجي سنة ١٨٤٧م في دمشق.
- الجمعيَّة السوريَّة في بيروت: أسسها نصارى منهم: سليم البستاني ومنيف خوري سنة ١٨٦٨م.
- الجمعيَّة العربيَّة السرِّيَّة: ظهرت سنة ١٨٧٥م ولها فروع في دمشق وطرابلس وصيدا.
- جمعيَّة حقوق المرأة العربيَّة: ظهرت سنة ١٨٨١م ولها فروع كذلك، وهي تهدف إلى وحدة المسلمين والنصارى.
- جمعيَّة رابطة الوطن العربيّ: أسسها نجيب عازوري سنة ١٩٠٤م بباريس وألف كتاب يقظة العرب.
- جمعيَّة الوطن العربيّ: أسسها خير الله خير الله سنة ١٩٠٥ بباريس، وفي هذه السنة نشر أول كتاب قومي بعنوان: الحركة الوطنيَّة العربيَّة.
- الجمعيَّة القحطانيَّة: ظهرت سنة ١٩٠٩م وهي جمعيَّة سرِّيَّة من مؤسسيها خليل حمادة المصري.
- جمعيَّة (العربيَّة الفتاة): أسسها في باريس طلاب عرب منهم محمد البعلبكي سنة ١٩١١م.
- الكتلة النيابيَّة العربيَّة: ظهرت سنة ١٩١١م.
- حزب اللامركزيَّة: سنة ١٩١٢م.
- الجمعيَّات الإصلاحيَّة: أواخر ١٩١٢م وقد قامت في بيروت ودمشق وحلب وبغداد والبصرة والموصل وتتكون من خليط من أعيان المسلمين والنصارى.
- المؤتمر العربي في باريس: أسسه بعض الطلاب العرب سنة ١٩١٢م.
- حزب العهد: ١٩١٢م وهو سريّ، أنشأه ضباط عرب في الجيش العثماني.
- جمعيَّة العلم الأخضر: سنة ١٩١٣م، من مؤسسيها الدكتور فائق شاكر.
- جمعيَّة العلم: وقد ظهرت سنة ١٩١٤ في الموصل.

وظلت الدعوة إلى القوميَّة العربيَّة محصورة في نطاق الأقلِّيَّات الدينيَّة غير المسلمة، وفي عدد محدود من أبناء المسلمين الذين تأثروا بفكرتها حتَّى فوجئ الصليبيون واليهود أثناء الحربين العالميتين بفدائيين مسلمين -وخاصة من مصر- اشتركوا في القتال يحرصون على الموت حرص أعدائهم على الحياة، فعملوا على ضرورة القضاء على حركة البعث الإسلامي التي أخرجت مثل هؤلاء المجاهدين، وعلى ضرورة إيجاد بديل على الراية الإسلاميَّة التي أخرجت أولئك المقاتلين وتوشك أن تمتد ظلالها من مصر إلى البلاد العربيَّة الأخرى، وكان البديل هو القوميَّة العربيَّة.

فكرت بريطانيا في إيجاد الجامعة العربيَّة على مستوى الحكومات سنة ١٩٤٦م، ولكنَّه لم يكن كافيًا إذ كان لا بدَّ من رفع راية القوميَّة العربيَّة على مستوى الجماهير.

ولما ورثت أمريكا بريطانيا وفرنسا بعد الحرب وبسطت نفوذها على الشرق الأوسط أقامت عن طريق الانقلابات العسكريَّة زعامات كاملة تدافع عن القوميَّة العربيَّة في الوقت الذي تحارب فيه الإسلام والمسلمين، وقالت الدعاية التي أقمتها أمريكا وإسرائيل: إنَّ أمريكا وإسرائيل لا تخشيان شيئًا خشيتهما للقوميَّة العربيَّة، ولا تخشيان أحدًا خشيتهما لزعيم القوميَّة العربيَّة الذي تبنى الدعوة إليها؛ وهو الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر الذي سخر لها أجهزة إعلامه وإمكانات دولته فأصبحت القوميَّة العربيَّة حينئذ تيارًا شعبيًّا.

ويعد ساطع الحصري ١٨٨٠-١٩٦٨م داعية القوميَّة العربيَّة، وأهم مفكريها، وأشهر دعاتها، وله مؤلفات كثيرة تعد الأساس الذي تقوم عليه فكرة القوميَّة العربيَّة، ويأتي بعده في الأهمِّيَّة مشيل عفلق.

أفكار ومعتقدات القومية

- يُعلي الفكر القومي من شأن رابطة القربى والدم على حساب رابطة الدين، وإذا كان بعض كتاب القوميَّة العربيَّة يسكتون عن الدين، فإن بعضهم الآخر يصر على إبعاده إبعادًا تامًّا عن الروابط التي تقوم عليها الأمَّة بحجَّة أن ذلك يمزِّق الأمَّة بسبب وجود غير المسلمين فيها، ويرون أن رابطة اللغة والجنس أقدر على جمع كلمة العرب من رابطة الدين.

- حيث إنَّ أساسها إبعاد الدين الإسلامي عن معترك حياة العرب السياسيَّة والاجتماعيَّة والتربويَّة والتشريعيَّة فإنَّها تعد ردة إلى الجاهليَّة، وضربًا من ضروب الغزو الفكري الذي أصاب العالم الإسلامي؛ لأنَّها في حقيقتها صدى للدعوات القوميَّة التي ظهرت في أوربَّا.

- يرى دعاة الفكر القومي -على اختلاف بينهم في ترتيب مقومات هذا الفكر- أن أهم المقومات التي تقوم عليها القوميَّة العربيَّة هي: اللُّغة والدم والتاريخ والأرض والآلام والآمال المشتركة.

- ويرون أن العرب أمَّة واحدة لها مقومات الأمَّة، وأنَّها تعيش على أرض واحدة هي الوطن العربي الواحد الذي يمتد من الخليج إلى المحيط.

- كما يرون أن الحدود بين أجزاء هذا الوطن هي حدود طارئة، ينبغي أن تزول، وينبغي أن تكون للعرب دولة واحدة، وحكومة واحدة، تقوم على أساس من الفكر العلماني.

- يدعو الفكر القومي إلى تحرير الإنسان العربي من الخرافات والغيبيات والأديان كما يزعمون.

لذلك يتبنى شعار: (الدين لله والوطن للجميع)، والهدف من هذا الشعار إقصاء الإسلام عن أن يكون له أي وجود فعلي من ناحية، وجعل أخوة الوطن مقدمة إلى أخوة الدين من ناحية أخرى.

- يرى الفكر القومي أن الأديان والأقلِّيَّات والتقاليد المتوارثة عقبات ينبغي التخلص منها من أجل بناء مستقبل الأمَّة.

- يقول عدد من قادة هذا الفكر: نحن عرب قبل عيسى وموسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

- ويقرر الفكر القومي أنَّ الوحدة العربيَّة حقيقة، أما الوحدة الإسلاميَّة فهي حلم.

- وأن فكرة القوميَّة العربيَّة من التيارات الطبيعيَّة التي تنبع من أغوار الطبيعة الاجتماعيَّة، لا من الآراء الاصطناعيَّة التي يستطيع أن يبدعها الأفراد.

- كثيرًا ما يتمثل دعاة الفكر القومي بقول الشاعر القوري:

هبوني عيدًا يجعل العرب أمة ... وسيروا بجثماني على دين بَرْهَمِ
سلام على كفر يوحد بيننا ... وأهلا وسهلا بعده بجهنم

- يقول بعض دعاة الفكر القومي: إنَّ العبقريَّة العربيَّة عبرت عن نفسها بأشكال شتَّى، فمثلًا عبَّرت ذات مرة عن نفسها بشريعة حمورابي، ومرة أخرى بالشعر الجاهلي، وثالثة بالإسلام.

- وقال أحد مشاهيرهم: لقد كان محمَّد كلَّ العرب، فليكن كل العرب محمَّدًا.

- يرى دعاة الفكر القومي أن من الإجرام أن يتخلى العربي عن قوميَّته، ويتجاوزها إلى الإيمان بفكرة عالميَّة أو أمميَّة، مع أنَّ إبعاد الإسلام عن معترك حياة العرب ينهي وجودهم.

- يقول بعض مفكري القوميَّة العربيَّة: إذا كان لكل عصر نبوته المقدَّسة، فإن القوميَّة العربيَّة هي نبوة هذا العصر.

- ويقول بعضهم الآخر: إنَّ العروبة هي ديننا نحن العرب المؤمنين العريقين من مسلمين ومسيحيين، لأنَّها وجدت قبل الإسلام وقبل المسيحيَّة، ويجب أن نغار عليها كما يغار المسلمون على قرآن النبيِّ والمسيحيون على إنجيل المسيح.

- ويقرر بعضهم الآخر أنَّ المرحلة القوميَّة في حياة الأمَّة، مرحلة حتميَّة، وهي آخر مراحل التطور كما أنَّها أعلى درجات التفكير الإنساني.

نقد القومية

١- إنَّ القوميَّة في ذاتها نزعة غير إنسانيَّة فهي تُحِدُّ عَالَمَ الإنسان، فتجعل أُفُق الإنسان هو الرقعة الضئيلة من هذا العالم التي يسكن فيها قومه، بدلًا من أن يكون أفقه العالم والإنسان.

٢- إنَّ القوميَّة مصالح ماديَّة يتعارك عليها مع غيره من الهابطين مثله إلى دركه، كالمصالح التي يتعارك عليها الحيوان من أرض وكلا إذا كان من الضعاف أكلة العشب، أو أرض وصيد إذا كان من الوحوش التي يتفرس القوي منها الضعيف.

٣- تقيم تجمعها على الأمور التي لا خيار فيها للإنسان، مثل: المولد في أرض معينة، والكلام بلغة الأرض التي ولد فيها، والمصالح الماديَّة القاهرة، في الوقت التي تنبذ فيه كل الأمور التي يكون للإنسان فيها الخيار، مثلا العقيدة في الله، والقيم المنبثقة من العقيدة (كالصدق والأمانة والعدل مع كل الناس، والحب والبغض في الله).

٤- مخالفة مراد الله من جعل الناس شعوبًا وقبائل لا لينحبسوا في داخلها، ولا ليتعاركوا مع الشعوب والقبائل الأخرى بحثًا عن مصالحها القوميَّة، ولكن ليتعارفوا، وقاعدة التعارف التي تليق ببني الإنسان هي التقوى، وهي الكلمة الجامعة لكلِّ ما في الحياة الإنسانيَّة من معاني الخير.

٥- إنَّ نشأة القوميَّة في أوربَّا لا ينسحب على الإسلام والمسلمين، لأنَّه انصهرت القوميات والأجناس واللغات فيها في بوتقة العقيدة فصارت أمَّة واحدة على مستوى واحد، وهي الأمة الإسلاميَّة، وتاريخ المسلمين في خير القرون يشهد بذلك.

موقف الإسلام من القومية العربيَّة

إنَّ الإسلام لا يغير انتماء الناس إلى أرضهم ولا شعوبهم ولا قبائلهم؛ لأنَّ هذا أمر ماديٌّ حسيٌّ واقع لا سبيل إلى تغييره، فالذي يولد في الأرض المصريَّة مصري بحكم مولده... وهكذا العراقي والباكستاني وغيرهم. ولكن الإسلام ينكر أن تكون صلة التجمع شيئًا غير الإسلام، غير العقيدة الصحيحة في الله، لا الدم ولا الأرض ولا اللغة ولا المصالح الأرضيَّة.

وليس معنى ذلك أنَّ الإسلام يحرم كل تلك الروابط، إنما يجيزها كلها حين تقع تحت رابطة العقيدة وداخلها، أمَّا حين تكون تلك الروابط حاجزًا يحجز بين المؤمن والمؤمن بسبب رباط الدم أو اللغة أو الأرض أو المصالح، فهذه تصبح في حكم الإسلام دعوة منتنة.

فكيف إذا كانت تلك القومية تقول لك في صراحة: إنَّ المشرك الذي يشاركك في قوميتك أقرب إليك من المسلم الذي ينتمي إلى قوميَّة أخرى.

ويصفها سماحة الشيخ ابن باز بأنَّها: دعوة جاهليَّة إلحاديَّة تهدف إلى محاربة الإسلام والتخلص من أحكامه وتعاليمه. ويقول عنها: وقد أحدثها الغربيُّون من النصارى لمحاربة الإسلام والقضاء عليه في داره بزخرف من القول... فاعتنقها كثير من العرب من أعداء الإسلام، واغتبر بها كثير من الأغمار ومن قلدهم من الجهال، وفرح بذلك أرباب الإلحاد وخصوم الإسلام في كل مكان

ويقول أيضًا: هي دعوة باطلة، وخطأ عظيم، ومكر ظاهر، وجاهليَّة نكراء، وكيد سافر للإسلام وأهله.

الانتشار ومواقع النفوذ

يوجد كثير من الشباب العربي ومن المفكرين العرب الذين يحملون هذا الفكر، كما توجد عدة أحزاب قوميَّة منتشرة في البلاد العربيَّة مثل حركة الوحدة الشعبيَّة في تونس، وحزب البعث بشقيه في العراق وسوريا، وبقايا الناصريين في مصر وبلاد الشام، وفي ليبيا.

كثير من الحكام يتبارون في ادعاء القوميَّة وكل منهم يفتخر بأنَّه رائد القوميَّة العربيَّة ويدعي أنَّه الأجدر بزعامتها!

يلاحظ أن الفكر القومي الآن هو في حالة تراجع وانحسار أو جمود على الأقل[١].

الوطنيَّة

التعريف:

الوطنيَّة مذهب فكريٌّ يدعو إلى أن يشعر جميع أبناء الوطن الواحد بالولاء لذلك الوطن، والتعصب له، أيا كانت أصولها التي ينتمون إليها، وأجناسهم التي انحدروا منها. أي أنَّ الولاء فيها للأرض بصرف النظر عن القوم أو اللغة أو الجنس أو الدين.

تاريخ الوطنيَّة

التأسيس الثقافيّ للوطنيَّة مرّ بمرحلتين:

الأولى: مرحلة تقسيم الأمَّة الواحدة إلى أمَّتين؛ عربيَّة وتركيَّة، وقد جاء ذلك على يد دولة الاتحاد والترقي في عام ١٩٠٨م من الجهة التركيَّة، وعلى يد الثورة العربيَّة الكبرى عام ١٩١٦م من الجهة العربيَّة. ولم تستطع الثورة العربيَّة أنَّ تجمع ما كان متفرقًا، بل فرّقت ما كان مجموعًا في اتفاقيَّة سايكس- بيكو التي قطَّعت فيها الأمَّة العربيَّة إلى دويلات. ثم جاء التنظير القوميّ والدعوة إلى القوميَّة العربيَّة.

الثانية: مرحلة التأسيس الثقافيِّ المستقلِّ لكلِّ قطر: اتَّخذ دعاة الوطنيَّة عدم التقدُّم باتجاه الوحدة خلال القرن الماضي حجَّةً من أجل اعتبار الوحدة خيالًا ووهمًا، واتَّخذوا ذلك أيضًا ذريعة من أجل الترويج للوطنيَّة والتأسيس الثقافيّ لها، والذي تجلَّى في عدة عوامل، منها؛ طباعة كتب المؤرِّخين الذين تناولوا تاريخ القطر، وإبراز الرحالة الذين مرّوا به وكتبوا عنه، وتعظيم رموز الأدب والشعر المرتبطين به، وتزكية تاريخه السابق على الإسلام، كالتاريخ الفرعونيِّ والبابليِّ والكلدانيِّ والآشوريِّ والبربريِّ والسيريانيِّ والفينيقيِّ، وإنشاء مراكز ومؤسسات ترعى ذلك

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٤٤٤- ٤٤٨)، مذاهب فكرية معاصرة.

التاريخ... إلخ، ويرافق كلّ ذلك الاهتمام باللغة العاميَّة، والاهتمام بالشعر الشعبي والترويج لشعرائه ودواوينهم، والاهتمام بالعادات والتقاليد والفولكور الشعبيِّ الخاصِّ بذلك القطر، وإنشاء المتاحف الخاصَّة به... إلخ.

وكان هذا من حرص الغرب وبمعونة عدد من حكَّام المسلمين أن يعملوا على زرع الناحية الوطنيَّة، وحب الوطن والتضحية في سبيله، وجعلها رابطة بين أبناء الوطن الواحد، تميزهم عن غيرهم من المسلمين. وما ذلك كله إلا زيادة في تفرقة المسلمين، ووضع العراقيل والمصاعب في وجه وحدتهم إذا ما تطلعوا لها وعملوا لها، بل أثاروا في الناس كل ما يزيد بعدهم عن الإسلام ويحول دون وحدتهم مع إخوانهم المسلمين. فبثوا في مصر «الفرعونيَّة»، وفي تركيا «الطورانيَّة»، وفي الشام؛ «الفينيقيَّة»، وفي العراق «الآشوريَّة»، وفي الجزائر «الأمازيغيَّة»، وآخرها في جزيرة العرب «الخليجيَّة»، حتَّى صدَّقت الشعوب فعلًا أنَّها «فرعونيَّة» و«طورانيَّة» و«فينيقيَّة» و«آشوريَّة» و«خليجية»، فتوحَّدت على هذه الشعارات، ونظرت إلى غيرها من الشعوب بفوقيَّة وتعالٍ.

وقد ظهر مع بداية القرن الماضي مفهومان للوطنيَّة عند المسلمين:

١- المفهوم العاطفيّ الانتمائيّ ذي الوجه الإسلاميّ الذي كان في أذهان بعض المفكرين والساسة مثل مصطفى كامل وحزبه الوطني الدَّاعين إليها الذين لا يستهدفون بها مناهضة الإسلام أو استبدالها به بل نصره من خلالها.

يقول مصطفى كامل في خطبة له في الإسكندريَّة: قد يظن أنَّ الدين ينافي الوطنيَّة أو أنَّ الدعوة إلى الدين ليست من الوطنيَّة في شيء، ولكنِّي أرى أنَّ الدين والوطنية توأمان متلازمان، وأنَّ الرجل الذي يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حبًّا صادقًا ويغذيه بروحه وما تملك يداه.

٢- المفهوم الوطنيّ الوثنيّ المحارب للإسلام منهجًا وانتماءً وعلاقة مع الآخرين وقد تمثلت في مصر في صحف وأحزاب ورموز مثل لطفي السيد وسعد زغلول وغيرهما.

يقول أحمد لطفي السيد عبارته الشهيرة: مصر للمصريين. وقد قاوم بهذا الفكر ذلك الاتجاه الأصيل الذي كان يحمل لواءه دعاة الوطنيَّة الصادقة وكوَّن مدرسة تحقق لها بعد الحرب العالميَّة الأولى السيطرة على مقدرات الأمور بعد أن أقصى رجال الوطنيَّة الحقَّة.

يقول ألبرت حوراني في كتابه (الفكر العربيّ في عصر النهضة) : كان لطفي كغيره من المفكرين المصريين لا يحدد الأمَّة على أساس اللغة أو الدين، بل على أساس الأرض، وهو لم يفكر بأمَّة إسلاميَّة أو عربيَّة، بل بأمَّة مصريَّة: أمَّة القاطنين أرض مصر [ص٢١٦]. وأن «لمصر في نظره ماضيان: الماضي الفرعونيّ والماضي العربيّ، ومن المهمّ أن يدرس المصريُّون الماضي الفرعونيَّ، لا للاعتزاز به فحسب! بل لأنَّه يلقنهم قوانين النمو والارتقاء» [ص ٢١٦-٢١٧] . وأنَّ «القوميَّة الإسلاميَّة ليست قوميَّة حقيقيَّة، وأنَّ الفكرة القائلة بأنَّ أرض الإسلام هي وطن كل مسلم إنَّما هي فكرة استعماريَّة تنتفع بها كلُّ أمَّة استعماريَّة حريصة على توسيع رقعة أراضيها ونشر نفوذها»!!

[ص ٢١٨]. ويقول أيضًا: «أمَّا الأمَّة الإسلاميَّة فكادت تقع خارج نطاق تفكيره» [ص ٢٢٤].

ويقول مجيد خدوري في كتابه (عرب معاصرون): «كانت فكرته -أي لطفي- في الأمَّة كما استقاها من الفكرة الأوربيّ! إقليميَّة، لا إسلاميَّة» [ص٣٢٨] ويقول أيضًا: «نادى بهويَّة مصريَّة وطنيَّة تستند إلى تاريخها المتواصل، الذي لم يكن الحكم الإسلاميّ فيه إلا مجرد فصل واحد» [ص٣٢٨].

فقد كان لطفي السيد خصمًا للعروبة والوحدة الإسلامية، وكان يدعو إلى قصر التعليم على أبناء الأعيان، وكان يدعو إلى اللهجة العامية على وفق ما دعا إليه المستشرقون والمبشرون مثل مولار، ويلكوكس، رافعاً شعار: تمصير العربية بإحياء العامية. وكان يقاوم التضامن العربي الإسلامي فقد، عارض مساعدة المصريين لجيرانهم في طرابلس الغرب أثناء الغزو الإيطالي عام ١٩١١ م، ودعا إلى التزام الحياد المطلق في هذه الحرب الإيطالية التركية.

الهدف من دعوى الوطنيَّة في العالم الإسلامي

١- تحويل حركات الجهاد الإسلاميّ ضد الاستعمار الصليبيّ إلى حركات وطنيَّة، كما فعل سعد زغلول في مصر وغيره من الزعماء الوطنيِّين على اتساع العالم الإسلاميّ. والحركة الوطنيَّة تفترق عن حركة الجهاد الإسلامي بادئ ذي بدء في أنَّها لا تنظر إلى العدو على أنَّه صليبيّ مستعمر ولكن على أنَّه مستعمر فقط.

٢- تحويل حركات الجهاد الإسلامي إلى حركات سياسيَّة عن طريق تحويلها إلى حركات وطنيَّة، فالعدو غير قادر على التفاهم مع الحركات الإسلاميَّة؛ لأنَّه لا سبيل إلى التفاهم معها في الحقيقة إلا بإخراج ذلك العدو خارج البلاد، ومن ثم فلا سبيل إلى استعمال السياسة من جانب العدو. أما الحركات الوطنية فالتفاهم معها سهل وممكن؛ وعود من المستعمر بالجلاء، ويأتي الوقت الموعود فيتذرع المستعمر بشتَّى المعاذير لتأجيل جلائه، ويعطى وعودا جديدة... والساسة الوطنيُّون يغضبون، أو يتظاهرون بالغضب لإرضاء الجماهير، والجماهير تثور ثورة صاخبة لكنها فارغة، سرعان ما تنطفئ بعد الاستماع إلى خطبة رنانة من الزعيم الوطنيّ يعد فيها بأنَّه لم يفرط في شبرٍ من الأرض، ولم يرضَ بغير الجلاء التامّ أو الموت الزؤام، وبين هذا وذاك تجري مفاوضات بين الساسة والاستعمار تنتهي إلى أشياء تافهة يلعب بها الساسة على عقول الجماهير فيوهمونها أنَّها مكاسب وطنيَّة، وقد تنتهي إلى غير شيءٍ على الإطلاق، ومع ذلك يقول زعيم يعتبر من كبار الزعماء الوطنيِّين في العالم الإسلامي في العصر الحديث وهو سعد زغلول: خسرنا المعاهدة وكسبنا صداقة الإنجليز، ويقول: الإنجليز خصوم شرفاء معقولون.

٣- تيسير عمليَّة التغريب من خلال تحويل حركة الجهاد الإسلامي إلى حركة وطنيَّة سياسيَّة، فحين تقوم حركة الجهاد على أساس إسلاميّ يكون الباب موصدًا تمامًا بين المجاهدين وعدوهم، لا يأخذون شيئًا من فكره ولا عقائده ولا تقاليده ولا أنماط سلوكه المنافية للإسلام. أما حين يتحوَّل الجهاد إلى حركة وطنيَّة سياسيَّة فالحاجز أرقّ، يسمح بالأخذ، ومعاذير الأخذ كثيرة، فقد قال

أستاذ الجيل لطفي السيد: إنَّ الإنجليز هم أولياء أمورنا في الوقت الحاضر، وليس السبيل أن نحاربهم، بل السبيل أن نتعلَّم منهم، ثم نتفاهم معهم.

أفكار الوطنيَّة

١- تدعو الوطنيَّة إلى مبادئ تخالف دعوة الإسلام، فهي تدعو إلى الانصهار في بوتقة الوطن، واعتباره رابطًا قوميًا يعلو فوق كلِّ الروابط. يقول أحد الوطنيين: ليس أغلى على الإنسان من الوطن، ليس ثَمَّة ما هو أرق من العلاقة بين المخلوق وتربته وأرضه ووطنه.

وقال آخر: إنَّ كلَّ شيءٍ يذهب ويتلاشى، إلا حبَّ الوطن، حبُّ الوطن هو الذي يستمرُّ مشتعلًا في الذات دائمًا أبدًا.

٢- الوحدة الوطنيَّة تعتبر الحب على أساس المواطنة، فما كان من وطنك تحبّه، سواء كان مسلمًا أو فاسقًا أو كافرًا، فالمهمُّ أنَّه مواطن مثلك، بينما لا تحمل هذا الشعور لأخٍ مسلمٍ من غير وطنك، ولو كان من أتقى النَّاس. فهي موالاة ومعاداة على أساس الوطن.

٣- أنَّ لكلِّ قطرٍ من أقطار المسلمين سواء كانوا عربًا أو عجمًا ثقافته الخاصَّة النابعة من أرضه وحضارته الغابرة في التاريخ القديم.

٤- من أبرز شعارهم: الدين لله والوطن للجميع.

نقد الوطنيَّة

١- لقد جاء الإسلام للبشر عامَّة لينقذهم من براثن العبوديَّة لغير الله، وذلة البشر والجور والجهل إلى عزَّة العبوديَّة لله تعالى، والعيش وفق طريقة الإسلام، فنظم حياتهم -مسلمين وغير مسلمين- دون النظر إلى أصولهم وألوانهم وأوطانهم، وجعل الأفضليَّة بينهم التقوى.

فلندع عنَّا التفاخر بالأوطان والأنساب، ولنتفاخر بعبوديتنا لله تعالى وحده، ولنعمل سويًا لإقامة دولة الإسلام التي توحِّد الناس تحت رايتها، فترعى شئونهم بالإسلام، وتنقذهم من الدنيا إلى الآخرة بسلام.

وأينما ذكر اسم الله في بلد … عددت ذاك الحمى من صلب أوطاني

٢- ليس من شكٍّ بأنَّ هذا التأسيس الثقافيَّ المستقلَّ لكلِّ قطر على حدة؛ يتقاطع مع الوحدة الثقافيَّة التي عرفتها الأمَّة على مدار تاريخها السابق، وهو في حال استمراره ونجاحه فإنَّه سيؤدي إلى أخطر ما واجهته أمَّتنا على مدار تاريخها السابق، وهو تحويل الأمَّة الواحدة؛ إلى أمَم متعدِّدة.

٣- أنَّ حبَّ الوطن أمرٌ غريزيٌّ جبلِّيٌّ، لا يستطيع الإنسان أن ينكره أو ينفيه، ولكنَّ الخطر الداهم أنَّ كثيرًا من دعاة الوطنيَّة اتخذوه صنمًا يُعبد من دون الله، وتخلّو عن مبادئهم الإسلاميَّة باسم الوطنيَّة، وصار ولاؤهم وبراؤهم على الوطن لا ما على فرضه الله علينا وهو الدين.

٤- شعارهم الدين لله والوطن للجميع مخالف للإسلام وشريعته؛ فالدين يجب أن يسيطر

ويهيمن على الجميع، ويكون أحبّ وأعز من الوطن، وألَّا يُتَّخذ الوطن ندًّا من دون الله ويُعمل من أجله ما يُخالف حكم الله، وتبذل النفوس والأموال دون كيان العصبيَّة القوميَّة وفي سبيل الوطن، لا في سبيل الله لإعلاء كلمته. فكلُّ شيءٍ لله عزَّ وجلَّ.

الوطنيَّة في مصر

منذ أن أطلق أحمد لطفي السيد عبارته المشهورة عام ١٩٠٧م وهي: مصر للمصريين، ومن حين إلى آخر يطفو على السطح من يجدِّد هذه العبارة ويحيها بظواهر شتَّى، ومن أظهرها محاولة إحياء الحضارة الفرعونيَّة وتلميعها ليصطبغ المصريُّون بصبغتها ويتدثرون بردائها.

وهذا الموضوع تاريخه طويل وما نذكره هو بعض ما حدث في هذه الآونة الأخيرة التي ازدادت فيه هذه الموجة وهذا التيَّار المنادي بقطع الصلات بين مصر وبين الإسلام، وبين مصر وبين عروبتها والتنكر لذلك أيَّما تنكر، لتصبح مصر بعد بلا هويَّة سوى الهويَّة المصريَّة، وقد عمل على مدِّ هذا التيَّار كتاب كثيرون وباحثون عدة في مختلف المجالات.

ولكنَّ الجديدَ في ذلك مع ازدياد هذه الموجة أن تخرُّج من حيِّز الكتابات والتوصيات إلى حيز العمل على تنفيذها سياسيًّا على أرض الواقع، فعلى سبيل المثال هذا الكهل الَّذي يدعى محسن سعيد لطفي السيد (٧٨ عامًا) والَّذي تقدَّم منذ أيام إلى لجنة الأحزاب مطالبًا موافقتها على تأسيس حزبٍ علمانيٍّ في البلاد باسم «مصر الأم» -مثلما نشرت جريدة المساء الأسبوعيَّة في ١٤/٢/٢٠٠٤- مطالبًا بنزع الصبغة الإسلاميَّة والعربيَّة عن مصر، ومطالبًا بإلغاء نصوص الدستور المصريِّ التي تنصُّ على أنَّ الشريعة الإسلاميَّة هي مصدر التشريع الأساسيّ وأنَّ مصر دولة إسلاميَّة... ويطالب باعتبار الفتح الإسلاميِّ لمصر احتلال يجب التخلُّص منه، ويطالب بترجمة القرآن الكريم إلى اللهجة العاميَّة المصريَّة، وإخراج مصر من الدائرة العربيَّة الإسلاميَّة.

وقال أحد الدارسين لهذا الموضوع: إنَّ هذا الحزب سيجمع تحت أهدافه أغلب طوائف الشعب المصريِّ وسيصبح بين يوم وليلة من أكبر الأحزاب المصريَّة، إنَّ هذا الحزب يمثل حزب المستقبل بعيون الغرب... إنَّه الحزب الذي أسسته أمريكا في مصر على يد السادات وقد آن الأوان للإعلان عنه... ستوفر له أمريكا والدول الأوربيَّة كلَّ أسباب التميُّز والنجاح... سيمدونه بكلِّ الإمكانيَّات والموارد حتى يتمَّكن من استثمار حالة الإحباط والبطالة التي تعيشها البلاد... سيخلق فرص عمل جديدة لكلِّ أتباعه، وسينضمُّ إليه فريق الانتهازيِّين وصفوة المجتمع، وكثير من الوزراء والكتَّاب والمثقَّفين، وستكون له الغلبة في أي انتخابات قادمة، وبمجرد أن يضرب جذوره في البلاد سيقوم بتشكيل حكومة توافق على تعديل الدستور، وإزالة الفقرات التي تعوق حركته، وسوف يحمي علمانيَّته بالقوَّة مثلما تحميها تركيا بالقضاء والقوات المسلَّحة... يا سيدي إنَّه ليس فكرة ... إنَّه مشروع متكامل حان وقت تنفيذه [١].

---

(١) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، الأمة الإسلامية وأخطار القطرية عليها، غازي التوبة.

الإنسانيَّة

التعريف:

الإنسانيَّة مذهبٌ فكريٌّ فلسفيٌّ أدبيٌّ ماديٌّ لا دينيٌّ، يؤكد فرديَّة الإنسان ضد الدين ويغلب وجهة النظر المادِّيَّة الدنيويَّة، وهو من أسس فلسفة كونت الوضعيَّة، وفلسفة بتنام النفعيَّة، وكتابات برتراند راسل الإلحاديَّة. وقد تسمى العالميَّة أو الأمميَّة.

وهي ترفع شعارات: كن إنسانيَّ النزعة، وجه قلبك ومشاعرك للإنسانيَّة جمعاء، دع الدين جانبًا فهو أمر شخصيٌّ، علاقة خاصة بين العبد والربّ محلها القلب، لكن لا تجعلها تشكل مشاعرك وسلوكك نحو الآخرين الذين يخالفونك في الدين، فإنَّه لا ينبغي للدين أن يفرق بين البشر، بين الإخوة في الإنسانيَّة، تعال نصنع الخير لكلِّ البشريَّة غير ناظرين إلى جنسٍ أو لونٍ أو وطنٍ أو دينٍ.

وعلى الصعيد العمليِّ الواقعيِّ المؤثر بصورة ملموسة في أسلوب سلوك الفرد فهي شعارات زائفة ترفع لأمر يراد، فهي منَّت الإنسان بأمانٍ كاذبةٍ لم تتحقق على الإطلاق، ونسي أن طريق الخلاص لا يمكن أن يتمَّ إلا من خلال العقائد الدينيَّة.

تاريخ مذهب الإنسانيَّة

ظهر المذهب الإنسانيُّ في إيطاليا في بداية عصر النهضة الأوربيَّة. الوقود الذي أشعل هذه الحركة يحتوي على الفكر اليونانيِّ الوثنيِّ المعارض للفكر الدينيِّ، والآداب اليونانيَّة واللاتينيَّة، ومن هنا كان شعار الإنسانيَّة كلمة الفيلسوف اليوناني القديم «إنَّ الإنسان مقياس للأشياء جميعها» فضلًا عن انغماس الإنسان في المادة عند بدايته، وحب اكتناز المال والثروات، والاستمتاع بالحياة الزائلة.

وأبجديَّات النزعة إنَّما تترجم الانتفاضة التي عبَّرت عنها النهضة الأوربيَّة باعتبارها تغيرًا في الفكر نجم عنه تغير في جميع شئون الحياة. فالإنسان الأوَّل كان مكبلًا بقيود الكنيسة طوال فترة الإظلام الفكريِّ المسمَّاة بالعصور الوسطى والتي استطالت إلى أكثر من عشرة قرون، إذ كان خلالها مطالبًا بالطاعة العمياء لرجال الدين وكان يُساق كما يساق القطيع، ويكفي أنَّه من طبيعة فاسدة بسبب الخطيئة الأصليَّة!! أما المرأة، فهي لا ينبغي أن تُحبّ لأنَّها سبب الخطيئة، لذا عزف رجال الدين عن الزواج بها. وإذا سمحوا لغيرهم بالارتباط بها بالزواج فذلك فقط باعتبارها وسيلة للإنجاب واستمرار البشرية. أمَّا الرجال فهم وسيلة أيضًا لتحقيق أهداف الكنيسة، وكلّ من خرج على هذه الأهداف يواجه الموت حرقًا.

ومن أسماء الرواد الأوائل للمذهب الإنساني بوجيو وبروني، والمحامي البارز مونتبلشيانو وكلّهم

عاشوا خلال القرن الخامس عشر الميلاديّ.

أراسمس ولد في روتردام سنة ١٤٦٦م ويعد من أكبر ممثّلي المذهب الإنسانيّ من ناحية معرفته بالأدب اليونانيّ واللاتينيّ.

في فرنسا مثّل المذهب ستيفانوس وسكاليجر ودوليه.

ويعد رينيه ديكارت ١٥٩٦ - ١٦٥٠م الفيلسوف الفرنسي من أنصار المذهب الإنساني ولكنه يؤمن بوجود الله تعالى.

وكذلك سبينوزا ١٦٣٢ - ١٦٧٧م الفيلسوف الهولندي وهو يشبه ديكارت في الاعتقاد.

وكتابات جان جاك روسّو ١٧١٢ - ١٧٧٨م تحمل الطابع الإنسانيّ.

وجون لوك ١٦٣٢ - ١٧٠٤م الفيلسوف الإنجليزيُّ كان إنسانيَّ المذهب.

والفيلسوف الألمانيّ كانت ١٧٢٤ - ١٨٠٤م في مذهبه الانتقاديّ كان إنسانيَّ المذهب.

والفيلسوف شيلر المتوفى سنة ١٩٣٧م الإنجليزيُّ الألمانيُّ الأصل.

والكاتب الفرنسيّ فرانسيس بوتر، ألّف كتابًا بعنوان المذهب الإنسانيّ بوصفه ديانة جديدة.

والأديب الإنجليزي ت. س. إليوت ١٨٨٨ - ١٩٦٥م يعتبر نفسه من أتباع المذهب الإنساني، وهو من أبرز ممثلي الشعر الحرّ.

وقد نالت هذه الدعوة حظًّا واسعًا بالانتشار في عقول كثير من المسلمين، وبعض المنتسبين للفكر والعلم! وعقدت الكثير من اللقاءات والندوات الفكريَّة والحواريَّة باسمها، لأجل التنظير لها، والمنافحة عنها.

والمُرَاجِعُ لمبادئ الإنسانيَّة وحين يردها إلى أصلها وجذورها التاريخيَّة، سيجد أنَّ من أوائل من بدأ بالتركيز على إبرازها هي الحركة الماسونيَّة وأذنابها من المستعمرين الحاقدين أو ممن تلبس بلباس الإسلام من المنهزمين وكان متأثرًا ببعض نظم تلك الحركة، فإنَّ هذه المنظمة العالمية قد بنت ركائز فكرها، ودعائم منهجها على ثلاث مبادئ: الحرية - الإخاء - المساواة، وهم يسعون لنشرها بكلِّ ما أوتوا من قوة ماديَّة أو معنويَّة، حتى يتلقَّفها الجهلة، ويكونوا بوقا لنشرها والتعريف بها.

الأفكار والمعتقدات

- **تأكيد الفرديّة الإنسانيّة:**

في مجال الدين: الاستجابة لحكم الفرد الخاصّ ضدّ سلطة الكنيسة وتأييد فكرة ظهور الدول القوميَّة.

في مجال الفلسفة: تأكيد ديكارت للوعي الفرديّ عند المفكر وشدَّة الاعتماد على الفعل وتغليب وجهة النظر الماديَّة الدنيويَّة.

- قصر الاهتمام الإنسانيّ على المظاهر الماديَّة للإنسان في الزمان والمكان.

- المذهب الإنساني أوحى بالأفكار التحررية لقادة الفكر في عصر النهضة الأوربيَّة ووصل إلى ذروته إبان الثورة الفرنسيَّة.

- الثقة بطبيعة الإنسان وقابليته للكمال، وإمكان حدوث التقدم المستمر.

- تأكيد أنَّ الشرور والنقائض التي اعترضت طريق الإنسان لم يكن سببها الخطيئة كما تقرر النصرانيَّة، وإنما كان سببها النظام الاجتماعيّ السيِّئ.

- الدفاع عن حرية الفرد.

- إمكان مجيء العصر السعيد والفردوس الأرضيِّ، ويكون ذلك بالرخاء الاقتصاديِّ، وتحقيق ذلك يكون بتبديد الخرافات والأوهام ونشر التربية العمليَّة.

- ومن أهم الأفكار التي تبنَّتها النزعة الإنسانيَّة ما يلي:

١- يجب على الإنسان أن يبحث دائمًا عن معنى وجوده وحياته.

٢- الحياة في حد ذاتها شيء، رائع ويستحقُّ أن يعيشها الإنسان مهما احتوت على صراعات وتناقضات وآلام.

٣- على الإنسان أن يواجه الألم ويتسلح بالأمل في نفس الوقت.

٤- على الإنسان أن يهتم بالمادة قبل الروح؛ لأنَّها الشيء الوحيد الذي يستطيع إدراكه والسيطرة عليه.

٥- إن الطريقة الوحيدة كي يحقق الإنسان إنسانيته هي في التمتع بكل الملذات الجسديَّة والحسيَّة؛ لأنَّها الشيء الوحيد الذي يستطيع الإنسان لمسه وإدراكه.

٦- الإنسانيَّة ترحب بالقوميَّة والوطنيَّة والمحليَّة، ولكنَّها تأبى العنصريَّة؛ لأنَّها امتهان صارخ لبقية العوامل المشكلة للنسيج الإنساني الشامل، والأدب العنصريّ ليس سوى جسمٍ غريبٍ في نسيج الأدب الإنساني سرعان ما يلفظه ويأباه.

نقد مذهب الإنسانيَّة

نقد الفلاسفة والمفكرون الإنسانيَّة ومن أهم ما جاء في نقدهم:

- إن تقدم العلم الحديث لم يصحبه تقدم في قدرة الإنسان على حسن استعمال العلم.

- وإنَّ البشر وجهوا اهتماماتهم جميعًا إلى المسائل الدنيويَّة، ونسوا كلَّ ما يسمو على ذلك وتركزت مطامعهم في الأشياء الزائلة التي يسَّرها لهم العلم، وحدث من جراء ذلك صدع بين تقدُّم الإنسان في المعرفة وتقدُّمه الأخلاقي.

- إنَّ الإنسانيَّة تؤكِّد على زيادة خطر الإسراف في الاعتماد على الآلة، فهذا الإسراف قد يقضي

على الأصالة والابتكار.

- كما أنَّ الأسس الأخلاقيَّة لا تصلح إلا إذا استندت إلى الاعتقاد بوجود نظام أسمى من النظام الدنيويِّ، والإيمان بالمبادئ الخالدة المطلقة، أما إذا اقتصرت الآداب على أن تكوِّم خاضعة للمواءمة بين الإنسان وبيئته، كلَّما تغيَّرت الظروف وتبدَّلت الأحوال، فإنَّها بذلك تفقد قيمتها العامة.

وطريق الخلاص هو رفع الأخلاق، ولا يحدث هذا إلا بإيحاء من الإيمان الدينيِّ، أما الآداب العلمانيَّة فلا تمنحنا الخلاص.

- إنَّ المذهب الإنساني قدم للإنسانيَّة وعودًا لم يحققها، كما أنَّه أفقد الناس الشعور بالحقائق الروحيَّة، وجعل الناس عبيدًا للقوى المادِّيَّة العمياء.

- إن وجود الشرِّ ينقض أداء المذهب الإنساني لصلاح الإنسان وقابليته للتَّقدم.

- وقد عزى الناقدون إخفاق عصبة الأمم في تسوية المشكلات في العالم وانتشار الفاشية والنازية إلى ظهور المذهب الإنساني.

- إن عيوب المدنيَّة الغربيَّة ترجع في الغالب الأعمِّ منها إلى المذهب الإنسانيِّ في تياره الإلحاديِّ.

موقف الإسلام من الإنسانيَّة

إنَّ الإنسانيَّة الحقيقيَّة والسماحة الحقيقة هي الإسلام، فحيث تكون دعاوى الإنسانيَّة والعالميَّة والتسامح في كل النظم مجرد شعارات لا رصيد لها من الواقع، فإنها في الإسلام واقع حقيقي، لا دعاوى ولا شعارات مرفوعة بغير رصيد.

والإسلام دين الله الحقّ، وكلُّ أمر فيه بما في ذلك الجهاد لنشر الدعوة، والتميز والاستعلاء بالإيمان، واعتزال أدران الجاهليَّة وعدم المشاركة فيها -هو أمر رباني، لم يبتدعه المسلمون من عند أنفسهم، ولا قاموا به لصالح أنفسهم، إنما تنفيذا الأمر لأمر الله، سواء نالهم منه في الأرض الغنم أو الغرم -بالمقاييس البشريَّة المحدودة- إنَّما يصنعونه ابتغاء مرضاة الله، وطمعًا في الجزاء في الآخرة.

ولكن غير المسلمين لا يؤمنون بذلك بطبيعة الحال، فلا نناقشهم بمنطق الإيمان الذي لا يلزمهم. بل نفترض -جدلًا- أنَّ كلَّ النظم ذات حق متساوٍ في الوجود وفي الانتشار في الأرض . . فلننظر في الواقع التاريخي نظرة علميَّة موضوعية مجردة: أي النظم مارس حقه في الوجود وفي الانتشار في الأرض بروح إنسانيَّة حقيقيَّة؟ وأيُّها مارس الوجود والانتشار بسلوك خالٍ من القيم الإنسانيَّة هابط إلى الحضيض؟

فمن كان في شك فلينظر إلى الواقع المعاصر وما يتمّ فيه من ألوان من البربرية الوحشية لا تخطر على البال، وألوان من نقض المواثيق لا تخطر على البال، وألوان من العبث بكرامات الشعوب

والاستخفاف بحقوق الإنسان لا تخطر على البال. وذلك رغم كل الشعارات المرفوعة، والقيم المسطرة في ديباجات الدساتير والمعاهدات والمواثيق.

أما الإسلام فلا يداور ولا يناور، ولا يرفع الشعارات البراقة بلا رصيد. إنما هو رغم الصراحة الحاسمة التي يعالج بها كل أمر، هو الذي يطبق الروح الإنسانيَّة الحقيقيَّة والتسامح الحقيقي . . ولا عجب في ذلك، فإنما هو المنهج الرباني الحقّ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو الصراط المستقيم الذي لا عوج فيه.

أماكن الانتشار

انتشرت الإنسانيَّة في أوربا، ثم عمَّت الغرب والشرق، ومعظم سلبيات المدنيَّة الغربيَّة الحاضرة تعد ثمرة من ثمارها(١).

الإلحاد

التعريف:

الإلحاد مذهب فلسفيٌّ يقوم على فكرة عدميَّة أساسها إنكار وجود الله الخالق سبحانه وتعالى، فيدَّعي الملحدون بأنَّ الكون وجد بلا خالق. وأنَّ المادَّة أزليَّة أبديَّة، وهي الخالق والمخلوق في نفس الوقت.

وهناك معنى ثانٍ للإلحاد يُعدّ من إضافاتِ أفلاطونَ وهو إثبات وجود خالقٍ أو صانع، ولكنَّها لا تُعنى بشيء من حياة الخلق، فهي موجدة للخلق، لكنَّها تركت التصرُّف في الكون، وتفرغت في حياتها المثاليَّة، وقد كانَ يقول بهذا القول من الفلاسفة أبيقور.

ومما لا شكَّ فيه أنَّ كثيرًا من دول العالم الغربي والشرقيِّ تعاني من نزعة إلحاديَّة عارمة، جسدتها الشيوعيَّة المنهارة والعلمانيَّة المخادعة.

تاريخ الإلحاد

الإلحاد بدعة جديدة لم توجد في القديم إلا في النادر في بعض الأمم والأفراد.

الكنيسة الأوربيَّة هي المسئول الأول عن ظهور الإلحاد، فحماقاتها هي التي أدت إلى جعل العلم بديلًا من الدين، وجعل السبب الظاهر بديلًا من السبب الحقيقيِّ، وجعل الطبيعة بديلًا من الله.

وذلك حين حاربت العلم والعلماء، وخيرتهم بين اتباع الخرافة للمحافظة على الدين -دينها الذي ابتدعته وشكَّلته على حسب أهوائها- وبين اتباع العلم والخروج من الدين. وقد اختار

(١) الموسوعة الميسرة (٢/ ٧٩٩- ٨٠٢)، مذاهب فكرية معاصرة، رؤية شرعية في الأخوة الإنسانية، خباب مروان الحمد.

العلماء اتباع العلم؛ لأنَّهم يعرفون قدره، ويعلمون أنَّه أحقُّ بالاتِّباع من الخرافة. فلمَّا طردتهم الكنيسة من الدين كان العلم بالنسبة إليهم هو البديل من الدين. لا لأنَّه في الحقيقة بديل عنه، ولا لأنَّه بطبيعته يغني عنه، ولكن لأنَّ حماقة الكنيسة وضعت الأمور في هذا الوضع. والسبب الظاهر ليس بديلًا عن السبب الحقيقي، لأنَّه يفسر فقط كيف تحدث الأشياء على النحو الذي تحدث به، ولكنَّه لا يفسر لماذا كانت الأشياء على هذا النحو.

وحين جعلت أوربا الطبيعة بديلًا من الله لم يكن ذلك إلا مهربًا من إله الكنيسة الذي تستعبد الناس باسمه وتفرض عليهم الإتاوات والعشور، والخضوع المذِّل لرجال الدين، مع محاربة العلم، والحجر على حريَّة الفكر، ومع الوقوف الظالم مع رجال الإقطاع ضد المطالبين بالإصلاح، ولم يكن قط حقيقة علميَّة.

وكان هذا كلُّه إلحاد العلماء والفلاسفة والمفكرين، أما الجماهير فكانت ما تزال تؤمن بالدين على ما به من تحريف وتشويه وخرافة.

فيعدُّ أتباع العلمانيَّة هم المؤسسون الحقيقيون للإلحاد، ومن هؤلاء : أتباع الشيوعيَّة والوجوديَّة والداروينيَّة والعقلانيَّة.

واستغلت الحركة الصهيونيَّة كل هذا فعملت على نشر الإلحاد في الأرض، فنشرت العلمانيَّة لإفساد أمم الأرض بالإلحاد والمادِّيَّة المفرطة والانسلاخ من كلِّ الضوابط التشريعيَّة والأخلاقيَّة؛ كي تهدم هذه الأمم نفسها بنفسها، وعندما يخلو الجو لليهود يستطيعون حكم العالم.

فقد نشر اليهود نظريات ماركس في الاقتصاد والتفسير المادِّيّ للتاريخ ونظريات فرويد في علم النفس ونظرية دارون في أصل الأنواع ونظريات دور كايم في علم الاجتماع، وكل هذه النظريات من أسس الإلحاد في العالم.

وأول كتاب مصرح بالإلحاد، وداع له، ظهر في أوربا في سنة ١٧٧٠م.

أما حركات الإلحاد المنظَّمة في العالم العربي، وكذلكَ المُجاهرة بهِ، وإعلانه على الملأ، نشأ بعد منتصف القرن التاسع عشر، حينما بدأ العالم الإسلامي والعربي يتّصل بالعالم الغربي، عن طريق إرساليات الدراسة أو التدريب، وتسبب ذلك في رجوع مجموعة من الطلَّاب متأثِّرين بالفكر الأوربيِّ المادِّيّ، والذي كان يقومُ على أساس تعظيم علوم الطبيعة، ورفع شأن العقل، وكذلك تنحية الدين والشرع عن حكم الحياة والناس وإدارة شئونهم.

وفي بداية الأمر لم يكن ثمَّ دعوة صريحة للإلحاد، وإنَّما كانت هناك دعوات للتحرر، أو التغريب، أو فتح المجال أمام العقل، ومُحاكمة بعض النصوص الشرعيَّة إلى العقل أو الحس والواقع، ومحاولة إنشاء خلاف وهمي وصراع مُفتعل بين العقل والشرع.

ومع مرور الوقت وزيادة الاتصال بالغرب وتراثه، وانتشار موجة التغريب بين الناس ظهرت بعض الدعوات الصريحة للإلحاد وفتح باب الرّدة، باسم الحريَّة الفرديَّة.

وحينما نشطَ اليهودُ في تركيا ودعوا إلى إقامةِ قوميَّة تركيَّة، تَحُلُّ محلَّ الرابطةِ الدينيَّة، ظهرت مظاهر عدّة في الواقع تدعو إلى نبذ الدين، وتظهر العداء لبعض شعائره، ومع مرور الوقت تطوَّرت هذه الحركة، حتى جاءَ مصطفى كمال أتاتورك، وقامَ بإلغاءِ الخلافة، وأنشأ الدولة التركيَّة العلمانيَّة، وحاربَ جميعَ العلماءِ وسجنهم، وراج على إثر ذلك الكفرُ والإلحادُ، وظهرتْ عدَّة كتبٍ تدعو إلى الإلحاد، وتطعنُ في الأديان، ومنها كتابٌ بعنوان: مصطفى كمال، لكاتب اسمُهُ قابيل آدم، يتضمن مطاعن قبيحة في الأديان وبخاصة الدين الإسلاميّ. وفيه دعوة صريحة للإلحاد بالدين وإشادة بالعقليَّة الأوربيَّة.

هذه الجرأةُ في تركيا قابلها جرأة مماثلة في مصر، سمّيت ظلما وزورًا عصر النهضة الأدبيَّة والفكريَّة، بينما هي في حقيقتها حركة تغريبيَّة تهدف إلى إلحاق مصر بالعالم الغربي، والتخلُّق بأخلاقه، واحتذائها في ذلك حذوَ تركيّا التي خلعتْ جلباب الحياء والدين، وصبغتْ حياتها بطابع العلمانيَّة والسفور والتمرّد.

في تلكَ الحقبةِ في مصر ظهرَ العديدُ من المفكِّرين والأدباء، يدعونَ إلى التغريب والإلحاد، وفتح باب الرِّدَّة باسم التنوير تارة، وباسم النهضة الأدبيَّة تارة أخرى، ومرّة باسم الحرّيات الفكريَّة، وتلقَّفتْ مصر في تلكَ الفترة دون تمييز جميعَ أمراض المجتمع الأوربي، وكذلك أخلاقه المنحلّة، وأصبحت قطعة من أوربا، ومن فرنسا تحديدًا، وعاثَ في أرضها بعضُ المستشرقين فسادًا وإفسادًا، ثمَّ سلَّموا دفَّةَ الإفسادِ إلى بعض المصريِّين، ممن لم يتوانوا في نشر الكفر والإلحاد، وسعوا سعيًا حثيثًا إلى إلغاء الفضيلة والأخلاق الإسلاميَّة، وإحلال النفعيَّة والمادِّيَّة محلَّها، حتَّى أصبح دعاة الإسلام والمُحافظة غرباء على المُجتمع دُخلاء عليه، ويُوصَفُون بالجمود والتخلُّف والعداء للحضارة.

ومن مصر انتقلت حمّى الردة والإلحاد إلى جميع دول الجوار، ابتداء من الشام، ومرورًا بالعراق، والخليج بما فيها السعوديَّة، وانتهاء ببلاد اليمن.

أعلام الإلحاد في أوربا

- أتباع الشيوعيَّة: ويتقدمهم كارل ماركس ١٨١٨ - ١٨٨٣م اليهوديّ الألمانيّ. وإنجلز ١٨٢٠- ١٨٩٥م عالم الاجتماع الألمانيّ والفيلسوف السياسيّ الذي التقى بماركس في إنجلترا، وأصدرا سويًّا المانيفستو أو البيان الشيوعي سنة ١٨٤٨م.

- أتباع الوجوديَّة: ويتقدمهم:

جان بول سارتر.

وسيمون دويرفوار.

والبير كامي.

- أتباع الداروينيَّة.

- من الفلاسفة والأدباء:

نيتشه/ فيلسوف ألمانيّ.

برتراند راسل ١٨٧٢ - ١٩٧٠م فيلسوف إنجليزيّ.

هيجل ١٧٧٠ - ١٨٣١م فيلسوف ألمانيّ قامت فلسفته على دراسة التاريخ.

هربرت سبنسر ١٨٢٠ - ١٩٠٣م إنجليزيّ كتب في الفلسفة وعلم النفس والأخلاق.

فولتير ١٦٩٤ - ١٧٧٨م أديب فرنسي.

أعلام الإلحاد في العالم الإسلاميّ

- إسماعيل أحمد أدهم توفي سنة ١٩٤٠م، كان من دعاة الشعوبيَّة، وحاول نشر الإلحاد في مصر، وألف رسالة بعنوان لماذا أنا ملحد؟ وطبعها بمطبعة التعاون بالإسكندريَّة حوالي سنة ١٩٢٦م.

- إسماعيل مظهر ١٣٠٨- ١٣٨١هـ أحد دعاة الشعوبيَّة والداروينيَّة، أصدر في سنة ١٩٢٨م مجلة العصور في مصر، وكانت تدعو للإلحاد والطعن في العرب والعروبة طعنًا قبيحًا. معيدًا تاريخ الشعوبيَّة، ومتَّهمًا العقليَّة العربيَّة بالجمود والانحطاط، ومشيدًا بأمجاد بني إسرائيل ونشاطهم وتفوقهم واجتهادهم. وأنشأ في سنة ١٩٣٠م حزب الفلاح، ليكون منبرًا للشيوعيَّة والاشتراكيَّة. وقد تاب إسماعيل إلى الله بعد أن تعدَّى مرحلة الشباب وأصبح يكتب عن مزايا الإسلام، وألَّف كتابًا أسماه: الإسلام لا الشيوعيَّة.

وقد أسست في مصر سنة ١٩٢٨م جماعة لنشر الإلحاد تحت شعار الأدب، واتَّخذت دار العصور مقرًا لها واسمها رابطة الأدب الجديد وكان أمين سرها كامل كيلاني، وقد تاب إلى الله بعد ذلك.

ومن الشعراء الملاحدة الذين كانوا ينشرون في مجلة العصور:

الشاعر عبد اللطيف ثابت الذي كان يشكك في الأديان في شعره.

والشاعر جميل صدقي بن محمد بن فيضي الزهاوي ولد سنة ١٢٧٩هـ شاعر عراقي، يعدّ عميد الشعراء المشككين في عصره.

- صادق جلال العظم أحدُ أساطين الفكر الشيوعيِّ المادِّيِّ، ممّن أخذَ يُجاهرُ بالإلحادِ، ويدعو إليه، وألَّفَ كتابًا يقرِّرُ فيه الإلحاد أسماه: نقد الفكر الدينيِّ، زعمَ أنَّهُ أقامَ فيهِ براهين تُثبت عدمَ وجودِ الله، وأنَّ كلَّ ذلكَ من الأوهام والأساطير. وقد ردَّ عليه الكثيرون، من أشهرهم الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني في كتابه: صراعٌ مع الملاحدةِ حتى العظم.

- عبد الله بن علي القصيمي ١٣٢٧- ١٤٢٢هـ أحدُ أشهر الملاحدة المعاصرين، له كتب عن الإسلام ثم أعلن ردّته وإلحاده، وجاهرَ بدعوتهِ الجديدةِ، وألَّفَ مجموعة كبيرة من الكتب الداعية للتحرُّر من سلطة الدين والفضيلة والأخلاق، منها: هذه الأغلال، أيها العقل من رآك، الإنسان

يعصي لهذا يصنع الحضارات. وهو من دعاة الصهيونيَّة العرب، ولهُ مقالاتٌ وعباراتٌ بشعة في حقِّ اللهِ وحقِّ رسله.

- فهد بن صالح بن محمَّد العسكر ١٣٢٧- ١٣٧٠هـ شاعر كويتي ماجن، وداعية إلى التمرُّد على الأخلاق والفضيلة، ومن كبار المتشككِّين والساخرين بالأديان في شعره.

- ومنهم أيضًا: أحمد لطفي السيد ١٢٨٨، ١٣٨٢هـ، طه حسين ١٣٠٧- ١٣٩٣هـ، زكي نجيب محمود ١٣٢٣- ١٤١٤هـ، علي أحمد سعيد المعروف بأدونيس.

أفكار الإلحاد

- إنكار وجود الله سبحانه، الخالق البارئ، المصور، تعالى الله عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا.

- إنَّ الكون والإنسان والحيوان والنبات وجد صدفة، وسينتهي كما بدأ، ولا توجد حياة بعد الموت.

- إنَّ المادّة أزليَّة أبديَّة وهي الخالق والمخلوق في نفس الوقت.

- النظرة الغائيَّة للكون والمفاهيم الأخلاقيَّة تعيق تقدم العلم.

- إنكار معجزات الأنبياء لأنَّ تلك المعجزات لا يقبلها العلم، كما يزعمون.

ومن العجب أنَّ الملحدين المادّيين يقبلون معجزات الطفرة الوحيدة التي تقول بها الداروينيَّة ولا سند لها إلا الهوس والخيال.

- عدم الاعتراف بالمفاهيم الأخلاقيَّة ولا بالحقِّ والعدل ولا بالأهداف الساميَّة، ولا بالروح والجمال.

- ينظر الملاحدة للتاريخ باعتباره صورة للجرائم والحماقة وخيبة الأمل وقصَّته لا تعني شيئًا.

- المعرفة الدينيَّة، في رأي الملاحدة، تختلف اختلافًا جذريًّا وكليًّا عن المعرفة بمعناها العقليِّ أو العلميِّ!!

- الإنسان مادة تنطبق عليه قوانين الطبيعة التي اكتشفتها العلوم كما تنطبق على غيره من الأشياء المادّيَّة.

- الحاجات هي التي تحدد الأفكار، وليست الأفكار هي التي تحدد الحاجات.

- نظريات ماركس في الاقتصاد والتفسير المادّيِّ للتاريخ، ونظريَّة فرويد في علم النفس، ونظريَّة دارون في أصل الأنواع، ونظريَّة دوركهايم في علم الاجتماع من أهم أسس الإلحاد في العالم.. وجميع هذه النظريَّات هي مما أثبت العلماء أنَّها حدس وخيالات وأوهام شخصيَّة ولا صلة لها بالعلم.

أما القواسم المشتركة بين الملاحدة العرب، فهي:

- إنكارهم للغيب جملة وتفصيلًا، وقصرهم الإيمان بحدود الملموس والمحسوس فقط، دون ما غابَ عن العين، أو لم يُمكن إدراكه بالحسّ.

- استهزائهم بالشعائر الدينيَّة جميعها، ووصفهم لأهلها بالرجعيِّين والمتخلِّفين، ومحاربة أي دعوة تدعو إلى التديُّن، أو صبغ الحياة بمظاهر الدين.

- ميلهم نحو احتقار العرب، واحتقار عاداتهم وسلوكهم، ومدحهم للشعوبيَّة والباطنيَّة.

- دعوتهم للتغريب والالتحاق بالغرب، والأخذ بجميع ثقافاتهم وأمورهم الحياتيَّة، والتعلُّم منهم ومن سلوكيَّاتهم.

- حربهم الشرسة على الأخلاق والعادات الحميدة، وادِّعائهم أنَّه لا يوجد شيء ثابت مُطلقًا، وأنَّ الحياة والأخلاق والعادات، في تطوُّر مستمرٌّ، وأنَّ الثباتَ على الشيء إنَّما هو من شأن الغوغائيين والمُتخلِّفين والرجعيِّين.

- تعظيم المادَّة والطبيعة، وكذلك تعظيم جميع العلوم الطبيعيَّة، وجعلهُ أساسَ كلِّ الحضارات، وافتعال صراع مزعوم بين الدين والعلم التطبيقيِّ.

- منعهم من محاربةِ الاحتلال، ووقوفهم دائمًا ضدّ المقاوماتِ الشعبيّة، ووصفها بصفاتٍ بشعة، والدعوة إلى مهادنة الغازي والتعايش معه.

- تعاونهم الوثيق مع الصهيونيَّة والماسونيَّة، ومدحهم اللامحدود لليهود وللصهاينة، وهذه سمة غالبة على جميع الملاحدة والمرتدِّين، حيث يجعلون إسرائيل أفضل أهل الأرض، ويميلون إليهم ويمدحونهم، ويدعون إلى التعايش معهم وقبولهم، ويقدحون في حركات المقاومة وفي أطفال الحجارة.

- يدَّعي الملاحدة أنَّ الدينَ سببٌ للتناحر ونشر البغضاء في الأرض، وأنَّه تسبَّب في إشعال وإذكاء نار الحروب، في الكثير من بقاع الأرض، وقد حان الوقت لتركه والتخلِّي عنه.

الانتشار وأماكن النفوذ

- انتشر الإلحاد أولًا في أوربا، وانتقل بعد ذلك إلى أمريكا... وبقاع من العالم.

- وعندما حكمت الشيوعيَّة في ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي قبل انهياره وتفككه، فرضت الإلحاد فرضًا على شعوبه... وأنشأت له مدارس وجمعيَّات.

- وحاولت الشيوعيَّة نشره في شتَّى أنحاء العالم عن طريق أحزابها. وإن سقوط الشيوعيَّة في الوقت الحاضر ينبئ عن قرب سقوط الإلحاد - بإذن الله تعالى.

- يوجد الآن في الهند جمعيَّة تسمَّى جمعيَّة النشر الإلحاديَّة، وهي حديثة التكوين، وتركز نشاطها في المناطق الإسلاميَّة، ويرأسها جوزيف إيدا مارك، وكان مسيحيًّا من خطباء التنصير، ومعلمًا في إحدى مدارس الأحد، وعضوًا في اللجنة المركزيَّة للحزب الشيوعي، وقد ألف في عام ١٩٥٣م

كتابًا يدعى: إنما عيسى بشر، فغضبت عليه الكنيسة وطردته فتزوج بامرأة هندوكيَّة وبدأ نشطاه الإلحادي، وأصدر مجلة إلحاديَّة باسم إيسكرا أي شرارة النار. ولما توقفت عمل مراسلًا لمجلة كيرالا شبدم أي صوت كيرالا الأسبوعيَّة. وقد نال جائزة الإلحاد العالميَّة عام ١٩٧٨م ويعتبر أول من نالها في آسيا [١].

الوضعيَّة

التعريف:

المذهب الوضعيُّ مذهب فلسفيٌّ اجتماعيٌّ ملحد يرى أنَّ المعرفة اليقينيَّة هي معرفة الظواهر التي تقوم على الوقائع التجريبيَّة، ولا سيما تلك التي يتيحها العلم التجريبي. وينطوي المذهب على إنكار وجود معرفة مطلقة تتجاوز التجربة الحسيَّة، ولا سيما فيما يتعلَّق بما وراء المادة وأسباب وجودها.

ويقول: إنَّ التقدُّم بدأ في العلوم الطبيعيَّة وبدأ ينتقل للعلوم الاجتماعيَّة وأنَّ العقل البشري يتقدَّم من المرحلة اللاهوتيَّة الدينيَّة إلي المرحلة الميتافيزيقيَّة لكي يصل في النهاية إلي المرحلة الوضعيَّة التي هي قمة التخلِّي عن كل العقائد الدينيَّة.

تاريخ الوضعيَّة

لقد اعتبر فرنسيس بيكون ١٥٦١-١٦٢٦م نفسه داعية للعلوم الجديدة، وهي العلوم التي كانت في طريقها إلى الانفصال عن الفلسفة في القرنين السادس والسابع عشر الميلاديين.

وربما عدَّ بيكون بادئ الوضعيَّة وواضع الاسم الذي سميت به في القرن التاسع عشر، ففي كتابه في المبادئ والأصول ١٦٢٣م أطلق بيكون صفة وضعي على الحقائق الأوليَّة التي يجب تقلبها إيمانًا بصدق الخبرة.

وقد كان بيكون موضع تقدير كبير من الفلاسفة التجريبيِّين في القرن التاسع عشر في كل من إنجلترا وفرنسا.

وأصبحت كلمة وضعيّ تطلق على مناهج العلوم الطبيعيَّة، نظرًا لاعتماد هذه المناهج على الملاحظة واستخدمها للتجربة، ولقد أطلق سان سيمون الذي عمل كونت في خدمته كلمة وضعي في كتابه مقال في علوم الإنسان، على العلوم القائمة على الوقائع الخاضعة للملاحظة والتجريب، وقد اقتبس كونت هذه الأفكار وأقام عليها نظريته وقانونه الوضعي.

وبهذا تأسس المذهب الوضعي في فرنسا على يد الفيلسوف كونت، ومعظم من جاء بعده طبَّق منهجه في العلم والمعرفة. ومن أبرز شخصيات المذهب:

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٨٠٣- ٨٠٧)، مذاهب فكرية معاصرة، الإلحاد في العالم العربي دعاته وأسبابه، فتى الأدغال.

- أوغست كونت ١٧٩٨ - ١٨٥٧م وهو الفيلسوف الفرنسي المؤسس للمذهب، عمل أمينًا للسرّ (سكرتيرًا) للفيلسوف الاشتراكي سان سيمون وبدأ بإلقاء محاضرات عن فلسفته الوضعيَّة سنة ١٨٢٦م، ثم أصيب بمرض عقلي وحاول الانتحار... وقد نشر كتابه بعد ذلك تحت عنوان: محاضرات في الفلسفة الوضعيَّة، بسط فيه نظريته في المعرفة والعلوم.

ونادى بضرورة قيام دين جديد هو الدين الوضعيّ، يقوم على أساس عبادة الإنسانيَّة كفكرة تحل محل الله -سبحانه وتعالى- في الأديان السماويَّة.

- سان سيمون، وهو فيلسوف فرنسيٌّ اشتراكيُّ النزعة، في كتابه مقال في علوم الإنسان سنة ١٨١٣م أطلق كلمة وضعيّ على العلوم القائمة على الوقائع الخاضعة للملاحظة والتحليل، والعلوم التي لم تؤسس على هذا النحو يسميها العلوم الظنّيَّة.

- ريتشاد كونجريف، وهو مفكر إنجليزي ناصر الوضعيَّة واعتنق أفكارها.

- زكي نجيب محمود وهو مفكِّر عربي مصري، تبع الفلسفة الوضعيَّة الملحدة، وتبنَّى أفكارها، وألف كتاب المنطق الوضعي.

- أ. إير فيلسوف إنجليزي.

- برتراند راسل فيلسوف إنجليزي.

أفكار الوضعيَّة

صاغ الفيلسوف الفرنسيُّ كونت مبادئ وأفكار المذهب الوضعيّ، ثم بلور من جاء بعده من الوضعيِّين هذه الأفكار وسار على منهجها العلميّ.

وهذه خلاصة لتلك الأفكار مع نقد المفكرين والفلاسفة لها: استحوذت على تفكير كونت فكرة التقدم الإنساني.

- وضع كونت قانون التقدُّم الإنسانيّ، وهو قانون الحالات الثلاث، الذي يتقدم العقل البشري بمقتضاه من المرحلة اللاهوتيَّة إلى المرحلة الميتافيزيقيَّة، ثم إلى المرحلة الوضعيَّة الأخيرة.

وقد قسَّم كونت المرحلة اللاهوتيَّة إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الوثنيَّة - والمرحلة التعدديَّة - والمرحلة التوحيديَّة، وهي المرحلة الأخيرة التي بدأت بظهور النصرانيَّة والإسلام.

والمرحلة الوضعيَّة بدأت بالثورة الفرنسيَّة، وهي المرحلة التي تفسر الظواهر عن طريق الاستقراء القائم على الملاحظة.

- ويطبق كونت هذا القانون في التطوُّر على جميع العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة مثل الحضارة والسياسة والفن والأخلاق.

نقد القانون

وقد نقد طائفة من المفكرين قانون الحالات الثلاثة بما يلي:

١- يعتبر كونت أنَّ الإنسانيَّة كلٌّ لا يتجزأ، وأنَّها خاضعة لقانونٍ واحدٍ، بينما نجد أنَّ هناك مجتمعاتٍ لا تسير في تطوّرها وتقدّمها على نمطٍ واحدٍ في فهم وإدراك الظواهر.

٢- يختلف الطريق الذي سلكه العقل الإنساني عن ذلك الذي حدده كونت، ففي كثير من الأمور كان الفهم الوضعيّ للأمور يسير مع الفهم الدينيّ أو الميتافيزيقيّ؛ ففي مجال فهم الحقائق الرياضيَّة والفلكيَّة مثلًا أمور كانت تسير مع الفهم الدينيّ قديمًا.

ولا تزال بعض المجتمعات تفسر الحقائق العلميَّة القائمة تفسيرًا دينيًّا. على الرغم من أننا نجتاز حاليًا المرحلة الوضعيَّة في نظر كونت.

٣- لا يستمد قانون المراحل الثلاث حقائقه من التاريخ، وإنَّما هو فكرة فلسفيَّة اختار لها كونت مجتمعات معينة حاول تطبيقها عليها دون استقراء لتاريخ المجتمعات الإنسانيَّة.

٤- يفسر هذا القانون بأنَّه التقدُّم، بينما نجد الحضارة عبارة عن مستوى عام للحياة الماديَّة والروحيَّة للمجتمع دون النظر إلى تقدمها أو تأخُّرها.

الانتشار ومواقع النفوذ

- زحف المذهب الوضعيّ من فرنسا إلي إنجلترا، واعتنق بعض الفلاسفة مبادئ المذهب الوضعي. إلا أنَّ بعض كبار المفكرين والفلاسفة رفضوا متابعة كونت في مفهوم دين الإنسانيَّة الذي وضعه، وبالرغم من ذلك فقد أُنشئت جمعيَّات وضعيَّة في أجزاء مختلفة من العالم على غرار النموذج الذي أسسه كونت نفسه عام ١٨٤٨م. وفي هذه الجمعيَّات كانت الإنسانيَّة هي موضوع الشعائر الدينيَّة، واتخذ من علم الاجتماع سندًا لمثل هذه الديانة الاجتماعيَّة، وقويت هذه الحركة بصورة خاصَّة في أمريكا اللاتينيَّة، ولكنَّها ازدهرت لعدة سنوات في إنجلترا

- وقد صدرت المجلة الوضعيَّة التي أطلق عليها فيما بعد اسم الإنسانيَّة من عام ١٨٩٣م إلي عام ١٩٢٥م. وقامت محاولات لإحياء الوضعيَّة في إنكلترا بعد الحرب العالميَّة الثانية مباشرة، من خلال أعمال الفلاسفة الإنجليز إير وراسل[1].

الوجوديَّة

التعريف:

الوجوديَّة اتجاه فلسفيٌّ أدبيٌّ إلحاديٌّ يغلو في قيمة الإنسان، ويبالغ في التأكيد على تفرده، وأنَّه صاحب تفكير وحريَّة وإرادة واختيار، ولا يحتاج إلى موجه. فهو يلغي رصيد الإنسانيَّة من الأديان وقيمها الأخلاقيَّة.

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٨١١- ٨١٤).

وهي فلسفة عن الذات أكثر منها فلسفة عن الموضوع. وتعد جملة من الاتجاهات والأفكار المتباينة التي تتعلق بالحياة والموت والمعاناة والألم، وليست نظريَّة فلسفيَّة واضحة المعالم.

ونظرًا لهذا الاضطراب والتذبذب لم تستطع إلى الآن أن تأخذ مكانها بين العقائد والأفكار.

تاريخ الوجوديَّة

إنَّ الوجوديَّة جاءت رد فعل على تسلط الكنيسة وتحكُّمها في الإنسان بشكل متعسف باسم الدين.

وتأثرت بالعلمانيَّة وغيرها من الحركات التي صاحبت النهضة الأوربيَّة ورفضت الدين والكنيسة.

وتأثرت بسقراط الذي وضع قاعدة «اعرف نفسك بنفسك».

وتأثروا بالرواقيِّين الذين فرضوا سيادة النفس.

كما تأثَّروا بمختلف الحركات الداعية إلى الإلحاد والإباحيَّة.

ويرى رجال الفكر الغربيِّ أنَّ سورين كيركجورد ١٨١٣ - ١٨٥٥م هو مؤسِّس المدرسة الوجوديَّة. ومن مؤلفاته: رهبة واضطراب.

وأشهر زعمائها المعاصرين: جان بول سارتر الفيلسوف والأديب الفرنسيّ المولود سنة ١٩٠٥م وهو يهوديّ ملحد ويناصر الصهيونيَّة، ويعدُّ رأس الوجوديِّين الملحدِّين والذي يقول: إنَّ الله خرافة ضارّة، وله عدَّة كتب وروايات تمثل مذهبه، منها: الوجوديَّة مذهب إنساني، الوجود والعدم، الغثيان، الذباب، الباب المغلق.

ومن رجالها كذلك: القس كبرييل مارسيل، وهو يعتقد أنَّه لا تناقض بين الوجوديَّة والنصرانيَّة.

وكارل جاسبرز: فيلسوف ألماني.

وبسكال بليز: مفكر وفيلسوف فرنسي.

وفي روسيا: بيرد يائيف، شيسوف، سولوفييف.

أفكار الوجوديَّة

- يكفرون بالله ورسله وكتبه وبكلِّ الغيبيات وكلِّ ما جاءت به الأديان ويعتبرونها عوائق أمام الإنسان نحو المستقبل. وقد اتَّخذوا الإلحاد مبدأً ووصلوا إلى ما يتبع ذلك من نتائج مدمرة.

- يعاني الوجوديُّون من إحساس أليم بالضيق والقلق واليأس والشعور بالسقوط والإحباط؛ لأنَّ الوجوديَّة لا تمنح شيئًا ثابتًا يساعد على التماسك والإيمان، وتعدّ الإنسان قد أُلقي به في هذا العالم وسط مخاطر تؤدي به إلى الفناء.

- يؤمنون إيمانًا مطلقًا بالوجود الإنسانيّ ويتّخذونه منطلقًا لكلّ فكرة.

- يعتقدون بأنّ الإنسان أقدم شيء في الوجود وما قبله كان عدمًا، وأنّ وجود الإنسان سابق لماهيته.

- يعتقدون أنّ الأديان والنظريّات الفلسفيّة التي سادت خلال القرون الوسطى والحديثة لم تحل مشكلة الإنسان.

- يقولون: إنهم يعملون لإعادة الاعتبار الكليّ للإنسان، ومراعاة تفكيره الشخصيّ وحريته وغرائزه ومشاعره.

- يقولون بحريّة الإنسان المطلقة وأنّ له أن يثبت وجوده كما يشاء وبأي وجه يريد دون أن يقيّده شيء.

- يقولون: إنّ على الإنسان أن يطرح الماضي وينكر كلّ القيود دينيّة كانت أم اجتماعيّة أم فلسفيّة أم منطقيّة.

- يقول المؤمنون منهم: إنّ الدين محلّه الضمير أمّا الحياة بما فيها فمفقودة لإرادة الشخص المطلقة.

- لا يؤمنون بوجود قيم ثابتة توجّه سلوك الناس وتضبطه، إنّما كل إنسان يفعل ما يريد، وليس لأحد أن يفرض قيمًا أو أخلاقًا معينة على الآخرين.

- أدّى فكرهم إلى شيوع الفوضى الخلقيّة والإباحيّة الجنسيّة والتحلل والفساد.

- على الرغم من كل ما أعطوه للإنسان فإنّ فكرهم يتّسم بالانطوائيّة الاجتماعيّة، والانهزاميّة في مواجهة المشكلات المتنوعة.

- الوجوديّ الحقّ عندهم هو الذي لا يقبل توجيهًا من الخارج، إنما يسيّر نفسه بنفسه، ويلبّي نداء شهواته وغرائزه دون قيود ولا حدود.

- لها الآن مدرستان: واحدة مؤمنة والأخرى ملحدة، وهي التي بيدها القيادة وهي المقصودة بمفهوم الوجوديّة المتداول على الألسنة، فالوجوديّة إذًا قائمة على الإلحاد.

- الوجوديّة في مفهومها تمرد على الواقع التاريخي، وحرب على التراث الضخم الذي خلفته الإنسانيّة.

- تمثل الوجوديّة اليوم واجهة من واجهات الصهيونيّة الكثيرة التي تعمل من خلالها، وذلك بما تبثّه من هدم للقيم والعقائد والأديان.

الانتشار ومواقع النفوذ

- ظهرت في ألمانيا بعد الحرب العالميّة الأولى، ثم انتشرت في فرنسا وإيطاليا وغيرهما. وقد اتخذت من بشاعة الحروب وخطورتها على الإنسان مبررًا للانتشار السريع. وترى حريّة الإنسان في

عمل أي شيء متحللًا من كلِّ الضوابط.

- انتشرت أفكارهم المنحرفة المتحللة بين المراهقين والمراهقات في فرنسا وألمانيا والسويد والنمسا وإنجلترا وأمريكا وغيرها، إذ أدَّت إلى الفوضى الخلقيَّة والإباحيَّة الجنسيَّة واللامبالاة بالأعراف الاجتماعيَّة والأديان[1].

الفرويديَّة

التعريف:

الفرويديَّة مدرسة في التحليل النفسي أسسها اليهودي سيجموند فرويد، وهي تفسر السلوك الإنساني تفسيرًا جنسيًا، وتجعل الجنس هو الدافع وراء كل شيء. كما أنها تعتبر القيم والعقائد حواجز وعوائق تقف أمام الإشباع الجنسي، مما يورث الإنسان عقدًا وأمراضًا نفسيَّة.

وبذلك تريد للمجتمع أن يكون بلا دين ولا أخلاق ولا تقاليد فتتسع هوة الرذيلة والفساد، وتسهل لليهود السيطرة على الشعوب المتحللة خدمة لأهداف الصهيونيَّة. وبطبيعة الحال فإنَّها تنادي بأنَّ الدين الذي يضع الضوابط لطاقة الجنس لا يستحقُّ الاتباع ولا يستوجب الاحترام.

تاريخ الفرويديَّة

- المؤسس وحياته:

ولد سيجموند فرويد في ٦ مايو ١٨٥٦م في مدينة فريبورج بمقاطعة مورافيا بتشيكوسلوفاكيا الحالية من والديْن يهوديين.

استقرت أسرة أبيه في كولونيا بألمانيا زمنًا طويلًا.

وُلدت أمه بمدينة برودي في الجزء الشمالي من غاليسيا، ولما شبت تزوجت من جاكوب فرويد والد سيجموند فرويد إذ أنجبت له سبعة أبناء.

وغاليسيا مدينة ببولندا جاء منها والد فرويد، وكانت معقلًا رئيسيًا ليهود شرق أوربا، وبسبب ظروف الشغب رحلت الأسرة إلى برسلاو بألمانيا وعمر سيجموند حينها ثلاث سنوات، ثم رحلوا مرة أخرى إلى فيينا، حيث أمضى معظم حياته وبقي فيها إلى سنة ١٩٣٨م حيث غادرها إلى لندن ليقضي أيامه الأخيرة فيها مصابًا بسرطان في خده وقد أدركته الوفاة في ٢٣ سبتمبر ١٩٣٩م.

وتلقَّى تربيته الأولى وهو صغير على يدي مربية كاثوليكيَّة دميمة عجوز متشددة كانت تصحبه معها أحيانًا إلى الكنيسة مما شكل عنده عقدة ضدّ المسيحيَّة فيما بعد.

وقد نشأ فرويد يهوديًا، وأصدقاؤه من غير اليهود نادرين، إذ كان لا يأنس لغير اليهود ولا يطمئن إليهم.

---

(١) الموسوعة الميسرة (٢/٨١٨- ٨٢١)، مذاهب فكرية معاصرة.

ودخل الجامعة عام ١٨٧٣م وعقَّب على ذلك بأنَّه يرفض رفضًا قاطعًا أن يشعر بالدونيَّة والخجل من يهوديته. لكنَّ هذا الشعور الموهوم بالاضطهاد ظلَّ يلاحقه على الرغم من احتلاله أرق المناصب.

وفي سنة ١٨٨٥م غادر فيينا إلى باريس وتتلمذ على شاركوت مدة عام، إذ كان أستاذه هذا يقوم بالتنويم المغناطيسي لمعالجة الهستيريا، وقد أعجب فرويد به عندما أكَّد له بأنَّه في حالة من حالات الأمراض العصبيَّة لا بدَّ من وجود اضطراب في الحياة الجنسيَّة للمريض.

وأخذ يتعاون مع جوزيف بروير ١٨٤٢ - ١٩٢٥م وهو طبيب نمساوي صديق لفرويد، وهو فيزيولوجي في الأصل لكنَّه انتقل إلى العمل الطبِّيّ، إذ كان ممن يستعملون التنويم المغناطيسي أيضًا.

وبدأ الاثنان باستعمال طريقة التحدث مع المرضى، فنجحا بعض النجاح ونشرا أبحاثهما في عامي ١٨٩٣ و١٨٩٥م، وصارت طريقتهما مزيجًا من التنويم والتحدُّث، ولم يمض وقت طويل حتى انصرف بروير عن الطريق كلِّها.

وتابع فرويد عمله تاركًا طريقة التنويم معتمدًا على طريقة التحدُّث طالبًا من المريض أن يضطجع ويتحدث مفصحًا عن كلِّ خواطره، وسماها طريقة (الترابط الحرّ) سالكًا طريقة رفع الرقابة عن الأفكار والذكريات، وقد نجحت طريقته هذه أكثر من الطريقة الأولى.

وأخذ يطلب من مريضه أن يسرد عليه حلمه الذي شاهده في الليلة الماضية، مستفيدًا منه في التحليل، وقد وضع كتاب تفسير الأحلام الذي نشره سنة ١٩٠٠م، ثم كتاب علم النفس المرضي للحياة اليوميَّة، ثم توالت كتبه وصار للتحليل النفسي مدرسة سيكولوجيَّة صريحة منذ ذلك الحين.

وانضمَّ عام ١٨٩٥م إلى جمعيَّة بناي برث أي أبناء العهد، وكان حينها في التاسعة والثلاثين من عمره، وهذه الجمعيَّة لا تقبل بين أعضائها غير اليهود.

وكان يعرف تيودور هرتزل الذي ولد عام ١٨٦٠م، كما سعيا معًا لتحقيق أفكار واحدة لخدمة الصهيونيَّة التي ينتميان إليها، مثل فكرة معاداة الساميَّة التي ينشرها هرتزل سياسيًّا، ويحللها فرويد نفسيًّا.

- من أصحابه وتلاميذه:

لارنست جونز، مؤرخ السيرة الفرويديَّة، مسيحي مَوْلِدًا، ملحد فِكَرًا، يهودي شعورًا ووجدانًا، حتَّى إنَّهم خلعوا عليه لقب: اليهوديّ الفخريّ.

أوتو رانك ١٨٨٤ - ١٩٣٩م قام بوضع نظريَّة تقوم أساسًا على أفكار فرويد الأصليَّة مع شيء من التعديل الهامّ.

الفرِد آدلر: ولد في فيينا ١٨٧٠ - ١٩٣٧م، وقد انضمَّ إلى جماعة فرويد مبكرًا، لكنه افترق عنه

بعد ذلك مؤسسًا مدرسة سماها مدرسة علم النفس الفردي مستبدلًا بالدوافع الجنسيَّة عند فرويد عددًا من الدوافع الاجتماعيَّة، مع التأكيد على الإرادة القوية والمجهودات الشعوريَّة.

كارل جوستاف يونج ١٨٧٥ - ١٩٦١م ولد في زيوريخ، وهو مسيحي، نصَّبه فرويد رئيسًا للجمعيَّة العالمية للتحليل النفسي، لكنه خرج على أستاذه معتقدًا بأن هذه المدرسة التحليليَّة ذات جانبٍ واحدٍ وغير ناضجة، وكان لخروجه أثر بالغ على فرويد. وضع نظريَّة السيكولوجيا التحليليَّة مشيرًا إلى وجود قوة دافعة أكبر هي طاقة الحياة، مؤكدًا على دور الخبرات اللاشعوريَّة المتصلة بالعِرق أو العنصر.

الفرويديُّون المحدثون

حدث انسلاخ كبير عن الفرويديَّة الأصليَّة، وذلك عندما تكونت الفرويديَّة الحديثَّة التي كان مركزها مدرسة واشنطن للطبِّ العقلي، وكذلك معهد إليام ألانسون هوايت في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة، وهي مدرسة تتميز بالتأكيد على العوامل الاجتماعيَّة معتقدة أنَّ ملامح الإنسان الأساسيَّة إيجابيَّة، وهم يلحّون على نقل التحليل النفسي إلى علم الاجتماع؛ للبحث عن أصول الحوافز البشريَّة في تلبية مطالب الوضع الاجتماعي، ومن أبرز شخصياتهم:

أريك فروم: ظهر بين ١٩٤١ - ١٩٤٧م. كان ينظر إلى الإنسان على أنَّه مخلوق اجتماعيٌّ بالدرجة الأولى، بينما ينظر إليه فرويد على أنَّه مخلوق مكتفٍ بذاته، تحركه عوامل غريزيَّة.

كارن هروني: استعملت طريقة فرويد خمسة عشر عامًا في أوربا وأمريكا، إلا أنَّها أعادت النظر فيها إذ وضعت نظريَّة جديدة تحرر فيها التطبيق العلاجي من كثير من القيود التي تفرضها النظريَّة الفرويديَّة.

وعلى الرغم من ذلك فإنَّ الفرويديِّين المحدثين لا يزالون متمسِّكين بأشياء كثيرة من نظريَّة فرويد الأصليَّة مثل:

١- أهمِّيَّة القوى الانفعاليَّة بوصفها مضادَّة للدفع العقليِّ والارتكاسات الاشتراطيَّة وتكوين العادات.

٢- التداعي اللاشعوري.

٣- الكبت والمقاومة وأهمِّيَّة ذلك في التحليل أثناء العلاج.

٤- الاهتمام بالنزاعات الداخليَّة وأثرها على التكوين النفسيِّ.

٥- التأثير المستمر للخبرات الطفوليَّة المبكرة.

٦- طريقة التداعي الحرّ، وتحليل الأحلام، واستعمال حقيقة النقل.

أفكار الفرويديَّة

أفكار فرويد كلّها تدور -من زوايا مختلفة- حول موضوع واحد هو التفسير الجنسي للسلوك البشري.

وخلاصة هذا التفسير أنَّ الطاقة الجنسيَّة هي الطاقة العظمى في الكائن البشري، وهى المسيطرة على طاقاته جميعًا، والموجهة لها، والمسخرة لها كلّها لحسابها الخاص!

يولد الطفل بطاقة جنسيَّة، وتسيطر عليه -منذ لحظة مولده- تلك الطاقة الجنسيَّة التي ولد بها، فيرضع ثدي أمه بلذَّة جنسيَّة، ويتبول ويتبرز بلذَّة جنسيَّة، ويمص إبهامه بلذَّة جنسيَّة، ويحرك أعضاءه بلذَّة جنسيَّة . . .

ثم ينمو الصبي فيحس تلقاء أمّه بشهوة جنسيَّة «كما تحس الصبية بالشهوة الجنسيَّة تلقاء والدها» ولكنه يجد أباه حائلًا بينه وبين الاستيلاء على الأمّ التي يشعر نحوها بتلك الشهوة الجنسيَّة، فيكره أباه الذي يحبه في ذات الوقت، ويصطرع الحب والكره اللذان يحس بهما في آن واحد تجاه الأب، فيكبت الكره في اللاشعور، الذي تدفن فيه -ظاهريا- كل الرغبات المكبوتة والمخاوف المكبوتة، ولكنها تبقى حية فاعلة مؤثرة موجهة لسلوك الإنسان دون وعي، ويظهر الحبُّ وحده على السطح لأنَّ ذلك هو الذي يعجب المجتمع!

ولكن القضية لا تنتهي عند هذا الحد ولا على هذه الصورة. فإنَّ الصبي يأخذ في حس نفسه مكان والده، تعويضًا عن عجزه عن الاستيلاء على الأم بسبب قيام والده حاجزًا بينه وبينها، فيروح ينهى نفسه ويأمرها كما ينهاه أبوه ويأمره، فينشأ الضمير، وتنشأ -في نفس الطفل- القيم الأخلاقيَّة التي يتعاطاها المجتمع ويرضى عنها، كما ينشأ الدين من ذات العقدة التي سماها عقدة أوديب (ويقابلها عقدة إليكترا عند البنت) وهي العقدة الناشئة من الكبت الجنسيّ لشهوة الصبي الجنسيَّة نحو أمّه (وشهوة البنت الجنسيَّة نحو أبيها) .

وهكذا تنشأ القيم العليا كلها: الدين والأخلاق، والتقاليد المستمدة من الدين، من تلك العقدة الناشئة من الكبت الجنسي.

وتتركب النفس الإنسانيَّة من طبقات ثلاث:

١- الطبقة الشهوانية -التي تسطر عليها الشهوة الجنسيَّة وتوجهها- وتسمى عنده الذات السفلى، وهى طبقة لا شعوريَّة.

٢- والذات وهي الطبقة الوسطى التي يتمثل فيها الوعي وتصدر عنها كل التصرفات الواعية للإنسان.

٣- والذات العليا التي تتمثل فيها الضوابط الناشئة من الدين والأخلاق والتقاليد المتداولة في المجتمع، وهى لا شعوريَّة أيضًا، وتنشأ من الكبت الواقع على الذات السفلى الشهوانيَّة.

ومهمَّة الذَّات هي التحايل الدائم على الذات السفلى لإقناعها بأوامر الذات العليا، وإن كانت هي شخصيًا لا تؤمن بها! يقول فرويد : «إنَّ مهمَّة الذات بين الضغط الواقع عليها من الذات العليا والذات السفلى معًا تصبح كمهمَّة السياسي الذي يعرف الحقائق ولكنه يداور ويناور إرضاء للجماهير!!».

ويتحدث فرويد -كثيرًا- عن القيم العليا . . . عن الدين والأخلاق والتقاليد. يقول في كتاب «الطواطم والمحرمات»: إنَّه حدثت في البشريَّة الأولى حادثة هائلة ما تزال تؤثر في حياة البشريَّة إلى هذه اللحظة. ذلك أنَّ «الأولاد» شعروا بالرغبة الجنسية تجاه أمهم، فوجدوا أباهم حائلًا بينهم وبين الاستيلاء على الأم فقتلوه! وكانت تلك أول جريمة ترتكب في البشريَّة الأولى «وليست هي قتل أحد الأخوين لأخيه كما جاء في الرسالات السماويَّة».

ثم أحسوا بالندم على قتل أبيهم فقدسوا ذكراه، فنشأت أول عبادة عرفتها البشريَّة وهي عبادة الأب «وليس عبادة الله كما جاء في الرسالات السماويَّة».

ثم وجدوا أنَّهم لو تقاتلوا بينهم للاستيلاء على الأم فسيقتل بعضهم بعضًا فاتفقوا على ألا يقربها أحد منهم فنشأ أول تحريم في العلاقات الجنسيَّة وهو تحريم الأم «وليس لأنَّ الله هو الذي حرمها كما جاء في الرسالات السماويَّة».

يقول: وكل الديانات التالية والحضارات قد نشأت من ذلك الحدث الخطير الذي لم يدع للبشريَّة منذ وقوعه فرصة للراحة!!

وسنده في هذه القصة التي يبني عليها تفسيرًا كاملًا للحياة البشريَّة بأديانها وحضارتها من أول التاريخ إلى آخر التاريخ أنَّ داروين يقول: إنَّه في عالم البقر تتجه الثيران الشابة إلى الأم لمواقعتها، فتدور بينهم معركة رهيبة، يفوز فيها أقوى الثيران وأصلبهم عودًا، فيستولي وحده على الأم ويندحر الباقون!

بتحريف بسيط تنقل القصَّة من عالم البقر إلى عالم البشر، ويقوم عليها تفسير شامل للحياة البشريَّة!

ويقول عن الأخلاق في كتاب «الذات والذات السفلى»: إنَّها كوابت تكبت المنطلق الطبيعي للطاقة الجنسيَّة، ويقول إنَّها تتسم بطابع القسوة حتَّى في صورتها العاديَّة!

ويقول عن التسامي في كتاب «ثلاث مقالات في النظريَّة الجنسيَّة»: فأمَّا ثالث أنواع الشذوذ فإنَّه يحدث نتيجة عمليَّة التسامي، حيث تصرف الطاقة الشهويَّة الصادرة من منابع جنسيَّة فرديَّة في مجالات أخرى وينتفع بها في تلك الحالات، وبذلك يكتسب الإنسان قوة نفسيَّة كبيرة من استعداد نفسيٍّ هو في ذاته خطير!

ويقول عن العلاقات البشريَّة في كتاب «الطواطم والمحرمات»: إنَّ الازدواج العاطفي أي الشعور بالحبِّ والكره في آن واحد تجاه الشخص الواحد . . . وكبت الكره في اللاشعور وإظهار الحب على السطح لإرضاء المجتمع، هو الطابع العامّ للعواطف البشريَّة، فالولد يحبُّ أباه ويكرهه، ويحب أمَّه ويكرهها، والأخ يحب أخاه ويكرهه، والزوجة تحب زوجها وتكرهه. . . والصياح الذي يصيحه الناس على ميتهم هو لإخفاء الفرحة الداخليَّة التي ملأت نفوسهم لموته!!

ويشرح هذه الظاهرة العجيبة فيقول: إنَّها تتم بطريقة لا شعوريَّة وإنَّه لا تدخل فيها الحالات

التي يتوجه فيها الإنسان بالحبِّ لشخصٍ معين ثم يكرهه لأسباب واعية معلومة! إنَّما هو كره لا شعوري تلقائي، ينشأ في ذات اللحظة التي ينشأ فيها الحب، ثم يكبت في اللاشعور ويظل يعمل من داخل اللاشعور!

ويقول في كتاب «الطواطم والمحرمات»: إنَّ الكبت هو طابع الحياة البشريَّة بسبب وجود الدين والأخلاق والمجتمع وسلطة الأب... وما إلى ذلك من القوى القاهرة... وكلّها تتجه إلى كبت الطاقة الجنسيَّة فتنشأ العقد النفسيَّة والاضطرابات العصبيَّة التي لا تترك صاحبها في راحة...

ويقول في معظم كتبه: إنَّ كلَّ الأطفال «الذكور» يصابون بعقدة أوديب في أول طفولتهم.

ويقول في كتاب ثلاث مقالات: نحن جميعًا مصابون بالهستريا إلى حدٍّ ما.

الأسس النظريَّة

- الأسس الثلاثة التي تركز عليها المدرسة التحليليَّة هي: الجنس- الطفولة - الكبت. فهي مفاتيح السيكولوجيَّة الفرويديَّة.

- نظرية الكبت: هي دعامة نظريَّة التحليل النفسيّ، وهي أهمُّ قسم فيه؛ إذ إنَّه لا بدَّ من الرجوع إلى الطفولة المبكرة وإلى الهجمات الخياليَّة التي يراد بها إخفاء فاعليات العشق الذاتي أيام الطفولة الأولى، إذ تظهر كل الحياة الجنسيَّة للطفل من وراء هذه الخيالات.

- يعتبر فرويد مص الأصابع لدى الطفل نوعًا من السرور الجنسي الفمي، ومثل ذلك عض الأشياء، فيما يعد التغوط والتبول نوعًا من السرور الجنسي الاستي، كما أنَّ الحركات المنتظمة للرجلين واليدين عند الطفل إنما هي تعبيرات جنسيَّة طفوليَّة.

- اللبيدو Libido طاقة جنسيَّة أو جوع جنسيٌّ، وهي نظريَّة تعتمد على أساس التكوين البيولوجي للإنسان الذي تعتبره حيوانًا بشريًا، فهو يرى أنَّ كلَّ ما نصرح بحبِّه أو حبِّ القيام به في أحاديثنا الدارجة يقع ضمن دائرة الدافع الجنسيّ. فالجنس عنده هو النشاط الذي يستهدف اللَّذَّة، وهو يلازم الفرد منذ مولده إذ يصبح الأداة الرئيسة التي تربط الطفل بالعالم الخارجي في استجابته لمنبهاته.

- الدفع: يقول بأنَّ كلَّ سلوك مدفوع، فإلى جانب الأفعال الإراديَّة التي توجهها الدوافع والتمنيات هناك الأفعال غير الإراديَّة أو العارضة. فكلُّ هفوة مثلًا ترضي تمنيًا، وكلُّ نسيان دافعه رغبة في إبعاد ذلك الشيء.

- الشلل أو العمى لديه قد يكون سببه الهروب من حالة صعبة يعجز الإنسان عن تحقيقها، وهذا يسمى انقلاب الرغبة إلى عرض جسديّ.

- الحلم عنده هو انحراف عن الرغبة الأصليَّة المستكنة في أعماق النفس، وهي رغبة مكبوتة يقاومها صاحبها في مستوى الشعور، ويعيدها إلى اللاشعور، وأثناء النوم عندما تضعف الرقابة

تأخذ طريقها باحثة لها عن مخرج.

- يتكلم فرويد عن تطبيق مبدأين هما اللَّذَّة والواقع، فالإنسان يتجه بطبيعته نحو مبدأ اللَّذَّة العاجلة لمباشرة الرغبة لكنَّه يواجه بحقائق الطبيعة المحيطة به فيتجنب هذه اللَّذَّة التي تجلب له آلامًا أكبر منها أو يؤجل تحقيقها.

- يفترض فرويد وجود غريزتين ينطوي فيهما كل ما يصدر عن الإنسان من سلوك وهما غريزة الحياة وغريزة الموت. غريزة الحياة تتضمن مفهوم الليبدو وجزءًا من غريزة حفظ الذات، أمَّا غريزة الموت فتمثل نظريَّة العدوان والهدم موجهة أساسًا إلى الذات ثم تنتقل إلى الآخرين.

- الحرب لديه إنَّما هي محاولة جماعيَّة للإبقاء على الذات نفسيًّا، والذي لا يحارب إنَّما يعرض نفسه لاتجاه العدوان إلى الداخل، فيفني نفسه بالصراعات الداخليَّة، فالأولى به أن يفني غيره إذًا، والانتحار هو مثل واضح لفشل الفرد في حفظ حياته. وهذا المفهوم إنما يعطي تبريرًا يريح ضمائر اليهود أصحاب السلوك العدواني المدمر.

- اللاشعور: هو مستودع الدوافع البدائيَّة الجنسيَّة وهو مقرُّ الرغبات والحاجات الانفعاليَّة المكبوتة التي تظهر في عثرات اللسان والأخطاء الصغيرة والهفوات، وأثناء بعض المظاهر الغامضة لسلوك الإنسان. إنَّه مستودع ذو قوة ميكانيكيَّة دافعة وليس مجرد مكان تلقى إليه الأفكار والذكريات غير الهامَّة.

- الـ (هو): مجموعة من الدوافع الغريزيَّة الموجودة لدى الطفل عند ولادته التي تحتاج إلى الشعور الموجه، وهي غرائز يشترك فيها الجنس البشري بكافة. إنَّها باطن النفس، وقد نتجت عن (الأنا) إلا أنَّها تبقى ممزوجة بها في الأعماق أي حينما تكون (الأنا) لا شعوريَّة، وهي تشمل القوى الغريزيَّة الدافعة، فإذا ما كبتت هذه الرغبات فإنَّها تعود إلى الـ (هو) (Ego).

- (الأنا): بعد قليل من ميلاد الطفل يزداد شعورًا بالواقع الخارجي فينفصل جزء من مجموعة الدوافع الـ (هي) لتصبح ذاتا، ووظيفتها الرئيسية هي اختيار الواقع حتى يستطيع الطفل بذلك تحويل استجاباته إلى سلوك منظم يرتبط بحقائق الواقع ومقتضياته، إنَّها ظاهرة النفس التي ترتبط بالمحيط.

- (الأنا العليا): هي الضمير الذي يوجه سلوك الفرد والجانب الأكبر منه لا شعوري، وهو ما نسميه بالضمير أو الوجدان الأخلاقي، لها زواجر وأوامر تفرضها على (الأنا)، وهي سمة خاصة بالإنسان، إذ إنَّها أمور حتميَّة صادرة من العالم الداخليٍّ.

- النقل: وهي أنَّ المريض قد ينقل حبَّه أو بغضه المكبوت في أعماق الذكريات إلى الطبيب مثلًا خلال عمليَّة المعالجة. وقد تعرض بروير لحبٍّ واحدة من اللواتي كان يعالجهن إذ نقلت عواطفها المكبوتة إليه، فكان ذلك سببًا في انصرافه عن هذه الطريقة، بينما تابع فرويد عمله بمعالجة الواحدة منهن بنقل عواطفها مرة أخرى والوصول بها إلى الواقع.

- استفاد كثيرًا من عقدة أوديب تلك الأسطورة التي تقول بأنَّ شخصًا قد قتل أباه وتزوج أمَّه وأنجب منها وهو لا يدري. ولما علم بحقيقة ما فعل سمل عينيه، فقد استغلها فرويد في إسقاطات نفسيَّة كثيرة واعتبرها مركزًا لتحليلاته المختلفة.

- شخصيَّة الإنسان هي حصيلة صراع بين قوى ثلاث: دوافع غريزيَّة، واقع خارجيّ، ضمير، وهي أمور رئيسيَّة تتحدد بشكل ثابت بانتهاء الموقف الأوديبي حوالي السنة الخامسة أو السادسة من العمر.

الآثار السلبية للفرويديَّة

- لم ترد في كتب وتحليلات فرويد أيَّة دعوة صريحة إلى الانحلال - كما يتبادر إلى الذهن - وإنما كانت هناك إيماءات تحليليَّة كثيرة تتخلل المفاهيم الفرويديَّة تدعو إلى ذلك. وقد استفاد الإعلام الصهيوني من هذه المفاهيم لتقديمها على نحو يغري الناس بالتحلُّل من القيم، وييسر لهم سبله بعيدًا عن تعذيب الضمير.

- كان يتظاهر بالإلحاد ليعطي لتفكيره روحًا علمانيَّة، ولكنَّه على الرغم من ذلك كان غارقًا في يهوديته من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.

- كان يناقش فكرة معاداة الساميَّة وهي ظاهرة كراهية اليهود، هذه النغمة التي يعزف اليهود عليها لاستدرار العطف عليهم، وقد ردّ هذه الظاهرة نفسيًّا إلى اللاشعور وذلك لعدة أسباب:

١- غيرة الشعوب الأخرى من اليهود؛ لأنَّهم أكبر أبناء الله وآثرهم عنده حاشا لله.

٢- تمسُّك اليهود بطقس الختان الذي ينبه لدى الشعوب الأخرى خوف الخصاء ويقصد بذلك النصارى لأنَّهم لا يختتنون.

٣- كراهية الشعوب لليهود هو في الأصل كراهية للنصارى المسيحين، وذلك عن طريق النقل إذ إنَّ الشعوب التي تُنزِل الاضطهاد النازي باليهود إنما كانت شعوبًا وثنيَّة في الأصل، ثم تحولت إلى النصرانيَّة بالقوة الدمويَّة، فصارت هذه الشعوب بعد ذلك حاقدة على النصرانيَّة، لكنَّها بعد أن توحدت معها نقلت الحقد إلى الأصل الذي تعتمد عليه النصرانيَّة ألا وهو اليهوديَّة.

- يركن إلى إشباع الرغبة الجنسيَّة، وذلك لأنَّ الإنسان صاحب الطاقة الجنسيَّة القوية والذي لا تسمح له النصرانيَّة إلا بزوجة واحدة؛ إمَّا أن يرفض قيود المدنيَّة ويتحرر منها بإشباع رغباته الجنسيَّة، وإمَّا أن يكون ذا طبيعة ضعيفة لا يستطيع الخروج على هذه القيود، فيسقط صاحبها فريسة للمرض النفسي ونهبًا للعقد النفسيَّة.

- يقول بأنَّ الامتناع عن الاتصال الجنسيّ قبل الزواج قد يؤدِّي إلى تعطيل الغرائز عند الزواج.

- عقد فصلًا عن تحريم العذرة، وقال بأنَّها تحمل مشكلات وأمراضًا لكلا الطرفين، واستدل على ذلك بأنَّ بعض الأقوام البدائيَّة كانت تقوم بإسناد أمر فضّ البكارة لشخص آخر غير الزوج، وذلك ضمن احتفال وطقس رسميّ.

- لقد برَّر عشق المحارم؛ لأنَّ اليهود أكثر الشعوب ممارسة له بسبب انغلاق مجتمعهم الذي يحرم الزواج على أفراده خارج دائرة اليهود، وهو يرجع هذا التحريم إلى قيود شديدة كانت تغل الروح وتعطلها، وهو بذلك يساعد اليهود أولًا على التحرر من مشاعر الخطيئة، كما يسهل للآخرين اقتحام هذا الباب الخطير بإسقاط كل التحريمات واعتبارها قيودًا وأغلالًا وهميَّة.

وقد استغل اليهود هذه النظريَّة وقاموا بإنتاج عدد من الأفلام الجنسيَّة الفاضحة التي تعرض نماذج من الزنى بالمحارم.

- لم يعتبر التصعيد أو الإعلاء -كما يسمِّيه- إلا طريقًا ضعيفًا للتخلص من ضغط الدافع الجنسي، إذ إنَّ هذا الطريق لن يتيسر خلال مرحلة الشباب إلا لقلَّة ضئيلة من الناس وفي فترات متقطعة وبأكبر قدر من العنت والمشقَّة، أما الباقون -وهم الغالبية العظمى- فليس أمامهم إلا المرض النفسي يقعون صرعاه. كما أنَّ أصحاب التصعيد هؤلاء إنما هم ضعاف يضيعون في زحمة الجماهير التي تنزع إلى السير بإرادة مسلوبة وراء زعامة الأقوياء.

- في كفاحه ضد القيود، والأوامر العليا الموجهة إلى النفس، صار إلى محاربة الدين واعتباره لونًا من العصاب النفسي الوسواسي.

- تطورت فكرة الألوهيَّة لديه على النحو التالي:

١- كان الأب هو السيد الذي يملك كلَّ الإناث في القبيلة ويحرمها على ذكورها.

٢- قام الأبناء بقتل الأب، ثم التهموا جزءًا نيئًا من لحمه للتوحد معه؛ لأنَّهم يحبونه.

٣- صار هذا الأب موضع تبجيل وتقدير باعتباره أباهم أصلًا.

٤- ومن ثم اختاروا حيوانًا مرهوبًا لينقلوا إليه هذا التبجيل فكان الحيوان هو الطوطم.

٥- الطوطميَّة أول صورة للدين في التاريخ البشري.

٦- كانت الخطوة الأولى بعد ذلك هي التطوُّر نحو الإله الفرد، فتطورت معها فكرة الموت الذي صار بهذا الاعتبار خطوة إلى حياة أخرى يلقى الإنسان فيها جزاء ما قدم.

٧- الله -إذًا- هو بديل الأب أو بعبارة أصح هو أب عظيم، أو هو صورة الأب كما عرفها المرء في طفولته.

- نخلص من هذا إلى أنَّ العقائد الدينيَّة -في نظره- أوهام لا دليل عليها، فبعضها بعيد عن الاحتمال ولا يتفق مع حقائق الحياة، وهي تقارن بالهذيان، ومعظمها لا يمكن التحقق من صحته، ولا بدَّ من مجيء اليوم الذي يصغي فيه الإنسان لصوت العقل.

- حديثه عن الكبت فيه إيحاءات قويَّة وصارخة بأنَّ الوقاية منه تكمن في الانطلاق والتحرر من كل القيود، كما يحرم الإدانة الخلقية على أي عمل يأتيه المريض، مركِّزًا على الآثار النفسيَّة المترتبة على هذه الإدانة في توريثه العقد المختلفة مما يحرفه عن السلوك السوي.

- مما ساعد على انتشار أفكاره ما يلي:

١- الفكر الداروني الذي أرجع الإنسان إلى أصول حيوانيَّة مادِّيَّة.

٢- الاتجاه العقلانيّ الذي ساد أوربا حينذاك.

٣- الفكر العلمانيّ الذي صبغ الحياة بثورته ضد الكنيسة أولًا وضد المفاهيم الدينيَّة ثانيًا.

٤- اليهود الذين قدَّموا فكره للإنسانيَّة باستخدام مختلف الوسائل الإعلاميَّة بغية نشر الرذيلة والفساد، وتسهيل ذلك على ضمير البشريَّة ليسهل عليهم قيادة هذه الرعاع من الشعوب اللاهثة وراء الجنس، المتحللة من كل القيود والقيم.

- من أكبر الآثار المدمرة لآراء فرويد، أنَّ الإنسان حين كان يقع في الإثم كان يشعر بالذنب وتأنيب الضمير، فجاء فرويد ليريحه من ذلك، ويوهمه بأنَّه يقوم بعملٍ طبيعيٍّ لا غبار عليه، وبالتالي فهو ليس بحاجة إلى توبة، وبذلك أضفى على الفساد صفة أخلاقيَّة إذا صحَّ التعبير.

- ألَّف نحو ثلاثين كتابًا في الدراسات النفسيَّة من أشهرها: الذات والذات السفلى والطواطم والمحرمات وتفسير الأحلام، وثلاث مقالات في النظريَّة الحسيَّة والأمراض النفسيَّة المنتشرة في الحياة اليوميَّة. وكلها تدور -من زوايا مختلفة- حول موضوع واحد مكرَّر فيها جميعًا هو التفسير الجنسيّ للسلوك البشريّ.

الانتشار ومواقع النفوذ

- بدأت هذه الحركة في فيينا، وانتقلت إلى سويسرا، ومن ثم عمَّت أوربا، وصارت لها مدارس في أمريكا.

- وقد حملت الأيام هذه النظريَّة إلى العالم كلِّه عن طريق الطلَّاب الذين يذهبون إلى هناك ويعودون لنشرها في بلادهم.

- تلاقي هذه الحركة اعتراضات قويَّة من عدد من علماء النفس الغربيِّين اليوم[١].

الداروينيَّة

التعريف:

تنتسب الحركة الفكريَّة الداروينيَّة إلى الباحث الإنجليزي شارلز دارون الذي نشر كتابه أصل الأنواع سنة ١٨٥٩م الذي طرح فيه نظريته في النشوء والارتقاء مما زعزع القيم الدينيَّة، وترك آثارًا سلبيَّة على الفكر العالميّ.

تاريخ الداروينيَّة

عرفت هذه الفكرة قبل دارون، فقد لاحظ العلماء راي، وباركنسون، ولينو: أنَّ الأنواع

---

(١) الموسوعة الميسرة (٢/ ٨٢٢- ٨٣١)، مذاهب فكرية معاصرة.

المتأخِّرة في الظهور أكثر رقيًا من الأنواع المتقدِّمة.

واستوحى دارون نظريته أيضًا من علم دراسة السكَّان، ومن نظرية مالتوس بالذات، فقد استفاد من قانونه في الانتخاب أو الانتقاء الذي يدور حول إفناء الطبيعة للضعفاء لمصلحة بقاء الأقوياء.

ففي رؤية مالتوس أنَّ العامل المؤثر الرئيسي الذي أبقى السُّكَّان تحت السَّيطرة هي الكوارث مثل: الحرب، والمجاعة، والمرض. ووفقًا لهذا الادعاء فإنَّ بعض النَّاس ينبغي عليهم أن يموتوا من أجل أن يعيش الآخرون، فقد جاء الوجود بقصد الحرب الدّائمة.

وقد تأثَّر دارون بهذه الأفكار، فعمم هذا الصراع على كلِّ الطبيعة، واقترح أنَّ الأصلح والأقوى ظهر منتصرًا من حرب الوجود هذه، وادَّعى أنَّ ما يسمَّى بالصَّراع من أجل البقاء كانت مبررة لقانون الطبيعة الثابت.

واستعان دارون أيضًا بأبحاث ليل الجيولوجيَّة حيث تمكَّن من صياغة نظريَّة ميكانيكيَّة للتطور.

وقد صادفت هذه النظريَّة جوًا مناسبًا إذ كان ميلادها بعد زوال سلطان الكنيسة والدين، وبعد الثورة الفرنسيَّة والثورة الصناعيَّة، حيث كانت النفوس مهيَّأة لتفسير الحياة تفسيرًا ماديًا بحتًا، ومستعدَّة لتقبل أي طرح فكريٍّ يقودها إلى مزيد من الإلحاد والبعد عن التفسيرات اللاهوتيَّة، مصيبة كانت أم مخطئة.

وشارلز دارون صاحب هذه المدرسة ولد في ١٢ فبراير ١٨٠٩م وهو باحثٌ إنجليزيٌّ نشر في سنة ١٨٥٩م كتابه أصل الأنواع، وقد ناقش فيه نظريته في النشوء والارتقاء معتبرًا أصل الحياة خلية كانت في مستنقع آسن قبل ملايين السنين. وقد تطورت هذه الخليَّة ومرَّت بمراحل منها، مرحلة القرد، انتهاء بالإنسان، وهو بذلك ينسف الفكرة الدينيَّة التي تجعل الإنسان منتسبًا إلى آدم وحواء ابتداء.

وقد جاء بعده علماء تمسَّكوا بنظريته جدًّا، منهم:

- آرثر كيت: دارويني متعصب، يعترف بأنَّ هذه النظريَّة لا تزال حتى الآن بدون براهين، فيضطر إلى كتابتها من جديد وهو يقول: إنَّ نظرية النشوء والارتقاء ما زالت بدون براهين، وستظل كذلك، والسبب الوحيد في أننا نؤمن بها هو أنَّ البديل الوحيد الممكن لها هو الإيمان بالخلق المباشر وهذا غير وارد على الإطلاق.

- جليان هكسلي: دارويني ملحد، ظهر في القرن العشرين، وهو الذي يقول عن النظريَّة: هكذا يضع علم الحياة الإنسان في مركز مماثل لما أنعم به عليه كسيد للمخلوقات كما تقول الأديان.

ويقول: من المسلَّم به أنَّ الإنسان في الوقت الحاضر سيِّد المخلوقات، ولكن قد تحلُّ محله القطَّة أو الفأر.

ويزعم أنَّ الإنسان قد اختلق فكرة الله إبان عصر عجزه وجهله، أمَّا الآن فقد تعلَّم وسيطر على الطبيعة بنفسه، ولم يعد بحاجة إليه، فهو العابد والمعبود في آنٍ واحدٍ. يقول: بعد نظريَّة دارون لم يبق الإنسان يستطيع تجنُّب اعتبار نفسه حيوانًا.

- ليكونت دي نوى: من أشهر التطوريين المحدثين، وهو في الحقيقة صاحب نظريَّة تطوريَّة مستقلَّة.

- د.هـ. سكوت: دارويني شديد التعصُّب، يقول: إنَّ نظريَّة النشوء جاءت لتبقى، ولا يمكن أنَّ نتخلَّ عنها حتَّى لو أصبحت عملًا من أعمال الاعتقاد.

- برتراند راسل: فيلسوف ملحد، يشيد بالأثر الدارويني مركزًا على الناحية الميكانيكيَّة في النظريَّة، فيقول: إنَّ الذي فعله جاليليو ونيوتن من أجلّ الفلك فعله دارون من أجل علم الحياة.

أفكار الداروينيَّة

نظرية دارون تدور حول عدة أفكار وافتراضات، هي:

- تفترض النظريَّة تطور الحياة في الكائنات العضويَّة من السهولة وعدم التعقيد إلى الدقَّة والتعقيد.

- تتدرج هذه الكائنات من الأحطّ إلى الأرق.

- الطبيعة وهبت الأنواع القويَّة عوامل البقاء والنمو والتكيف مع البيئة لتصارع الكوارث وتتدرج في سلم الرقيِّ مما يؤدِّي إلى تحسُّن نوعي مستمر ينتج عنه أنواع راقية جديدة كالقرد، وأنواع أرق تتجلى في الإنسان، بينما نجد أنَّ الطبيعة قد سلبت تلك القدرة من الأنواع الضعيفة فتعثرت وسقطت وزالت. وقد استمدَّ دارون نظريته هذه من قانون الانتقاء الطبيعي لمالتوس.

- الفروق الفرديَّة داخل النوع الواحد تنتج أنواعًا جديدة مع مرور الأحقاب الطويلة.

- الطبيعة تعطي وتحرِّم بدون خطة مرسومة، بل خبط عشواء، وخط التطور ذاته متعرج ومضطرب لا يسير على قاعدة مطَّردة منطقيَّة.

- النظريَّة في جوهرها فرضيَّة بيولوجيَّة أبعد ما تكون عن النظريات الفلسفيَّة.

- تفترض النظريَّة أنَّ كلَّ مرحلة من مراحل التطور أعقبت التي قبلها بطريقة حتميَّة، أي أن العوامل الخارجيَّة هي التي تحدد نوعيَّة هذه المرحلة، أما خط سيرها ذاته بمراحله جميعها فهو خطٌّ مضطرب لا يسعى إلى غاية مرسومة أو هدف بعيد؛ لأنَّ الطبيعة التي أوجدته غير عاقلة ولا واعية، بل إنَّها تتخبط خبط عشواء.

- اقترح دارون أنَّ المعركة من أجل البقاء انطبقت أيضًا بين السلالات البشريَّة. وطبقًا لهذا الادعاء، كانت السلالات المفضَّلة هي المنتصرة في الصّراع. والسلالات المفضَّلة، في وجهة نظر دارون، هم الأوربيُّون البيض. أمَّا السلالات الإفريقيَّة أو الآسيويَّة فقد تخلَّفت في الصّراع؛ بل

ذهب دارون إلى مدى أبعد، واقترح أنَّ هذه السلالات قريبًا ستفقد كليًّة في الصّراع من أجل البقاء، وبالتالي سيختفون في بعض الفترات المستقبليَّة، وهو يعتبر قصيرًا في مقياس القرون، إنَّ الأجناس المتحضِّرة الإنسانيَّة ستفنى، ويحلُّ محلها في أرجاء العالم السلالات البدائيَّة. وفي نفس الوقت، فإنَّ القرود المجسّمة في شكل الإنسان ستفنى. وستتسع والفجوة بين الإنسان وأقرب حلفائه.

الآثار التي تركتها نظريَّة دارون

- قبل ظهور النظريَّة كان الناس يدعون إلى حريَّة الاعتقاد بسبب الثورة الفرنسيَّة، ولكنهم بعدها أعلنوا إلحادهم الذي انتشر بطريقة عجيبة وانتقل من أوربا إلى بقاع العالم.

- لم يعد هناك أي معنى لمدلول كلمة: آدم، وحواء، الجنَّة، الشجرة التي أكل منها آدم وحواء، الخطيئة (حسب اعتقاد النصارى بأنَّ المسيح قد صلب ليخلص البشريَّة من أغلال الخطيئة الموروثة التي ظلت ترزح تحتها من وقت آدم إلى حين صلبه).

- سيطرة الأفكار الماديَّة على عقول الطبقة المثقفة، وأوحت كذلك بماديَّة الإنسان وخضوعه لقوانين المادَّة.

- تخلَّت جموع غفيرة من الناس عن إيمانها بالله تخليًا تامًا أو شبه تامٌ.

- عبادة الطبيعة، فقد قال دارون: «الطبيعة تخلق كلّ شيء ولا حد لقدرتها على الخلق». ولكن لم يبين ما هي الطبيعة وما الفرق بين الاعتقاد بوجود الله الخالق ووجود الطبيعة؟

وقال: إنَّ تفسير النشوء والارتقاء بتدخُّل الله هو بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة في وضع ميكانيكي بحت.

- لم يعد هناك جدوى من البحث في الغاية والهدف من وجود الإنسان لأنَّ دارون قد جعل بين الإنسان والقرد نسبًا، بل زعم أنَّ الجدَّ الحقيقيَّ للإنسان هو خلية صغيرة عاشت في مستنقع راكد قبل ملايين السنين.

- أهملت العلوم الغربيَّة بجملتها فكرة الغائيَّة بحجَّة أنَّها لا تهم الباحث العلمي ولا تقع في دائرة علمه.

- استبد بالناس شعور باليأس والقنوط والضياع، وظهرت أجيال حائرة مضطربة ذات خواء روحي، حتى إنَّ القرد -جدهم المزعوم- أسعد حالًا من كثير منهم.

- طغت على الحياة فوضى عقائديَّة، وأصبح هذا العصر عصر القلق والضياع.

- فرضت العنصريَّة على العلوم الاجتماعيَّة، فنظريَّة دارون البقاء للأصلح وجدت ترحيبًا شديدًا في هذا العصر من قبل العلماء الاجتماعيِّين، واعتقدوا أنَّ البشريَّة قد حقَّقت مستويات متنوعة من التطور تتوجت في حضارة الرّجل الأبيض. وفي النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر

قُبِلَت العنصريَّة كحقيقة عن طريق الأغلبيَّة العظمى للعلماء الغربيِّين.

- (فكرة التطور) أوحت بحيوانيَّة الإنسان، و(تفسير عمليَّة التطور) أوحت بماديَّته.

- نظريَّة التطور البيولوجيَّة انتقلت لتكون فكرة فلسفيَّة داعية إلى التطور المطلق في كلِّ شيء، تطور لا غاية له ولا حدود، وانعكس ذلك على الدين والقيم والتقاليد، وساد الاعتقاد بأنَّ كلَّ عقيدةٍ أو نظامٍ أو خلقٍ هو أفضل وأكمل من غيره، ما دام تاليًا له في الوجود الزمنيِّ.

دور نظريَّة دارون في النظريَّات الأخرى:

- كانت نظريَّة دارون إيذانًا لميلاد نظريَّة فرويد في التحليل النفسي، ونظريَّة برجسون في الروحيَّة الحديثة، ونظريَّة سارتر في الوجوديَّة، ونظريَّة ماركس في الماديَّة، وقد استفادت هذه النظريات جميعًا من الأساس الذي وضعه دارون واعتمدت عليه في منطلقاتها وتفسيراتها للإنسان والحياة والسلوك.

- استمد ماركس من نظريَّة دارون ماديَّة الإنسان، وجعل مطلبه في الحياة ينحصر في الحصول على (الغذاء والسكن والجنس)، مهملًا بذلك جميع العوامل الروحيَّة لديه.

- استمد فرويد من نظرية دارون حيوانيَّة الإنسان، فالإنسان عنده حيوان جنسيّ، لا يملك إلا الانصياع لأوامر الغريزة، وإلا وقع فريسة الكبت المدمر للأعصاب.

- والتطور عند فرويد أصبح مفسِّرًا للدين تفسيرًا جنسيًّا: «الدين هو الشعور بالندم من قتل الأولاد لأبيهم الذي حرمهم من الاستمتاع بأمهم ثم صار عبادة للأب، ثم عبادة الطوطم، ثم عبادة القوى الخفيَّة في صورة الدين السماويّ، وكل الأدوار تنبع وترتكز على عقدة أوديب».

- استمد دوركايم من نظرية دارون حيوانيَّة الإنسان وماديته وجمع بينهما بنظرية العقل الجمعي.

- استفاد برتراند راسل من ذلك بتفسيره لتطور الأخلاق الذي تطور عنده من المحرم (التابو) إلى أخلاق الطاعة الإلهيَّة، ومن ثم إلى أخلاق المجتمع العلمي.

دور الدّارونيَّة في التهيئة الأساسيَّة للحرب العالميَّة:

عندما سيطرت الدَّارونيَّة على الثّقافة الأوربيَّة، بدأت آثار الصّراع من أجل البقاء في الظّهور. فبدأت -خاصة- الدّول الأوربيَّة الاستعماريَّة في تصوير الدّول التي استعمروها كدول نامية ارتقائيَّة واعتمدوا على الدَّارونيَّة لتبرير ذلك. وكان الأثر السّياسيُّ الأكثر دمويَّة للدَّارونيَّة هو نشوب الحرب العالميَّة الأولى في عام ١٩١٤ م.

يشرح الأستاذ المؤرخ البريطانيُّ المعروف جيمس في كتابه «أوربًا منذ ١٨٧٠»، أنَّ أحد العوامل التي هيَّأت الأرضيَّة للحرب العالميَّة الأولى كان إيمان الحكَّام الأوربيِّين في ذاك الوقت بالدَّارونيَّة. فعلى سبيل المثال، رئيس أركان أوسترو-هنجريا، كتب في مذكُّراته ما بعد الحرب: إنَّ الدِّيانات الإنسانيَّة، والتّعاليم الأخلاقيَّة، والمذاهب الفلسفيَّة قد تؤدِّي أحيانًا إلى إضعاف صراع بقاء

البشريَّة في شكلها القاسي، لكنَّهم لن ينجحوا في إزالته كمحرك محفز للعالم، إنَّه يتوافق مع هذا المبدأ العظيم، إنَّ كارثة الحرب العالميَّة حدثت كنتيجة للقوى المحفزة في حياة الدول والشُّعوب، كالعاصفة الرعديَّة التي يجب أن تفرغ شحناتها بذاتها.

وفي عام ١٩١٤م كتب كورت ريزلر، السّكرتير الخاصّ لفون ثيوبالد وصديق المستشار الألمانيّ بيثمان- هوللويج: العداوة الأبديَّة المطلقة ملازمة أساسًا للعلاقات بين الشعوب، والعداء الذي نلاحظه في كلّ مكان ليس نتيجة لفساد الطبيعة الإنسانيَّة ولكنَّه جوهر العالم ومنبع الحياة نفسه.

وعمل جنرال الحرب العالميَّة الأولى، بيرناردي فون فريدريش، علاقةً متشابهةً بين الحرب وقوانين الحرب في الطّبيعة، إذ أعلن بيرناردي أنَّ الحرب حاجة بيولوجيَّة، وإنَّها بمثل ضرورة صراع عناصر الطبيعة، وبما أنَّ قراراته تستند على طبيعة الأشياء، فإنَّه فقط يعطي قرارًا بيولوجيًّا.

وكما رأينا، اندلعت الحرب العالميَّة الأولى بسبب أنَّ المفكّرين الأوربّيّين، والجنرالات والمسئولين الذين شاهدوا الحرب، وإراقة الدّماء، والمعاناة اعتبروا ذلك نوعًا من «التطور»، واعتقدوا أنَّهم لم يغيروا «قانون الطبيعة». فالأصل الأيديولوجيّ الذي جرَّ كلَّ ذلك الجيل إلى الدّمار لم تكن سوى مفاهيم دارون للصّراع من أجل الحياة والسلالات المفضَّلة.

وخلفت الحرب العالميَّة الأولى ثمانية ملايين قتيلًا، ومئات من المدن المدمّرة، وملايين من الجرحى، والمقعدين، والمشردين، والعاطلين.

والسّبب الرئيسي للحرب العالميّة الثّانية والتي اندلعت بعد ٢١ سنة وخلفت ٥٥ مليونًا قتيلًا، كان أيضًا مبنيًا على أساس الدّاروينيَّة، ففي القرن التاسع عشر غذت النَّازيَّة الدّاروينيَّة العنصريَّة، وشكَّلت القاعدة الإيديولوجيَّة التي ستطوّر وتغرق العالم في مستنقع من الدّم خلال قرن العشرين، فهتلر عندما سمى كتابه (كفاحي)، والذي يتكلَّم عن الصّراع خصوصًا بين السلالات، كان ملهمًا بالصراع الدَّاروينيّ من أجل البقاء، ومبدأ أن النّصر للأصلح: في الألفيَّة الجديدة سيبلغ التاريخ الذروة في روعة فريدة للإمبراطوريَّة، وذلك على أساس سلسلة عرقيَّة جديدة.

أعلن هتلر، في اجتماع حزب نريمبيرج سنة ١٩٣٣م، أنَّ موضوعات الجنس الأعلى بنفسه جنس أقلّ، . . . ، الحقّ ما نراه في الطّبيعة هو الحقّ الوحيد الذي يمكن أن يتصور.

ويصف المؤرّخ هيكمان تأثير الدَّاروينيَّة على هتلر: كان هتلر مؤمن للغاية بالتطور وداعيًا إليه، وبغض النظر عن عمق، وتعقيدات هوسه، فإنَّه من المؤكد أنَّ. كتابه، (Mein Kampf)، وضع بوضوح عددًا من الأفكار الارتقائيَّة، خصوصًا تلك التي تؤكد الصّراع، والبقاء للأصلح والإبادة للأضعف وذلك لإنتاج مجتمع أفضل.

دور اليهود والقوى الهدَّامة في نشر هذه النظريَّة:

- لم يكن دارون يهوديًا، بل كان نصرانيًا، ولكن اليهود والقوى الهدَّامة وجدوا في هذه النظريَّة ضالتهم المنشودة، فعملوا على استغلالهم لتحطيم القيم في حياة الناس.

- تقول بروتوكولات حكماء صهيون: «لا تتصوروا أنَّ تصريحاتنا كلمات جوفاء ولاحظوا هنا أنّ نجاح دارون وماركس ونيتشه قد رتبناه من قبل، والأثر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي سيكون واضحًا لنا على التأكيد».

نقد نظريَّة دارون

- نقدها آغاسيرز في إنجلترا، وأوين في أمريكا: إنَّ الأفكار الداروينيَّة مجرد خُرافة علميَّة وأنَّها سوف تنسى بسرعة. ونقدها كذلك العالم الفلكي هرشل ومعظم أساتذة الجامعات في القرن الماضي.

- كريسي موريسون: إنَّ القائلين بنظريَّة التطور لم يكونوا يعلمون شيئًا عن وحدات الوراثة (الجينات) وقد وقفوا في مكانهم حيث يبدأ التطور حقًّا، أعني عند الخليَّة.

- أنتوني ستاندن صاحب كتاب العلم بقرة مقدَّسة، يناقش الحلقة المفقودة وهي ثغرة عجز الداروينيُّون عن سدّها فيقول: إنَّه لأقرب من الحقيقة أن تقول: إنَّ جزءًا كبيرًا من السلسلة مفقودة وليس حلقة واحدة، بل إنَّنا لنشك في وجود السلسلة ذاتها.

- ستيوارت تشيس: أيَّد علماء الأحياء جزئيًّا قصَّة آدم وحواء كما ترويها الأديان . . . ، وأنَّ الفكرة صحيحة في مجملها.

- أوستن كلارك: لا توجد علامة واحدة تحمل على الاعتقاد بأنَّ أيًّا من المراتب الحيوانيَّة الكبرى ينحدر من غيرها، إنَّ كل مرحلة لها وجودها المتميز الناتج عن عمليَّة خلق خاصة متميِّزة، لقد ظهر الإنسان على الأرض فجأةً، وفي الشكل نفسه الذي تراه عليه الآن.

- ليكونت دي نوي: أمَّا تطور الكائنات الحية بجملتها فإنَّه يناقض علم المادة الجامدة تناقضًا تامًّا، وهو يتنافي مع المبدأ الثاني من مبادئ علم القوة الحراريَّة، وهو حجر الزاوية في علمنا المرتكز على قوانين المصادفة، فلا سبب التطور ولا حقيقته يدخلان في نطاق علمنا الحاضر، وليس من عالم يستطيع إنكار ذلك.

- وتقول مجلة العلوم المصورة: إنَّ العلم يؤيِّد قصَّة آدم وحواء إلى حد ما، إننا نعترف بحقيقة فكرة الأسرة البشريَّة ذات الأصل الواحد.

- أبطل باستور أسطورة التوالد الذاتي، وكانت أبحاثه ضربة قاسية لنظرية دارون.

- أنَّ نظريَّة دارون دخلت مُتْحَف النسيان بعد كشف النقاب عن قانون مندل الوراثي، واكتشاف وحدات الوراثة (الجينات) باعتباره الشفرة السريَّة للخلق، واعتبار أنَّ الكروموسومات تحمل صفات الإنسان الكاملة وتحفظ الشبه الكامل للنوع.

- يرى المنصفون من العلماء أنَّ وجود تشابه بين الكائنات الحيَّة دليل واضح ضد النظريَّة لأنَّه يوحي بأنَّ الخالق واحد ولا يوحى بوحدة الأصل.

- أثبت العلم القائم على التجربة بطلان النظريَّة بأدلة قاطعة وإنَّها ليست نظريَّة علميَّة على الإطلاق.

- تقوم النظريَّة على أصلين كلٌ منهما مستقلٌ عن الآخر:

١- المخلوقات الحيَّة وجدت في مراحل تاريخيَّة متدرجة ولم توجد دفعة واحدة، وهذا الأصل من الممكن البرهنة عليه.

٢- هذه المخلوقات متسلسلة وراثيًا ينتج بعضها عن بعض بطريقة التعاقب خلال عملية التطور البطيئة الطويلة. وهذا الأصل لم يتمكنوا من البرهنة عليه حتى الآن لوجود حلقة أو حلقات مفقودة في سلسلة التطور الذي يزعمونه.

والذي عملته الداروينيَّة: أنَّها دمجت بين الأصلين، وجمعت شواهد ودلائل الأصل الأول لتؤيد بها الثاني. وهذا اللبس غير العلمي هو الذي أغرى بعض العلماء بقبول النظريَّة وأضفى عليها المسحة (العلميَّة)، مع أن هذه المسحة يصح أن تضفى على الأصل الأول، ولكن إضفاءها على الثاني خطأ محض، إذ من المعلوم بديهيًا أن الترتيب التاريخي للوجود لا يستلزم التسلسل الوراثي، بل إنَّ العقل ليؤكد ما هو أبعد من ذلك، وهو أنَّ الترتيب المنطقي لا يستلزم الترتيب التاريخي، فالترتيب المنطقي للكائنات الحية هو -تصاعديًا- النبات ثم الحيوان ثم الإنسان، وليس في هذا الترتيب ما يدل على أنَّ الوجود التاريخي لهذه الأجناس وقع بهذا الترتيب، بل نحتاج في إثبات ذلك إلى دليلٍ خارجيٍّ، وذلك يشبه تمامًا الترتيب المنطقي للأعداد: (١، ٢، ٣، ٤) وبديهي أنَّها ليس لها ترتيب تاريخي ولا يوجد بينها علاقة وراثيَّة.

الداروينيَّة الحديثة

اضطرب أصحاب الداروينيَّة الحديثة أمام النقد العلمي الذي وجه إلى النظريَّة، ولم يستطيعوا أمام ضعفها إلا أن يخرجوا بأفكار جديدة تدعيمًا لها وتدليلًا على تعصبهم الشديد حيالها، فأجروا سلسلة من التبديلات، منها:

- إقرارهم بأنَّ قانون الارتقاء الطبيعي قاصر عن تفسير عملية التطور واستبدلوا به قانونًا جديدًا أسموه: قانون التحولات المفاجئة أو الطفرات، وخرجوا بفكرة المصادفة.

- أرغموا على الاعتراف بأن هناك أصولًا عدة تفرعت عنها كل الأنواع، وليس أصلًا واحدًا كما كان سائدًا في الاعتقاد.

- أجبروا على الإقرار بتفرد الإنسان بيولوجيا رغم التشابه الظاهري بينه وبين القرد، وهي النقطة التي سقط منها دارون ومعاصروه.

- كل ما جاء به أصحاب الداروينيَّة الحديثة ما هو إلا أفكار ونظريات هزيلة أعجز من أن تستطيع تفسير النظام الحياتي والكوني الذي يسير بدقة متناهية بتدبير الحكيم.

الانتشار ومواقع النفوذ

- بدأت الداروينيَّة سنة ١٨٥٩م، وانتشرت في أوربَّا، وانتقلت بعدها إلى جميع بقاع العالم، ولا تزال هذه النظريَّة تدرَّس في كثير من الجامعات العالميَّة، كما أنَّها قد وجدت أتباعًا لها في العالم الإسلامي بين الذين تربّوا تربية غربيَّة، ودرسوا في جامعات أوربيَّة وأمريكيَّة.

- والواقع أنَّ تأثير نظريَّة دارون قد شمل معظم بلدان العالم، كما شمل معظم فروع المعرفة الإنسانيَّة من علميَّة وأدبيَّة وغيرها. ولم يوجد في التاريخ البشري نظريَّة باطلة صبغت مناحي الفكر الغربي كما فعلت نظريَّة النشوء والارتقاء الداروينيَّة[١].

الشيوعيَّة

التعريف:

الشيوعيَّة مذهب فكريٌّ يقوم على الإلحاد، وأنَّ المادة هي أساس كلِّ شيءٍ، ويفسر التاريخ بصراع الطبقات وبالعامل الاقتصاديّ.

وهي تصوُّر شامل للكون والحياة والإنسان وللألوهيَّة، وعن هذا التصوّر الشامل ينبثق المذهب الاقتصاديّ. ثمَّ إنَّها من جهة أخرى مذهب اقتصاديٌّ واجتماعيٌّ وسياسيٌّ وفكريٌّ مترابطٌ متشابك لا يمكن فصل بعضه عن بعض.

وهم يسمّون نظريتهم العامة: المادّيَّة الجدليَّة، ويسمّون تفسيرهم للتاريخ: التفسير المادّيّ للتاريخ، ومن أقوالهم: لا إله والكون مادة. وحدة العالم تنحصر في ماديته. المادة سابقة في الوجود على الفكر. لم يكن هناك وقت لم تكن المادة موجودة فيه، وليس هناك وقت لا تكون المادة موجودة فيه. الإنسان نتاج المادة. الفكر نتاج الدماغ والدماغ مادة... إلخ.

ظهرت في ألمانيا على يد ماركس وإنجلز، وتجسَّدت في الثورة البلشفيَّة التي ظهرت في روسيا سنة ١٩١٧م بتخطيط من اليهود، وتوسَّعت على حساب غيرها بالحديد والنار. وقد تضرر المسلمون منها كثيرًا، وهناك شعوب محيت بسببها من التاريخ، ولكن الشيوعيَّة أصبحت الآن في ذمة التاريخ، بعد أن تخلَّى عنها الاتحاد السوفيتي، الذي تفكك بدوره إلى دول مستقلَّة، تخلت كلّها عن الماركسيَّة، واعتبرتها نظريَّة غير قابلة للتطبيق.

تاريخ الشيوعيَّة

استقى ماركس فكرة الشيوعيَّة من ثلاثة منابع: المادّيَّة من كومت، والجدليَّة من هيجل، والتطور من دارون.

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٩٣٢)، العلمانية نشأتها وتطورها، الأصل الأيديولوجي الحقيقي للإرهاب، الداروينية والمادية، هارون يحيى.

كان الفكر الأوربيُّ في فترة المسيحيَّة الكنسيَّة قائمًا على أصول دينيَّة -مع ما وقع فيها من تحريفٍ عن الأصل الصحيح- أي أنَّ مصدرها في حسهم هو الله والوحي الربانيّ، ثم إنَّ هذا الفكر كان متَّجهًا إلى الآخرة على أساس أنَّ الخلاص الحقيقيَّ هناك، وأنَّه لا خلاص في الحياة الدنيا.

أمَّا فكر النهضة فقد كان إنسانيًا من جهة، وموجهًا إلى الحياة الدنيا من جهة أخرى؛ إنسانيّ بمعنى أنَّ الإنسان وليس الله هو الذي ينبغي أن يكونَ مصدر المعرفة، وأنَّ الفكر الإنسانيَّ لا الوحي الربانيّ هو المرجع الذي يرجع إليه الإنسان في النظر إلى أمور حياته ومتطلباتها. وفى والوقت ذاته كان هذا الفكر موجَّهًا إلى النظر في الحياة الدنيا ومقتضياتها لا إلى الآخرة ومقتضياتها.

وكان التقدُّم العلميُّ الذي حدث منذ بدء النهضة أحدَ العوامل الهامَّة التي ساعدت على اتجاه الفكر الأوربيِّ ذلك الاتجاه من خلال المذهب العقليِّ والتجريبيِّ.

ثم كان نيوتن ونظرياته خطوة دافعة على الطريق، فقد اكتشف نيوتن بعض قوانين الطبيعة، التي يجرى الكون المادِّيُّ بمقتضاها. وكشف عمَّا يسمَّى قانون السببيَّة، أي القانون الذي يفسِّر ظواهر الطبيعة بردها إلى أسبابها الظاهرة. وقد كان هذا في أوربَّا ذريعة لنفى الأسباب غير الظاهرة وغير المحسوسة، أي نفى الأسباب الغيبية.

وفي القرن التاسع عشر ظهرت الفلسفة الوضعيَّة التي تقول بسيادة الطبيعة على الدين والعقل، واعتبارها هي الأصل الذي ينبثق عنه كل شيء، والذي يبعث الأفكار في العقل البشري، وكان من أهم فلاسفتها: أوجست كومت (مدرسة الحسيَّة الوضعيَّة)، وفرباخ (مدرسته في الفلسفة الإنسانيَّة الطبيعيَّة).

ومن جهة أخرى فإنَّ المنطق اليونانيَّ القديم -الذي يسمّى المنطق الصوريّ- ينفي وجود التناقض في الكون والحياة، ويقيم تفكيره على أساس أنَّ الشيء ونقيضه لا يمكن أن يجتمعا، فوجود أي شيء هو ذاته نفي قاطع لوجود نقيضه. وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي -عصر سيادة العقل في الفكر الأوربي المسمَّى عندهم بعصر التنوير- قام فلاسفة يشيرون إلى وجود التناقض في الكون والحياة ويحاولون تفسيره، من أبرزهم: فيشته، وهيجل (مدرسة العقليَّة المثاليَّة).

فأمَّا فيشته ١٧٦٢- ١٨١٤م فقد استخدم مبدأ النقيض كي يدعم سيادة العقل كمصدر للمعرفة مقابل الدين والطبيعة. وأمَّا هيجل ١٧٧٠- ١٨٣١م فيستخدم مبدأ النقيض لتأكيد قيمة العقل من جهة، ثم لدعم فكرة الألوهيَّة من جديد، وتأكيد الوحي كمصدر أخير للمعرفة، يعتبر الله سبحانه عقلًا.

ثم جاء دارون يؤله الطبيعة ويقول عنها إنَّها تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق، ويؤكد أنَّ الإنسان هو نهاية سلسلة التطور الحيوانيَّة، وأنَّ التطور ذاته -الذي أنشأ الحياة المادِّيَّة الميتة أول

مرة، ثم تدَّرج بها من الكائن الوحيد الخلية إلى الإنسان- هو نتيجة أسباب ماديَّة بحتة، وأنَّه يتم مستقلًا عن إرادة الكائن الحي، وبصورة حتميَّة لا يملك الكائن الحي الخروج عليها ولا معارضتها ولا الوقوف في طريقها.

ثم عملت الشيوعيَّة على تجميع الأفكار السابقة والمعاصرة، وأنشأت فلسفة مترابطة متكاملة تشمل كلَّ القضايا المحيطة بالإنسان نحو غير مسبوق في الفكر الغربي. وقد وُضِعتْ أسسها الفكريَّة النظريَّة على يد كارل ماركس اليهودي الألماني ١٨١٨- ١٨٨٣م وهو حفيد الحاخام اليهودي المعروف مردخاي ماركس، وكارل ماركس شخص قصير النظر متقلب المزاج، حاقد على المجتمع، ماديّ النزعة، ومن مؤلفاته: البيان الشيوعي الذي صدر سنة ١٨٤٨م. رأس المال ظهر سنة ١٨٦٧م.

وصرح ماركس بأنَّه اتصل بفيلسوف الصهيونيَّة وواضع أساسها النظري موشيه هيس أستاذ هرتزل الزعيم الصهيوني الشهير.

وقد ساعد ماركس في التنظير للمذهب فردريك إنجلز ١٨٢٠- ١٨٩٥م وهو صديق كارل ماركس الحميم وقد ساعده في نشر المذهب كما أنَّه ظلَّ ينفق على ماركس وعائلته حتَّى مات، ومن مؤلفاته: أصل الأسرة. الثنائيَّة في الطبيعة. الاشتراكيَّة الخرافيَّة والاشتراكيَّة العلميَّة.

ثم وضعت الشيوعيَّة موضع التنفيذ في الثورة البلشفيَّة في روسيا سنة ١٩١٧م بقيادة لينين، واسمه الحقيقي فلاديمير أليتش بوليانوف ١٨٧٠- ١٩٢٤م، وهو قاسي القلب، مستبد برأيه، حاقد على البشريَّة، وهناك دراسات تقول بأنَّ لينين يهودي الأصل، وكان يحمل اسمًا يهوديًا، ثم تسمَّى باسمه الروسي الذي عرف به. وله كتب كثيرة وخطب ونشرات أهمُّها ما جمع في ما يسمَّى مجموعة المؤلفات الكبرى.

وتكوَّن المكتب السياسي الأوَّل للثورة البلشفيَّة من سبعة أشخاص كلُّهم يهود إلا واحدًا، وهذا يعكس مدى الارتباط بين الشيوعيَّة واليهوديَّة.

وكان ستالين واسمه الحقيقي جوزيف فاديونوفتش زوجًا شفلي ١٨٧٩-١٩٥٤م هو سكرتير الحزب الشيوعيّ ورئيسه بعد لينين، وقد اشتهر بالقسوة والجبروت والطغيان والدكتاتوريَّة وشدة الإصرار على رأيه، ويعتمد في تصفية خصومه على القتل والنفي، كما أثبتت تصرفاته أنَّه مستعدٌّ للتضحية بالشعب كلِّه في سبيل شخصه. وقد ناقشته زوجته مرة فقتلها.

ودبر ستالين اغتيال تروتسكي واسمه الحقيقي بروشتاين ١٨٧٩- ١٩٤٠م، وهو يهوديّ له مكانة هامَّة في الحزب، وقد تولى الشئون الخارجيَّة بعد الثورة ثم أسندت إليه شئون الحزب. ثم فصل من الحزب بتهمة العمل ضد مصلحة الحزب؛ ليخلو الجو لستالين الذي دبر اغتياله للخلاص منه نهائيًا.

ولم تستطع الشيوعيَّة إخفاء تواطئها مع اليهود وعملها لتحقيق أهدافهم، فقد صدر منذ الأسبوع الأوَّل للثورة قرار ذو شقين بحقِّ اليهود:

١- يعتبر عداء اليهود عداء للجنس السامي يعاقب عليه القانون.

٢- الاعتراف بحقِّ اليهود في إنشاء وطن قومي في فلسطين.

أفكار الشيوعيَّة

قامت الشيوعيَّة على أمور ثلاثة رئيسيَّة:

١- المادِّيَّة الجدليَّة: وهي تصور خاص لقضايا الألوهيَّة والكون والحياة والإنسان يقوم على أساس ماديٍّ بحت، على أساس أنَّ المادة هي الشيء الوحيد الأصيل في هذا الكون وهي أزليَّة أبديَّة، وأنَّ كل ما في الكون ومن فيه منبثق من المادَّة ومحكوم بقوانين المادَّة، ولا وجود له خارج نطاق المادَّة. كما يقوم هذا التصور من جهة أخرى على أساس وجود التناقض في طبيعة المادَّة، ومن ثم في كلِّ ما ينبثق عنها من مخلوقات ومن كيانات بما في ذلك الكيان الإنساني، فهو كيان مادي من جهة، ومحكوم بصراع المتناقضات من جهة أخرى.

٢- المادِّيَّة التاريخيَّة: وهي محاولة لتفسير التاريخ البشري على أسس المادِّيَّة؛ أي على أساس أنَّ المادة أزليَّة أبديَّة، وأنَّها هي الخالقة لكلِّ ما في الكون من مخلوقات، وأنَّ الإنسان نتاج المادَّة، والفكر نتاج المادَّة، وأنَّ قوانين المادَّة هي بذاتها التي تحكم حياة البشر الاجتماعيَّة، وأنَّ الوضع المادي والاقتصادي هو الذي يكيف شكل الحياة البشريَّة في أي وقت من أوقاتها وفي أي طور من أطوارها، وأنَّه هو الأصل الذي تنبثق منه الأفكار والمشاعر والمؤسسات والنظم التي ينشئها البشر في حياتهم، وأنَّه يأتي دائمًا سابقًا لها ولا تجيء هي سابقة له بحال من الأحوال، لأنَّ المادة تسبق الوعي ولا يمكن للوعي أن يسبق المادة؛ وأنَّ الوضع الماديَّ والاقتصاديَّ في تطوُّرٍ دائم، ومن ثم فإنَّ الأفكار والمشاعر والمؤسسات والنظم التي تنبثق عنه دائمة التطور كذلك، بحكم ارتباطها بالوضع الماديِّ والاقتصاديِّ وانبثاقها عنه.

٣- المذهب الاقتصاديُّ الشيوعيُّ مع الأوضاع السياسيَّة والاجتماعيَّة المصاحبة له: تقوم النظريَّة الشيوعيَّة الاقتصاديَّة على مجموعة من الأسس والمبادئ يمكن تلخيصها في النقاط الآتية: إلغاء الملكيَّة الفرديَّة إلغاء باتًّا وإحلال الملكيَّة الجماعيَّة بدلًا منها. إلغاء الطبقات بإقامة دكتاتوريَّة البروليتاريا وإبادة الطبقات الأخرى. كفالة الدولة لجميع المواطنين في مقابل تكليف القادرين منهم بالعمل رجالًا ونساء. المساواة في الأجور. إلغاء الدين. تطبيق مبدأ: من كل بحسب طاقته، ولكل بحسب حاجته. إلغاء الصراع من المجتمع البشري بإلغاء الباعث عليه وهو الملكيَّة الفرديَّة. إلغاء الحكومة في المستقبل، وإقامة مجتمع متعاون متعاطف بغير حكومة.

هذا بجانب الأفكار والمعتقدات الآتية:

- إنكار وجود الله تعالى وكلِّ الغيبيات، والقول بأنَّ المادة هي أساس كل شيء، وشعارهم: نؤمن بثلاثة: ماركس ولينين وستالين، ونكفر بثلاثة: الله، الدين، الملكيَّة الخاصة، عليهم من الله ما يستحقُّون.

- فسروا تاريخ البشرية بالصراع بين البرجوازيَّة والبروليتاريا (الرأسماليين والفقراء)، وينتهي هذا الصراع حسب زعمهم بدكتاتوريَّة البروليتاريا.

- يحاربون الأديان ويعتبرونها وسيلة لتخدير الشعوب، وخادمًا للرأسماليَّة والإمبريالية والاستغلال، مستثنين من ذلك اليهوديَّة لأنَّ اليهود شعب مظلوم يحتاج إلى دينه ليستعيد حقوقه المغتصبة!!

- يحاربون الملكيَّة الفرديَّة، ويقولون بشيوعيَّة الأموال وإلغاء الوراثة.

- تتركز اهتماماتهم في كلِّ ما يتعلق بالمادَّة وأساليب الإنتاج.

- إنَّ كل تغيير في العالم في نظرهم إنما هو نتيجة حتمية لتغيّر وسائل الإنتاج، وإنَّ الفكر والحضارة والثقافة هي وليدة التطور الاقتصادي.

- يقولون بأنَّ الأخلاق نسبيَّة وهي انعكاس لآله الإنتاج.

- يحكمون الشعوب بالحديد والنار ولا مجال لإعمال الفِكر، والغاية عندهم تبرر الوسيلة.

- يعتقدون بأنَّه لا آخرة ولا عقاب ولا ثواب في غير هذه الحياة الدنيا.

- يؤمنون بأزليَّة المادة، وأنَّ العوامل الاقتصاديَّة هي المحرك الأول للأفراد والجماعات.

- يقولون بدكتاتوريَّة الطبقة العاملة، ويبشرون بالحكومة العالمية.

- تؤمن الشيوعيَّة بالصراع والعنف، وتسعى لإثارة الحقد والضغينة بين العمال وأصحاب الأعمال.

- الدولة هي الحزب والحزب هو الدولة.

- تنكر الماركسيَّة الروابط الأسريَّة، وترى فيها دعامة للمجتمع البرجوازي، وبالتالي لا بد من أن تحلَّ محلها الفوضى الجنسيَّة.

- لا يحجمون عن أي عمل مهما كانت بشاعته في سبيل غايتهم، وهي أنَّ يصبح العالم شيوعيًا تحت سيطرتهم. قال لينين: إنَّ هلاك ثلاثة أرباع العالم ليس بشيء، إنَّما الشيء المهمُّ هو أن يصبح الربع الباقي شيوعيًا. وهذه القاعدة طبَّقوها في روسيا أيَّام الثورة وبعدها، وكذلك في الصِّين وغيرها، إذ أبيدت ملايين من البشر، كما أنَّ اكتساحهم لأفغانستان بعد أن اكتسحوا الجمهوريات الإسلاميَّة الأخرى كبُخارى وسمرقند وبلاد الشيشان والشركس، إنَّما ينضوي تحت تلك القاعدة االإجراميَّة.

- يهدمون المساجد ويحولونها إلى دور ترفيه ومراكز للحزب، ويمنعون المسلم إظهار شعائر دينيَّة، أمَّا اقتناء المصحف فهو جريمة يعاقب عليها بالسجن لمدة سنة كاملة.

- لقد كان توسعهم على حساب المسلمين، فكان أن احتلُّوا بلادهم، وأفنوا شعوبهم، وسرقوا ثرواتهم، واعتدوا على حرمة دينهم ومقدَّساتهم.

- يعتمدون على الغدر والخيانة والاغتيالات؛ لإزاحة الخصوم ولو كانوا من أعضاء الحزب.

الانتشار ومواقع النفوذ

- حكمت الشيوعيَّة عدة دول منها: الاتحاد السوفيتي، الصين، تشيكوسلوفاكيا، المجر، بلغاريا، بولندا، ألمانيا الشرقيَّة، رومانيا، يوغسلافيا، ألبانيا، كوبا، فيتنام.

ومعلوم أنَّ دخول الشيوعيَّة إلى هذه الدول كان بالقوة والنار والتسلط الاستعماري. ولذلك فإنَّ جل شعوب هذه الدول أصبحت تتململ بعد أن عرفت الشيوعيَّة على حقيقتها، وأنَّها ليست الفردوس الذي صور لهم، وبالتالي بدأت الانتفاضات والثورات تظهر هنا وهناك، كما حدث في بولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا، كما أنَّك لا تكاد تجد دولتين شيوعيتين في وئام دائم.

- أمَّا في العالم الإسلامي فقد استفاد الشيوعيون من جهل بعض الحكام وحرصهم على تدعيم كراسيهم، ولو على حساب الدين، إذ اكتسحت الشيوعيَّة أفغانستان وشردت شعبها المسلم كما تحكَّمت في بعض الدول الإسلاميَّة الأخرى بواسطة عملائها.

- تقوم الدول الشيوعيَّة بتوزيع ملايين الكتيِّبات والنشرات مجانًا في جميع أنحاء العالم داعية إلى مذهبها.

- أسست الشيوعيَّة أحزابًا لها في كل الدول العربيَّة والإسلاميَّة تقريبًا، فنجد لها أحزابًا في مصر، وسورية، ولبنان، وفلسطين، والأردن، وتونس، وغيرها.

- إنهم يؤمنون بالأممية، ويسعون لتحقيق حلمهم بالحكومة العالميَّة التي يبشرون بها.

انهيار الماركسية

- انهارت الشيوعيَّة في معاقلها بعد قرابة السبعين عامًا من قيام الحكم الشيوعي، وبعد أربعين عامًا من تطبيق أفكارها في أوربَّا الشرقيَّة، وأعلن كبار المسئولين في الاتحاد السوفيتي قبل تفككه أنَّ الكثير من المبادئ الماركسيَّة لم تعد صالحة للبقاء، وليس بمقدورها أن تواجه مشاكل ومتطلبات العصر مما تسبب في تخلف البلدان التي تطبق هذا النظام عن مثيلاتها الرأسماليَّة. وهكذا يتراجع دعاة الفكر الماديّ الشيوعيّ عن تطبيقه؛ لعدم واقعيته وتخلفه عن متابعة التطور الصناعيّ والعلميّ، وتسببه في تدهور الوضع الاقتصاديّ، وهدم العلاقات الاجتماعيَّة، وإشاعة البؤس والحرمان والظلم والفساد، ومصادمة الفطرة ومصادرة الحرِّيَّات ومحاربة الأديان. وقد تأكَّد بوضوح بعد التطبيق لهذه الفترة الطويلة أنَّ من عيوب الماركسيَّة أنَّها تمنع الملكيَّة الفرديَّة وتحاربها وتلغي الإرث الشرعيّ، وهذا مخالف للفطرة وطبائع الأشياء، ولا تعطي الحرِّيَّة للفرد في العمل وناتج العمل، ولا تقيم العدالة الاجتماعيَّة بين أفراد المجتمع، وأنَّ الشيوعيَّ يعمل لتحقيق مصلحته ولو هدم مصالح الآخرين، وينحصر خوفه في حدود رقابة السلطة وسوط القانون، وأنَّ الماركسيَّة تهدم أساس المجتمع وهو الأسرة فتقضي بذلك على العلاقات الاجتماعيَّة.

- اقتنع الجميع بأنَّها نظريَّة فاسدة يستحيل تطبيقها، إذ تحمل في ذاتها بذور فنائها. وقد ظهر لمن

مارسوها عدم واقعيتها وعدم إمكانيَّة تطبيقها، ومن أكبر ناقدي الماركسيَّة من الماركسيين أنفسهم الفيلسوف الأمريكي أريخ مزوم في كتابه المجتمع السليم، ومن غير الماركسيِّين كارل بوبر صاحب كتاب المجتمع المفتوح، وغيرهما، ويجيء جورباتشوف كتابه البيروسريكا أو إعادة البناء ليفضح عيوب تطبيق الشيوعيَّة في الاتحاد السوفيتي.

وتبيَّن بعد انهيارها أنَّها لم تفلح في القضاء على القوميَّات المتنافرة، بل زادتها اشتعالًا، ولم تسمح بقدر ولو ضئيل من الحرِّيَّة بل عمدت دائمًا إلى سياسة الظلم والقمع والنفي والقتل وحولت أتباعها إلى قطيع من البشر. وهكذا باءت جميع نبوءات كارل ماركس بالفشل، وأصبح مصير النظريَّة إلى مزبلة التاريخ، ثم انتهى الأمر بتفكك الاتحاد السوفيتي ذاته، وأصبح اسمه مجرد أثر في تاريخ المذاهب الهدامة[١].

الراسماليَّة

التعريف:

الرأسمالية نظامٌ اقتصاديٌّ ذو فلسفة اجتماعيَّة وسياسيَّة، يقوم على أساس إشباع حاجات الإنسان الضروريَّة والكماليَّة، وتنمية الملكيَّة الفرديَّة والمحافظة عليها، متوسِّعًا في مفهوم الحرِّيَّة، معتمدًا على سياسة فصل الدين نهائيًا عن الحياة. ولقد ذاق العلم بسببه ويلات كثيرة نتيجة إصراره على كون المنفعة واللَّذَّة هما أقصى ما يمكن تحقيقه من السعادة للإنسان. وما تزال الرأسماليَّة تمارس ضغوطها وتدخلها السياسي والاجتماعي والثقافي وترمي بثقلها على مختلف شعوب الأرض.

تاريخ الرأسماليَّة

- كانت أوربًا محكومة بنظام الإمبراطوريَّة الرومانيَّة التي ورثها النظام الإقطاعيّ.

- لقد ظهرت ما بين القرن الرابع عشر والسادس عشر الطبقة البرجوازيَّة تالية لمرحلة الإقطاع ومتداخلة معها.

- تلت مرحلةَ البرجوازيَّة مرحلةُ الرأسماليَّة وذلك منذ بداية القرن السادس عشر ولكن بشكل متدرج.

- فقد ظهرت أولًا الدَّعوة إلى الحرِّيَّة وكذلك الدعوة إلى إنشاء القوميَّات اللادينيَّة.

- ظهر المذهب الحرّ (الطبيعي) في النِّصف الثاني من القرن الثامن عشر في فرنسا حيث ظهر الطبيعيُّون ومن أشهر دعاة هذا المذهب:

- فرنسوا كنزني ١٦٩٤- ١٧٧٨م ولد في فرساي بفرنسا، وعمل طبيبًا في بلاط لويس الخامس عشر، لكنَّه اهتم بالاقتصاد وأسس المذهب الطبيعي، فلقد نشر في سنة ١٧٥٦م مقالين عن

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٩١٩- ٩٢٤)، مذاهب فكرية معاصرة.

الفلاحين وعن الجنوب، ثم أصدر في سنة ١٧٥٨م الجدول الاقتصادي، وشبَّه فيه تداول المال داخل الجماعة بالدورة الدمويَّة.

وقد قال ميرابو حينذاك عن هذا الجدول بأنَّه: يوجد في العالم ثلاثة اختراعات عظيمة هي الكتابة والنقود والجدول الاقتصادي.

- جول لوك ١٦٣٢- ١٧٠٤م صاغ النظريَّة الطبيعيَّة الحرة إذ يقول عن الملكيَّة الفرديَّة: وهذه الملكيَّة حق من حقوق الطبيعة، وغريزة تنشأ مع نشأة الإنسان، فليس لأحد أن يعارض هذه الغريزة.

- ومن ممثلي هذا الاتجاه أيضًا تورجو، وميرابو، وجان باتست ساي، وباستيا.

- ظهر بعد ذلك المذهب الكلاسيكي الذي تبلورت أفكاره على أيدي عدد من المفكرين من أبرزهم:

- آدم سميث ١٧٢٣- ١٧٩٠م وهو أشهر الكلاسيكيِّين على الإطلاق، ولد في مدينة كيركالدي في اسكوتلنده، ودرس الفلسفة، وكان أستاذًا لعلم المنطق في جامعة جلاسجو. سافر إلى فرنسا سنة ١٧٦٦م والتقى هناك بأصحاب المذهب الحرّ. وفي سنة ١٧٧٦م أصدر كتابه بحث في طبيعة وأسباب ثروة الأمم، هذا الكتاب الذي قال عنه أحد النُّقَّاد وهو أدمون برك: إنَّه أعظم مؤلف خطه قلم إنسان.

- دافيد ريكاردو ١٧٧٢- ١٨٢٣م قام بشرح قوانين توزيع الدخل في الاقتصاد الرأسماليّ، وله النظريَّة المعروفة باسم قانون تناقص الغلة. ويقال بأنَّه كان ذا اتِّجاهٍ فلسفيٍّ ممتزج بالدوافع الأخلاقيَّة لقوله: إنَّ أيَّ عملٍ يعتبر منافيًا للأخلاق ما لم يصدر عن شعور بالمحبَّة للآخرين.

- جون استيوارت مل ١٨٠٦- ١٨٧٣م يعدُّ حلقة اتصال بين المذهب الفرديِّ والمذهب الاشتراكيِّ، فقد نشر سنة ١٨٣٦م كتابه مبادئ الاقتصاد السياسيِّ.

- اللورد كينز ١٨٨٣- ١٩٤٦م صاحب النظريَّة التي عرفت باسمه التي تدور حول البطالة والتشغيل، وقد تجاوزت غيرها من النظريات إذ يرجع إليه الفضل في تحقيق التشغيل الكامل للقوة العاملة في المجتمع الرأسماليّ. وقد ذكر نظريته هذه ضمن كتابه النظريَّة العامة في التشغيل والفائدة والنقود الذي نشره سنة ١٩٣٦م.

- دافيد هيوم ١٧١١ - ١٧٧٦م صاحب نظريَّة النفعيَّة Pragmatism التي وضعها بشكل متكامل والتي تقول بأنَّ «الملكيَّة الخاصَّة تقليد اتَّبعه الناس وينبغي عليهم أن يتَّبعوه لأنَّ في ذلك منفعتهم».

- أدمون برك من المدافعين عن الملكيَّة الخاصَّة على أساس النظريَّة التاريخيَّة أو نظريَّة تقادم الملكيَّة.

أسس الرأسماليَّة:

- البحث عن الربح بشتَّى الطرق والأساليب، إلا ما تمنعه الدولة لضرر عام كالمخدرات مثلًا.

- تقديس الملكيَّة الفرديَّة، وذلك بفتح الطريق لأنَّ يستغل كلّ إنسان قدراته في زيادة ثروته وحمايتها، وعدم الاعتداء عليها، وتوفير القوانين اللازمة لنموها واطرادها، وعدم تدخُّل الدولة في الحياة الاقتصاديَّة، إلا بالقدر الذي يتطلبه النظام العام وتوطيد الأمن.

- المنافسة والمزاحمة في الأسواق Perfect Competition.

- نظام حريَّة الأسعار Price System، وإطلاق هذه الحريَّة وفق متطلبات العرض والطلب، واعتماد قانون السعر المنخفض في سبيل ترويج البضاعة وبيعها.

أشكال الرأسماليَّة

- الرأسماليَّة التجاريَّة التي ظهرت في القرن السادس عشر إثر إزالة الإقطاع، إذ أخذ التاجر يقوم بنقل المنتجات من مكان إلى آخر، حسب طلب السوق، فكان بذلك وسيطًا بين المنتج والمستهلك.

- الرأسماليَّة الصناعيَّة التي ساعد على ظهورها تقدم الصناعة، وظهور الآلة البخاريَّة التي اخترعها جيمس وات سنة ١٧٧٠م، والمغزل الآلي سنة ١٧٨٥م، مما أدَّى إلى قيام الثورة الصناعيَّة في إنجلترا أولًا، وفي أوربًا عامَّة إبان القرن التاسع عشر. وهذه الرأسماليَّة الصناعيَّة تقوم على أساس الفصل بين رأس المال وبين العامل، أي بين الإنسان وبين الآلة.

- نظام الكارتل Cartel System الذي يعني اتفاق الشركات الكبيرة على اقتسام السوق العالميَّة فيما بينها، مما يعطيها فرصة احتكار هذه الأسواق وابتزاز الأهالي بحرِّيَّة تامَّة. وقد انتشر هذا المذهب في ألمانيا واليابان.

- نظام الترست Trust System والذي يعني تكوُّن شركة من الشركات المتنافسة؛ لتكون أقدر في الإنتاج وأقوى في التحكُّم والسيطرة على السوق.

أفكار معتقدات أخرى:

- إنَّ المذهب الطبيعي الذي هو أساس الرأسماليَّة إنَّما يدعو إلى أمور منها:

- الحياة الاقتصاديَّة تخضع لنظام طبيعي ليس من وضع أحد، إذ يحقق بهذه الصفة نموًّا للحياة وتقدُّمًا تلقائيًا لها.

- إنَّه يدعو إلى عدم تدخُّل الدولة في الحياة الاقتصاديَّة، وأن تقصر مهمتها على حماية الأفراد والأموال والمحافظة على الأمن والدفاع عن البلاد.

- الحريَّة الاقتصاديَّة لكلِّ فرد، إذ إنَّ له الحقَّ في ممارسة واختيار العمل الذي يلائمه. وقد عبَّروا عن ذلك بالمبدأ المشهور: «دعه يعمل دعه يمر».

- إنَّ إيمان الرأسماليَّة بالحريَّة الواسعة أدى إلى فوضى في الاعتقاد وفي السلوك، مما تولدت عنه هذه الصراعات الغربية التي تجتاح العالم معبرة عن الضياع الفكريِّ والخواء الروحيِّ.

- إنَّ انخفاض الأجور وشدة الطلب على الأيدي العاملة دفع الأسرة لأنَّ يعمل كل أفرادها، مما أدى إلى تفكك عرى الأسرة وانحلال الروابط الاجتماعيَّة فيما بينها.

- من أهم آراء آدم سميث أنَّ نموَّ الحياة الاقتصاديَّة وتقدُّمها وازدهارها إنَّما يتوقف على الحريَّة الاقتصاديَّة، وتتمثل هذه الحرية في نظره بما يلي:-

- الحريَّة الفرديَّة التي تتيح للإنسان حريَّة اختيار عمله الذي يتفق مع استعداداته، ويحقق له الدخل المطلوب.

- يرى الرأسماليُّون أنَّ الحريَّة ضروريَّة للفرد من أجل تحقيق التوافق بينه وبين المجتمع، ولأنَّها قوة دافعة للإنتاج، لكونها حقًّا إنسانيًّا يعبر عن الكرامة البشريَّة.

عيوب الرأسماليَّة

الرأسماليَّة نظام وضعي يقف على قدم المساواة مع الشيوعيَّة وغيرها من النظم التي وضعها البشر، بعيدًا عن منهج الله الذي ارتضاه لعباده ولخلقه من بني الإنسان، ومن عيوبها:

- **الأنانيَّة**: إذ يتحكَّم فرد أو أفراد قلائل في الأسواق؛ تحقيقًا لمصالحهم الذاتيَّة، دون تقدير لحاجة المجتمع أو احترام للمصلحة العامَّة.

- **الاحتكار**: إذ يقوم الشخص الرأسمالي باحتكار البضائع وتخزينها، حتى إذا ما فقدت من الأسواق نزل بها ليبيعها بسعر مضاعف يبتز به المستهلكين الضعفاء.

- لقد تطرفت الرأسماليَّة في تضخيم شأن الملكيَّة الفرديَّة، كما تطرفت الشيوعيَّة في إلغاء هذه الملكيَّة.

- **المزاحمة والمنافسة**: إنَّ بنية الرأسماليَّة تجعل الحياة ميدان سباق مسعور إذ يتنافس الجميع في سبيل إحراز الغلبة، وتتحول الحياة عندها إلى غابة يأكل القوي فيها الضعيف، وكثيرًا ما يؤدي ذلك إلى إفلاس المصانع والشركات بين عشية وضحاها.

- **ابتزاز الأيدي العاملة**: ذلك أنَّ الرأسماليَّة تجعل الأيدي العاملة سلعة خاضعة لمفهومي العرض والطلب، مما يجعل العامل معرضًا في كلِّ لحظة لأنَّ يُستبدَل به غيره، ممن يأخذ أجرًا أقل أو يؤدي عملًا أكثر أو خدمة أفضل.

- **البطالة**: وهي ظاهرة مألوفة في المجتمع الرأسمالي، وتكون شديدة البروز إذا كان الإنتاج أكثر من الاستهلاك، مما يدفع بصاحب العمل إلى الاستغناء عن الزيادة في هذه الأيدي التي تثقل كاهله.

- **الحياة المحمومة**: وذلك نتيجة للصراع القائم بين طبقتين إحداهما مبتزة يهمها جمع المال بكلِّ

السبل، وأخرى محروقة تبحث عن المقومات الأساسيَّة لحياتها، دون أن يشملها شيء من التراحم والتعاطف المتبادل.

- **الاستعمار**: ذلك أنَّ الرأسماليَّة بدافع البحث عن المواد الأوليَّة، وبدافع البحث عن أسواق جديدة لتسويق المنتجات، تدخل في غمار استعمار الشعوب والأمم استعمارًا اقتصاديًّا أولًا، وفكريًّا وسياسيًّا وثقافيًّا ثانيًا، وذلك فضلًا عن استرقاق الشعوب وتسخير الأيدي العاملة فيها لمصلحتها.

- **الحروب والتدمير**: فلقد شهدت البشريَّة ألوانًا عجيبة من القتل والتدمير؛ وذلك نتيجة طبيعيَّة للاستعمار الذي أنزل بأمم الأرض أفظع الأهوال وأشرسها.

- الرأسماليُّون يعتمدون على مبدأ الديمقراطيَّة في السياسة والحكم، وكثيرًا ما تجنح الديمقراطيَّة مع الأهواء بعيدة عن الحقِّ والعدل والصواب، وكثيرًا ما تستخدم لصالح طائفة الرأسماليِّين أو من يسمون أيضًا (أصحاب المكانة العالية).

- إنَّ النظام الرأسماليَّ يقوم على أساس ربويٍّ، ومعروف أنَّ الربا هو جوهر العلل التي يعاني منها العالم أجمع.

- إنَّ الرأسماليَّة تنظر إلى الإنسان على أنَّه كائن ماديٌّ، وتتعامل معه بعيدًا عن ميوله الروحيَّة والأخلاقيَّة، داعية إلى الفصل بين الاقتصاد وبين الأخلاق.

- تعمد الرأسماليَّة إلى حرق البضائع الفائضة، أو تقذفها في البحر خوفًا من أن تتدنى الأسعار لكثرة العرض، وبينما هي تقدم على هذا الأمر تكون كثير من الشعوب أشدَّ معاناة وشكوى من المجاعات التي تجتاحها.

- يقوم الرأسماليُّون بإنتاج المواد الكماليَّة، ويقيمون الدعايات الهائلة لها، دونما التفات إلى الحاجات الأساسيَّة للمجتمع؛ ذلك أنهم يفتشون عن الربح والمكسب أولًا وآخرًا.

- يقوم الرأسماليُّ في أحيانٍ كثيرة بطرد العامل عندما يكبر، دون حفظ لشيخوخته، إلَّا أنَّ أمرًا كهذا أخذت تخف حدته في الآونة الأخيرة بسبب الإصلاحات التي طرأت على الرأسماليَّة، والقوانين والتشريعات التي سنتها الأمم لتنظيم العلاقة بين صاحب رأس المال والعامل.

- الإصلاحات التي طرأت على الرأسماليَّة:

- كانت إنجلترا حتى سنة ١٨٧٥م من أكبر البلاد الرأسماليَّة تقدُّمًا. ولكن في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ظهرت كلٌّ من الولايات المتَّحدة وألمانيا، وبعد الحرب العالميَّة الثانية ظهرت اليابان.

- في عام ١٩٣٢م باشرت الدولة تدخُّلها بشكل أكبر في انجلترا، وفي الولايات المتَّحدة زاد تدخُّل الدولة ابتداء من سنة ١٩٣٣م، وفي ألمانيا بدءًا من العهد الهتلري وذلك لأجل المحافظة على

استمراريَّة النِّظام الرأسماليّ.

– لقد تمثَّل تدخل الدَّولة في المواصلات والتعليم ورعاية حقوق المواطنين وسن القوانين ذات الصبغة الاجتماعيَّة، كالضمان الاجتماعي والشيخوخة والبطالة والعجز والرعاية الصحّيَّة وتحسين الخدمات ورفع مستوى المعيشة.

– لقد توجهت الرأسماليَّة هذا التوجه الإصلاحي الجزئي؛ بسبب ظهور العمال قوة انتخابيَّة في البلدان الديمقراطيَّة؛ وبسبب لجان حقوق الإنسان، ولوقف المد الشيوعي الذي يتظاهر بنصرة العمال ويدعي الدفاع عن حقوقهم ومكتسباتهم.

أفكار ومعتقدات للرأسمالية

– تقوم جذور الرأسماليَّة على شيءٍ من فلسفة الرومان القديمة، يظهر ذلك في رغبتها في امتلاك القوة وبسط النفوذ والسيطرة.

– لقد تطوَّرت متنقلة من الإقطاع إلى البرجوازيَّة إلى الرأسماليَّة، وخلال ذلك اكتسبت أفكارًا ومبادئ مختلفةً تصب في تيَّار التوجه نحو تعزيز الملكيَّة الفرديَّة والدعوة إلى الحرِّيَّة.

– قامت الرأسمالة في الأصل على أفكار المذهب الحرِّ والمذهب الكلاسيكيِّ.

– إنَّ الرأسماليَّة تناهض الدين، متمرِّدة على سلطان الكنيسة أولًا، وعلى كلِّ قانونٍ أخلاقيٍّ أخيرًا.

– لا يهم الرأسماليَّة من القوانين الأخلاقيَّة إلا ما يحقق لها المنفعة، ولا سيما الاقتصاديَّة منها على وجه الخصوص.

– كان للأفكار والآراء التي تولدت نتيجة للثورة الصناعيَّة في أوربَّا دور بارز في تحديد ملامح الرأسماليَّة.

– تدعو الرأسماليَّة إلى الحرِّيَّة، وتتبنَّى الدفاع عنها، لكنَّ الحرِّيَّة السياسيَّة تحوَّلت إلى حرِّيَّة أخلاقيَّة واجتماعيَّة، ثم تحوَّلت هذه بدورها إلى إباحيَّة.

الانتشار ومواقع النفوذ

– ازدهرت الرأسماليَّة في إنجلترا وفرنسا وألمانيا واليابان والولايات المتَّحدة الأمريكيَّة وفي معظم العالم الغربي.

– كثير من دول العالم تعيش في جوٍّ من التبعيَّة إمَّا للنظام الشيوعي وإمَّا للنظام الرأسمالي، وتتفاوت هذه التبعيَّة بين التدخُّل المباشر وبين الاعتماد عليهما في الشئون السياسيَّة والمواقف الدوليَّة.

– وقف النظام الرأسمالي، مثله مثل النظام الشيوعيّ، إلى جانب إسرائيل دعمًا وتأييدًا بشكلٍ مباشرٍ أو غير مباشرٍ.

الإسلام والرأسمالية

إنَّ الرأسماليَّة مذهب ماديٌّ جَشِعٌ يغفل القيم الروحيَّة في التعامل مع المال، مما يزيد الأغنياء غنًى والفقراء فقرًا. وتعمل أمريكا الآن باعتبارها زعيمة هذا المذهب على ترقيع الرأسماليَّة في دول العالم الثالث، بعد أن انكشفت عوارها ببعض الأفكار الاشتراكيَّة، محافظة على مواقعها الاقتصاديَّة، وكي تبقى سوقًا للغرب الرأسمالي وعميلًا له في الإنتاج والاستهلاك والتوزيع. وما يراه البعض من أنَّ الإسلام يقترب في نظامه الاقتصاديِّ من الرأسماليَّة خطأ واضح يتجاهل عددًا من الاعتبارات:

- إنَّ الإسلام نظام رباني يشمل أفضل ما في الأديان والمذاهب من إيجابيَّات، ويسلم ممَّا فيها من سلبيَّات، إذ إنَّه شريعة الفطرة تحلل ما يصلحها وتحرم ما يفسدها.

- إنَّ الإسلام وُجِدَ وطُبِّقَ قبل ظهور النظم الرأسماليَّة والاشتراكيَّة، وهو نظام قائم بذاته، والرأسماليَّة تنادي بإبعاد الدين عن الحياة، وهو أمر مخالف لفطرة الإنسان، كما تزن أقدار الناس بما يملكون من مال، والناس في الإسلام يتفاضلون بالتقوى.

- ترى الرأسماليَّة أنَّ الخمر والمخدرات تلبي حاجات بعض أفراد المجتمع، وكذلك الأمر بالنسبة لخدمات راقصة البالية، وممثلة المسرح، وأندية العراة، ومن ثم تسمح بها دون اعتبار لما تسببه من فساد، وهي أمور لا يقرها الضمير الإسلامي. وفي سبيل تنمية رأس المال تسلك كلَّ الطرق دونما وازع أخلاقيٍّ مانع فالغاية عندهم دائمًا تبرر الوسيلة.

- النواحي الاقتصاديَّة في الإسلام مقيدة بالشرع وما أباحه أو حرمه، ولا يصحُّ أن نعتبر الأشياء نافعة لمجرد وجود من يرغب في شرائها، بصرف النظر عن حقيقتها واستعمالها من حيث الضرر أو النفع.

- القول بأنَّ الندرة النسبيَّة هي أصل المشكلة الاقتصاديَّة قول مخالف للواقع، فالمولى سبحانه وتعالى خلق الكون والإنسان والحياة وقدر الأقوات، بما يفي بحياة البشريَّة، وقدّر الأرزاق وأمر بالتكافل بين الغني والفقير.

- أدَّى النظام الرأسمالي إلى مساوئ وويلات، وأفرز ما يعانيه العالم من استعمار ومناطق نفوذ وغزو اقتصادي، ووضع معظم ثروات العالم في أيدي الاحتكارات الرأسماليَّة وديون تراكميَّة[١].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٩١٠- ٩١٨).

الديمقراطيَّة

التعريف:

الديمقراطيَّة نظام للحكم يكون الشعب فيه رقيبًا على أعمال الحكومة بواسطة المجالس النيابيَّة، ويكون لنوَّاب الأمَّة سلطة إصدار القوانين.

والديمقراطيَّة Democracy كلمة مشتقة من لفظتين يونانيتين Demos أي الشعب، و Kratos أي سلطة، ومعناها الحكم الذي تكون فيه السلطة للشعب.

وتُعرَّف بأنَّها نظام سياسيٌّ يوفر فرصة المشاركة لكلِّ أعضاء المجتمع الذين لهم حقُّ التصويت في اتِّخاذ القرارات التي تؤثر في حياتهم الفرديَّة والجماعيَّة على حدٍّ سواء في أي من المجالات الاجتماعيَّة أو السياسيَّة.

تاريخ الديمقراطيَّة

أول من مارس الديمقراطيَّة هم الإغريق في مدينتي أثينا وإسبرطة، حيث كانت تقوم في كل من المدينتين حكومة، يطلق عليها اصطلاحًا اسم: حكومة المدينة، أي الحكومة التي تقوم في مدينة واحدة مفردة، وكان كلّ أفراد الشعب من الرجال في كل من المدينتين يشاركون في حكم المدينة، فيجتمعون في هيئة جمعيَّة عموميَّة في العام أربعين مرة، فيتشاورون في كلِّ أمور الحكم، فينتخبون الحاكم ويصدرون القوانين ويشرفون علي تنفيذها ويضعون العقوبات علي المخالفين فكان حكم الشعب مطبقا بصورة مباشرة في كل من المدينتين، وكانت التسمية منطبقة علي الواقع انطبقًا كاملًا.

وفي ظل الإمبراطوريَّة الرومانيَّة والقانون الروماني ظل الإقطاع يحكم أوربًا أكثر من ألف عام، وفي ظلّه لم يكن للشعب وجود إلا بوصفه قطعًا آدميَّة لاصقة بالطين، لا كرامة لها ولا حقوق، وكان هناك ملوك مستبدون بالحكم يحكمون بمقتضي الحقّ الإلهي المقدس، باعتبارهم ظلَّ الله في الأرض، فكلامهم أمر، وأمرهم مقدَّس، وما عنَّ لهم من أهواء فهي أوامر واجبة التنفيذ، ويعاونهم في تثبيت سلطانهم أمراء الإقطاعيات الواقعة في ملكهم، مقابل إطلاق يد هؤلاء الأمراء -الذين يسمون: النبلاء أو الإشراف- في إقطاعياتهم، يتصرفون فيها كيف شاءوا دون مراجعة ولا رقابة تضبط تصرفاتهم، وهم يمثلون السلطة التشريعيَّة والسلطة القضائيَّة والسلطة التنفيذيَّة جميعًا في آن واحد.

وإلي جانب الملوك والنبلاء كانت سلطة الكنيسة ورجال الدين، وكانت منصبة في النهاية كذلك علي الشعب، فإلي جانب الخضوع المذلّ لرجال الدين -وهو حقّ مقدَّس لهم- كانت هناك الإتاوات والعشور، والسخرة المجانيَّة في أرض الكنسية، والتجنيد في جيوش الكنيسة التي كانت

توجهها لتأديب الخارجين علي سلطانها من الأباطرة والملوك.

ونتيجة لاحتكاك الأوربيِّين بالمسلمين في الحروب الصليبيَّة وفي حركة المبتعثين من بلاد أوربَّا لتلقِّي العلم في بلاد الإسلام تفجَّرت الثورة الفرنسيَّة وهي محمَّلة بكلِّ هذه المظالم المتراكمة، فارتدت إلي تراثها الإغريقيِّ الرومانيِّ تبحث فيه عن حلول مشكلاتها، ووقع اختيار أوربَّا علي الديمقراطيَّة بديلًا من الإقطاع.

وكان نقطتا الانطلاق لهم:

أولًا: وجوب إشراف الشعب علي أعمال الحكومة، أي إلغاء الحقِّ الإلهيِّ المقدَّس وإخضاع الحكومة لرقابة الشعب علي تصرفاتها، وفصل السلطات، وجعل الحكومة سلطة تنفيذيَّة فحسب، لا سلطة تشريعيَّة.

وثانيًا: إعطاء الشعب حقوقه الإنسانيَّة التي حرم منها أكثر من ألف عام في ظل نظام الإقطاع.

وبعد نضال وكفاح استمرَّ قرابة قرنٍ من الزمان استقرَّت الديمقراطيَّة في صورتها الحالية عن طريق التمثيل النيابي لأفراد الشعب في المجالس والبرلمانات، التي نراها في دول غرب أوربَّا وأمريكا، علي اختلاف بينها في الجزئيَّات لا يؤثر في صورتها العامة ومبادئها الرئيسيَّة.

وفي العالم الإسلامي قاد التيار القومي العربي الأمَّة بعد الحرب العالميَّة الأولى، وارتبط هذا التيار آنذاك بالديمقراطيَّة، وأقام تجارب ديمقراطيَّة في مختلف الدول التي تكونت آنذاك: العراق وسورية ولبنان والأردن. . .إلخ، وكانت التجربة الأبرز في العراق، الذي استقلَّ مبكرًا في عام ١٩٣٢م. ولكنَّه لم ينجح التيَّار القومي العربي في إرساء النموذج الديمقراطي.

وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي وانفراد أمريكا بحكم العالم كقوَّة عظمى وبجانبها بعض الدول الأوربيَّة تم توجيه النظم الديمقراطيَّة لتطبيقها في الدُّول الإسلاميَّة بصورة كبيرة من خلال أطر السياسات الأمريكيَّة والأوربيَّة والصهيونيَّة.

أفكار ومبادئ الديمقراطيَّة

- تقوم الديمقراطيَّة على مبدأ أنَّ الشعب هو مصدر السلطات بما في ذلك السلطة التشريعيَّة، ويتم ذلك عن طريق اختيار ممثلين عن الشعب ينوبون عنه في مهمَّة التشريع وسن القوانين، فالمشرع المطاع في الديمقراطيَّة هو الإنسان.

- تقوم الديمقراطيَّة على مبدأ حريَّة التدين والاعتقاد، فللمرء في ظلِّ الأنظمة الديمقراطيَّة أن يعتقد ما يشاء، ويتدَّين بالدين الذي يشاء، ويرتد إلى أي دين وقتما يشاء، وإن كان هذا الارتداد مؤدَّاه إلى الارتداد عن دين الله تعالى إلى الإلحاد وعبادة غير الله عزَّ وجلَّ.

- تقوم الديمقراطيَّة على اعتبار الشعب حكمًا أوحد ترد إليه النزاعات والخصومات؛ فإذا حصل أي اختلاف أو نزاع بين الحاكم والمحكوم، أو بين القيادة والقاعدة نجد أنَّ كلًّا من الطرفين

يهدد الآخر بالرجوع إلى إرادة الشعب، وإلى اختيار الشعب، ليفصل الشعب ما تم بينهما من نزاع أو اختلاف.

- تقوم الديمقراطيَّة على مبدأ حرِّيَّة التعبير والإفصاح، أيًا كان هذا التعبير، إذ لا يوجد في الديمقراطيَّة شيء مقدَّس يحرم الخوض فيه. وأي إنكار على ذلك يعني إنكار على النظام الديمقراطي الحرِّ برمته، ويعني تحجيم الحرِّيَّات المقدَّسة في نظر الديمقراطيَّة والديمقراطيِّين.

- تقوم الديمقراطيَّة على مبدأ فصل الدين عن الدولة، وعن السياسة والحياة، فما لله لله؛ وهو فقط العبادة في الصوامع والزوايا، وما سوى ذلك من مرافق الحياة السياسة والاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة وغيرها فهي من خصوصيات الشعب.

- تقوم الديمقراطيَّة على مبدأ الحريَّة الشخصيَّة؛ فللمرء في ظلِّ الديمقراطيَّة أن يفعل ما يشاء، ويمارس ما يشاء، ما لم يتعارض مع القانون الوضعيِّ للبلاد.

- تقوم الديمقراطيَّة على مبدأ حرِّيَّة تشكيل التجمُّعات والأحزاب السياسيَّة وغيرها، أيًا كانت عقيدة وأفكار وأخلاقيَّات هذه الأحزاب والجماعات.

- تقوم الديمقراطيَّة على مبدأ اعتبار موقف الأكثريَّة، وتبنِّي ما تجتمع عليه الأكثريَّة، فالحقُّ في نظر الديمقراطيَّة الذي لا يجوز الاستدراك أو التعقيب عليه هو ما تقرره الأكثريَّة وتجتمع عليه لا غير.

- في الديمقراطيَّة كلّ شيءٍ حتَّى ينال القبول يجب أن يخضع للاختيار والتصويت، والاختيار يقع دائمًا كما تقدم على ما تجتمع عليه الأكثريَّة.

- تقوم الديمقراطيَّة على مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات بين جميع شرائح وأفراد المجتمع بغضِّ النظر عن انتماءاتهم العقديَّة والدينيَّة، والسيرة الذاتيَّة لأخلاق الناس؛ فيستوي في نظر الديمقراطيَّة كافَّة الناس في تحديد من يحكم البلاد والعباد، وغيرها من الحقوق والواجبات.

- تقوم الديمقراطيَّة على نظريَّة أنَّ المالك الحقيقي للمال هو الإنسان، وبالتالي فله أن يكتسب المال بالطرق التي يشاء، كما له أن ينفق ماله بالطرق التي يشاء ويهوى، وهذا ما يسمونه بالنظام الاقتصاديِّ الحرِّ، أو الرأسماليِّ الحرِّ.

نقد الديمقراطيَّة

يتلخَّص نقد الكُتَّاب للديمقراطيَّة في أمور:

١- **ميوعة الاصطلاح**، وصعوبة تحديده بدقَّة علميَّة يمكن بواسطتها التميز بين الحقيقة وبين الادعاء المزيَّف. كل محاولة تستهدف تحديد الاستعمال الصحيح لاصطلاح الديمقراطيَّة، من شأنها أن تواجه مزيدًا من التعقيدات، حتَّى أصبح استخدام اصطلاح الديمقراطيَّة مجرد شعار من الدُّخان، لإخفاء الصراعات، صحيح أنَّ لفظ الديمقراطيَّة يعني عند إطلاقه حكم الشعب، لكن

الآراء تتضارب كثيرًا حول كيفيَّة الحكم ونوعيَّة الاقتراع والتمثيل وشروط المقترعين وتحديد الفئات السياسيَّة.

٢- **الأحزاب المتشاحنة التي لا تعبر عن إرادة الأمَّة**: إنَّ الواقع المحسوس لينطق بصراحة بأنَّ النظام الديمقراطي يقضي على وحدة الأمَّة، ويفتتها إلى تكتلاتٍ متناحرة وأحزابٍ متطاحنة لأسباب لم تكن لتستدعي التكتل والتحزُّب لولا أنَّ النظام نفسه يشجِّع على ذلك ويهيِّئه، ومع خطورة هذا التمزُّق على الأمَّة فإنَّه ينبني عليه أثر خطير بالنسبة لتحقيق مصالح الشعب.

٣- **إيجاد طبقة ثريَّة مسيطرة دكتاتوريَّة**: هذا العيب الخطر ملازم للأنظمة الديمقراطيَّة الغربيَّة، وهو أجلى عيوبها وأبرزها. فمن الحقائق المقررة عالميا أن المصالح المادِّيَّة هي الدافع الوحيد والمحرك الرئيسي للعمل السياسي، وكلُّ دول العالم الديمقراطي لا تخفي حقيقة أنَّها تعمل جاهدة لحماية امتيازاتها، وضمان تفوقها الاقتصادي، وتوفير المجال الحيوي لشعبها، وهذا هو القناع الظاهري الذي تتستر به إمبراطوريات المال في هذه الدول، والتي تتحكم في السياسة الخارجيَّة والداخليَّة مباشرة أو بطريق الضغط على السلطة الحاكمة. وفيما يحسب الشعب أنَّه سيد نفسه ومقرر مصيره، تقوم الطبقة الرأسماليَّة المحتكرة بسن القوانين لحماية مصالحها، والزج بسياسة الدولة فيما يخدم أغراضها النفعيَّة الخاصَّة.

٤- **تزييف وتطويع الرأي العام**: هذا العيب متلازم والعيب الذي قبله؛ فوجود طبقة ثريَّة مسيطرة يجعل وقوع وسائل الأعلام -المكون الرئيسي للرأي العام- في قبضتها أمرًا طبيعيًا، كما أن خضوع وسائل الإعلام لفئة معينة تتيح لها القدرة على تقوية مركزها ودعم نفوذها السياسي والمالي عن طريق تكوين الرأي العام أو تضليله، مما يضمن فوز المرشحين الموالين لها ونجاح مخططاتها.

٥- **الفتور في تجاوب المواطنين مع العمليَّة الانتخابيَّة**: تدعي الديمقراطيَّة أنَّها حكم الشعب، وأنَّ النوَّاب وأعضاء الحكومة إنما يختارون وفقًا لإرادة الشعب وأنَّهم تبعًا لذلك يمثلون الشعب تمثيلًا صادقًا. ولكن هذه الدعوى يناهضها عزوف نسبة ليست قليلة من الشعب عن الاشتراك في العمليَّة الانتخابيَّة، وتكون النتيجة أنَّ الذي يفوز في الانتخابات، حزبًا أو فردًا -يفوز لأنَّه حصل لا على أصوات أغلبية الشعب، بل على أصوات أغلبيَّة المشتركين فعلًا في الاقتراع. فإذا أضفنا الرافضين للانتخابات إلى الذين دخلوها معارضين، فسنجد غالبًا أنَّ الأغلبيَّة الفائزة في الانتخابات ليست سوى أقلية بالنسبة لمجموع الشعب.

٦- **القضاء على الميزات الفرديَّة**: على الرغم من أنَّ الديمقراطيَّة -في جوهرها- نظام فرديّ، كان وجوده أصلًا بمثابة رد فعل لإهدار الحقوق الفرديَّة في ظلِّ النِّظام الإقطاعي، فإنَّ الفرد الممتاز في الديمقراطيَّة مهضوم الحقِّ بالنسبة لمشاركته في صياغة القرارات التي تتخذها الحكومة.

هذا العيب لفت نظر بعض النُّقَّاد إلى آفة تعاني منها الديمقراطيَّة، فمثلًا في الدول الديمقراطيَّة عند الاقتراع على قضية اقتصاديَّة، حيث يكون نصيب عالم الاقتصاد الضليع صوتًا واحدًا فقط،

وهو ما يحصل عليه الفرد المتوسط أو الجاهل، وغالبًا ما تكون النتيجة في غير صالح الأفراد الممتازين بسبب انسياق عامة الشعب وراء عواطفهم وخضوعهم للتضليل الدعائي.

٧- **تعارض المصلحة الذاتيَّة للفرد والجماعة:** هذا العيب يلقي ضوءًا على المحك الذي يظهر حقيقة أي نظام أرضي بشري، فالديمقراطيَّة تدَّعي أنَّها النظام الأمثل لتحقيق المصلحة الفرديَّة والجماعيَّة بإتاحتها الفرصة للحصول عليها بطريقة قانونيَّة. لكن المشكلة تكمن في تعارض مصلحة الفرد ذاته -وكذلك الجماعة- بين اتخاذ هذا القرار أو ضده، إذ هو لا يستطيع التوفيق بين مطالبه الخاصة، كما أنَّه لا يستطيع التيقن من كون نتيجة القرار ستحقق هذه المطالب أو تنفيها. فمثلًا رفع الأجور، تطالب نقابات العمال دائمًا برفع الأجور -لكي تكسب أصواتهم- وهي إذ تطالب بذلك تعلم يقينًا أنَّ رفعها يحقق للعمال مصلحة من جهة، لكنَّه يفوتها من جهة أخرى؛ لأنَّه يكون مصحوبًا بارتفاع الأسعار.

٨- **عدم توعية المواطن إلا بما يخدم المرشحين وبما يلبِّي حاجة المواطن الماديَّة:** فمثلًا المواطن الأمريكي الذي ينتخب أعضاء الكونجرس ومجلس الشيوخ ورئيس الدولة التي تريد أن تحكم العالم هو مواطن ساذج لا يعرف شيئًا عن علاقة الاقتصاد بالسياسة، وعن آليات الاستغلال الاقتصادي، وهو جاهل بما يجرى في العالم، والحزبان الرئيسيَّان (الديموقراطي والجمهوري) لا يقدمان له برامج توعية سياسيَّة، ويكتفيان بتقديم برامج متناثرة لا يربط أجزاءها رابط، حتى ترضى معظم الأذواق، إن لم يكن كلَّها، وهي برامج تختزل تطلعات المواطن إلى بعدها المادي (الاقتصادي والجسماني) وقضيتها الأساسيَّة هي إشباع تطلعاته الاقتصاديَّة بشكل سريع ومباشر، ويتولى الإعلام الترفيه عنه وتفريغه من الداخل، من خلال تصعيد نزعاته الاستهلاكيَّة والجسمانيَّة، وحصره في عالم الحواس والسلع والمادة والأشياء.

٩- **عدم تكافؤ الفرص أمام المرشحين:** فالمعركة الانتخابيَّة في الدول الغربيَّة مثلًا، وخاصة الولايات المتَّحدة، تتكلف مئات الملايين من الدولارت، ومن ثم فلا مكان في هذه المعركة سوى للمرشح الثري الذي يمكنه تدبير الاعتمادات اللازمة للقيام بحملة انتخابيَّة مستمرة وفعالة، أما المرشح الذي لا يملك مثل هذه الإمكانات فمصيره التهميش الإعلامي. ويعني هذا، في عصر سيطرة وسائل الإعلام، أنَّ بوسع أصحاب المصالح وكبار الرأسماليين وجماعات الضغط التأثير في الانتخابات لا بسبب برامجهم السياسيَّة وإنما بسبب ثرواتهم، أو لأسباب أخرى لا علاقة لها بمصلحة الجماهير أو مصلحة الوطن.

١٠- التعدديَّة الديمقراطيَّة في الغرب تعدديَّة في البرامج السياسيَّة، والاجتماعيَّة، والاقتصاديَّة، وهذه التعدديات هي تعدديَّة في الفكر السياسي، الذي يخضع لأنظمة الحكم الرأسماليَّة الديمقراطيَّة المتبناة في البلدان الغربيَّة، فلا علاقة لهذه التعدديَّة بالقبليَّة والعشائريَّة، أو بالأعراق والطوائف، كما لا علاقة لها بالأديان والمذاهب، بل تسير في أجواء المبدأ الرأسمالي الذي تسود القناعة به في

بلاد الغرب لتثبيت هذا المبدأ وتقوية التمسك به وتطبيقه. وبالمقابل فالتعدديَّة الديمقراطيَّة التي يريدها الغرب، وبخاصة أمريكا، للبلاد الإسلاميَّة، تعني التعدديَّة القبليَّة والشعوبيَّة، وتعني كذلك التعدديَّة المذهبيَّة والطائفيَّة، وإثارة الفرقة والتجزئة في بلاد المسلمين، فالتعدديَّة المرادة في البلاد الإسلاميَّة هي عنصر من عناصر محاربة مبدئها، ومن عناصر ضعفها، وتخلخلها، وهشاشة مجتمعاتها، وسهولة تفتيتها.

١١- **فقدان المرجعية**: من أهم القضايا التي تواجهها الديمقراطيَّة في التطبيق مشكلة المرجعيَّة النهائيَّة، أي مجموعة القيم التي تحكم الإجراءات الديمقراطيَّة ذاتها. فبوسع ٥١ بالمائة من الناخبين أن يقرروا القانون والحقيقة والقيمة، أي أن عدد الأصابع المرفوعة هو المرجعيَّة النهائيَّة، فهي ديمقراطيَّة بلا مرجعيَّة فلسفيَّة أو أخلاقيَّة أو معرفيَّة، ويمكن تسميتها «الديمقراطيَّة الإمبريقيَّة»، أو«الديمقراطيَّة المنفصلة عن القيمة» free democracy-value، شأنها شأن «العلم المنفصل عن القيمة»، و«حرية التعبير المطلقة المنفصلة عن القيمة».

١٢- الصراعات الدائمة بين الأحزاب المنقسمة على بعضها.

١٣- الحكومات التي لم يتجاوز متوسط بقائها في الحكم طيلة نصف قرن ثمانية أشهر.

١٤- المنافسات الحمقاء بين المواطنين.

١٥- عدم وجود سياسة متجانسة لمدى طويل.

١٦- البطء الشديد في تقدم مستوى حياة الجماهير، سياسة الإسكان، عدم كفاية التربية المدنية والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة.

وملاحظة هذه المساوئ هي التي دفعت بالكاتب الإنجليزي أ. د لندساس إلى القول: إنَّ هناك دائمًا هوةً رهيبة بين النظريات الرفيعة عن الديمقراطيَّة التي نقرأ عنها في كتب النظريَّات السياسيَّة، وبين وقائع السياسة الفعليَّة.

ويقول أحد الفلاسفة البريطانيين المعاصرين: إذا حكمنا على الديمقراطيَّة حكمًا ديمقراطيًّا بعدد من معها وعدد من ضدها من المفكرين، لكانت هي الخاسرة.

المدارس الديمقراطيَّة

ليس هناك مفهوم موحد للديمقراطيَّة، بل هو مبدأ تتعدد مفاهيمه بحسب المدارس الفكريَّة، ومن هذه المدارس: الليبراليَّة، الاشتراكيَّة، الدكتاتوريَّة، المصلحيَّة، الجبريَّة.

أولا: المدرسة الليبراليَّة: وهي المدرسة الديمقراطيَّة بالمفهوم الرأسمالي التقليدي، وتقوم على أسس: الانتخابات. مجلس نيابي. حكومة تنفيذيَّة.

وتتضمن هذه المدرسة: تعدد الأحزاب. فصل السلطات الثلاث: التشريعيَّة، والتنفيذيَّة، والقضائيَّة. استقلال القضاء. وجود ظاهرة الأغلبيَّة والمعارضة في داخل المجلس النيابي.

.سمات هذه المدرسة كما يلي:

١- إن نتائج الانتخابات لا تعبر عن الرأي الحقيقي للناخبين، بسبب الإعلام وغيره.

٢- إن كثيرًا ممن يحق لهم ممارسة الانتخاب لا يحضرون الانتخابات، لأسباب كثيرة.

٣- التساوي في مستويات شرائح الناخبين، فلا فرق بين القائد والطالب . . .

٤- إن طبيعة الوسط الانتخابي، أو بيئته، تترك آثارًا واضحة على العمليَّة الانتخابيَّة.

٥- إن التزوير يكاد يكون الميزة الملتصقة بالانتخابات النيابيَّة باستمرار، وله أشكال شتَّى.

٦- انتهاء الانتخابات النيابيَّة عادة بالشقاق بين الأحزاب والطوائف والقبائل والأفراد.

٧- إن المرشح لا بدَّ أن يكون غنيًّا رأسماليًّا أو مدعومًا من جهات حزبيَّة؛ لتمويل حملته الانتخابيَّة.

٨- لا يشترط في المرشح أي مواصفات أخلاقيَّة تتعلق بحسن السيرة الذاتيَّة.

٩- المكانة العلميَّة والمستوى الثقافي لهما أثرهما في نجاح المرشح.

١٠- الاستعلاء الشخصي، والحط من قيمة المرشحين الآخرين . . .، من أهم سمات مرشحيها.

١١- إن أكثر الفائزين بكراسي المجالس النيابيَّة يتنكرون لوعودهم لناخبيهم بمجرد فوزهم.

١٢- نبض المجلس النيابي بمناقشاته وقراراته لا يعبر دائمًا عن النبض الشعبي وتوجهاته.

١٣- إن المجلس النيابي يتمتع بصلاحيات مطلقة، وله الحريَّة التامَّة في اتخاذ أي قرار مهما كان منافيًا للدين أو القيم الإنسانيَّة المعتبرة عرفًا.

١٤- يجب أن يشترك الجميع في صياغة قوانينها الدستوريَّة، ويتم من خلال المجلس، آخذًا بعين الاعتبار تحقيق مصالح أعضائه أولًا.

١٥- إن قرارات الحرب والسلام وميزانية الدولة والسياسات المختلفة لا تأخذ مجراها في إلا عن طريق موافقة المجلس النيابي عليها.

الانتشار ومواقع النفوذ:

إنَّ الليبراليَّة الديمقراطيَّة قد مدت بساط نفوذها وتنفيذها في كثير من دول العالم الثالث وخاصة الدول الإسلاميَّة، وهي تغذي السير ضاغطة بشدة على دفة المسار الديمقراطيّ في دول الاتحاد السوفييتي السابق؛ لتحذو حذوها وتختط مسارها.

ثانيا: المدرسة الاشتراكيَّة: وهي تمثل وجهًا من وجوه الحكم الشمولي، وبالتالي: فإنَّ إلحاق الوصف الديمقراطي بهذه المدرسة بحاجة إلى مواءمة تبريريَّة، فبقدر ما يبرز الإيقاع الفردي في الديمقراطيَّة الليبراليَّة، يختفي هذا الإيقاع في الديمقراطيَّة الاشتراكيَّة؛ ذلك أنَّ المدرسة الاشتراكيَّة

تعتمد على التعبير الجماعي عن الحس الجماهيري، وذلك من خلال تحالف المفردات الإنتاجيَّة في أطر تنظيميَّة بإشراف الدولة تحت شعار: (لا إله، والحياة مادة).

ويتضح المفهوم الديمقراطيُّ في المدرسة الاشتراكيَّة في النقاط التالية:

١- تقوم الدوَل الاشتراكيَّة على الأحاديَّة الحزبيَّة، فلا مكان لتعدد الأحزاب؛ فالحزب الحاكم وهو الحزب الوحيد هو الذي يضع قانون الانتخابات.

٢- إنَّ المستقلِّين لا يمثِّلون في مجلس الشعب الاشتراكيِّ موقع المعارضة، إنَّما يمثِّلون حالة الانتماء فقط.

٣- إنَّ تقسيمة مجلس الشعب الاشتراكيِّ تعتمد بشكل أساسٍ على التوزيع المعدِّ مسبقًا للمساحات النيابيَّة التي تحدد لكلٍّ مرفق عامل (العمال والفلاحون).

٤- إنَّ مجلس الشعب الاشتراكي يمثل صيغة تحالفيَّة للقوى المنتجة (ما يسمى بالبروليتاريا).

٥- لا ينفرز انتخابيًا في مجلس الشعب الاشتراكي إلا الحزبيُّون الذين يتسنمون مواقع حزبيَّة قياديَّة .

٦- إنَّ قيادات القوات المسلحة لها مداخلات معينة تؤثر على قرارات مجلس الشعب الاشتراكي.

٧- إنَّ مجلس الشعب الاشتراكي يجب أن يكون في خدمة السياسة العامة للحزب الحاكم، وإلا يُحلّ.

٨- باستثناء العدد القليل من المستقلين، فإنَّ مجلس الشعب الاشتراكي لا يمثل الشعب بأي حال من الأحوال، بل يمثل القوى الحزبيَّة، ولذلك فإنَّ قراراته لا تصب في مصلحة الحزب.

٩- وبناء على ما ذكرت: فإنَّ الديمقراطيَّة الاشتراكيَّة هي تعبير اصطلاحي أكثر مما هي تعبير واقعي عن المفهوم اللغوي للكلمة أو المفهوم الغربي التطبيقي لها.

١٠- إنَّ القياديين الحزبيين يشكِّلون مراكز قوى ابتزازيَّة وانتهازيَّة غير منظورة، إذ إنَّهم يستفيدون ماديًا من مواقعهم الحزبيَّة، من خلال سيطرتهم على مرافق الإنتاج؛ ولذلك فإنَّهم يشكلون طبقة رأسماليَّة ترتدي قلنسوة اشتراكيَّة .

١١- إنَّ ديمقراطيَّة الاشتراكيين، نظرًا لكونها معبرة عن تطلعات الحزبيين، فإنَّها تحظى بمعارضة شعبيَّة واسعة، تلك المعارضة التي لا تستطيع الشعوب أن تعبِّر عن مكنونها خشية من شدة بطش القمع الاشتراكي الديمقراطي.

الانتشار ومواقع النفوذ:

كان مركز نفوذها هو الاتحاد السوفيتي ولكنها انهارت من خلال تضحيات قليلة، وانتشرت في الصين ورومانيا، ولكنَّها انهارت في رومانيا من خلال تضحيات جسيمة.

ثالثا: المدرسة الديكتاتوريَّة: هي ديمقراطيَّة اللهيب والنار، القمع والبطش، السجون والتعذيب.

يمكن تلخيص مفهوم الديمقراطيَّة الديكتاتوريَّة في النقاط التالية:

١- إن رواد الأنظمة الديكتاتوريَّة لا يؤمنون بالديمقراطيَّة إطلاقًا، لكنَّهم يتوشحون بها لتلميع صورهم البشعة، ويفعلون ذلك من خلال اصطناع مجلس نيابيٍّ.

٢- إنَّ هذا المجلس لا يعبر عن الإرادة الشعبيَّة، ولا يمثل طبقات الشعب، ولا يتشكل من خلال انتخابات حرَّة نزيهة.

٣- إنَّ تركيبة المجلس تكون معدَّة سلفًا من قِبَل النظام الحاكم.

٤- أعضاء المجلس النيابيِّ في ذلك النظام الديكتاتوريِّ ليس لهم وظيفة سنِّ القوانين التشريعيَّة التي توطد هيمنته، وتعزِّز مصالح أفراده.

٥- لا يشترط في أعضاء ذلك المجلس أي مستوى ثقافي رفيع أو وجاهة اجتماعيَّة معتبرة أو مقدرة مالية ظاهرة.

٦- هذه المجالس النيابيَّة في ظل هذه الأنظمة لا تتمتع بأدنى درجة من درجات المصداقيَّة أمام شعوبها.

٧- هذه المجالس النيابيَّة تبذل جهودًا جبارة لتجميل وجه النظام الحاكم أمام شعوبه والعالم.

٨- إن مراكز القوى في الأنظمة الديكتاتوريَّة الحاكمة تتحكم في قرارات تلك المجالس النيابيَّة بطريقة التحكم بالآلة عن بُعد.

٩- لا أحد يجرؤ من أعضاء تلك المجالس النيابيَّة على أن يفعل أو أن ينفعل بخلاف ذلك، وإلا تسحب الحصانة المجلسيَّة منه.

١٠- وهذا جائز على أعضاء المجلس جميعًا، ففي لحظة يقوم بإصدار أمره المتعالي بحل المجلس النيابي.

١١- وعندما يلتزم المجلس النيابي بتوجيهات النظام وأوامره فإنَّه يتَّخذ منه وسيلة لقمع شعبه بتشريع القوانين التي تعطيه صلاحيات واسعة للأجهزة الأمنيَّة في اعتقال وتعذيب الأبرياء، وإعدام المعارضين.

الانتشار ومواقع النفوذ:

إنَّ الأنظمة الديكتاتوريَّة يسيطر على دفة قيادتها العسكريُّون في الأغلب.

رابعًا: المدرسة المصلحيَّة: روادها هم المصلحيُّون (الوصوليُّون)، تلك الفئة التي رأت أنَّ مكاسبها تزداد وتجارتها تزدهر إذا سلكت مسلك الديمقراطيَّة. فأفكارها لا تتجاوز الفكر النفعي والمصلحيِّ.

وتتضح معالم ديمقراطيَّة هؤلاء بما يلي:

١- إنَّ الهيكل العام الأغلب لهذه الديمقراطيَّة ليبرالي، فينطبق عليها كثير من الأوصاف التي ذكرت حول المدرسة الليبراليَّة.

٢- من خلال الممارسة قد تتطعم ببعض مواصفات المدرسة الاشتراكيَّة والديكتاتوريَّة.

٣- يمارس المرشحون خلال فترة الانتخابات جميع الوسائل المشروعة وغير المشروعة للتأثير على الناخبين لاجتذاب أصواتهم.

٤- يعتبر النوَّاب المصلحيُّون نجاحهم في احتلال كراسي المجلس النيابي فرصة ينبغي استغلالها.

٥- يجدُّون في استصدار القوانين التشريعيَّة التي تكرس مصالحهم، وإن كانت على حساب المال العام.

٦- يبادر هؤلاء المرشحون بتأسيس الشركات وافتتاح المؤسسات في كافَّة الخدمات ولجميع أنواع التخصصات بأسماء أسرهم وأقربائهم، مستفيدين من مواقعهم الجديدة.

٧- إذا ما اقترب المجلس من نهاية مدته المقررة سارع النوَّاب المصلحيُّون إلى المزايدة على شعوبهم، من خلال طرح بعض المشاريع التي تدغدغ عواطف الناس؛ لانتخابهم للمجلس النيابيِّ الجديد.

٨- إنَّ كثيرًا من النُّوَّاب المصلحيِّين لا يجدون في تصرفاتهم غضاضة، ولا يستشعرون في قلوبهم أيَّ حرج إذا أقرُّوا ووافقوا الحكومة على توقيع المعاهدات التي تسوِّد بياض البلاد وتكبل حريَّة العباد.

٩- إنَّ دستور المدرسة الديمقراطيَّة المصلحيَّة قابل للتنقيح في أي لحظة يراها أصحاب تلك المدرسة مما يعزز مصالحهم، ولكنه في البلاد الإسلاميَّة غير قابل للتنقيح إذا كان ذلك لمصلحة الإسلام أو الأمَّة.

خامسًا: المدرسة الجبريَّة: هي ديمقراطيَّة الالتقاء الجبري، إنَّها ديمقراطيَّة التعايش الحرج، فهي الخيار الأوحد عند أصحابها، فإمَّا هي وإمَّا الكارثة، هكذا يقولون. إنَّها ديمقراطيَّة الطوائف والأديان قبل أن تكون ديمقراطيَّة الجماعات والأحزاب.

ومثال هذه المدرسة هو لبنان، فإنَّ فيها من ينتسبون إلى الإسلام وهم طوائف عدة: السنة، والشيعة، والدروز. ومنهم من ينتمي إلى النصرانيَّة، وهم أيضًا طوائف من أشهرها المارونيَّة. وأمَّا الأحزاب فهي كثيرة.

أهم ما يميز هذه المدرسة ما يلي:

١- الانتخابات في إطارها الواقعي وليس القانوني تتم في الأطر الدينيَّة ثم الطائفيَّة.

٢- توزيع الرئاسات يتم في الإطار العرفي المتفق عليه، ففي لبنان مثلًا: رئيس الجمهوريَّة نصراني ماروني، ورئيس الحكومة مسلم سني، ورئيس المجلس النيابي شيعي.

٣- المصالح الطائفيَّة مقدمة على المصالح الوطنيَّة.

٤- تسود أعمال المجلس النيابي روح التربص أكثر من روح التعاون.

٥- الخلافات في داخل المجلس النيابي تستمد خلفيتها من الصراع الطائفي.

٦- استمرار بقاء الديمقراطيَّة الجبريَّة متعلِّق باستمرار وجود حالة التوازن في التمثيل الطائفي.

٧- البديل للديمقراطيَّة الجبريَّة هو التقسيم الجغرافي على أسس طائفيَّة، وهذا لا يمكن أن يحصل إلا عبر حرب أهليَّة، وعندما تعجز كافَّة الأطراف عن تحقيق مكاسب على الساحة الجغرافيَّة يعود الجميع قسرًا وجبرًا إلى التعايش الحرج في إطار الديمقراطيَّة الجبريَّة.

٨- تمرير أي طائفة من الطوائف لقرار من القرارات من خلال المجلس النيابي يعتمد بالإضافة إلى عدد الأصوات الداعمة له على القوى المختلفة التي تدعمه من خارج المجلس، وخاصَّة القوى العسكريَّة والقوى السياسيَّة المحليَّة والوافدة.

٩- حلّ المجلس النيابيّ في دول الديمقراطيَّة الجبريَّة يعتبر من أصعب القرارات السياسيَّة.

١٠- القرارات الوطنيَّة البحتة والمتعلِّقة بأمن البلاد واستقرارها وتحريرها من القوات الأجنبيَّة الغازيَّة، يمكن أن تكون محل خلاف، مما يكرِّس السيطرة الأجنبيَّة ويساعد على إبقائها.

الملامح المشتركة لمدارس مفهوم الديمقراطيَّة:

من خلال ما تقدم يمكن الإشارة إلى الملامح المشتركة للمدارس الديمقراطيَّة كما يلي:

١- جميع تلك المدارس تشترك في كونها نتاج البشر، متحررة تمامًا من أي استدلال ربانيٍّ.

٢- إنَّها تستمد شرعيتها الحقيقية من مراكز القوى الحاكمة، سواء أكانت طبقة، أو حزبًا، أو عسكرًا، أو عائلة، أو طائفة . . ومع ذلك فإنَّها جميعًا تدعي استمداد شرعيتها الحقيقة من الشعب.

٣- إنَّ المجالس النيابيَّة، رغم كون دورها تشريعيًّا ورقابيًّا، فإنَّها لا تمارس هذه الصلاحيات بشكل مستقلٍّ، بل بحسب ما يوَدُّه النظام الحاكم.

٤- إنَّ النظام الحاكم يستطيع شراء عدد غير قليل من ذمم النوَّاب بما يغدقه عليهم من الأعطية والامتيازات، بما يجعلهم في النهاية موظفين لصالح خدمة مصالحه.

٥- من خلال المجالس النيابيَّة يصادَر أي تحرك شعبي، بحجَّة أن ممثليه في المجلس، فعلام التحرك.

٦- الأخلاقيَّات والسلوكيَّات تهدر قيمها الحقيقيَّة في جميع المدارس الديمقراطيَّة.

٧- في العالم الثالث: المجالس النيابيَّة كالخاتم في يد النظام الحاكم يلبسه متى يشاء، ويخلعه متى يشاء[1].

---

(١) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، العلمانية نشأتها وتطورها، إشكالية مفهوم الديمقراطية من خلال مدارسها، سامي محمد صالح الدلال، مفهوم التعددية الديمقراطية وعلاقته بالأقليات، أحمد الخطيب، حكم الإسلام في الديمقراطية والتعددية الحزبية، عبد المنعم حليمة، الديمقراطية المنفصلة عن القيمة، د. عبد الوهاب المسيري، التيار القومي العربي والعودة إلى الديمقراطية، غازي التوبة.

العولمة

التعريف:

العولمة مذهب فكريٌّ يهدف إلى جعل العالم عالمًا واحدًا، موجهًا توجيهًا واحدًا في إطار حضارة واحدة، ولذلك قد تسمّى الكونيَّة أو الكوكبة.

فالعولمة هي الحالة التي تتم فيها عمليَّة تغيير الأنماط والنظم الاقتصاديَّة والثقافيَّة والاجتماعيَّة ومجموعة القيم والعادات السائدة وإزالة الفوارق الدينيَّة والقوميَّة والوطنيَّة في إطار تدويل النظام الرأسمالي الحديث وفق الرؤية الأمريكيَّة المهيمنة، والتي تزعم أنها سيدة الكون وحامية النظام العالمي الجديد.

تاريخ ونشأة العولمة

اختلف الباحثون في التأريخ لنشأة العولمة على قولين:

الأول: يرى هؤلاء الباحثون أنَّ ظاهرة العولمة قديمة، عمرها خمسة قرون، أي ترجع إلى القرن الخامس عشر -زمن النهضة الأوربيَّة الحديثة- حيث التقدم العلمي في مجال الاتصال والتجارة.

الثاني: يرى فريق آخر أنَّ العولمة ظاهرة جديدة، فما هي إلا امتداد للنظام الرأسمالي الغربي بل هي المرحلة الأخيرة من تطور النظام الرأسماليِّ العلمانيِّ الماديِّ النفعيِّ، وقد برزت في المتصف الثاني من القرن العشرين نتيجة أحداث سياسيَّة واقتصاديَّة معيَّنة، منها: انتهاء الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتَّحدة الأمريكيَّة عام ١٩٦١م ثم سقوط الاتحاد السوفيتي سياسيًا واقتصاديًا عام ١٩٩١م، وما أعقبه من انفراد الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة بالتربُّع على عرش الصدارة في العالم المعاصر وانفرادها بقيادته السياسيَّة والاقتصاديَّة والعسكريَّة.

ومنها: بروز القوة الاقتصاديَّة الفاعلة من قبل المجموعات الماليَّة والصناعيَّة الحرَّة عبرة شركات ومؤسسات اقتصاديَّة متعددة الجنسيَّات مدعومة بصورة قويَّة وملحوظة من دولها.

وقد طرح تعبير العولمة في التداول السياسيِّ من قبل كتَّاب أمريكان في السبعينات وبالتحديد من كتاب ماك لوهان وكينتين فيور: حول الحرب والسلام في القرية الكونيَّة، وكتاب بريجسكي مستشار الرئيس الأمريكي جيمي كارتر: بين عصرين- دور أمريكا في العصر الإلكتروني.

- ويرجع صاحبا كتاب فخ العولمة البداية الحقيقيَّة للعولمة إلى عام ١٩٩٥م، حيث وجَّه الرئيس السوفيتي السابق غورباتشوف الدعوة إلى خمسمائة من قادة العالم في مجال السياسة والمال والاقتصاد في فندق فيرمونت المشهور في سان فرانسيسكو لكي يبنوا معالم الطريق إلى القرن الحادي والعشرين. وقد اشترك في هذا المؤتمر المغلق أقطاب العولمة في عالم الحاسوب والمال وكذلك كهنة الاقتصاد الكبار، وأساتذة الاقتصاد في جامعات ستانفورد، وهارفرد وأكسفورد. واشترك فيها

من السياسيِّين، الرئيس الأميركي جورج بوش الأب، ووزير خارجيته شولتز، ورئيسة الوزراء البريطانيَّة مارجريت تاتشر، ورئيس وزراء مقاطعة سكسونيا وغيرهم.

- إنّ معظم الكُتَّاب يجمعون على أنَّ هناك أربعة أسباب أساسية يعتقدون أنَّها أدت إلى بروز تيَّار العولمة، وهي:

١- **تحرير التجارة الدوليَّة**: ويقصدون به تكامل الاقتصاديات المتقدمة والناميَّة في سوق عالمية واحدة، مفتوحة لكافة القوى الاقتصاديَّة في العالم وخاضعة لمبدأ التنافس الحرّ.

٢- **تدفق الاستثمارات الأجنبيَّة المباشرة**: حدثت تطورات هامَّة خلال السنوات الأخيرة تمثلت في ظهور أدوات ومنتجات ماليَّة مستحدثة ومتعددة، إضافة إلى أنظمة الحاسب الآلي ووسائل الاتصال والتي كفلَت سرعة انتشار هذه المنتجات، وتحوَّلت أنشطة البنوك التقليديَّة إلى بنوك شاملة، تعتمد إلى حدٍ كبيرٍ على إيراداتها من العمولات المكتسبة من الصفقات الاستثماريَّة من خارج موازنتها العموميَّة ويرجع ذلك إلى سببين رئيسين هما:

- تحرير أسواق النقد العالميَّة من القيود.
- الثورة العالميَّة في الاتصالات الناجمة عن الوسائل والأدوات التكنولوجيَّة الجديدة.

٣- **الثورة المعرفيَّة**: وتتمثل في التقدُّم العلميّ والتكنولوجيّ، وهو ميزة بارزة للعصر الراهن، وهذا التقدُّم العلمي جعل العالم أكثر اندماجًا، كما سهَّل حركة الأموال والسلع والخدمات، وإلى حد ما حركة الأفراد، ومن ثمَّ برزت ظاهرة العولمة، والجدير بالذكر أنَّ صناعة تقنية المعلومات تترَّكز في عددٍ محدودٍ، ومن الدول المتقدِّمة أو الصناعيَّة دون غيرها.

٤- **تعاظم دور الشركات متعددة الجنسيَّات**: هذا العصر بأنَّه عصر العولمة فمن الأصحّ وصفه بأنَّه عصر الشركات متعددة الجنسيَّات باعتبارها العامل الأهم لهذه العولمة. ويرجع تأثير هذه الشركات كقوة كبرى مؤثرة وراء التحولات في النشاط الاقتصادي العالمي إلى الأسباب التالية:

- تحكُّم هذه الشركات في نشاطٍ اقتصاديٍّ في أكثر من قطر وإشاعتها ثقافة استهلاكيَّة موحدة.
- قدرتها على استغلال الفوارق بين الدول في هبات الموارد.
- مرونتها الجغرافيَّة.

ممهدات ظهور العولمة

إنَّ هذه الصورة من العولمة لم تكن لتظهر فجأة دون بدايات أو مقدمات مهدت لها بصورة فاعلة ومخطط لها من القوى الرأسماليَّة ذات النزعة الاستعماريَّة. ومن ذلك إنشاء منظَّمة الأمم المتَّحدة، وما تبعها من مؤسسات ماليَّة دوليَّة: البنك الدولي للإنشاء والتعمير، وصندوق النقد الدولي، ثمّ اتفاقيَّة «الجات» (الاتفاقيَّة العامة على الرسوم الجمركيَّة والتجارة) التي تعود في تاريخها إلى سنة ١٩٤٧م حيث اجتمعت ثلاث وعشرون دولة صناعيَّة في جنيف للنظر في تحرير التجارة وفتح

الأبواب بين هذه الدول، وبدأت سريان هذه الاتفاقيَّة منذ أول يناير ١٩٤٨م، وبلغ عدد الدول الموقعة عليها سنة ١٩٩٣م مائة وسبع عشرة دولة.

ثمّ معاهدة «ماستريخت» التي ضمَّت خمسة عشر بلدًا صناعيًّا وظهور المناطق التجاريَّة الحرة، والاتحادات الجمركيَّة، ثم الأحداث السياسيَّة التي تتمثل بانتهاء الحرب الباردة، ثم قيام الرئيس السوفيتي الأسبق-ميخائيل غورباتشوف- وبدعم أمريكي ملحوظ عام ١٩٨٥م بالإعلان عن إصلاح النظام الاقتصاديِّ الشيوعيِّ الذي سمي وقتها «البيروستويكا» وقد كان هذا الإعلان بمثابة الإعلان عن سقوط الشيوعية وانهيار الاتحاد السوفيتي سياسيًّا واقتصاديًّا، وما تلاه من سقوط حائط برلين عام ١٩٨٩م، واتحاد الألمانيتين، ثم حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١وما أسفرت عنه من تثبيت القواعد الأمريكيَّة العسكريَّة في منطقة الخليج العربي. كل هذه الأحداث ساهمت إلى حد بعيدٍ في تربع الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة على عرش النفوذ العالمي، وبالتالي برز مصطلح «النظام العالمي الجديد» و«الأحاديَّة القطبيَّة والعولمة».

وظهر أوّل نظام تجاري دولي ملزم للأقطار المنضوية تحت لوائه في شهر نيسان سنة ١٩٩٥م، حيث أعلن عن إنشاء المنظَّمة العالميَّة للتجارة (o.t.w) بمدينة مراكش المغربيَّة، وهي امتداد لاتفاقية الجات. وهذه المنظمة تمثِّل أحد أركان النظام الاقتصادي العالمي الجديد، وتختص بأعمال إدارة ومراقبة وتصحيح أداء العلاقات التجاريَّة، وستكون عامل مساعد للبنك الدولي وصندوق النقد الدولي لتنفيذ وإقرار النظام الاقتصادي العالمي الجديد. وأخيرًا تم دعم صرح العولمة بالتوقيع -في شباط عام ١٩٩٧م بمدينة جنيف بسويسرا- على أول اتفاق دوليٍّ يتعلق بتحرير المبادلات الخدماتيَّة المتطورة، وخاصَّة فيما عرف «بالتكنولوجيا المعلوماتيَّة» أو ثورة الاتصالات.

وممّا ساعد على سرعة انتشار ظاهرة العولمة انضمام كثير من دول شرق أوربا إلى الحلف الأطلسي، وانفتاح دول أخرى على الحلف نفسه، وانضمام كثير من الدول العربيَّة إلى المنظمة العالمية للتجارة، وبقيَّة الدول تتفاوض للانضمام، ثم المؤتمرات الاقتصاديَّة المتلاحقة التي تنظر لهذه العولمة كأمر حتمي لا مفرَّ منه، وإظهار مزاياها الاقتصاديَّة والتنمويَّة ومن أشهرها «منتدى دافوس الاقتصاديّ» ثم المشروعات الاقتصاديَّة الإسرائيليَّة التي تستهدف عولمة الشرق الأوسط لصالح المشروع الصهيوني الذي يتمثل في دولة إسرائيل الكبرى، التي تسعى لتحقيقه اقتصاديًّا وثقافيًّا عبر بوابات اتفاقيات السلام التي تعقدها منفردة مع الدول العربيَّة، والاتفاقيات الاقتصاديَّة الثنائيَّة مع دول المنطقة وعبر بوابات التطبيع، التي تهيء لها بكلِّ قوةٍ الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة وحلفاؤها في المنطقة العربيَّة، وقد أضفى ذلك كله بعدًا استراتيجيًّا جديدًا على دعم الدور الأمريكي -ومن ورائه القوى الصهيونيَّة المتحكمة في السياسة والقيادة الأمريكيَّة- لقيادة النظام العالمي الجديد.

ومؤخرًا، ساهمت ثلاثة عوامل في الاهتمام بمفهوم العولمة في الفكر والنظريَّة، وفي الخطاب السياسيِّ الدولي:

١- عولمة رأس المال أي تزايد الترابط والاتصال بين الأسواق المختلفة حتى وصلت إلى حالة أقرب إلى السوق العالمي الكبير، خاصة مع نمو البورصات العالميَّة.

٢- التطور الهائل في تكنولوجيا الاتصال والانتقال والذي قلَّل- إلى حد كبير- من أثر المسافة، وانتشار أدوات جديدة للتواصل بين أعداد أكبر من النَّاس كما في شبكة الإنترنت.

٣- عولمة الثقافة وتزايد الصلات غير الحكوميَّة والتنسيق بين المصالح المختلفة للأفراد والجماعات، فيما يسمى الشبكات الدوليَّة، حيث برز التعاون استنادًا للمصالح المشتركة بين الجماعات عبر القوميَّة مما أفرز تحالفات بين القوى الاجتماعيَّة على المستوى الدولي، خاصَّة في المجالات النافعة مثل: الحفاظ على البيئة، أو في المجالات غير القانونيَّة كتنظيف الأموال والمافيا الدوليَّة للسلاح.

عناصر العولمة

إنَّ العولمة تتكون من العناصر الرئيسيَّة التالية:

١- **تعميم الرأسماليَّة**: إن تغلُّبَ الرأسماليَّة على الشيوعيَّة جعلها تعمم مبادئها على كلِّ المجتمعات الأخرى، فأصبحت قيم السوق، والتجارة الحرة، والانفتاح الاقتصادي، والتبادل التجاري، وانتقال السلع ورءوس الأموال، وتقنيات الإنتاج والأشخاص، والمعلومات، هي القيم الرائجة، وتقود ذلك أمريكا وتفرضها عن طريق المؤسسات العالمية التابعة للأمم المتَّحدة، وخاصة مؤسسة البنك الدولي، ومؤسسة النقد الدولي، وعن طريق الاتفاقات العالميَّة التي تقرها تلك المؤسسات كاتفاقيَّة الجات والمنظمة العالميَّة للتجارة وغيرها.

٢- **القطب الواحد**: تفردت أمريكا بقيادة العالم بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، وتفكيك منظومته الدوليَّة المسمى (حلف وارسو)، إنَّه لم تبلغ دولة عظمى في التاريخ قوَّة أمريكا العسكريَّة والاقتصاديَّة، مما يجعل هذا التفرد خطيرًا على الآخرين في كلِّ المجالات الاقتصاديَّة، والسياسيَّة، والثقافيَّة، والاجتماعيَّة.

٣- **ثورة التقنيات والمعلومات**: مرَّت البشريَّة بعدَّة ثورات علميَّة منها ثورة البخار والكهرباء والذرَّة، وكان آخرها الثورة العلميَّة والتكنولوجيَّة وخاصَّة في مجال التطورات السريعة والمدهشة في عالم الحاسوب الآلي (الكمبيوتر)، وتوصل الحاسوب الآلي الحالي إلى إجراء أكثر من مليارين عمليَّة مختلفة في الثانية الواحدة، وهو الأمر الذي كان يستغرق ألف عام لإجرائه في السابق، أما المجال الآخر من هذه الثورة فهو التطورات المثيرة في تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، والتي تتيح للأفراد والدول والمجتمعات للارتباط بعدد لا يحصى من الوسائل التي تتراوح بين الكبلات الضوئيَّة، والفاكسات ومحطات الإذاعة، والقنوات التلفزيونيَّة الأرضيَّة والفضائيَّة، التي تبث برامجها المختلفة عبر حوالي ٢٠٠٠ مركبة فضائيَّة، بالإضافة إلى أجهزة الكمبيوتر، والبريد الإلكتروني، وشبكة المعلومات الدوليَّة، التي تربط العالم بتكاليف أقل، وبوضوح أكثر على مدار

الساعة، لقد تحوَّلت تكنولوجيا المعلومات إلى أهم مصدر من مصادر الثروة، أو قوة من القوى الاجتماعيَّة والسياسيَّة والثقافيَّة الكاسحة في عالم اليوم.

أهداف وآثار العولمة

أولًا: الأهداف والآثار الاقتصاديَّة:

ترتبط عمليَّة العولمة بتدويل النظام الاقتصادي الرأسمالي، حيث تمّ توحيد الكثير من أسواق الإنتاج والاستهلاك، وتمّ التدخل الأمريكي في الأوضاع الاقتصاديَّة للدول، وخاصة دول العالم الثالث، عبر المؤسسات الماليَّة الدوليَّة: كصندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، التي تمارس الإملاءات الاقتصاديَّة المغايرة لمصالح الشعوب، وبالتالي تحقق العولمة لأصحابها عدة أهدف كبيرة في المجال الاقتصاديّ هي:

١- السيطرة على رءوس المال العربيَّة، واستثماراتها في الغرب.

٢- الهيمنة الأمريكيَّة على اقتصاديات العالم من خلال القضاء على سلطة وقوة الدولة الوطنيَّة في المجال الاقتصاديّ، بحيث تصبح الدولة تحت رحمة صندوق النقد الدولي، حين تستجدي منه المعونة والمساعدة عبر بوابة القروض ذات الشروط المجحفة، وخاضعة لسيطرة الاحتكارات والشركات الأمريكيَّة الكبرى على اقتصاد الدول.

٣- تحقيق مصالح المجموعات الغنيَّة في الدول الغربيَّة والقوى المتحالفة معها في الدول الأخرى على حساب شعوب العالم. وترتّب على هذا الهدف ما يلي:

- إنهاء دور القطاع العام وإبعاد الدولة عن إدارة الاقتصاد الوطني.
- عولمة الوحدات الاقتصاديَّة وإلحاقها بالسوق الدوليَّة لإدارتها مركزيًّا من الخارج.
- العمل على اختراق السوق العربيَّة من قبل السوق الأجنبي.
- إدارة الاقتصاديات الوطنيَّة وفق اعتبارات السوق العالميَّة بعيدًا عن متطلبات التنمية الوطنيَّة.
- العمل على إعادة هيكلة المنطقة العربيَّة في ضوء التكتلات الدوليَّة.

- إغواء الدول المتواضعة تقنيًّا وعلميًّا واقتصاديًّا بمشاركة العمالقة في مشاريع عابرة القارات، وهذه المشاريع كل مكوناتها من الخارج، وربما فتحوا لهم بعض الأسواق، وبعد أن يكون البلد الفقير قد دفع دم الشعب، وضحَّى بحاضره ومستقبله في مثل هذه المشاريع تتم عمليَّة السيطرة أو الإجهاض.

- السيطرة الاقتصاديَّة ذات المظاهر المتعددة، منها: شراء موارد الدول المستضعفة وموادها الخام بأقل الأسعار، وإعادة تصنيعها ثمّ بيعها لها في صورة جديدة بأغلى الأسعار، وفي حالة البترول يضيفون إليه ضريبة يسمونها ضريبة الكربون، وهي تعني ضريبة تلوث أجوائهم نتيجة الشطط التصنيعي.

٤- تركيز الثروة الماليَّة في يد قلَّةٍ من الناس أو قلَّةٍ من الدول.

٥- سيطرة الشركات العملاقة عمليًا على الاقتصاد العالمي، إنَّ خمس دول -الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة واليابان وفرنسا وألمانيا وبريطانيا- تتوزع فيما بينها ١٧٢ شركة من أصل مائتي شركة من الشركات العالمية العملاقة.

٦- تعميق التفاوت في توزيع الدخل والثروة بين الناس بل بين المواطنين في الدولة الواحدة، واختزال طاقات شعوب العالم إلى طاقة دفع لماكينة الحياة البرجماتيَّة الاستهلاكيَّة للقوى الرأسماليَّة والسياسة الغربيَّة المسيطرة.

٧- استئثار قلَّة من سكان الدولة الواحدة بالقسم الأكبر من الدخل الوطني والثروة المحليَّة، في الوقت الذي يعيش أغلبيَّة السكان حياة القلَّة والشقاء.

٨- النمو المطرد للبطالة، وانخفاض الأجور وما يرتبط بها من تقليص في قدرة المستهلكين واتساع دائرة المحرومين.

٩- فرض السياسات الاقتصاديَّة والزراعيَّة على دول العالم -وخاصة الناميَّة- بهدف تعطيل التنمية الاقتصاديَّة، وإبقائها سوقًا استهلاكيَّة رائجة للمنتجات الغربيَّة، وتسليم إرادتها السياسيَّة للقوى الحاكمة في أمريكا.

١٠- إضعاف قوة موارد الثروة الماليَّة العربيَّة المتمثلة في النفط حيث تم إضعاف أهميته كسلعة حينما تم استثناؤه من السلع التي تخضع لحريَّة التجارة الدوليَّة -أسوة بتجارة المعلومات- من تخفيض الضرائب والقيود الجمركيَّة المفروضة عليه من الدول المستهلكة.

١١- ارتفاع أسعار المواد الغذائيَّة في الدول الإسلاميَّة، نتيجة إلغاء هذه الدول الدعم الماليَّ الذي كانت تقدِّمه للسلع الغذائيَّة، وبسبب الاحتكار والمنافسة غير المتكافئة من الدول الكبرى، وبسبب قيود الجودة وشروط المواصفات العالميَّة التي تفرضها الاتفاقيات التجاريَّة والصناعيَّة الدوليَّة، وهي شروط لا تقدر الدول الإسلاميَّة الناميَّة على الوفاء بها.

١٢- ظهور عمليَّة الإغراق التي ترتبط بالسعر، وذلك بأن تطرح في الأسواق سلع مستوردة بأسعار تقل كثيرًا عن سعر المثيل في السوق المحليِّ، أو عن سعر المثيل في سوق الدولة المنتجة لهذه السلعة وتصدرها، أو انخفاض سعر البيع عن سعر تكلفة الإنتاج، ويتم تداولها لفترة زمنيَّة، بهدف استرداد نفقاتها وتحقيق الربح، تلك هي الحالات الثلاث التي تعتبر فيها السلع المستوردة بمثابة سلع أو واردات إغراق. وهذه المشكلة ظهرت مع دخول العولمة وإلغاء التعرفة الجمركيَّة، أو الحد منها على بعض السلع، حيث كان قديمًا لا يمكن حدوث ذلك لأنَّ الدول كانت تتحكم في سعر السلعة بزيادة سعر الجمارك، مما يؤدي إلى زيادة سعر المنتج المستورد عن المنتج المحلي أو على الأقل يساويه في الثمن، ولكن مع فتح الأسواق أمام التجارة العالميَّة، فإننا سنشهد حالات إغراق كثيرة، وكذلك تجاوزات لا نضمن إلى أي مدى ستصل عواقبها.

ثانيًا: الأهداف والآثار السياسيَّة:

١- فرض السيطرة السياسيَّة الغربيَّة على الأنظمة الحاكمة والشعوب التابعة لها، والتحكم في مركز القرار السياسي وصناعته في دول العالم لخدمة المصالح الأمريكيَّة والقوى الصهيونيَّة المتحكمة في السياسة الأمريكيَّة نفسها، على حساب مصالح الشعوب وثرواتها الوطنيَّة والقوميَّة وثقافتها ومعتقداتها الدينيَّة.

يقول صموئيل هنتنغتون في دراسته المسماة «المصالح الأمريكيَّة ومتغيرات الأمن»، التي نُشرتها «مجلة الشئون الخارجيَّة» في حزيران ١٩٩٣م-: «إنَّ الغرب بعد سقوط الاتحاد السوفيتي بحاجة ماسَّة إلى عدو جديد يوحد دوله وشعوبه، وأنَّ الحرب لن تتوقف، حتى لو سكت السلاح وأُبرمت المعاهدات، ذلك أنَّ حربًا حضاريَّةً قادمةً ستستمر بين المعسكر الغربي الذي تتزعمه أمريكا وطرف آخر، قد يكون عالم الإسلام أو الصين».

٢- إضعاف فاعليَّة المنظمات والتجمعات السياسيَّة الإقليميَّة والدوليَّة والعمل على تغييبها الكامل كقوى مؤثرة في الساحة العالميَّة والإقليميَّة ومن ذلك: منظمة الدول الأمريكيَّة، ومنظمة الوحدة الأفريقيَّة، والجامعة العربيَّة، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، والمتابع لنشاطات هذه المنظمات يلاحظ أنَّها لا تستطيع اتخاذ أي موقف تجاه القضايا السياسيَّة المعاصرة وتجاه الأحداث الجارية مثل قضايا: فلسطين، والبوسنة والهرسك، وكشمير وألبان كوسوفو، والشيشان، والعراق.

٣- إبقاء الدول الإسلاميَّة -خاصة- منقوصة السيادة، حتى تبقى هذه الدول ضعيفة وتابعة للهيمنة السياسيَّة الغربيَّة.

٤- إضعاف سلطة الدولة الوطنيَّة، أو إلغاء دورها وتقليل فاعليتها، وقتل روح الانتماء في نفوس أبنائها، فالعولمة نظام يقفز على الدولة والوطن والأمَّة، واستبدال ذلك بالإنسانيَّة، إنَّها نظام يفتح الحدود أمام الشبكات الإعلاميَّة، والشركات المتعددة الجنسيات(٧٧) ويزيل الحواجز التي تقف حائلًا دون الثقافة الرأسماليَّة الماديَّة والغزو الفكري، الذي يستهدف تفتيت وحدة الأمَّة، وإثارة النعرات الطائفيَّة، وإثارة الحروب والفتن داخل الدولة الواحدة كما في السودان.

٥- إضعاف دور الأحزاب السياسيَّة في التأثير في الحياة السياسيَّة في كثير من دول العالم - خاصَّة الدول الإسلاميَّة- في الوقت التي بدأت فيه المنظمات غير الحكوميَّة والجمعيَّات الأهليَّة تمارس دورًا متزايدًا في الحياة السياسيَّة.

٦- إنَّ العولمة لا تكتفي بواقع التجزئة العربيَّة والإسلاميَّة الآن، بل تحاول إحداث تجزئة داخليَّة في كلِّ بلدٍ عربي أو إسلاميّ، حتَّى ينشغلوا بأنفسهم وينسوا تمامًا أنَّهم أمَّة عربيَّة واحدة ينتمون إلى جامعة إسلاميَّة واحدة. وهذا معناه بعثرة الشعوب المسلمة وتفرُّقها، والقضاء على مقومات الوحدة والتضامن الإسلامي، وتفريغ المنظمات والتجمعات الإسلاميَّة من مضامينها الحقيقيَّة حتَّى تبقى عاجزة عن تحقيق آمال وأماني المسلمين ولتصبح أداة طيعة في خدمة المخططات

الاستعماريَّة الغربيَّة.

ثالثًا: الأهداف والآثار الثقافيَّة:

تقوم العولمة في الجانب الثقافي علي انتشار المعلومات، وسهولة حركتها، وزيادة معدلات التشابه بين الجماعات والمجتمعات، أي تقوم علي إيجاد ثقافة عالميَّة، وعولمة الاتصالات، عن طريق البث التليفزيوني عبر الأقمار الصناعيَّة، وبصورة أكثر عمقًا خلال شبكة الإنترنت التي تربط البشر بكلِّ أنحاء المعمورة. ومن الأهداف التي ترمي إليها العولمة في الجانب الثقافيِّ:

١- تسييد الثقافة الرأسماليَّة لتصبح الثقافة العليا، كما أنَّها ترسم حدودًا أخرى مختلفة عن الحدود الوطنيَّة مستخدمة في ذلك شبكات الهيمنة العالميَّة على الاقتصاد والأذواق والثقافة. هذه الحدود هي: «حدود الفضاء (السبرنيتي) والذي هو بحقّ وطن جديد لا ينتمي لا إلى الجغرافيا ولا إلى التاريخ، هو وطن بدون حدود، بدون ذاكرة، إنَّه وطن تبنيه شبكات الاتصال المعلوماتيَّة الإلكترونيَّة».

٢- تجاوز الحدود التي أقامتها الشعوب لتحمي كيان وجودها، وما له من خصائص تاريخيَّة وقوميَّة وسياسيَّة ودينيَّة، ولتحمي ثرواتها الطبيعيَّة والبشريَّة وتراثها الفكري الثقافي، حتى تضمن لنفسها البقاء والاستمرار والقدرة على التنميَّة ومن ثمَّ الحصول على دور مؤثر في المجتمع الدولي.

٣- الترويج لفلسفة النظام الغربي الرأسمالي النفعي البرجماتي، وفرض الثقافة الغربيَّة الوافدة وجعلها في محلِّ الصدارة والهيمنة في العالم وقهر الهوية الثقافيَّة للأمم والشعوب الأخرى، على أن تظل الثقافات الأخرى محدودةً في نطاق السلوك الفردي لا تتعداه، فالدساتير والنظم والقوانين والقيم الأخلاقيَّة يجب أن تستمد من الفلسفة الماديَّة النفعيَّة، ومن ثقافة الرجل الأبيض العلمانيَّة، المناهضة للعقائد والشرائع السماويَّة.

٤- إنَّ المستهدَف بهذا الغزو الثقافي هم المسلمون. وذلك لما يلي:

- ما تملكه بلادهم من مواد أوليَّة هائلة يأتي على رأسها النفط والغاز وثروات طبيعيَّة أخرى.

- ما ثبت لهم عبر مراكزهم وبحوثهم وجامعاتهم ومستشرقيهم من أنَّ هذه الأمَّة مستعصية على الهزيمة، إذا حافظت على هويتها الإسلاميَّة ومن ثم فالطريق الوحيد لإخضاعها يتمثَّل في القضاء على تفرد شخصيتها وإلغاء دينها الذي يبعث فيها الثورة والرفض لكلِّ أشكال الاحتلال والسيطرة.

- الحفاظ على أمن الكيان الصهيوني في قلب العالم الإسلامي، وهو من أهم أهداف العولمة في بلاد العرب والمسلمين.

- الحضارة الإسلاميَّة بعقيدتها وشريعتها ونظام أخلاقها وإنجازاتها التاريخيَّة هي النقيض الوحيد الشامل لفلسفة العولمة ودينها وأنظمتها وقيمها الهابطة في هذه الدنيا التي نعيش فيها.

ومن آثار العولمة في الهوية الثقافيَّة:

١- شيوع الثقافة الاستهلاكيَّة -لأنَّ العولمة تمجِّد ثقافة الاستهلاك- التي استخدمت كأداة قويَّة فاعلة في إطلاق شهوات الاستهلاك إلى أقصى عنان ومن ثمَّ تشويه التقاليد والأعراف السائدة في العالم الإسلامي.

٢- تغريب الإنسان المسلم وعزله عن قضاياه وهمومه الإسلاميَّة، وإدخال الضعف لديه، والتشكيك في جميع قناعته الدينيَّة، وهويته الثقافيَّة.

٣- إشاعة ما يسمى بأدب الجنس وثقافة العنف التي من شأنها تنشئة أجيال كاملة تؤمن بالعنف كأسلوب للحياة وكظاهرة عادية وطبيعيَّة.

٤- ومن آثار عولمة الثقافة انتشار نوعيَّة مميزة من الثقافة المادِّيَّة والمعنويَّة الأمريكيَّة حيث سيطرت الثقافة الأمريكيَّة الشعبيَّة على أذواق البشر فأصبحت موسيقى وغناء مايكل جاكسون، وتليفزيون رامبو، وسينما دالاس هي الآليات والنماذج السائدة في مختلف أنحاء العالم وأصبحت اللغة الإنجليزيَّة ذات اللكنة الأمريكيَّة هي اللغة السائدة.

٥- ومن آثار العولمة في طمس الهوية الثقافيَّة للأمَّة الإسلاميَّة انتشار الأزياء والمنتجات الأمريكيَّة في كثير من الدول الإسلاميَّة، لأنَّ هذه السلع تحمل في طياتها ثقافة مغايرة تسحق ثقافات الأمم المستوردة لها وظهور اللغة الإنجليزيَّة على واجهات المحلات والشركات، وعلى اللعب والهدايا وعلى ملابس الأطفال والشباب.

رابعًا: الأهداف والآثار الدينيَّة:

١- التشكيك في المعتقدات الدينيَّة وطمس المقدسات لدى الشعوب المسلمة لصالح الفكر المادِّيِّ اللادينيِّ الغربيِّ، أو إحلال الفلسفة المادِّيَّة الغربيَّة محل العقيدة الإسلاميَّة.

٢- استبعاد الإسلام وإقصاؤه عن الحكم والتشريع، وعن التربيَّة والأخلاق وإفساح المجال للنظم والقوانين والقيم الغربيَّة المستمدَّة من الفلسفة المادِّيَّة والعلمانيَّة البرجماتيَّة.

٣- تحويل المناسبات الدينيَّة إلى مناسبات استهلاكيَّة، وذلك بتفريغها من القيم والغايات الإيمانيَّة إلى قيم السوق الاستهلاكيَّة، فعلى سبيل المثال: استطاع التقدُّم العلمي والتقني الحديث أن يحوِّل شهر رمضان (شهر الصوم والعبادة والقرآن) وعيد الفطر خاصة من مناسبة دينيَّة إلى مناسبة استهلاكيَّة.

٤- الحماية الدوليَّة المعنويَّة والمادِّيَّة باسم الحريَّة والديمقراطيَّة وحقوق الإنسان للقوى المحليَّة العلمانيَّة، التي تقوم بمحاربة الهوية الثقافيَّة الإسلاميَّة، وإثارة الشبه والشكوك حول النظم والتشريعات الإسلاميَّة، وخاصة فيما يتعلق بالعلاقة بين المرأة والرجل وقضايا المرأة المسلمة، وتطالب بعضها جهارًا نهارًا الحكومات والمجالس البرلمانيَّة إصدار القوانين وفق مواثيق الأمم المتَّحدة المتعلقة بحقوق الإنسان بعيدًا عن النظم والتشريعات الإسلاميَّة.

٥- أخطر ما في العولمة نسبيَّة الحقيقة التي تقوم عليها، وهي التي تتصادم تصادمًا مباشرًا مع ثوابت الدين الإسلامي المستمدة من النص: القطعي الثبوت القطعي الدلالة، لذلك نجد أنَّ قوى العولمة تدعم كل من يروج لنسبية الحقيقة.

خامسًا: الأهداف والآثار الاجتماعيَّة والخلقيَّة:

١- التركيز على حريَّة الإنسان الفرديَّة إلى أن تصل للمدى الذي يتحرر فيه من كل قيود الأخلاق والدين والأعراف المرعية، والوصول به إلى مرحلة العدميَّة، وفي النهايَّة يصبح الإنسان أسيرًا لكلِّ ما يعرض عليه من الشركات العالميَّة الكبرى التي تستغله أسوأ استغلال، وتلاحقه به بما تنتجه وتروج له من سلع استهلاكيَّة أو ترفيهيَّة، لا تدع للفرد مجالًا للتفكير في شيء آخر وتصيبه بالخوف.

٢- تكريس النزعة الأنانيَّة لدى الفرد، وتعميق مفهوم الحريَّة الشخصيَّة في العلاقة الاجتماعيَّة، وفي علاقة الرجل بالمرأة، وهذا بدوره يؤدِّي إلى التساهل مع الميول والرغبات الجنسيَّة، وتمرد الإنسان على النظم والأحكام الشرعيَّة التي تنظم وتضبط علاقة الرجل بالمرأة. وهذا بدوره يؤدي إلى انتشار الإباحيَّة والرذائل والتحلل الخلقي وخدش الحياء والكرامة والفطرة الإنسانيَّة.

٣- إنَّ ثقافة العولمة ثقافة ماديَّة بحتة لا مجال فيها للروحانيَّات أو العواطف النبيلة، أو المشاعر الإنسانيَّة، إنَّها تهمل العلاقات الاجتماعيَّة القائمة على التعاطف والتكافل والاهتمام بمصالح وحقوق الآخرين ومشاعرهم. فهي تشكل عالمًا يجعل من الشح والبخل فضيلة، ويشجع على الجشع والانتهازيَّة والوصول إلى الأهداف بأي وسيلة دون أدنى التفات إلى القيم الشريفة السائدة في المجتمع.

٤- لتنفيذ مخططاتهم في هدم كيان المجتمع الإسلامي من خلال المرأة لأهميَّة دورها في بناء كيان الأسرة والمجتمع، ساروا في ثلاثة مسارات في آن واحد، وهي:

أ- التمويل الأمريكيّ والأوربيّ للجمعيَّات والمنظمات الأهليَّة النسائيَّة العلمانيَّة، والاتفاقيَّات الدوليَّة الخاصة بحقوق الإنسان، والمؤتمرات العالميَّة للتعليم والمرأة من أجل تنفيذ مخططات إخراج المرأة المسلمة من الأخلاق الإسلاميَّة، وتمردها على أحكام الشريعة الربانيَّة.

ب - الاتفاقيَّات الدوليَّة الخاصَّة بحماية حقوق الإنسان، وإزالة آثار كافة أشكال التمييز ضد المرأة، وإلزام الدول الإسلاميَّة بالتوقيع عليها، مقابل إعفائها من بعض الديون المترتبة عليها.

ج- المؤتمرات النسائيَّة والتي يقصد بها هدم المجتمعات البشريَّة، ولا سيما المجتمعات الإسلاميَّة. وبمراجعة البحوث التي ألقيت في المؤتمرات النسائيَّة التي عقدت في بعض البلاد الإسلاميَّة، نجدها جميعها تريد إخراج المرأة المسلمة من النظام الاجتماعيِّ الإسلاميِّ الذي ينظر إلى المرأة من خلال فطرتها واستعداداتها وكرامتها.

٥- إنَّ العولمة تجيز الشذوذ الجنسيَّ والعلاقات الجنسيَّة الآثمة بين الرجل والمرأة، بل بين الرجل والرجل. ولبيان هذا الجانب الخطير المدمر للحياة الاجتماعيَّة في العالم الإسلامي، ويظهر ذلك عند مراجعة وثيقة مؤتمر الأمم المتَّحدة المسمَّى المؤتمر الدولي للسُّكَّان والتنمية الذي عقد في القاهرة من ٥- ١٣ سبتمبر عام ١٩٩٤م.

٦-ومن آثار العولمة في الجانب الاجتماعي زيادة معدلات نسبة الجريمة ليس في الدول النامية وحدها، بل في كل الدول الأوربيَّة الغنية.

٧-ومن آثار العولمة في الجانب الاجتماعي أيضًا زيادة معدلات الفقر والبطالة، وتوهين العلاقات الاجتماعيَّة بين الأفراد، والظلم الاجتماعي الذي يصيب الأسر الفقيرة نتيجة تقليص الدولة للدعم الاجتماعي لهذه الأسر.

وسائل العولمة

لجأت القوى الرأسماليَّة الغربيَّة وعلى رأسها الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة إلى الوسائل التالية من أجل تحقيق الأهداف المنشودة من وراء العولمة:

١- إنشاء التكتلات والمنظمات الاقتصاديَّة والتجاريَّة التي تمرّر من خلالها السياسات والإملاءات لصالح العولمة، ومن ذلك اتفاقية الجات (الاتفاقيَّة العامة للتجارة والتعرفة الجمركيَّة) أعضاؤها ١١٧ دولة، وتكتل «النافتا» المكون من كندا وأمريكا والمكسيك، والسوق الأوربيَّة المشتركة و«إيباك» المكون من دول «النافتا» واستراليا ونيوزلندة واليابان وإندونيسيا وماليزيا، ومنظَّمة التجارة العالميَّة التي تنتمي إليها كثير من دول العالم.

٢- استخدام الشرعيَّة الدوليَّة الزائفة وعبر استغلال الأمم المتَّحدة وأجهزتها السياسيَّة والماليَّة والثقافيَّة كالبنك الدولي، ومنظَّمة اليونسكو ومنظَّمة حقوق الإنسان، وغيرها، وكلها تخضع للتوجيه الأمريكي الواضح أو المستتر.

٣- تقديم الدعم الاقتصادي والمعنوي للأنظمة والحكومات المعادية للإسلام، فرض سياسة الحصار والتجويع على الأنظمة المتمردة على الإرادة الأمريكيَّة، أو الأنظمة التي تسعى إلى اتخاذ الإسلام منهجًا وشريعةً للحياة. استخدم العقوبات الدوليَّة التي تفرضها أمريكا -من خلال الأمم المتَّحدة- طبقًا لمعايرها الخاصة التي تحقق أهداف العولمة.

٤- تقييد الحكومات في العالم الإسلامي بالاتفاقيَّات المجحفة الظالمة كاتفاقيَّة منع انتشار الأسلحة النوويَّة والكيماويَّة في الوقت الذي يسمح فيه لليهود ومن على شاكلتهم بامتلاك تلك الأسلحة وتطويرها.

٥- تسخير القوى العلمانيَّة الداخليَّة من الكُتَّاب ورجال الإعلام والتربيَّة لصالح العولمة والاستفادة من جهود المستشرقين وقادة الغزو الفكري.

٦- كتم الصوت الإسلامي المعبر عن آمال الأمَّة وتطلعاتها في الحريَّة والاستقلال وعدم التبعيَّة

للسيطرة الغربيَّة.

٧- الإكثار من المنظمات والجمعيَّات والمؤسسات الخدماتيَّة الأهليَّة ذات الأهداف اللادينيَّة ودعمها ماليًا ومعنويًا.

٨- إحلال الثقافة الغربيَّة من خلال نشر اللغة الإنجليزيَّة، من خلال الأزياء، والمأكولات، والمنتجات الغربيَّة، وإقامة المطاعم الأمريكيَّة (ماكدونالدز) وإقامة شركات إنتاج المواد الغذائيَّة الأمريكيَّة ومن أمثلتها شركة (كوكا كولا) للمشروبات الغازيَّة.

٩- استخدام وسائل الدعاية والإعلام وشبكات الاتصال الحديثة: كالأقمار الصناعيَّة، والقنوات الفضائيَّة، وشاشات الحاسوب، لإحداث التغيرات المطلوبة لعولمة العالم.

١٠- التوسع في قبول الطلاب الأجانب في الجامعات والمعاهد الغربيَّة ففي أمريكا وحدها أكثر من عشرين ألف جامعة ومعهد مهمتها القيام بالبرامج الثقافيَّة التي ترسخ لديهم الثقافة الغربيَّة، وتستخدمهم وسائل للعولمة.

١١- استخدام ما يسمى بالديمقراطيَّة وحقوق الإنسان واعتبارات الحياة المعاصرة ومواثيق الأمم المتَّحدة في محاربة منظومة القيم والأخلاق والتشريعات السائدة في المجتمعات الإسلاميَّة.

١٢- المؤتمرات الاقتصاديَّة، ومؤتمرات التنمية والسُّكَّان، التي تعقد في كافة دول العالم، واستخدامها للترويج لثقافة وفكرة العولمة.

١٣- تنظيم المهرجانات الفنيَّة الغنائيَّة والموسيقيَّة واللقاءات الشبابيَّة التي تشترك فيها فرق ووفود من كل أنحاء العالم.

١٤- استغلال المرأة عبر دعوات لتحقيق المساواة بينها وبين الرجل وسن قوانين عالمية بحجَّة حماية حقوق المرأة.

١٥- سياسة السوق وفتح المجال أمام الشركات الأمريكيَّة والشركات الكبرى متعددة الجنسيَّات للقيام بالاستثمار غير المباشر في دول العالم والاعتماد على خوصصة الشركات والمؤسسات الاقتصاديَّة والخدماتيَّة الوطنيَّة والحكوميَّة، أي نزع ملكيَّة الوطن والأمَّة والدولة لها، ونقلها للخواص من الداخل والخارج، لإضعاف سلطة الدولة والتخفيف من حضورها لصالح ظاهرة العولمة، ومن ثمَّ إحداث هزات ماليَّة في أسواق العالم، وفتح الأسواق المحليَّة أمام السلع ورءوس الأموال والمعلومات الوافدة، وهدم الأسوار الجمركيَّة والقيود أمام التجارة الدوليَّة، وعدم إعطاء الدعم لبعض السلع بحجَّة أنَّ ذلك يضر التنمية، وتسريح الجيوش أو الحد من أعدادها وخوصصة القطاع العام، وتخلِّي الدولة عن دورها في إدارة اقتصادها وحمايته وفق رؤيتها ومصالحها الخاصَّة[١].

(١) انظر: العولمة، د. صالح الرقب.

العصرانيَّة

التعريف:

العصرانيَّة مذهب فكريٌّ مبنيٌّ على الاعتقاد بأنَّ التقدم العلميَّ والثقافة المعاصرة يستلزمان إعادة تأويل التعاليم الدينيَّة التقليديَّة على ضوء المفاهيم الفلسفيَّة والعلميَّة السائدة.

وهي الحركة التي سعت إلى تطويع مبادئ الدين لقيم الحضارة الغربيَّة ومفاهيمها والتي هي ربيبة الثقافة اليونانيَّة وإخضاع الدين لتصوراتها ووجهة نظرها في شئون الحياة.

ولقد زعم أصحاب هذه المدرسة أنَّهم يريدون التجديد لتنهض الأمَّة من كبوتها، ويريدون إعادة كتابة التاريخ الإسلامي من خلال طرح العديد من الدراسات والأبحاث المتعلقة بالتراث؛ إلَّا أنهم عمدوا إلى إحياء وتمجيد الاتجاهات الفكريَّة المنحرفة، وعرضها في إطار عقلانيٍّ تحت مظلَّة الانتماء إلى التراث الإسلاميِّ.

ثم قاموا بطرح العديد من الشعارات الجديدة التي تصل بين مفهومهم عن الإسلام والماركسيَّة، أو القوميَّة والاشتراكيَّة، أو بين الإسلام والديمقراطيَّة الغربيَّة.

تاريخ العصرانيَّة

العصرانيَّة حركة تحديث واسعة نشطت في داخل الأديان الكبرى، داخل اليهوديَّة، وداخل النصرانيَّة، وداخل الإسلام أيضًا، إنَّ هذه الحركة عرفت في الفكر الديني الغربي باسم العصرانيَّة Modernism، وكلمة عصرانيَّة هنا لا تعني مجرد الانتماء إلى هذا العصر ولكنها مصطلح خاصٌّ؛ إذ تعني العصرانيَّة في الدين.

وهناك قاسمًا مشتركًا بين العصرانيِّين اليهود والنصارى والمسلمين.

- العصرانيَّة عند اليهود:

بدأت في أوائل القرن التاسع عشر الميلاديِّ في ألمانيا نزعات جديدة تظهر بين اليهود، تكونت منها فيما بعد فرقة جديدة عرفت باسم (اليهوديَّة المتحررة)، وتسمى أيضا: اليهوديَّة التجديديَّة أو الإصلاحيَّة.

وكان ذلك يتم للملاءمة بين الديانة اليهوديَّة ومعطيات الحضارة الغربيَّة الجديدة.

وكان الدافع لهذه الحركة هو رغبة اليهود في اللحاق بركب العصر، ثم ألف زعيمها مندلسون العديد من الكتب، وكان شعاره في ذلك: الاستجابة للعادات وأعراف المجتمع العصريَّة، مع المحافظة والإخلاص لدين الآباء.

وكان من شعارات هذه الحركة: أنَّ الدنيا كلَّها تتغير من حولنا فلماذا نتخلف نحن.

وتطورت هذه الحركة اليهوديَّة على يد جيلٍ من المفكِّرين من أحبار اليهود؛ مثل فيرى (هولد هايما)، أنَّ الشريعة الإلهيَّة موقوتة بظروفها وينبغي إيجاد تشريعات بديلة عنها!

ويرى آخرون: أنَّ جوهر اليهوديَّة ليست أشكالها ولا حتَّى شريعتها، ولكنَّ جوهرها هو أخلاقها.

وقد وجدت هذه الحركة ضجَّة كبيرة وسط اليهود، حتَّى إنَّ بعضَهم كان يرى أنَّ موت اليهوديَّة هو تطويعها لمبادئ العصر وإلى هذا التطور المتحرر من كلِّ قيدٍ.

- **التجديد العصرانيُّ للنصرانيَّة:**

في الوقت نفسه الذي كانت تزدهر فيه حركة التجديد في اليهوديَّة، كانت النصرانيَّة بشقيها: الكاثوليكي والبروتستانتي، تشهد تطورات مماثلة تشترك في الهدف نفسه، وهو إيجاد التآلف بين إيمان الآباء وبين أفكار العالم الحديث ومنطلقاته المتطورة.

يقول أحد كُتَّاب الغرب ممن سجلوا هذه الظاهرة، وهو (جون راندال) في كتابه: (تكوين العقل الحديث): (إنَّ الذين دعوا أنفسهم بالمتدينين الأحرار في كلِّ فرقةٍ دينيَّة سواء بين البروتستانت أو اليهود، أو حتَّى الكاثوليك قد ذهبوا إلى القول بأنَّه وإنَّ كان للدين أن يُشكِّل حقيقة حيَّة، وإذا كان له أن يظل تعبيرًا دائمًا عن الحاجات الدينيَّة للجنس البشري فلا بدَّ له أن يتمثَّل الحقيقة والمعرفة الجديدتين، وأن يتآلف مع الشروط المتغيِّرة في العصر الحديث من فكريَّة واجتماعيَّة.

(فالعصرانيَّة تقيم نظرتها على رفض سلطة المنقول؛ لأنَّه يناقض ما أثبته العلم الحديث في نظرها، وتدَّعي أنَّ المنقول سواء تمثل في الأناجيل أو في شروحها، ما هو إلا تعبير عن التطوُّر المرحلي للفكر الديني في العصر الذي كتب فيه . . . وبناء على هذا يعتقد أنَّ الحقائق الدينيَّة تخضع لتفسيرات متطورة حسب تقدم المعرفة البشريَّة، وكلَّما تقدَّمت المعرفة، حدثت تصورات جديدة لحقائق الدين).

ويؤكد هذا المفهوم في تطور الحقائق الدينيَّة بلا ضوابط ثابتة قول أحد كتاب الإنجليز (ثرنون ستور): (العصرانيَّة هي تلك المحاولات التي تبذلها مجموعة من المفكرين لتقديم حقائق الدين المسيحي في قوالب المعرفة المعاصرة. إنَّنا الآن لا نلبس ملابس أجدادنا، ولا نتكلم لغتهم، فلماذا في ميدان اللاهوت نُكرهَ على أن نفكِّر بعقول العصور البالية. . . الويل للكنيسة التي تغمض عينيها فتعمى عن رؤية نعمة المعرفة الجديدة).

وهؤلاء الآباء نقدوا التوراة والإنجيل في إطار ما سُمِّي بالنقد التاريخي؛ إذ يؤكد الراهب (بلويزيا) (أنَّ الأناجيل في صورتها الحالية تشتمل على مجموعة من الأساطير والخرافات؛ لهذا لا يمكن أن تكون هي كلمات الله المقدَّسة، ومن هذه كل ما هو غيبي وخارق للطبيعة). وكان من نتائج هذا النقد التاريخي أن دخلت فكرة التطور في تعاليم الدين، ويتبع ذلك مفهوم نسبيَّة الحقيقة).

وفي الوقت نفسه سار التجديد في البروتستانتيَّة الحرَّة، وتوصلوا إلى النتائج السابقة نفسها عند الكاثوليك الأحرار، وقالوا: إنَّ الكتاب المقدس خليط مما هو إلهي وبشري، وكان عيسى عليه السلام مجرَّد بشرٍ.

ومن الملاحظ أن (البابا) (بيوس العاشر) كان قد أصدر منشورين عن الحركة العصرانيَّة عام (١٩٠٧م) ودمغها بالكفر والإلحاد، ووصفها بأنَّها (مركب جديد لكلِّ عناصر البدع والهرطقة القديمة

- العصرانيَّة في العالم الإسلاميّ:

هذه القصَّة بكلِّ فصولها نقلت إلينا من الغرب، فظهرت لها نزعات مشابهة في العالم الإسلامي منذ القرن الماضي عند بعض المتغربين، والتيار التغريبي، فنادوا بتفسير بعض القضايا الإسلاميَّة تفسيرًا عقلانيًّا، وحاولوا إخضاع القرآن والسُّنَّة للمقاييس الماديَّة حتَّى تتلاءم مع منهج الغرب وقيم الحضارة الحديثة التي بهرت كثيرًا من الذين كانوا يرونها المقياس الوحيد لكلِّ نهوض وتقدُّم.

ثم جاء من سار على خُطا من سبقهم من المعتزلة الجُدد والمدرسة الإصلاحيَّة، ورددوا آراء المستشرقين، ونسبوا كلَّ ذلك إلى أنفسهم، وقلَّما أشاروا في كتاباتهم إلى هذه الجذور المريبة.

والعصرانيُّون ليسوا سواء فهناك من يصدر في كتاباته عن نيَّة صريحة في هدم الإسلام، متأثرًا بأفكارٍ قوميَّة علمانيَّة، أو يساريَّة شيوعيَّة.

وهناك من يحاول إثارة الارتباك في أفكار الإسلاميِّين عن طريق شغلهم باصطلاحات مبتدعة صعبة الضبط، أو عن طريق قلب مواقف التراث بأفكاره وحركاته، فيجعل المنحرفين والضُّلَّال أصحاب انفتاح وثورة، في حين يجعل علماء الإسلام أهل جمود ورجعيَّة. وأكثر العصرانيِّين في هذه المرحلة من هذا الصنف.

ومنهم من يصدر في معالجته لقضايا الإسلام عن مصلحة سياسيَّة يعمل من أجلها، فيركب الموجة في إعلان حربه على أصحاب الصحوة الإسلاميَّة متأثرًا بالأهواء الرخيصة.

ومنهم من يصدر عن حسن نية، محاولًا الاجتهاد، إلا أنَّه يبقى مشدودًا إلى تصورات المناهج الغربيَّة التي تلقاها خلال دراسته أو ابتعاثه إلى ديار الغرب، أو يظلّ متأثرًا بأفكار المعتزلة، أو يكون ممن جُمعت هذه كلّها في عقليته، فوقع في الاضطراب والخلل والتناقض. وكان من هؤلاء مع الأسف بعض رموز العمل الإسلامي الحديث.

ومن أبرز رموز العصرانيِّين الجدد: محمد أحمد خلف الله، محمد عمارة، أحمد كمال أبو المجد، حسن الترابي، محمد فتحي عثمان، حسن حنفي، عبد الله العلايلي، فهمي هويدي، محمد جابر الأنصاري، حسين أحمد أمين، طه جابر العلواني الذي أنشأ المعهد العالمي للفكر الإسلاميّ سنة ١٤٠١هـ لتأصيل وترويج أطروحات أهل العصرانيَّة.

أفكار العصرانيِّين

١- دعوى تطوير الدين ليساير بزعمهم الحضارات الوافدة: لقد دأب هؤلاء على محاولات تطويع نصوص الشريعة حتى تساير معطيات الحضارة الماديَّة، واتَّبعوا في ذلك آراء المستشرقين من اليهود والنصارى. وقد سار على نهج العصرانيَّة المتحررة عدد من كُتَّاب المسلمين، وظهرت لهم مؤلفات عديدة في هذا المجال.

٢- تقديس العقل عند العصرانيِّين: سار العصرانيُّون الجدد على خُطا من سبقهم من المعتزلة وأهل الكلام والفلسفة؛ حيث إنَّهم اعتبروا العقل مبدأ أصول العلم، وجعلوا الوحي تابعًا له، بل حكَّموا العقل في نصوص الشرع، فلا يقبلون منها إلا ما أيَّده العقل ووافقه، ويرفضون منها ما عارضه وخالفه.

ويتفق أصحاب (الاستنارة) عامَّة على إعلاء دور العقل وافتراض الصراع بينه وبين النقل؛ وما ذلك إلا من أجل تنفيذ رغبتهم في تطوير الشريعة أو تجاوز نصوصها.

٣- الدعوة إلى التجديد في تفسير القرآن: يرى العصرانيُّون أنَّه في ضوء الظروف الجديدة، وتوسع المعرفة الإنسانيَّة، لا يمكن الاعتماد في فهم القرآن على التفاسير القديمة التي اشتملت على كثير من الخرافات كما يزعمون، ولكن ينبغي فهم النصِّ القرآني من خلال معرفتنا وتجاربنا الذاتيَّة.

ولذلك فهم يردون كثيرًا من الأحاديث النبويَّة وآراء السلف في التفسير، ودعا العصرانيُّون إلى التجديد في قضايا تفسير كتاب الله، انطلاقًا من الذوق والواقع المعاصر.

٤- الدعوة إلى تطوير أصول الحديث، وعدم الأخذ بالسُّنَّة النبويَّة في مجال المعاملات خاصَّة؛ لأنَّ الأحاديث الشريفة تقف حجر عثرة أمام رغبتهم في تطوير الشريعة، ليتجاوزوا ما خلفه علماؤنا من تراثٍ فقهيٍّ غزير.

ومن محاولاتهم المشبوهة خلال التشكيك في السُّنَّة، والسعي للابتعاد عن الأخذ بحجيتها في الأحكام:

أ- أنهم قسموها إلى سنة تشريعيَّة، وسنة غير تشريعيَّة.

ب- موقفهم المريب من أحاديث الصحيحين وخبر الآحاد.

فهم يعتمدون على ضرورة انسجام معنى الحديث مع عقولهم مهما علت مرتبة هذا الحديث. ولقد رد هؤلاء أحاديث كثيرة تتعلق بالغيب والجن، وأخبار الآخرة، كما ردَّها قبلهم المعتزلة ورجال المدرسة الإصلاحيَّة.

ج- ردّهم كثيرًا من الأحاديث بحجَّة أنَّ القرآن أوْلى بالاتباع.

٥- الدعوة إلى تطوير أصول الفقه، وخاصَّة في المعاملات، وسياسة الحكم، وشئون المجتمع،

فلكتَّاب المدرسة العصرانيَّة أقوال عجيبة حول تجديد أصول الفقه مآلها الفصل بين الدين والدولة، ومحاولة تمييع العلوم المعياريَّة للوصول إلى الفوضى، والتمهيد لتطبيق القوانين الوضعيَّة الغربيَّة تحت مظلَّة الإسلام.

وهم يشنون حملتهم على الفقه والفقهاء ويدعون إلى فتح باب الاجتهاد على مصراعيه لكلِّ مدعٍ وعاميٍّ لا علم له بالكتاب والسُّنَّة.

ويدعون إلى صهر المذاهب الفقهيَّة في بوتقة واحدة، وجعلها مستمَدًا لا ينضب معينه، وذلك بالتسليم بكل ما قالت به المدارس الفقهيَّة على اختلافها وتناكرها، بغضِّ النظر عن أدلتها، ثم اختزانها في مدونة منسَّقة الأبواب كمجموعة (جوستينان) ويعنون كل ما أعطت المدارس: الإباضيَّة والزيديَّة والجعفريَّة والسنيَّة، وذلك بجعل هذه الثروة الفقهيَّة منجمًا لكلِّ ما يجدُّ ويحدث.

٦- دعوا إلى الثورة على الحجاب وتعدد الزوجات وإباحة الطلاق، لقد اعتبر العصرانيُّون مسألة تعدد الزوجات التي شرعها الله من سمات عصر الإقطاع، ويرى هؤلاء أنَّ الحجاب الشرعيَّ قيد يجب التخلُّص منه، وأباحوا الاختلاط بين الرِّجال والنساء. ودعا العصرانيُّون إلى مشاركة المرأة في السياسة والقانون والتجارة والاقتصاد بلا قيود، ويرون جواز مشاركتها في الانتخابات والمجالس النيابيَّة؛ بل ويرى بعضهم ولاية المرأة للقضاء، وحتى الولاية العامة جائزة عندهم بإطلاق.

٧- رفضوا إقامة الحدود الشرعيَّة بحجج واهية كالشفقة على المجرمين، وأنَّ قطع اليد أو الرجم ما هي إلا قسوة ووحشية لا تناسب العصر الحاضر.

٨- إباحة الربا في البنوك.

٩- زعموا أنَّ أحكام أهل الذمَّة كانت لظروف خلت وأن تطور العصر يرفضها.

١٠- زعموا أن القوانين الوضعيَّة لا تخالف الشريعة الإسلاميَّة، كما دعوا إلى التوفيق بين الشريعة وتلك القوانين، أي أنَّهم دعوا إلى الفصل بين الدين والدولة، ويدعون إلى علمانيَّة مصبوغة بمفهومهم عن الإسلام.

١١- هاجم العصرانيُّون نظام الخلافة، ويرون أنَّها صورة تاريخيَّة لم تعش طويلًا، وعلى المسلمين ألَّا يفكروا فيها مرَّة أخرى، فلم تكن الدولة هدفًا من أهداف الوحي، ولا مهمة من مهام النبوة والرسالة.

١٢- العبث في التاريخ الإسلاميِّ، وتمجيد الشخصيَّات المنحرفة، وطمس معالم الصفحات المضيئة من تاريخنا الإسلاميِّ من منطلق دوافع قوميَّة، ومن ذلك فتوحات العثمانيِّين، وانتصار المماليك، وحتى انتصار صلاح الدين الأيوبي على الصليبيِّين حاولوا الغمز من صاحبه البطل المجاهد.

١٣- تمجيد الحركات الهدَّامة والفرق الضَّالَّة التي ظهرت في تاريخ المسلمين فقد مجَّدوا

الخوارج، واعتبروا أنَّهم حزب العدالة والجمهوريَّة والقيم الثوريَّة التي جاء بها الإسلام، واعتبروا أنَّ القرامطة هم الجناح اليساري في الحركة الشيعيَّة، بل كانوا حركة ثوريَّة ضد الإقطاع، وقد مجَّدوا المعتزلة وأعجبوا بمنطقهم وفلسفتهم، كما أعجبوا بالقدريَّة والشيعة، ومجَّدوا الدولة العبيديَّة، وثورة الزنج.

١٤- تمجيد الشخصيات المنحرفة، فمجدوا غلاة الصوفيَّة كابن عربي والحلاج وأمثالهما، ومدحوا أصحاب الحركات الباطنيَّة كإخوان الصفا والحشاشين والقرامطة، ومجَّدوا انحرافات المعتزلة ورجالاتهم؛ كالقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، عمرو بن عبيد، ويشيدون بالجوانب المظلمة من مسيرة جمال الدين الأفغاني، ويمجِّدون الشيخ علي عبد الرازق على خدماته الرائعة لهدم الشريعة على طريقة الكنائس النصرانيَّة في كتابه الإسلام وأصول الحكم.

١٥- الدعوة إلى الوحدة والتقارب بين الأديان.

نقد العصرانيَّة

١- إنَّ التطور يعتبر طبيعيًّا إذا كان اجتهادًا في الفروع وما يسع الخلاف فيه، وليس في الأصول المعلومة من الدين بالضرورة، أما إذا استجاب الدين لكلِّ تفسيرٍ، فذلك يعني تجاوزه إلى عقول البشر ويعني العلمانيَّة، أي فصل الدين عن الحياة باسم التجديد والتطوير.

ولو صدق هذا الأمر على اليهوديَّة والنصرانيَّة بسبب ظروف تاريخيَّة، وبسبب ما حصل فيهما من تحريفٍ؛ فإنَّ هذا لا ينطبق على الإسلام أبدًا، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

والتطور التشريعي نوعان: منه ما هو إداري بحت، يراد به ضبط الأمور وإتقانها على وجه غير مخالف للشرع، فهذا لا مانع منه، ومن ذلك ما عمله عمر رضي الله عنه في ديوان الجند، وشراؤه دار صفوان بن أميَّة وجعلها سجنًا في مكَّة المكرمَّة، مع أنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام لم يتخذ سجنًا ولا أبو بكر؛ فهذا النوع من الأنظمة لا يخرج عن قواعد الشرع ومراعاة المصالح العامَّة.

وهذا مما يدخل تحت أحكام الشريعة عن طريق المصالح المرسلة، وهي أحكام تقرها الشريعة السمحة بضوابط معتبرة.

أما النوع الثاني من الأنظمة، المتمثل في القوانين الوضعيَّة، التي تحرم ما أحلَّ الله، وتحل ما حرَّم الله، فإنَّ إقراره كفر بخالق السموات والأرض وذلك بإجماع المسلمين، وإذا كان التطور على حساب العقيدة والشريعة فذلك خروج على الدين ولا شكَّ.

٢- تجاهل العصرانيُّون قيمة العقل في الإسلام فوقعوا في مزالق خطيرة؛ قال الشاطبي رحمه الله: (اهتم الإسلام بالعقل اهتمامًا بالغًا وجعله مناط التكليف، فإذا فُقِد ارتفع التكليف، ويُعَد فاقده كالبهيمة لا تكليف عليه).

وليس ثمة عقيدة تقوم على احترام العقل الإنساني وتعتمد عليه في ترسيخها كالعقيدة الإسلاميَّة، وليس هناك من كتاب أطلق سراح العقل وأعلى من قيمته وكرامته كالقرآن الكريم: ﴿وَلَعَلَّكُمْ

﴿تَعۡقِلُونَ﴾، ﴿لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ﴾، إلَّا أنَّ للعقل مجالاتِه وحدودَه؛ لأنَّه محدود الطاقات فلا يستطيع أن يدرك كلَّ الحقائق مهما أوتي من قدرة على الاستيعاب، فأقام الإسلام العقل مع الاستسلام والامتثال للأمر الشرعي الصريح، حتى ولو لم يدرك الحكمة والسبب في ذلك، كأمور الغيب مثلًا والروح، وما شابه ذلك، وقد كانت أول معصية لله ارتكبت بسبب عدم هذا الامتثال من قبل إبليس لعنه الله.

والواقع أنَّ التعارض بين العقول السليمة وبين الشرع غير موجود.

٣- إن السُّنَّة هي الركيزة الأولى في تفسير القرآن الكريم؛ حيث إنَّ القرآن الكريم كتاب منزَّل من عند الله تعالى على نبيِّه ليبينه للناس؛ وحينئذ لا بدَّ من الاعتراف بأنَّ مفهومه السليم الموثوق به، هو ما أدركه النبيُّ صلى الله عليه وسلم.

ومن الملاحظ أنَّ تقدُّم المعارف البشريَّة المعتمدة على تجارب البشر الذاتيَّة قد تكشفت عن أخطاء في معارف العصور الماضية، فهل يؤثر ذلك في فهم القرآن؟! وهل تتغير معاني القرآن تبعًا لذلك؟!

وبسبب الاعتماد على معارف البشر العصريَّة وما فيها من القصور والأخطاء، وبسبب إهمال تفاسير الأولين وقعت العصرانيَّة في انحرافات شنيعة في التفسير. وحسبنا أمثلةً على ذلك تفسير سيد أحمد خان، وتفسير الشيخ محمد عبده.

٤- تقسيمهم السُّنَّة إلى تشريعيَّة وغير تشريعيَّة باطل سبقهم إليه الإصلاحيُّون مدرسة محمَّد عبده عندما قسَّموا السُّنَّة إلى سنَّة عمليَّة يؤخذ بها في الأحكام الشرعيَّة كالعبادات وقضايا العقيدة الأساسيَّة وسنَّة غير عمليَّة وهي الأحاديث القوليَّة ولا يلتزمون بها إلا ضمن شروط تنسجم مع قواعدها العقليَّة، فأخرجوا منها قضايا السياسة والمجتمع.

وقد اعتبر بعضهم أنَّ العصمة تكون في أمور التبليغ فقط، وأنَّ ما اندرج من السُّنَّة النبويَّة تحت أمور السياسة والمجتمع ليس دينًا. ومن ثَمَّ؛ فإنَّه موضوع للاجتهاد والشورى، والقبول والرفض، والإضافة والتعديل. فالسياسة والحكم والقضاء وشئون المجتمع ليست دينًا وشرعًا يجب فيها التأسي والاهتداء بما في السُّنَّة من وقائع، وأواصر، ونواهٍ وتطبيقات؛ لأنَّها أمور تقررت بناء على بيِّنات قد نرى غيرها، وعالجت مصالح هي بالضرورة متطورة ومتغيرة.

وهذه الشبهة دعوة صريحة إلى رد السنن، وترك العمل بها، والتحاكم إليها، ثم إلى تفسير القرآن بالتفسيرات الشاذَّة، التي توافق أهواءهم، ثم إلى تركه وراءهم ظهريًّا. وبذلك يرتمون في أحضان العلمانيَّة صرحوا بذلك أم أنكروا.

٥- لقد أصبح الاقتصار على ما في كتاب الله تُكَأَة في يد بعض العلمانيِّين وأصحاب الأهواء، إذا أرادوا الخروج على الشريعة وتجاوز حدود الله؛ إذ يتبجحون بأنَّهم ليسوا (نصوصيِّين) وإنَّما هم يدركون (روح الدين) ويراعون المقاصد العامة للإسلام.

هذا، والحديث الشريف ثاني مصادر الشريعة الإسلاميَّة هو المفسر الأول، والمبين لكتاب الله،

ولذلك عُنِيَ به علماء المسلمين عناية تفوق الوصف، فظلَّ الحديث مصفًّى من الشوائب، وكان لا بدَّ للمبتدعَة من أن يحاولوا اختراق هذا الجدار المنيع الذي يحمي أسس العقيدة والشريعة، ليتمكَّنوا من الزيادة في الدين أو النقص منه حسبما يشاءون. فالقرآن والخبر الصحيح شيء واحد، وحكمهما واحد في وجوب الطاعة لهما.

٦- هذه الدعوة التي تطالب بإعادة النظر في التشريع الإسلاميِّ كلِّه دون قيد ليفتح الباب على مصراعيه للقادرين وغير القادرين، ولأصحاب الورع وأصحاب الأهواء، حتى ظهرت الفتاوى التي تبيح الإفطار لأدنى عذر، وتبيح الربا إلا ربا النسيئة، وظهرت آراء تحظر تعدد الزوجات، وتحذر من الطلاق؛ وبذلك تحوَّل الاجتهاد في آخر الأمر إلى تطوير للشريعة الإسلاميَّة، يهدف إلى مطابقة الحضارة الغربيَّة. والنتيجة التي يودُّ هؤلاء أن يصلوا إليها من تطوير الشريعة هو تحكيم القوانين الوضعيَّة، وفي ذلك تنفيذ لمخططات أعداء الإسلام، الذين زعموا أنَّ الفقه الإسلامي مأخوذ من الفقه الروماني.

وغني عن القول أنَّ كلَّ أصلٍ من الأصول الفقهيَّة ثبتت حجيته بالكتاب والسُّنَّة، وقد بيَّن أهل العلم أدلة كلٍّ من: الإجماع والقياس والمصلحة وحجية ذلك... فهي ليست مبتدعة كما يزعم هؤلاء؛ بل هي منهج الاستنباط الشرعي الذي هو من الدين.

المدرسة العصرانيَّة ذات النزعة الماديَّة

أضاف رواد هذه المدرسة إلى الانحرافات السابقة انحرافات جديدة، إذ اعتمدوا منهج التفكير الماديِّ (الوضعيِّ)، الذي ينظر إلى العالم الخارجي، باعتباره يمثِّل الحقيقة الكبرى الكاملة، وأنَّ هذه الحقيقة الموضوعيَّة، ذات وجود مستقلٍّ عن الإنسان.

وفي المنهج الماديِّ: يكون التعامل مع النصوص الشرعيَّة بإلغاء دلالتها، والحصول على المعرفة من مصادر وضعيَّة، مثل: التاريخ والسير في الأرض، لمعرفة: كيف بدأ الخلق؟! والاعتماد على سنن الأنفس والآفاق، وقوانين الطبيعة والاجتماع، وقد تبنَّى أصحاب هذه المدرسة آراء المعتزلة والقدريَّة في القول بالمشيئة، وتبنَّوا نظريَّة داروين والمذهب الوضعي للفيلسوف (كانت)، كما أنَّهم أظهروا إعجابهم بالنتائج التي توصلت إليها الماركسيَّة.

ويعتبر جودت سعيد من أبرز دعاة المذهب الماديِّ المعاصر، فهو يدعو إليه منذ أكثر من ثلاثين سنة، من خلال الخطاب الإسلاميِّ، في كتبه ومقالاته وندواته.

وسار على هذا الطريق الطبيب خالص جلبي تلميذه وزوج أخته، وتكاد تكون آراؤه رجعَ الصدى، لآراء شيخه جودت[1].

---

(١) انظر: المدرسة العصرانية، مفهومها ونشأته، خصائصها ومزاعمها، وموقف العصرانيين من الفقه وأصوله، والمدرسة العصرانيَّة في نزعتها الماديَّة، محمد حامد الناصر.

الحداثة

التعريف:

الحداثة مذهب فكريٌّ أدبيٌّ علمانيٌّ، ولد ونشأ في أوربا، وقام على الأفكار اليهوديَّة الإلحاديَّة مثل الماركسيَّة والوجوديَّة والفرويديَّة والدراوينيَّة، ووصلت إلى شكلها النهائي على يد اليهودي (عزرا باوند) وقام الشيوعيُّون بنقلها إلى المسلمين غالبًا.

وتهدف الحداثة إلى إلغاء مصادر الدين، وما صدر عنها من عقيدة وشريعة وتحطيم كلِّ القيم الدينيَّة والأخلاقيَّة والإنسانيَّة بحجَّة أنَّها قديمة وموروثة لتبني الحياة على الإباحيَّة والفوضى والغموض، وعدم المنطق، والغرائز الحيوانيَّة، وذلك باسم الحرية، والنفاذ إلى أعماق الحياة.

والحداثة خلاصة مذاهب خطيرة ملحدة، ظهرت في أوربا كالمستقبليَّة والوجوديَّة والسرياليَّة وهي من هذه الناحية شرٌّ لأنَّها إملاءات اللاوعي في غيبة الوعي والعقل، وهي صبيانيَّة المضمون وعبثيَّة في شكلها الفني وتمثل نزعة الشرِّ والفساد في عداء مستمرٍّ للماضي والقديم، وهي إفراز طبيعيٌّ لعزل الدين عن الدولة في المجتمع الأوربيِّ ولظهور الشكِّ والقلق في حياة الناس، مما جعل للمخدرات والجنس تأثيرهما الكبير.

الحداثة عند الغربيِّين

بدأ مذهب الحداثة منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي تقريبًا في باريس على يد كثير من الأدباء السرياليين والرمزيين والماركسيين والفوضويين والعبثيين.

ويعد شارل بودلير ١٨٢١ - ١٨٦٧م مؤسس الحداثة في العالم الغربي، وهو أديب فرنسي أيضًا نادى بالفوضى الجنسيَّة والفكريَّة والأخلاقيَّة، ووصفها بالساديَّة أي مذهب التَّلذذ بتعذيب الآخرين.

له ديوان شعر باسم أزهار الشرِّ مترجم للعربيَّة من قبل الشاعر إبراهيم ناجي، ويعتبره الحداثيون «نبي الحداثة».

ومن رواد الحداثة الغربيِّين بعد بودلير، الشاعر الفرنسي آرتور رامبو، وعلى آثاره كان مالارميه ١٨٤٢ - ١٨٩٨م، وبول فاليري، وغوستاف فلوبير ١٨٢١ - ١٨٨٠م، ووصلت الحداثة في الغرب إلى شكلها النهائيِّ على يد الأمريكيِّ اليهوديِّ عزرا باوند، والإنجليزيِّ توماس إليوت، . . .

ثم واصلت الحداثة رحلتها حين قادها مجموعة من الشيوعيِّين، مثل: نيرودا، ولوركا، وأراجون، وناظم حكمت، ويفتشنكو، أو من الوجوديِّين مثل: بول سارتر، وعشيقته سيمون دو بوفوار، وألبير كامو.

والحداثة إفراز طبيعيٌّ من إفرازات الفكر الإلحاديِّ المتمرِّد على الدين، والذي نشأ بعد ظهور

الرأسماليَّة والعلمانيَّة، في بداية ما يسمَّى عصر النهضة في القرن الخامس عشر الميلاديِّ، حين انفصلت المجتمعات الأوربيَّة عن الكنيسة، وثارت على سلطتها الروحيَّة، ونشأت النزعات التحريريَّة والقوميَّة بدون أي ضابط، إلَّا العمل على الكسب الماديِّ المبنيِّ على الفكر الماديِّ الإلحاديِّ.

فالحداثة شكل من أشكال الإلحاد، والذي شجع عليه وهيَّأ المناخ له هو انتشار الفكر الماركسيِّ، وضعف التمسك بالدين المسيحيِّ بين سكان أوربا بسبب نشاط التنظيمات اليساريَّة الأوربيَّة.

فالحداثة ليست امتدادًا للتيارات المسيحيَّة الأصوليَّة كالمحافظين الجدد بل هم على عداء كبير في قضايا الإلحاد والإباحيَّة مع الاتفاق على مسائل مثل الحريَّة السياسيَّة والثقافيَّة، ولذلك فإنَّ جميع منظري الحداثة في العالم هم من الماركسيِّين والشيوعيِّين.

الحداثة العربيَّة

ارتبطت حركة التحول الحديثة في فن الشعر عند العرب، ببواكير النهضة العربيَّة الحديثة والذي تولى جلبها لنا هم الشيوعيُّون العرب.

وبسبب القوة العسكريَّة والسياسيَّة والاقتصاديَّة والفكريَّة التي كان يتمتع بها الشرق والغرب آنذاك، انجذبت جموع من هذه الأمَّة إلى ما عند الغرب، وتشبَّثوا في تبعيته له أكثر من أهله أنفسهم.

وأخيرًا انتقل وباء الحداثة إلى ديار العرب على أيدي المنهزمين فكريًّا، وقد حاول هؤلاء «المنهزمون» أن ينقلوا إلى المجتمعات الإسلاميَّة، والعربيَّة على وجه الخصوص، كلّ ما احتوته الحداثة الشرقيَّة والغربيَّة من إباحيَّة ومجون، مع فارق واحد هو كتابتها بأحرف عربيَّة.

وقد أكَّد كتاب وشعراء الحداثة العرب كثيرًا على الارتباط الوثيق بين حداثتهم، وبين الحداثة الشرقيَّة والغربيَّة، وعلى الانسلاخ من الأدب العربي القديم، إذ يقول أحد رموزهم (غالي شكري): «إن المفاضلة بين الشعر التقليدي والشعر الحديث، تصبح غير ذات موضوع؛ لأنَّهما لا يملكان في حقيقة الأمر من عناصر الأرض المشتركة سوى اللغة».

ويقول غالي شكري أيضًا: «وعندما أقول الشعراء الجدد، وأذكر كبار شعراء الحركة الحديثة من أمثال: أدونيس، وبدر شاكر السياب، وصلاح عبد الصبور، وعبد الوهاب البياتي، وخليل حاوي... عند هؤلاء سوف نعثر على إليوت، وإزرا باوند، وربما على رواسب من رامبو، وفاليري، وربَّما على ملامح من أحدث شعراء العصر في أوربا وأمريكا، ولكنا لن نعثر على التراث العربي».

ويؤكد أدونيس، وهو من أكبر رموزهم المعاصرين، على الارتباط بين الحداثة العربيَّة والغربيَّة بقوله: «قد تكون علاقتي بسوفو كليس، أو شكسبير، أو رامبو، أو مايا كوفسكي، أو لوركا، أعمق من علاقتي بأي شاعر عربيٍّ، دون أن يعني ذلك أنَّني خارج على التراث الشعري العربي».

إذًا، حاول مجموعة من الأدباء والشعراء العرب المتأثرين بالإباحيَّة الأوربيَّة والمجون والانحلال نقل هذه الأفكار إلى الأمَّة بحذافيرها، إلَّا أنَّ ذلك جوبه برفض المسلمين، الَّذين يغارون على دينهم، ويعترضون على الإساءة إليه، خاصَّة أنَّ الحداثة، مبدأ غربي وافد على الأمَّة، ولا يعقل على الحداثيين أن يواجهوا جماهير المثقفين المسلمين في البداية بفكرة غربيَّة ولباسها غربي، فبحثوا عن ثوب عربي يلبسونه الفكرة الغربيَّة، حتى يمكنها أن تتسلل إلى العقول في غيبة يقظة الإيمان والأصالة.

وهذا الثوب «العربي» الذي حاول الحداثيُّون إلباسه لمذهبهم الجديد، لم يكن سوى «الزندقة» التي شاعت في بدايات الدولة العباسيَّة، وفي فترات أخرى، وأخذوا ينقبون للحداثة عن أي أصول لها في التاريخ العربي، «لعلها تكتسب بذلك الشرعيَّة، وتحصل على جواز مرور إلى عقول أبناء المسلمين».

وهكذا بدأ الحداثيُّون ينبشون كتب التراث، ويستخرجون كلّ شاذٍّ ومنحرف من الشعراء والأدباء والمفكرين، مثل بشار بن برد، وأبي نواس، لأنَّ في شعرهم الكثير من المروق على الإسلام، والتشكيك في العقائد، والسخرية منها، والدعوة للانحلال الجنسي.

وقد اعتبر الشاعر أدونيس أنَّ ما يجذبه ويجذب الحداثيِّين إلى شعر الزنادقة كأبي نواس وعمر بن أبي ربيعة، هو تدنيس المقدَّسات الذي يسميه الانتهاك، فيقول: «إنَّ الانتهاك هو ما يجذبنا في شعرهما، والعلة في هذا الجذب، أننا لا شعوريًّا نحارب كل ما يحول دون تفتح الإنسان، فالإنسان من هذه الزاوية ثوري بالفطرة، الإنسان حيوان ثوري».

وإضافة إلى الزنادقة من شعراء العصر العباسي، فقد اتجه الحداثيُّون إلى مؤلفات أتباع الفرق المنحرفة كالصوفيَّة، وأثنوا عليهم خيرًا وألَّفوا في مدحهم القصائد والمسرحيات، وعلى رأسهم الحلاج والبسطامي وابن عربي.

أبرز ما نادى به الحداثيُّون

يعد أدب الحداثة امتدادًا لفكر الزندقة، ولقد «ساهم الشعر الحديث في إشاعة الإلحاد، والتطاول على المقدَّسات الإسلاميَّة، ونشر أدب الفجور والانحلال بشكل ليس له نظير، محتمين بالقوانين العلمانيَّة، ومحاربة الإسلام في دياره، ومَن أمن العقاب أساء الأدب».

كما أنَّ اللافت للنَّظر، أنَّ غالبية رموز الحداثة العربيَّة هم من أصحاب الفكر الشيوعي، ومن أصحاب التوجه اليساري الملحد إضافة إلى أنَّ كثيرًا منهم بالأصل ينتمون إلى النصرانيَّة، وإلى بعض الفرق المنحرفة كالنصيريَّة. ولكن شيوعيتهم هي الدافعة لهم على نشر الحداثة.

أهم ملامح هذا المذهب، وأهم ما نادى به وتناوله:

١- استبعاد الدين تمامًا من معاييرهم وموازينهم، بل ومصادرهم، إلَّا أن يكون ضمن ما يسمونه بالخرافة والأسطورة. وهذا من بدايات الحداثة فهذا أدونيس صاحب الدور المرسوم في

حركة الحداثة وتمكينها على أساس ما ادعاه من الثبات والتحول كان يقول: لا يمكن أن تنهض الحياة العربيَّة ويبدع الإنسان العربي إذا لم تتهدم البنية التقليديَّة السائدة في الفكر العربي والتخلص من المبنى الدينيِّ التقليديِّ الإتباعي. وقد استخدم أدونيس مصطلح الحداثة الصريح ابتداءً من نهاية السبعينات عندما أصدر كتابه: صدمة الحداثة عام ١٩٧٨م وفيه لا يعترف بالتحول إلا من خلال الحركات الثوريَّة السياسيَّة والمذهبيَّة، وكلّ ما من شأنه أن يكون تمردًا على الدين والنظام تجاوزًا للشريعة.

٢- الاستهزاء بالمقدَّسات الإسلاميَّة، والتطاول على الله تعالى وعلى أنبيائه وكتبه وشريعته، ومن ذلك قول نزار قباني، وهو من أبرز شعراء الحداثة:

من بعد موت الله مشنوقا
على باب المدينة
لم تبق للصلوات قيمة
لم يبق للإيمان أو للكفر قيمة.

وقول الشاعر عبد الوهاب البياتي، والعياذ بالله:

الله في مدينتي يبيعه اليهود الله في مدينتي مشرَّد طريد
أراد الغزاة أن يكون
لهم أجيرًا شاعرًا قواد يخدع في قيثاره المذهّب العباد
لكنه أصيب بالجنون

٣- شن الحرب على اللغة العربيَّة، كونها لغة القرآن الكريم، والتقليل من شأنها، وربطها بالتخلُّف والجمود. وفي المقابل تعظيم شأن الثقافات والديانات واللغات الأخرى، وكذلك اللهجات العاميَّة. ولقد دعا ميخائيل نعيمة إلى هجر اللغة العربيَّة، والبحث عما أسماه «لغة عالمية موحدة، تتجمع حولها الشعوب كلّها».

وفي لبنان، تبنَّى الشاعر سعيد عقل الدعوة إلى العاميَّة، التي يسميها اللغة اللبنانيَّة، ووصل به التطرُّف إلى كتابة هذه اللغة بحروف لاتينيَّة، وله صحيفة أسبوعيَّة محدودة الانتشار، تطبع بالحروف اللاتينيَّة.

وقد صرَّح أحد مؤسسي الرابطة القلميَّة (عبد المسيح حداد) بأنَّ أعضاء الرابطة من أدباء الحداثة كانوا يعتبرون الأدب العربي، الوجه الآخر للعقيدة الإسلاميَّة.

٤- الدعوة إلى الانحلال الجنسيِّ، والفحش والمجون، ويقف على رأس الحداثيِّين في ذلك، الشاعر السوري نزار قباني، الذي كرَّس حياته وشعره لهدم كيان الأسرة، وكانت معظم دواوينه في وصف جسد المرأة، والدوران حول قضايا الجنس، وقد قال: «لو كنت حاكمًا لألغيت مؤسَّسة الزواج، وختمت أبوابها بالشمع الأحمر»، وقال: «العري أكثر حشمة من التستر».

٥- الغموض، فإنَّ من يقرأ أدب الحداثة يقع في حيرة من أمره، بحيث يجزم بأنَّ هذه الأشعار ليست من لغة العرب، سواءً في مفرداتها أو تراكيبها، وقد طغى الغموض حتى على عناوين قصائدهم وكتاباتهم.

ومن الأسباب التي تدفع شعراء الحداثة للغموض:

- رغبتهم بالانطلاق بلا ضوابط وبلا معايير في كل شيء.

- كسر الإطار العام للغة العربيَّة، وتحويلها مع مرور الزمن والأيام، ومن خلال استبدال مفرداتها وتراكيبها ومعانيها إلى لغة جديدة، لا صلة لها باللغة العربيَّة الفصحى.

- إيجاد واقع فكريٍّ جديد، منفصل عن واقع الأمَّة الفكريِّ، وماضيها العلميِّ والعقليِّ والأدبيِّ، في الشكل والمضمون، إذ لجأ الحداثيُّون إلى الرموز الوثنيَّة والإشارات الإلحاديَّة، وضمنوها في أشعارهم.

مراحل الحداثة

مرت حركة الحداثة بعدة مراحل، كان لكلِّ مرحلة أفرادها، وسماتها المميزة، وقد لجأ الحداثيون إلى إنشاء الروابط والنوادي الأدبيَّة، وإصدار الصحف والمجلات.

المرحلة الأولى: البداية التي يرجح أنَّها كانت على يد خليل مطران (١٨٧٢ . ١٩٤٩م)، حيث بدأ مطران في نشر مفاهيم جديدة، ورؤية محدثة للأدب عامَّة، وللشعر بوجه الخصوص، عبر صفحات مجلته «المجلة العصريَّة» التي أصدرها عام ١٩٠٠م، وفيها يقول: «للعرب عصرهم، ولنا عصرنا، ولهم آدابهم وأخلاقهم وعلومهم وحاجاتهم... ولهذا وجب أن يكون شعرنا ممثلًا لتصورنا وشعورنا».

وقد حاول مطران محاكاة الأدب والشعر الفرنسيِّ، ورغم أنَّه يعتبر رائد الحداثة الأوَّل، إلَّا أنَّ محاولاته كانت محدودة وحذرة، ولم تشكل ظاهر عامة في شعره.

المرحلة الثانية: في مطلع العقد الثاني من القرن العشرين، حيث ظهر في مصر في تلك الفترة جماعة أطلق عليها جماعة «الديوان» وتشكلت من عبد الرحمن شكري، وعباس العقاد، وإبراهيم المازني. وقد كانت هذه الجماعة وزعيمها شكري متأثرة إلى حد كبير بالمدرسة الإنجليزيَّة في الشعر، وسرعان ما دبت الخلافات بين أفرادها، ولم تستطع أن تخلف تيارًا ثابتًا وواعيًا لمنهجها في الشعر العربي، أو أن تكون مدرسة لها تمتد بعد زعمائها الأوائل.

المرحلة الثالثة: وقد جاءت متزامنة ومواكبة لجماعة الديوان في مصر، لكن هذه المرحلة نشأت في المهجر، وتحديدًا في أمريكا، وقادها أمين الريحاني (١٨٧٦. ١٩٤٠)، وجبران خليل جبران، (١٨٨٣. ١٩٣١) وميخائيل نعيمة مؤسسين لـ «الرابطة القلمية» في نيويورك سنة ١٩٢٠، وقد اشترك في تأسيسها عدد من مسيحيي لبنان في المهجر مثل: إيليا أبي ماضي، ونسيب عريضة وإلياس عطا الله، وعبد المسيح حداد.

وكان على رأس هذه المرحلة جبران، الذي كان منذ نعومة أظفاره يكره العرب، وكل ما يتصل بالعربيَّة، حيث كان نزَّاعًا إلى الغرب الأوربيِّ.

وقد صرَّح بعض الباحثين، بأنَّ المصدرين الرئيسيين، اللذين أثرا على التكوين الفكري والأدبي لشعراء الرابطة القلميَّة، هما: الثقافة المسيحيَّة وما انتهى إليها من فلسفات الشرق وأديانه، والثقافات الأجنبيَّة وما اطلعوا عليه من آداب الغرب وفلسفاته.

المرحلة الرابعة: ممثلة بجماعة «أبوللو» التي نشأت في مصر في أوائل العقد الرابع من القرن الماضي، على يد د. أحمد زكي أبو شادي (١٨٩٢- ١٩٥٥) كحركة أدبيَّة اجتماعيَّة.

وقد ضمت «أبوللو» عددًا من الشباب الموهوبين، أمثال إبراهيم ناجي، وعلي محمود طه، وأبي القاسم الشابي، وصالح جودت، وحسن الصيرفي، وغيرهم، وقد كان مؤسِّس هذه المدرسة «د. أبو شادي» وصاحب مجلتها «أبوللو»، غربي النشأة والتكوين النفسي والمزاج.

وعلى الرغم من أن عمر جماعة أبوللو لم يتجاوز الستين، إلَّا أنَّها استطاعت أن تخلف على الساحة الأدبيَّة جيلًا، تعدت آثاره إلى البلاد العربيَّة الأخرى، ولعدة عقود تالية.

المرحلة الخامسة: وهي التي برز فيها العراقيون، مع نهايات العقد الخامس، وعلى رأسهم «نازك الملائكة» التي دعت إلى نوع جديد من النظام الشعري، أطلقت عليه اسم «الشعر الحر» لا يلتزم بالقافية، ولا بأوزان العرب المعروفة، وقد كان ديوانها الثاني «شظايا ورماد» الصادر عام ١٩٤٩، أول ديوان شعري يحمل لواء هذه الدعوة.

وقد حملت نازك بقسوة على الشعر العربي، ومن أقوالها: ما لطريقة الخليل؟ وما اللغة التي استعملها آباؤنا منذ عشرات القرون؟ ألم تصدأ لطول ملامستها الأقلام والشفاه، منذ سنين وسنين؟ ألم تألفها أسماعنا، وترددها شفاهنا، وتعلكها أقلامنا حتى مجَّتها وتقيَّأتها؟!.

وكان من رواد هذه المرحلة: بدر شاكر السياب (١٩٢٦. ١٩٦٤)، وعبد الوهاب البياتي من العراق، وصلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي حجازي من مصر.

المرحلة السادسة: وفيها انتقلت حيوية الحركة الشعريَّة إلى لبنان خلال العقدين السادس والسابع، بفعل ثلاث بؤر أدبيَّة ناشطة، تحلقت حول ثلاث مجلات وهي على التوالي: الآداب، وشعر، وحوار.

وكان الخط الفكريُّ والنفسيُّ متقاربًا إلى حد بعيد بين البؤر الثلاث، مجملًا في الدعوة إلى: أيديولوجيَّة وجوديَّة، مبدؤها العدم، والغثيان والكينونة، وحرِّيَّة الوجود الفرديِّ.

ومن الحداثيين البارزين في تلك المرحلة: يوسف الخال، وشوقي أبو شقرا، وعلي أحمد سعيد «أدونيس»، ونذير العظمة.

وقد كانت هذه المجلات الثلاث تتبنى بوضوح عمليَّة تغريب الشعر العربي، تغريبًا تامًّا، حتى

اعتبر النقاد أن شعرهم كأنَّه مترجم عن الشعر الأجنبي.

الأدب الشيوعي: إنَّ الاشتراكيَّة أو الشيوعيَّة شكَّلت تيارًا بارزًا في الشعر العربي منذ نهاية العقد الخامس وبدايات السادس، وطرحت مفاهيم جديدة، ومعاني محدثة.

وقد ولد هذا التيار في أحضان الحركة الشيوعيَّة المصريَّة، وعبر نفر من شبابها، أمثال: كمال عبد الحليم، وكيلاني سند، وعبد الرحمن الخميس، وعبد الرحمن الشرقاوي، وأحمد عبد المعطي حجازي.

وميلاد هذا التيار الجديد في مصر، كان غريبًا ومهملًا، ولا يكاد يلتفت إليه أحد، على مستوى الحركة الأدبيَّة العامَّة حتى وقع له التحول الكبير وواسع النطاق مع نجاح ثورة يوليو سنة ١٩٥٢، وظهور تحولاتها الاشتراكيَّة في الحكم والفكر والأدب، وسرعان ما امتدت هذه الروح الجديدة، لتعم معظم بلدان العرب الأخرى.

وهذه المرحلة كان من رموزها: سلامة موسى، ولويس عوض، وأنور المعداوي، ومحمود أمين العالم، وحسين مروة، وغائب طعمة، وبدر شاكر السياب، وعبد الوهاب البياتي، وبلند الحيدري، وجبرا إبراهيم جبرا، ومحمود درويش، ومعين بسيسو، وسميح القاسم، وتوفيق زياد، وأدونيس وغيرهم.

ورافق هذا التيار الاشتراكيّ، بل كان رديفًا له، تيار يأخذ بالفكر الوجوديّ، يمثله يوسف الخال، وخليل حاوي وأمثالهم[١].

المثاليَّة

التعريف:

المثاليَّة مذهبٌ فلسفيٌّ يشمل جانبًا كبيرًا من المذاهب الميتافيزيقيَّة (ما بعد الطبيعة أو الغيبية)، وهي اتجاه فلسفيٌّ يبحث عن مسألة الوجود (أوْ الانطولوجيا)، في حين أنَّ العقلانيَّة اتجاه مذهبيٌّ يبحث في أصل المعرفة، ويردُّ هذا الأصل إلى العقل فقط، وينكر دور الحواسِّ أو المعرفة القلبيَّة أو المعرفة عن طريق الوحي، وعكس العقلانيَّة التجريبيَّة، وهذه الأخيرة تعتمد على التَّجربة الحسيَّة فقط من دون العقل المجرَّد.

وعكس المثاليَّة «المادِّيَّة». والمثاليَّة تعطي الأولويَّة في الوجود للرُّوح على أن يكون وجود المادَّة ثانويًا في حين أنَّ المادِّيَّة تعطي الأولويَّة في الوجود للمادَّة، على أن تكون الرُّوح انعكاسًا للمادَّة وظلًّا لها.

---

(١) انظر: مجلة الراصد العدد ٣٥، ص(٦- ١٦)، الموسوعة الميسرة (٢/ ٨٦٧- ٨٧٣)، الحداثة في ميزان الإسلام، عوض القرني، أدب الردة، جمال سلطان، التيارات الفكرية والعقدية في النصف الثاني من القرن العشرين، محمد فاروق الخالدي، المذاهب والتيارات المعاصرة، د. محمود إبراهيم الخطيب.

وتقترب المثاليَّة كثيرًا من الفلسفة؛ لأنَّها تبلور مباحث الفلسفة الثلاثة الرئيسيَّة: الحقُّ والخير والجمال.

تَارِيخ المثاليَّة

ظهرت المثاليَّة في القرن الثامن عشر الميلاديِّ، ومن أبرز الفلاسفة الَّذين أثَّروا في المذهب، وكان لهم تأثيرٌ كبيرٌ في مجرى الفكر الأوربيِّ عامَّة:

- جورج باركلي ١٦٨٥ - ١٧٥٣م وهو راهبٌ أيرلنديٌّ، كان على جانبٍ كبيرٍ من النَّشاط والجاذبيَّة الفطريَّة والقدرة على الإقناع، ويعدُّ المؤسس الحقيقيّ للمثاليَّة. وقد عاش طوال حياته متشبِّعًا بالفكر الدينيِّ مولعًا بالفلسفة والفكر اللاهوتي، ومدافعًا عن الإيمان الدينيِّ والإدراك الفطريِّ السليم. فضلًا عن محاولته وهو في منتصف عمره، إقامة جامعة لتخريج مبشِّرين بالنصرانيَّة. هذه الجذور الدينيَّة العميقة كان لها أكبر الأثر في توجهه الفلسفيِّ نحو القول بالمثاليَّة، وأنَّه لا حقيقة إلَّا للرُّوح ولخالقها الله -تعالى-، وأنَّ الوجودَ الماديَّ وجودٌ ظاهريٌّ يحس به الإنسان ويدركه بعقله فقط. وكانت أفكاره ذات تأثيرٍ كبيرٍ فيمن جاء بعده من المفكرين والفلاسفة.

- عمانوئيل كانت ١٧٢٤ - ١٨٠٤م وهو فيلسوفٌ ألمانيٌّ، ألَّف كتبًا مشهورة أهمُّها نقد العقل الخالص، ونقد العقل العملي، وكان يعتقد أنَّ هناك حجَّة أخلاقيَّة كافية للبرهان على وجود الله هي القانون الأخلاقيّ.

- جوهان فيشته ١٧٦٢ - ١٨١٤م وهو فيلسوفٌ ألمانيٌّ، درس اللاهوت والفلسفة وتتلمذ على يد كانت، وكان لخطبه الشهيرة في برلين بين عامي ١٨٠٧- ١٨٠٨م عميق الأثر في إحياء بروسيا بعد هزائمها على يد نابليون بونابرت القائد الفرنسيّ الشهير.

- جورج فلهلم هيجل ١٧٧٠ - ١٨٣١م وهو فيلسوفٌ ألمانيٌّ كان من أكبر الفلاسفة تأثيرًا في فلسفات عدة مثل الوجوديَّة، والماركسيَّة، والذرائعيَّة، في مجال الديالكتيك (الجدل)، وكان يعتقد أنَّ الوجودَ الماديَّ مظهرٌ للرُّوح.

- آرثر شوبنهور ١٧٨٨ - ١٨٦٠م وهو فيلسوف ألمانيٌّ، تأثر كثيرًا بفلسفة أفلاطون المثاليَّة وكانت، من كتبه العالم إرادة وفكرة، وقد تأثَّر بالبوذيَّة، لكنه لم يقبل مذهب تناسخ الأرواح.

- ت.هـ. جرين ١٨٣٦ - ١٩٢٤م وهو فيلسوفٌ إنجليزيٌّ، أثر تأثيرًا كبيرًا في إكسفورد، واهتمَّ بشكل خاصٍّ بالربط بين المثاليَّة والنصرانيَّة وبين المثاليَّة والأفكار السياسيَّة الحرَّة.

- ف.هـ. برادلي ١٨٤٦ - ١٩٢٤م وهو فيلسوفٌ إنجليزيٌّ، قال بأنَّه ينبغي علينا افتراض وجود مطلق يجاوز نطاق الفكر.

أفكار المثاليَّة

- إنَّ جوهر الحقيقة روحيٌّ، والرُّوح لا تستطيع أن تدرك نفسها إلا في علاقتها بعنصر ماديٍّ موضوعيٍّ، وهذا هو علَّة وجود المادَّةِ أو كما قال هيجل: المادة مظهر تتبدَّى به الرُّوح.

- إنَّ الأرواح هي الفاعل وهي الَّتي تملك إرادة.

- إنَّ الأشياء الماديَّة المحسوسة ليست سوى مجموعات من الأفكار على حدِّ تعبير باركلي، أو من المعطيات الحسِّيَّة على حدِّ تعبير من جاءوا بعده. وإنَّنا لا نستطيع أن نتصوَّر الصفاتِ الَّتي ننسبها إلى الأشياء الماديَّة مجرَّدة من تجربتنا الحسِّيَّة لها.

- إنَّ الأشياء الطبيعيَّة الَّتي لا يدركها الإنسان موجودة في علم الله، (باركلي).

- إنَّ معرفتنا مقتصرة على الظَّواهر، ولا نستطيع معرفة الأشياء في ذاتها، (كانت).

- ترى المثاليَّة أنَّ الشرَّ شيءٌ عارض وعابر في الحياة؛ والأدب المثاليُّ يحاول الكشف دائمًا عن الطبيعة الخيِّرة والجميلة للإنسان.

الانتشار ومواقع النفوذ

انتشرت المثاليَّة في أوربا عامَّةً وألمانيا بصفة خاصَّةٍ(١).

المنفعة

التعريف:

المنفعة مذهب أخلاقيٌّ اجتماعيٌّ لا ديني، يجعل من نفع الفرد والمجتمع مقياسًا للسلوك، وأنَّ الخير الأسمى هو تحقيق أكبر سعادة لأكبر عددٍ من الناس.

وفي مجال الاقتصاد يقرر مذهب المنفعة أنَّ قيمة السلعة تتوقف على قدر منفعتها، وليس على نفقة العمل أو التكلفة.

تاريخ مذهب المنفعة

- صور الاتجاه النفعي عمومًا:

تطور الاتجاه النفعيُّ في أوربا وأمريكا، وأخذ صورًا مختلفة، ويمكن إيجازها في ثلاثة مذاهب:

المذهب الأول: مذهب المنفعة الشخصيَّة، وله صورتان:

١ - صورة دعا إليها أرستبوس: وهو أحد تلامذة سقراط، وقد فسر السعادة لدى أستاذه باللَّذات العاجلة بدلًا من الآجلة، وأنَّ إشباع الدوافع في حينها أمرٌ ضروريٌّ؛ لأنَّ تأخيرها يؤدِّي إلى الشعور بالحرمان والكآبة، فلا حياء ولا خجل في طلب اللَّذات في آية صورة كانت، ويعتبرون

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٨١٥- ٨١٧).

أنَّ السلوك الَّذي يحقق هذه السعادة سلوك أخلاقيٌّ.

٢- الصورة الثانية: تتمثل في الفرديَّة التي دعا إليها هوبز، ومن سلك مسلكه، فقد ادَّعى أنَّ الطبيعة الإنسانيَّة طبيعة أنانيَّة تعمل لمصلحة الذَّات، وقد اخترع الإنسان المبادئ الأخلاقيَّة ليتَّخذها وسيلةً يحقِّق فيها منفعته الشخصيَّة. ومن هنا يرى أنَّ الأخلاق ما هي إلَّا وسيلة لتحقيق المنفعة وليست طبيعة في الإنسان.

المذهب الثاني: مذهب المنفعة العامة

قال أصحابه: على الإنسان أن ينشد منفعة البشر عامَّة حتى الحيوانات، واعتبروا أنَّ إقرارَ المنفعة غاية للأفعال الإنسانيَّة، ومعيارٌ للأخلاق، وتقاس أخلاقيَّة الفعل بنتائجها لا ببواعثها.

المذهب الثالث: مذهب النفعية العملية

المذهب البراجماتي، ويهتم البراجماتي عادةً بما له من قيمة معنويَّة. وهو يرجع المُثُل الأخلاقيَّة إلى نتائج الظروف الواقعيَّة للإنسان، فهي ليست مبادئ مطلقة ثابتة يضعها الفلاسفة، كما أنَّها ليست من وضع المجتمع، ولا من وضع السماء. ثم ينكر أن تكون للأخلاق غاية عليا سامية وثابتة، وأنَّ لها مبادئ مطلقةً لا تقبل التغيُّر، ذلك لأنَّ الحياة متطورةٌ.

- لقد سيطرت هذه الفلسفة بمذاهبها المختلفة على أخلاق الناس والحكومات في أوربا بقسميها وفي أمريكا، فاهتزَّت الأخلاق واضطربت الموازين، وسيطرت المنفعة والأنانيَّة، وتحوَّل الناس إلى ذئاب بشريَّة، ومن ثم طغت الرُّوح الرومانيَّة والفلسفة الإغريقيَّة على أوربا من جديد.

وصارت بعض القيم، كالصدق والأمانة والاستقامة مُثُلًا لا تطبَّق إلا في حدود القوميَّة ومصلحة البلاد على أساس ما تجلبه من النَّفع لحاملها، وتبطل إذا بطلت المنفعة القريبة أو البعيدة.

وها هي المواثيق تعقد وتوثق، وفي لحظة غادرة تنقض وتصبح حبرًا على ورقٍ بمجرَّد أن تلوح المصلحة القوميَّة في نقض الميثاق.

ويمرُّ الناس بهذا الأمر غير مبالين؛ لأنَّ النَّظريَّة شيءٌ والتطبيق شيءٌ آخر بموجب فلسفة الجاهليَّة اليونانيَّة.

- مذهب المنفعة:

نجد جذور مذهب المنفعة عند كلٍّ من: توماس هوبز ١٥٨٨- ١٦٧٩م الفيلسوف الإنجليزيّ الذي يرى أنَّ كلمة خير يقصد بها الشهوة، وكلمة شرّ يقصد بها النفور. وجون لوك ١٦٣٢- ١٧٠٤م الفيلسوف الإنجليزيّ، وفرنسيس هتشون ١٦٩٤- ١٧٤٧م الفيلسوف الأيرلنديّ، ونظريته في الحسِّ الأخلاقيِّ تعبر في بعض جوانبها عن مذهب المنفعة إلَّا أنَّها ترتكز على الدين. وديفيد هيوم ١٧١١- ١٧٧٦م الفيلسوف الإنجليزيّ الَّذي يرى أنَّه لا شيء يؤثر في الفعل الإرادي غير اللَّذة والألم، وقد يكون التأثير مباشرًا.

ثم جاء جيرمي بنتام ١٧٤٨ - ١٨٣٢م، ولد في لندن، ويُعَد مؤسس مذهب المنفعة، وقد استفاد من كلِّ من سَبَقوه منتهيًا إلى نظريَّةٍ متكاملة، في رأيه، ومستخدمًا إيَّاها على أوسع نطاق. وقدَّم نظريته في المنفعة في كتابه مقدمة لأصول الأخلاق والتشريع.

وجون ستيوارت ميل ١٨٠٦- ١٨٧٣م وهو فيلسوف إنجليزيٌّ، ألَّف كتابَ مذهب المنفعة ونادى بالحرِّيَّة الفردِيَّة.

وهربرت سبنسر ١٨٢٠ - ١٩٠٣م وهو فيلسوف إنجليزيٌّ قال بتطور الأنواع قبل دارون.

وج.أ. مور ١٨٧٣ - ١٩٥٨م وهو فيلسوف إنجليزيٌّ - ألَّف كتاب أصول الأخلاق وأدخل تعديلاتٍ على مذهب المنفعة إذ قبل الرأي القائل بأنَّ صواب أي فعل من الأفعال يتوقف على النتائج الحسنة والسيِّئة التي تترتب عليه.

- ثم دخل مذهب المنفعة بلاد المسلمين من خلال الغزو الفكريِّ، فتبناه كثير من المثقَّفين والمفكرين العرب، ومنهم أحمد لطفي السيد ١٨٧٢- ١٩٦٣م الذي استقى مذهب المنفعة من جون ستيوارت ميل، فكان مذهب المنفعة هو القاعدة في تفكيره السياسي والاجتماعي، فالمنفعة هي الحافز الأصيل للعلاقة بين الدُّول بعضها ببعض، وبين الحكومة والأفراد، أو بين الأفراد فيما بينهم.

وتطبيقًا لهذا المذهب الغربي فقد عارض لطفي السيد مساعدة المصريين لجيرانهم في طرابلس الغرب أثناء الغزو الإيطالي الاستعماري عام ١٩١١، وكتب في هذا المعنى تحت عنوان (سياسة المنافع لا سياسة العواطف)! مقالاتٍ متعددة دعا فيها المصريين إلى التزام الحياد المطلق في هذه الحرب الإيطاليَّة التركيَّة وإلى الضَّنِّ بأموالهم أن تبعثر في سبيل أمرٍ لا يفيد بلادهم.

أفكارُ مذهب المنفعة

يعدُّ مذهب المنفعة نظريَّة في الأخلاق، طبعت أتباعها بطابع مميز.. إذ كان كل همهم الاهتمام بالحياة الدُّنْيا والاغتراف من لذاتها.

ويمكن تلخيص أفكاره فيما يلي:

- إنَّ صواب أي عمل من الأعمال، إنما يحكم عليه بمقدار ما يسهم في زيادة السعادة الإنسانية أو في التقليل من شقاء الإنسان، بصرف النَّظر عن السداد الأخلاقي لقاعدة ما، أو مطابقتها للوحي أو للسلطة أو للتقليد أو للحس الأخلاقي أو للضمير.

- اللَّذة هي الشيء الوحيد الذي هو خير في ذاته، والألم هو الشيء الوحيد الَّذي هو شرٌّ في ذاته، والسعادة تشمل اللَّذة والتَّخلُّص من الألم، وإن رجحان كفة اللَّذة قد يعود هو نفسه فيصبح مصدرًا للمزيد من اللَّذة.

- يمكن دفع الناس إلى التَّصرُّف على نحوٍ يؤدِّي إلى السعادة العامَّةِ من خلال ما يلي:

١- القانون بقصاصه، والرأي العام بجزاءاته من ثوابٍ وعقابٍ، فهما يحولان بين الناس وبين أن يأتوا من الأعمال ما يضاد الصالح العام.

٢- المنفعة الذَّاتيَّة المستنيرة تدل الناس على أن الصَّالح العامَّ ينطوي في أغلب الأحوال على منفعتهم الخاصة.

الانتشار ومواقع النفوذ

- انتشر مذهب المنفعة في أوربا وأمريكا في كافَّة المجالات السياسيَّة والاقتصاديَّة والتجاريَّة والاجتماعيَّة ... وصار له السطوة والهيمنة على مستوى الأفراد والمجتمعات. وأصبحت الأخلاق الحديثة تُستمد من القيم المادِّيَّة النفعيَّة تحدوها ميكافيليَّة صريحة، وأضحى التَّعامل الاجتماعيّ قائمًا على رابطة المصلحة وحدها، على الأخلاق التّجاريَّة.

- لقد غزت فلسفة الغربيِّين النفعيَّة مجتمعاتنا المسلمة من خلال غزوهم الفكريّ لبلادنا، ويرى أصحاب هذه الفلسفة (النفعيَّة) أنَّ السعادة الحقَّة هي التي يشعر بها الإنسان نتيجة لإشباع دوافعه الطبيعيَّة وغرائزه الحسيَّة دون التقيد بدينٍ أو خلقٍ قويمٍ.

- وقد فتن بعض المسلمين في القرن الحالي بحضارة أوربا وظنوا أنَّها ذات ركائز تصلح لأن يُقتدى بها، ونسي كثير منهم أن يميزوا بين التقدُّم المادِّيّ والتخلُّف العَقَديّ والأخلاقيّ، فتنوا ببعض ما يبدو من صدق وأمانة حينًا؛ لأنَّها عند القوم تؤمن لهم ثقة ووقتًا، إلَّا أنَّ أخلاقهم هذه ستتغيَّر إذا لاحت منفعة أشدُّ، ومصلحة أقوى.

- وقد عانت أمَّة المسلمين من مذهب المنفعة الأمرّين خلال الاستعمار القديم وأثناء التَّعامل المعاصر من ازدواجيَّة مريرة في قرارات الأمم وما يسمى بمجلس أمنها. كان الاستعمار يتوسل بكلِّ سفالات الأرض ليوطد سلطانه، ويمتصُّ دماء الناس، ولا يرى في ذلك انحرافًا فالغاية تبرر الوسيلة، ولا يهم عندهم أن تكون الغاية ذاتها نظيفة.

وصار ما ينصح به أشرار اليهود في خططهم هو ما يفسر سياسة المستعمرين: إنَّ السياسة لا تتفق مع الأخلاق في شيء، والحاكم المقيَّد بالأخلاق ليس بسياسيٍّ بارع، وهو لذلك غير راسخٍ على عرشه [(١)].

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٨٠٨/٢، ٨٠٩)، شيوع الأخلاق النفعيَّة في العصر الحديث، محمد الناصر، رجال اختلف فيهم الرأي، أنور الجندي.

البراجماتيَّة (الذرائعيَّة)

التعريف:

البراجماتيَّة (الذرائعيَّة) مذهب فلسفيٌّ اجتماعيٌّ نفعيٌّ يقول بأنَّ الحقيقة توجد من خلال الواقع العمليِّ والتجربة الإنسانيَّة، لا في الفكر النظريِّ البعيد عن الواقع. وأنَّ المعرفة آلة أو وظيفة في خدمة مطالب الحياة، وأنَّ صدق قضية ما هو في كونها مفيدة للنَّاس. وأنَّ الأفكار في طبيعتها غائيَّة، فهي مجرد ذرائع يستعين بها الإنسان لحفظ بقائه ثم البحث عن الكمال. وعندما تتضارب الأفكار فإن أصدقها هو الأنفع والأجدى.

والبراجماتيَّة اسم مشتقٌّ من اللَّفظ اليونانيِّ براجما Pragma، بمعنى العمل أو الفعل أو الممارسة أو المزاولة.

وقد أصبحت البراجماتيَّة (الذرائعيَّة) طابعًا مميزًا للسياسة الأمريكيَّة وفلسفة الأعمال الأمريكيَّة كذلك، لأنَّها تجعل الفائدة العمليَّة معيارًا للتقدُّم بغضِّ النَّظر عن المحتوى الفكريِّ أو الأخلاقيِّ أو العقائديِّ.

تاريخ البراجماتيَّة

نشأت الذرائعيَّة (البراجماتيَّة) كمذهب عمليٍّ في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة مع بداية القرن العشرين: وقد وجدت في النِّظام الرأسماليِّ الحرِّ الذي يقوم على المنافسة الفرديَّة، خير تربة للنمو الازدهار.

ومن أبرز رموز المذهب وأغلبهم من الأمريكيين:

- تشارلز بيرس ١٨٣٩ - ١٩١٤م ويعد مبتكر كلمة البراجماتيَّة في الفلسفة المعاصرة في مقال له بعنوان: كيف نجعل أفكارنا واضحة، حيث ذكر فيه أنَّه: لكي نبلغ الوضوح التَّام في أفكارنا من موضوع ما فإننا لا نحتاج إلا إلى اعتبار ما قد يترتَّب من آثار يمكن تصوُّرها ذات طابع عمليٍّ، قد يتضمَّنها الشيء أو الموضوع. وعلى ذلك فإنَّ بيرس يزعم: أنَّ كلَّ اصطلاح يكون حقًّا إذا كان له مدلول، والمدلول له وجود حقيقيٌّ إذا كان ينتج بعض النتائج في هذه الدُّنيا الَّتي نشاهدها، وإلا فلا معنى للاصطلاح ولا جود للمدلول أو الشيء. فهو يدعو إلى أنَّ حقيقة كلِّ المفاهيم لا تثبت إلا بالتجربة العلميَّة.

وقد عمل محاضرًا في جامعة هارفارد الأمريكيَّة، وكان متأثرًا بـ«دارون» ووصل إلى مثل آرائه... وكان أثره عميقًا في الفلاسفة الأمريكيِّين الَّذين سنذكرهم فيما يلي:

- وليم جيمس ١٨٤٢ - ١٩١٠م وهو عالم نفسي وفيلسوف أمريكيٌّ من أصلٍ سويديٍّ بنى مذهب الذرائعيَّة البراجماتيَّة على أصول أفكار بيرس، ويؤكِّد أنَّ المنفعة العمليَّة هي مقياس صحَّة

الفكرة ودليل صدقها. وأنَّ البراجماتيَّة لا تعتقد بوجود حقيقة مثل الأشياء مستقلة عنها. فالحقيقة هي مجرد منهج للتفكير كما أنَّ الخير هو منهج للعمل والسلوك؛ فحقيقة اليوم قد تصبح خطأً الغد؛ فالمنطق والثوابت التي ظلَّت حقائق لقرون ماضية ليست حقائق مطلقة، بل ربَّما أمكننا أن نقول: إنَّها خاطئة. وكان كتابه الأول: مبادئ علم النفس ١٨٩٠م الذي أكسبه شهرة واسعة ثم توالت كتبه: موجز علم النفس ١٨٩٢م، وإرادة الاعتقاد ١٨٩٧م، وأنواع التجربة الدينيَّة ١٩٠٢م، والبراجماتيَّة ١٩٠٧م، وكون متكثر ١٩٠٩م يعارض فيه وحدة الوجود.

ويؤكد جيمس في كتبه الدينيَّة أنَّ الاعتقاد الدينيَّ صحيح؛ لأنَّه ينظم حياة الناس ويبعث فيهم الطاقة.

- جون ديوي ١٨٥٦ - ١٩٥٢م فيلسوف أمريكيٌّ، تأثَّر بالفلسفة الذرائعيَّة، وكان له تأثير واسع في المجتمع الأمريكيِّ وغيره من المجتمعات الغربيَّة، إذ كان يعتقد أنَّ الفلسفة مهمَّة إنسانيَّة قلبًا وقالبًا وعلينا أن نحكم عليها في ضوء تأثُّرها الاجتماعيِّ أو الثقافيِّ.

كَتب في فلسفة ما بعد الطبيعة (الميتافيزيقا) وفلسفة العلوم والمنطق وعلم النفس وعلم الجمال والدين. وأهم مؤلفاته: دراسات في النظريَّة المنطقيَّة ١٩٠٣م، وكيف تفكر ١٩١٠ والعقل الخالق ١٩١٧م والطبيعة الإنسانيَّة والسلوك ١٩٢٢م وطلب اليقين ١٩٢٩م. وذهب إلى أنَّ العقل ليس أداةً للمعرفة وإنَّما هو أداة لتطور الحياة وتنميتها؛ فليس من وظيفة العقل أن يعرف، وإنَّما عمل العقل هو خدمة الحياة. ووصف البراجماتيَّة بأنَّها فلسفة معاكسة للفلسفة القديمة التي تبدأ بالتصوُّرات، وبقدر صدق هذه التصوُّرات تكون النتائج، أما البراجماتيَّة فهي تَدعُ الواقعَ يفرض على البشر معنى الحقيقة، وليس هناك حقٌّ أو حقيقة ابتدائيَّة تفرض نفسها على الواقع.

- فرديناند شيلر ١٨٦٤ - ١٩٣٧م وهو فيلسوف بريطانيٌّ، كان صديقًا لوليم جيمس، وتعاطف معه في فلسفة الذرائعيَّة: وقد آثر أن يطلق على آرائه وموقفه: المذهب الإنسانيّ أو المذهب الإراديّ.

وهو يأخذ لنفسه تعبير بروتاجوراس المشهور: الإنسان مقياس كلِّ شيء. ويؤيد السوفسطائيين اليونان، ويدافع عنهم ضد المذهب العقلي لأفلاطون.

- والبراجماتيَّة امتدادٌ أصيلٌ لروافد رئيسة في الفكر الأوربيِّ أبرزها الفكر التجريبيّ المستند إلى فلسفة العلوم الطبيعيَّة الذي يحتوي على مكون ماديٍّ مهمٍّ. فقد طورت البراجماتيَّة الفكر التجريبيَّ العلميَّ الماديَّ الأوربيَّ النشأة، وجعلت منه الأساس لمذهب يتجاوز نطاق الفكر الفلسفيِّ المتخصِّص في مباحث علم المعرفة أو الميتافيزيقا إلى المجالات الاجتماعيَّة والسلوكيَّة وميادين القيم والدَّوافع، وقبل كلِّ شيء الأخلاق.

وذهب بعض الباحثين إلى البراجماتيَّة عبارة عن تطوير جديد لمزاوجة فلسفيَّة بين مذهبين هما: السوفسطائيَّة، والأبيقوريَّة. فخلاصة الموقف في هذه الفلسفة هو اتخاذ المنافع الأبيقوريَّة غاية يتم

تسويغها بوسائل سوفسطائيَّة.

أفكار البراجماتيَّة

من أهمِّ أفكار ومعتقدات البراجماتيَّة (الذرائعيَّة) ما يلي:

- إنَّ أفكار الإنسان وآراءه ذرائع يستعين بها على حفظ بقائه أولًا ثم السير نحو السمو والكمال ثانيًا.

- إذا تضاربت آراء الإنسان وأفكاره وتعارضت كان أحقّها وأصدقها أنفعها وأجداها، والنفع هو الَّذي تنهض التجربة العمليَّة دليلًا على فائدته.

- إنَّ العقل خُلق أداة للحياة ووسيلة لحفظها وكمالها، فليست مهمَّته تفسير عالم الغيب المجهول، بل يجب أن يتوجه للحياة العمليَّة الواقعيَّة.

- الاعتقاد الدينيّ لا يخضع للبينات العقليَّة: والتناول التجريبيّ الوحيد له هو آثاره في حياة الإنسان والمجتمع إذ يؤدِّي إلى الكمال، بما فيه من تنظيم وحيويَّة.

- النشاط الإنساني له وجهتان: فهو عقل، وهو إرادة، ونموه كعقل ينتج العلم، وحين يتحقق كإرادة يتجه نحو الدين، فالصّلة بين العلم والدين ترد إلى الصّلة بين العقل والإرادة.

- يقول وليم جيمس عن الاتجاه البراجماتي: إنَّه اتجاه تحويل النّظر بعيدًا عن الأشياء الأوليَّة؛ المبادئ والنواميس والفئات، الحتميات المسلَّم بها، وتوجيه النظر نحو الأشياء الأخيرة: الثمرات، النتائج، الآثار، الوقائع الحقائق.

والبراجماتيَّة ليس لها أية عقائد يقينيَّة أو جزميَّة أو أيَّة مذاهب أو مبادئ، اللهم إلا طريقتها؛ فنحن علينا أن نضع «كل المفاهيم المطروحة على بساط البحث على المحكك البراجماتيّ، وسنفوز عند ذلك بالنَّجاة من الجدل الباطل العقيم، فإذا لم يكن ثمة فرقٍ عمليٍ بين قولين بالقياس إلى صحة هذا أو ذاك؛ إذًا فالاثنان حقًّا عبارة واحدة في شكلين كلاميين، وإذا لم يكن ثم فرق عمليٍ يحدث سواء كانت عبارة معينة صحيحة أو باطلة؛ إذًا فالعبارة ليس لها معنًى حقيقيٌّ، وفي كلتا الحالتين فليس هناك شيء يستحقُّ أن نتنازع من أجله، وأوْلى بنا أن نوفِّر جهدنا، ونمضي إلى أمور أكثر جدوى وأهمِّية».

إنَّ الحقيقيَّ في أوجز عبارة لدى وليم جيمس «ليس سوى النافع المطلوب في سبيل تفكيرنا تمامًا، كما أنَّ الصواب ليس سوى الموافق النافع المطلوب في سبيل مسلكنا».

و«البراجماتيَّة» لا تمثل ولا تناصر أي نتائج معينة من طريقتها، كما أنَّ حيازة الحقيقة عندها بعيدة كل البعد عن أن تكون غاية في ذاتها؛ فهي لا تزيد عن كونها مجرد وسيلة أو أداة أولية لبلوغ الإشباع والرضا والسرور، والحقّ يفضل على الباطل عندما يرتبط كلاهما بالموقف -أي البحث عن أيهما أنفع- أما إذا لم يرتبط بذلك فإنَّ الحقَّ يتساوى مع الباطل؛ ولأنَّ الحقيقة ترتبط بالنتائج

البراجماتيَّة فهي نفسها في حالة تغير وتبدل وانتقال.

- خلاصة المذهب هي: البحث عن تسويغ المنافع كما يراها أصحابها في عالم يخلو من الحقيقة، وقد أرهقه البحث عنها.

ويشاع بين بعض الناس أنَّ البراجماتيَّة تمثل تسويغًا فلسفيًا لمبدأ الغاية تسوغ الوسيلة، وهذا اعتقاد ساذج؛ لأنَّ البراجماتية أبعد شرًّا من ذلك؛ فهذا المبدأ يعني أن الوسيلة القذرة قد تسوغها الغاية الشريفة، لكن البراجماتيَّة لا يهمُّها الغايات الشريفة في شيء وإنما المهمُّ لديها هو أن تكون الوسائل قادرة على تحقيق الغايات، كما أنَّ البراجماتيَّة لا تمارس ذلك على أنَّه عمل لا أخلاقي أو حتى مكيافيللي تسوغه الضرورة، ولكن على أن ذلك هو الحقُّ والحقيقة، وما غيره لا شيء ألبتة، وسندها الوحيد في ذلك هو ما يدرُّه هذا السلوك من نفعٍ على صاحبه.

نقد البراجماتيَّة (الذرائعيَّة)

- تعرضت البراجماتيَّة لانتقادات معيَّنة، وعرضت على أنَّها تبرير لأخلاقيات رجال الأعمال الأمريكيين.

- أما عن فكرة الاعتقاد فمن رأي جيمس «أنَّها مفيدة لأنَّها صادقة» و«أنَّها صادقة لأنَّها مفيدة». وقد أنكر معظم الدارسين هذه المعادلة إذ إنَّ موقف جيمس يسمح بصدق الفكرة؛ لأنَّها «مفيدة ونافعة» لشخص ما، ويكذبها لعدم وجودها عند الآخرين.

وهكذا فإنَّ جيمس طرح الحقيقة على أنَّها لعبة ذاتيَّة للأفكار التي تستهوي الإنسان فائدتها: فيعتقد في صدقها.

- إن الذرائعيَّة اندثرت كحركة فكريَّة فرديَّة، ولكنها كمجموعة أفكار ما زالت تعمل في الفكر البشري... ومن أهم آثار هذه الأفكار تفسير الفكر والمعنى على أنهما من أشكال السلوك النائي عند الإنسان.

- التيار البراجماتيُّ يدعو إلى الذرائعيَّة، وتمييع المفاهيم، وتقديس الواقعية، وتسويغ الوسائل للوصول إلى الغايات العمليَّة.

- قد تكون للبراجماتيَّة أصول أوربيَّة رغم الزعم بأنَّها ذات أصول أمريكيَّة بحتة، وقد تكون لها دعاوى فكريَّة عالية المستوى تمثلت في طروحات فلسفيَّة؛ لكنها عند التطبيق على مجال الأخلاق والسياسات والسلوكيَّات الاجتماعيَّة -وهو مجالها النِّهائي حسب تعريفها هي- نجدها ولَّدت لنا الاتجاهات النسبيَّة الكبرى التي زعزعت ميدان الأخلاق نفسه، وجعلت منه عبثًا بلا طائل؛ لأنَّ القيم فيه متغيِّرة تغيُّر الواقع الذي يزداد تغيُّرًا كل يوم مع تراكم التغيُّرات بشكل مطَّرد، ولا نبالغ إذا قلنا: إن أدواء تعاني البشريَّة منها اليوم كثيرًا في مجال القيم والأخلاق في كلِّ منحًى من مناحي الحياة تعود في أصولها إلى سريان الفكر البراجماتيِّ واستشرائه في أفق التفكير الفلسفي المنعزل عن الحياة ليصبح هو الشريعة والقانون الذي يهدي السلوك البشري ويحكمه، ولعلنا نضيف أن واسطة

الانتقال من ذلك المجال إلى هذا كان هو التعليم ومؤسساته.

- مخاطر هذا المذهب الفلسفيّ على العقيدة واضحة جليّة فهو مذهب يحبذ إلغاء دور العقل في الإفادة من معطيات النقل أو الوحي.

- رأينا في واقعنا المعاصر كيف أفلست البراجماتيّة كما أفلست سواها من الفلسفات المادّيّة وعجزت عن إسعاد الإنسان بعدما أدّت إلى تأجيج سعار المادّيّة، وأهدرت القيم والأخلاق السامية التي دعت إليها جميع الأديان السماويّة.

- المذهب الذرائعيُّ البراجماتيُّ ربّما كان مطيّةً يمتطيه أصحاب الفكر العلماني للوصول إلى مآربهم وأهدافهم في تمييع شرائع الدِّين ونقض أصوله وثوابته. فالفكر البراجماتي يقول: إنه لا بأس بوجود القنوات الفضائيّة العربيّة الماجنة طالما أنّها تصرف المشاهدين المسلمين عن القنوات الكفريّة المنحلة، أو تنادي بأنَّ التّمكين في الأرض واستخلافها يسوّغ بعض الربا إذا ما أدّى إلى انتعاش موارد الأمّة وقوة اقتصادها. كما أنّه ليس في بعض الكفر والإلحاد بأس إذا ما أنتج الأدب إبداعًا ثقافيًا مميزًا.

الانتشار ومواقع النفوذ

- تأسس المذهب في الولايات المتّحدة الأمريكيّة، ثم انتقل إلى أوربا وبريطانيا بشكل خاصٍّ.

وهو يمثل الفلسفة السائدة في المجتمع الأمريكي والبعد الفكري لقيم ذلك المجتمع ومفاهيمه ولسياسات أجهزة الحكم والقرار وتوجهاتها هناك.

- إنَّ الفكر البراجماتيَّ قد ظهر في بعضه وفي آخر تجلّياته في البلاد الإسلاميّة في الفكرة التي نسمعها كثيرًا حول تطوير الشريعة أو في مفهوم الاجتهاد الفقهي لا باعتبار ذلك أداةً لبسط سلطان المبادئ

الشرعيّة على نواحي الحياة؛ بل أداةً لهدم عموميّة مبادئ الشريعة الإسلاميّة نفسها وفرض النسبيّة والتغير العشوائي عليها، كما يؤدّي في النّهاية إلى إلغاء تلك المبادئ ذاتها؛ وذلك كلُّه تحت شعارات: مجاراة العصر، واللّحاق بركب التقدُّم، والتحلّي بروح العلم، والتمشّي مع الواقع. وكلُّها من الأفكار التي تنضح بروح البراجماتيّة، وقبلها بروح العلمانيّة أو اللادينيّة [١].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٨٣٢- ٨٣٥)، البراجماتيّة نشأتها وأثرها على سلوك المسلمين، د. أحمد بن عبد الرحمن الشميري، البراجماتيّة، د. محمد يحيى، البراجماتيّة، محمد إبراهيم مبروك.

القسم الخامس

الأحزاب والحركات المعاصرة

حركة تحرير المرأة

التعريف:

حركة تحرير المرأة: حركة علمانيَّة، نشأت في مصر في بادئ الأمر، ثم انتشرت في أرجاء البلاد العربيَّة والإسلاميَّة، وهي تدعو إلى تحرير المرأة من الآداب الإسلاميَّة والأحكام الشرعيَّة الخاصة بها، مثل: الحجاب، وتقييد الطلاق، ومنع تعدد الزوجات، والمساواة في الميراث، وتقليد المرأة الغربية في كلِّ أمرٍ، ونشرت دعوتها من خلال الجمعيات والاتحادات النسائيَّة في العالم الغربي.

تاريخ حركة تحرير المرأة:

بدأت ما أسموه حركة تحرير المرأة في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، فحينما بعث محمد علي باشا والي مصر المبعوثين إلى فرنسا ليتلقوا هناك الخبرات والمهارات الفنيَّة ثم يحملوها معهم إلى مصر، رجع المبعوثون من فرنسا حاملين تياراتٍ فكريةً ماديَّةً، بعد أن بهرتهم رهبانيَّة العلم المادي وسلطان العقل، لقد عاد أولئك المبعوثون يحتلون مراكز الصدارة والتوجيه في مختلف الميادين السياسيَّة والتربويَّة والفكريَّة.

وكان من أعضاء الجيل الأول لهؤلاء المبعوثين رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١- ١٨٧٣)، الذي أقام في باريس نحو خمس سنوات (١٨٢٦- ١٨٣١)، وما إن عاد إلى مصر حتى بدأ يبذر البذور الأولى لكثير من الدعوات الدخيلة على البيئة المصريَّة، تلك الدعوات التي حمل جراثيمها معه من فرنسا، وكان منها أفكار عن المرأة، فكان هو أول من أثار قضية تحرير المرأة في مصر، وقد تجلَّى ذلك في مواقفه الجريئة من قضايا تعليم الفتاة، وتعدد الزوجات، وتحديد الطلاق، واختلاط الجنسين؛ حيث ادَّعى في كتابه تخليص الإبريز في تلخيص باريز أن: السفور والاختلاط بين الجنسين ليس داعيًا إلى الفساد. وذلك ليُسوِّغ دعوته إلى الاقتداء بالفرنسيين حتى في إنشاء المسارح والمراقص مدعيًا أن: الرقص على الطريقة الأوربيَّة ليس من الفسق في شيء بل هو أناقة وفتوة. وأنه لا يخرج عن قوانين الحياء. ودعا المرأة إلى التعلم حتى تتمكن من تعاطي الأشغال والأعمال التي يتعاطاها الرجال.

مع العلم أنَّ الطهطاوي لما عاد إلى القاهرة أشرف على حركة الترجمة وعُيِّن رئيسًا لتحرير الوقائع المصرية وكتب المقالات وألف الكتب وترجم القوانين وعُيِّن ناظرًا لمدرسة الألسن، وبارك حاكم البلاد دعوته، وبارك أول كتاب وضعه وهو تخليص الإبريز، وأمر بطبعه وقراءته في المدارس المصرية.

وفي سنة ١٨٩٤ أصدر مرقص فهمي الصليبي كتابه: المرأة في الشرق، ودعا فيه صراحة إلى تحقيق أهداف خمسة محددة وهي: القضاء على الحجاب الإسلامي، إباحة اختلاط المرأة المسلمة بالأجانب عنها، تقييد الطلاق وإيجاب وقوعه أمام القاضي، منع الزواج بأكثر من واحدة، إباحة

الزواج بين المسلمات والأقباط.

وفي غمرات هذا الكتاب صدر كتاب ألفه الدوق دراكير باسم: المصريون، حمل فيه على نساء مصر، وهاجم المصريين، وتعدى على الإسلام، ونال من الحجاب الإسلامي، وقرار المرأة المسلمة في البيت، واقتصار وظيفتها على تربية النشء، ورعاية الزوج، وقد هاجم (المثقفين) المصريين بصفة خاصة لسكوتهم وعدم تمردهم على هذه الأوضاع.

وقد سار على الدرب الذي رسمه الطهطاوي جمال الدين الأفغاني صاحب النشاط المريب والعلاقات بالمحافل الماسونية، وتبنيه لمبادئ الثورة الفرنسية، وكذلك تلميذه محمد عبده(١٨٤٢- ١٩٠٥)، الذي كان اللورد كرومر يشيد بدعوته وبتلامذته ويعلق عليهم أمله في تغريب المجتمع المصري ويذكر أنهم لذلك يستحقون: أن يعاونوا بكل ما هو مستطاع من عطف الأوربي وتشجيعه.

وكان من أبرز تلاميذ محمد عبده لطفي السيد، وسعد زغلول، وقاسم أمين الذي أفسد الحياة الاجتماعية في مصر بدعوته إلى تحرير المرأة.

نشأ قاسم أمين (١٨٦٥- ١٩٠٨) في أسرة تركية مصرية، وحصل على ليسانس الحقوق الفرنسية من القاهرة، وهو في سن العشرين. ثم سافر إلى فرنسا ليتم تعليمه هناك، وانبهر بالحياة في أوربا، وعاد يدعو إلى تعليم المرأة وتحريرها. يقول في مذكراته: إنه التقى هناك بفتاة فرنسية أصبحت صديقة حميمة له! وإنه نشأ بينه وبينها علاقة عاطفية عميقة، ولكنها بريئة، وإنها كانت تصحبه إلى بيوت الأسر الفرنسية والنوادي والصالونات الفرنسية، فتفتح في وجهه البيوت والنوادي والصالونات، ويكون فيها موضع الترحيب.

وقام قاسم بتأليف كتابين: الأول: كتاب تحرير المرأة نشره عام ١٨٩٩م، بدعم من الشيخ محمد عبده وسعد زغلول، وأحمد لطفي السيد، وقد انصرف جهد المؤلف في هذا الكتاب إلى التدليل على ما زعمه من أن: حجاب المرأة بوضعه السائد ليس من الإسلام، وأن الدعوة إلى السفور ليس فيها خروج على الدين أو مخالفة لقواعده. وقد تناول في كتابه هذا أربع مسائل وهي: الحجاب، واشتغال المرأة بالشئون العامة، وتعدد الزوجات، والطلاق. وهو يذهب في كل مسألة من هذه المسائل إلى ما يطابق مذهب الغربيين زاعمًا أن ذلك هو مذهب الإسلام.

مع العلم أن أفكار كتاب تحرير المرأة قد نبتت في حديقة أفكار الشيخ محمد عبده، وتطابقت مع كثير من أفكاره التي عبر فيها عن حقوق المرأة وحديثه عنها في مقالات الوقائع المصرية وفي تفسيره لآيات أحكام النساء.

وفي نفس العام هاجم الزعيم الوطني المصري مصطفى كامل كتاب تحرير المرأة وربط أفكاره بالاستعمار الإنجليزي، وكتب في اللواء عام ١٩٠١: انتشر خبر كتاب تحرير المرأة في جهات الهند واهتم الإنجليز بترجمته وبث قضاياه وإذاعة مسائله لما وراء العمل به من فائدة لهم. وألَّف

الاقتصادي المصري الشهير محمد طلعت حرب كتاب تربية المرأة والحجاب في الرد على قاسم أمين ومما قاله: إن رفع الحجاب والاختلاط كلاهما أمنية تتمناها أوربا من قديم الزمان لغاية في النفس يدركها كل من وقف على مقاصد أوربا بالعالم الإسلامي. وقام عدد كبير بالرد على قاسم أمين من خلال المقالات، والكتب التي بلغ عددها مائة كتاب، والتي تبطل شبهاته وتقيم الحجة عليه من أدلة الشريعة المطهرة.

وهذه المعارضة عنيفة جعلت قاسم أمين ينزوي في بيته خوفًا أو يأسًا، ويعزم على نفض يده من الموضوع كله، ولكن سعد زغلول شجعه، وقال له: امض في طريقك وسوف أحميك. وضمن تنفيذ أفكار قاسم تنفيذًا عمليًا. عندئذ قرر أن يعود، ويؤلف كتابه الثاني: المرأة الجديدة، نشره عام ١٩٠٠م، وهو يتضمن نفس أفكار الكتاب الأول، ويستدل على أقواله وادعاءاته بآراء الغربيين، وصار يعلن أن المرأة المصرية ينبغي أن تصنع كما صنعت أختها الفرنسية، لكي تتقدم وتتحرر، وأسقط الحاجز المميز للمرأة المسلمة، وصارت هي والمشركة أختين بلا افتراق، والدعوة إلى السير في الطريق ذاته الذي سارت فيه الغربية من قبل، ولو أدى ذلك إلى المرور في جميع الأدوار التي قطعتها وتقطعها النساء الغربيات. وقد كان من بين تلك الأدوار التبذل وانحلال الأخلاق، قال: ولا نرى مانعًا من السير في تلك الطريق التي سبقتنا إليها الأمم الغربية؛ لأننا نشاهد أن الغربيين يظهر تقدمهم في المدنية يومًا فيومًا.

وقال: وبالجملة فإننا لا نهاب أن نقول بوجوب منح نسائنا حقوقهن في حرية الفكر والعمل بعد تقوية عقولهن بالتربية، حتى لو كان من المحقق أن يمررن في جميع الأدوار التي قطعتها وتقطعها النساء الغربيات.

وأكمل المسيرة بعده لطفي السيد (١٨٧٢- ١٩٦٣) الذي حمل على عاتقه الدعوة إلى خروج النساء باسم التحرير، وأدخل الفتيات طالبات في الجامعة مختلطات بالطلاب سافرات الوجوه، ولأول مرة في تاريخ الجامعة المصرية، وكان عضده ونصيره في تلك الخطوة طه حسين وكامل مرسي. وظل لطفي يروج لحركة تحرير المرأة على صفحات جريدة حزب الأمة.

ولما قامت الحرب العالمية الأولى صدرت مجلة السفور، من قبل أنصار سفور المرأة، وقد أخذت على عاتقها نشر الدعوة ضد الحجاب وضد الآداب الإسلامية، وتركز على السفور والاختلاط، وممن كتب فيها داعيًا إلى السفور: عبد الحميد حمدي، ومصطفى عبد الرازق، وعلي عبد الرازق، وطه السباعي، وغيرهم.

وتبني القضية فريق من النسوة على رأسهن هدى شعراوي ابنة محمد سلطان باشا الذي كان يرافق الاحتلال الإنجليزي في زحفه على العاصمة، وزوجة علي شعراوي باشا أحد أعضاء حزب الأمة (حاليًا الوفد) ومن أنصار السفور. وقد سافرت إلى فرنسا لتتعلم وسافرت محجبة، ولكنها حين عادت كانت سافرة.

واتخذت شعراوي من بيتها صالونًا تقابل فيه الرجال سافرة في غير وجود محرم، وتحلق حولها بعض النسوة، وبعض الرجال الذين يدافعون عن قضية المرأة في الصحف والمجلات، بالنثر وبالشعر، لقاء جلسة لطيفة في صالون هدى شعراوي أو ابتسامة تخص بها أحدهم أو مبلغ من المال تدسه في يد واحد من الصحفيين المرتزقة فيكتب مقالًا في رقة الهانم ولطفها وابتسامتها العذبة وحسن استقبالها لضيوفها الرجال، أو يكتب عن اجتماعاتها وتحركاتها، أو يكتب عن قضية تحرير المرأة.

والتنفيذ العملي لسفور المرأة كان على يد سعد زغلول المنفذ الفعلي لأفكار قاسم أمين، والأكثر حماسًا لتحرير المرأة من شيخه محمد عبده وصديقه قاسم أمين، فقد اشترط على السيدات اللواتي يحضرن سماع خطبه أن يزحن النقاب عن وجوههن.

وفي سنة ١٩١٩م قامت ثورة مصرية في ميدان قصر النيل (ميدان الإسماعيلية) أمام ثكنات الجيش الإنجليزي، وملأت المظاهرات شوارع القاهرة وغيرها من المدن تهتف ضد الإنجليز، وتطالب بالجلاء. وفي وسط هذه المظاهرات الجادة قامت مظاهرة النسوة، وعلى رأسها صفية زغلول زوجة سعد زغلول وابنة مصطفى فهمي باشا رئيس الوزراء في تلك الأيام، وأشهر صديق للإنجليز عرفته مصر، وتجمعت النسوة أما ثكنات قصر النيل، وهتفن ضد الاحتلال، ثم -بتدبير سابق- ودون مقدمات ظاهرة، خلعن الحجاب، وألقين به في الأرض، وسكبن عليه البترول، وأشعلن فيه النار.

وبعد عودة سعد زغلول من منفاه -المتفق عليه- سنة ١٩٢٠ هُيئ الجو في الإسكندرية لاستقباله، وأعد سرادق كبير للرجال، وآخر للنساء المحجبات، ونزل سعد من الباخرة، وعلى استقبال حافل وهتافات أخذ طريقه إلى سرادق النساء -دون سرادق الرجال- فلما دخل على النساء المحجبات استقبلته هدى شعراوي بحجابها، فمد يده فنزع الحجاب عن وجهها -تبعًا لخطة معينة- وهو يضحك، فصفقت هدى، وصفقت النساء لهذا الهتك المشين، ونزعن الحجاب، ومن ذلك اليوم أسفرت المرأة المصرية استجابة لرجل الوطنية (سعد) وأصبح الحجاب نشازًا في حياة المسلمة المصرية.

وتأسس الاتحاد النِّسائي في نيسان ١٩٢٤م بعد عودة مؤسسته هدى شعراوي من مؤتمر الاتحاد النسائي الدولي الذي عقد في روما عام ١٩٢٢م، ومعها سيزا نبراوي (واسمها الأصلي زينب محمد مراد): وهي صديقة هدى شعراوي في المؤتمرات الدولية والداخلية. ونادى الاتحاد بجميع المبادئ التي نادى بها من قبل مرقص فهمي المحامي وقاسم أمين.

وحضرت الدكتورة (ريد) رئيسة الاتحاد النِّسائي الدولي بنفسها إلى مصر لتدرس عن كثب تطور الحركة النِّسائية.

وقد مهد هذا الاتحاد بعد عشرين عامًا لعقد مؤتمر الاتحاد النِّسائي العربي عام ١٩٤٤م وقد

حضرته مندوبات عن البلاد العربيَّة، وقد رحبت بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكيَّة بانعقاد المؤتمر، حتى إن حرم الرئيس الأمريكي روزفلت أبرقت مؤيدة للمؤتمر.

ورحلت درية شفيق وهي من تلميذات لطفي السيد وحدها إلى فرنسا لتحصل على الدكتوراه، ثم إلى إنجلترا، وصورتها وسائل الإعلام الغربية بصورة الداعية الكبرى إلى تحرير المرأة المصرية من أغلال الإسلام وتقاليده مثل: الحجاب والطلاق وتعدد الزوجات.

ولما عادت إلى مصر شكلت حزب (بنت النيل) في عام ١٩٤٩م بدعم من السفارة الإنجليزية والسفارة الأمريكية، وهذا ما ثبت عندما استقالت إحدى عضوات الحزب وكان هذا الدعم سبب استقالتها. وحضرت درية المؤتمرات الدولية النِّسائية للمطالبة بحقوق المرأة، على حد قولها. ومنها مشاركتها في مؤتمر نِسائي دولي في أثينا عام ١٩٥١م ظهر من قرارته التي وافقت عليها أنها تخدم الاستعمار أكثر من خدمتها لبلادها.

وقد قادت درية شفيق المظاهرات، وأرسلت جمعية (سان جيمس) الإنجليزية برقية إليها تهنئها على اتجاهها الجديد في القيام بمظاهرات للمطالبة بحقوق المرأة. وأشهر هذه المظاهرات مظاهرة في ١٩ فبراير ١٩٥١م، و ١٢ مارس ١٩٥٤م بالتنسيق مع أجهزة عبد الناصر، فقد أضربت النساء في نقابة الصحافيين عن الطعام حتى الموت إذا لم تُسْتَجَب مطالبهن، وأجيبت مطالبهن ودخلت درية شفيق الانتخابات ولم تنجح، وانتهى دورها.

وأعلنت كاميلا يفي الهندية أن الاتحاد النِّسائي الدولي واقع تحت ريادة الدول الغربية والاستعمارية واستقالت منه.

وتربت في الجامعة الأمريكية في مصر سهير القلماوي، وتخرجت من معهد الأمريكان، وتنقلت بين الجامعات الأمريكية والأوربية، ثم عادت للتدريس في الجامعة المصرية.

ومن تلميذات طه حسين، الأديب المصري الذي دعا إلى تغريب مصر، أمينة السعيد التي ترأست مجلة حواء، وقد هاجمت حجاب المرأة بجرأة، ومن أقوالها في عهد عبد الناصر: كيف نخضع لفقهاء أربعة وُلِدوا في عصر الظلام ولدينا الميثاق. تقصد ميثاق عبد الناصر الذي يدعو فيه إلى الاشتراكية، وسخرت مجلة حواء للهجوم على الآداب الإسلامية، وهي لا تزال تقوم بهذا الدور.

وتولت نوال السعدوي زعامة الاتحاد النِّسائي المصري، وأعلنت عام ١٩٨٧م أثناء مؤتمر الاتحاد أنَّ الدول الغربية هي التي هيأت المال اللازم لعقد مؤتمر الاتحاد النِّسائي، والدول العربية لم تساهم في ذلك.

الأفكار والمعتقدات

نجمل أفكار ومعتقدات أنصار حركة تحرير المرأة فيما يلي:

١- تحرير المرأة من كل الآداب والشرائع الإسلاميَّة وذلك عن طريق:

- الدعوة إلى السفور والقضاء على الحجاب الإسلامي.

- الدعوة إلى اختلاط الرجال بالنساء في كل المجالات: في المدارس، والجامعات، والمؤسسات الحكومية، والأسواق.

- تقييد الطلاق، والاكتفاء بزوجة واحدة.

- المساواة في الميراث مع الرجال.

- تقليد المرأة الغربية في كل شيء.

٢- الدعوة إلى العلمانيَّة الغربية أو اللادينيَّة، بحيث لا يتحكم الدين في مجال الحياة الاجتماعية خاصة، بل تجعل العلمانيَّة واللادينيَّة أساس حركة المرأة والمجتمع.

٣- المطالبة بالحقوق الاجتماعية والسياسية.

٤- أوربا والغرب عامة هم القدوة في كل الأمور التي تتعلق بالحياة الاجتماعية للمرأة: كالعمل، والحرية الجنسية، ومجالات الأنشطة الرياضية والثقافية.

٥- الوصول من خلال هذه الحركة إلى إفساد المرأة خلقيًا واجتماعيًا، وبفسادها يفسد المجتمع الإسلامي وتنتهي موجة حماسة العزة الإسلامية التي تقف في وجه الغرب الصليبي وجميع أعداء الإسلام وبهذا الشكل يسهل السيطرة عليه.

صور من تخطيط دعاة حركة تحرير المرأة

- كتبت روز اليوسف في مذكراتها -وكانت تقوم بالتمثيل على المسرح قبل اشتغالها بالصحافة وإصدار مجلتها التي تحمل اسمها- تقول: إنها طلبت إعانة لمسرحها من الحكومة، وكانت مصر إذ ذاك خاضعة للنفوذ البريطاني المباشر، فنصحها المندوب السامي البريطاني (وهو الحاكم الحقيقي في مصر في ذلك الحين) أن تذهب إلى الريف، وتعرض مسرحيتها هناك، فإن فعلت ذلك نالت الإعانة في الحال!.

والهدف واضح، فالريف المصري في ذلك الوقت محافظ على بقايا من الدين والأخلاق، ومحافظ بشدة على التقاليد المستمدة من الإسلام (بصرف النظر عما غشاها في بعض الجوانب من الانحرافات) ومن أشد ما يحافظ عليه الريف من التقاليد -وفي الصعيد خاصة- قضية الحجاب، وقضية العفة، وقضية العرض، وقضية صيانة المرأة بصفة عامة من التبذل والانحلال والانفلات. وبقاء الريف على هذه الصورة عقبة ولا شك أمام المخططين، فالريف هو معظم مصر، ولن يؤتي المخطط ثماره كاملة إن فسدت العاصمة وحدها، وبقي الريف سليمًا حتى ولو في محيط التقاليد، فإن هذا يطيل الأمر على المخططين، ويستنفذ من وقتهم وجهدهم شيئًا غير قليل (لم تكن الإذاعة قد أنشئت بعد، ولا التليفزيون بطبيعة الحال) فمن هنا يوجه المندوب السامي البريطاني روز اليوسف -وهو أعلم بحقيقتها، وحقيقة دورها- أن تذهب إلى الريف، لعل مسرحها ومسرحياتها أن

تزحزحه قليلًا عن تقاليده الصامدة، فيأخذ في حالة الذوبان، فتنفرج الأمور.

- تخصص مجموعة من القصصيين والمسرحيين والسينمائيين في موضوع معين، يتكرر بصورة مختلفة، خلاصته أن فتاة -جامعية في الغالب، ومتعلمة بصفة عامة- لها صديق، يقع بينهما ما يقع -على درجات مختلفة من الوقوع- ثم يتقدم للزواج منها فيرفضه أبواها -الريفيان في الغالب، والرجعيان التقليديان بصفة عامة- إما لأنهما يرتبان لها زواجًا معينًا بعقليتهما المتخلفة، وإما لأنهما -حرصًا منهما على التقاليد- يشعران بميل الفتاة له فيرفضانه من أجل هذا السبب بعينه، ثم تمضي القصة أو المسرحية أو الفيلم بإصرار الفتاة على موقفها، بصورة مختلفة من الإصرار، أدناها رفض الخطيب الذي يقدمه لها والداها، وأشدها ترك البيت والهروب مع الصديق، وينتهي الأمر في كل حالة بتنفيذ ما أصرت عليه الفتاة، ورضى الوالدين، أو تسليمهما لأمر الفتاة التقدمية إذعانًا للأمر الواقع، أو اقتناع الأم خاصة، ومحاولة إقناعها الأب بأنهما كانا مخطئين، وأن الفتاة على حق!.

- تخصص مجموعة من الكتاب -في وقت من الأوقات- في القول بأن المجتمع لم يكن نظيفًا من الجريمة الخلقية وقت أن كان محافظا على التقاليد، وأن الفاحشة كانت تقع تحت ستار الحجاب، وذلك ردًّا على الذين كانوا يقولون: إن السفور والاختلاط سيؤديان حتمًا إلى التحلل الخلقي.

وكون المجتمع -أي مجتمع مهما كان محافظًا- لا يخلو من وقوع جريمة فيه، فهذه حقيقة، يكفي شاهدًا لها أن الفاحشة وقعت في مجتمع رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولكنه من التبجح الغليظ أن يقال: إنه ما دامت الفاحشة تقع هنا وتقع هناك، فلا فائدة في الدين، ولا فائدة في الأخلاق، ولا فائدة في التقاليد، ولا قيمة لكل التوجيهات الخلقية! فهناك فارق ضخم بين مجتمع لا تقع فيه الجريمة إلا شذوذًا يستنكر، وتنال عقوبتها الرادعة حين تقع، ومجتمع يعج بالفاحشة حتى تصبح العفة فيه هي الشذوذ المستنكر!

- كتب إحسان عبد القدوس في إحدى توجيهاته التي كان يبثها في مجلة روز اليوسف: إنني أطالب كل فتاة أن تأخذ صديقها في يدها، وتذهب إلى أبيها، وتقول له: هذا صديقي!

- كتب أنيس منصور في إحدى مقالاته في أخبار اليوم: أنه زار إحدى الجامعات الألمانية ورأى هناك الأولاد والبنات أزواجًا أزواجًا مستلقين على الحشائش في فناء الجامعة، قال: فقلت في نفسي: متى أرى ذلك المنظر في جامعة أسيوط! لكي تراه عيون أهل الصعيد، وتتعود عليه![1].

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٤٥٣- ٤٥٨)، قضية تحرير المرأة، عودة الحجاب.

القبيسيَّات (التنظيم النِّسائيّ الصوفيّ)

التعريف:

القبيسيَّات تنسب إلى منيرة القبيسيّ، وهي جماعة دينيَّة نسائيَّة تنتشر بشكل خاصٍّ في سوريا ولبنان والأردن وفلسطين والكويت ودول الخليج.

ولهذه الجماعة، التي تقتصر على النساء، عقائد وأفكار وسلوكيَّات وتصوُّرات خاصَّة للإسلام، يمارسنها بشيء من السرِّيَّة والانعزاليَّة، وعدم الإفصاح عن حقيقة عقائدهن وأفكارهن إلا بعد أن تمضي العضوة الجديدة فترة زمنية طويلة معهن، ويرفض حضور أي فتاة لحلقاتهم دون موعد مسبق عن طريق واحدة من عضواتهن الفاعلات، ويقمن باستمالة الشخصيات ذوات المناصب أو الثراء، أو العائلات الكبيرة لضمِّهنَّ للجماعة.

تاريخ القبيسيَّات

منيرة قبيسي امرأة سورية تعيش حاليًا في إحدى الحارات القديمة في العاصمة دمشق، تتجاوز الخامسة والسبعين من عمرها، خريجة كلية العلوم بجامعة دمشق، ثم التحقت بكلية الشريعة، وعيِّنت مدرسة لمادة العلوم في إحدى مدارس دمشق، وكان عمها من تلاميذ أحمد كفتارو، مفتي سوريا الذي توفي مؤخرًا وشيخ الطريقة الصوفيَّة النقشبنديَّة في سوريا، وهو الذي أشار عليها بالدّخول إلى هذه الطريقة الصوفيَّة، وقد بدأت القبيسي نشاطها في سنوات السبعينات من القرن الماضي.

وقد تفرقت تلميذات منيرة القبيسي في بلاد الشام ودول الخليج، واستطعن تأسيس جماعات أطلق عليها: الطبَّاعيَّات في الأردن، والسّحريَّات في لبنان، . . . ، وبنات البيادر في الكويت. كما استطعن إنشاء الجمعيَّات الخيريَّة والمؤسَّسات التعليميَّة والتربويَّة، وتحقيق انتشار لافت بين الأوساط النِّسائيَّة، خاصَّةً في المدارس والجامعات.

العقائد والأفكار:

١- تحمل هذه الجماعة أفكار الطريقة النقشبنديَّة وهي إحدى طرق الصوفيَّة، ويظهر هذا من خلال الاعتقاد بوحدة الوجود، وتقديس الشيخة والتسابق إلى تقبيل يدها، وقدمها أحيانًا على نحو ما يفعله الصوفيَّة تجاه شيوخهم.

٢- تكرر في أقوالهن وكتب شيخاتهنَّ الاعتقاد بوحدة الوجود، وهي عقيدة صوفيَّة فاسدة، تعني أنَّ الله والعالم شيء واحد، وأنَّه لا فرق بين الخالق والمخلوق.

وقد جاء في كتاب «مزامير داود»، وهو من أقدم وأهمّ مؤلفات هذه الجماعة، ما يفيد اعتقادهم بوحدة الوجود، فقد وردت فيه عبارات مثل: «كل ما تهواه موجود في ذات الله»، وفيه أيضًا قول الشاعر:

قل الله وحدَه في الكثرة ما ترى سواه في كل كائنة

وفيه أيضًا قولهن: «شيختنا معنا، أينما كنَّا لا تضيّعُنا».

وقد ألَّفت إحدى شيخات هذه الجماعة واسمها نوال أ. كتابًا سمّته «المتاح من الموالد والأناشيد الملاح»، وأعادت فيه ذكر بعض العبارات التي وردت في «مزامير داود»، وأضافت عليه أشياء تؤيِّد الاعتقاد بوحدة الوجود، من قبيل:

يا جمال الوجود طاب فيك الشهود

ومن قبيل:

أنت نسخة الأكوان فيك صورة الرحمن

٣- تقديس الشيخة، وعدم مناقشتها، واعتبار أنَّ أمرها مطاع، وأنَّه مقدم على طاعة الأب أو الزوج أو ولي الأمر، ويقولون في هذا الصدد: «لا علم ولا وصول إلى الله من دون مربيَّة»، و«من قال لشيخه لمَ، لم يفلح أبدًا»، و«كوني كالميتة بين يدي آنستك»، وهنَّ يعتبرن منيرة قبيسي إحدى مجددات الدِين.

٤- المواظبة على بعض الأوراد والصلوات المبتدعة، مثل صلاة ركعتين قبل المغرب ويسمونها «صلاة الأوّابين»، ولديهن ذكر يطلق عليه «الصلاة الناريَّة».

يوجد كتاب اسمه «الأوراد الدائمة خلف الصلوات القائمة» مملوء بالخرافات والخزعبلات وعبارات الكفر فلكلِّ مريدة وردٌ يوميٌّ، وهو عادة مرتين بعد صلاة الفجر، ومرة بعد العشاء، وهو بأن تجلس المريدة متوجهة إلى القبلة بعد الانتهاء من الصلاة والدعاء ثم تقول: اللهم يا مفتّح الأبواب، ويا مسبِّب الأسباب، ويا مقلِّب القلوب والأبصار، ويا دليل الحائرين، ثبت قلبي على الإيمان. وتتخيل المريدة شيختها، والآنسة الكبرى «منيرة قبيسي» أمامها، فإن فعلت ذلك تخيلًا وأصبحت ترى وجه شيختها، فعليها أن تبدأ بالذكر؛ لأنَّها هي التي تربط قلبها بالله، لأنَّه سيمتد قبس من نور من قلب «الشيخة»، أو الآنسة إلى قلب الفتاة ليوصلها إلى الله!

ويكون الذكر بترديد اسم الجلالة مفردًا «الله . . الله . . الله» وذلك بطريقة خاصَّةً أيضًا عن طريق رفع مقدم اللِّسان بسقف الحلق ووضع اليد اليمنى على القلب مع حركة كفِّ اليد من أعلى إلى أسفل على الجهة اليسرى من الصدر وتتخيل بذلك أنَّها تكنس الأمراض من القلب.

٥- استعمال السحر، والاستعانة بالجن ضد من يترك جماعتهن، أو يتكلم عنهن بسوء، وقد حدثت عدة حالات بهذا الصدد، يقول زوج إحدى العضوات السابقات في الكويت بعد أن اكتشف حقيقة الجماعة، وساءت علاقته معها: «وبعدها بدأت محاربتهنَّ لي، وذلك بوضع مواد السحر كالبيض الفاسد على سيارة ولدي البكر، ومرات يضعن الدم على سيارتي، ومرات يسكبن سوائل على مدخل بيتي، . . . وقد لمسنا تأثير تلك الأعمال الشريرة على ولدي وعلى نفسي وتعالجنا منها، والحمد والفضل لله وحده».

المفاهيم والسلوكيَّات الخاصة

١- العزوف أحيانًا عن الزواج، رغبة في التفاني في خدمة الجماعة، وعدم الانشغال بشيء عنها، إضافة إلى ضرورة استئذان الشيخة في أمر الزواج.

٢- تميز أنفسهن بلبس الجلباب الكحلي والمنديل المعقوف (المربوط داخل الجلباب)، وذكر بعض الباحثين أنه قصير إلى أنصاف الساقين، ولهن في لبس الجلباب نظام خاصٌّ، بحيث إنَّ لون الجلباب يعبر عن مرتبة الانتماء للجماعة.

٣- انعزال هذه الجماعة على نفسها، وتظهر هذه الانعزاليَّة في عدم قدرتهنَّ على الاندماج الحقيقيِّ مع المجتمع (صداقات - علاقات أسريَّة) ما دامت خارج نطاق جماعتهنَّ. ولذلك يستخدمن التَّقيَّة والكذب مع الأهل والمجتمع.

٤- الحرص على استقطاب الفتيات الموسرات، لذلك تحتلُّ المكانة الاجتماعيَّة والثراء والذَّكاء معايير هامَّة عند انضمام الفتيات إلى هذه الجماعة.

٥- السريَّة التامَّة في جميع الأمور والاجتماعات والبيانات، ويطلقون على ذلك «الحسّ الأمنيّ».

٦- اهتمامهن بالرقائق والإيمانيَّات على حساب طلب العلم الشرعيِّ، إذ يلاحظ الضعف العلمي العام لدى المنتسبات، وعدم وجود منهج محدد ومنظم لدراسة العلوم الشرعيَّة، ومعظم الكتب التي يتم تدريسها هي لمؤلفات من الجماعة.

٧- توجيه العضوات إلى العمل في قطاع التعليم، باعتباره عملًا «يخدم الدعوة، ويغذيها بالعناصر الجديدة». كما تتلقى العضوات تعليمات حول كيفية التعامل مع الطالبات، من البشاشة، وحسن المعاملة، وإلقاء السلام، ليسهل التحبب إليهن، وترغيبهن في الانضمام إلى الجماعة.

٨- كشف أسرار البيوت للمربيَّة، بحجة أن ذلك يساعدها في أن تأخذ يد الفتاة إلى الله، ويعتبرون المربيَّة كالطبيب الذي يجب أن يتم إخباره بالخصوصيات ليساعد في العلاج، ويقولون: «يجب أن يستعلي عندك حب الشفاء على الحرج من كشف العورات»، ويقولون أيضًا: «بين إخواني أكسر ميزاني».

٩- كثيرًا ما تتميز علاقاتهن مع أزواجهن وآبائهن بالتوتر، كون الشيخة أو الآنسة تسعى لأن تكون الآمر الناهي حتى في العلاقات الزوجيَّة، وبسبب كثرة الخروج من المنزل، وتقديم أمر الجماعة على أي شيء آخر.

الانضمام إلى الجماعة

١- من أسس الدخول في الجماعة كتابة رسالة توضح فيها الفتاة أسرارها الشخصيَّة الخاصَّة

والذنوب التي ارتكبتها، على طريقة كرسي الاعتراف عند النصارى، ولهنّ عبارة في ذلك وهي «افتضح واسترح».

٢- تقسيم الفتيات إلى مجموعات وحلقات، وكل حلقة تحتوي على مجموعة بينها صفات مشتركة كالعمر والفترة الزمنيَّة في الدعوة، وغير مسموح للفتاة بحضور حلقات غير الحلقة التي تخصها.

وعمومًا، هناك ثلاث فئات للفتيات وهي:

أ- النوادر: وهن البنات من عمر ١٤- ١٨ سنة.

ب- البشاير: الفتيات من عمر ١٨ - ٢٤ سنة.

ج- البيادر: الفتيات من عمر ٢٤ سنة فما فوق.

الانتشار والمؤسَّسات

تفرقت تلميذات منيرة القبيسي في أنحاء مختلفة من بلاد الشام ودول الخليج، واستطعن تأسيس عمل نسائيٍّ، وجماعات حملت اسم الشيخة غالبًا، في حين تعتبر منيرة قبيسي زعيمة هذه الجماعة، أو «الشيخة الكبرى» أو «الآنسة الكبرى» كما يطلقن عليها، وبسبب وجودها في سوريا، أصبحت زيارة الشام عندهن أشبه بالواجب، أو الحلم، حتى أطلقت بعضهن اسم «رحلة كعبة المعاني» على رحلة الشام، في حين أنَّ التوجه إلى مكة المكرمة لأداء الحج والعمرة هي «رحلة كعبة المباني».

وللقبيسيَّات دعاء خاصٌّ عند مقابلة قبيسي هو: اللهم اجمعنا على ألمها، واجمعنا على أملها.

١- سوريا

يطلق عليهن هناك اسم «القبيسيَّات»، ولهن من المدارس هناك «مدارس النعيم»، ومن المكتبات المهتمة ببيع كتبهن «مكتبة السلام»، بالقرب من دائرة الجوازات والهجرة في دمشق.

وتعتبر سعاد ميبر، أبرز تلميذات القبيسي في سوريا، وهي تدرس في «معهد الفتح» فرع الإناث في دمشق، وكتبها مقررة عند هذه الجماعة، ومن كتبها «عقيدة التوحيد من الكتاب والسُّنَّة».

ولهن العديد من المدارس والمعاهد في سوريا.

٢- لبنان

تزعمت الجماعة هناك في البداية، أميرة جبريل، وهي شقيقة أحمد جبريل الزعيم اليساريّ الفلسطينيّ، ولكنَّ أميرة جبريل أخلت الساحة فيما بعد لسحر حلبي، حيث صرن في لبنان يعرفن بالسّحريات، وبلغ من تعصبهنَّ هناك لسحر حلبي أنَّ بعضهنَّ فترن قول الله تعالى ﴿نجيناهم بسحر﴾، أي أنَّ الله نجَّاهن من الضلال بسحر حلبي!

٣- الأردن

ويعرفن فيها باسم «الطبّاعيات» نسبة إلى شيختهن فادية الطَّبَّاع، التي تملك وتدير مدرسة بارزة في العاصمة عمّان، هي مدارس الدر المنثور في حي أم السماق، حيث تعتبر تلك المدرسة أهم

معاقل هذه الجماعة، إضافة إلى مدرسة أخرى في عمّان، هي مدرسة الخمائل.

وكانت فادية الطَّبَّاع فيما سبق تدرس في مدراس الأقصى التي أسَّسها شاعر الأقصى يوسف العظم، وكانت على خلاف مع الدكتورة مهديَّة الزميلي، أبرز الداعيات في جماعة الإخوان ومديرة مدارس الرضوان حاليا بسبب قضية تقصير الجلباب وإظهار الساق، كما يروي العظم ذلك في سيرته.

٤- الكويت

أسَّست الجماعة فيها أميرة جبريل، شقيقة أحمد جبريل زعيم إحدى المنظمات اليسارية الفلسطينيَّة. ثم تأسَّست «جمعيَّة بيادر السلام النِّسائيَّة».

وجمعيَّة بيادر السلام هي الجمعيَّة الرسميَّة التي تعمل الآنسات من خلالها، وقد تأسست سنة ١٩٨١م، وتشرف على عدد من المؤسسات التربويَّة منها: مدرسة القطوف الخاصَّة، وحضانة السلام، وحضانة دار الفرح.

ورأست مجلس إدارة الجمعيَّة دلال عبد الله العثمان. وقد جاء إنشاء الجمعيَّة نتيجة جهود كبيرة بذلها يوسف سيد هاشم الرفاعي رأس الصوفيَّة الكويتيَّة، بعدما فشل في دعوة الرجال على مستوى الساحة الكويتيَّة، ولجأ بذكاء إلى الجنس النِّسائيِّ مستغلًا عاطفتهنَّ وقلَّة علمهنَّ، وموجدًا بهذا التوجه متنفسًا لمشاكلهنَّ الاجتماعيَّة وظروفهنَّ الأسريَّة.

وللجماعة كذلك انتشار في دول الخليج ومصر وفلسطين، وبعض الدول العربيَّة والأجنبيَّة ولكن لا توجد معلومات كافية عن ذلك[1].

القُرَآنِيُّون

التعريف:

يقوم فكر القرآنيِّين أساسًا على إنكار السُّنَّة، ونبذها، وعدم اعتبارها مصدرًا للتشريع الإسلامي، فتخبَّطوا وضلُّوا، وجاءت أحكامهم ناقصة مشوشة، بعيدة عن مرادها، إذ رفعوا شعار: حسبنا كتاب الله، متناسين أنَّ السُّنَّة جاءت موضحة لكتاب الله ومفسّرة، ومكمِّلة لأحكامه.

تاريخ القرآنيِّين

في نهاية القرن التاسع عشر الميلاديِّ، بدأت تغزو الهند الدعوة إلى الاعتماد على القرآن ونبذ

(١) انظر: مجلة الراصد العدد ٣٣، ص(٧- ١٩)، تقرير عن جمعية بيادر السلام النسائية، لجنة من الباحثين، التنظيم النسائي السري الخطير، أسامة السيد، جماعة القبيسيات الصوفية، شبكة الدفاع عن السنة، القبيسيات، منتدى السقيفة، فتوى اللجنة الدائمة رقم (١٦٠١١) ١٨/ ٥/ ١٤١٤هـ.

السُّنَّة في التشريع الإسلاميّ، وعُرف هؤلاء باسم (أهل القرآن أو القُرآنيِّين)، وإن كان منهج إقصاء السُّنَّة النَّبويَّة قد عرف بعض الشيء في عصور مبكِّرة.

وقد استفحلت أفكار هؤلاء في القارة الهنديَّة، وانتقلت بعد ذلك إلى بعض الدول الإسلاميَّة، ومنها مصر، التي لا يشكل القرآنيون فيها تنظيمًا قويًّا كالذي ظهر في الهند. والسودان التي تلبورت هذه الفرقة في قالب جديد هو الحزب الجمهوري.

وقد مهَّد لظهور جماعة القرآنين، حركة العصرنة والتجديد التي قادها أحمد خان (١٨١٧-١٨٩٨م) بين مسلمي الهند.

وقد بدأ أحمد خان حياته العمليَّة بالاتصال بالإمبراطور بهادر شاه آخر ملوك دهلي المسلمين، فأنعم عليه برتب والده ونعوته، وكان والده قد تقلَّد عددًا من المناصب. ولمّا تغلَّب البريطانيون على الهند، عمل أحمد خان لديهم موظَّفًا في شركة الهند الشرقيَّة، ثم أصبح أمينًا للسجلات في القلم الجنائي بدهلي، وعمل لديهم بإخلاص ونشاط.

وحين ثار الهنود المسلمون في دهلي على الاستعمار البريطاني لبلادهم سنة ١٨٥٧م، وقف أحمد خان ضد هذه الثورة، معتبرًا أنَّها ستلحق الأذى بشعبه، فأخذ يحث على إنهائها، وعرّض حياته للخطر في سبيل ذلك، وكان رأيه أن سبب الثورة أو «التمرد» كما أطلق عليها، أنَّ الشعب الهندي أساء فهم طبيعة الحكم البريطاني، وأنَّ البريطانيين تجاهلوا شروط الحكم.

ولمّا انتهت الثورة، وفتك المستعمر بالمسلمين، أكرم البريطانيون أحمد خان بلقب «صاحب نجمة الهند»، كما عُيِّن زميلًا وعضو شرف في الجمعيَّة الملكيَّة الآسيويَّة في لندن، وعيَّنوا له راتبًا شهريًّا يرثه ابنه البكر من بعده.

وبعد ذلك، أخذ خان على عاتقه نشر الثقافة الغربيَّة بين المسلمين، معتبرًا أنَّ ذلك من أهم وسائل إصلاح أحوالهم، وفي سنة ١٨٦٢م، نشر شرحًا واسعًا للإنجيل، ليكون أول مسلم يقوم بهذا النوع من البحث.

وقام بالتَّعاون مع أغاخان الثالث، إمام الإسماعيليَّة الأغاخانيَّة، وبتمويله السخي بافتتاح أول (جامعة إسلاميَّة عصريَّة) في عليكرة، وقد تسلَّم إدارتها في بادئ الأمر بريطانيون.

وأخذ أحمد خان يفسر آيات القرآن تفسيرًا عقليًّا محاولًا توفيقها مع العصر، ويؤول المعجزات المذكورة في القرآن تأويلًا مخالفًا لما عليه عموم المسلمين.

ومن آرائه: القول بأنَّه لا يوجد في القرآن ما يدل صراحة على أنَّ المسيح ولد من غير أب! كما حاول تفسير آيات الجنة والنار تفسيرات روحيَّة رمزيَّة، خلاف مضمونها الظاهريّ، كما رفض أحاديث علامات الساعة، من طلوع الشمس من مغربها، وخروج دابَّة الأرض، ونزول المسيح عليه السلام وغير ذلك.

وقد كان أحمد خان بمنهجه هذا أوَّل من اختطَّ طريق التعويل على القرآن فقط، وفهمه فهمًا

عصريًا كما يزعم، والتشكيك بالأحاديث والأخبار، والدَّعوة لغربلة التراث.

أهم أفكار القرآنيِّين

١- اعتبار القرآن الكريم المصدر الوحيد للشريعة الإسلاميَّة دون ما سواه.

٢- استبعاد كل المصادر الأخرى المشكلة للشريعة الإسلاميَّة كالسُّنَّة، والسيرة والتفسير والقياس والاجتهاد وسير الصحابة والإجماع وفتاوى الأئمَّة.

٣- وفيما يتعلق بالسُّنَّة النَّبويَّة على وجه التحديد، فقد وجّه القرآنيون سهامهم نحوها، وأبعدوها من مذهبهم منكرين أنَّها المصدر الثاني للتشريع الإسلامي، بل ومنكرين لها جملة وتفصيلًا بزعم أنَّها غير محفوظة مثل القرآن، وأنَّ نسبتها إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم غير يقينيَّة.

٤- ادِّعاؤهم بأنَّ الصوم في شهر شعبان، وليس في رمضان.

٥- اعتبارهم أنَّ الكعبة صنم، وأنَّ الطواف حولها من طقوس الوثنيين في الجاهلية.

٦- ينكرون وجود النسخ بأقسامه الثلاثة -نسخ الحكم، ونسخ التلاوة، ونسخ الحكم والتلاوة- في القرآن الكريم.

٧- يرى بعضهم أنَّ لا وجود للمجمل في القرآن الكريم، كما يختلفون في مسألة تخصيص القرآن، وتقييده بغيره.

٨- يعتمدون في فهم القرآن وتفسيره على اللُّغة العربيَّة فقط، وذلك بسبب استبعادهم للسُّنَّة النبويَّة الموضحة والمفصِّلة للقرآن، فصرفوا الآيات والأحكام عن مرادها.

٩- تبني نظريَّة (مركز الملّة) التي تعني أنَّ الآياتِ التي تأمر بطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم غير مختصة بهما، إنما تعني طاعة الحاكم أو الإمام الذي يتولى منصب النبيِّ صلى الله عليه وسلم من بعده.

وقد أعطوا لهذا (المركز) صلاحيَّات تعيين حكم الشرع في الأحكام التي لم يرد ذكرها في القرآن، دون أن يلتزم بما سبقته من الأنظمة، والتمتع بالتحريم والإطلاق والتقييد لما يراه غير موافق لظروفه من الأحكام القرآنيَّة.

١٠- وفي الجانب الاقتصاديِّ، يروجون للنظريَّة الاشتراكيَّة، التي تبنتها الشيوعيَّة ويطلقون عليها (نظرية نظام القرآن الاقتصادي)، وتعني سيطرة الدولة على الثروات ووسائل الإنتاج، وإلغاء الملكيَّة الفرديَّة.

١١- إنكار وقوع خوارق العادات من محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وأمَّته من بعده، ما عدا معجزة القرآن.

١٢- ذهب بعضهم إلى القول بأنَّ المسيح عيسى ابن مريم ولد من أبوين شرعين، لا من مريم وحدها. كما صرح بعضهم بعدم عودته إلى الأرض مرة أخرى، وقالوا بأنَّ معتقد العودة دخل إلى

الإسلام من المسلمين الذين كانوا نصارى قبل الإسلام.

١٣- ينكر القرآنيُّون الحياة البرزخيَّة في القبر. أما الجنَّة والنار، فذهب بعضهم إلى أنهما (أماكن حقيقية ستخلق يوم القيامة، وأنَّه لا وجود لهما حاليًا)، وذهب فريق ثانٍ إلى (أنَّ الجنة والنار وما وصفتا به من نعيم وعذاب صورتان تمثيليتان)، ورأى فريق ثالث أنَّ (الجنَّة والنار طور من أطوار الحياة البشريَّة، وأنَّ نمو الحياة وازدهارها يعني حياة الجنة، وتوقفها وعدم الرقي فيها يعني حياة الجحيم والنار).

١٤- لهم آراء في الميراث تخالف ما عليه أهل السُّنَّة، مثل اعتقادهم بأنَّ اختلاف الدين بين الوارث والمورث لا يمنع من الميراث، وأنَّ الأنبياء يورثون، وأنَّ الرقَّ لا يمنع من الميراث، وأنَّ أولي الأرحام هم من يرتبط الميت بهم بصلة الرحم والقرابة، فيدخل فيهم الأب والأم والأولاد والإخوة والأخوات والأعمام وأبناء الإخوة...

من أبرز شخصياتهم

أولًا: في القارَّة الهنديَّة:

١- عبد الله بن عبد الله الجكرالويّ مؤسس جماعة أهل الذكر في القرن التاسع عشر، كان أحد المتأثرين بأحمد خان، وكان كثير الإهانة للتراث الإسلاميّ، وله مؤلفات كثيرة، منها: تفسير القرآن بآيات الفرقان، وترجمة القرآن بآيات الفرقان، ورد النسخ المشهور في كلام الربّ الغفور، والبيان الصريح لإثبات كراهة التراويح.

وقد استغل البريطانيُّون الذين كانوا يحتلُّون القارَّة الهنديَّة حركة جكرالوي، وقد كان «المشروع البريطاني» يضمُّ في صفوفه عددًا كبيرًا من القساوسة المنصِّرين، الذين أُعجبوا بنهج جكرالوي في إنكار السُّنَّة النبويَّة، وأخذوا يشجِّعونه، وأخذت كتب التأييد والرسائل تصل إليه من القساوسة، وتعده بالمساعدات الماديَّة، وتشكره على هذا «المجهود الجبَّار».

٢- أحمد الدين الأمرتسري مؤسِّس فرقة الأمَّة الإسلاميَّة المتوفى سنة ١٩٣٦م، ومن مؤلفاته: معجزة القرآن، وتفسير بيان للناس، وغيرهما، وكان ناقدًا لاذعًا لنظام الميراث عند المسلمين، وغير ذلك.

٣- حافظ محمد أسلم جراجبوري المتوفى ١٩٥٥م، وكان من أركان القرآنيِّين البارزين، وكاتبًا لأحد الأعمدة الرئيسيَّة لصحيفة بيسة اليوميَّة التي كانت تصدر في لاهور بباكستان، وعمل محاضرًا في جامعتي عليكرة، والمليَّة، ومن مؤلفاته: الوراثة في الإسلام، حياة عمرو بن العاص، تاريخ نجد، تاريخ القرآن، تاريخ الأمَّة الإسلاميَّة، عقائد الإسلام.

٤- غلام أحمد برويز، رئيس جمعيَّة أهل القرآن المتوفى سنة ١٩٨٥م، ومؤسس حركة طلوع إسلام، ونشأ في بداية حياته متأثرًا بالطريقة الصوفيَّة الجشتية النظاميَّة التي كان جدّه على صلة وثيقة بها.

أصدر سنة ١٩٣٨ مجلة "طلوع إسلام" دون تسجيلها باسمه الخاص، وكان يمتاز بالاطلاع الواسع على الأفكار الأوربيَّة، ويرى وجوب صبغ الإسلام بها، وبالإضافة إلى ذلك يعتقد أنَّ النظريات العلميَّة حقائق لا تقبل الجدل والمناقشة، لذا يجب تفسير القرآن بمقتضاها، مثل القول بالتطور في وجود الخلق، وإنكار خوارق العادات.

ويعتبر برويز أكثر القرآنيِّين كتابة وتأليفًا، حتى أسماه البعض (مؤلِّف الحركة القرآنية)، ومن مؤلفاته: تبويب القرآن، وهو عبارة عن معجم لبعض معاني القرآن، وأنا والرب، وإبليس وآدم، والمجتمع المسلم، وعالم الغد، والحركة القاديانية وختم النبوة، والقرآن والدكتور محمد إقبال.

وقد وقف علماء القارة الهنديَّة له -ولغيره- بالمرصاد، وفندوا عقائده وأفكاره، وكان للشيخ المودودي دور كبير في تسليط الأضواء على أفكار برويز، وتحذير الناس من اتِّباعها. وفي سنة ١٩٦١م، وضعت أفكار برويز ومعتقداته على طاولة البحث الإسلامي أمام العلماء ليفتوا فيها، وتولى إجراء هذا الاستفتاء المدرسة العربيَّة الإسلاميَّة بكراتشي، فأفتى ما لا يقل عن ألف عالم من علماء الدين من باكستان والهند والشام والحجاز بتكفيره وخروجه عن ربقة الإسلام.

٥- جعفر شاه بلواري، أحد زعماء جماعة «طلوع إسلام»، وأحد المكثرين في الكتابة عن آراء القرآنيِّين في الآونة المعاصرة. تقلَّد عدة مناصب حكوميَّة في باكستان، وفي السبعينيات من القرن العشرين الميلادي، كان أحد أعضاء إدارة الثقافة الإسلاميَّة بلاهور، التي تعمل تحت إشراف الدولة.

وله عدة مؤلفات منها: مقام السُّنَّة، رياض السنة، الدين يسر.

٦- محمد رمضان المتوفى سنة ١٩٣٩م، أحد تلاميذ عبد الله جكرالوي، من أهم أعماله إصدار مجلة بلاغ القرآن التي لا تزال تحمل آراء بعض القرآنيِّين إلى الآفاق الباكستانيَّة حتى الآن، وله من المؤلفات: صلاة القرآن كما علَّم الرحمن.

٧- جراغ علي، تأثر بأفكار أحمد خان عندما شاركه بترجمة بعض الكتب، وكان يطالب بإعادة تدوين الفقه الإسلامي من جديد.

وعن قواعد الجرح والتعديل، والمعايير التي وضعها علماء الحديث لتمييز الحديث الصحيح من غيره، كان يقول: «. . . لا حاجة إليها لتمييز صحيح الحديث من سقيمه؛ لأنَّ الحديث -في حد ذاته- شيء لا يمكن الاعتماد عليه».

٨- عناية الله المشرقي، خريج جامعة كامبردج في بريطانيا. أخذ على عاتقه مهاجمة العلماء والسخريَّة منهم، معتبرًا أنَّهم «تقليديُّون».

ثانيًا: في مصر:

١- د. أحمد صبحي منصور، كان يعمل أستاذًا بجامعة الأزهر، فتم فصله بسبب انحرافاته. غادر مصر إلى الولايات المتَّحدة واستقرَّ بها. ويعتبر الأب الروحي للقرآنيِّين في مصر.

٢- أمين يوسف علي، الزعيم السابق للقرآنيين بمنطقة المطرية بالقاهرة، وكان يعمل خطيبًا بمساجد وزارة الأوقاف. وهو أحد الذين تم حبسهم في قضية هذا التنظيم عام ٢٠٠٢م.

٣- علي المندوه السيسي، وهو أحد الذين تم حبسهم أيضًا عام ٢٠٠٢، لمدة ٣ سنوات.

٤- إيهاب عبده، صاحب كتاب: استحالة وجود عذاب في القبر.

وينبغي هنا الإشارة إلى أن حركة إنكار السُّنَّة كليًا أو جزئيًا في مصر وبعض البلدان العربيَّة سبقت تنظيم القرآنيين الذين صدرت بحق أفراده أحكام بالسجن سنة ٢٠٠٢م(١).

عبدة الشيطان

التعريف:

جماعات شبابيَّة توجهت إلى عبادة الشيطان وتقديسه من دون الله، وهذه المجموعات بدأت تظهر في بعض مجتمعات المسلمين، ويطلق عليها «عبدة الشيطان» وبدت متأثرة ببعض الأفكار والأديان التي انتشرت في الغرب.

تاريخ عبدة الشيطان

يُعتقد أنَّ بداية هذا الفكر كانت في القرن الأول للميلاد عند الغنوصيين، الذين كانوا ينظرون إلى الشيطان على أنَّه مساوٍ لله تعالى في القوة والسلطان.

وقد ظهرت فكرة عبادة الشيطان وتقديسه في عدد من الديانات القديمة، وكان عند بعضها آلهة عديدة تمثل الشرَّ. ففي الحضارة المصريَّة القديمة، وُجد الإله (سيت) أو (سيث) وهو يقترب من كلمة satan أي شيطان، الذي يمثل قوة الشرِّ، وقد قدم المصريُّون له القرابين اتقاءً لشرِّه. وفي الحضارة الهنديَّة، كان للشيطان دور كبير في حياتهم الدينيَّة، عبروا عنه باسم الراكشا. وعند الإغريق كان اسمه دي إت بولس (Boles-D it)، أي المعترض. وفي أرض فارس، بدأت عبادة الشرِّ والشيطان على تخوم الصحراء الآسيويَّة، وكانوا يعبدون شياطين الليل التي تطوَّرت للتعبير عن الشرِّ بالظُّلمة، والخير بالنور، وبما يعرف باسم «الثنويَّة». وفي بابل وآشور، تذكر الأساطير أنَّ صراعًا حدث بين آلهة الخير، وآلهة الشرِّ، وفي التراث الأفريقي، ما زال يعتبر سحر الفودو، وهو السحر الرسميّ الوحيد في العالم كنوع من تقديس الشيطان، والحصول منه على قدرات خارقة للسيطرة على بعض الناس.

القرون الوسطى.

وفي القرون الوسطى، ظهرت في أوربا عدة جماعات تتَّخذ من الشيطان إلهًا ومعبودًا، منها

---

(١) مجلة الراصد العدد ٢٧، ص(٧- ١٥)، القرآنيون وشبهاتهم حول السنة، خادم حسين إلهي بخش، الفرق والمذاهب الإسلامية منذ البدايات، سعد رستم.

جماعة «فرسان الهيكل» التي ظهرت في فرنسا، وكان لها اجتماعات ليليَّة مغلقة تبتهل فيها للشيطان، وتزعم أنَّه يزورها بصورة امرأة، وتقوم هذه الجماعة بسب المسيح وأمِّه وحوارييه، وتدعو أتباعها إلى تدنيس كل ما هو مقدَّس.

وكان فرسان الهيكل يتميزون بلبس قميص أسود يسمُّونه «الكميسية». وقد انتشرت هذه الجماعة في فرنسا وإنجلترا والنمسا، ثم اكتشفتها الكنيسة، وقامت بحرق مجموعة من أتباعها، وقتلت زعيمها ما بين عامي ١٣١٠. ١٣٣٥م.

ثم ظهرت عدة جماعات مشابهة بعد ذلك، أخذ بعضها يمارس تعذيب الأطفال وقتلهم، وقد خطف لهذا الغرض مئات الأطفال بين عامي ١٤٣٢. ١٤٤٠م، والبعض الآخر أخذ يقوم بتسميم الآبار والينابيع مثل «جمعيَّة الصليب الوردي».

وفي القرن السابع عشر ظهرت جمعيَّة تسمى «ياكين» تمارس الطقوس نفسها، وقد أعدم منها فوق الثلاثين فردًا، ثم ظهرت جمعيَّات أخرى مثل: الشعلة البافاريَّة، الشعلة الفرنسيَّة، وإخوَّة آسيا.

وفي ١٧٧٠، أسس الألماني آدم وايزهاويت مذهبًا مشابهًا باسم «حملة النور الشيطانيّ»، وقد أغلقت حكومة بافاريا محافل هذا المذهب سنة ١٧٨٥، وحظرت أي نشاط لها.

ثم اختفت هذه الأفكار لتعاود الظهور في منتصف الأربعينات من القرن العشرين.

ظهورها الحديث

في عام ١٩٤٨، ألَّف البريطانيُّ ألستر كراولي الذي تخرج في جامعة كامبردج كتابًا أسماه «الشيطان الأبيض» دافع فيه عن الإثارة والشهوات الجنسيَّة، وألقى محاضرات مطوَّلة عن الجنس في بريطانيا، وأصبح بعد ذلك هو المعلم الأول لجماعة عبدة الشيطان التي أخذت تنتشر أيضًا في الولايات المتَّحدة، ليتزعَّمها بعد ذلك يهوديٌّ أمريكيٌّ هو انطوان شذليفي، الملقب بالبابا الأسود.

وقد ترعرع ليفي في كاليفورنيا، وفي سنة ١٩٦٦ أعلن عن فرقته، وأسَّس في سنة ١٩٦٩ معبدًا يدعى بكنيسة الشيطان (cos)، كما ألَّف عددًا من الكتب الفلسفيَّة لترويج الفكر الشيطانيِّ، منها كتاب «الشيطان يقول» ويحتوي على عبارات الشيطان التسع وأحكام الأرض الإحدى عشر، وكتاب «الإنجيل الأسود»، وهدف إلى تحقير طقوس المسيحيَّة وشعائرها، وإلى بيان كيفية ممارسة العبادة، ويعتبر مرجعًا أساسيًّا لتوجيه الأتباع.

وبالرغم من أنَّ معظم الباحثين يذهب إلى أنَّ آنتون ليفي هو مؤسِّس فكر عبادة الشيطان في العصر الحديث، إلَّا أنَّ البعض ينسب هذا الفكر حديثًا إلى موسيقى الروك والمغني الأمريكي ليتل ريشارد، الَّذي أدخل سنة ١٩٥٢م إلى هذا الرقص أنغامًا وحركات تعود إلى العنف، وبعده في عام ١٩٥٥م، تزعم ألفيس بريسلي الحركة الموسيقيَّة، وراح يخاطب غرائز الشباب، ويشجِّعهم على رفض القيم الدينيَّة والأخلاقيَّة، وعلى الحياة نفسها.

وإضافة إلى الولايات المتَّحدة، فإن عبادة الشيطان تشهد تزايدًا في فرنسا أيضًا، فقد أشار تقرير صدر في شهر مارس/ آذار سنة ٢٠٠٥ عن البعثة الوزاريَّة لمراقبة ومكافحة التجاوزات الطائفيَّة، وتم تسليمه إلى رئيس الوزراء أن ظاهرة عبادة الشيطان تكتسب أرضًا جديدة في فرنسا مما يؤدي إلى زيادة عمليَّات تدنيس المقابر وطقوس معادية للمسيحيَّة.

كما تشهد الظاهرة تزايدًا أيضًا في الدول الاسكندنافيَّة وروسيا وإيطاليا وإسبانيا وألمانيا واليونان وجنوب أفريقيا، واعترفت بعض الدول بها.

وحسب تقارير مكتب التحقيقات الفيدرالي في الولايات المتَّحدة، فإنَّه يدخل في كل عام في هذه الديانة ٥٠ ألف شخص من مختلف دول العالم، كما أكَّد أنَّ هذه الطائفة وراء كثير من جرائم القتل وخطف الأطفال، وخاصة في ولايتي سان فرانسيسكو ولوس أنجلوس، حيث كانت الشرطة تجد بقايا دماء أطفال، وحيوانات مذبوحة بجوارها الشموع والأقنعة السوداء والجماجم.

تسربها إلى الدول العربيَّة

١- مصر

أول ظهور لعبدة الشيطان في مصر، يعود إلى أواخر سنة ١٩٩٦م، وفي ٢٧/ ١/ ١٩٩٧ خرجت الصحف المصريَّة تحمل خبرًا مثيرًا للجدل، عن القبض على ٨٦ شابًا وفتاة يعبدون الشيطان.

وقد تبين أن هذه المجموعة تتراوح أعمارهم بين ١٥و ٢٤ سنة، وأنَّهم من خريجي المدارس الأجنبيَّة، ومن أولاد الطبقة الغنيَّة.

كما تبيَّن أنَّهم اعتنقوا هذا الفكر عن طريق الاختلاط بالإسرائيليِّين في المنطقة المصرح فيها بدخولهم إلى الأراضي المصريَّة بدون جوازات سفر إلى جوار طابا ومن خلال استدراجهم بالجنس والمخدرات والخمور.

كما قبضت السلطات المصريَّة في شهر مايو/ أيار سنة ٢٠٠١م على ٥٥ من الشاذِّين من عبدة الشيطان، ووجِّهت لهم تهم ازدراء الأديان، واستغلال الدين في ترويج أفكار متطرِّفة.

وقد تم القبض على هذه المجموعة على متن باخرة نيليَّة، وكانوا يتخذون من صالة «الديسكو» فيها مكانًا لتجمُّعهم، وإقامة حفلات التعارف والتزاوج بعد تقسيم أنفسهم إلى رجال أزواج، ورجال زوجات.

ومن القيادات الرئيسية في جماعة عبدة الشيطان في مصر أحمد عمر عبد الغفار وطارق حسن، وهو صاحب فرقة موسيقيَّة، وشاب آخر اسمه تامر علاء.

ومن بين الأماكن التي اتخذها عبدة الشيطان في مصر مقرًّا لممارسة طقوسهم، قصر البارون الشهير، الذي بني سنة ١٩٠٥م، وهُجر فيما بعد، ولم تكن عليه حراسة فعَّالة، إذ كانت تتسلل جموع الشباب والشابات إلى القصر لإقامة طقوسهم، وعندما كانوا يبدءون بحفلاتهم، يظن الناس

أنها أصوات لأشباح وعفاريت، ثم تبين أنَّها لم تكن سوى تلك الصرخات الشيطانية المصاحبة لموسيقى الروك.

٢- الأردن

ظهرت عبدة الشيطان في الأردن في منتصف التسعينات، وقد حاولت السلطات آنذاك التقليل من حجمها إلى أن قبضت على مجموعة منهم في شهر سبتمبر/ أيلول سنة ٢٠٠٢، في إحدى قاعات الاحتفال في منطقة عبدون الراقية في عمّان، وهم يمارسون طقوسًا غريبة، ويرتدون ملابس فاضحة، ويتقلدون بسلاسل من ذهب، ويرقصون بطريقة مثيرة على أنغام موسيقى غربية صاخبة.

كما داهمت السلطات عددًا من المحال التجاريَّة التي تقوم بتوزيع أشرطة الفيديو، وأقراص CD، التي تروج لفكر عبادة الشيطان. وأعلنت دائرة المطبوعات والنشر عن مصادرة نحو ألف شريط فيديو، ومئات أقراص الكمبيوتر.

وكانت قد شهدت بعض الجامعات الخاصَّة تجمعات لهؤلاء الشباب والفتيات، مما سبب بعض الصدامات مع الطلّاب والمدرسين، وقد تكرر في بعض الجامعات حوادث تلويث المصليات بالقاذورات، وهو ما حدث أيضًا في مسجد زيد بن حارثة بمنطقة الجبل الأخضر في مدينة عمان.

٣- لبنان

في مطلع عام ٢٠٠٣ أطلق وزير الداخليَّة اللبنانيُّ آنذاك إلياس المر صرخة نذير بشأن شباب لبنان، بسبب تفشي الظاهرة بينهم، داعيًا إلى التشدد في تطبيق القوانين تجاه عبدة الشيطان.

كما أعلن الوزير عن انتحار ١١ شخصًا سنة ٢٠٠٢ وقعوا في براثن هذه الجماعة التي كانت قد شهدت انتشارًا في السنوات الماضية، ولا تزال تتغلغل في المدن. كما أعلن عن نية وزارته إنشاء مكتب مكافحة «عبدة الشيطان».

ويقول اللبنانيُّون إنَّ عبدة الشيطان يعود ظهورهم في بلادهم إلى فترة الحرب الأهليَّة، وتحديدًا إلى عام ١٩٨٦، عندما قامت القوى الأمنية بمداهمة أحد الفنادق في منطقة جونيه بشمال بيروت، وألقت القبض على مجموعة منهم.

٤- البحرين

نقلت وكالة يو بي آي عن صحيفة الوطن السعوديَّة في ١٢/ ٤/ ٢٠٠٥ أن السلطات البحرينيَّة على وشك القبض على رئيس تجمع عبدة الشيطان في البحرين، بعد حصولها على معلومات عنه، عقب اكتشافها حفلات للشواذ في أحد فنادق العاصمة المنامة.

ونقلت الصحيفة عن طالب في المرحلة المتوسطة أنَّه تلقَّى دعوة إلى الحضور من جماعة مجهولة نظمت ٣ لقاءات منذ العام الماضي، في حين تجاوز أعداد الحضور ١٥٠ شخصًا من عبدة الشيطان، غالبيتهم تقل أعمارهم عن ١٥ عامًا.

وقال هذا الطالب بأنّه حضر لقاءاتهم مرتين، مصطحبًا كاميرا لتصوير الحفل، إلاّ أن سوء الإضاءة لم يمكنه من ذلك. وأشار إلى أن الحضور يبدءون بالرقص العاري، وتناول الخمور والمخدرات على وقع موسيقى صاخبة، إلى أن يدخل الجميع في حالة هيجان عامة تؤدي إلى الإغماء، يتخللها ممارسات شاذة لا أخلاقيّة.

٥- المغرب

بدأت تنتشر في المدن السياحيّة كالدار البيضاء والرباط ومراكش وفاس وأغادير والصويرة. وينظمون حفلات بشكل دوري، أما لقاءاتهم العاديّة فتتم داخل مقاهٍ يلتقون فيها سرًّا، وقد يشاهدهم الناس منعزلين في ركن منها، وهم يتشحون بالسواد الذي يرمز للعوالم الشيطانية، ويتحدثون عن الموت بينما يدخنون الحشيش.

وفي بداية شهر آذار مارس ٢٠٠٣، كتبت الصحف عن اعتقال ١٤ شابًا أحدهم مصري الجنسية، وتم الحكم عليهم بالسجن والغرامة الماديّة. واستنكر أهالي الشباب الأحكام الصادرة ضدهم قائلين إن أبناءهم مجرد أشخاص مولعون بالموسيقى.

٦- الجزائر

نشرت وسائل الإعلام هناك بتاريخ ٣/ ٢/ ٢٠٠٢ تقريرًا إخباريًّا جاء فيه أنَّ مجموعة تلتقي كل ليلة في مقبرة مسيحيّة في الجزائر العاصمة وبحوزتها أشرطة تتحدث عن القوى الشيطانيّة، والقوى الخفية، وكانت تلك المجموعة تقدم قربانًا، عبارة عن ديك أو قط أسود، يذبحونه ويلطخون أجسادهم العارية من دمه، ثم يهمهمون بكلام غامض، ويدورون حول الدم المأخوذ من الحيوان الذي مزقوه قبل أن يبدءوا بتصرفاتهم الشاذة.

ونقل معد التقرير عن طالب جامعي جزائري قوله: «لا يهمني ما يقوله الناس عني، مشرك أم كافر أم ملحد... أنا أشعر براحة الضمير، وواثق من تصرفاتي».

وعن سبب انضمام هذا الشاب إلى عبدة الشيطان، أفاد بأن ذلك كان من خلال محاضرة عبر الإنترنت ألقاها شخص سويسري من أتباع هذه الطائفة.

٧- تركيا

كتبت إحدى الصحف في ٢٤/ ١/ ٢٠٠٢ عن القلق الذي تبديه السلطات تجاه تزايد حالات الانتحار من قبل بعض الفتيات المنتميات لعبدة الشيطان، فقد ألقت طالبة في المرحلة الثانوية نفسها من فوق جسر بوغازيجي إلى مياه مضيق البسفور، كما انتحرت طالبة أخرى تدرس في مدرسة أجنبيّة خاصّة في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٠، وقد ذكرت صحيفة «زمان» التركيّة اليوميّة أن عدد عبدة الشيطان في تركيا يصل إلى ثلاثة آلاف.

٨- ماليزيا

اكتشفت السلطات الماليزية أول تواجد لعبدة الشيطان في عام ٢٠٠١، واعتقلت آنذاك ١٥٠ شخصًا، وفي بداية شهر ديسمبر/ كانون الأول سنة ٢٠٠٥، وفيما يبدو أنَّه إحياء لتنظيم عبدة الشيطان، تم القبض على ١٠٥ شباب، بينهم ٤ فتيات في عملية مداهمة لحفل موسيقي صاخب في قاعة بولاية نيجري سيمبيلان جنوب البلاد.

وتراوحت أعمار المجموعة بين ٢٠ و ٣٠ عامًا، ودلت الاختبارات التي أجريت عليهم أن ٣٠ منهم تعاطوا المخدرات.

وتقول وزيرة التنمية الاجتماعيَّة في ماليزيا زهرة سليمان: إنَّ هذه الطائفة تقوم بأعمال إلحاديَّة، وحرق الكتب الدينيَّة كالمصاحف، والقيام بسلوكيات غير عاديَّة.

وحظرت ماليزيا جميع أشكال موسيقى بلاك ميتال، وقال رئيس المجلس الوطني الإسلامي شكور حسين: رغم أنَّ بلاك ميتال مجرد شكل من أشكال الموسيقى، إلا أنَّ ثقافتها تدفع أنصارها إلى عبادة الشيطان والتمرد والقتل وتحض على الكراهية، وتدفعهم لممارسة شعائر مثل شرب دماء بشرية مخلوطة بدماء ماعز، أو إحراق نسخ من القرآن الكريم.

أهم وسائل انتشارها

١- تطور وسائل الاتصالات، خاصَّة وأنَّ شبكة الإنترنت هي الوسيلة الأهم لنشر أفكارهم، والتواصل بين الأتباع. ولهم على هذه الشبكة أكثر من ثمانية آلاف عنوان.

٢- تسارع وتيرة التطبيع بين الدولة اليهوديَّة، والعديد من الدول العربيَّة والإسلاميَّة، الأمر الذي أدى إلى ازدياد الخلطة بين مواطني هذه الدول وبين اليهود، خاصة في مصر، التي يفد إليها الكثير من اليهود، وبخاصة عبر منفذ طابا، الذي تحول إلى نقطة التقاء مهمَّة بين اليهود والمصريين، ولا يخفى هنا حرص اليهود على إفساد المسلمين، وصرفهم عن دينهم، ونشر الأفكار المنحرفة بينهم، ومنها أفكار عبادة الشيطان.

٣- ترويج الكُتَّاب اليساريين للأفكار المنحرفة في المجتمعات الإسلاميَّة. وقد اعتبر أن من إرهاصات فكر عبادة الشيطان في بلادنا، المحاضرة التي ألقاها في بيروت الشيوعي السوري د. صادق جلال العظم سنة ١٩٩٦ بعنوان «مأساة إبليس»، دعا فيها إلى رد الاعتبار لإبليس، والكف عن كيل السباب له والتعوذ منه، والعفو عنه، وطلب الصفح له، وهي المحاضرة التي ساقته إلى المحاكمة والتي تراجع أمامها لينجو من العقاب، وهو تراجع كاذب، وقد ضمنها من بعد كتابه «نقد الفكر الديني».

٤- تسخير كافة وسائل الإعلام والثقافة والفن، لنشر أفكار عبادة الشيطان، وجعلها مستساغة عند المسلمين، ومن ذلك نشر وسائل الإعلام الغربيَّة لأفلام تتحدث عن مصاصي الدماء، وأشخاص ذوي قدرات سحرية، ليغروا الشباب بامتلاكها إن وجدت، مثل فيلم الغراب

the crow، ومسلسل باڤي، وإنجل وغيرها، وللأسف تساهم كثير من الفضائيات العربيَّة في نشر مثل تلك الأعمال.

ومن سبل الدعاية لهذا الفكر بعض أنواع الموسيقى، مثل موسيقى Black Metal ، وهي موسيقى صاخبة تعتمد على الجيتار الإليكتروني، ومن أشهر الفرق التي تتغنى بعظمة الشيطان وتدعو إلى فكره، فرقة Dimmu Borgir وفرقة slayer، وأشهر مغنٍ يدعو إلى هذا الفكر يدعى مارلين مانسون، الذي ألَّف كتاب «الطريق الخارج من جهنم»، ويخرج أغانيه بأسلوب فلسفيٍّ يثير غرائز الشباب، ويدعوهم للإعجاب بهذا الفكر. ويقول علماء النفس أن موسيقى بلاك ميتال تصنع نوعًا من الغياب الذهنيِّ.

كما ألَّف أتباع هذه الطائفة الكتب الكثيرة للدعوة إلى باطلهم، منها: «صمت إبليس» تأليف د. لورانس بازدر، و«إبليس تحت الأرض»، و«جاء لتحرير الرهائن» و«الطقوس الشيطانيَّة» و«الساحر الشيطاني»، و«مذكرة الشيطان».

أفكارهم وطقوسهم وممارساتهم

١- اعتقادهم بأنَّ الشيطان ظُلم من قبل الله -حاشا لله- عندما طرده من الجنة لمَّا رفض السجود لآدم، لذلك فإنَّهم يعتبرون أنَّ الشيطان يستحقُّ التقدير، وهو رمز القوة والإصرار. كما يعتبرون الشيطان القوة العظمى التي تحرك الحياة والبشر.

٢- إطلاق العنان لممارسة الجنس والشهوات وتعاطي المخدرات والخمور.

٣- من طقوسهم: ارتداء الثياب السوداء، وإطالة الشعور، ورسم وشم الصليب المعقوف على صدورهم وأذرعهم، أو النجمة السداسية، ولبس قلادة سوداء عبارة عن نجمة خماسية يتوسطها رأس شيطان بقرنين ملتويين إلى الخلف.

٤- يفضلون الاجتماع لأداء طقوسهم في أماكن مهجورة أو نائية أحيانًا، ويرسمون على جدرانها أشكالًا مخيفة كالأفاعي والجماجم، أو أشكالًا غريبة تدمج فيها أكثر من حيوان أو هيئة.

٥- يرافقهم في هذه الجلسات الموسيقى الصاخبة Hard Rock، ويرددون بعض الكلمات على شكل أغانٍ ينشد فيها الموت والانتحار، إضافة إلى تعاطي المخدرات والمسكرات بشكل مبالغ، وفي مثل هذه الحالات قد يلعقون دماء بعض، أو يمزقون قطة أو كلبًا، أو ديكًا ويختارون اللون الأسود من الحيوانات، ويمزقونه وهو حي يعبثون بدمائه.

٦- إقدام بعضهم على الانتحار، لأنَّ هذا من الحرية التي يزعمونها، إذ يقولون إنَّ للإنسان الحرية أن يأكل ما يشاء، ويلبس ما يشاء، ويموت متى يشاء! والانتحار عندهم انتقال إلى عالم السعادة الحقيقية، وأشبه بمحطة من محطات كثيرة يتدرج فيها الإنسان.

٧- نبش القبور وإخراج جثث الموتى، ويتراقص كبيرهم فوق الجثة التي يعثرون عليها. ويقولون إنَّهم يفعلون ذلك لتقسية قلوبهم، ولمعاينة العدم والشعور به محسوسًا، والتدريب على

ممارسة القتل دون أن تطرف لهم عين.

٨- اعتبارهم أنَّ الأخلاق تكرس الضعف، وحماية الضعفاء، وهم إنَّما يريدون أن تقوم العلاقات بين الناس وفق اللَّذة والمنفعة، ويعتبرون الأخلاق عنصر تعويق، لا عامل دفع وترقية.

الوصايا التسع

وهي مجموعة من الوصايا والمبادئ التي تعتبر من ثوابتهم:

١- أطلق العنان لأهوائك وانغمس في اللَّذَّة.

٢- اتبع الشيطان، فهو لن يأمرك إلَّا بما يؤكد ذاتك ويجعل وجودك وجودًا حيويًّا.

٣- الشيطان يمثل الحكمة والحيويَّة غير المشوَّهة، وغير الملوَّثة، فلا تخدع نفسك بأفكار زائفة سرابيَّة الهدف.

٤- أفكار الشيطان محسوسة ملموسة ومشاهدة، ولها مذاقٌ، وتفعل بالنفس والجسم فعل الترياق، والعمل بها فيه الشفاء لكل أمراض النفس.

٥- لا ينبغي أن تتورط في الحبِّ، فالحبُّ ضعف وتخاذل وتهافت.

٦- الشيطان يمثل الشفقة لمن يستحقُّونها بدلًا من مضيعة الحبِّ للآخرين وجاحدي الجميل.

٧- انتزع حقوقك من الآخرين، ومن يضربك على خدك، فاضربه بجميع يديك على جسمه كلِّه.

٨- لا تحب جارك، وإنما عامله كأحد الناس العاديِّين.

٩- لا تتزوج، ولا تنجب، فتتخلص من أن تكون وسيلة بيولوجية للحياة وللاستمرار فيها، وتكون لنفسك فقط[١].

حزب الوفد

التعريف:

الوفد حزبٌ سياسيٌّ شعبيٌّ، ليس له توجه ديني معين، تشكل في مصر سنة ١٩١٨م، وكان حزب الأغلبية قبل ثورة ٢٣ يوليو المصرية، التي أنهت عهد الملكية، وحولت البلاد إلى النظام الجمهوري. ولم يعد الحزب إلى نشاطه السياسي إلا في عهد الرئيس أنور السادات، بعد سماحه للتعددية الحزبية. وقد اتخذ لنفسه اسم حزب الوفد الجديد سنة ١٩٧٨م، ويعد الآن من أكبر أحزاب المعارضة في مصر.

---

(١) مجلة الراصد العدد ٣١، ص(٧- ١٩)، عبدة الشيطان وحركات انحرافية أخرى، حسن الباش، بدعة عبادة الشيطان، د. أسعد السحمراني، إظهار الحق في الأديان والفرق، الدكتور محمد مختار المفتي، موسوعة الأديان الميسرة، دار النفائس.

تاريخ حزب الوفد

خطرت لسعد زغلول فكرة تأليف الوفد المصري للدفاع عن قضية مصر سنة ١٩١٨م، إذ دعا أصحابه إلى مسجد وصيف للتحدث فيما كان ينبغي عمله للبحث في المسألة المصرية بعد الهدنة (بعد الحرب العالمية الأولى).

تشكل الوفد المصري الذي ضم سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وعلي شعراوي وأحمد لطفي السيد وآخرين، وأطلقوا على أنفسهم (الوفد المصري).

وقد جمعوا توقيعات من أصحاب الشأن، وذلك بقصد إثبات صفتهم التمثيلية وجاء في الصيغة: نحن الموقعين على هذا قد أنبنا عنا حضرات: سعد زغلول و... في أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعي سبيلا في استقلال مصر تطبيقًا لمبادئ الحرية والعدل التي تنشر رايتها دولة بريطانيا العظمى.

واعتقل سعد زغلول ونفي إلى مالطة هو ومجموعة من رفاقه في ٨ آذار (مارس) ١٩١٩م فانفجرت ثورة ١٩١٩م في مصر التي كانت من أقوى عوامل زعامة سعد زغلول والتمكين لحزب الوفد.

وبقي حزب الوفد الذي هو حزب الأغلبية أو كما أطلق عليه الحزب الجماهيري الكبير يتولى الوزارة معظم الوقت في مصر منذ عام ١٩٢٤م وحتى عام ١٩٥٢م.

ومن شخصيات حزب الوفد الذين تولوا الوزارة: عبد الخالق ثروت، ومصطفى النحاس باشا الذي تولى مرات عديدة رئاسة الوزارة في مصر، حتى ألغت ثورة يوليو ١٩٥٢م سائر الأحزاب السياسية المصرية.

وكان فؤاد سراج الدين باشا عضوًا في حزب الوفد سنة ١٩٤٦م، ثم سكرتيرًا عامًّا للحزب سنة ١٩٤٨م، ثم اختير وزيرًا بوزارات الزراعة والداخلية والشئون الاجتماعية، ثم وزيرًا للداخلية والمالية معًا سنة ١٩٥٠م.

ثم عمل فؤاد سراج الدين على تسجيله تحت اسم حزب الوفد الجديد سنة ١٩٧٨م ليشارك في الحياة السياسية، وأصبح رئيسًا له حتى رحيله.

وحاز حزب الوفد على ٥٧ مقعدًا في مجلس الشعب بعد انتخابات عام ١٩٨٤م، و٢٥ مقعدًا عام ١٩٨٧م، وقاطع انتخابات عام ١٩٩٠م، وعلى ستة مقاعد عام ١٩٩٥م، وثلاثة مقاعد في انتخابات عام ٢٠٠٠م.

ويترأس الحزب نعمان جمعة، وهو أول رئيس للحزب لا يحمل لقب باشا.

العقائد والأفكار

من مبادئ الوفد المعلنة السياسية والاجتماعية:

- تحقيق استقلال البلاد وحريتها وتحقيق الوحدة بين مصر والسودان.

- التمسك بميثاق الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية.

- التمسك بعروبة فلسطين.

- العمل على رفاهية الشعب وترقيته عن طريق النظام الليبرالي.

- دعم النظام الدستوري الديمقراطي.

وهكذا نرى أنه ليس للدين أي مكانة في مبادئ الحزب.

أما المبادئ التي يعلنها الحزب فتبقى في أكثر الأحيان حبرًا على ورق، إذ تبقى المصالح الحزبية والشخصية هي المحرك الأساسي في الحزب.

- يعد سعد زغلول المؤسس الأول لحزب الوفد علمانيَّ النزعة ومن أشد أنصار تحرير المرأة بالمعنى المعروف في الغرب.

- الحزب لا يعادي التوجه الإسلامي كما أنه لا يلتزم به فيما يصدر عن قيادته من قرارات[(١)].

الناصريَّة

التعريف:

الناصريَّة حركة قوميَّة عربيَّة، نشأت في ظل حكم جمال عبد الناصر (رئيس مصر من عام ١٩٥٢م. ١٩٧٠م) واستمرت بعد وفاته، واشتقت اسمها من اسمه، وتبنت الأفكار التي كان ينادي بها وهي: الحرية والاشتراكية والوحدة، وهي نفس أفكار الأحزاب القومية اليسارية العربية الأخرى.

تاريخ الناصرية

أول من أطلق لفظ (الناصرية) محمد حسنين هيكل، الصحفي الذي رافق عبد الناصر إبان حكمه، وأصبح له شهرة في العالم العربي، وذلك بمقال له في جريدة الأهرام في ١٤/ ١/ ١٩٧٢م.

وجاء بعده كمال رفعت وأصدر في عام ١٩٧٦م كتيبًا بعنوان ناصريون، ذكر فيه مبادئ الناصرية وأهدافها.

ويلور الدكتور عبد القادر حاتم الذي كان وزيرًا في عهد عبد الناصر المذهب الناصري في تأبينه لعبد الناصر، كما جاء في جريدة الأخبار (٢/ ١٠/ ١٩٧٠م) حينما قال: أصبح في العالم اليوم مذهب سياسيٌّ متميز ينتسب إلى عبد الناصر.

وقد وافق القضاء المصري على إعلان الناصرية كحزب باسم (الحزب الديمقراطي الناصري)

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٤٥٠- ٤٥٢)، الموسوعة العربية العالمية.

وذلك في يوم الاثنين ١٨/ شوال/ ١٤١٢هـ (٢٠/ ٤/ ١٩٩٢م) برئاسة ضياء الدين داود المحامي، وعضو مجلس الشعب المصري.

وهناك من قادة الدول العربية -مثل معمر القذافي رئيس الجماهرية الليبية- من يصرح بأنه يسير على نهج عبد الناصر.

نظرة تاريخية على مؤسس الناصرية:

جمال عبد الناصر: كان يتردد على مركز الإخوان المسلمين لسماع حديث الثلاثاء منذ عام ١٩٤٢م. (مذكرات عبد المنعم عبد الرءوف).

وفي أوائل عام ١٩٤٦م بايع الإخوان المسلمين على التضحية في سبيل الدعوة الإسلامية مجموعةً من الضباط منهم جمال عبد الناصر. (مذكرات عبد المنعم عبد الرءوف).

وبدأت علاقة عبد الناصر بالمخابرات الأمريكية منذ آذار (مارس) ١٩٥٢م أي قبل قيام الثورة بأربعة أشهر، كما اعترف بذلك أحد رفاقه وهو خالد محيي الدين زعيم التنظيم اليساري في مصر، وهو أحد أعضاء تنظيم الضباط الأحرار، يقول: إن عبد الناصر كانت له علاقة بالمخابرات الأمريكية منذ مارس ١٩٥٢م أي قبل قيام الثورة بأربعة أشهر.

وقد تحدث اللواء محمد نجيب أول رئيس لمصر بعد الثورة عن هذه العلاقة في مذكراته، وأنهم هم الذين كانوا يرسمون له الخطط الأمنية ويدعمون حرسه بالسيارات والأسلحة الجديدة.

وفي ٢٧ يوليو ١٩٥٤م عقد اتفاقية الجلاء مع بريطانيا وعارضه فيها الإخوان المسلمون.

وفي ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٤م أعفي محمد نجيب من منصبه كرئيس للجمهورية ليصبح عبد الناصر فرعون مصر الجديد -على حد تعبير رفاقه- كمال الدين حسين وحسن التهامي.

وفي ٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٤م (١٢ ربيع الآخر ١٣٧٤هـ) نفذ عبد الناصر حكم الإعدام في ستة من قادة جماعة الإخوان المسلمين منهم عبد القادر عودة مؤلِّف التشريع الجنائي في الإسلام. فضلاً عن الاعتقالات التي شملت الآلاف من أعضاء جماعة الإخوان المسلمين، وذلك بعد اتهامهم بالتآمر على قتله في حادثة المنشية بالإسكندرية (في نفس العام) والتي قيل بأنها مسرحية دبرها عبد الناصر مع المخابرات المركزية للتخلص من الإخوان المسلمين الذين كانوا يشكلون عقبة كبيرة لحكمه الفردي البعيد عن الدين، ولتلميع شخصيته كزعيم وطني حتى تتعلق به الجماهير.

وفي عام ١٩٥٦م كان الاعتداء الثلاثي على مصر من قبل انجلترا وفرنسا وإسرائيل، ولم ينسحب المعتدون إلا بعد استيلاء إسرائيل على شرم الشيخ في سيناء، وجزيرة تيران في البحر الأحمر.

وشارك في الحرب اليمنية: التي قتل فيها الآلاف من الشعب المصري المسلم، وخسرت فيها الملايين.

وفي عام ١٩٦٦م أقدم عبد الناصر على إعدام ثلاثة من كبار جماعة الإخوان المسلمين منهم سيد

قطب مؤلِّف في ظلال القرآن، وكان قد اعتقل آلافا منهم في عام ١٩٦٥م.

وفي نفس العام صدر القرار الجمهوري (نيسان ـ أبريل ـ ١٩٦٥م) بالعفو الشامل عن جميع العقوبات الأصلية والتبعية ضد الشيوعيين في مصر، ودخل الماركسيون في جميع مجالات الحياة في مصر بعد ذلك.

وفي عام ١٩٦٧م كانت النكبة الثانية للعرب والمسلمين، فقد احتلت دولة اليهود في فلسطين المحتلة، ثلاثة أمثال ما اغتصبوه عام ١٩٤٨م (سيناء والجولان والضفة الغربية) وسقطت القدس بلا قتال.

يقول حسن التهامي وهو من أقرب المقربين لعبد الناصر(في الأهرام ٥/ ٨/ ١٩٧٧م): إن عبد الناصر هو الذي أمر القوات المصرية بالانسحاب إلى الضفة الغربية من قناة السويس عام ١٩٦٧م. وأن عبد الناصر هو الذي دس السم لعبد الحكيم عامر، في بيت عبد الناصر نفسه. ويقول حسين الشافعي وهو أحد الضباط الأحرار الذين قاموا بالانقلاب العسكري سنة ١٩٥٢م (في محاضرة له في جمعية الشبان المسلمين): انقلوا عني: أن الجيش المصري لم يحارب في معركة ١٩٦٧م بل هُزم بسبب الإهمال والخيانة، وأقول الخيانة وأضع تحتها عشرة خطوط.

وتوفي عبد الناصر سنة ١٩٧٠م بعد أن غرقت مصر في الديون وبعد أن خرّب مصر سياسيًّا واقتصاديًّا وأخلاقيًّا، وملأ العالم العربي بالشعارات الجوفاء.

من مبادئ الناصرية

- الحرية والاشتراكية والوحدة، للقضاء على مشكلات العالم العربي الأربعة: وهي الاستعمار، والتخلف، والطبقية، والتجزئة بين أقطار العالم العربي. (وهي نفسها أفكار حزب البعث القومي اليساري: الوحدة، الحرية، الاشتراكية).

- الحرية المطلوبة هي حرية الناصريين وليست حرية الشعب بكامله، إذ إن الناصرية القديمة (في عهد عبد الناصر نفسه) رفعت شعارات لا حرية لأعداء الحرية، وهي تعتقد بأن كل معارض لها من أعداء الحرية.

- الاشتراكية أساس التقدم الاقتصادي، وهي أساس بناء مجتمع الكفاية والعدل، والمجتمع الذي ترفرف عليه الرفاهية كما يزعمون.

- ونادت الناصرية بتوزيع الثروة الوطنية لتحقيق التغيير الاجتماعي.

- نادت بالاشتراكية العلمية، وهي خليط من الاشتراكية الماركسية والليبرالية الغربية والأفكار والوطنية مع شيء من الأفكار الدينية.

- الوحدة هي أساس القوة العربية، والعروبة أو القومية العربية هي أساس قيام الوحدة. وأغفلت الناصرية رباط العقيدة التي لا تؤمن الشعوب العربية إلا بها ولا تجتمع إلا حول رايتها.

وهي أساس وحدة العرب في الصدر الأول.

- نادت الناصرية بالديمقراطية، ومفهوم الديمقراطية لديها هو ديمقراطية التحالف السياسي، تبعًا لتحالف القوى الاجتماعية، أو كما وصفها محمد حسنين هيكل بديمقراطية الموافقة: أي أن الزعيم الحاكم ينفرد بالحكم وبإصدار القرارات المصيرية... ودور الشعب يقتصر على تأييد هذه القرارات. لأنه يفترض في الزعيم العصمة والصواب والحكمة وتجسيد إرادة الشعب وحقوق التعبير عنها.

- العلمانية أو اللادينية من أسس الناصرية، فليس للدين علاقة بالمجتمع وقوانينه ونظام حياته، وإنما هو طقوس تعبدية في المسجد فحسب.

النفوذ وأماكن الانتشار

نشأت الناصرية في مصر وانتشرت في باقي البلاد العربية، وإن كان أتباعها في البلاد العربية قلة من المنتفعين، وقد طالب بعض الذين تعاونوا مع عبد الناصر إبان حكمه بتشكيل حزب ناصري في مصر وقد سمح لهم بذلك.

من نقد الناصرية

- إنَّ الناصرية تتجسد في حفنة من الذين تعاونوا مع عبد الناصر إبان حكمه وأظهروا الولاء لشخصه فلما سمح بالتعددية الحزبية في مصر اتفقوا على التجمع باسم القومية العربية وتحت لواء الحرية والاشتراكية والوحدة دون تحديد واضح لمضمون هذه الأهداف. ولكنهم على أية حال يدينون بالولاء لعبد الناصر ويعتبرونه رائدهم مشيدين بمواقفه الإيجابية بحكم أنه أنهى الملكية الفاسدة في مصر وأمم قناة السويس، وأنهى الاحتلال البريطاني، وبنى السد العالي، وحرر اليمن الشمالي، وحقق مكاسب للعمال والفلاحين. ولكنهم يتغافلون عن سلبيات حكمه الفظيعة، التي تتمثل في إعلان الحرب على الاتجاه الإسلامي في الداخل والخارج، وتعذيب حملة لوائه عذابًا نكرًا، وتقتيل فطاحل علمائه من أمثال عبد القادر عودة وسيد قطب وغيرهم بعد محاكمات صورية.

- كما دأب على الوقوف دائمًا في صف أعداء الإسلام ومناصرة سياستهم، فأيد نهرو في مواقفه الجائرة ضد باكستان، وأيد نيريري الذي قام بمذبحة ضد مسلمي زنجبار، وأيد مكاريوس الذي كافح من أجل إضاعة حقوق المسلمين في قبرص. وأحيا جاهلية القرن العشرين بإثارة نعرة القومية العربية.

- ورغم أنه في أول حكم الثورة كان قد جعل الديمقراطية أحد مبادئها، إلا أنه لم يسمح ببزوغ فجرها، ووأدها في مهدها، وقضى على كافة الأحزاب المطالبة بها، وأنشأ الحزب الشمولي، وألغى الدستور، وجمع السلطة كلها في يده، وظل طوال حكمه مثال الحاكم المستبد الذي يضرب خصومه بيد من حديد، دون أدنى مراعاة للقيم الأخلاقية ويفتعل المؤامرات للقضاء عليهم قضاء مبرمًا.

وانتشر في عهده التحلل الأخلاقي والتفكك الأسري والتزلف النفعي والفساد، وقام بإلغاء الأوقاف الإسلامية والمحاكم الشرعية، وأضعف كيان الأزهر، وأصبح للمخابرات والمباحث العامة والأمن القومي السيطرة على كل المؤسسات في الدولة، وقاصمة الظهر في هذا كله أنه عرَّض الجيش المصري لهزيمة ساحقة لم يعرف لها التاريخ مثيلًا، وضاعت بسببها سيناء والضفة الغربية وقطاع غزة وهضبة الجولان والقدس الشريف، وتمكنت إسرائيل من توسيع رقعتها بما لم تكن تحلم به.

- ويعد مسئولاً عن انفصال السودان عن مصر، وعن حرب اليمن، وعن السماح لإسرائيل باستعمال مضيق تيران.

- والمؤمل، إذا تجملت الناصرية -بعد أن سمح لها من جديد بتشكيل حزب سياسي في مصر- أن يفتح أنصارها عيونهم على هذه الحقائق المؤلمة، ويصححوا مسارها نحو فهم جديد مستند للإسلام، كأهم عنصر إيجابي في تحقيق حكم نظيف قوامه العدالة الاجتماعية، وإنجاز الحرية والشورى كأساس متين لتجمع المسلمين ووحدتهم. ولعلهم بذلك يخفون وجه الناصرية القبيح، ويقضون على آثارها المتعفنة، ورموزها القذرة، ولهم في ماضيهم عبرة وفيما حدث في الكويت تبصرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد[١].

حزب البعث العربي الاشتراكي

التعريف:

حزب البعث حزبٌ قوميٌّ علمانيٌّ، يدعو إلى الانقلاب الشامل في المفاهيم والقيم العربية لصهرها وتحويلها إلى التوجه الاشتراكي، شعاره المعلن (أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة) وهي رسالة الحزب، أما أهدافه فتتمثل في الوحدة والحرية والاشتراكيَّة.

تاريخ حزب البعث العربي الاشتراكي

في سنة ١٩٣٢م عاد من باريس قادمًا إلى دمشق كل من ميشيل عفلق، وصلاح البيطار، وذلك بعد دراستهم العالية محملين بأفكار قومية وثقافة أجنبية.

عمل كل من عفلق والبيطار في التدريس، ومن خلاله أخذا ينشران أفكارهما بين الزملاء والطلاب والشباب.

وأصدر التجمع الذي أنشأه عفلق والبيطار مجلة الطليعة مع الماركسيين سنة ١٩٣٤م وكانوا يطلقون على أنفسهم اسم (جماعة الإحياء العربي).

أخذ التجمع شكل تنظيم سنة ١٩٤٢م، ولكن الحزب تأسس بشكل رسمي وانطلق بشكل عملي

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٤٨٥- ٤٩٠).

نضالي وتنظيم حزبي كامل في أبريل ١٩٤٧م تحت اسم (حزب البعث العربي)، وقد كان من المؤسسين: ميشيل عفلق، صلاح البيطار، جلال السيد، زكي الأرسوزي، كما قرروا إصدار مجلة باسم البعث.

وفي سنة ١٩٥٣م اندمج كل من (حزب البعث) و(الحزب العربي الاشتراكي) الذي كان يقوده أكرم الحوراني في حزب واحد أسمياه (حزب البعث العربي الاشتراكي).

دور حزب البعث في سوريا

كان للحزب دور فاعل في الحكومات التي طرأت على سوريا بعد الاستقلال سنة ١٩٤٦م وهذه الحكومات هي:

١- حكومة شكري القوتلي: من ١٩٤٦م وحتى ٢٩/ ٣/ ١٩٤٩م.

٢- حكومة حسني الزعيم: استلم السلطة عدة شهور من سنة ١٩٤٩م.

٣- حكومة اللواء سامي الحناوي: بدأ حكمه وانتهى في نفس عام ١٩٤٩م.

٤- حكومة أديب الشيشكلي: استمر حكمه حتى سنة ١٩٥٤م.

٥- حكومة شكري القوتلي: عاد إلى الحكم مرة ثانية واستمر إلى توقيع اتفاقية الوحدة مع مصر سنة ١٩٥٨م.

٦- حكومة الوحدة برئاسة جمال عبد الناصر: ١٩٥٨- ١٩٦١م.

٧- حكومة الانفصال برئاسة الدكتور ناظم القدسي: وقد دام الانفصال من ٢٨/ ٩/ ١٩٦١م وحتى ٨/ ٣/ ١٩٦٣م. وقد قاد حركة الانفصال عبد الكريم النحلاوي.

ومنذ ٨/ ٣/ ١٩٦٣م وإلى اليوم فقد وقعت سوريا تحت حكم حزب البعث، وقد مرت هذه الفترة بعدة حكومات بعثية هي:

- حكومة قيادة الثورة: ١٩٦٣م وفيها برز صلاح البيطار كرئيس للوزراء.

- حكومة أمين الحافظ: من ١٩٦٣ وحتى ١٩٦٦م.

- حكومة نور الدين الأتاسي: ١٩٦٦- ١٩٧٠م، حيث لعبت القيادة القطرية للحزب دورًا بارزًا في الحكم، وقد برز في هذه الفترة كل من صلاح جديد الذي عمل أمينًا عامًا للقيادة القطرية وحافظ الأسد الذي عمل وزيرًا للدفاع.

- حكومة حافظ الأسد: من سنة ١٩٧٠م وإلى يومنا هذا.

ومن الشخصيات السورية البارزة التي ظهرت في تاريخ الحزب:

- سامي الجندي: تقلد منصب وزير الإعلام بعد انقلاب ١٩٦٣م.

- حمود الشوفي: عمل سكرتيرًا عامًا للقيادة القطرية الأولى إلا أنه انشق وجماعته عن الحزب في

آذار سنة ١٩٦٤م، وهو الآن في العراق.

- منيف الرزاز: (أردني) عمل سكرتيرًا عامًا للقيادة القوميَّة للحزب من نيسان ١٩٦٥م إلى شباط ١٩٦٦م.

- مصطفى طلاس: ولد سنة ١٩٣٢م، درس في الكلية العسكرية بحمص، انضم إلى الحزب في سنة ١٩٤٧م وعمل رئيسًا لمحكمة الأمن القومي للمنطقة الوسطى من ١٩٦٣م، ورئيس أركان اللواء المدرع الخامس من ١٩٦٤م- ١٩٦٦م ورئيس الأركان للقوات المسلحة من شباط ١٩٦٨م ونائب وزير الدفاع من ١٩٦٨- ١٩٧٢م وفي آذار ١٩٧٣م وصار وزيرًا للدفاع.

- اللواء يوسف شكور: خلف مصطفى طلاس في رئاسة الأركان وهو من منطقة حمص.

- اللواء ناجي جميل: من دير الزور، كان قائدًا لسلاح الجو من تشرين الثاني ١٩٧٠م وحتى آذار ١٩٧٨م.

- سليم حاطوم: حاول أن يقود انقلابًا عام ١٩٦٦م لكنه فشل في ذلك. وقد أعدم في عام ١٩٦٧م.

- زكي الأرسوزي: (من لواء إسكندرون) مؤسس مع ميشيل عفلق ومنافس له.

- شبلي العيسمي: ولد عام ١٩٣٠م، عمل وزيرًا للإصلاح الزراعي ثم وزيرًا للمعارف، ثم وزيرًا للثقافة والإرشاد القومي ١٩٦٣- ١٩٦٤م ونائبًا للأمين العام لحزب البعث ١٩٦٥م.

- عبد الكريم الجندي: من أنصار صلاح جديد، انتهى منتحرًا عام ١٩٦٩م.

- سليمان العيسى: (من لواء إسكندرون) منظّر ومفكّر وشاعر.

- أحمد الخطيب: استلم رئاسة الجمهورية من تشرين الثاني ١٩٧٠م واستقال في شباط ١٩٧١م وهي الفترة الانتقالية بين حكومة نور الدين الأتاسي وحكومة حافظ الأسد، وقد كان عضو القيادة القطرية الموسعة من ١٩٦٥م كما استلم رئاسة مجلس الشعب لفترة قصيرة.

- يوسف زعين: مولود في البوكمال ١٩٣١م طبيب، عمل وزيرًا للإصلاح الزراعي ١٩٦٣- ١٩٦٤م، وسفيرًا في بريطانيا، وفي ١٩٦٥م انتخب عضوًا في القيادة القطرية، ومن شباط ١٩٦٦م إلى تشرين الأول ١٩٦٨م، كان رئيساً للوزراء حتى عام ١٩٧٠م.

- جلال السيد: عضو مؤسس في حزب البعث وهو من مدينة دير الزور وقد ترك الحزب لكنه بقي نشيطاً في السياسة السورية.

- عبد الحليم خدَّام: ولد ١٩٣٢م في بانياس، خريج كلية الحقوق بدمشق، تنقل في عدة وظائف، حيث عمل محافظاً لمدينة حماة ومحافظًا لمدينة القنيطرة ومحافظًا لمدينة دمشق ١٩٦٤م ووزيرًا للاقتصاد ١٩٦٩م ووزيرًا للخارجية من ١٩٧٠م وهو عضو القيادة القطرية منذ عام ١٩٦٩م وقد ارتقى عام ١٩٨٤م ليكون نائب رئيس الجمهورية للشئون السياسية.

- حافظ الأسد: ولد بالقرداحة من قرى اللاذقية سنة ١٩٣٠، تخرج في الكلية العسكرية بحمص ١٩٥٥م، عمل قائدًا لقاعدة الضمير الجوية ١٩٦٣م، وقائدًا لسلاح الطيران ١٩٦٤م، انضم إلى المجلس الوطني لقيادة الثورة ١٩٦٥م، انضم إلى صلاح جديد في انقلاب ١٩٦٦م، وصار وزيرًا للدفاع من ١٩٦٦م إلى ١٩٧٠م. ومن تشرين الثاني ١٩٧٠م صار رئيسًا للجمهورية بعد قيادته الحركة التغييرية التي أوصلته إلى السلطة.

- زهير مشارقة من حلب، عين نائب رئيس الجمهورية لشئون الحزب.

استيلاء حزب البعث على ناصية الحكم في العراق:

في الرابع عشر من شهر يوليو عام ١٩٥٨م دخل لواء بقيادة عبد السلام عارف إلى بغداد قادمًا من الأردن، واستولى على محطة الإذاعة، وأعلن الثورة على النظام الملكي، وقتل الملك فيصل الثاني وولي عهده عبد الإله ونوري السعيد وأعوانه وأسقط النظام الملكي، وبذلك انتهى عهد الملك فيصل، ودخل العراق دوامة الانقلابات العسكرية.

وفي اليوم الرابع والعشرين من شهر يوليو عام ١٩٥٨م أي بعد عشرة أيام من نشوب الثورة وصل ميشيل عفلق مؤسس حزب البعث وزعيمه إلى بغداد وحاول إقناع أركان النظام الجديد بالانضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة (سوريا ومصر) ولكن الحزب الشيوعي العراقي أحبط مساعيه ونادى بعبد الكريم قاسم زعيماً أوحد للعراق.

وفي اليوم الثامن من شهر فبراير لعام سنة ١٩٦٣م قام حزب البعث بانقلاب على نظام عبد الكريم قاسم وقد شهد هذا الانقلاب قتالًا شرسًا دار في شوارع بغداد، وبعد نجاح هذا الانقلاب تشكلت أول حكومة بعثية، وسرعان ما نشب خلاف بين الجناح المعتدل والجناح المتطرف من حزب البعث فاغتنم عبد السلام عارف هذه الفرصة وأسقط أول حكومة بعثية في تاريخ العراق في ١٨ نوفمبر سنة ١٩٦٣م، وعين عبد السلام عارف أحمد حسن البكر أحد الضباط البعثيين المعتدلين نائبًا لرئيس الجمهورية.

وفي شهر فبراير سنة ١٩٦٤م أوصى ميشيل عفلق بتعيين صدام حسين عضوًا في القيادة القطرية لفرع حزب البعث العراقي.

وفي شهر سبتمبر سنة ١٩٦٦م قام حزب البعث العراقي بالتحالف مع ضباط غير بعثيين بانقلاب ناجح أسقط نظام عارف.

وفي اليوم الثلاثين من شهر يوليو عام ١٩٦٨م طرد حزب البعث كافة من تعاونوا معه في انقلابه الناجح على عارف، وعين أحمد حسن البكر رئيسًا لمجلس قيادة الثورة ورئيسًا للجمهورية وقائدًا عامًا للجيش، وأصبح صدام حسين نائبًا لرئيس مجلس قيادة الثورة ومسئولًا عن الأمن الداخلي.

وفي ١٥ أكتوبر سنة ١٩٧٠م تم اغتيال الفريق حردان التكريتي في مدينة الكويت، وكان من أبرز أعضاء حزب البعث العراقي وعضوًا في مجلس قيادة الثورة ونائبًا لرئيس مجلس الوزراء ووزيرًا للدفاع.

وفي شهر نوفمبر من عام ١٩٧١م تم اغتيال السيد فؤاد الركابي وكان المنظّر الأول للحزب وأحد أبرز قادته في العراق وقد تم اغتياله داخل السجن.

وفي ٨ يوليو سنة ١٩٧٣م جرى إعدام ناظم كزار رئيس الحكومة وجهاز الأمن الداخلي وخمسة وثلاثين شخصًا من أنصاره وذلك في أعقاب فشل الانقلاب الذي حاولوا القيام به.

وفي السادس من شهر مارس عام ١٩٧٥م وقّعت الحكومة البعثية العراقية مع شاه إيران الاتفاقية المعروفة باتفاقية الجزائر وقد وقعها عن العراق صدام حسين وتقضي الاتفاقية المذكورة بأن يوافق العراق على المطالب الإقليمية للشاه في مقابل وقف الشاه مساندته للأكراد في ثورتهم على النظام العراقي.

وفي شهر أكتوبر لعام ١٩٧٨م طردت الحكومة البعثية الخميني من العراق وقامت في شهر فبراير عام ١٩٧٩م الثورة الخمينية في إيران.

وفي شهر يونيو عام ١٩٧٩م أصبح صدام حسين رئيسًا للجمهورية العراقية بعد إعفاء البكر من جميع مناصبه وفرض الإقامة الجبرية عليه في منزله.

وفي يوليو سنة ١٩٧٩م قام صدام حسين بحملة إعدامات واسعة طالت ثلث أعضاء مجلس قيادة الثورة وأكثر من خمسمائة عضو من أبرز أعضاء حزب البعث العراقي.

وفي اليوم الثامن من شهر أغسطس من العام نفسه أقدم صدام حسين على إعدام غانم عبد الجليل وزير التعليم، ومحمد محجوب وزير التربية، ومحمد عايش وزير الصناعة، وصديقه الحميم عدنان الحمداني، والدكتور ناصر الحاني سعيد، ثم قتل مرتضى سعيد الباقي تحت التعذيب، وقد سبق لكل من الأخيرين أن شغلا منصب وزير الخارجية، وقد بلغ عدد من أعدمهم صدام حسين خلال أقل من شهر واحد ستة وخمسين مسئولًا حزبيًّا، ولم يبق على قيد الحياة من الذين شاركوا في انقلاب عام ١٩٦٨م سوى عزت إبراهيم الدوري وطه ياسين رمضان وطارق حنا عزيز.

وفي اليوم التاسع من شهر إبريل عام ١٩٨٠م قام صدام حسين بإعدام محمد باقر الصدر أحد أبرز علماء الشيعة وأخته زينب الصدر المعروفة باسم (بنت الهدى).

وفي يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٨٠م شن صدام حسين حربه على إيران التي أسفرت عن سقوط ما يقارب نصف المليون من أزاهير شباب العراق فضلاً عن سبعمائة ألف من المعاقين والمشوهين، إضافة إلى نفقات الحرب التي تجاوزت المائتي ألف مليون من الدولارات، وكذلك تجميد كل تنمية طوال مدة زمنية تجاوزت الثماني سنوات، خرج صدام بعد كل هذه التضحيات ليعلن للعالم أن حربه مع إيران كانت خطأ، وأن الحق كل الحق في العودة إلى الاتفاقية المبرمة بينهما -اتفاقية الجزائر-.

وفي أثناء حربه مع إيران أنزل بالمواطنين الأكراد أبشع أنواع القتل والبطش والتنكيل والإبادة

باستخدام الغازات السامة والكيماوية وقنابل النابالم الحارقة.

وفي ٢ أغسطس سنة ١٩٩٠م (١١ محرم سنة ١٤١١هـ) قام باجتياح دولة الكويت واستباحة أرضها وطرد شعبها وتخريب منشآتها، إلى أن تم تحريرها.

قامت أمريكا أخيرًا في ٢٠٠٣م بإسقاط صدام ونظامه البعثي، واحتلت العراق، ونصبت حكومة علمانية موالية لها؛ وسط مقاومة عظيمة من الشعب العراقي السني المسلم.

سلوكيات ومبادئ حزب البعث العراقي:

- نادى مؤسس الحزب بضرورة الأخذ بنظام الحزب الواحد؛ لأنه كما يقول: إن القدر الذي حمّلنا هذه الرسالة خولنا أيضاً حق الأمر والكلام بقوة والعمل بقسوة، لفرض تعليمات الحزب، ومن ثم لا يوجد أي مواطن عراقي يتمتع بأبسط قدر من الحرية الشخصية أو السياسية، فكل شيء في دولة حزب البعث العراقي يخضع لرقابة بوليسية صارمة، تشكل دوائر المباحث والمخابرات والأمن قنوات الاتصالات الوحيدة بين المواطنين والنظام.

- تركيز سياسة الحزب على قطع كافة الروابط بين العروبة والإسلام، والمناداة بفصل الدين عن السياسة، والمساواة في نظرتها للأمور بين شريعة حمورابي وشعر الجاهلية وبين دين محمد عليه والصلاة والسلام، وبين ثقافة المأمون، وجعلها جميعاً تتساوى في بعث الأمة العربية وفي التعبير عن شعورها بالحياة.

- ادّعت سياسة الحزب أن تحقيق الاشتراكية شرط أساسي لبقاء الأمة العربية ولإمكان تقدمها، مع أن النتيجة الحتمية للسياسة الاشتراكية التي طبقت في العراق لم تجلب الرخاء للشعب ولم ترفع مستوى الفقراء، ولكنها ساوت الجميع في الفقر، وبعد أن كان العراق قمة في الثراء ووفرة الموارد والثروات أصبح بطيش حزب البعث عاجزًا عن توفير القوت الأساسي لشعبه.

- قيامه بتجريد الدستور العراقي من كل القوانين التي تمت إلى الإسلام بصلة، وأصبحت العلمانية هي دستور العراق، ومعتقدات البعث ومبادئه هي مصدر التشريع لقوانينه.

- ورد في التقرير المركزي للمؤتمر القطري التاسع والمنعقد في بغداد في شهر يونيو من عام ١٩٨٢م ما يلي: (وأما الظاهرة الدينية في العصر الراهن فإنها ظاهرة سلفية ومتخلفة في النظرة والممارسة).

(ومن الأخطاء التي ارتكبت في هذا الميدان أن بعض الحزبيين صاروا يمارسون الطقوس الدينية، وشيئًا فشيئًا صارت المفاهيم الدينية تغلب على المفاهيم الحزبية).

(إن النضال ضد هذه الظاهرة -يقصد الظاهرة الدينية- يجب أن يستهدفها (الحزب) حيث وجدت. . . لأنها كلها تعبر عن موقف معادٍ للشعب وللحزب وللثورة وللقضية القومية).

- حزب البعث العربي الاشتراكي حزب قومي علماني انقلابي له طروحات فكرية متعددة يتعذر

الجمع بينها أحياناً فضلاً عن الاقتناع بها، لقد كُتِبَ عنه كثير وتحدث زعماؤه طويلاً، ولكن هناك بون واسع بين ممارسات وأقوال فترة ما قبل السلطة، وممارسات وأقوال فترة ما بعدها.

- الرابطة القومية عنده هي الرابطة الوحيدة القائمة في الدولة العربية التي تكفل الانسجام بين المواطنين وانصهارهم في بوتقة واحدة، وتكبح جماح سائر العصبيات المذهبية والطائفية والقبلية والعرقية والإقليمية حتى قال شاعرهم:

آمنت بالبعث ربًّا لا شريك له ... وبالعروبة دينًا ما له ثان

- تعلن سياسة الحزب التربوية أنّها ترمي إلى خلق جيل عربي جديد مؤمن بوحدة أمته وخلود رسالتها أخذًا بالتفكير العلمي، طليقًا من قيود الخرافات والتقاليد والرجعية، مشبعًا بروح التفاؤل والنضال والتضامن مع مواطنيه، في سبيل تحقيق الانقلاب العربي الشامل وتقدم الإنسانية، يقول إبراهيم خلاص -فيلسوف الحزب في العراق-: الطريق الوحيد لتشييد حضارة العرب وبناء المجتمع العربي هو خلق الإنسان الاشتراكي العربي الجديد الذي يؤمن بأن الله والأديان والإقطاع ورأس المال وكل القيم التي سادت المجتمع السابق ليست إلا دمى محنطة في متاحف التاريخ.

من التوصيات العامة لمقررات المؤتمر القومي الرابع: تقول التوصية الرابعة: يعتبر المؤتمر القومي الرابع الرجعية الدينية إحدى المخاطر الأساسية التي تهدد الانطلاقة التقدمية في المرحلة الحاضرة ولذلك يوصي القيادة القومية بالتركيز في النشاط الثقافي والعمل على علمانية الحزب، خاصة في الأقطار التي تشوه فيها الطائفية العمل السياسي.

التوصية التاسعة تقول: إن أفضل سبيل لتوضيح فكرتنا القومية هو شرح وإبراز مفهومها التقدمي العلماني وتجنب الأسلوب التقليدي الرومنطيقي في عرض الفكرة القومية، وعلى ذلك سيكون نضالنا في هذه المرحلة مركزًا حول علمانية حركتنا ومضمونها الاشتراكي لاستقطاب قاعدة شعبية لا طائفية من كل فئات الشعب.

- أما عن الوحدة، فجاء في المنطلقات النظرية للمؤتمر القومي السادس: ليست الوحدة العربية مجرد تجميع ولصق لأجزاء الوطن العربي، بل هي التحام فصهر لهذه الأجزاء، لذا فإن الوحدة ثورة بكل أبعادها ومعانيها ومستوياتها، وهي ثورة لأنها قضاء على مصالح إقليمية عاشت وتوسعت وترسبت عبر القرون، وهي ثورة لأنها تجابه مصالح وطبقات تعارض الوحدة وتقف في وجهها.

- وأما الاشتراكية فهي تعني تربية المواطن تربية اشتراكية علمية تعتقه من كافة الأطر والتقاليد الاجتماعية الموروثة والمتأخرة لكي يمكن خلق إنسان عربي جديد بعقل علمي متفتح، ويتمتع بأخلاق اشتراكية جديدة ويؤمن بقيم جماعية.

- الرسالة الخالدة: يفسرونها بأن الأمة العربية ذات رسالة خالدة تظهر بأشكال متجددة متكاملة في مراحل التاريخ ترمي إلى تجديد القيم الإنسانية وحفز التقدم البشري وتنمية الانسجام والتعاون بين الأمم.

ويمكن ملاحظة ما يلي:

- إن كلمة الدين لم ترد مطلقًا في صلب الدستور السوري أو العراقي.

- كلمة الإيمان بالله على عموميتها لم ترد في صلب الدستور، لا في تفصيلاته ولا في عمومياته، مما يؤكد على الاتجاه العلماني لديه.

- في بناء الأسرة لا يشيرون إلى تحريم الزنى ولا يشيرون إلى آثاره السلبية.

- في السياسة الخارجية لا يشيرون إلى أية صلة مع العالم الإسلامي.

- لا يشيرون إلى التاريخ الإسلامي الذي أكسب الأمة العربية مكانة وقدرًا بين الشعوب.

- رغم مطالبة الحزب بإتاحة أكبر قدر من الحرية للمواطنين، فإن ممارساته القمعية فاقت كل تصور وانتهكت كل الحرمات، ووأدت كل الحريات، وألجأت الكثيرين إلى الهجرة والفرار بعقيدتهم من الظلم والاضطهاد.

- القوانين في البلاد التي يحكمها البعث علمانية، وحانات بيع الخمور مفتوحة ليل نهار، والنظام المالي ربوي، ودعاة الإسلام مضطهدون بشكل سافر.

أفكار ومعتقدات حزب البعث

١- يعتمد الحزب على الفكر القومي الذي ظهر وبرز بعد سقوط الدولة العثمانية في العالم العربي والذي نادت به أوربا، والذي نادى به منظِّر القومية العربية في العالم العربي آنذاك ساطع الحصري.

٢- يعتمد الحزب على الفكر العلماني إذ ينحي مسألة العقيدة الدينية جانباً، ولا يقيم لها أي وزن سواء على صعيد الفكر الحزبي أو على صعيد الانتساب إلى الحزب أو على صعيد التطبيق العملي.

٣- يستلهم الحزب تصوراته من الفكر الاشتراكي ويترسم طريق الماركسية رغم انهيارها، والخلاف الوحيد بينهما أن اتجاهات الماركسية أممية، أما البعث فقومي، وفيما عدا ذلك فإن الأفكار الماركسية تمثل العمود الفقري في فكر الحزب ومعتقده، وهي لا تزال كذلك رغم انهيار البنيان الماركسي فيما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي.

٤- لقد كان الحزب واجهة انضوت تحته كل الاتجاهات الطائفية (درزية، نصيرية، إسماعيلية، نصرانية) وأخذ هؤلاء يتحركون من خلاله بدوافع باطنية يطرحونها ويطبقونها تحت شعار الثورة والوحدة والحرية والاشتراكية والتقدمية، وقد كانت الطائفة النصيرية أقدر هذا الطوائف على استغلال الحزب لتحقيق أهدافها وترسيخ وجودها.

الانتشار ومواقع النفوذ

للحزب أعضاء ينتشرون في معظم الأقطار العربية، بعضهم يعمل بشكل علني وبعضهم الآخر

سري، ويتفاوت وجودهم وتأثيرهم من بلد إلى آخر على حسب طبيعة البلد ونوعية حكمه.

ويحكم حزب البعث بلدين عربيين مهمين هما: سوريا، والعراق سابقا، وقد عجز الحزب عن تحقيق الوحدة بين فصائله، بل إن الصراع بين شطري البعث مستمر وعلى أشده، واتهامات الخيانة بين الطرفين لا تنقضي، وإذا كان هذا هو شأن الحزب في بلدين يخضعان له فهو من باب أولى عاجز عن تحقيق وحدة الأمة العربية بكاملها.

والبعثيون يتطلعون إلى استلام السلطة في جميع أرجاء الوطن العربي باعتبار ذلك جزءًا لا يتجزأ من طموحاتهم البعيدة، وقد أدَّت بهم هذه الرغبة العارمة إلى السقوط في حمأة الإنذار المقنع والتهديد السافر والعدوان الصريح، وربما يكون حزب البعث في العراق من أسوأ ما شهده التاريخ[١].

الحزب القومي السوري

التعريف:

هو حزب يدعو إلى القوميَّة العربيَّة، واعتبار الوطن السوري البيئةَ التي نشأت فيها الأمة السورية، والقول بأن النهضة السورية تستمد روحها وتاريخها السياسي والقومي من مواهب الأمة السورية. وقد اتخذ الحزب اسم «الحزب القومي الاجتماعي»، وشعاره زوبعة لها أربعة رءوس ترمز إلى الحرية والواجب والنظام والقوة.

تاريخ الحزب القومي السوري

في الثلاثينات من هذا القرن، وتحديدًا في ١٦ نوفمبر ١٩٣٢م، ظهر على مسرح السياسة في لبنان شاب عائد من البرازيل اسمه أنطوان سعادة الذي كان يدرس اللغة الألمانية في الجامعة الأمريكية ببيروت، فقد ألَّف حزبًا منظمًا دقيقًا مركزيًّا يعرف بالحزب القومي السوري.

لقد نشأ هذا الحزب بدعوى محاربة الطائفية والنزعة الانعزالية مستغلًّا وجود العديد من الطوائف والديانات في لبنان، داعيًا إلى رابطة تلغي جميع الفوارق بين الناس وتربطهم برباط واحد هو رباط الأرض، وقد بارك الغرب هذا الحزب وأمده بالمال والسلاح.

أقيم الحزب السوري القومي بطريقة سرِّية، فلم تعلم بقيامه سلطات الانتداب الفرنسي إلا في ١٦ نوفمبر ١٩٣٥م، حيث اعتُقل رئيسه أنطوان سعادة ووُضع في السجن لعدة أشهر. وفي السجن ألّف كتابه نشوء الأمم.

وخلال فترة الثلاثينيات انتشر الحزب القومي السوري في سوريا ولبنان. وانبرت له سلطات الانتداب الفرنسي وألقت القبض على مؤسسه مرتين، ولكنه تمكن من الفرار في المرة الثالثة إلى

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٤٧٠- ٤٨٤).

أمريكا الجنوبية، حيث بقي في الأرجنتين حتى عام ١٩٤٧م.

عاد أنطوان سعادة بعد الحرب العالمية الثانية إلى بيروت عام ١٩٤٧م، ووجد أن لبنان قد أصبح دولة مستقلة لا تنتمي إلى سوريا التي كان يخطط لها حزبه. وعندما استُقبل في بيروت لدى عودته، ألقى خطابًا في جمع حاشد رفض فيه انعزال لبنان، فأصدرت السلطات اللبنانية بحقه مذكرة توقيف، فاختفى لعدة شهور ريثما تهدأ الأحوال، ثم أخذ يطوف في المناطق السورية واللبنانية.

وحدثت مواجهة سياسية بينه وبين حزب الكتائب اللبناني الذي كان تدعمه السلطة اللبنانية آنذاك. وردًا على هجوم حزب الكتائب على جريدة الحزب الجيل الجديد، قام أنصار أنطوان سعادة بمهاجمة بعض مراكز الشرطة في لبنان، ولجأ سعادة نفسه إلى سوريا. وهناك ألقى حسني الزعيم القبض عليه وسلمه للسلطات اللبنانية التي سارعت بإعدامه في ٨ يوليو ١٩٤٩م.

بعد إعدام سعادة، دخل الحزب مرحلة جديدة. فسار خلال فترة الخمسينيات في خط سياسي مضاد لحركة القومية العربية الصاعدة المتمثلة في حزب البعث العربي الاشتراكي والحركة الناصرية. وقد عمد أحد أعضاء الحزب بتنفيذ أمر من رئيسه جورج عبدالمسيح بقتل عدنان المالكي (الضابط البعثي) في دمشق وذلك في أبريل ١٩٥٥م. وعلى الفور بدأت سلسلة ملاحقات بحق أعضاء الحزب وحظر نشاطه في سورية فلجأت قيادته إلى بيروت.

ثم حدث بعد ذلك انشقاق نتيجة لما حدث في دمشق وقاد جورج عبد المسيح مجموعة في حين قاد أسد الأشقر، الذي أعيد إلى صفوف الحزب، مجموعة أخرى.

كان أسد الأشقر ينادي بالواقع اللبناني، وكان أنطوان سعادة قد عزله بسبب ذلك. وقد قاد أسد الأشقر الحزب في مواجهة الناصرية وانتفاضة ١٩٥٨م. وقد أثرت مواقف الحزب هذه على نموه وانتشاره نتيجة لابتعاده عن المنطلقات النظرية لمؤسسه، ولوقوفه -كما يعتقد بعض الباحثين- إلى جانب حلف بغداد والمخططات الاستعمارية والقوى المتعاونة مع تلك المخططات.

جرت محاولات ترميم لوضع الحزب في أواخر الخمسينيات لكن هذه المحاولات توقفت بعد أن نفذ الحزب انقلابًا فاشلًا في لبنان وذلك في العام ١٩٦١م، واعتقلت معظم قياداته لفترة امتدت حتى عام ١٩٦٨م.

وبعد عام ١٩٦٩م، بدأت مرحلة جديدة في تاريخ الحزب السوري القومي الاجتماعي، وذلك بعد مؤتمر ملكارت، في مارس ١٩٦٩م، الذي عقده الحزب بعد الإفراج عن قياداته في لبنان. وقد برز في المؤتمر خط سياسي جديد أدان بشكل حازم الممارسات اليمينية والتعاون مع الرجعية، (وفي ذلك إشارة واضحة إلى أحداث ١٩٥٨م في لبنان) والتعاون بين قيادات الحزب المتلاحقة في الخمسينيات وبين القوى الرجعية والاستعمارية حسب ما دار في مداولات المؤتمر. وشدد قادة الخط السياسي الجديد على يسارية الحزب، وعلى أن منطلقاته اشتراكية، كما اعتبر أن المنطلقات

النظرية للحزب ليست مضادة للعروبة. وكانت عدة عوامل قد أدت إلى نشوء هذا التيار منها نمو المقاومة الفلسطينية وأثر ذلك على الشعوب العربية، والمسيرة الفاشلة للحزب خلال مرحلة وقوفه إلى جانب القوى اليمينية، وهزيمة يونيو ١٩٦٧م وأثرها على كافة القوى والتنظيمات الشعبية. وبالرغم من ذلك فقد حدثت مواجهة جديدة بين التيار اليميني داخل الحزب الذي يريد إبقاء الحزب في مسيرته السابقة (قاد هذا التيار أسد الأشقر وعصام المحايري) والتيار اليساري الذي قاده الدكتور عبدالله سعادة. واستمرت المواجهة عنيفة حول انتهاج الخط السياسي الجديد إلى أن تم خروج المجموعة اليمينية ورفضها العمل في إطار الحركة الوطنية اللبنانية.

أما التيار اليساري الذي قاده إنعام رعد فقد التزم بالمقررات والتوصيات التي أعلنها مؤتمر ملكارت السابق ذكره، وخاض المعارك جنبًا إلى جنب مع حركة المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية في مواجهة المليشيات اليمينية والجيش اللبناني وذلك طوال فترة الحرب الأهلية اللبنانية.

الأفكار والمعتقدات

تتركز مبادئ الحزب القومي السوري في الأفكار التي يذكرها أنطوان سعادة في كتابه نشوء الأمم وهي:

- فصل الدين عن الدولة.
- منع رجال الدين من التدخل في الشئون السياسية والقضائية والقومية.
- إزالة الحواجز بين مختلف الطوائف والمذاهب.
- إلغاء الإقطاع، وتنظيم الاقتصاد القومي على أساس الإنتاج، وإنصاف العامل، وصيانة مصلحة الأمة والدولة.
- إعداد جيش قومي ذي قيمة فعلية في تقرير مصير الأمة والوطن.

كما أن للحزب منطلقاته التي تعبر عن أفكاره ومعتقداته وتصوراته لحركة التاريخ، ومن ذلك:

- سوريا للسوريين، والسوريون أمة تامة.
- يتميز السوريون عن أبناء الأمة العربية كما يتميز الفرنسيون عن الإنجليز، وكما يتميز الروس عن الألمان.
- القضية السورية هي الأمة السورية والوطن السوري.
- الأمة السورية هي وحدة الشعب السوري المتولدة من تاريخ طويل يرجع إلى ما قبل التاريخ الحالي.
- الأمة السورية هيئة اجتماعية واحدة.
- مصلحة سوريا فوق كل مصلحة.

- القوميون السوريون يعتزون بالماضي السحيق الذي يمثله الفينيقيون بوثنيتهم وخمرهم وآلهتهم وعاداتهم وتقاليدهم ولذاتهم، ويعتزون بالثقافة الروحية والطابع العمراني الذي نشرته سوريا في البحر السوري المعروف بالبحر المتوسط.

- الاعتزاز بما خلده العظام من مثل: كرينون، بيار صليبي، يوحنا فم الذهب، أفرام العمري، ديك الجن الحمصي، الكواكبي، جبران.

- الاعتزاز بالمحاربين الخالدين مثل: سرجون الكبير، أسرحدون، سنحاريب، نبوخذ نصر، آشور بانبال، هاني بعل إلى يوسف العظمة، وهم بذلك يغفلون مشاهير وعظماء الإسلام.

- أزهى العصور في تاريخ سوريا هو العصر الفينيقي.

- الفتح الإسلامي يعتبر فتحًا أجنبيًّا، ولا يرون في التاريخ الإسلامي في سوريا بعد الفتح إلا تاريخًا سوريًّا خالصًا، فمعاوية رضي الله عنه أصبح سوريًّا لإقامته في دمشق عشرين عامًا قبل الخلافة، وأمجاد الأمويين أمجاد سورية محضة، والنزاع بين معاوية وعلي رضي الله عنهما إنما هو نزاع بين القومية السورية والقومية العراقية، ويجعلون للأرض والتراب والجو أثرًا سحريًّا يحول الإنسان خلال فترة وجيزة من قومية إلى قومية ومن تاريخ إلى تاريخ.

- عندما يتحدثون عن سوريا فإنما يقصدون بذلك سوريا الكبرى والتي تضم سوريا الحالية ولبنان والأردن وفلسطين.

- دعوتهم انعزالية تقتصر على الوطن، فهي تعمل على انكماش العالم العربي والإسلامي إلى عالم صغير محدود في عصر التكتلات العالمية والمعسكرات الدولية والتجمعات الأممية.

- هذه الدعوة الانعزالية تخدم مصالح الغرب المستعمر، وتخدم الصهيونية في تفتيت الوطن الإسلامي الكبير، وتمزيق القوة المحيطة بإسرائيل.

- تدعو إلى الاستهتار بالقيم الأخلاقية، وذلك بتهيئة فرص الإغراء للشباب والفتيات بالانضمام إليها في حلقات ماجنة تلعب فيها الخمر بالرءوس، وتنطق فيها الغرائز جامحة مسترسلة.

موقف الحزب القومي السوري من الدين

رجالات هذا الحزب يحاربون الدين بكل قواهم، ويستنكرون الرابطة الدينية بين الناس، وينطلقون في ذلك من عدة معتقدات وأفكار، من أهمها ما يلي:

- الزعم بأن فكرة الألوهية اخترعها الإنسان يوم أن كان رازحًا تحت سلطان الخوف والوهم والخرافة.

- النظر إلى الكون والإنسان والحياة نظرة مادية تنكر وجود الله والبعث والرسالات واليوم الآخر.

- الزعم بأن الإسلام دين جامد، وإنما الذي جعله متطورًا هم الخلفاء والفقهاء.
- ينادون بفصل الدين عن الدولة وهي فكرة غربية يرفضها الإسلام جملةً وتفصيلًا.
- يعتبرون التجمع على أساس ديني من أخطر العقبات في سبيل التقدم، وينادون بالتخلي عنه حتى يسلم الكيان السوري القومي من التناقضات.

الانتشار ومواقع النفوذ

اتخذ هذا الحزب من لبنان مركزًا له، وصار له أتباع في سوريا، ولكنه لقي اضطهادًا من مختلف الحكام؛ لأنه يتعارض مع فكرة القومية العربية التي كان لها نفوذ أكبر، ومع ذلك ظل يعمل بشكل علني في لبنان متخذًا له اسمًا جديدًا وهو «الحزب القومي الاجتماعي».

وقد عبر أنطوان سعادة عن حدود القومية السورية في كتابه نشوء الأمم بأنها البيئة الجغرافية المتميزة عما سواها فهي تمتد من جبال طوروس في الشمال إلى قناة السويس في الجنوب شاملة شبه جزيرة سيناء وخليج العقبة، ومن البحر السوري (المتوسط) في الغرب إلى الصحراء في الشرق حتى الالتقاء بدجلة.

والحزب الآن في حالة انحسار كبير[1].

الحزب الديمقراطي الكردستاني

التعريف:

الحزب الديمقراطي الكردستاني حزب قومي علماني اشتراكي يدعو إلى إنشاء دولة كردية في منطقة كردستان بعد توحيدها.

نبذة عن كرادستان

تقع كردستان (أرض الأكراد) في كل من تركيا وإيران والعراق وسورية والاتحاد السوفيتي السابق. وتبلغ مساحتها نصف مليون كيلومتر مربع تقريبًا. وعدد سكانها ٤٠ مليون نسمة يدين أكثرهم بالإسلام وتوجد أقليات كردية في كل من باكستان وأفغانستان والسودان.

وتمتاز كردستان بثروتها النفطية والمعدنية والحيوانية والمائية، إذ يمر فيها أنهار دجلة والفرات وآراس والخابور.

ويتكلم الأكراد اللغة الكردية التي تنتمي إلى مجموعة اللغات الإيرانية، التي تمثل فرعًا من أسرة اللغات الهندية وأوربية التي تضم: الكردية والفارسية والبشتو والطاجيكية. وتكتب اللغة الكردية في إيران والعراق بالحرف العربي، وفي تركيا وسورية بالحرف اللاتيني، وفي الدولة التي تسلل إليها الاتحاد السوفيتي بالحرف الروسي.

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٤٦٢- ٤٦٥)، الموسوعة العربية العالمية.

ويذكر أن كردستان مهد البشرية (في الجودي، بعد الطوفان) وفي القرن السادس قبل الميلاد سقطت مملكة ميديا الكردية على أيدي الفرس الأخمينيين.

وفي عام ١٨ من الهجرة النبوية دخل الإسلام إلى كردستان على يد عياض بن غنم رضي الله عنه.

وقسمت كردستان بعد الحرب العالمية الأولى ووزعت على العراق وسورية وتركيا وإيران وروسيا.

وقد اتبعت الدول المذكورة فيهم سياسة التتريك والتعريب والتفريس مع محاولة القضاء على إسلامهم، بإثارة النزعات القبلية ونشر الأفكار الماركسية والعلمانية فيهم، ولم يخضع الأكراد لهم، فقامت ثورات لم تنطفئ حتى يومنا هذا.

تاريخ الحزب الديمقراطي الكردستاني

في عام ١٩٢٧م توحدت جميع المنظمات الكردية في حزب (خويبون) الذي أسسه عدد من المهاجرين الأكراد المقيمين في الخارج.

وفي العام نفسه انعقد المؤتمر الأول للحزب في مصيف بحمدون في لبنان، وقد أسهم في أعمال المؤتمر زعيم من الأرمن اسمه ف. بابازيان.

اعتمد الحزب على تأييد الدول الاستعمارية التي كانت ترى في المسألة الكردية وسيلة للضغط على تركيا (من الدول المؤيدة للأكراد انجلترا وفرنسا بشكل خاص).

كان الحزب يخضع بشكل مباشر لنفوذ الطاشناق المؤلف من القوميين الأرمن ذوي الاتجاه الغربي، والمعادين لتركيا بشكل شديد.

وفي عام ١٩٣٠م قام الأكراد بثورة إسلامية في تركيا في العهد الكمالي العلماني المعادي للإسلام، بقيادة الشيخ سعيد النورسي.

وفي عام ١٩٤٤م تأسست منظمة اسمها «كومة له زياني كورد» أي: «جمعية الإحياء الكردي» في مهاباد عاصمة كردستان الإيرانية.

وفي عام ١٩٤٥م (١٥ آب) تأسس الحزب الديمقراطي الكردي أو ما يطلق عليه: «البارتي» في مهاباد بإيران، متخذا جمعية الإحياء الكردي قاعدة له.

وفي ١٩٤٦م (٢٣ ديسمبر) أعلن عن تأسيس حكومة وطنية كردية ذات نظام جمهوري في كردستان إيران، برئاسة قاضي محمد، زعيم الحزب، واستمر الحكم أقل من سنة، وقضي على الجمهورية بعد معركة مع الجيش الإيراني، ذبح فيها ما يزيد على ١٥٠٠٠ من أفراد الحزب ومن الأكراد.

وفي ٣١ مارس ١٩٤٧م أعدم قاضي محمد وأخوه صادر قاضي عضوا البرلمان الإيراني وابن عمه

سيف قاضي وزير دفاع الجمهورية الكردية.

أما قائد القوات المسلحة التابعة لجمهورية «مهاباد» الكردية وهو مصطفى البرزاني فلم يلق السلاح في المعركة، وهرب إلى العراق، إلا أن الجيش العراقي كان في انتظاره، فهرب مع ٥٠٠ فرد من مقاتليه إلى تركيا، ثم عاد إلى إيران مجددًا، وبعد معركة حاسمة دخل مصطفى البرزاني وقواته الاتحاد السوفيتي ولم يعودوا إلى العراق إلا بعد الثورة العراقية عام ١٩٥٨م.

وقاد مصطفى البرزاني أخر الثورات سنة ١٩٦١م التي انتهت سنة ١٩٧٥م بعد اتفاقية الجزائر بين العراق وإيران.

الأفكار والمعتقدات

من برنامج الحزب الديمقراطي الكردي المعلن عند تأسيسه:

١- الحرية والحكم الذاتي للشعب الكردي ضمن نطاق الدولة الإيرانية.

٢- استعمال اللغة الكردية في التعليم وجعلها اللغة الرسمية في الشئون الإدارية.

٣- تولي السلطة العليا في المنطقة الكردية.

٤- إقامة علاقات أخويه مع شعب أذربيجان في النضال المشترك جنبًا إلى جنب مع بقية الأقليات القومية.

٥- تحسين الأوضاع الاقتصادية باستثمار الموارد الطبيعية في كردستان وتنمية الزراعة والتجارة وتطوير الخدمات الصحية والتعليمية.

- يرجع الحزب الديمقراطي الكردستاني في أفكاره إلى الفكر القومي العرقي الذي ساد في المنطقة العربية وتركيا في بداية هذا القرن.

- نظراً لعلمانية هذا الحزب، فإن الفكر الماركسي الشيوعي يسير جنبًا إلى جنب مع الفكر القومي، كما هو الحال في الأحزاب القومية العربية مثلًا.

- يعد نضاله جزءًا من نضال الحركة الديمقراطية للبروليتاريا (طبقة العمال والفلاحين).

- يعلن زعماؤه دائمًا عن ارتباط حزبهم برباط الصداقة مع الاتحاد السوفيتي قبل انهياره والمعسكر الاشتراكي قبل زواله.

ويمكن ملاحظة ما يلي:

- لم ترد كلمة الإسلام الذي هو دين الأكراد في مبادئ الحزب وتوجهاته أبدًا، بينما ينوّه الحزب بالرباط المتين الذي يربطهم بالأرمن في الاتحاد السوفيتي قبل تفككه، خاصة، وبالأحزاب الأرمينية المتطرفة في العالم بصفة عامة.

- يستخدم الحزب المصطلحات الشيوعية في كتاباته وتوجيهاته مثل، الحزب التقدمي، الطبقة العاملة، طبقة الفلاحين، الطبقة البرجوازية، البروليتاريا... إلخ.

- يتكلم زعماء الحزب عن الأكراد الذين يعيشون في أرمينيا ويعدونهم من البناة النشطين للمجتمع الشيوعي السوفيتي قبل انهياره، ولا يذكرونهم على أنهم ذوي قومية تطالب بالانفصال كما هو شأن الأكراد في إيران والعراق وسوريا وتركيا.

أماكن الانتشار

ينتشر الحزب الديمقراطي الكردستاني في كل من إيران والعراق وتركيا وسوريا(١).

منظمة التحرير الفلسطينية

التعريف:

منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الرسمي للشعب العربي الفلسطيني، ويتمثل هدفها الرئيسي في استرجاع فلسطين التي اغتصبتها إسرائيل.

وتضم منظمة التحرير الفلسطينية المنظمات الفدائية والشعبية، واتحادات الأطباء والعمال والمحامين والنساء والطلاب والمدرسين. وتهيمن عليها حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) باعتبارها أكبر المنظمات الفدائية.

تاريخ منظمة التحرير الفلسطينية

أُعلن عن قيام منظمة التحرير خلال المؤتمر الفلسطيني الأول الذي انعقد في القدس في ٢٨ مايو ١٩٦٤م بحضور وفود تمثل الجامعة العربية وكثير من الدول العربية. وافتتحه الملك حسين عاهل الأردن وألقى فيه خطابًا.

في مؤتمر القمة العربي الثاني الذي انعقد في ٥ سبتمبر ١٩٦٤م، لمناقشة المشروع الصهيوني لتحويل مياه نهر الأردن للأراضي الإسرائيلية والموقف العربي المطلوب لمواجهته، اتخذت اللجنة التنفيذية للمنظمة عدة قرارات تؤكد على أهمية استكمال بناء القوة العسكرية العربية لمواجهة مشروع التحويل الإسرائيلي. واقترحت بناء كيان مستقل يمثل الفلسطينيين حيثما تواجدوا.

وعلى إثر انتهاء مؤتمر القمة، تم البدء في إنشاء الدوائر والمكاتب المركزية للمنظمة وافتتاح مكاتب للمنظمة في عواصم الدول العربية وبعض الدول الأخرى وإنشاء محطة إذاعية في القاهرة باسم صوت فلسطين، صوت منظمة التحرير الفلسطينية، وإنشاء مركز أبحاث في بيروت للعمل على إغناء الفكر الفلسطيني والعربي وتشجيع البحث وتعريف العرب والعالم بحقيقة الكيان الصهيوني، والبدء بتشكيل القوات الفلسطينية المقاتلة وتدريبها وتسليحها، وقيام الصندوق القومي الفلسطيني بالجباية من أبناء الشعب الفلسطيني والأمة العربية.

وقد قامت مجموعات فدائية بشن هجمات ضد العدو الإسرائيلي بين حين وآخر، وقام العدوّ

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٤٥٩- ٤٦١).

الإسرائيلي بدوره بمهاجمة قواعد منظمة التحرير الفلسطينية.

وعقدت منظمة التحرير الفلسطينية دورات للمجلس الوطني الفلسطيني في القاهرة وغزة أعوام ١٩٦٥، ١٩٦٦، ١٩٦٨، ١٩٦٩م، وعين ياسر عرفات رئيسًا للمنظمة.

وقد تقلص عدد أعضاء المجلس الوطني بعد حرب يونيو ١٩٦٧م. وبعد ذلك تمثلت في المجلس جميع منظمات المقاومة الفلسطينية الأمر الذي دل على أهمية الكفاح المسلح.

وبين عامي ١٩٦٥ و١٩٧١، زاولت منظمة التحرير الفلسطينية نشاطها القتالي من الأردن. غير أنها أجبرت على مغادرة البلاد عام ١٩٧١م بعد صدامات عنيفة وقعت فيما عرف بأحداث أيلول ١٩٧٠م، فاتجهت المنظمة إلى لبنان. ومن هناك واصلت هجماتها ضد العدو

وفي عام ١٩٧٤م أقرت الحكومات العربية اعتبار منظمة التحرير الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، وفي وقت متأخر من تلك السنة اعترفت الأمم المتحدة بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلًا للشعب الفلسطيني، وحصلت على مركز المراقب في منظمة الأمم المتحدة.

وفي عام ١٩٨٢ قام العدو الإسرائيلي باجتياح لبنان تحت سمع العالم وبصره وأجبر منظمة التحرير الفلسطينية على إخلاء جنوب لبنان وبيروت. ومنذ ذلك الحين، لم يتمكن أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية من العودة إلى جنوب لبنان.

وفي عام ١٩٨٣م ساندت الحكومة السورية بعض المعارضين من داخل المنظمة لزعامة ياسر عرفات، وتم إبعاد ياسر عرفات وقواته من شمال لبنان.

وفي عام ١٩٨٧م تفجرت انتفاضة أطفال الحجارة في الضفة الغربية وقطاع غزة، وحينئذ تمكنت منظمة التحرير الفلسطينية من مد يد العون إلى الفلسطينيين.

وفي محاولة لوضع حد للدعم القادم من منظمة التحرير الفلسطينية، قامت القوات الإسرائيلية باغتيال أبي جهاد خليل الوزير الرجل الثاني في منظمة التحرير الفلسطينية الذي كان مسئولًا عن تدفق هذا الدعم، حتى إنه لقب بمهندس الانتفاضة. ومع ذلك ظلت الانتفاضة مستمرة وازدادت ضراوة يومًا بعد يوم.

وفي عام ١٩٨٨م أوقف الأردن ارتباطه بالضفة الغربية، وفي أواخر العام نفسه أعلن ياسر عرفات اعتراف منظمة التحرير الفلسطينية بحق إسرائيل في الوجود إلى جوار دولة فلسطينية. كما أعلن أيضًا نبذه لاستخدام العنف.

وفي عام ١٩٩٣م، كشف النقاب عن اتفاق أوسلو بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل بشأن إقامة حكم ذاتي فلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة. وتم التوقيع على اتفاق غزة –أريحا أولًا في ١٣ سبتمبر ١٩٩٣م بواشنطن.

وفي مايو ١٩٩٤م وقع رابين وياسر عرفات اتفاق السلام الذي وعد بحكم ذاتي للفلسطينيين.

وفي يوليو ١٩٩٤م وصل ياسر عرفات إلى غزة ليدير سلطة الحكم الذاتي. ثم انتخب رئيسًا للسلطة الفلسطينية في ٢١ يناير ١٩٩٦م بعد أن حاز ٨٨ % من أصوات الناخبين.

وبعد أن أصبح بنيامين نتنياهو رئيسًا لوزراء إسرائيل في مايو ١٩٩٦م، واجهت السلطة الفلسطينية صعوبات كثيرة في تنفيذ بنود الاتفاقية بسبب تعنته وسياساته الاستيطانية مما أدخل عملية السلام برمتها في نفق مظلم.

ولم تتحسن الأحوال في عهد خلفه، أيهود باراك الذي فاز في الانتخابات عام ١٩٩٩م، وأصبح رئيساً للوزراء. فقد فشلت كافة اللقاءات بين الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي وأشهرها لقاء منتجع كامب ديفيد برعاية الرئيس الأمريكي السابق بل كلينتون عام ٢٠٠٠م.

ونشطت الانتفاضة بعد أن دنس مجرم الحرب آريل شارون المسجد الأقصى في ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠م، وقدمت مئات الشهداء وآلاف الجرحى خاصة بعد انتخابه رئيسًا للوزراء في فبراير ٢٠٠١م.

وفي ٣ ديسمبر ٢٠٠١م أحاطت الدبابات الإسرائيلية مقر الرئيس عرفات، وحاصرته ردًا على عمليتين فدائيتين أعلنت حركة المقاومة الإسلامية (حماس) مسئوليتها عنهما. وظل محاصرًا حتى مطلع عام ٢٠٠٤م.

هيكل منظمة التحرير

تتألف الإدارات الرئيسية لمنظمة التحرير الفلسطينية من: اللجنة التنفيذية، واللجنة المركزية، والمجلس الوطني.

أما اللجنة التنفيذية، فهي أعلى سلطة تنفيذية للمنظمة، وهي الهيئة الرئيسية لصنع القرار، وتتكون من ممثلين للمنظمات الرئيسية وبعض الأعضاء المستقلين.

ومهامها: تمثيل الشعب الفلسطيني والإشراف على تشكيلات المنظمة وإصدار اللوائح والتعليمات واتخاذ القرارات الخاصة بتنظيم أعمال المنظمة وتنفيذ السياسة المالية وإعداد الميزانية.

وقد أنشأت اللجنة التنفيذية للمنظمة الدوائر التالية (١٩٦٨م): الدائرة العسكرية، دائرة الشئون السياسية والإعلامية، دائرة الصندوق القومي الفلسطيني، دائرة البحوث والمؤسسات المتخصصة، دائرة الشئون الإدارية.

وقد عُيِّن لكل دائرة مدير عام وعدد من الموظفين. والمدير العام هو أحد أعضاء اللجنة التنفيذية.

وأما اللجنة المركزية، فتشتمل على ممثلين لكافة المنظمات الفدائية، فتعمل كهيئة استشارية للجنة التنفيذية.

وأما المجلس الوطني الفلسطيني، فهو يتألف من ١٨٠ عضوًا يعمل كبرلمان للشعب الفلسطيني[1].

---

(١) انظر: الموسوعة العربية العالمية.

حزب الأمة السوداني

التعريف:

حزب الأمة حزب سوداني كان يطالب باستقلال السودان وأن يكون السودان للسودانيين. وكان هذا يعني أنه لا يوافق على الوحدة مع مصر.

تاريخ حزب الأمة

نشأ حزب الأمة في السودان عام ١٩٤٥م بقاعدة الأنصار، وهم أتباع السيد عبد الرحمن بن محمد أحمد المهدي.

وكان المهدي الكبير قد رفع لواء الثورة على الحكم المصري في الثمانينيات من القرن التاسع عشر، وفصل السودان من الحكم المصري بمساعدة الجنرال غوردون البريطاني.

ومع أن حزب الأمة كان ينادي بالاستقلال، إلا أنه كان ميالًا إلى التفاهم الودي مع البريطانيين وإدارتهم التي كانت تدير أمر شئون السودان.

دخل الحزب أول انتخابات جرت في السودان في ١٩٥٣م، ورغم كثرته العددية، إلا أنه لم يكسب من المقاعد البرلمانية ما يوازي عدده، وكانت خيبة أمل كبيرة لقياداته؛ إذ فاز الحزب الوطني الاتحادي بأغلبية مقاعد البرلمان، وكان عدد مقاعده ٥١ مقعدًا بينما كانت مقاعد حزب الأمة ٢٢ مقعدًا، وقد عكس ذلك ميل الشعب السوداني لوحدة وادي النيل.

لكن الأحداث في مصر بعد ذلك أثَّرت على مجريات الأمور في السودان خاصة عندما أُعفي اللواء محمد نجيب من منصبه كرئيس لجمهورية مصر ولمجلس الثورة.

واستطاع حزب الأمة أن يتفق مع الحزب الوطني الاتحادي على إعلان استقلال السودان من داخل البرلمان في اليوم الأول من يناير ١٩٥٦م، وقبلت بذلك دولتا الحكم الثنائي بريطانيا ومصر، وهكذا حقق حزب الأمة ما كان يصبو إليه.

ثم قام ائتلاف بين حزب الأمة وحزب الشعب الديمقراطي في حكومة بعد إسقاط حكومة الحزب الوطني الاتحادي. ورأس الحكومة الأميرالاي (بالمعاش) عبد الله خليل. ولما ضعفت هذه الحكومة وآلت للسقوط دعا رئيسها الجيش سرًّا للاستيلاء على السلطة في ١٧ نوفمبر ١٩٥٨م بقيادة الفريق إبراهيم عبود، القائد العام للقوات المسلحة السودانية.

ولم يعترض السيد عبد الرحمن المهدي على حكم عبود، بل إنهما اجتمعا، وأعلن السيد عبد الرحمن أنه يثق في قدرة عبود على حكم البلاد والحفاظ على استقلالها.

وبعد وفاة السيد عبد الرحمن المهدي تولى ابنه الصِّدِّيق المهدي زعامة حزب الأمة، ودخل في صراع مع حكم الفريق إبراهيم عبود العسكري. وكان السيد الصِّدِّيق يدعو لعودة الديمقراطية.

وساءت العلاقات بين جموع الأنصار والحكم العسكري. وفي ظل ذلك الصراع، توفي السيد الصديق واستمر عبود في الحكم.

ولكن بعد فترة من الوقت قام السودان بأجمعه بانتفاضة قوية في أكتوبر ١٩٦٤م ضد حكم عبود ووقف الشعب وقفة رجل واحد ضده، فاضطر الفريق إبراهيم عبود إلى إنهاء حكمه العسكري على أن يظل رئيسًا للدولة. ولكن سرعان ما قدم استقالته للحكومة المدنية.

بعد وفاة الصديق المهدي تولى أخوه الهادي زعامة حزب الأمة. وقد بقي كذلك حتى قام العقيد جعفر نميري بانقلاب عسكري مع بعض الضباط في مايو ١٩٦٩م. وعارض الإمام الهادي ذلك الحكم وقاد تمردًا مدنيًّا ضده في الخرطوم انطلق من جزيرة أبا. ولكن الجيش السوداني أمطر الهادي وأنصاره بوابل من القنابل والصواريخ، ثم طورد إلى الحدود الأثيوبية حيث لاق حتفه. وأصبحت الأزمة واسعة بين حزب الأمة ونظام نميري.

وقد خلف الهادي في زعامة الحزب ابن أخيه الصادق بن الصديق المهدي، واستمر التوتر بين الجانبين حتى نهاية حكم نميري.

بعد سقوط حكومة جعفر نميري عام ١٩٨٦م ولجوئه إلى مصر، تولى الصادق المهدي زعامة الحزب السياسية والروحية، وأصبح رئيسًا للوزراء في وزارة ائتلافية بعد استقالة المشير عبد الرحمن سوار الذهب، واستمر في ذلك المنصب حتى أطاح به انقلاب العقيد عمر البشير في ٣٠ يونيو ١٩٨٩م.

وظل الصادق المهدي يعارض حكم البشير، كما أن التوتر بينه وبين الحكومة ظل على أشده خاصة بعد خروجه من السودان خفية في ١١ ديسمبر ١٩٩٦م، حيث وصل إلى أسمرة عاصمة إرتريا، وانضم هناك للمعارضة السودانية في الخارج، وانضم إلى هيئة التجمع الوطني الديمقراطي المعارض.

وفي نوفمبر ٢٠٠٠م، عاد الصادق إلى الخرطوم وأعلن انسلاخه عن التجمع المعارض، ولكنه ظل يعارض البشير وحكومته[(١)].

الحزب الوطني الاتحادي (الحزب الاتحادي الديمقراطي)

التعريف:

الحزب الوطني الاتحادي حزب سوداني كان ينادي بالوحدة مع مصر، وإخراج الإنجليز من السودان. وهو مؤيد بالطائفة الختمية. وتولى رئاسة أول حكومة سودانية، وتطور بعد ذلك إلى الحزب الاتحادي الديمقراطي.

---

(١) انظر: الموسوعة العربية العالمية.

تاريخ الحزب الوطني الاتحادي

أسِّس الحزب في السودان عام ١٩٤٣م باسم الأشقاء أولًا، وكانت أهم أهدافه إقامة حكومة ديمقراطية سودانية في اتحاد مع مصر.

واستمر الحزب بهذا الاسم حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م بمصر، فارتحلت إلى هناك كل الأحزاب الاتحادية لمقابلة اللواء محمد نجيب الذي كان رئيس جمهورية مصر آنذاك، الذي استطاع جمع شتاتها في الحزب الوطني الاتحادي.

وأيَّد هذا الحزب الزعيم الديني السيد علي الميرغني راعي طائفة الختمية الذي كان له أتباع كثيرون في شرق السودان وشماله ووسطه، ويتزعم الحركة السياسية في حزبهم السيد إسماعيل الأزهري. ووقف الحزب ندًّا لحزب الأمة الذي كان يرعاه الإمام السيد عبد الرحمن المهدي.

وكان الحزب الوطني الاتحادي قويًّا أيضًا في أغلب مدن السودان، كما كان يجد تأييدًا قويًّا من حكومة الثورة في مصر. وقد استطاع الحزب كسب عدد من مقاعد الجنوب لأعضاء في حزبه مما جعله يفوق في ذلك عدد أعضاء حزب الأمة.

وأدى محمد نجيب دورًا مهمًا في توحيد رأي الأحزاب السودانية في مستقبل السودان، بقبولها إجراء انتخابات لفترة انتقالية لثلاث سنوات يجلو فيها الجيشان البريطاني والمصري عن السودان، ويقرر بعدها السودانيون مصير بلادهم السياسي، إما استقلالًا تامًّا أو وحدة مع مصر.

فعقدت الانتخابات في ١٩٥٣م، وفاز الاتحاديون بأغلبية مقاعد البرلمان، وشكلوا أول حكومة سودانية برئاسة السيد إسماعيل الأزهري.

واستجابة للمناداة بالاستقلال في صفوف الحزب الوطني الاتحادي ولضغوط من جبهة الأحزاب الاستقلالية، انحاز الحزب الوطني الاتحادي للاستقلال، وأعلن في البرلمان في اليوم الأول من يناير ١٩٥٦م. وأدى الإعلان إلى انشقاق الختمية وخروجهم عن الحزب الوطني الاتحادي، وأنشئوا حزبًا جديدًا هو حزب الشعب الديمقراطي برعاية السيد علي الميرغني، ورئاسة السيد علي عبد الرحمن الضرير.

وحدث خلاف بين رئيس الحكومة وراعي الحزب وهو السيد علي الميرغني في سنة ١٩٥٤م، فصوتت الأغلبية البرلمانية مع حجب الثقة عن الأزهري، فأسقطت حكومته، إلا أن الأزهري عاد ونجح بصوت واحد وعاد لرئاسة الوزارة التي خسرها بالصوت نفسه. ومنذ ذلك الحين، كان الزعيمان يتعاملان معًا في حذر وتوجُّس.

ثم ائتلف راعي الحزب الوطني الاتحادي السيد علي الميرغني وراعي حزب الأمة السيد عبد الرحمن المهدي على الإطاحة بإسماعيل الأزهري. وبالفعل أسقطا حكومته، وانتُخبت حكومة جديدة برئاسة الأميرلاي عبد الله خليل سكرتير حزب الأمة، وأخرج الأزهري من الوزارة.

وفي عام ١٩٥٨م، كان عبد الله خليل رئيسًا للوزراء فسلم الحكم للفريق إبراهيم عبود الذي

أعلن أن البلاد أضحت تحت حكمه العسكري. وعارض هذا الحكم الحزب الوطني الاتحادي بقيادة الأزهري، كما عارضه أيضًا حزب الأمة. فأرسل كل من الأزهري وعبد الله خليل إلى سجون بعيدة.

هب الشعب السوداني ثائرًا ضد الحكم العسكري وأُطيح بالفريق عبود بثورة شعبية عرفت بثورة أكتوبر ١٩٦٤م الشعبية التي ناصرها بعض ضباط الجيش.

قامت حكومة انتقالية برئاسة السيد سر الختم الخليفة، ثم عُقدت انتخابات تحت مظلة حكومة من الأحزاب والهيئات، وفاز الحزب الوطني الاتحادي بأغلبية جعلت من الأزهري رئيسًا لمجلس السيادة، ومن حزب الأمة رئيسًا للوزراء ممثلًا في محمد أحمد محجوب.

ولكن في ٢٥ مايو ١٩٦٩م، قام بعض الضباط بقيادة العقيد جعفر محمد نميري بانقلاب عسكري أطاح بالحكم المدني، وأعلن عن العقيد جعفر محمد نميري رئيسًا لمجلس قيادة الثورة، وبأبكر عوض الله رئيسًا لمجلس الوزراء، في تحالف بين نميري واليساريين والقوميين العرب، ووضع الأزهري وغيره في السجون، ثم ما لبث أن توفي الرئيس إسماعيل الأزهري وهو رهين السجن.

ولم تكن مقاومة الحزب الوطني الاتحادي الداخلية قوية للحكم العسكري. وكانت المعارضة خارج السودان بقيادة زعيمه الشريف حسين الهندي، الذي قاد المعارضة ضد نظام نميري بالتضامن مع الإمام الهادي المهدي، وبعد مقتل الأخير، كوّن الجبهة الوطنية للمقاومة، وبدأ في إثيوبيا، ثم ليبيا وأخيرًا في لندن.

بعد الإطاحة بجعفر نميري عام ١٩٨٥م، كونت حكومة برئاسة السيد الصادق المهدي مؤتلفة من حزبه (حزب الأمة)، والحزب الاتحادي الديمقراطي، والأخير هو الحزب الوطني الاتحادي القديم بعد ضم جناحيه: الحزب الوطني الاتحادي وحزب الشعب الديمقراطي، مع تمثيل غير يسير للجبهة القومية الإسلامية (جبهة الميثاق سابقًا)، التي تزعمت المعارضة.

وفي ٣٠ يونيو ١٩٨٩م وقع انقلاب عسكري بقيادة العميد عمر حسن أحمد البشير، باسم ثورة الإنقاذ الوطني، مشكّلة حكومة الانقاذ الوطني، بدعم سياسي من الجبهة القوميَّة الإسلاميَّة.

ظل الحزب الاتحادي الديمقراطي يمثل فئة من المعارضين لحكومة الفريق عمر البشير، وظل هؤلاء تحت رعاية زعيم طائفة الختمية السيد محمد عثمان الميرغني والشريف زين العابدين الهندي، خارج البلاد يعملون على إنهاء نظام الحكم الحالي في السودان.

أما الشريف زين العابدين فقد عاد للسودان في ١٩٩٧م مؤيدًا لحكومة الإنقاذ ومشاركًا في أجهزتها، إذ عين نائبًا لرئيس المؤتمر الوطني، أي نائبًا للفريق البشير الذي ترأس المؤتمر بدءًا من فبراير ١٩٩٨م[١].

---

(١) انظر: الموسوعة العربية العالمية.

الجبهة الإسلاميَّة القوميَّة

(المؤتمر الوطني/ المؤتمر الشعبي)

التعريف:

الجبهة الإسلامية القومية اسم أُطلق على الحركة الإسلامية الحديثة في السودان عقب انتفاضة الشعب السوداني على حكم الرئيس الأسبق جعفر نميري عام ١٩٨٥م. ثم تطور بعد ذلك إلى اسم المؤتمر الوطني، الذي انشق عنه بعد ذلك حزب المؤتمر الشعبي.

تاريخ الجبهة الإسلامية القومية

تُعد الجبهة الإسلامية القومية امتدادًا للحركة الإسلامية الحديثة في السودان التي بدأت في أواخر الخمسينيات تحت اسم الإخوان المسلمين، ثم جبهة الميثاق الإسلامي عقب ثورة أكتوبر ١٩٦٤م التي اشترك في إشعالها كافة قطاعات الشعب السوداني وأحزابه، وكان حسن الترابي من أبرز قادة هذه الثورة، وقد فاز في دوائر الخريجين في الانتخابات التي أعقبتها حيث نال أكثر الأصوات، وقد شغل منصب الأمين العام لجبهة الميثاق الإسلامي من عام ١٩٦٤ - ١٩٦٩م.

وتم تأسيس الجبهة الإسلامية القومية رسميًا عام ١٩٨٥م بعد مؤتمر جامع دعيت له كل الفعاليات الإسلامية والقومية، وتكون هيكل التنظيم المركزي للجبهة الإسلامية القومية من الأجهزة التالية:

المؤتمر العام، هيئة الشورى، القيادة التنفيذية، الأمين العام، الذي شغله حسن الترابي من عام ١٩٨٥- ١٩٨٩م.

وبرز الدور المتعاظم للجبهة الإسلامية القومية عقب الانتخابات التي أُجريت عام ١٩٨٦م، حيث فازت في ٥٤ دائرة انتخابية، وأصبحت بذلك الحزب الثالث من حيث القوة الانتخابية بعد أكبر حزبين في البلاد. وبرزت في تلك الانتخابات سيطرتها على دوائر المثقفين، ودوائر العاصمة السودانية.

واستطاعت نتيجة لهذه القوة الانتخابية الاشتراك في حكومة ائتلافية مع حزب الأمة والاتحادي الديمقراطي بعد أن فشل الائتلاف بينهما.

تميزت الجبهة الإسلامية القومية بالتركيز على أهدافها الاستراتيجية؛ ولذلك فهي حسب طرحها لا ترى غضاضة في الاشتراك في أي نظام سياسي يحقق أهدافها ويتيح فرصة التمكين للمشروع الإسلامي؛ ومن هذا المنطلق تصالحت مع نظام جعفر نميري ودخلت في ائتلاف مع الأحزاب إبَّان فترة الديمقراطية الثالثة، وتحالفت مع حكومة الإنقاذ بقيادة الفريق البشير الذي استولى على السلطة عام ١٩٨٩م لطرحه الإسلامي الذي يتوافق مع ما تدعو الجبهة له داخليًا وخارجيًا.

فنجد أنه رغم حل الجبهة رسميًا كبقية الأحزاب فإن معظم أعضائها، بمن فيهم مؤسسها حسن عبد الله الترابي، قد انخرطوا في المشاركة في نظام الفريق البشير بفعالية سواء من خلال إدارة الحكم، أو القيام بالمهام الطوعية والدعوية والجهادية.

وفي ١٩٨٩م تم حل الجبهة واتخذت اسمًا جديدًا هو المؤتمر الوطني، الذي تحول في ما بعد إلى حزب سياسي بموجب قانون التوالي السياسي، وشغل حسن الترابي منصب الأمين العام له عام ١٩٩٨م.

وفي أواخر عام ١٩٩٩م نشأ خلاف بين البشير والترابي، وعزل الرئيس البشير حسن الترابي من جميع مناصبه، فأدى إلى انشقاق المؤتمر الوطني.

وكون الترابي في عام ٢٠٠٠م حزبًا سياسيًّا جديدًا أطلق عليه اسم حزب المؤتمر الشعبي وجذب إليه بعض قادة حزب المؤتمر الوطني.

أهداف الجبهة الإسلامية القومية

طرحت الجبهة الإسلاميَّة القوميَّة عند تكوينها كثيرًا من الأهداف مثل:

الدعوة إلى سيادة الإسلام عقيدة وشريعة.

تأكيد قوامة المجتمع على نظام الاقتصاد توجيهًا ومراقبة.

بث روح الدين وشعائره وآدابه لتطهير أعراف التدين من البدع السيئة في أنماط السلوك والأوضاع الاجتماعية ولإزالة الدواعي النفسية والاجتماعية للشقاق والعصبية.

كما دعت الجبهة إلى رفع مكانة العلم وحملته في المجتمع وإلى نشر الثقافة وبسط العلم.

تقول أدبيات الجبهة: إنها تتوسل بولاية السلطة السياسية والاشتراك في مؤسسات الحكم المختلفة، وباتخاذ القوانين والسياسات وسائر تدابير الحكم لتنفيذ تلك الأهداف.

ولزعيمها حسن الترابي ومدرستِه الكثيرُ من الانحرافات الفكرية التي نبَّه عليه كثير من الدعاة وطلبة العلم.

الانتشار ومواقع النفوذ

للجبهة الإسلامية القومية وجود فعّال في الوسط الطلابي والشبابي، وكذلك في الوسط النسائي، والنقابي، والعمل الطوعي والإغاثي[١].

(١) انظر: الموسوعة العربية العالمية، نظرات شرعية في فكر الدكتور حسن الترابي، سليمان بن صالح الخراشي.

فهرس

القسم الأول: اليهود

القسم الثاني: النصارى

القسم الثالث: الملل

القسم الرابع: المذاهب الفكريَّة المعاصرة

القسم الخامس: الأحزاب والحركات المعاصرة





جمهورية مصر العربية - القاهرة
٥ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر
هاتف: ٠٠٢٠٢/٢٥٠٦١٩٠٣ تليفاكس: ٠٠٢٠٢/٢٥٠٦١٦٣٠
جوال: ٠٠٢٠١٠٢٧٦٧٣٩٨ - ٠٠٢٠١٠٣٣٥٠٦٨٧
E-mail:dar_ebnelgawzy@yahoo.com

